

المجلة المغربية لنشر الأبحاث العلمية

مجلة علمية محكمة

ISSN: 3085-4873



رقم الإيداع: 03 / 2024 ص

عدد يونيو - 2025

مدير النشر: د. سعيد أزركي

RMPRS.COM

المجلة المغربية لنشر الأبحاث العلمية

مجلة علمية محكمة

تصدر عن Leadership Academy

بالمملكة المغربية

معلومات الاتصال:

البريد الإلكتروني: contactRMPRS@gmail.com

الرقم الخاص بالمجلة: 0716288654

الموقع الإلكتروني: www.RMPRS.com

العدد السادس

تاريخ الإصدار: 24 يونيو 2025

مدير النشر: ذ. سعيد أزركي

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع: 2024/03 صحافة

ISSN: 3085-4873

تنويه: لا تعكس دراسات هذه السلسلة الدولية سوى آراء مؤلفيها، وهم المسؤولون بشكل كامل عن صحة البيانات وما يترتب عليها من مسائل تتعلق بالإخلال بقواعد الأخلاق العلمية والأمانة.

الهيئة العلمية والاستشارية

د. قلعي عبد الملك، المغرب	د. محمد حجولي، المغرب
د. داود الهكيوي، المغرب	د. خريصي عبد الحكيم، المغرب
د. بدر القاسمي، المغرب	د. أحمد مفهوم، المغرب
د. عبد المجيد باباابريك، المغرب	د. أشرف نزهي، المغرب
د. محمد فتحي، المغرب	د. نور الدين الخرازي، المغرب
د. بوشتي المشروح، المغرب	د. غني اولاكلي اولاجدي، نيجيريا
د. حسن قوبع، المغرب	د. عثمان تاموسيت، المغرب
د. ابراهيم الهيباوي، المغرب	د. سعيد الأشعري، المغرب
د. بوبكر اشو، المغرب	د. يوسف لشكر، المغرب
د. الهاني إلياس، المغرب	د. ميلود سوالمة، المغرب
د. يوسف اعسيلة، المغرب	د. عبد الله الحرشي، المغرب
د. رشيد زاح، المغرب	د. رضوان تاشفين، المغرب
د. اشرف ركراكي، المغرب	د. السعدية نوجدي، المغرب
د. طريق الخودي، المغرب	د. عبد العزيز الهلالي، المغرب
د. سعيد عبده مصلح المقص	د. محمد احديدو، المغرب
د. باعلي رشيد، المغرب	د. محمود الطيبي، المغرب
د. عبد الله المخلوق، المغرب	د. اضوالي صارة، المغرب
د. مونية عبد الوهاب، المغرب	د. عبد العزيز لعبيدي، المغرب

محتويات العدد

الصفحة	اسم الباحث	عنوان المقال
1	كريم شكري	أحكام الشهادة في الزواج في المذاهب الفقهية
12	د. محمد سالم أحمد	علم مبهمات القرآن الكريم الأصل والنشأة وأهم المصنفات
25	د. عيسى حامد الحمدي	المقاصد العامة والخاصة لنظام التعصيب في الإرث الإسلامي
37	د. ياسين أبوهمارية	القياس كآلية اجتهادية بين الأصوليين والنحاة
45	محمد شجال	التصوف الإسلامي بالمغرب: مقاربة تاريخية
58	د. محمد عبد الرحمن أحمدو ولد أُو	الحبس الاحتياطي في التشريع الموريتاني دراسة تحليلية مقارنة مع الوسائل البديلة
72	عبد القادر السحمودي	الحماية القضائية لبيع عقار القاصر
88	عبد القادر السحمودي	مفهوم مضار الجوار غير المؤلف
112	د. يونس باعدي	الحماية القانونية للصفقات العمومية جريمة الرشوة نموذجا
130	ادريس اليوسفي د. محمد بن مرزوك	خصوصيات المصالحة الجرمية
152	د. يوسف عابدات د. ياسين أبوهمارية ذ. محمد زين	تنمية الكفاية التواصلية لدى متعلمي اللغة العربية بالتعليم الابتدائي: مقاربة ديدكتيكية تداولية
163	د. منير حداد	دور الأسرة في تفشي ظاهرة العنف المدرسي: دراسة سوسيولوجية وتربوية
173	د. فريد العماري	توظيف العرف والذاكرة الجماعية في تعليم التاريخ وتعلمه: ضرورة تربوية وديداكتيكية
195	د. لبنى المجيدي	ديداكتيك اللغة العربية مهارة المحادثة نموذجا
207	د. طريق لمقدمي	إستراتيجية الحرب الناعمة خلال المرحلة الكولونيالية بالمغرب 1912-1956
215	د. إلياس الهاني	صدى معارك أنوال الخالدة في وعي المغاربة وآثارها الحضارية

محتويات العدد

225	حسناء أولكن	مركز المرأة المغربية سياسيا في المرجعيات الدستورية
245	عبد العلي الحاجز	الشعبوية في خطاب رئيس الحكومة السابق سعد الدين العثماني
252	د. عبد الحميد جمور د. مبارك أوراغ د. مصطفى المرتقي	الإنسان والمجال في فكر جون برونه بين النظرية والتطبيق: قراءة في كتاب الجغرافيا البشرية
267	يوسف بوهراوة منال اضليعة علاء الدين الصباغ	دور وسائل التواصل الاجتماعي في تعزيز مؤشرات التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين
294	غيثة الأزرق	قراءة في كتاب "تاريخ الزعيم مولاي أحمد الريسوني قائد ثورة القبائل الجبلية بشمال المغرب" لمؤلفه الطاهر بن عبد السلام بن عبد الوهاب الشريف الهويي الوهابي العلمي الإدريسي الحسني
301	د. لبنى المجيدي	الفضاء في النص المسرحي: ابن الرومي في مدن الصفح نموذجا
312	د. يوسف اعسيلة	تأريخ الأدب العربي في العصر الحديث: دراسة مقارنة بين مصطفى صادق الرافعي (1880-1937م) وحنا الفاخوري (1916-2011م)
323	د. حكيمة صمران	رمزية الحرف في الخطاب الشعري المغربي المعاصر رحلة دلالية من رؤيا التقديس إلى فعالية الغرابة
341	محمد مجد	المتخيل السياسي في رواية جارات أبي موسى
350	د. زهور العزوزي	رمزية المكان عند محمد أنفلوس رواية "سحابة وبحيرة" أنموذجا
356	وديع بويكروان	بنية وجمالية الأمثال و التعابير الشعبية المغربية نماذج من الأمثال و التعابير العامية السائرة بمنطقة ايت اعتاب
364	عبد العلي الحاجز	رمزية المكان في رواية "التحول" لمشيل بوتور مدخل إلى سيمياء المكان
369	د. لحسن الكيري	الأثر الأدبي الأندلسي: ترجمة وتعليق من الإسبانية إلى العربية للفصل الرابع من كتاب "الأدب الأندلسي" للمستعربة الإسبانية ماريا خسوس روبييرا ماطا
390	عبد المجيد المرزاوي	الشعر والذكاء الاصطناعي، مفارق الإبداع وآفاق التواصل
405	د. مريم الهادي	نظرية النظم وتطبيقاتها الحجاجية عند عبد القاهر الجرجاني

محتويات العدد

412	تقديم وترجمة: يونس لغويبي	ما هي السيميائيات المعرفية؟ إطار معرفي جديد لدراسة المعنى بير آج براندت
431	محمد نظاري	الاستعارة في السينما دراسة سيميائية نماذج
443	د. نوجدي السعدية	المتحف معبد للتراث أية أدوار للمتحف في حفظ التراث؟
470	يوسف الفضاضي	التعدد اللغوي في رواية «جارات أبي موسى» لأحمد التوفيق
483	Dr : Soumaya DADI	Les droits de l'homme au Maroc entre repère religieux et référentiel juridique international
513	ABDELOUAHED EL ABBASSI	L'influence de la culture et la civilisation arabo-musulmane sur la perception et le traitement de la folie au Maroc
533	Lahcen OUKHOUYA ALI	Le mot et le symbole dans l'expression sémiotique chez les Aït Atta du sud-est marocain
556	<i>Hanane TAIB Nadia CHAFAI</i>	<i>L'ironie dans l'œuvre de Lhbib Mazini: Entre critique sociale et esthétique romanesque dans Villa Australia et Le Complexe du hérisson</i>
564	kchikach Dounia	Le paratexte comme médiation entre l'auteur et le lecteur. Titres et préfaces à l'épreuve de la communication littéraire.
589	Dr : Soumaya DADI	Le schéma institutionnel au Maroc entre prérogatives royales et parlementarisme à l'européenne
620	ECHAOUI Abdessamad HARROUSSI Baha Eddine LAKRARSİ Abdelhalim	<i>L'impact des systèmes d'information sur l'expérience client dans le secteur bancaire: cas de la Bank of Africa</i>
660	Nhili Marwa	Les données personnelles à caractère privé et l'intelligence artificielle: Quels enjeux?
672	<i>Arsi Zakia Cherai Mohammed Mernissi Israe Cherai Ahmed</i>	<i>Investigation sur l'application des outils d'IA par les enseignants du primaire à la province de Taourirt (Maroc oriental)</i>

محتويات العدد

687	<i>Omar IDTNAINE</i>	De l'école au musée: l'Agadir Musée d'Art comme espace d'apprentissage
706	Meryem BABA Pr. Sanae GHOUATI	Promoting the Past in the Present: Social Media and Morocco's Intangible Cultural Legacy

أحكام الشهادة في الزواج في المذاهب الفقهية
د. كريم شكري

جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
فاس-سائيس
المملكة المغربية

الملخص:

لقد شملت الشريعة الإسلامية جميع ما ينظم حياة المسلمين، ومن الجوانب التي أحاطتها بال العناية والتثبيت: أحكام الزواج الذي يعتبر الوسيلة المشروعة لتكثير النسل والحفاظ على النوع البشري، وحتى تحصل الحكمة منه كان لابد من مراعاة عدة أمور في إنشاء هذا العقد الوثيق من ولي وشهود وصداد وكفاءة... وحتى لا يطول البحث فإنني سأقتصر على الشهادة وما يرتبط بها من أحكام، فالإشكال يتمثل في: ما هو رأي الفقهاء في اشتراط الشهادة لانعقاد عقد الزواج؟ وما هو وقتها؟ أما النتيجة فتتمثل في إبراز اختلاف الفقهاء الأجلاء في عد الشهادة من أركان الزواج، أم من شروطه؟ وسبب هذا الاختلاف أنه لم تأت آية ولا سنة هي ظاهرة في اشتراط الشهادة في الزواج، بل الآيات والسنن التي جرت العادة بالاحتجاج بها عند من يشترطها هي كلها محتملة، وكذلك الآيات والسنن التي يحتج بها من يشترط إسقاطها هي أيضا محتملة في ذلك، واختلافهم كذلك في تعريف كل من الركن والشرط.

الكلمات المفتاح: الزواج في الإسلام، الشهادة في الزواج، الفقه الإسلامي، شروط عقد الزواج، اختلاف الفقهاء.

المدخل

لقد شملت الشريعة الإسلامية جميع ما ينظم حياة المسلمين في جميع المجالات ويحدد علاقاتهم فيما بينهم وفيما بينهم وبين خالقهم، ومن الجوانب التي أحاطتها الشريعة الإسلامية الغراء بالعناية والتشبيث، أحكام الأسرة¹ عامة، وهي تلك الأحكام التي تتعلق بشخص الإنسان نفسه وبالعلاقة بأسرته، غير أنه ونظرا لكثرة هذه الأحكام وتشعبها فإنني سأقتصر على بعض أحكام الزواج والحكمة منها بالدراسة والتحليل حتى لا يطول المقام، وهكذا فمن الأحكام والتشريعات التي عنت بها الشريعة الغراء في مجال الأسرة، أحكام الزواج، فهو الوسيلة المشروعة لتكثير النسل والحفاظ على النوع البشري، وهو المؤطر للعلاقة الطاهرة التي تجمع بين الرجل والمرأة، وحتى تحصل الحكمة منه كان لابد من مراعاة عدة أمور في إنشاء هذا العقد الوثيق من ولي وشهود وصداد وكفاءة، إلى غير ذلك، وجعل الشارع الحكيم لهذه الأمور حكما وأغراضا حتى تتحقق الحكمة الأصلية من الزواج الشرعي بين الرجل والمرأة. وحتى لا يطول البحث فإنني سأفصل في نموذج واحد من متعلقات الزواج وهو الشهادة وما يرتبط بها من أحكام، وقبل ذلك سأعرج باختصار على مفهوم الزواج ومشروعيته وحكمته، فهذا على الإجمال أما التفصيل فهو على الشكل الآتي:

المبحث الأول: تعريف الزواج ومشروعيته وحكمه والحكمة منه

لقد وردت كلمة الزواج في القرآن الكريم، بمعنى القران، قال الله تعالى: "وإذا النفوس زوجت"²، أي قرنت، ثم شاع استعمال لفظ الزواج في افتتان الزوج بزوجه على سبيل الدوام والاستمرار اللهم إذا طرأ ما يجعل العشرة بينهما تستحيل فشرع الإسلام الطلاق والحكمة بالغة جعله أبغض الحلال. فتزوج من بني فلان، نكح فيهم، وتزواج القوم وازدوجوا أي تزوج بعضهم بعضا، وزوج الشيء بالشيء وزوجه إليه: قرنه³.

والزوج امرأة الرجل، وكذلك الزوجة، والرجل زوج أيضا، وزوجان من الحمام: أنثى وذكر، وزوج من النبات لون منه وضرب، ومنه قوله تعالى: "فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى"⁴، أي ضربوا، والتزويج بمعنى النكاح والنكح البضع⁵.

ونكح فلان امرأة ينكحها نكاحا إذا تزوجها ونكحها ينكحها باضعها أيضا، وأصل النكاح في العرب الوطء، وقيل للزوج نكاح لأنه سبب للوطء المباح، والنكح والنكح لغتان، وهي كلمة كانت العرب تتزوج بها، ونكحها الذي ينكحها، وهي نكحته⁶.

¹ - لفظ الأسرة لم يرد في القرآن الكريم ولم يستعمله الفقهاء عند حديثهم عن معنى الأسرة. / نظام الأسرة في الفقه الإسلامي لأحمد أفزاز، مجلة الميادين، العدد: 3، السنة 1988م، ص34.

² - سورة التكاوير، الآية 7.

³ - لسان العرب لابن منظور، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة 1419هـ/1999م مادة زوج، ج6، ص.ص. 108-109.

⁴ - سورة طه، من الآية 52.

⁵ - المحيط في اللغة لإسماعيل بن عباد، تحقيق أحمد محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1994م، ج7، ص.ص. 148.

⁶ - لسان العرب لابن منظور، ج14، ص.ص. 279.

أحكام الشهادة في الزواج في المذاهب الفقهية د. كريم شكري

والنكاح¹ أو الزواج في الاصطلاح الشرعي عرفه الحنفية بقولهم هو عقد تمليك يرد على تملك المتعة قصداً²، فاحترز بقولهم قصداً عن عقد تملك به المتعة ضمناً كالبيع والهبة ونحوهما، لأن المقصود فيه ملك الرقبة، ويدخل ملك المتعة فيه ضمناً إذا لم يوجد ما يمنعه، وعندهم لفظ النكاح هو الوطء حقيقة، ويطلق على العقد مجازاً، لأن العقد فيه ضم والنكاح هو الضم حقيقة³، وقد استدلوا بأنه حيث جاء في الكتاب أو السنة مجرداً عن القرائن، يراد به الوطء كما في نص الآية: "ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء"⁴، فتحرم مزنية الأب على الابن بخلاف "حتى تنكح زوجاً غيره"⁵. وعرف الشافعية النكاح بقولهم هو عقد يتضمن إباحة وطء بلفظ إنكاح أو تزويج أو ترجمة، وهو عندهم حقيقة في العقد مجازاً في الوطء، وفائدة الخلاف بينهم وبين الحنفية تظهر فيمن زنى بامرأة، فإنها تحرم على والده وولده عند الحنفية لا عند الشافعية⁶. أما عند الحنابلة فالنكاح هو عقد يعتبر فيه لفظ نكاح أو تزويج على منفعة الاستمتاع لا ملكها، أي ملك المنفعة، ولهذا يقع الاستمتاع من جهة الزوج بمعنى المؤنث، مع أنه لا ملك لها، وهو حقيقة في العقد مجاز في الوطء لأنه المشهور في القرآن والأخبار، وقد قيل ليس في الكتاب لفظ النكاح بمعنى الوطء إلا في قوله تعالى: "حتى تنكح زوجاً غيره"⁷، ولصحة نفيه عن الوطء، فيقال: هذا نكاح وليس بسفاح، وصحة النفي دليل المجاز، ولأنه ينصرف إليه عند الإطلاق ولا يتبادر الذهن إلا إليه⁸. أما المالكية فقد عرفوا النكاح بأنه عقد على مجرد متعة التلذذ بآدمية غير موجب قيمتها ببينة قبله غير عالم عاقده حرمتها، إن حرّمها الكتاب أو الإجماع، ولفظ النكاح عندهم حقيقة في العقد مجاز في الوطء عكس المعنى اللغوي، ويدل على ذلك كثرة ورود معنى العقد في الكتاب والسنة⁹. فتبين أن تعريفات الفقهاء للزواج روعيت فيها الحكمة منه.

والأصل في مشروعية الزواج الكتاب والسنة والإجماع¹⁰، ومن خلال هذه الأدلة تبرز الحكمة من الزواج في التشريع الإسلامي:

- أما الكتاب فقولته تعالى: "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع"¹¹، وقوله عز وجل: "وانكحوا الأيامى¹² منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله"¹³، فقد اشتملت الآيتان على الأمر بالنكاح،

¹ - لقد عرف الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى الزواج بقوله: "والقول الشافي فيه أن النكاح نوع رق فهي مرقوقة له" - إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد الغزالي، دار الفكر، الطبعة الأولى 1986م، ج2، ص.64. هذا وإن كنا لا نصل ولن نصل إلى مستوى علمائنا الأفاضل، لأننا دائماً في مقام التعلم من كنوزهم، غير أنه كل عالم يؤخذ من كلامه ويرد بحسب موافقته للسنّة وللكتابات الشرعية، كما علمنا فقهاءنا وإئمتنا، وكلام الإمام الغزالي هنا يجانب الصواب والله أعلم، لأنه يجانب جوهر نصوص الشرع ومقاصده وكتابه، وهنا نستشهد بقوله تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" - سورة الروم، الآية 21، وهنا قد تساءلت الطالبة الباحثة وفاء توفيق في أطروحتها "التعليل المقاصدي لأحكام الأسرة عند مفسري الغرب الإسلامي نماذج وقضايا"، تحت إشراف الدكتور عبد العالي المسلول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس، السنة الجامعية 2013/2014، ج2، ص.407، هل يرضى الإنسان الأسر لجزء من نفسه؟ فقد أثار الله تعالى انتباهنا إلى آية خلق الزوجة من نفس زوجها لتفكر وتذكر وتشكر وتطيع، فتتولد المودة والرحمة بينهما، لا أن يعتبر أحدهما الآخر أسيراً عنده؟

² - تبين الحقائق شرح كنز الدقائق لفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية 1313هـ، ج2، ص.94.

³ - المصدر السابق، ج2، ص.95.

⁴ - سورة النساء، من الآية 22.

⁵ - رد المختار على الدر المختار وشرح تنوير الأبصار لخاتمة المحققين محمد أمين الشهير بابن عابدين، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1994م، ج4، ص.62.

⁶ - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج لشمس الدين محمد بن محمد الخطيب الشربيني، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، طبعة 1421هـ/2000م، ج4، ص.200-201.

⁷ - سورة البقرة، من الآية 228.

⁸ - كشف القناع عن متن الإقناع لمنصور بن يونس بن ادريس البهوتي، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار عالم الكتب بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1417هـ/1997م، ج4، ص.5.

⁹ - الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1424هـ/2003م، ج4، ص.7-8.

¹⁰ - المغني لابن قدامة، تحقيق الدكتور عبد الله التركي والدكتور عبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة 1417هـ/1997م، ج9، ص.340.

¹¹ - سورة النساء، من الآية 3.

¹² - الأيامى جمع أيم وهي من لا زوج لها رجلاً كان أو امرأة بكرًا كانت أو ثيباً.

¹³ - سورة النور، من الآية 32.

أحكام الشهادة في الزواج في المذاهب الفقهية د. كريم شكري

والأمر وإن كان في أصله للوجوب إلا أنه مصروف في الآيتين للإباحة بدليل أنه سبحانه وتعالى علقه على الاستطابة في الآية الأولى والواجب لا يعلق عليها.

- أما السنة النبوية فقولته عليه الصلاة والسلام: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"¹.
- أما الإجماع فقد أجمع المسلمون على أن النكاح مشروع لما فيه من فوائد، ولما يدفعه من مفسدات عن المتزوج.

أما بخصوص حكم الزواج فعند المالكية لا يحل استباحة فرج إلا بنكاح أو ملك يمين، والنكاح على الجملة مندوب، وعلى التفصيل ينقسم إلى خمسة أقسام: واجب وهو لمن قدر عليه بالمال وخاف على نفسه الزنا، ومستحب وهو لمن قدر عليه ولم يخف علة نفسه الزنا، وحرام وهو لمن لم يقدر ولم يخف، ومكروه وهو لمن لم يخف الزنا وخاف أن لا يقوم بحقوقه، ومباح وهو ما عدا ذلك، وأما ملك اليمين فمباح².

أما عند الحنفية فيكون واجبا عند التوقان وشدة الاشتياق، أي بحيث يخاف الوقوع في الزنا لو لم يتزوج، لأن ترك الزنا واجب وما لم يتوصل إلى الواجب إلا به يكون واجبا كوجوبه، فإن كان لا يمكنه الاحتراز عن الزنا إلا به أصبح فرضا، لأن ما لا يتوصل إلى ترك الحرام إلا به يكون فرضا. ويكون الزواج فرضا أو واجبا إن ملك المهر والنفقة ولم يخف الجور، وهكذا يكون الزواج مكروها عند عدم ملك المهر والنفقة لأفهما حق ولخوف الجور، ويكون سنة مؤكدة فيأثم بتركه، ويثاب إن نوى تحصينا وولدا حال الاعتدال أي القدرة على وطء ومهر ونفقة، ويكون حراما إذا تيقن أنه يترتب عليه الكسب الحرام بجور الناس وظلمهم، لأن النكاح إنما شرع لمصلحة تحصين النفس وتحصيل الثواب، فإذا ترتب عليه جور يأثم بارتكاب المحرم، ويكون مباحا في ما عدا الحالات السابقة³.

وعند الشافعية، فالنكاح مستحب محتاج إليه، بأن تتوق نفسه إلى الوطء ولو كان خصيا، ولمن يجد أهبته وهي مؤنته، من مهر وكسوة ونفقة يومه، وإن كان متعبدا تحصينا لدينه، ولما فيه من بقاء النسل وحفظ النسب والاستعانة على المصالح لخير الصحيحين: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج"⁴، وإنما لم يجب لقوله تعالى: "فانكحوا ما طاب لكم من النساء"⁵، إذ الواجب لا يتعلق بالاستطابة، فإن فقد الأهبة استحب له ترك النكاح لقوله تعالى: "وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله"⁶، فإن لم تثق نفسه له من أصل الخلقة أو لعارض كمرض أو عجز كره له إن فقد الأهبة لما فيه من التزام ما لا يقدر على القيام به من غير حاجة، لكن التخلي للعبادة في هذه الحالة أفضل له من النكاح إذا كان يقطعه عنها اهتماما بها، فإن وجد الأهبة ولكن به علة كهزم أو مرض دائم أو تعنين أي كان ممسوحا، كره له لعدم الحاجة إليه⁷. أما عند الحنابلة فالمشهور عندهم أنه ليس بواجب إلا أن يخاف أحد على نفسه الوقوع في محذور بتركه، فيلزمه إعفاف نفسه، وبالجملة فالناس في النكاح على ثلاثة أضرب: منهم من يخاف على نفسه الوقوع في المحذور إن ترك النكاح، فهذا يجب عليه النكاح لأنه يلزمه إعفاف نفسه وصونها عن الحرام وطريقه النكاح، والثاني من يستحب له وهو من له شهوة يأمن معها الوقوع في المحذور، فهذا الاشتغال به أولى من التخلي لنوافل العبادة بخلاف الشافعي الذي قال: إن التخلي للعبادة أفضل، وحجته في ذلك أن الله تعالى مدح يحيى عليه السلام بقوله: "وسيدا

¹ - رواه البخاري في صحيحه، دار صادر بيروت لبنان، كتاب النكاح باب من لم يستطع فليصم، ر. ح 5066، ج 3، ص 932-933.

² - القوانين الفقهية لابن جزي، دار الفكر بيروت، طبعة 1429هـ/2009م، ص 168.

³ - تبين الحقائق شرح كنز الدقائق للزيلعي، ج 2، ص 95.

⁴ - سبق تحريجه.

⁵ - سورة النساء، من الآية 3.

⁶ - سورة النور، من الآية 33.

⁷ - مغني المحتاج للشربيني، ج 4، ص 204-205.

أحكام الشهادة في الزواج في المذاهب الفقهية د. كريم شكري

وحصوراً¹، والحضور الذي لا يأتي النساء، فلو كان النكاح أفضل لما مدح الله تعالى يحيى بتركه له، وحجة الحنابلة في كون النكاح مستحب في هذه الحالة، أمر الله تعالى به ورسوله وحثهما عليه، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"²، والثالث من لا شهوة له، إما لأنه لم يخلق له شهوة كالعينين أو كانت له شهوة فذهبت بكبر أو مرض ونحوهما، ففيه وجهان: أحدهما أنه يستحب له النكاح لعموم الآيات والأحاديث، وثانيهما التخلي له أفضل لأنه لا يحصل مصالح النكاح ويمنع زوجته من التحصين بغيره ويضرها بحبسها على نفسه ويعرض نفسه لواجبات وحقوق لعله لا يتمكن من القيام بها ويشغل عن العلم والعبادة بما لا فائدة فيه.³ أما عند الظاهرية⁴، فالنكاح فرض على كل قادر على الوطء إن وجد من أين يتزوج أو يتسرى أن يفعل أحدهما ولا بد، فإن عجز عن ذلك فليكثر من الصوم، وبرهان ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"⁵، وقد نقض رأي الظاهرية في كون النكاح واجب في مدونة الإمام مالك، وجاء أن الدليل على أن النكاح ليس بواجب ما جاء في كتاب الله عز وجل أنه خير فيه بين النكاح وملك اليمين، فقال عز وجل: "فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم"⁶، وملك اليمين ليس بواجب بإجماع ولا يصح التخيير بين واجب وما ليس بواجب، لأن ذلك مخرج للواجب عن الوجوب⁷. وهكذا قد تبين أن حكم النكاح مرتبط بالحكمة المرجوة منه، ولتفصيل الأمر في حكمة الزواج نعقد الفرع الموالي:

هذا ولقد خلق الله الإنسان في هذه الحياة لعمارة الكون، وسخر له ما في الأرض جميعاً والشمس والقمر والنجوم والدواب ليبقى النوع الإنساني إلى المدة التي قدرها سبحانه وتعالى لبقائه، ولما كانت عمارة الكون متوقفة على وجود الزواج لكونه طريقاً للتوالد والتناسل، شرع الله تعالى الزواج لتنظيم المعاش وترتيب الأسر برباط وثيق قائم على المودة والرحمة، وكذلك فالزواج يحفظ الأسر من المضار، ويحميها من أن يدب فيها ديب الانحلال، فهو يحمي الأنساب من الضياع ويحفظ النسل والذرية من الهلاك والإهمال، قال الإمام الشاطبي: "والنكاح لا يخفى ما فيه مما هو مقصود للشارع، ومن تكثير النسل، وإبقاء النوع الإنساني"⁸، كم يحفظ الأسر من المضار والمفاسد الاجتماعية ويحميها، ويرسي قواعد القرابة والموارث على الأسس السليمة، ويقضي على التشرد الاجتماعي الذي عانت منه الإنسانية ولا تزال تعاني الشيء الكثير، والزواج يغرس في الإنسان كثيراً من الصفات النبيلة والأخلاق الحميدة منها: حب الغير والإيثار على النفس والشعور بالمسؤولية، فإن كلا من الزوجين يحرص على راحة وزوجه.

ولم تقتصر حكم الزواج على الحياة الدنيوية، إنما تعددت إلى ما بعد الموت، فإن الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له، ولا يكون الولد إلا بالزواج لأن دعاء الولد من أسباب الرحمة والثواب في الآخرة.

¹ - سورة آل عمران، من الآية 39.

² - رواه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح، ر. ح. 5063، ج 3، ص. 932.

³ - المغني لابن قدامة، ج 9، ص. 343-344/كشف القناع للبهوتي، ج 4، ص. 6.

⁴ - المحلى لابن حزم الظاهري، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة بيروت، ج 9، ص. 440.

⁵ - سبق ترجمته.

⁶ - سورة النساء، من الآية 3.

⁷ - المدونة الكبرى للإمام مالك برواية سحنون بن سعد، الطبعة الأولى 1324هـ، ج 2، ص. 21 وما بعدها.

⁸ - الموافقات للشاطبي، شرحه وخرج أحاديثه الشيخ عبد الله دراز ووضع تراجمه محمد عبد الله دراز وخرج آياته وفهرس موضوعاته عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، د. ط. د. ت. ج 1، ص. 94.

أحكام الشهادة في الزواج في المذاهب الفقهية د. كريم شكري

والزواج سنة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: "ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية"¹، شرعه الله لعباده وتعبدهم به من عهد آدم عليه السلام إلى الآن، وحتى يوم القيامة، وسلكه في عداد آياته الكبرى مع خلق البشر من تراب وخلق السماوات والأرض، وأسسه على أقوى المبادئ وثاما وانفصاما، وحفه بحالة من النور الإلهي والتوجيه الكريم، وذلك لما له من الآثار الخطيرة والفوائد الجليلة على كل من الرجل والمرأة والأولاد والنوع الإنساني بأسره،² فقال الإطباء أن مقاصد النكاح ثلاثة: حفظ النسل وإخراج الماء الذي يضر احتباسه ونيل اللذة، وهذه الثلاثة هي التي في الجنة إذ لا تناسل هناك ولا احتباس³، وعند الحنفية والحنابلة وغيرهم الاشتغال بالزواج أفضل من التخلي لنوافل العبادات أي الاشتغال به وما يشتمل عليه من القيام بمصالحه وإعفاف النفس عن الحرام وتربية الولد ونحو ذلك⁴.

وأختم هذا المبحث بكلام رائع للإمام الشاطبي رحمه الله في الحكمة من النكاح، فهو يقول: "فإنه مشروع للتناسل...وبليه طلب السكن، والازدواج، والتعاون على المصالح الدنيوية والأخروية، من الاستمتاع بالحلال، والنظر إلى ما خلق الله من المحاسن في النساء، والتجمل بمال المرأة...والتحفظ من الوقوع في المحذور من شهوة الفرج ونظر العين، والازدياد من الشكر بمزيد النعم من الله على العبد...فجميع هذا مقصود للشارع من شرع النكاح"⁵.

المبحث الثاني: أحكام الشهادة في الزواج

اختص عقد الزواج بشرطية الشهادة لحكمة بالغة، وذلك لما اشتمل عليه من مزايا ذات شأن عظيم، وما تميز به من صفات وآثار ذات خطر كبير، كيف وقد ترتب على شرعيته تكوين الأسر وتوثيق الصلات، كما ارتبط به صلاح المجتمع وتحقيق صلة المصاهرة التي هي لحة كلحمة النسب، فعقد هذا شأنه وهذا أثره حري بكل تكريم، جدير بكل تقدير، فقد طلب الشارع إعلان الزواج إظهارا لقدره وطلب إشهاره بين الناس، ليتضح الفرق بين الحلال والحرام، وتنقطع ألسنة السوء، وليوصد باب كل من يحاول جحود الزوجية وإنكار العقد، فبالإشهاد يتمكن الشهود من أداء الشهادة على وجهها متى طلبت منهم، وقد وردت الآثار الشرعية بإعلان الزواج كما ستأتي في موضعها. وفي حكمة الشهود في الزواج يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "المقصود من حضور الشهود، تمييز النكاح بالإعلان والإظهار عن السفاح"⁶.

✓ آراء الفقهاء في شرطية الشهادة في الزواج

إن المتتبع لكتب الفقه في المذاهب الفقهية يستنتج أن الفقهاء الأجلاء يختلفون في شرطية الشهادة في الزواج على رأيين:

1. الرأي الأول: أن الشهادة لا تشتط في عقد الزواج ولا تلزم عند إنشائه، فالزواج يكون صحيحا ولو لم يحضره أحد سوى الزوجين، فهي شرط كمال في العقد فقط، وهذا رأي المذهب المالكي الذي قال بوجوبها في الدخول، وحجة هذا الفريق، قوله تعالى: "فانكحوا ما طاب لكم من النساء"⁷، وقوله تعالى: "وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم"⁸، قالوا ورد النكاح في

¹ - سورة الرعد، من الآية 39.

² - أحكام الزواج في الشريعة الإسلامية لأحمد فراح حسين، الدار الجامعية، طبعة 1986م، ص.16.

³ - مغني المحتاج للشربيني، ج، ص.201.

⁴ - رد المختار على الدر المختار لابن عابدين، ج4، ص.57/ كشف القناع للبهوتي، ج4، ص.6.

⁵ - الموافقات للشاطبي، ج2، ص.301.

⁶ - شفاء الغليل، للإمام الغزالي، ص.84.

⁷ - سورة النساء، من الآية 3.

⁸ - سورة النور، من الآية 32.

أحكام الشهادة في الزواج في المذاهب الفقهية د. كريم شكري

الآيتين مطلقاً فيعمل بها كذلك بلا تقييد بشهادة أو غيرها، كما قالوا أن الأحاديث الواردة تدل على شرطية الشهادة سواء عند العقد أو عند الدخول.

2. الرأي الثاني: أن الشهادة شرط في الزواج فلا يصح بدونها، وهذا رأي جمهور الفقهاء وأكثر الأئمة، وحجة هذا الرأي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل"¹، وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا بد في النكاح من أربعة: الولي والزوج والشاهدان"²، ولأنه يتعلق به حق غير المتعاقدين وهو الولد فاشتترطت الشهادة فيه لئلا يحدده أبوه، فيضيع نسبه، وأما نكاح النبي صلى الله عليه وسلم بغير شهود وبغير ولي فمن خصائصه في النكاح فلا يلحق به غيره.

وتجدر الإشارة إلى أن في المذهب الظاهري، يتم النكاح بإشهاد عدلين أو بإعلان عام، وحجتهم في إجازة النكاح بالإعلان الفاشي أن كل من صدق في خبر، فهو في ذلك الخبر عدل صادق بلا شك، فإذا أعلن النكاح للمعلنان له به بلا شك صادقان عدلان فيه³.

✓ وقت الشهادة

اختلف الفقهاء رحمهم الله تعالى⁴ في الوقت الذي تلزم فيه ليكون الزواج صحيحاً، فقال جمهور العلماء إن الشهادة تلزم حين إجراء العقد وتصح على العقد ويثبت بها عند الحاكم، وأن العاقدین يمكنهما تفسير مرادهما ويُشهدان الشهود على ما فسروه لما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا بد في النكاح من أربعة: الولي والزوج والشاهدان"⁵. وعند الشافعية ليس من شرط الشهادة إحضار الشاهدين، بل لو حضر الشاهدان لأنفسهما وسمعا الإيجاب والقبول صح ذلك⁶. واحتج أصحاب هذا الرأي بقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل"⁷. ويرى جمهور المالكية أن الشهادة شرط لصحة الزواج، سواء كانت عند إبرام العقد أم بعد العقد وقبل الدخول، وفي هذا المقام قال الشيخ عبد الباقي الزرقاني كلاماً رفيعاً فقال رحمه الله تعالى: "فإن لم يُشهدا أحدا عند العقد ولقيا معاً، قبل البناء رجلين وأشهداهما على وقوع العقد بينهما فات النذب وكفى في الواجب لأن قولهما معاً للشاهدين أشهدا بوقوع العقد بمنزلة وقوعه بحضورهما"، وإن لقي كل واحد بانفراده شاهدين وأشهداهما كفى أيضاً ولا يكفي أن يشهد أحدهما الشاهدين اللذين أشهداهما صاحبه بغيبة الآخر، ولا حد عليهما بثبوت الوطء بإقرار أو بينة إن فشا الدخول بوليمة وضرب دف ودخان أو كان على العقد أو على ابتنائهما باسم النكاح شاهد واحد وهو بمنزلة الفشو. ولا يدرأ الحد بشهادة الولي ولو تولى العقد غيره⁸. وهكذا إذا دخل الزوجان من غير إشهاد يفسخ العقد بطلقة بائنة لأنه

¹ - رواه الدارقطني في سننه، كتاب النكاح، تحقيق عبد الله هاشم، المدينة المنورة، طبعة 1966، ج3، ص225.

² - رواه الدارقطني في سننه، كتاب النكاح، ج3، ص255.

³ - القوانين الفقهية لابن جزي، دار الفكر بيروت، طبعة 1429هـ/2009م، ص169/كشاف القناع للبهوتي، ج4، ص60-61/المغني لابن قدامة، ج9، ص349/مغني المحتاج للشربيني، ج4، ص234/تبين الحقائق للزيلعي، ج2، ص98/المحلى لابن حزم، ج9، ص465/شرح الزرقاني، ج3، ص163-164.

⁴ - القوانين الفقهية لابن جزي، ص169/كشاف القناع للبهوتي، ج4، ص60-61/المغني لابن قدامة، ج9، ص349/مغني المحتاج للشربيني، ج4، ص234/تبين الحقائق للزيلعي، ج2، ص98/المحلى لابن حزم، ج9، ص465/شرح الزرقاني، ج3، ص163-164.

⁵ - سبق تخريجه.

⁶ - المجموع للإمام أبي زكرياء محيي الدين بن شرف النووي، تحقيق وتكملة محمد نجيب المطيعي، طبعة مكتبة الإرشاد، جدة المملكة العربية السعودية، د.ط، د.ت، ج17، ص300.

⁷ - سبق تخريجه.

⁸ - شرح الزرقاني على مختصر الشيخ خليل لعبد الباقي الزرقاني، دار الفكر بيروت لبنان، د.ط، د.ت، ج3، ص164.

أحكام الشهادة في الزواج في المذاهب الفقهية د. كريم شكري

عقد صحيح، ولأن الفسخ جبري من الحاكم سدا لذريعة الفساد إذ لا يشاء اثنان يجتمعان على فساد في خلوة إلا فعلا مثل ذلك وادعيا سبق عقد بغير إشهاد فيؤدي إلى ارتفاع حد الزنا والتعزير فلا بد له من عقد جديد شرعي إذا أراد تزوجها¹.

✓ شروط الشهود

ينبغي توافر صفات معينة في الشهود، وهي:

أولا : أن يكونوا أهلا لتحمل الشهادة،

ثانيا: أن يتحقق بحضورهم معنى الإعلان،

ثالثا: أن يكونوا أهلا لتكريم الزواج، وبطبيعة الحال لا يمكن لهذه الصفات أن توجد إلا بتوافر شروط معينة في الشاهدين، وهي كالآتي حسب المذاهب وحسب الحكمة المرجوة من الشهادة:

فقد اتفق الفقهاء الأجلاء على ضرورة توافر العقل والبلوغ والتعدد والإسلام في الشاهدين، أما شرط الذكورة فهو عند الجمهور غير الحنفية، فيجوز عندهم انعقاد الزواج بحضور رجلين حرين أو رجل وامرأتين²، وأما شرط الحرية فهي عند الجمهور غير الحنابلة، فينعقد الزواج عندهم بشهادة عبدین، ومبنى الخلاف بينهم وبين الجمهور هو قبول شهادتهما في سائر الحقوق³، أما شرط العدالة فهو عند الجمهور غير الحنفية، لأن الفاسق عندهم من أهل الولاية، فيكون من أهل الشهادة، وهذا لأنه لما لم تحرم الولاية على نفسه لا تحرم على غيره لأنه من جنسه، ولأنه من أهل الإمامة الكبرى ومن ضرورة كونه أهلا لها أن يكون أهلا للقضاء، ويلزم منه أن يكون أهلا للشهادة، وقيل هذه المسألة مبنية على أن الفسق لا ينقص من إيمانه شيئا، وعلى أن العمل من شرائع الإيمان لا من نفسه⁴، وقد اشترط الشافعية في الشهود البصر، فلا تقبل شهادة الأعمى، لأن الأقوال لا تثبت بالمعاينة والسماع، وليس البصر بشرط عند الجمهور لأنه أهل للشهادة⁵.

✓ نكاح السر

إن نكاح السر هو ما أوصى زوج وحده أو مع زوجه جديدة حال العقد عليها أو قبله، الشهود بكتمه، وإن من امرأة للزوج ولو مع إشهاره لامرأة أخرى أو امرأتين له أو عن منزل أو أيام، فلو استكتم الولي والزوجة الشهود دون الزوج أو اتفق الزوجان والولي على كتمه دون إيضاء الشهود لم يكن نكاح السر⁶، وهو غير جائز وإن وقع فسخ⁷، أما الحنفية والشافعية فقالوا: إذا تزوج المرء بشاهدين وقال لهما: اكنما ذلك جاز النكاح⁸، وعند الظاهرية أيضا يجوز نكاح السر وهو ما استكتم فيه الشاهدان، لأنه لم يصح قط نهي عن نكاح السر إذا شهد عليه عدلان، ولأنه ليس سرا ما علمه خمسة الناكح والمنكح والمنكحة والشاهدان⁹.

¹ - المصدر نفسه، ج3، ص.164.

² - تبين الحقائق للزيلعي، ج2، ص.98.

³ - كشف القناع للبهوتي، ج4، ص.61.

⁴ - تبين الحقائق للزيلعي، ج2، ص.98.

⁵ - مغني المحتاج للشرييني، ج4، ص.235.

⁶ - شرح الزرقاني، ج3، ص.188.

⁷ - القوانين الفقهية لابن جزي، ص.169.

⁸ - مختصر اختلاف العلماء لأبي جعفر الطحاوي، اختصار أبي بكر الرازي، تحقيق عبد الله نذير، دار البشائر الإسلامية بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1996م، ج2، ص.251.

⁹ - المحلى لابن حزم، ج9، ص.465-466.

الخلاصة

وختاماً فقد تبين من التفصيل السابق أن الفقهاء الأجلاء اختلفوا في شرطية الشهادة في الزواج حسب نظرة كل فريق منهم إلى مركزيتها في إنشاء عقد النكاح، وعلى العموم نقول: لقد شرعت الشهادة في الزواج لأنها تضمن صحة العقد وتساهم في الحفاظ على الأعراض، كما يوثق الإشهاد عقد الزواج ويحميه من النزاعات والطعن، ويسهم في ضمان الحقوق والواجبات المترتبة على العقد، وتحمي الشهادة الزوجين من أي طعن في صحة الزواج أو عدم إثباته، وتساعد في حل المشاكل المتعلقة بالزواج، وغير ذلك.... ولعل ذلك هي الحكمة من إقرار الشهادة كشرط لصحة الزواج عند جمهور العلماء، ولذلك ارتأيت أن أختتم هذا البحث بقول ابن القيم رحمه الله تعالى¹: إنه قد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا، وهذا في مواضع لا تكاد تحصى ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها، فقال الله تعالى: "وأُنزل الله عليك الكتاب والحكمة"²، وقال الله تعالى أيضاً: "ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً"³.

¹ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل للإمام ابن القيم الجوزية، دار ابن حزم بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1724هـ/2006م، ص.586.

² - سورة النساء، منذ الآية 112.

³ - سورة البقرة، من الآية 268.

لائحة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم برواية ورش

2. كتب الحديث وعلومه:

- صحيح البخاري، دار صادر بيروت لبنان.
- صحيح مسلم، تحقيق أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة الرياض، الطبعة الأولى 1427هـ/2006م.
- موطأ الإمام مالك، ضبط محمد صدقي العطار، دار الفكر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1429هـ/2009م.
- سنن الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليها العلامة محمد ناصر الدين الألباني واعتنى به أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، مكتبة المعارف الرياض، الطبعة الأولى د.ت.

3. كتب اللغة :

- لسان العرب لابن منظور، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة 1419هـ/1999م.
- المحيط في اللغة لإسماعيل بن عباد، تحقيق أحمد محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1994.

4. مصادر أصول الفقه :

- الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي، شرحه وخرج أحاديثه الشيخ عبد الله دراز ووضع تراجمه محمد عبد الله دراز وخرج آياته وفهرس موضوعاته عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، د.ط، د.ت.

5. مصادر ومراجع الفقه:

- المدونة الكبرى للإمام مالك برواية سحنون بن سعد، الطبعة الأولى 1324هـ.
- تبين الحقائق شرح كنز الدقائق لفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية 1313هـ.
- رد المحتار على الدر المختار وشرح تنوير الأبصار لخاتمة المحققين محمد أمين الشهير بابن عابدين، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1994م.
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج لشمس الدين محمد بن محمد الخطيب الشربيني، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، طبعة 1421هـ/2000م.

أحكام الشهادة في الزواج في المذاهب الفقهية د. كريم شكري

- كشف القناع عن متن الإقناع لمنصور بن يونس بن ادريس البهوتي ، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار عالم الكتب بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1417هـ/1997م.
- المغني لابن قدامة، تحقيق الدكتور عبد الله التركي والدكتور عبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة 1417هـ/1997م.
- القوانين الفقهية لابن جزي، دار الفكر بيروت، طبعة 1429هـ/2009م.
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد القرطبي، دار ابن الجوزي القاهرة مصر، الطبعة الأولى 2014م.
- المجموع للإمام أبي زكرياء محيي الدين بن شرف النووي، تحقيق وتكملة محمد نجيب المطيعي، طبعة مكتبة الإرشاد، جدة المملكة العربية السعودية، د.ط، د.ت.
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج لشمس الدين محمد بن محمد الخطيب الشربيني، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، طبعة 1421هـ/2000م.
- مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه محمد، طبع بأمر خادم الحرمين الشريفين وعلى نفقته الخاصة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425هـ/2004م، المدينة المنورة المملكة العربية السعودية.
- المحلى لابن حزم الظاهري، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة بيروت، د.ط، د.ت.
- شرح الزرقاني على مختصر الشيخ خليل لعبد الباقي الزرقاني، دار الفكر بيروت لبنان، د.ط، د.ت.
- الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1424هـ/2003م.

6. كتب مختلفة :

- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل للإمام ابن القيم الجوزية، دار ابن حزم بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1724هـ/2006م.
- إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد الغزالي، دار الفكر، الطبعة الأولى 1986م.
- المجالات:
- نظام الأسرة في الفقه الإسلامي لأحمد أفزاز، مجلة الميادين، العدد: 3، السنة 1988م.

علم مبهمات القرآن الكريم الأصل والنشأة وأهم المصنفات
د. محمد سالم أحمد

أستاذ بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية

نواكشوط - موريتانيا

حاصل على دكتوراه من جامعة سيد محمد بن عبد الله كلية الآداب سايس - فاس

المملكة المغربية

ملخص البحث:

يتطرق هذا البحث للحديث عن مبحث هام من مباحث علوم القرآن، يبحث فيه عما أجهم وخفي في كتاب الله تعالى مما لم يصرح به من الأعلام، والأزمنة، والأمكنة، والأعداد. من خلال ما ورد في المأثور في ذلك عن الصحابة، والتابعين. ألا وهو علم مبهمات القرآن الكريم، وهو علم شريف اعتنى به علماء الأمة منذ بزوغ فجر الإسلام، إلى يومنا هذا، إذ بمعرفته يُكشف الإبهام، ويحول الغموض، وذلك ما سنتناوله في هذا العمل المقسم إلى مبحثين، بعد المقدمة، نتناول في المبحث الأول منها قراءة في مصطلح الإبهام مع بيان النشأة، وأهم المصنفات، فيما نخصص الثاني: لأسباب الإبهام، وأنواع المبهمات. كما جاء مشفوعا بخاتمة تلخص أهم النقاط التي تم تناولها في هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: علم ، مبهمات ، القرآن الكريم.

الحمد لله وصلاة السلام على رسول الله وبعد:

فإن من أهم وأفضل القربات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، الاشتغال بكتابه حفظاً للآيات، وفهما للمعاني وتطبيقاً للأحكام، وإعمالاً للفكر، وإظهاراً للأساليب والإعجاز، لذلك بادر سلف هذه الأمة بالتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، بخدمة هذا الكتاب حفظاً وفهماً، وتعلماً وتعليماً واشتغالا به آناء الليل وأطراف النهار، فهو منشأ المعرفة ومنبعها، لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي بركاته، قال تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ¹ فاق جماله كل الجمال وبذ وصفه كل مقال، الكتاب الذي أنزل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

جاء ليتدبر ويعمل به، كما قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} ².

من هذا المنطلق اجتهد العلماء في تدبر ومعرفة هذا الكتاب وما كان متصلاً به من تفسير وعلوم مرتبطة بذلك التفسير، سيما بالطريقة التي درجوا عليها ببيانها وتدبره، وتتبع معانيه واستنباط أحكامه، وسير أغوار علومه بشتى أنواعها، حتى يسهل على المتدبر العمل به والانقياد لأوامره ونواهيه.

ومن هذه العلوم علم شريف اعتنى به العلماء منذ بزوغ فجر الإسلام، إذ بمعرفته يُكشف الإبهام، ويوزل الغموض، ألا وهو علم معرفة ما جاء مبهماً في كتاب الله تعالى، مما لم يسمه الله باسمه، أو لم يحدده بعدده أو زمانه أو مكانه، وذلك ما سنتناوله في هذا البحث (علم مبهمات القرآن الكريم الأصل والنشأة وأهم المصنفات) المقسم إلى مبحثين، بعد المقدمة، نتناول في المبحث الأول منها تحديد مصطلح الإبهام مع بيان النشأة وأهم المصنفات، فيما نخصص الثاني: لأسباب الإبهام، وأنواع المبهمات. كما جاء مشفوعاً بخاتمة تلخص أهم النقاط التي تم تناولها في هذا البحث.

المبحث الأول: الإبهام في اللغة والاصطلاح مع بيان الأصل والنشأة، وأهم المصنفات.

المطلب الأول: الإبهام في اللغة والاصطلاح

أولاً: الإبهام في اللغة

قال ابن فارس الباء والهاء والميم، (بهم) وهو أن يبقى الشيء لا يعرف المأثى إليه، يقال هذا أمر مبهم أي لا يعرف من أين يأتي، ومنه البهمة وهي الصخرة التي لا خرق فيها، البهمة جماعة الفرسان، ومنه البهيم، وهو اللون الذي لا يخالطه غيره، سوادا كان أو غيره، وأبهمت الباب أغلقته ³.

وفي لسان العرب: "البَّهَم جمع بُهْمَة بالضم، وهي مُشكلات الأمور، وكلام مُبْهَم لا يَعْرِف له وَجْه يُؤْتَى، وقيل لبهيمه الأنعام بهيمة، لأن كل حي لا يميز فهو بهيمة، وطريق مبهم إذا كان خفياً لا يستبين، ويقال ضربه فوق مبهماً أي مغشياً عليه لا ينطق ولا

¹ سورة الأحقاف 42.

² سورة ص، الآية 28.

³ مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: اتحاد كتاب العرب، الطبعة 2002م، مادة بهم، ج 289/1.

يميز، وأمر مبهم لا مأتى له، واستبهم الأمر إذا استغلق فهو مستبهم، ومنه قيل لما لا ينطق بهيمة وفي حديث قس تجلو دجنات ، وأبهم على الأمر إذا لم يجعل له وجهاً أعرفه، وإبهم الأمر أن يشتهه فلا يعرف وجهه وقد أبهمه ¹.

انطلاقاً من هذه التعريفات اللغوية، فإن مادة (بهم) تدور حول معاني الخفاء، واللبس، والإغلاق، وعدم البيان والإيضاح.

ثانياً: الإبهم في الاصطلاح

الإبهم في الاصطلاح عرفه الإمام السهيلي في (التعريف والإعلام)، بأنه: "ما تضمنه كتاب الله العزيز من ذكر من لم يُسمَّه الله فيه باسمه العَلَمُ، من نبي، أو ولي، أو غيرها من آدمي، أو ملك، أو جن أو بلد، أو كوكب، أو شجر، أو حيوان، له اسم علم قد عرف به، عند نقلة الأخبار، والعلماء والأخبار" ².

وقد عزا الدكتور: مصطفى ديب البغا، لعبد الجواد خلف قوله: إن علم المبهمات في القرآن الكريم هو: "الدراسة التفسيرية التي تتناول آيات القرآن الكريم، من حيث ما أبهم فيها من عدد، أو مدد، أو اسم أو نسب، بواسطة النقل المحرر الدقيق عن ثقات الأمة" ³.

من خلال هذه التعريفات يمكن أن نعرف علم المبهمات اصطلاحاً بأنه: علم يبحث فيه عما أبهم وخفي في كتاب الله تعالى مما لم يصرح به من الأعلام، والأزمنة، والأمكنة، والأعداد. من خلال ما ورد في المأثور في ذلك عن الصحابة، والتابعين.

المطلب الثاني : أهمية علم المبهمات والأصل فيه، مع بيان أبرز المصنفات فيه.

أولاً: أهمية علم المبهمات والأصل فيه.

أ. أهمية علم المبهمات

لقد اعتنى السلف الصالح بعلم المبهمات، وأولوه من الاهتمام والعناية ما يبرهن على أهميته وشرفه، فهذا عكرمة يقول: "طلبت الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة حتى عرفته" ⁴. وهذا ابن عباس رضي الله عنهما، يقول في الحديث الذي أخرجه عنه البخاري: "أردت أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمكثت سنة فلم أجد له موضعاً، حتى خرجت معه حاجاً، فلما كنا بظهران ذهب عمر لحاجته فقال أدركني بالوضوء، فأدركته بالإداوة فجعلت أسكب عليه الماء، ورأيت موضعاً فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان اللتان تظاهرتا، قال ابن عباس: فما أتممت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة" ⁵.

وما يبرهن كذلك على شرف هذا العلم، بذل السلف لأوقاتهم، وجهودهم، في طلب تحصيله، والتأليف فيه، وعدهم له فرعاً من فروع التفسير، الذي يعتمد فيه على المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم، والمأثور عن الصحابة والتابعين، فهو كما قال: الإمام جلال الدين السيوطي في (الإتقان) ⁶ "أعلم أن علم المبهمات مرجعه النقل المحض، ولا مجال للرأي فيه، ولما كانت الكتب المؤلفة

¹ لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ج56/12.

² التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام، للحافظ عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، المتوفى سنة 581هـ، تحقيق: عبد الله النقرات، الناشر: كلية الدعوة والإسلام، طرابلس، ص4.

³ الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن، ص328.

⁴ الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974م، ج2م372.

⁵ الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: قوله تعالى {إن تنوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما}. الحديث رقم 4631.

⁶ الإتقان في علوم القرآن، ج95/4.

فيه وسائر التفاسير يذكر فيها أسماء المبهمات والخلاف فيها دون بيان مستند يرجع إليه أو عزو يعتمد عليه، ألفت الكتاب الذي ألفتته المذكورا فيه عزو كل قول إلى قائله من الصحابة والتابعين وغيرهم معزوا إلى أصحاب الكتب الذين خرجوا ذلك بأسانيدهم، مبينا فيه ما صح سنده وما ضعف، فجاء لذلك كتابا حافلا لا نظير له في نوعه، وقد رتبته على ترتيب¹.

ب: الأصل في هذا العلم

الأصل في هذا العلم فهو ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، فوقف له حتى فرغ ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين من اللتين تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه فقال: تلك حفصة وعائشة، قال: فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك"¹.

وجه الدلالة من هذا الأثر: هو حرص واهتمام ابن عباس على البحث عن هذا المبهمة في القرآن، وهو اسما اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من زوجاته، مما يدل على أصل هذا العلم، وأنه قد بحث فيه الصحابة رضوان الله عليهم من قبل.

يقول العلامة السهيلي في مقدمة كتابه (التعريف والإعلام)² "إذ النفوس من طلاب العلم إلى معرفة مثل هذا متشوقة، وبكل ما كان من علوم الكتاب متحلية ومتشرفة، وإذا كان أهل الأدب يفرحون بمعرفة شاعر أبهم اسمه في كتاب، وكذلك أهل كل صناعة يعنون بأسماء أهل صناعتهم ويرونه من نفيس بضاعتهم، فالفارثون لكتاب الله تعالى أولى أن يتنافسوا في معرفة ما أبهم فيه ويتحلوا بعلم ذلك عند المذاكرة".

من هنا تبين لنا أهمية هذا الموضوع ومدى اهتمام العلماء به، وحرصهم على معرفة مبهمات القرآن وجمعها وتكبيدهم عناء الأسفار الشاقة من أجل تحصيلها، ولم يقف اهتمام أولئك الأعلام عند هذا الحد، بل اعتبروا علم المبهمات نوعا من أهم أنواع علوم القرآن، فصنفوا فيه التصانيف العديدة النافعة.

ثانيا: أبرز المصنفات في علم الإبهام

لقد اعتنى العلماء بشكل مبكر بعلم المبهمات القرآن الكريم، لارتباط معرفة المبهمة، بمعرفة كلام الله سبحانه وتعالى، ولعل ما ورد في قصة ابن عباس رضي الله عنه في شأن المتظاهرتين، . الأنفة الذكر. خير دليل على هذا الاعتناء والاهتمام الكبير الذي لقيه هذا العلم منذ فجر الإسلام، إلى أن وصل إلى عصر التدوين والتصنيف فصنفت فيه المصنفات العديدة النافعة، والتي من أبرزها:

1- كتاب: (التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام) للإمام، أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي المتوفى، سنة 581 هـ، فهو أول ما صنف في هذا العلم، وقد تناول فيه مؤلفه مبهمات القرآن الكريم، بطريقة موجزة، بينها بقوله في مقدمة الكتاب: "إني قصدت أن أذكر في مقدمة هذا المختصر الوجيز، ما تضمنه كتاب الله العزيز بذكر من لم يسمه فيه باسمه العلم، من

¹ صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب، تبغي مرضاة أزواجك، الحديث رقم (4629) واللفظ له، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، الحديث رقم (1479).

² التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام، للحافظ عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، المتوفى سنة 581 هـ، تحقيق: عبد الله النقراط، الناشر: كلية الدعوة والإسلام، طرابلس، ص 4.

نبي، أو ولي، أو غيرهما، من آدمي، أو ملك، أو جن، أو بلد، أو شجر، أو كوكب، أو حيوان له اسم علم قد عرف عن نقلة الأخبار، والعلماء الأخيار¹.

وافتحه الإمام السهيلي، بسورة الفاتحة إلى أن انتهى بسورة الفلق، مبينا مبهمات القرآن الكريم. وقد أغفل تسعا وعشرين سورة لم يبين مبهماتهما، وهي: سورة العنكبوت، سورة فاطر، سورة الشورى، سورة الذاريات، سورة الحديد، سورة التغابن، سورة الطلاق، سورة الملك، سورة الدهر، سورة المرسلات، سورة النبأ، سورة النازعات، سورة المطففين، سورة الانشقاق، سورة الأعلى، سورة الغاشية، سورة الضحى، سورة الشرح، سورة القدر، سورة البينة، سورة الزلزلة، سورة العاديات، سورة القارعة، سورة التكاثر، سورة العصر، سورة الكافرون، سورة النصر، سورة الإخلاص، سورة الناس.

وقد اعتمد في تفسيره للفظ المبهم من القرآن الكريم على القرآن نفسه، فإن لم يجد فعلى السنة، فإن لم يجد فأقوال الصحابة، والتابعين، رضي الله عنهم.

2- كتاب: (التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام)، للإمام محمد بن علي بن عسكر الغساني، المتوفى سنة 636هـ، ومن الواضح من عنوانه أنه تكملة لكتاب الإمام السهيلي (التعريف والإعلام) وقد بين المؤلف ذلك في مقدمة كتابه حيث قال: "وكل ما طالعت غيره من كتب التفاسير والأخبار، أو لاحظت سواه من تصانيف العلماء والأخبار، فيقع إلي اسم قد أجه في الكتاب العزيز لفظه، واشتهر عند علماء الإسلام نقله وحفظه، وأجد الشيخ - يعني السهيلي - رضي الله عنه قد أغفله، ولم يحل مقفله، ألحقه من كتابه في الطرر، وأضيف جوهره إلى تلك الدرر، حرصا على أن تعظم الفائدة لمن استفاد، وتبقى الفائدة بعد النفاذ، حتى اجتمع لي منها بحمد الله تعالى جملة وافرة، فاستخرت الله تعالى واستعنته على أن أجمعها في كتاب يكون لكتاب الشيخ رضي الله عنه تكملة، وتضحى به الفائدة مشتملة"².

يتضح من هذا الكلام أن ابن عسكر الغساني قد سار على نهج الإمام السهيلي في تبين المبهم في القرآن الكريم.

3- كتاب: (التبيان في مبهمات القرآن) للإمام بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن جماعة المتوفى، سنة 733هـ، الذي اختصره في كتاب سماه (غرر التبيان في من لم يسم في القرآن) فقال: "هذا الكتاب اختصرت فحواه من كتاب سبق لي في معناه، أذكر فيه إن شاء الله تعالى، اسم من ذكر في القرآن العظيم، بصفته، أو لقبه، أو كنيته، وأنساب المشهورين من الأنبياء والمرسلين، والملوك المذكورين، والمعني بالناس والمؤمنين، إذا ورد لقوم مخصوصين، وعدد ما أجه عدده، وأمد ما لم يبين أمده، وذكرت ما وقع فيه من الاختلاف، وقدمت المختار من مواقع الخلاف، واقتصرت فيه على ذكر الأسماء دون تفاصيل القصص والأنباء، ورتبته على ترتيب سور القرآن، وسميته: (غرر التبيان لمبهمات القرآن)"³.

وقد تتبع فيه المؤلف مبهمات القرآن الكريم، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، باستثناء سورة الفلق، معتمدا على القرآن الكريم، في تعيينه للمبهم على سبيل الاختصار.

¹ التعريف والإعلام فيما أهم في القرآن من الأسماء والأعلام، ص 8.

² التكملة والإتمام لكتاب التعريف والإعلام فيما أهم من القرآن، للإمام محمد بن علي بن خضر بن عسكر الغساني، المتوفى سنة 636هـ، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، الناشر: دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1997م.

³ غرر التبيان لمبهمات القرآن، لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، تحقيق: عبد الجواد خلف، الناشر: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، عام 1991م، الصفحات 192.192.

4. كتاب: (الأحكام لما في القرآن من الإيهام) للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، المتوفى، سنة 852هـ، هذا الكتاب: أشار إليه الإمام السيوطي، أثناء تعداده لمؤلفات الحافظ ابن حجر العسقلاني، في كتابه¹: (نظم العقيان في أعيان الأعيان)².

وأشار إليه كذلك ابن العماد، (المتوفى، 1089هـ)، في كتابه³: (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) في تعداده لمؤلفات ابن حجر العسقلاني، وذكره بهذا العنوان: (الأحكام لبيان ما في القرآن من الإيهام).

5. كتاب: (مفحومات الأقران في مبهمات القرآن) للإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى، سنة 911هـ، يحتوي كتاب: (مفحومات الأقران في مبهمات القرآن) للإمام السيوطي، ويحتوي الكتاب على مقدمة تحدث فيها عن اعتناء السلف بهذا العلم، وأن الأصل فيه حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "مكثت سنة أريد أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم"⁴. وأن مرجع هذا العلم هو النقل المحض ولا مجال للرأي فيه.

ثم تناول أسباب الإيهام في القرآن الكريم، في⁹¹ سورة، مبتدئاً بسورة الفاتحة، ومنتھياً بسورة الناس، وقد أغفل مبهمات²³ سورة، لم يتكلم عنها وهي: سورة الجاثية، سورة الطور، سورة الصف، سورة التغابن، سورة الطلاق، سورة الملك، سورة المزمل، سورة الانفطار، سورة المطففين، سورة الانشقاق، سورة الأعلى، سورة الغاشية، سورة الضحى، سورة الشرح، سورة البينة، سورة الزلزلة، سورة العاديات، سورة القارعة، سورة التكاثر، سورة العصر، سورة الماعون، سورة النصر، سورة الإخلاص .

وقد سار في بيانه للمبهم على ما يلي:

. أن يعتمد في تبينه للمبهم على تفسير القرآن الكريم له، ومثال ذلك ذكره لمبهم الآية الكريم: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} قال: هم النبيون والصدّيقون والشهداء، كما فسّره آية النساء⁵.

. فإن لم يجد تفسيراً في القرآن الكريم للمبهم محل التبيين، اعتمد على حديث النبي صلى الله عليه وسلم في تبين ذلك المبهم، مثال ذلك: تفسيره لمبهم الآية: {أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ} قال: هو مالك ابن الصيف، أخرجه ابن جرير عن ابن عباس⁶.

. فإن لم يجد تفسيراً في القرآن الكريم للمبهم محل التبيين، اعتمد في تبينه على السنة النبوية الشريفة، فإن لم يجد انتقل إلى أقوال الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم، ومن أشهر من نقل عنهم من الصحابة: ساداتنا عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، رضي الله عنهم. ومن أشهر من نقل عنه من التابعين: قتادة، وعكرمة، ومجاهد، وغيرهم.

¹ نظم العقيان في أعيان الأعيان، للإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى، سنة 911هـ، الناشر: دار النشر المكتبة العلمية، بيروت، ج 47/1.

² الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن، ص 334.

³ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 274/7.

⁴ الحديث سبق ذكره في أهمية موضوع البحث، ص 3.

⁵ مفحومات الأقران في مبهمات القرآن، ص 14.

⁶ نفس المرجع، ص 18.

6. كتاب (نظم) (مفحات الأقران في مبهمات القرآن). - الأنف الذكر - للشيخ زين العابدين بن احمد الشنقيطي (المتوفي سنة 1358هـ) يقول في مقدمته:

قال	علي	هو	زين	العابدين	سمي	نجل	سبط	هاد	العالمين ¹
حمدا	لمن	علمنا	القرآنا	ففاق	من	فاز	به	الاقرانا	
ثم	صلاته	على	من	أنزله	عليه	فارتقي	لأعلى	منزله	
والعون	والتوفيق	نسأل	المعين	والري	من	بجر	عطائه	المعين	
وقد	تطفلت	على	أعلام	دين	الهدى	وغرر	الإسلام ²		
بنظم	ما	أطاقه	مقال	من	مبهمات	الذكر	للجلال		

يحتوي هذا النظم على ثمان مائة وتسعة وعشرين بيتاً، من الرجز، تعرض فيها الشيخ زين العابدين، لكل السور القرآنية التي وقع فيها الإيهام في القرآن الكريم، ومجموعها ثلاث وتسعون سورة، تبدأ بسورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس

ويحتوي (النظم) كذلك على مقدمة، عرف فيها الشيخ زين العابدين بنفسه، ثم بالثناء على الله سبحانه وتعالى، مصلياً على الرسول صلى الله عليه وسلم، طالبا من الله سبحانه وتعالى، العون على هذا العمل المبارك.

وبعد المقدمة ذكر الناظم عناوين بارزة، عند بداية كل سورة من السور الثلاثة والتسعين، التي تعرض فيها لمبهم القرآن الكريم، والتي بدأها بسورة الفاتحة إلى أن وصل سورة الناس. وقد حققت هذا النظم في رسالة دكتوراه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس - المملكة المغربية. سنة 2022م.

7. كتاب مبهمات القرآن جمع وتوثيق ودراسة، للدكتور: وليد محمد عبد العزيز الحمد. أستاذ مشارك مقسم الدراسات الإسلامية، بكلية التربية الأساسية، الكويت.

8. علم مبهمات القرآن الكريم دراسة تأصيلية، للدكتور محمد فوزي إبراهيم سعد نصير. مدرس بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية - طنطا.

9. علم مبهمات القرآن أهميته وصوره، للأستاذ عادل شواس.

¹ أي أنه سمي على حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم زين العابدين بن الحسن بن علي
² يعني أنه بهذا النظم قد تطفل على العلماء الأجلاء بنظمه هذا الكتاب (مفحات الأقران في مبهمات القرآن) وهذا هو المقصود بمبهمات الذكر، للإمام جلال الدين السيوطي، وذلك تواضعا منه.

المبحث الثاني: أسباب الإبهام في القرآن الكريم، وأنواع المبهمات

المطلب الأول: أسباب ورود الإبهام في القرآن الكريم

أسباب الإبهام في القرآن الكريم

للإبهام في القرآن الكريم أسباب تحدث عنها الإمام الزركشي في (البرهان)¹، ونقلها عنه الإمام جلال الدين السيوطي في (الإتقان)، فذكر منها:²

أولاً: أن يكون أعم في موضع استغناء ببيانه في موضع آخر في سياق الآية، كقوله تعالى: { مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ }³ بينه بقوله { وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ }⁴ الآية، وقوله تعالى: { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ }⁵ فقد تم تبينه بقوله { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا }⁶، وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ }⁷، والمراد بهم المهاجرون، لقوله تعالى: في سورة الحشر بقوله: { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ }⁸. وقد احتج بها أبو بكر الصديق على الأنصار يوم السقيفة، فقال: نحن الصادقون، وقد أمركم الله أن تكونوا معنا، أي تبعنا لنا. وإنما استحقها دونهم، لأنه الصديق الأكبر.

ثانياً: أن يتعين لاشتهاره، كقوله تعالى: { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ }⁹، ولم يقل حواء، لأنه ليس غيرها. وكقوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ }¹⁰، والمراد النمرود، لأنه المرسل إليه، وقوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ }¹¹، والمراد العزيز، وقوله تعالى: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ }¹²، والمراد قابيل وهابيل. وقوله تعالى: { الْمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ }¹³. فإنه ترجح كونه مسجد قباء، بقوله: (مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) لأنه أسس قبل مسجد المدينة، وحديث هذا بأن اليوم قد يراى به المدة والوقت، وكلاهما أسس على هذا من أول يوم، أي من أول عام من الهجرة. وجاء في الحديث تفسيره بمسجد المدينة، وجمع بينهما بأن كليهما مراد الآية.

ثالثاً: قصد الستر عليه ليكون أبلغ في استعطافه.

¹ البرهان في علوم القرآن، ج 1/155.

² الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974م، ج 2/372.

³ سورة الفاتحة، الآية 3.

⁴ سورة الانفطار، الآية 17.

⁵ سورة الفاتحة، الآية 7.

⁶ جزء من الآية: 68 من سورة النساء، الآية.

⁷ سورة التوبة، الآية 120.

⁸ جزء من الآية، 8 من سورة الحشر.

⁹ جزء من الآية: 34 من سورة البقرة.

¹⁰ جزء من الآية: 257 من سورة البقرة.

¹¹ جزء، من الآية: 21 من سورة يوسف.

¹² جزء من الآية : 29 من سورة المائدة.

¹³ جزء من الآية: 103 من سورة التوبة.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن قوم شيء خطب فقال: (ما بال رجال قالوا كذا) وهو غالب ما في القرآن كقوله تعالى: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} ¹. قيل هو مالك بن الصيف. وقوله تعالى: {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ} ²، والمراد هو رافع بن حرملة ووهب بن زيد. وقوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ} ³.

رابعاً: ألا يكون في تعيينه كثير فائدة، كقوله تعالى: {أَوُ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} ⁴، والمراد بها بيت المقدس. وقوله تعالى: {وَأَسَاءُكُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} ⁵، والمراد أيله، وقيل طبرية. وقوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ} ⁶، والمراد نينوي.

خامساً: التنبيه على التعميم، وهو غير خاص، بخلاف ما لوعين، كقوله تعالى: {مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ} ⁷، قال عكرمة: أقمت أربع عشرة سنة أسأل عنه حتى عرفته، هو ضمرة بن العيص، وكان من المستضعفين بمكة، وكان مريضاً فلما نزلت آية الهجرة خرج منها، فمات بالتنعيم. وقوله تعالى: {الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} ⁸، قيل: نزلت في علي، كان معه أربع دوانق، فتصدق بواحد بالنهار وآخر بالليل وآخر سرا وآخر علانية. وقوله تعالى: {وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ} ⁹، قيل: نزلت في عدي بن حاتم، كان له كلاب خمسة قد سماها بأسماء أعلام.

سادساً: تعظيمه بالوصف الكامل دون الاسم كقوله تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ} ¹⁰، والمراد الصديق. وكذلك: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} ¹¹، يعني محمداً، (وَصَدَّقَ بِهِ)، يعني أبا بكر، ودخل في الآية كل مصدق، ولذلك قال: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ).

سابعاً: تحقيره بالوصف الناقص، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا} ¹²، وقوله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} ¹³، والمراد بها العاصي ابن وائل. وقوله تعالى {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} ¹⁴، والمراد الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وأما قوله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ} ¹⁵، فذكره هنالك للتنبيه على أن ما له للنار ذات اللهب

¹ سورة البقرة، الآية 99.

² جزء من الآية: 107 من سورة البقرة.

³ جزء من الآية: 23 من سورة آل عمران.

⁴ جزء من الآية: 258 من سورة البقرة.

⁵ جزء من الآية: 163 من سورة الأعراف.

⁶ جزء من الآية: 98 من سورة يونس.

⁷ جزء من الآية: 99 من سورة النساء.

⁸ جزء من الآية: 273 من سورة البقرة.

⁹ جزء من الآية: 5 من سورة المائدة.

¹⁰ جزء من الآية: 22 من سورة النور.

¹¹ سورة الزمر، الآية 32.

¹² جزء من الآية: 55 من سورة النساء.

¹³ سورة الكوثر الآية، 3.

¹⁴ جزء من الآية: 6 من سورة الحجرات.

¹⁵ سورة المسد، الآية 1.

المطلب الثاني: أنواع المبهمات

من حيث المبدأ نشير إلى أن المبهمات في القرآن الكريم على نوعين:

نوع استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه، كتحديد زمن قيام الساعة، وتحديد عمر الدنيا، وكذكر مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله. فهذا لا يجوز البحث فيه بل يجب التوقف عنه، وهذا ما نبه عليه الزركشي في (البرهان) بقوله: "إلا أنه لا يبحث فيما أخبر الله باستثائه بعلمه، كقوله تعالى: {وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} ¹، والعجب ممن تجرأ وقال: قيل إنهم قريظة، وقيل من الجن ²."

وقد علق الإمام جلال الدين السيوطي على كلام الإمام الزركشي هذا قائلاً: "ليس في الآية ما يدل على أن جنسهم لا يعلم، إنما المنفي علم أعيانهم، ولا ينافيه العلم بكونهم من قريظة، أو من الجن، وهو نظير قوله تعالى: في المنافقين: {وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} ³، فإن المنفي علم أعيانهم. ثم القول في أولئك أنهم من الجن، ورد فيه خبر مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخرجه ابن أبي حاتم وغيره، فلا جراً ⁴."

النوع الثاني: وهو ما لم يستأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه فيجب البحث عنه،

ويمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: مبهمات جموع، وأمكنة، وأزمة.

أ. مبهمات الجموع: مثالها قوله تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} فقد ذكر الإمام السيوطي في الدر وعزاه لابن عباس قال: صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعة بن قيس وقرم بن عمرو وكعب بن الأشرف ونافع بن نافع والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف والربيع بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق فقالوا له: يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها تتبعك ونصدقك وإنما يريدون فتنه عن دينه، فأنزل الله الآية: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}.

ومن أمثلتها قوله تعالى: {فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} ذكر لإمام السيوطي في مفحمت الأقرا وعزاه لابن أبي حاتم عن كعب، أن السحرة كانوا اثني عشر ألفاً. وعن محمد ابن كعب القرظي أنهم كانوا ثمانين رجلاً.

ومن أمثلة مبهمات الجموع كذلك قوله تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} ⁵ وهم كعب بن مالك ومرة بن الربيع وهلال بن أمية. ذكره السيوطي في المفحمت وعزاه لجابر ابن عبد الله رضي الله عنه.

ومنها قوله تعالى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}

¹ سورة الأنفال، الآية 61.

² البرهان في علوم القرآن، ج 1/155.

³ سورة التوبة، الآية 103.

⁴ مفحمت الأقرا في مبهمات القرآن، ص 13.

⁵ سورة التوبة الآية 119.

ذكر الإمام السيوطي في الدر المنثور¹ أن المقصود (بالمغضوب عليهم) اليهود (ولا الضالين) النصارى، كما أخرجه أحمد وابن حبان والترمذي من حديث عدي ابن حاتم² قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى.

قال ابن كثير³: المغضوب عليهم اليهود، لأن أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال تعالى: {مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ} ولا الضالين النصارى، لأن أخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال تعالى: {قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}.

ب. مثال مبهمات الأمانة قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً} وقد ساق الإمام السيوطي في المفحومات⁴ عدة أقوال في هذه القرية

أها قرية لوط، وعزاه لعطاء، وعن الحسن أنها: بين الشام والمدينة. وعزا في الدر المنثور، لا بن عباس رضي الله عنهما أنها سدوم، قرية قوم لوط {التي أمطرت مطر السوء}. وذكر الخازن في تفسيره⁵ أنها قريات قوم لوط، وهي خمس قرى أهلك الله منها أربعاً ونجت واحدة، وهي أصغرهما، وكان أهلها لا يعملون العمل الحبيث.

ج. مثال مبهمات الأمانة قوله تعالى: {وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً}

قال السيوطي في مفحومات الأقران، "هي ذي القعدة وعشر من ذي الحجة أخرجه ابن جرير عن أبي العالية. وقال: الإمام البغوي "أَرْبَعِينَ لَيْلَةً" أي انقضاءها ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة، وقرن التاريخ بالليل دون النهار، لأن شهور العرب وضعت على سير القمر، واللال إنما يهل بالليل، وقيل لأن الظلمة أقدم من الضوء، وخلق الليل قبل النهار، قال الله تعالى: {وَأَيَّةَ لَهْمَ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ}.

وقد ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، أن قوله تعالى: (وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) لم يبين هنا هل واعدته إياها مجتمعة أو متفرقة، ولكنه بين في سورة الأعراف، أنها متفرقة، وأنه واعدته أولاً ثلاثين، ثم أتمها بعشر، وذلك في قوله تعالى: (وَوَاَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)⁶.

¹ الدر المنثور ج 1/43.

² سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن. باب ومن سورة فاتحة الكتاب. الحديث 2954 من حديث عدي ابن حاتم.

³ تفسير ابن كثير 141/1.

⁴ مفحومات الأقران في مبهمات القرآن ص 79.

⁵ لباب التأويل في معاني التنزيل، (تفسير الخازن) للشيخ علاء الدين علي بن محمد المشهور بالخازن، الناشر: دار الفكر - بيروت، لبنان - 1399 هـ / 1979 م، 102/5.

⁶ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى: 1393 هـ) الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، الطبعة: 1415 هـ.

1995 م، ج 1/37.

خاتمة:

وأخيرا وانطلاقا مما سبق فإن مادة (بهم) في اللغة - ما رأينا - تدور حول معاني الخفاء، واللبس، والإغلاق، وعدم البيان والإيضاح، وفي الاصطلاح فالمبهمات علم يبحث فيه عما أجهم وخفي في كتاب الله تعالى مما لم يصرح به من الأعلام، والأزمنة، والأمكنة، والأعداد. من خلال ما ورد في المأثور في ذلك عن الصحابة، والتابعين.

كما رأينا كذلك أن الأصل في علم المبهمات هو حديث ابن عباس الذي أخره البخاري في شأن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن السلف اعتنوا بهذا العلم وأهتموا به وأولوه من الاهتمام والعناية ما يبرهن على أهميته وشرفه، فهذا عكرمة يقول: "طلبت الذي خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله، ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة حتى عرفته". فبيان المبهم إذا ضرب من ضروب التفسير يمكننا من فهم كتاب الله تعالى والاستفادة والعمل بما جاء فيه، من دروس وعبر وعظات، فهو المنهل العذب والمعين الذي لا ينضب.

كما تطرق البحث إلى أهم المصنفات في علم المبهمات بدءا بالإمام السهيلي، مروراً بالإمام جلال الدين السيوطي، إلى أن وصل هذا الاعتناء والاهتمام إلى عصر الشيخ زين العابدين بن احمد الشنقيطي، الذي نظم كتاب مفحمت الأقربان في مبهمات القرآن للإمام السيوطي، في نظم جليل يحتوي على ثمان مائة وتسعة وعشرين بيتاً، من الرجز، تعرض لكل السور القرآنية التي وقع فيها الإيهام في القرآن الكريم، ومجموعها ثلاث وتسعون سورة، تبدأ بسورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس

. تطرق البحث كذلك إلى أن علم المبهمات من العلوم التي مردها النقل المحض عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا مجال للرأي فيه.

كما تطرق البحث كذلك إلى أسباب الإيهام في القرآن الكريم، وأنواعها فما ستأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه، كتحديد زمن قيام الساعة، وكتحديد عمر الدنيا، وكذكر مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله. فهذا لا يجوز البحث فيه بل يجب التوقف عنه، أما غير ذلك فيجب البحث عنه لعدم استئثار الله سبحانه وتعالى بعلمه.

المصادر والمراجع:

- ✓ أولاً: القرآن العظيم
- ✓ ثانياً: كتب التفسير وعلوم القرآن
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى : 1393هـ) الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، الطبعة : 1415 هـ 1995 م.
- الإيتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974م.
- الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن، ص 328.
- البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق: محمد أبو الفضل: الناشر : دار المعرفة
- التعريف والإعلام فيما أجم في القرآن من الأسماء والأعلام، للحافظ عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، المتوفى سنة 581هـ، تحقيق: عبد الله النقرات، الناشر: كلية الدعوة والإسلام، طرابلس.
- التكملة والإتمام لكتاب التعريف والإعلام فيما أجم من القرآن، للإمام محمد بن علي بن خضر بن عسكر الغساني، المتوفى سنة 636هـ، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، الناشر: دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1997م.
- تفسير ابن كثير، الإمام إسماعيل بن كثير (700 - 774 هـ) ، تحقيق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الثانية 1420 هـ - 1999 م.
- غرر التبيان لمبهمات القرآن، لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، تحقيق: عبد الجواد خلف، الناشر: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، عام 1991م، الصفحات 192. 192.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، (تفسير الخازن) للشيخ علاء الدين علي بن محمد المشهور بالخازن، الناشر: دار الفكر - بيروت ، لبنان - 1399 هـ / 1979 م.
- مفحومات الأقران في مبهمات الأقران، للإمام جلال الدين السيوطي (ت. 911هـ) الناشر: مؤسسة علوم القرآن، بيروت ، 1391
- ✓ كتب أخرى:
- صحيح البخاري
- صحيح مسلم
- سنن الترمذي ، الإمام محمد بن عيسى الترمذي السلمي، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، (ت: 1089 م) الناشر: دار الكتب العلمية.
- كتاب الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: اتحاد كتاب العرب، الطبعة 2002م، مادة بهم.
- نظم العقيان في أعيان الأعيان، للإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى، سنة 911هـ، الناشر: دار النشر المكتبة العلمية ، بيروت.

المقاصد العامة والخاصة لنظام التعصيب في الإرث الإسلامي

د. عيسى حامد الحمدي

جامعة الزيتونة

تونس

الملخص:

يُعَدُّ نظام الميراث في الشريعة الإسلامية أحد أكثر النظم التشريعية تفصيلاً ودقة، حيث تولى القرآن الكريم بنفسه بيان معظم أحكامه، تاركاً مساحة محدودة للاجتهاد. ويقوم هذا النظام على أسس متينة من العدل والتوازن، ويهدف إلى تحقيق مقاصد شرعية عظيمة على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والأسرية. وفي قلب هذا النظام، يبرز "التعصيب" كآلية محورية لتوزيع الثروة، وركيزة أساسية لضمان استقرار الأسرة والمجتمع.

غير أن نظام التعصيب كان ولا يزال ميداناً للنقاش والجدل، خاصة في العصر الحديث، حيث تثار حوله شبهات تتعلق بالعدالة والمساواة بين الجنسين. وتنشأ هذه الشبهات غالباً من فهم جزئي ومجتزأ للنظام، حيث يتم التركيز على بعض الحالات التي يرث فيها الذكر أكثر من الأنثى، مع إغفال تام للمنظومة المتكاملة للحقوق والواجبات التي تربط بينهما، وإغفال للمقاصد العليا التي يسعى الشارع إلى تحقيقها من خلال هذا التشريع.

تأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على فلسفة نظام التعصيب من خلال استكشاف مقاصده العامة والخاصة. فهي لا تحدف فقط إلى وصف الأحكام الفقهية المتعلقة به، بل تسعى إلى الغوص في أعماق الحكمة التشريعية الكامنة وراءه. وتكمن أهمية البحث في أنه يقدم رؤية متكاملة للتعصيب، تربط بين النص الشرعي والواقع الاجتماعي والاقتصادي، وتبرز كيف أن هذا النظام ليس مجرد قواعد رياضية لتوزيع الأنصبة، بل هو جزء من رؤية شاملة لتحقيق التكافل، وإدارة الثروة، وصيانة بنية الأسرة.

يهدف هذا البحث إلى تحقيق ما يلي: 1. بيان المفهوم الدقيق للتعصيب وأركانه وأنواعه في الفقه الإسلامي. 2. استجلاء المقاصد العامة لنظام التعصيب، والمتمثلة في إقامة العدل، وحفظ المال، وتنمية الثروة. 3. تحليل المقاصد الخاصة المتعلقة بالحالة المادية للعصبة، وفهم الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية الكامنة وراء تقديم الذكور على الإناث في بعض الحالات. 4. تقديم ردود علمية وموضوعية على الشبهات المعاصرة المثارة حول نظام التعصيب، استناداً إلى الأدلة الشرعية والمقاصد الكلية للشريعة.

ولتحقيق هذه الأهداف، سيتم تقسيم البحث إلى مبحثين رئيسيين، يتناول الأول المقاصد العامة، بينما يتناول الثاني المقاصد الخاصة، وكل مبحث مقسم إلى مطالب تفصيلية، وصولاً إلى خاتمة تلخص أهم النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: التعصيب، الإرث الإسلامي، مقاصد الشريعة، العدل في الميراث، حقوق المرأة في الميراث.

مقدمة

يمثل نظام الموارث في الشريعة الإسلامية منظومة دقيقة متكاملة، وُضعت لحفظ الحقوق وتحقيق العدل بين الورثة، وقد تولى الله تعالى بنفسه بيان أنصبة الوارثين في كتابه العزيز، مما يدل على خطورة هذا الباب وأهميته. ومن أركان هذا النظام: "التعصيب"، وهو إرث من بقي بعد أصحاب الفروض، وقد شُرع لحكم عظيمة ومقاصد جليلة، من أبرزها تحقيق العدل بين الورثة، ومراعاة المسؤوليات المالية والاجتماعية الواقعة على بعضهم دون بعض.

المبحث الأول: المقاصد العامة لنظام التعصيب

المطلب الأول: مقاصد التعصيب في إقامة العدل والحفاظ على مال الورثة.

يتجلى مقصد العدل في الموارث الإسلامية بوضوح في نظام التعصيب، حيث لا يُراد به المساواة المطلقة، وإنما إعطاء كل ذي حق حقه بحسب موقعه وواجباته، فالذكر قد يُعطى أكثر لكونه مكلفًا بالنفقة، وهذا من تمام العدل لا من الجور، وقد بين الله تعالى في كتابه أن العدل أصل كلي في التشريع، كما في قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل: 90].

وقد نبه علماء المقاصد، ومنهم العلامة ابن عاشور إلى أن؛ العدل كلمة مجملة جامعة فيصار فيها إلى ما هو مقرر بين الناس في أصول الشرائع، وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء، إذ مرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة، وحقوق الناس بعضهم على بعض قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية،¹ فبالنظر إلى نصوص الشريعة الإسلامية، يظهر أن العدل مقصود لذاته من أجل حفظ حقوق العباد، و مقصود لغيره لتحقيق صلاح العالم، فأما أنه مقصود لذاته فبيانه أن القرآن والسنة متظاهران على الأمر بإيتاء كل ذي حق حقه، وعلى تحريم العدوان، ورده إن وقع، بإعادة الحق إلى صاحبه أو بتعويضه عما لحقه من ضرر؛ وأما أنه مقصود لغيره فبيانه أن صلاح العالم لا يكون إلا به، وما يقتضيه المقصود الشرعي بحيث لا يتحقق إلا به يكون مقصودًا كذلك وإلا تناقضت أدلة الشرع وتهاوت، وهذا عبث ينزه الشارع - سبحانه وتعالى - عنه في قول المسلمين كافة²

وقد أمر الله بالتزام العدل في الشهادة على الوصية فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ...﴾ [المائدة: 106].

وقال تعالى في الإشهاد على الطلاق: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ...﴾ [الطلاق: 2]

ويُعد نظام الموارث في الشريعة الإسلامية، تجليًا عمليًا لمقصد العدل الإلهي المطلق، الذي جاءت به النصوص الشرعية لهدم مظاهر التمييز الجاهلي التي قامت على أسس العرق والنوع والمكانة الاجتماعية، وقد أرسى القرآن الكريم في هذا السياق مبدأً تشريعيًا ربانيًا، يتمثل في قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّةِ﴾ [النساء: 11]،

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، الطبعة: الأولى، 1984م الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس ص 254

² أحمد الريسوني: مقاصد المقاصد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، ومركز المقاصد للدراسات والبحوث، الرباط، الطبعة الثالثة 2014م؛ والدرعة إلى مقاصد الشريعة، دار الكلمة، القاهرة 2015م

وهو حكم شرعي لا يُقصد به التفضيل القيمي بين الجنسين، وإنما يُعبر عن توزيع عادل متوازن يراعي اختلاف الوظائف والأعباء بين الرجل والمرأة.

إن هذا الآية الكريمة تظهر حكمة الله في الموازنة بين الحقوق والواجبات، فالرجل مطالب بالنفقة، والزواج، وتحمل الأعباء المالية، فافتضت العدالة أن يكون له نصيب أكبر في بعض حالات التوريث، وفي المقابل، ضمنت الشريعة للمرأة حقها المالي كاملاً، دون تحميلها ما لا يلزمها من تكاليف شرعية، وبهذا التوزيع يتحقق "العدل الوظيفي"، الذي يُفترق في الحقوق بحسب المسؤوليات لا بحسب الجنس أو القيمة الذاتية، قال ابن كثير رحمه الله: "... وفاوت بين الصنفين؛ فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤونة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب، وتجشم المشقة، فناسب أن يُعطي ضعفي ما تأخذه الأنثى".¹

وهذا ما أكدته الله الدهلوي بقوله: "وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ۖ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ﴾

أقول: يضعف نصيب الذكر على الأنثى، وهو قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾، وللبنت المنفردة النصف لأنَّه إن كان ابن واحد لأحاط المال، فمن حق البنت الواحدة أن تأخذ نصفه قَصِيَّةً للتضعيف، والبنتان حكمهما حكم الثلاث بالأجماع، وإِنَّمَا أعطيتا الثلثين لأنَّه لو كان مع البنت ابن لوجدت الثلث، فالبنت الأخرى أولى ألا ترزأ نصيبها من الثلث، وإِنَّمَا أفضل للعصبة الثلث لأن للبنات معونة وللعصبات معونة، فلم يستقط إحداهما الأخرى، لكن كانت الحكمة أن يفضل من في عمود النسب على من يُحيط به من جوانبه، وذلك نسبة الثلثين من الثلث"²

إن نظام التعصيب، كغيره من أحكام الشريعة الإسلامية، لا ينفصل عن المقاصد العليا والغايات الكلية التي جاءت الشريعة لتحقيقها في حياة الناس، فالأحكام الجزئية، مهما بدت تفصيلية، هي في حقيقتها تجليات لتلك المقاصد الكلية ووسائل لتحقيقها، وعند التأمل في نظام التعصيب من منظور مقاصدي أعمق، نجد أنه يعكس بوضوح عددًا من المقاصد التشريعية العليا، التي تمثل جوهر رسالة الإسلام وغايتها في تحقيق مصالح العباد في الدارين، ومن أبرز هذه المقاصد تحقيق العدل (بمفهومه الشرعي الشامل)

العدل هو القيمة العليا والمقصد الأسمى الذي تسعى الشريعة الإسلامية إلى إقامته في جميع جوانب الحياة، بما في ذلك توزيع الثروات والحقوق. قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...} [النحل: 90]. والعدل في الميراث لا يعني بالضرورة المساواة، بل يعني إعطاء كل ذي حق حقه بناءً على معايير وضوابط تحقق التوازن وتراعي المصالح والحاجات والمسؤوليات المختلفة. وكما يقرر علماء الأصول والمقاصد، فإن العدل قد يقتضي التفاضل في بعض الأحيان لتحقيق التوازن العام، ويتجلى مقصد العدل في نظام التعصيب من خلال:

ربط الحق بالواجب:، فإن إعطاء العاصب نصيباً قد يكون أكبر في بعض الحالات يقابله تحميله مسؤوليات مالية واجتماعية أكبر (النفقة، الدية، الحماية). هذا التوازن بين الحقوق والواجبات هو جوهر العدل الشرعي.

¹¹ ابن كثير، تفسير القرآن تحقيق: سامي بن محمد سلامة الطبعة: الطبعة الثانية، 1999م الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ج، 2 ص 225

² الدهلوي، حجة الله البالغة تحقيق: السيد سابق الطبعة: الطبعة الأولى، 2005م الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ج، 2 ص: 186

مراعاة قوة القرابة: تقديم الأقرب فالأقرب في الإرث بالتعصيب (حسب الجهة والدرجة والقوة) هو تطبيق لمبدأ العدل القائم على أن الأقرب هو الأول بالرياسة والصلة، وهو الأكثر تأثراً بفقد المورث غالباً، والأقدر على القيام بشؤون أسرته. وهذا ينسجم مع قوله تعالى: {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [الأنفال: 75].

وإن اجتمع اثنان قدم أقربهما في الدرجة¹ لما روى ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى عصة ذكر" وإن اجتمع اثنان في الدرجة وأحدهما يدلي بالأب والأم والآخر يدلي بالأب قدم من يدلي بالأب والأم لأنه أقرب وإن استويا في الدرجة والإدلاء استويا في الميراث لتساويهما²

تحقيق التوازن بين مصالح مختلفة: يوازن نظام التعصيب بين مصلحة الورثة في الحصول على نصيب من التركة، ومصلحة الأسرة في الحفاظ على كيانها وتكافلها، ومصلحة المجتمع في استقراره، ومصلحة الاقتصاد في الحفاظ على الثروة وتنميتها. هذا التوازن بين المصالح المتعددة هو من صميم العدل الذي تسعى إليه الشريعة.

إن فهم العدل في سياق التعصيب يتطلب نظرة شمولية تتجاوز المقارنات الجزئية أو السطحية، وتأخذ في الاعتبار المنظومة المتكاملة للحقوق والواجبات في الإسلام

فالإرث من الأحكام التعبدية الثابتة بالنصوص القطعية التي تضمن حقوق العباد، لذلك كان مردّ تقسيم التركات إلى الله تعالى وحده، لا إلى اجتهد بشري قد تشوبه الأهواء أو يغلب عليه القصور عن الإحاطة بكامل المصالح والمآلات، فالله سبحانه وتعالى هو الذي تولى بنفسه تقسيم الميراث، فافتتح أحكامه بقوله: "يُوصِيكُمُ اللَّهُ" وختمها بقوله: "تلك حدود الله"، دلالة على أن هذه الأحكام مبنية على علمه التام بمصالح عباده، لا على تفضيلات ظرفية.

وقد جاء هذا نظام الإرث في الإسلام لرفع الظلم الواقع على النساء في الجاهلية، حيث كنّ محرومات من الميراث، وكان المال يُحصر في الذكور من أهل القوة والقتال، فجاء الإسلام فأثبت للمرأة حقها في التركة، ونزع سلطة الناس في تقسيم المال بعد الموت، ليذكرهم بأن المال أمانة ربانية تُوزع وفق ميزان شرعي يحقق مصلحة المجتمع ويحفظ كرامة الفرد.

ويُعد الامتنال لأمر الله في نظام التعصيب تحقيقاً لمقصد حفظ الدين، وهو رأس المقاصد الضرورية وأساسها، ومن أهم جوانبه التسليم لأحكام الله القطعية والرضا بها، خاصة تلك التي فصلها الله بنفسه كأحكام الميراث. قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [النساء: 13].

ونظام التعصيب، المثبت بالأدلة القطعية من السنة والإجماع، هو من هذه الحدود الإلهية التي يجب التسليم بها والعمل بمقتضاها، إذ الإيمان يقتضي التسليم لحكم الله وإن لم تتضح حكمته التفصيلية، ثقة بعلمه المطلق وحكمته وعدله. وكما يقول الإمام الشاطبي في "الموافقات": التسليم لأحكام الشارع التي لا يُعقل معناها تفصيلاً هو من أصول العبودية.

أما الدعوات المعاصرة إلى تغيير أحكام الميراث القطعية، وهذا يخالف مقصد حفظ الدين القائم على التسليم والانقياد لأمر الشارع، فالعدل الحقيقي والحكمة المطلقة هي ما شرعه الله، لا ما تراه العقول البشرية القاصرة أو الأهواء المتقلبة.

¹ الشيرازي أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف (ت ٤٧٦ هـ) المهذب في فقه الإمام الشافعي الناشر: دار الكتب العلمية ج 2 ص 415

² الشيرازي أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف (ت ٤٧٦ هـ) المهذب في فقه الإمام الشافعي الناشر: دار الكتب العلمية ج 2 ص 415

المطلب الثاني: مقاصد التعصيب في إدارة الثروة وتنميتها

إنّ لنظام التعصيب في الميراث مقاصد اقتصادية معتبرة، تُسهم في تحقيق الإدارة الرشيدة للثروة الموروثة، ومنع تفتتها، وتيسير تداولها بما يحقق النفع للفرد والمجتمع، ويُعدّ هذا من جملة ما يندرج تحت مقصد حفظ المال، وهو أحد المقاصد الخمسة الكلية في الشريعة الإسلامية، كما نصّ عليه الإمام الشاطبي بقوله: "المصالح التي راعاها الشارع خمسة: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل"، ثم قال: "وهذه المصالح لا تختل في ملة من الملل".¹

أولاً: مقصد منع التفتت المفرط للثروة

من أبرز المقاصد التي يحققها نظام التعصيب هو الحدّ من تفتت الثروة بشكل مفرط، وهو أمر يترتب عليه أضرار اقتصادية كبيرة، سواء من جهة تعدّر استثمار الأصول الإنتاجية الكبيرة، أو من جهة ضياع قيمتها بسبب تجزئتها بين عدد كبير من الورثة. وقد راعت الشريعة هذا الأمر إذ إنّ إرث العصابات دون من عداهم بعد أصحاب الفروض يحقق تقليصاً في عدد الورثة، مما يسهم في تركّز التركة في يد من هم أقرب للميت، ومن ثمّ يمكنهم إدارتها وتنميتها بصورة أفضل، وقد نص الفقهاء على أن من مقاصد التشريع "

ومقصود الشرع حفظ المال عن الضياع"²، كما أشار لذلك الإمام القراني في "الفروق"

ولذلك، فإنّ بقاء الأصول الكبرى كالضياع والعقارات والمصانع في يد وريث أو عدد محدود من الورثة العصبية يعين على حفظ المال وتنميته، ويحقق مقصد الدوام والاستثمار، لا مجرد التوزيع الاستهلاكي المؤقت.

فنظام الميراث الإسلامي جاء محققاً للتوازن بين توزيع الثروة وتحقيق الكفاءة الاقتصادية، عبر تنظيم دقيق يمنع التفتت الذي يُضعف الإنتاج ويشتت الموارد.

ثالثاً: مقصد رواج المال ومنع كثره

ومن المقاصد العامة للشريعة فيما يتصل بالمال: تيسير تداوله ومنع اكتنازه، كما قال تعالى:

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ [الحشر: 7].

ولا يتعارض نظام التعصيب مع هذا المقصد، بل يسهم في تحقيقه من جهة أخرى؛ ذلك أن العاصب غالباً ما يكون مكلفاً بالنفقة، ومسؤولاً عن إعالة أسرته ومن يعول، مما يوجب عليه تحريك المال وإنفاقه في مصارفه، ومن ثمّ يدخل المال الموروث في دورة اقتصادية نشطة.

كما أن العاصب، لكونه أكثر التصاقاً بالواقع العملي والاقتصادي، يكون أدعى إلى استثمار المال، لا تجميده، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون حين قال: "إن المال إذا تداولته الأيدي، نما وركّأ، وإذا حُبس وكنز، نقص وهلك".³

وإذا علم أن الإسلام حرّم كنز المال وأمر بإنفاقه واستثماره، كما في قوله تعالى:

¹ الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز الطبعة: الطبعة الأولى، 1997م الناشر: دار ابن عفان، السعودية ج، 8/2.

² أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقراني (المتوفى: 684هـ): الفروق أنوار البروق في أنواء الفروق، الناشر: عالم الكتب (3/ 247).

³ الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز الطبعة: الطبعة الأولى، 1997م الناشر: دار ابن عفان، السعودية ج: 8 ص 372.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]، فمن باب أولى أن يُراعى هذا الأصل في تسيير المال الموروث، وتوجيهه نحو التداول والإنتاج.

فنظام التعصيب ليس مجرد آلية فقهية لتوزيع الباقي من التركة، بل هو أداة شرعية تُراعي المقاصد الكبرى، كحفظ المال، ومنع التبذير، وتحقيق الكفاءة الاقتصادية، والعدالة الاجتماعية. ولا شك أن هذه الأبعاد تنسجم انسجاماً كاملاً مع روح الشريعة في عموم أحكامها المالية.

المبحث الثاني : المقاصد الخاصة لنظام التعصيب في الشريعة الإسلامية

المطلب الأول : أثر نظام التعصيب على الحالة المادية للعصبة

إن الحكمة الإلهية في تشريع أحكام الموارث قد تجلّت في تحقيق التوازن الاقتصادي المنشود، حيث قسم الله سبحانه وتعالى التركات بين أصحاب الفروض المقدرة والعصبات بالنسب على وجه يحقق العدالة التوزيعية والكفاءة الاقتصادية معاً.

فأما أصحاب الفروض - ومن بينهم النساء والأقارب الذين قد تكون أحوالهم المالية أضعف - فإن استحقاقهم لأنصبتهم المقدرة شرعاً يحقق مقصداً اقتصادياً جليلاً، وهو زيادة القدرة الشرائية لهذه الفئات، مما يعزز جانب الطلب الاستهلاكي في النشاط الاقتصادي العام، عملاً بقول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11].

وأما ما يقول إلى العصبات من التركة - سواء كان باقياً بعد أصحاب الفروض أو كان جميع التركة عند عدم وجودهم - فإنه يتجه غالباً إلى من هم أقدر على الاستثمار والإنتاج، مما يحرك جانب العرض في الاقتصاد ويحفز النمو الرأسمالي، وذلك وفق قاعدة: “العصبة يأخذون ما فضل عن أصحاب الفروض” المستنبطة من حديث الرسول ﷺ: “ألقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر”¹

وبهذا النظام المحكم يتحقق التوازن المطلوب بين تحفيز الاستهلاك - الذي يضمن الحد الأدنى من العيش الكريم للضعفاء - وبين تحفيز الاستثمار - الذي يضمن النمو الاقتصادي والتنمية المستدامة، وقد أشار علماء الاقتصاد الإسلامي إلى أن هذا التوازن يحول دون الوقوع في مخاطر التضخم الناتج عن الإفراط في الاستهلاك، كما يحول دون الركود الناجم عن تكديس الأموال وعدم تداولها، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿كَفَى لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: 7].

- مراعاة نظام التعصيب لتفاوت حاجات الورثة.

ولقد راعت الشريعة التفاوت في الحاجات عند توزيع الأنصبة، فجعلت نصيب الأب في كثير من الأحيان السدس، بينما جعلت باقي التركة لمن بعده من فروع الميت. ولا يناقض ذلك ما ورد في الحديث عن ملكية الأب لمال ابنه، لأن الحديث يُحمل على ما إذا كانت الحاجة قائمة وظروف الابن تُمكن من ذلك، لا على الإطلاق، وإلا لوقع التعارض مع النص القرآني القطعي في الميراث.

ومن هذا الأصل المقاصدي - أعني مراعاة الوظيفة الاجتماعية والحاجة، يتبين أن أنصبة الورثة الأولاد والآباء، و الذكر والأنثى، لم يكن محض تفضيل، بل هو مقصد مندرج تحت مقاصد الشريعة في تحقيق العدالة في توزيع الموارث، وهو مقصد مبني على مبدأ سد الحاجة، وتحقيق التكافل الاجتماعي، وهو ما يجعل أحكام الميراث الإسلامية متسقة مع أحوال الناس الواقعية، ومُحكمة في بنيتها التشريعية، وفي بيان وجه تقديم جهه البنوة على ما عداها من جهات العصبات في استحقاق الإرث بالتعصيب، يقول

¹ صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب ميراث الجد مع الأب، وصحيح مسلم، كتاب الفرائض، باب ألقوا الفرائض بأهلها

الشيخ أبو زهرة: "فإنك ترى أن جهة البنوة قدمت على غيرها؛ لأنهم أجزاء المتوفى، فهم شخصه، أو كشخصه، وتابعون له تبعية الفرع للأصل، وكأنه إذا ذكر فقد ذكروا، ومثل هذا في المحسوسات الأرض والشجر، فإنه يكون تبعاً لها بحيث إذا ذكرت دخل في مضمونها، وإن لم ينص عليه، وكمثل الشجر والثمر إذا ذكر الشجر دخل الثمر في مضمونه، وهكذا كل شيء يعد جزءاً من شيء آخر، يعتبر في مضمونه ومحتواه يدخل عند ذكره من غير نص، ويكون قريباً من هذا في الاعتبار حال الأبناء مع آبائهم؛ لأنهم أجزاء منهم، فهم وإن انفصلوا عنهم في الوجود، لم ينفصلوا عنهم في الصلة بالنفس والعرق، فكانوا أولى الناس بمالهم وخلافاتهم، وإن الناس جروا على اعتبار الابن غنياً بغنى أبيه وأمه وجده، فكان مالهم له، وهو كأشخاصهم. ولهذا قدم الأبناء على الأب والأجداد في التعصيب لأن الأب ليس جزء الابن، فلا يشتمل الابن عليه، كما يشتمل الأب على ابنه، وإن الأب أقرب الناس إليه ولده، وأن الله سبحانه وتعالى قدم الأولاد في التعصيب على الأصول في قوله:

{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ} [النساء: ١١] ، ثم ذكر أن حق الأبوين مع الأولاد السدس، فقال:

﴿وَلَا يُؤْتِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١]، فكانت

أولوية الفروع على الأصول ثابتة بالعقل والنقل¹

و يقول الدهلوي: "قد علمت أن الأولاد أحق بالميراث من الوالدين، وذلك بأن يكون لهم الثلثان، ولهما الثلث، وإنما لم يجعل نصيب الوالد أكثر من نصيب الأم² لأنه اعتبر فضله من جهة قيامه مقام الوالد وذبه عنه مرة واحدة بالعصوبة، فلا يعتبر ذلك الفضل بعينه في حق التضعيف أيضاً، وعند عدم الوالد لا أحق من الوالدين، فأحاط تمام الميراث، وفضل الأب على الأم، وقد علمت أن الفضل المعتبر في أكثر هذه المسائل فضل التضعيف، ثم إن كان الميراث للأم والأخوة وهم أكثر من واحد وجب أن ينقص سهمها إلى السدس لأنه إن لم تكن الأخوة عصبية، وكانت العصباء أبعد من ذلك فالعصوبة، والرفق، والمودة على السواء، فجعل التصف لهؤلاء، والتصف لهؤلاء ثم قسم التصف على الأم وأولادها، فجعل السدس لها ألبنة لا ينقص سهمها منه، والباقي لهم جميعاً³، وإن كانت الأخوة عصباء فقد اجتمع فيهم القرابة القريبة والحماية، وكثيراً ما يكون مع ذلك ورثة آخرون كالبنات والبنين والزوج فلو لم يجعل لها السدس حصل التفسير عليهم⁴.

فالتوارث يدور على عدة معان: القيام مقام الميت في شرفه ومنصبه وما هو من هذا الباب، فإن الإنسان يسعى كل السعي، ليبقى له خلف يقوم مقامه..... ويدخل في عموم النسب الأب. والجدة. وابن. وابن الابن فهؤلاء أحق الورثة بالميراث، غير أن قيام الابن مقام أبيه هو الوضع الطبيعي الذي عليه بناء العالم من انقراض قرن وقيام القرن الثاني مقامهم، وهو الذي يرجونه، ويتوقعونه، ويحصلون الأولاد والأحفاد لأجله، أما قيام الأب بعد ابنه فكأنه ليس بوضع طبيعي، ولا ما يطلبونه، ويتوقعونه، ولو أن الرجل خير في ماله لكانت مواساة ولده أملك لقلبه من مواساة والده، فلذلك كانت السنة الفاشية في طوائف الناس تقديم الأولاد على الآباء، أما القيام مقامه فمطلته بعد ما ذكرنا الأخوة ومن في معناه ممن هم كالعضد وكالصنو ومن قوم المرأة وأهل نسبه وشرفه، وأما الخدمة والرفق فمطلنة القرابة القريبة، فالأحق به الأم والبنات ومن في معناه ممن يدخل في عموم النسب، ولا تخلو البنات من قيام ما مقامه، ثم الأخوات ولا تخلو أيضاً من قيام ما مقامه، ثم من به علاقة الزوج، ثم أولاد الأم، والنساء لا يوجد فيهن معنى الحماية والقيام مقامه

¹ محمد أبو زهرة، أحكام التركات والمواثيق: الطبعة الثانية، 2004م الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة ص 163

² الدهلوي، حجة الله البالغة تحقيق: السيد سابق الطبعة: الأولى، 2005م الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ج2 ص 186

³ الدهلوي، حجة الله البالغة تحقيق: السيد سابق الطبعة: الأولى، 2005م الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ج 2 ص 186

⁴ الدهلوي، حجة الله البالغة تحقيق: السيد سابق الطبعة: الأولى، 2005م الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ج2 ص 187

كَيْفَ وَالنِّسَاءَ زِمًا تَزَوَّجْنَ فِي قَوْمٍ آخَرِينَ، ويدخلن فيهم اللَّهَمَّ إِلَّا الْبِنْتُ وَالْأُخْتُ عَلَى ضَعْفٍ فِيهِمَا، وَيُوجَدُ فِي النِّسَاءِ مَعْنَى الرِّفْقِ وَالْحَدَبِ كَامِلًا مَوْفَرًا، وَإِنَّمَا مَطْنَةُ الْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ جَدًا كَالْأُمِّ وَالْبِنْتُ ثُمَّ الْأُخْتُ دُونَ الْبَعِيدَةِ كَالْعَمَةِ وَعَمَةُ الْأَبِ، وَالْبَابُ الْأَوَّلُ يُوجَدُ فِي الْأَبِ وَالْإِبْنِ كَامِلًا، ثُمَّ الْأُخُوَّةُ، ثُمَّ الْأَعْمَامُ، وَالْمَعْنَى الثَّانِي يُوجَدُ فِي الْأَبِ كَامِلًا، ثُمَّ الْإِبْنُ، ثُمَّ الْأَخُ لِأَبٍ¹

وَأُمُّ أَوْ لَأَمٌ، وَإِنَّمَا مَطْنَةُ الْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ دُونَ الْبَعِيدَةِ، فَمَنْ ثُمَّ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَمَةِ شَيْءٌ يَمَّا لِلْعَمِّ لِأَنَّهَا لَا تَذُبُ عَنْهُ كَمَا يَذُبُ الْعَمُّ وَلَيْسَتْ كَالْأُخْتِ فِي الْقُرْبِ، وَمِنْهَا أَنَّ الذَّكَرَ يُفْضَلُ عَلَى الْأُنْثَى إِذَا كَانَا فِي مَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ أَبَدًا لِاخْتِصَاصِ الذَّكَرِ بِحِمَايَةِ الْبَيْضَةِ وَالذَّبِّ عَنِ الذَّمِّ، وَلِأَنَّ الرِّجَالَ عَلَيْهِمْ انْفِاقَاتٌ كَثِيرَةٌ، فَهَمُّ أَحَقُّ مَا يَكُونُ شَبْهُ الْمَجَانِ، بِخِلَافِ النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ كُلُّهُنَّ عَلَى أَرْوَاجِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَسْأَلَةِ ثَلَاثِ الْبَاقِي: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُرِيَنِي أَنَّ أَفْضَلَ أُمًّا عَلَى أَبٍ، غَيْرَ أَنَّ الْوَالِدَ لَمَّا اعْتَبِرَ فَضْلُهُ مَرَّةً بِمَجْمَعِهِ بَيْنَ الْعُصُوبَةِ وَالْفَرْصِ وَلَمْ يَعْتَبَرْ ثَانِيًا بِتَضَاعُفِ نَصِيبِهِ أَيْضًا، فَإِنَّهُ غَمَطَ لِحْقِ سَائِرِ الْوَرَثَةِ، وَأَوْلَادُ الْأُمِّ لَيْسَ لِلذَّكَرِ مِنْهُمْ حِمَايَةٌ لِلْبَيْضَةِ وَلَا ذَبٌّ عَنِ الذَّمِّ، فَإِنَّهُمْ مِنْ قَوْمٍ آخَرِينَ، فَلَمْ يُفْضَلْ عَلَى الْأُنْثَى، وَأَيْضًا فَإِنَّ قَرَابَتَهُمْ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ قَرَابَةِ الْأُمِّ فَكَأَنَّهُمْ جَمِيعًا إِنَاثٌ.

وَمِنْهَا أَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْوَرَثَةِ فَإِنَّ كَانُوا فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ وَجَبَ أَنْ يُوزَعَ عَلَيْهِمْ لِعَدَمِ تَقَدُّمِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى الْآخَرِ وَإِنْ كَانُوا فِي مَنَازِلَ شَتَّى فَذَلِكَ عَلَى وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَعْصِمَهُمْ اسْمُ وَاحِدٍ أَوْ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ وَالْأَصْلُ فِيهِ أَنَّ الْأَقْرَبَ يَحْجِبُ الْأَبْعَدَ حَرَمَانًا لِأَنَّ التَّوَارِثَ إِنَّمَا شَرَعَ حَتَّى عَلَى التَّعَاوُنِ وَلِكُلِّ قَرَابَةٍ وَتَعَاوُنٍ كَالرَّفَقِ فَيَمْنُ يَعْصِمُهُمْ اسْمُ الْأُمِّ وَالْقِيَامُ مَقَامَ الرَّجُلِ فَيَمْنُ يَعْصِمُهُمْ اسْمُ الْإِبْنِ وَالذَّبُّ عَنْهُ فَيَمْنُ يَعْصِمُهُمْ اسْمُ الْعُصُوبَةِ. وَلَا تَتَحَقَّقُ هَذِهِ الْمَصْلَحَةُ إِلَّا بِأَنْ يَتَعَيَّنَ مَنْ يُؤْخَذُ نَفْسُهُ بِذَلِكَ، وَيَلَامُ عَلَى تَرْكِهِ، وَيَتَمَيَّزُ مِنْ سَائِرِ مَنْ هُنَاكَ بِالْبَلْبَلِ أَمَّا فَضْلُ سَهْمٍ عَلَى سَهْمٍ، فَلَا يَجِدُونَ لَهُ كَثِيرَ بَالٍ أَوْ تَكُونُ أَسْمَاءُهُمْ وَجْهَاتُهُمْ مُخْتَلِفَةً، وَالْأَصْلُ فِيهِ أَنَّ الْأَقْرَبَ وَالْأَنْفَعُ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عِلْمِ الْمَظَانِ الْغَالِبَةِ يَحْجِبُ الْأَبْعَدَ نُقْصَانًا.

وَمِنْهَا أَنَّ السَّهْمَ الَّذِي تَعَيَّنَ بِهَا الْأَنْصِبَاءُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاؤُهَا ظَاهِرَةً يَتَمَيَّزُهَا بِادئِ الرَّأْيِ الْحَاسِبِ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ:

" إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ " إِلَى أَنَّ الَّذِي يَلِيْقُ أَنْ يُخَاطَبَ بِهِ جُمْهُورُ الْمُكَلَّفِينَ هُوَ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعَمُّقٍ فِي الْحِسَابِ وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ يَحِثُّ يَظْهَرُ فِيهَا تَرْتِيبُ الْفَضْلِ وَالنُّقْصَانِ بِادئِ الرَّأْيِ، فَاتَّرَ السَّهْمُ مِنْ السَّهْمِ فَصْلَيْنِ: الْأَوَّلُ الثُّلَاثَانِ، وَالثَّلَاثُ، وَالسُّدُسُ، وَالثَّانِي النِّصْفُ، وَالرَّابِعُ، وَالثَّمَنُ، فَإِنْ مَخْرَجُهُمَا الْأَصْلِيُّ أَوَّلًا الْأَعْدَادُ، وَيَتَحَقَّقُ فِيهِمَا ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ بَيْنَ كُلِّ مِنْهَا نِسْبَةٌ الشَّيْءِ إِلَى ضَعْفِهِ تَرْفَعًا وَنِصْفُهُ تَنْزِلًا، وَذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَظْهَرَ فِيهِ² الْفَضْلُ وَالنُّقْصَانُ مُحْسُوسًا مُتَبَيَّنًا، ثُمَّ إِذَا اعْتَبِرَ فَضْلُ ظَهَرَ نِسْبُ الْآخَرِ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي الْبَابِ كَالشَّيْءِ الَّذِي زِيدَ عَلَى النِّصْفِ، فَلَا يَبْلُغُ التَّمَامَ وَهُوَ الثُّلَاثَانِ، وَالشَّيْءُ الَّذِي يَنْقُصُ عَنِ النِّصْفِ، وَلَا يَبْلُغُ الرَّابِعَ وَهُوَ الثُّلُثُ، وَلَمْ يَعْتَبَرْ الْخُمْسُ، وَالسَّبْعُ لِأَنَّ تَخْرِيجَ مَخْرَجِهِمَا أَدَقُّ، وَالتَّرْفَعُ وَالتَّنْزِلُ فِيهِمَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعَمُّقٍ فِي الْحِسَابِ³

¹ الدهلوي، حجة الله البالغة تحقيق: السيد سابق الطبعة: الأولى، 2005م الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ج2 ص184

² الدهلوي، حجة الله البالغة تحقيق: السيد سابق الطبعة: الأولى، 2005م الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت (2/ 185)

³ الدهلوي، حجة الله البالغة تحقيق: السيد سابق الطبعة: الأولى، 2005م الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت (2/ 186)

المطلب الثاني : البعد الاجتماعي والنفسي والاقتصادي لتقديم الذكور على الاناث

إن من تأمل هذا الحكم في ضوء الواقع الاجتماعي وجد أنه يحقق استقرار الأسرة، ويضمن للمرأة مآلاً خاصاً بما لا يُطالب بإنفاقه، مما يرفع عنها أعباء الحياة. كما أن نصيب الرجل الأكبر يساعده على الإيفاء بالتزاماته الشرعية تجاه أسرته. وهذا ما أشار إليه ابن القيم في "إعلام الموقعين" بقوله : "وأما الميراث فحكمة التفضيل فيه ظاهرة؛ فإن الذكر أحوج إلى المال من الأنثى؛ لأن الرجال قوامون على النساء، والذكر أنفع للميت في حياته من الأنثى. وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله بعد أن فرض الفرائض وفاوت بين مقاديرها {أبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا} [النساء: 11] وإذا كان الذكر أنفع من الأنثى وأحوج كان أحق بالتفضيل.

فإن قيل: فهذا ينتقض بولد الأم. قيل: بل طرد هذه التسوية بين ولد الأم ذكراً وأنثاهم، فإنهم إنما يرثون بالرحم المجرد، فالقربة التي يرثون بها قرابة أنثى فقط، وهم فيها سواء؛ فلا معنى لتفضيل ذكراً على أنثاهم، بخلاف قرابة الأب¹

وعلى المستوى الأسري والاجتماعي يتبين أن التعصيب يهدف إلى تقوية الروابط الأسرية و تحقيق التكافل، من خلال تمكين العصبية الأقربين (الذين تقع عليهم مسؤوليات أكبر) من القيام بواجباتهم في النفقة والحماية والنصرة، مما يحافظ على كيان الأسرة الممتدة. كما يساهم في تحقيق الاستقرار الاجتماعي بتوزيع الأدوار والمسؤوليات بوضوح، وربط الحقوق بالواجبات، وتأكيد مقصد حفظ النسب، والتوافق مع الفطرة الإنسانية والأعراف الاجتماعية المقبولة شرعاً.

ومن الناحية النفسية، فإن هذا التنظيم يمنع النزاع ويحقق الطمأنينة بين الورثة، وهو ما تفتقده بعض الأنظمة الوضعية التي تسوي بين الجميع دون اعتبار للوظائف الاجتماعية.

● الحكمة من نقل بعض الاناث من الإرث بالفرض إلى الإرث بالتعصيب

وربما يسأل أحد عن الحكمة من أن قواعد الميراث أخرجت بعض النسوة البنات وبنت الابن والأخت الشقيقة، والأخت لأب من الإرث بالفرض وأدخلتهن نظام الإرث بالتعصيب متى وجد مع واحدة منهن عاصب مساو لها في جهة القرابة ودرجتها وقوتها؟. ويبدو أن الحكمة من نقل الإناث من الإرث بالفرض إلى الإرث بالتعصيب بالغير ربما تكمن في أن الرجال والنساء في هذه الأحوال كلهم على درجة واحدة من استحقاقهم للميراث فلو فرض للنساء دون الرجال فرض مقدر لأفضى ذلك إلى تفضيل الأنثى على الذكر أو مساواتها إياه أو إسقاطه بالكلية، فكانت المقاسمة أعدل وأولى؛ وفي بيان ذلك يقول ابن قدامة: "أربعة من الذكور يعصبون أخواتهم، فيمنعونهن الفرض، ويقتسمون ما ورثوا للذكر مثل حظ الأنثيين وهم الابن وابن الابن وان نزل والأخ من الأبوين والأخ من الأب... وذلك لقول الله تعالى: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ" (النساء: ١١)، فهذه الآية تناولت الأولاد وأولاد الابن، وقال تعالى ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: 176]

فتناولت ولد الأبوين وولد الأب، وإنما اشتركوا لأن الرجال والنساء كلهم وارث فلو²

¹ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، إعلام الموقعين عن رب العالمين تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1991م (2/ 115)

² د. يوسف محمد يوسف السيد الهنداوي، الإرث بالتعصيب في الشريعة الإسلامية بين حقائق الإسلام ودعاوى المطالبين بالغائه كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ص 526

فرض للنساء فرض أفضى إلى تفضيل الأنثى على الذكر أو مساواتها إياه أو إسقاطه بالكلية، فكانت المقاسمة أعدل وأولى¹ ويلاحظ أن الأنثى التي لا فرض لها لا تكون عصبه بأخيها العاصب بنفسه، كالعمة مع العم، وبنت العم مع ابن العم وبنت الأخ مع ابن الأخ؛ لأنها ليست صاحبة فرض في الأصل، ولا ترث منفردة فلا ترث مع العاصب شيئاً، وفي ذلك يقول ابن قدامة: "وسائر العصابات ينفرد الذكور بالميراث دون الإناث، وهم بنو الأخ والأعمام وبنوهم... وسائر العصابات ليس أخواتهم من أهل الميراث؛ فإنهن لسن بذوات فرض ولا يرثن منفردات فلا يرثن مع إخوتهن شيئاً، وهذا لا خلاف فيه² وسوف يأتي بيان الحكمة من ذلك.

ج - العصبه مع الغير وتشمل كل أنثى صاحبة فرض في الأصل تصير عصبه باجتماعها مع أنثى أخرى غيرها صاحبة فرض، ولا تشارك الأنثى المستحقة بالفرض تلك الأنثى المستحقة بالتعصيب في نصيب العصبه، أو العكس، وإنما تبقى صاحبة الفرض على فرضها، وتستقل صاحبة العصبه مع الغير بنصيب العصبه الذي يختلف من مسألة لأخرى.. وللعصبه مع الغير حالتان فقط هما³

الأولى: الأخت الشقيقة - واحدة فأكثر - مع البنت - واحدة فأكثر - أو بنت الابن - واحدة فأكثر - أو الموجود منهن معاً، بشرط أن لا يوجد مع الأخت الشقيقة أخ شقيق أو أكثر؛ لأنه إذا وجد كان إرثها حينئذ بالتعصيب بالغير، وليس بالتعصيب مع الغير.

الثانية: الأخت لأب - واحدة فأكثر - مع البنت - واحدة فأكثر - أو بنت الابن - واحدة فأكثر - أو الموجود منهن معاً، بشرط أن لا يوجد مع الأخت لأب أخ لأب أو أكثر؛ لأنه إذا وجد كان إرثها حينئذ بالتعصيب بالغير، وليس بالتعصيب مع الغير. وفي حالتي العصبه مع الغير ترث الأخت أو الأخوات الباقي من المال بعد أن يأخذ الموجود من أصحاب الفروض فروضهم بمن فيهم الفرع الوارث المؤنث. وتصبح الأخت الشقيقة التي تصير عصبه مع البنت أو بنت الابن كأخ شقيق، فتحجب أبناء الإخوة الأشقاء والإخوة لأب وأبناءهم والأعمام وأبناءهم، وكذا تصبح الأخت لأب التي تصير عصبه مع الغير - أي مع البنت أو بنت الابن - كأخ لأب، فتحجب أبناء الإخوة الأشقاء، وأبناء الإخوة لأب والأعمام وأبناءهم. وهذا امتياز أعطته الشريعة الإسلامية للأنثى في مواجهة بعض الذكور.⁴

إذا وجد للمتوفى ورثة من أصحاب الفروض فإن مجموع فروضهم لا يخرج عن احتمالين؛ الأول: أن تستغرق هذه الفروض المال جميعه والثاني: أن يبقى جزء من التركة بعد هذه الفروض، وفي هذا الاحتمال الأخير إما أن يوجد ورثة من العصابات، فيستحقون هذا الباقي،

إذن يتبين أن حكم "للذكر مثل حظ الأنثيين" ليس تمييزاً جنسياً، بل هو جزء من منظومة متكاملة تراعي العدالة التوزيعية وفقاً للمسؤوليات. وقد أكد الطبراني في حديث صحيح أن "السعي على العيال جهاد"، مما يربط بين النصيب الأكبر في الميراث والجهد

¹ المغني، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي تحقيق: د. عبد الله التركي، عبد الفتاح الحلو الطبعة: الطبعة الثالثة، 1997م الناشر: دار عالم الكتب، الرياض ٩/١٨.

² المغني تحقيق: د. عبد الله التركي، عبد الفتاح الحلو الطبعة: الطبعة الثالثة، 1997م الناشر: دار عالم الكتب، الرياض ٩/١٨.

³، السرخسي (المتوفى: 483هـ)، المبسوط الناشر: دار المعرفة - بيروت الطبعة: بدون طبعة تاريخ النشر: 1414هـ-1993م المبسوط ٢٩/١٥٧، والمغني: ٩/٩.

⁴ د. يوسف محمد يوسف السيد الهنداوي، الإرث بالتعصيب في الشريعة الإسلامية بين حقائق الإسلام ودعاوى المطالبين بإلغائه كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ص 527

المبدول لتحقيق الاستقرار الأسري . فالشريعة، كما قال الشاطبي في "الموافقات"، تهدف إلى "جلب المصالح ودرء المفاسد"، وهذا الحكم خير دليل على تحقيق تلك المقاصد.

خاتمة:

وبعد هذه الجولة العلمية المباركة في رحاب أحكام الموارث الإسلامية، وتقليب النظر في مقاصد نظام التعصيب ومآلاته الاقتصادية والاجتماعية، نخلص إلى جملة من النتائج والمقررات العلمية التي تؤكد عظمة التشريع الإلهي وحكمته البالغة في تنظيم شؤون المال والثروة.

أولاً: النتائج الجوهرية للبحث

لقد تبين من خلال هذا البحث أن نظام التعصيب في الشريعة الإسلامية ليس مجرد أحكام تعبدية محضة، بل منظومة متكاملة تحقق مقاصد عليا في العدالة التوزيعية وإدارة الثروة. فمن الناحية المقاصدية العامة، يتجلى هذا النظام في حفظ أموال الورثة من الضياع والتبديد، وضمان وصولها إلى مستحقيها وفق ميزان العدل الإلهي، كما يحقق التوازن المطلوب بين الاستقرار المالي للأسرة والتحفيز على الاستثمار والتنمية الاقتصادية.

وأما من ناحية المقاصد الخاصة، فقد أظهر البحث أن أثر نظام التعصيب على الحالة المادية للعصبة يتجاوز البعد الفردي إلى آفاق اقتصادية أوسع، حيث يوجه الثروة نحو من هم أقدر على استثمارها وتنميتها، مما يحقق مبدأ الكفاءة الاقتصادية دون إخلال بالعدالة الاجتماعية، كما تبين من خلال البحث الحكمة البالغة في انتقال بعض الإناث من الإرث بالفرض إلى الإرث بالتعصيب، والذي يحقق لمن مصلحة مالية أعظم في حالات معينة، مما يدحض مزاعم التمييز ويؤكد عدالة التشريع الإسلامي المطلقة.

وختاماً، فإن هذا البحث يؤكد أن نظام التعصيب في الشريعة الإسلامية يمثل نموذجاً فريداً في التوفيق بين العدالة والكفاءة، وبين المصالح الفردية والاجتماعية، وبين الثوابت الشرعية والمتغيرات الاقتصادية، وهو ما يؤكد عالمية الرسالة الإسلامية وصلاحياتها لكل زمان ومكان، ويدعو المسلمين إلى الاعتزاز بشريعتهم وتطبيق أحكامها في جميع شؤون الحياة.

وما هذا البحث إلا محاولة متواضعة للكشف عن بعض جوانب الحكمة الإلهية في أحكام الموارث، ولا نزعم الإحاطة بجميع أبعادها ومقاصدها. فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- صحيح البخاري
- صحيح مسلم
- ابن عاشور، التحرير والتنوير، الطبعة: الطبعة الأولى، 1984م الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس
- ابن كثير، تفسير القرآن تحقيق: سامي بن محمد سلامة الطبعة: الطبعة الثانية، 1999م الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض
- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقراقي (المتوفى: 684هـ): الفروق أنوار البروق في أنواء الفروق ، الناشر: عالم الكتب
- أحمد الريسوني: مقاصد المقاصد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، ومركز المقاصد للدراسات والبحوث، الرباط، الطبعة الثالثة 2014م؛ والذريعة إلى مقاصد الشريعة، دار الكلمة، القاهرة 2015م
- الدهلوي، حجة الله البالغة تحقيق: السيد سابق الطبعة: الطبعة الأولى، 2005م الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت
- السرخسي (المتوفى: 483هـ)، المبسوط الناشر: دار المعرفة - بيروت الطبعة: بدون طبعة تاريخ النشر: 1414هـ-1993م المبسوط، والمغني:
- الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز الطبعة: الطبعة الأولى، 1997م الناشر: دار ابن عفان، السعودية 372
- الشيرازي أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف (ت ٤٧٦ هـ) المذهب في فقه الإمام الشافعي الناشر: دار الكتب العلمية
- ابن قدامة المقدسي المغني ، تحقيق: د. عبد الله التركي، عبد الفتاح الحلو الطبعة: الطبعة الثالثة، 1997م الناشر: دار عالم الكتب، الرياض
- محمد أبو زهرة، أحكام التركات والمواثيق الطبعة: الطبعة الثانية، 2004م الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة
- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، إعلام الموقعين عن رب العالمين تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1991م
- د. يوسف محمد يوسف السيد الهنداوي، الإرث بالتعصيب في الشريعة الإسلامية بين حقائق الإسلام ودعاوى المطالبين بإلغائه كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

القياس كآلية اجتهادية بين الأصوليين والنحاة

د. ياسين أبومارية

باحث في النحو واللسانيات

المملكة المغربية

الملخص:

يتناول هذا المقال أهمية القياس في كل من علمي النحو والفقه، مشيراً إلى دوره المحوري في تسوية المسائل الشائكة وتيسير الوصول إلى الأحكام، بحيث يسهل الفهم ويساعد على التوصل إلى الحلول بسهولة ومرونة.

بناءً عليه، يعرض المقال القياس كأداة فكرية عقلية تجمع بين الفقه والنحو، ويستعرض مثلاً في الفقه مثل قياس تحريم شرب الخمر على تحريم النبيذ بسبب العلة المشتركة بينهما، كما يُبرز أن القياس يُستخدم أيضاً لرفض بعض الآراء المخالفة من خلال تقديم مبررات منطقية ومقارنات صحيحة، ويخلص في الأخير إلى أن القياس لا يُقتصر فقط على فروع النحو والفقه، بل هو قاعدة عامة يمكن تطبيقها في مختلف العلوم والمعارف، حيث يساهم في تأصيل الحقائق وتوضيح القضايا المعقدة.

الكلمات المفتاحية: القياس، علم الأصول، النحو، العلة.

مقدمة:

نكد وكدا إلى مقدمة ذات ملح وأمانة، في متنها دقيق الإيجاز والإشارة، وإيجاء بتلطف في اللفظ والعبارة، تعرض لذات القياس العلية ومزياته الجليلة، من تحفه العجيبة الوضع غريبة الصنع، من كل فن فيه مستطرف وكل أدب فيه مستلطف، وعدلنا به إلى حيز الرفعة والإجادة، ليتبين فضله في علم النحو، ويتجلى نمطه في علم الفقه، فضررنا عن غثه إلى سمينه، وعن عرضه إلى جوهره، راجين إصابة الإبانة.

رامين في كل أولئك إلى إرادة حلله البهية والحوائج التي سعت بين يديه مقضية، لنقضي إلى جوهر العبر وغور السور، ونخلع عليه من محاسنه الجوامع وحرزه المواع، نروم به عن عين الاقتراح وذات الاجترار.

حلّ القياس من النحو والفقه كما يحلّ الجذر مما فوقه، أو كما تحلّ النار من القدح، وجرى بالقياس قوت ونماء هن بن العلمين، كحال الشجرة إذا اشتد جذعها، وامتد عضها، فبرزت أكمامها، ولانت ثمارها، فصارت هينة عند المطلب، سهلة عند القطف، فرجيت منها حاجة الطالب، وقضيت بها خصاصة الأرب.

فكل أولئك منافع لم تكن لتترك لولا اشتداد الجذر وتمكن ضربه في الأرض، وكذلك الشأن بين النحو والفقه، والقياس. إذ أسبغ على العلمين في مد أصولها ووصل فصولها وسدّ خلاهما حتى أحكم متنها واشتد عودهما وقصي فيهما الأمر بتمام الهيئة وكمال الصبغة، ثم فيهما الاعتبار بحسن الاختيار.

تكلم الأصوليون والنحاة في القياس، فابتغى كل ضالته ورام إلى ما ظنه الحق والصواب، باسطة مذهبه ما يشفع له من الحجج والبراهين، ففرقت بهم السبل واختلقت بهم الطرق وتشعبت بهم الأسباب دون الغايات، فكاد أن بصيهم عياء دون المقاصد وفتور قبل الفوائد، وكذلك الشأن في العظيمات من المسائل لا يضرب فيها برأي حاسم، ولا ينتهي عندها بمذهب فاصل، ويكون التعويل فيها على التفتيش والتنقيير في مواضع التهم كيف ينفي الزيغ وتدفع الشبهة وترفع التهمة، فيقام الحق في نصابه وما دونه في نصابه.

حاز القياس من أصول النحو والفقه القدح المعلى والمزاج الحلى من الفضل، فإذا نظر النحوي أو الفقيه رأيه في المسألة، ولم يجد لها مسلكاً ولا متخلصاً من وجوه التخريج، لانعدام السبب المادّ بوصله بطرق التبعية، لم تسعفه حيلة إلا أن يحمل المسألة على قاعدة أو أصل، لقريئة جامعة، بين الفرع والأصل، فيأخذ من الأصل بقبس يفتح به مخرجاً من حصره المعجز له، وبه يفتح باباً ما كان ليفتح دونه، ولظل النحوي أو الفقيه ردحا من الزمن على باب المسألة يتطلب لها مخرجاً ويتكلف لإدراكها منفذاً، وما كان ذلك ليكون له بلا قياس.

1- في مفهوم القياس:

1.1- القياس لغة:

القياس مصدر قاس، وهو واوي ويائي يقال: "قاس يقوس قوساً - وقاس قيساً وقياساً"، والفاعل منه مُقياس، والمقياس المقدر، والقاف والواو والسين أصل واحد يدل على تقدير شيء بشيء، يقال: قست الشيء بغيره أقيسه قيساً وقياساً فانقاسا، إذا قدرته على مثاله، وفيه لغة أخرى: قسته أقوسه قوساً وقياساً، ولا يقال: أقسته، والمقدار مقياس، وقايست بين الأمرين مقياسة وقياساً، والقياس رد الشيء إلى نظيره.

يقال: قاس الثوب بالذراع بمعنى قدره، والتقدير يلزم منه المساواة، ويقال أيضاً: قايست فلاناً، إذا جاريته في القياس، وهو يقتاس الشيء بغيره. أي: يقيسه به، ويقتاس بأبيه اقتياساً، أي: يسلك سبيله ويقتدي به¹.

وبتأمل هذه الاستخدامات يتبين أن للقياس في لسان العرب ثلاثة معانٍ جوهرية: التقدير، التسوية، الاعتبار والنظر.

أما عند الأصوليين، فقد تنوعت تعاريفهم للقياس وتعددت عباراتهم في توصيفه، فذكروا بمعاني منها: التقدير، المساواة، الإصابة، الاعتبار، التمثيل، التشبيه، والمماثلة²، وهي وإن تعددت في الظاهر، إلا أنها تلتقي في جوهر المعنى، إذ يُلاحظ أن الاعتبار، والتمثيل، والتشبيه، والمماثلة تكاد تكون مترادفات، كما أن التقدير والإصابة متقاربان إن لم يكونا مترادفين.

وعليه، فإن هذه المعاني على اختلاف ألفاظها تقول في نهايتها إلى ثلاث دلالات رئيسية: التقدير، التسوية، والإصابة، وهي أركان المعنى اللغوي للقياس، الذي يُعدّ في نظر العقلاء أداة منهجية تجمع بين النظر الدقيق والتقدير الرشيد، وسيلة لردّ الفرع إلى الأصل، واستنباط الحكم من المثال.

2.1- القياس اصطلاحاً:

أورد أبو البركات بن محمد الأنباري تعريفين للقياس، فالأول في كتابه (الإغراب في جدل الإعراب)، وهو قوله: "وأما القياس فهو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه كرفع الفاعل، ونصب المفعول في كل مكان، وإن لم يكن كل ذلك منقولاً عنهم، وإنما لما كان غير المنقول عنهم من ذلك في معنى المنقول كان محمولاً عليه، وكذلك كل مقيس في صناعة الإعراب"³.

وقد أوجز جلال الدين السيوطي هذا التعريف وقال معقبا: "وهو معظم أدلة النحو، والمَعُول في غالب مسائله عليه، كما قيل: إنما النحو قياس يتبع"⁴.

وعند الأصوليين، اختلفت أقوالهم في تعريف القياس، أهو من فعل المجتهد فهو مثبت وكاشف لهذا الدليل، أم هو دليل مستقل والمجتهد مظهر لهذا الدليل، وفيما يلي بيان لكل مذهب:

• **تعريف القياس باعتباره فعل للمجتهد:** عرف أصحاب هذا المذهب القياس بما يثبت أنه عمل من أعمال المجتهد لا يتحقق إلا بوجوده، فقالوا بأن القياس هو: "حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم لهما أو نفيه عنهما بأمر جامع بينهما من إثبات حكم أو صفه لهما أو نفيه عنهما"⁵.

• **تعريف القياس باعتباره دليل مستقل:** عرف أصحاب هذا المذهب القياس بما يثبت أنه دليل مستقل كالكتاب والسنة، نصبه الشارع للدلالة على الأحكام، فعرّفه ابن الحاجب بأنه: "مساواة فرع لأصل في علة حكمه"⁶.

بعد عرض تعاريف القياس، نجد أن فريقاً من العلماء يرى فيه فعلاً يصدر عن المجتهد، فعبروا عنه بـ "الحمل"، والحمل فعل الحامل، والمجتهد هو من ينهض بهذا الفعل، فيقوم برّد الفرع إلى الأصل لعله جامعة بينهما. في المقابل، يرى فريق آخر أن القياس دليلٌ مستقلٌ

¹ - الأزهري، تهذيب اللغة، 2/2285، ومعجم مقاييس اللغة، 40/5، والمصباح المنير، الفيومي، ص 10، مادة (قاس)

² - ينظر: الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، 6/5.

³ - أبو البركات الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب، ص 46.

⁴ - جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ص 152.

⁵ - هذا التعريف للقياس أصله للقاضي أبي بكر الباقلاني، صرح بذلك الجويني، البرهان في أصول الفقه، 2/5 ونقله عنه الآمدي في الإحكام، 3/186 والبحر المحيط، 7/9.

⁶ - مصطفى الزحيلي، الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، 1/238.

نصبه الشارع، وعبروا عنه بألفاظ مثل التسوية والإبانة والمساواة، حيث تكون التسوية هنا تسوية من الله تعالى بين محلين في الحكم لوجود علة مشتركة.

وللتوفيق بين هذين الاتجاهين، يمكن القول إنه لا تعارض بين كون القياس فعلا يجريه المجتهد، وبين كونه دليلا شرعيا نصبه الشارع للاهتمام به إلى الأحكام؛ فالمجتهد إنما يفعل هذا الدليل بإعمال نظره فيه، وبهذا يجتمع الفعلان: النص من الشارع، والاجتهاد من الفقيه، ويتكامل الجانب الشرعي والعقلي في استنباط الحكم.

2- دور القياس:

مبدأ القياس مناط التحويل وموطن التأويل وحرز من التحويل، وفوق كل أولئك المزايا محل إجماع، اجتمع النحاة والأصوليون على قوام مذهبه وحسن الاعتبار والاخذ به، وقلما يجتمع لمبدأ حظ الإجماع، وما شفع له حيازة فضل الإجماع، شدة اطراده في الأبواب والفصول والمسائل الفقهية والنحوية، ثم عموميته في العلوم والآداب والفنون، لكونه من المبادئ العقلية الكلية، المستوعبة في كل تأمل فكري أو اجتماعي عقلي من كل أدب أو فكر أو فن.

ومن محاسنه أنه غالبا ما يحتاج إليه في الحين الذي تعجز فيه أصول غيره بالكلاله والعبي فيلتمس به الوجه بجملة على أصل من جهة المشابهة أو المواطأة وكما وقع عليه الإجماع في تقرير وتخريج المسائل، وقع به حث للنحاة - بخاصة - على طلب الخلاف وكثرة التخاريج وإسباغ التأويل.

فاتخذ النحاة ذريعة يحتمون بها وحرزا يتقون به في تخريج مذاهبهم والاستدلال لشرائعهم، لعلمهم أنه دليل لا يبدى بعده الخصيم ولا يعيد، فيتخرج من نقضه لما حازه من حسن فضل الإجماع.

ومن درر القياس استنباط الحكم الفقهي أو النحوي، دليله ما صنعه أبو العباس ثعلب (ت291هـ)، حين أجاز جمع بريء على بُراء، والأصل المسموع بُراء فأسقط الهمزة الأولى، لما قاسه على قول أعرابية: "أفي السَّوَة"، والأصل: "السَّوَة"، فلما قالت السَّوَة أسقطت الهمزة، فقاس على قولها وبني عليه فحذف همزة: "بُراء" لتصير: "براء"¹.

و مثاله في علم الفقه قياس تحريم إعطاء الشيء على تحريم أخذه، فاستنبطت من ذلك القاعدة الفقهية الشهيرة: "ما حُرِّم أخذه حُرِّم إعطاؤه"، هذا في شأن، والذي نعقبه في شأن، من محاسن القياس، فيتغيا به اللغوي أو الفقيه في تعليل المسألة كصنيع الكسائي حين عدَّى الفعل: "رضي" بحرف الجر: "على" والأصل فيه أن يُعدَّى ب: "عن"، كقول: "رضي الله عنهم ورضوا عنه"، فعمل الكسائي المسألة بأنه يجوز قياس الشيء على ضده، فقاس "رضي" على: "سخط"، فكما تقول: "سخط على فلان"، تقول: "رضي على فلان"، و منه في علم الفقه تعليل تحريم التبيذ بالقياس على حرمة شرب الخمر، لجامع الإسكار فيهما معا.

ومن محاسن القياس المعتبرة أن يتخذ حجة في رفض المسألة، كرفض البصريين مسألة الكوفيين في كون: "إن" المشبهة بالفعل لا تعمل في الخبر، وتعمل في الاسم فقط، فرفض البصريون ذلك بقياس: "إن" على العوامل الناصبة، فلا يوجد في العربية عامل بعمل فينصب إلا ورفع.

¹ - ينظر: ابن جني، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، 371/2.

3- القياس اللغوي:

القياس أصل من أصول النحو، وفي حدّ أصول النحو قال جلال الدين السيوطي: "علم يبحث فيه عن أدلة النحو الإجمالية من حيث هي أدلته وكيفية الاستدلال بها"¹، وقال أبو البركات الأنباري: "أصول النحو: هي أدلة النحو التي تفرعت منها فروعها وفصوله، كما أن أصول الفقه أدلّة الفقه التي تنوعت عنها جملته وتفصيله"².

الأصل النحوي القياسي يُقام دليلاً على باب المسألة، حاجباً للتهم والريب، بحمل الفرع محمل الأصل، أو إعطاء المقيس حكم المقيس عليه، لجامع من المواطأة أو الموافقة أو المشابهة، ولما فيه من قوة الاستدلال، ذكره النحاة المؤصلون للمسألة في بادئ الأمر فجمعه ابن جني في خصائصه مع الإجماع والسماع، وجمعه ابن الأنباري في لمعه مع النقل والاستصحاب.

وللقياس أركان أربعة³:

- أصل مقيس عليه؛
- فرع مقيس؛
- حكم؛
- علة جامعة.

فكما رُفِعَ نائب الفاعل قياساً على الفاعل لعلّة جامعة هي الإسناد، فالأصل المقيس عليه هو الفاعل، والفرع المقيس هو نائب الفاعل، والحكم المشتتمل على ذات الاثنين الرفع، والعلّة الجامعة الموجبة لجواز القياس الإسناد، ومن أحكام القياس في النحو:

- ألا يكون المقيس عليه شاذاً، والقاعدة الذهبية عند الأصوليين: "الشاذ لا يقاس عليه"، أو "الشاذ لا حكم له"، فالعادل عن سنن العرب في جريان كلامها لا يحسُنْ به أن يكون أصلاً فيُحْمَلْ عليه فرعٌ، فمن أركان القياس الأصل المقيس عليه، والشاذ لا يكون أصلاً في نفسه، فكيف يكون أصلاً لغيره.

- كما لا يقاس على الشاذ نطقاً لا يقاس عليه تركاً.

- ليس من شروط القياس الكثرة، فقد يقاس على القليل لموافقته القياس، على ألا تبلغ به قلته الشذوذ، كما يمتنع القياس على الكثير إذا لم يوافق القياس، فالمعتبر عند النحاة لإجراء القياس حُسن الموافقة.

- والقياس في النحو على أربع هيئات⁴:

- ✓ حَمَلُ فرعٍ على أصلٍ؛
- ✓ حَمَلُ أصلٍ على فرعٍ؛
- ✓ حَمَلُ نظيرٍ على نظيرٍ؛
- ✓ حَمَلُ ضدٍ على ضدٍ.

¹ - جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ص 25.

² - أبو البركات الأنباري، لمع الأدلة، ص 80.

³ - أبو البركات الأنباري، لمع الأدلة، ص 93.

⁴ - السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص 101.

4- القياس الفقهي:

القياس من الأصول التي اتفق عليها الأصوليون، وهو الأصل الرابع عندهم بعد القرآن والسنة والإجماع، جُمعت في قول ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ¹﴾، ف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ محملة على القرآن، و: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ محملة على السنة، و: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ تدل على الإجماع، و: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ²﴾ محملة على القياس، والقياس عند الأصوليين رَدُّ واقعة غير منصوص عليها إلى واقعة منصوص عليها، لاتفاقها في العلة، ومنه اتفاقها في الحكم، وأركان القياس الفقهي لا تخرج عن القياس اللغوي، وهي³:

- الأصل المقيس عليه؛
- الفرع المقيس؛
- الحكم؛
- العلة الجامعة.

والعلة في ذلك أن القياس اللغوي أخذ مسألته وتنظيم موضوعه من القياس الفقهي، أو الأصول اللغوية أخذت ماهيتها من الأصول الفقهية، فالأصول يقال: واحدة والعلوم متفرقة، فحاز الفقه بأوليته فضل السبق، وحاز النحو بإسباغه فضل التصديق، يقول فاطر الأصول النحوية جلال الدين السيوطي في كتابه "الاقتراح في أصول النحو". وهو أصول النحو الذي هو بالنسبة إلى النحو كأصول الفقه بالنسبة للفقه وإن وَقَعَ فِي مُفْتَرَقَانِ كَلَامٍ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ وَتَشَتَّتَ فِي أَثْنَاءِ كِتَابِ الْمُصَنِّفِينَ فَجَمَعُهُ وَتَرْتِيبُهُ صُنْعٌ مُخْتَرَعٌ وَتَأْصِيلُهُ وَتَبْوِيهِ وَضَعٌ مُبْتَدَعٌ وَمِنْ تَفَاضُلِ الْعُلُومِ، أَنْ يَحْكُمَ بِالْفَضْلِ لِلْفَقْهِ عَلَى النُّحُو فِي الْأَصُولِ الْأَسْبَقِيَّةِ الْفَقْهِ وَتَبْعِيَّةِ النُّحُو، وَلِقَلَّةِ تَأْلِيفِ النُّحَا فِي هَذَا الْبَابِ بِخِلَافِ الْأَصُولِيِّينَ، وَلَا طَرَادٍ الْأَصُولِ فِي الْكُتُبِ وَالْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ، بِخِلَافِ النُّحُو، فَالنُّحُو تَفَرَّعَ عَنِ الْفَقْهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، نَجْمَعُ مَا سَلَفَ فِي أَنْ حَالَ الْقِيَاسُ مَعَ الْعَالَمِ كَحَالِ الْحَرِّيَّةِ مَعَ الْقَافِلَةِ، فَالْقِيَاسُ يَسْلُكُ بِالْعَالَمِ فِي الْمَسَائِلِ لِيُبَلِّغَهُ الْمَدَارِكُ مِنْ غِيَابِ التَّأْوِيلِ وَمَا يَكُونُ بَيْنَ الشُّكِّ وَالْيَقِينِ، مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ الْمِمَّوَّهَةِ الْحَمَّالَةِ لَوُجُوهِ التَّنَاقُضِ وَالتَّعْمِيمِ عَنِ إدْرَاكِ الشَّيْءِ بِالْمَاهِيَةِ وَالذَّاتِيَّةِ.

¹ - سورة النساء، الآية 59.

² - سورة النساء، الآية 59.

³ - عياض بن نامي السلمي، أصول الفقه الذي لا يسعُ الفقيه جهله، ص 145.

خاتمة:

إن القياس، كما تبين مما تقدم، ليس مجرد أداة لغوية أو تقنية فقهية، بل هو منهج عقلي جامع بين اللغة والفقه، بين النقل والعقل، وبين التأمل النظري والتطبيق العملي. وقد اتضح أن مفهومه اللغوي يدور حول معاني التقدير والتسوية والاعتبار، وهي دلالات تعكس جوهر القياس كأداة للربط والمقارنة والموازنة. أما في الاصطلاح، فقد تنوعت مدارس بين كونه فعلاً اجتهادياً ودليلاً شرعياً مستقلاً، لكن كلا الاتجاهين يلتقيان في غايته الكبرى: ردّ الفرع إلى الأصل لعله جامعة.

لقد اكتسب القياس شرعيته ومكانته من اطرافه، وعموميته، وإجماع العلماء عليه، سواء في النحو أو الفقه، مما جعله حكماً في مواضع الشك، ووسيلة لإضفاء العقلانية على الأحكام والمسائل. وتأمل نماذج التطبيقية، نلمس كيف كان أداة فاعلة في الاستنباط، والتعليل، والتخطة، وحتى التصحيح.

وهكذا، فالقياس ليس مجرد مبدأ علمي، بل هو أساس معرفي يسلك بالعالم في دروب الفهم العميق، ويُخرجه من ظلمة التردد إلى نور اليقين، فيبقى بذلك أداة لا غنى عنها في كل علم يتأسس على منطق العقل وانضباط اللغة.

قائمة المصادر والمراجع:

✓ القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

- الأمدي، أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، علّق عليه: عبد الرزاق عفيفي، قام بتصحيحه: عبد الله بن عبد الرحمن بن غديان و علي الحمد الصالحي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط 2، 1402هـ
- الأزهرى، أبو منصور، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001.
- الأنباري، أبو البركات:
- الإغراب في جدل الإعراب، تقديم: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1971.
- لمع الأدلة في أصول النحو، تقديم: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1971
- ابن جني، أبو الفتح، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1997.
- الجويني، أبو المعالي، البرهان في أصول الفقه، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1997.
- الزحيلي، محمد مصطفى، الوجيز في أصول الفقه الإسلامي (المدخل - المصادر - الحكم الشرعي)، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 2، 2006.
- الزركشي، أبو عبد الله، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتيبي، الأردن، ط 1، 1994.
- السيوطي، جلال الدين، الاقتراح في أصول النحو وجدله، حققه وشرحه: د. محمود فجال، وسمى شرحه (الإصباح في شرح الاقتراح)، دار القلم، دمشق، ط 1، 1989.
- عياض بن نامي السلمي، أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، دار التدمرية، الرياض، ط 1، 2005.
- ابن فارس، أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، 1979.
- الفيومي، أحمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.

التصوف الإسلامي بالمغرب:

مقاربة تاريخية

محمد شجال

طالب باحث بسلوك الدكتوراه

الدراسات الأدبية واللسانية والثقافية

مختبر السرد والأشكال الثقافية: الأدب واللغة والمجتمع

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال

جامعة السلطان مولاي سليمان

المملكة المغربية

الملخص:

يعد التصوف من المواضيع التي تشغل بال الباحثين والدارسين للتراث الإسلامي، ونظرا لأهمية هذا الموضوع، تأتي هذه المقالة الموسومة بـ " التصوف الإسلامي بالمغرب: مقاربة تاريخية " كمحاولة منا لتسليط الضوء على جانب مهم من تراث المغرب الديني. تهدف هذه الدراسة أساسا إلى محاولة الإجابة عن سؤال: كيف انتقل التصوف إلى المغرب؟ وكيف انتشر؟ وذلك برصد السياقات التاريخية للانتقال والعوامل التي أدت إلى انتشاره في البلاد.

الكلمات المفتاحية: التصوف، التصوف الإسلامي، المغرب، مفهوم التصوف، الزهد، الرباط،

مقدمة:

عرف المغرب منذ القرون الهجرية الأولى ظهور وانتشار ظاهرة التصوف الإسلامي الوارد من المشرق، لكن من الصعب تحديد بداية دقيقة لهذه الظاهرة في الزمان والمكان على أرض المغرب خاصة على جهة الممارسة الصوفية، ويعزى ذلك إلى قلة الإشارات التاريخية لهذا الموضوع، وإلى صعوبة الفصل بين الأشخاص وتصنيفهم بين فقيه وزاهد ومتصوف¹.

لقد أصبح المغرب منذ القرن السادس للهجرة معقلا للتصوف، بل صار منطلقا له، ولا أدل على ذلك أقطاب التصوف المغاربة الذين ذاع صيتهم، ووصل تأثيرهم إلى المشرق، أمثال: محيي الدين بن عربي صاحب المصنفات الصوفية الذي أقام بسبته بالمغرب وأتم دراسته بها²، وأحمد الرفاعي المغربي الأصل، فجده السابع "رفاعة" عاش بالمغرب³، وأبو الحسن الشاذلي المزدد سنة 593هـ بغمارة⁴ بالمغرب والمدفون بالإسكندرية بمصر، وأحمد البدوي الفاسي⁵ دفين طنطا بمصر، وعبد الرحيم القنائي دفين قنا بمصر ذو الأصل المغربي⁶، وعبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم ببني عروس بالمغرب، وابن حرزم المعروف بسبيدي حرازم دفين فاس بالمغرب، وأبي يعزى الشهير بمولاي بوعزة دفين جبل "إيروجان" ضواحي خنيفرة بالمغرب، وغير هؤلاء كثير، فالمغرب زاخر بأقطاب التصوف والأولياء الصالحين حسب القول المشهور: «إذا كان المشرق بلد الرسل والأنبياء، فإن المغرب بلد الصالحين والأولياء».

لم يكن المغرب تاريخيا منعزلا عما يجري من تحولات فكرية ببلاد المشرق خاصة بعد الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، ومنها التصوف الذي تمكن من الوصول إلى المغرب، الأمر الذي يجعلنا نطرح الإشكالية الآتية:

● كيف انتقل التصوف إلى المغرب وانتشر؟

هذا السؤال يحيلنا على أسئلة فرعية من قبيل:

- ما هو مفهوم التصوف؟
- ما السياقات التاريخية لانتقال التصوف إلى المغرب؟
- ما العوامل التي أدت إلى انتشار التصوف بالمغرب؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، سنعتمد المقاربة التاريخية مع ألبتي التحليل والاستنتاج قصد استجلاء بعض الحقائق التاريخية.

وسنتناول في بحثنا المحاور التالية:

- مفهوم التصوف.
- السياقات التاريخية لانتقال التصوف إلى المغرب.
- عوامل انتشار التصوف بالمغرب.

¹ غرميني عبد السلام، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، الطبعة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء (المغرب)، 2000م، ص. 247.

² عون فيصل بدير، التصوف الإسلامي - الطريق والرجال، الناشر مكتبة سعيد رأفت - جامعة عين شمس، القاهرة (مصر)، 1983م، ص. 266.

³ أبو كف أحمد، أعلام التصوف الإسلامي، الطبعة الثانية، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، مصر، 1994م، ص. 18.

⁴ محمود عبد الحليم، المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي، دار النصر للطباعة، القاهرة، مصر، (د. ط)، (د. ت)، ص. 20.

⁵ عزام صلاح، أقطاب التصوف الثلاثة، تقديم عبد الحليم محمود، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، مصر، دون الإشارة إلى تاريخ الطبع، ص. 51.

⁶ عزام صلاح، أقطاب التصوف الثلاثة، ص. 87.

I. مفهوم التصوف

1. التصوف لغة

ورد في المعجم الوسيط: «(التصوف): طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل، لتزكو النفس وتسمو الروح. و(علم التصوف): مجموعة المبادئ التي يعتقدها المتصوفة والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم»¹.

وجاء في معجم لغة الفقهاء: التصوف هو الصدق مع الله والتحرر من سطوة الدنيا وحسن التعامل مع الناس وهو مصدر للفعل "تصوف" ومعناه: صار صوفيا².

والصوفي من الناس حسب ما ورد في القاموس الوافي هو من يتبع طريقة التصوف. وهو العارف بالتصوف. وأشهر الآراء في تسميته: أنه سمي ذلك لأنه يفضل لبس الصوف تقشفا³.

لم يقتزن التصوف على مستوى الاشتقاق اللغوي بالصوف فقط، بل هناك آراء تنسبه إلى الصفة (بضم الصاد) وهي زاوية كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أقامها خارج مسجد الصفاء بالمدينة تؤمن للمستضعفين وفقراء المسلمين الإيواء اتقاء للحر والبرد⁴. وأراء تنسبه إلى الصفاء بمعنى صفاء القلب، وأخرى تقول باشتقاقه من لفظة الصف، وكأن الصوفي من حيث علاقته واتصاله وقربه من الله تعالى يتواجد في الصف الأول⁵.

2. التصوف اصطلاحا

يقول ابن خلدون (ت808هـ) في مقدمته عن التصوف: «هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة... ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها. والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة»⁶.

أما البغدادي فقد صنف أهل التصوف ضمن أهل السنة والجماعة ووصفهم بالزهاد الذين «...أعدوا خير الإعداد ليوم الميعاد...دينهم التوحيد...ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى، والتوكل عليه، والتسليم لأمره، والقناعة بما رزقوا، والإعراض عن الاعتراض عليه...»⁷.

تجدر الإشارة إلى أن الصوفية (أهل التصوف) يطلق عليهم اسم الفقراء، ومن بلغ منهم مرتبة عالية في سلم الطريق يطلق عليه اسم العارف⁸.

¹ ضيف شوقي وآخرون، المعجم الوسيط، الطبعة الرابعة، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004م، ص.529.

² قلعدجي محمد رواس، معجم لغة الفقهاء، الطبعة الأولى، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1996م، ص.112.

³ أبو عمرو شهاب الدين، القاموس الوافي، مراجعة وتصحيح يوسف البقاعي، الطبعة الأولى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (لبنان)، 2003م، ص.708.

⁴ الزين سميح عاطف، الصوفية في نظر الإسلام - دراسة وتحليل، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، بيروت (لبنان) والقاهرة (مصر)، 1985م، ص.14.

⁵ - القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1989م، ص.464.

⁶ ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، مقدمة ابن خلدون، الجزء الثاني، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، الطبعة الأولى، توزيع دار البلخي، دمشق (سوريا)، 2004، ص.225.

⁷ البغدادي أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد، الفرق بين الفرق وبين الفرق الناجية منهم - عقائد الفرق الإسلامية وآراء كبار أعلامها، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة (مصر)، دون الإشارة إلى تاريخ الطبع، ص.274.

⁸ بدوي عبد الرحمان، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني، الطبعة الأولى، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، 1975م، ص.14.

- الفقراء: يطلق اسم الفقراء على أتباع الصوفية بالمغرب.

يعرف بعض الصوفية التصوف من خلال الجانب الأخلاقي، فأبو بكر الكتاني مثلاً يقول: «التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الصفاء»¹.

ويقول ابن الجوزي في كتابه تلبس إبليس: «وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد، والحلم، والصبر، والإخلاص، والصدق، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا، والثواب في الآخرة»².

ويعتبر آخرون التصوف انقيادا للحق، وهو ما أشار إليه الجنيد أحد كبار أعلام التصوف في قوله: «التصوف هو أن يمتك الحق عنك، ويحييك به»³.

يبدو أن هناك اختلافاً في تحديد أصل لفظة التصوف، والشائع أنها تعود للصوف، ذلك أن الفعل "تصوف" يعني لبس الصوف مثلما هو الحال للفعل "تقمص" فقولنا "تقمص قميصاً" يقصد به لبس قميصاً.⁴

نشير كذلك إلى أن تعريف التصوف متعددة، وما أوردناه إنما على سبيل المثال لا الحصر، وأنه من الصعب حصرها في تعريف واحد جامع مانع، نظراً لاختلاف وجهات النظر وتباين الاتجاهات الفكرية.

لكن يستشف من هذه التعريفات أن التصوف علم من العلوم الإسلامية عرفه سلف الأمة ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة. وأنه مرتبط بالأخلاق، والهدف منه التقرب إلى الله تعالى بعبادته وتوحيده والابتعاد عن ملذات الدنيا وزينتها، والسير في طريق الزهد والقناعة والتسليم لأمر الله تعالى من أجل كسب ثوابي الدنيا والآخرة.

II. السياقات التاريخية لانتقال التصوف إلى المغرب

1. التواصل بالمشرق

أ. انتقال الزهد من المشرق إلى المغرب

لم يتأخر ظهور التصوف بالمغرب كثيراً عن ظهوره بالمشرق، فالبدايات الأولى كانت مع الفتح الإسلامي للبلاد، حيث اتجه الكثير من المغاربة إلى الزهد بفضل الزهاد المشاركة الذين تدفقوا على المغرب نتيجة الفتوحات الإسلامية. وكان من أوائل الزهاد الوافدين نفر من التابعين العشرة، أرسلهم الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ليفقهوا أهل المغرب في أمور دينهم.⁵ ويعلموهم الحلال والحرام، وبذلك تكون هذه البعثة قد أدت دوراً أساسياً في نشر الإسلام بالمغرب خلال هذه المرحلة من تاريخ المغرب.

العارف: يطلق اسم العارف بالله على شيوخ التصوف بالمغرب.

¹ محمود عبد الحليم، قضية التصوف المنقذ من الضلال، الطبعة الخامسة، مطابع دار المعارف، القاهرة، مصر، 2003م، ص.38.

² ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، تلبس إبليس، علق على بعض مواضع منه زيد بن محمد بن هادي المدخلي، الطبعة الثانية، دار المنهاج، القاهرة (مصر)، 2015م، ص.238.

³ السهروردي، عوارف المعارف، تحقيق وضبط أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، المجلد الأول، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2006م، ص.67.

⁴ لمزيد من المعلومات أنظر الباب الأول: قولهم في الصوفية ولم تسميت الصوفية صوفية من كتاب الكلاباذي أبوبكر محمد بن إسحاق، التعرف لمذهب أهل التصوف، ضبطه وعلق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، 1993م.

⁵ البيهقي محمد بركات، الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة (مصر)، 1993م، ص.53.

ويبدو أن الزهد في هذه المرحلة بالمغرب كان عبارة عن ممارسات فردية محدودة كما كان الحال في المشرق، ثم تطورت هذه الممارسات لاحقا بفعل التجذر الإسلامي في البلاد، فانتقلت من طابعها الفردي إلى المستوى الجماعي، فأصبحت ممارسات صوفية ممنهجة أكثر تنظيما وتأطيرا مع مطلع القرن السادس الهجري.

ب. تردد المغاربة على المشرق الإسلامي.

بعد عصر الفتح الإسلامي شد المغاربة الرحال إلى المشرق الإسلامي لأسباب مختلفة منها: أداء شعيرة الحج وطلب العلم والتجارة وغيرها، فقصدوا كبريات الحواضر من قبيل مكة المكرمة والمدينة المنورة والكوفة والبصرة وبغداد ودمشق، فالرحلة إلى المشرق كان حلما يراود المغاربة¹، الأمر الذي أسهم في التواصل الصوفي بين المغرب والمشرق أو ما يمكن أن نسميه بالثقافة الصوفية، إذ يلتقون الزهاد والمتصوفة المشاركة ويأخذون منهم مباشرة الأفكار والآراء، وعند عودتهم يكونون قد تشبعوا بتعاليم التصوف فينقلونها ويسهرون على نشرها في البلاد.

ومن بين الذين ارتحلوا إلى المشرق بعد أن قضى مدة زمنية في القيروان الزاهد أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي المزداد بسوس الأقصى، الذي قال عن الزهد: «هو تجريد القلوب ونزوع اليقين بالانصراف سرا وجهرا»².

2. تأثير متصوفة القيروان

تعد حاضرة القيروان بإفريقية (تونس) أحد القنوات التي تأثر بها التصوف بالمغرب، فقد كانت مركزا ثقافيا مهما بحكم موقعها الجغرافي، وباعتبارها صلة وصل بين المشرق والمغرب، فقد ترددت فيها أصداء التصوف فكرا وممارسة منذ القرنين الثاني والثالث الهجريين على يد الزهاد والمتصوفة سواء أكانوا قيروانيين أم مشاركة ومغاربة، وذلك راجع إلى الرحلات التي كانت تتم بين المغرب والمشرق عبر القيروان ذهابا أو إيابا وفي الاتجاهين.

لقد كانت القيروان مستقرا لبعض الصحابة وكثير من التابعين³ مثل اسماعيل بن عبيد الأنصاري الذي كان رجلا صالحا يقال له "تاجر الله" من أهل الفضل والعبادة والنسك والإرادة⁴، حسب وصف المالكي في (رياض النفوس). كما اشتهر بها (القيروان) البهلول بن راشد الذي التف حوله طلبة العلم والعباد من قبيل الزاهد المغربي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي⁵ الذي سبقت الإشارة إليه.

وخلال القرن الخامس الهجري نجد بعض من المتصوفة الذين نقلوا التصوف إلى المغرب ونشروه، منهم ابن سعدون القيرواني الذي استقر بأغيمات قرب مراكش وبها مات⁶ وكذلك واگگ بن زلو اللمطي وهو من أهل سوس الأقصى، رحل إلى القيروان وتلمذ هناك على يد شيخه المغربي أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى المغرب وأسس بسوس دار المرابطين لتدريس العلم والقرآن⁷. وللإشارة فإن

¹ البيلي محمد بركات، الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، ص. 54.

² المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، حققه البشير بكوش، راجعه محمد العروسي المطوي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار صادر للطباعة، بيروت، لبنان، 1983م، ص. 196-197.

³ غرميني عبد السلام، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، ص. 37.

⁴ المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ص. 106.

⁵ غرميني عبد السلام، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، ص. 38.

⁶ ابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبي، تحقيق أحمد توفيق، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، الصفحة: 83.

⁷ ابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المصدر السابق، ص. 89.

أبا عمران الفاسي يعد أول من أدخل تعاليم أبي القاسم الجنيد¹ إلى إفريقية²، وهذا يعني أن تلميذه بن زلو اللمطي قام بدوره بنقل ونشر هذه التعاليم بالمغرب.

3. الحضور الصوفي الأندلسي

أسهم مسلمو الأندلس في انتقال وانتشار التصوف بالمغرب (المغرب الأقصى)، وقد شكل المغرب الأقصى مع الأندلس ذاتا واحدة من الناحية الدينية والثقافية³، ويعزى ذلك للقرب الجغرافي بين العدوتين وإلى الوحدة التي تحققت بين الضفتين على يد المرابطين، مما أدى إلى تناقل الأفكار والآراء الصوفية بكل سهولة بين المغرب والأندلس، فعدد مهم من المتصوفة عبروا من الأندلس إلى المغرب أو العكس، إما ذاهبين إلى المشرق أو عائدین منه أو راغبين في الاستقرار بالمغرب، ولا أدل على ذلك ما يحفل به كتاب: «التشوف إلى رجال التصوف» لصاحبه ابن الزيات بأسماء المتصوفة الذين تنقلوا بين الأندلس والمغرب والذين ساهموا في نشر التصوف بالمغرب.

ويأتي في مقدمة هؤلاء المتصوفة شيخ الشيوخ أبو مدين شعيب بن الحسين الغوث من حصون مدينة إشبيلية بالأندلس، كان كبير الشأن، لم يكن في وقته نظير له في الزهد والورع والصدق⁴. انتقل إلى فاس ودرس على يد كل من أبي يعزى الهزميري وعلي بن حرزهم⁵، ولما بلغ أشده قام برحلة مشرقية التقى خلالها برجال العلم وشيوخ التصوف ومنهم الشيخ عبد القادر الجيلاني⁶ وأخذ عنه طريقته الصوفية ثم عاد ونشرها في كل أنحاء المغرب.

ولن ننسى كذلك متصوفا أندلسيا آخر، ألا وهو الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي أحد الشخصيات البارزة في تاريخ التصوف الإسلامي، ولد بمدينة مورسيا وكان يعرف بالأندلس باسم "سراقا"، وفي سن الثامنة انتقل إلى إشبيلية ومكث بها ما يقرب من ثلاثين سنة درس فيها الفقه والحديث، ثم انتقل إلى المغرب لإتمام دراسته بمدينة سبتة⁷.

¹ تعاليم أبي القاسم الجنيد أو ما يعرف بالجنيدية: وهي طريقة صوفية سنية اتسمت باتباع السنة النبوية في التصوف فكريا وممارسة.

² غرميني عبد السلام، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، ص. 248.

³ المرجع نفسه، ص. 36-37.

⁴ التميمي الفاسي أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، القسم الثاني، تحقيق محمد الشريف، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، مطبعة طوب بريس، الرباط، المغرب، غشت 2002م، ص. 41-42.

⁵ بنعبد الله عبد العزيز، معلمة التصوف الإسلامي - التصوف المغربي من خلال رجالاته، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط (المغرب)، 2001م، ص. 46.

⁶ غرميني عبد السلام، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، ص. 327.

⁷ عون فيصل بدير، التصوف الإسلامي - الطريق والرجال، الناشر مكتبة سعيد رأفت - جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، 1983م، ص. 266.

III. عوامل انتشار التصوف في المغرب.

أدت مجموعة من العوامل المتضافرة إلى انتشار التصوف واتساع دائرته في ربوع بلاد المغرب.

1. عوامل سياسية

أ. أثر المرابطين في انتشار التصوف

يعتقد بعض الباحثين في التصوف الإسلامي، أن النشأة الحقيقية للتصوف بالمغرب كانت في المرحلة الأخيرة من حكم المرابطين بسبب الاضطرابات السياسية التي شهدتها البلاد ومعارضة المجتمع والمتصوفة للفقهاء المالكية الذين كانوا يعيشون حياة البذخ والترف بفضل قريتهم من حكام الدولة المرابطية¹.

والواقع أن هذا الصراع كان بسبب الفقهاء المالكية، أما حكام الدولة المرابطية فقد كانوا متدينين ورعين وعلى درجة من الزهد والتقشف، فعبد الله بن ياسين زعيم المرابطين الذي تلقى تعليمه على يد المتصوف **وگگ** بن زلو اللمطي، الذي أشرنا إليه آنفاً، كان يدعو إلى الزهد وتمكن من إنشاء رباط جنوب المغرب عند بداية دعوته، يعلم فيه أتباعه القرآن ويفقههم في شؤون الدين، «وضرب لهم مثلاً في التقشف والقناعة، فلبس خشن الثياب واكتفى من الطعام بالقليل المتواضع»²، ثم إن يوسف بن تاشفين أحد مؤسسي الدولة هو الآخر عرف عنه العدل والورع والشجاعة وسداد الرأي³، أما خليفته علي بن يوسف فقد كان يكن الاحترام والتقدير للمتصوفة، ويظهر ذلك من خلال رسائل الود التي كان يبعثها للشيخ أبي عبد الله محمد بن إسحاق أمغار المرابط برباط «تيط الفطر»⁴.

ب. الدولة الموحدية ومساهمتها في انتشار التصوف.

اتسعت دائرة التصوف في المجتمع بشكل كبير خلال الحكم الموحي للمغرب، فعلى الرغم من أن المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية لم يعرف تاريخياً بالتصوف، لكنه في رحلته لطلب العلم بالمشرق تلمذ على يد كبار علماء الصوفية، فقد قيل إنه التقى أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزدهه⁵، وهذا يعني أن ابن تومرت تشبع بتعاليم الغزالي، وقام بنشرها في المغرب عند عودته.

اتخذ ابن تومرت الجبل بمنطقة "تنمل" مقراً له لنشر دعوته التي أسسها على الولاية وادعاء المهداوية، وسعى من خلال ممارساته الدينية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل إصلاح المجتمع وإقامة العدل متشبهاً في تصرفاته بالزهاد والصالحين.

يقول ابن خلكان عن محمد ابن تومرت: «كان ورعاً ناسكاً متقشفاً»⁶.

¹ بوتشيش إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين - المجتمع الذهني الأولياء، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت (لبنان)، 1993م، ص. 126.

² حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ - من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية دولة الوحدين، الجزء الأول، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2000م، ص. 158.

³ الناصري الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة العلوية، الجزء الثاني، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، دون الإشارة إلى تاريخ ومكان الطبع، ص. 21.

⁴ غرميني عبد السلام، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، الطبعة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 2000م، ص. 273.

رابط تيط الفطر: يقع بقرية مولاي عبد الله على الساحل الأطلسي على بعد 12 كيلومتراً جنوب مدينة الجديدة المغربية.

⁵ المراكشي عبد الواحد، المعجب في أخبار المغرب، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة، القاهرة (مصر)، 1949م، الصفحة: 178.

⁶ الناصري الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة العلوية، الجزء الثاني، ص. 72.

ج. تغلغل التصوف في مرحلة ما بعد الموحدين

ضعفت الدولة الموحدية مطلع القرن الثالث عشر ميلادي، وحلت نهايتها سنة: 1275 ميلادية، لتحل محلها الدولة المرينية التي عرف عهدها وقوع ثغور ساحلية مغربية تحت الاحتلال اليبيري، منها ستة سنة: 1415 ميلادية، وعثا حاول المرينيون ومن بعدهم الوطاسيون محاربة الإسبان والبرتغال لاسترجاع الثغور المحتلة، فلم يتمكنوا من ذلك، الأمر الذي مهد الطريق للطرق والزوايا الصوفية لاتخاذ زمام المبادرة، وإقامة الرباطات بالقرب من السواحل المغربية وتعبئة المريدين، والدعوة للجهاد لمقاومة المستعمر¹.

لقد توسع التصوف بالمغرب في هذه المرحلة، وتغزز نفوذ المتصوفة إلى درجة كبيرة، فبالإضافة إلى دورهم الديني، أصبحوا يقومون بأدوار عسكرية وأخرى سياسية مهدت الطريق لتولي السعديين حكم المغرب على حساب الوطاسيين.

تشير المصادر التاريخية إلى أن الشيخ المتصوف محمد بن مبارك الأفاوي² أحد شيوخ التصوف بسوس الأقصى ساعد في إتمام البيعة أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله سنة: 1511 ميلادية، وتم الاتفاق معه على الجهاد ومقارعة النصارى لإجلائهم عن الثغور المغربية المحتلة³، وكانت هذه البيعة بمنزلة ميلاد للدولة السعدية.

إن تحالف المتصوفة والدولة السعدية، سيؤدي لاحقا إلى انتشار الزوايا الصوفية بالمغرب وبشكل كبير، وستزداد أدوارها وتتسع.

2. تأثير الرباطات

الرباطات جمع "رباط" والذي كان يعني في الشرق الإسلامي المكان الذي يربط فيه المسلمون من أجل الدفاع عن بلادهم⁴. والرباط كذلك هو المكان الذي يتم فيه ربط الخيول والإعداد للجهاد من أجل نشر الاسلام والدفاع عنه كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾⁵، وفي الحديث النبوي الشريف: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»⁶.

لقد تم اعتماد الرباط في مختلف الفتوحات الإسلامية كما هو الشأن في الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، غير أنه مع بداية ظهور المرابطين بالمغرب لم يعد الرباط حبيس دوره العسكري فقط، بل توسع دوره ليشمل الجانب الديني والتربوي. وهكذا نجد عبد الله بن ياسين زعيم المرابطين قد أقام عام 1040م رباطا بالحوض الأدنى لنهر السنغال استقطب ألف رجل من أشرف صنهاجة للتفقه في أمور الدين والتخلق بآداب الإسلام والإعداد للجهاد، فشكل بذلك الرباط النواة الأولى للدولة المرابطية⁷، وستواصل خلال الفترة الموحدية إقامة مجموعة من الرباطات المختلفة نظير رباط الفتح الذي كانت تتجمع فيه الجيوش الموحدية لعبور المتوسط في اتجاه الأندلس.

¹ مقلد الغنيمي عبد الفتاح، موسوعة تاريخ المغرب العربي - المغرب بين بني وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين، الجزء السادس، الطبعة الأولى، حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مذبولي، القاهرة، مصر، 1994م، ص. 93-95.

² الأفاوي نسبة إلى منطقة "أفا" وهي حاليا تابعة لإقليم "طاطا" بالمغرب.

³ الأفاوي محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم و تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء (المغرب)، 1998م، ص. 50.

⁴ ضريف محمد، مؤسسة الزوايا بالمغرب، الطبعة الأولى، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط (المغرب)، 1992م، ص. 33.

⁵ سورة الأنفال، الآية: 60.

⁶ صحيح البخاري، موقع: موسوعة الأحاديث النبوية على شبكة الأنترنت، الرابط: <https://hadeethenc.com/ar/browse/hadith/2967>، تاريخ الزيارة: 2025/04/25.

⁷ حجي محمد، الزاوية الدلانية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء (المغرب)، 1988م، ص. 23.

من الواضح أن الرباط كان يؤدي في البداية وظيفة عسكرية، حيث يربط فيه المقاتلون المسلمون للجهاد في سبيل الله والدفاع عن ثغورهم ضد النصارى الغزاة¹. لكن هذه الوظيفة ستتغير لاحقا، ليصبح الرباط ملاذا للزهاد والمتصوفة الراغبين في مجاهدة النفس والتوبة والانقطاع لعبادة الله تعالى.

لقد عرف المغرب ظاهرة الرباطات مبكرا، خاصة التي تجمع بين داعي الجهاد وداعي الانقطاع للعبادة، ومن أشهرها رباط شاكرو² الذي بناه يعلى بن مصلين الرجرجي، وكان مأوى للمجاهدين³. ورباط أغلو⁴ بسوس الأقصى الذي أسسه كما أشرنا سابقا المتصوف واگگ بن زلو اللمطي، وفي هذا الرباط درس عبد الله بن ياسين القائد الروحي للمرابطين، الذي أسس بدوره رباط السنغال⁵. ثم رباط تيط الفطر السابق ذكره، والذي سطع نجمه أواسط القرن التاسع للهجرة باعتباره مركزا صوفيا سنيا ومنطلقا للإمام محمد بن سليمان الجزولي أحد أشهر متصوفة المغرب⁶.

يبدو أن الرباطات كان لها دور فعال في نشر التصوف وازدهار النشاط الصوفي بالمغرب، حيث يقوم الشيوخ فيها بتكوين وتربية المريدين على المجاهدات والزهد. وقد كان الأستاذ علال الفاسي يرى أن التصوف في المغرب ظهر مع ظهور الرباطات⁷.

3. عوامل فكرية

أ. المصنفات الصوفية

تعددت وتنوعت المؤلفات الصوفية المغربية أو الواردة من المشرق أو من الأندلس، حيث كانت تدرس للمريدين داخل الرباطات والزوايا، وقد كان لها الفضل في تقعيد الممارسة الصوفية بالمغرب، حيث وضعت الإطار والتصور النظري الذي سيؤطر أعمال المريدين أو السالكين في طريق التصوف. ومن هذه المؤلفات نذكر كتاب: «الرسالة القشيرية» لأبي القاسم القشيري وكتاب: «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي.

ومن المؤلفات الصوفية الأولى التي توصل بها المغاربة كتاب: «رعاية حقوق الله» للمحاسبي في أواسط القرن الخامس هجري، وتفيد المصادر المغربية المتداولة أن المتصوف المغربي عبد العزيز التونسي (ت486هـ) كان يحض مريديه على قراءته⁸.

يعد كتاب: «إحياء علوم الدين» من المصنفات الصوفية التي أثارت جدلا في المجتمع خلال الحقبة المرابطية، فقد لقي معارضة شديدة من فقهاء المالكية وصلت إلى حد تكفير الغزالي، وحرق الكتاب بأمر من الخليفة علي بن يوسف بن تاشفين سنة 503 هـ⁹.

¹ البيلي محمد بركات، الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، ص.66.

² غرميني عبد السلام، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، ص.249.

– رباط شاكرو: أو سيدي شيكر يوجد على مصب نهر تانسيفت قرب الطريق الرابطة بين مدينتي الشماعية وشيشاوة المغربيتين.

³ بنعبد الله عبد العزيز، معلمة التصوف الإسلامي – التصوف المغربي: خواص ومميزات، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط (المغرب)، 2001م، ص.90.

⁴ أغلو: تقع منطقة أغلو على الساحل الأطلسي على بعد حوالي 15 كيلومتر غرب مدينة تيزنيت المغربية. وهي منطقة معروفة بشاطئها الجميل وتتواجد زاوية سيدي واگگ.

⁵ حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ – من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية دولة الودحين، الجزء الأول، ص.175.

⁶ المازوني محمد، رباط تيط من التأسيس إلى ظهور الحركة الجزولية، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ص.29.

⁷ – غرميني عبد السلام، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، ص.249.

⁸ – المرجع نفسه، ص.249.

⁹ – بنعبد الله عبد العزيز، معلمة التصوف الإسلامي – التصوف المغربي من خلال رجالاته، الجزء الثاني، ص.18.

كان لحرق كتاب الإحياء نتائج عكسية، فقد أدت إلى سقوط المرابطين وصعود الموحدين الذين دعموا مكانة المتصوفة، واهتموا بكتاب الغزالي الذي لقي كل الترحيب والرواج في عهدهم، وهذا أمر طبيعي مادام المهدي بن تومرت متشبع بأفكار الغزالي كما أشرنا سابقا.

يظهر أن كتاب الإحياء كان له الفضل الكبير في انتشار التصوف بالمغرب، فلقد قيل عنه: «من لم يقرأ الإحياء فإنه ليس من الأحياء».

ب. أعلام التصوف

أسهم ظهور أعلام التصوف بالمغرب في نشر التصوف بالبلاد وإقبال الناس عليه، فقد انكبوا على التأليف والتدريس في المراكز الصوفية، ومناقشة التصوف واتجاهاته في المجالس الفقهية والفكرية، وهذا يدل على الأثر الكبير لهؤلاء الأعلام في ازدهار الحركة الصوفية بالمغرب.

وعلى سبيل المثال نذكر من هؤلاء كل من:

- أبو مدين شعيب الغوث (ت 594هـ).
- عبد السلام بن مشيش (ت 626هـ).
- أبو الحسن الشاذلي (ت 656هـ) صاحب الطريقة الشاذلية.
- وآخرون.....

خاتمة

في ختام هذه المقالة يتبين ما يلي:

- ✓ التصوف الإسلامي علم من العلوم الإسلامية، يرتبط بالأخلاق والهدف منه التقرب إلى الله تعالى بعبادته وتوحيده والابتعاد عن ملذات الدنيا وزينتها من أجل كسب ثوابي الدنيا والآخرة.
- ✓ دخل التصوف الإسلامي إلى المغرب في سياق رحلات متبادلة من وإلى المغرب، ولأسباب دينية وتجارية وعلمية وعبر قنوات مختلفة، على رأسها القناة المشرقية ثم الأندلس والقيروان.
- ✓ ساهمت الرباطات التي عرفها المغرب مبكرا في انتشار التصوف الإسلامي في البلاد، باعتبارها مراكز صوفية تستقطب الأتباع لتربيتهم وتكوينهم على المجاهدات والزهد.
- ✓ وجد تيار التصوف الإسلامي كل الظروف السياسية المواتية للتغلغل والانتشار داخل المجتمع المغربي، حيث لقي الاهتمام والعناية من أمراء وسلاطين الدول المتعاقبة على الحكم، فلولا التصوف لما قامت للسعديين قائمة.
- ✓ زاد انتشار التصوف الإسلامي بالمغرب بفضل أعلامه المغاربة و غير مغاربة، الذين عرفوا به عن طريق مجالسهم العلمية وحلقات الذكر وتأليف الكتب المتعلقة بالتصوف.

البيبلوغرافيا

✓ أولاً: المعاجم

- أبو عمرو شهاب الدين، **القاموس الوافي**، مراجعة وتصحيح يوسف البقاعي، الطبعة الأولى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (لبنان)، 2003م.
- ضيف شوقي وآخرون، **المعجم الوسيط**، الطبعة الرابعة، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004م.
- قلعدجي محمد رواس، **معجم لغة الفقهاء**، الطبعة الأولى، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1996م.

✓ ثانياً: المصادر

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمان، **تلبيس إبليس**، علق على بعض مواضيع منه زيد بن محمد بن هادي المدخلي، الطبعة الثانية، دار المنهاج، القاهرة (مصر)، 2015م.
- ابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد توفيق، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1997م.
- ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، **مقدمة ابن خلدون**، الجزء الثاني، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، الطبعة الأولى، توزيع دار البلخي، دمشق (سوريا)، 2004.
- الافرائي محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تقديم و تحقيق عبد اللطيف الشادلي، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء (المغرب)، 1998م.
- البغدادى أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد، **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم – عقائد الفرق الإسلامية وآراء كبار أعلامها**، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة (مصر)، دون الإشارة إلى تاريخ الطبع.
- التميمي الفاسي أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم، **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، القسم الثاني، تحقيق محمد الشريف، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، مطبعة طوب بريس، الرباط، المغرب، غشت 2002م.
- السهروردي، **عوارف المعارف**، تحقيق وضبط أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، المجلد الأول، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2006م.
- القشيري أبو القاسم، **الرسالة القشيرية**، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1989 م.
- الكلاباذي أبوبكر محمد بن إسحاق، **التعرف لمذهب أهل التصوف**، ضبطه وعلق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، 1993م.
- المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، حققه البشير بكوش، راجعه محمد العروسي المطوي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار صادر للطباعة، بيروت، لبنان، 1983م.

- المراكشي عبد الواحد، **المعجب في أخبار المغرب**، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة، القاهرة(مصر)، 1949م.
- الناصري الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة العلوية**، الجزء الثاني، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، دون الإشارة إلى تاريخ ومكان الطبع.
- ✓ **ثالثا: المراجع**
- أبو كف أحمد، **أعلام التصوف الإسلامي**، الطبعة الثانية، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، مصر، 1994م.
- بدوي عبد الرحمان، **تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني**، الطبعة الأولى، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، 1975م.
- بنعبد الله عبد العزيز، **معلمة التصوف الإسلامي - التصوف المغربي من خلال رجالاته**، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط (المغرب)، 2001م.
- بنعبد الله عبد العزيز، **معلمة التصوف الإسلامي - التصوف المغربي: خواص ومميزات**، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط (المغرب)، 2001م.
- بوتشيش إبراهيم القادري، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين - المجتمع الذهنيات الأولياء**، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت(لبنان)، 1993م.
- البيلي محمد بركات، **الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري**، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة(مصر)، 1993م.
- حجي محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء (المغرب)، 1988م.
- حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ - من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية دولة الوحدين**، الجزء الأول، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2000م.
- الزين سميح عاطف، **الصوفية في نظر الإسلام - دراسة وتحليل**، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، بيروت (لبنان) والقاهرة(مصر)، 1985م.
- ضريف محمد، **مؤسسة الزوايا بالمغرب**، الطبعة الأولى، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط(المغرب)، 1992م.
- عزام صلاح، **أقطاب التصوف الثلاثة**، تقديم عبد الحليم محمود، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، مصر، دون الإشارة إلى تاريخ الطبع.
- عون فيصل بدير، **التصوف الإسلامي - الطريق والرجال**، الناشر مكتبة سعيد رأفت - جامعة عين شمس، القاهرة(مصر)، 1983م.
- عون فيصل بدير، **التصوف الإسلامي - الطريق والرجال**، الناشر مكتبة سعيد رأفت - جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، 1983م.
- غرميني عبد السلام ، **المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري** ، الطبعة الأولى ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء(المغرب)، 2000م.

- المازوني محمد، رباط تيط من التأسيس إلى ظهور الحركة الجزولية، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1997م.
 - محمود عبد الحليم، المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي، دار النصر للطباعة، القاهرة، مصر، (د. ط)، (د. ت).
 - محمود عبد الحليم، قضية التصوف المنقذ من الضلال، الطبعة الخامسة، مطابع دار المعارف، القاهرة، مصر، 2003م.
 - مقلد الغنيمي عبد الفتاح، موسوعة تاريخ المغرب العربي - المغرب بين بني وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين، الجزء السادس، الطبعة الأولى، حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مذبولي، القاهرة، مصر، 1994م.
- ✓ رابعا: مواقع شبكة الأنترنت
- صحيح البخاري، موقع: موسوعة الأحاديث النبوية على شبكة الأنترنت، الرابط: <https://hadeethenc.com/ar/browse/hadith/2967>، تاريخ الزيارة: 2025/04/25.

الحبس الاحتياطي في التشريع الموريتاني
"دراسة تحليلية مقارنة مع الوسائل البديلة"

د. محمد عبد الرحمن أحمدو ولد أبو

دكتور في القانون

أستاذ متعاون مع جامعة انواكشوط – كلية العلوم القانونية والسياسية

المملكة المغربية

الملخص:

تتعلق هذه الدراسة بالحبس الاحتياطي والوسائل البديلة له في التشريع الموريتاني؛ وقد تطرقنا في هذه الدراسة لمفهوم الحبس الاحتياطي والإجراءات الخاصة به وعلاقته بوسائل تقييد الحرية الأخرى كالمراقبة القضائية والإفراج المشروط والكفالة المالية... كما تطرقنا لأهم أنواع الوسائل البديلة الأخرى وتحديات تفعيلها وأشفعنا هذه الدراسة بمجموعة من النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الحبس الاحتياطي؛ الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي؛ التشريع الموريتاني؛

تمهيد:

يمثل الحبس الاحتياطي في المنظومة الجنائية الموريتانية إجراء استثنائياً يُتخذ في مواجهة المتهم خلال مرحلة التحقيق وقبل صدور حكم قضائي نهائي لأنه يلجأ إليه بهدف ضمان سير العدالة ومنع عرقلة التحقيقات؛ وعلى الرغم من مشروعيتها من حيث المبدأ إلا أن اللجوء المفرط إليه قد يمس بالحقوق الأساسية للأفراد، وهو ما يتناقض مع ضمانات المحاكمة العادلة ويشكل انتهاكاً لحرية الأفراد وقرينة البراءة إلى غير ذلك من حقوق الأفراد التي يجب احترامها خلال مرحلة المحاكمة؛ وفي هذا السياق، تبرز أهمية الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي كحل ضروري لضمان التوازن بين متطلبات العدالة الجنائية وضمنات حماية حقوق الإنسان.

غير أن الواقع العملي في المحاكم الموريتانية يؤثر على أن تفعيل هذه الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي لا يزال محدوداً رغم النصوص العامة التي تشير إلى إمكانية اعتماد إجراءات بديلة للحبس الاحتياطي، وتبقى الحاجة ملحة إلى تطوير هذا الجانب وتفعيل هذه الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي بما يتماشى مع المعايير الدولية لأن الوسائل البديلة تعتبر حلاً ضرورياً لضمان حسن سير التحقيق وتفادي إفلات المتهم من العقاب؛ فضلاً عن كونها تشكل توازناً بين ضرورات العدالة وضمنات الحرية الشخصية؛ ومن خلال هذا تظهر الأهمية النظرية لهذه الدراسة في فهم العلاقة بين الحرية الفردية ومتطلبات الأمن حيث يشكل الحبس الاحتياطي أحد أخطر القيود على الحرية الشخصية التي قد تفرض دون حكم نهائي بالإدانة، وهو ما يثير إشكالات نظرية حول التوازن بين قرينة البراءة ومتطلبات التحقيق الجنائي؛ كما تساهم الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي في تطوير هذا الإجراء (الحبس الاحتياطي) من خلال مقارنتها لبدائل أكثر احتراماً لحقوق الإنسان خاصة أن المواثيق الدولية تشدد على أن الحبس الاحتياطي يجب أن يكون إجراء استثنائياً ولا يلجأ إليه إلا بعد اتخاذ كافة الإجراءات البديلة للحبس الاحتياطي.

أما فيما يتعلق بالأهمية العملية لهذه الدراسة فتتمثل في عدة نقاط يمكن إجمالها في ما يلي:

- تقليل الاكتظاظ في السجون

يعتبر الحبس الاحتياطي أحد أبرز أسباب الاكتظاظ في السجون، مما يؤدي إلى أوضاع غير إنسانية وفي المقابل تتيح الوسائل البديلة (مثل الإفراج المشروط، المراقبة القضائية، أو الكفالة المالية....).

- تقليص عدد المحبوسين دون المساس بسير العدالة

تتيح الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي مراقبة المتهم وضمان مثوله أمام المحكمة دون الحاجة إلى حبسه، مما يوفر موارد بشرية ومالية للسلطة القضائية والأمنية.

أما فيما يتعلق بالإشكالية التي يمكن أن نثيرها في هذه الدراسة فتتمثل في:

إلى أي مدى يحقق الحبس الاحتياطي في موريتانيا التوازن بين متطلبات العدالة وحقوق المتهم؟

وهل تشكل الوسائل البديلة حلاً عملياً يحد من الإفراط في اللجوء إلى هذا الإجراء؟

لنتفرع منها الأسئلة التالية:

ما هو الأساس القانوني للحبس الاحتياطي؟ وما هي علاقته بالوسائل البديلة الأخرى؟

وما هي أهم تحديات تفعيل الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي؟

فضل الباحث أن يعتمد في هذه الدراسة على المنهج التحليلي؛ حيث سيتم تحليل الأحكام الخاصة بالحبس الاحتياطي ومقارنته مع الوسائل البديلة له في التشريع الموريتاني استنادا على النصوص القانونية التي تتعلق بهذه الدراسة مع الإجابة على تساؤلات الدراسة والرجوع إلى الدراسات السابقة والمراجع المتعلقة بهذا الموضوع.

بناء على هذا المنهج الذي اعتمدنا في دراسة وتحليل الأحكام الخاصة بالحبس الاحتياطي ومقارنته مع الوسائل البديلة في التشريع الموريتاني؛ فإن معالجة الإشكالية الرئيسية والتساؤلات الفرعية المرتبطة بها ستكون وفق التصميم التالي:

المبحث الأول: الإطار العام للحبس الاحتياطي في التشريع الموريتاني

المبحث الثاني: علاقة الحبس الاحتياطي بالوسائل البديلة الأخرى

المبحث الأول: الإطار العام للحبس الاحتياطي في التشريع الموريتاني

يعتبر الحبس الاحتياطي من أخطر الإجراءات المقيدة للحرية التي يمكن أن يتعرض لها الشخص خلال مراحل التحقيق الجنائي؛ ورغم أن الحبس الاحتياطي إجراء استثنائي يهدف إلى ضمان حسن سير العدالة، إلا أنه قد يثير العديد من الإشكالات القانونية والحقوقية في بعض الحالات؛ وقد نظم المشرع الموريتاني الأحكام الخاصة بالحبس الاحتياطي في الدستور حيث نص في الفقرة الأخيرة من المادة 10 من الدستور على أنه: ((... لا تقيّد الحرية إلا بالقانون))

كما تطرق في مدونة الإجراءات الجنائية للأحكام الخاصة بالحبس الاحتياطي محمدا شروطه، ومدته، ومبرراته...، مع توفير بعض الضمانات للحد من تعسف السلطة في اللجوء إلى تطبيق هذا الإجراء؛ وعلى هذا الأساس سنتطرق لمفهوم الحبس الاحتياطي في المطلب الأول؛ لتتطرق في المطلب الثاني للأساس القانوني للحبس الاحتياطي.

المطلب الأول: مفهوم الحبس الاحتياطي

نظم المشرع الموريتاني الأحكام الخاصة بالحبس الاحتياطي في مدونة الإجراءات الجنائية في المادتين 138-139 و المادة 22 من القانون الجنائي، حيث تطرق في هذه النصوص القانونية للمساطر الخاصة بالحبس الاحتياطي والشروط التي يمكن فيها للسلطات القضائية اتخاذ هذا الإجراء، مع ضرورة التزامها بمبدأ الشرعية والضرورة¹.

الفقرة الأولى: تعريف الحبس الاحتياطي

يعرف الحبس الاحتياطي أنه إجراء قانوني يتمثل في تقييد حرية شخص مشتبّه به بارتكاب جريمة معينة، وذلك خلال مرحلة التحقيق، وقبل صدور الحكم النهائي في القضية²؛ مع العلم أن مدة الحبس الاحتياطي تختلف حسب جسامة الجريمة (جنائية أو جنحة) وحسب نوع الجريمة جرائم المخدرات والإرهاب³ وجميعيات الأشرار أو نهب الأموال....؛ مع مراعاة مكان وقوع الجريمة هل وقعت الجريمة داخل التراب الوطني أم خارج الوطن؟⁴.

¹ هشام عبد السيد الصافي محمد بدر الدين: الاستثناءات الواردة على الحبس الاحتياطي في التشريعات الجنائية "دراسة مقارنة" مجلة المنارة للدراسات القانونية والإدارية - عدد خاص حول القانون الجنائي - أغسطس 2021 ص: 154

² أسماء حقاّص: نظام الوضع تحت المراقبة الالكترونية؛ مجلة الحقوق والحريات العدد: الأول؛ 2019 ص: 193

³ ساهر إبراهيم الوليد: مراقبة المتهم إلكترونيا كوسيلة للحد من مساوئ الحبس الاحتياطي - دراسة تحليلية- مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية؛ العدد: الأول؛ يناير 2013. ص: 635

⁴ يمكن مراجعة المادة 138 من المسطرة الجنائية الموريتانية.

جدير بالذكر أن الحبس الاحتياطي يهدف إلى مجموعة من الأهداف من بينها منع هروب المتهم، وضمان عدم عرقلة التحقيق ليكون المتهم حاضرا لجميع مراحل التحقيق¹ والجلسات الخاصة بمحاكمته، فضلا عن حماية المجتمع من خطر الجريمة².

الفقرة الثانية: مبررات الحبس الاحتياطي

تطرق المشرع الموريتاني في المادة 138 من قانون المسطرة الجنائية لمبررات الحبس الاحتياطي (الحبس التحكيمي) حيث نص على أنه: ((لا يجوز لقاضي التحقيق أن يأمر بالحبس الاحتياطي إلا إذا كان له مبرر سواء كان ذلك لخطورة الوقائع أو المنع من إخفاء أدلة الجريمة أو للخوف من هروب المتهم أو للخوف من ارتكاب جرائم جديدة ...)

يهدف الحبس الاحتياطي إلى تحقيق عدة أهداف قانونية وقضائية ومن بينها:

أولاً: ضمان حضور المتهم للتحقيق والمحاكمة

يلجأ قاضي التحقيق إلى الحبس الاحتياطي كوسيلة لمنع المتهم من الهروب أو الاختفاء عن الأنظار قبل استكمال التحقيقات أو المحاكمة³ خاصة في القضايا المتعلقة بالجرائم الخطيرة⁴؛ لذلك يلجأ القضاء إلى الحبس الاحتياطي⁵ عندما تكون هناك أدلة قوية على هروب المتهم قبل محاكمته⁶.

ثانياً: حماية الأدلة وسلامة التحقيق

قد يحاول المتهم في بعض القضايا التأثير على سير التحقيق عبر تهديد الشهود أو تعمد إخفاء الأدلة أو تغييرها أو إتلافها، مما يتطلب حبس المتهم احتياطيا لضمان نزاهة التحقيق وحسن سير العدالة خاصة إذا كانت الجريمة تتطلب تحقيقات دقيقة⁷

ثالثاً: حفظ النظام العام ومنع ارتكاب جرائم جديدة

في بعض الحالات يكون المتهم يشكل خطرا على المجتمع، ومن المتوقع أن يرتكب جرائم أخرى إذا لم يتم توقيفه خلال التحقيق؛ و في حالة إطلاق سراحه، فإن حبسه احتياطيا يصبح ضرورة لحماية المجتمع من استمرار الأنشطة الإجرامية.

رابعاً: منع التواطؤ بين المتهمين

عندما تكون القضية تشمل عدة متهمين، فإن الإفراج عنهم قد يؤدي إلى تواطئهم لإخفاء الحقيقة وطمس الأدلة، لذا يتعين اللجوء إلى الحبس الاحتياطي كإجراء وقائي لضمان سير العدالة.

¹ نعمان بن علي: الحبس الاحتياطي بين الشرعية والضرورة؛ أطروحة لنيل دكتوراه في القانون الخاص؛ جامعة تونس المنار؛ كلية الحقوق؛ السنة الجامعية: 2017؛ ص: 39.
² محمد بن حميد المزمومي: المراقبة الإلكترونية كبديل للعقوبة السالبة للحرية "دراسة في ضوء النظام السعودي والأنظمة المقارنة" مجلة صوت القانون؛ العدد الثاني نوفمبر 2020؛ ص: 827

³ سعاد بوسنة: الوسائل البديلة عن الحبس الاحتياطي كآلية لتفعيل قرينة البراءة؛ رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه؛ جامعة عنابة؛ كلية الحقوق؛ السنة الجامعية: 2021؛ ص: 87.
⁴ آمنة عبد اللطيف: الإفراج المشروط كبديل للحبس الاحتياطي "دراسة مقارنة" رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في القانون الخاص؛ جامعة الخرطوم كلية الحقوق؛ السنة الجامعية: 2021؛ ص: 127

⁵ أحمد محمود عبد الرحمن: الحبس الاحتياطي والبدائل القانونية له في التشريع المصري؛ رسالة مقدمة لنيل شهادة ماستر في القانون الخاص؛ جامعة عين شمس؛ كلية الحقوق؛ السنة الجامعية: 2019؛ ص: 76

⁶ هشام عبد السيد الصافي محمد بدر الدين؛ مرجع سابق؛ ص: 157

⁷ أسماء حقاص؛ مرجع سابق؛ ص: 195

خامسا: ضمان تنفيذ العقوبة لاحقا

من بين المبررات التي تؤكد اللجوء إلى الحبس الاحتياطي في بعض القضايا دون اتخاذ الإجراءات البديلة الأخرى ضمان عدم هروب المتهم وتطبيق العقوبة في حالة إدانته لاحقا¹.

المطلب الثاني: الأساس القانوني للحبس الاحتياطي

نص المشرع الموريتاني في المادة 642 من المسطرة الجنائية على أنه: (لا يمكن حرمان شخص من حريته إلا بمقتضى سند صادر عن السلطة القضائية يأمر باعتقاله احتياطيا أو بناء على سند يأمر بتنفيذ قرار حائز على قوة الشيء المقضي به صادر عن هيئة قضائية....)

كما نص المشرع الموريتاني في المادة 643 من المسطرة الجنائية على أنه: (لكل من قاضي التحقيق ورئيس محكمة الجناح أو رئيس المحكمة الجنائية ووكيل الجمهورية والمدعي العام لدى محكمة الاستئناف أن يعطي في مدة الحبس الاحتياطي جميع الأوامر الضرورية سواء كان ذلك لحاجيات التحقيق أو لغير ذلك من الإجراءات).

جدير بالذكر أن الحبس الاحتياطي يجب أن يكون مبررا بضرورة قانونية، وألا يُستخدم كوسيلة للعقاب قبل إدانة المتهم. وفي هذا الصدد سنتطرق لشروط الحبس الاحتياطي في الفقرة الأولى لتتطرق في الفقرة الثانية ل ضمانات المتهم خلال مدة الحبس الاحتياطي.

الفقرة الأولى: شروط الحبس الاحتياطي

يشترط المشرع الموريتاني توفر عدة شروط في حالة اللجوء الحبس الاحتياطي، من بينها:

- ✓ وجود أدلة قوية على تورط المتهم في الجريمة.
- ✓ خطورة الجريمة، حيث يتم تطبيق الحبس الاحتياطي في الجنايات والجناح وليس في المخالفات البسيطة².
- ✓ احترام مبدأ التناسب بين خطورة الجريمة وإجراء الحبس الاحتياطي³.
- ✓ 4 - عدم توفر بدائل أخرى عن الحبس الاحتياطي مثل الإفراج المشروط⁴ أو الكفالة أو المراقبة القضائية⁵

الفقرة الثانية: ضمانات المتهم خلال مدة الحبس الاحتياطي

يتمتع المتهم خلال مدة الحبس الاحتياطي بمجموعة من الضمانات من بينها:

- ✓ الحق في إعلام المتهم بأسباب توقيفه

¹ خالد علال: القيود البديلة للحبس الاحتياطي في التشريع المغربي والمقارن؛ أطروحة لنيل الدكتوراه في القانون الخاص؛ جامعة محمد الأول؛ كلية الحقوق بوجدة السنة الجامعية : 2018؛ ص: 97

² جمال شايوبي: بدائل الحبس المؤقتة العامة - الرقابة القضائية والإفراج الجوازين - رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير ؛ جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية؛ كلية الحقوق ؛ السنة الجامعية : 2017؛ ص: 84

³ محمد بن حميد المزمومي؛ مرجع سابق؛ ص: 829

⁴ آمنة عبد اللطيف؛ مرجع سابق؛ ص: 132

⁵ عصام شكيب صعب : المراقبة القضائية كتدبير بديل للحبس الاحتياطي "دراسة مقارنة" مجلة كلية القانون الكويتية العالمية؛ العدد الرابع؛ ديسمبر 2019؛ ص: 443

يجب أن يبلغ المتهم فوراً عند توقيفه بأسباب الحبس والتهمة الموجهة إليه، بلغة يفهمها¹، حتى يتمكن من الدفاع عن نفسه ونفي التهمة الموجهة إليه.

✓ الحق في الاستعانة بمحام

يمثل هذا الحق أحد أبرز الضمانات. ويجب تمكين المتهم من الاتصال بمحاميه بحرية² وسرية منذ اللحظات الأولى للحبس الاحتياطي³، ما لم تبرر ظروف استثنائية عكس ذلك (وفق القانون وقرار قضائي مسبب)⁴.

✓ الحق في إبلاغ الأسرة أو جهة اتصال موثوقة

يجب تمكين المتهم من إبلاغ عائلته أو جهة معينة بوضعه، وهو ما يعزز الشفافية⁵ ويمنع حالات الإخفاء أو الحجز التعسفي⁶.

✓ العرض على القضاء خلال مدة معقولة

لا يجوز إبقاء المتهم رهن الحبس الاحتياطي دون أن يُعرض على القاضي المختص⁷ خلال فترة زمنية معقولة⁸.

✓ الحق في الطعن ضد قرار الحبس الاحتياطي

يحق للمتهم أو محاميه الطعن في قرار الحبس الاحتياطي⁹ أمام الجهة القضائية المختصة وهي غرفة الاتهام في محكمة الاستئناف¹⁰، وهذا يكفل رقابة فعالة على قرارات تقييد الحرية¹¹.

✓ التحديد الزمني للحبس الاحتياطي

من أهم ضمانات المحاكمة العادلة أن تكون مدة الحبس الاحتياطي محددة بفترة زمنية معينة¹² حسب نوع الجناية أو الجائحة؛ وقد حدد المشرع الموريتاني تلك الفترات وطريقة تجديدها.

✓ الحماية من التعذيب وسوء المعاملة

¹ سردار علي عزيز : ضمانات المتهم في مواجهة القبض والتوقيف الاحتياطي - دراسة مقارنة- دار الكتب القانونية القاهرة ؛ (دون ذكر الطبعة وتاريخ النشر)؛ ص: 137

² أحمد محمود عبد الرحمن؛ مرجع سابق؛ ص: 85

³ محمد عبد اللطيف فرح: الحبس الاحتياطي في ضوء المواثيق الدولية والتشريعات الوطنية (دراسة تحليلية مقارنة) الطبعة الأولى: 2010؛ (دون ذكر جهة النشر)؛ ص: 45

⁴ المادة 103 من المسطرة الجنائية الموريتانية

⁵ نعمان بن علي؛ مرجع سابق؛ ص: 45

⁶ المادة 58 من المسطرة الجنائية الموريتانية

⁷ سعاد بوسنة؛ مرجع سابق؛ ص: 97

⁸ عبد العزيز عبد الله محمد العمري : الرقابة القضائية على الحبس الاحتياطي ومسؤولية الدولة عنه؛ أطروحة لنيل دكتوراه في القانون الجنائي؛ جامعة المنصورة كلية الحقوق؛ السنة

الجامعية 2019؛ ص: 127

⁹ محمد قاسم الزعبي: بدائل الحبس الاحتياطي في قانون الإجراءات الجنائية الأردني ؛ رسالة مقدمة لنيل شهادة الماستر في القانون الخاص؛ جامعة اليرموك؛ كلية العلوم القانونية والاقتصادية؛ السنة الجامعية: 2020؛ ص: 197

¹⁰ عبد المجيد بن سعيد : الحبس الاحتياطي و ضمانات المتهم في التشريع الجنائي؛ أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في القانون الخاص؛ جامعة الجزائر 1 ؛ كلية الحقوق والعلوم

السياسية؛ السنة الجامعية: 2016؛ ص: 73

¹¹ الذبيح عيسى: نظام المراقبة القضائية بديلاً من التوقيف الاحتياطي - دراسة مقارنة - رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير جامعة دمشق؛ كلية الحقوق؛ السنة الجامعية: 2018؛

ص: 67

¹² ساهر إبراهيم الوليد؛ مرجع سابق؛ ص: 637

يجب أن يعامل المتهم المحتجز معاملة إنسانية، ويُمنع تعريضه لأي نوع من الإكراه البدني أو النفسي¹. ويحق له التقدم بشكاوى من ضباط الشرطة القضائية في حال التعرض لأي انتهاك لحقوقه من طرفهم².

✓ الفصل بين المحبوسين احتياطيا والمدانين

في القواعد النموذجية لمعاملة الأشخاص في السجون يجب أن يُفصل بين المحبوسين احتياطيا وبين من صدرت في حقهم أحكام نهائية.

✓ الحق في الحصول على الرعاية الصحية والزيارة

للمتهم المحبوس احتياطيا الحق في تلقي العلاج اللازم، واستقبال زيارات من عائلته ومحاميه³.

المبحث الثاني: علاقة الحبس الاحتياطي بالوسائل البديلة (أساليب تقييد الحرية الأخرى)

يعرف الحبس الاحتياطي أنه: (إجراء وقائي يُتخذ ضد المتهم قبل صدور الحكم القضائي في حقه، ويقضي هذا الإجراء بوضع المتهم في السجن خلال فترة مؤقتة أثناء التحقيق أو المحاكمة⁴؛ وتختلف هذه الفترة حسب نوع التهمة الموجهة للمتهم بحسب ما إذا كانت جنائية أو جنحة⁵، في حين تشمل وسائل تقييد الحرية الأخرى تلك التدابير التي تُفرض على المتهم دون إيداعه في السجن، وتمثل هذه الوسائل البديلة في كل من الرقابة القضائية والإقامة الجبرية والمنع من السفر وكذا كفالة الحضور والمراقبة الإلكترونية⁶) السوار الإلكتروني) والتوقيف الدوري في مركز من مراكز الشرطة أو الدرك (الضابطة القضائية)⁷؛ ولهذا تشكل العلاقة بين الحبس الاحتياطي ووسائل تقييد الحرية الأخرى صراعا بين حماية المجتمع وحماية الحقوق الفردية⁸ حيث يميل الاتجاه المعاصر في السياسة الجنائية في أغلب الدول إلى تقليص اللجوء للحبس الاحتياطي واعتماد الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي لأن علاقة الحبس الاحتياطي بوسائل تقييد الحرية الأخرى تعتبر علاقة تكامل وتدرج وتوازن⁹، حيث يعد الحبس الاحتياطي إجراء أكثر خطورة وأشد من وسائل تقييد الحرية الأخرى، ويُفترض أن لا يلجأ إليه إلا إذا لم تكن الوسائل البديلة كافية لتحقيق أغراض التحقيق أو المحاكمة. خاصة أن هذه الوسائل البديلة (أساليب تقييد الحرية الأخرى) إجراءات بديلة عن الحبس الاحتياطي و تعتبر أقل صرامة من الحبس الاحتياطي حيث يلجأ إليها كبداية عن الحبس الاحتياطي بهدف تقييد حرية المتهم بشكل أخف¹⁰ مع المحافظة على حسن سير العدالة وتختلف هذه الإجراءات البديلة عن الحبس الاحتياطي من حيث طبيعتها ودرجة تقييدها للحرية¹¹ إلا أنها تحقق نفس الغاية التي يحققها الحبس الاحتياطي.

¹ سردار علي عزيز ؛ مرجع سابق؛ ص: 139

² الفقرة الأولى من المادة 58 من الماسة 58 من المسطرة الجنائية الموريتانية.

³ أسماء حقاص؛ مرجع سابق؛ ص: 198

⁴ كوريتي عبد الحق: الاعتقال الاحتياطي كممارسة قانونية وتأثيرها على المتهم؛ مجلة مغرب القانون؛ العدد الثالث يناير 2022 ؛ ص: 108

⁵ محمد قاسم الزعبي؛ مرجع سابق؛ ص: 199

⁶ جمال شايوبي؛ مرجع سابق؛ ص: 87

⁷ الذيب عيسى؛ مرجع سابق؛ ص: 72

⁸ خالد علال؛ مرجع سابق؛ ص: 98

⁹ محمد عبد اللطيف فرح؛ مرجع سابق؛ ص: 65

¹⁰ عائشة حسين علي المنصوري: بدائل العقوبة السالبة للحرية قصيرة الأمد -دراسة مقارنة- دار النهضة العربية 2016 (دون ذكر الطبعة) ص: 70

¹¹ عبد العزيز عبد الله محمد العمري؛ مرجع سابق؛ ص: 132

وفي هذا الصدد سنخصص المطلب الأول للأساس القانوني للوسائل البديلة عن الحبس الاحتياطي؛ بينما سنتطرق في المطلب الثاني لتحديات تفعيل الوسائل البديلة عن الحبس الاحتياطي

المطلب الأول: الأساس القانوني للإجراءات البديلة عن الحبس الاحتياطي

تنظم أغلب التشريعات الحديثة الإجراءات البديلة عن الحبس الاحتياطي في قوانين الإجراءات الجنائية، وبعض القوانين الجنائية الخاصة؛ حيث نصت على هذه الإجراءات البديلة أغلب المواثيق الدولية مثل العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية في المادة التاسعة التي ورد فيها: ((لا يجوز توقيف أحد أو اعتقاله تعسفاً ويجب أن يكون الحبس الاحتياطي استثناء لا قاعدة)) كما نص المشرع الموريتاني في الدستور وبعض النصوص الجنائية الخاصة على هذه المقتضيات؛ وفي هذا الصدد سنتطرق في هذا المجال لمبررات اللجوء إلى بدائل الحبس الاحتياطي في الفقرة الأولى؛ لنتطرق في الفقرة الثانية لأهم الإجراءات البديلة عن الحبس الاحتياطي.

الفقرة الأولى: مبررات اللجوء للإجراءات البديلة عن الحبس الاحتياطي

تُستخدم هذه الإجراءات كبديل عن الحبس الاحتياطي بهدف تقييد حرية المتهم بشكل أقل صرامة مع الحفاظ على مصالح العدالة ومن بين مبررات اللجوء لهذه الإجراءات نذكر على سبيل المثال:

- ✓ تخفيف الاكتظاظ في السجون؛ حيث تساعد هذه الإجراءات البديلة عن الحبس الاحتياطي في تجنب احتجاز أشخاص لم تتم إدانتهم بعد، مما يقلل من الضغط على المؤسسات العقابية.
- ✓ حماية حقوق الإنسان: يلجأ قاضي التحقيق لهذه الإجراءات البديلة عن الحبس الاحتياطي بهدف منع الضرر النفسي والاجتماعي الذي قد يلحق بالمتهم وعائلته¹.
- ✓ تفادي بعض الأخطاء القضائية؛ قد يتم احتجاز أشخاص عن طريق الغلط أو بسبب تهم كاذبة لذا قد يلجأ قاضي التحقيق لهذه الإجراءات البديلة بهدف التقليل من احتجاز الأشخاص الذين قد يتبين لاحقاً أنهم أبرياء.
- ✓ ضمان استمرار حياة المتهم؛ يسمح للمتهم بممارسة حياته بشكل طبيعي مع فرض قيود تضمن عدم هروبه² أو عرقلة سير العدالة حتى تتم المحاكمة³.

الفقرة الثانية: أهم الإجراءات البديلة عن الحبس الاحتياطي.

تتضمن العديد من القوانين الجنائية في الدول العربية والأجنبية نصوصاً تسمح للقاضي أو النيابة العامة باستخدام بدائل عن الحبس الاحتياطي، ومن بين هذه الوسائل البديلة عن الحبس الاحتياطي نذكر على سبيل المثال:

¹ إيهاب عبد الغني: الوسيط في تنظيم السجون؛ دار الفكر الجامعي الإسكندرية؛ الطبعة الأولى: 2012؛ ص: 196

² عبد المجيد بن سعيد؛ مرجع سابق؛ ص: 79

³ عائشة حسين علي المنصوري؛ مرجع سابق؛ ص: 72

- الإفراج المؤقت¹ أو المشروط⁽¹⁾ وكذا الرقابة² القضائية (2) إلى جنب الكفالة³ المالية (3) ؛ وكذا المنع من السفر؛ بهدف منع هروب المتهم؛ وكذلك الإقامة الجبرية في منطقة معينة؛ إلى جنب السوار الإلكتروني: لرصد حركة المتهم؛ وفي هذا الصدد سنتطرق لأهم هذه الإجراءات البديلة عن الحبس الاحتياطي.

1. الإفراج المؤقت (المشروط)

يُعتبر الإفراج المؤقت من أقدم البدائل عن الحبس الاحتياطي وأكثرها استخدامًا في المحاكم الموريتانية، وقد نظم المشرع الموريتاني الأحكام الخاصة بالإفراج المؤقت في المادة 140 وما بعدها من المспطرة الجنائية

يتمثل الإفراج المؤقت في تمكين المتهم من البقاء حراً خلال سير التحقيق مقابل ضمانات معينة، مثل التزام المتهم بعدم مغادرة المدينة؛ أو الحضور عند كل استدعاء قضائي أو عدم التردد على أماكن معينة أو الاتصال بأطراف محددة في القضية⁴؛ إلا أنه من الملاحظ أن هذه الوسيلة تُستخدم على نطاق محدود، وغالباً في الحالات التي لا تتوفر فيها شروط الحبس الاحتياطي الصارمة.

2. الرقابة القضائية

تشكل الرقابة القضائية أبرز بديل صريح تم التنصيص عليه في التشريع الموريتاني كما في المادة 123 من مدونة الإجراءات الجنائية الموريتانية التي تنص على أنه: ((يمكن أن يوضع المتهم تحت المراقبة القضائية في أي مرحلة من مراحل التحقيق لمدة شهرين قابلة للتجديد خمس مرات لأجل ضمان حضوره ما لم تكن ضرورة التحقيق أو الحفاظ على أمن الأشخاص أو على النظام العام تتطلب اعتقاله احتياطياً.....))

تتضمن المراقبة القضائية مجموعة من التدابير التي تحدد من حرية المتهم دون أن تسلبها، منها:

الحضور الدوري لدى الشرطة أو الدرك.

المنع من مغادرة التراب الوطني.

الإقامة في مكان محدد⁵.

عدم الاتصال بالأطراف الأخرى في القضية.... إلى غير ذلك من التدابير والالتزامات التي يلزم قاضي التحقيق المتهم بالخضوع لها خلال فترة معينة يحددها قاضي التحقيق⁶

ورغم وضوح النص في هذا الإجراء، فإن التطبيق الفعلي لهذا الإجراء كبديل عن الحبس الاحتياطي يظل نادراً نسبياً في القضايا المعروضة على المحاكم الموريتانية، مما يُبرز الحاجة إلى توعية القضاة والنيابة العامة وأعوانها بأهمية اتخاذ هذا الإجراء.

¹ يقصد بالإفراج المؤقت إطلاق سراح المتهم بشكل مؤقت مقابل ضمانات تقرها المحكمة وتلزمه بالحضور في أي وقت استدعته المحكمة .

² يقصد بالرقابة القضائية أن يلزم القاضي المتهم فيها بالحضور الدوري لدى مراكز الشرطة أو مقر المحكمة؛

³ يقصد بالكفالة المالية إلزام المتهم من طرف قاضي التحقيق أو المحكمة المختصة بدفع مبلغ مالي لضمان الحضور

⁴ المادة 146 من قانون المسطرة الجنائية الموريتانية.

⁵ عصام شكيب صعب؛ مرجع سابق؛ ص: 445

⁶ للمزيد من الإيضاح والتفصيل يمكن مراجعة المادة 124 من قانون المسطرة الجنائية الموريتانية.

3. الكفالة المالية

وهي وسيلة تمكّن المتهم من الإفراج عنه مقابل مبلغ مالي يُحدد حسب ظروف القضية ووضع المتهم؛ ويتخذ هذا الإجراء بهدف ضمان حضور المتهم أمام القضاء¹.

غير أن المشرع الموريتاني لم ينظم الأحكام الخاصة بالكفالة المالية بالقدر الكافي، مما يجعل تطبيقها محدودا، مقارنة مع غيرها من الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي.

المطلب الثاني: تحديثات تفعيل الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي

تشكل الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي خيارا قانونيا وإنسانيا يهدف إلى الحد من الآثار السلبية لسلب حرية المتهم قبل صدور الحكم النهائي في حقه²، مع ضمان سير العدالة وفعالية التحقيق؛ إلا أن تفعيل هذه البدائل لا يتم بسهولة في أغلب الدول التي تعاني من ضعف في شمولية النص القانوني³ أو عدم وضوحه في بعض الإجراءات⁴ أو الاجتهادات القضائية. ويبرز في هذا السياق عدد من التحديات العملية والتشريعية والمؤسسية التي تعيق اعتماد البدائل بشكل فعال ومنهجي؛ ومن بين هذه التحديات نذكر على سبيل المثال بعض التحديات التشريعية وستنطرق لها في الفقرة الأولى؛ فضلا عن بعض التحديات القضائية والمهنية وسنعرج عليها في الفقرة الثانية.

الفقرة الأولى: التحديات التشريعية

من بين التحديات التشريعية التي تعرقل تفعيل الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي نذكر على سبيل المثال:

1. غياب أو غموض النصوص القانونية

ففي العديد من الأنظمة، لا تتضمن النصوص الجنائية (قانون الإجراءات الجزائية) تنظيما دقيقا أو مفصلا للوسائل البديلة، أو تكتفي بذكر بعضها دون تحديد شروط تطبيقها، مما يُربك القضاء ويمنع تفعيل العملي لها⁵.

2. عدم وجود لائحة صريحة بالوسائل البديلة عن الحبس الاحتياطي

يلاحظ أن أغلب التشريعات لا تضع قائمة واضحة تشمل كافة الوسائل البديلة، مثل:

المراقبة القضائية؛ الإفراج المشروط؛ الكفالة المالية؛ الإقامة الجبرية؛ السوار الإلكتروني؛ وهذا الغياب يترك مجالا واسعا لاجتهاد القضاة، مما يفتح بابا للتفاوت والتمييز بين هذه الإجراءات البديلة وأولويتها وإجراءاتها وكذا الآثار المترتبة عليها.

الفقرة الثانية: التحديات القضائية والمهنية

تتمثل التحديات القضائية والمهنية في تفعيل الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي فيما يلي:

¹ للمزيد من الإيضاح والتفصيل يمكن مراجعة المادة 148 من قانون المسطرة الجنائية الموريتانية.

² محمد عبد الله محمد سالم؛ الحبس الاحتياطي وضوابطه في القانون الجنائي الموريتاني والمقارن؛ رسالة مقدمة لنيل شهادة الماستر؛ جامعة نواكشوط؛ كلية العلوم القانونية والاقتصادية؛ السنة الجامعية: 2022 ؛ ص: 34

³ عبد العزيز عبد الله محمد العمري؛ مرجع سابق؛ ص: 134

⁴ عائشة حسين علي المنصوري؛ مرجع سابق؛ ص 75

⁵ عبد المجيد بن سعيد؛ مرجع سابق؛ ص: 82

1- عدم اعتماد القضاة ورجال الأمن للوسائل البديلة للحبس الاحتياطي.

يرى أغلب القضاة ووكلاء الجمهورية وعناصر الضابطة القضائية أن الحبس الاحتياطي كأداة أولى وأساسية لضمان الحضور والردع، ويلجؤون إليه حتى في القضايا التي لا تشكل فيها خطورة حقيقية.

2- غياب التكوين والتدريب المهني

لا يتلقى بعض القضاة وأفراد الشرطة القضائية تدريباً وتكويناً كافياً حول تطبيق وتقييم الوسائل البديلة، أو عن كيفية مراقبتها وتقييم مدى التزام المتهم بها¹.

3. غياب التفسير القضائي الموحد

في غياب توجيهات قضائية واضحة، يختلف العمل القضائي من محكمة إلى أخرى، بل ومن قاضٍ إلى آخر، مما يضرب مبدأ المساواة أمام القانون.

خاتمة:

يُعد الحبس الاحتياطي في القانون الموريتاني إجراء استثنائياً يهدف إلى تحقيق العدالة وضمان حسن سير التحقيقات، إلا أن تطبيقه يجب أن يكون مقيداً بضمانات قانونية مشددة لحماية حقوق الأفراد؛ ومع تزايد الدعوات إلى الحد من التعسف في استخدامه، أصبح من الضروري البحث عن بدائل أكثر عدالة وإنصافاً، مثل تعزيز نظام المراقبة القضائية واعتماد سياسات جنائية أكثر توازناً بين حماية المجتمع وصون حقوق المتهمين؛ وقد توصلنا في هذه الدراسة لمجموعة من النتائج (أولاً) وأشفعناها ببعض التوصيات (ثانياً).

أولاً: النتائج:

عدم احترام مبدأ افتراض البراءة، حيث يتم احتجاز المتهم قبل إدانته.

عدم توفر بدائل فعالة مثل المراقبة القضائية أو الكفالة المالية.

طول مدة الحبس الاحتياطي في بعض القضايا، مما يؤدي إلى انتهاكات لحقوق الأفراد.

ثانياً: الاقتراحات

ترتكز التوصيات التي خلصنا إليها في هذه الدراسة إلى التأكيد على احترام مبدأ الشرعية في جميع الإجراءات المتخذة ضد المتهمين سواء في حالة تطبيق الحبس الاحتياطي أو الوسائل البديلة له ولعل أهم هذه التوصيات التي نوصي بها في هذا الصدد:

تفعيل آليات المراقبة القضائية بدلاً من الحبس الاحتياطي في الجرائم غير الخطيرة.

تعزيز دور القضاء المستقل في مراجعة قرارات الحبس الاحتياطي بانتظام.

تعزيز نظام الإفراج المشروط عبر فرض ضمانات مالية أو قضائية.

تفعيل آليات المراقبة القضائية مثل وضع المتهم تحت الإقامة الجبرية بدلاً من الحبس.

¹ محمد عبد الله محمد سالم؛ مرجع سابق؛ ص: 45

تقليص مدد الحبس الاحتياطي وإلزام الجهات القضائية بتبرير أي تمديد .

إعادة صياغة النصوص القانونية ذات الصلة وتنظيم هذه الوسائل البديلة للحبس الاحتياطي بشكل منظم ويحدد كافة الإجراءات المتعلقة بها.

المراجع والمصادر:

✓ الكتب:

- إيهاب عبد الغني: الوسيط في تنظيم السجون؛ دار الفكر الجامعي الإسكندرية ؛ الطبعة الأولى: 2012؛
- سردار علي عزيز : ضمانات المتهم في مواجهة القبض والتوقيف الاحتياطي - دراسة مقارنة- دار الكتب القانونية القاهرة ؛ (دون ذكر الطبعة و تاريخ النشر) ..
- عائشة حسين علي المنصوري: بدائل العقوبة السالبة للحرية قصيرة الأمد -دراسة مقارنة- دار النهضة العربية 2016 (دون ذكر الطبعة)
- محمد عبد اللطيف فرح: الحبس الاحتياطي في ضوء المواثيق الدولية والتشريعات الوطنية (دراسة تحليلية مقارنة) الطبعة الأولى: 2010؛ (دون ذكر جهة النشر).

✓ الأطروحات:

- خالد علال: القيود البديلة للحبس الاحتياطي في التشريع المغربي والمقارن؛ أطروحة لنيل الدكتوراه في القانون الخاص؛ جامعة محمد الأول؛ كلية الحقوق بوجدة السنة الجامعية : 2018؛
- سعاد بوسنة: الوسائل البديلة عن الحبس الاحتياطي كآلية لتفعيل قرينة البراءة؛ رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه؛ جامعة عنابة ؛ كلية الحقوق؛ السنة الجامعية: 2021؛
- عبد العزيز عبد الله محمد العمري : الرقابة القضائية على الحبس الاحتياطي ومسؤولية الدولة عنه؛ أطروحة لنيل دكتوراه في القانون الجنائي؛ جامعة المنصورة كلية الحقوق؛ السنة الجامعية 2019؛
- عبد المجيد بن سعيد : الحبس الاحتياطي و ضمانات المتهم في التشريع الجنائي؛ أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في القانون الخاص؛ جامعة الجزائر 1 ؛ كلية الحقوق والعلوم السياسية؛ السنة الجامعية: 2016؛
- نعمان بن علي: الحبس الاحتياطي بين الشرعية والضرورة؛ أطروحة لنيل دكتوراه في القانون الخاص؛ جامعة تونس المنار ؛ كلية الحقوق؛ السنة الجامعية: 2017؛

✓ الرسائل:

- أحمد محمود عبد الرحمن : الحبس الاحتياطي والبدائل القانونية له في التشريع المصري؛ رسالة مقدمة لنيل شهادة ماستر في القانون الخاص؛ جامعة عين شمس؛ كلية الحقوق؛ السنة الجامعية: 2019.
- آمنة عبد اللطيف: الإفراج المشروط كبديل للحبس الاحتياطي " دراسة مقارنة" رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في القانون الخاص؛ جامعة الخرطوم كلية الحقوق؛ السنة الجامعية: 2021؛
- جمال شابوني: بدائل الحبس المؤقتة العامة - الرقابة القضائية والإفراج الجوازين- رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير ؛ جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية كلية الحقوق ؛ السنة الجامعية : 2017
- محمد عبد الله محمد سالم: الحبس الاحتياطي وضوابطه في القانون الجنائي الموريتاني والمقارن؛ رسالة مقدمة لنيل شهادة الماستر؛ جامعة انواكشوط؛ كلية العلوم القانونية والاقتصادية؛ السنة الجامعية: 2022 ؛
- محمد قاسم الزعبي: بدائل الحبس الاحتياطي في قانون الإجراءات الجنائية الأردني؛ رسالة مقدمة لنيل شهادة الماستر في القانون الخاص ؛ جامعة اليرموك؛ كلية العلوم القانونية والاقتصادية؛ السنة الجامعية :2020؛

- الذيب عيسى: نظام المراقبة القضائية بديلا من التوقيف الاحتياطي - دراسة مقارنة - رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير جامعة دمشق؛ كلية الحقوق السنة الجامعية: 2018.

✓ المقالات:

- أسماء حقاو: نظام الوضع تحت المراقبة الالكترونية؛ مجلة الحقوق والحريات العدد: الأول؛ 2019.
- ساهر إبراهيم الوليد: مراقبة المتهم إلكترونيا كوسيلة للحد من مساوئ الحبس الاحتياطي - دراسة تحليلية - مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية؛ العدد: الأول؛ يناير 2013
- عصام شبيب صعب: المراقبة القضائية كتدبير بديل للحبس الاحتياطي "دراسة مقارنة" مجلة كلية القانون الكويتية العالمية؛ العدد الرابع ديسمبر 2019؛
- كورتي عبد الحق: الاعتقال الاحتياطي كممارسة قانونية وتأثيرها على المتهم؛ مجلة مغرب القانون؛ العدد الثالث يناير 2022؛
- محمد بن حميد المزمومي: المراقبة الإلكترونية كبديل للعقوبة السالبة للحرية "دراسة في ضوء النظام السعودي والأنظمة المقارنة" مجلة صوت القانون؛ العدد الثاني نوفمبر 2020؛
- هشام عبد السيد الصافي محمد بدر الدين: الاستثناءات الواردة على الحبس الاحتياطي في التشريعات الجنائية "دراسة مقارنة" مجلة المنارة للدراسات القانونية والإدارية عدد خاص - عدد خاص حول القانون الجنائي - غشت 2021

✓ القوانين الوطنية

- الأمر القانوني رقم 83-162 الصادر بتاريخ 9 يوليو 1983؛ المتضمن القانون الجنائي الموريتاني.
- أمر قانوني رقم 036-2007 يتضمن مراجعة الأمر القانوني رقم 83-163 الصادر بتاريخ 9 يوليو 1983 المتضمن قانون الإجراءات الجنائية؛ الجريدة الرسمية للجمهورية الإسلامية الموريتانية؛ العدد: 1143؛ الصادر بتاريخ: 17 أبريل 2007

✓ المواثيق الدولية:

- العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية

الحماية القضائية لبيع عقار القاصر

عبد القادر السحمودي

طالب باحث بسلک الدكتوراه

تحت إشراف فضيلة الدكتور: الحسين العمريش

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس

المملكة المغربية

الملخص:

يتناول هذا البحث موضوع الحماية القانونية التي تخص بيع ممتلكات القاصر، وهو موضوع مهم للغاية في مجال الأحوال الشخصية وحقوق الفئات الضعيفة في المجتمع. هدفه هو توضيح الإطار القانوني والإجرائي الذي يضمن حماية حقوق القصر من أي تلاعب في ممتلكاتهم، مع إلقاء الضوء على دور القضاء في مراقبة تصرفات الولي أو الوصي، والتأكد من تحقيق المصلحة الفضلى للقاصر. يبحث البحث في الشروط والقيود التي يضعها القانون لبيع ممتلكات القاصر، ومن بين هذه الشروط ضرورة الحصول على إذن من القاضي المكلف بشؤون القاصرين، ومدى صلاحيات القاضي في تقييم المصلحة، بالإضافة إلى الإجراءات الشكلية والموضوعية المطلوبة لإجراء البيع بطريقة قانونية، ليصل البحث إلى نتيجة مفادها أن الحماية القانونية تمثل وسيلة أساسية لتحقيق التوازن بين تمكين الولي من إدارة أموال القاصر وضمان عدم الإسراف في استخدامها أو فقدانها.

الكلمات المفتاحية: الرقابة القضائية، تصرفات القاصر

مقدمة:

لقد حض التشريع المدني المغربي القاصرين بحماية خاصة، حيث أحاطهم بمجموعة من الضمانات القانونية في مجموعة فروعهم، لا سيما في قانون المسطرة المدنية، وقانون الالتزامات والعقود وكذا مدونة الأسرة... لرعاية مصالحهم وصيانة حقوقهم، ولتغطية النقص الكامل في أهليتهم، فالقاصر هو رمز المستقبل وأمل الغد، فكلما حظي بالعناية والرعاية الكاملة، إلا ونشأ فردا صالحا لنفسه ومجتمعه، وكلما تعرض للإهمال إلا ونشأ عضوا فاسدا، ويكون عالة على نفسه ومجتمعه، لذلك اهتم المشرع المغربي بالقاصر وعمل على حمايته في شخصيته وماله، لكي يقوم بدور رئيسي في الحياة المدنية داخل المجتمع. لهذا حرص المشرع على سن مجموعة من النصوص في مختلف فروع القانون تعنى بشؤون القاصر المالية، كما تعد الرقابة القضائية أهم صلاحية خولها القانون للقضاء، يمارسها عن طريق مجموعة من الإجراءات التي تشكل في مجملها سياجا متينا، يحمي أموال القاصرين من التصرفات اللامسؤولية التي يقدم عليها المشرفون على النيابة الشرعية.

أهمية الموضوع:

حماية مصلحة القاصر: الحدث يعتبر فردًا يفتقر إلى الاستقلال القانوني، لذا يمنح القانون اهتمامًا خاصًا لأفعاله، خاصة تلك التي تتعلق بالعقارات.

التقليل من استغلال الأوصياء أو الولي: في العديد من الحالات، قد يحدث سوء استخدام السلطة من خلال تصريف ممتلكات القاصر العقارية دون مراعاة لمصلحته الحقيقية.

الرقابة القضائية: يقوم القضاء بدور رئيسي في منح الإذن ببيع ممتلكات القاصر، مما يظهر أهمية الرقابة القضائية كوسيلة أساسية لحماية المصلحة الفضلى للقاصر.

التأثيرات المستقبلية: بيع ممتلكات القاصر ليس مجرد إجراء وقتي، بل له تأثيرات على مستقبله المالي والاجتماع

ثانيًا: أهداف الدراسة

توضيح القواعد والشروط المرتبطة ببيع ممتلكات القاصر، والجهات المخولة بتنفيذ هذا البيع.
استكشاف كيف يساهم النظام القضائي في حماية حقوق القاصر خلال عملية البيع، مع الإشارة إلى حدود رقابته وصلاحياته.
إبراز التحديات العملية والقانونية التي تعترض عملية بيع عقارات القاصر.

رابعًا: المنهجية المعتمدة

من خلال الموضوع الذي بين أيدينا يتبين أن المنهج الذي ينبغي الاعتماد عليه هو المنهج التحليلي من خلال تحليل النصوص القانونية المنظمة لبيع عقار القاصر، وتفسيرها وكذا المنهج الوصفي، وذلك لوصف الواقع العملي، والإجراءات القضائية المتبعة في التصريح ببيع عقارات القاصر.

ثالثًا: إشكالية الدراسة

من خلال ما سبق يمكن طرح الإشكالية التالية.

إلى أي حد توفر الرقابة القضائية حماية حقيقية وفعالة لمصلحة القاصر عند بيع ممتلكاته، وما هي المعايير القانونية والواقعية التي تحدد هذه الحماية

ومن خلال ما سبق سنحاول أن نتحدث في الموضوع عن الرقابة القضاء لبيع عقار القاصر وذلك من خلال مطلبين.

المطلب الأول: رقابة القاضي لشؤون القاصرين

لم يقف المشرع المغربي في إطار محاولته الرامية إلى الحفاظ على أموال القاصر وتنميتها عند حد التنظيم القانوني للنياحة الشرعية، وإنما أوكل إلى القضاء مهمة السهر على التطبيق السليم لهذه القواعد القانونية، وتتجلى هذه الأخيرة في وضع القيود على تصرفات الوصي أو المقدم بخصوص عقار القاصر.

لذلك لا يجوز لكل من الوصي أو المقدم أن يبيع عقار القاصر إلا في حالة الضرورة التي تثبت بأحد الأسباب الشرعية (الفقرة الأولى) وذلك بعد استئذان القاضي في إجراء هذا البيع (الفقرة الثانية).

الفقرة الأولى: إثبات موجبات البيع

يشترط لجواز بيع عقار القاصر إبداء السبب، وقد اتفق الفقهاء على عدم جواز بيع الولي عقار القاصر لغير حاجة أو ضرورة، غير أن الفقهاء اختلفوا في إلزام الولي بذكر السبب الموجب للبيع، ففريق منهم رأى الإلزام، وفريق آخر لم يقل به ومنهم المالكية، فقد روي عنهم عدم إلزام الأب بذكر السبب، لأن بيعه محمول على السداد، فلا اعتراض لولده عليه بعد رشده فيما باعه من أجل مصلحته.¹

فإذا توفرت في الأب شروط الولاية على المال، وانتفت موانعها، فله التصرف المطلق في أموال من تحت ولايته، بدليل قول الشيخ خليل: "وله البيع المطلق وإن لم يذكر سببه". أي أن الأب له أن يبيع لولده المحجور العقار وغيره لأحد الأسباب الموجبة للبيع.²

كما أن الحنفية يقرون بجواز بيع الأب العقار ابنه القاصر دون ذكر الموجب، وهم بذلك يسيرون مع ما ذهب إليه الفقه المالكي، أما الشافعية، فيرون أن للأب بيع عقار ابنه القاصر،³ لكن الأمر عندهم مشروط بشرطين:

✓ أن يكون البيع لمصلحته بالإتفاق والكسوة أو غلة العقار.

✓ أن يكون البيع لغبطة ظاهرة.

من خلال ما سبق يتضح من آراء الفقهاء أن تصرفات الأب في عقار القاصر محمولة دائما على النظر والسداد حتى يثبت خلافه، وبعبارة أخرى فالأب يمارس ولايته على أموال أولاده القاصرين بصفة عامة وعقاراتهم بصفة خاصة دون قيد أو شروط إلا إذا ثبت أن تصرفاته لا تحقق مصلحة لهم.⁴

¹ : جابر بن علي الحوسني، مال القاصر ومن في حكمه في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بالقانون، دار المحجة لنشر والتوزيع، دون ذكر الطبعة سنة النشر 2008، ص/ 244

² : مراد عامر الحماية القانونية والقضائية لبيع عقار القاصرة رسالة لنيل دبلوم الماستر في قانون العقود والعقار، جامعة محمد الأول، كلية العلوم القانونية والاقتصادية، والاجتماعية، وجدة، السنة الجامعية 2012/2013، ص 37

³ : بوشعيب بقاضي إدارة أموال القاصر بين الفقه الإسلامي والقانون الوضعي، م س، ص/ 173

⁴ : مراد عامر الحماية القانونية والقضائية لبيع عقار القاصر، م س، ص/ 38

أما الفقه المالكي، فهو الآخر يرى أن للأب أن يبيع مال ولده الذي تحت ولايته، سواء كان هذا المال منقولاً أو عقاراً، بموجب أو لغير موجب.

وإذا كانت مدونة الأحوال الشخصية الملغاة، وكذا قانون المسطرة المدنية من خلال الفصل 207، أكدت على شرط الضرورة وأولوية البيع بالنسبة للعقار، إلا أنه لم تتم الإشارة إلى ذلك في مدونة الأسرة.

وأمام غياب الضوابط الشرح معنى شرط الضرورة، يجب الرجوع إلى المادة 400 من مدونة الأسرة التي تحيلنا على المذهب المالكي والاجتهاد الذي يراعى فيه قيم الإسلام في العدل والمساواة.

ينص الفصل 207 من قانون المسطرة المدنية على أنه: "يأذن القاضي في بيع عقار معين للمحجور بعد إثبات ضرورة بيعه وأنه أولى بالبيع من غيره".

يتضح من خلال الفصل 207 من قانون المسطرة المدنية، أنه أكد على شرط الضرورة وأولوية البيع للعقار، وهو ما نراه معمولاً به في القضاء المغربي، حيث تجد أن قضاة المكلفون بشؤون القاصرين يأخذون بشرط الضرورة والمصلحة، وهذا من خلال أمر صادر عن قسم قضاء الأسرة بالرباط، حيث نص على أنه "نأذن للسيدة ... بصفتها النائية الشرعية على ولديها من زوجها المرحوم ببيع نصيبها في القطعة الأرضية الواقعة ... بثمن لا يقل عما حدده الخبير مع إضافة 2000 درهم كغبطة لكل قاصرة.¹

وفي حكم آخر صدر عن المحكمة الابتدائية بصفور² الذي جاء فيه "حيث أن الثابت من تقرير الخبير المنتدب ان الثمن المحدد هو مناسب للعقار وان نصيب القاصرين هو مبلغ 32500.00 درهم فيه مصلحة لهما. وحيث تبعا لذلك يكون الطلب مؤسس ويتعين الاستجابة له مع إبقاء الصائر.

وكذلك الأمر الصادر عن قسم قضاء الأسرة بالرباط الذي جاء فيه: "وحيث ثبت أن الضرورة تدعو إلى بيعه وأنه أولى بالبيع من غيره، نأذن للسيدة ببيع العقار المعني في المقال والمحضر صحبته.³

أما بالنسبة للوصي، فالفقه الشافعي يعتبره كالوكيل على الأب بعد مماته، وبالتالي يجوز له أن يبيع عقار القاصر، وذلك لحاجته كالنفقة والكسوة وغيرها.

أما الفقه الحنفي والحنبلي، فإنه يرى أن الوصي لا يحتاج في هذا التصرف إلى إذن القاضي لأنه أمين مصدق في ذلك بشرط وجود الحاجة إلى هذا التصرف.

أما الفقهاء المالكية، فيرون في جواز بيع الوصي لعقار المولى عليه رأيين، رأي يقول بجواز بيعه مطلقاً، كبيع الأب من غير حاجة إلى ذكر وجه أو سبب لهذا البيع، وآخر يقول بعدم جواز بيع الوصي عقار من تحت ولايته إلا بشرطين ولوجه من الوجوه

¹ : حكم صادر من المحكمة الابتدائية بالرباط قسم قضاء الأسرة ملف رقم 10/18/07 بتاريخ 28/06/2007 أورده مصطفى أعراب الرقابة القضائية على أموال القاصر رسالة

لنيل شهادة الماستر في الشريعة بجامعة سدي محمد بنفاس سنة الجامعية 2024/2023، ص/87

² : حكم صدر عن محكمة الابتدائية بصفور ملف النيابة القانونية رقم 13/1643/2024 الصادر بتاريخ 9/7/2024

³ : أمر صادر عن قسم قضاء الأسرة بالرباط عدد 2006/04 صادر بتاريخ 14/08/2020 في الملف رقم 6/2006

أوردته سهام مركول مرجع ص/30

الداعية إلى البيع، وكلا القولين مشهور، إلا أن الذي به العمل هو الثاني، الذي يقول إن بيع عقار القاصر لا بد له من سبب، وهكذا لا يجوز للوصي أن يبيع عقار من تحت ولايته إلا بشرطين وهما:

الشرط الأول: وجود سبب من الأسباب الداعية إلى بيع العقار.

الشرط الثاني: بيان هذا السبب أو الوجه الداعي إلى بيع العقار.¹

ولتحديد مفهوم الضرورة، يتعين الرجوع إلى الراجح والمشهور في المذهب المالكي، حيث تجد أنه إذا كان الأساس هو بيان المصلحة في بيع مال المحجور عامة، فإن بيع عقاره مقيد بتوفر أسباب محصورة على الحاجر أن يقوم بإثبات أحدها، وقد أورد فقهاء المذهب المالكي مجموعة من الحالات التي تدعو إلى ذلك، وهكذا فقد حدد بعض الفقه الموجبات والأسباب الداعية إلى بيع العقار فيما يلي:²

- الاحتياج للمال من أجل نفقة وكسوة القاصر.
 - الغبطة بالزيارة في ثمنه على الثلث، بحيث يقدم فيه ثمن أعلى من ثمنه وقت البيع.
 - قلة غلة العقار المراد بيعه أو انعدامه والرغبة في استبداله بعقار ينتج غلة أكثر.
 - تواجد العقار الذي يسكنه القاصر في موقع يسكن فيه جيران السوء، فيريد الوصي أو المقدم استبداله بسكن آخر بين سكان لا يتأذى منهم، وفي هذه الحالة متوقعة على كون العقار سكنا للقاصر، أما إذا كان مخصصا لمجرد الاستغلال أو أرضا غير مبنية، فلا يباع العقار لهذا موجب.
 - أن يكون القاصر شريكا في ملك معين، ويريد شريكه أن يبيع الملك صفقة، ولم يجد ما لا يضم به تلك الصفقة، فليلجأ إلى بيع العقار.
 - الخوف من انتقال العمران من الموقع الذي يوجد به العقار.
 - الخوف من تهدم العقار لقدمه، وعدم توفر القاصر على المال اللازم للإصلاح والترميم، أو كون البيع أولى من الإصلاح، أما إذا كان البيع لغير حاجة، بل لتزليج الدار مثلا، فإن البيع لا يجوز وإذا تم ينقض.
 - كون ما يملكه القاصر حصة من عقار، فيريد القاصر أو مقدمه الخروج من حالة الشيعا وشراء عقار يكون ملكا خالصا له لا يشاركه فيه أحد، أو مطالبته بالمقاسمة لذلك الشيعا.
- وفي هذا الصدد جاء في إذن صادر عن قسم قضاء الأسرة بالقنيطرة ما يلي: " بناء على الطلب الذي تقدم به نيابة عن القاصرين..... وبناء على الخبرة المنجزة، وبناء على أمرنا السابق الصادر بتاريخ 2009/06/08 إلى أن نصيب القاصرين قيمته هو 10208.00 درهم لكل واحدة منهما، وحيث أنه لا يجبر أحد على البقاء في الشيعا وأن مصلحة القاصرتين تقتضي خروجهما من حالته، لذلك نأذن ببيع نصيب القاصرتين.... في العقار.³

¹ : عبد الصمد المعطاسم، دور القضاء في حماية أموال القاصرين، بحث نهاية التكوين الفوج 36 وزارة العدل المعهد العالي للقضاء بالرباط السنة القضائية 2009-2011، ص/

² : أحمد البكاري، تدبير أموال القاصر - العقارية والسائلة، مرجع س، ص: 81 وما بعدها

³ : حكم صادر من قسم قضاء الأسرة بالقنيطرة، تاريخ 20/07/2007 تحت عدد 5/5/2009 اوردته مصطفى أغراب م س، ص/ 89

كما جاء في حكم آخر صادر عن المحكمة الابتدائية بصفور، قسم قضاء الأسرة على أنه " بناء على المقال الافتتاحي الذي تقدمت به السيدة.... والذي تلمس فيه من المحكمة الاطلاع على مشروع المقاسمة وتقديم الموافقة عليه كونه الأفضل للقاصر.... وبناء على ملتصق النيابة العامة الرامي إلى تطبيق القانون، وحيث أن الثابت من تقرير الخبير المنتدب أن النصيب المفرز للقاصر... مناسبة لحصته الشرعية.

حكمت المحكمة علينا ابتدائيا وحضوريا بالموافقة على مشروع المقاسمة المنجز من طرف العدلين..... بتاريخ 2022/08/01 والمدرج بمذكرة الحفظ لنفس العدل، وبإبقاء الصائر على الطالبة.¹

وعليه فالوصي أو المقدم ملزم بإثبات الأسباب الدافعة إلى بيع العقار، ويخضع تقدير هذه الأسباب للسلطة التقديرية للقاضي شؤون القاصرين الذي له التحقق منه بكافة الوسائل الممكنة.

وبالرجوع إلى التشريع المغربي، نجد أن مدونة الأسرة وإن لم تنص على شرط الضرورة وأولوية البيع من غيره، إلا أنها تركز في جل مواد النيابة الشرعية على تحقيق مصلحة القاصر وإعطاء قاضي شؤون القاصرين السلطة التقديرية في تحديد هذه المصلحة، ولعل الأسباب التي تم تحديدها في الفقه المالكي تصب في مصلحة القاصر، ويجب الأخذ بها أثناء بيع عقاراته.

الفقرة الثانية: سلطة القاضي في منح الاذن بالبيع

إن سلطة الولي في بيع أموال القاصر سلطة شبه مطلقة وواسعة النطاق، لأن الولي سواء كان أبا أو أما لا يخضع لرقابة القضاء القبلية، حيث يمكنه التصرف في عقار ابنه دون الخضوع لأي إذن، وذلك بصريح المادة 240 من مدونة الأسرة التي تنص على أنه: "لا يخضع الولي الرقابة القضاء القبلية في إدارته الأموال المحجور...."، على أنه يتعين أن تكون تصرفاته في مصلحة ابنه القاصر، وإلا وجب تدخل القضاء الحماية مصالحه.

والملاحظ أن موقف المشرع المغربي بشأن مسألة الإذن للأب في بيع مال ابنه القاصر، يشوبه غموض ناتج عن ضرورة استئذان الأب للقاضي عند التصرف في مال ابنه القاصر،² إذ جاء في الفصل 11 من قانون الالتزامات والعقود ما يلي: "الأب الذي يدير أموال ابنه القاصر أو ناقص الأهلية، والوصي والمقدم، وبوجه عام كل من يعينه القانون الإدارة أموال غيره، لا يجوز لهم إجراء أي عمل من أعمال التصرف على الأموال التي يتولون إدارتها، إلا بعد الحصول على إذن خاص بذلك من القاضي المختص، ولا يمنح هذا الإذن إلا في حالة الضرورة أو في حالة النفع البين لناقص الأهلية.

بينما عدت المادة 271 من مدونة الأسرة التصرفات التي لا يحق لكل من الوصي والمقدم القيام بها دون استئذان القاضي المكلف بشؤون القاصرين.

وقد حاول المجلس الأعلى محكمة النقض (حاليا) تبديد الغموض الناتج عن مقارنة هذه النصوص فيما بينها، وذلك بتطبيقه للقاعدة على أن النص الخاص يقدم على النص العام عند التعارض، إذ جاء ضمن قرار صدر عن هذا المجلس بتاريخ 25-11-2006 وذلك بصيغة قاعدة النص الخاص يقدم على النص العام ويطبق بالأولوية عنه، جاء فيه أنه: "لا مجال للاستدلال بمقتضيات الفصل 11 من قانون الالتزامات والعقود ما دامت الولاية والأهلية تخضع لقانون أحواله الشخصية الصادر في ظله القرار المطعون

¹ : حكم صادر عن المحكمة الابتدائية قسم قضاء الأسرة حكم عدد 10 ملف رقم 2022/1643/28 بتاريخ 2023/04/04، اوردته مصطفى أعراب م س، ص/90

² : جمال المدني، الحماية القضائية لبيع أموال القاصر، مجلة المسارة الدراسات القانونية والإدارية عدد خاص بقانون الأسرة 2018 ص/20

فيه، الذي نص في فصله 158 و 159 على أن للأب الولاية على شخص القاصر وعلى أمواله معا حتى تكتمل أهليته وهو ملزم بالقيام بها.¹

وهو ما تم تأكيده من طرف العمل القضائي، حيث ذهبت محكمة النقض في إحدى قراراتها إلى أن تصرفات الولي غير مشروطة بضرورة الحصول على إذن قاضي شؤون القاصرين²

غير أن هناك جانبا من العمل القضائي المغربي، لم يأخذ بعين الاعتبار إعفاء الولي من الإذن، لكونه يشترط لصحة بيع عقار القاصر من طرف وليه الحصول على الإذن القضائي، حيث ذهبت المحكمة الابتدائية بصفور إلى إعطاء الإذن للسيدة بشراء السكني موضوع الرسم العقاري عدد... الكائن بإقليم صفرو لفائدة القاصرتين... بالثمن المقترح من طرف الخبير وموافاتنا بنسخة من عقد الشراء.³

أما الوصي أو المقدم فقد استوجب المشرع فيهما الحصول على إذن قضائي بصدد بيع عقار القاصر، وترتيب حق عيني عليه، بحيث أنه: "لا يقوم الوصي أو المقدم بالتصرفات الآتية إلا بعد الحصول على الإذن من القاضي المكلف بشؤون القاصرين

1- بيع عقار أو منقول للمحجور تتجاوز قيمته 10,000 درهم أو ترتيب حق عيني عليه" المادة 271 من مدونة الأسرة.

مما يتبين معه أن موافقة القاضي لازمة لأغلب الأعمال التي يقوم بها الوصي أو المقدم في أموال المحجور، وبالتالي لا يكون تاما عقد البيع المبرم من طرف الوصي أو المقدم لعقارات القاصر، إلا بعد الحصول على إذن يمنحه القاضي المكلف بشؤون القاصرين، في صورة أمر قضائي ولائي مبني على طلب الحاجر.⁴

وهو التوجه الذي اعتمدته المحكمة الابتدائية بصفور والذي مفاده أنه "بناء على الطلب المقدم من طرف السيدة... والذي تلتزم بمقتضاه الإذن لها نيابة عن أختها... المصابة بإعاقة ذهنية وجسدية بإتمام إجراءات لبيع نصيبها من العقار، وحيث أثبتت الخبرة المنجزة أن العقار أولى بالبيع من بقائه، وأن الثمن المحدد مناسب لها بواسطة كتابة ضبط هذه المحكمة على أن يكون الثمن الأساسي للبيع هو المحدد في تقرير".⁵

وللحصول على هذا الإذن يتقدم الوصي أو المقدم بطلب كتابي إلى القاضي المكلف بشؤون القاصرين، يتضمن معلومات خاصة بالقاصر وبالعقار موضوع البيع، ويرفق مقالته بالوثائق والحجج التي تتضمن بيانات كافية لتعيين العقار من حيث موضوعه وحدوده ومساحته وأوصافه، ورقم رسمه العقاري إذا كان محفظا ورقم المطلب إذا كان في طور التحفيظ، وما قد يكون له أو عليه من الاتفاقات وحقوق الكراء أو الرهن أو غيرها التي تبث للغير عليه، وكذلك ما يثبت المبرر الذي يفرض بيعه، وما يبرهن على أنه أحق بالبيع من غيره من عقارات القاصر.⁶

¹ : قرار المجلس الأعلى محكمة النقض حاليا، عدد 290 المؤرخ في 2006/11/25 الملف المدني عند 2003/11/230، منشور بمجلة قضاء المجلس الأعلى، العدد 67 يناير سنة 2007، ص/42

² : سهام موكول الرقابة القضائية على أموال القاصر، م س ص/ 31

³ : حكم صادر المحكمة الابتدائية بصفور، قسم قضاء الأسرة ملف رقم 2022/40164 مقرر عند 101، تاريخ 2022/11/02 غير منشور

⁴ : مراد عامر الحماية القانونية والقضائية لبيع عقار القاصر"، رسالة لنيل دبلوم الماستر في قانون العقود والعقار، جامعة محمد الأول، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، وجدة، السنة الجامعية 2012/2013. م س، ص/ 42

⁵ : حكم صادر عن المحكمة الابتدائية بصفور قسم قضاء الأسرة ملف رقم 2023/1643/90 حكم عدد 08 بتاريخ 2003/2001 غير منشور

⁶ : رجال رامي بيع أموال القاصر بين قواعد مدونة الأسرة وقانون المسطرة المدنية في التشريع المغربي رسالة لنيل دبلوم الماستر، جامعة ابن زهر بأكادير، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية السنة الجامعية 2018/2019 ص/ 24

وقد نص الفصل 208 من قانون المسطرة المدنية على هذه البيانات أنه: "يتعين على الحاجر الذي يرغب في الحصول على الإذن أن يرفع إلى القاضي المكلف بشؤون القاصرين مقال مرفقا بالوثائق اللازمة، ويثبت في جميع البيانات وبصفة خاصة موقع وحدود العقار وأوصافه وماله أو عليه من حقوق وعقود الكراء المترتبة عليه وحالته إزاء التحفيظ العقاري إن كان".

إلا أن تقديم المقال المذكور لا يعني صدور الإذن بالبيع من طرف القاضي المكلف بشؤون القاصرين، إذ قد يرفض القاضي ذلك، فإن صدر الإذن بالبيع من القاضي بوشرت إجراءات البيع، وإن رفض القاضي منح الإذن وجب تبليغ هذا الرفض إلى الحاجر تلقائيا وهو ما نص عليه الفصل 208 من ق.م.ع. على أنه: "يلغ الأمر في حالة الرفض تلقائيا للحاجر وفقا للطرق العادية ويمكن له أن يستأنفه خلال عشرة أيام".

من خلال هذا الفصل يلاحظ أن أمر القاضي المكلف بشؤون القاصرين برفض الإذن ببيع عقار القاصر من طرف أو الوصي أو المقدم، يخضع للطعن بالاستئناف داخل أجل 10 أيام من تاريخ مقرر الرفض إلى الحاجر.

وفي حالة رفض محكمة الاستئناف منح الإذن للحاجر بالبيع، فله أن يعيد تقديم الطلب إذا تغيرت الظروف والأحوال التي رفع فيها الطلب الأول، لأن الأوامر الولائية الصادرة في هذا الإطار لا تكتسي قوة الشيء المقضي به.¹

وتجدر الإشارة إلى أن المشرع المغربي قد ميز بين العقارات التي تحتاج إلى إذن والتي لا تحتاج إليه، بالرغم من أن جميع التصرفات التي يجريها الوصي أو المقدم في مال المحجور تحتاج إلى رقابة من طرف قاضي شؤون القاصرين، فإن المشرع ميز في بيع العقار بين نوعين من العقارات حسب قيمتها:

1- العقارات التي لا تحتاج إلى إذن لبيعها:

بالرجوع لمقتضيات المادة 271 من مدونة الأسرة أجاز المشرع المغربي للوصي والمقدم بيع عقار القاصر دون إذن قاضي شؤون القاصرين في حالات محددة، وذلك أن الوصي والمقدم لا يتوجب عليه طلب الإذن لبيع العقار إلا إذا تجاوزت قيمته 10.000 درهم، بحيث جاء في ثناياه: "لا يقوم الوصي أو المقدم بالتصرفات الآتية، إلا بعد الحصول على الإذن من القاضي المكلف بشؤون القاصرين:

وبالتالي فإن كانت قيمة العقار أقل أو تساوي 1.000 درهم، يجوز بيعها من طرف الوصي أو المقدم دون الحصول على الإذن من القاضي المكلف بشؤون القاصرين، بالإضافة إلى ذلك العقار الذي لا تتجاوز قيمته 5000 درهم لا يحتاج إلى إذن إذا كان معرضا للتلف.

وعملا بمقتضيات المادة 272 من مدونة الأسرة. لا بد لبيعه من طرف الوصي أو المقدم من إذن بذلك صادر عن قاضي شؤون القاصرين، وبسلوك مسطرة بيع عقار القاصر المنصوص عليها في قانون المسطرة المدنية.

وفي هذا الصدد. صدر حكم للمحكمة الابتدائية بصفور والذي جاء فيه " تأذن فيه للسيدة... بصفتها والدة القاصر برهن الضيعة الفلاحية موضوع الرسم العقاري.... رهنا رسميا لضمان قرض بنكي قدره 850.000 درهم قصد تكملة مصاريف تجهيز الضيعة الفلاحية المذكورة أعلام بالتنقيط بالماء، ووضع شبكة حماية الأشجار وبتمكيننا من نسخة من عقد الرهن.²

¹ : عبد العزيز توفيق، شرح قانون المسطرة المدنية والتنظيم القضائي، الجزء الأول، مطبعة النجاح الجديدة، 1995، ص: 387

² : حكم صادر عن المحكمة الابتدائية بصفور قسم قضاء الأسراء ملف النيابة القانونية رقم 09/1643/2023 حكم رقم 14 بتاريخ 27/04/2023 غير منشور

وخلاصة القول، يتضح أن المشرع قيد سلطة كل من الوصي والمقدم في بيع عقارات القاصر من خلال الحصول على إذن القاضي المكلف بشؤون القاصرين، الذي لا يأذن بالبيع إلا إذا ثبتت لديه ضرورة وحود النفع الذي سيجنيه للمولى عليه، ومدى أولوية هذه العقارات بالبيع من غيرها، وأفرد لمثل هذه البيوعات مسطرة خاصة تبرز رغبة المشرع في العناية بالأموال العقارية للقاصرين من كل تبديد أو تلاعب أو اختلاس، وهذا ما سيتم مناقشته في المطلب الثاني.

المطلب الثاني: إجراءات البيع القضائي لعقار القاصر

سبق القول بأنه لا يجوز لكل من الوصي أو المقدم بيع عقار القاصر إلا في حالة الضرورة التي تثبت بأحد الأسباب الشرعية المذكورة، وبعد استئذان القاضي المكلف بشؤون القاصرين إجراء هذا البيع.

لقد خصص المشرع المغربي الفصول من 207 إلى 211 من قانون المسطرة المدنية للإجراءات التي يتعين على الوصي أو المقدم اتباعها لبيع عقار القاصر، وإذا كان الأصل في البيع أن يكون رضائيا، فإن هناك بعض البيوعات خصصها المشرع بإجراءات ومسااطر خاصة، كما هو الحال بالنسبة لبيع عقار القاصر، الذي ألزم الوصي أو المقدم خلالها الخضوع لمسطرة البيع بالمزاد العلني في حالة ما إذا تجاوزت قيمة العقار ألفي درهم (الفقرة الأولى)، غير أنه قد يدعي شخص ما أن العقار المراد بيعه باسم القاصر يعود له، ومن ثم يفتح مسطرة التعرض التي تخضع بدورها لإجراءات محددة (الفقرة الثانية).

الفقرة الأولى: مسطرة بيع عقار القاصر

عند الحصول على الإذن ببيع العقار، فإن البيع يخضع إلى طريقتين إما أن يتم البيع عن طريق المراضاة في حالة ما إذا كانت قيمة العقار لا تتعدى بتقدير الخبير عند الاقتضاء ألفي درهم (أولا)، أو إذا تجاوزت قيمة العقار ألفي درهم أو لم يستطع بيعه بالمراضاة وقع البيع بالمزاد العلني (ثانيا).

أولا: مسطرة البيع الرضائي العقار القاصر

متى كانت قيمة العقار تساوي أو تقل بتقدير الخبير عند الاقتضاء ألفي درهم 1890 (2000 درهم)، تم البيع عن طريق المراضاة، حيث نص الفصل 209 من قانون المسطرة المدنية ما يلي: "إذا كانت قيمة العقار لا تتعدى بتقدير خبير عند الاقتضاء ألفي درهم تم البيع بالمراضاة".

وبناء على ذلك فإنه عند إثبات الحاجر أسباب بيع العقار، وأنه أولى بالبيع من غيره إذ تعددت عقارات القاصر، يصدر قاضي شؤون القاصرين إذنه ببيع عقار القاصر، ثم يعمل على تعيين خبير لتحديد الثمن الأساسي للعقار، بناء على طلب من الوصي أو المقدم، فإذا تبين عدم تجاوز الثمن ألفي درهم فإن البيع يتم عن طريق المراضاة.

ولعل من أبرز صور البيع بالمراضاة حالة بيع الصفقة التي يقصد بها بيع جميع المال الشائع من جانب أحد الشركاء الأجنبي وتبليغه لباقي الشركاء الآخرين الذين لهم أن يسلموا بالبيع ويقتسموا الثمن فيما بينهم كل حسب حصته، وإما أن يضموا حصة الشريك البائع إلى حصصهم بما نأجها من الثمن.¹

وتتجلى الحكمة من مشروعية بيع الصفقة في رفع ما على البائع من الضرر، والنقص في الثمن إذا باع حصته مفردة، ويتم بيع الصفقة على المحجور متى توفرت الشروط التالية:

¹: محمد كشيور، القسمة القضائية في القانون المغربي دراسة شرعية و تشريعية الطبعة الثانية 2011 ص/ 144

1- أن يأذن القاضي المكلف بشؤون القاصرين بالبيع صفقة.

2 أن تثبت الخبرة أن الضرورة تدعو إلى بيع العقار.

3- أن تمنح إلى المحجور زيادة تسمى الغبطة حددها جانب من الفقه في 5 في المائة.

ويتم ذلك من خلال تقديم الحاجر مقال إلى القاضي المختص بعرض فيه مصلحة القاصر في البيع، وأنه لا يتوفر على مال يضم به تلك الصفقة، ويتم تعيين خبير للوقوف على العقار وإبداء رأيه بخصوص مصلحة المحجور في الضم أو الإمضاء، مع تحديد نسبة الغبطة، أما إذا كان العقار مملوكا على الشياخ فإن بيعه يتم صفقة، ولا يأذن القاضي في هذه الحالة بالبيع، إلا إذا باع جميع الشركاء وحرروا بذلك عقد مستقل عن عقد بيع القاصر، وينبغي أن يصدر قرار القاضي بالإذن معللا تعليلا كافيا.¹

وقد جاء في أمر صادر عن قاضي شؤون القاصرين بتازة ما يلي: "... بناء على الطلب الذي تقدمت به السيدة ... بصفتها ولاية شرعية للقاصرين.... لأجل الإذن لها ببيع واجب أبنائها صفقة في القطعة الأرضية المسماة حوز الدار ومشمولاته....

وبناء على الفصل 148 من مدونة الأحوال الشخصية كما تم تغييره، نأذن للسيدة ... ببيع واجب أبنائها القاصرين صفقة مع باقي الورثة في العقار موضوع المقاسمة أعلاه مع حيازة الثمن²

والواقع أن القيمة المحددة من طرف المشرع المتمثلة في عشرة آلاف (10,000) درهم بالنسبة لمدونة الأسرة، وألفي (2000) درهم بالنسبة للمسطرة المدنية كمعيار لبيع المراضاة، يبقى معيارا غير مجدي لأن هذه القيمة تبقى زهيدة بالنظر إلى الارتفاع الذي تعرفه العقارات في وقتنا الحالي.

إلا أن دور القاضي المكلف بشؤون القاصرين لا يتوقف عند حد البيع الرضائي، بل يمتد كذلك إلى البيع بالمزاد العلني.

ثانيا: مسطرة بيع عقار القاصر بالمزاد العلني

يعتبر البيع بالمزاد العلني من البيوع التي تحتل مكانة مهمة، إذ تقدم فوائد كبيرة على المستويين القضائي والممارسة العملية، نظرا لتكرار العمليات الخاصة بها والقيمة المرتفعة لهذا النوع من البيوع التي يجري تنفيذها على هذا الأساس.³

يخضع عقار القاصر لهذه المسطرة إذا تجاوزت قيمة العقار مبلغ ألفي (2000) درهم أو إذا لم يتم بيعه بالمراضاة، وقع البيع بالمزاد العلني بواسطة عون من كتابة الضبط وإشراف من القاضي المكلف بشؤون القاصرين بنفس المحكمة التي فتح بها ملف النيابة الشرعية، أو التي يوجد العقار في دائرتها.

ويخضع البيع بالمزاد العلني لمجموعة من الإجراءات الشكلية وهي كالتالي:

قيام خبير معين من طرف القاضي المكلف بشؤون القاصرين بتقدير الثمن الأساسي لعقار القاصر المراد بيعه، والذي سينطلق به المزاد العلني، مع الحفاظ بعدم رسوم المزاد على المزايدات الأخير، إلا إذا كان ما قدمه من ثمن يزيد عن ثمن التقويم الذي حدده الخبير.⁴

¹ : أحمد الحجوي دور القضاء في حماية أموال القاصر وفق القانون المغربي، مرجع س، ص: 55.

² : أمر صادر عن قاضي شؤون القاصرين بتازة، عدد 00/44 بتاريخ 17/08/2000 ملف عدد 70/15 اورده مصطفى أعراب م س، ص/99

³ : إحالة أحمد البكاري، تدبير أموال القاصر - العقارية والسائلة، مرجع س، ص: 89

⁴ : عبد العزيز حضري القانون القضائي الخاص، مطبعة الجسور، الطبعة الأولى 1999، ص: 231

وفي هذا الصدد صدر عن المحكمة الابتدائية بصفور ما يلي: "أمر تمهيدا بحضوريا بإجراء خبرة على العقار موضوع مشروع المقاسمة.

وتعين الخبير السيد.... للقيام بهذه المهمة وتحدد النقاط التي يجب أن تجري فيها الخبرة".¹

والإشهار القانون يتم القيام به من طرف عون كتابة الضبط التابعة لقاضي شؤون القاصرين، بعد أن يقوم القاضي المذكور بتحديد شروط هذا الإشهار، باعتبار قيمة العقار وموقعه وحدوده ومساحته ومشتملاته ورقم رسمه العقاري إن كان محفظا، أو رقم مطلب التحفيظ، شريطة أن يستمر هذا الإشهار مدة شهرين مع بيان تاريخ ومكان افتتاح المزايدة العلني، الذي يكون إما بالمحكمة الابتدائية التابع لها قاضي شؤون القاصرين، أو التي يوجد العقار المراد بيعه في دائرتها، ويتم إشهار البيع في إحدى الجرائد، كما يعلق الإعلان عنه مع موعد المزايدة بباب العقار المراد بيعه إن كان مبنيا، أو بلوحة تقام فوقه إن كان أرضا فلاحية، وينادي عليه في الأسواق القريبة من موقع العقار المراد بيعه، كما تعلق إعلانات البيع بمراكز القيادات والجماعات القروية والحضرية، بل ليس هناك ما يمنع من أن يتم الإعلان عن البيع بواسطة التلفاز، أو شبكة الانترنت إذا كان الملك المراد بيعه ذا قيمة كبيرة، لأن المراد هو حضور أكبر عدد من المتزايدين، وهو ما يرفع قيمة المبيع لصالح القاصر.²

قيام عون كتابة الضبط بإعلام الوصي أو المقدم بإجراءات الإشهار التي تم القيام بها، ويخضره بضرورة الحضور في اليوم والمكان المحدد لإجراء البيع، وقد أجمل المشرع هذه الإجراءات في الفصل 209 من قانون المسطرة المدنية.

وعند حلول الموعد المحدد للبيع، يعلن عون كتابة الضبط عن افتتاح المزايدة، ويدعو الراغبين إلى التقدم بعروضهم، ويتم الإعلام عن الأعلى فالأعلى من هذه العروض إلى أن يرسو المزايدة على أعلى عرض، بحيث لا يتقدم عليه غيره، وبعدها يعلن العون عن رسو البيع على هذا الذي تقدم بأعلى عرض، ويطلب منه أن يؤدي الثمن الذي رسا به المزايدة خلال ثلاثة أيام، وإلا لن يسلم له العقار، علاوة عن تأدية إجراءات السمسرة ومصاريف وصوائر المزايدة، وبعد الدفع يحرر له كاتب الضبط الذي باشر البيع محضرا بذلك يثبت ملكيته للشيء المبيع.³

أما إذا انصرمت الأيام الثلاثة ولم يقم المشتري بتأدية الثمن والمصاريف، أندر بأن عليه أن يدفع كل ذلك خلال ثمانية أيام من تاريخ هذا الإنذار، وذلك تحت طائلة بيع ذلك العقار من جديد، وفق الإجراءات السابقة مع حرمانه من العربون الذي قد دفعه.⁴

إذا تخلف المشتري عن أداء ما هو مطلوب منه من الثمن والمصاريف، وجه له إنذار قانوني، فإن لم يستجب لهذا الإنذار داخل أجل ثمانية أيام، كان في حل من أي التزام ناتج عن المزايدة، ويخضع العقار المسطرة بيع جديدة، داخل أجل شهرين من إشهار يتضمن البيانات المنصوص عليها في الفصل 209 من قانون المسطرة المدنية، إضافة إلى الثمن الذي رست به المزايدة الأولى وتاريخ السمسرة الجديدة ومكان إجراءاتها.

¹ : حكم صادر عن المحكمة الابتدائية بصفور، قسم قضاء الأسرة حكم تمهيدي عدد 05 ملف رقم: 13/1643/2023 بتاريخ 18/04/2023، غير منشور

² : أحمد الحجوي دور القضاء في حماية أموال القاصر وفق القانون المغربي، مرجع من، ص: 56

³ : طه العبيد، حماية أموال القاصرين على ضوء التشريع المغربي والعمل القضائي، مرجع س، ص 125

⁴ : الفقرة الثانية من الفصل 210 من قانون المسطرة المدنية.

يلزم المشتري المتخلف بأداء الفرق بين الثمن الذي رست عليه المزايدة وثمن البيع الثاني، أما إن رسا المزايد بثمن أعلى من الثمن الذي رست به المزايدة الأولى، برئت ذمة المشتري الأول، ولا يحق له أن يسترجع ما يمكن أن يكون دفعه في البيع السابق من عربون أو تسبيق، كما لا يكون له الحق في تلك الزيادة التي تحسب لفائدة المحجور.¹

عندما يتم بيع عقار القاصر بالطرق القانونية في قانون المسطرة المدنية، يجوز كاتب الضبط الثمن والصوائر، ويحدد وثيقة تتضمن نقل ملكية المبيع إلى المشتري بالكيفية القانونية، من إشهاد عدلي وأداء الرسوم العدلية والتسجيل لدى المحافظة العقارية إذا كان الأمر يتعلق بعقار محفظ، ولدى مديرية الضرائب.²

يشكل سند البيع المذكور، حجة على ما شمله من بيانات، ولا يجوز الطعن إلا بالزور، مثله مثل الأوراق الرسمية المحررة من طرف الموظفين العموميين، وهذا ما نص عليه الفصل 211 من قانون المسطرة المدنية الذي جاء فيه: "لا يطعن في وثيقة البيع إلا بالزور"، وهو ما درج عليه القضاء المغربي، إذ جاء في أحد قرارات محكمة الاستئناف بالرباط أن: "عون التنفيذ الذي يحرر محضر البيع العقاري بالمزاد العلني تبعا لمسطرة الحجز يتصرف سواء بمقتضى نوع من الإنابة القانونية الصادرة من الحاكم أو بمقتضى موظف عمومي".³

من كل ما سبق يتضح أن المشرع أحاط أموال القاصر بعناية خاصة، سواء كانت عقارات أو منقولات، وأفرد لبيعها مسطرة قانونية حازمة تتميز بالإشراف الكامل القاضي شؤون القاصرين من بدايتها إلى نهايتها.

إلا أنه في الواقع العملي فإن هذه المساطر تصطدم بعدة عراقيل من بينها:

➤ قلة القضاة المكلفين بشؤون القاصرين وكثرة مهامهم، إذ في الغالب ما يجمعون بين مهامهم هذه ومهام التوثيق، إضافة إلى حضورهم باقي جلسات المحكمة، الشيء الذي يجعل إمكانية تتبعها والإشراف عليها أمرا مستعصيا.

➤ عدم حضور المزايدين الراغبين في الشراء، خصوصا عندما يتعلق الأمر ببيع عقار عائد للمحجور عليه، فإنه ما يجري به العمل في بعض المحاكم، أن الوصي أو المقدم يقوم بالاتصال مباشرة بالراغبين في شراء مال القاصر، ويعرض الثمن على القاضي الذي يجيزه إذا كان مناسباً، ويرفضه إذا كان غير مناسب، ولو كان القاصر في أمس الحاجة إلى ثمنه.⁴

الفقرة الثانية: فتح مسطرة التعرض

قد يدعي شخص ما أن العقار المراد بيعه باسم القاصر ليس فيه ملكيته وإنما هو مملوك له، كأن يكون المالك رب حرفة كالخياطة مثلا، وتم إحصاء الأثواب والملابس الجاهزة الموجودة في دكانه من طرف الوصي أو المقدم وتقدم للبيع، فيتعرض على ذلك أصحابها أمام قاضي شؤون القاصرين.⁵

فمن المعلوم أن التعرض على بيع العقار بالمزاد العلني، منظم في موضع آخر من قانون المسطرة المدنية، ألا وهو الفصل 482 والفصل 483 من ق.م.م المتعلقان بدعوى الاستحقاق التي تنصب على العقار المحجوز تنفيذا والمعرض للبيع بالمزاد العلني، مما

¹ : ملكة الغنام، إدارة أموال القاصر على ضوء التشريع المغربي والعمل القضائي، سن، ص: 215

² : جمال المدني، الحماية القضائية لبيع أموال القاصر، مرجع س، ص: 92

³ : قرار صادر عن محكمة الاستئناف عدد 4281 بتاريخ 02 يناير 1951 منشور بمجموعة قرارات محكمة الاستئناف.

⁴ : مصطفى أعراب الرقابة القضائية على أموال القاصر، م س، ص/103

⁵ : عبد العزيز توفيق، شرح قانون المسطرة المدنية والتنظيم القضائي، مرجع س، ص: 383

يمكن طرح التساؤل التالي: هل يمكن الاعتماد على هذين الفصلين لتنظيم التعرض في بيع عقار القاصر بالمزاد العلني؟ أم أنهما خاصان بالمزاد الذي انصب على العقار المحجوز؟

حسب مبادئ العدالة والإنصاف يمكن القول إن للمتعرض كامل الحق في تقديم تعرضه من أجل استبقاء حقه، فقد يدعي شخص ما أن العقار المراد بيعه باسم القاصر ليس في ملكية هذا الأخير، وإنما هو مملوك له.¹

وبالرغم من أن مسطرة بيع أموال القاصر لا تنظم التعرض على بيع العقار، فلا بأس من الاستعانة بالفصلين 482 و483 من قانون المسطرة المدنية، بحيث يجب على الشخص المتعرض أن يقدم بمجرد اطلاعه على الرغبة في بيع ذلك العقار طلبا إلى القاضي المكلف بشؤون القاصرين بإيقاف مسطرة البيع، ويرفقه بالحجج الكافية لإثبات ما يدعيه..

فإذا تبين للقاضي أن تلك الحجج كافية لإيقاف مسطرة البيع، ويكون على المتعرض في هذه الحالة رفع دعوى استحقاق ذلك العقار أمام المحكمة الابتدائية التي يقع في دائرتها العقار المتنازع حوله، وإذا صدر حكم نهائي بإلغاء تلك الدعوى أعيدت مسطرة بيع ذلك العقار باسم القاصر، وكان حكم المحكمة مشمولا بالنفاذ المعجل.²

وفي هذا ينص الفصل 482 من قانون المسطرة المدنية على أنه "إذا ادعى الغير أن الحجز انصب على عقارات يملكها أمكنه لإبطال الحجز رفع دعوى الاستحقاق.

يمكن رفع هذه الدعوى إلى حين إرساء المزايدة النهائية، ويترتب عليها وقف مسطرة التنفيذ بالنسبة للأموال المدعى فيها بالاستحقاق إذا كانت مصحوبة بوثائق يظهر أنها مبنية على أساس صحيح".

كما ينص الفصل 483 من نفس القانون على أنه يجب على طالب الاستحقاق لوقف الإجراءات أن يقدم دعواه أمام المحكمة المختصة، ويودع دون تأخير وثائقه، ويستدعي المحجوز عليه والدائن الحاجز إلى أقرب جلسة ممكنة لإبداء اعتراضهما، وإذا اعتبرت المحكمة أنه لا موجب لوقف إجراءات الحجز العقاري كان حكمها مشمولا بالتنفيذ المعجل رغم كل تعرض واستئناف".

يتضح أن الغير إذا ادعى أمام القاضي المكلف بشؤون القاصرين، أن العقار المراد بيعه ليس في ملكية القاصر، وإنما هو تحت ملكه، لذلك يطلب إيقاف إجراءات البيع، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يخرج الأمر عن حالتين:

1- أن يكتفي بهذا الادعاء، وتتابع المحكمة إجراءات البيع.

2- أن يدعم طلبه بالحجج المقبولة، وهنا يتم وقف مسطرة البيع بالنسبة للأموال المدعى فيها بالاستحقاق.

¹ : ملكة الغنم، إدارة الأموال القاصر على ضوء التشريع المغربي والعمل القضائي م س، ص/ 216

² : محمد ابن معجوز، الأحكام الأسرة في الشريعة الإسلامية وفق مدونة الأحوال الشخصية الجزء الأول والثانية مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء سنة 1944 ص/ 302

خاتمة:

برزت أهمية السلطة القضائية بشكل كبير في السماح بإجراء هذا البيع، حيث تعد الحامي الرئيسي لمصلحة القاصر. فلا يُعتبر البيع صحيحاً إلا بعد حصوله على إذن من المحكمة يضمن مراعاة مصلحة القاصر بما يتناسب مع سير الأمور. هذا بالإضافة إلى أن القضاء يتحقق من الضرورة والجدوى الاقتصادية للعملية، ولا يكتفي بالموافقة الشكلية فقط. في بعض الأنظمة، قد يتطلب الأمر وجود تقارير فنية أو تقييمات عقارية مستقلة تدعم قرار السماح بالبيع.

من الأمور الأساسية التي توصل إليها البحث أن حماية القضاء لبيع عقار القاصر يجب أن تتجاوز كونها إجراءً شكلياً، وينبغي أن تستند إلى رقابة حقيقية وفعالة تأخذ بعين الاعتبار مصلحة القاصر على المدى القريب والبعيد. كذلك، يُوصى بضرورة مواءمة الضوابط والإجراءات الخاصة بهذا النوع من البيع في القوانين، بالإضافة إلى تحسين آليات الرقابة القضائية وتعزيز تأهيل القضاة والمراقبين المسؤولين عن أمور القصر في هذا المجال.

لائحة المصادر والمراجع:

✓ النصوص القانونية:

- مدونة الأسرة
- قانون المسطرة المدنية
- قانون الالتزامات والعقود

✓ كتب والأحكام القضائية

- جابر بن علي الحوسني، مال القاصر ومن في حكمه في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بالقانون، دار المحجة لنشر والتوزيع، دون ذكر الطبعة سنة النشر 2008
- مراد عامر الحماية القانونية والقضائية لبيع عقار القاصرة رسالة لنيل دبلوم الماستر في قانون العقود والعقار، جامعة محمد الأول، كلية العلوم القانونية والاقتصادية، والاجتماعية، وجدة، السنة الجامعية 2012/2013
- بوشعيب بقاضي إدارة أموال القاصر بين الفقه الإسلامي والقانون الوضعي
- حكم صادر من المحكمة الابتدائية بالرباط قسم قضاء الأسراء ملف رقم 10/18/07 بتاريخ 28/06/2007 أورده مصطفى أعراب الرقابة القضائية على أموال القاصر رسالة لنيل شهادة الماستر في الشريعة بجامعة سدي محمد بفاس سنة الجامعية 2023/2024
- حكم صدر عن محكمة الابتدائية بصفور ملف النيابة القانونية رقم 13/1643/2024 الصادر بتاريخ 9/7/2024
- أمر صادر عن قسم قضاء الأسرة بالرباط عدد 2006/04 صادر بتاريخ 14/08/2020 في الملف رقم 6/2006 أورده سهام مركول
- عبد الصمد المعطاسم، دور القضاء في حماية أموال القاصرين، بحث نهاية التكوين الفوج 36 وزارة العدل المعهد العالي للقضاء بالرباط السنة القضائية 2011-2009
- أحمد البكاري، تدبير أموال القاصر العقارية والسائلة، بحث لنيل دبلوم الماستر في القانون الخاص، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الحقوق فاس، السنة الجامعي: 2021/2022.
- حكم صادر عن المحكمة الابتدائية قسم قضاء الأسرة حكم عدد 10 ملف رقم 28/1643/2022 بتاريخ 2023/04/04، أورده مصطفى أعراب م س
- جمال المدني، الحماية القضائية لبيع أموال القاصر، مجلة المسارة الدراسات القانونية والإدارية عدد خاص بقانون الأسرة 2018
- قرار المجلس الأعلى محكمة النقض حاليا، عدد 290 المؤرخ في 2006/11/25 الملف المدني عند 2003/11/230، منشور بمجلة قضاء المجلس الأعلى، العدد 67 يناير سنة 2007
- سهام موكول الرقابة القضائية على أموال القاصر

- حكم صادر المحكمة الابتدائية بصفور، قسم قضاء الأسرة ملف رقم 2022/40164 مقرر عند 101، تاريخ 2022/11/02 غير منشور
- مراد عامر الحماية القانونية والقضائية لبيع عقار القاصر"، رسالة لنيل دبلوم الماستر في قانون العقود والعقار، جامعة محمد الأول، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، وجدة، السنة الجامعية 2012/2013م.
- حكم صادر عن المحكمة الابتدائية بصفور قسم قضاء الأسرة ملف رقم 2023/1643/90 حكم عدد 08 بتاريخ 2003/2001 غير منشور
- رجال رامي بيع أموال القاصر بين قواعد مدونة الأسرة وقانون المسطرة المدنية في التشريع المغربية رسالة لنيل دبلوم الماستر، جامعة ابن زهر بأكادير، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية السنة الجامعية 2019/2018
- عبد العزيز توفيق، شرح قانون المسطرة المدنية والتنظيم القضائي، الجزء الأول، مطبعة النجاح الجديدة، 1995
- حكم صادر عن المحكمة الابتدائية بصفور قسم قضاء الأسرة ملف النيابة القانونية رقم 09/1643/2023 حكم رقم 14 بتاريخ 27/04/2023 غير منشور
- محمد كشبور، القسمة القضائية في القالون المغربي دراسة الشرعية وتشريعية الطبعة الثانية 2011
- أحمد المحجوبي دور القضاء في حماية أموال القاصر وفق القانون المغرب بحث لنيل شهادة الماستر في القانون جامعة سيدي محمد بن عبد الله سنة 2019
- أمر صادر عن قاضي شؤون القاصرين بتازة، عدد 00/44 بتاريخ 17/08/2000 ملف عدد 70/15 اوردته مصطفى أعراب
- عبد العزيز حضري القانون القضائي الخاص، مطبعة الجسور، الطبعة الأولى 1999
- حكم صادر عن المحكمة الابتدائية بصفور، قسم قضاء الأسرة حكم تمهيدي عدد 05 ملف رقم: 13/1643/2023 بتاريخ 18/04/2023، غير منشور
- مليكة الغنام، إدارة أموال القاصر على ضوء التشريع المغربي والعمل القضائي دار الآفاق المغربية للنشر سنة 2010
- قرار صادر عن محكمة الاستئناف عدد 4281 بتاريخ 02 يناير 1951 منشور بمجموعة قرارات محكمة الاستئناف.
- محمد ابن معجوز، الأحكام الأسرة في الشريعة الإسلامية وفق مدونة الأحوال الشخصية الجزء الأول والثانية مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء سنة 1944

مفهوم مضار الجوار غير المألوفة

عبد القادر السحمودي

طالب باحث بسلوك الدكتوراه

تحت إشراف فضيلة الدكتور: الحسين العمريش

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس

المملكة المغربية

الملخص:

يعتبر علاقة الجوار من أبرز الروابط الاجتماعية التي حظيت باهتمام كبير من الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، نظراً لتأثيرها المباشر على استقرار المجتمعات وتنظيم العلاقات بين الأفراد. وقد تطور في الفقه والقانون مفهوم "مضار الجوار" ليصبح من القواعد الأساسية التي توازن بين حق الفرد في الاستفادة من ممتلكاته وحق الآخرين في عدم الإضرار بهم.

عادةً ما تُقسم مضار الجوار إلى نوعين؛ الأول هو المضار المألوفة، التي تعتبر محتملة بشكل عادي، والثاني هو المضار غير المألوفة، والتي تتجاوز الحدود المقبولة اجتماعياً وعرفياً، مثل الدخان الزائد، والضوضاء المرتفعة، والروائح السيئة، والتعديلات البصرية أو المادية التي لا يُسمح بها في الإطار الاجتماعي أو القانوني.

مفهوم "مضار الجوار غير المألوفة" يُعد من المصطلحات القانونية والفقهية الأساسية التي تُشكل نقطة محورية في تحقيق التوازن بين الحقوق والواجبات. كما يُثير هذا المفهوم قضايا عملية تتعلق بتقدير الضرر، وتحديد معيار "غير المألوف"، وإيجاد حلول تحمي الحقوق وتمنع سوء استخدامه.

الكلمات المفتاحية: الضرر: الجوار

مقدمة:

لا شك أن فهم أي موضوع يمثل نقطة محورية في جميع المجالات لفهم الحقيقة وطبيعة الموضوع. ومن بين المفاهيم التي ينبغي فهمها من الناحيتين القانونية والشرعية هو الضرر. حيث يعتبر الضرر أحد الأسباب التي تستدعي المسؤولية المدنية ويترتب عليه حدوث أذى يستدعي التعويض. الجار، أيضاً، يلعب دوراً حيوياً في البشرية ولا يمكن الاستغناء عنه. فطبيعة الإنسان تدفعه لتحقيق مصالحه، ولذلك جاء القانون لتنظيم هذه المصالح بين الأفراد، حيث وضع التزامات ومحددات تساهم في قيام المسؤولية المدنية. يهدف ذلك إلى منع صاحب الحق من التعسف في استخدام حقه وتضرر جاره. يُعتبر حق الملكية من أوسع الحقوق العينية الأصلية من حيث النطاق، حيث يعطي الحق لصاحبه السيطرة على ما يمتلكه واستخدامه والتصرف فيه دون التأثير السلبي على الآخرين. لذا، وضع القانون ضوابط لتنظيم هذا الحق. فقد أدرج المشرع الجزائري نصوصاً تتعلق بأضرار الجوار غير المألوفة، وتعتبر نظرية مضار الجوار غير المألوفة من أقدم النظريات التي عرفت البشرية، نظراً لارتباطها بحق الملكية الذي يتمتع بمكانة مرموقة في كافة الأديان والحضارات وكذلك القوانين. تعكس قدسية حق الملكية قيمته في المجتمعات عبر تاريخ البشرية. كما تساهم هذه النظرية في تنظيم العلاقات بين الجيران التي يجب صيانتها والحفاظ عليها لضمان الاستقرار. وهذا يتحقق من خلال مشاركة الجميع في خلق بيئة مناسبة للملكية عبر إنجاز المالك لواجبه تجاه المجتمع. أما بالنسبة للخلفية التاريخية لمضار الجوار غير المألوفة في السياقات الدينية أو الحضارات القديمة، فقد تم تكريس قوانين لها وحظيت بأهمية واسعة، ففي الشريعة الإسلامية نجد قول الله تعالى في كتابه الكريم قال تعالى {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ، شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّحْبِ بِالْجُنُبِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا } أهمية الموضوع:

تناول مشكلات حقيقية تحدث يومياً تتعلق بكيفية تنظيم العلاقة بين الجيران.

يحقق توازناً بين حق الملكية وعدم إلحاق الضرر بالآخرين.

له استخدامات متعددة في الأمور المتعلقة بالعقار، والإزعاج، والصناعات، وأعمال البناء.

يعتبر نقطة التقاء بين الشريعة الإسلامية والقانون المدني المعاصر، مما يعزز من الدراسات المقارنة ويزيد من كفاءة الأنظمة القضائية.

أهداف البحث:

توضيح المعنى الدقيق لتأثير الجوار غير المعروف.

دراسة الجوانب الفقهية والقانونية المتعلقة به.

تحديد المعايير والمبادئ المستخدمة في التمييز والتقييم.

اقتراح فكرة تؤدي إلى حل وسط أو تطور يساعد في تقليل النزاعات وتحقيق العدالة الاجتماعية

منهج البحث:

تعتمد في هذا البحث على المنهج التحليلي المقارن، ويشمل، وذلك من خلال تحليل النصوص الفقهية والقانونية ذات الصلة بمضار الجوار، وكذا المنهج المقارن حيث نحاول أن نقارن بين موقف الشريعة الإسلامية بالقوانين المدنية المعاصرة فيما يتعلق بالمدلول الضرر والجوار.

إشكالية البحث:

كيف زوال الفقهاء الشريعة الإسلامية والرجال القانون مفهوم مضار الجوار غير المألوفة في تحقيق التوازن بين حرية الانتفاع ومنع الضرر؟

أخو الأول: ماهية الجوار والضرر غير المألوف

يرتبط مصطلح الجوار بمصطلح الضرر غير المألوف ارتباطا وثيقا في إطار ما يعرف بنظرية مضار الجوار غير المألوفة حيث أن الضرر الذي يشكوا منه الجار لا ينبغي أن يكون غير مألوف فقط بل ينبغي أيضا أن يكون نابعا من الجوار، الذي يعتبر شرطا لازما تقوم المسؤولية عن مضار الجوار بتحقيقه وتنتفي بانتقائه، وسنحاول الحديث عن مدلول الجوار في الشريعة الإسلامية في (المطلب الأول) على أن نخصص الحديث عن المدلول الفقهي والقانوني للجوار في (المطلب الثاني)

المطلب الأول: مدلول الجوار في الشريعة الإسلامية

الفرع الأول: المدلول اللغوي للجوار

الجوار بكسر الجيم مصدر جاور يقال جاور الرجل جوارا ومجاورة أي أقام قرب مسكنه وجوار بالكسر والضم، وبالكسر أفصح. وقيل الجوار: العهد والأمان، ومعاهدة حسن الجوار: معاهدة صداقة. بين دول متجاورة من إثنين فأكثر.¹ ويقال جاوره مجاورة وجوارا صار جارة والمجاورة الاعتكاف بالمسجد وأما المجاورة بمكة والمدينة فيراد بها المقام مطلقا غير ملتزم بشرائط الاعتكاف الشرعي، ومنه. الحديث وكان يجاور في العشر الأواخر.² ويقال أيضا المجاورة: المسكنة والإسم الجوار والجوار (بالضم)، تجاور القوم واجتوروا: جاور بعضهم بعضا والجار هو المجاور وما قرب من المنازل، والجمع أجوار وحيرة وجيران، وقيل: الجار من يقرب مسكنه منك، وهو كالأخ والصديق فإن الجار لا يكون جارا لغيره إلا وذلك الغير جار له.³

¹ إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر دار الدعوة (مادة حار) ج 1 ص 146

² مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب القاموس المحيط الفيروز آبادي (المتن: 817هـ) تحقيق مكتبة التراث في مؤسسة الرسالة اشرف محمد نعيم الحر اليوسي الناشر مؤسسة الرسالة الطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة الثامنة، 1426 هـ / 2005 م / مادة جور ص 368

³ محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض الملقب بمرتضي الأيدي تاج العروس من جواهر القاموس (المتن: 1205هـ) مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية (مادة جور)

فالجوار إذن حسب المدلول اللغوي دال على المساكنة والملازمة وتقارب الأماكن والأشياء من بعضها البعض ولفظ الجار مشتق منه وهو يدل على الشخص المجاور في المسكن، والحانوت والبستان والشريك في العقار أو التجارة والزوجة والحليف والناصر.¹

الفرع الثاني: مدلول الجوار في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

أولاً: في ضوء القرآن الكريم

ورد لفظ الجوار في القرآن الكريم في آيات عديدة منها قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّحْبِ بِالْجُنُبِ﴾²

والعلماء في تفسير الجار ذي القربى والجار الجنب عدة أقوال أشهرها ثلاثة:

الأول: أن المراد بالجار ذي القربى هو الجار الغريب النسب، والجار الجنب الجار الأجنبي

الثاني: الجار ذا القربى هو الجار المسلم، والجار الجنب هو الجار الغير مسلم.

ويجمع بين القولين ما أخرجه أبو بكر البزار عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {الجيران ثلاثة، فمنهم من له ثلاث حقوق، ومنهم من له حقان، ومنهم من له حق واحد، فأما الذي له ثلاث حقوق فالجار المسلم القريب، له حق الإسلام وحق الجوار وحق القرابة، وأما الذي له حقان فالجار المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجار الكافر، له حق الجوار}.³

وأما القول الثالث: فهو أن المراد بالجار ذي القربى الجار الذي قرب جواره وبالجار الجنب الذي جواره بعيد.⁴

ومثل هذا ورد في تفسير صاحب الجنب عدة أقوال منها: أنه الجار الملاصق والذي قال هذا جعل قوله تعالى: "الجار ذي القربى" الجار الذي له الرحم.⁵

وحاصل ما تقدم يشهد أن مسمى الجوار يصدق على الجار القريب والبعيد وهو تصور يؤدي إلى تماسك المجتمع وترابطه كالجسد الواحد وهو ما نحتاج إليه في أيامنا هذه من وجوب أن تسود علاقات الجوار المعاملة الحسنة والإمتناع عن كل ما يؤذي الجار ويسيء إليه.

ثانياً، في ضوء السنة النبوية

أكنت السنة النبوية على تعظيم حق الجار والإحسان إليه ومنع إيذائه في أحاديث كثيرة أذكر منها ما روي عن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

¹ لسان العرب لابن 153 من منظور (المتوفى: 711هـ) دار صادر - بيروت، دون سنة النشر، الطبعة الثالثة: 1414 هـ (مكة جور) ج 4، ص 153

² سورة النساء الآية 16

³ رواه البزار عن شعبة بن عبد الله بن محمد الحارثي والطبراني في مسند الشاميين (2458) وأبو نعيم في الحلية 20775 قال ابن رجة وقد روي هذا الحديث من وجود أخرى متصلة ومرسلة ولا تخلو كلها من مقال جامع العلوم والحكم، 1/ 138

⁴ أحكام القرآن لابن العربي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الثالثة 1424 هـ - 2003 م ج 1 ص 546

⁵ المرجع نفسه ص 547

«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» متفق عليه.¹

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي قال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قبل من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه» متفق عليه.²

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره».³

المطلب الثاني: المدلول الفقهي والقانوني للجوار

الفرع الأول: من حيث الأموال

اختلف الفقهاء في تحديد مفهوم الجوار منظورا إليه من ناحية الأموال. ومرجع هذا الخلاف يدور حول مدى هذا الجوار وحده المعتبر شرعا والذي تترتب عليه أحكام الجوار فهل يشترط التلاصق بين العقارات للقول بتحقيق الجوار؟ أم أن مجرد التجاور من بعيد كاف لتحقيق ذلك؟ للفقهاء في المسألة رأيان:

الرأي الأول: ويذهب إلى أن الجوار يتحدد في الجار الملاصق فقط.

وبهذا الرأي قال الإمام أبو حنيفة،⁴ وبعض المالكية،⁵ واستدلوا بما يلي:

- أولا من السنة النبوية استدلو بما رواه أبو رافع،⁶ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الجار أحق بسقيه".⁷

وجه الدلالة في الحديث: إن الحديث جاء لبيان حق الشفعة،⁸ وهي لا تثبت إلا للجار الملاصق فقط فدل ذلك على أنه هو المقصود وحده.⁹

- ثانيا من الأدلة العقلية

أن الجوار هو عبارة عن القرب والقرب لا يتحقق إلا في الجار الملاصق فقط دون غيره ولأنه لما تعذر صرف معنى الجار إلى الجميع في حديث الجار أحق بسقيه وجب صرفه إلى الملاصق، فهو أخص الخصوص.

¹ أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الآداب باب الآداب رقم 6015 وأخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب الوصية بالجار والإحسان إليه رقم 2625

² أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب ألم من لا يأمن جاره بوائقه رقم الحديث 6016 ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب جوان تحريم ابناء الجار رقم الحديث 46

³ أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح باب الوصلة بالنساء رقم الحديث 5185 ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان باب الحث التجار رقم الحديث 47 وأخرجه أبو دard (5154) والكرمانى (2500)

⁴ مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر عبد الرحمن بن محمد بن سليمان (المتوفى: 1078هـ) دار إحياء التراث العربي بدون طبعة، وبدون تاريخ كتاب الوصايا باب الوصية للأقارب وغيرهم ج 2 ص 710

⁵ منح الجليل شرح مختصر خليل محمد بن أحمد بن محمد عليش، أبو عبد الله المالكي (المتوفى: 1299هـ) الناشر: دار الفكر بيروت بدون طبعة تاريخ النشر: 1409هـ / 1989م باب أحكام الوصية، ج 9، ص 530

⁶ أبو رافع: هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، اختلف في إسمه فقيل: إبراهيم وقيل: أسلم وقيل: ثابت كان أبو رافع مولى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أسلم العباس بشر أبو رافع الرسول صلى الله عليه وسلم، فأعتقه، وكان إسلامه قبل بدر ولم يشهدها وشهد أحد وما بعدها، توفي رحمه الله في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل في خلافة علي بن أبي طالب. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ابن حجر (4/2948)، الإصابة في تمييز الصحابة (7/9983).

⁷ السقب: القرب وقيل الملازق والملاصق معجم مقاييس اللغة أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (المتوفى: 395هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر عام النشر: 1399هـ - 1979م، ج 3 ص 85

⁸ شفعة الجار مسألة خلافية بين الفقهاء حيث ذهب الحنفية إلى إثبات الشفعة للجار مطلقا أما المالكية والشافعية والحنابلة فلا يثبتون الشفعة للجار مطلقا في المشهور وهذا الرأي الأخير هو ما أكدته المادة 293 من مدونة الحقوق العينية حيث يفهم من نص المادة أن الجار لا شفعة له إذا باع جاره العقار المجاور له مادام غير شريك له.

⁹ مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر مرجع سابق ج 2 ص 710

الرأي الثاني: لا يختص معنى الجوار بالملاصق وحده بل يشمل الملاصق وغير الملاصق

وغير الملاصق لكنهم اختلفوا حول مدى التلاصق الذي يتحقق به الجوار على خمسة أقوال:

القول الأول: يرى أصحابه أن الجار هو الملاصق من أي جهة من الجهات - أي من جهة العلو أو السفلى أو اليمين أو اليسار أو الأمام أو الخلف - أو المقابل له وبينهما زقاق أو شارع لطيف فإن كان بينهما نحر أو سوق لم يكن جارا وإلى هذا ذهب المالكية في المشهور عنهم.¹

القول الثاني: يرى أن الجوار يتحدد بالدور وأن حده أربعون دارا من كل ناحية وبه قال الشافعية² والحنابلة³ واستدلوا على ذلك:

من السنة النبوية:

1- استدلوا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: حق الجار أربعون دارا هكذا وهكذا، يمينا وشمالا، وقداما وخلفا⁴

وجه الدلالة في الحديث: أنه نص على أن حد الجوار أربعون دارا من كل جانب جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني نزلت محلة قوم وإن

2- أقربهم إلى جوارا أشدهم لي أذى فبعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر رضي

الله عنهما أن يأتوا باب المسجد فيقوموا عليه ويصيحوا: ألا إن أربعين دارا جار، ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه⁵.

وجه الاستدلال في هذا الحديث: أنه نص على أن حد الجيرة أربعون دارا. إن هذا الحديث ضعيف فلا يقوى على الاستدلال به لقوة ضعفه

ويرى أصحاب هذا القول، أنه لو فوق أي دار دور أي طبقات فيعتبر ذلك من الجوار أما إذا تباعدت الدور أو حال بينها نحر عظيم فلا يسمون جيرانا.

القول الثالث: يرى أن الجوار يتحدد بمن يجمعهم المسجد في الصلاة، أو

¹ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي (المتوفى: 1230هـ) الناشر: دار الفكر بدون طبعة وبدون تاريخ ج 4 ص 433
² المهذب في فقه الإمام الشافعي أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (المتوفى: 476هـ) دار الكتب العلمية كتاب الوصايا باب جامع الوصايا (ج 2 ص 350) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: 977هـ) دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى (1415هـ - 1994م) ج 4 ص 95

³ المغني لابن قدامة المقدسي (المتوفى: 620هـ) مكتبة القاهرة بدون طبعة تاريخ النشر: 1388هـ - 1968م ج 6 ص 234 ، دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (المتوفى: 1051هـ) عالم الكتب الطبعة الأولى، 1414 هـ - 1993 م ، كتاب الوصية باب الموصي له، فصل: ولا تصح الوصية لكنيسة أو بيت نار أو مكان من أماكن الكفر ج 2 ص 469 كشف القناع عن متن الإقناع منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (المتوفى: 1051هـ) دار الكتب العلمية كتاب الوصية باب الموصي له فصل: قتل الموصي له الموصي ج 4 ص 363

⁴ أخرجه البيهقي في السنن كتاب الوصية باب الرجل يقول ثلث مالي إلى فلان يضعه حيث أراه الله (6/ 12611) أخرجه أبي يعلى، في مسند أبي هريرة (10 / 5982). قال عنه هذا الحديث ضعيف في إسناده وقال عنه الألباني: هذا الحديث ضعيف جدا، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (1 / 276)

⁵ أخرجه الطبراني في الكبير (19 / 143) عن يوسف بن السفر عن الأوزاعي عن يونس بن يزيد عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال عنه الزيلعي في نصب الراية ويوسف بن السفر أبو الفيض فيه مقال باب الوصية للأقارب (4 / 413 - 414) وقال الهيثمي بعد أن ساق له هذا الحديث في مجمع الزوائد (8 / 169) وفيه يوسف بن السفر وهو متروك وقال عنه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة حديث ضعيف.

مسجدان متقاربان إذا كانوا أهل محلة واحدة وبهذا القول قال: القاضي أبو يوسف،¹ ومحمد بن الحسن،² من الحنفية،³ واستدلوا على قولهم بما يلي:

أولاً: من السنة النبوية:

استدلوا بما رواه أبو هريرة⁴ - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد.⁵ وجه الدلالة في الحديث: أنه يدل على أن الجيران هم الذين يجمعهم مسجد واحد ويمكن رد الاستدلال بأن الحديث خاص بالصلاة فقد ذكر في كتب متون الحديث في أبواب الصلاة فدل على أنه خاص بها ثم إن الحديث لا يقوى على يكون دليلاً قوياً لأنه ضعيف.

ثانياً: من الأدلة العقلية:

إن المقصود من الجوار البر بالجيران والإحسان إليهم وهذا يتحقق في الملاصق وغيره.

القول الرابع الجيران: هم أهل البلدة أو المدينة الواحدة وهذا القول هو قول عند المالكية⁶ والشافعية⁷

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَفِفُونَ وَالَّذِينَ فِي مَعْلُومِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾⁸

وجه الدلالة في الآية إن الله جعل اجتماع الناس وسكنهم في المدينة جواراً.⁹

القول الخامس: الجار من قاربت داره دار جاره وإن ذلك يرجع إلى العرف فما عده أهل بلدك جار فهو جار لأن العادة محكمة ما لم تخالف الشرع وهو قول عند الحنفية.¹⁰

¹ أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي البغدادي صاحب الإمام أبو حنيفة وتلميذه وأول من نشر مذهبه كان فقيها علامة حافظاً للحديث ولد بالكوفة وولي القضاء ببغداد أيام وهو أول من لقب بقاضي القضاة وهو كذلك أول من ألف في أصول الفقه على مذهب الإمام أبو حنيفة توفي رحمه الله سنة (182 هـ) كتاب الأعلام للزركلي (ج 8 ص 193 وكذلك سير أعلام النبلاء يعقوب بن إبراهيم دار الحديث القاهرة الطبعة: 1427 هـ - 2006 م (ج 7 / ترجمة 1312 ص 469)

² محمد بن الحسن هو أبو عبد الله الشيباني، نشأ بالكوفة وطلب الحديث وسمع سمعاً كثيراً من سفيان الثوري والأوزاعي وجالس أبي حنيفة وسمع منه ناظر في الرأي فغلب عليه وعرف به قدم ببغداد فنزها، واختلف إليه الناس وسمعوا منه الحديث والرأي ولي القضاء في عهد هارون الرشيد، توفي سنة 189 هـ الطبقات الكبرى لابن سعد (المتوفى سنة 230 هـ) تحقيق إحسان عباس دار صادر - بيروت الطبعة الأولى، 1968 م

³ البناء شرح الهداية أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتاني الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: 855 هـ) الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م كتاب الوصايا باب الوصية للجيران

⁴ أبو هريرة هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي لقبه الرسول صلى الله عليه وسلم بأبي هريرة، نشأ بتيمة، قدم إلى المدينة فأسلم بها سنة 7 هـ لزم النبي صلى الله عليه وسلم، كان بدور معه حيثما دار، شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه حريص على العلم، والحديث كان حاد الذهن وكثير العبادة، وكان رحمة الله عليه أكثر الصحابة حفظاً ورواية الحديث رسول الله حيث روى عنه 5374 حديثاً توفي بالمدينة سنة 59 هـ الوافي بالوفيات صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبد الله المسعدي (المتوفى: 760 هـ) تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركلي مصطفى دار إحياء التراث - بيروت نشر عام 1420 هـ 2000 م باب أبو هريرة 13 ص 91

⁵ البيهقي السنن الكبرى 3/4942 كتاب الصلاة باب التشديد في ترك الجماعة،

⁶ منح الجليل شرح مختصر خليل، مرجع سابق باب أحكام الوصية ج 9 ص 530

⁷ الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي (المتوفى: 450 هـ) تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى (1419 هـ - 1999 م) باب كيف تفريق قسم الصدقات ج 8 ص 531

⁸ سورة الأحزاب الآية 60

⁹ الجامع الأحكام القرآن القرطبي (المتوفى: 671 هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار ابن حزم - بيروت الطبعة: الأولى، (1416 هـ / 1996 م) 5/185

¹⁰ مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج فصل في أحكام الوصية الصحيحة ج 4 م س / 95 .

وفي مقام الترجيح بين الرأيين السابقين وما تلاهما من أقوال الفقهاء فلإني أميل إلى الرأي الثاني الذي يرى بأن مفهوم الجوار يتسع ليشمل الملاصق وغيره كما أميل إلى القول الخامس وهو القول الأخير الذي يرى أن ذلك يستند إلى العرف لأن الأقوال الأربعة الأخرى استندت على أدلة بعضها ضعيفة لا تصلح للاستدلال بها.

لم يحدد المقتن المغربي مفهومًا دقيقًا للجوار، لكن بالرجوع إلى المواد 71 706253، 73 74 76، 75 و78 من مدونة الحقوق العينية والفصلين 91 و92 من قانون الالتزامات والعقود، نجد ضيق مفهوم الجوار وحصره فقط في حالة العقارات المتلاصقة دون المنقولات. في حين أنه كان عليه أن يأخذ بالمفهوم الواسع للجوار الذي يقوم على أمرين:

الأمر الأول: توسيع مفهوم الجوار بحيث ينسحب على العقارات ويتعداه إلى المنقولات كما هو الحال بالنسبة إلى العقار بالتخصيص. ففي بعض الحالات يمكن الأخذ بمسؤولية مالك عقار بالتخصيص والذي يعد منقولاً بحسب الأصل إذا ألحق هذا الأخير مضاراً بالجوار مثل الأضرار التي قد يتسبب فيها المولد الكهربائي التابع لعقار من حرارة وضوضاء واهتزازات لعقار الجار مثلاً. فلا ينبغي استبعاد الأضرار غير المألوفة الناجمة عن استعمال المنقولات لأنها مثل العقارات تنشئ حالة من التجاور بينها وبين العقارات المجاورة لها وبالتالي يحق للجوار المستضر منها طلب رفع الأضرار غير المألوفة الناجمة عن تلك المنقولات والقول بخلاف هذا يترتب عليه فقدان التوازن بين الحقوق المتجاورة، الأمر الذي يتنافى مع الفلسفة التي تقوم عليها نظرية مضار الجوار غير المألوفة وهي توفير أكبر قدر ممكن من الحماية للحقوق المتجاورة.

الأمر الثاني: لا يقتصر الجوار على أحوال التلاصق بل يتحقق في كل تجاور أو تقارب¹ متى كان في نطاق جغرافي محدد لأن الضرر قد يتعدى الجار الملاصق إلى الجار البعيد، فالعبارة بالضرر وليس بالتلاصق غير أن التلاصق قد يكون له دور هام في تحديد حجم الضرر الذي قد تتفاوت جسامته من جار، إلى آخر بالنظر إلى موقع كل جار، فالضرر ذاته قد يكون جسيماً بالنسبة للجار الملاصق أو القريب منه وقد يكون غير جسيم بالنسبة إلى جار بعيد، بفعل تدخل عوامل طبيعية كالرياح التي قد تنقل الغازات والأدخنة إلى مكان بعيد فيتضرر منها الجار البعيد أكثر من القريب. غير أن أغلبية الأضرار لا تصيب عادة سوى الجار الملاصق كالأضرار الناجمة عن توهن الجدران بسبب تسرب المياه.

الفرع الثاني: من حيث الأشخاص

نظر المالكية إلى الجوار من حيث الدور أو العقارات، بغض النظر عن صفة ساكني هذه الدور سواء أكانوا مالكيين أم مستأجرين مسلمين أم غير مسلمين، فالكامل يطلق عليهم جيراناً²، ويؤكد ذلك قول الشيخ الدردير³ في معرض حديثه عن الوصية للجيران: " ودخلت الزوجة مع زوجها المجاورين للموصي - أي في وصيته لجيرانه وهم الملاصقون له من أي جهة من الجهات أو المقابلون له وبينهما زقاق أو شارع لطيف لا سوق أو نهر و أما زوجة الموصي إذا كان بها مانع من الإرث فلا تدخل لأنها لا تسمى جارة عرفاً

¹ التقارب والتلاصق ليس أفقياً فقط بل يكون التلاصق على نحو عمودي في حالة المالكين المتجاورين في العقارات المبنية أي العمارات المكونة من شقق وطبقات، ومهما يكن فإن التجاور يتحقق سواء كان التلاصق جانبياً أفقياً أو كان رأسياً عمودياً، وتقع مسؤولية المالك في جميع أحوال التجاور، متى تسبب في ضرر لأحد جيرانه ومتى تعدى ذلك الضرر الحد المألوف ولا فرق بين المضار التي تلحق الجار الملاصق والجار البعيد من ناحية قيام المسؤولية.

² مضار الجوار غير المألوفة على حزمة مرجع سابق ص 70

³ الشيخ الدردير (1127 - 1201هـ / 1715 - 1786م) أحمد بن محمد بن أحمد العدوي، أبو البركات الشهير بالدردير: فاضل من فقهاء المالكية. ولد في بني عدي (بمصر) وتعلم بالأزهر، وتوفي بالقاهرة من كتبه أقرب المسالك المذهب الإمام مالك) و (منج التقدير)، مجلدان في شرح مختصر خليل، و (تحفة الإخوان في علم البيان نقلاً عن الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشر مايو 2002 م ص 244

ولا يدخل عبد مع سيده في وصيته لجيرانه إلا أن ينفرد عن سيده ببيت مجاور للموصي¹ يفهم من هذا القول أن المالكية يقسمون المال فيمن أوصى لجيرانه على الدور بغض النظر عن سكانها. ونفس الموقف نجده عند الحنفية² الشافعية³ والحنابلة⁴.

أما في القانون المغربي، وبالرجوع إلى المادة 71 من مدونة الحقوق العينية نجد أن لفظ "الجيران" جاء مطلقاً من غير تخصيص الأمر الذي يوحي بأن صفة المالك لا تعد شرطاً جوهرياً لقيام المسؤولية عن مضار الجوار غير المألوفة، فيكفي أن يشغل شخص عقاراً معيناً، وأن يسبب بفعله المادي مضاراً غير عادية للجيران، أو يكون هو المستضر منهم أضراراً تتجاوز الحد المألوف للقول بقيام المسؤولية في هذا المجال فصفة المالك غير لازمة لقيام مسؤولية الشخص عن الأضرار التي يسببها غيره وغير لازمة في من يطلب التعويض عن تلك المضار، غير أن الصفة اللازمة والضرورية هي صفة الجار، والتي يؤدي انتفاؤها إلى انتفاء المسؤولية عن مضار الجوار غير المألوفة.

ويعد الشخص جاراً بغض النظر عما إذا كان شخصاً طبيعياً أو معنوياً، فصفة الجار يمكن إضفاؤها على الأشخاص المعنوية⁵ حيث يتولى من يمثل الشخص المعنوي قانوناً التعويض عن الضرر أو المطالبة بالتعويض في حال كون الشخص المعنوي مضروباً.

ويلخص كل ما سبق الدكتور عطا سعد محمد حواس بقوله: "الجوار هو النطاق أو الحيز المكاني أو الجغرافي الذي يتجاور فيه الأشخاص والأموال أياً كانت طبيعتها وسواء كانت متلاصقة أم غير متلاصقة، والذي يتحدد بالمدى الذي يمكن أن يصل إليه أذى الأنشطة المجاورة والذي يختلف تبعاً لذلك من حالة إلى أخرى بحسب هذه الأنشطة".⁶

نفهم من هذا التعريف أن الأموال التي تتواجد في نطاق أو حيز مكاني أو جغرافي يتحقق بينها الجوار، كما أن الأشخاص الذين يتواجدون في هذا النطاق أو الحيز يطلق عليهم وصف الجيران، فمصطلح الجوار هو مصطلح أشمل وأعم من مجرد التلاصق فهو يتحقق بالتلاصق وحتى بتقارب الأماكن والأشياء من بعضها البعض.

أخو الثاني: مفهوم الضرر والضرر غير المألوف

لا شك في أن الجوار يعتبر مجالا واسعا لتسبب الكثير من الأضرار التي تلحق بالملاك المتجاورين والتي قد تشمل انتفاعهم بأموالهم وذلك راجع لما تنسم به علاقات الجوار من طابع الاستمرارية كما أن كل واحد من الجيران يجب أن يتمتع في ملكه بالحرية الكاملة في أن يفعل ما يشاء غير أن ما يمكن أن يفعله أي منهم يرتبط بما يفعله الآخرون ارتباطاً وثيقاً فيتأثر بهم ويتأثرون به.

وللحديث على المبحث سنحاول أن نعالجه من خلال مطلبين حيث نتناول في (المطلب الأول) مدلول الضرر وفقاً للقواعد العامة على أن نخصص (المطلب الثاني) للحدث عن مدلول الضرر غير مألوف

¹ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي (المتوفى: 1230 هـ) الفكر بدون طبعة وبدون تاريخ ج 4 ص 433

² يقول ابن النجيم من الحنفية: "ويستوي فيه الجار الساكن، والمالك، والذكر والأنثى، والمسلم، والذمي، لأن الاسم يتناول الكل" البحر الرائق شرح كنز الدقائق دار الكتاب الإسلامي الطبعة الثانية - بدون تاريخ باب الوصية للجيران وغيرهم ج 8 ص 505

³ يقول الإمام النووي: "ويقسم المال على عدد الدور، لا على عدد سكانها". روضة الطالبين وعمدة المفتين تحقيق زهير الشاويش الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الثالثة، 1412هـ / 1991م ج 6 ص 168

⁴ يقول ابن قدامة " وإن وصى لجيرانه، فهم أهل أربعين داراً من كل جانب نص عليه أحمد وبه قال الأوزاعي والشافعي "المغني لابن قدامة مكتبة القاهرة بدون طبعة: 1388هـ - 1968م ج 6 ص 233

⁵ عبد الحليم عبد المجيد عبد الباري الوجيز في الحقوق العينية استاذ القانون المدني جامعة بنها جمهورية مصر العربية، ص 44

⁶ عطا سعد محمد حواس المسؤولية المدنية عن أضرار التلوث البيئي في نطاق الجوار دار الجامعة الجديدة، 2011/ ص 9

المطلب الأول: مدلول الضرر وفقا للقواعد العامة

للقوف على مدلول الضرر وفقا للقواعد العامة ساقسم هذا المطلب إلى فرعين نتناول في (الفرع الأول) مدلول الضرر في الفقه الإسلامي وفي (الفرع الثاني) مدلول الضرر في الفقه القانوني.

الفرع الأول: مدلول الضرر في الفقه الإسلامي

أولاً: المدلول اللغوي للضرر

الضرر: إسم من الضر وقد أطلق على كل نقص يدخل الأعيان، والمر - يفتح الضاد - لغة: ضد النفع، وهو النقصان، يقال: ضرة يضره إذا فعل به مكروها وأضر به، وقيل الضر ما تضر به صاحبك وتنفع أنت به.

قال الأزهري: كل ما كان سوء حال وفقر وشدة في بدن فهو ضر بالضم، وما كان ضد النفع فهو ضر بفتحها، والمضرة خلاف المنفعة، وضره يضره ضرا وضر به، وأضر به وضاره، مضارة وقيل: الضر ابتداء الفعل والضرار الجزاء عليه.¹

وما يلاحظ بناء على ما سبق أن معاني الضرر في اللغة تدور حول ما يعتري الإنسان أو يتعرض له من ضيق وسوء حال أو مزاحمة أو نقصان للحقوق أو الملك² أو ما يكون ضدا للنفع بوجه عام.³

ثانياً: المدلول الفقهي للضرر

لم أعر على تعريف محدد للضرر، لدى فقهاء المالكية إلا ما ذكره بعضهم بمناسبة شرح أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي تنهى عن إيقاع الضرر بالغير حيث استعملوا لفظ الضرر، مرة في مقابل النفع ومرة بمعنى إلحاق المفسدة بالغير، وهناك استعمال ثالث للضرر، بمعنى أن ينقص الرجل أخاه شيئاً من حقوقه وفيما يلي تفصيل ذلك:

1. استعمال الفقهاء للضرر في مقابل النفع.

استعمل الفقهاء الضرر في مقابل النفع الذي هو تحصيل المنفعة، فجعلوه بمعنى إزالة أو قطع المنفعة من قبيل إطلاق المسبب - وهو الضرر - على السبب - الذي هو إزالة المنفعة مجازاً.⁴

وفي هذا يقول ابن العربي المالكي: الضرر الألم الذي لا نفع فيه يوازيه أو يربي عليه، وهو نقيض النفع.⁵

وجاء في المنتقى شرح الموطأ للباقي قال الحشني الضرر هو ما لك فيه منفعة وعلى جارك فيه مضرة والضرار ما ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه مضرة.⁶

¹ أبو منصور محمد الأزهري تهذيب اللغة (المتن: 370هـ) تحقيق محمد عوض دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، 2001م

باب الصاد والراء 11 / 318 ولسان العرب ابن منظور (المتن: 711هـ) دار صادر - بيروت الطبعة الثالثة - 1414 هـ. مادة ضرر، ج 4 ص 482 ومختار الصحاح زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتن: 666هـ) تحقيق: يوسف الشيخ المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت، صيدا الطبعة الخامسة 1420هـ / 1999م - مادة ضرر ص 183

² أحمد موائ، الضرر في الفقه الإسلامي المجلد الأول دار ابن عفان للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية الطبعة 43 الأولى 1418هـ / 1997م ص

³ أحمد موائ، الضرر في الفقه الإسلامي الدكتور المجلد الأول دار ابن عفان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 1417هـ - 1997 ص 83

⁴ لابن العربي القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي أحكام القرآن (المتن: 543هـ) راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الثالثة، 1424 هـ - 2003 / ج 1/ 181

⁵ المنتقى شرح الموطأ القاضي أبو الوليد الباقي الأندلسي (المتن: 474هـ) دار السعادة مصر، الطبعة الأولى: 1332هـ / 40 ج 6 ص

قال الباجي في التعليق على هذا: ومعنى ذلك - والله أعلم - أن الضرر ما قصد به الإنسان منفعة نفسه وكان فيه ضرر على غيره، وأن الضرر ما قصد به الإضرار لغيره

قال تعالى: الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلُقَنَّ إِنَّ أَرْدْنَا إِلَّا الْخُسْفَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ¹.

ويؤكد ما ذكر في معنى الضرر قول ابن عبد البر: "من أحدث بناء في رحا ماء أو غير رحا، فيبطل ما أحدثه على غيره منفعة قد استحققت وثبت ملكها لصاحبها منع من ذلك، لأن إدخاله المضرة على جاره بما له فيه منفعة كإدخاله عليه المضرة بما لا منفعة فيه.²

والنص ظاهر في أن الضرر بإبطال منفعة مستحقة.

2- استعمال الفقهاء للضرر بمعنى إلحاق مفسدة بالغير

استعمل الفقهاء الضرر أيضا بمعنى إلحاق مفسدة بالغير، وآية ذلك ما جاء في الفروق: "من ملك موضعا له أن يبني فيه ويرفع البناء ما شاء ما لم يضر بغيره وله أن يحفر فيه ما شاء ويعمق ما شاء ما لم يضر بغيره فمن أدخل على أخيه أو جاره ضررا منع.³

وفي تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام سئل مطرف عن النحل يتخذها الرجل وهي تضر بشجر الناس إذا نورت، أو يتخذ برجا في القرية للعصافير ليصيب من فراخها، فقال: أرى أن يمنع من اتخاذ ما يضر بالناس في زرعهم وشجرهم.⁴ والنصان ظاهرا للدلالة على أن الضرر إلحاق المفسدة بملك الغير.

3- استعمال الفقهاء للضرر بمعنى أن ينقص الرجل أخاه شيئا من حقوقه

للفقهاء استعمال ثالث للضرر بمعنى أن ينقص الرجل أخاه شيئا من حقوقه.

وتأكيدا لهذا المعنى أسوق النص التالي:

جاء في تبصرة الحكام وأما إحداث رحي على نهر فوق رحي قديمة تضرها في نقصان طحن أو كثرة مؤنة، أو في غير ذلك ضررا بينا فذلك ممنوع، قاله ابن القاسم ولو لم يتبين لأهل المعرفة في ذلك ضرر، قيل له: عمر فإن أضرت منعناك.⁵

ووجه الدلالة في هذا النص أنه جعل نقصان طحن الرحي القديمة بإحداث رحا جديدة ضرر يمنع منه.

وحاصل ما تقدم أن الاستعمالات الثلاثة للضرر التي أشار إليها الفقهاء في كتبهم نجد بينها قدرا كبيرا من التداخل فاستعمالهم للضرر بمعنى قطع المنفعة قريب منه استعمالهم للضرر بمعنى إلحاق مفسدة بالغير، وذلك لأن قطع منفعة ملك إنسان

¹ سورة التوبة الآية 107

² ابن عبد البر التمهيد م/ص 20

³ للإمام القرافي، كتاب الفروق، الناشر: عالم الكتب بدون طبعة، وبدون تاريخ، ج 4 ص 17

⁴ ابن فرحون، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، مكتبة الكليات الأزهرية الطبعة: الأولى، 1406هـ - 1986م فصل النحل يتخذها الرجل وهي تضر بشجر الناس ج 2 ص 346

⁵ المرجع نفسه، فصل إحداث رحي على نهر فوق رحي قديمة، ج 2 / ص 354

إفساد لهذا الملك عليه، فالمملك اختصاص حاجز لتحقيق مصلحة معينة، فإذا فوت إنسان على المالك تحقيق مصلحة ملكه، فقد أفسد عليه هذا الملك، وإن أبقاء، في يده.

وعلى هذا، فإنه يدخل قطع المنفعة - أي إزالتها: بعضها أو كلها - تحت إلحاق المفسدة بالغير كذلك فإن انتقاص الغير حقا من حقوقه - وهو المعنى الثالث للضرر في استعمال الفقهاء - قد يكون معناه: قطع بعض منفعته المتصلة بحقه هذا فيدخل انتقاص الحق من هذه الجهة تحت قطع المنفعة وإلحاق المفسدة، والحاصل أنه يمكن إرجاع هذين الاستعمالين - استعمال الضرر بمعنى قطع المنفعة، وبمعنى انتقاص الغير حقه - إلى الاستعمال الثاني الذي هو إلحاق مفسدة بالغير، فهما مندرجان تحته بل ويشكلان بعضا من أجزائه.¹

وبهذا يتبين أن معاني الضرر في الفقه المالكي راجعة في مجملها إلى معنى واحد هو إلحاق المفسدة بالغير، وهو بذلك يكون اسما جامعاً، شاملاً لكل أوجه الأذى والإساءة للإنسان في نفسه أو عرضه أو اعتباره أو ماله أو عقله فأى إساءة تصيب الإنسان في شيء من ذلك فهو ضرر واجب دفعه وردّه وإزالته، لأن في ذلك مصلحة ومنفعة والمصلحة والمنفعة الشرعيتان واجب تحصيلهما. تنفيذا لأمر الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾²

فإلى أي حد يتناسب هذا المعنى الواسع للضرر في الفقه الإسلامي مع المفهوم الذي درج عليه رجال القانون؟³

الفرع الثاني: مدلول الضرر في القانوني

أورد فقهاء القانون تعريفات متقاربة للضرر تقول إلى نفس المعنى وإن اختلفت الفاظها.

1- الضرر هو الأذى الذي يلحق الغير.⁴

2- الضرر هو: الأذى الذي يصيب مال المضرور أو نفسه أي هو المساس بمصلحة للمضرور، سواء أكانت هذه المصلحة مالية، ويوصف الضرر عندئذ بأنه ضرر مادي، أم كانت مصلحة معنوية أو أدبية ويوصف الضرر عندئذ بأنه معنوي أو أدبي.⁵

الضرر هو: الأذى الذي يصيب الشخص جراء المساس بحق من حقوقه، أو بمصلحة مشروعة له، سواء كان ذلك الحق أو تلك المصلحة ذات قيمة مالية أو لم تكن بل يكفي المساس بأي حق أو مصلحة ولو لم يكفلها القانون بدعوى خاصة طالما أنها غير مخالفة له.⁶

¹ أحمد موائى الصور في الفقه الإسلامي المجلد الأول دار ابن عفان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى (1417هـ - 1997م) ص 111

² سورة النحل الآية 90

³ سعيد الحمادي، مضار الجوار غير مألوف في ضوء الفقه المالكي والقانون المغربي، بحث لنيل شهادة الماستر، أحكام العقار في الفقه المالكي والقانون المغربي، جامعة القرويين كلية السريعة فاس، سنة 2014م/ 1435هـ، ص 32

⁴ حسن على الذنون المبسوط في المسؤولية المدنية شركة التامس للنشر ببغداد بدون طبعة / ص 157

⁵ إدريس العلوي العبدلاوي شرح القانون المدني النظرية العامة للالتزام الجزء الثاني، الطبعة الأولى 1421هـ / 2000م / ص 176

⁶ سليمان مرقص المسؤولية المدنية في تقنيات البلاد العربية القسم الأول من الكتاب معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية مصر الطبعة الثانية سنة 1971م ص 127

3- الضرر هو: " ما يصيب المضرور في جسمه أو ماله أو عاطفته أو كرامته أو شرفه أو أي معنى آخر من المعاني التي يحرص الناس عليها.¹

4- وقيل هو " الإخلال بمصلحة محققة مشروعة للمضرور في ماله أو شخصه أي الأذى الذي يصيب الشخص في حق من حقوقه أو في مصلحة مشروعة له وهو قوام المسؤولية المدنية لأنه محل الالتزام بالتعويض ويتحدد مقدار التعويض بقدر الضرر.²

أما القوانين المدنية فإن أغلبها لم تعرف الضرر وإنما اكتفت بتنظيم، أحكامه العامة وذلك في نطاق المسؤولية المدنية³ في حين أنه وخلافا للقاعدة عرف القانون المدني المغربي الضرر في الفصل 98 من ظهير الالتزامات والعقود جاء فيه: "الضرر في الجرائم وأشبه الجرائم⁴ هو الخسارة التي لحقت المدعي فعلا والمصرفات الضرورية التي اضطر أو سيضطر إلى إنفاقها لإصلاح نتائج الفعل الذي ارتكب إضرارا به وكذلك ما حرم منه من نفع في دائرة الحدود العادية لنتائج هذا الفعل"

وهذا التعريف الذي وضعه المقتن المغربي بالرغم من أهميته إلا أنه يعد ناقصا في مجمله لكونه لا يشير إلى الأضرار الجسدية وكذا المعنوية، غير أن هذا النقص يمكن تداركه بالرجوع إلى جملة من النصوص التشريعية الأخرى التي تكمله، من ذلك مثلا الفصل 77 من نفس القانون: "كل فعل ارتكبه الإنسان عن بيئة واختيار، ومن غير أن يسمح به القانون فأحدث ضررا ماديا أو معنويا للغير التزم مرتكبيه بتعويض هذا الضرر.

والفصل 78: "كل شخص مسؤول عن الضرر المعنوي أو المادي الذي أحدثه لا بفعله فقط ولكن بخطئه أيضا، وذلك عندما يثبت أن هذا الخطأ هو السبب المباشر في ذلك الضرر.

واسترشادا بما ذكر من تعريفات للضرر، يمكن أن نعرف الضرر بشكل عام في مجال الجوار بأنه هو: " الأذى الذي يصيب الجار نتيجة المساس بحق من حقوقه أو بمصلحة مشروعة له سواء تعلق ذلك الحق أو تلك المصلحة بسلامة جسمه أو ماله أو عاطفته أو شرفه أو أي معنى آخر من المعاني التي يحرص الناس عليها⁵

فالضرر الذي يصيب الجار ويستوجب المساءلة بحسب هذا التعريف قد يكون ماديا أو معنويا ويشترط فيه حتى تقوم المسؤولية عنه أن يكون محققا لا احتماليا، وأن يكون مباشرا بمعنى أن يكون الضرر قد وقع فعلا أو سيقع حتما في المستقبل وأن يكون نتيجة مباشرة للخطأ أو للفعل.

تلك هي باختصار شديد الخطوط العريضة للضرر طبقا للقواعد العامة للمسؤولية التقصيرية فما مدى اتفاقها مع القواعد الخاصة بالمسؤولية عن مضار الجوار غير المألوفة؟ ذلك ما سنعرفه من خلال الفرع الموالي⁶

¹ عبد الرزاق أحمد السنهوري الوسيط في شرح القانون المدني الجديد المجلد الثاني مصادر الالتزام منشورات الحلبي الحقوقية بيروت لبنان/ ص 929

² محمد حسين منصور، أستاذ القانون المدني النظرية العامة للالتزام، مصادر الالتزام، جامعة الإسكندرية، دار الجامعة الجديدة للنشر 2006م ص 727

³ انظر على سبيل المثال المواد (من 163 إلى 180) من القانون المدني المصري رقم 131 لسنة 1948 بتاريخ 1948/29/7 وتقاليلها المواد (من 204 إلى 220) من القانون المدني العراقي رقم 40 لسنة 1951 والمواد (من 124 إلى 140) من القانون المدني الجزائري رقم 75/58 لسنة 1975

⁴ عبد الكريم شهبون شرح قانون الالتزامات والعقود المغربي الأول الالتزام بوجه عام، الكتاب جرى المشرع المغربي في هذه التسمية على ما جرى عليه القانون الفرنسي من التمييز بين الأفعال العمدية وهي الجرائم وغير العمدية وهي أشياء الجرائم وهذا التقسيم غير سليم لأنه لا فرق بين بين الجريمة وشبه الجريمة من حيث ترتيب الالتزام واستحقاق التعويض الشافي في الجزء الأول مصادر الالتزام الطبعة الأولى، 1419هـ - 1999/ ص 376

⁵ عبد الرحمن على حمزة، مضار الجوار غير المألوفة دار النهضة العربية القاهرة 2006 ص 96

⁶ سعيد الحمادي، مضار الجوار غير مألوف، م س/ ص 35

المطلب الثاني: مدلول الضرر غير مألوف

يعتبر مضار الجوار غير المألوفة فكرة نشأة وتحولات إلى نظرية قائمة بحد ذاتها وتم الاعتراف بها وبالمسؤولية القائمة على أساسها لأنه لأمر ضروري وحتمي، غير أن هذا النوع من المسؤولية ليس نظاما ثابتا، بل هو نظام متغير مر بمراحل زمنية متعددة إلى أن وصل لما هو عليه اليوم، الأمر الذي يجعلنا نتحدث عن مدلوله الفقهي للضرر غير مألوف في (الفرع الأول) على أن نخصص الحديث عن مدلول القانون للضرر غير مألوف في (الفرع الثاني)

الفرع الأول: مدلوله الفقهي للضرر غير مألوف

عبر ابن فرحون من المالكية عن الضرر الذي يتجاوز الحد المحتمل بين الجيران بمصطلح الضرر الكبير المستدام بقوله هو من الضرر الكبير المستدام، وما كان بهذه الصفة منع إحداثه، على من يستضر به إذا شهدت البيئة بأنه من الضرر.¹ أي ما كان من الضرر كبيرا من حيث حجمه وشدته أو من حيث طول مدته فإنه يمنع. وعبر عنه الباجي من المالكية أيضا بالضرر الكثير المستدام، في قوله هو من الضرر الكثير المستدام وما كان بهذه الصفة منع إحداثه على من يستضر به.²

بينما استعمل متأخروا الحنفية مصطلح الضرر الفاحش للتعبير عن الضرر الذي يتجاوز الحد المحتمل بين الجيران وعرفوه بأنه: " ما يكون سببا للهدم وما يوهن البناء أو يخرج عن الانتفاع بالكلية، وهو ما يمنع الحوائج الأصلية.³ ومهما يكن من اختلاف في تعابير الفقهاء فإن المعنى المقصود منها يبقى متقاربا وهو متعلق بجسامة الضرر، أي شدته وقوته واستدامته.⁴

وعرفت المادة 1199 من مجلة الأحكام العدلية الضرر الفاحش بأنه " كل ما يمنع الحوائج الأصلية، يعني المنفعة المقصودة من العقار، كالسكنى أو يضر البناء، أو يجلب له وهنا ويكون سبب انهدامه.⁵

أما المادة 59 من مرشد الحيران فقد عرفته بقولها " الضرر الفاحش هو ما يكون سببا لوهن البناء، أو هدمه، أو يمنع الحوائج الأصلية، أما ما يمنع المنافع التي ليست من الحوائج الأصلية، فليس بضرر فاحش.⁶

والملاحظ أن هاتين المادتين حددتا ضوابط الضرر الفاحش وحصرتهما في ثلاث ضوابط:

الأول: كل شيء يضر البناء ويعرضه للوهن غالبا

الثاني: كل شيء يسبب انهدام الجدار.

¹ تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام م س / ج 2 / ص 348

² المنتقى شرح الموطأ للباجي القضاء في المرافق م س / ج 6 ص 41

³ بن عابدين الناشر رد المختار على الدر المختار، 1: دار الفكر - بيروت الطبعة الثانية، 1412هـ - 1992م، ج 5 ص 448

⁴ عبد الرحمن على حمزة، مضار الجوار غير المألوفة، م س ص 110

⁵ نور محمد، كآرخانه، مجلة الأحكام العدلية، تأليف لجنة مكونة من عدة علماء وفقهاء في الخلافة العثمانية تحقيق نجيب هوايني، الناشر تجارت كتب آرام باغ كراتشي، الكتاب العاشر:

الشركات الباب الثالث: في بيان المسائل المتعلقة بالحيطان والحيران، الفصل الثاني: في حق المعاملات الجوارية، ص 231

⁶ أبي حنيفة النعمان تأليف محمد قدرى باشا، كتاب مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان في المعاملات الشرعية على مذهب الإمام الأعظم الطبعة الثانية المطبعة الأميرية مصر

1308 هـ الفصل الثالثة في حقوق المعاملات الجوارية/ ص 11

الثالث: كل شيء يمنع الحوائج الأصلية أي المنافع المقصودة من البناء.

وقد ذكرت مجلة الأحكام العدلية، أمثلة للمضار التي تمنع الحوائج الأصلية أي المنافع المقصودة من البناء، والتي لا تعد كذلك.¹

الفرع الثاني: المدلول القانوني للضرر غير المألوف

أولاً: في ضوء الفقه القانوني

أما تعريف الضرر الفاحش في الفقه القانوني فقد جرى غالبية فقهاءه على استعمال مصطلحي الضرر الفاحش والضرر غير المألوف في مؤلفاتهم عند إيراد تعريف له وإذا ما بدأنا بالفقه القانوني الفرنسي نجد أن فقهاءه قد استعملوا مصطلح الضرر غير المألوف² وعرفوه بأنه: "الضرر الذي يتجاوز المضار العادية للجوار".³

أما في الفقه العربي المقارن فقد عرف الفقيه عبد الرزاق أحمد السنهوري مضار الجوار غير المألوفة بأنها: "تلك المضار التي تزيد عن الحد المألوف فيما يتحملها الجيران عادة من بعضهم البعض بحكم الجوار".⁴

وفي مقابل هذا الضرر هناك الضرر غير الفاحش أو الضرر المألوف أو اليسير أو المتسامح فيه والذي يقصد به في الفقه المدني بوجه عام:

الضرر الذي لا يمكن تجنبه لعدم مجاوزته الحد المألوف الذي يقره العرف والذي يجب على الجار تحمله⁵ وعرف الضرر المألوف كذلك بأنه "الضرر المتسامح فيه أو المعتفر الذي لا يمكن التحرز من وقوعه".

ثانياً: في ضوء التشريعات المقارنة

1 التشريعات العربية

أخذت كثير من تشريعات البلاد العربية، بالمسؤولية عن مضار الجوار غير المألوفة لكنها تباينت في تعريفها للضرر غير المألوف أو الفاحش من ناحيتين من حيث إطلاق التسمية على هذا الضرر ومن حيث تعريف هذا الضرر.

¹ نصت المادة (1201) من مجلة الأحكام العالية على: "المنع المنافع التي ليست من الحوائج الأصلية كسد هواء دار أو نظارتها أو منع دخول الشمس ليس بطور فاحش لكن من الهواء بالكلية ضرر فاحش فلذلك إذا أحدث أحد بناء فسد به نافذة غرفة جاره التي لها نافذة واحدة فصارت مظلمة بحيث لا يستطيع قراءة الكتابة من الظلمة، فيدفع الضرر، حيث إنه ضرر فاحش، ولا يقال فليأخذ الضياء من بابها لأن باب الغرفة يحتاج إلى نقله من البرد والغيث من الأسباب وإن كان لتلك الغرفة نافذتان فسدت إحداها بإحداث ذلك البناء فلا يعد ضرراً فاحشاً" وهو ما نصت عليه المادة 61 من مرشد الخيران.

ونصت المادة (1202) على أن: "رؤية المحل الذي هو مقر النساء كالمطبخ وباب البدر وصحن الدار بعد ضرر فاحشاً، فإذا أحدث أحد في داره نافذة أو بني مجدداً بناء وفتح فيه نافذة على المحل الذي هو مقر نساء جاره الملاصق أوجاره المقابل الذي يفصل بينهما طريق وكان يرى مقر نساء الآخر منه فيؤمر يرفع الضرر ويكون مجبوراً على دفع هذا الضرر بصورة تمنع وقوع النظر إما ببناء حائط أو وضع ستار من الخشب لكن لا يجبر على من النافذة على كل حال كما إذا عمل حائطاً من الأغصان التي يرى من بينها مقر نساء جاره قله يؤمر بعد محلات النظر ولا يجبر على هدمه وبناء حائط محله".

ونصت المادة (1203) على أنه إذا كانت الأحاد نافذة في محل أعلى من قامة الإنسان فليس لجاره أن يطلب سدها لاحتمال أنه يضع سلماً وينظر إلى مقر نساء ذلك الجار وهاتان المدتان تقابلهما المادة 62 من مرشد الخيران

² ستعمل الفقه الفرنسي عبارة Troubles anormaux de voisinage للدلالة على مضار الجوار غير المألوف.

³ ضار الجوار غير المألوفة جاد يوسف خليل دار الحالة بيروت لبنان الطبعة الأولى 2002م ص 91

⁴ عبد الرزاق أحمد السنهوري حق الملكية م س/ ص 692

⁵ عبد الرحمن علي حمزة مضار الجوار غير المألوفة م س/ ص 109 و 110

فمن الناحية الأولى: استعمل المشرع العراقي ونظيره الأردني مصطلح الضرر الفاحش، في حين استعملت معظم القوانين الأخرى¹ مصطلح الضرر غير المألوف.

ومنها القانون المدني المغربي.²

وتشريعات أخرى استعملت كلا المصطلحين كالقانون المدني الكويتي رقم 67 لسنة 1980 وخاصة المادة رقم 30 منه.

ومن الناحية الثانية: تعددت تعاريف الضرر غير المألوف أو الفاحش في التشريعات المدنية العربية، من ذلك ما نص عليه التقنين المدني المصري في المادة 807 التي تقول:

"على المالك ألا يغلو في استعمال حقه إلى حد يضر بملك جاره.

وليس للجار أن يرجع على جاره في مضار الجوار المألوفة وإنما له أن يطلب إزالة هذه المضار إذا تجاوزت الحد المألوف، على أن يراعى في ذلك العرف، وطبيعة العقارات، وموقع كل منهما بالنسبة للآخر والغرض الذي خصصت له. ولا يحول الترخيص الصادر من الجهات المختصة دون استعمال هذا الحق".

وكذا التقنين المدني السوري في مادته 776 نصت على ما يلي:

1- على المالك ألا يغلو في استعمال حقه إلى حد يضر بملك الجار.

2 وليس للجار أن يرجع على جاره في مضار الجوار المألوفة التي لا يمكن تجنبها، وإنما له أن يطلب إزالة هذه المضار إذا تجاوزت الحد المألوف.

والتقنين المدني الليبي في مادته³ 816

1- على المالك ألا يغلو في استعمال حقه إلى حد يضر بملك الجار.

2 وليس للجار أن يرجع على جاره في مضار الجوار المألوفة التي لا يمكن تجنبها، وإنما له أن يطلب إزالة هذه المضار إذا تجاوزت الحد المألوف، على أن يراعى في ذلك العرف وطبيعة العقارات، وموقع كل منها بالنسبة إلى الآخر، والغرض الذي خصصت له. ولا يحول الترخيص الصادر من الجهات المختصة دون استعمال هذا الحق.

والتقنين المدني الأردني⁴ المادة 1024 الضرر الفاحش هو ما يكون سبباً لوهن البناء أو هدمه أو يمنع الحوائج الأصلية أي المنافع المقصودة من البناء.

¹ مثل القانون المدني المصري في المادة 807

² استعمل المقتن المغربي مصطلح الضرر غير المألوف في الفصل 92 من ظهير 9 رمضان 1331 (12) أغسطس (1913) بمثابة قانون الالتزامات والعقود جاء فيه ومع ذلك، لا يحق للجيران أن يطلبوا إزالة الأضرار الناشئة عن الالتزامات العادية للجوار، كالدخان الذي يتسرب من المداخن، وغيره من المضار التي لا يمكن تجنبها والتي لا تتجاوز الحد المألوف". وكذلك استعمل نفس المصطلح في المادة 71 من القانون 39.08 بمثابة مدونة الحقوق العينية جاء في الفقرة الأولى "ليس للجيران أن يطالبوا بإزالة مضار الجوار المألوفة التي لا يمكن تجنبها، وإنما لهم أن يطالبوا بإزالة المضار التي تتجاوز الحد المألوف على أن يراعى في ذلك العرف وطبيعة العقارات وموقع كل منها بالنسبة للآخر والغرض الذي خصصت له."

³ القانون المدني الليبي الصادر في 21 من ربيع الأول 1373 هـ الموافق 28 من نوفمبر 1953م.

⁴ القانون المدني الأردني رقم (43) لسنة 1976 المادة 1024

المادة 1025: حجب الضوء عن الجار يعد ضرراً فاحشاً فلا يسوع لأحد أن يحدث بناء يسد به نوافذ بيت جاره سداً يمنع الضوء عنه وإلا جاز للجار أن يطلب رفع البناء دفعاً للضرر.

وفي مادته 1027 جاء فيها:

1- على المالك ألا يغلو في استعمال حقه إلى حد يضر بملك الجار.

2 وليس للجار أن يرجع على جاره في مضار الجوار المألوفة التي لا يمكن تجنبها وإنما له أن يطلب إزالة هذه المضار إذا تجاوزت الحد المألوف على أن يراعي في ذلك العرف وطبيعة العقارات وموقع كل منهما بالنسبة إلى الآخر والغرض الذي خصصت له ولا يحول الترخيص الصادر من الجهات المختصة دون استعمال هذا الحق.

والتقنين المدني العراقي في مادته 1051 التي نصت على أنه:

1- لا يجوز للمالك أن يتصرف في ملكه تصرفاً مضراً بالجار ضرراً فاحشاً، والضرر الفاحش يزال سواء كان حادثاً أو قديماً...

2- وللمالك المهدد بأن يصيب عقاره ضرر من جراء حفر أو أعمال أخرى تحدث من العين المجاورة أن يطلب اتخاذ كل ما يلزم لاتقاء الضرر، وله أيضاً أن يطلب وقف الأعمال أو اتخاذ ما تدعو إليه الحاجة من احتياطات ريثما تفصل المحكمة في النزاع.

3- وإذا كان أحد يتصرف في ملكه تصرفاً مشروعاً فجاء آخر وأحدث من جانبه بناء وتضرر من فعله، فعليه أن يدفع ضرره بنفسه. ويلاحظ أن المشرع العراقي في صياغته لهذه المادة كان أقرب إلى صياغة الفقه الإسلامي حيث اقتبس هذه الأحكام من المواد 57، 60، 62 و63 من مرشد الحيران باستثناء ما تضمنته الفقرة الثانية فهي من مقتضيات القواعد العامة.

والتقنين المدني الكويتي¹ في مادته 30 نصت على ما يلي:

يكون استعمال الحق غير مشروع إذا انحرف به صاحبه عن الغرض منه أو عن وظيفته الاجتماعية، وبوجه خاص:

أ - إذا كانت المصلحة التي تترتب عنه غير مشروعة.

ب - إذا لم يقصد به سوى الإضرار بالغير.

ج - إذا كانت المصلحة التي تترتب عنه لا تتناسب البتة مع الضرر الذي يلحق بالغير.

د - إذا كان من شأنه أن يلحق بالغير ضرراً فاحشاً غير مألوف.

وهذه الصورة الأخيرة وهي التي تعيننا نلاحظ بشأنها أن المشرع الكويتي لم يفرد لها نصاً خاصاً بل اعتبر استعمال الحق الذي يترتب عليه ضرر فاحش أي غير مألوف صورة من صور التعسف في استعمال الحق.

¹ القانون المدني الكويتي رقم 67 لسنة 1980 استعمال الحق المادة 30

2 التشريعات الأجنبية

نص التقنين المدني الألماني في المادة 902 "لا يجبر مالك العقار على أن يتحمل دخول الغازات والأبخرة والروائح والدخان والحرارة والضوضاء والاهتزاز وغيرها، إلا إذا كان الضرر الناشئ عنها تافها بسيطاً، وإذا كان ناتجاً عن استعمال العقار استعمالاً عادياً حسب عرف المكان."

أما قانون الالتزامات السويسري فقد نص في مادتيه 684 و685 على ما نص عليه القانون الألماني وأسس المسؤولية على نظرية التعسف في استعمال الحق.

والقانون المدني التركي في مادته 161 نص على: "الضرر الذي يسأل عنه المالك هو الضرر الذي يتجاوز ما يجب على الجيران تحمله بعضه من بعض وفقاً لما يقضي به العرف والعادة وطبيعة العقارات."

أما التقنين المدني الفرنسي الصادر في سنة 1804 فلا يوجد فيه نص تشريعي ينظم المسؤولية عن مضار الجوار غير المألوفة فهذه النظرية تبلورت بفضل اجتهادات المحاكم وعمل القضاء الفرنسي الذي استقر على الاعتراف بمسؤولية الجار عن الأضرار غير المألوفة التي يحدثها بجيرانه ولو اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة لمنعها وأمام غياب النص التشريعي فقد حاول القضاء الفرنسي التوسع في تفسير نص المادة 1382 لكي يتمكن من تحقيق أكبر قدر من الحماية للجار المضرور.

بالرجوع إلى التقنين المغربي تجده قد قرر مسؤولية المالك عن الأضرار التي قد يلحقها بجاره نتيجة استعماله حق الملكية إذا تجاوزت الحد المألوف، كما أقر في إطار التضامن الاجتماعي بوجود التسامح بين الجيران إذا كانت الأضرار مألوفة تماشياً مع معطيات الواقع الاقتصادي وازدياد وثيرة النشاط الصناعي وفي هذا الصدد أعطت المادة 71 من مدونة الحقوق العينية: للجيران الحق في أن يطالبوا بإزالة المضار التي تتجاوز الحد المألوف ولا يحول الترخيص الصادر من السلطات المختصة دون استعمال هذا الحق أي دون المطالبة بإزالة المضار إذا تجاوزت الحد المألوف.

ومن أجل تحديد كون الضرر مألوفاً أو غير مألوف يراعي القاضي العرف وطبيعة العقارات وموقع كل منها بالنسبة للآخر والغرض الذي خصصت له، وفي المقابل، فقد منعت المادة 71 أعلاه الجيران من المطالبة بإزالة مضار الجوار المألوفة التي لا يمكن تجنبها، وهذه الأحكام هي نفسها ما تضمنته بتفصيل مقتضيات الفصلين 91 و92 من ظهير الالتزامات والعقود. حيث جاء في الفصل 91 من الظهير المذكور: "للجيران الحق في إقامة الدعوى على أصحاب المحلات المضرة بالصحة أو المقلقة للراحة بطلب إما إزالة هذه المحلات، أو إجراء ما يلزم فيها من التغيير الرفع الأضرار التي يتظلمون منها. ولا يحول الترخيص الصادر من السلطات المختصة دون مباشرة هذه الدعوى".

ويضيف الفصل 92: ومع ذلك، لا يحق للجيران أن يطلبوا إزالة الأضرار الناشئة عن الالتزامات العادية للجوار، كالدخان الذي يتسرب من المداخن وغيره من المضار التي لا يمكن تجنبها والتي لا تتجاوز الحد المألوف.

ويلاحظ من خلال المقتضيات أعلاه أن المشرع المغربي لم يعمل على ضبط مفهوم المضار التي تصيب الجار، حيث اكتفى بوصفها بغير المألوفة ومنح الحق للجار في المطالبة بالتعويض عنها متى تجاوزت الحد المألوف ومن ثم فما هو مدلول الضرر غير المألوف؟

وبعد أن انتهينا من تعريف الضرر غير المألوف أو الفاحش واستعراض موقف الفقه والتشريع منه لا بد من القول إن من الصعوبة وضع تعريف جامع ومانع للضرر غير المألوف لأن تعريف هذا الضرر يتغير حسب الظروف التي تطرأ على المجتمع، حيث أصبح

العالم اليوم يشهد طائفة من الأضرار الفاحشة والمخاطر الضارة التي تتجاوز ما كان متساحا فيه بين الجيران، لذلك لم يعد مجديا تعريف الضرر الفاحش، بأنه ما يوهن البناء ويسبب هدمه أو يمنع الحوائج الأصلية من البناء، إذ أن وضع تعريف معين له سيكون حتما مؤقتا ومرحليا ولا يلبث أن يصبح غير كاف مع مرور الوقت لذلك فإن التعريف المختار عندي للضرر غير المألوف هو الذي أورده الفقيه السنهاوري وهو:

"الضرر الذي يتجاوز الحد المعهود فيما يتحملة الجيران عادة بعضهم من بعض بحكم الجوار."

لأن هناك نوعا من الأضرار يجب على الجيران تحملها والتسامح بشأنها مادامت في الحدود المألوفة، لكن ما يزيد عن هذا الحد من الأضرار بعد ضررا غير مألوف لا يمكن تحمله بحكم الجوار وهو ممنوع ديانة وقضاء صونا لحق الملكية العقارية وحماية له.¹

خاتمة:

بعد استكشاف مفهوم أضرار الجوار غير المعتادة وما يرتبط به من جوانب قانونية وفقهية، اتضح أن هذا المفهوم يعدّ من الأجزاء الأساسية في تنظيم العلاقة بين الجيران. يهدف إلى إيجاد توازن بين حق الفرد في استخدام ممتلكاته وحق الآخرين في الحماية من الأذى. يُعتبر هذا تطبيقاً عملياً لمبدأ "لا ضرر ولا ضرار"، الذي يُعتبر من المبادئ الأساسية في الشريعة الإسلامية وأحد الركائز الثابتة في الأنظمة القانونية الحديثة.

كما أوضحت الدراسة أن أضرار الجوار تنقسم إلى نوعين: الأول مألوف يمكن تحمله، والثاني غير مألوف يُمنع ويواجه المتسبب فيها العقوبات. وتبقى معايير "المألوف" و"غير المألوف" مرتبطة بالعادات السائدة والزمان والمكان، بالاستناد إلى ما تحدده الجهات المختصة من الناحية الفنية والقضائية، مما يستدعي وجود مرونة وتقدير دقيق يتناسب مع الظروف الراهنة.

بالإضافة إلى ذلك، يظهر أن الفقه الإسلامي قام بالتعامل مع هذه الأضرار بنهج متوازن يراعي الملكية الفردية ومنع الأذى، عبر الاستناد إلى معايير محددة تتعلق بمقدار الضرر وطبيعة استمراريته ومدى تحمله، إلى جانب العرف السائد ومبدأ التخلص من الضرر دون تعسف. بينما قامت القوانين الوضعية بتطوير مفاهيم مماثلة ضمن إطار "المسؤولية التقصيرية" و"الضرر غير المشروع"، إلا أنها غالباً ما تعود في تقييمها إلى العادات الشائعة والخبرة الفنية.

¹ سعيد الحمادي، مضار الجوار غير مألوف في ضوء الفقه المالكي والقانون المغربي، م س/ ص 44

لائحة المراجع والمصادر:

- إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر دار الدعوة (مادة حار) ج 1
- مجد الدين أبو ظاهر محمد بن يعقوب القاموس المحيط الفيروز آبادي (المتوفى: 817هـ) تحقيق مكتبة التراث في مؤسسة الرسالة اشرف محمد نعيم الحر اليوسي الناشر مؤسسة الرسالة الطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة الثامنة، 1426 هـ / 2005 م / مادة جور
- محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض الملقب بمرتضي الأيدي تاج العروس من جواهر القاموس (المتوفى: 1205هـ) مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية (مادة جور) الجزء 10
- لسان العرب لابن 153 من منظور (المتوفى: 711هـ) دار صادر - بيروت، دون سنة النشر، الطبعة الثالثة: 1414 هـ (مكة جور) ج 4
- رواه البزار من شيخة عبد الله بن محمد الحارثي والطبراني في مسند الشاميين (2458) وأبو نعيم في الحلية 20775 قال ابن رجة وقد روي هذا الحديث من وجود أخرى متصلة ومرسلة ولا تخلو كلها من مقال جامع العلوم والحكم، 138/ 1
- أحكام القرآن لابن العربي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الثالثة 1424 هـ - 2003 م ج 1
- أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الآداب باب الآداب رقم 6015 وأخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب الوصية بالجاز والإحسان إليه رقم 2625
- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب ألم من لا يأمن جاره بوائقه رقم الحديث 6016 ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب جوان تحريم ابناء الجار رقم الحديث 46
- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح باب الوصلة بالنساء رقم الحديث 5185 ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان باب الحث التجار رقم الحديث 47 وأخرجه أبو دار (5154) والكرماني (2500)
- مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر عبد الرحمن بن محمد بن سليمان (المتوفى: 1078هـ) دار إحياء التراث العربي بدون طبعة، وبدون تاريخ كتاب الوصايا باب الوصية للأقارب وغيرهم ج 2
- منح الجليل شرح مختصر خليل محمد بن أحمد بن محمد عlish، أبو عبد الله المالكي (المتوفى: 1299هـ) الناشر: دار الفكر بيروت بدون طبعة تاريخ النشر: 1409هـ / 1989م باب أحكام الوصية، ج 9
- أبو رافع: هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، اختلف في إسمه فقيل: ابراهيم وقيل: أسلم وقيل: ثابت كان أبو رافع مولى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أسلم العباس بشر أبو رافع الرسول صلى الله عليه وسلم، فأعتقه، وكان إسلامه قبل بدر ولم يشهدها وشهد أحد وما بعدها، توفي رحمه الله في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل في خلافة علي بن أبي طالب. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ابن حجر (4/2948)، الإصابة في تمييز الصحابة (7/9983).
- السقب: القرب وقيل الملازق والملاصق معجم مقاييس اللغة أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (المتوفى: 395هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر عام النشر: 1399هـ - 1979م، ج 3
- شفعة الجار مسألة خلافية بين الفقهاء حيث ذهب الحنفية إلى إثبات الشفعة للجار مطلقا أما المالكية والشافعية والحنابلة فلا يثبتون الشفعة للجار مطلقا في المشهور وهذا الرأي الأخير هو ما أكدته المادة 293 من مدونة الحقوق العينية حيث يفهم من نص المادة أن الجار لا شفعة له إذا باع جاره العقار المجاور له مادام غير شريك له.

- مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر مرجع سابق ج 2
- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي (المتوفى: 1230هـ) الناشر: دار الفكر بدون طبعة وبدون تاريخ ج 4
- المهذب في فقه الإمام الشافعي أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (المتوفى: 476هـ) دار الكتب العلمية كتاب الوصايا باب جامع الوصايا (ج 2 ص 350) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: 977هـ) دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى (1415هـ - 1994م) ج 4
- المغني لابن قدامة المقدسي (المتوفى: 620هـ) مكتبة القاهرة بدون طبعة تاريخ النشر: 1388هـ - 1968م ج 6 ص 234 ، دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (المتوفى: 1051هـ) عالم الكتب الطبعة الأولى، 1414هـ - 1993م ، كتاب الوصية باب الموصي له، فصل: ولا تصح الوصية لكنيسة أو بيت نار أو مكان من أماكن الكفر ج 2 كشف القناع عن متن الإقناع منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (المتوفى: 1051هـ) دار الكتب العلمية كتاب الوصية باب الموصي له فصل: قتل الموصي له الموصي ج 4
- أخرجه البيهقي في السنن كتاب الوصية باب الرجل يقول ثلث مالي إلى فلان يضعه حيث أراه الله (6/ 12611) أخرجه أبي يعلى، في مسند أبي هريرة (10 / 5982). قال عنه هذا الحديث ضعيف في إسناده وقال عنه الألباني: هذا الحديث ضعيف جدا، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (1 / 276)
- أخرجه الطبراني في الكبير (19 / 143) عن يوسف بن السفر عن الأوزاعي عن يونس بن يزيد عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال عنه الزيلعي في نصب الراية ويوسف بن السفر أبو الفيض فيه مقال باب الوصية للأقارب (4) 413 - 414) وقال الهيثمي بعد أن ساق له هذا الحديث في مجمع الزوائد (8 / 169) وفيه يوسف بن السفر وهو متروك وقال عنه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة حديث ضعيف.
- أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي البغدادي صاحب الإمام أبو حنيفة وتلميذه وأول من نشر مذهبه كان ففيها علامة حافظا للحديث ولد بالكوفة وولي القضاء ببغداد أيام وهو أول من لقب بقاضي القضاء وهو كذلك أول من ألف في أصول الفقه على مذهب الإمام أبو حنيفة توفي رحمه الله سنة (182هـ) كتاب الأعلام للزركلي (ج 8) وكذلك سير أعلام النبلاء يعقوب بن إبراهيم دار الحديث القاهرة الطبعة: 1427هـ - 2006م (ج 7 / ترجمة 1312)
- محمد بن الحسن هو أبو عبد الله الشيباني، نشأ بالكوفة وطلب الحديث وسمع سمعا كثيرا من سفيان الثوري والأوزاعي وجالس أبي حنيفة وسمع منه ناظر في الرأي فغلب عليه وعرف به قدم بغداد فنزلها، واختلف إليه الناس وسمعوا منه الحديث والرأي ولي القضاء في عهد هارون الرشيد، توفي سنة 189هـ الطبقات الكبرى لابن سعد (المتوفى سنة 230هـ) تحقيق إحسان عباس دار صادر - بيروت الطبعة الأولى، 1968
- البناية شرح الهداية أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتاني الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: 855هـ) الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م كتاب الوصايا باب الوصية للحيران
- البيهقي السنن الكبرى 3/4942 كتاب الصلاة باب التشديد في ترك الجماعة،
- منح الجليل شرح مختصر خليل، مرجع سابق باب احكام الوصية ج 9

- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي (المتوفى: (450هـ) تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى (1419 هـ - 1999 م) باب كيف تفريق قسم الصدقات ج 8
- الجامع الأحكام القرآن القرطبي (المتوفى: (671هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش دار ابن حزم - بيروت الطبعة: الأولى، (1416هـ / 1996 م) 5/185
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج فصل في أحكام الوصية الصحيحة ج 4
- الشيخ الدردير (1127 - 1201 هـ / 1715 - 1786 م) أحمد بن محمد بن أحمد العدوي، أبو البركات الشهير بالدردير: فاضل من فقهاء المالكية. ولد في بني عدي (مصر) وتعلم بالأزهر، وتوفي بالقاهرة من كتبه أقرب المسالك المذهب الإمام مالك) و (منج التقدير)، مجلدان في شرح مختصر خليل، و (تحفة الإخوان في علم البيان نقلا عن الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشر مايو 2002
- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي (المتوفى: 1230 هـ) هدار الفكر بدون طبعة وبدون تاريخ ج 4
- يقول ابن النجيم من الحنفية: "ويستوي فيه الجار الساكن، والمالك، والذكر والأنثى، والمسلم، والذمي، لأن الإسم يتناول الكل" البحر الرائق شرح كنز الدقائق دار الكتاب الإسلامي الطبعة الثانية - بدون تاريخ باب الوصية للجيران وغيرهم ج 8
- يقول الإمام النووي: "ويقسم المال على عدد الدور، لا على عدد سكانها". روضة الطالبين وعمدة المفتين تحقيق زهير الشاويش الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الثالثة، 1412 هـ / 1991 م ج 6
- يقول ابن قدامة " وإن وصى لجيرانه، فهم أهل أربعين دارا من كل جانب نص عليه أحمد وبه قال الأوزاعي والشافعي "المغني لابن قدامة مكتبة القاهرة بدون طبعة: 1388 هـ - 1968 م ج 6
- عبد الحليم عبد المجيد عبد الباري الوجيز في الحقوق العينية استاذ القانون المدني جامعة بنها جمهورية مصر العربية
- عطا سعد محمد حواس المسؤولية المدنية عن أضرار التلوث البيئي في نطاق الجوار دار الجامعة الجديدة، 2011
- أبو منصور محمد الأزهرى تهذيب اللغة (المتوفى: 370هـ) تحقيق محمد عوض دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، 2001
- باب الصاد والراء 11 / 318 ولسان العرب ابن منظور (المتوفى: (711هـ) دار صادر - بيروت الطبعة الثالثة - 1414 هـ. مادة ضرر، ج 4 ص 482 ومختار الصحاح زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ) تحقيق: يوسف الشيخ المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت، صيدا الطبعة الخامسة 1420 هـ / 1999 م - مادة ضرر
- أحمد موافى، الضرر في الفقه الإسلامي المجك الأول دار ابن عفان للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية الطبعة 43 الأولى 1418 هـ / 1997 م
- أحمد موافى، الضرر في الفقه الإسلامي الدكتور المجلد الأول دار بن عفان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 1417 هـ - 1997
- لابن العربي القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي أحكام القرآن (المتوفى: (543هـ) راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الثالثة، 1424 هـ - 2003 / ج 181/1

- المنتقى شرح الموطأ القاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي (المتوفى: (474هـ) دار السعادة مصر، الطبعة الأولى: 1332هـ/ 40 ج 6
- للإمام القرافي، كتاب الفروق، الناشر: عالم الكتب بدون طبعة، وبدون تاريخ، ج 4
- ابن فرحون، تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام، مكتبة الكليات الأزهرية الطبعة: الأولى، 1406هـ - 1986م فصل النحل يتخذها الرجل وهي تضر بشجر الناس ج 2
- المرجع نفسه، فصل إحداث رحي على نهر فوق رحي قديمة، ج 2 / ص 354
- أحمد موافى الصور في الفقه الإسلامي المجلد الأول دار ابن عفان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى (1417هـ 1997م)
- سعيد الحمايدي، مضار الجوار غير مألوف في ضوء الفقه المالكي والقانون المغربي، بحث لنيل شهادة الماستر، أحكام العقار في الفقه المالكي والقانون المغربي، جامعة القرويين كلية السريعة فاس، سنة 2014م/ 1435هـ
- حسن على الذنون المبسوط في المسؤولية المدنية شركة التامس للنشر بغداد بدون طبعة
- إدريس العلوي العبدلاوي شرح القانون المدني النظرية العامة للالتزام الجزء الثاني، الطبعة الأولى 1421هـ / 2000
- سليمان مرقص المسؤولية المدنية في تقنيات البلاد العربية القسم الأول من الكتاب معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية مصر الطبعة الثانية سنة 1971م
- عبد الرزاق أحمد السنهوري الوسيط في شرح القانون المدني الجديد المجلد الثاني مصادر الالتزام منشورات الحلبي الحقوقية بيروت لبنان
- محمد حسين منصور، أستاذ القانون المدني النظرية العامة للالتزام، مصادر الالتزام، جامعة الإسكندرية، دار الجامعة الجديدة للنشر 2006م
- انظر على سبيل المثال المواد (من 163 إلى (180) من القانون المدني المصري رقم 131 لسنة 1948 بتاريخ 1948/29/7 وتقابلها المواد من (204 إلى (220) من القانون المدني العراقي رقم 40 لسنة 1951 والمواد من (124 إلى (140) من القانون المدني الجزائري رقم 75/58 لسنة 1975
- عبد الكريم شهبون شرح قانون الالتزامات والعقود المغربي الأول الالتزام بوجه عام، الكتاب جرى المشرع المغربي في هذه التسمية على ما جرى عليه القانون الفرنسي من التمييز بين الأفعال العمدية وهي الجرائم وغير العمدية وهي أشياء الجرائم وهذا التقسيم غير سليم لأنه لا فرق بين بين الجريمة وشبه الجريمة من حيث ترتيب الالتزام واستحقاق التعويض الشافي في الجزء الأول مصادر الالتزام الطبعة الأولى، 1419هـ - 1999
- عبد الرحمن على حمزة، مضار الجوار غير المألوفة دار النهضة العربية القاهرة 2006 ص 96
- بن عابدين الناشر رد المختار على الدر المختار، ا: دار الفكر - بيروت الطبعة الثانية، 1412هـ - 1992م، ج 5
- نور محمد، كارهانه، مجلة الأحكام العدلية، تأليف لجنة مكونة من عدة علماء وفقهاء في الخلافة العثمانية تحقيق نجيب هوايني، الناشر تجارت كتب آرام باغ كراتشي، الكتاب العاشر: الشركات الباب الثالث: في بيان المسائل المتعلقة بالحيطان والحيران، الفصل الثاني: في حق المعاملات الجوارية
- أبي حنيفة النعمان تأليف محمد قدرى باشا، كتاب مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان في المعاملات الشرعية على مذهب الإمام الأعظم الطبعة الثانية المطبعة الأميرية مصر 1308 هـ الفصل الثالثة في حقوق المعاملات الجوارية

- نصت المادة (1201) من مجلة الأحكام العالوية على: "المنع المنافع التي ليست من الحوائج الأصلية كسد هواء دار أو نظارتها أو منع دخول الشمس ليس بطور فاحش لكن من الهواء بالكلية ضرر فاحش فلذلك إذا أحدث أحد بناء فسد به نافذة غرفة جاره التي لها نافذة واحدة فصارت مظلمة بحيث لا يستطيع قراءة الكتابة من الظلمة، فيدفع الضرر، حيث إنه ضرر فاحش، ولا يقال فليأخذ الضياء من بابها لأن باب الغرفة يحتاج إلى نقله من البرد والغيره من الأسباب وإن كان لتلك الغرفة نافذتان فسدت إحداها بإحداث ذلك البناء فلا يعد ضررا فاحشا " وهو ما نصت عليه المادة 61 من مرشد الحيران.
- ونصت المادة (1202) على أن: " رؤية المحل الذي هو مقر النساء كالمطبخ وباب البدر وصحن الدار بعد ضرر فاحشا ، فإذا أحدث أحد في داره نافذة أو بنى مجددا بناء وفتح فيه نافذة على المحل الذي هو مقر نساء جاره الملاصق أو جاره المقابل الذي يفصل بينهما طريق وكان يرى مقر نساء الآخر منه فيؤمر يرفع الضرر ويكون مجبورا على دفع هذا الضرر بصورة تمنع وقوع النظر إما ببناء حائط أو وضع ستار من الخشب لكن لا يجبر على من النافذة على كل حال كما إذا عمل حائطا من الأغصان التي يرى من بينها مقر نساء جاره فله يؤمر بعد محلات النظر ولا يجبر على هدمه وبناء حائط محله.
- ونصت المادة (1203) على أنه إذا كانت الأحاد نافذة في محل أعلى من قامة الإنسان فليس لجاره أن يطلب سدها لاحتمال أنه يضع سلما وينظر إلى مقر نساء ذلك الجار وهاتان المدتان تقابلهما المادة 62 من مرشد الحيران
- استعمل الفقه الفرنسي عبارة Troubles anormaux de voisinage للدلالة على مضار الجوار غير المألوف.
- يوسف خليل، ضار الجوار غير المألوفة جاد دار الحالة بيروت لبنان الطبعة الأولى 2002م ص 91
- استعمل المقتن المغربي مصطلح الضرر غير المألوف في الفصل 92 من ظهير 9 رمضان 1331 (12) أغسطس (1913) بمثابة قانون الالتزامات والعقود جاء فيه ومع ذلك، لا يحق للجيران أن يطلبوا إزالة الأضرار الناشئة عن الالتزامات العادية للجوار، كالدخان الذي يتسرب من المداخن، وغيره من المضار التي لا يمكن تجنبها والتي لا تتجاوز الحد المألوف". وكذلك استعمل نفس المصطلح في المادة 71 من القانون 39.08 بمثابة مدونة الحقوق العينية جاء في الفقرة الأولى " ليس للجيران أن يطلبوا بإزالة مضار الجوار المألوفة التي لا يمكن تجنبها، وإنما لهم أن يطلبوا بإزالة المضار التي تتجاوز الحد المألوف على أن يراعي في ذلك العرف وطبيعة العقارات وموقع كل منها بالنسبة للآخر والغرض الذي خصصت له.
- القانون المدني الليبي الصادر في 21 من ربيع الأول 1373 هـ الموافق 28 من نوفمبر 1953 م.
- القانون المدني الأردني رقم (43) لسنة 1976 المادة 1024
- القانون المدني الكويتي رقم 67 لسنة 1980 استعمال الحق المادة 30
- سعيد الحمادي، مضار الجوار غير مألوف في ضوء الفقه المالكي والقانون المغربي

الحماية القانونية للصفقات العمومية: جريمة الرشوة نموذجاً

د. يونس باعدي

دكتور في القانون الخاص بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية - طنجة

younes.baaddi@etu.uae.ac.ma

المملكة المغربية

الملخص:

تتناول هذه المقالة بالدراسة والتحليل ظاهرة الرشوة كإحدى أبرز صور الفساد التي تحدّد نزاهة الصفقات العمومية في المغرب، وتُعد مدخلاً للإثراء غير المشروع وتقويض قواعد الشفافية والمنافسة المشروعة. وتشير إلى أن خطورة هذه الجريمة لا تكمن فقط في بعدها الجنائي، وإنما في آثارها العميقة على الثقة العامة والمصلحة الاقتصادية والاجتماعية للدولة، خاصة وأن الصفقات العمومية تمثل نسبة هامة من الناتج الداخلي الخام، وتُعد رافعة حيوية للتنمية. يتجلى المحور المركزي للمقال في إشكالية مدى فعالية الإطار القانوني والمؤسسي في التصدي للرشوة داخل منظومة الصفقات العمومية.

وفي هذا السياق، تُبرز الدراسة أن المشرع المغربي، رغم تنصيبه على عقوبات جنائية واضحة في القانون الجنائي، ما زال يواجه تحديات واقعية تتعلق بثغرات في المراقبة، وصعوبة الإثبات، وتأخر تنفيذ المقتضيات الوقائية والزجرية. كما تُسلط المقالة الضوء على تنوع صور الرشوة خلال مراحل الصفقة - من إعداد دفاتر التحملات إلى تنفيذ الأشغال - بما يسمح باستغلال الوظيفة العامة لتحقيق مصالح خاصة، غالباً عبر تحايل إداري أو اتفاقات غير مشروعة. وهو ما يؤدي إلى اختلال مبدأ تكافؤ الفرص، وتفاقم الفجوة بين القانون والممارسة، وتراجع جودة المشاريع العمومية.

وفي المقابل تشيد المقالة بالتطور التشريعي الحاصل، من خلال صدور مرسوم 9 مارس 2023، وتعزيز آليات الوقاية والتبليغ عن الفساد، ومنها آلية الخط المباشر، غير أن ذلك لا يعفي من ضرورة إصلاحات بنيوية تهم تقوية أجهزة الرقابة، وضمان حماية المبلغين، وتفعيل العقوبات المقررة بصرامة واستقلالية. تخلص الدراسة إلى أن مكافحة الرشوة في مجال الصفقات العمومية لا تُحتزل في النصوص القانونية فقط، بل تقتضي إرادة سياسية قوية، وثقافة مؤسسية قائمة على الشفافية والمساءلة، وآليات قضائية ناجعة تكفل الزجر والردع، حماية للمال العام، وتكريساً للثقة في الإدارة.

الكلمات المفتاحية: الرشوة؛ الصفقات العمومية؛ القانون الجنائي المغربي؛ الفساد؛ الشفافية؛ الحكامة الجيدة؛ المسؤولية القانونية؛ الإدارة العمومية؛ حماية المبلغين؛ الإصلاح القانوني؛ النزاهة الاقتصادية.

تعتبر جريمة الرشوة من بين أكثر الجرائم انتشارا في مجال الصفقات العمومية، حيث تصنف ضمن جرائم الاعتداء غير المباشر على المال العام، فقد ورد في القرآن الكريم: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون». وقال تعالى: «سماعون للكذب أكالون للسحت¹»، وهي مدخل إلى إثراء البعض بغير حق عن طريق المتاجرة بالوظيفة العامة. ويشترط في هاته الجريمة، أن يكون الجاني موظفا عموميا أو من في حكمه من المخولين قانونا لإبرام العقود أو الصفقات باسم الدولة أو المؤسسات العمومية التابعة لها، حيث يقوم هذا الموظف باستغلال منصبه الإداري من أجل الحصول على مزايا مالية أو غيرها، سواء بالقيام بخدمة للغير بمناسبة تأدية وظيفته، مقابل فائدة يحصل عليها الموظف العمومي عند إبرامه للعقود والصفقات ويعد هذا المقابل غير مشروع قانونا.

وقد أكد جلالاته في الخطاب الملكي ليوم 30 يوليو 2016 بمناسبة ذكرى عيد العرش على: “أن محاربة الفساد لا ينبغي أن تكون موضوع مزايدات. ولا أحد يستطيع ذلك بمفرده، سواء كان شخصا، أو حزبا، أو منظمة جمعوية. بل أكثر من ذلك، ليس من حق أي أحد تغيير الفساد أو المنكر بيده، خارج إطار القانون، فمحاربة الفساد هي قضية الدولة والمجتمع: الدولة بمؤسساتها، من خلال تفعيل الآليات القانونية لمحاربة هذه الظاهرة الخطيرة، وتحريم كل مظاهرها، والضرب بقوة على أيدي المفسدين².”

في ظل ذلك تكتسي الصفقات العمومية أهمية بالغة في عصرنا الحالي، ليس فقط بالنظر إلى كونها إحدى أهم الآليات القانونية التي تلجأ إليها الإدارة بشكل متواتر بغرض صرف الاعتمادات المخصصة لها قصد تلبية مختلف حاجياتها التي تفرضها المصلحة العامة، وتتطلبها ضرورات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وإنما أيضا بالنظر إلى كونها صارت تشكل مكونا أساسيا من مكونات النشاط الاقتصادي، إذ إن بعض القطاعات الاقتصادية تعتمد بشكل شبه كامل على هذا النوع من الصفقات، كما هو الحال في قطاع البناء والأشغال العمومية (70% من حجم المعاملات) وقطاع الدراسات والهندسة (80% من رقم المعاملات)³.

ولتوضيح ذلك فقد أصدرت منظمة Transparency International تقريرا بخصوص ظاهرة الرشوة في القطاع العام بالمغرب، صنفت فيه مجال الصفقات العمومية كواحد من المجالات الأكثر عرضة لهذه الآفة إلى جانب مجالات حيوية أخرى كالقضاء والأمن والصحة العمومية... وهذا أمر طبيعي بالنظر إلى الاعتمادات الضخمة التي ترصدها الدولة لهذا المجال. علما أن الصفقات العمومية تمثل أكثر من 15% في الناتج الإجمالي الخام وهي تفوق ما تمثله في بعض الدول المتقدمة كفرنسا مثلا التي لا تتعدى فيها مساهمة الصفقات العمومية نسبة 12%⁴.

ونظرا لما تكتسبه الصفقات العمومية من أهمية بالغة، فقد حظيت باهتمام تشريعي خاص، تجلّى في سلسلة من التعديلات القانونية والمؤسسية توجت بصدر مرسوم 9 مارس 2023 المتعلق بالصفقات العمومية⁵، بالإضافة إلى مراجعة عدد من النصوص التشريعية والتنظيمية ذات الصلة، وذلك كله سعيا إلى تحسين حكامه وإبرامها، تنفيذها، مراقبتها ونجاعتها، وتأمين حسن استعمال المال العام وجعلها رافعة لتحقيق التنمية المستدامة، انسجاما مع مقتضيات الدستور خاصة الفصل 36 منه " يعاقب القانون على

1- مكسب حرام غير مشروع.

2 خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس بمناسبة ذكرى عيد العرش الرباط 30 يوليو 2016.

3 مجلة دراسات قانونية واقتصادية، مؤلف جماعي، حكام الصفقات العمومية بالمغرب الفرص والمخاطر، 2023، ص 10.

4 Maroc : diagnostic du cadre anti-corruption : promotion de la corruption et la bonne gouvernance ; lutte contre le blanchiment de l'argent, activité cordonnée par l'Instance Centrale de Prévention de la corruption-ICPC, Maroc, SNAC Maroc TP 4/2013, page 30.

5 المجريدة الرسمية عدد 7176 بتاريخ 16 شعبان 1444 9 مارس 2023

المخالفات المتعلقة بحالات تنازع المصالح، وعلى استغلال التسيريات المخلة بالتنافس النزيه، وكل مخالفة ذات طابع مالي على السلطات العمومية الوقاية، طبقا للقانون، من كل أشكال الانحراف المرتبطة بنشاط الإدارات والهيئات العمومية، وكذلك باستعمال الأموال الموجودة تحت تصرفها، وإبرام الصفقات العمومية وتديرها، والزجر عن هذه الانحرافات.

وبذلك شكلت الوثيقة الدستورية أساسا لربط المسؤولية بالمحاسبة في تدبير الشأن العام، وألزمت السلطات العمومية بالوقاية، من كل أشكال الانحراف المرتبطة بإبرام الصفقات العمومية، وزجر المخالفين لمقتضاياتها خاصة ما يتعلق بجريمة الرشوة.

وتجدر الإشارة إلى أن المادة الأولى من القانون المنظم للصفقات العمومية تنص على أن إبرام هذه الصفقات يخضع لجملة من المبادئ الأساسية، أبرزها: حرية اللوج، المساواة في المعاملة بين المتنافسين، ضمان حقوقهم، ثم الشفافية في اختيار العرض الأفضل. كما تؤكد المادة ذاتها على ضرورة احترام مبدأ النزاهة، ومبادئ الحكامة الجيدة.

وتهدف هذه المبادئ إلى تأمين فعالية الصفقات العمومية وضمان حسن استعمال المال العام، وذلك من خلال تحديد دقيق ومسبق للاحتياجات، والالتزام بإشهار الصفقات سواء عن طريق الجرائد المختصة أو على المواقع الإلكترونية، واللجوء إلى المنافسة الشفافة، واختيار العرض الأكثر جدوى من الناحية الاقتصادية.

ولالإحاطة بهذا الموضوع من مختلف جوانبه، يطرح تساؤل محوري يتعلق بطبيعة جريمة الرشوة وأركانها، خاصة من منظورها القانوني، بالموازاة مع صورها وعقوباتها في مجال الصفقات العمومية خاصة من زاوية التطبيق العملي، مدعومة بأحكام وقرارات قضائية ذات صلة. الأمر الذي يثير إشكالية محورية، حول مدى فعالية ونجاعة الآليات المعتمدة من طرف المشرع في مكافحة فساد مجال الصفقات العمومية.

وتتفرع عن هذه الإشكالية التساؤلات التالية:

ما هي الطبيعة القانونية لجريمة الرشوة؟

ما المقصود بجريمة الرشوة في مجال الصفقات العمومية؟

ما هي أبرز صور وآثار هذه الجريمة في هذا المجال؟

ما هي مراحل الصفقات العمومية التي يمكن أن تكون موضوعا لجريمة الرشوة؟

وما هي العقوبات التي أقرها المشرع المغربي للحد منها والقضاء عليها؟

المبحث الأول: ماهية جريمة الرشوة في الصفقات العمومية

تعد جريمة الرشوة من أخطر الجرائم التي تهدد نزاهة الصفقات العمومية وعدم الثقة الاستثمارية للدولة، إذ لا تقتصر آثارها على مجرد الإضرار بالوظيفة العامة واستغلالها، بل تمتد لتشمل أنماطا متعددة من السلوكيات الإجرامية المرتبطة بها، والتي تؤدي إلى الإضرار غير المشروع لفئة معينة على حساب المصلحة العامة، وتنوعت التعريفات الفقهية والقانونية لهذه الجريمة، كما تباينت المقاربات المعتمدة في العمل القضائي بشأنها.

وفي هذا المبحث، سنعالج الإطار المفاهيمي لكل من جريمة الرشوة ومفهوم الصفقات العمومية، عبر مطلبين: نخصص المطلب الأول لعرض تعريف لمصطلح الرشوة، فيما سنتناول في المطلب الثاني المفهوم القانوني والتنظيمي للصفقات العمومية.

المطلب الأول: الإطار المفاهيمي للرشوة في الصفقات العمومية

تعد الرشوة من أبلغ مظاهر الفساد وأخطر أمراض العصر التي تصيب ميدان الصفقات العمومية، إذ تمثل سلوكا ينال من هيبة الدولة ويقوض مصداقيتها، كما يلحق ضررا بالغا بالمصلحة العامة برمتها.¹ وبالرجوع إلى التشريع المغربي، يتضح أن المشرع لم يقدم تعريفا صريحا لجريمة الرشوة، بل اكتفى بتنظيمها ضمن الفصول 248 و249 من مجموعة القانون الجنائي.

وعليه، ينقسم مفهوم الرشوة إلى معنيين رئيسيين: أولهما المفهوم الضيق، الذي يعرف الرشوة بأنها "سلوك يروم استمالة موظف أو عون عمومي من خلال تقديم مقابل مادي"². أما المعنى الثاني، وهو أوسع وأقرب للطرح الفقهي، فينظر إلى الرشوة بوصفها تعسفا في استعمال سلطة عمومية لتحقيق منافع شخصية أو مصالح لفئة معينة، وهو ما يتقاطع مع تعريف القانون المصري الذي اعتبر الرشوة على أنها "اتجارا من قبل الموظف العام في سلطته، سواء للقيام بعمل أو الامتناع عنه، في الأعمال التي تدخل في نطاق وظيفته"³.

ويتضمن مفهوم الرشوة عدة تعاريف، سواء من الناحية اللغوية أو الاصطلاحية والقانونية:

1- الرشوة لغة:

هي بكسر الراء والضم، ونقل عن "ابن سيويو في كتاب لسان العرب" أن الرشوة في الأصل مأخوذة من رشا الفرخ إذا مد رأسه إلى أمه لتطعمه وفي معنى آخر: أعطاه، والمرشاة بمعنى المحاباة، وأكثر العرب يقول: رشى رشاه رشوا: أي أعطاه الرشوة، وتأني بمعنى الجعل والإعطاء والوصول إلى الحاجة بالمصانعة.

2- الرشوة في الاصطلاح:

مما يلزم التنبيه إليه هو أن ما لا يوجد له معنى دقيق في اللغة لا يتأتى وجود معنى دقيق له في الاصطلاح؛ لأن المعنى اللغوي أسبق في الوضع والاستعمال؛ فإذا جاء الشرع نقل المعنى اللغوي إلى الاستعمال الشرعي مع زيادة شروط ووضع قيود شرعية. ومن هذا المنطلق اختلف في تعريف الرشوة اصطلاحا فقي على أنها:

أ - ما يؤخذ بغير عوض ويعاب أخذه.

ب - وقيل: كل مال دفع لبيتاع به من ذي جاه عوننا على ما لا يحل.

ج - الرشوة ما يعطى بعد طلبه، والهدية ما يدفع إليه ابتداء⁴

3-التعريف القانوني:

اختلفت التعريفات فيما يخص تعريف جريمة الرشوة، فالمشرع المغربي لم يقدم تعريفا صريحا لجريمة الرشوة بل اكتفى بتنظيمها بنصوص خاصة في الفصول من 248 إلى 256 ق.ج⁵، لهذا يجب الركون إلى بعض التعاريف التي وضعها الفقه، وإن كان جلها

¹ أحمد جويد، جريمة رشوة الموظف العمومي في التشريع المغربي. الطبعة الأولى 1983، دار الرشد الحديثة الدار البيضاء، ص11

² Jean-Louis CHARTIER, les collectivités locales et la corruption, revue française des finances publiques n°69-mars 2000, page62

³ وليد محمد علي كرسون: الحماية المدنية والجنائية للمال العام، دراسة مقارنة، دار الفكر الجامعي الإسكندرية، 2016، ص 161

⁴ عطية بن محمد سالم، الرشوة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1999، ص 4

⁵ يعد مرتكبا لجريمة الرشوة ويعاقب بالحبس من سنتين إلى خمس سنوات وبغرامة من خمسة آلاف درهم إلى مائة ألف درهم من طلب أو قبل عرضا أو وعدا أو طلب أو تسلم هبة أو هدية أو أية فائدة أخرى من أجل:

يتفق في العناصر المكونة للجريمة لتعريف جريمة الرشوة ، و بهذا فهي تعني: اتجار الموظف العمومي بأعمال الوظيفة او الخدمة التي يعهد إليه بمناسبة قيامه بها للصالح العام، وذلك تحقيق مصلحة خاصة له.¹

وبالرجوع إلى الفقه الجنائي نجد جانبا منه قد عرف الرشوة بأنها "اتفاق بين شخصين، صاحب المصلحة وموظف أو مكلف بخدمة عامة على فائدة أو منفعة مقابل عمل أو امتناع عن عمل يدخل في اختصاص الموظف أو مأموريته². كما عرفت بأنها "اتفاق بين شخص (مستفيد) وموظف أو من في حكمه على تحديد فائدة مقابل أداء عمل أو الامتناع عن عمل يدخل في وظيفة المرتشي أو مأموريته³.

ثانيا: صور الرشوة في الصفقات العمومية

تتخذ الرشوة في مجال الصفقات العمومية، صورا متعددة، كما أنها تشمل جميع مراحل الصفقات العمومية ويمكن إبراز أهم هذه الصور كما يلي:

1. أثناء التحضير للصفقة :

يمكن للراشي والمرتشي بالاتفاق على القيام بمجموعة من الأفعال او الامتناع عن ذلك، في بداية الاعداد الاولى للصفقة العمومية والتي يمكن ان تكون موضوعا للفساد المال ومن بينها:

- إعداد دفاتر التحملات بشكل يفضي إلى تقييد المنافسة، عبر توجيه المواصفات نحو متنافسين بعينهم.
- إدراج شروط محففة في مواجهة أطراف محددة قصد إقصائهم.
- اختيار متنافسين صوريين أو غير مؤهلين، ممن يعجزون عن تقديم عروض جدية، وذلك لإضفاء طابع شكلي على المنافسة.

2. على مستوى اختيار المتنافسين:

تعد هاته المرحلة مرتعا لحدوث أعمال الفساد والاختلالات. ويقع هذا حينما تجد مقاولات غير مؤهلة أو لا تملك التجربة الكافية ضمن لائحة المتنافسين المختارين من قبل صاحب المشروع. والسبب في ذلك يعزى إلى وجود ثغرات متعددة تتجلى إما في معايير المشاركة التي قد تكون انتقائية أو تحدد مواصفات قد تكون وجيهة وقد لا تكون كذلك بحيث لا يتم تلبيتها إلا من قبل عدد محدود من المتنافسين. وقد تعزى إلى وجود مواد غامضة، أو بسبب غموض بعض شروط طلب العرض، وغير مفسرة بشكل جيد.

1- القيام بعمل من أعمال وظيفته بصفته قاضيا أو موظفا عموميا أو متوليا مركزا نيابيا أو الامتناع عن هذا العمل، سواء كان عملا مشروعاً أو غير مشروع، طالما أنه غير مشروط بأجر. وكذلك القيام أو الامتناع عن أي عمل ولو أنه خارج عن اختصاصاته الشخصية إلا أن وظيفته سهلت له أو كان من الممكن أن تسهله.

2- إصدار قرار أو إبداء رأي لمصلحة شخص أو ضده، وذلك بصفته حكما أو خيرا عينته السلطة الإدارية أو القضائية أو اختاره الأطراف.

3- الانحياز لصالح أحد الأطراف أو ضده، وذلك بصفته أحد رجال القضاء أو الخلفين أو أحد أعضاء هيئة المحكمة.

4- إعطاء شهادة كاذبة بوجود أو عدم وجود مرض أو عاهة أو حالة حمل أو تقديم بيانات كاذبة عن أصل مرض أو عاهة أو عن سبب وفاة وذلك بصفته طبيبا أو جراحا أو طبيب أسنان أو مولدة.

إذا كانت قيمة الرشوة تفوق مائة ألف درهم تكون العقوبة السجن من خمس سنوات إلى عشر سنوات والغرامة من مائة ألف درهم إلى مليون درهم، دون أن تقل قيمتها عن قيمة الرشوة المقدمة أو المعروضة.

1 فروح عبد الله الشاذلي، قانون العقوبات الخاص، الميزة بالمصلحة العامة، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، 2009، ص 19

2 د. جمال إبراهيم الحيدري شرح أحكام القسم الخاص من قانون العقوبات مكتبة السنهوري، بيروت، 2015، ص 66.

3 د. سعد صالح، شكلي دراسات معمقة في القانون الجنائي، ط 1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012، ص 130.

وقد يترتب عن هذا كله إما إقصاء لعدد مهم من المتنافسين، مما يؤدي إلى رسو الصفقة العمومية فقط على المتنافسين الذين لهم دراية بتلك البنود أو الشروط. بل قد ينتج عن ذلك لجوء الإدارة المتعاقدة

في حالة عدم الاستجابة لهذه الشروط، إلى سلك المسطرة التفاوضية التي تتيح للمسؤولين فيها هامشا أوسع وإلى مزيد من السلطات التقديرية.

3. على مستوى طلبات العروض:

تلجأ الإدارة حسب طبيعة الصفقات إلى إبرام صفقاتها دون اللجوء إلى الدعوة إلى المنافسة، كما هو الحال مثلا بالنسبة للمسطرة التفاوضية.¹ ومؤكد أن مثل هذه المسطرة تبررها اعتبارات عديدة منها الطابع الاستعجالي أو مبررات تتعلق بالدفاع الوطني. وكما هو معلوم فمثل هذه صفقات تحتوي على مبالغ ضخمة مما يجعل المقاولات أكثر انجذابا لها حيث غالبا ما يطغى على اختيارات المسؤولين عند إبرام هذا النوع من الصفقات المعايير الشخصية في غياب معايير موضوعية أو مراقبة. كما أن نسج علاقات دائمة مع مورد معين قد يؤدي إلى استفادة هذا الأخير من صفقات منتظمة مقابل هدايا شخصية.

المطلب الثاني: أركان جريمة الرشوة في الصفقات العمومية

جريمة الرشوة هي جريمة عمدية، يشترط فيها توافر القصد الجنائي لدى الجاني، ولذلك يجب أن يكون المرتشي مدركا وقت الطلب أو قبول الوعد أو أخذ المنفعة، للقيام بعمل أو امتناع مما يدخل في وظيفته، أي أن تكون لديه نية الاتجار في وظيفته أو عمله، بل يسأل الموظف الذي يخل بواجبات وظيفته جنائيا حتى ولو لم توجد لديه نية الاتجار بها. لأنه يكفي مجرد استغلال الوظيفة قصد الحصول على فائدة غير مشروعة من ورائها.

ونجد الفصل 248 من القانون الجنائي ينص على أنه: "يعتبر مرتكبا لجريمة الرشوة ويعاقب بالحبس من سنتين إلى خمس سنوات وغرامة من 250 إلى 5000 درهم، من طلب أو قبل عرضا أو وعدا أو طلب أو تسلم هدية أو أية فائدة أخرى.

و بهذا تعتبر جريمة الرشوة² في صورتها العامة من الجرائم الى نظامها المشرع المغربي مند صدور اول قانون جنائي ، بالنظر لما تشكله من تهديد للثقة العامة، و مساسا بنزاهة الإدارة، و مساهمة في ضياع حق كثير من افراد المجتمع، مما يخل بميزان العدالة و مبادئ المنافسة، الأمر الذي يقتضي تحليل الأركان القانونية لجريمة الرشوة من خلال ملامسة العناصر والاركان التي تقوم عليها هذه الجريمة .و تقتضي جريمة الرشوة باعتبارها من جرائم استغلال الوظيفة العمومية، وجود شخصين في تنفيذها هما: المرتشي وهو صاحب المشروع الإجرامي والراشي وهو الوسيلة والاداة المنفذة للرشوة عن طريق شراء ذمة الموظف أو من في حكمه غير أنه في بعض الحالات قد يوجد طرف ثالث يعمل على ربط جسور الصلة بين المرتشي والراشي وهو الوسيط.

أولا: شرط الصفة

تعتبر الرشوة من جرائم ذوي الصفة، أي الجرائم التي لا يمكن تصور وقوعها، إلا إذا توافرت فيمن يرتكبها الصفة التي يشترطها القانون، إضافة إلى ذلك يجب أن يكون الشخص مختصا بالعمل أو الامتناع عن العمل الذي ارتشى من أجله أو تلقى المقابل للقيام به أو الامتناع عن ذلك، أو أن تكون الوظيفة التي يقوم بها قد سهلت له القيام بذلك.

1 ظهر الصفقات العمومية، الجريدة الرسمية عدد 7176 بتاريخ 9 مارس 2023 المرسوم رقم 2.22.431 الصادر في 15 شعبان 1444 الموافق ل 8 مارس 2023، طرق ابرام الصفقات، المادة 19

2 : احمد فتحي سرور. مدخل الى الأسس العامة للقانون الجنائي المغربي، ج 1 ص 24، دار الامان - الطبعة 1، 2003

ولقيام هذا الشرط، لا بد من توافر مجموعة من الشروط وهي:

1- أن يكون المرتشي ممن يمكنهم ارتكاب (جريمة المرتشي)

حدد القانون الجنائي طائفة الأشخاص الممكن أن يتركبوا جريمة المرتشي في: الموظفين العموميين، القضاة المحلفون و أعضاء هيئة المحكمة، المحكومون الخبراء، الممولون لمراكز نيابية، العمال والمستخدمون والموكلون.¹

بالنسبة للموظف العمومي، قد يظهر للوهلة الأولى أن تحقق هذا المقتضى أو الشرط لا يطرح أي إشكال يمكن أن يثار، لكن الحقيقة غير ذلك مادام أن تطبيقه في المجال العملي لا يخلو أحيانا من إثارة بعض الصعوبات ويرجع ذلك بالأساس إلى أن تعريف الموظف العمومي، وتحديد فكرة الاختصاص في مجال الوظيفة من المقتضيات التي يختص بتنظيمها القانون الإداري وليس القانون الجنائي وأن أشار إلى ذلك.

و يتنازع تعريف الموظف العمومي في القانون المغربي تعريفان، الأول هو ما جاء به القانون الإداري بمقتضى ظهير 24 فبراير 1958 المتعلق بالنظام الأساسي للوظيفة العمومية وذلك في المادة الثانية منه والتي جاء فيها. "يعد موظفا عموميا كل شخص يعين في وظيفة قارة و يرسم في إحدى رتب السلم الخاص بإسلاك الإدارة التابعة للدولة"

و التعريف الثاني ما جاء به الفصل 248 من القانون الجنائي المغربي على أنه "يعد مرتكبا لجريمة الرشوة ويعاقب بالحبس من سنتين إلى خمس سنوات وبغرامة من خمسة آلاف درهم إلى مائة ألف درهم من طلب أو قبل عرضا أو وعدا أو طلب أو تسلم هبة أو هدية أو أية فائدة أخرى"²

ثانيا: الركن القانوني

أضفى المشرع الجنائي المغربي الطابع الإجرامي على جريمة الرشوة من خلال تخصيص نصوص قانونية تجرم هذا الفعل، مع تمييزه بين الرشوة التي يرتكبها الموظف العمومي أو من في حكمه والتي نظمها في الفصلين 248 و 249 من القانون الجنائي - وبين تلك التي يرتكبها غيرهم من الأشخاص، كما هو الشأن بالنسبة للراشي، والتي خصص لها الفصل 251 من نفس القانون.

ومن خلال تحليل الفصلين المذكورين، يتبين أن جريمة المرتشي تعد من جرائم الصفة، إذ لا يمكن قانونا أن تسند إلا إلى فئات محددة من الأشخاص نص عليها المشرع على سبيل الحصر، غير أن توافر الصفة وحده لا يكفي لقيام الجريمة، بل لا بد أن يكون الفاعل مختصا بالعمل أو الامتناع الذي تلقى مقابله منفعة، وأن تكون الوظيفة التي يشغلها قد يسرت له ارتكاب الفعل الإجرامي أو هيأت له ظروفه.

1 كل قاض، أو موظف عمومي، أو أحد رجال أو مفوضي السلطة أو القوة العمومية يأمر أو يباشر بنفسه عملا تحكيميا، ماسا بالحريات الشخصية أو الحقوق الوطنية لمواطن أو أكثر يعاقب بالتجريد من الحقوق الوطنية .

لكن إذا أثبت أنه تصرف بناء على أمر صادر من رؤسائه في مادة تدخل في نطاق اختصاصهم ويوجب عليه طاعتهم، فإنه يتمتع بعذر معف من العقاب، وفي هذه الحالة تطبق العقوبة على الرئيس الذي أصدر الأمر وحده.

وإذا كان العمل التحكيمي أو المساس بالحرية الفردية قد ارتكب أو أمر به لغرض ذاتي أو بقصد إرضاء أهواء شخصية، طبقت العقوبة المقررة في الفصول 436 إلى 440. كل قاض، أو موظف عمومي، أو أحد رجال أو مفوضي السلطة أو القوة العمومية يأمر أو يباشر بنفسه عملا تحكيميا، ماسا بالحريات الشخصية أو الحقوق الوطنية لمواطن أو أكثر يعاقب بالتجريد من الحقوق الوطنية . لكن إذا أثبت أنه تصرف بناء على أمر صادر من رؤسائه في مادة تدخل في نطاق اختصاصهم ويوجب عليه طاعتهم، فإنه يتمتع بعذر معف من العقاب، وفي هذه الحالة تطبق العقوبة على الرئيس الذي أصدر الأمر وحده.

وهذا يعني أن الرشوة تندرج ضمن الجرائم الماسة بالمال العام، وخطورتها تكمن في كونها ليست جريمة عابرة وإنما هي جريمة متكاملة الأركان ومعد لها بعناية من قبل الشخص المرتكب لها. هذا الأخير، قبل أن يتخذ قراره باللجوء إليها يكون قد قام بعملية موازنة دقيقة بين الربح الذي سيجنيه من ورائها والمخاطر التي سيتعرض إليها في حالة ما افتضح أمره. كما أن خطورتها تتمثل في كونها تؤدي إلى الإخلال بالثقة العامة لأنها تنحرف بسلوك الموظف أو المكلف بخدمة ذات مصلحة عامة، وتجعله يخل بواجباته ويتحيز في أدائها، أو على الأقل لا يؤديها إلا بمقابل، ولا شك أن هذا التصرف من المكلفين بالمرافق والخدمات العامة يقضي على ثقة الأفراد بأجهزة الإدارة ومرافقها، ويزعزع اطمئنانهم للوصول إلى حقوقهم ونيل الخدمات التي يوفرها القانون لفائدتهم.

ثالثا: الركن المادي

يعد الركن المادي جوهر جريمة الرشوة¹، فلا يلزم لقيام ركنها المادي توافر العناصر الثلاثة المستلزم توافرها في جرائم النتيجة (النشاط الإجرامي، النتيجة والعلاقة السببية بينهما)، وبالتالي فالركن المادي لهذه الجريمة يتمثل في نشاط إجرامي يصدر عن موظف عام مختص وينصب على هدية أو وعد بها أو أية منفعة أخرى يتسلمها من صاحب المصلحة أو الحاجة نظير قيامه بعمل أو الامتناع عن القيام بعمل من أعمال وظيفته.

وبما أن المشرع المغربي قد فصل بين جريمة المرتشي وجريمة الراشي فإننا سنحاول دراسة الركن المادي لكل واحد منهما على حدى:

الفرع الثاني: الركن المادي في جريمة المرتشي

يتحقق الركن المادي لجريمة الرشوة في حق الموظف العمومي من خلال أفعال مادية واضحة، نص عليها المشرع المغربي في الفصلين 248 و 249 من القانون الجنائي، وتتمثل أساسا في طلب أو قبول أو تسلم مقابل غير مشروع، سواء كان مالا، أو وعدا، أو هبة، أو فائدة عينية، نظير القيام بعمل يدخل ضمن اختصاصه أو الامتناع عنه. ويُعد ارتكاب أي من هذه الأفعال كافيا لقيام الركن المادي، دون حاجة لتمام الفعل أو تحقق النتيجة.

وتتمثل أبرز صور هذا الركن فيما يلي:

1: طلب عرض

الطلب هو تعبير عن إرادة منفردة من جانب الموظف متجهة إلى الحصول على مقابل نظير أداء العمل الوظيفي.² وهي تقوم بمجرد حصول الطلب من جانب الموظف مقابل القيام بعمل أو الامتناع عنه، بغض النظر عن موقف الموجه له الطلب³ ولو رفض صاحب الحاجة الاستجابة لطلبه، ولا يهم أن يكون الموظف قد طلب المنفعة لنفسه أو لغيره كما لا يهم أن يرد الطلب على منفعة معروضة أو ينصرف على مجرد الوعد بها ولو لم يحصل عليها الموظف بالفعل، والعلة من تجريم هذا الطلب هي أن الموظف عرض عمله الوظيفي للإتجار،

¹ أبو مسلم الخطاب، المختصر في جرائم الأموال دراسة تحليلية ونقدية في ظل القانون المغربي والقانون المقارن، مكتبة الرشاد سطات، 2020 ص 56

² - سعاد حميدي. الوجيز في شرح القانون الجنائي الخاص. سليكي طنجة، ص 23، الطبعة الثانية مارس 2003

³ عبد الواحد العلمي شرح القانون الجنائي المغربي. القسم الخاص الطبعة السادسة، 2013 ص. 134

والمشروع هنا لم يفرق بين عرض للإتجار والإتجار الفعلي، والطلب بهذا الشكل يعتبر أدنى مراحل ارتكاب جريمة الرشوة، لأنه بعد تلبية الطلب قد يقنع المرتشي بعرض الراشي، وبما اقترن به من شروط وقد لا يوافق عليه فيستمر التفاوض إلى أن يتم الاتفاق على المقابل من حيث المقدار والنوع وكيفية القبض وزمانه وغير ذلك.

2: طلب وعد

قد يتخذ هذا الطلب صورة طلب الوعد بمقابل، والموظف هو الذي يحدد هذا المقابل، كأن يطلب المرتشي من الراشي أن يحدد له مبلغا معيناً من المال، أو بتقديم مساعدة معينة كالوعد بوظيفة أفضل أو الحصول على امتيازات محددة وغير ذلك.

3: طلب هبة أو أية فائدة أخرى

تم التنصيص عليها في الفصل 248 ق.ج وهي طلب هبة أو هدية أو أية فائدة أخرى، وهذه الصورة في جريمة الرشوة هي التي يطلق عليها "الرشوة المعجلة" وهي الصورة الغالبة والعادية وصورتها أن المرتشي يتقاضى عادة ثمنا معجل نظير قيامه بالعمل أو الامتناع عنه، ويختلف طلب الهبة عن طلب العرض حيث أن المرتشي في الحالة الأولى، يعين نوع الرشوة ووقت دفعها، في حين في الحالة الثانية لا يعينها.

4: القبول

هو نشاط سلمي، يفترض أن يسبقه عرض للرشوة من صاحب الحاجة أي هو تعبير عن إرادة متجهة إلى تلقي المقابل نظير القيام بالعمل الوظيفي،¹ وسواء كان العرض جديا أو غير ذلك كأن ينوي الراشي تبليغ السلطات لضبط المرتشي متلبسا بجريمة الرشوة. أما القبول فيجب أن يكون جديا من طرف المرتشي والذي يتحقق بصدور سلوك من الموظف يدل على قبوله المنفعة مقابل القيام بعمل أو الامتناع عنه، سواء كان هذا القبول تصريحاً صريحا أو ضمنيا كتابيا أو شفويا.²

5: التسليم

يتحقق التسليم بأخذ الموظف المقابل الذي تم الاتفاق عليه بينه وبين صاحب المصلحة. سواء كان التسليم حقيقيا أو رمزيا كما في الحالات التي يسلم أو يأخذ فيها الموظف من صاحب الحاجة مفتاح منزل أو مفتاح سيارة أو غيرها مما يجعله موضوعا للرشوة³، و تعتبر هذه الصورة هي من أخطر صور الركن المادي لجريمة الرشوة على الإطلاق لكون الموظف فيها غالبا ما يشترط تسلم المقابل قبل انجازه للعمل أو الامتناع عنه. ويفهم من لفظ التسليم هو أن يكون ما يحصل⁴ عليه الموظف كمقابل له طابع مادي كالنقد أو عيني كالملابس أو ساعات إلخ. وقد يكون له طابع منفعة شخصية حينئذ يكون التسليم متحققا بمجرد التمكن من المنفعة.⁵

¹ عبد الواحد العلمي، مرجع سابق ص. 136

² سعاد حميدي - مرجع سابق - ص 84

³ أبو مسلم الخطاب، الوجيز في الجرائم المالية دراسة تحليلية ونقدية في ظل القانون المغربي والمقارن، مطبعة الأمانة، 2013 ص 51

5 يعد مرتكبا لجريمة الرشوة ويعاقب بالحبس من سنتين إلى خمس سنوات وبغرامة من خمسة آلاف درهم إلى مائة ألف درهم من طلب أو قبل عرضا أو وعدا أو تسلم هبة أو هدية أو أية فائدة أخرى من أجل:

1 - القيام بعمل من أعمال وظيفته بصفته قاضيا أو موظفا عموميا أو متوليا مركزا نيابيا أو الامتناع عن هذا العمل، سواء كان عملا مشروعاً أو غير مشروع، طالما أنه غير مشروط بأجر. وكذلك القيام أو الامتناع عن أي عمل ولو أنه خارج عن اختصاصاته الشخصية إلا أن وظيفته سهلت له أو كان من الممكن أن تسهله.

2 - إصدار قرار أو إبداء رأي لمصلحة شخص أو ضده، وذلك بصفته حكما أو خبيرا عينته السلطة الإدارية أو القضائية أو اختاره الأطراف.

3 - الانحياز لصالح أحد الأطراف أو ضده، وذلك بصفته أحد رجال القضاء أو المخلفين أو أحد أعضاء هيئة المحكمة.

وقد يكون التسلم واقعا بعد انجاز العمل أو الامتناع عنه، كما يمكن أن يصل من الراشي نفسه أو عن طريق وسيط الذي تم تكييفه على أنه مشترك في جريمة الرشوة طبقا لأحكام الفصل 129 من ق.ج.

الفرع الثالث: الركن المادي في جريمة الراشي

يتخذ الركن المادي لهذه الجريمة ثلاث صور: استعمال العنف أو التهديد، تقديم الوعد أو العرض ثم الاستجابة لطلب الرشوة وهي التي نص عليها المشرع في الفصل 251 من ق.ج. وسيتم تناول هذه الصور من خلال النقاط التالية:

1: استعمال العنف أو التهديد

هذه الصورة تتحقق عندما يكره الراشي الموظف العمومي على مخالفة واجباته الوظيفية والإلتزام بها، كتهديده، بحرق ممتلكاته أو قتل زوجته أو أطفاله...، والمشرع لم يحدد وسائل العنف أو التهديد ولا درجتهما في هذه الصورة، حيث إن الركن المادي يتحقق بمجرد وجود إكراه مستعمل على الموظف يحمله على القيام بعمل أو الامتناع عنه يدخل في إطار وظيفته ماديا كان أو معنويا لصالح الراشي.

أما إذا أكره الموظف على القيام بعمل أو الامتناع عنه لا يدخل في اختصاصه فالجريمة لا تقوم، كما أن الوسائل المستعمل في الإكراه يجب أن تكون غير مشروعة كقتل الولد أو الزوج... أو أي اعتداء مادي، أما إذا كان الإكراه مشروع كرفع شكاية ضد الموظف لرؤسائه... إلخ، فالركن المادي لا يقوم في هذه الجريمة.

2: تقديم عرض أو وعد

يكفي في هذه الصورة التي يتحقق بها الركن المادي، بأن يقدم الراشي للموظف العمومي عرضا أو وعدا من أجل الإلتزام بوظيفته، وهذا التقديم للعرض أو الوعد من طرف الراشي يكون كافيا لإدانته سواء قبل الموظف المختص بالعمل أو الامتناع أو امتنع أو رفض، شريطة أن يكون العرض أو الوعد جديا ويهدف ورائه الحصول على مصلحة معينة. أما إذا كان هدف العارض كشف الموظف أمام الشرطة متلبسا فإن الركن المادي لا يقوم وبالتالي لا تتحقق الجريمة.

3: الاستجابة لطلب الرشوة

تتحقق هذه الصورة عندما يقبل الراشي تنفيذ ما طلبه الموظف المرتشي، ويمتنحه المقابل المالي أو العيني المطلوب، سواء بشكل مباشر أو عن طريق وسيط. ويعد الراشي، في هذه الحالة، مساهما مباشرا في الجريمة، ويخضع للعقوبات المنصوص عليها في الفصل 251 من القانون الجنائي، بل ويكيف سلوكه كعنصر فاعل في الرشوة.

4 - إعطاء شهادة كاذبة بوجود أو عدم وجود مرض أو عاهة أو حالة حمل أو تقديم بيانات كاذبة عن أصل مرض أو عاهة أو عن سبب وفاة وذلك بصفته طبيبا أو جراحا أو طبيب أسنان أو مولدة.
إذا كانت قيمة الرشوة تفوق مائة ألف درهم تكون العقوبة السجن من خمس سنوات إلى عشر سنوات والغرامة من مائة ألف درهم إلى مليون درهم، دون أن تقل قيمتها عن قيمة الرشوة المقدمة أو المعروضة.

رابعا: الركن المعنوي

تعد الرشوة من الجرائم العمدية التي لا تقوم إلا بتوافر القصد الجنائي، وهو ما يقتضي وجود نية إجرامية متعمدة من قبل الجاني، تنصرف إلى تنفيذ عمل مخالف للقانون، أو الامتناع عنه، تحقيقا لمصلحة خاصة.

وبالنسبة للمرتشي، يشترط أن تتجه نيته للإتجار بوظيفته و أن يكون مدركا وواعيا وقت الطلب أو القبول أو التسليم و أن هذا الثمن هو مقابل قيامه بعمل أو الامتناع عنه والذي يدخل ضمن وظيفته كما أنه مجرد استغلال الموظف لوظيفته للحصول على فائدة غير مشروعة من ورائها، حتى وإن لم تتوافر لديه نية الإتجار بالوظيفة، فهو يسأل جنائيا متى توافر له عنصر العلم والإرادة¹. أما إذا وضع صاحب الحاجة (الراشي) مبلغا من النقود في درج مكتبه دون علمه فلا يتحقق هنا القصد الجنائي للموظف وعلى من ادعا الإثبات.

أما بالنسبة للراشي فيلزمه أيضا القصد الجنائي القائم على العلم والإدراك بأن يتجه بفعله إلى الموظف العمومي أو من يكون في حكمه، لكي يجبره أو يكرهه أو بوعد أو طلب على القيام بعمل أو الامتناع عنه.

حيث أن الراشي يجب أن تتجه إرادته إلى إحداث الفعل المادي وتوقع نتيجته. والملاحظ أن إثبات القصد الجنائي في هذه الجريمة ليس بالأمر الهين، خاصة حينما تقوم الرشوة على وعد شفوي، ويمكن إثبات نتيجته بجميع طرق الإثبات كالإقرار والشهادة والقرائن التي تستنتج من الظروف والملابسات من كل نازلة.

المبحث الثاني: أثر وعقوبة جريمة الرشوة في الصفقات العمومية

تعتبر إشكالية غياب الشفافية وتفشي مظاهر الفساد، في مقدمتها جريمة الرشوة في مجال حساس وخطير كمجال الصفقات العمومية، لا يعتبر خاصية تنفرد بها الدول النامية فقط، بل تعاني منه حتى الدول المتقدمة وإن لم يكن بنفس الحدة والخطورة بالنسبة للمغرب، وبناء على التقرير الذي قدمته منظمة الشفافية الدولية احتل المرتبة 94² عالميا (من أصل 180 دولة) محصلا نقطة لم تتجاوز 38/100،

وتقهقر المغرب ب 7 درجات بين سنتي 2021 و 2022، حيث كان ترتيبه 87 سنة 2021 (من أصل 180 دولة) بتنقيط 39/100، وقد بدأ الانحدار منذ سنة 2019، حيث انتقل الترتيب على التوالي من 80 (سنة 2019) إلى 86 (سنة 2020) ثم 87 (سنة 2021) ليصل سنة 2022 إلى 94، وينتج على هاته الجريمة كمظهر من مظاهر الفساد أثار وعقوبات أكد عليها المشرع في نصوصه القانونية نتيجة لهذا الفعل الجرمي المشين.

المطلب الأول: أثر جريمة الرشوة على الصفقات العمومية.

لا تقتصر ظاهرة الرشوة في مجال الصفقات العمومية على مرحلة معينة، بل تمتد من التخطيط الأولي إلى تنفيذ المشروع ومراحل الرقابة النهائية. من خلال تجربتنا العملية، لاحظنا أن هناك مجموعات من الخروقات، قد تؤدي إلى اختيار مقاولات غير مؤهلة، وهو ما ينعكس مباشرة على جودة الخدمات والأشغال. هذه الانحرافات تُفقد الصفقات العمومية جدواها الاقتصادية، وتفرغ المشاريع

¹ أبو مسلم الخطاب، مرجع سابق، 2020 ص 73

² تقرير منظمة الشفافية الدولية، "مؤشر مدركات الفساد" سنة 2023

من مضمونها النموي الحقيقي. كما أن نقص كفاءة الصفقات يؤدي إلى زيادة التكاليف وتضخم الفواتير واستنزاف الموارد المالية للدولة، ومن جهة أخرى سيكون للرشوة آثار سلبية في مختلف المجالات المالية والاقتصادية ثم السياسية والاجتماعية.

أولاً: الآثار المالية والاقتصادية:

تشكل ظاهرة الرشوة خطراً كبيراً على التنمية الاقتصادية وذلك نظراً للتكلفة المالية والخسائر الاقتصادية التي تتسبب فيها، باعتبارها من العوامل المسؤولة كذلك عن تراجع الإستثمار الأجنبي لاسيما وأنها تتسبب في انتزاع ثقة المستثمرين (محليين وأجانب) في مؤسسات الدولة ومن مصداقية السلطة التي تتمتع بها زد على هذا أنها تؤدي إلى توزيع سيء للطاقات والكفاءات لصالح البحث عن أنشطة اقتصادية تنبني على الربح.

كما أنها تحول دون تركيز اهتمام الدولة على القطاعات ذات الأولوية والاختيارات التكنولوجية، فمثلاً نجدها تقوم في بعض الأحيان بإبرام صفقات عمومية في مجالات معينة وذلك على حساب مشاريع أخرى ذات أولوية كتشديد مستويات في العالم القروي.¹

ومن جهة أخرى، فإن ظاهرة الرشوة تدفع بالمقاولات باتجاه ما يسمى بالأنشطة الاقتصادية الخفية (souterraines)، وبطبيعة الحال، فإن هذا يؤدي إلى حرمان خزينة الدولة والأشخاص العمومية الأخرى من موارد عمومية مهمة يمكن توجيهها نحو تقديم الخدمات الجماعية الأساسية والضرورية.

ثانياً: الآثار السياسية

تلقي جريمة الرشوة بظلالها كذلك على الحياة السياسية، لما لها من أثر مباشر على أداء المؤسسات المنتخبة، إذ تؤدي إلى تقويض ثقة المواطنين في العملية الديمقراطية، وتضعف شرعية الهيئات التمثيلية، كما تُنتج نخباً تفتقر إلى الكفاءة والشرعية، التي تصل إلى مواقع القرار عبر وسائل غير مشروعة.

وتفضي هذه الظاهرة إلى ترسيخ ثقافة المحسوبية والزبونية، مما يفرغ مبدأ تكافؤ الفرص من مضمونه، ويكرس مظاهر المحسوبية والإقصاء داخل المجتمع السياسي.

كما تهدد الرشوة استقلالية القرار العمومي، من خلال إسناد مناصب المسؤولية لأشخاص لا يستوفون شروط الأهلية والكفاءة، بل يختارون بناء على قدرتهم على تقديم منافع غير مشروعة، أو استجاباتهم لضغوط مصالح فتوية ضيقة. وهو ما ينعكس سلباً على جودة التخطيط العمومي، ويسهم في انتشار مظاهر الارتحال والعشوائية في تسيير الشأن العام.

¹ Bribery usually leads to inefficient economic outcomes. It impedes long-term foreign and domestic investment, misallocates talent to rent-seeking activities, and distorts sectoral priorities and technology choices (by, for example, creating incentives to contract for large defense projects rather than rural health clinics specializing in preventive care).

Cheryl (W. GRAY) et Daniel (KAUFMANN), corruption and développement, International Monterey Fund, Finances et développement mars 1998, page 8.

ثالثا: الآثار الاجتماعية

لا تقتصر الآثار السلبية لجريمة الرشوة على الجوانب السياسية والاقتصادية فحسب، بل تمتد لتشمل النسيج الاجتماعي، حيث تتركس ثقافة الفساد، وتضعف القيم الأخلاقية، وتغذي الشعور باللاعادلة، مما يفضي إلى انتشار الإحباط، وانعدام الثقة في مؤسسات الدولة.

ففي حالة استمرارها وانتشارها تنتشر ثقافة الرشوة، التي تهدد أسس الحكومة وثقافة المجتمع، وتؤدي كذلك إلى زيادة تكلفة الخدمات الحكومية مثل التعليم والسكن وغيرها من الخدمات الأساسية وهذا بدوره يقلل من حجم هذه الخدمات وجودتها مما ينعكس سلبا على الفئات الأكثر حاجة إلى هذه الخدمات.

وبناء على ذلك تراجعت القيم الإيجابية، قيم المصلحة العامة، المشاركة، قيم الانتماء. ونشأت بدلها قيم وعادات وأعراف جديدة تعمل بما وتديرها المنافع الخاصة الخاضعة لمعيار الطمع، مما يؤثر على العدالة التوزيعية والفعالية الاقتصادية خاصة عند تخصيص الصفقات لصالح بعض المنافسين بعينهم وتفصيلها على المقاس المطلوب مما يخل بشروط المنافسة ومبدأ تكافؤ الفرص.

المطلب الثاني: العقوبة المقررة لجريمة الرشوة في مجال الصفقات

تعتبر جريمة الرشوة من أقدم الجرائم التي ظهرت مع ظهور الحضارة، وتعد من أخطر الجرائم التي تمس صورة الدولة، وتعد الرشوة دليلا قاطعا على تفشي الفساد والظلم في إدارة مصالح الدولة والأفراد معا. وبقدر تفشي الرشوة في المجتمع بقدر ما يصعب محاربتها حيث تقف أمام القضاء صعوبة الحصول على المعلومات الضرورية لإثبات الوقائع محل التحقيق، وهي الاتجار بأعمال الوظيفة العامة والتي تستلزم وجود شخصين وأكثر، وموظف عام يطلب أو يقبل مالا أو عطية أو وعد... الخ، مقابل قيامه بعمل أو امتناعه عنه، ويعرف بالمرتشي، والمستفيد من العملية وهو من يقدم مقابل حصوله على تلك الخدمة بدون وجه حق من الموظف بأي طريقة متوفرة سواء نقداً أو غيرها من العطايا والهدايا الأخرى ويسمى الراشي.

وبالرجوع إلى التشريع المغربي نجد أن الرشوة من الجرائم التي حظيت باهتمام خاص، حيث تصدى لها المشرع بالتجريم منذ أول قانون جنائي صادر سنة 1953 إلا أنه ومع تصاعد وتيرة الجريمة في الواقع العملي وتسربها إلى داخل الجهاز الإداري بشكل يدعو للقلق، قام المشرع المغربي بالتدخل لإعادة النظر في النصوص المعاقبة على جريمة الرشوة، هادفا الضرب بشدة على أيدي المستهترين والعابثين بمصالح المواطنين، حيث بدت النصوص السابقة قاصرة فقط على مواجهة الخطر الذي بدأ يدق أبواب المصالح الإدارية إذا لم يزرجر بصرامة مرتكبو هذه الجريمة، إذ جعل المشرع المغربي جريمة الرشوة جنائية وشدد على إثر ذلك عقوبتها.

ونجد المشرع المغربي ميز في توقيع العقاب على مرتكب جريمة الرشوة بين العقوبات الجنائية والعقوبات الجنحية وذلك بالنظر إلى قيمة مبلغ الرشوة.¹

الفرع الأول: عقاب جريمة الرشوة

خصص المشرع لجريمة الرشوة سواء التي صدرت عن الراشي أو المرتشي، عقوبات متفاوتة تتناسب وخطورة الفعل الصادر عن الجاني، وهذه العقوبات ليست ذات طبيعة واحدة فهناك عقوبات أصلية وأخرى إضافية مع وجود أعدار مشددة في بعض الحالات وأخرى معفية من العقاب.

¹ مومني عبد القادر، دور النيابة العامة في حماية المال العام، مطبعة أنفو برانت فاس، 2022، ص 236

أولاً: العقوبات الأصلية

أوردتها المشرع في الفصول 248¹ و 249 و 251 من ق.ج، وهي عقوبات أصلية جنحية حيث جاء في الفصل 248 ق.ج يعاقب الموظف العمومي من المرتشي ومن في حكمه بعقوبة الحبس من سنتين إلى خمس سنوات وهي نفس العقوبة التي خصصت للراشي في الفصل 251 من ق.ج.

أما الفصل 249 من مجموعة القانون الجنائي فيعاقب على الرشوة في نطاق المشاريع الخاصة والبسيطة، على الراشي والمرتشي بالحبس من سنة إلى ثلاث سنوات.

وبالإضافة إلى هذه العقوبات الحبسية السابقة عاقب المشرع الجناة أيضا بغرامات مالية بصيغة وجوبية والتي حددها من 5000 خمسة آلاف درهم إلى 10000 ألف مائة ألف درهم سواء كان الجاني موظف عمومي أو موظف في القطاع الخاص أو كان راشيا.

ثانياً: العقوبات الإضافية

نص عليها المشرع في الفصلين 255² و 256 من ق.ج وهي المصادرة والحرمان من بعض الحقوق المشار إليها في الفصل 40 من ق.ج. أما المصادرة فلقد نص عليها الفصل 255 من ق.ج تمتد المصادرة إلى كل ما هو متحصل من ارتكاب الجرائم المنصوص عليها في الفصول 248-249-250 من هذا القانون من يد أي شخص كان وأيا كان المستفيد منها.

والمصادرة من خلال محتوى النص تشمل كل الأشياء المضبوطة والتي تسلمها المرتشي سواء كانت نقودا أو أسهما أو عقارات أو غيرها، وهي لا تقع على الوعود التي قدمها الراشي للمرتشي، كأن يعده بتمليك له عقار أو أسهم في شركة... إلخ، حيث لا يكفي لتوقيع المصادرة على مقابل الرشوة التصريح بثبوت حيازة هذا المقابل، وإنما يلزم زيادة على ذلك أن يكون هذا المقابل قد ضبط فعلا. كما أن المصادرة لا تقع إلا على نصيب المرتشي إذا كانت الأموال محل الرشوة على الشياخ، والتي تحدد حتما بالقسمة أو التصفية بطريق المزايدة.

ثالثاً: العقوبات الجنائية

غلظ المشرع عقوبة الرشوة ليجعل منها جنائية في الحالات التالية:

- إذا كان الغرض من الرشوة القيام بعمل يكون جنائية في القانون الفصل 252 من ق.ج. كما لو اتفق عدل وآخر على تزوير في محرر رسمي في مقابل أن يأخذ هذا العدل مبلغا كرشوة، فإن المتفقان يعاقبان بعقوبة (جنائية) هي السجن المؤبد وسواء ارتكبت جريمة التزوير أو محاولتها.

فجريمة الرشوة هذه كان الغرض منها ارتكاب جنائية التزوير في محرر رسمي وبالتالي لا يعاقب عليها بالعقوبة المنصوص عليها في الفصل 248 ق.ج³ وإنما بعقوبة جريمة التزوير (الفصل 353 و 354 من ق.ج).

1 إذا كانت قيمة الرشوة تفوق مائة ألف درهم تكون العقوبة السجن من خمس سنوات إلى عشر سنوات والغرامة من مائة ألف درهم إلى مليون درهم، دون أن تقل قيمتها عن قيمة الرشوة المقدمة أو المعروضة.

2 لا يجوز مطلقا أن ترد إلى الراشي الأشياء التي قدمها ولا قيمتها، بل يجب أن يحكم بمصادرتها وتقليتها لخزينة الدولة، باستثناء الحالة المنصوص عليها في الفصل 1-256 أسفله.

3 يعد مرتكبا لجريمة الرشوة ويعاقب بالحبس من سنتين إلى خمس سنوات وبغرامة من خمسة آلاف درهم إلى مائة ألف درهم من طلب أو قبل عرضا أو وعدا أو طلب أو تسلم هبة أو هدية أو أية فائدة أخرى من أجل :

- إذا كانت رشوة أحد رجال القضاء قد أدت إلى صدور حكم بعقوبة جنائية ضد المتهم. والعلة في هذا التشديد كما هو بين أن يكون العقاب من نفس جنس العمل.
- إذا فاق مبلغ الرشوة مئة ألف درهم الفقرة الأخيرة من الفصل 248.

الفرع الثاني: الأعدار المعفية

لمحاربة ظاهرة الرشوة أضاف المشرع للنصوص المنظمة لها بمقتضى قانون 13-94، الذي تم وعدل بموجبه بعض مقتضيات من القانون الجنائي، الفصل 1-256.

يتبين من الفصل أن الراشي¹ وحده المستفيد من هذا الإعفاء شرط أن يبلغ ذلك إلى السلطات المختصة (النيابة العامة) أو يثبت أنه كان مضطرا لدفع الرشوة في حالة تنفيذه لطالبها، وبالتالي تنتفي عنه صفة الراشي. والغاية من هذا الإعفاء هو تحفيز الأشخاص على التبليغ والكشف عن المرتشين والحد من هذه الجريمة الخطيرة.

ولتقويض هذه الجريمة والقضاء عليها، خول المشرع للضحايا والشهود والخبراء والمبلغين عن مرتكبيها الحماية القانونية والتي صدر التنصيص عليها في القانون المعزز للترسانة القانونية الجنائية للظهير الشريف رقم 64.11.1 القاضي بتغيير وتنظيم القانون 22.01 حيث خص حماية للضحايا والشهود والخبراء والمبلغين فيما يخص جرائم الرشوة. وفي مقابل هذه الحماية خص المشرع نصوص عقابية للمبلغ، حيث يتعرض لإحدى العقوبات المنصوص عليها في (الفصلين 369 و 370 ق.ج) في حالة ما إذا قام بالإبلاغ بسوء نية عن وقائع غير صحيحة.

ويجب أن نشير على أن إقامة وتحريك الدعوة، عهد بمقتضى المادة 3 لقضاة النيابة العامة حق ممارسة وإقامة الدعوى العمومية، لبعض الأشخاص والهيئات بإقامتها في حدود معينة.

فالأصل إذن أن قضاة النيابة العامة هم السلطة المختصة أساسا بتحريك الدعوى العمومية ومباشرتها في كافة الجرائم، وذلك فيما عدا الحالات المشار إليها. نستنتج من نص المادة 3 أنها قاعدة قانونية عامة، مثلما تطبق على الجرائم العادية تطبق كذلك على جرائم الفساد المالي، فبالإضافة للنيابة العامة المختصة سمح التشريع المغربي للأطراف المتضررة أي الأفراد بتحريك المتابعة في هذا النوع من الجرائم، إما بتقديم شكايات أو وشايات إلى النيابة العامة، أو مباشرة عن طريق تقديم شكاية مباشرة لقاضي التحقيق وقضاء الحكم².

1- القيام بعمل من أعمال وظيفته بصفته قاضيا أو موظفا عموميا أو متوليا مركزا نيابيا أو الامتناع عن هذا العمل، سواء كان عملا مشروعا أو غير مشروع، طالما أنه غير مشروط بأجر. وكذلك القيام أو الامتناع عن أي عمل ولو أنه خارج عن اختصاصاته الشخصية إلا أن وظيفته سهلت أو كان من الممكن أن تسهله .
إذا كانت قيمة الرشوة تفوق مائة ألف درهم تكون العقوبة السجن من خمس سنوات إلى عشر سنوات والغرامة من مائة ألف درهم إلى مليون درهم، دون أن تقل قيمتها عن قيمة الرشوة المقدمة أو المعروضة.

¹ لا يمكن متابعة الراشي بالمعنى الوارد في الفصل 251 من هذا القانون الذي يبلغ السلطات القضائية عن جريمة الرشوة، إذا قام بذلك قبل تنفيذ الطلب المقدم إليه إذا كان الموظف هو الذي طلبها.

يتمتع بعذر معفى من العقاب الراشي بالمعنى الوارد أعلاه، الذي يبلغ السلطات القضائية عن جريمة الرشوة إذا أثبت أن الموظف هو الذي طلبها وأنه كان مضطرا لدفعها.

² معطى الله خديجة، المعالجة القضائية لجرائم الفساد المالي، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر-الرباط، 2020، ص 49

خاتمة

يعتبر من ضمن الإشكاليات التي يجب معالجتها بعمق مسألة الفساد في قطاع الصفقات العمومية بجميع مراحلها واشكالها، من أولويات إصلاح نظام الصفقات العمومية الذي يعرف تلاعبات كثيرة تعرقل المنافسة الشريفة وتؤدي إلى إفلاس المقاولات وزيادة البطالة والفقر وإفساد المشاريع وهدر المال العام وضرب تكافؤ الفرص على كل المستويات.

ووجب الإشارة أن المشرع الجنائي المغربي أحسن صنعا عندما اعتمد مذهب ثنائية فعل الرشوة لأن ذلك من شأنه تشديد العقاب على كل من المرتشي (م: 248-249 ق.ج) والراشي (م: 251 ق.ج) على حد سواء. ثم إنه سمح باستقلال الجريمتين في المسؤولية والعقاب، إذ يتصور وقوع إحدى الجريمتين دون الأخرى بالضرورة، ومن نتائج ذلك الاستقلال إمكانية متابعة الراشي عن جريمة عرض الرشوة التي قد يرفضها الموظف العمومي والعكس صحيح، إذ يمكن مساءلة هذا الأخير لطلبه الرشوة مثلا حتى ولو رفض صاحب الحاجة الاستجابة لطلبه، وهاتان نتيجتان ما كان يمكن الوصول إليهما في ظل الأخذ بمذهب وحدة الرشوة.

لذلك وجب القول أن المغرب إلى جانب الآليات القانونية لتفعيل العدالة الجنائية في مجال مكافحة جرائم الفساد، أحدث مجموعة الآليات المؤسسية والإجرائية للكشف عن الجريمة وتشجيع الإبلاغ عن جريمة الرشوة مع وضع آلية الخط الهاتفي المباشر، وهي آلية مكتملة لباقي آليات التبليغ عن الفساد والرشوة، بحيث أنه بالإضافة إلى تبليغ النيابة العامة بالمحاكم والشرطة القضائية، فإن آلية الخط المباشر الموضوعة رهن إشارة المواطنين من أجل التبليغ عن الفساد بالسرعة والفعالية اللازمتين لضبط حالات الرشوة.

لائحة المراجع بالعربية:

- وليد محمد علي كرسون: الحماية المدنية والجناائية للمال العام، دراسة مقارنة، دار الفكر الجامعي الإسكندرية، 2016،
 - عطية بن محمد سالم، الرشوة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1999،
 - فتوح عبد الله الشاذلي، قانون العقوبات الخاص، المصلحة العامة، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، 2009.
 - د. جمال إبراهيم الحيدري شرح أحكام القسم الخاص من قانون العقوبات مكتبة السنهوري، بيروت، 2015،
 - د. سعد صالح، شكلي دراسات معمقة في القانون الجنائي، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012،
 - احمد فتحي سرور. مدخل الى الأسس العامة للقانون الجنائي المغربي، ج 1 ص 24، دار الامان - الطبعة 1، 2003
 - أبو مسلم الخطاب، المختصر في جرائم الأموال دراسة تحليلية ونقدية في ظل القانون المغربي والقانون المقارن، مكتبة الرشاد سطات، 2020
 - سعاد حميدي. الوجيز في شرح القانون الجنائي الخاص. سليكي طنجة، ص 23، الطبعة الثانية مارس 2003
 - عبد الواحد العلمي شرح القانون الجنائي المغربي. القسم الخاص الطبعة السادسة، 2013
 - أبو مسلم الخطاب، الوجيز في الجرائم المالية دراسة تحليلية ونقدية في ظل القانون المغربي والمقارن، مطبعة الأمانة-، 2013
 - حمد جويد، جريمة رشوة الموظف العمومي في التشريع المغربي، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء الطبعة الأولى 1983.
 - مومني عبد القادر، دور النيابة العامة في حماية المال العام، مطبعة أنفو برانت فاس، 2022،
 - معطى الله خديجة، المعالجة القضائية لجرائم الفساد المالي، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر-الرباط، 2020
 - مجلة دراسات قانونية واقتصادية، مؤلف جماعي، حكمة الصفقات العمومية بالمغرب الفرص والمخاطر، 2023،
- ✓ المراجع الأجنبية:

- Maroc : diagnostic du cadre anti-corruption : promotion de la corruption et la bonne gouvernance ; lutte contre le blanchiment de l'argent, activité coordonnée par l'Instance Centrale de Prévention de la corruption-ICPC, Maroc, SNAC Maroc TP 4/2013.
- Jean-Louis CHARTIER, les collectivités locales et la corruption, revue française des finances publiques n°69-mars 2000,
- Bribery usually leads to inefficient economic outcomes. It impedes long-term foreign and domestic investment, misallocates talent to rent-seeking activities, and distorts sectoral priorities and technology choices (by, for

example, creating incentives to contract for large defense projects rather than rural health clinics specializing in preventive care).

- **Cheryl (W. GRAY) et Daniel (KAUFMANN)**, corruption and développement, International Monterey Fund, Finances et développement mars 1998.

✓ التقارير:

- تقرير منظمة الشفافية الدولية، "مؤشر مدركات الفساد" سنة 2023

خصوصيات المصالحة الجمركية

ادريس اليوسفي: طالب باحث بسلك الدكتوراه جامعة القاضي عياض

EL YOUSFI IDRIS

Laboratoire des Etudes Interdisciplinaires de Recherche et d'étude en
Management et Droit de l'entreprise (LIRE-MD)

محمد بن مرزوك: أستاذ محاضر مؤهل بجامعة القاضي عياض

BEN MARZOUG MOHAMED

Laboratoire des Etudes Interdisciplinaires de Recherche et d'étude en
Management et Droit de l'entreprise (LIRE-MD)

المملكة المغربية

الملخص:

تعتبر المصالحة الجمركية آلية إدارية رضائية تسعى لتسوية النزاعات الجمركية بسرعة وكفاءة، بعيدا عن تعقيدات القضاء، مما يخفف الضغط على المحاكم ويعزز استقرار المعاملات الاقتصادية. وتتميز بطبيعة مركبة بين العقد الإداري والجزاء العقابي، إلى جانب الشروط الموضوعية والشكلية التي تميزها عن غيرها من المصالحة، إلى جانب ذلك فهي ترتب مجموعة الآثار المهمة، أبرزها انقضاء الدعوى العمومية ضد المخالفين بمجرد إبرامها، مع التزام الأطراف بعدم الطعن فيها أو الرجوع عنها. إضافة إلى أنها تكتسب قوة الشيء المقضي به، لكنها لا تمتد إلى الغير إلا استثناء.

ورغم فعاليتها، فهي تتميز بضعف التأطير القانوني وغياب الرقابة القضائية على إجراءاتها، مما يجعلها تحتاج إلى تحديد الجرائم المشمولة بالمصالحة، وتعزيز النصوص القانونية لتحقيق توازن بين صلاحيات الإدارة وضمان حقوق المخالفين.

كلمات مفتاحية: الخصوصية، المصالحة الجمركية. الطبيعة الجزائية، إدارة الجمارك، آثار الصلح

مقدمة

إذا كان القضاء هو الطريق العادي لفض المنازعات الناشئة بين الأفراد أو بينهم وبين المؤسسات، والناجمة عن العلاقات والتصرفات التي يبرمونها، والضامن لتحقيق العدالة واستقرار المعاملات، فإنه لم يعد قادراً على مواكبة كل القضايا والنزاعات الناشئة، لما يعرفه من اكتظاظ وبطء في استصدار الأحكام، مما جعل السياسة التشريعية المعاصرة تتجه إلى وسائل بديلة لحل المنازعات، لما لها من فعالية في إنهاء الخصومة ووضع حد للنزاع في مدة وجيزة وبأقل تكلفة، وهو ما يؤدي إلى ترسيخ ثقافة الحوار والتسامح وصفو العلاقات وتحقيق الأمن والاستقرار.

ليس القضاء وحده الذي يجسد فكرة العدالة، وإنما يعتبر الصلح والتوفيق بين المتخاصمين كذلك أسمى تعبير عنها، بل يمكنه أن يحقق ما لا يحققه القضاء لأنه ينبع من إرادة الأطراف، فهو ليس بديلاً لهذا الأخير وإنما هو مواز له ويخضع لرقابته، هذا ما أدى بالمشروع إلى تضمينه في معظم التشريعات الوطنية سواء المدنية أو الجزية.

ويعتبر الصلح في التشريع الجنائي أسلوباً لإدارة الدعوى العمومية بعيداً عن الإجراءات الجنائية التقليدية، فهو يرب آثاراً يتجاوز فيها بطء إجراءات التقاضي إلى إشاعة روح السلم الاجتماعي، وتجنب المتهم الوصمة التي تلازم الإدانة الجنائية،¹ إذ أن الطرفين يخرجان من الخصومة بصفو العلاقة وجبر الضرر الذي خلفته الجريمة بشكل ودي، مما يبين أن الصلح الجنائي هو نظام قانوني متكامل، يتجاوز الردع إلى تحقيق العدالة وترسيخ العلاقات الاجتماعية.

وقد أسند المشروع لإدارة الجمارك والضرائب غير المباشرة مهمة حماية الاقتصاد الوطني عن طريق الرقابة الجمركية، ولا شك أن عملاً بهذا المستوى من الأهمية ستترتب عنه نزاعات بين إدارة الجمارك والأشخاص الملزمين، والتي يتم أحياناً تسويتها بشكل ودي وأحياناً أخرى يتم اللجوء إلى القضاء لحل النزاع، ولكن ما يهمنا في هذه الدراسة هو الشق المتعلق بالتسوية الودية، وهذا يعني أن المجال الجمركي بدوره أعطى إمكانية اللجوء إلى بدائل لحل المنازعات والتي تتمثل أساساً في المصالحة الجمركية الواردة في نطاق مدونة الجمارك²، إذ تختص هذه الأخيرة بإبرامها وتتبع مساطرها، فهي مسطرة إدارية مستقلة تسعى من خلالها إدارة الجمارك إلى إنهاء المنازعات الجمركية، التي يمكن التمييز فيها بين المدنية والجزية. شأنها شأن باقي التشريعات المقارنة التي بدورها تلجأ إلى المصالحة الجمركية لحل بعض النزاعات البسيطة، والحفاظ على استقرار المعاملات.

ورغم تعدد المجالات المشمولة بالمصالحة إلى جانب المصالحة الجمركية، إلا أن هذه الأخيرة تتميز بخصوصيات تتجسد في تطبيق السياسة الجمركية الوطنية، أي أن خصوصياتها تجعلها تختلف عن باقي المصالحات في المجالات المشابهة، التي تتمثل في الصلح الجنائي والصلح في المنازعات الضريبية.

لهذا فقد جاء المشروع الجمركي بأحكام تتعلق بالمصالحة الجمركية في الفصول من 273 إلى 277 من مدونة الجمارك والضرائب غير المباشرة؛ إذ أنه لم يعرف المصالحة الجمركية، ولم يحدد خصوصياتها، وإنما حاول تبيان الأثر الذي ترتبه، الشيء الذي جعل الفقه والقضاء يبحثان في ماهيتها وطبيعتها القانونية ونطاقها من جهة، وآثارها وموقع القضاء فيها من جهة ثانية.

¹ - عبد الرحمان المليونين، بدائل الدعوى العمومية في السياسة الجنائية الحديثة - دراسة مقارنة -، بحث لنيل الدكتوراه في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، السنة الجامعية 2013-2014، ص 17.

² الفصول من 273 إلى 277 من م ج ض غ م.

وتكمن أهمية الموضوع في كون المصالحة الجمركية بديلا للدعوى العمومية؛ إذ أنها تعطي ثمارها بالمقارنة مع المتابعة الجنائية، فهي تكتسب مكانة متميزة لما لها من أهمية قانونية واقتصادية واجتماعية.

أما بالنسبة للأهمية القانونية، فعند العودة للنصوص المنظمة للمصالحة الجمركية، يتضح أنها لم تنل بعد حظها في ظل التشريع الجمركي، إذ أن المشرع حاول تحديد الأثر الذي ترتبه، دون أن يشير إلى مفهومها وطبيعتها القانونية، إضافة إلى نطاقها سواء من حيث الأشخاص أو الموضوع، هذا ما يجعلها تتخطى القوانين والأنظمة الجمركية لتستمد بعض أحكامها من القواعد العامة في قانون الالتزامات والعقود. وتضع استثناء على التطبيق الموضوعي والإجرائي لقواعد القانون الجنائي، مرتبطة في ذلك بأحكام القانون الإداري سواء تلك المتعلقة بقواعد الاختصاص الإداري أو القضائي.

بينما تكمن الأهمية الاقتصادية والاجتماعية في كون الأنظمة الجمركية تسعى إلى تحقيق أهداف اقتصادية واجتماعية متعددة، تهدف لتوجيه أنماط استهلاكية واستثمارية للاقتصاد الوطني، فتتحول إدارة الجمارك من إدارة جبائية إلى إدارة تحاول النهوض بالتنمية الاقتصادية للسوق الداخلي، كما تعمل على التوفيق بين مصالح الدولة من جهة والمخالفين لأنظمتها من جهة ثانية، ويتجلى ذلك في كون العديد من المنازعات يتم حلها عن طريق المصالحة.

إن الطبيعة المركبة للمصالحة الجمركية تفرض علينا البحث في خصوصياتها؛ إذ أن المشرع اكتفى بتحديد الآثار المترتبة عنها دون تحديد طبيعتها، وأمام هذا الفراغ التشريعي، ونظرا لتعدد الأنظمة القانونية، التي تخضع لها المصالحة الجمركية في تحديد طبيعتها يثار إشكال مفاده:

أي خصوصية للمصالحة الجمركية في حل المنازعات ذات الطابع الجزري؟ وما موقع القضاء في سير مسطرة المصالحة؟

ويتفرع عن هذا الإشكال مجموعة من التساؤلات تتمثل في:

ما هي الطبيعة القانونية للمصالحة الجمركية؟

أي آثار تترتب على أطرافها وعلى الغير؟

وما موقع القضاء في مسطرة المصالحة؟

ونظرا لكون موضوع المصالحة الجمركية يتميز بطبيعة مركبة يصعب فهمها إلا أنه من خلال البحث في ماهيتها، يتضح أن الأمر يستوجب الرجوع إلى القواعد العامة في القانون المدني والجنائي، وبالتالي ستشمل هذه الدراسة البحث في الأحكام المتعلقة بخصوصيات المصالحة الجمركية والضوابط المحددة لها وكذا نطاقها في الشق الأول، لنخصص الشق الثاني للحديث عن الآثار القانونية التي تترتب عنها سواء في مواجهة الأطراف أو الغير، وموقع القضاء في مسطرة المصالحة وبطلانها.

وبذلك ستكون خطة هذا البحث على الشكل التالي:

المبحث الأول: خصوصيات المصالحة الجمركية.

المبحث الثاني: الآثار التي تترتب عن المصالحة الجمركية وموقع القضاء فيها.

المبحث الأول: ماهية المصالحة الجمركية

يقتضي الحديث عن المصالحة الجمركية البحث في مفهومها، لكون المشرع لم يقم بتعريفها، ورغم كونها عقدا رضائيا فإنها تختلف عن باقي العقود نظرا لخصوصياتها (المطلب الأول)، كما يجب الإحاطة بشروط المصالحة الجمركية من أجل تمييزها عن باقي العقود (المطلب الثاني).

المطلب الأول: مفهوم المصالحة الجمركية وطبيعتها القانونية

يعتبر قانون الالتزامات والعقود الشريعة العامة التي تتم العودة إليها كلما تعلق الأمر بالالتزامات تعاقدية تعتمد على عنصر الرضا، إلا أن المصالحة الجمركية تتميز بخصوصيات تميزها عن الصلح المدني (الفقرة الأولى) كما أنها تختلف عنه من حيث طبيعتها القانونية (الفقرة الثانية).

الفقرة الأولى: تعريف المصالحة الجمركية

عرف المشرع المغربي الصلح في الفصل 1098 من قانون الالتزامات والعقود بأنه: "عقد بمقتضاه يحسم الطرفان نزاعا قائما أو يتوقيان قيامه، وذلك بتنازل كل منهما للآخر عن جزء مما يدعيه لنفسه، أو بإعطائه مالا معيناً أو حقاً". على خلاف المصالحة الجمركية التي ترك المشرع أمرها للفقه والقضاء، إيماناً منه بأن يكون التعريف جامعاً مانعاً، فقد تعددت التعريفات الفقهية، إذ هناك من يعتبرها "إجراء يؤدي بالمتهم في الدعوى الجنائية إلى دفع مبلغ معين إلى خزينة الدولة كي يتمكن من عدم وضع الدعوى ضده"¹، ويعرفها آخر بأنها "أسلوب قانوني غير قضائي لإدارة الدعوى العمومية ويتمثل في دفع مبلغ من المال للدولة، أو تعويض المجني عليه أو قبول تدابير أخرى مقابل انقضاء الدعوى الجنائية"².

وهناك من يعتبرها "تنازل إدارة الجمارك عن حقها في طلب إقامة الدعوى مقابل التعويض كاملاً أو ما يقل عن نصف التعويض المستحق"³.

وفي نفس السياق، هناك من يمدد التعريف الوارد في قانون الالتزامات والعقود المغربي لعقد الصلح المدني على المصالحة الجمركية، فهي: "عقد بمقتضاه يحسم الطرفان (الإدارة والظنين) نزاعاً قائماً أو يتوقيان قيامه مقابل تنازل كل منهما للآخر على جزء من مطالبه"⁴. إلا أن هذا التعريف أشار إلى النزاع المحتمل في المصالحة الجمركية، والذي لا يمكن تصوره مما يجعله محل انتقاد.

وقد ذهب أحد الفقهاء في نفس الاتجاه وعرف المصالحة الجمركية بأنها: "عقد ينهي بواسطته نزاعاً بينهما وذلك عبر التزامات متبادلة"⁵.

بينما يعرفها القضاء الإداري المصري بأنها، "عقد من عقود المعاوضات، فلا يتبرع أحد المتصلحين للآخر وإنما يتنازل كل منهما عن جزء من ادعائه بمقابل هو نزول الآخر عن جزء مما يدعيه، ومن ثم لا يحمل الصلح معنى التنازل من جانب واحد أو التصرف

¹ نبيل لوقبباوي، الجرائم الجمركية، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، طبعة 1994 ص 460

² محمد حكيم حسين الحكيم، النظرية العامة للصلح وتطبيقاته في المواد الجنائية - دراسة مقارنة - دار الكتب القانونية، القاهرة، مصر، 2005، ص 4

³ محمد عبد الله عمر، الموسوعة الشاملة في التشريع الجمركي والمنازعات القضائية، دار النجاح للطباعة، الإسكندرية، مصر، د ط، دون ذكر السنة، ص 197

⁴ أورده كريم الصبونجي، المصالحة في الجرائم الجمركية، مجلة الرقيب، العدد الثالث، نونبر 2014، ص 76

⁵ كريم الصبونجي، م، ن، ص 76

دون مقابل، وإنما هو معاوضة يقصد بها حسم النزاع القائم¹. كما ذهبت محكمة النقض الفرنسية إلى تعريفها بأنها: "نزول من الهيئة الاجتماعية عن حقوقها مقابل الفعل الذي قام عليه الصلح، ويحدث أثره بقوة القانون"، كما عرفت (الصلح) محكمة النقض المصرية بأنها: "تنازل الهيئة الاجتماعية عن حقها في الدعوى الجنائية مقابل مقدار الذي قام عليه الصلح ويحدث أثره بقوة القانون"².

من خلال التعاريف المشار إليها سواء الفقهية أو القضائية، يتضح أنه قد ترتب عن المصالحة تنازل الدولة عن حقها في العقاب، الشيء الذي يجعل جانباً من الفقه يشكك في سلامتها؛ إذ أن المتهم يستطيع أن يدفع مقابل المصالحة وينجو من العقاب الذي تفرضه الدولة، مما يجعل هذا النظام لا يساوي بين الأطراف، إذ أن الأغنياء يستطيعون أن يدفعوا ثمن حريتهم في حين أن الفقراء سيقضون عقوبتهم³.

من خلال ما سبق، يتضح أن المصالحة الجمركية هي عقد رضائي بين الإدارة والمخالف للأنظمة الجمركية، فهما يتفقان على عدم تحريك الدعوى العمومية أو إيقافها مقابل أداء جزء تصالحي لفائدة الإدارة.

الفقرة الثانية: الطبيعة القانونية للمصالحة الجمركية

إذا كان الحديث عن مفهوم المصالحة الجمركية مسألة عسيرة، فإن ذلك نتيجة اختلاف حول الطبيعة القانونية التي تتأرجح بين الطبيعة العقدية والعقابية:

أولاً: الطبيعة العقدية للمصالحة الجمركية

للحديث عن الطبيعة العقدية للمصالحة الجمركية، يتعين علينا التمييز بين الطبيعة العقدية المدنية (1) من جهة وكذا الطبيعة العقدية الإدارية من جهة أخرى (2).

1: الطبيعة العقدية المدنية للمصالحة الجمركية

إن المصالحة الجمركية تتميز بخصوصيات أدت بأغلب الاتجاهات الفقهية إلى القول بأنها ذات طبيعة مدنية تستمد أحكامها من قانون الالتزامات والعقود باعتباره الشريعة العامة لجميع العقود، وعلى هذا الأساس سوف نتطرق إلى خصائص العقد المدني على أمل أن نجد فيها في المصالحة الجمركية.

لذلك فالمصالحة الجمركية شأنها شأن كافة العقود الرضائية تقف على خاصية الرضا الذي يتمثل في الإيجاب من أحد الأطراف والقبول من طرف آخر⁴. ويجب أن يكون الرضا خالياً من العيوب، أي أن لا يكون مشوباً بغلط أو تدليس أو إكراه كجميع العقود؛ أي أنه تسري عليه القواعد العامة الضرورية في نظرية العقد، وتعتبر الكتابة شرطاً للإثبات وليس للانقضاء⁵، إذ أنه تكفي إرادة الأطراف لإبرام الصلح.

¹ قرار صادر عن محكمة القضاء الإداري المصرية بتاريخ 20 يونيو 1965، أشار إليه محب حافظ، جريمة التهريب الجمركي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، طبعة 1992، ص 216

² أوردهما يونس النহারي، خصوصيات المصالحة الجمركية، سلسلة المعارف القانونية، منشورات مجلة منازعات الأعمال، عدد 6 نونبر 2016 ص 14

³ كريم الصبوني، م س، ص 77.

⁴ للمزيد من التوضيح أنظر محمد الأعراج، نظام العقد الإداري وفق قرارات وأحكام القضاء الإداري منشورات REMALD، سلسلة مؤلفات وأعمال جامعية، ط أولى، 2005 ص 88 وما يليها.

⁵ يونس النহারي، إجراءات المتابعة الجمركية بين القواعد الجنائية العامة ومدونة الجمارك، رسالة لنيل دبلوم الماستر، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة عبد الملك السعدي طنجة، السنة الجامعية 2015-2016، ص 165.

أما بالنسبة لحل الصلح هو الحق المتنازع فيه ونزول كل طرف على جزء مما يدعيه لنفسه في هذا الحق.¹ ففي المصالحة الجمركية، يؤدي المخالف للأنظمة الجمركية مقدار الصلح لإدارة الجمارك تجنباً لتأدية الغرامة المالية المنصوص عليها في مدونة الجمارك²، وهذا المحل يجب أن يكون موجوداً وقابلًا للتعامل، معينا أو قابلاً للتعيين مملوكاً للملتزم³.

بينما السبب هو الدافع لإبرام عقد الصلح؛ إذ يمكن التمييز بين نوعين من الدوافع:

الدافع المشروع، كأن يلجأ إليه أحد الأطراف لأنه يخشى أن يخسر دعواه أو تهربه من التقاضي، نظرا لطول الإجراءات وكثرة المصاريف، فكل هذه البواعث تتوفر في كل من المصالحة الجمركية والصلح المدني.

الدافع غير المشروع هو الصلح المبرم نتيجة تهريب مواد مخدرة أو أقراص مهلوسة، فهنا يكون الصلح باطلا نظرا لعدم مشروعية السبب⁴.

أما بخصوص الأثر المترتب عن المصالحة والصلح فيتجلى في حسم النزاع، أي أن كلا الصلحين المدني والجمركي يحسمان المنازعات نهائيا، فمقابل تنازل الإدارة عن المتابعة أو الحقوق المحكوم بها بعد حكم نهائي، يلتزم المخالف بدفع ثمن المصالحة. كما أن الصلح بنوعيه -المدني والجمركي- يتميز بأثر نسبي، فهو مقصور على طرفيه، أي أنه لا ينفع ولا يضر بالغير الذي لم يتصلح.

ورغم تشابه الصلح المدني مع المصالحة الجمركية في خصائصهما، إلا أنه بالرجوع إلى الفصل 1098 من ظهير الالتزامات والعقود، يتضح أن الصلح يكون حول نزاع قائم أو محتمل، بينما في المصالحة الجمركية لا يمكن الحديث عن المصالحة على نزاع محتمل وذلك حسب الفصل 273 من م.ج.ض.غ م الذي نص على: "للإدارة قبل حكم نهائي أو بعده أن تصالح الأشخاص المتابعين من أجل أفعال مخالفة للقوانين والأنظمة الجمركية..."؛ أي أن المصالحة الجمركية لا يمكن أن تكون موضوع حق غير موجود أو قابل للشك.

2 الطبيعة العقدية الإدارية

العقد الإداري هو العقد الذي يكون أحد طرفيه من أشخاص القانون العام، والهدف منه تحقيق منفعة عامة، ويتميز بوجود شروط غير مألوقة في عقود القانون الخاص.⁵ من هنا يتضح أن الطبيعة الإدارية للعقد تتمثل في معيارين، وهما: المرفق العام والشروط غير المألوفة:

معيار المرفق العام: لا أحد ينكر بأن المصالحة الجمركية تتضمن شرط المرفق العام؛ إذ أنه يتم إبرامها من طرف إدارة الجمارك التي تتولى تسيير مرفق عام، ولكن هذا لا يكفي لإضفاء صبغة العقد الإداري على المصالحة الجمركية، وإنما يتوجب وجود شروط غير مألوقة⁶، إذ للإدارة امتيازات غير متوفرة في القانون العادي نظرا لكونها سلطة عمومية. ورغم أن المشرع منح لإدارة الجمارك حرية قبول وإبرام المصالحة قبل وبعد الدعوى العمومية في المواد من 273 إلى 275 من م.ج.ض.غ.م، إلا أنه سحب منها إمكانية

¹ أنظر محمد الشرقاوي، النظرية العامة للالتزامات - العقد - المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الأولى، 2009-2010 ص 46 وما يليها.

² يونس النهاري، (رسالة)، م.س، ص 165.

³ علي كحلون، "الصلح في المادة المدنية"، مقال منشور بمجلة القضاء والتشريع، ع: 7 سنة 1998، ص 52.

⁴ علي كحلون، م.س، ص 84.

⁵ مليكة الصاروخ، القانون الإداري. دراسة مقارنة، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة 1، سنة 1990، ص 320.

⁶ فاطمة ال زهراء الراحي، الصلح في قانون المسطرة الجنائية - دراسة مقارنة-، رسالة لنيل دبلوم الماستر في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة القاضي عياض، مراكش، السنة الجامعية 2009-2010، ص 78.

تعديل العقد الذي يعتبر ميزة في العقود الإدارية، إذ أن المصالحة الجمركية تصبح نهائية بمجرد المصادقة عليها، لا يمكن الرجوع فيها وغير قابلة لأي طعن.¹

الشروط غير المألوفة: هذا المعيار لا نجده في المصالحة الجمركية، فهي اقتراح من طرف الإدارة للمخالف وله كامل الحرية في قبولها أو رفضها، أي أن الإدارة تبحث عن السبيل لاستخلاص حقوقها بشكل ودي، إضافة إلى ذلك، يمنح العقد الإداري للإدارة حق الفسخ، وهو الشيء المخول لإدارة الجمارك في حالة واحدة ألا وهي إخلال المتعاقد بأحد التزاماته التعاقدية.²

إذن فالقول بالطبيعة الإدارية للمصالحة الجمركية يبقى غير ذي أساس، لأن المنازعات المتعلقة بها تخضع للقضاء العادي حسب قرار محكمة النقض،³ فلو كان عقدا إداريا لخضع للمحاكم الإدارية طبقا للمادة 8 من قانون رقم 41.90.

وهكذا، فالمصالحة الجمركية لا يمكن أن تكون عقدا إداريا، رغم وجود بعض مقومات العقد الإداري، لأن سلطات الإدارة ضيقة مقارنة مع مجال العقود الإدارية.

ثانيا: الطبيعة العقابية للمصالحة الجمركية

إن فكرة الجزاء في المصالحة الجمركية جعلت الفقه ينقسم إلى قسمين: فهناك من وصفها بالعقوبات الجنائية (1)، وهناك من جعلها في خانة الجزاءات الإدارية (2).

1- الطبيعة الجنائية للمصالحة الجمركية

تعتبر المصالحة الجمركية قريبة من الصلح الجنائي من حيث حرية الأطراف في اللجوء إليه بمحض إرادتهم لتسوية النزاع، مع تمتع الإدارة الجمركية بسلطة قبول أو رفض المصالحة. حيث يشترك الصلحان في تجنب إجراءات التقاضي الطويلة، إلا أن المصالحة الجمركية تتميز بعدم تحديد الأفعال المشمولة بالصلح، بخلاف الصلح الجنائي الذي يقتصر على الجرح الضبطية. كما تختلف من حيث الجهة المكلفة بالمصادقة؛ ففي الصلح الجنائي، يتطلب الأمر موافقة النيابة العامة ورئيس المحكمة، بينما في المصالحة الجمركية، تصبح نهائية بمصادقة وزير المالية أو مدير إدارة الجمارك دون الحاجة لتدخل قضائي.

2- الطبيعة الجزائية الإدارية للمصالحة الجمركية

هناك جانب من الفقه ذهب إلى إضفاء صفة الجزاء الإداري على المصالحة الجمركية، منهم الفقيه J.H syr الذي عمل على فصل المصالحة في الجرائم الاقتصادية عن باقي المصالحات الأخرى، وأثناء قيامه بتحليل المصالحة في الجرائم الاقتصادية من حيث خصائصها وطبيعتها الجنائية، اتضح له من خلال بعض الخصوصيات كموافقة المخالف وعدم اللجوء إلى التنفيذ الجبري للمصالحة، أن المصالحة في الجرائم الاقتصادية ليست عقوبة وليست صلحا مدنيا أيضا، بل هي جزاء موقع من طرف الإدارة، مؤكدا أن المصالحة ما هي إلا بديل للعقوبة وليست العقوبة بالمعنى المعروف في القانون الجنائي.⁴

¹ محسن أكرام، بدائل فض المنازعات الجبائية المصالحة في التشريع الجمركي نموذجاً، رسالة لنيل دبلوم الماستر في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة القاضي عياض، مراكش، السنة الجامعية 2016-2017، ص 29.

² مليكة الصاروخ، م س، ص 570.

³ قرار محكمة النقض عدد 1140 صادر بتاريخ 20/07/2000، أورده الحسين زين الاسم، م س، ص 122.

⁴ محمد الشريف بنخي، الطبيعة القانونية للمصالحة الجمركية رؤى فقهية، مجلة الملف، ع 21، أكتوبر 2013، ص 195.

المطلب الثاني: الضوابط المحددة للمصالحة الجمركية

لكي تتعقد المصالحة بشكل صحيح وترتب آثارها، يشترط القانون جملة من الشروط منها ما يتعلق بموضوع المصالحة (الفقرة الأولى)، ومنها ما يتعلق بالإجراءات الشكلية الواجب استيفائها (الفقرة الثانية).

الفقرة الأولى: الشروط الموضوعية للمصالحة الجمركية

لصحة المصالحة الجمركية، يجب أن تتوفر على شروط موضوعية والتي تتمثل في الأهلية (أولا)، وشرعية الصلح (ثانيا)، وتسديد مقابله (ثالثا).

أولا: أهلية أطراف المصالحة الجمركية

منح المشرع الجمركي لإدارة الجمارك الحق في التصالح مع الأظناء، إذ تتوفر على سلطة مطلقة في إبرام المصالحة مع من تشاء من المخالفين، ولها أن تتنازل عن بعض حقوقها المقررة قانونا، وذلك لاجتناب اللجوء إلى القضاء نظرا لبطء الإجراءات. ولا يمكن للأظناء إرغام الإدارة على إبرام المصالحة معهم¹، غير أنه لصحة عقد الصلح يجب توفر كل من الظنين والإدارة على الأهلية اللازمة، وهكذا نجد الفصل 1099 من ق ل ع نص على أنه: "يلزم لإجراء الصلح، التمتع بأهلية التفويت بعوض في الأشياء التي يرد الصلح عليها"، وبمفهوم المخالفة، فعدم أو ناقص الإدراك أو الإرادة لا يفترض إجراء الصلح معه بشأن الجريمة التي ارتكبها إلا بحضور المسؤول عن حقوقه المدنية، بل إن هذا الأخير في هذه الحالة يكون له الدور الحاسم في إبرام الصلح في ظل انعدام أهلية المتهم. أما التصالح مع الشخص الاعتباري فيتم مع ممثله القانوني والذي يكون دائما شخصا طبيعيا².

وفي المقابل، فالجهة المتصالح معها، أي إدارة الجمارك تتوفر على الأهلية لإجراء المصالحة الجزرية، وتبعا لذلك يعد الشخص الذي يمثلها ملزما بالتوفر على الأهلية، سواء كانت مستمدة من القانون مباشرة أو عن طريق التفويض من السلطة المختصة.

ويعود حق إبرام المصالحة الجمركية، إلى مدير الإدارة ونواب المديرين الإقليميين والأمرون بالصرف، الكل في حدود اختصاصه. غير أنه يمكن لأي من نواب المديرين الإقليميين والأمرين بالصرف أن يتسلموا عروض وطلبات المصالحة ويقوموا بعرضها على الهيئات العليا المركزية لاتخاذ القرار فيها في حالة ما إذا كانت تتجاوز اختصاصاتهم³. إلا أن هذه المصالحة تتوقف على مصادقة وزير المالية أو مدير الإدارة، كما يمكن تفويض هذا الاختصاص إلى بعض الموظفين المؤهلين لذلك⁴.

أما من جهة الطرف المخالف فبالرجوع للفصل 273 من م. ج. ض. غ. م. نجده يتحدث عن أنه لا يمكن التصالح إلا مع الشخص المؤهل لذلك قانونا، وبذلك فالمشرع لم يستعمل مصطلح المتهم أو مرتكب المخالفة، بل عمد إلى استعمال مصطلح أعم يصلح لأن ينطبق على مرتكب المخالفة أو الجنيحة، وعلى أي شخص آخر يمكن أن يسأل جنائيا أو ماليا.

وهكذا يمكن إبرام المصالحة مع كل من الفاعل الأصلي، أو المساهم أو المشارك أو النائب أو المسؤول المدني⁵، إذا تم إبرام المصالحة وفق الكيفية المحددة قانونا، ومتى أصبحت نهائية طبقا لأحكام الفصل 273 من م. ج. ض. غ. م. ولا يمكن أن يقدم بشأنها

¹ الجيلالي القدومي، م. س، ص 316

² محمد علي المبيضين، الصلح الجنائي وأثاره في الدعوى العمومية، دار الثقافة، عمان، د ط، سنة 2010، ص 99.

³ مذكرة إدارة الجمارك رقم 521/18443 الصادر بتاريخ 23/12/1998 المتعلقة بتوزيع الاختصاص في إبرام المصالحات حسب قيمة النزاع والتراتبية الإدارية.

⁴ الجيلالي القدومي، م. س، ص 76

⁵ محمد الشلي، المصالحة في التشريع الجنائي المغربي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية اكدال، جامعة محمد

الخامس الرباط، السنة الجامعية 1997-1998، ص 113-114

أي طعن، وهذا ما أكدت عليه أيضا محكمة النقض في إحدى قراراتها "حيث إن الثابت من وثائق الملف خاصة كتاب الأمر بالصرف للجمارك بالدار البيضاء آنفا، فإن إدارة الجمارك قد وافقت على إجراء المصالحة مع الطاعن بالنسبة للمخالفات الجمركية المنسوبة إليه، وذلك طبقا لمقتضيات الفصل 273 من المدونة، وتنازلت عن دعواها المدنية الموجهة ضده.

وحيث إنه متى أصبحت المصالحة نهائية فهي تلزم الأطراف بكيفية لا رجوع فيها ولا يمكن أن يقدم بشأنها أي طعن حسب مقتضيات الفصل 276 من المدونة، وبالتالي يبقى ما أثير بخصوص الغرامات المحكوم بها لفائدتها في مواجهة الطاعن غير ذي موضوع وتكون الوسيلة مقبولة".¹

ثانيا: شرعية الصلح الجمركي

يستمد الصلح الجنائي بوجه عام مشروعيته من النصوص القانونية، فقد نظمته المشرع في كل من قانون المسطرة الجنائية المادة 41، ومدونة الجمارك والضرائب غير المباشرة في الفصول من 273 إلى 277؛ إذ لا تجوز المصالحة دون الاستناد لنص قانوني يحدد آثارها ونطاقها والجرائم التي يجوز التصالح فيها، ولعل ما يبرر اشتراط مبدأ الشرعية في الصلح الجزري هو اعتبار هذا الأخير استثناء من القواعد العامة المنظمة للمحاكمة الجنائية، مما يؤدي في حالة عدم تفعيله إلى حفظ النيابة العامة أو إدارة الجمارك لملف النازلة دون الحاجة إلى تحريك الدعوى العمومية.²

وما دام أن المشرع لم يحدد الجرائم القابلة للتصالح في المجال الجمركي، فذلك سيترك الباب مفتوحا على كل الجرائم باستثناء تلك المتعلقة بتصدير أو استيراد البضائع المحظورة كالمخدرات والمؤلفات المخالفة للأداب العامة والأسلحة... على خلاف المادة 41 من قانون المسطرة الجنائية التي حددت الجرائم التي يجوز فيها التصالح.

ثالثا: تسديد مقابل الصلح

إن المقابل في الصلح الجزري بشكل عام، وفي المجال الجمركي بشكل خاص، يكتسي طابع جوهري، لأنه في مقابل تنازل الدولة عن حقها في العقاب، يلتزم مرتكب الجريمة بدفع مقابل مالي من أجل جبر الضرر الذي ألحقه بإدارة الجمارك، وهذا المقابل يتلزم وجوده مع كافة صور الصلح، ويعتبر هذا المقابل تعويض يؤديه مرتكب الفعل الجرمي للمتصالح معه، إما لأنه اقتنع بمسؤوليته عن هذا الفعل أو أنه فضله على القضاء والخضوع لإجراءات المحاكمة الجنائية.

أما بخصوص مقدار الصلح، فالمشرع لم يحدده، وإنما ترك ذلك لإدارة الجمارك، إلا أن الواقع العملي أبان عن أن المبالغ التي تقترحها الإدارة تكون مساوية لتلك المنصوص عليها في مدونة الجمارك أو أقل، لأن هدف الإدارة هو استخلاص حقوقها المالية وليس ردع المخالف.³

الفقرة الثانية: الشروط الشكلية للمصالحة الجمركية

إذا كانت المصالحة الجمركية تشترط لقيامها أن يكون موضوعها جريمة من الجرائم الجمركية التي تجوز فيها المصالحة، فإنها تشترط أيضا أن تتم وفق شروط شكلية تتمثل فيما يلي:

¹ قرار عدد 7/1476 بتاريخ 05/09/2007 أورده بونس النهاري، م س، ص 58

² بونس النهاري، خصوصيات المصالحة الجمركية، ن م، ص 49

³ عبد الوهاب عافلاي، م س، ص 224.

أولاً: طلب المصالحة الجمركية

تتطلب الرغبة في المصالحة إيصالها وتبليغها إلى الطرف الآخر، ولم يحدد المشرع المغربي شكليات معينة لهذا الطلب، وستتطرق لهذا الأخير من خلال النقاط الآتية:

1. تقديم الطلب

لم يخصص المشرع الجمركي أحقية تقديم الطلب لجهة معينة، حيث يمكن أن يقدم من طرف المتصالح والإدارة الجمركية على حد سواء.

تقديم الطلب من طرف المتصالح

لم يحدد المشرع الجمركي شكليات معينة لهذا الطلب، إلا أنه غالباً ما يكون كتابياً، ولهذه الشكلية أهمية خاصة من الناحية العملية، حيث تستند عليها الإدارة لفتح الملف وبدء الإجراءات الإدارية المتعلقة بالتصالح¹، وقد اختلفت القوانين المقارنة حول اشتراط أن يكون طلب المصالحة كتابياً؛ فالمشرع المصري شأنه شأن المشرع المغربي لم ينص على هذا الشرط²، وإن جرت الممارسة الإدارية على اشتراط ذلك، مما يبين بأن الطلب الكتابي هو إجراء أولي للمصالحة.

وتجدر الإشارة إلى أن الطلب يعد مجرد إيجاب، ولا ينتج أي أثر في مواجهة الطرفين، إذ للإدارة أن تأخذه بعين الاعتبار أو تتجاهله، كما يمكن للمتصالح أن يتراجع عنه، وإذا كان هذا هو المبدأ العام، فإن تطبيقاته تكون في غير صالح المتصالح، وتدعم مركز الإدارة، فالمتصالح لا يمكنه أن يحتج بالطلب كدليل لقيام المصالحة وسقوط حق الدولة في العقاب.

ورغم أهمية هذا الطلب في حل النزاع بشكل ودي، فإنه لا يعتبر إجباري وإنما للمتابع الحق في الاختيار بين تقديمه، أو تفضيل حل النزاع عبر اتباع المسطرة القضائية.

تقديم طلب المصالحة باقتراح من الإدارة الجمركية

إذا كان بإمكان المتابع اقتراح المصالحة على الإدارة الجمركية، فلا يوجد ما يمنع هذه الأخيرة أيضاً من أن تأخذ المبادرة، ويجب أن يخضع الطلب لشكليات قانونية حتى يعتبر إجراء صحيح، وتجدر الإشارة إلى أن مقترح الإدارة الجمركية بخصوص إبداء رغبتها في المصالحة طرح إشكالا لدى الفقهاء إذ أثبتت مسألة الطبيعة القانونية لهذا المقترح

وبالرجوع إلى مجمل وثائق إدارة الجمارك المغربية، لم يتم العثور على أية إشارة إلى هذه الطبيعة القانونية، كما أن القضاء المغربي -حسب ما تسنى من الاطلاع على قراراته- لم يتصدى لمثل هذه المسألة، وفي هذا الإطار، ذهب القضاء الفرنسي إلى القول "بأن لمقترح المصالحة طبيعة إدارية منفصل عن المسطرة القضائية الرامية إلى زجر الجريمة، على اعتبار مسطرة المصالحة؛ مسطرة إدارية ولها استقلالية عن المسطرة القضائية، بالرغم من أن الإدارة لا يمكنها البدء في إجراءات المصالحة إلا بعد الموافقة المبدئية للسلطة القضائية الفرنسية".

لكن، وبالرغم من ذلك فلا يمكن اعتباره قراراً إدارياً، فهو لا يتوفر على الشروط اللازمة لذلك؛ حيث يتميز القرار الإداري بصوره بالإرادة المنفردة عكس المصالحة التي تعتبر نتاج توافق إرادتين، إضافة إلى أن للقرار الإداري طابعاً ملزماً يعكس مقترح

¹ محمد الشلي، (كتاب)، م س، ص 423.

² محمد كمال حمدي، "جريمة التهريب الجمركي وقرينة التهريب"، منشأة المعارف، الإسكندرية، ب ط، ص 396.

المصالحة الذي لا يلزم المتصالح في شيء، ويبقى له كامل الخيار بين قبوله أو رفضه، كما أنه لا ينتج آثاره بالنسبة للإدارة إلا بعد المصادقة عليه من الجهة الإدارية المختصة بإبرام المصالحة.

ثانيا: مضمون عقد الصلح

بالرجوع إلى النماذج المهيأة من طرف إدارة الجمارك، يتضح أن عقود المصالحة تتضمن مجموعة من البيانات كسرد الوقائع المتصالح بشأنها، والعروض التي قدمها المخالف، ونوع الجريمة المرتكبة¹. بالإضافة إلى هذا، يجب أن يتضمن عقد المصالحة عدة بيانات، منها تاريخ إنشاء العقد، وهوية الأمر بالصرف، وهوية الملمزم المتابع، نظرا لما لهذه البيانات من أهمية في مراقبة اختصاص الموظف الذي يجري المصالحة من عدمه، وكذا أهلية الطرف المتابع في إجراء المصالحة الجمركية.

كما يجب أن يتضمن عقد الصلح العروض المقدمة من طرف المتابع أو من طرف الإدارة، كأداء كافة النفقات، أو التنازل عن البضائع ووسائل التنقل المصادرة، ويتم الإشارة كذلك إلى النسخ المحررة من عقد المصالحة في حالة تعدد أطرافها، كما يجب في حالة تعدد مرتكبي الجريمة الجمركية الإشارة إلى اسم الطرف أو الأطراف الذين أبرموا المصالحة مع الإدارة أو التصريح بامتداد الآثار القانونية على الأطراف المتعاقدة دون غيرهم.

ثالثا: أجل الصلح

بالرجوع إلى المادة 41 من ق. م. ج²، يلاحظ أن المشرع اشترط في الصلح الجنائي أن يقام قبل ممارسة الدعوى العمومية وليس بعدها، أي بمجرد إحالة النيابة العامة للملف على أنظار القضاء لا يحق لأطراف الدعوى إجراء الصلح، عكس ما نص عليه التشريع الجمركي في فصله 273 إذ أعطى للإدارة إمكانية التصالح مع الأشخاص المتابعين من أجل أفعال مخالفة للقوانين والأنظمة الجمركية سواء قبل صدور الحكم النهائي أو بعده.

وإذا كان المشرع المصري³ قد ذهب إلى ما ذهب إليه المشرع المغربي، من خلال عدم تحديد زمن معين لإبرام الصلح، سواء كان قبل الحكم النهائي أو بعده، فإن هناك من التشريعات من أجازت إبرام عقد الصلح قبل الحكم النهائي فقط، ومن بين هذه التشريعات نجد المشرع السوداني الذي نص في المادة 76 من قانون الضريبة على أن الصلح لا يكون إلا قبل إحالة الدعوى على المحكمة أو قبل البدء في الدعوى. وبذلك إذا تقدم المخالف بطلب المصالحة فور ضبط المخالفة، فلا يعقل أن تنتظر الإدارة المختصة لحين اتخاذ إجراءات رفع الدعوى ثم تقبله بعد ذلك⁴.

¹ احمد برادة غزيول، مدونة الجمارك والضرائب غير المباشرة وفق آخر تعديل، دار النشر المعرفة، الرباط، ب ط ، ص 258.

² "يمكن للمتضرر أو المشتكى به قبل إقامة الدعوى العمومية وكلما تعلق الأمر بجريمة يعاقب عليها بستتين حبسا أو أقل أو بغرامة مالية لا يتجاوز حدها الأقصى 5000 درهم أن يطلب من وكيل الملك تضمين الصلح بينهما بمحضر".

³ المادة 124 مكرر من قانون الجمارك رقم: 66 لسنة 1963 المضاف بالقانون 75 لسنة 1980.

⁴ محمد الشريف بنخي، المنازعات الجمركية بالمغرب بين ازدواجية القضاء ووحدة القانون الجمركي، أطروحة لنيل الدكتوراه في القانون العام والعلوم السياسية، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة عبد الملك السعدي، طنجة، السنة الجامعية 2015-2016، ص 144-145.

المبحث الثاني: آثار المصالحة الجمركية وموقع القضاء فيها

المطلب الأول: أثر المصالحة الجمركية

إن المصالحة الجمركية تلزم كل من إدارة الجمارك والمتصالح بشكل لا رجوع فيه؛ أي أنه بمجرد المصادقة على المصالحة التي تمت بطريقة صحيحة، فلا يمكن الطعن فيها أو الرجوع فيها. وتنتج المصالحة الجمركية أثرها تجاه طرفيها (الفقرة الأولى)، وفي مواجهة الغير (الفقرة الثانية).

الفقرة الأولى: أثر المصالحة الجمركية

يقودنا تناول أطراف المصالحة الجمركية إلى الحديث عن إدارة الجمارك من جهة أولى والمتصالح من جهة ثانية، إذ تترتب عنها آثار يمكن تصنيفها إلى الآثار المشتركة بين الطرفين من جهة (أولاً)، والخاصة بكل طرف على حدة من جهة أخرى (ثانياً).

أولاً: الآثار المشتركة بين طرفي المصالحة الجمركية

عند إبرام المصالحة الجمركية بكيفية صحيحة والمصادقة عليها من جهة مختصة، تصبح نهائية، أي أنه لا يمكن الرجوع فيها (1)، ولا يمكن لأي من الأطراف الطعن فيها (2).

1) نهائية المصالحة الجمركية

ذهب المشرع المغربي إلى اعتبار المصالحة الجمركية نهائية، ولا يمكن الرجوع فيها، بمجرد المصادقة عليها، إذ لا يمكن سواء للإدارة أو المتصالح الطعن فيها،¹ وهذا دليل على أثر الانقضاء الذي ترتبه المصالحة باعتبارها بديلاً للقضاء، وتحل النزاعات بطريقة ودية وسريعة. فهي شأنها شأن الصلح المدني؛ إذ أن المشرع ذهب إلى القول: "لا يجوز الرجوع في الصلح ولو باتفاق الطرفين"². هذا يعني أن سلطة الإدارة محدودة بمجرد المصادقة على عقد المصالحة، وبالرغم من أنها تلعب دوراً مهماً في إبرامها، إلا أنه وبمجرد المصادقة عليها فلن يعود بإمكان أي من الطرفين التراجع عن تعاقده.

والملاحظ أن المشرع المغربي قد تشدد في هذا الموقف، ولم يترك بذلك للأطراف المتعاقدة حرية التراجع بعد إجراء الصلح؛ إذ أنه يشبه حكماً يحسم النزاع، أي أن الصلح كاشف للحق، وليس منشئاً له.

وتبعاً لما سبق، يتبين أن المصالحة الجمركية تكتسب قوة الشيء المقضي به؛ إذ أنه لا يمكن متابعة المتصالح من أجل جريمة تم التصالح بشأنها، كما يمكن للمتابع الدفع بسبق المصالحة من أجل رفض كل طلب جديد يمكن أن تتقدم به إدارة الجمارك، ويجب على الجهة القضائية التأكد من صحة دفع المتهم³، كما أنه لا يمكن للمتصالح أن يتقدم بأي طلب جديد؛ إذ أنه بمجرد تنفيذ المصالحة، فلن يعود بإمكان المخالف توجيه أي احتجاج أو رفع دعوى جديدة أو استئنافها أمام القضاء⁴، وهذا يستشف في الفصل 276 الذي ينص على أنه: "تلزم المصالحة التي أصبحت نهائية طبقاً لأحكام الفصل 273 أعلاه الأطراف بكيفية لا رجوع

¹ الفصلين 274 و 276 من م ج ض غ

² الفصل 1106 من ق ل ع

³ أحسن بوسعيقة، م س، ص 27

⁴ زين الاسم الحسين، (كتاب)، م س، ص 85

فيها ولا يمكن أن يقدم بشأنها أي طعن"، ونفس الشيء بالنسبة لإدارة الجمارك إذ يسقط حقها في المتابعة بمجرد إبرام المصالحة، لأن الدعوى العمومية تنقضي بالصلح.¹

بالرجوع إلى القواعد العامة في قانون الالتزامات والعقود، نجد أن الصلح ينهي النزاع، أي أن منع التراجع عن الصلح يعتبر قاعدة أمرة لا يجوز الاتفاق على مخالفتها بين الطرفين، فالهدف هو منع عرض النزاع مرة أخرى لتكون المصالحة بذلك بمثابة القانون الذي لا يجوز الاتفاق على مخالفته.²

2) عدم إمكانية الطعن في المصالحة الجمركية

بالرجوع إلى مدونة الجمارك والضرائب غير المباشرة، يتضح أن المشرع لم يحدد نطاق عدم جواز الطعن في المصالحة الجمركية، بل اكتفى بالقول: «لا يمكن أن يتقدم بشأنها أي طعن».³

والطعن الذي يمكن أن يتصور في المصالحة الجمركية هو الطعن الإداري الذي يتخذ صورة التظلم، أي أن التظلم يتم أمام إدارة الجمارك، فهل هذا الطعن هو المقصود من عدم جواز الطعن في المصالحة الجمركية، أم أنه يقصد به الطعن أمام القضاء؟ للإجابة عن هذا الإشكال، وباعتبار الطعن القضائي ليس مجرداً عن أي تصرف قانوني، فإن المصالحة الجمركية يمكن أن تكون محلاً للطعن القضائي، سواء أمام القضاء الإداري أو أمام القضاء العادي وهذا ما سنتطرق إليه في نقطة مستقلة.

ثانياً: الآثار الخاصة بكل طرف على حدة

إلى جانب الآثار المشتركة بين الأطراف، هناك بعض آثار المصالحة الجمركية، وتتعلق بكل طرف دون الآخر.

1) أثر المصالحة على إدارة الجمارك

إن المصالحة تولد التزامات على إدارة الجمارك، منها:

الالتزامات القانونية

هي تلك التي يحددها القانون، إذ أن سلطة الإدارة في إثارة الدعوى العمومية تنتهي بمجرد المصادقة على المصالحة، وذلك من خلال ما نص عليه الفصل 273 "إذا وقع الصلح وصار نهائياً قبل الحكم النهائي ترتب عليه بالنسبة إلى الأطراف المتعاقدة انقضاء دعوى النيابة العامة ودعوى الإدارة".

إلا أن النيابة العامة لا تسحب منها إمكانية إثارة الدعوى العمومية، إذ أن الصلح يوقف الدعوى، سواء أثناء سير الدعوى أو قبل إقامتها، ويمكن للنسبة العامة إثارتها⁴، إذا تبين لها أن هناك عناصر جديدة في الدعوى، أو إذا أخل أحد الأطراف بالتزاماته، بينما المصالحة الجمركية تؤدي إلى سقوط الدعوى العمومية بقوة القانون.

¹ المادة 4 من م ق ج.

² رشيد تاشفين، آثار عقد الصلح وقوته الثبوتية، مجلة البحوث، عدد 10، سنة 2011، ص 22.

³ الفصل 274 من م ج ض غ م.

⁴ محمد أعراب، العدالة التصالحية، مقال منشور بمجلة محاكمة، عدد 1، شتنبر 2000، ص 89.

التزامات تعاقدية

يقصد بها مجموع الاتفاقات والشروط المتضمنة في عقد المصالحة وهي غالبا ما تتضمن رفع اليد عن البضائع موضوع المخالفة. ومقابل ما تلتزم الإدارة ببذله في تنفيذ عقد المصالحة لفائدة المتصالح، فإن استحقاقها لمقابل المصالحة يعتبر من الحقوق التي خولها القانون باستعمال كافة الوسائل القانونية الرضائية والجبرية لتحصيله¹. ورغم أن المشرع المغربي لم ينص على ذلك في مدونة الجمارك إلا أن ذلك مرتبط بعقد المصالحة².

(2) أثر المصالحة على المتصالح في الجريمة الجمركية

بمجرد أن تبرم المصالحة بشكل صحيح، ترتب آثارا على إدارة الجمارك، كما رأينا سابقا، وعلى المتصالح، إلا أن هذا الآثار يبقى نسبيا كما نص على ذلك المشرع المغربي³.

ويتضح أن المصالحة الجمركية لا تلزم إلا الأطراف الذين ارتضوا اللجوء إليها، كما أنها تتميز بأثر نسبي. إلا أن المشرع حاول تفادي التناقض الظاهر في الفصلين 276 و 216، إذ ينص الفصل 216 على أنه: "لا يحكم إلا بغرامة جبائية فريدة على جميع المشاركين في مخالفة جمركية"، بينما أشار الفصل 276 إلى أنه يجب مراعاة أحكام الفصل 217 الذي ينص على أنه يجب الحكم بمجموع مبلغ العقوبات المالية المستحقة دون أن يخصم منه مبلغ المصالحة المبرمة مع الشركاء في الجناح أو المخالفات الجمركية والمتواطئين⁴.

وتجدر الإشارة إلى أن المصالحة الجمركية لا تخص إلا الأطراف الذين أبرموها، أي أنها لا تمتد إلى الغير؛ فالقول بامتدادها للغير الذي يضرب في مبدأ الرضائية الذي تتسم به المصالحة الجمركية.

وعليه، فإن التنازل الناتج عن المصالحة لا يقبل التجزئة، ولا يجوز العدول عنه، فكما يعتبر أمرا جوازيا بالنسبة للإدارة ويخضع لتقديرها، فإنه لا يعتبر حقا للمخالف وآثارها لا يستفيد منها إلا المتعاقدون بشأنها⁵.

الفقرة الثانية: الأثر الموضوعي للمصالحة الجمركية

تعتبر المصالحة الجمركية وسيلة إدارية اختيارية لتسوية المنازعات بشكل ودي، فهي تخلق أثرا، ليس على أطرافه فقط، وإنما حتى على النزاع المشمول بها، إذ أن ذلك الأثر يختلف بحسب ما إذا أبرمت قبل حكم نهائي (أولا) أو بعده (ثانيا).

أولا: المصالحة الجمركية قبل الحكم النهائي

نما لا شك فيه أن الأثر المترتب عن المصالحة هو انقضاء الدعوى العمومية والجبائية ومحو آثار الجريمة⁶، لهذا سوف نميز بين جميع مراحل الدعوى إلى حدود إصدار الحكم النهائي الذي سيكون موضوع النقطة الموالية.

¹ محسن أكرام، مرجع سابق، ص 74.

² اسماعيل مركول، جريمة التهريب الجمركي في التشريع الجمركي، رسالة لنيل دبلوم الماستر في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة القاضي عياض، مراكش السنة الجامعية 2014 - 2015، ص 205.

³ الفصل 276 من م ج ض غ م

⁴ حسن الوريغلي، الدعوى الجمركية بين المتابعة ومسطرة الصلح مقال منشور بمجلة المرافعة ع 17 يونيو 2006 ص 37

⁵ محمد الشلي، (كتاب)، م س، ص 566

⁶ أحسن بوسعيقة، م. س. ص 198

1) المصالحة الجمركية أمام الإدارة

يمكن إبرام المصالحة بمجرد ارتكاب الجريمة الجمركية، أي أن أعوان إدارة الجمارك يقومون بتضمين الصلح في المحضر الذي يقومون بإنجازه، أو قد يجررون المصالحة في محضر مستقل. وبمجرد المصادقة على المصالحة يسقط حق الإدارة في المتابعة، لأن المصالحة التي يتم إبرامها قبل حكم نهائي تؤدي إلى سقوط الدعوى العمومية في جميع أجزائها، سواء تعلقت بجزاءات مالية أو حبسية.¹

2) المصالحة الجمركية أثناء عرض النزاع على النيابة العامة

إن النيابة العامة هي ذات الولاية العامة في تحريك الدعوى العمومية²، إلا أن المشرع منح الاختصاص لبعض الإدارات من أجل متابعة الجرائم التي تلحق الضرر بالمنفعة العامة التي تعمل تلك الإدارات على حمايتها وتكون عادة ذات نفع اقتصادي ومالي، ولذلك، فإن إدارة الجمارك تختص في تحريك الدعوى العمومية في المخالفات المنصوص عليها في الفصول 285 و 29 و 297 و 299 وذلك طبقاً للفصل 249، بينما يعود الاختصاص في الجرح للنيابة العامة، وفي حالة ما إذا تم التصالح وجب إخطار النيابة العامة من أجل حفظ الملف، و حينئذ تقوم الإدارة بإرسال محضر المصالحة مرفقاً بالتنازل.

3) المصالحة الجمركية أثناء عرض النزاع على قضاء الموضوع

إذا أحالت النيابة العامة ملف المصالحة على القضاء، فإن المحكمة تصرح بانقضاء الدعوى العمومية، مما يشكل خرقاً لمبدأ فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، أي أن المصالحة تحرم الجهاز القضائي من سلطته في البت في القضية المعروضة عليه.

وهنا نعتقد أنه من الأحسن لو أن المشرع المغربي اتبع نظيره الفرنسي، فرغم اقتباسه لأحكامه، إلا أنه لم يساير التعديلات التي عرفتها المصالحة الجمركية في القانون الفرنسي، بحيث لا تعتبر المصالحة صحيحة إلا بموافقة السلطة القضائية.

إلا أن الإشكال المطروح هو ما مصير الحكم الصادر عن المحكمة أثناء إبرام المصالحة، فهناك جانب من الفقه، يرى أنه يجب الحكم بانقضاء الدعوى العمومية وليس ببراءة المتهم، لأن الحكم بانقضاء الدعوى يعني أنها لم يعد لها وجود، بينما تدل البراءة على وجودها، أما الجانب الآخر فيرى أنه لا يوجد أي تعارض بين انقضاء الدعوى وبراءة المتهم فالأول سببه وجود مصالحة والثاني هو تقرير لمبدأ دستوري³.

إلا أن المصالحة التي ترم قبل الحكم القضائي تعرضت لمجموعة من الانتقادات التي لحقت بها، إذ كيف يعقل أن تؤدي المصالحة الجمركية إلى إنهاء الدعوى العمومية عندما يتعلق الأمر بجزاءات حبسية تمس النظام العام والتي لا يسع للنيابة العامة أن تتنازل عنها، كما أن التصالح على هاته الجزاءات يؤدي إلى حرمان القضاء من حقه في تقدير مدى ملائمة توقيع الجزاء على المخالف مما يولد الاعتقاد بإمكانية شراء العقوبات لدى العامة⁴، وهناك إشكال آخر يتعلق بالجهة المختصة بالإفراج عن المخالف لأنظمة الجمركية في حالة إبرام المصالحة هل هي المحكمة أم النيابة العامة ؟

¹ محمد الشلي، (رسالة)، م س، ص 166

² المادة 36 ق.م.ج

³ محسن أكرام، م س، ص 84.

⁴ محمد الشلي، (رسالة)، م س، ص 166.

ثانيا: المصالحة الجرمية بعد الحكم النهائي

لم يتطرق أي نص من التشريعات الجنائية التي أجازت المصالحة امتداد أثرها بعد الحكم النهائي إلى الجزاءات الحبسية، إذ أن هناك من يرى أن امتداد آثار المصالحة إلى العقوبات الحبسية، يتعارض وحق العفو، إذ أن الإدارة لا يجوز لها أن تحل محل رئيس الدولة في حق العفو. لذا سنحاول أن نبين أثر المصالحة على العقوبة الحبسية (1)، وكذا على التدابير الوقائية (2).

(1) أثر المصالحة على العقوبة الحبسية

جاء في الفقرة الثانية من الفصل 273 ما يلي: "إذا وقع الصلح بعد حكم نهائي فإنه لا يسقط عقوبة الحبس والتدبير الوقائي الشخصي المنصوص عليه في الفقرة 1 من الفصل 220 أعلاه"، أي أنه إذا أبرمت المصالحة بعد الحكم النهائي فإنه لا تسقط إلا العقوبات المالية دون عقوبة الحبس وذلك من أجل جعل الأحكام التي تصدرها المحاكم ذات قيمة، وأن جعل حق العفو تمارسه الجهة المختصة بذلك قانوناً¹.

وهذا عكس ما ذهب إليه المشرع المصري، الذي اعتبر المصالحة المبرمة بعد صدور الحكم النهائي، تؤدي إلى وقف تنفيذ كل العقوبات التي تشملها سواء كانت مالية أو سالبة للحرية أصلية أو إضافية ويمتد آثار وقف التنفيذ إلى كافة جوانب الحكم، إذ لا يجوز الاحتجاج بها في حالة العود كما لا يجوز تسجيله في سجل السوابق العدلية².

وقد فُحج المشرع الفرنسي نفس النهج الذي سار عليه المشرع المغربي إلا أنه تراجع عن ذلك لما تخلقه المصالحة الجرمية بعد الحكم النهائي من مساس بحجية الأحكام القضائية.

ونعتقد أنه يجب على المشرع المغربي أن يتخذ نفس الموقف الذي تبناه نظيره الفرنسي، أي أنه لا يجوز إبرام المصالحة بعد الحكم النهائي، وذلك لتفادي المساس بحجية الأحكام القضائية.

(2) أثر المصالحة على التدابير الوقائية

التدبير الوقائي هو إجراء يلجأ إليه المشرع من أجل حماية المجتمع من بعض الأشخاص الذين أصبحوا خطراً عليه، نظراً لاستعدادهم لارتكاب أفعال إجرامية تهدد سلامة المجتمع، فهذا الإجراء هدفه أخذ الاحتياطات اللازمة. وقد حدد المشرع في التدابير الاحتياطية في الفصل 220 من م. ج. ض. غ. م.

بينما تتمثل التدابير الوقائية العينية في المصادرة الجرمية، فهي تقع على الأشياء الغير المحظورة³، وهذه المصادرة لا تسقط بإبرام المصالحة ولو كانت الأشياء محل المصادرة مملوكة للغير⁴. إلا أن الإشكال المطروح يتعلق بالإكراه البدني باعتباره من العقوبات السالبة للحرية، فهل تشمله المصالحة أم أنه يصنف ضمن العقوبات الحبسية؟

الفقرة الثانية: آثار المصالحة الجرمية على الغير

إن المصالحة الجرمية شأنها شأن المصالحة في القانون المدني لا تنفع الغير (الفقرة الأولى) ولا تضره (الفقرة الثانية).

¹ حسن أكرام، م. س، ص 89.

² حسن الطاهري، م. س، ص 67.

³ محمد الشلي، الجزاءات المالية في المادة الجرمية، مقال منشور بالمجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية ع 78-79، 2008، ص 109

⁴ محمد الشلي، (كتاب)، م. س، ص 545

أولاً: المصالحة الجمركية لا تنفع الغير

إن المصالحة المبرمة مع أحد المخالفين للأنظمة الجمركية لا تشكل حاجزا أمام المحكمة لمتابعة باقي الأشخاص الآخرين لارتكابهم مخالفة أو جنحة جمركية.¹ إذ أن النياية العامة تحتفظ بحق المتابعة في مواجهة مرتكبي المخالفات والذين لم يبرموا عقد الصلح مع إدارة الجمارك وكذا المشاركين. كما أن إدارة الجمارك لها نفس الحق في الحالة التي تتوقف فيها المتابعة على شكاية منها.²

وهذا المقتضى ناتج عن الطبيعة العقدية للمصالحة، وما تتميز بها من نسبية العقود المطبق في قانون الالتزامات والعقود، حيث لا تنتج المصالحة أثرها سوى في مواجهة المتعاقدين ولا يمتد أثرها إلى الغير وبالتالي فإن الشركاء والمتواطئين الآخرين تنطبق عليهم قاعدة لا ينتفع الغير بالمصالحة الجمركية.³ ولقد أثر التساؤل في المجال الجمركي حول ما إذا كان على القضاء عند تقدير الجزاءات المالية أن يأخذ بعين الاعتبار ما دفع المتهم المتصالح، أم أنه يحكم على باقي المتهمين دون خصم حصة المتهم المتصالح مع الإدارة الجمركية⁴، أي هل ما دفعه المتصالح للإدارة يخصم أثناء الحكم على باقي المتابعين أم لا؟

أجاب القضاء الفرنسي على هذا السؤال في عدة مناسبات، بقوله إن على الفاعلين الآخرين والشركاء دفع الجزاءات المالية كاملة بالتضامن فيما بينهم بدون خصم حصة المتصالحين، وللإدارة عند تحصيل العقوبات المالية أن تخصم المبالغ التي سبق أن حصلت عليها من المتهم المتصالح معها.⁵

وهو نفس الموقف الذي تبناه المشرع المغربي عند تأكيده أنه يجب الحكم بمبالغ العقوبات المالية المستحقة دون أن يخصم منه مبلغ المصالحات المبرمة مع الشركاء في الجنيح أو المخالفات الجمركية والمتواطئين، غير أن تحصيل مبلغ هذه العقوبات من طرف الإدارة لا يمكن أن يتابع عنه إلا بعد إسقاط نصيب الشركاء والمتواطئين المبرمة المصالحة معهم.⁶

يختلف الأمر في الحالة التي ترم فيها المصالحة بعد صدور الحكم النهائي. فحسب الفصل 213 من م ج ض غ م، فإن جميع الأشخاص المحكوم عليهم من أجل ارتكاب نفس الغش أو من أجل جنيح أو مخالفات جمركية مرتبطة، يلزمون على وجه التضامن بالمصادرات أو المبالغ المالية التي تقوم مقامها وكذا الغرامات والمصاريف.⁷ وبما أن المتابعين ملزمون بالتضامن في العقوبات المالية، فإنهم ملزمون أيضا بمبالغ المصالحات خاصة أنها عادة ما تكون أقل.⁸

ثانياً: المصالحة الجمركية لا تضر بالغير

من البديهي أن آثار المصالحة لا يتعدى طرفيها، فلا ينتج عنها ضرر لغير عاقيديها، وهذه القاعدة تجد أساسها في أحكام قانون الالتزامات والعقود ومدونة الجمارك. وعليه، فإذا أبرم أحد المتابعين مصالحة مع الإدارة الجمركية، فإن شركاءه والمستفيدين من الغش

¹ يونس النهاري، م س، ص 100.

² محسن أكرام، م س، ص 76.

³ عثمان نافع، التصريح الجمركي، بحث لنيل دبلوم الماستر في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية جامعة عبد المالك السعدي، طنجة السنة الجامعية 2012-2013 ص 37.

⁴ حسن الطاهري، م س، ص 99.

⁵ عثمان نافع، م س، ص 137.

⁶ الفصل 217 من م. ج. ض. غ. م.

⁷ عثمان نافع، م س، ص 137.

⁸ الحسين رين الاسم، م س، ص 132.

والمسؤولين مدنيًا لا يُلزمون بما يترتب على ذلك التصالح من آثار في ذمة المتابع المتصالح، كما لا يجوز للإدارة الرجوع على أي منهم عند الإخلال بالتزاماته، ما لم يكن من يُرجع عليه ضامنًا له أو متضامنًا معه، أو إذا كان المتهم قد باشر المصالحة بصفته وكيلًا عنه. كما لا يمكن للإدارة أن تحتج باعتراف المتهم الذي تصالحت معه بارتكاب جنحة أو مخالفة لإثبات مسؤولية شركائه، فمن حقهم أن ينفوا الجريمة الموجهة ضدهم بكل وسائل الإثبات. كما لا يكون للضمانات التي قدمها المتصالح أي أثر على باقي المخالفين. أما إذا اشترط عقد المصالحة مصادرة البضائع التي حجزت لفائدة إدارة الجمارك، فإن آثار فقد الملكية يسري في حق المالكين الأصليين، ولا يمكن لهم الحصول عليها نهائيًا، لأنه قد تمت بشأنها مصالحة بين الإدارة والناقل أو الإدارة والمعشر.¹

ويجد هذا الاستثناء تبريره في الأثر الناقل للمصالحة، إذ تنتقل ملكية الأشياء المصادرة أو المتخلى عنها لصالح إدارة الجمارك بمجرد إتمام المصالحة.

ورغم الأثر النسبي للمصالحة الجمركية الذي لا يمتد إلا لمن هو طرف فيها، نجد بعض الحالات التي يمتد فيها أثر المصالحة بطريقة غير مباشرة للغير، حيث يؤدي إلى الإضرار بمصالحه وحقوقه. فكما سبقت الإشارة إلى ذلك، تختلف قواعد المسؤولية في المادة الجمركية عن تلك المعروفة في قانون الالتزامات والعقود، إذ يمكن متابعة حائز البضاعة محل الغش، حتى لو أنه ليس مالكا للبضاعة التي بحوزته.²

وفي حالة وفاة مرتكب الجنحة أو المخالفة الجمركية الذي أبرم المصالحة مع إدارة الجمارك، دون أن يؤدي ما يجب عليه أداؤه لفائدتها بمقتضى هذه المصالحة، يكون من حقها استخلاص دينها في مواجهة الخلف العام، وذلك طبقا للفصل 265 من مدونة الجمارك.

أخيرًا، يمكن القول إن إدارة الجمارك والضرائب غير المباشرة تسعى دائمًا إلى تقديم أكبر قدر ممكن من المساعدة. ليس ذلك بدافع التسامح، وإنما لكون القانون الجمركي بطبيعته قانون نفعي ومالي يهدف إلى تحقيق المصالح، حتى من المخالفين لتشريعاته، ما دام ذلك يساهم في إثراء الخزينة العامة.

المطلب الثاني: موقع القضاء في مسطرة المصالحة الجمركية

يطرح اشكال يتعلق بالطبيعة القانونية للمصالحة الجمركية وهو موقع القضاء في هذه الأخيرة، أي لمن يعود الاختصاص، هل القضاء الإداري نظرًا لاعتبار إدارة الجمارك جهة إدارية، أم للقضاء العادي لأن المصالحة الجمركية عقد رضائي، وكذا دور القضاء في رقابة المصالحة؟

الفقرة الأولى: الجهة القضائية المؤهلة للنظر في دعوى بطلان المصالحة الجمركية

من بين الإشكالات التي تثيرها المصالحة الجمركية تلك المتعلقة بالجهة المختصة للنظر في دعوى بطلانها، وفي غياب نص صريح يحدد الجهة المختصة، سوف نرى هل هو القضاء العادي (أولاً) أم القضاء الإداري (ثانيًا).

¹ عزيمة ريمان، المنازعات الجمركية، تقرير لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة وحدة قانون الأعمال، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، السنة الجامعية 1999-2000، ص: 41.

² يونس النهاري، م س، ص 106.

أولاً: القضاء العادي

لقد ذهب القضاء إلى اعتبار دعوى بطلان المصالحة الجمركية من اختصاص القضاء العادي وذلك في العديد من القرارات، إذ ذهبت محكمة النقض إلى إلغاء ما قضت به المحكمة الإدارية بالرباط من اختصاصها النوعي في البت في دعوى بطلان المصالحة، إذ جاء في هذا القرار ما يلي: "وحيث إنه ما دام الحكم بالغرامة المفروضة على مخالفة قانون الصرف يرجع النظر فيه إلى المحاكم العادية وليس للقضاء الإداري. فكان من حق مكتب الصرف المستأنف التمسك بأن المحضر المطعون فيه ليس بقرار إداري ولا يخضع لمراقبة المحاكم الإدارية، وأن الحكم المستأنف لما تقضي بخلاف ذلك يكون قد تجاوز قواعد الاختصاص النوعي".¹

نفس الموقف تبنته في قرار آخر والذي جاء فيه: "حيث أنه من الواضح أن عقد الصلح المبرم بين المستأنف عليه والمستأنفة هو عقد رضائي، تخضع النزاعات المتعلقة بإبرامه وتنفيذه لمقتضيات القانون المدني، ولا يعتبر قرارا إداريا قابلا لطعن بالإلغاء كما ذهبت إلى ذلك خطأ المحكمة الإدارية، الشيء الذي يعني أنها غير مختصة في الدعوى الحالية".²

من خلال هذين القرارين، يتضح أن الطبيعة الجزئية التي يمتاز بها المجال الجمركي لا تؤثر على دعوى البطلان وطبيعتها المدنية، إذ أنه بمجرد إبرام المصالحة ترتب آثارها القانونية في مواجهة الدعوى العمومية وذلك بإسقاطها. في حين أن البطلان يعتبر جزءا لانتفاء ركن من أركان العقد والشروط اللازمة لقيامه. لهذا يخضع بطلان العقد للقضاء العادي لأنه ناتج عن توافق الإرادتين وليس بعقد إداري.

ثانياً: القضاء الإداري

يرى بعض الفقه المصري بأن المصالحة وإن كانت خاضعة للسلطة التقديرية للإدارة ولا رقابة للقضاء على مسطرتها، فإن قرار الإدارة بشأن المصالحة يعتبر قرارا إداريا لا يكون بمنأى عن الطعن فيه أمام المحكمة المختصة وهي المحكمة الإدارية.³

إلا أن جانب آخر⁴ انتقد هذا الموقف نظرا لاعتبار المصالحة تخضع في نطاقها للجرائم الاقتصادية والمالية بشكل عام، الشيء الذي يجعلها تخضع للسلطة التقديرية للإدارة، إلا أن قرار الإدارة الصادر بشأنها لا يعد من القرارات الإدارية، وإنما هو إجراء إداري يتعلق بالدعوى الجنائية، ويرتبط ارتباطا لا يقبل التجزئة بالتصرفات ذات الطبيعة القضائية الصادرة من إدارة الجمارك، ومن ثم يمنع المساس بذلك الإجراء الإداري بدعوى الإلغاء، لما فيه من مساس بتصرفات إدارة الجمارك، وبذلك ينعقد الاختصاص للقضاء العادي.

وهناك من ميز في أسباب البطلان المتعلقة بالمصالحة الجمركية بين الجوانب الإدارية والمدنية، فالأولى تتعلق بقرار المصادقة على المصالحة الذي يخضع لرقابة القضاء الإداري، بينما الجوانب المدنية تبقى بطبيعتها خاضعة للقضاء العادي. وهذا ما تبنته المحكمة

¹ قرار محكمة النقض عدد: 542 المؤرخ في 2003/06/19 ملف إداري عدد: 917-4-1-2003، مكتب الصرف ضد شركة، ك، أورده:

- محمد الشلي، (كتاب)، م س، هامش رقم 1، ص 632.

² قرار محكمة النقض، الغرفة الإدارية عدد: 1140 المؤرخ في 20 يوليو 2000، في الملف الإداري عدد: 582-4-00 أورده:

- عبد الله ولد، م س، ص 101.

³ مجدي محب حافظ، مرجع سابق، ص 89

⁴ محمد الشلي، (كتاب)، م س، ص 633-634.

الإدارية بوجدة وأيدته محكمة النقض في غرفتها الإدارية، حيث اعتبرت أن مراقبة قضاء الإلغاء لا تنصب على عقد المصالحة وإنما تنصب على قرار المصادقة.¹

الفقرة الثانية: موقع القضاء في مسطرة المصالحة الجمركية

للحديث عن موقع القضاء في مسطرة المصالحة الجمركية، سوف نعود إلى المسلك الذي سلكه المشرع المغربي، الذي غيب إمكانية الطعن في المصالحة الجمركية (أولا)، كما غيب كل رقابة قضائية سابقة على إبرام المصالحة الجمركية (ثانيا).

أولا: تغييب إمكانية الطعن في المصالحة الجمركية

بالعودة إلى الفصل 274 من م ج ض غ م الذي ينص على أنه: "لا تصبح المصالحة نهائية إلا بعد المصادقة عليها من طرف الوزير المكلف بالمالية أو من طرف مدير الإدارة.

وتلزم حينئذ الأطراف بكيفية لا رجوع فيها ولا يمكن أن يقدم بشأنها أي طعن".

يتضح من هذا الفصل أن المشرع اعتبر المصالحة نهائية لا تقبل أي طعن، نفس الشيء بالنسبة للفصل 11 من قانون 009/71 المتعلق بزجر الادخار الاحتياطي، أي أن المشرع حدد على سبيل الحصر المجالات التي لا تخضع لأي طعن بعد إبرام المصالحة في شأنها مما يجعلنا نتساءل عن الدافع الذي دفع المشرع إلى تبني هذا الموقف، ومدى مصداقيته.

هنا يجب الإشارة إلى أن الهدف من المصالحة دائما هو إنهاء النزاع ورأب الصداع بشكل ودي دون اللجوء إلى القضاء، ولكن هل يعد حرمان الطرفين من إثارة النزاع أمام القضاء ميزة؟ أم أن الأمر بخلاف ذلك، خصوصا بوجود طرفين غير متساويين، حيث أن الإدارة تبقى طرفا قويا ولها امتيازات في مسطرة المصالحة؟

يرى بعض الفقهاء أن الفصل 274 من م ج ض غ م يعد ضمانا قانونية لكلا طرفي المصالحة الجمركية، إذ لا يمكن إثارة أي منازعة أمام القضاء، أي أن كل طرف يلتزم بالتزاماته، فلا تستطيع الإدارة أن ترجع فيما التزمت به، كما لا يستطيع المتصالح الرجوع في التزاماته والتمثلة في أداء مقابل الصلح، ولو ظهرت دلائل جديدة تفيد عدم ارتكاب المخالفة أو عدم وجودها أصلا. كما أن هذا الفصل يحرم الطرفين من أي طعن كيفما كانت الظروف أو الشروط التي أبرمت بها المصالحة، فهي بمجرد المصادقة عليها تكتسب قوة الشيء المقضي به شأنها شأن الحكم النهائي.

وهناك من يرى خلاف ذلك، إذ أنه كيف يمكن حرمان الطرفين من الطعن كيفما كانت الظروف أو الشروط التي أبرمت بها المصالحة ضمانا قانونية لطرفيها.²

يمكن الأخذ بالرأي الأول، إذا نظرنا بمنظور الإدارة باعتبارها الطرف القوي في العلاقة التعاقدية، فهي التي تملئ شروط إبرام المصالحة الجمركية، أما بالنسبة للمتصالح فهذا الفصل يعتبر محجفا في حقه نظرا لسطو الإدارة وقوتها.

رغم أن المشرع أعطى حق الطعن في الأحكام المتعلقة بالمصالحة في مختلف المجالات التي تقبل المصالحة، إلا أنه في المصالحة الجمركية غيب تلك الإمكانية ما يؤدي إلى تناقض تشريعي، مما يجعل التساؤل المطروح هو: على أي أساس اعتمد المشرع للتمييز بين هذه المجالات وحرمان البعض دون الآخر في حق اللجوء إلى القضاء للطعن في المصالحة؟

¹ محمد النجاري، المنازعات الجمركية بين اختصاص المحاكم الإدارية والعادية، مجلة المحاكم الإدارية، ع 1، سنة 2001، ص 58.

² محمد الشلي، (رسالة)، م س، ص 156.

بقي أن نشير إلى أنه أمام حرمان المشرع من اللجوء إلى أي طعن قضائي في مسطرة الصلح، يمكن اللجوء إلى الإدارة من أجل المراجعة الإدارية لشروط الصلح أو ما يسمى بالتظلم الإداري، لكن هذه الإمكانية الإدارية لا تعتبر طعنا قضائيا، لأنها لا تتم أمام جهاز قضائي مستقل، وإنما تتم أمام نفس الجهة الإدارية التي تهيمن على مختلف مراحل مسطرة المصالحة.

ثانيا: تغييب المراقبة السابقة للمصالحة الجمركية

إن المشرع المغربي في النصوص المنظمة للمصالحة الجمركية، لم يتطرق إلى ما يفيد رقابة القضاء لهذه المصالحة، ولو في الحالة التي تثار فيها القضية أمام المحكمة، أو حتى بعد صدور حكم نهائي، نفس الموقف تبناه المشرع المصري بخصوص المصالحة الجمركية، إذ ذهب إلى اعتبار الصلح في قضايا التهريب الجمركي هو " نظام قانوني يدخل في نطاق الملائمة التقديرية التي تملكها جهة الإدارة من حيث إبرامه وإعمال آثاره..."، وذلك دون أن يعاقب عليها من أية جهة قضائية، إذ ليس للأخيرة الحلول محلها فيما هو داخل في صميم اختصاصها وتقديرها.¹

بينما خرج المشرع الفرنسي عن هذا التوجه، واشترط ضرورة موافقة السلطة القضائية على المصالحة الجمركية، في حالة إبرامها أثناء عرض النزاع أمام المحكمة وقبل النطق بالحكم النهائي، فإذا كانت المخالفة تستوجب العقوبة الحبسية، فإن الموافقة تصدر من النيابة العامة، وإذا كانت عبارة عن غرامات مالية فقط فإن الموافقة من رئيس المحكمة، إلا أنه بمجرد أن يكون الحكم نهائيا، لا يمكن إبرام المصالحة.

ويمكن للنياية العامة أن تستأنف قرار المحكمة بتوجيه الملف إلى الإدارة من أجل إبرام المصالحة، فهذا القرار لا يعتبر مجرد قرار إداري وإنما يكتسي طبيعة قضائية. وبالتالي يمكن للمحكمة رفض توجيه الملف للإدارة المعنية، إذا ما تبين لها خطورة الجريمة وتستوجب تطبيق العقوبات الجنائية وبالأخص تلك السالبة للحرية.²

¹ مجدي محب حافظ، "جريمة التهريب الجمركي"، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، دون طبعة، سنة 1992، ص 288.

² محمد الشلي، (رسالة)، م س ، ص 158.

خاتمة

أصبحت المصالحة الجمركية من بين التقنيات البديلة، التي لا زالت تساهم بشكل كبير في حل المنازعات وإصلاح العدالة وتحقيق نجاعة قضائية، رغم الانتقادات الموجهة إليها، بخصوص خرق أهم مبدأ دستوري والمتمثل في فصل السلط. وبما أنها تخضع في بعض أحكامها لقواعد الصلح المدني، نظرا لغياب نصوص منظمة لهذه المصالحة في شتى جوانبها، فإن الأمر يستدعي التدخل من طرف المشرع لتنظيم هذه المؤسسة وتأطيرها، إذ أن أهم ما يعيها هو ضعف التأطير القانوني. بهذا سوف نحاول أن نشير إلى بعض الاقتراحات التي يمكن أن تفيد في هيكلة هذه المؤسسة التي أعطت ثمارها في الميدان الجمركي:

يجب على المشرع إعطاء مكانة مهمة للمصالحة الجمركية في مدونة الجمارك، أي أنه يجب تحديد أحكامها وطبيعتها لكونها تتأرجح بين القانون المدني لوجود شخص خاص كطرف، والقانون الإداري لوجود الإدارة باعتبارها من أشخاص القانون العام. بالنسبة للعقوبات حبذا لو تم الاعتماد أكثر على العقوبات المالية مقابل التقليل من العقوبات الحبسية في الجرائم البسيطة، لأن الهدف من القانون الجمركي بالدرجة الأولى هو حماية الاقتصاد الوطني وليس ردع المخالفين. تحديد نطاق المصالحة الجمركية، أي تحديد الجرائم المشمولة بالصلح بشكل صريح.

تنمية الكفاية التواصلية لدى متعلمي اللغة العربية بالتعليم الابتدائي:

مقاربة ديدكتيكية تداولية

د. يوسف عابدات

د. ياسين أبومارية

د. محمد زين

المملكة المغربية

الملخص:

تغطي الكفاية التواصلية في منهاج اللغة العربية بالتعليم الابتدائي بأهمية بالغة بالنظر إلى استغراقها كل مكونات المادة واستثمارها بنصيب وافر من زمن التعلم، وهي كفاية فهم وإنتاج، والتحكم فيها يتطلب التحكم في مهارات أربع تتمثل في: الاستماع (فهم المسموع)، والتحدث (التعبير الشفهي)، والقراءة (فهم المكتوب)، والكتابة (التعبير الكتابي)، فضلا عن التوظيف السليم لقواعد اللغة؛ وتشكل هذه المهارات مجالات منسجمة ومتكاملة فيما بينها على مستوى واقع الاستخدام اللغوي تلقيا وإنتاجا؛ فميدان الاستماع والقراءة يعتمد على مهارتي الاستقبال والفهم، وميدان التحدث والكتابة يقوم على الإنتاج.

من هذا المنطلق، تسعى هذه الورقة البحثية إلى مقارنة الإشكالية الآتية: ما آليات تنمية الكفاية التواصلية لدى متعلمي اللغة العربية بالمدرسة بالابتدائية في بعدها الديدكتيكي والتداعي؟ وتتوسل في ذلك بمنهج وصفي تحليلي، وبناء منهجي قوامه مدخل مفهومي ومبحث أول حول المرتكزات الديدكتيكية لهذه الكفاية، ومبحث ثان حول مرتكزاتها التداولية، لتنتهي بخاتمة تبلور أبرز الخلاصات والاستنتاجات التي انتهت إليها، مع جملة من التوصيات والمقترحات.

كلمات مفتاحية: اللغة العربية، السلك الابتدائي، التواصل، الكفايات، الديدكتيك، التداولية.

مقدمة:

يتميز الطفل بحبه اكتشاف العالم من حوله والتواصل مع الآخرين لفهم هذا العالم وتلبية حاجاته، والمدرسة في صورتها المجتمعية، ومن خلال أدوارها التربوية والتعليمية تسعى إلى إكساب هذا الطفل/المتعلم كفايات تمكنه من الاندماج في المجتمع بصورة فاعلة؛ بما يفتح أمامه أفقا واسعا للتعلم والنمو الشخصي المتكامل، ومن هذه الكفايات: كفايات استراتيجية، وتواصلية، وثقافية ومنهجية وتكنولوجية.

انسجاما مع ذلك، تبث هذه الورقة البحثية زاوية اشتغالها في الكفاية التواصلية بوصفها كفاية تترجم قدرة المتعلم على استخدام اللغة بشكل فعال ومناسب في مواقف تواصلية حقيقية، وهي كفاية عرضانية تشغل حيزا مهما من زمن التعلم وتمتد عبر مجموعة من المكونات، لذلك تستهدف هذه الورقة البحث في آليات تنمية هذه الكفاية من الناحية الديدكتيكية والتداولية، مما يمكن من استجلاء أهميتها ومحاوريتها في ظل تبني المقاربة بالكفايات.

تنطلق هذه الورقة من إشكالية رئيسة مؤداها: ما آليات تنمية الكفاية التواصلية لدى متعلمي اللغة العربية بالمدرسة بالابتدائية في بعدها الديدكتيكي والتداولي؟ وتتوسل في ذلك بمنهج وصفي تحليلي، وبناء منهجي قوامه مدخل مفهومي ومبحث أول حول المرتكزات الديدكتيكية لهذه الكفاية على مستوى حواملها الديدكتيكية، وأنواع الخطابات المعتمدة فيها، ومبحث ثان يتمفصل حول مركزاتها التداولية، من خلال تسليط ومضات ضوء على ثنائية الاستعمال والتلقي، ونظرية الأفعال الكلامية، وأحوال المتخاطبين، لتنتهي بخاتمة تبلور أبرز الخلاصات والاستنتاجات التي انتهت إليها، مع جملة من التوصيات والاقتراحات.

1- مدخل مفهومي:

1.1- مفهوم الكفاية:

الكفاية لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور: "كَفَى يَكْفِي كِفَايَةً إِذَا قَامَ بِالْأَمْرِ. وَيُقَالُ: اسْتَكْفَيْتُهُ أَمْرًا فَكَفَانِيهِ. وَيُقَالُ: كَفَاكَ هَذَا الْأَمْرَ أَي حَسْبُكَ، وَكَفَاكَ هَذَا الشَّيْءُ. وَفِي الْحَدِيثِ: مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفْتَاهُ، أَي: أَعْتَنَاهُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ (...) وَكَفَى الرَّجُلُ كِفَايَةً، فَهُوَ كَافٍ (...) وَكَفَاهُ مَا أَهَمَّهُ كِفَايَةً وَكَفَاهُ مُؤُونَتَهُ كِفَايَةً"¹.

كما عرفها معجم اللغة العربية المعاصرة بأنها: "مصدر كفى، وتعني: مَقْدُرة وكفاءة، أو تعني: ما يلزم بالضبط على قدر الحاجة"². وفي المعجم الوسيط، يقال: "كفاه الشيء كِفَايَةً: اسْتَعْنَى بِهِ عَنْ غَيْرِهِ"³.

إنّ هذه التعريفات المعجمية، وإن كانت تبدو عامة غير دقيقة، تقترب إلى حد ما من الحقل الدلالي لمفهوم الكفاية على المستوى البيداغوجي حيث نجدها تربط بين الكفاية، وحصول الاستغناء عن الآخر، وتربط بين الكفاية والقيام بالأمر، كما تعني المقدرة على العمل أو وجود الحد الأدنى من ما يلزم للقيام بالعمل.

وفي الاصطلاح التربوي، تعني الكفاية:

¹ لسان العرب، 225/15.

² معجم اللغة العربية المعاصرة، 1948/3.

³ المعجم الوسيط، 2/ 793.

- قدرات من مستوى عال تستدعي إدماج عدة موارد لمعالجة وضعيات معقدة¹؛
 - إمكانية بالنسبة لفرد لتعبئة مجموعة مندمجة من الموارد بهدف حل وضعية – مشكلة تنتمي إلى عائلة من الوضعيات²؛
- كما عرفها برنارد جيني بأنها كل مندمج ووظيفي من المعارف والمهارات وقدرات حسن التصرف وكيفية التخطيط والتنبؤ بالمستقبل³.
- وأبرز فليب بيرنو في مؤلفه "بناء الكفايات انطلاقا من المدرسة"، أن الكفايات في التعليم هي مجموعة قدرات تتم تعبئتها في المدرسة وتوظيفها خارج أسوارها في مجابهة مشكلات، وحلها⁴.

2.1- مفهوم التواصل:

التواصل لغة: من الفعل الثلاثي (وصل)، ويذهب ابن منظور في معنى وصل إلى أن: "وصل: وَصَلَ الشَّيْءَ وَصْلًا وَصْلَةً، وَالْوَصْلُ ضِدُّ الْمَجْرَانِ (...) الْوَصْلُ خِلَافُ الْفَصْلِ (...) وَاتَّصَلَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ لَمْ يَنْقَطَعْ (...) وَالتَّوَاصَلَ ضِدُّ التَّصَارُمِ"⁵.

فالملقود من التواصل في الحقل اللغوي هو ربط الشيء بالشيء، وربطهما ببعضهما؛ أي الالتقاء والقرب وصلة بين شيئين، وقيام صلة بين طرفين.

واصطلاحا، يصعب إعطاء تعريف واحد ومحدد للتواصل؛ لكثرة الميادين المعرفية التي تناولت هذه الظاهرة من علم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة، واللسانيات، والتربية، وغير ذلك، فتعددت بذلك حدوده بتعدد المجالات التي تناولته. وسعيا إلى الجمع بين تلك التعريفات سنعرض بعض الأمثلة منها:

جاء في معجم تدريس اللغة واللسانيات التطبيقية applied dictionary of language teaching and linguistics أن التواصل: "تبادل الأفكار، والمعلومات بين شخصين أو أكثر. و يكون عادة أثناء عملية التواصل متكلم أو مرسل واحد على الأقل، ورسالة مرسلة، وشخص أو أشخاص ترسل لهم هذه الرسالة (المرسل إليه)"⁶.

وفي دليل التواصل البيداغوجي عرف بكونه "الميكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتتطور؛ إنه يتضمن كل رموز الذهن مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها في الزمان. وتتضمن أيضا تعابير الوجه وهيئات (الجسم) ، والحركات، ونبرة الصوت، والكلمات والكتابات، والمطبوعات والقطارات والتلغراف والتليفون، وكل ما يشمله آخر ما تم من اكتشافات"⁷.

وإجرائيا هو: عملية إرسال رسالة بين طرفين أو أكثر، وتنجز بوسائل داخل سياق محدد من أجل إحداث أثر⁸.

¹ الدليل البيداغوجي للتعليم الابتدائي، ص 23.

² نفسه، ص 23.

³ نقلا عن: https://staff.univ-batna2.dz/djoubar_merwan/classes

⁴ نقلا عن المرجع السابق.

⁵ لسان العرب، 11/ 726.

⁶ محمد إسماعيل علوي، التواصل الإنساني دراسة لسانية، ص 18.

⁷ دليل التواصل البيداغوجي وتقنيات التنشيط التربوي، ص 2

⁸ نفسه، ص 3.

يستشف من التعاريف السابقة أن التواصل عملية تبليغ رسائل وتبادلها بين عدة أطراف، في سياق محدد، ويتم بطرق عدة شفاهيا أو كتابيا أو سلوكيا أو حسيا أو رمزيا.

3.1- الكفاية التواصلية:

عرف مفهوم الكفاية التواصلية عدّة تعريفات، بل وتنوّعا للمصطلحات، فهناك من يسمّيها كفاية تداوليّة أو تخاطبيّة أو تبليغيّة أو تواصلية، ورغم اختلاف المسمّيات فإن معناها يبقى واحدا، ويعد ديل هانمز أول من تطرّق إلى مفهوم الكفاية التواصلية، وذلك أثناء دراسة له نشرت عام 1971، وجاءت ردا على فكرة تشومسكي حول الكفاية والأداء، إذ رأى بأنها معزولة عن أي محيط تستخدم فيه.

يرى هانمز أن الكفاية التواصلية هي: المعرفة بالقواعد النّفسية والثقافية والاجتماعية التي تتحكّم في استعمال الكلام في إطار مجتمع معيّن¹. أمّا محمّد يونس علي " فيعرّف الكفاية التواصلية أو كما يسمّيها بالكفاية التخاطبية على أنّها: المقدرة على استخدام اللّغة في سياقاتها الفعلية التي تتجلى فيها"².

إذا، فالكفاية التواصلية هي مدى وعي الفرد بالقواعد الحاكمة للاستعمال المناسب في موقف اجتماعي، وتشتمل على مفهومين أساسيين هما: المناسبة والفعالية، وهذان المفهومان يتحقّقان في كلّ من اللّغة المنطوقة والمكتوبة³.

كما تتجلى الكفاية التواصلية في مجموعة من السمات الأساسية، تلخصها ساندرا سافينون فيما يلي :

- تعد الكفاية التواصلية مفهوما متحركا، وليس ساكنا، كونه يعتمد على مدى استعداد الفرد لتبادل الأفكار والمعاني مع فرد آخر أو مجموعة من الأفراد.
- الكفاية التواصلية منطبقة على اللغتين المنطوقة والمكتوبة، وكذا الرموز المختلفة.
- تتطلب الكفاية التواصلية القدرة على اختيار اللغة والأسلوب من خلال المواقف المختلفة.
- الكفاية التواصلية نسبية وليست مطلقة⁴.

2- المرتكزات الديدكتيكية للكفاية التواصلية:

في ظلّ انتهاز المدرسة المغربية لمناهج المقاربة بالكفايات؛ حظيت الكفايات التواصلية بأهمية كبيرة لتدريب المتعلّمين على التعبير بلغة سليمة في مواقف تعليمية متنوّعة وبأغراض متعدّدة؛ كالسرد، والحوار، والوصف، والتّوجيه، والإقناع، والحجاج، وإرساء مواردها وتنمية الكفايات الأساسية التي تمكّن المتعلّم من هيكلة فكره وتكوين شخصيته، والتّواصل بها مشافهة وكتابةً في مختلف الوضعيات، وقد حدد الكتاب الأبيض لوحدة اللغة العربية مجموعة من الكفايات الأساسية التي تخدم الكفاية التواصلية، وهي كالآتي:

- التواصل عن طريق اللغة العربية قراءة وكتابة وتعبيرا؛
- التعبير الشفهي بالنسق العربي الفصيح؛

¹ Robert Galison, et Coste. D, Dictionnaire de didactique des langues, p 106.

² محمّد محمّد يونس علي، المعنى وظلال المعنى، ص 148.

³ أحمد عبده عوض، مداخل تعليم اللّغة العربية، ص 68.

⁴ رشدي أحمد طعيمة، المهارات اللغوية، ص 173-174.

- استعمال رصيد وظيفي فصيح، يرتبط بحياة المتعلم (ة)، ويتوسع تبعاً لتدرج مجالات البرنامج؛
 - التقاط صور الحروف العربية، وقراءتها ضمن كلمات وجمل ونصوص بسيطة؛
 - الرسم الخطي للحروف العربية مجردة وضمن كلمات وجمل وفقرات قصيرة؛
 - استعمال اللغة العربية لتحصيل بعض المعارف والخبرات المناسبة لمستوى المتعلم (ة) الدراسي؛
 - استعمال اللغة العربية لإدراك بعض القيم الإسلامية والوطنية والإنسانية في حدود مستوى المتعلم الدراسي، لتتأصل في كيانه وشخصيته؛
 - التمكن من عدد من القواعد اللغوية، قادراً على استعمالها بشكل صحيح في أنشطته اللغوية المنطوقة والمكتوبة وفي التواصل السليم مع الغير¹.
- سعيًا إلى بحث آليات تمكين المتعلم من هذه الكفاية على المستوى الديدكتيكي، سيتم التعرض إلى حواملها الديدكتيكية، وأنواع الخطابات المعتمدة فيها.

1.1- الحوامل الديدكتيكية:

أ- الاستماع والتحدث:

يعد الاستماع والتحدث من مستجدات المنهاج المنقح، ومدخلا أساسيا للتدرب على الممارسة الشفهية باللغة العربية، من خلال الحكاية والوضعية التواصلية. والتمكن من مهارتي الاستماع والتحدث له أهمية كبيرة في حياة المتعلم، ونضج كفايته التواصلية، فمن خلالهما يكتسب القدرة على حسن الإنصات والإصغاء، والتعبير عن رغباته واحتياجاته، وفهم الآخرين و التواصل معهم بشكل سلس.

يختص مكون الاستماع والتحدث بالسنوات الثلاث الأولى فقط من التعليم الابتدائي، ويتم تصريفه عبر نشاطين:

- استثمار الحكاية:

يشترط في الحكاية شروط وصفات متنوعة بعضها يتعلق بالانسجام مع مجال الوحدة التي ترد فيها هذه الحكاية إضافة إلى صفات تتعلق بمجال القيم، وشروط تتعلق بالحكاية في ذاتها من حيث اللغة والبناء بصفة عامة.

- الوضعية التواصلية:

يشترط فيها ألا تكون ذات طابع تجريدي عام، بل يجب أن تكون حسية قابلة للإدراك، ومرفقة بصور تشخيصية. وعليها أن ترتبط هي الأخرى بمجال الوحدة، وأن تكون قابلة لفعل التشخيص والمحاكاة (المسرحية).

ب- التعبير الشفهي:

يمثل التعبير الشفهي مهارة لغوية ونشاطا كلاميا يفصح به المتعلم عن حاجاته وأفكاره بلسانه ويتواصل به مع غيره عن طريق قرائن لغوية وغير لغوية، وهو الوسيلة الأكثر استخداماً في المواقف التعليمية بين طرفي العملية التعليمية التعلمية (المدرس، والمتعلم)، حيث يتم الانطلاق من وضعية مشكلية ومواقف واقعية منسجمة مع المجال ومع المستوى التعليمي، لدفع المتعلم للتفاعل معها وجعله يشعر بعدم كفاية المعجم والأساليب اللغوية التي يمتلكها، ومن ثم يسعى إلى ترويج رصيد معجمي جديد، والتدرب على توظيف الأساليب المكتسبة، مع منحه الوقت الكافي لذلك، وتشجيعه على التكلم بلغة عربية فصيحة.

¹ الدليل البيداغوجي للتعليم الابتدائي، ص 73.

على هذا الأساس، ينبغي جعل غرفة الدرس فضاءً يشعر فيه المتعلمون بحرية التعبير عن مواقفهم وأحاسيسهم وأفكارهم، مع التنوع في التقنيات بين: تقنية الأسئلة والأجوبة، وتقنية المناقشة الجماعية، وتقنية التشخيص، وتقنية الارتجال، وتقنية المحاكاة ولعب الأدوار وغيرها.

ت- القراءة/ فهم المقروء:

للقراءة أهمية كبيرة في تنمية الكفاية التواصلية لدى المتعلم، لكونها تفاعل بين القارئ والنص، ولأنها "عملية عقلية انفعالية دافعية تشمل تفسير الرموز والرسوم التي يتلقاها القارئ عن طريق عينيه وفهم المعاني، والربط بين الخبرة السابقة وهذه المعاني والاستنتاج والنقد والتذوق وحل المشكلات"¹؛ لذلك، أولتها المنظومة التربوية أهمية بالغة، وجعلتها مهارة أساسية ومحورية تلتقي مع العديد من المهارات الأخرى كالتحدث والاستماع والكتابة، وتكامل معها على النحو الآتي:

- **القراءة والتحدث:** تلتقي القراءة مع التحدث في جانبين أساسيين هما النطق والأداء، فكلهما يوظف مهارات النطق المختلفة ويحتاجها، كما أن جانب الأداء المصاحب للنطق يعد من أبرز مهاراتها؛ لأنهما مهارتان أدائيتان يحكم عليهما من خلال السلوك القابل للملاحظة، ولما كان تعلم التحدث واكتساب مهاراته يسبق القراءة، فإن تمكين الطفل من مهارات نطق الحروف والكلمات بشكل صحيح، مع الأداء الجيد والمعبر عما يتحدث عنه سوف يؤثر وينعكس على أدائه اللاحق في القراءة الأدائية (الجهرية).

- **القراءة والاستماع:** تستند العلاقة بين القراءة والاستماع إلى جوهر هاتين العمليتين والهدف الرئيس منهما وهو "الفهم"؛ حيث يكتسب الطفل بداية مهارات الاستماع، وكلما تطورت مهارات الفهم السمعي لديه كان ذلك مدعاة لنمو الفهم القرائي اللاحق لديه، فالفهم عملية لا تتجزأ وهي عملية مشتركة بين القراءة والاستماع.

- **القراءة والكتابة:** ترتبط القراءة بالكتابة ارتباطاً مباشراً؛ لأنهما تمثلان طرفي الرسالة الكتابية، فهما وجهان لعملية واحدة وهي "المعرفة"، فإذا كانت القراءة تمثل عملية تلقي المعرفة فإن الكتابة تمثل المنتج، بل هي المعرفة ذاتها. وتحتاج الكتابة إلى مهارات وخبرات لا تتأتى بغير القراءة، ولا قراءة أصلاً دون كتابة، فالنص المكتوب يعمل على ضبط النطق والأداء، وتوجيه القراءة الوجهة الصحيحة قواعدياً ودلالياً².

فالقراءة بهذا عملية ذهنية تأملية ونشاط عقلي مركب، تتألف فيه قدرات الفرد المختلفة كالقدرة على التعرف والفهم والتمييز والتحليل والتركيب والإدراك، أي أنها تشتمل على جميع العمليات العقلية التي تتطلبها الكفاية التواصلية مثل: الذاكرة والفكرة والخيال والتنظيم والتطبيق، ومن ثم الوصول بالمتعلم إلى مستوى يستطيع معه تجاوز الإدراك البصري للرموز المكتوبة والتعرف عليها والنطق بها إلى مفهوم آخر هو فهم أبعاد الرمز وسلسله الدلالية، والتفاعل مع المقروء والانتفاع به في المواقف الحيوية.

ج- التعبير الكتابي:

التعبير الكتابي نشاط تواصلية، و"ترجمة للفكر ونقل للمشاعر ووصف لتجارب، وسجل للأحداث وفق رموز مكتوبة، متعارف عليها بين أبناء الأمة المتكلمين والقارئ والكاتبين لها قواعد ثابتة وأسس علمية تراعي الذات والحدث والأداة"³.

تتطلب تنمية المهارات الكتابية الاهتمام المبكر بالكتابة منذ السنة الأولى، لتمكين المتعلم (ة) من الكتابة الصحيحة، وإنتاج كلمات وجمل ونصوص قصيرة، بحيث يتم التركيز في السنتين الأولى والثانية على تعزيز التمكن من الكتابة الصحيحة خطأ

¹ شحاتة حسين، تعليم اللغة العربية بين النظرية والتطبيق، ص 105.

² البصيص حاتم حسين، تنمية مهارات القراءة والكتابة "استراتيجيات متعددة للتدريس والتقويم"، ص 51-52.

³ أحمد خطيب ونيل حسين، مهارات الكتابة والتعبير، ص 96.

وإملاء، وإنتاج جمل قصيرة بالإكمال والوصل وترتيب الكلمات والتعبير عن صور ورسوم مرتبطة بالحكايات والوضعيات التواصلية، وكتابة جمل عن موضوعات مرتبطة بمجالات البرنامج الدراسي في علاقتها بحياة الأطفال واهتماماتهم. وتشمل أنشطة الكتابة تمرين المتعلمات والمتعلمين على نوعين من الكتابة:

النقل والخط والإملاء: وهي مهارات تكتسب بالتدريب والمران، وتساهل دروس القراءة، وتشكل امتدادا لها في السنتين الأولى والثانية، وتتمحور أنشطتها على كتابة الحروف والكلمات والجمل بتدرج من النقل إلى الخط ثم الإملاء.

التعبير الكتابي: من خلال الكتابة التفاعلية، وهي نشاط تعليمي تعلمي يشترك فيه الأستاذ والمتعلمون والمتعلمات من أجل كتابة جملة أو فقرة أو نص، ثم يتقاسمون ما أنتجوه ويراجعونه ويعرضونه، أو الكتابة الوظيفية والإبداعية (المستويان الخامس والسادس) حيث يوجه المتعلمون إلى كتابة نص قصير مرتبط بمضامين المجالات الدراسية المقررة، ويفسح المجال أمامهم لاستثمار الحصيلة المعرفية والمعمجة المحصل عليها في القراءة والظواهر اللغوية، ومهارات التحرير المكتسبة.

إذا، فالتعبير الكتابي هو ثمرة النمو اللغوي لدى المتعلم، يعكس مدى تمكنه من استعمال قواعد اللغة ورصيده اللغوي، ومن تم يشكل أداة تواصل أساسية تعكس بشكل جلي مستوى الكفاية التواصلية لدى المتعلم، والاهتمام به هو من صميم الاهتمام بهذه الكفاية وتطويرها.

2.2- اعتماد أنواع مختلفة من الخطابات:

لضمان البعد الوظيفي لتعلم اللغة العربية، تم اعتماد أنواع مختلفة من الخطابات الخطاب السردية، والخطاب الإخباري، والخطاب الوصفي، والخطاب التوجيهي والخطاب الحجاجي، والخطاب التفسيري. ولتمكين المتعلمين والمتعلمات من التعامل معها في سياقات دالة، تم تناولها من خلال النصوص ومختلف الدعامات والحوامل السمعية والبصرية والسميائية بشكل منتظم ومتدرج يأخذ في الحسبان خصوصيات كل سنة من سنوات التعليم الابتدائي والمرحلة النمائية للمتعلقات والمتعلمين، دون إغفال مطلب ترويج الأساليب والبنى اللغوية المقررة.

السنوات	أشكال الخطاب وحواملها
3.2.1	نصوص نثرية (سردية، إخبارية، وصفية، توجيهية) ونصوص شعرية + الحوامل السمعية والبصرية والسميائية.
6.5.4	نصوص نثرية (سردية، إخبارية، وصفية، توجيهية، حجاجية، تفسيرية) ونصوص شعرية + الحوامل السمعية والبصرية والسميائية.

بعد هذه الجولة الديدكتيكية، يتبين أن تحقيق الكفاية التواصلية لدى الطفل ينبي على أساس حصول التكامل بين مكونات المادة والمجالات التي تؤثثها، وجعل المتعلم هو الفاعل الأساس في الأنشطة التعليمية التعليمية، مع توفير المعينات الديدكتيكية اللازمة، وتحقيق هذه الشروط هو تحقيق لما يسميه الباحثون اللغويون "بالانغماس اللغوي" الذي يجعل الطفل يتقبل ويسبح منذ الصغر في تواصل يعتمد النسق اللغوي الفصيح في بنيته السطحية والعميقة.

2- المرتكزات التداولية للكفاية التواصلية:

تلعب الكفاية التواصلية الدور الأساس في فهم الطفل للعالم المحيط به وتعزيز قدرته على التعبير عن واقعه بطريقة خاصة، وتساهم في بناء أسلوبه في الكلام وتكوين شخصيته اللغوية لتمكينه من تبليغ مقاصده وتحقيق غاياته، وتبني هذه الكفاية على مجموعة من المرتكزات التداولية:

أ- ثنائية الاستعمال والتلقي :

تتمظهر الكفاية التواصلية تداوليا من جهة الاستعمال عن طريق التوظيف السليم للرصيد المعجمي وللأساليب والتراكيب والظواهر اللغوية المروجة وإن كانت بشكل ضمني، ومراعاة تطابق الأقوال والخطابات التي ينتجها الطفل مع المواقف المناسبة، وقدرته على توظيف آليات واستراتيجيات خطابية في توجيه كلامه، الأمر الذي يقتضي من المدرس خلق وضعيات تواصلية تمهده على ذلك، مع الحرص على حثه على استعمال إيقاعات صوتية معبرة، ومراعاة قواعد النبر والتنغيم وعلامات الوقف، وتوظيف التعبيرات الجسدية والإيماءات بما يتناسب مع الموقف التواصلية.

أما من جهة التلقي، فينبغي تنمية قدرة المتعلم على حسن الإصغاء والإنصات ثم الاستيعاب، بالاعتماد على مكتسباته السابقة وتفعيل دور السياقين اللغوي وغير اللغوي لفهم مختلف الخطابات التي يواجهها بشكلها المنطوق والمكتوب، وتخرج المعاني منها تخریجا سليما للوقوف عند مقاصدها.

ب- نظرية الأفعال الكلامية:

يعد جون أوستين مؤسس هذه النظرية وواضع المصطلح الذي تُعرف به الآن في الفلسفة وفي اللسانيات المعاصرة، والتي أطلق عليها بعده عدة تسميات مثل: ظاهرة الحدث الكلامي، ونظرية الأفعال الإنجازية، ونظرية أفعال اللغة، ونظرية الحدث اللغوي، والأفعال الكلامية، وكان ذلك في المحاضرات التي ألقاها في جامعة أكسفورد في العقد الثالث من القرن العشرين، ثم في المحاضرات الاثني عشر التي ألقاها في جامعة هارفرد سنة 1955م، ونشرت سنة 1962م بعد موته في كتاب عنوانه ¹ (How to do things with words?).

تنطلق هذه النظرية من مبدأ رئيس في فلسفة اللغة مفاده "أن الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط بل إنجاز حدث اجتماعي في الوقت نفسه"²، ومؤدى ذلك أن الأقوال الصادرة عن المتكلمين في وضعيات معينة تتحول إلى أفعال ذات سمات اجتماعية، وأن الغاية من اللغة ليست التعبير بقدر ماهي التأثير في الآخر وتجسيد هذا التعبير واقعا بتحقيق عمل أو تصرف اجتماعي ينجز عند النطق به.

وفي المجال البيداغوجي، تهتم نظرية الأفعال الكلامية بكيفية إنجاز أفعال وتأثيرات في المتلقين من خلال توظيف أفعال تتسم بخصائص مميزة تؤثر في المتلقين وفي الوقت ذاته تسعى الخطابات التعليمية الديدكتيكية إلى تفعيل التواصل البيداغوجي وآلياته لكونه خطوة أولى في طريق دمج المتعلم في عملية تعليمه ومشاركته الفعالة في التعلم.

¹ محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 61.

² ينظر أيضا: J. L. Austin : How to do things with words, p 152-160.

² بوجادي خليفة، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 136.

من جهة أخرى تسهم نظرية الأفعال الكلامية في اكتساب المتعلم الكفايات التواصلية التي تمنحه القدرة على التعاطي مع العبارات ذات الأبعاد الاجتماعية والتي تختص بثقافة مجتمع ما دون سواه مما يمكنه من التعرف على الأعراف الاجتماعية وتكوين شخصيته اللغوية انطلاقاً من التعايش اللغوي وسط بيئته ومجتمعه واستخدام عبارات وصيغ ضمنية يتوقف فهمها الربط بين مختلف السياقات والمقامات والخلفيات التي قيل فيها¹.

بالمقابل، يتمهر المتعلم في سياقات تواصلية مختلفة على استخدام أفعال كلامية مناسبة لمقام التخاطب، فيصدر أحكاماً على مواقف أو أشخاص أو أشياء من خلال أفعال حكمية (يرى، يقدر، يعين، يقوم...) ويتمهر على تحمل المسؤولية من خلال أفعال التكليف (يعد، يلتزم، يتعهد، يقسم...)، ويمكنه الإفصاح عما يختلج نفسه من شعور بشكل صادق من خلال أفعال سلوكية (يعتذر، يتأسف، يشكر، يهنئ، يرحب، يبارك، يعزي...)...

إن تعليم الأفعال الكلامية واستثمارها في تعليم اللغة يسمح للمتعلم من التعرف على وظائف اللغة المختلفة، وكذا إكسابه الآليات الخطائية والحوارية التي تجعل من كلامه وخطاباته مؤثرة وقوية، كما يساعده هذا النوع من الأقوال على اكتساب الطلاقة التعبيرية للتعبير عن أغراضه ومقاصده، إلا أن ذلك لا يتحقق إلا من خلال تفاعله في الصف ومشاركته بشكل فعال في الوضعيات التعليمية، واستثمار الوسائل اللسانية التي تسمح له بالتوظيف الأمثل للغة.

ج- أحوال المتخاطبين:

حتى يتحقق الخطاب التعليمي في ظروف تداولية جيدة وجب أن يمتلك كل من طرفيه المدرس والمتعلم جملة من الخصائص والصفات تساعدهما في أداء دورهما حسب مقامهما في العملية التواصلية القائمة على فعلي التشفير وإزالة التشفير.

المدرس/الباث:

يشترط فيه امتلاك كفاية تواصلية جيدة تمكنه من حسن تحيز اللفظ المناسب للمقام بما يضمن تبليغ المقاصد والإقناع بها، وهذه الكفاية مشروطة بدورها بتوافر كفاية لسانية تمكنه من ربط النظام اللغوي بواقع استعماله، فضلاً عن كفاية تداولية، تمكنه من مراعاة أحوال المتلقي/المتعلم بالاحتكام إلى خلفيته النفسية والاجتماعية والثقافية، وكذا حسن اختيار المقاربات البيداغوجية المناسبة لإيصال المحتوى التعليمي².

المتعلم/المتلقي:

أصبح المتعلم محور العملية التعليمية التعلمية، ويحتل دوراً مهماً في المشاركة الفعلية في بناء تعلماته، وتبعاً لذلك استدعت تنمية كفاياته التواصلية وضعه في وضعيات إجرائية تفاعلية مليئة بالحيوية والنشاط، واصطناع مواقف تواصلية مركزة على استراتيجيات التعلم النشط مثل حل المشكلات، ولعب الأدوار، والمناقشة والحوار، والمحاكاة وغيرها، إضافة إلى التركيز على تنمية ثلاث قدرات متلازمة، وهي:

- **قدرة نحوية:** تضم المعرفة بالقواعد التركيبية والدلالية والصوتية التي تمكن المتعلم من إنتاج جمل صحيحة ذات دلالة؛
- **قدرة سوسيو لسانية:** وهي معرفة العلاقات بين اللغة وسياقها غير اللساني؛

¹ كلثوم درقاوي، أثر نظرية الفعل الكلامي في امتلاك الكفاية التداولية لدى متعلمي الطور الأول: مقارنة ديدكتيكية تداولية، مجلة لغة - كلام، مج 3، ع 1، 2017، ص 116.

² وفاء صبحي، الأبعاد التداولية للخطاب التعليمي وآفاق تنمية الكفاية التواصلية لدى متعلمي المرحلة المتوسطة - دراسة ميدانية، ص 245.

ينظر أيضاً: لبوخ بوجملين وشيباني الطيب، العناصر التداولية التواصلية في العملية التعليمية، ص 67 وما بعدها.

● **قدرة استراتيجية:** وهي معرفة استراتيجيات التواصل اللغوي وغير اللغوي¹.

ليست هذه المرتكزات التداولية إلا من قبيل التمثيل، وتتعدد بعناصر أخرى من صميم الحقل التداولي كالمقام والسياق الاجتماعي والثقافي للتخاطب، وهو ما يؤكد استناد الكفاية التواصلية على أسس ذات طابع بيداغوجية ديدكتيكية من جهة، ولسانية تداولية من جهة أخرى.

خاتمة:

حاولت هذه الورقة تقديم رؤية ديدكتيكية تداولية حول آليات الارتقاء بالكفاية التواصلية لدى متعلمي اللغة العربية بالمدرسة الابتدائية، بما يساهم في تطوير شخصيتهم وتعزيز قدرتهم على التفاعل مع محيطهم بفعالية، وقد انتهت هذه الورقة إلى مجموعة من الخلاصات منها:

- تعدد الحوامل الديدكتيكية لهذه الكفاية (الاستماع، التحدث، القراءة، الكتابة) وتكاملها و شغلها حيزا زمنيا مهما؛
- تنوع الخطابات المعتمدة في وضعيات التواصل بما ينسجم مع حاجيات المتعلمين التواصلية في هذه المرحلة؛
- للاتجاه التداولي حضور قوي في اكتساب هذه الكفاية من خلال اهتمامه بالفعل الكلامي والظروف المحيطة به، وتركيزه على مقاصد المتكلمين وأحوالهم، والسياقات الاجتماعية والثقافية الخاصة بهم، والتفاعلات الكلامية بينهم.

بناء على هذه الخلاصات تقدم هذه الورقة جملة من التوصيات من قبيل:

- اعتماد استراتيجيات التعلم النشط للرفع من فاعلية المتعلم وإيجابيته في بناء تعلماته؛
- ضرورة التنسيق بين كافة المتدخلين لتذليل الصعوبات؛
- تشجيع المتعلمين على التحدث أمام زملائهم ومشاركتهم أفكارهم وآراءهم في الصف؛
- إدراك التكامل بين مكونات وحدة اللغة العربية وتحويله إلى ممارسة فعلية تعزز إثناء هذه الكفاية؛
- تحفيز النقاشات والحوارات الصفية بتنظيم حلقات نقاش وطرح أسئلة مفتوحة تُشجع المتعلمين على التعبير عن أفكارهم بحرية.

¹ نقلا عن: الطيب شيباني، تعليم اللغة العربية وفق المقاربة التواصلية، ص 250.

قائمة المصادر والمراجع:

✓ بالعربية:

- أحمد خطيب ونبيل حسين، مهارات الكتابة والتعبير، دار الكنوز والمعرفة، عمان، الأردن، ط 1، 2011.
- أحمد عبده عوض، مداخل تعليم اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط 1، 2000.
- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الرياض، ط 1، 2008.
- البصيص حاتم حسين، تنمية مهارات القراءة والكتابة "استراتيجيات متعددة للتدريس والتقييم"، منشورات الهيئة العامة السورية، دمشق، 2011.
- بوجادي خليفة، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، ط 9، 2009.
- رشدي أحمد طعيمة، المهارات اللغوية، دار الفكر العربي، سلطنة عمان، ط 1، 2004.
- شحاتة حسين، تعليم اللغة العربية بين النظرية والتطبيق، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط 3، د.ت.
- الطيب شيباني، تعليم اللغة العربية وفق المقاربة التواصلية، مجلة العلوم الاجتماعية، مج 18، ع 2، 2024.
- كلثوم درقاوي، أثر نظرية الفعل الكلامي في امتلاك الكفاية التداولية لدى متعلمي الطور الأول: مقاربة ديدكتيكية تداولية، مجلة لغة - كلام، مج 3، ع 1، 2017.
- لبوخ بوجملين وشيباني الطيب، العناصر التداولية التواصلية في العملية التعليمية، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، ع 10، 2011.
- مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط 2، 1976.
- محمد إسماعيل علوي، التواصل الإنساني دراسة لسانية، كنوز المعرفة، الأردن، ط 1، 2013.
- محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى، دار المدار الإسلامي، بيروت-لبنان، ط 2، 2007.
- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د ط، 2002.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
- وزارة التربية الوطنية المغربية:
- الدليل البيداغوجي للتعليم الابتدائي، 2009.
- دليل التواصل البيداغوجي وتقنيات التنشيط التربوي، 2009.
- وفاء صبحي، الأبعاد التداولية للخطاب التعليمي وآفاق تنمية الكفاية التواصلية لدى متعلمي المرحلة المتوسطة - دراسة ميدانية، حويلات جامعة قالة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، مج 18، ع 1، 2024.

✓ بالأجنبية:

- J. L. Austin : How to do things with words, Oxford University Press, 1962.
- Robert Galison, et Coste. D, Dictionnaire de didactique des langues, édition. n 4, Paris, Hachette, 1976.

✓ موقع الكتروني:

https://staff.univ-batna2.dz/djoubar_merwan/classes

دور الأسرة في تفشي ظاهرة العنف المدرسي:
دراسة سوسيولوجية وتربوية

د. منير حداد

دكتوراه في التاريخ والتراث والآثار، أستاذ باحث
المملكة المغربية

الملخص:

يُعالج هذا المقال مسألة العنف المدرسي من زاوية سوسيولوجية وتربوية، من خلال التركيز على دور الأسرة كفاعل أساسي في إنتاج أو احتواء السلوك العدواني لدى المتعلمين. تنطلق الدراسة من إشكالية مركزية مفادها: إلى أي حد تسهم الأسرة، من خلال أنماطها التربوية وسياقاتها الاجتماعية، في تفشي ظاهرة العنف داخل المؤسسات التعليمية؟ يسعى المقال للإجابة عن هذا السؤال من خلال تحليل العوامل البنوية المرتبطة بالبيئة الأسرية، مثل التفكك الأسري، وضعف التواصل، وغياب الوعي التربوي، ومدى انعكاس ذلك على تكيف الطفل في الوسط المدرسي. كما يقترح المقال آليات وقائية بديلة، تشمل الحوار الأسري، وبناء الثقة، وتطوير كفايات التربية الإيجابية لدى الآباء. ويخلص إلى أن معالجة العنف المدرسي تقتضي بالضرورة إعادة الاعتبار لدور الأسرة كشريك أساسي في بناء شخصية الطفل وضمان توازنه النفسي والاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: العنف المدرسي – الأسرة – التنشئة الاجتماعية – التفاعل الأسري، المدرسي

المقدمة:

تُعتبر ظاهرة العنف المدرسي من أخطر التحديات التي تهدد النظم التعليمية والمجتمعات المعاصرة، إذ لم تعد مجرد سلوكيات فردية، بل غدت انعكاسًا لتراكمات نفسية واجتماعية واقتصادية تعكس خللاً في المحيط التربوي للأسرة والمدرسة والمجتمع. وقد أظهرت دراسات ميدانية متعددة أن العنف المدرسي يتزايد بوتيرة مقلقة، خصوصاً في البيئات التي تعاني من التفكك الأسري، وانعدام التوجيه التربوي، وضعف المراقبة الأبوية.

إن تحليل هذه الظاهرة لا يمكن أن يتم بمعزل عن السياق الأسري للطفل، باعتبار الأسرة أول نواة للتنشئة الاجتماعية، والمكان الذي يكتسب فيه القيم، ويكوّن تصوراتهِ الأولية عن التفاعل مع الآخر. ولذلك فإنّ التعمق في فهم دور الأسرة، وتفصيل بنيتها العلائقية، وممارستها التربوية، يمثل مدخلاً أساسياً لتحليل ظاهرة العنف في المدارس. ومن هنا، يهدف هذا البحث إلى دراسة العوامل العائلية التي تسهم في إنتاج العنف المدرسي، مع التركيز على الأسباب النفسية والاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بها.

1- مفهوم العنف المدرسي:

يعرف العنف المدرسي بأنه كل سلوك يتسم بالعدوان أو الإيذاء يصدر من طرف داخل المؤسسة التعليمية (تلميذ، مدرس، إداري) أو خارجها (أولياء، غرباء)، ويستهدف شخصاً آخر بالضرر الجسدي أو النفسي أو اللفظي، مهدداً بذلك أمن المدرسة ومناخها التربوي¹. ويمكن تصنيف العنف المدرسي إلى مباشر، كالضرب والشتائم، وغير مباشر، كالعزل الاجتماعي ونشر الإشاعات. كما أن هناك عنفاً رمزياً يتجلى في السخرية، والتنمر، والإقصاء المستتر الذي قد يكون أكثر خطورة من العنف المادي². وقد بيّنت تقارير تربوية أن أسباب العنف المدرسي تتقاطع مع عوامل أسرية، منها غياب التوجيه، ضعف الحوار، أو تأثر الطفل بمشاهد العنف داخل الأسرة. كما أظهرت الدراسات أن الأطفال الذين يتعرضون للعنف الأسري هم أكثر ميلاً إلى ممارسة العنف ضد أقرانهم³.

2- الأسرة كبنية منتجة للسلوك العدواني:

تُعد الأسرة النواة الأولى لتشكيل شخصية الطفل، وتمثل الفضاء الأول الذي يُكسبه القيم والضوابط الاجتماعية. في هذا السياق، تؤثر نوعية العلاقات الأسرية، سواء كانت إيجابية أو سلبية، على التوازن النفسي للطفل وتعامله مع المواقف الحياتية. فالأسرة السوية، القائمة على الدعم العاطفي والتواصل الفعال والاحترام المتبادل، تُساهم في بناء شخصية مستقرة، قادرة على ضبط الانفعالات والتعامل السلمي مع الآخرين⁴.

بالمقابل، فإن الأسر التي يسودها التفكك، أو التي تتسم بالعنف، أو الإهمال، تُعد بيئات خصبة لتشكيل السلوكيات العدوانية. فالطفل الذي ينشأ في جو من التوتر والصراعات المتكررة غالباً ما يطور أنماطاً سلوكية تعتمد العنف كوسيلة لتفريغ التوتر أو لفرض

¹ - Olweus, Dan. *Bullying at School: What We Know and What We Can Do*. Blackwell, 1993, p. 13

² - (UNESCO. *School Violence and Bullying: Global Status Report*. UNESCO, 2017, p. 21.

³ -عبد الواحد، رضا، مقاربات في علم النفس التربوي.. دار الفكر المعاصر، 2018، ص. 70.

⁴ -الباز، محمد، دور الأسرة في الوقاية من الانحرافات السلوكية دار الفكر، 2020، ص. 89.

الذات. ويشير الكتاني¹، إلى أن أساليب التربية التسلطية، أو التساهل المفرط، تُربك النمو الانفعالي لدى الطفل، وتجعله غير قادر على التمييز بين المسموح والمنعوع، مما قد يُنتج شخصية عدوانية أو منطوية.

من جانبها، تؤكد الباحثة شفيق نجلاء² أن غياب الأمن العاطفي داخل الأسرة يدفع الطفل إلى البحث عن تعويض لذلك في علاقاته الخارجية، ما يجعله عرضة للتأثر بسلوكيات أقرانه، بما فيها السلوكيات العنيفة. كما أن الحرمان من الرعاية النفسية المستقرة يُؤثر على تكوين صورة الطفل عن ذاته، مما يؤدي إلى تشوه في الهوية الذاتية.

3. الأسباب النفسية والاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بالعنف المدرسي:

تتعدد الأسباب التي تفسر بروز العنف المدرسي، ويمكن تصنيفها إلى ثلاث فئات رئيسية:

1.3. الأسباب النفسية:

تشير دراسات في علم النفس التربوي إلى أن هناك علاقة وثيقة بين العنف المدرسي وبعض الاضطرابات النفسية التي قد يعاني منها التلاميذ، كالإكتئاب، والقلق المزمن، واضطرابات السلوك، إضافة إلى اضطرابات في ضبط الانفعالات³. وغالبًا ما تكون هذه الاضطرابات ناتجة عن تجارب سلبية داخل الأسرة، كالعنف اللفظي أو الجسدي، أو الطلاق، أو الإهمال العاطفي⁴.

3.2. الأسباب الاجتماعية:

يلعب المحيط الاجتماعي دورًا مهمًا في تشكيل السلوكيات العدوانية لدى الطفل. فقد أظهرت أبحاث أن الأطفال الذين يعيشون في أحياء تعاني من الفقر المدقع أو العنف المجتمعي يكتسبون أنماطًا عدوانية كمحاولة للتكيف مع البيئة المحيطة. كما يُعد غياب الرقابة الأبوية، والاندماج في جماعات أقران تتبنى سلوكيات عدوانية، من العوامل المؤثرة في انتشار العنف داخل المدارس⁵.

3.3. الأسباب الاقتصادية:

يرتبط الوضع الاقتصادي للأسرة بمستوى الاستقرار النفسي داخلها. فالعائلات التي تواجه بطالة مزمنة أو دخلًا غير كافٍ غالبًا ما تعاني من توتر دائم، ينعكس على طبيعة العلاقة بين أفرادها، بما في ذلك تعامل الوالدين مع الأبناء. وقد أشارت الباحثة نادية عبد العزيز⁶ إلى أن الأطفال في مثل هذه البيئات قد يشعرون بالدونية تجاه زملائهم، مما يدفعهم إلى العنف كآلية تعويضية.

¹ -الكتاني، عبد الصمد، الأسرة والتنشئة الاجتماعية. منشورات المعرفة، 2015، ص. 33.

² -شفيق، نجلاء، إشكالية القيم والعنف في المجتمع العربي. دار العالم العربي، 2017، ص. 113.

³ - Espelage, Dorothy L., and Susan M. Swearer. *Bullying in American Schools: A Social-Ecological Perspective on Prevention and Intervention*. Lawrence Erlbaum, 2004, p. 67.

⁴ - Garbarino, James. *Children and Families in the Social Environment*. Aldine de Gruyter, 1992, p. 94.

⁵ - خليفة، سعيد، علم النفس الاجتماعي. تونس: دار ابن عرفة، 2016، ص. 41.

⁶ - عبد العزيز، نادية، مداخل إلى علم النفس التربوي. دار الشروق، 2021، ص. 102.

4. التأثيرات النفسية والاجتماعية للعنف الأسري على الأطفال:

يُخلّف العنف الأسري آثارًا نفسية عميقة لدى الأطفال، لا تقتصر على المرحلة الحالية، بل تمتد لتؤثر على نموهم المستقبلي وسلوكهم الاجتماعي. فالطفل المعرض للعنف المنزلي يصبح أكثر عرضة للقلق، ونوبات الغضب، ومشاكل في التركيز، وقد يُظهر سلوكيات انسحابية أو عدوانية داخل القسم الدراسي¹.

كما أن هذه التجارب تؤدي إلى تدهور العلاقة مع الأقران، حيث يميل الطفل المعنف إما إلى التمر على الآخرين كتعبير عن تفوق موهوم، أو إلى العزلة نتيجة الشعور بالخوف أو النقص. ويؤكد الباحث "كاربرينو"² أن الأطفال الذين يعيشون في بيئة عنيفة يميلون إلى تعميم هذا العنف على جميع علاقاتهم الاجتماعية، مما يصعب إدماجهم تربويًا دون تدخل نفسي مباشر.

في هذا السياق، تُبرز الدراسات أهمية التدخل المبكر من خلال العلاج النفسي والدعم الاجتماعي، لتقليل تداعيات العنف الأسري على التحصيل الدراسي والسلوك المدرسي.

5. استراتيجيات الأسرة للوقاية من العنف المدرسي

تُعَدّ الأسرة حجر الأساس في تشكيل سلوك الطفل، ومن ثم فإن تعزيز دورها في الوقاية من العنف المدرسي يستدعي تفعيل مجموعة من الاستراتيجيات التربوية والسلوكية التي من شأنها أن تُقلل من احتمالية تبني الطفل لأنماط سلوكية عدوانية. من بين هذه الاستراتيجيات ترسيخ ثقافة الحوار داخل الأسرة، بحيث يُتاح للطفل التعبير عن مشاعره ومخاوفه بطريقة صحية، مما يُخفف من حدة التوترات الداخلية ويُنمّي الثقة المتبادلة بين أفراد العائلة³.

كما أن تنمية المهارات الاجتماعية لدى الطفل، كالتعاون، والاحترام المتبادل، وحل النزاعات بشكل سلمي، تُعد من المهارات الأساسية التي تساهم في الحد من السلوك العدواني. ويبرز الباحث شفيق⁴ أهمية إدماج الطفل في الأنشطة الجماعية داخل الأسرة، حيث يتعلم عبرها قواعد التفاعل الإيجابي والانضباط السلوكي. ويشير الباحث الكتاني⁵ إلى أن اعتماد النماذج الإيجابية من قبل الوالدين، سواء في المواقف اليومية أو أثناء الأزمات، يُشكل قاعدة سلوكية يُقلّدها الطفل لاحقًا.

إضافة إلى ذلك، ينبغي أن تتحلّى الأسرة بالمرونة في التوجيه، مع الحرص على تطبيق نظام للمكافأة والعقاب يراعي عمر الطفل وخصائصه النفسية. كما يُوصى بالاستعانة بخدمات الإرشاد الأسري عند بروز مؤشرات أولية لسلوك عدواني، لما لهذه المقاربة من دور في الحد من تفاقم الظاهرة⁶. إن الوقاية تبدأ من المنزل، لذلك فإن الاستثمار في تربية سليمة يُعد استثمارًا في الأمن المدرسي.

¹ - يوسف، راضية. العنف الأسري وأثره على الأطفال. دار الهدى، 2018. ص. 38.

² - Garbarino, Op. Cit, p. 97.

³ - عطية، أحمد. الاتجاهات الحديثة في تربية الطفل. دار النهضة العربية، 2019. ص. 119.

⁴ - شفيق، نجلاء، المرجع السابق، ص. 122.

⁵ - الكتاني، عبد الصمد، المرجع السابق، ص. 44.

⁶ - Schaefer, Charles. *Parenting the Difficult Child*. Jossey-Bass, 1997, p. 153.

6. دور المدرسة والمجتمع في دعم الأسرة:

تمثل المدرسة امتدادًا وظيفيًا للأسرة، وتتحمل مسؤولية كبيرة في تهيئة بيئة تربوية آمنة ومتوازنة، تُمكن الطفل من تجاوز الضغوط الخارجية وتعويض النقص الأسري. وتُشير تقارير اليونيسف إلى أن دمج خدمات الدعم النفسي والاجتماعي ضمن المنظومة المدرسية يُعد خطوة فعالة للكشف المبكر عن التلاميذ الذين يعيشون أوضاعًا أسرية صعبة¹.

وتقوم المدرسة من خلال مستشاريها التربويين والأخصائيين الاجتماعيين بدور التتبع الفردي للتلاميذ، وذلك من خلال إجراء مقابلات دورية، وتنظيم جلسات دعم نفسي فردي أو جماعي. كما أن إقامة ورشات تفاعلية حول العنف، وإشراك التلاميذ في صياغة ميثاق القسم، تُسهم في تعزيز الشعور بالانتماء والانضباط الذاتي².

أما على مستوى المجتمع، فإن دور منظمات المجتمع المدني لا يقل أهمية. إذ يمكنها أن توفر فضاءات تربوية بديلة، مثل الأندية الثقافية والرياضية، التي تُعد ملاذًا للأطفال الذين يفتقرون إلى الاحتواء داخل الأسرة. كما يمكن أن تسهم في تنظيم حملات توعية موجهة إلى الآباء والأمهات حول أساليب التربية الحديثة، وطرق التعامل مع الأطفال في مراحل النمو الحرجة³.

إن العمل التشاركي بين المدرسة والمجتمع المدني والسلطات المحلية يُعد شرطًا أساسيًا لإنجاح أي مقاربة وقائية لمواجهة العنف المدرسي، بحيث تتكامل الأدوار ولا تتقاطع، ويُوجّه الجهد نحو بناء منظومة دعم نفسي واجتماعي متكاملة للطفل.

7. دور المؤسسات التعليمية في دعم الأسرة:

تضطلع المؤسسات التعليمية بدور محوري في دعم الأسرة للوقاية من العنف المدرسي، إذ إنها لا تؤدي فقط مهامًا تعليمية، بل تُمارس وظائف اجتماعية وإرشادية تسهم في بناء وعي أسري مسؤول⁴. وتُعد برامج التوعية وورش العمل الأسرية من بين الآليات الأساسية التي تعتمدها المؤسسات لتعزيز الشراكة مع الأسر وتزويدها بالمعرفة والمهارات اللازمة للتعامل مع السلوكيات العنيفة في المحيط المدرسي.

ويشير الباحث "برونفونرينر"⁵ إلى أن التفاعل بين الأسرة والمدرسة يُعد عاملاً رئيسيًا في تشكيل السلوكيات الاجتماعية للأطفال، ما يجعل من التعاون المؤسسي-الأسري ضرورة تربوية. عبر برامج التوعية، تتيح المدارس للآباء والأمهات الانخراط في محاضرات وندوات تشرح أسباب العنف المدرسي وسبل الوقاية منه، مما يعزز قدرة الأسر على اكتشاف علامات العنف والتفاعل الإيجابي مع الأبناء⁶.

¹ - UNICEF. *Parenting Support in the MENA Region: Mapping the Landscape*. UNICEF, 2019, p. 38.

² - أبو النصر، فؤاد. *علم الاجتماع التربوي المعاصر*. دار المسيرة، 2018، ص. 74.

³ - حجازي عبد الله، *العنف التربوي وأثره على المجتمع*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2022، ص. 91.

⁴ - يونس، فاطمة، *التربية الوقائية والعنف المدرسي*، دار الفكر التربوي، 2019، ص. 45.

⁵ - Bronfenbrenner, Op.cit., p. 113.

⁶ - عبد اللطيف، محمد. *التنشئة الاجتماعية في ظل العولمة*. دار النشر المغربية، 2020، ص. 88.

كما تُعتبر ورش العمل الأسرية وسيلة تطبيقية لتطوير الكفايات التربوية لدى الوالدين، حيث تسمح لهم بتبادل الخبرات وممارسة أنشطة جماعية تُحاكي سيناريوهات واقعية تعزز مهارات التواصل الفعال، وحل النزاعات¹. كما تتيح هذه الورش تأسيس روابط متينة بين الآباء والمدرسين، الأمر الذي ينعكس إيجاباً على سلوك التلاميذ، ويُسهّم في رصد السلوكيات الخطرة قبل تفاقمها.

بناءً على ذلك، فإن دعم المؤسسات التعليمية للأسر من خلال هذه البرامج والورش يُعد ركيزة أساسية لخلق بيئة مدرسية سليمة، قائمة على التعاون والاحترام المتبادل، وقادرة على حماية التلميذ من السلوكيات العنيفة والمتطرفة.

1.7 - برامج التوعية:

تُعد برامج التوعية إحدى الدعائم الأساسية التي تعتمدها المؤسسات التعليمية لتقوية قدرات الأسر على مواجهة العنف المدرسي. تهدف هذه البرامج إلى تمكين الآباء من فهم أعمق للآثار النفسية والاجتماعية الناتجة عن هذا النوع من العنف، وتعزيز وعيهم بالعلامات المبكرة التي قد تظهر على الأطفال في حال تعرضهم له². وتشمل هذه البرامج ورشات ميدانية، محاضرات تفاعلية، ونشرات توعوية، تُبنى على أسس علمية وتربوية واضحة.

وقد أشار الباحث "برونفونرينر"³ إلى أهمية خلق انسجام بين المنظومات المؤثرة في الطفل، ومنها الأسرة والمدرسة، لتشكيل مناعة نفسية تُقاوم السلوك العدواني. وتُركز برامج التوعية أيضاً على توجيه الأسر نحو بناء علاقة تواصل إيجابية مع الأبناء، من خلال تحفيزهم على التعبير الحر، وتعليمهم أساليب الرضا الإيجابي للعنف⁴، وتُعتبر هذه المبادرات مقدمة ضرورية لأي تدخل تربوي ناجح.

وتكتسب هذه البرامج فعالية أكبر عندما تنخرط فيها فئات متعددة، كالجمعيات التربوية، والمجالس التعليمية، والهيئات الصحية، وهو ما يسمح بتوفير بيئة داعمة متعددة التخصصات⁵. ولهذا، فإن جعل هذه البرامج مستدامة ومتجاوبة مع واقع الأسرة يشكل شرطاً أساسياً لتحقيق التحول الثقافي المنشود في التعامل مع العنف المدرسي.

2.7 - ورش العمل الأسرية:

تمثل ورش العمل الأسرية فضاءً تفاعلياً حيويًا لتعزيز الكفاءات التربوية لدى أولياء الأمور، ودعمهم في رصد مظاهر العنف والتعامل معها بأساليب تربوية فعالة. تهدف هذه الورش إلى خلق حوار جماعي بين الأسر، حول أفضل الممارسات التربوية لمواجهة العنف في البيئة المدرسية⁶. ويتم ذلك من خلال أنشطة جماعية، مثل لعب الأدوار، ودراسة حالات واقعية، تسمح للأهالي باكتساب مهارات عملية في التوجيه والانضباط الإيجابي.

¹ -Epstein, Joyce L. *School, Family, and Community Partnerships: Preparing Educators and Improving Schools*. Routledge, 2011, p. 77.

² -عبد اللطيف، محمد، المرجع السابق، ص. 91.

³ - Bronfenbrenner, Op. Cit, p. 116.

⁴ -يونس، فاطمة. *التربية الوقائية والعنف المدرسي*. دار الفكر التربوي، 2019، ص، 49.

⁵ -Epstein, Joyce L, Op. Cit, p. 80.

⁶ -عبد اللطيف، محمد، المرجع السابق، ص. 93.

ووفقاً للباحث "إيستمان"¹ فإن مشاركة الآباء في مثل هذه الورش تُعزز من العلاقة بين الأسرة والمدرسة، وتساهم في الكشف المبكر عن المشكلات السلوكية، ما يسمح بتدخل أسرع وأكثر تنسيقاً. كما تعمل هذه الورش على تطوير فهم الأهل لأثر أنماطهم التربوية على شخصية الأبناء، وتشجعهم على تبني أساليب تعليمية قائمة على التقدير والتشجيع، بدل العقاب أو الإهمال².

علاوة على ذلك، فإن هذه الورش تتيح الفرصة لتشكيل شبكات دعم اجتماعية بين أولياء الأمور، تُسهل تبادل الخبرات، وتعزز من الإحساس بالمسؤولية المشتركة تجاه الأبناء، مما يخلق ثقافة مجتمعية مقاومة للعنف³. لذلك، تُعد ورش العمل الأسرية مكوناً أساسياً في أي مقارنة شاملة لمحاربة العنف المدرسي.

8. دور المجتمع في دعم الأسرة لمواجهة العنف المدرسي:

تُعد الأسرة نواة المجتمع، ومن ثم فإن مسؤولية دعمها في مواجهة التحديات، وعلى رأسها العنف المدرسي، لا تقع على عاتقها وحدها، بل تُعد مسؤولية جماعية تشمل مختلف الفاعلين الاجتماعيين. وفي هذا السياق، يؤكد الباحث عبد اللطيف⁴ أن التصدي لظاهرة العنف المدرسي يستلزم تضافر الجهود بين الأسر والمجتمع بمؤسساته المتنوعة، بما في ذلك الجمعيات الأهلية، والمؤسسات التربوية، والمراكز الاستشارية. وتُسهم هذه الجهات في تمكين الأسرة نفسياً وتربوياً من خلال برامج دعم موجهة، تهدف إلى توعية الأهل وتزويدهم بالكفايات التربوية الضرورية للتعامل مع هذه الظاهرة.

ومن جهة أخرى، تشكل الشراكة الفاعلة بين المجتمع والمدرسة ركيزة أساسية في سبيل تعزيز بيئة تعليمية مستقرة وآمنة. وفي هذا الصدد، يرى "إيستمان"⁵ أن إقامة ورشات عمل مشتركة بين الآباء والمعلمين من شأنها تعزيز الوعي الجماعي حول أسباب العنف وآليات الوقاية منه. ويسمح هذا التعاون المبكر برصد السلوكيات المضطربة واتخاذ خطوات تدخلية فعالة بالتنسيق بين الأسرة والمدرسة⁶.

ولا يقتصر دور المجتمع على الدعم المادي أو المؤسسي، بل يمتد ليشمل بناء شبكات دعم اجتماعية ونفسية، تُعزز من قدرة الأسر على مواكبة التحديات التربوية الحديثة. ويشير الباحث "برونفونبرنير"⁷ إلى أن بناء منظومات متكاملة تضم الأسرة والمجتمع يُسهم في تقوية آليات الدفاع النفسي لدى الطفل، ويقلل من احتمالات انخراطه في السلوكيات العدوانية.

بناءً على ما سبق، فإن تفعيل دور المجتمع المحلي يُعد ضرورة استراتيجية لبناء منظومة تربوية متماسكة، تؤسس لثقافة وقائية قوامها التعاون والاحترام، وتساهم في الحد من العنف المدرسي، وتعزيز السلام الاجتماعي والتربوي.

¹ - Epstein, Joyce L, Op, Cit, p. 84.

² - يونس، فاطمة، المرجع السابق، ص، 52.

³ - Bronfenbrenner, Op. Cit, p. 119.

⁴ - عبد اللطيف، محمد، المرجع السابق، ص. 95.

⁵ - Epstein, Op. Cit, p. 89.

⁶ - يونس، فاطمة، المرجع السابق، ص. 60.

⁷ Bronfenbrenner, Op. Cit, 121.

1.8. المؤسسات الاجتماعية :

تؤدي المؤسسات الاجتماعية دورًا محوريًا في دعم الأسرة لمواجهة العنف المدرسي، حيث تشمل هذه المؤسسات منظمات المجتمع المدني، والمراكز الصحية والنفسية، والهيئات الحكومية. وتعمل هذه الجهات في إطار تشاركي يهدف إلى خلق بيئة تعليمية آمنة وشاملة¹.

وتتجلى مساهمة هذه المؤسسات في تقديم خدمات متنوعة، من أبرزها: التكوين الأسري، المتابعة النفسية للأطفال، وحملات التوعية المجتمعية عبر المحاضرات والندوات التي تُسلط الضوء على مخاطر العنف وآثاره بعيدة المدى. ويؤكد الباحث "برونفونبرنر"² على أهمية التدخل متعدد التخصصات، والذي يجمع بين علم النفس، والعمل الاجتماعي، والتربية، من أجل بناء فهم شمولي للسلوكيات المنحرفة.

كما تعمل هذه المؤسسات على بناء قدرات الأسر في مجال التربية الإيجابية، من خلال تنظيم ورشات تطبيقية تهدف إلى تدريب الآباء على مهارات أساسية، مثل: الإصغاء الفعال، والاحتواء العاطفي، والتوجيه التربوي السليم³. وتمثل هذه الورش فضاءات داعمة للأسرة، لا تقتصر على التثقيف فحسب، بل تساعد أيضًا على إعادة بناء نماذج تربوية صحية وفعالة.

إن هذا الدور التكاملي الذي تنهض به المؤسسات الاجتماعية يجعل منها شريكًا لا غنى عنه في المنظومة المجتمعية الساعية إلى مواجهة العنف المدرسي، وتأسيس بيئة حاضنة تسند الأسرة وتوجهها نحو تبني أفضل الممارسات التربوية المستندة إلى البُعد الوقائي والتنموي.

9. التوصيات:

بناءً على ما توصل إليه هذا البحث من نتائج تربوية واجتماعية ونفسية، يمكن تقديم التوصيات التالية للحد من تفشي ظاهرة العنف المدرسي:

1. ضرورة إطلاق برامج وطنية شاملة للتربية الأسرية، تستهدف تأهيل الوالدين في مجالات التواصل، الضبط التربوي، وأساليب التنشئة الإيجابية.
2. تعزيز دور المرشدين الاجتماعيين والنفسيين في المدارس للكشف المبكر عن التلاميذ الذين يعانون من اضطرابات سلوكية أو نفسية ناتجة عن ظروف أسرية قاسية.
3. دمج موضوع "العنف الأسري وآثاره على الطفل" ضمن المناهج الدراسية في مراحل الإعدادي والثانوي لتربية وعي الأجيال حول خطورة العنف.
4. خلق شراكة فعالة بين الأسرة والمدرسة، عبر لقاءات دورية تشاركية تهدف إلى معالجة مشكلات التلاميذ بمقاربة وقائية وتشاركية.

¹ - عبد اللطيف محمد، المرجع السابق، ص. 97.

² - Bronfenbrenner, Op. Cit, p. 124.

³ - بونس فاطمة، المرجع السابق، ص. 64.

5. تحفيز وسائل الإعلام والمجتمع المدني على إنتاج حملات توعية تركز على التربية اللاعنفية، ودور الأسرة في الحماية النفسية للطفل.

6. تقديم الدعم النفسي المجاني للأسر الهشة والمفككة من خلال مراكز الرعاية الاجتماعية، وذلك لتجنب انتقال التوتر الأسري إلى المدرسة.

إن أي استراتيجية لمحاربة العنف المدرسي ينبغي أن تتضمن شقين أساسيين: الأول وقائي، يهدف إلى تأهيل الأسر ومرافقتها، والثاني تربوي، يعمل على إصلاح مناخ المدرسة عبر دعم التلاميذ نفسيًا وتربويًا. كما أن إشراك المجتمع المدني، والسلطات التربوية، والإعلام، يشكل ضمانًا لتحقيق بيئة مدرسية خالية من مظاهر العنف.

وعليه، يبقى الرهان على تفعيل منظومة متكاملة، يكون محورها هو الطفل، ومحالها هو التعاون بين الأسرة، والمدرسة، والمجتمع، بغية التأسيس لتربية قائمة على الاحترام، والحوار، واللاعنف.

الخاتمة:

تُعدّ ظاهرة العنف المدرسي من أبرز القضايا التربوية والاجتماعية التي تستوجب معالجة متعددة الأبعاد، نظرًا لتأثيراتها الممتدة على توازن الأفراد واستقرار المؤسسات التعليمية. وتتجلى خطورة هذه الظاهرة فيما تفرزه من اختلالات على المستوى النفسي والسلوكي للتلاميذ، ما يستدعي فهمًا معمقًا للعوامل البنوية التي تسهم في نشأتها، وعلى رأسها دور الأسرة بوصفها الحاضن الأول لعملية التنشئة.

لقد أظهرت التجارب أن غياب الحوار داخل الأسرة، أو انعدام الاستقرار العاطفي والاجتماعي، يشكل بيئة خصبة لتغذية السلوكيات العدوانية لدى الأطفال والمراهقين. وعلى النقيض من ذلك، تبين أن الأسر التي تعتمد على التواصل الإيجابي والمراقبة المرنة تسهم في بناء شخصية متزنة قادرة على التفاعل السلمي داخل الوسط المدرسي. ومن هنا، يبرز الدور التوجيهي للأسرة في وقاية أبنائها من الوقوع في دوائر العنف، سواء كضحايا أو كمعتدين.

كما أن المقاربة الناجعة لمواجهة العنف المدرسي لا يمكن أن تكون أحادية الجانب، بل تتطلب انخراطًا فعليًا من قبل جميع المتدخلين، بما في ذلك المؤسسات التعليمية، والسلطات المحلية، والمجتمع المدني. وتعتبر الشراكة المتكاملة بين هذه الأطراف أحد المرتكزات الأساسية لبناء بيئة مدرسية يسودها الأمن والانضباط، حيث تُفعّل آليات الدعم النفسي والتربوي، وتُعتمد استراتيجيات تدخل وقائية تتلاءم مع خصوصية كل سياق اجتماعي وتربوي.

وفي ضوء ما سبق، تبرز الحاجة إلى الاستثمار في برامج التوعية والتكوين المستمر لفائدة الأسر والمعلمين على حدٍ سواء، وتوجيه الجهود نحو تأسيس ثقافة مدرسية قائمة على التسامح والاحترام والتفاهم. إذ لا يمكن الحديث عن منظومة تربوية ناجحة دون إشراك الأسرة في بناء مسار تعليمي آمن وسليم لأبنائها، ضمن رؤية جماعية تروم تحقيق التنمية النفسية والتربوية الشاملة، والمساهمة في تحصين الأجيال القادمة من كافة أشكال العنف والانحراف.

البيبلوغرافيا:

1. المراجع العربية:

- أبو النصر، فؤاد. علم الاجتماع التربوي المعاصر. عمان: دار المسيرة، 2018.
- الباز، محمد. دور الأسرة في الوقاية من الانحرافات السلوكية. القاهرة: دار الفكر، 2020.
- الخليفة، سعيد. علم النفس الاجتماعي. تونس: دار ابن عرفة، 2016.
- الكتاني، عبد الصمد. الأسرة والتنشئة الاجتماعية. الدار البيضاء: منشورات المعرفة، 2015.
- شفيق، نجلاء. إشكالية القيم والعنف في المجتمع العربي. القاهرة: دار العالم العربي، 2017.
- عبد العزيز، نوال. مدخل إلى علم النفس التربوي. عمان: دار الشروق، 2021.
- عطية، أحمد. الاتجاهات الحديثة في تربية الطفل. بيروت: دار النهضة العربية، 2019.
- يوسف، رضا. العنف الأسري وأثره على الأطفال. الجزائر: دار الهدى، 2018.

2. المراجع الأجنبية:

- Bronfenbrenner, Urie. Making Human Beings Human: Bioecological Perspectives on Human Development. Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2005.
- Cottrell, Barbara. Parenting and Family Support: Policy and Practice. Bristol: Policy Press, 2001.
- Epstein, Joyce L. School, Family, and Community Partnerships: Preparing Educators and Improving Schools. New York: Routledge, 2011.
- Espelage, Dorothy L., and Susan M. Swearer. Bullying in American Schools: A Social-Ecological Perspective on Prevention and Intervention. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum, 2004.
- Garbarino, James. Children and Families in the Social Environment. New York: Aldine de Gruyter, 1992.
- Olweus, Dan. Bullying at School: What We Know and What We Can Do. Oxford: Blackwell, 1993.
- Schaefer, Charles. Parenting the Difficult Child. San Francisco: Jossey-Bass, 1997.

3. تقارير ومنشورات دولية:

- UNESCO. School Violence and Bullying: Global Status Report. Paris: UNESCO, 2017.
- UNICEF. Parenting Support in the MENA Region: Mapping the Landscape. Amman: UNICEF, 2019.

توظيف العرف والذاكرة الجماعية في تعليم التاريخ وتعلمه: ضرورة تربوية وديداكتيكية

د. فريد العماري

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة فاس مكناس
المملكة المغربية

الملخص

تهدف المعرفة التاريخية المدرسية إلى تدريس نتائج البحث المتوصل إليها من قبل المؤرخين المحترفين، بعد تكييفها مع المنطق المدرسي وخصوصيات التلميذ الذي تسعى المدرسة لتأهيله فكريا وثقافيا واجتماعيا ليتلاءم والمشروع المجتمعي العام. وتقتضي عملية تدريس التاريخ الاستعانة بمجموعة من الدعامات والوسائل الديداكتيكية التي تجعل التلميذ قادرا على استيعاب وتمثل المعرفة التاريخية بكيفية سليمة، من بينها: الخريطة التاريخية والنصوص التاريخية، والأفلام التاريخية، والكتاب المدرسي... وغيرها من الوسائل "التقليدية" التي يتم الاعتماد عليها في عملية تعليم هذه المادة وتعلمها. إلا أنه في المقابل يتم إغفال وسائل أخرى على الرغم من كونها تشكل مصدرا مهما من مصادر التفكير التاريخي، من أبرزها: الذاكرة والعرف. فعلى الرغم من كونهما من مصادر المؤرخ، إلا أن طريقة استثمارهما من قبل التاريخ المدرسي يشوبها الكثير من الغموض، وتحلق ارتباكاً تربوياً وديداكتيكياً، وأحيانا قيمياً، بالنسبة للأستاذ والتلميذ. وخير مثال على ذلك الطريقة التي يتم بها استثمار "ظهير 16 ماي 1930" داخل الكتب المدرسية للتاريخ.

هذه الإشكالات وغيرها، تحتم على الباحثين في ديداكتيكية التاريخ، وعلى المدرسين، إعادة النظر في الوسائل الديداكتيكية التي يتم الاعتماد عليها في عملية تعليم وتعلم التاريخ، ومحاولة الانفتاح على تلك التي لا يتم استثمارها في تعليم هذه المادة وتعلمها، وأبرزها الذاكرة والعرف. في هذا السياق تأتي هذه الدراسة التي تسعى لتتبع وفهم علاقة الذاكرة والعرف بالتاريخ أكاديمياً وديداكتيكياً، قبل الانتقال إلى اقتراح خطوات عملية لاستثمارها في عملية تدريس مادة التاريخ، وبالتالي جعل التلميذ قادراً على اتخاذ مواقف نقدية تجاه قضايا الذاكرة والعرف داخل كتب مادة التاريخ المدرسي، وعلى بناء موقف سليم تجاه ذاته وذاكرته ومجتمعه، وفهم أهمية عنصري الذاكرة والعرف في الحياة اليومية للمجتمعات المحلية.

الكلمات المفتاحية: الذاكرة، العرف، ديدكتيك التاريخ، الديداكتيك، التاريخ.

مقدمة

يشكل تدريس التاريخ أحد المداخل الأساسية لبناء الوعي الجماعي وترسيخ الهوية لدى التلاميذ، نظرا لمكانته المحورية في منظومة التربية والتكوين، ليس فقط باعتباره مادة دراسية قائمة على سرد الوقائع وتحليل الأحداث، بل باعتباره أداة فعالة في بناء الهوية الجماعية وصقل الوعي بالانتماء الحضاري والثقافي. فتدرس التاريخ لا يتوخى فقط التعرف على أحداث الماضي، بل يساعد التلميذ على إعادة تشكيل وعيه بالماضي، وتكوين تمثلات عن الذات والآخر، وعن الحاضر والمستقبل.

على الرغم من هذه الأهمية، لا تزال طرق تدريس التاريخ، في كثير من السياقات، حبيسة منطق التلقين واستحضار المعرفة الجاهزة، ومحدودة في الاعتماد على النصوص الرسمية والمقاربات الزمنية الصارمة، فضلا اعتمادها لمقاربة رسمية مجردة من الروابط الوجدانية والثقافية. وهو ما يُفضي إلى نفور غالبية التلاميذ من المادة، وضعف قدرتهم على ربطها بسياقاتهم المعيشية، وفهمهم للحاضر في ضوء الماضي. لذلك، بات من الضروري البحث عن موارد تربوية موازية، تُضفي على درس التاريخ حيوية وتقرب مواضيعه من اهتمامات التلاميذ، وتساعد على بناء معرفة تاريخية نابعة من تجاربهم الثقافية.

في هذا الإطار، تبرز الذاكرة الجماعية والعرف كروافد أصيلة في تشكيل الوعي التاريخي لدى الناشئة، خصوصًا في المجتمعات ذات الامتداد الشفهي والتقليدي، حيث تُنقل الوقائع والمفاهيم التاريخية عبر الحكيم، والأساطير المحلية، والعادات الاجتماعية، والاحتفالات الرمزية، والرموز الجماعية. وهي عناصر تُمكن من ربط المتعلم بجذوره الثقافية، وتاريخه المحلي، وذاكرته المعيشية بطريقة وجدانية وعميقة.

تعكس الذاكرة الجماعية تمثلات الجماعة للماضي، الذي يعاد تشكيل أحداثه، في الغالب، حسب السياق الاجتماعي والثقافي والرمزي، فهي تتيح إمكانية تعليم التاريخ بأسلوب يدمج الذات الجماعية للتلاميذ، ويؤسس لفعل تعليمي ديمقراطي وتشاركي. أما العرف، بما هو إنتاج اجتماعي ينظم العلاقات والسلوك داخل الجماعة، فيقدم بدوره مادة غنية لتحليل التاريخ المحلي، وتفسير التغيرات المجتمعية، وفهم التفاعلات الثقافية من منظور مقارنة مع المؤسسات الرسمية.

انطلاقًا من ذلك، تسعى هذه الدراسة إلى مساءلة الإمكانيات التربوية والديداكتيكية التي تتيحها الذاكرة الجماعية والعرف، في سياق تعليم وتعلم التاريخ. كما تروم الكشف عن التحديات التي قد تعيق هذا التوظيف داخل الفصل الدراسي، وتقترح سبلًا لتنفيذ هذه الموارد في الممارسة الصفية، بشكل يضمن التوازن بين المعطى العلمي والمعيش الاجتماعي.

إشكالية الدراسة

على الرغم من التطور الذي يشهده البحث في ديدكتيك التاريخ على مستوى المقاربات والمنهاج، إلا أنه ما تزال الحاجة ملحة إلى تحديد وإدماج طرائق تعليم جديدة على مستوى تدريس هذه المادة بما يضمن الانخراط الوجداني والمعرفي للمتعلمين. ذلك أن تدريس التاريخ يتم بمعزل عن الامتدادات الثقافية والاجتماعية للتلاميذ داخل المجتمع (خاصة على مستوى الامتداد المحلي)، يُفضي غالبًا إلى جفاف في التلقي، وفقدان المعنى والوظيفة التربوية للمادة.

في هذا السياق، تطرح الذاكرة الجماعية والعرف نفسيهما كمصادر تربوية أصيلة تنتمي إلى البيئة الثقافية والاجتماعية والوجدانية للتلاميذ، وتمتلك قدرة على إحياء العلاقة بينهم وبين التاريخ من خلال ما تحتزنه من رموز وتمثلات وتجارب جماعية. لكن توظيف

هذه الموارد يتطلب مساءلة جادة لطبيعتها، وجدواها، وإمكان إدماجها ضمن منطق ديدكتيكي فعال يخدم الوظيفة التربوية-النقدية والهوياتية لدرس التاريخ.

يقترح موضوع هذه الدراسة المزاوجة بين ما تشهده الساحة الأكاديمية من نقاشات حول قضايا التاريخ الوطني والذاكرة الجماعية وبين طبيعة وأشكال تدريس التاريخ وقضايا التاريخ الوطني بالمدرسة المغربية، قصد اقتراح موارد ديدكتيكية موازية يمكن استثمارها في تعليم وتعلم هذه المادة، وينبغي ذلك على تقديرين اثنين:

• أولها: عمق الهوة أو التباعد بين مضامين التاريخ الوطني المتضمن في الكتب المدرسية للتاريخ وبين الواقع الثقافي والاجتماعي لفئة عريضة من التلاميذ بالمدرسة المغربية؛

• ثانيها: غياب دراسات وأبحاث ديدكتيكية حول استثمار العرف والذاكرة والخطاب الدرس التاريخي المدرسي.
بناء على ما سبق، ويمكن تحديد السؤال المركزي للدراسة كالتالي:

ما الصيغ الديدكتيكية الممكنة لتوظيف العرف والذاكرة الجماعية في تدريس التاريخ، باعتبارهما موردين ديدكتيكيين يسهمان في تجويد التعلم وترسيخ البعد التربوي والهوياتي؟
أسئلة الدراسة

- ♦ ما المقصود بالذاكرة الجماعية والعرف في السياق التربوي والتاريخي؟
- ♦ كيف يمكن إدماج العرف والذاكرة الجماعية في الممارسة الصفية لتعليم التاريخ؟
- ♦ ما الآثار التربوية والديدكتيكية المتوقعة من هذا التوظيف على تعلم التاريخ؟
- ♦ ما التحديات التي قد تعترض هذا التوظيف داخل الفصول الدراسية؟

أهمية الدراسة

تسعى الدراسة إلى تحقيق الأهداف والغايات التالية:

- ♦ إبراز أهمية البعد الذاكري والهوياتي في تدريس مادة التاريخ؛
- ♦ المساهمة في تحديد الممارسات الديدكتيكية عبر استثمار عناصر من الواقع الاجتماعي والثقافي المحلي للتلميذ؛
- ♦ تقديم مقارنة تربوية مبتكرة تستند إلى موارد غير تقليدية (الذاكرة الشعبية، الأعراف...)
- ♦ توجيه الأساتذة نحو ضرورة تصميم أنشطة تعليمية أكثر ارتباطاً بسياق المتعلمين.

أولاً: الإطار المفاهيمي للدراسة

يتألف الجهاز المفاهيمي للدراسة من حزمة من المصطلحات الأساسية التي تفترض الدراسة تفكيكها وفحص بنيتها النظرية والوظيفية، والوقوف على أبعادها التطبيقية والعملية. وهذه المصطلحات هي:

1. الذاكرة

يقصد بالذاكرة¹ حسب جاك لوغوف (Jacques LE GOFF)، مجموعة من الوظائف النفسية التي يتمكن بفضلها الشخص من استدعاء وتحيين انطباعات ومعلومات باعتبارها ماضيا²، وهي من وجهة النظر هذه ترتبط بعلم النفس، وعلم النفس الفيزيولوجي والعصبي، وبالبيولوجيا³، وتعني كذلك "آليات تمثل الماضي واستحضاره، ومسارات تشكل هذا التمثل من الناحية الاجتماعية والسياسية والثقافية"⁴. يؤكد هذا التعريف على مسألة أساسية تتمثل في أن الذاكرة تشتغل وفق آليات تستدعي الماضي لتحيينه وإعادة بنائه، مستحضرة غاية الحفاظ على تماسك الجماعة واستمرارها، من خلال ربط الماضي بالحاضر، لأن الماضي دائما ما يكون مرتبطا بتجربة الأفراد والجماعات في الحاضر⁵. فعملية الاستدعاء والارتباط بالماضي تنطلق أساسا من الحاضر والصيغ التي يكون عليها.

وتعرف الذاكرة أيضا بأنها مجموع التفاعلات النفسية التي تسترجع الماضي اعتمادا على عدد من آليات التذكر، وتمر هذه العملية عبر "مسار معقد من إدراك الأحداث وتسجيلها وترميزها وتخزينها وإعادة إنتاجها في شكل صور ذهنية في زمن ماض إلى استحضارها وذكرها، أو التذكير بها حسب معطيات الحاضر الذي يتم فيه ذلك"⁶. تشير الذاكرة أيضا إلى "ما تبقى من الماضي في أذهان الناس أو ما يتصورونه بخصوص هذا الماضي. فهي إذن موروث ذهني، ومجموعة ذكريات تغذي التمثيلات. ثم إنها لا تعيد إنتاج ما حصل في الماضي، بل تعرض لانطباع الناس حول هذا الماضي. ولذلك تبقى مجرد صورة، غالبا ما تغلب عليها القدسية"⁷.

فالذاكرة، إذن، تعني مجموع التمثيلات والتصورات التي تتكون لدى الفرد ولدى الجماعة، بما هي تجارب معاشة يتم إعادة استدعائها وبنائها انطلاقا من متغيرات الحاضر المعاش. وهو ما يضعها أمام خيار المراجعة الدائمة والرسكلة وإعادة البناء من طرف المجموعات الفاعلة في المجتمع، وتصريفها عبر القنوات الرسمية، كالإعلام والمدرسة، قصد تشكيل وبناء وعي تاريخي جماعي مشترك، وهو في الأصل نسق من القيم والمبادئ والسلوكيات التي تلزم التعايش داخل المجتمع، وتساهم في إيجاد السبل الكفيلة للعيش المشترك والبحث عن أصول التآزر والتضامن بين أفراد المجتمع في الماضي. فالذاكرة تدل على كل إحساس متواصل بالماضي ومحاولة الدفاع عنه، سعيا منها لإثبات ذاتها وتحديد هويتها وفق تأويل معين غالبا ما يقصي ذكريات معينة بغية التأسيس للمشارك الذي يوحد

¹ العماري فريد. (2019). *الذاكرة والصورة والتاريخ: الترابطات والتداخلات الممكنة*، ضمن: *اقتفاء أثر قدوة: أعمال مهادة إلى الأستاذ غلال الخديمي*، تنسيق الكتاني سيدي محمد، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص.ص. 597-603.

² جاك لوغوف، *التاريخ والذاكرة*، ترجمة شحيد جمال. (2017). المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (سلسلة ترجمات)، الطبعة الأولى، ص. 101. ينظر كذلك: عفيف عثمان. (1998). *الذاكرة والتاريخ* من خلال كتاب المؤرخ جاك لوغوف، *مجلة منبر الحوار*، السنة الثالثة عشر، ص. 94. وصهوب محمد، التراث والذاكرة التاريخية: مقارنة تربوية، *مجلة الإدارة التربوية، العدد 6*، ص.ص. 14-15.

³ لوغوف جاك، *التاريخ والذاكرة*، م. س، ص. 101.

⁴ حبيدة محمد (2013)، *التاريخ والذاكرة، مجلة يتفكرون، العدد الثاني*، ص. 50.

5- Maghraoui Driss, *Histoire et mémoire ; Quels enjeux politique au Maroc*, Dans « *Le temps présent et fonctions de l'histoire* », édité par ; Mohammed KENBIB (2009), publications de FLSH-Rabat Agdal, N 158, P. 19.

⁶ الطاهري عبد العزيز. (2016). *الذاكرة والتاريخ: المغرب خلال الفترة الاستعمارية (1912-1956)*، تقديم جامع بيضا، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، ص. 32.

⁷ حبيدة محمد، *التاريخ والذاكرة*، م. س، ص. 50.

ذاكرة الأمة/الدولة. فهي باعتبارها ماض، ترتبط ارتباطا وثيقا بالجماعات البشرية التي تبني حاضرها انطلاقا من الماضي، وهو ما يضعها أمام إمكانية التلاعب والاستعمال السيء. لذلك يجب الانتباه دائما إلى أن مفهوم الذاكرة في معظم تطوراتها لا ينحصر في مجرد استدعاء الماضي لتخليده، أو لمجرد تشكيل ذاكرة وهوية خاصة بجماعة ما، بل إن الأمر أكثر من ذلك، ويتعداه إلى إمكانية تمهيش أو إقصاء تعسفي وواع لذاكرات حقيقية وطمس كل معالمها مقابل تشكيل ذاكرات مزيفة أو أسطورية.

2. العرف

يعرف الجرجاني العرف بكونه "ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول، وتلقته الطبائع بالقبول، وهو حجة أيضا لكونه أسرع إلى الفهم"¹، وهو نفس التعريف تقريبا الذي جاء به ابن عابدين عندما اعتبره "ما يستقر في النفوس من الأمور المتكررة المعقولة عند الطبائع السليمة"².

يظهر من خلال التعريفين السابقين أن أهل الفقه يبحثون عن العرف من حيث إنه قاعدة تبني عليها الأحكام العملية، جاعلين العقل كمصدر له دون أن يعمموا ذلك³، وهو ما يفيد أن ما يجري في الأقوال يجري في الأفعال التعاملية، بمقتضى صيغة العموم الواردة فيه، قائما في ذلك على استقرار الأمر في النفوس، وقبول الطبائع السليمة له⁴. لقد دفع هذا التحديد بعض المتأخرين إلى تقديم تعريف آخر للعرف؛ حيث يؤكدون أن العرف "ما اعتاده الناس وساروا عليه في شؤون حياتهم"⁵، أي كل ما يتابع الناس فيه بعضهم بعضا سواء أكان مصدره العقل، أم الغريزة، أم مجرد الصدفة والاتفاق⁶.

3. الديداكتيك

كلمة ديداكتيك (Didactique) مشتقة في اللغات الأوربية من (Didaktikos)، وتعني "فلنتعلم"، أي "ليعلم بعضنا بعضا"، وهي مشتقة أصلا من الكلمة الإغريقية (didaskein) ومعناها التعليم. واستعملها Jan Amos Komenský (يُعرف أيضا باللاتينية باسم: Johann Amos Comenius) الذي يعد الأب الروحي للبيداغوجيا، منذ سنة 1657 في كتابه "الديداكتيكا الكبرى" (Didáctica Magna)؛ بمعنى الفن العام للتعليم في مختلف المواد التعليمية، وهي ليست فنا للتعليم فقط بل للتربية أيضا، وتدل على تبليغ وإيصال المعارف لجميع الناس⁷. فالديداكتيك اصطلاح قديم -جديد؛ قديم استخدم في الأدبيات التربوية منذ بداية القرن 17، وجديد بالنظر إلى الدلالات التي ما انفك يكتسبها حتى وقتنا الراهن. ومن خلال التعاريف التي وضعت له في البداية،

¹ الجرجاني علي بن محمد، *التعريفات*، ضبطه وصححه مجموعة من العلماء تحت إشراف دار الكتب العلمية. (1983). بيروت، الطبعة الأولى، ص. 149.

² ابن عابدين، *مجموعة رسائل ابن عابدين*، نقلا عن أبي الحافظ النسفي في كتابه *المستصفي*، مطبعة المكتبة الهاشمية، دمشق، ص. 112.

³ الجديدي عمر عبد الكريم. (1982). *العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهوميها لدى علماء المغرب*، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، ص. 33.

⁴ نفسه، ص. 34.

⁵ نفسه، ص. 34. (الهامش رقم 22).

⁶ نفسه، ص. 34.

⁷ الدريج محمد. (2011). *عودة إلى تعريف الديداكتيك أو علم التدريس كعلم مستقل، مجلة علوم التربية، العدد 47*، ص. 8.

كان معناه فن التدريس أو التعليم. ومنذ ذلك الوقت أصبح مصطلحا مرتبطا بالتعليم، دون تحديد دقيق لوظيفته¹، إلى حدود أواسط القرن 19، حيث وضع المربي الألماني هيربارت (Herbert) أسسه النظرية التي تخص الأنشطة المتعلقة بالتعليم فقط؛ أي كل ما يقوم به المعلم من نشاط². اهتم أنصار التصور الهربرتي بصورة أساسية بالأساليب الضرورية لتزويد المتعلمين بالمعارف، واعتبروا أن الوظيفة الأساسية للديداكتيك هي تحليل نشاطات المعلم في المدرسة. وفي بداية القرن 20، ظهرت مدرسة التربية الحديثة مع جون ديوي (Dewey) وغيره، حيث تم التأكيد على أهمية النشاط الحي والفعال للمتعلم في العملية التعليمية، فاعتبر الديداكتيك، نظرية للتعلم لا للتعليم.

يسعى علم التدريس (أو الديداكتيك) إلى إنشاء معايير تطبيقية فعالة من أجل عقلنة وتنظيم نشاط كل من المدرس والتلميذ. على أن هذه العقلنة (التنظيم المحكم والمنطقي) تقتضي بدورها تنظيم ذلك النشاط عبر ثلاث مراحل أساسية:

- البرمجة والتحضير (التخطيط).
- إنجاز وتطبيق ما تمت برمجته استنادا إلى تقنيات ووسائل تربوية وديداكتيكية متنوعة ومختلفة (التدبير).
- المراقبة أو التقويم.

تجدر الإشارة إلى أن اللغة العربية تزخر بمصطلحات عديدة مقابلة للمصطلح الأجنبي الواحد، ولعل ذلك يرجع إلى تعدد مناهل الترجمة. من ذلك: تعدد المصطلحات المستقاة من الإنجليزية أو من الفرنسية، ومنها مصطلح *didactique* الذي تقابله في اللغة العربية عدة ألفاظ: تعليمية، تعليميات، علم التدريس، علم التعليم، التدريسية، الديداكتيك... وغيرها، وتتفاوت هذه المصطلحات في الاستعمال، ففي الوقت الذي اختار بعض الباحثين استعمال مصطلح "ديداكتيك" تجنباً لأي لبس في مفهوم المصطلح، يستعمل باحثون آخرون علم التدريس، وعلم التعليم، ويفضل آخرون مصطلح تعليمية أو تعليميات أو تدريسية. وساد أيضاً استعمال مصطلح آخر في كلية علوم التربية بالرباط وبعض مؤسسات تكوين الأطر التربوية كالمدارس العليا للأساتذة هو "التربية الخاصة"، في حين استعملت مراكز تكوين المعلمين كلمة "منهجية" للدلالة على هذا التخصص³، والتي كانت تتضمن البحث في المسائل التي يطرحها تعليم مختلف المواد الدراسية المقررة، ومن هنا جاءت تسمية "التربية الخاصة" أي خاصة بتعليم المواد الدراسية، مثل التربية الخاصة بالرياضيات أو التربية الخاصة بالفلسفة، في مقابل التربية العامة أو البيداغوجيا والتي تهتم بمختلف القضايا التربوية في القسم بل وفي النظام التربوي برمته، مهما كانت المادة الملقنة.

الديداكتيك، في مفهومه العام، يُعد علماً تربوياً تطبيقياً يهتم بدراسة وتحليل العلاقات التفاعلية بين الأستاذ، المادة التعليمية والتلميذ. وهو يتضمن مجموعة من الأسس النظرية والمناهج العملية المستقاة من المعارف العلمية والتربوية، والتي تهدف إلى تنظيم عملية التدريس بشكل فعال ومنهجي، فضلاً عن كونه يلعب دور الوسيط بين المعرفة الأكاديمية العالمية من جهة، وطرق عرضها

¹ أوزي أحمد. (2006). *المعجم الموسوعي لعلوم التربية*، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 140.

² Decorte, et all. (1990). *Les fondements de l'action didactique*, ed. De Boeck, P. 328.

³ الدريج محمد، م. س. ص. 9.

وتوصيلها للمتعلمين من جهة أخرى، وذلك عبر اعتماد ما يُعرف بالنقل الديدكتيكي، وهو حسب (Chevallard, Y)¹ تلك العملية التي يتم من خلالها إعادة صياغة المعرفة العلمية أو النظرية بطريقة مبسطة وملائمة للسياق التعليمي، مع مراعاة الخصائص النفسية والعقلية والاجتماعية للمتعلم، بالإضافة إلى الأهداف التربوية العامة. وهذا التحويل لا يعني بتر المحتوى العلمي، بل يعمل على إعادة صياغة المعرفة العلمية أو النظرية بطريقة مبسطة وملائمة للسياق التعليمي، مع مراعاة الخصائص النفسية والعقلية والاجتماعية للمتعلم، بالإضافة إلى الأهداف التربوية العامة. وبالتالي تقديمها بأسلوب تعليمي يسهل استيعابها وتطبيقها، مما يُعزز الفهم الحقيقي ويبني الكفايات المطلوبة لدى التلميذ.

ثانيا: الذاكرة، العرف والتاريخ: بحث في التداخلات الممكنة

1. التاريخ والذاكرة: رصد للتداخلات العلائقية

يأتي البحث في العلاقة بين الذاكرة والتاريخ، في إطار جدلية العلاقة بين هذين الحقلين، التي أضحت في نهاية القرن العشرين "الوتر الحساس والهاجس من جراء الأزمنة التراجيدية المعيشة"²، حسب تعبير فرنسوا دوس. لذلك فالفكرة التي يجب عدم إغفالها هي أن التداخل بين التاريخ والذاكرة أمر لا مناص منه، وفي المقابل لا بد من التمييز بين ما سماه بول ريكور "طموحين من طبيعة مختلفة: الحقانية-الحقيقة التي يضطلع بها التاريخ، والوفائية التي تميز الذاكرة"³. فهذه العلاقة الجدلية بين التاريخ والذاكرة يجب أن تتميز بنوع من التوازن، فالاحتباس المفرط من عواقب الذاكرة يؤدي إلى تقديس وضعية التاريخ، أما استرجاع التاريخ/الماضي بالذاكرة فيؤدي إلى استبعاد المستوى الإستيمولوجي الضروري للتفسير والفهم⁴.

ننتقل في تحديدنا لنوع العلاقة وإمكانية التطابق بين الذاكرة والتاريخ من عدمها، مما سماه بول ريكور "نقطة التصادم"⁵، ففيها بالذات يتبدى واجب الذاكرة مفعما بالالتباس، إن الأمر بالتذكر قد يسمع وكأنه دعوة موجهة إلى الذاكرة لتختصر عمل التاريخ، بل مرافعة للدفاع عن الذاكرة على أنها سجل التاريخ بما أنها تبقى حارسة إشكالية العلاقة التمثيلية للحاضر بالماضي. وفي هذا رفض لاختزال الذاكرة في مجرد موضوع، أو غرض من بين الأغراض الجديدة للتاريخ إلى درجة سلخها من وظيفتها التسجيلية⁶. فالذاكرة لا يمكن أن تلغي التاريخ في استعادة الماضي، كما أن التاريخ ليس بمقدوره إعلان موت الذاكرة خاصة من جهة علاقتها وارتباطها

¹ Chevallard, Y. (1999). L'analyse des pratiques enseignantes en théorie anthropologique de la didactique, *Recherches en Didactique des Mathématiques*, 19(2), 221-266.

² دوس فرانسوا (حوار)، أجرى الحوار شوقي محمد الزين. (2014). مفاتيح معاصرة في فهم سؤال التاريخ والذاكرة ودور الاعتراف في ترتيب علاقة الذات بالآخر، *مجلة يفكرتون، العدد 4*، (تصدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث)، ص. 68.

³ نفسه، ن. ص.

⁴ نفسه، ن. ص.

⁵ ريكور بول. (2000). *الذاكرة، التاريخ، النسيان*، ترجمة وتعليق وتقديم جورج زيناتي. (2009). دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، ص. 145.

⁶ نفسه.

بالماضي، نظرا لأنها أصبحت تشكل رهانا للجماعات البشرية. كما أنه لا يمكن بحال من الأحوال اختزال الذاكرة في مجرد مقاطعة من التاريخ، خاصة عندما يتعلق الأمر باسترجاع الماضي القريب جدا، والذي يكون فيه الرهان على الذاكرة بالدرجة الأولى.

إذا كانت الذاكرة توفر إمكانية إبراز محطات لتمجيدها والاحساس بأهميتها، وبالتالي المحافظة على الأفعال المؤثرة في صيغة خزان وبنك معلومات، فالأجدر ألا نعتبر ذلك حقيقة صالحة لكل زمان وحين، ففي تصورنا يجب أن نستند إلى منطق مستعد لقبول ذاكرة أبعد من التي حققناها في وقت سابق وفي إطار منظومة جماعية معينة.

إن الغاية من تحديد الخصائص المائزة لكل من الذاكرة والتاريخ هو توضيح معالمهما العامة وإبرازها على الوجه الأصح، فالهدف -بكل بساطة- يتمثل في تجنب النظرة الأحادية للذاكرة الوطنية في أفق استكشاف ذكريات متعددة تنذر بقبول الاختلاف والانفتاح، ورد الانغلاق والاعتراف بالنظرات الثاقبة نحو كل استلهم لتجربة التقدم والتطور وقابلية التغيير. هكذا يظهر إذن التاريخ وهو يعمل في هذا المضمار من أجل الكشف عن حقائق كل ذاكرة وعقلنتها، والوقوف عند إشكالاتها البئيسة، بشكل يتجاوز مجال الايديولوجيا والخيال، إلى الاعتراف بما هو عقلائي في الماضي المساهم في تكوين الفرد تكوينا اجتماعيا، والوقوف على عمليات التحول الاجتماعي عن طريق الاهتمام بالفوارق الاجتماعية وتحليلها في إطار الاختلافات، ثم الاهتمام بالجماعة وبنيتها أكثر من الفرد¹.

يقوم التاريخ على النظرة النقدية والعلمية الصارمة للماضي، فهو يستند على المعالجة المنهجية والموضوعية والنسبية في عملية استحضار الماضي. إنه حسب لوسيان فيفر وجاك لوغوف ترتيب للماضي، وبناء إشكالي لهذا الماضي انطلاقا من عملية فكرية تشتغل بالتحليل والنقد. فعملية إعادة الترتيب والبناء الإشكالي التي يقوم بها التاريخ تتم عبر مجموعة من المحطات/اللحظات هي: لحظة إقامة البرهان الوثائقي، ولحظة التفسير والفكر، ولحظة الكتابة. وتبقى اللحظة الأخيرة، حسب بول ريكور، هي التي تبرز الاستعصاءات الكبرى للذاكرة؛ استعصاء تمثيل شيء غائب وقع سابقا، واستعصاء ممارسة مكرسة للاستدكار النشط للماضي التي يرفعها التاريخ إلى مستوى إعادة البناء².

أما الذاكرة في استحضارها للماضي، فعادة ما تختلط تلك الصورة التي يتم استحضارها عن الماضي بالخيال. كما أنها تتميز بمجموعة من الخصائص، التي تحدد طريقة نظرتها للماضي، من أبرزها تعدد المرجعية على مستوى الأفراد والجماعات والمؤسسات، والانتقائية والاحتفالية التي تطبع علاقتها بالماضي. إضافة إلى أنها تتميز بتداخل الذكرى والذات، مما يؤدي إلى تشوهات متتالية عبر الحكي مع مرور الزمن. فاستحضار الماضي عبر الذاكرة غالبا ما يمتزج فيه تخليد الماضي بالاحتفال بالحاضر وتركيز مظاهره في معظم الأحيان. إلا أنه بالرغم من ذلك "تبقى الذاكرة ذات أهمية، بالنظر إلى ذاتية النظرة، ونفسانية الحالة، وحميمية الصلة بين الذكرى ولحظات إنتاجها وإعادة إنتاجها واستحضارها"³. فهي أكثر وقعا من التاريخ بالقياس إلى درجات تأثيرها في أوساط عامة الناس،

¹ موريث علي. (2008). معالم تطور الهوية المغربية من خلال كتب التاريخ المدرسة للمرحلة الإعدادية (دراسة تحليلية)، بحث لنيل دبلوم الماستر في علوم التربية، كلية علوم التربية بالرباط، (السنة الجامعية 2007-2008)، ص. 50.

² نقلا عن: حبيدة محمد، التاريخ والذاكرة، م. س، ص. 51. (بتصرف).

³ نفسه، ن. ص.

مع ما تحتزنه ذاكرة هؤلاء من أحكام مسبقة موروثه جيلا عن جيل. وفي هذا تأكيد على الأهمية والمكانة التي تحظى بها الذاكرة لدى الأمم والشعوب، استنادا إلى التصور القائل إن التاريخ "ينتج كثيرا لكنه لا يقنع إلا قليلا"¹، عكس الذاكرة التي تبرز أهميتها في القضايا الشائكة والمتشعبة بحكم سهولة إقناعها وتأثيرها.

إن ما يسميه بول ريكور "الآثار الذاكرة" التي تتراوح بين الآثار الذاكرة القشر-مخية والسيكولوجية والمادية، الموجودة في البعد الثالث في الذاكرة، وتشمل الآثار المادية والوثائقية، هي التي تحدد نوعية العلاقة بين التاريخ والذاكرة وتجسدها أكثر فأكثر. فالآثار المادية والوثائقية تتواجد في حقل البحث عند المؤرخ، وتشكل بمفردها التشابك المحتوم بين التاريخ والذاكرة. فالممارسة التاريخية والذاكرة عمليتان يمكن ضمهما إلى بعضهما، لأن الطبيعة الحقيقية للعلاقة بين الذاكرة والتاريخ في عملية استدعاء الماضي هي بمثابة إعادة نقدية داخلية بقدر ماهي خارجية² لهذا الماضي. فالذاكرة -حسب ريكور دائما- تصبح بالنسبة للتاريخ كقالب أو مطرس، بالرغم من التباعد الممكن بينهما، وبحكم أنهما مختلفان، خاصة على مستوى الكتابة، حيث يقع التاريخ في المراحل التأسيسية الثلاث التي نعتها ميشيل دوسارنو بالعملية التاريخية: الأرشفة التي يتعرض فيها الطموح الحقباني إلى تمييز الشهادة الصحيحة عن المزيفة، على مستوى التفسير/الفهم الذي يطرح السؤال السببي لماذا؟، وأخيرا على صعيد التمثيل التاريخي نفسه الذي يتم فيه إنجاز فعل كتابة التاريخ ذاته، الذي يستند مرة أخرى على مسألة الحقيقة. مما يؤكد خطورة أن يفهم التذكر على أنه دعوة الذاكرة لأن تتخطى عمل المؤرخ³. فالذاكرة ليس بمقدورها أن تتعالى عن التاريخ في انشغالها على الماضي، كما أن التاريخ ليس بإمكانه إقصاء الذاكرة وحذفها. يبقى الاستناد إلى الذاكرة كلية في كل رجوع نحو الماضي أمرا لا يمكن الإقرار بمصداقيته، لأنها تظل رغم ذلك منغلقة وذات تصور أحادي غير خاضع لمنهج علمي دقيق. من هنا تبرز أهمية التاريخ كعقلنة للذاكرة.

إن التفكير في الذاكرة والتاريخ والعلاقة بينهما لا يجب أن يتم دون فهم لعملية النسيان، ودون فهم للكيفية التي تتمثل بها الذاكرة الماضي وكل ما يرتبط به. فالنسيان، سواء أكان طبيعيا أو مقصودا، هو علامة على هشاشة الوضع الإنساني، وتحد يواجهه طموح الذاكرة إلى الوفاء والحقيقة في التاريخ، فهو يمثل الوجه السلبي للذاكرة من التاريخ؛ لأنه يشير إلى ضياع جزء مهم من آثار الماضي ومخلفاته⁴. فهو يعني على مستوى الذاكرة فقدان الذكريات واختفاء آثارها على مستوى الدماغ، أما على مستوى التاريخ فيدل على ضياع الوثائق أو تحريف وتزوير لبعض أحداث الماضي أو تدمير لها. على هذا الأساس يتم استغلال بعض القنوات، منها كتب التاريخ المدرسي، لتمرير تاريخ وذاكرة منتقاة؛ تقصي وتهمش، وتعزز، قضايا تاريخية دون غيرها، ليكون النسيان المفتوح تعبيرا عن ماض يهدد استقرار وتماسك الجماعة.

¹ نفسه، ن. ص.

² ورد عند: دوس فرنسو (حوار)، مفاتيح معاصرة في فهم سؤال التاريخ والذاكرة، م. س.، ص. 69. (تصرف)

³ نفسه، ص. 69.

⁴ MACRON Emmanuel, *La lumière blanche du passé: Lecture de «La mémoire, l'histoire, l'oubli» de Paul Ricœur*, dans : *Esprit*, NO 266/267 (8/9), Aout-septembre 2000, P. 30.

أما فيما يخص تمثيل الذاكرة للماضي بأحداثه وأصواته، فهو يمثل "المادة الخام التي تخزنها الذاكرة، قبل أن تضفي عليها، عند استحضارها، قيما إيجابية غريبة عنها؛ وجدانية كانت أو ذهنية أو إيديولوجية"¹. وبهذا المعنى تصبح الذاكرة فاعلة في إنتاج التاريخ، عبر إثارتها للتاريخ المغيب من المدونة الرسمية، مساهمة بذلك في إنتاج روايات متعددة للحدث الواحد²، وهو ما يفتح المجال أمام المؤرخ لإعادة البحث في بعض الوقائع التاريخية.

2. العرف في تاريخ المغرب

تؤكد مختلف الدراسات والأبحاث التاريخية التي اهتمت بمسألة العرف في تاريخ المغرب، أن "الأعراف مقبولة ومعمول بها"³ في عدة مناطق بالمغرب، إبان فترة الحماية الفرنسية وقبلها وبعدها، ليس فقط على مستوى القبائل الأمازيغية، وإنما على مستوى مختلف القبائل والمناطق المغربية. كما تعتبر في المذهب المالكي (وهو المذهب الرسمي للمملكة المغربية) أحد المصادر الأربعة للتشريع الإسلامي إلى جانب القرآن والسنة والإجماع، شريطة ألا تتناقض في جوهرها مع القرآن الكريم والسنة النبوية⁴، إذ تحظى بمكانة متميزة لدى فقهاء المالكية، وقد استدلووا على ذلك بالعديد من الآيات والأحاديث التي استحسنت العمل بها مادامت متوافقة مع الشريعة الإسلامية⁵. في الإطار ذاته، يرى جمهور العلماء أن مصادر التشريع الإسلامي نوعان: أصلية وتبعية؛ تنحصر الأولى في الكتاب والسنة والإجماع، بينما الثانية عد منها الأصوليون: القياس والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف...⁶. ومن ثم أقر بعض السلاطين الأعراف وأصدروا في شأنها ظهائر كثيرة، من أبرزها "الظهير الحسني الصادر في شأن الأعراف الجنائية بزمور الشلح"⁷.

يتضح، بناء عليه، أن مسألة الأعراف عند القبائل المغربية لم تكن مرفوضة، جملة وتفصيلا، من السلطات الحاكمة، بل كانت حاضرة في تدبير العديد من الجوانب الحياتية اليومية. كما أن "فيها ما هو صالح -في الجملة- يسائر التشريع الإسلامي ولا يتناقض معه، ولا يهدم أصلا من أصوله. وفيها ما هو جائر فاسد يخالف النصوص القطعية التي أتت بها الشريعة الإسلامية"⁸. من هذا المنطلق، كان على المعرفة التاريخية المدرسية أن تعمل على تقديم ظهير 16 ماي 1930، باعتباره وثيقة تاريخية مهمة هدفها جعل التلميذ قادرا على فهم السياق الذي صدر فيه، والنتائج المترتبة عنه. وهو ما يقتضي دراسته في ذاته عبر تفكيك مضامين فصوله وتفاصيل فقراته، وإخضاعها جميعا لميزان التحليل والنقد، وليس بالصيغة التي جعلت منه أداة إيديولوجية توظف لخدمة غايات سياسية محددة أفرزتها التطورات التاريخية والسياسية التي عرفتتها الحركة الوطنية إبان نشأتها وعلاقتها بالسلطان.

¹ العلوي هشام. (2010). نصوص تازيمارت؛ الكتابة والبوح والذاكرة، ضمن: *الذاكرة والإبداع: قراءات في كتابات السجن (أعمال ندوة)*، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الطبعة الأولى، ص. 57.

² مؤذن عبد الرحيم. (2010). *الغرفة السوداء: الذاكرة والكتابة*، ضمن: *الذاكرة والإبداع: قراءات في كتابات السجن (أعمال ندوة)*، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الطبعة الأولى، ص. 63-64.

³ المساري محمد العربي، *المغرب خارج سياج الحماية: العلاقات الخارجية للحركة الوطنية*، منشورات عكاظ الرباط، المغرب، ص. 92.

⁴ نفسه، ن. ص.

⁵ الجليدي بن عبد الكريم عمر، *العرف والعمل في المذهب المالكي*، م. س، ص. 53-90.

⁶ نفسه، ص. 9. (مقدمة الكتاب)

⁷ نفسه، ص. 237.

⁸ نفسه، ص. 253.

ثالثا: العرف والذاكرة وتعليم وتعلم التاريخ: مقترحات للاستثمار الديداكتيكي

1. العرف وتدرّس التاريخ

1.1. العرف والتاريخ المدرسي: ظهور 16 ماي 1930

تولي جميع الكتب المدرسية للتاريخ، وإن كانت تختلف حسب السيرورات المتتابة لإصلاح التعليم المغربي، أهمية خاصة لظهير 16 ماي 1930، حيث تفتح على فصوله، وتعالج جوانب كثيرة من مضامينه¹. فكيف تقدم، إذن، هذه الكتب هذا الظهير؟ وما هو التصور الذي تروج له من خلاله؟

تتلخص الفكرة الرئيسة التي تروج لها هذه الكتب في أن الظهير استهدف "تمزيق وحدة الشعب المغربي، بخلق تفرقة عرقية بين عناصره"²، وكرس سعي سلطات الحماية الفرنسية لإنشاء قضاء عربي أمازيغي مستقل تمام الاستقلال عن القضاء المغربي الإسلامي، وإخضاع جزء كبير من البلاد لاختصاصات القضاء الفرنسي، كخطوة أولية لإبعاد الأمازيغيين عن ملة الإسلام تمهيدا لفرنستهم وتنصيرهم³.

استندت كتب التاريخ المدرسي، لتعزيز هذا التصور، إلى مقتطفات من هذا الظهير لإبراز مدى خطورته على وحدة الشعب المغربي وتأخيه. وقد اعتمدت، ديداكتيكا، على فقرات منه، فركزت على الفصول: الأول، والثاني، والثالث، والخامس، والسادس، والسابع، بينما تغاضت عن الفصلين الرابع والثامن، وإن كان ذلك متبائنا من كتاب إلى آخر حسب الطباعات وتوالي الإصدارات. يبدو من خلال قراءة أولية لمضامين الكتب المدرسية للتاريخ وهي تقدم ظهير 16 ماي 1930، أنها تحاول تمرير خطاب ذي طابع إيديولوجي هدفه خدمة ذاكرة النخب السياسية، واستبعاد ذكريات أخرى لها علاقة مباشرة بهذا الظهير، وهي أساسا الذاكرة الأمازيغية وذاكرة المستعمر الفرنسي، لأن هذا الظهير ليس شأننا خاصا بالحركة الوطنية وحدها، وإنما هو كذلك بالنسبة للسلطان الذي وقعه، والسلطات الاستعمارية الفرنسية التي سهرت على تنفيذ مضامينه، والقبائل ذات العوائد «البربرية» التي استهدفها.

أما فيما يتعلق بإشارة الكتب المدرسية للتاريخ إلى أن المحتجين كانوا يرددون "اللطف" داخل المساجد احتجاجا على السياسة "البربرية" لسلطات الاحتلال، فيبدو أنها عملت على الربط بين فعل الدعاء في المساجد وظهير 16 ماي، بما يجعل المتعلم يتصور أن قراءة اللطف، بوصفه أسلوبا احتجاجيا، مرتبط حصرا بهذا الظهير. ولم تستحضر في المقابل أن هذا النمط من الدعاء كان من العادات التي دأب المغاربة على اللجوء إليها "كلما نزل بهم بلاء كبير كالجفاف أو الجوع أو الأوبئة"⁴. فهل كان الظهير فعلا البلاء

¹ العماري وآخرون. (2021). أية خلفية "للظهير البربري" في الكتب المدرسية المغربية؟ كتب التاريخ المدرسي للسنة الثانية من سلك البكالوريا أتمودجا، ضمن: العلوم الإنسانية والاجتماعية والبناء الحضاري والثقافي (أشغال المؤتمر الدولي السنوي 2021)، الجزء الثاني، تنسيق بوطيب جمال وشراك أحمد، سلسلة دراسات، منشورات مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس المغرب، الطبعة الأولى، ص.ص. 237-247.

² المملكة المغربية وزارة التربية الوطنية (1989). كتاب التاريخ للسنة الثالثة الثانوية (جميع الشعب)، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، الطبعة الأولى، ص. 121.

³ المملكة المغربية وزارة التربية الوطنية. (1996). كتاب التاريخ للسنة الثالثة الثانوية (جميع الشعب)، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، الطبعة الأولى، ص. 144.

⁴ قادري محمد وآخرون. (2015). في رحاب التاريخ، السنة الثانية من سلك البكالوريا (كتاب التلميذ والتلميذة)، مكتبة السلام الجديدة والدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ص. 248.

العظيم الذي كان وراء دعاء اللطيف أم كان فقط الشجرة التي تخفي وراءها غابة الأحزان والمآسي التي عرفها المغاربة وقتئذ؟ لاسيما أن هذه الكتب قد تجنبت الإشارة إلى موضوع رفض السلطان لاحتجاجات الحركة الوطنية، وسكتت عن توجيهه خطابا بالمناسبة "نلي في المساجد يوم 11 غشت 1930، وأمر الصدر الأعظم الباشوات وخلفاءهم بتلاوته بصوت مرتفع وواضح حتى يدرك الحضور معناه ويلتزموا بأوامره، وقد وصف فيه الظهير بكونه مجرد تدبير إداري، وذم الشباب على سوء عملهم وتغريهم بالجماهير واستعمال الصلوات للتظاهر السياسي، فحرم اللجوء إلى المساجد للتجمعات السياسية"¹. وقد عبر الصدر الأعظم عن هذا الموقف الرفض للاحتجاجات ضد الظهير، باعتباره أكثر المتشبهين به، بوصفه لهذه المظاهرات بـ"الوقاحة الفاسية"، كما منع الجرائد التي كانت تصدر بفاس، وتلك التي ترد إليها².

يضاف إلى ما سبق أن ظهير 16 ماي لم يكن يستهدف تنصير الأمازيغ، وخلق تفرقة عرقية بينهم وبين العرب؛ إذ لم تعرف فترة ما بعد 16 ماي 1930 تسجيل "حالات تنصير أو تحالف مع المستعمر في الأوساط الأمازيغية التي عرفت بألوج المقاومة والتضحية، عكس ما حصل مع فئات أخرى في بعض المدن الوطنية"³، وتكفي الإشارة إلى معارك ما انفكت تشيد بها هذه الكتب من بينها "معركة بوكافر" التي حدثت سنوات بعد إصدار الظهير (13 فبراير-25 مارس 1933)، التي انتصرت فيها قبائل أيت عطا الأمازيغية بقيادة عسو أوبسلام على المستعمر الفرنسي وبعضا من معاونيه المغاربة، وإنما كان قانونا منظما لسير العدالة بالقبائل ذات الأعراف البربرية، ويهم تنظيم المحاكم العرفية في المناطق التي تنعدم فيها المحاكم الشرعية. والمقصود بالقبائل ذات «العوائد البربرية» هي تلك القبائل ذات عادات وأعراف «بربرية»، وليس القبائل «البربرية»، كما يفهم من محتويات الكتب المدرسية بما يجعل تطبيق الظهير "يشمل القبائل التي تتكلم العربية ولها عادات (بربرية)، والعكس صحيح"⁴.

يظهر أن الموقف الذي تعبر عنه الكتب المدرسية للتاريخ حول ظهير 16 ماي 1930 ما هو إلا مجرد قراءة تأويلية لمضامينه على ضوء معطيات السياق التاريخي والسياسي والثقافي والفكري لتلك الفترة من تاريخ المغرب⁵، وهو سياق انبثق عن "مقاربة وطنية مستقاة من إيديولوجية الحركة الوطنية المرتكزة على القومية العربية"⁶، وما يؤكد هذا الطرح هو تركيزها على مسألتين أساسيتين: التفرقة العنصرية، وتنصير الأمازيغ؛ في حين أظهر الواقع عكس ذلك. فالظهير لم يكن وليد لحظته، أو فعلا اعتباطيا، كما تقدمه هذه الكتب، بل "سبقتها، ومهدت له، ظهائر ونصوص تشريعية ومراسيم وقرارات وزارية ومذكرات تفصيلية، سرية وعلنية، استهدفت

¹ الطاهري عبد العزيز، *الذاكرة والتاريخ*، م. س.، ص. 246.

² أشهبان عبد اللطيف. (2015). *خطاب الآخر في بعض خطابات رواد الحركة الوطنية في الشمال من خلال الخطب والرسائل*، ضمن: *خطاب الذاكرة الوطنية: بحوث في الراهن والمشارك والمسي وفي تشكيلات الخطاب ووظائفه (ندوة)*، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، ص. 54. (بتصرف).

³ الحاحي رشيد. (2009). *التصحيح والإنصاف من أجل المستقبل: الأمازيغ وتاريخ المغرب*، مجلة *وجهة نظر عدد مزدوج 40-41*، السنة الحادية عشر، ص. 16.

⁴ البكري بن الرافعة محمد. (2018). *التحليل اللساني للخطاب السياسي "خطاب الحركة الوطني المغربية" الرسمي من 1930 إلى 1942 موضوعا دراسة في الأدب السياسي المناهض للحماية والاستعمار*، ج. 1، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، الطبعة الأولى، ص. 241 (الهامش رقم 2).

⁵ نفسه، ص. 377.

⁶ الطاهري عبد العزيز، *الذاكرة والتاريخ*، م. س.، ص. 244.

جميعها، منذ ظهور 1914/9/11، مروراً بظهير 15 يونيو 1915، تأسيس محاكم عرفية ابتدائية واستئنافية في القبائل ذات الأعراف البربرية¹، وهو ما تغافلت عنه هذه الكتب، وحاولت القفز عليه عند استحضارها لهذا الظهير.

هذا الطرح يؤكد أهمية العمل على استثمار الأعراف في عملية تعليم وتعلم التاريخ بالمدرسة المغربية، لخلق نوع من التوازن بين ما يتم تلقيه بالمدرسة، وبين ما يعيشه التلميذ في واقعه الاجتماعي، خاصة أن بعض المناطق ما تزال تستند على العرف في تنظيم علاقاتها الاجتماعية والقبلية. فكيف يمكن، إذن، استثمار العرف كوسيلة ديدكتيكية في درس التاريخ؟ وما الأهمية التربوية التي يمكن تحقيقها من وراء ذلك؟

1.2. العرف وإمكانية الاستثمار الديداكتيكي في درس التاريخ

يهدف هذا المبحث إلى تقديم مجموعة من الخطوات الإجرائية لتعليم وتعلم التاريخ قوامها استثمار مفهوم العرف كأداة تحليلية وبيداغوجية فعالة. وقد تم تصميم هذه الخطوات انطلاقاً من منهجية التفكير التاريخي التي حددها الباحث حسني ادريسي مصطفى في كتابه "الفكر التاريخي وتعلم التاريخ". إذ يرى المؤلف أن التفكير التاريخي لا يقتصر على مجرد استيعاب الوقائع والأحداث، بل هو عملية بناء ذهنية تعتمد على مجموعة من المهارات والمراحل المتسلسلة، وهي²:

- الانتباه للمعطيات: أي تنمية قدرة المتعلم على ملاحظة الحدث أو الظاهرة بعين ناقدة، والتركيز على السياقات الزمانية والمكانية المرتبطة به؛
- جمع المصادر: تشجيع المتعلمين على البحث عن الوثائق والمصادر المختلفة المتعلقة بالحدث التاريخي، سواء كانت مكتوبة، شفوية، أو حتى شفاهية-بصرية (كالصور أو الشهادات)؛
- تحليل المعطيات: تدريب المتعلمين على قراءة المصادر بمنهج مختلفة، بما في ذلك تحليل النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية.
- التفسير والربط: تعليم المتعلم كيفية ربط الحدث بمختلف عناصره، وتفسيره في ضوء العوامل المؤثرة فيه؛
- التأويل النقدي: تطوير قدرة الطالب على إصدار أحكام موضوعية حول الحدث، مع الوعي بوجود وجهات نظر متعددة؛
- الانخراط الشخصي: تمكين المتعلم من ربط الماضي بواقعه، والتواصل معه بشكل ذاتي ووطني واجتماعي.

لا يُعد هذا الطرح مجرد محاولة لتجديد الوسائل أو إغناء أدوات التدريس فحسب، بل هو استجابة لضرورة تربوية عميقة تتجاوز البُعد الديداكتيكي المباشر، وتستهدف تكوين متعلمين قادرين على التعامل مع الماضي بوعي نقدي، واستيعاب الحاضر بفهم عميق، والتوجه نحو المستقبل بمسؤولية وطنية واجتماعية³. وبالتالي، فإن دمج مفهوم العرف في العملية التعليمية لا يُعتبر خياراً تعليمياً ثانوياً، بل يرقى إلى مستوى استراتيجية تربوية فاعلة تساهم في بناء ذهنٍ تاريخي ناقد، ويُمكن الفرد من موقع نفسه ضمن الزمن والمكان بطريقة واعية ومسؤولة، وهو ما يتوافق مع أهداف التربية الحديثة القائمة على بناء المواطنة والفكر النقدي.

¹ الجيادي عمر بن عبد الكريم، م. س.، ص. 241.

² حسني ادريسي مصطفى. (2021). *الفكر التاريخي وتعلم التاريخ*، (تقديم: هنري مونيو). دار أبي رقرق للطباعة والنشر. الرباط. الطبعة الأولى.

³ Lévesque, S. (2008). *Thinking Historically: Educating Students for the Twenty-First Century*. University of Toronto Press. Canada.

تبرز هذه الضرورة بوضوح عند مراجعة الطريقة التي يُقدَّم بها مفهوم العرف في الكتب المدرسية للتاريخ، خصوصًا في سياق المناهج الدراسية المغربية. فعلى سبيل المثال، يتضح من دراسة ظهر 16 ماي 1930 (وهو قضية محورية في غالبية الكتب المدرسية للتاريخ بالمغرب) أن المعالجة التعليمية لمسألة العرف غالبًا ما تقتصر على تقديم بعض النماذج السلبية، مما قد يؤدي إلى تشكيل تمثيلات سلبية أو مشوهة لدى المتعلمين حول هذا المفهوم.

إن هذا الاختزال لا يُغيب فقط التعقيدات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالعرف، بل يتجاهل أيضًا الأبعاد التنظيمية والثقافية الإيجابية التي أسهم فيها العرف في فترات تاريخية مختلفة. وقد سبق للباحثة الألمانية (Assmann Aleida)¹ أن أشارت إلى أهمية العرف والذاكرة الثقافية في بناء الهوية، وهو أمر يمكن تعزيزه من خلال المقاربة التاريخية داخل الحقل التربوي.

من هنا، يتحتم على القائمين على تدريس التاريخ اعتماد مقاربة تربوية وديداكتيكية جديدة تعيد النظر في منهجيات تدريس المادة، وتحديث الأدوات الديداكتيكية المستخدمة في العملية التعليمية. ويشمل ذلك ضرورة إعادة تقييم الطريقة التي يُدرج بها العرف داخل الكتب المدرسية ومنهج التدريس، بحيث يُعامل باعتباره عنصرًا حيويًا في بناء الهوية الثقافية والوطنية، وليس مجرد مصدر للصراعات أو التناقضات الاجتماعية، الهوية الوطنية والثقافية².

في هذا السياق، يأتي هذا الطرح الذي يركز على مراجع ودراسات أكاديمية رصينة، ويفسح المجال لتفعيل أدوات التفكير التاريخي في الممارسة الصفية، على اعتبار أن الخطوة الأولى التي يجب القيام بها هي التأصيل الديداكتيكي لمفهوم العرف باعتباره أداة ووسيلة تعليمية مهمة، تساعد على فهم واستيعاب بعض القضايا التاريخية من قبل التلاميذ، ويجب أن يستند هذا التأصيل على النهج التاريخي القائم على التحليل والنقد والربط بين الماضي والحاضر. لقد تم تكييف هذه الخطوات لتناسب مع النموذج المتبع في تدريس التاريخ داخل المدرسة المغربية، وبما يستجيب لخصوصيات البيئة التعليمية المحلية، ويحقق الأهداف العامة للبرنامج الدراسي.

بناءً عليه، نقترح مجموعة من **الخطوات العملية** التي يمكن أن تسهم في تنفيذ هذه المقاربة داخل الفصل الدراسي، مع مراعاة الخصائص النفسية والعمرية للمتعلمين، والسياق الثقافي والاجتماعي المحلي:

للمرحلة التعريف: يتم في هذا المستوى إبراز الإشكالية العامة، وتحديد خصائص الحدث/المعطى التاريخي، مع استهداف انتقاء أعراف ذات خصوصية محلية، حتى يسهل على التلميذ فهم أهميتها ودورها في تنظيم وترتيب الحياة الاجتماعية لبعض المجموعات أو القبائل. ويكفي في هذا الإطار العمل على إبراز أهمية العرف ودوره في فهم بعض القضايا التاريخية.

تقتضي الخطة المنهجية خلال **مرحلة التعريف**، إذن، صياغة الإشكالية والأسئلة المتعلقة بها، وتحديد الفرضيات والمفاهيم الرئيسية وتعريفها. وبخصوص الأسئلة التي يجب طرحها فيجب أن تكون ملائمة لمستوى التلاميذ وقدراتهم المعرفية، ناهيك عن ملأمتها لواقعهم الاجتماعي؛ أي أن تتوافق مع العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة حتى تكون سهلة الفهم، لا أن تكون مناقضة ومختلفة

¹ Assmann, A. (2011). *Cultural Memory and Western Modernity*. Stanford University Press.

² Rüsen, J. (2001). History, Meaning, Ethics, and Representation: The Paradigm of Historical Thinking. In J. Rüsen (Ed.), *New Perspectives on Historical Knowing* (pp. 1–36). Vandenhoeck & Ruprecht.

عنها. كما يتم خلال هذه المرحلة فن اكتشاف الوثائق الملائمة للمشكل المطروح، وهو ما يسميه الباحث حسني ادريسي مصطفى: "اليورستيك" ¹Heuristique.

مرحلة التفسير: تعد مرحلة مهمة في فهم التلميذ أهمية العرف داخل المجتمع المغربي، خاصة في فترة ما قبل الاستعمار، وعلاقته بالتاريخ. لذلك يتم في هذه المرحلة تفكيك العناصر العامة للعرف؛ من خلال العمل على تحديد السياق التاريخي الذي ظهر فيه، والظروف التي ساهمت في ذلك، والغايات والأهداف التي توخى تحقيقها.

تتطلب **مرحلة التفسير** تقديم الجواب عن السؤال: "لماذا؟"، بهدف فهم وتفسير العوامل المرتبطة بالحدث/المعطى التاريخي. ومن ذلك فهم البنية الاجتماعية والتاريخية، واستيعاب التلميذ لأهمية العرف التاريخية. ولتحقيق هذه الغايات يجب على المدرس أن يعمل بمعية التلاميذ على تفكيك مختلف عناصر العرف وربطه بسياقه التاريخي، وإبراز أهميته، ودوره في الكشف عن حقائق تاريخية خاصة بالمنطقة التي اعتمد فيها.

يمكن في هذا الإطار اقتراح الأمثلة التالية قصد الاستعانة بها عند استثمار العرف في درس التاريخ:

✓ إجراء مقابلة ميدانية مع أحد كبار السن حول عرف محلي بعرفه التلاميذ؛

✓ إنشاء خط زمني يوضح تطور هذا العرف في سياقه التاريخي؛

✓ تحليل وثيقة عرفية مثل "قانون الجماعة" أو "لوائح القبيلة"، أو "توزيع ماء السقي بين الأسى".

على العموم، فاستثمار العرف خلال هذه المرحلة يجب أن يستهدف، توجيه التلاميذ إلى الاشتغال على ما يسميه الباحث محمد صهود بـ "التأويل". ويقوم على مجموعة من الخطوات أهمها²:

✓ **تفسير وتفكيك** المعطيات التاريخية المستقاة من العرف، من أجل فهم أعمق للزاوية التي تم من خلالها تقديم الحدث/المعطى التاريخي، ومقارنته مع ما تروج له الكتب المدرسية لمادة التاريخ، ومع ما يمكن أن نصادفه في وثائق أخرى أو كتب تاريخية؛

✓ **تحليل** الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية وغيرها، التي ساهمت في ارتباط العرف بالمكان والزمان الذي اعتمد فيه. كما يتم تحليل مختلف التقاطعات والتباينات بين التاريخ المدرسي والعرف.

مرحلة التركيب: تستهدف عملية التركيب تقديم خلاصات تركيبية للحدث/المعطى التاريخي من خلال العرف. ويتم خلال هذه المرحلة يتم توجيه التلاميذ لصياغة تركيب عام، مسترشدين بالمعطيات السابقة. يمكن للأستاذ في هذه المرحلة الاشتغال فكرة

¹ حسني ادريسي مصطفى. *الفكر التاريخي وتعلم التاريخ*، م. س، ص. 83.

² صهود محمد، *التراث والذاكرة التاريخية*، م. س، ص. 21.

إنتاج مشروع جماعي أو عرض تقديمي يتناول عرفاً محدداً وتحليله تاريخياً، مما يُساعد على تطوير الكفايات العرضية (العمل الجماعي – التعبير الشفهي – النقد...).

2. التوظيف الديداكتيكي للذاكرة في تدريس التاريخ

يُعد توظيف الذاكرة الجماعية في تدريس التاريخ مدخلاً ديداكتيكياً واعداً، يستدعي أولاً الوعي بأهميتها كمصدر أساسي من مصادر كتابة التاريخ، إلى جانب الوثائق الرسمية والمادية. فالذاكرة لا تُعبر فقط عن استحضار الماضي، بل تُجسد تمثلات جماعية تنتظم حول أحداث مفصلية، غالباً ما يتم توارثها داخل الجماعات المحلية، مما يمنحها مكانة مركزية في العملية التعليمية.

في هذا السياق، يُمكن الربط بين هذا التوجه الديداكتيكي ومفهوم "أماكن الذاكرة" (lieux de mémoire) كما حدده المؤرخ الفرنسي بيير نورا (Pierre Nora)، حيث تصبح الذاكرة الجماعية مرتبطة بأماكن أو رموز تُجسد تمثلات تاريخية جماعية (كالمقابر، المعالم، الزوايا، الساحات، إلخ)، مما يتيح توظيفها كوسائط تعليمية ذات حمولة وجدانية ومعرفية في آنٍ واحد.

انطلاقاً من هذه الأهمية، يصبح من الضروري تحديد خطوات ديداكتيكية واضحة لاستثمار الذاكرة الجماعية في تدريس التاريخ، ليس فقط بوصفها أداة تكميلية، بل باعتبارها وسيلة تربوية فاعلة تُسهم في بناء وعي تاريخي متعدد الأبعاد.

فالذاكرة تُعد كذلك أداة أساسية في دعم التعلم التاريخي العميق، إذ تُمكن التلميذ من ربط الوقائع التاريخية بالأفكار والقيم، ومن بناء فهم مركب للزمن الماضي. كما تسمح له بتجاوز حدود التلقين نحو الانخراط الفعلي في عملية تفسير وتأويل ما يُدرّس؛ إذ أن الاشتغال على "أماكن الذاكرة"؛ كالمقابر الجماعية، مواقع المقاومة، الزوايا، أو حتى المعالم المرتبطة بحكايات محلية، يساعد التلميذ على إدراك أن التاريخ ليس فقط في الكتب، بل في الفضاء المحيط به أيضاً. وفيما يلي، نقدم مجموعة من الخطوات العملية التي يمكن أن يعتمد عليها المدرس لتعزيز حضور الذاكرة الجماعية في درس التاريخ، بشكل يُسهم في تنشيط تمثلات المتعلمين وتوسيع فهمهم للظواهر التاريخية في سياقها الثقافي والاجتماعي:

- ✓ ربط التاريخ بالحياة اليومية باستخدام أمثلة من الحياة اليومية للتلاميذ لشرح المفاهيم التاريخية المعقدة. على سبيل المثال، يمكن اعتماد مقارنة بين نظام الحكم في دولة ما قديماً ونظام الحكم الحالي؛
- ✓ استخدام القصص والحكايات التاريخية المنتمة للمجال الجغرافي للتلميذ لجذب انتباهه، والعمل على مقارنتها بما هو موجود في الكتب المدرسية، لمساعدته على فهم الاختلاف بين الكيفية/الطريقة التي يتم بها تمثل الحدث/المعطى التاريخي من قبل المعرفة التاريخية المدرسية، وبالتالي إدراكه لتباين الذاكرات وتعددتها؛
- ✓ تمثيل الأدوار من خلال تشجيع التلاميذ على تمثيل شخصيات تاريخية، مما يساعدهم على فهم الدوافع والأفعال؛
- ✓ استخدام التقنيات البصرية كالصور والفيديوهات (صور شخصيات تاريخية، صور أماكن تاريخية، أشرطة وثائقية تاريخية... وغيرها)
- ✓ زيارة "أماكن الذاكرة" وكتابة تقرير عنها باعتماد بطاقات تقنية خاصة بالزيارة.

يمكن في إطار اعتماد الذاكرة في عملية تدريس التاريخ الاسترشاد بالخطوات المنهجية أعلاه، والتي أوردناه حول اعتماد العرف في عملية تعليم وتعلم التاريخ. كما يمكن في هذا الإطار الاستئناس بالنموذج التالي:

أولاً: تحديد الوضعية المشككة بإثارة اهتمام التلاميذ وبناء تساؤل انطلاقاً من معطى ذاكراتي محلي، ويمكن في هذا الإطار القيام بالإجراءات التالية:

✓ تقديم قصة شفوية، مقطع صوتي/فيديو، صورة رمزية أو وثيقة محلية مرتبطة بحدث من الذاكرة الجماعية؛

✓ توجيه المتعلمين لطرح أسئلة أولية: ما الذي وقع؟ لماذا ما زال هذا الحدث حاضراً في ذاكرة الجماعة؟

الوسائل الممكنة: وثيقة سمعية/بصرية - حكاية من أحد أفراد المجتمع - مقتطف من مذكرات شخصية محلية.

ثانياً: بناء الإشكالية وصياغة الفرضيات، بالتركيز على تأطير موضوع الدرس من منظور ذاكراتي، ويشمل ذلك الإجراءات التالية:

✓ طرح الإشكالية بصيغة مركبة: إلى أي حد تمكننا الذاكرة الجماعية من فهم هذا الحدث التاريخي؟ والعمل بعد ذلك على

تفكيكها إلى أسئلة فرعية تستهدف البحث في قضايا تاريخية محلية تزخر بها الذاكرة المحلية؛

✓ صياغة فرضيات تفسيرية بمشاركة المتعلمين حول دلالة الحدث.

ثالثاً: جمع المعطيات: المرحلة التوثيقية (Heuristique)، وتهدف هذه المرحلة تدريب المتعلمين على تقصي مصادر

متعددة وفهم الذاكرة كمصدر من مصادر التاريخ. أما عن الإجراء الذي يمكن اعتماده فهو:

✓ تكليف التلاميذ بالبحث عن شهادات شفوية، أو وثائق، أو صور ذات صلة، والعمل على المقارنة بين الذاكرة الشعبية

وما ورد في الكتاب المدرسي.

يمكن اقتراح النشاط التالي: تعبئة بطاقة مقابلة مع أحد أفراد العائلة حول حدث تاريخي محلي.

رابعاً: التحليل والتفسير، ويكمن هدفه في تفكيك محتوى الرواية الذاكراتية في ضوء السياق التاريخي، وفق الإجراءات التالية:

✓ تحليل عناصر الرواية الشفوية: الزمان - المكان - الفاعلون - الرمزية؛

✓ ربط الرواية بالسياق التاريخي الموثق، وتحديد عناصر الاتفاق والاختلاف؛

✓ مناقشة: هل تخدم الذاكرة الجماعية الحقيقة التاريخية أم تعيد تشكيلها؟

يمكن اعتماد أداة تحليل عبارة عن شبكة تقارن بين "الذاكرة الجماعية" و "التاريخ الرسمي" الموجود في الكتاب الرسمي.

خامساً: التركيب وإنتاج المعنى: تمكن المتعلم من تركيب معرفة تاريخية جديدة، تراعي تعدد الذاكرات، وذلك من خلال:

✓ صياغة خلاصة تأويلية: ما الذي تعلمته من خلال الذاكرة حول هذا الحدث؟

✓ إنتاج مكتوب أو شفوي: نص تأويلي، قصة معكوسة، عرض شفوي، مشروع فردي أو جماعي؛

✓ منتج نهائي يعرض مقارنة بين الرواية الشفوية والتاريخ المدرسي، مع استخلاص الدروس التربوية والهوياتية.

سادسا: **التقويم**؛ يتوخى قياس مدى فهم التلاميذ لأهمية الذاكرة في تفسير التاريخ. يكون التقويم إما فرديا أو جماعيا (بطاقة تركيب، عرض، مقارنة، سؤال مفتوح...).

◀ ملاحظات منهجية ضرورية:

• هذه الخطوات تستحضر منهج التفكير التاريخي وتدمج فيه البعد الثقافي والهوياتي؛

• تُشجع المتعلم على الانتقال من موقع "المتلقي" إلى "الفاعل والباحث"؛

• كما تنمي الكفايات التالية: البحث التاريخي، التحليل، التأويل، الحس النقدي وإنتاج المعرفة.

خاتمة

أضحى من الضروري اليوم أن يتجاوز مدرس التاريخ إطار المنهج الرسمي والمحتوى التراكمي، ليتبنى منظورا أوسع وأكثر انفتاحا على مختلف الوثائق والمناهج التي يستخدمها المؤرخون في بناء المعرفة التاريخية. فهذه الوثائق ليست فقط أدوات تعليمية تخدم الغايات الديداكتيكية، بل هي أيضا عناصر تربوية أساسية تساعد التلميذ على تشكيل وعي نقدي قادر على التعامل مع الحدث التاريخي بجميع أبعاده ومعطياته، وبما يتجاوز الصورة الجاهزة أو الخطاب الأحادي. لقد اتجهت هذه الدراسة نحو تسليط الضوء على أهمية التجديد الديداكتيكي في مجال تدريس التاريخ، وذلك من خلال إبراز ضرورة تبني أساليب تعليمية حديثة قادرة على تجاوز النمط التقليدي القائم على الحفظ والاستظهار، وتبني نهج تفاعلي يعزز مشاركة المتعلم ويعلي من قدراته التحليلية والنقدية. ولتحقيق هذا الهدف، اقترحت الدراسة منهجية تعليمية أولية تستند إلى النهج التاريخي في التحليل، وتسعى إلى استثمار العرف والذاكرة الجماعية كأدوات ديداكتيكية فاعلة في بناء المعرفة التاريخية داخل الفصل الدراسي.

تأتي هذه المقاربة استجابة للنقاشات المتزايدة على المستويين الأكاديمي والبيداغوجي حول العلاقة المعقدة بين المعرفة التاريخية الرسمية من جهة، والذاكرة الجماعية والعادات الاجتماعية من جهة أخرى. إذ إن تجاهل هذه المفاهيم لا يعني غيابها عن ذهن التلميذ، بل قد يؤدي إلى إضعاف قدرته على فهم الماضي بموضوعية، وعلى امتلاك رؤية واضحة تمكنه من الإحاطة بخاصة واستشراف مستقبله.

إن إدراج مفهومي الذاكرة والعرف في العملية التعليمية لا يُعدُّ مجرد خيار منهجي، بل ضرورة تربوية تساعد على بناء مواطنٍ واعٍ ومفكر، قادر على قراءة التاريخ بعين ناقدة، والتفاعل مع واقعه بوعي ومسؤولية، بما يحقق أهداف المشروع التربوي الأوسع: وهو تكوين فرد حرّ، مفكّر، ومُشارك فاعل في مجتمعه.

لائحة المراجع:

✓ باللغة العربية

- ابن عابدين. مجموعة رسائل ابن عابدين. نقلا عن أبي الحافظ النسفي في كتابه المستصفي. مطبعة المكتبة الهاشمية. دمشق.
- أشهبان عبد اللطيف. (2015). خطاب الآخر في بعض خطابات رواد الحركة الوطنية في الشمال من خلال الخطب والرسائل. ضمن: خطاب الذاكرة الوطنية: بحوث في الراهن والمشتك والمنسي وفي تشكيلات الخطاب ووظائفه (ندوة). منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير. دار أبي رقراق للطباعة والنشر. الرباط، المغرب. الطبعة الأولى. ص.ص. 47-54.
- أوزي أحمد. (2006). المعجم الموسوعي لعلوم التربية. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء.
- البكري بن الرافة محمد. (2018). التحليل اللساني للخطاب السياسي "خطاب الحركة الوطنية المغربية" الرسمي من 1930 إلى 1942 موضوعا (دراسة في الأدب السياسي المناهض للحماية والاستعمار). ج.1. منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير. الطبعة الأولى.
- جاك لوغوف. التاريخ والذاكرة، ترجمة شحيد جمال. (2017). المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (سلسلة ترجمات). الطبعة الأولى.
- الجرجاني علي بن محمد. (1983). التعريفات، ضبطه وصححه مجموعة من العلماء. (1983). تحت إشراف دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى.
- الجيدي عمر عبد الكريم. (1982). العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهوما لدى علماء المغرب. مطبعة فضالة المحمدية. المغرب.
- الحاحي رشيد. (2009). التصحيح والإنصاف من أجل المستقبل: الأمازيغ وتاريخ المغرب. مجلة وجهة نظر عدد مزدوج 40-41. السنة الحادية عشر. ص.ص. 14-17.
- حبيدة محمد (2013). التاريخ والذاكرة. مجلة يتفكرون، العدد الثاني. ص.ص. 50-52.
- حسني ادريسي مصطفى. (2021). الفكر التاريخي وتعلم التاريخ. مونو هنري (تقديم). دار أبي رقراق للطباعة والنشر. الرباط. الطبعة الأولى.
- الدريج محمد. (2011). عودة إلى تعريف الديداكتيك أو علم التدريس كعلم مستقل. مجلة علوم التربية، العدد 47. ص.ص. 22-7.
- دوس فرانسوا (حوار)، أجرى الحوار شوقي محمد الزين. (2014). مفاتيح معاصرة في فهم سؤال التاريخ والذاكرة ودور الاعتراف في ترتيب علاقة الذات بالآخر. مجلة يتفكرون، العدد 4. (تصدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث). ص.ص. 62-75.

- ريكور بول. (2000). *الذاكرة، التاريخ، النسيان*. جورج زيناتي (ترجمة وتعليق وتقديم). (2009). دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت. الطبعة الأولى.
- صهود محمد، التراث والذاكرة التاريخية: مقارنة تربوية. *مجلة الإدارة التربوية، العدد 6*. ص.ص. 13-21.
- الطاهري عبد العزيز. (2016). *الذاكرة والتاريخ؛ المغرب خلال الفترة الاستعمارية (1912-1956)*. جامع بيضا (تقديم). دار أبي رقيق للطباعة والنشر. الرباط. الطبعة الأولى.
- عفيف عثمان. (1998). *الذاكرة والتاريخ من خلال كتاب المؤرخ جاك لوغوف. مجلة منبر الحوار، السنة الثالثة عشر*. ص.ص. 94-105.
- العلوي هشام. (2010). *نصوص تازمات؛ الكتابة والبوح والذاكرة*. ضمن: *الذاكرة والإبداع؛ قراءات في كتابات السجن (أعمال ندوة)*. منشورات اتحاد كتاب المغرب. الطبعة الأولى. ص.ص. 49-62.
- العماري فريد. (2019). *الذاكرة والصورة والتاريخ؛ الترابطات والتداخلات الممكنة*. ضمن: *اقتفاء أثر قدورة: أعمال مهداة إلى الأستاذ علال الخديمي*. الكتاني سيدي محمد (تنسيق). مطبعة المعارف الجديدة. الرباط. ص.ص. 593-615.
- العماري وآخرون. (2021). *أية خلفية "للظهير البريري" في الكتب المدرسية المغربية؟ كتب التاريخ المدرسي للسنة الثانية من سلك البكالوريا أنموذجاً*. ضمن: *العلوم الإنسانية والاجتماعية والبناء الحضاري والثقافي* (أشغال المؤتمر الدولي السنوي 2021)، الجزء الثاني. بوطيب جمال وشراك أحمد (تنسيق). سلسلة دراسات، منشورات مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية. فاس-المغرب. الطبعة الأولى. ص.ص. 230-248.
- قادري محمد وآخرون. (2015). *في رحاب التاريخ، السنة الثانية من سلك البكالوريا (كتاب التلميذ والتلميذة)*. مكتبة السلام الجديدة والدار العالمية للكتاب. الدار البيضاء.
- المساري محمد العربي، *المغرب خارج سياج الحماية؛ العلاقات الخارجية للحركة الوطنية*، منشورات عكاظ الرباط، المغرب.
- المملكة المغربية وزارة التربية الوطنية (1989). *كتاب التاريخ للسنة الثالثة الثانوية (جميع الشعب)*. دار الرشاد الحديثة. البيضاء. الطبعة الأولى.
- المملكة المغربية وزارة التربية الوطنية. (1996). *كتاب التاريخ للسنة الثالثة الثانوية (جميع الشعب)*. دار الرشاد الحديثة. البيضاء. الطبعة الأولى.
- مؤذن عبد الرحيم. (2010). *الغرفة السوداء: الذاكرة والكتابة*، ضمن: *الذاكرة والإبداع؛ قراءات في كتابات السجن (أعمال ندوة)*. منشورات اتحاد كتاب المغرب. الطبعة الأولى. ص.ص. 63-68.
- موريف علي. (2008). *معالم تطور الهوية المغربية من خلال كتب التاريخ المدرسة للمرحلة الإعدادية (دراسة تحليلية)*، بحث لنيل دبلوم الماستر في علوم التربية. كلية علوم التربية بالرباط. (السنة الجامعية 2007-2008).

✓ باللغات الأجنبية

- Assmann, A. (2011). *Cultural Memory and Western Modernity*. Stanford University Press.
- Chevallard, Y. (1999). L'analyse des pratiques enseignantes en théorie anthropologique de la didactique, *Recherches en Didactique des Mathématiques*, 19(2), 221-266.
- Decorte, et all. (1990). *Les fondements de l'action didactique*, ed. De Boeck, P. 328.
- Lévesque, S. (2008). *Thinking Historically: Educating Students for the Twenty-First Century*. University of Toronto Press. Canada.
- MACRON Emmanuel, La lumière blanche du passé: Lecture de «La mémoire, l'histoire, l'oubli» de Paul Ricœur, dans : *Esprit*, NO 266/267 (8/9), Aout-septembre 2000, P.P. 16-31.
- Maghraoui Driss, Histoire et mémoire ; Quels enjeux politique au Maroc, Dans «*Le temps présent et fonctions de l'histoire*», édité par ; Mohammed KENBIB (2009), publications de FLSH-Rabat Agdal, N 158, P.P. 17-27.
- Rüsen, J. (2001). History, Meaning, Ethics, and Representation: The Paradigm of Historical Thinking. In J. Rüsen (Ed.), *New Perspectives on Historical Knowing*. (P.P. 1-36). Vandenhoeck & Ruprecht.

ديدكتيك اللغة العربية مهارة المحادثة نموذجاً

د. لبنى المجيدي
المملكة المغربية

الملخص:

مع تزايد الاهتمام بالتواصل و التفاعل في تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها، شكل الاهتمام بتدريس مهارة المحادثة خطوة هامة، لاعتبارها مهارة مركزية من مهارات تعلم اللغة— ومفتاح التقدم في المهارات اللغوية الأخرى كمهارة الاستماع و القراءة و الكتابة.

وتقوم هذه الدراسة الموسومة ب ديدكتيك اللغة العربية، مهارة المحادثة نموذجاً ، بالتعريف بمهارة المحادثة كإحدى مهارات الانتاج اللغوي، وسبب الاهتمام بها، ووضحت أهم أهداف هذه المهارة فضلاً عن أهم طرق تعليمها للناطقين بغير اللغة العربية، وهي الطريقة السمعية والطريقة الحوارية ، وعن طريق اللعب و تبادل الأدوار، وأهم الاستراتيجيات الحديثة في تدريسها، وغيرها من السبل الناجحة في اكساب الطلبة اللغة ومتعة التعلم.

كما تطرقت الدراسة الى إمكانية تعليم الطلبة الأجانب مهارة المحادثة في زمن محدود تُحصر في أقل من سنة دراسية تامة، وتبين أن هذا الوقت كفيل بتحقيق الكفايات المسطرة، فالعمل المكثف وفق الاستراتيجيات و الطرق المناسبة يكسب الطالب المهارات اللازمة لاسيما أنه تلقى تكويناً أولياً لمدة لا تقل عن سنتين في بلاده قبل الانتقال الى المغرب.

الكلمات المفتاح: مهارة، المحادثة، تعليم ، الناطقين بغير اللغة العربية.

مقدمة:

تعد اللغة سلوكا بشريا قديما قدم وجود الإنسان على هذه الأرض، فهي مظهر من مظاهر الحياة البشرية، ووسيلة من وسائل الاتصال الانساني، ومن خلالها يستطيع الفرد التعبير عن أحواله ومشاعره ورغباته وأفكاره، كما أنها تمثل تراث الشعوب وذاخيرته.

و اللغة العربية من أقوى وأقدم اللغات السامية الأكثر انتشارا في العالم، يتحدث بها أهل الوطن العربي في شبه الجزيرة العربية و شمال إفريقيا ومنطقة الشام، وعدد مهم في بلدان ناطقة بغيرها، تحظى هذه اللغة باهتمام الباحثين التربويين نظرا لما تتصف به من صفات تميزها عن غيرها من اللغات الأخرى، أولا القدرة على احتضان المقدس الديني و التراث العربي، و ثانيا الحفاظ على سماتها اللفظية و التركيبية و الصرفية و النحوية و التعبيرية و الأدبية...قرونا من الزمن، ثالثا تميزها باتساع معجمها، وغناه بالمفردات و التراكيب، ولها طريقة خاصة في استخلاص وتوليد ما لا حصر له من الكلمات انطلاقا من جذر لغوي واحد، زيادة على إمكاناتها في استيعاب الدخيل من الكلمات لإثراء معجمها و لتوحيد بعض المفردات العلمية عالميا.

وأمام هذا التميز، أقبل عدد من الأجانب على تعلم اللغة العربية، مما دفع بعض الجامعات و المعاهد في المغرب الى تحضير برامج خاصة لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، و المغرب وجهة محبة جدا للطلبة الاجانب من جنسيات مختلفة نظرا لما يحظى به من خصائص أهمها الموقع الجغرافي للمغرب الذي يشكل وجهة رائدة في السياحة اللغوية، و انفتاحه الثقافي على الثقافات الاخرى بفضل التنوع الثقافي الذي تشهده البلاد و التعدد اللغوي الذي تتميز به، فضلا عن خاصية التسامح الديني و تقبل كل مختلف للعيش على ارضه الرحبية، فعلى مستوى مدينة الرباط، تستقبل كلية علوم التربية وفودا سنويا قادمة من الصين و ايطاليا وتضع مشروع تعليم اللغة للناطقين بغيرها ضمن برامجها المركزية، وتخصص معهد ميدلبوري بكلية الاداب والعلوم الانسانية في تدريس الطلبة الأجانب القادمين من الولايات المتحدة الامريكية وفق برامج محكمة يتفضل بتقديمها أساتذة متخصصين في مجالات علمية متنوعة.

1- الإطار الإشكالي

إشكالية الدراسة

تنطلق الدراسة من إشكالية أساس سؤاها: إلى أي حد يمكننا الحديث عن تمكين الطالب الاجنبي من مهارة التحدث باللغة العربية بطلاقة و بسرعة مناسبين في زمن محدود بالمؤسسات التعليمية و المراكز الخاصة ؟ ويتفرع عن هذا الإشكال الرئيس الاسئلة الفرعية الآتية:

1- ماهي الشروط التي تساعد المتعلم الأجنبي على إتقان الحديث باللغة العربية؟

2- متى يمكننا الحديث عن نجاح تجربة تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها؟

3- ما هي عوائق تعليم اللغة العربية للأجانب؟

4- كيف نجود عملية تعليم اللغة العربية للأجانب ؟

2- الفرضيات

في محاولة لاقتراح إجابة مؤقتة على إشكالية الدراسة قمنا بصياغة ثلاث فرضيات رئيسة.

- 1- الطالب الاجنبي يمكنه التحدث بطلاقة بعد أقل من سنة من الدراسة بالمراكز التعليمية؛
- 2- مهارة المحادثة تكشف مدى تحقق أهداف تعليم اللغة العربية للطلبة الأجانب؛
- 3- مهارة المحادثة تزيد من نسبة تذكر ما تعلمه الطالب كلما استدعى الأمر ذلك؛

3- أهداف الدراسة

يتمثل الهدف العام، الذي نتوخى تحقيقه من وراء إنجاز هذه الدراسة :

- 1- الوقوف عند أهمية اللغة العربية والاقبال المتزايد على تعلمها؛
 - 2- رصد طبيعة العلاقة بين معلم اللغة العربية و طلبته الاجانب؛
 - 3- بيان أهمية تعليم مهارة المحادثة باللغة العربية.
- 4- حدود الدراسة
- الحدود الموضوعية: اقتصرت الدراسة على موضوع تعليم مهارة المحادثة للناطقين بغير اللغة العربية.
 - الحدود المكانية: شملت الدراسة طلبة معهد مدلبوري بكلية الآداب و العلوم الإنسانية التابعة لجامعة محمد الخامس ،

الرباط.

- الحدود الزمانية: الموسم الجامعي 2024/2025

5- منهج الدراسة

اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي.

II- الإطار النظري

1- المفاهيم

مهارة¹، تعرف لغويا بالحدق و البراعة و الاتقان ، وتعرف اصطلاحا بالقدرة على أداء وظيفة معينة بصفة منظمة بناء على تدريب مقصود، مما يمكن من إحراز الهدف في أقصر وقت ممكن، أي أن المهارة تتسم بالغائية و التنظيم، وتستلزم توافر الشروط الموضوعية المتمثلة في التدريب المستمر.

وما لاشك فيه، فإن هذا المفهوم (المهارة) في الحقل التربوي من المفاهيم المتداخلة مع غيره من المصطلحات كالقدرة و الكفاءة وغيرها، وقد تم تعريفه ب "القدرة على أداء نشاط معقد بطريقة ملائمة، وقد يتطلب اكتساب هذه المقدرة مدة من التدريب المقصود، و الممارسة المنظمة، و الخبرة المضبوطة"² وعليه، فالمهارة عملية مكتسبة تعتمد التدريب و التعلم من الاخطاء، وتروم الى إتقان العمل مع الاقتصاد في المجهود و الوقت.

التحدث : هو نقل الافكار بطلاقة ووضوح من متكلم الى متلقي آخر يستمع مع سلامة في التعبير ودقة في اللغة ، والمحادثة نشاط طبيعي للانسان استجابة لمواقف الحياة، حيث يعبر المتكلم عن حاجته ومواقفه بمفردات واضحة سليمة لمستمع يسمعه ويصغي إليه ثم يتجاوب معه بنفس الوضوح وسلامة الكلمات لتبليغ رسالة واستقبالها من الطرفين على حد سواء. إنها

¹ نورالدين أرطبع وآخرون، التربية و التدريس و التشريع قراءات في مصطلحات ورهانات القانون الإطار(17-51)، دار القلم الرباط، ط1، 2024، ص141.

² عبد الكريم غريب، الكفايات من التصورات الى الممارسات التطبيقية، منشورات عالم التربية، ص 254.

المهارة الثانية المكتسبة بعد الاستماع بالنسبة للغة الأم، وهي مهارة إنتاجية وتقتضي استعمال الجهاز الناطق بالتفاعل مع المناطق الدماغية المسؤولة عن تحليل اللغة وفهمها وإنتاجها¹

ويثبت أن مهارة التحدث لا تعني غير "عملية إدراكية تتضمن دافعا للتكلم ثم مضمونا للحديث"، ثم نظاما لغويا بواسطته يترجم الدافع في شكل كلام². وهناك فرقا كبيرا بين التحدث و المحادثة، إذ التحدث عملية فردية يقوم بها المتحدث بإخراج ما بداخله (البنية العميقة) على شكل كلمات أو عبارات (البنية السطحية) حتى يفهمها المحيطون به، بينما المحادثة عملية تتم بين شخصين أو أكثر حول موضوع معين³. والمحادثة عملية يصحب فيها الكلام تعبيرات الوجه التي تزيد من عملية التفاعل مع المستمع.

تعليم: فن نقل المعرفة الى المتعلم بشكل يساعده على الفهم و الاستيعاب، ويتم ذلك خلال لقاء مباشر داخل الصف أو عن بعد حيث يقوم المدرس بنقل مجموعة من المعارف في سياقات تعليمية مختلفة للتعلم. وغالبا ما نجد ترادفا بين التدريس و التعليم⁴، وعليه فالتعليم هو التدريس في ظل توفير شروط تسهيل طلب العلم داخل المؤسسات التعليمية أو خارجها.

الناطقين بغيرها: كل أجنبي غير ناطق باللغة العربية ويسعى الى إتقان المهارات الاساسية للغة العربية.

2- أهمية تعلم مهارة المحادثة

تعد مهارة المحادثة المهارة الأكثر استعمالا وتكرارا في الحياة اليومية لدى الصغار و الكبار، والانسان اجتماعي بطبعه فلا يستطيع ان يبقى صامتا، وعليه، فهو يمارس الكلام مع بني جنسه للتعبير عن نفسه و عن الآخرين بواسطة اللغة.

ولا غرو أن إقبال الطالب الاجنبي على تعلم اللغة العربية يرجع الى حبه ورغبته في تعلم هذه اللغة والى أسباب أخرى منها ما هو ديني و اجتماعي و سياسي، مما يجعله ينخرط انخراطا تاما بكل حواسه ومشاعره في التقاط المفردات الجديدة و الجمل و العبارات وترديدها وحفظها بعدما تعرف وتعلم النظام الصوتي العربي في بلاده قبل القدوم الى المغرب، و في الصف ينمي مخزونه من العبارات ويدرك مستويات معاني الكلمات المخفية، فضلا عن الاجتهاد في تذكر كل ما تعلمه من دروس مصممة خصيصا للناطقين بغيرها مما يجعله قادرا على تحديد الهدف من التحدث، والانتباه الى دقائق الأمور في الحديث المتناول، والاقدار على تغيير مجرى الحديث في حالة ما بلغ به النقاش طريقا مسدودا ليفتح سبيلا آخر بكل يسر وليونة.

إن مشاركة المتعلم في عملية المحادثة هو استحضر لمخزونه اللفظي المتنوع عندما تستدعي الحاجة لذلك في سياقات تواصلية مختلفة. كالمقابلة التي يكون فيها المتكلم وجها لوجه مع المتكلم الاخر أو الآخرون، و المناقشة حول موضوع ما لتبادل المعلومات و المعارف، أو عندما يتواصل عبر مكالمة هاتفية، وهو ما يتطلب منه التحكم باللغة حتى يفهم الطرف الاخر و يتفاعل معه خصوصا وأنه لا يراه مباشرة مما يستدعي القدرة على استحضر المفردات المناسبة للمعاني المقصودة بسرعة أثناء التواصل دون توقف او انقطاع.

¹ ماجدولين النهجي، دليل تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها، تخطيط-إنتاج-تقييم، دار النشر كنوز المعرفة العلمية، ط1، 2020 ص59

² موسى عيسى زين الدين، المهارات اللغوية للناطقين بغير العربية.(مهارة الاستماع، مهارة التحدث، مهارة القراءة) ص21

³ موسى عيسى زين الدين، المهارات اللغوية للناطقين بغير العربية.(مهارة الاستماع، مهارة التحدث، مهارة القراءة) ص 21

⁴ أحمد أوزي، المعجم الموسوعي الجديد لعلوم التربية، منشورات مجلة علوم التربية عدد42، مطبعة التجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2016، ص117.

ولا شك أن الاستعداد والرغبة في التحدث يرفع مستوى الثقة بالنفس، وهذا من أساسيات نجاح عملية التحدث، لاسيما أن العملية تتم يوميا داخل الصفوف بين المعلم وطلّبه، أو بين الطلبة مع بعضهم البعض للتعود على الحديث فيتحدثون بطلاقة عن قدراتهم وميولهم وخبراتهم واتجاهاتهم، ويعبرون عن حاجاتهم ورغباتهم.

ولعل حديثنا عن مهارة التحدث ضمينا هو حديث عن تداخل مهارات أخرى مرتبطة بها أهمها مهارة الاستماع والانصات، وهي تخضع لنظام مؤطر، فعلى مستوى التحدث في موضوع ما، يفترض انتقاء الكلمات المناسبة و المرتبطة بموضوع الدرس أو ما يتم وصفه أو التعليق عليه بشكل منظم كما تم في تدريبات التراكيب وصياغة الجمل و الربط بينها بواسطة الروابط اللغوية. فقد سمع الجمل بعدما تمكن من الحروف و المفردات، ثم يستمع ثانية ويفهم مضمون الجملة، ويستمتع ثالثا ويردد ما سمعه، وفي الأخير يجسد ما سمعه في صيغة حوار ليستأنس بالعبارات، فيكون ثروته اللغوية ويخزنها في ذاكرته ذخيرة حية تنمو مع كل فعل وحركة، وبذلك يتدرب على الكلام حتى يتمكن من التعبير بطلاقة ووضوح أمام الناس، وتبدو أفكاره مرتبة ترتيبا منطقيا يللمسه السامع، فينتقل من موضوع الى آخر ومن فكرة الى أخرى بطريقة سلسلة ومتجانسة يربط بينها خيط ناظم يوضح مضمون الافكار ومدى اتساقها وانسجامها، فالاصل في الكلام أنه نشاط عقلي مركب يصدر عن إنسان واع وعارف بطبيعة التراكيب ومعانيها، ويمكنه الاستعانة بمعلوماته وخبراته حول الموضوع ليحاجج بها.

3- أهداف تعليم مهارة المحادثة

- يولي الباحثون التربويون اهتماما كبيرا بمجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، ويحددون مجموعة من الأهداف، تدخل مهارة المحادثة كركيزة أساسية في سيرورة التعلم لأنها تمثل الجانب الوظيفي من اللغة. ومن هذه الأهداف¹ نعرض بعضا منها:
- أن ينطق الطالب المتعلم أصوات اللغة العربية، وأن يؤدي أنواع النبر و التنغيم المختلفة وذلك بطريقة مقبولة من أبناء العربية؛
 - أن ينطق الأصوات المتجاورة و المتشابهة ويحدد الفروقات بين الحركات القصيرة و الطويلة؛
 - أن يستخدم بعض الخصائص اللغوية في التعبير الشفهي مثل التذكير و التأنيث و تمييز العدد والحال ونظام الفعل و أزمنته.
 - كسر الحاجز النفسي و تحقيق الألفة بين المتعلم و بين اللغة من خلال تدريبه على النطق السليم للتعبير عن احتياجاته.
- ولعل الحديث بانسيابية غاية يتوخاها الطالب الاجنبي، ويسعى إليها المدرس بتطبيق الوسائل التعليمية التعليمية والاستراتيجيات المناسبة في جميع المستويات. ولاشك أن المحادثة سبيل لتحقيق هذه الغاية، منها طلاقة اللسان و حسن اختيار المناسب من الملفوظ في السياق المناسب.

¹ محمود كامل النقة وآخرون، طرائق تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها، مصر، ايسيسكو 2003م، ص 130.

4- معايير تعلم لغة أجنبية حسب المجلس الأمريكي لتعليم اللغات الأجنبية

اهتمت معايير تعلم لغة أجنبية في القرن الواحد والعشرين بحسب المجلس الأمريكي لتعليم اللغات الأجنبية (5Cs)¹ بمهارة المحادثة لما لها من تأثير إلى جانب المهارات اللغوية الأخرى في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، ويمكن حصر مجموعة الأهداف في:

- الهدف الأول: **التواصل** حيث يستطيع الطالب تحقيق التواصل الشخصي، و التواصل التفسيري، و التواصل التقديمي بكل يسر.
- الهدف الثاني: **الثقافات**، هو معيار الممارسات و النظريات التي تبدي مدى فهم الطالب العلاقات القائمة بين الممارسات الثقافية المدروسة و مختلف النظريات المرتبطة بها، فضلاً عن فهم العلاقة بين منتجات الثقافة المدروسة و نظرياتها.
- الهدف الثالث: **الروابط**، وتتمظهر في مدى قدرة الطالب على تعرف فروع المعرفة الأخرى من خلال اللغة الأجنبية.
- الهدف الرابع: **المقارنات**، وهي مقياس لمعرفة مدى قدرة الطالب على فهم طبيعة اللغة من خلال اجراء مقارنات بين اللغة الأجنبية و اللغة الأم، واستيعاب مفهوم الثقافة من خلال إجراء مقارنات بين الثقافة المدروسة و ثقافته الشخصية.
- الهدف الخامس: **المجتمعات**، وهذا متعلق باستخدام الطالب المتعلم اللغة داخل وخارج المدرسة، وترافقه حصيلة علمية معرفية مدى الحياة.

وجدير بالذكر أن العينة التي اشتغلنا عليها بمركز مدلبوري " تمثل الطلبة المتقدمين و المتميزين وفق المعيار الأمريكي الاكتفيل، حيث يمتلك الطلبة خبرة لغوية متقدمة، و لهم القدرة على التعامل مع نصوص سياسية واقتصادية وثقافية وشعرية، إضافة إلى القواعد اللغوية التي تساعدهم في فهم بنية الجملة و العبارات المدروسة في سياقات مختلفة، فيتحدثون بتلقائية في مواضيع مختلفة بل انهم انفتحوا على الدارجة المغربية لفهم ثقافة البلد وخصوصيات تنوعها الثقافي في الجهات الاربعة.

5- مداخل تعلم مهارة المحادثة

إن مهارة المحادثة مهارة إنتاجية تأتي بعد مهارة الاستماع وقبل مهارتي القراءة و الكتابة، تخص الكبار والصغار، وهي نشاط لغوي يتم بين شخصين أو أكثر حول موضوع معين، فالمحادثة "هي الكلام المنطوق الذي يعبر به المتكلم عما في نفسه من هاجسه، أو خاطره، وما يجول بخاطره من مشاعر وإحساسات، وما يزرع به عقله من رأي أو فكر، أو ما يريد أن يزود به غيره من معلومات، أو نحو ذلك في طلاقة و انسياب مع صحة في التعبير وسلامة في الأداء"² ، فالكلام وسيلة لتحقيق متطلبات الفرد داخل المجتمع الذي يعيش فيه لأن التعبير عن النفس وحاجياتها أمر طبيعي ، "هو عملية تبدأ صوتية وتنتهي بإتمام عملية الاتصال مع متحدث من أبناء اللغة في موقف اجتماعي"³

و من أهم مداخل تعلم مهارة المحادثة للناطقين بغير اللغة العربية ، مدخل الاستماع و المشاهدة كمرحلة أساسية من التعلم، حيث يقبل الطالب على الاستماع إلى محادثات المتكلمين بالعربية من تربطه بهم علاقات اجتماعية، و البرامج الإذاعية

¹ خالد حسين أبو عمشة، الدليل التدريبي في تدريس مهارات اللغة العربية وعناصرها للناطقين بغيرها النظرية و التطبيق، ط1، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي 2017، السعودية، ص211/212.

² - المعجم الوسيط، ص 806

³ - مخلص أحمد، مهارة الكلام وطريقة تدريسها، بامسكان مادورة، الجامعة الإسلامية الحكومية، بامسكان فريس، 2009م، ص13/12.

"البودكاست"، ثم مشاهدة البرامج التلفزيونية والأفلام العربية ، فضلا عن استخدام التطبيقات و الألعاب الالكترونية ومختلف الموارد الرقمية التعليمية التي يمكن أن تساعد في تعلم المحادثة بما يتناسب مع كل مرحلة عمرية ويتلاءم مع مجال اهتمامه.

أما في المؤسسات التعليمية فقد حظيت مهارة المحادثة باهتمام كبير في جميع المستويات (من المبتدئ ، المتوسط، المتقدم، المتفوق، الى المتميز) بما يتناسب مع كل مستوى.

وجرت العادة أن يتلقى الطالب تعليما منظما ودقيقا أثناء تكوينه، أولها، فالتعلم ينطلق من تعلم الأصوات وكيفية نطقها نطقا سليما، ثم يميز بعدها بين الاصوات المتشابهة نطقا مثل (ذ، ز، ط، ت)، ثم يركب الحروف في مفردة و ينطقها نطقا صحيحا ، كما يتعلم مرادفات الكلمات المختلفة التي يسمعه داخل الصف وخارجه ويربطها مع كلمات أخرى، فيصنع شبكة من كلمات منتمة لنفس العائلة (المصدر، اسم فاعل، اسم مفعول، اسم مكان...) و المتلازمات اللغوية التي تكون مصاحبة للمفردة من قبيل (جلالة الملك، سمو الأمي،...) حتى يسهل عليه التعبير، و في النعوت و الصفات مثلا شاهد عيان ، فرصة ذهبية، رأي سديد، جبال شاهقة، ماء زلال، حور عين... وفي الألوان (ابيض ناصع، أزرق فاتح، أسود داكن) وفي الافعال (مرَّ ب، وسَلَّم على، وبارك ل، أوقفه عند...) وغيرها مما يتعلق بأصوات الحيوانات و الماء و الاشجار و العبارات المسكوكة (أهلا وسهلا، السلام عليكم، عيد سعيد، لقي مصرعه.... لتنمية القدرة المعجمية عند المتعلم، ثم يكون من المفردات جملا قصيرة في سياقات مختلفة ككتحية الصباح ، أو سؤال سائق حافلة عن الوجهة، أو إنشاء حوار مع أحد الناطقين بالعربية، يعبر فيه عن أفكاره ومشاعره بطريقة بسيطة واضحة ومفهومة، بعدها يتم العمل على بناء فقرات قصيرة ذات معنى ، حيث الافكار تكون مرتبة ترتيبا منطقيا وفق القواعد اللغوية السليمة ، ويتحدث بشكل واضح ومفهوم ولمدة زمنية مقبولة ، مستخدما الاشارات والايماء لتوصيل أفكاره. فيحكي حكاية صغيرة ، أو يناقش فكرة باستعمال الصيغة المناسبة لذلك انطلاقا من رصيده اللغوي المتنوع الذي يسعفه على مواصلة الحديث.

ومما لاشك فيه، إن تنمية مهارة المحادثة وتطويرها مرتبط بتخصيص وقت كاف ومنتظم لنشاطات المحادثة داخل قاعة الدرس، وخلق بيئة تعاونية للتخلص من القلق الذي قد يشعر به بعض الطلبة ، مثلا مناقشة موضوع متعلق باهتمامات الشباب اليوم، أو التعليق على مباراة كرة القدم بين فريقين، أو ابداء رأي حول قضية الهجرة والتعدد اللغوي، أو المرأة في الديانات الثلاثة مثلا وغيرها مما يمكن أن يثير اهتمام الطلاب.

ومن اللافت أننا حينما نتحدث عن تعليم مهارة التحدث باعتبارها أكثر وسيلة فعالة للتواصل الانساني فإننا نقصد بذلك الحديث عن الكلام الوظيفي التعليمي الذي يكون الغرض منه هو التواصل مع الآخر لغرض معين عن طريق المحادثة والمناقشة ، بجمل واضحة المعاني وسليمة الاداء توصل الرسالة دون إعداد قبلي أو تحضير مسبق، وبكل تأكيد يحدث هذا في كل مكان يقصده الناس، فالمتكلم يتكلم في الأسواق و المتاجر و في الشارع والمؤسسات العامة وغيرها...

6- دور معلم اللغة العربية

يقوم المعلم عربيا كان أو غير عربي بدور مركزي في توجيه الطلبة و تكوينهم، وتحفيزهم وتشجيعهم على التحدث دون خجل أو تردد عبر تمتيعهم بفرصة الكلام في موضوع محدد بعد تجميع عدد من المفردات، ويسبق ذلك الاعداد الجيد للدروس، فهو يحدد أهدافه بدقة حتى يبلغ المستوى المعياري المطلوب لكل مستوى (متقدم بدرجاته، ومتوسط بدرجاته، ومبتدئ بدرجاته كذلك)، حيث يخطط ويدرس ويقوم التحدث عند المتعلمين.

ومما لاشك فيه، فأول عملية يقوم بها المعلم، تتمثل في تقسيم الطلاب الى مستويات دراسية بعد اجتياز اختبار تحديد المستوى، وهو اختبار متعلق بالنطق و النبر و وضوح الكلمات وصحتها نحويا وصرفيا ، فضلا عن طلاقة الكلام وفهم موضوع الاختبار ومدى القدرة على التفاعل و التواصل. ف نجد المستوى الابتدائي و المستوى المتوسط و المستوى المتقدم. ويعتني المدرس أثناء تعليمه مهارة التحدث بالجانب الفكري و اللغوي و الصوتي.

ففي المستوى الاول، يعمل المعلم على تدريب الطلبة على استخدام اللغة في سياقات مختلفة، مع حفظ بعض العبارات (كما أشرنا سابقا) من قبيل: الكتاب في رف المكتبة أو فوق المكتب، السبورة معلقة على الحائط، اكتب بالقلم، ارسم بالالوان، افتح النافذة لاستنشق الهواء النقي، استمع الى الراديو...

وفي المستوى المتوسط: يمكن المعلم الطالب أن يدير حوارا قصيرا مع زملائه العرب، ويستطيع أن يتجول و يطلب ما يحتاجه من سائق الطاكسي أو موظف البريد أو عامل المقهى وغيره ممن يتحدث بهم يوميا في حياته اليومية ، كما يناقش مواضيع متنوعة في الاجتماعات الصفية، ويصف الاحداث ويعلق عليها باختصار ، ثم يعيد رواية الاحداث و الوقائع التي سمعها من مصادر مختلفة، كما يمكنه كذلك إلقاء تقرير مبسط عما ينجزه من أعمال.

وفي المستوى المتقدم : يتبين تمهيز المعلم الطالب الاجنبي من خلال الجانب الملمحي بوضوح، عندما يحكي الطالب قصة واقعية أو من وحي خياله، أو يصف مشهدا طبيعيا ، أو يدير مناظرة مركزا النظر على الآخرين ، كما يمكنه الحديث في أي موضوع تم اقتراحه على اعتبار أنه قادر على فهم المعنى الحرفي و المعنى الضمني للمفردات و العبارات واستعمالها مرتبة واضحة و مترابطة متصلة بالموضوع محور النقاش بثقة ، مستخدما حركات الوجه و الجسم و الاشارات و الايماءات و نبرات الصوت عند الاستفهام و التعجب والنهي و النفي وغيرها من الاساليب بنجاح.

6- استراتيجيات تعليم مهارة التحدث

يلعب المدرس دورا مهما باعتباره المحرك الأساسي للعملية التعليمية التعليمية، فهو يدرك تمام الادراك الفرق بين تعليم اللغة العربية في الأسلاك النظامية، و تعليمها للناطقين بغيرها، من حيث طبيعة الأهداف وسياقات التواصل، وعدد الساعات المخصصة للمادة، والوعي بأهمية تفاعل المهارات الاربعة، ودور كل مهارة في تطوير المهارات الأخرى ضمن حلقة مترابطة لا يمكن تجزئتها، فضلا عن تمكنه من معرفة عدد من أساسيات استراتيجيات التعليم ليختار منها ما يناسب الموضوعات المطروحة للنقاش و الحوار.

ويقوم عنصر التحفيز بدور هام في خلق جو التفاعل من خلال بعض الانشطة من قبيل عرض شرائط فيديو داخل الصف بدون صوت، ودعوة المتعلمين الى إخراج محادثات مناسبة ، أو عرض مجموعة من الصور المتعلقة ببلدان الطلبة، أو لشخصيات مشهورة في مجال من مجالات الفن و الرياضة و الثقافة و الأدب، مما يسمح باسترجاع وتذكر المفردات و العبارات التي سبق التعرف عليها أثناء التعلم داخل الصف، والتعبير عن هذه الصور بجمل طويلة سليمة مرتبة ذات معنى .

كما يمكن اعتماد المسابقات باعتبارها أنشطة محفزة، لاسيما إذا توجت بمجوائز رمزية، هذه الانشطة المتنوعة بين أنشطة ثقافية و فنية من قبيل مسابقات الطبخ أو الغناء، كفيلة بخلق جو مناسب للتعلم، لاسيما، اذا ما تم تسجيل النشاط وعرضه أمام المتعلمين ، الشيء الذي سيحول لكل متعلم معرفة نقاط قوته في الحوار والمحادثة فيدعمها، ونقاط ضعفه فيتجنبها ويعمل على

تصويبها. و استثمار الالعب، فالألعاب¹ من الأنشطة الموجهة التي تسمح بتجاذب أطراف الحديث بين المتعلمين في جو من المتعة و الفائدة، وهي وسائل مسعفة لتحقيق مهارة المحادثة . وما لاشك فيه، تشكل منصة "كويزلايت" وهي منصة اللعب عن طريق استخدام المفردات (متعة اللعب)، ومنصة كان V اس وهي خاصة بالمغرب يكون فيها اللعب مباشراً، ومنصة hostlive لانجاز التمارين التفاعلية الخاصة بالبيت، ومن حسناتها أنها تشتمل التصحيح الذاتي فتحقق للطلاب متعة التعلم.

"ويمكن استخدام أكثر من مهارة في موقف تعليمي واحد، ومن هذه الاستراتيجيات² ما يأتي:

استراتيجية الحوار و المناقشة: تعتمد هذه الاستراتيجية على إثارة تفكير و مشاركة الطلبة في عملية التعليم فيتحول الدارس الى فاعل في عملية بناء الدرس، وتتاح له الفرصة للأسئلة و المناقشة عبر طرح المشكلات في صورة اسئلة مما يخلق جوا من التفاعل الايجابي، وهي استراتيجية عملية تشجع الطلبة على تنمية التفكير ومهارة النقد.

يمكننا كذلك اعتبار التغذية الراجعة وسيلة مسعفة لنجاح هذه الاستراتيجية حيث يطلب المدرس من المتعلم، أو المتعلمين فيما بينهم إعادة صياغة جمل و عبارات مقترحة من عنده او مأخوذة من الكتاب الذي يدرسون فيه ، أو تقديم شرح للعبارات و تفسيرها أو وصفها داخل مجموعات صغيرة ليتفاعل الجميع في المحادثة.

ونظراً لما تقدم من أهمية استراتيجية الحوار و المناقشة يمكن أن نشير الى أنواع المناقشات بين مناقشة تلقينية، ومناقشة اكتشافية جدلية، ومناقشة جماعية حرة اضافة الى المناقشة الثنائية وداخل مجموعات العمل³.

1- استراتيجية التعلم التعاوني: ولها أثر عظيم في عملية التعلم داخل مجموعات صغيرة، مما ييسر ويحقق الاهداف المرتبطة بمهارة المحادثة.

2- استراتيجية تمثيل الادوار: من أهم الوسائل التعليمية الفعالة في تعليم مهارة المحادثة تقنية لعب الأدوار، "فتمثيل الدور هو أسلوب واقعي حيث يضع المتعلمين في مواقف غالباً ما تكون جديدة عليهم، وهي من أساليب العمل الجماعي الموجّه، وتتكون المجموعة من 7-10 طلاب⁴" و الفكرة تدور حول عرض مشكلة بسيطة و مألوفة ويطلب من المتعلمين التوصل الى حل في زمن محدد، و تلخيص أهم النتائج المتوصل إليها، مما يسمح بفتح مجال المناقشة والحوار وهذا هو المطلوب على وجه التحديد.

وتسعى هذه الاستراتيجية الى جعل كل طالب يتمثل دوراً من الأدوار المفترضة، وذلك لجعله أكثر انتباه وهو يتمثل شخصية في جو من اللعب مما يكسبه الحس اللغوي والمهارات اللازمة أثناء التقديم.

3- استراتيجية التدريس التبادلي: وتقوم على الحوار بين المدرس و الطلبة، أو بين الطلبة بعضهم البعض، وفيها يتم تبادل الادوار حسب الاستراتيجيات الأربعة (التنبؤ، التساؤل، التوضيح، والتلخيص)

● فاستراتيجية التنبؤ: تقوم على تنشيط المعرفة السابقة ووضع توقعات حول الموضوع ؛

¹ - <https://www.middlebury.edu/schools-abroad/schools/morocco/academics/course-descriptions>

² خالد حسين أبو عمشة، الدليل التدريبي في تدريس مهارات اللغة العربية وعناصرها للناطقين بغيرها النظرية و التطبيق، ط1، مركز الملك عبدالله بن عبد العزيز الدولي 2017، السعودية، ص 217

³ للتفصيل في الموضوع أكثر يمكن العودة الى الدليل التدريبي في تدريس مهارات اللغة العربية وعناصرها للناطقين بغيرها النظرية و التطبيق، مرجع سابق.

⁴ اللبودي منى ابراهيم، الحوار و تقنياته واستراتيجيته وأساليب تعلمه، مكتبة وهبة للطباعة و النشر، يناير 2003، القاهرة، مصر، ص 71.

- استراتيجية التساؤل: تنبني على توليد أكبر عدد من الاسئلة حول موضوع المحادثة و الاجابة عن التساؤلات المطروحة من خلال وسيلة الاسئلة و الأجوبة ، حيث يعد السؤال وسيلة فعالة للتواصل، باعتباره أداة للحصول على المعلومات ودفع المتعلم الى الكلام و التعبير، فهو يتيح إمكانية إطالة الحوار بين فردين أو أكثر، ومناقشة خبراتهم في حل وضعية معينة ، او موضوع محدد بطريقة منظمة ضمن مجموعات . كالحديث عن العائلة او حديقة الحيوانات أو تنوع وسائل النقل ...
- استراتيجية التوضيح: والغاية منها توضيح الكلمات و الجمل و العبارات و الفقرات؛
- استراتيجية التلخيص: وتهدف الى تحديد العناصر الهامة في موضوع المحادثة و معرفة الفكرة العامة و الأفكار الفرعية.
- استراتيجيات التدريس القائم على تكنولوجيا الوسائط المتعددة التفاعلية، تماشياً مع التطور السريع الذي يشهده العالم في مجال تكنولوجيا المعلومات و الاتصالات والتي تنعكس آثارها على مجال التعليم و التدريس، ومن هذه الاستراتيجيات نذكر الفيديو التفاعلي....)

7- عوائق تعلم مهارة المحادثة لمتعلمي اللغة العربية غير الناطقين بها

مما يلاحظ في مجال تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها أن بعض المتعلمين يواجهون صعوبة في التواصل مع غيرهم، ولا يستطيعون التعبير عما في نفوسهم، وعن احتياجاتهم في وسط يتحدث باللغة العربية لضعفهم في المحادثة مما يعيق عملية تكوينهم الجيد و يحرمهم متعة التلقي و التواصل مع أقرانهم الطلبة ومع الذين يتقاسمون معهم الجوار و الحياة.

ويمكن إرجاع هذه الصعوبات الى مجموعة من العوامل نجملها فيما يلي: المتعلم ذاته، و المدرس، أو البرنامج الدراسي.

يشكل فتور المتعلم وعدم إقباله على التعلم، وإعراضه عن التحدث مع غيره (المدرس و الزملاء) خوفاً من الوقوع في شرك الخطأ، وما قد يتسبب عنه من سخرية سببا وجيها في تعذر تحصيل مهارة المحادثة التي تستوجب إلماما عاما ببعض خصوصيات الثقافة المحلية، و بالموضوع المراد التحدث عنه وفيه، و رصيدا لغويا يسمح باسترسال الحديث، كما أن هناك عامل الخجل، وصعوبة توظيف المخزون المعرفي في التواصل الشفهي مما يحبط الطالب و يضعف همته في التعلم.

ولاشك أن حديث الطالب باللغة الأم مع أهل اللغة العربية و الاكتفاء بما يتحصله في الفصل، و حصر تحدّثه مع دائرة ضيقة ممن يتصل و يتواصل معهم كفيل بأن يضعف قدراته في استخدام محصلته من الكلمات و المفردات في مواقف تواصلية لأنه لا يسمح لنفسه بالانفتاح على الآخر وبالتالي يحصر محادثاته و يقيد بها مما ينعكس سلبا على تمكينه و إقداره على تجاذب أطراف الحديث وفق ادبيات الحوار و المحادثة بين طرفين أو أكثر.

وفيما يتعلق بالمدرس، فغياب الخبرة اللازمة و الكافية بالاستراتيجيات التعليمية التي أشرنا إليها في معرض حديثنا عن استراتيجيات تعلم مهارة المحادثة وطرق التدريس الخاصة بالناطقين بغير اللغة العربية، فضلا عن استخدام المدرس لغة وسيطة وتجاهل الفروق الفردية داخل الصف عوامل معيقة لعملية التعليم.

ينضاف لما سبق ما هو متعلق بالمنهج الدراسي، ونذكر بعض الاسباب الكامنة وراء هذه الاشكالات منها: - اعتماد الكتب الخاصة بتعليم العربية للناطقين بغيرها لغة الخطاب المتداولة بين المتحدثين بالعربية. و جدير بالذكر، أن المراكز و المؤسسات التعليمية للناطقين بغير العربية في المغرب سعت جاهدة الى انتاج كتب خاصة بهذه الفئة، تناسب قدرات كل مستوى. واستثمرت خدمات الذكاء الاصطناعي لتحقيق الجودة العالية في هذا المجال.

خاتمة

وخلاصة القول، إن مهارة المحادثة تمثل مخرجا مركزيا من المخرجات التعليمية التي تقاس بها قدرات الطالب الاجنبي اللغوية، لذلك تم الاهتمام بها في إطار ارتباطها بالمهارات الثلاثة الأخرى، على اعتبار أنها مهارة غير مستقلة في التدريس، تنهج استراتيجيات خاصة، وتسطر أهدافا عامة و خاصة وفقا خطة متكاملة، هدفها الارتقاء بمستوى اللغة و المحادثة عند الطالب.

وسعت الدراسة الى تسليط الضوء على أهمية تعلم اللغة العربية وامتلاك قواعدها واستعمالها، وما تتيحه من إمكانات الانفتاح على الثقافة العربية / المغربية وخصوصياتها، كما حددت ملامح المدرس الناجح الذي يكسب طلبته الكفاية التواصلية من خلال استخدامه طرق متنوعة في التدريس تراعي الفروق داخل الصف، وأساليب تعليمية تخلق التفاعل الصفّي و تقضي على حالة الضغط النفسي ليتحول الدرس الى متعة و فائدة، بدءا بالتصميم و التخطيط المسبق للبرنامج التعليمي، و وسيلة التعبير المناسبة في الوسط المناسب وفق زمن محدد.

وبينت الدراسة أن المتعلم الراغب في تعلم اللغة العربية يمكن أن ينجح في تعلم هذه اللغة الجديدة لان للبرنامج التعليمي أهدافا تعليمية مسطرة بدقة تعنى بتحقيق انسجام طرائق التعليم مع احتياجات الطالب الاجنبي وقدراته في مراكز اللغات.

المصادر و المراجع:

- أحمد أوزي، المعجم الموسوعي الجديد لعلوم التربية، منشورات مجلة علوم التربية عدد42، مطبعة التجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2016
- نورالدين أرطيع وآخرون، التربية و التدريس و التشريع قراءات في مصطلحات ورهانات القانون الإطار(17-51)، دار القلم الرباط، ط1، 2024.
- ماجدولين النهيي، دليل تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها، تخطيط-إنتاج- تقييم، دار النشر كنوز المعرفة العلمية، ط1، 2020.
- محمود كامل النتقة وآخرون، طرائق تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها، مصر، ايسيسكو2003م،
- خالد حسين أبو عمشة، الدليل التدريبي في تدريس مهارات اللغة العربية وعناصرها للناطقين بغيرها النظرية و التطبيق، ط1، مركز الملك عبدالله بن عبد العزيز الدولي 2017، السعودية.
- عبد الكريم غريب، الكفايات من التصورات الى الممارسات التطبيقية، منشورات عالم التربية
- موسى عيسى زين الدين، المهارات اللغوية للناطقين بغير العربية.(مهارة الاستماع، مهارة التحدث، مهارة القراءة)
- موسى عيسى زين الدين، المهارات اللغوية للناطقين بغير العربية.(مهارة الاستماع، مهارة التحدث، مهارة القراءة)
- اللبودي منى ابراهيم، الحوار و تقنياته واستراتيجيته وأساليب تعلمه، مكتبة وهبة للطباعة و النشر، يناير 2003، القاهرة، مصر.
- <https://www.middlebury.edu/schools-abroad/schools/morocco/academics/course-descriptions>

استراتيجية الحرب الناعمة
خلال المرحلة الكولونيالية بالمغرب
1912-1956
د. طريق لمقدمي
المملكة المغربية

الملخص:

لقد عملت السلطة الكولونيالية الفرنسية في البلاد المغربية على تبني استراتيجية تنبني بالدرجة الأولى على إخضاع العقول واستيعاب الإنسان المغربي ضمن المنظومة الاستعمارية. وذلك، لتيسير الاختراق إلى كل المناحي الحياتية الأخرى. وللقيام بهذه المهام المدروسة، يلتجئ صانع القرار الاستعماري إلى الاعتماد على المفكرين والصحفيين الموالون له، ومحاولة التحكم في معنويات هذه النخبة، في أفق السيطرة المادية على كامل الجغرافية الوطنية.

الكلمات المفتاح: الحرب الناعمة، الاستعمار الفرنسي، الحركة الوطنية المغربية.

مقدمة

يسعى الاستعمار في البلاد المغربية إلى نهج استراتيجية تبني بالدرجة الأولى على إخضاع العقول واستيعاب الإنسان المغربي ضمن المنظومة الاستعمارية. وذلك، لتيسير الاختراق إلى كل المناحي الحياتية الأخرى. وللقيام بهذه المهام المدروسة، يلتجئ المستعمر إلى الاعتماد على المفكرين والكتاب والصحفيين الموالون له، ومحاولة "التحكم الكامل في رغبات هذه النخبة"¹. وهذا ما نقلته جريدة "القيامة" مثلاً، عندما حاولت تبرير مسألة اعتلاء بن عرفة سدة الحكم، إذ قالت: "فالذين يغضبون لتبديل السلطان السابق وإبعاده عن العرش وجعل سلطان جديد مكانه، يدفعهم إلى ذلك ما ضاع عليهم من خدمات استغرقت سنين عدة، مهدوا فيها القصر وعملوا جهدهم على أن يبقى لهم وحدهم يقربون إليه من شاءوا ويعبدون عنه من شاءوا، ويعتبرون هذه الصدمة قوية الشوكة شديدة المفعول؛ لأنها هزت لهم الجانب الكبير الذي كانوا يصلون به إلى قلوب الناس وجيوبهم"². تبرز هذه السطور، كيفية اختراق الصحافة المعارضة ذهنية الشعب المغربي، والتشكيك في نزاهة الوطنيين الرافضين لنظام الحماية، بهدف القبول بمشروع السلطات الفرنسية الرامي إلى إبعاد السلطان الشرعي للبلاد محمد الخامس المعارض لبرامجها الاستغلالية، وإحلال مكانه محمد بن عرفة، الذي أبدى رغبة كبيرة في التعامل مع فرنسا. لأن الاستعمار، على دراية مسبقة، بأن الكلمة أكثر تأثيراً من الرصاصة؛ إذ الأولى يمكن أن تستميل الملايين من البشر وتخضعهم عن طيب خاطرهم إلى سلطانه دون عناء، وذلك بجعلهم يرون فيه منقذا ومخلصاً لهم من الشقاء والبؤس. بالتالي، تصير لديهم القابلية للارتباط به والتسليم بمشروعه. بينما الثانية، تأثيرها محدود في الزمان والمكان، يتجلى في الإخضاع بالقوة لا بالرغبة. وهو الشيء، الذي راهنت عليه فرنسا مرحلياً في شخص بن عرفة. ورد في جريدة "القيامة" مقال بعنوان: "فهل من حد لسياسة اللف والدوران"، تحاول من خلاله الأفلام الموالية للسلطة الكولونيالية، تكسير إرادة المغاربة في مقاومة تصور فرنسا المرتكز على الليونة والمرونة في الخطاب من أجل اكتساب التأييد الشعبي لبرنامجها الاحتوائي، جاء فيه: "وما من شك في أن "جلالة الملك"، الذي استنكر أعمال العنف والإرهاب المحزنة وأبدى استياءه من خطة المقاومة، التي دفع إليها الشعب المغربي على غير هدى، يقتنع بجلالته تمام الاقتناع بأن ما يدرك باللين لا يدرك بالشدة والقوة"³. وهذا في حد ذاته، تكريس للذهنية الاستعمارية الناعمة من جانب أول، ومحاولة إشاعة المهادة والاستسلام للمستعمر من جانب ثان. وهو ما أشارت إليه جريدة الدفاع مستغربة، في مقال بعنوان "الحق فوق القوة"، ورد فيه: "يهاجموننا، فإذا حركنا أيدينا للدفاع عن أنفسنا، قالوا إنكم مشاغبون ومشاكسون؛ فيا للعجب! أيكون مكدرًا للماء من يجلس بجانبه لينذود عنه من يريد تكديره، ولا يكون مكدرًا له من يلقي فيه التراب والأحجار؟"⁴

إن الاستعمار يعي تماماً كل ما يقوم به من تحركات ومخططات على مستوى البلاد المستعمرة. ولكي يظل الاستعمار مهيمنًا، يسعى جاهداً إلى تطبيق أساليب تتماشى ورغباته التوسعية. ومن أبرز هذه الأساليب نجد: "أولاً، أن يضرب الاستعمار كل قوة مناهضة له، تحت أي راية تجمعت. ثانياً، أن يحول في كل الظروف، بينها وبين أن تتجمع تحت راية أكثر فعالية"⁵. وهذان الشرطان، يحددان جوهر الذهنية الاستعمارية، التي تروم تفعيل سياسة التفريق بين القوى الحية في البلاد المستعمرة. حيث يحول الاستعمار، بين

¹ منعم بوعملات، إستراتيجية الحماية الفرنسية في تدبير الشؤون الأهلية: دراسة لمنطقة تاهلة مغراوة، 1912-1945، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق، الرباط، 2016، ص 261.

² "المشاكل التي تواجه العهد الجديد"، القيامة، السنة الثانية، العدد 59، الإثنين 28 شتنبر 1953، ص 1.

³ "فهل من حد لسياسة اللف والدوران"، القيامة، السنة الأولى، العدد 33، الإثنين 9 مارس 1953، ص 1.

⁴ "الحق فوق القوة"، الدفاع، السنة الأولى، العدد 5، الثلاثاء 28 شتنبر 1937، ص 1.

⁵ مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق-سوريا، الطبعة العاشرة، 2011، ص 29.

النضال العملي السياسي وبين التنظير الفكري؛ إذ لا يمكن صمود الأول دون الثاني، ولا فعالية للثاني دون الأول، وهذا ما فطن له المستعمر من خلال تجاربه في البلدان العربية خاصة، والإفريقية عموماً.

هكذا إذن، اخترق الاستعمار الفرنسي ليس المغرب فحسب، وإنما سبقته دول عربية أخرى كالجزائر وتونس ومصر، فهو يستعمر العقول والقلوب قبل الأوطان، لأن هدفه الأساس كسب أتباع ومؤيدين كثر، من خلال بث مشروعه الفكري عبر وسائل الإعلام المسيطر عليها. وفي مقدمة هذه الوسائل، تحتل الجرائد الصدارة، باعتبارها سريعة الانتشار ويسيرة القراءة، حيث تخاطب القارئ بلغة بسيطة ومغرية. وهذا، ما جعل "نابليون بونابارت" في حملته العسكرية على مصر مثلاً، يحرص على توزيع منشورات على الأهالي، هدفها إيهام المصريين بأن فرنسا جاءت لتحريرهم وليس لاستعبادهم. ولذا، الهدف، اصطحب معه "بعثة علمية مكونة من حوالي مئة وستين عالماً من المتخصصين في مختلف العلوم والفنون، وآلة طباعة مجهزة بأحرف لاتينية وعربية"¹، لأنه كان يعي تمام الوعي، مدى تأثير الكلمة في تثبيت الحضور الفرنسي ومدى قابلية بعض المصريين للاندماج والقبول بالمشروع الفرنسي كبديل لتسلط المماليك. لقد حاول المستعمر الفرنسي بالمغرب، نخب أساليب وطرق استعمارية سطرت الحماية عناصرها ووجهت أشكال تفكيرها وممارستها من خلال مختلف الجرائد التي كان يحكم قبضته عليها، مثل "Le petit Marocain" و"La vigie Marocaine" و"السعادة" و"القيامة" وغيرها من الجرائد، حيث كان المستعمر ينشر على صفحاتها كل ما له إمكانية تلميع الوجه الاستعماري لفرنسا، وتقديمها كمصلحة لأحوال الشعب المغربي. وكان الاستعمار أيضاً، يستعين بصحفييه ليصف الرافضين والمقاومين له، بالعصابات والعصاة والمتمردين والخارجين عن القانون. وهذا، ما عبرت عنه الصحافة الموالية لفرنسا بالقول: "إن الشعب المغربي رسخ فيه بحكم السنين الطويلة التي عاشها دعاة الشعب والضوضاء بين ظهرانيه. رسخ فيه، التملص والمعاكسة. ورسخت فيه أيضاً، الطاعة العمياء لرؤوس الفتنة. ورؤوس الفتنة، قد فشلت محاولاتهم لإقناع الشعب بأنهم يسبغون به إلى الخير"². فكان الاستعمار بذلك، يخلق في بعض الأحيان شرخاً ما بين أبناء الشعب الواحد، علاوة على زرع الشك والتردد وجعلهم لا يميزون بين المعلومة الحقيقية والخاطئة. إضافة، إلى ترويج مصطلح "الحماية" كمؤسسة قادرة على تغيير وضع، وتجاوز واقع، وتشكيل بناء جديد يتضمن كل الحلول السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. إذ "الحماية ليست سوى صيغة تُستخدم لإخفاء الحقيقة عن الشعب المقهور وعن العالم الخارجي، فيما يتعلق بالمناوراة الاستعمارية التي تقوم بها دولة إمبريالية، كما أنها ليست سوى حيلة لتقديم القبح الاستعماري في صورة مزينة، لكي يصدقها شعب يوجد بلده وثرواته محط الأطماع"³. فالاستعمار يروج في العديد من المناسبات، لأشياء تستفز الشعب المستعمر "حتى يثير غضبه ويغرقه في حالة شبيهة بالحالة التنويمية، التي يفقد معها شعوره ويصبح عاجزاً عن إدراك موقفه وعن الحكم عليه حكماً صحيحاً، فيوجه ضرباته وإمكانياته توجيهها أعمى"⁴. وما التقسيم الذي وضعه ليوطي المسمى ببلاد السبيبة والمخزن، إلا مظهر من مظاهر التمويه الاستعماري، إضافة إلى سياسة التفرقة المجسدة في ظهير 16 ماي 1930م، أو ما عُرف آنذاك، "بالظهير البربري"، الذي شكل تصوراً عن المجتمع المغربي مبني على التعارض بين البربري الطيب والعربي الضال الشرير⁵، وهذا جزء هام من الإستراتيجية الاستعمارية الفرنسية، التي تروم في المقام الأول تفتيت اللحمة المجتمعية للدولة المغربية. ولنفس القصد، "كانت سياسة ليوطي موجهة في البداية نحو العقول والقلوب، فهو من أنصار الاستعمار السلمي القائم على التحكم في

¹ محمد حواش، خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام وموقف المغرب منها، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت- لبنان، 2013، ص 25.

² "الالتجاء إلى الحركات الإلهامية يعرقل سير النهضة الجديدة"، القيامة، السنة الثانية، العدد 58، الإثنين 21 شتنبر 1953، ص 2.

³ محمد حسن الوزاني، الحماية جنابة على الأمة، المغرب نموذجاً، ترجمة: أحمد بن جلون، فاس-المغرب- 1994، ص 17.

⁴ مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مرجع سابق، ص 29.

⁵ Charles- André Julien, Le Maroc face aux impérialismes, (1415-1956), Editions Jeune Afrique, Paris, 1978, p 99.

القوى الداخلية الأهلية دون المس بها ودون مقابلتها بكيفية مباشرة"¹، فكان يعمل على تفكيك وحدة الشعب المغربي وتفريق كلمته، لذلك قال: "إنني على علم بأن مصلحتنا في الحقل الديني كما في المجال السياسي، تكمن في أن نفرق أكثر من أن نوحّد"².

لم يكن بمقدور المستعمر الفرنسي اختراق الذهنية المغربية من خلال جرائده، لولا أن سبق ذلك معرفة دقيقة بكل مكونات المجتمع المغربي، من عادات وتقاليد ولهجات محلية وقبائل وطريقة التفكير وما شابه ذلك. قصد معرفة، نقط القوة والضعف لديه، لتيسير عملية الإخضاع والتحكم. لذلك، تم تأسيس "البعثة العلمية سنة 1904م؛ حيث أسهمت انطلاقاً من أهدافها الواضحة، في تشخيص النظام الاجتماعي والسياسي للمغرب، وبالتالي، وضعت رهن إشارة السياسة الاستعمارية، مستندات ووثائق ذات أهمية لا تقدر بثمن"³.

صحيح، أن الجرائد الوطنية كان لها تأثير كبير على الآلة الإعلامية الفرنسية؛ من خلال حرصها على كشف مخططات الاستعمار ونواياه في الهيمنة وفرض مشروعه الاستعماري. فمثلاً، نشرت جريدة الدفاع مقالاً بعنوان "الحق فوق القوة"، تبرز فيه، درجة القصور في تخطيط العقل الاستعماري ومحاولته المتكررة في تفكيك بنية المجتمع المغربي من أجل تيسير مهام الخضوع والاستسلام، جاء فيه: "فلم يكن قصد الاستعمار سوى ستر تصرفاته الشاذة، وإشعار الناس ببراءته من بواعث الضرر والهيجان، وأسباب القلق والانفجار، غير أنه قد أصيب في محاولته الفاشلة، وحركته العدوانية برد فعل ذهب إعصاره بما له من أطماع، وجرف تياره ما اقتعله من دعاو، ونسف ريحه ما أقامه في وجه الأمة من حوائل وعراقيل، فباء بالفشل ونكص على عقبيه"⁴. لكن، وبالنظر إلى الترسانة الصحفية التي تمتلكها فرنسا، والموارد البشرية والمادية المتاحة. وكذا، القوانين القمعية المفروضة على الصحافة غير الموالية لها؛ "حيث كان قانون المطبوعات يعطي الحق للفرنسيين أن يصدرُوا صحفاً بالفرنسية، ولا يبيح لغير ذوي الجنسية أن يصدرُوا هذه الصحف، وأما الصحف العربية، فيمنع إصدارها إلا بإذن خاص من الصدر الأعظم"⁵، الذي له حق سحب هذا الإذن في أي وقت يشاء. "ويعتبر ظهور 1 ماي 1914م، أول تشريع صدر بالمغرب بخصوص الصحافة، ويتمحور هذا الظهير حول ضبط الأمور المتعلقة بطبع الجرائد وغيرها من المطبوعات"⁶، فعمل على تقييد حرية الصحافة بما يخدم مصالح الإدارة الفرنسية. وكل هذا، حال دون أن يتمكن الوطنيون من ممارسة نشاطهم الصحفي بدون قوانين رادعة. على الأقل في ظرفية معينة؛ وهي الفترة التي تصاعد منسوب قمع السلطات الفرنسية لمعارضسي سياستهم بالمغرب. فكانت تدمج بين القوتين: القوة الناعمة؛ المتمثلة في وسائل الدعاية والنشر والتدجين والاستقطاب وفي مقدمتهما الجرائد. والقوة الصلبة؛ التي تجسدها الآلة العسكرية بكل إمكانياتها الهامة التي رصدتها القيادة الفرنسية لحسم المواجهة مع الشعب المغربي.

هكذا إذن، كان الصراع الفكري إلى جانب العسكري يقومَان بدورهما في التأثير على الذهنية المغربية.

لقد وفر هذا الإطار أرضية عمل الجرائد الموالية للاستعمار الفرنسي؛ حيث كانت توهم القبائل بضرورة الاستسلام لأنه أساس الاستقرار والأمن، وأن فرنسا على حق، وأنها في المغرب لحمايتهم وجعلهم يعيشون في رفاهية ورخاء. ونستحضر في هذا السياق،

¹ عبد الصمد الديالمي، القضية السوسولوجية: نموذج الوطن العربي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1989، ص 41.

² Lyautey, Lyaute L'Africain : Textes et Lettres du maréchal Lyautey, Présentées Par Pierre Lyautey- Tome 3, - 1918 1915, PLON, Paris, 1956, p 71.

³ عبد الكبير الخطيب، مراحل السوسولوجيا بالمغرب 1912-1967، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد الخامس السويسي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، العدد 48، الرباط، 2004، ص 11.

⁴ "الحق فوق القوة"، الدفاع، السنة الأولى، العدد 5، الثلاثاء 28 شتنبر 1937، ص 4.

⁵ زين العابدين الكتاني، الصحافة المغربية نشأتها وتطورها، (1820-1912)، مرجع سابق، ص 224.

⁶ الجريدة الرسمية للدولة المغربية الشرقية، السنة الثانية، العدد 52، الجمعة 1 ماي 1914، ص 185.

مقتطفا من مقال كتب في جريدة "السعادة" الناطقة باسم الاستعمار الفرنسي، جاء فيه: "وكل قبيلة تقدم الطاعة يصبح لها الحق على الحكومة يمثل هذه المحافظة والصيانة، لأن الحكومة تكون مضطرة أن تحمي من يطرح سلاحه على أقدامها، ويقدم الطاعة لها، ويتكل عليها في تنظيم الأمور وترتيب الشؤون. فلو كانت الحكومة عاجزة عن الوفاء بوعدها والقيام بعهدتها، لقلنا للناس لا تثقوا ولا تركزوا إلى هذه التموهيات، ولم تقتصر الحكومة فقط على الحفاظ على الأمن العام، بل كانت وما تزال تعني بشؤون القبائل، تدأوي المرضى وتعمل الفقراء وتوزع الإعانات، من حبوب وأموال، وتفتح الطرقات، وتنشئ المدارس وترتب المجالس وتنير الأزقة، بينما زعماء الفتنة، يدكون الأطناب وينفخون ببوق الخراب"¹. إن هذه الفقرة، ما هي إلا جزء بسيط من أساليب الإدارة الاستعمارية في استخدام الجرائد من أجل تكريس حضورها عبر رؤية قوامها، تقديم الحماية في صورة المتحكم، الذي يتم تغليفه بأعمال ذات بعد إنساني، مثل إصلاح المدارس والطرقات، وتوزيع الأموال على المحتاجين وما إلى ذلك. لقد آمنت فرنسا بأن حضورها في المغرب يشكل قيمة مضافة للمغاربة وعاملا من عوامل الارتقاء بهذا الشعب، بل إن غزوها للبلاد ما هو إلا استمرار لنشر مبادئ الثورة الفرنسية (1789م) "وقيمها في المساواة والحرية وحقوق الإنسان"² بشكل خاص، حيث كانت بهذه الشعارات البراقة وغير البريئة في كثير من الأحيان، تمارس إستراتيجيتها الفكرية في التأثير على ذهنيات وسلوكات الأفراد والجماعات. هكذا، كتبت جريدة السعادة عن مدينة تازة سنة 1914 ما يلي: "فسكان تازة حُرروا من العبودية بفضل العلم المثلث الألوان، الذي كان ولا يزال -بحول الله- شعار الحرية والمساواة والإخاء"³. وأضافت، "فهنيئا لسكان تازة على الفرج بعد الضيق، هنيئا لأولئك القوم الكرام بيض الوجوه، ذوي الأحساب والأنساب، لنجاتهم من رق عبودية غيابة"⁴. والأخطر، ما تتضمنه الجملة السابقة، من استخدام لكلمة -الله- في الخطاب الاستعماري، وهو ما يبين قدرة السلطات الفرنسية على النفاذ إلى عمق وجدان المغاربة، والذي يشكل فيه الدين سببا وجوديا وتوظيفه بذلك في اختراق العقول وجذبها نحو تبني الرؤية الفرنسية، وهو ما يعتبر مطلبا ملحا للإدارة الفرنسية.

لقد استخدم الاستعمار بعض الانتهازيين في العمل الصحفي ووجههم إلى خدمة نظرياته وأهدافه، وأمدتهم بالمساعدات السخية، واصطنع كُتُبا معدومي الضمير، وأبرزهم وسلط عليهم الأضواء، "فنهضوا يتلونون مع كل عهد وظرف، ويحتفظون بمذهبهم الأساسي خفيا وراء مظاهر الوطنية والدعوة إلى الحرية. كما أغرى الاستعمار الكتاب الأحرار بالمال، وأرهبهم وهددهم بالقتل ليحطم تصميمهم، أو يشتري كراماتهم أو يبعدهم عن الصحف بالحبس والتشريد والمصادرة"⁵.

هكذا كانت سياسة فرنسا في توظيف الجرائد لاستقطاب بعض الشخصيات ممن لها مكانة ووضع اعتباري في المجتمع، وإعادة توظيفهم في الصحافة الاستعمارية كنوع من تبادل المصالح بين الطرفين؛ تقوم سلطة الحماية بتقديم امتيازات وإغراءات مالية لهم، في مقابل استغلال كتاباتهم للتأثير في وسطهم الاجتماعي، وهو ما يوضحه "آرثر سالزبورجر" مؤسس جريدة نيويورك تايمز بقوله: "احجب المعلومات الصحيحة عن أي إنسان أو قدمها إليه مشوهة أو ناقصة أو محشوة بالدعاية والزيف -تدمر كل جهاز تفكيره- وتنزل به إلى ما دون مستوى الإنسان"⁶. إذ على الرغم من أن الهاجس الإستراتيجي والاقتصادي هو الذي هيمن على الحركة

¹ "الوفاء بالعهد"، السعادة، العدد 724، الأربعاء 6 مارس 1914، ص 1.

² Daniel Rivet, Exotisme et pénétration scientifique: L'effort de découverte du Maroc par les Français au Début du XX Eme siècle, dans Connaissances du Maghreb sciences sociales et colonisation : Actes de la rencontre des trois journées à Princeton, New Jersey, USA les 24, 25 et 26 avril 1982, Paris, CNRS éditions, 1984, p, 95.

³ "تازة"، السعادة، العدد 732، الأربعاء 13 مارس 1914، ص 1.

⁴ "سكان تازة"، السعادة، العدد 727، السبت 16 مارس 1914 ص 1.

⁵ دعوة الحق، دور الصحافة العربية في الفكر الحديث وتطورها بين الحريين (1918-1939)، العدد 66.

⁶ محمد حسنين هيكل، بين الصحافة والسياسة، بيروت - لبنان، الطبعة السادسة، 1985، ص 21.

الاستعمارية، فإن همها المركزي كان اختراق الإنسان في فكره وثقافته ولغته. وإجمالاً، كل ما له صلة بكيونة وجوده وشخصيته. "تلك، هي الملامح التي جعلت من التوسع الاستعماري ظاهرة تاريخية فريدة من نوعها، فلما تماثلها حركة من حيث سلبية النتائج وعمق التأثير في مستقبل المجتمعات المستعمرة"¹.

لقد رسخ الاستعمار الفرنسي وجوده بالمغرب بالاعتماد على سلاح المعرفة أولاً وقبل كل شيء؛ إذ بالمعرفة والعلم، "وتفسير دلالات الكلمات والمفاهيم"²، تيسر له التغلغل في عمق المجال وسبر أغوار ذهنية الإنسان المغربي في ذات الآن. لذلك، فإن تحليل الذهنية الاستعمارية من خلال ما كُتب، سواء في الجرائد أو الكتب أو التقارير أو ما شابه ذلك، "يجعل من الممكن تتبع الصلات بين الظاهر والخفي، المهيمن والمهمش، الأفكار والمؤسسات، إنه يسمح لنا برؤية كيفية عمل السلطة من خلال اللغة والأدب والثقافة والمؤسسات التي تضبط حياتنا اليومية"³. بالتالي، فاعتبار الجرائد آلية لاستكشاف الذهنية الاستعمارية الفرنسية بالمغرب، هو أمر جوهري وأساسي. إذ فمن خلال الصحافة الموالية والمكرسة للوجود الفرنسي ومشروعه الاستنزافي لثروات المغرب، يتسنى للباحثين الكشف عن الوجه الحقيقي للمستعمر، وتفكيك مقولاته التي تستهدف تثبيت الحماية بالمغرب.

لقد حاولنا مما تقدم، توضيح قدر المستطاع قواعد الرؤية الفرنسية في غزو المغرب، وعلى رأسها الجانب الفكري، الذي تشكل فيه الجرائد حجر الزاوية لممارسة التأثير الذهني والنفسي على المغاربة من خلال نشر خطاب يمزج بين القوة والحزم والوعيد من جهة، والمهادنة والترغيب والثناء من جهة أخرى. سعياً منها، إلى استسلامهم واستعبادهم دون مقاومة. والأخطر، من الاستسلام الجسدي، هو الخضوع النفسي والفكري للمستعمر، خصوصاً، من طرف الفئة المثقفة المحلية. حيث حاول المستعمر، أن يخطر في صلب النسيج الثقافي والاجتماعي للمجتمع المغربي ومن خلاله الانتماء إلى هذه الفئة والتموقع إلى جانبها للوصول في النهاية إلى استقطابها وإدماجها في المشروع الاستعماري، وهو ما يحقق هدفين أساسيين: الأول، خلق نخبة مثقفة مدججة ومستلبة فكرياً، لأن "المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده"⁴. وبالتالي، يصبح هذا المثقف جزءاً من القوة الناعمة في حرب الاستعمار الذهني. والثاني، هو تأثر العامة من الشعب بمثقفهم وعلمائهم، الذين تم تغيير أو تعديل ميولاتهم تحت إغراءات وضغوطات المستعمر، ليصيروا هم بدورهم مسلوبي الإرادة والفعل، ومتقبلين للنموذج الاستعماري. "ولاشك، أن الجيل الذي يستحق نفسه بنفسه، يكون حقيراً أيضاً. فسياسة الاستعباد والاسترقاق تقتضي التحقير أولاً؛ أي يُحَقَّر الذي يُراد استرقاقه، حتى يظن أنه من طبقة دنيا وأسرّة منحطة، ثم يتقبل الذلة بكامل الرحب، ويلجأ للعبودية والاسترقاق"⁵. وهذا، هو جوهر القوة الناعمة ممثلة في نموذجنا بالجرائد. ولهذا، "إن الإفلات من مصائدهم والخروج من مضائقهم وانكشاف مخططاتهم، يستلزم لأجلها أن يُصر الإنسان ويعلم في أي مؤامرة غريبة معقدة يوقعون بها جيلاً من الأجيال، وبعدها أي شيء يريدون أن يصنعوا! فإن غفلت عن هذا فستكون جمل ضحية تحت المديّة في أيديهم، تنشط في ضغطهم عليك، وترقص لذبذبهم إياك"⁶.

¹ فادية عبد العزيز القطعاني، الحركة الوطنية المغربية 1912-1937، المجلة الجامعة، العدد السادس عشر، جامعة بنغازي، ليبيا، المجلد الأول، فبراير 2014، ص 3.

² Abdelah Ben Mlih, Structures politiques du Maroc colonial, histoire et perspectives méditerranéennes, Paris : L'Harmattan, 1990, p229.

³ أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، سوريا، اللاذقية، 2007، ص 58.

⁴ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار العرب، دمشق، الجزء الأول، 2004، ص 283.

⁵ علي شريعتي، النباهة والاستعمار، دار الأمير، ترجمة: هادي السيد ياسين، بيروت - لبنان، 2004، ص 86.

⁶ علي شريعتي، النباهة والاستعمار، مرجع سابق، ص 98.

صحيح، أن فرنسا في سعيها لاستعمار البلدان المستضعفة، تستحضر الهاجس الاقتصادي أساساً؛ إذ "القاعدة الاقتصادية الرئيسية للإمبريالية هي الاحتكار. وهذا الأخير، تمخض عن الرأسمالية"¹؛ حيث الدول الاستعمارية تحاول دائماً تصريف فائض إنتاجها الاقتصادي خارج حدودها الجغرافية والسيطرة على مصادر الطاقة. وذلك، تحت ستار الحماية، ونشر الديمقراطية وحقوق الإنسان. لذلك، كان من الطبيعي أن تراوح الحماية بين الشق العسكري الذي تجسده المؤسسة العسكرية، بما تقدمه من قوة وإخضاع واحتلال، والشق السياسي، الذي تمثل في جانب منه الجرائد، بما تحمله مقالاتها من مفاهيم الاستيعاب والاحتضان والتدجين. وهذا ما عبر عنه ميشو بلير بالقول: "إن تدخلنا في شؤون المغاربة يسبب لديهم الشك، وهو شيء طبيعي. إذن، ينبغي تدجينهم، وشيئاً فشيئاً الإيحاء لهم بالثقة، مما يتطلب التواصل المباشر والدائم والصبر ثم الحزم؛ إنه غزو معنوي يجب إنجازه"².

إن هذا المنحى في التحليل، يقودنا بالضرورة إلى القول، بأن الغزو العسكري والفكري للفرنسي للمغرب على وجه الخصوص، هو الشكل الاستعماري الذي جسده الحماية على صفحات الجرائد التابعة لإدارتها، تارة بشكل مضمّر، وتارة بشكل صريح، وهو شكل قديم/جديد استثمرت نتائجه من خلال تجاربها السالفة، منذ أن ظهرت الحركة الإمبريالية في بداياتها بغزوها لمصر على يد "نابليون بونابرت"، حيث "لم يرى هذا الأخير أن يفتح للفرنسيين مصر والشرق بالحديد والنار، وأن يكون قوام حملته جنوداً وقواداً فحسب، بل اصطحب معه العلماء"³، وعيا منه أن العلم والمعرفة سلاحان رئيسيان يواجه بهما الشعوب المستعمرة، خاصة الجرائد؛ "فكان أهم ما أصدره بونابرت بعد الاستيلاء على القاهرة مباشرة، جريدة "بريد مصر" Le Courier de L'Egypte"⁴. وبعد مصر، كان استعمار الجزائر، ثم تونس، وصولاً إلى المغرب. فطبيعي، أن تسهم تلك التجارب في تعزيز قدرة الاستعمار الفرنسي على السيطرة والتحكم وتطوير أساليبه في مجال الصراع الفكري بالمغرب.

هكذا إذن، نجد أن الاستعمار الفرنسي للمغرب لم يشذ عن ما سبقه، بقدر ما هو استمرار وسير على خطاه؛ حيث طغت وسائل الدعاية والنشر في مختلف البلدان التي استعمرتها فرنسا. وإذا أردنا أن نفهم بشكل أدق، كيف استطاعت فرنسا إخضاع شيوخ القبائل وبعض الزعماء المحليين، فلا غنى عن تفكيك الخطاب الصحفي وتحليل مضمونه، لكي تتضح الأمور بشكل أعمق.

وعلى هذا الفصل، فإن الأبحاث الراهنة، في غالبيتها، تتوجه نحو البحث ودراسة الظاهرة الاستعمارية بالمغرب، إذ نادراً ما نجد مواضيع تناولت بصفة خاصة الاستعمار الفكري والثقافي، بالرغم من أن هذا الجانب هو أشد وأخطر من غيره، لكونه يوضح خطورة استعمار الشعوب فكرياً، وخطورة تغيير هويتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها، "ولم يخلُ استعمار إلا وقد مارس هذا النوع من الاستعمار، كونه الأداة الوحيدة التي ستبقى إذا خرج من البلاد المستعمرة، فيضمن بقاء أفكاره وثقافته، التي ستعمل على نحر هيكل الدولة المستقلة من حيث لا تشعر"⁵.

إن المستعمر يدرك أن مفتاح نجاح استعماره هو إنهاء ثقافة الشعوب المستعمرة، لأن هذا يعني حتمية زوال المقاومة والاستسلام والخضوع للغازي، "وإذا ما نجح المستعمر في خلخلة الثقة والتشكيك بثقافة الشعوب المستعمرة، هجرت تلك الشعوب ثقافتها،

¹ Lénine, L'impérialisme Stade Suprême du Capitalisme, Brochure- Petrograd, Avril, 1917, p 55.

² Bellaire Michaux, Conférence faite cours préparatoire du service des affaires indigènes, Archives Marocaines, Volume XXVII, Librairie ancienne Honoré Champion, Paris, 1927, p 262.

³ إبراهيم عبده، تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية 1798-1801، مطبعة التوكل، مصر، 1941، ص 12.

⁴ المرجع نفسه، ص 61.

⁵ أعمار محي الدين، الاستعمار الفكري والثقافي، حقائق وشواهد، رابطة علماء المسلمين اليمن، تاريخ النشر: 2018/09/13، تاريخ الزيارة: 2020/08/01.

<http://yemenscholars.com/articles/1123>

وسعت إلى تبني ثقافة المستعمر وسيلة تحديث لمجتمعاتها، ومن ثم تُساق تلك الشعوب وراء مستعمرها، كما تساق قطعان الغنم رعيانها¹.

خاتمة

صفوة القول، يبدو، أن للصحافة دوران أساسيان في العملية الاستعمارية. الأول، هو التمهيد للاستعمار الاقتصادي؛ من خلال تقديم أخبار حول عقد اتفاقيات تجارية كبرى مع ما يرافقها من إغراءات مالية ضخمة في صالح الدولة المراد استعمارها سياسياً، إلى جانب إبداء الرغبة في تحديث الإدارة والمجتمع، وتخليص الشعب من الفقر والبطالة والخوف الناتج عن الانفلاتات الأمنية والانحرافات الاجتماعية، لكي تُبين أن قصدها الإصلاح والتحديث واستتباب الأمن والأمان، لا النهب والاستغلال. الثاني، يتمثل في اعتماد خطاب يستهدف العقليات ويعمل على تطويقها عبر نشر مقالات وتقارير ودراسات صحفية حول تحسين مستقبل الأفراد إذا ما قبلوا واستكانوا لثقافة الأجنبي، وعملوا بها. فتجعل من الشعب متشوقاً للأسلوب الغربي المتطور و"المتحرر".

إن الأفكار الموجهة صوب خلق معنى زائف، "وإلى إنتاج وعي لا يستطيع أن يستوعب إرادته الشروط الفعلية للحياة القائمة أو أن يرفضها، سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي، ليست في الواقع سوى أفكار مُوهمة أو مضللة"²، وهكذا كان واقع الصحافة الاستعمارية، الأمر الذي جعل "الصحفيين يشبهون نظارات خاصة، بواسطتها يرون أشياء معينة ولا يرون الأشياء الأخرى؛ كما أنهم يرون هذه الأشياء بطريقة معينة، إنهم يمارسون عملية اختيار ثم عملية إعادة تركيب لذلك الذي تم اختياره"³. وهذا أمر بديهي، بالنسبة لصحافة ولدت من رحم الإمبرياليات؛ إذ هذه الأخيرة، جوهرها الرأسمال، وهو أساس البيع والشراء، العرض والطلب. لذلك، من اللازم أن تدخل الصحافة والصحفيين في بوتقتها والإشراف على كل ما تبثه من أخبار ووقائع ديماغوجية، لتُظهر للعامة إلا ما تراه متماشياً مع منطقها الاستعماري. لهذا، "فإن باستطاعة هؤلاء الصحفيين أن يفرضوا على كل المجتمع المبادئ التي ينطلقون منها في رؤيتهم للعالم، وأن يفرضوا إشكالاتهم ووجهات نظرهم على الآخرين"⁴، حتى ولو اعترأها الكثير من التضليل والتحيز. وهذا، لا يعني أن التأثير السياسي والفكري الذي مارسه الإعلام الفرنسي بالمغرب لم يواجهه برد فعل من طرف المغاربة، بل سنجدهم أن كثيراً من المثقفين سارعوا إلى تأسيس جرائد وطنية، وتبنوا المقاومة السياسية كأسلوب لمواجهة المشروع الاستعماري وتأخير تقدمه، رغم البون الشاسع بين الطرفين من حيث الوسائل والإمكانات المادية والبشرية.

لقد أدركت فرنسا، بأن نتيجة الحرب تتوقف على مقدار ما ييذل من جهد إعلامي وسياسي في الميدان. وإذا كان للجانب العسكري دور في هذه الحرب، فإن للمعطى الإعلامي وللصحافة بشكل خاص، دور كبير في تحقيق هدف القيادة الفرنسية. وهذا، ما استوعبته الحركة الوطنية وعملت على استغلاله من خلال نضالها السياسي خطاباً وممارسة.

¹ عاصم الخواجا، الاستعمار الفكري وصراع الحداثة في العالم العربي، العربي الجديد: <https://www.alaraby.co.uk>، تاريخ النشر: 20 يونيو 2014، تاريخ الزيارة: 2022/06/10.

² هيربرت شيللر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة: عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، العدد 243، الكويت، مارس، 1999، ص 5.

³ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة: درويش الحلوجي، دار كنعان، دمشق، 2004، ص 49.

⁴ بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، مرجع سابق، ص 95.

صدى معارك أنوال الخالدة في وعي المغاربة وآثارها الحضارية:

د.إلياس الهاني

الجامعة الإسلامية بمينيسوتا - المركز الرئيسي

المملكة المغربية

الملخص:

مثّلت معارك أنوال الخالدة التي عرفها ريف المغرب سنة 1921 انتقالا نوعيا في وعي المغاربة؛ بما أحدثته في الوعي الجماعي الذي استشرت فيه مظاهر التواكل والركود الحضاري، بل وصار المغرب على إثرها ينأى بمعضلات عويصة للحد من ظاهرة الاستعمار الأجنبي التي ابتلي بها؛ فكانت انتصارات أنوال الحدث الذي هزّ كيان المغاربة ووجدانهم وجعلهم يأملون في انتشار الأوضاع الحضارية للمغرب من وهدة الانكسار؛ ذلك أن الصدى الواسع الذي تركته النتائج الميدانية لسقوط الاستعمار الإسباني في بلدة أنوال أفرز وعيا منقطع النظير لدى النخبة المغربية، وعلى رأسهم جملة من الفقهاء والعلماء وأهل الرباط الذين بذلوا جهدهم لنصرة أهل الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال دعمهم المادي ومشاركة البعض منهم في إنجاح التجربة الخطّائية بمختلف الوسائل والسبل كالكتابة عنها وتبيان معالمها، والدفاع عنها، الأمر الذي يمكن به اعتبار انتصارات أنوال الانطلاقة الفعلية للوعي المغربي الحضاري اتجاه ظاهرة الاستعمار، وعليه فإن هذه الورقة ترمي إلى إبراز صدى معارك أنوال لدى النخبة المغربية العلمية، والآثار الحضارية التي تركتها على مستوى التفاعلات الإيجابية التي أفرزتها، وذلك بالإشارة إلى مظاهر هذه الأصداء وتنوعها مما كان له الأثر في انطلاق بروز الوعي المغربي وانفتاحه على كل الإمكانيات للحد من التوغل الاستعماري، من خلال ثلاث محاور يتعلق الأول بصدى معارك أنوال في المغرب، بينما يعالج الثاني منه تفاعل الوعي المغربي مع معركة أنوال بأعلامه ومظاهره، ليختم بالآثار الحضارية لمعركة أنوال في السيرة المغربية، مستعينا بالوثائق وبطون الكتب والسجلات المحفوظة والمذكرات، ومتوسلا بالمنهج الوصفي التاريخي الذي سيؤسس لرسم صورة المشهد العام لأنوال وتبعاتها من مختلف الجوانب، وكذا المنهج التحليلي الاستنباطي للكشف عن مظاهر الفعالية الحضارية للنخبة العلمية المغربية بعد انتصارات أنوال.

الكلمات المفتاحية: معارك أنوال الخالدة - الوعي المغربي الحضاري - الآثار الحضارية - النخبة العلمية المغربية.

مقدمة:

تعتبر معارك أنوال التي جرت بين الريفيين المغاربة والجيش الاستعماري الإسباني إحدى أهم المحطات التاريخية الكبرى التي أسهمت في بداية اندحار الرؤية الاستعمارية الأوروبية، وذلك بسبب التداعيات والآثار التي تركتها صدى أنوال في العالم أجمع؛ فبقدر ما أكدت على إمكانية صد العدوان الأجنبي المدجج بأحدث التقنيات الحربية عبر إخضاعها بمقدرات ذاتية تنبع من الإيمان الأصيل بقوة الحقوق التاريخية والحضارية والوجودية سواء كانت عبر المجاهدة الميدانية كما حصل في أنوال، التي استطاعت أن توقف الزحف الاستعماري على أراضي الريف بعد فقدان الفعالية الحضارية المنتجة، والارتكان نحو الركود والتبعية والانكسار، بقدر ما أسهمت في تفتق الوعي على قواعد ناظمة في الفكر الاستراتيجي والتفكير النقدي للأوضاع التي آلت إليها؛ إذ «أن الاستعمار ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم، بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الاستعمار، والتي تمكن له في أرضها، وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجنادة، إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذلّ مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهلها للاستعمار¹»، وهو الأمر الذي أدرك محمد بن عبد الكريم الخطابي مرامي، وعمل جاهدا لتجاوز آثاره على مستوى الأفراد والقبائل، ما أثمر ردا قويا من طرفه على المقولات الفلسفية التي استندت عليها الرؤية الاستعمارية في تبريرها للاستيلاء والسيطرة على مقدرات الشعوب والأمم، وبذلك أضحت «ثورة ابن عبد الكريم أول حركة إيجابية من نوعها جرت في البلدان المستعمرة بعد المد الاستعماري الذي جرى على إثر انتصار الحلفاء في الحرب الكبرى الأولى، وبذلك فهي أول رد فعل أهلي زعزع كيان الاستعمار وفرض عليه أن يهيئ كل قواه لحماية نفسه من الانهيار²»، وكانت أنوال بداية الشرارة التي أخضعت أوروبا الاستعمارية لضرورة مراجعة سياساتها اتجاه مستعمراتها التي طفت للنهل من دروس أنوال التي دجّجها الخطابي بأسطر من الوعي الحضاري والتفكير الاستراتيجي وبواجبات المرحلة؛ ف«كانت معركة أنوال بمثابة البوابة الكبيرة التي فتحتها أبناء الريف، معلنين بذلك دخولهم الإنتصاري إلى التاريخ العالمي»، كما كانت الممهد لتقويض الاستعمار بالمغرب، وذلك بما أحدثته من تأثيرات في الوعي المغربي؛ حيث تعددت أصداء تلقي معارك أنوال في المغرب الداخل الذي كان يئن تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي، والذي سارعت من خلاله القوى الاستعمارية وممالئهم إلى تشويه ما حدث بمعارك أنوال عبر صحفهم ومنتدياتهم، كما استبشرت الكثير من النخب والأعلام بهذا الانتقال التاريخي الذي حدث يوم 21 يوليوز 1921، بل وسارعت إلى الاحتفاء به عبر مختلف التعبيرات سواء كانت عبر الكتابة والمناشير أو تمجيدها بصنوف من الإبداعات، بل ومحاولة الكثير من النخب الإسهام في إسناد جبهة الريف الداخلية في مخاضها مع القوى الاستعمارية بالإمكانات المادية والدبلوماسية والحربية، لتبقى أصداء معارك أنوال ممتدة في الزمان والمكان يتم الاسترشاد بها عندما احتد الصراع بين المغاربة والاستعمار في مختلف اللحظات التاريخية التي أعقبت فترة العشرينيات، وتصبح أنوال علامة بارزة على الرغبة في انجلاء أوار الاستعمار في كل وقت وحين.

الخوّر الأول: صدى معارك أنوال في المغرب

أحدثت النتائج التي تلت معارك أنوال صدمة واسعة لدى الرأي العام العالمي، وتركت تأثيرا واضحا لدى الدوائر الاستعمارية التي أجمعت أمرها على ضرورة تقويض هذه التجربة، كما اعتبرته الدول المترنحة تحت نير الاستعمار النموذج الحضاري للخروج من ريقته، وبهذا مضت مختلف الصحف والمجلات للتعبير عن الظاهرة الخطّابية التي أضحت محلّ جدال واسع حول الطريقة التي استطاع بها مجاهدة الجيوش المدججة بأحدث التقنيات الحربية، وأملا للساعين نحو التحرر في كافة البلدان الإسلامية التي تعرضت للاستعمار،

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، سوريا، ط4، 2022، ص24.

² - محمد العلمي، زعيم الريف محمد عبد الكريم الخطابي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2009، ص5.

وقد كان المغرب سواء بسلطاته الاستعمارية الإسبانية والفرنسية وأذرعهما الإعلامية أو النخب العلمية والأعيان والتجار وأهل الحلّ والعقد، وباقي الشرائح المجتمعية بالمغرب شديدة المتابعة لما يُعتمَل شمال المغرب، ولذا يعبّر المارشال ليوطي عن خوفه الشديد جراء امتداد التأثير الذي أحدثته تداعيات معارك أنوال على الوعي المغربي، عندما رفع تقريراً للحكومة الفرنسية بالقول: «ليس هناك ما هو أسوأ على مستقبل نظامنا من قيام دولة مسلمة مستقلة وحديثة في منطقة قريبة جداً من مدينة فاس، لأنها ستجعل من عبد الكريم مركز جذب لا للخارجين علينا فحسب، بل لكل العناصر المغربية أيضاً، ولا سيما للشباب منهم¹»، ولعلّ التقرير التقييمي الذي كُلف بإنجازه الأنثروبولوجي الفرنسي روبر مونطاني من طرف الدوائر الاستعمارية الفرنسية حول الحصيلة العامة للعشرية الأولى من احتلال المغرب ما يكشف عن التأثير الكبير لمعارك أنوال وتبعاتها لدى فئات عريضة من المجتمع المغربي خاصة النخبة العلمية منها، وهو الأمر الذي أحدث انتقالاً نوعياً، وخطوة متقدمة للمغرب في محاولة استيعاب الظاهرة الاستعمارية؛ كونها العقبة الكأداء أمام نهوضه الحضاري واسترجاع أمجاد التليدة، إذ جاء فيه: «لا يخفى على الملاحظ اليقظ المتتبع للمجتمع الأهلي، أن المؤشرات تتعدد على كون هذا البلد يعرف منذ أربع سنوات [أي منذ معارك أنوال] عملاً داخلياً عميقاً، يمكننا من خلال رصده، أن ننبين منذ الآن توجهات المغرب الشاب²»، كما يضيف هذا التقرير عن التحولات التي حدثت بعد معارك أنوال في الوعي المغربي بالقول: «إن الانتصارات الغير المنتظرة، التي حققها عبد الكريم... أدت فعلاً وبشكل سريع إلى إيقاظ سكان المغرب الفرنسي، من الفتور والسلبية، التي أظهرها من تقدم حايثنا، وكانت المدن بطبيعة الحال أكثر حساسية لهذه الصدمة³»، ولا شك أن فعل الصدمة الذي يجتدم على وعي الإنسان وسلوكه هي المرحلة الأولى لانجلاء آثار التراكم الانهزامي الذي أوردى المغرب صريعاً أمام القوى الاستعمارية؛ فكانت معارك أنوال الروح التي أشعلت فتيل اليقظة؛ «واستيقظت الروح في المدينة والبادية على السواء، وألهبت الحرب الريفية مشاعر الشباب والطلبة في المدن والقرى، وتجمعوا على دراسة مفاخر الحرب وتدبر أسباب الغلبة⁴»، وأضحت معارك أنوال وقائدها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي رمزاً لنهوض الحواضر المغربية بأزقة مدينة فاس وتطوان وسلا وغيرها «تشيد بانتصارات المجاهدين الريفيين وبروح الكرامة التي يتحلون بها فتعلو أصواتهم في مظاهرات تردد أجزالا وأناشيد حماسية⁵» وتركت صدى واسعاً واهتماماً بالغاً لكل ما يتعلق بالحرب التحريرية التي يخوضها الخطابي مع الاستعمار، وتهاوت الكثير من المغاربة على اقتناء الجرائد العربية والأجنبية التي كانت ترد من خارج المغرب لتلقف حيثيات ما يحدث في منطقة الريف، لتبرز نخبة علمية مهمة تقلدت أدواراً متنوعة في التعبير عن مساندتها لمقاومة الريف بقيادة الخطابي جراء ما حدث بأنوال، واستطاعت أن تنخرط بفعالية متميزة أمام اللحظة التاريخية بأنوال، قد لاحظ الإنجليزي والتر هاريس ذلك الاحتفاء الذي أبداه أهل فاس تجاه الخطابي نتيجة الانتصارات المتتالية له على الفرنسيين بعد الزخم الذي حصل في أنوال مع الإسبان، ويسجل ذلك، وهو الزائر للمنطقة والمتتبع لحيثياتها في تلك السنوات، فيقول: «وليس خافياً أن غالبية سكان فاس كانوا يدعون الله في سرهم أن يكتب النجاح لعبد الكريم⁶»، وما ذلك إلا سوى مظهر للصدى الواسع الذي أحدثته أنوال ومثيلاًتها لدى المغاربة.

¹ - محمد عمر بلقاضي، أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي، مطبعة سلمى، الرباط، ط2، 2006، ص207.

² - محمد المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، من مناهضة الطرقية إلى مقاومة الاحتلال، دراسة وإعداد، إدريس كرم، طوب بريس، الرباط، ط1، 2010، ص16.

³ - محمد المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، من مناهضة الطرقية إلى مقاومة الاحتلال، ص17.

⁴ - فاطمة الجامعي الحبابي، حرب تحريرية في ظروف مدلهمة، عبد الكريم غلاب، ضمن: "محمد بن عبد الكريم الخطابي في أحداث أقطاب الفكر والنضال الوطني بالمغرب"، دار أبي رقرق، الرباط، 2013، ص292.

⁵ - فاطمة الجامعي الحبابي، محمد بن عبد الكريم الخطابي في أحداث أقطاب الفكر والنضال الوطني بالمغرب، ص358.

⁶ - فرنسا وإسبانيا وحرب الريف، والتر هاريس، ترجمة حسن الزكري، مركز جسور للدراسات التاريخية والاجتماعية، 2025، ص180.

إذن؛ فقد مثلت معارك أنوال حدثا زلزل الوجدان المغربي، وأعاد رسم مشهد الصراع ضد الاستعمار الإسباني؛ فقد خلف النصر الساحق الذي حققه محمد بن عبد الكريم الخطابي، وثلة من أصحابه صدى واسعا في مختلف ربوع المغرب، حيث ترددت أصداؤه البطولة والشجاعة بين القبائل والمدن، مما أوجع مشاعر الفخر الوطني والانتماء الإسلامي، وانتشرت الأخبار مشفوعة بقصص عن بسالة الريفيين وهزيمة جيش عتيد، فألهمت المغاربة ثقة جديدة في قدرتهم على مقاومة الاحتلال، وأعادت الأمل في التحرر بعد سنوات من الخضوع للهيمنة الاستعمارية.

ولم يكن صدى معارك أنوال مقتصرًا على المغرب وحده، بل تجاوز حدوده ليhez أركان القوى الاستعمارية الأوروبية كافة، فقد تلقى الإسبان الهزيمة بمزيج من الصدمة والانكسار، ما دفعهم إلى إعادة النظر في استراتيجياتهم العسكرية والسياسية في شمال إفريقيا، وعلى مستوى الداخل المغربي، كانت أصداؤه المعارك متفاوتة بين مناطق الريف والمناطق الخاضعة للنفوذ الفرنسي؛ ففي حين انتعشت الحماسة في الريف واشتد عود الحركة الجهادية للخطابي، تعاملت سلطات الحماية الفرنسية مع انتصارات أنوال بكثير من التوجس، معتبرة إياه مقدمة لثورات قد تمتد إلى الجنوب والوسط. لذا، سارعت فرنسا إلى تعزيز قبضتها الأمنية، وأطلقت حملات تهديدية واسعة ضد الزعامات الدينية والوطنية، خشية انتقال شرارة أنوال إلى باقي البلاد، وفي الوقت ذاته، ولدت المعركة شعورا قوميا عارما بين المغاربة، وشكلت بداية تحول تدريجي نحو وعي جماهيري بأن الاستعمار رغم تفوقه التكنولوجي، يمكن هزيمته بالإرادة والتنظيم، لقد مهد هذا الصدى الطريق لثورات فكرية واجتماعية لاحقة ستشهد لها الساحة المغربية خلال العقود التالية.

المحور الثاني: تفاعل الوعي المغربي مع معارك أنوال: أعلام ومظاهر

أعادت معارك أنوال في ذهن المغاربة ذكريات أضحت من قبيل البطولات التاريخية التي لا يتم ذكرها إلا في الكتب والروايات العالمية، وأضحت معينا لا ينضب للنهل من عبرها، وأحدثت حالة من التفاعل بمستويات مختلفة، لتصبح أملا لانتشال المغرب من الأوضاع الحضارية المتردية التي تراكمت عليه طيلة قرون من الزمن؛ وراح الوعي المغربي يؤسس لمسار التخلص من رقة الاستعمار، من خلال إرساء قائمة من التفاعلات الحضارية مع تجربة معارك أنوال عبر مختلف الأشكال؛ وبرزت النخبة العلمية المغربية لتسهم في خلق فرصة التواصل بين كافة المناطق المغربية التي تعرضت للسيطرة الاستعمارية، ومن هنا ينطلق محمد بن عبد الكريم الخطابي في إطلاق نداءات متكررة للنخبة المغربية يحثها على ضرورة العمل على استئصال الشأفة الكولونيالية بالمدن المغربية، ويؤكد من خلالها على الصلات الجامعة بين كافة مكوناته الحضارية؛ ففي رسالة له إلى نخبة أهل فاس عقب أنوال، يقول: «من عبد الكريم خادم المسلمين، المجاهد في سبيل الاستقلال إلى أهل فاس، كبير وصغير، خصوصا ذوي العقول منهم، وأصحاب التأثير، إنكم أيها الإخوان، لا تجهلون، ما قمنا به في هذه الأيام من جليل الأعمال، والتضحية في سبيل استقلال بلادنا تحت الراية الإسلامية، فقد آن الوقت الذي يجب أن يقوم فيه المغرب من سباته العميق، ويتمتع باستقلاله كسائر الدول¹»، وعليه أبدت النخبة العلمية تفاعلا ملحوظا مع نداء الخطابي؛ ف«في فاس كان شيخ الإسلام الفقيه محمد بلعربي العلوي يتجول في شوارع المدينة وأسواقها ويخاطب الناس علانية: "ما هي مساهمتك في دعم ثورة الريف؟"²»، كما أضحت حلقاته في مسجد القرويين تعكس تحولا في الوعي المغربي بأحاديثه عن الخطابي ودفاعه المستميت عن الحرب التحريرية التي بدأت شرارتها في الانطلاق، ذلك أنها أضحت أملا للنخبة العلمية بعد سلسلة من الانكسارات المتوالية، وأخذت باهتماماتهم كما هو الحاصل مع أحمد بن جعفر الكتاني الذي أصبح بعد انتفاضة الخطابي وتوارد أخبار معارك أنوال وما تلاها عليه شديد «الانقباض والعزلة عن الناس بحيث لا يشغل إلا بالتدريس والوعظ والتأليف

¹ - فاطمة الجامعي الحبابي، محمد بن عبد الكريم الخطابي في أحاديث أقطاب الفكر والنضال الوطني بالمغرب، ص 373.

² - عبد اللطيف جبرو، المهدي بن بركة: الرياضيات مدرسة للوطنية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، بدون رقم الطبعة، 1995، ص 78.

والعبادة، بعيداً أشد البعد عن الاهتمام بأخبار الدنيا وما يجري فيها ولا يجروا أحد ممن يتصلون به عن الحديث معه في شيء من ذلك، فإن أخبار المجاهدين في الريف كانت تستثير اهتمامه لدرجة كبيرة¹»، وهو نفس ما حصل مع الشاعر الرباطي أبو بكر بناني الذي استنهض في أبيات له همم المغاربة بما توجهه اللحظة التاريخية من مساندة الخطاي والانتصار له والدفاع عنه وردّ الشبهات التي يتعرض لها من طرف الاستعمار وأذنا به؛ فيقول:

«يا بني المغرب ما هذا الرقاد ... مالكم صرتم كأمثال الجماد

فدعوا النوم وقوموا للجهاد ... واسألوا الله انتصار المسلمين

يا بني المغرب ما هذا الفتور ... أو لستم ذلك الشعب الغيور

طهروا الأوطان من كل كفور ... واسألوا الله انتصار المسلمين

يا بني المغرب سيروا للأمام ... وارفعوا راية غازينا المهام

فخرنا عبد الكريم ابن الكرام ... واسألوا الله انتصار المسلمين²»

كما أن الفقيه التازي الفاسي الذي يحكي عنه حفيده المؤرخ محمد التازي سعود كان شديد الولع بتتبع أخبار الخطاي بعد معارك أنوال، فيقول: «كنت حقيقة طفلاً صغيراً جداً، وكان جدي الشيخ يتلقف الأخبار بلهفة، ولم نكن نعرف آلة الراديو، ولم تكن للمغاربة آنذاك صحف وطنية، ومع ذلك كان الناس يوشوشون بينهم بأخبار الحرب، وكان جدي لا يفتر لسانه عن الدعاء بالنصر للمجاهدين³»، كما برز الشيخ أحمد بن المامون البلغيثي وهو أحد علماء فاس، الذي يحكي عنه تلميذه محمد إبراهيم الكتاني تفاعله مع حدث أنوال بأنه كان «شديد الاهتمام بأخبار الحرب الريفية، وقد أتتته مرة بعدد من جريدة باريسية فيها صورة للبطل محمد عبد الكريم الخطاي فصار يقبلها ويكي ويدعو له بالنصر على الأعداء⁴»، وعلى إثر معارك أنوال، نشأت جمعيات وحسابات جديدة تولتها مجموعة من الشباب المتعلم المتأثر بالحرب التحريرية، مثل ما قام به الأستاذ حسن أبو عياد من توليه لجماعة سرية تتلوى نشر «رسائل لبعض الناس موقعة باسم البطل محمد بن عبد الكريم، تشتمل على أخبار انتصارات المجاهدين وأنهم يستعدون لمهاجمة فاس، وأن على من وجهت إليه الرسالة أن يستعد لاستقبالهم والانضمام إليهم وتأييدهم⁵»، ولم تقتصر النخبة العلمية على جانب الاهتمام بتداعيات معارك أنوال، وإنما تجاوزت ذلك إلى المراسلة مع قائدها الخطاي؛ إذ من المعلوم أن الخطاي قد درس أثناء إقامته بتطوان وفاس على جملة من العلماء والشيخوخ الذين بقي حبل التواصل معهم ممتداً إلى زمن حدوث أنوال، كما هو الحال مع شيخه عبد الصمد كنون الذي لازمه الخطاي طيلة تلمذه بفاس، فيذكره ابنه عبد الله أنه: «بقي على صلة بالوالد إلى ما بعد ثورته، يكاثبه ويسأله عن بعض المسائل ويوصيه ببعض طلبة الريف الذين كانوا يدرسون بطنجة، وأرسل له الوالد كمية من نسخ أربعين حديثاً في فضل الجهاد والحض عليه⁶»، كما تواصل الخطاي مع النخبة العلمية لعلمه بمدى التأثير الذي يحدثه أهل الفكر والقلم في

¹ - محمد إبراهيم الكتاني، "ماذا استفاد المغرب من حرب الريف التحريرية"، مجلة أمل، العدد 8، 1996، ص 112.

² - عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1984، ص 73.

³ - فاطمة الجامعي الحبابي، من شيخ المؤرخين الشاعر الفاسي إلى شيخ الأبطال أمير الجهاد الريفي، ضمن أعمال اليوم الدراسي، محمد عبد الكريم الخطاي وقضايا مغرب اليوم، دار أبي رقرق، الرباط، 2013، ص 246.

⁴ - محمد إبراهيم الكتاني، "ماذا استفاد المغرب من حرب الريف التحريرية"، مجلة أمل، العدد 8، 1996، ص 113.

⁵ - محمد إبراهيم الكتاني، "ماذا استفاد المغرب من حرب الريف التحريرية"، مجلة أمل، العدد 8، 1996، ص 113.

⁶ - عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط 1، 2010، ص 1563.

مجتمعاتهم، وذلك قصد تشكيل جبهة موحدة تتصدى للاحتلال الأجنبي، كما هو الحال مع شيخه أحمد بن الجلاي يستحثه على مجاهدة أذرع الاستعمار، وشيخه عبد العزيز بناني، وكذا القاضي العراقي الذي يتبن فيها مقاصد الاستعمار وضرورة الصد له بكل السبل والوسائل، وهو نفس ما قام به مع شيخه عبد الرحمان بن القرشي.

وقد امتد تأثير معارك أنوال على وعي النخبة العلمية بأنحاء متفرقة من المغرب، مما حدا بالكثير منهم للإسهام بشكل مباشر في عملية النهوض التي أرسى معالمها الخطابي؛ إذ بمجرد ما طفق خبر أنوال ينتشر بين جموع المغاربة حتى التحق به زميله الشيخ إدريس بن عبد السلام السلاوي الذي لازمه إلى حين وفاته سنة 1923، وهو نفس ما فعله الفقيه عبد السلام المرابط الذي تولى قيادة معارك حربية بكل من فشتالة وبني كيسان وبني زروال وعدة مناطق بحدود فاس صدا لفرنسا، وفي معارك بينقرش بتطوان صدا للإسبان، وذلك كله تحت راية الخطابي، وساهم شيخه محمد بن جعفر الكتاني بمجرد سماعه بمعارك أنوال بمدد غزير من الأموال والسلاح الذي كان يرسلها بطرق خاصة إلى الخطابي، وهو الأمر الذي دفع جريدة الزمان الفرنسية أن تكتب عن وفاته سنة 1927: «لقد مات أكبر عدو لفرنسا بالمغرب¹» وذلك بسبب جهوده الكبيرة المضنية لصد السلطات الاستعمارية، وقد أشارت وثيقة مهمة إلى الصلة الوثيقة التي جمعت الخطابي بنخبة جنوب المغرب؛ و«خاصة مع الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، أرسل الخطابي إلى الشيخ المعيني عددا مهما من العتاد والذخيرة، وذلك بعد معركة أنوال سنة 1921م، وكانت بينهما مراسلات تتعلق بالمقاومة²»، والتحق بالخطابي كذلك الشيخ محمد المامون أحد أعلام الفكر والجهاد بالجنوب، «وقد أبلى بلاء حسنا، وجرح في بعض المعارك وظل إلى جانب زعيم الريف إلى أن انتهت الحقبة الجهادية³»، وهو نفس ما حاول القيام به الشيخ أحمد بن المامون البلغيثي الفاسي، وكان في سن السبعين من عمره، إلا أنه اصطدم بعدة عراقيل أحجمته عن الالتحاق بالخطابي.

وقد تجاوز تأثير معارك أنوال ليشمل مؤسسات بأبعاد علمية ودينية واجتماعية تتمدد جذورها في الحضارة المغربية، وقد تعددت مظاهر الوعي الذي أبدته في مختلف المناطق، وهي مؤسسة الزوايا على غرار ما قامت به الزاوية المعينية بالريف الشرقي، والزاوية الكتانية، والزاوية الخميليشية، والزاوية العليوية شرق الريف، والزاوية الهبرية وغيرها، سواء ما يتعلق بالمساندة المعنوية أو المباشرة عبر التحاق الكثير من منتسبيها لمنطقة الريف، ومراسلة الكثير من نخبها مع الخطابي، على الرغم مما قامت به زوايا أخرى من خذلان وتواطؤ مع الاستعمار.

فلقد كان لتفاعل الوعي المغربي مع معارك أنوال مظهران بارزان: أحدهما اجتماعي، والآخر فكري؛ على المستوى الاجتماعي برزت شخصيات دينية ووطنية تدعو إلى الوحدة والجهاد، وعلى المستوى الفكري، بدأت تنتشر خطب الجمعة، والقصائد الملحمية، والمراسلات السرية بين قادة الحركة الوطنية الوليدة، مما يدل على أن معارك أنوال لم تكن مجرد انتصار عسكري بل كانت مصدر إلهام فكري وثقافي ساهم في تبلور وعي جماعي بقضية التحرر والمقاومة المنظمة.

وعلى الرغم من أن معارك أنوال كانت لحظة فريدة في تفعيل الوعي الوطني المغربي، إلا أن مظاهر التفاعل معها اختلفت بين الفئات الاجتماعية والثقافية؛ فقد أبدت النخبة الدينية التقليدية حذرا في التعامل مع النتائج السياسية للمعركة، حيث كانت تخشى أن يؤدي الانخراط في صراع مفتوح مع المستعمر إلى فقدان بعض امتيازاتها، في المقابل، برز جيل جديد من المثقفين الشباب، خاصة في المدن الكبرى كفاس ومراكش، يحمل تصورات أكثر جرأة تدعو إلى بناء حركة وطنية حديثة، ومن جهة أخرى، تفاعلت القبائل

¹ - عبد الله كموني، البعد الفكري في شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي، 2021، المغرب، طبعة خاصة، ص285.

² - عبد الله كموني، البعد الفكري في شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص283.

³ - عبد الله كموني، البعد الفكري في شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص284.

مع نصر أنوال بطريقة عملية، حيث زادت من تنظيم صفوفها وأعادت النظر في تحالفاتها المحلية، كما ظهرت كتابات محدودة، لكنها مؤثرة، تتحدث عن ضرورة تجاوز الانقسامات القبلية والطائفية لبناء جبهة تحرير شاملة.

وفي هذا السياق، يمكن القول أن تفاعل المغاربة مع أنوال لم يكن رد فعل موحداً، بل كان بداية لجدل طويل حول طبيعة المواجهة مع الاستعمار، وأسس بناء الدولة الوطنية الحديثة، وهو جدل سيمتد أثره إلى مرحلة ما بعد الاستقلال.

الخوثر الثالث: أثر معارك أنوال في انبثاق الوعي الحضاري المغربي

شكلت معارك أنوال لدى المغاربة بعدا يتجاوز الاحتدام القائم بين معسكرين غالبا ما يحصل نتيجة صراعات سياسية أو لإحراز البطولة والمجد، أو تصفية حسابات ضيقة قد تأتي على الأخضر واليابس، وإنما هي علامة فارقة وسيرورة وجودية أمام تحديد إمبريالي يستند على نظريات عرقية تحتكر الأرض، وتستولي على المقدرات الباطنية، والخيرات الطبيعية، وتتولى استنزاف طاقات الأهالي، وتقذف بهم نحو لجج الاستعباد والإذعان، وترهن البلاد نحو إرادة الدولة الاستعمارية لتصبح الدولة المستعمرة جزءا تابعا لها كما هو دأب الاستعمار في كل زمان ومكان، وقد كان الخطابي مدركا لهذه المرامي بعد إقامته بمليلية واشتغاله مع الدوائر الاستعمارية لفترة من الزمن، الأمر الذي جعله ينتبه إلى الوسائل التي يحاول بها الاستعمار القيام بتجريد المغرب من وعيه الحضاري، ومن ثمّ فقدانه لوجوده، ولعلّ في رسالته إلى النخبة المغربية عقب معارك أنوال وتذكيره بالشعوب التي فقدت وجودها وانحى أثرها على مرّ التاريخ ما يجلي مرامي الاستعمار، فيقول: «كفانا موعظة واعتبارا ما وقع لإخواننا بالأندلس وما آل إليهم أمرهم من العز إلى الذل ومن الإيمان إلى الكفر، ففي مثل هذه الحالة يستعذب المؤمن الموت ويفضل العدم على البقاء، هكذا عهدنا أسلافنا وعرفنا من تاريخهم المجيد أنهم لا يرضون الخضوع والمسكنة، ولا يبتغون من الحياة إلا أن يعيشوا أحرارا، ويموتوا أبرارا¹»، ولذا كانت معارك أنوال تمثل استنفا للوعي الحضاري المغربي انصبت على رؤية إبداعية على غير ما درجت عليه الحروب السابقة التي غالبا ما تنحو إلى فكرة تحقيق الانتصار والبطولة فقط، بينما رامت أنوال تخليد فكرة البقاء، وفي هذا يقول مالك بن نبي الذي كان شديد التأثير بما حدث بأنوال ساعيا بجهده للالتحاق بالريف: «ولقد كان الأمير الأول عبد الكريم الخطابي آخر من ارتشف من كأس البطولة الموروثة عن أجدادنا الأول، ولم يبق بعده باق ممن يهبون للنضال ضد المستعمر، من أجل البطولة المجردة، في سبيل الخلود على سنة الذين عقدوا ألويتهم للكفاح؛ فقد كانت القبائل العربية والبربرية تقاتل معه لا من أجل البقاء، ولكن في سبيل الخلود، ولقد كتب لها الخلود بما أوتيت من روح رفعتها فوق الهاوية²»، وذلك بعدما استطاعت أن تخضع القوة التي امتلكها الاستعماريون بقوة الحق، «وهكذا تبين للمغاربة بالتجربة، ولأول مرة أنه بالإمكان ضرب السيطرة الاستعمارية الغربية إذا ما توفر التنظيم الجيد الفعّال³»، ولذا أدرك الشيخ أبو شعيب الدكالي هذا الأفق الحضاري الذي بدأ يسطع من ريف المغرب بعد علمه ولقياه بالوفد الريفي الذي أرسله محمد بن عبد الكريم الخطابي للسلطان يوسف لتبيان مرامي معارك أنوال، والتي يلخصها الخطابي في نداء له بالقول: «غايتنا الوحيدة ومقصودنا المنشود هو طرد الأعادي من تراب المسلمين والوصول إلى إصلاح شؤوننا ماديا وأديبا، لنحيي بذلك ما اندرس ونجدد مجد الأسلاف، وما ذلك ببعيد على رجال المغرب ومفكره إن قاموا قيام رجل واحد، وعملوا ما يحقق هذا الأمل بالقول والفعل⁴»، فعلى هذا الأساس استندت الرؤية الإصلاحية للخطابي في مساراتها المتعددة، ولعلّ أنوال كانت النافذة لولوج عالم الحضارة، بما قامت عليه من قيم ترنو لرفعة الإنسان وتحريره من السيطرة الأجنبية كشرط أساسي للبناء والارتقاء، لتتحول بعدها إلى أفق حضاري أرحب للمغرب،

¹ - عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ص 61.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، مالك بن نبي، ص 16.

³ - محمد زنيبر، "دور الخطابي في حركة التحرر الوطني بالمغرب"، مجلة الملتقى، العدد 42، مراكش، ص 91.

⁴ - محمد داود، تاريخ تطوان، مراجعة حسناء داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2009، مجلد 11، ص 247.

ولعلّه من سديد قول محمد عابد الجابري اعتباره المحطة التاريخية للخطابي منذ معارك أنوال تحولاً استراتيجياً في انبثاق الوعي المغربي؛ إذ يقول: «ولابد هنا من التأكيد على دور ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي بالريف (1921-1926) في هذا التطور. إن أصداءها المدوية التي كانت تصل إلى المدن والبادي، والتجاوب الواسع الذي لقيته من طرف الجماهير الشعبية ونخبها الواعية والذي كانت تغذيه وتعممه لجان الدعاية وجمع التبرعات للثورة، كل ذلك قد خلق جواً جديداً في المغرب كان من أبرز مظاهره الفكرية تحول الدعوة السلفية إلى حركة وطنية تدعو إلى التحديث والتحرر¹»، ومع بروز الدعوة السلفية الوطنية ذات الدلالات الحضارية العميقة التي قامت بمحاولات مضنية في سبيل رفعة شأن المغرب وتحديثه؛ ذلك أن «السلفية المغربية كانت تجديدية، بمواجهتها للطرقية ولل فكر الغيبي، وباستعابها النسبي لأسس الفكر الحدائي، الذي واجهته به الفكر الاستعماري²» وبالتالي تشييد مسببات الاستنهاض، والقطع مع زمن الركود والتطلع نحو المغرب الجديد.

فلم تقتصر آثار معارك أنوال على الجانب السياسي أو العسكري فحسب، بل امتدت إلى إنعاش الوعي الحضاري المغربي؛ فقد دفعت هذه المعارك العديد من المفكرين والناشطين إلى إدراك أهمية بناء مشروع حضاري متكامل قادر على التصدي للغزو العسكري والثقافي معاً، ونشأت قناعة جديدة بأن التحرير لا يكون فقد بالسلاح، بل بتجديد التعليم، وإحياء ما اندرس من أجداد المغاربة، وتعزيز هوية الانتماء، وبهذا ساهمت أنوال في بزوغ خطاب حضاري يربط بين مقاومة الاستعمار وبين ضرورة النهوض بالأمة في جميع مجالات الحياة.

ومع أن معارك أنوال أنعشت الوعي الحضاري المغربي، إلا أن هذا الوعي لم يكتف بالدعوة إلى الحفاظ على التراث والهوية فقط، بل بدأ يتجه نحو فكرة التجديد والإصلاح الشامل؛ فكانت أنوال بمثابة صدمة ثقافية إيجابية حثّت المثقفين والعلماء على مراجعة مفاهيم التقدم والتأخر، وأدركوا أن الاستقلال الحقيقي لا يكتمل دون تحديث مؤسسات التعليم، وإصلاح القضاء، وإنشاء الصحافة الحرة، وتشجيع العلوم الحديثة؛ وهكذا نشأت جمعيات ثقافية وجمعيات مدرسية سرية كانت تهدف إلى تعليم الشباب روح الوطنية والحداثة، بعيداً عن الأطر التقليدية الجامدة، كما برزت دعوات مبكرة إلى تعليم الفتيات، وتوسيع دائرة المشاركة الاجتماعية، مما شكّل نواة لنهضة فكرية لاحقة.

لقد كانت معارك أنوال بداية لتبلور مشروع حضاري مغربي خاص، يقوم على التوازن بين الأصالة والانفتاح، بين التشبث بالهوية الإسلامية والسعي إلى الاستفادة من منجزات العصر الحديث، وهو مشروع سيجد صده القوي لاحقاً مع حركات الإصلاح التي ستتسع خلال القرن العشرين.

¹ - محمد عابد الجابري، مواقف إضاءات وشهادات، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2005، ط1، ص78.

² - المصطفى بوعزيز، الوطنيون المغاربة في القرن العشرين، الارتباط العضوي بين السياسي والاجتماعي، أفريقيا الشرق، ط2، 2021، ص211-212.

خاتمة:

انطلاقاً مما سبق ذكره، وبعد هذه الجولة التاريخية في رحاب بعض التداعيات التي عرفتها معارك أنوال وتأثيراتها على الوعي المغربي؛ يتبين ما يلي:

— شكلت معارك أنوال نقلة كبرى على المستوى العالمي، وكانت لها تداعيات شملت كافة البلدان الاستعمارية، ووجدت فيها الدول المستعمرة أملاً للانفكاك من السيطرة الأجنبية، وذلك بسبب الإبداع الاستراتيجي الذي سارت عليه حيثيات المعركة.

— كما أن لمعارك أنوال صدى مغربي واسع، سواء عند سلطاته الاستعمارية الإسبانية والفرنسية أو جمهور المغرب، وقد لوحظ مدى التغيير الذي أحدثته في الجو العام المغربي، مما حدا بالنخب العلمية المجموعة في جملة من أهل الفكر والنظر والفقه والحل والعقد، والقادة والأعيان إلى تفاعلهم الآني مع المعارك وقائدها الخطابي.

— تنوعت وتعددت مظاهر التأثير الذي أحدثته معارك أنوال في الوعي المغربي، فشمّل ذلك مجال الكتابة بالدفاع المستमित عنها، وإبداع تعبيرات أدبية مثل الشعر والحكاية وغيرها، وقد امتد التأثير إلى خلق جبهات إسناد بالمال والسلاح لمجاهمة القوى الاستعمارية.

— كما برز أعلام في مختلف الحواضر المغربية خلدت تفاعلها مع معارك أنوال بالانضمام إلى صفوف المجاهدين، بل وتقلد الكثير منهم أدواراً قيادية عسكرية مهمة، وذلك بسبب ما مثّلته هذه المعركة من بدايات للتحرر من الأسر الاستعماري.

— يمكن اعتبار معارك أنوال الشرارة التي انبثقت على إثرها موجّهات حضارية امتدت عبر التاريخ للنهل من استراتيجيات التحرير لدى المغاربة في مختلف المحطات التاريخية، وبقيت آثارها تومض في الوعي المغربي أملاً ونموذجاً للتحرر.

وعلى سبيل الختم، فإن لأنوال ومثيلتها تأثيراً على الوعي المغربي لا يمكن عدّ جميع جوانبه ومظاهره، وكذا أعلامه ورموزه، وذلك لغياب الكثير من المستندات التي رافقت هذه المرحلة التاريخية، وما دُكر مجرد قبس قصير لا يمثل سوى النزر اليسير من تلك المرحلة.

المراجع والمصادر المعتمدة:

- عبد الله كموني، البعد الفكري في شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي، 2021، المغرب، طبعة خاصة.
- عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1984.
- عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط1، 2010.
- عبد اللطيف جبرو، المهدي بن بركة: الرياضيات مدرسة للوطنية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، بدون رقم الطبعة، 1995.
- فاطمة الجامعي الحبابي، "محمد بن عبد الكريم الخطابي في أحاديث أقطاب الفكر والنضال الوطني بالمغرب"، دار أبي رقرق، الرباط، 2013.
- فاطمة الجامعي الحبابي، محمد عبد الكريم الخطابي وقضايا مغرب اليوم، دار أبي رقرق، الرباط، 2013.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، سوريا، ط4، 2022.
- محمد إبراهيم الكتاني، ماذا استفاد المغرب من حرب الريف التحريرية، مجلة أمل، العدد8، 1996. - محمد داود، تاريخ تطوان، مراجعة حسناء داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2009، مجلد11.
- محمد زنيبر، "دور الخطابي في حركة التحرر الوطني بالمغرب"، مجلة الملتقى، العدد 42، مراكش.
- محمد عابد الجابري، مواقف إضاءات وشهادات، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط1، 2005.
- محمد العلمي، زعيم الريف محمد عبد الكريم الخطابي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2009.
- محمد عمر بلقاضي، أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي، مطبعة سلمى، الرباط، ط2، 2006.
- محمد المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، من مناهضة الطرقية إلى مقاومة الاحتلال، دراسة وإعداد، إدريس كرم، طوب بريس، الرباط، ط1، 2010.
- فرنسا وإسبانيا وحرب الريف، والتر هاريس، ترجمة حسن الزكري، مركز جسور للدراسات التاريخية والاجتماعية، 2025.

مركز المرأة المغربية سياسيا في المرجعيات الدستورية

حسناء أولكن

باحثة بسلك الدكتوراه

مختبر الأداء السياسي والدستوري، بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية

جامعة محمد الخامس بالرباط

إطار ممتاز بوزارة الداخلية

المملكة المغربية

الملخص:

تعرض هذه الدراسة، للفرصة التاريخية التي أحدثها دستور 2011 لترجمة الاختيارات التوافقية إلى جعل المغرب بلداً ديمقراطياً وحداثياً من خلال مقتضيات مهيكلة تحدف إلى ترسيخ دولة القانون التي تحترم حقوق الإنسان. ومن ثمة، جاء الدستور ليمنح المرأة المغربية كامل حقوقها بهدف رأب الهوة التي تكونت تاريخياً واجتماعياً وثقافياً بين الجنسين.

ومع ذلك، فإن تحقيق المناصفة يتطلب إصلاحات قانونية ومؤسسية مستمرة، بجانب إرادة سياسية قوية، وإعادة تأهيل المجتمع بأسره ليكون قادراً على تبني المساواة كمبدأ محوري في الحياة العامة، مما سيسهم في القضاء على التفاوتات التاريخية والاجتماعية بين النساء والرجال في المغرب.

الكلمات مفتاح: حقوق الإنسان _ الديمقراطية _ المرأة المغربية _ السابسة _ المساواة _ التفاوتات _ الدستور _ الإصلاحات القانونية.

Abstract:

This study examines the democratic transition in Morocco and the historic opportunity created by the 2011 Constitution to build a modern country through comprehensive political and legal reforms. Consequently, the Constitution grants Moroccan women their full rights, aiming to translate their aspirations into concrete provisions that strengthen the rule of law and respect for human rights. It also seeks to bridge the historical, social, and cultural gaps between men and women. Achieving gender parity requires ongoing legal and institutional reforms, strong political will, and the involvement of society as a whole to adopt equality as a core principle in public life. This will help eliminate the longstanding disparities between women and men in Morocco.

Keywords: Human rights, democracy, Moroccan women, equality, disparities, constitution, legal reforms.

مقدمة

أصبح موضوع المشاركة السياسية للمرأة يكتسب أهمية متزايدة في الدولة المعاصرة، واتسعت قاعدة تطبيقه بمرور الزمن. وقد شكلت الثورة الصناعية في أوروبا محطة حاسمة في تغيير وضعية المرأة، حيث عرفت هذه المرحلة طفرة نوعية مكّنت المرأة من انتزاع العديد من حقوقها، بما في ذلك الحقوق السياسية. ولم يقتصر هذا التأثير على أوروبا وحدها، بل امتد إلى العالم العربي بشكل عام، وإلى المرأة المغربية بشكل خاص¹.

وفي هذا السياق، ساهم الاهتمام الدولي بقضايا المرأة في تعزيز مكانتها، خاصة بعد إعلان سنة 1975 "السنة الدولية للمرأة"، وهو ما تُوّج بعقد مؤتمر نيروبي عام 1985 الذي هدف إلى النهوض بأوضاع المرأة وتمكينها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً بحلول سنة 2000. وقد أصبح عامل المشاركة السياسية للمرأة يُعدّ أحد المؤشرات الأساسية للتنمية البشرية، كما ورد في تقارير الأمم المتحدة حول التنمية، ما يبرز الترابط الوثيق بين تمكين المرأة وتحقيق التنمية المستدامة².

حيث شهد المغرب، في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، انطلاقة فعلية لتأسيس منظمات نسائية عصرية. وقد جاء هذا التطور نتيجة قرار اتخذه مجموعة من الناشطات داخل بعض أحزاب اليسار بتأسيس منظمات نسائية مستقلة عن الأحزاب السياسية، بهدف التركيز على قضايا المرأة والدفاع عن حقوقها بشكل أكثر استقلالية.

وفي هذا السياق، قامت مناضلات ينتمين إلى حزب التقدم والاشتراكية بتأسيس "الجمعية الديمقراطية لنساء المغرب" سنة 1985، كما أسست مناضلات من منظمة العمل الديمقراطي الشعبي سنة 1987 "جمعية اتحاد العمل النسائي". ولم يقتصر هذا الحراك على المنظمات المستقلة، بل شهدت بعض الأحزاب السياسية تأسيس منظمات نسائية داخل هياكلها، مثل "منظمة المرأة الاستقلالية" التي تأسست سنة 1988.

وخلال عقد التسعينيات، شهد المغرب توسعا ملحوظا في عدد الجمعيات والتنظيمات النسائية ذات الاهتمام بقضايا المرأة، خاصة من لدن نساء أغلبهن ذوات توجه يساري. وقد ركزت هذه التنظيمات جهودها على دعم الحقوق المدنية والسياسية للمرأة، والنضال من أجل تعديل التشريعات التي تُكرّس التمييز. ومن بين أبرز محاور اشتغالها، المطالبة بتعديل مدونة الأحوال الشخصية لعام 1957 التي كانت تطرح إشكالات متعددة بالنسبة للنساء، بالإضافة إلى العمل على مناهضة العنف ضد النساء وضمان المشاركة السياسية للمرأة.

وفي هذا الإطار، دعت هذه التنظيمات، منذ سنة 1992، إلى تبني آليات التمييز الإيجابي لفائدة النساء، بهدف تعزيز تمثيلتهن في المؤسسات المنتخبة، كإجراء مرحلي لمعالجة ضعف حضور المرأة في مراكز اتخاذ القرار، وضمان إدماجها الفعلي في الحياة السياسية.

توحي مقارنة موضوع المشاركة السياسية للمرأة المغربية بوجود هشاشة وضعف في الدور النسائي، حيث يتركز هذا الدور بشكل أساسي حول النخبة النسائية المثقفة. وعليه، فإن التمكين القانوني للمرأة المغربية يرتبط بضرورة توسيع وتعميق مكتسباتها وحقوقها العامة وحرّياتها الأساسية، من خلال مراجعة وتحسين النصوص القانونية التي تنطوي على أي شكل من أشكال الحيف أو التمييز ضد المرأة. وتزداد أهمية هذا المطلب في ظل ما يُعرف بـ"عولمة القاعدة القانونية"، والتي تفرض مراجعة مستمرة للترسانة القانونية

¹ مشاركة المرأة العربية في العمل السياسي: تحديات واقتراحات / الموقع unesqwa.org/ar/publications

² غانم حسن، الحقوق السياسية للمرأة في دول المغرب العربي - دراسة مقارنة- أطروحة دكتوراه علوم، قسم القانون العام .

القائمة، بهدف تحقيق انسجامها مع المعايير الدولية وتعزيز التمثيلية السياسية الفعلية والفاعلة للمرأة المغربية داخل المؤسسات التشريعية والمحلية¹.

وبالتوازي مع التمكين القانوني، يعد التمكين السياسي للمرأة مسألة جوهرية، إذ يستلزم إشراكها الفعلي في مسلسل اتخاذ القرار السياسي باعتباره شرطاً أساسياً لبناء دولة الحق والقانون، وركيزة محورية لترسيخ الديمقراطية وضمان احترام حقوق الإنسان. وفي هذا السياق، لا يمكن تجاهل التحول النوعي الذي شهدته التمثيلية النسائية في الانتخابات التشريعية لعام 2002، حيث اعتبر ذلك تطوراً إيجابياً في مسار المشاركة السياسية للمرأة المغربية².

غير أن هذا المكسب يظل هشاً ما لم يتم العمل على تحصينه عبر توفير ضمانات تشريعية قوية تسهم في الرفع من مستوى التمثيلية النسائية كمّاً ونوعاً. ويُعد تعزيز حضور المرأة في مواقع القرار السياسي ضرورة حتمية لضمان انخراطها الفاعل في مسار ترسيخ الديمقراطية وتعزيز مشاركة جميع الفئات في الحياة السياسية بالمغرب³.

تهدف هذه المقالة إلى تتبع التطور التاريخي لمطلب المشاركة السياسية للمرأة في السياق الدستوري المغربي، وهو مطلب بدأ في التبلور قانونياً خلال بداية التسعينيات، وجرى تحقيقه بشكل توافقي سنة 2002، قبل أن يُكرّس دستورياً من خلال دستور 2011. وتسعى المقالة إلى تحليل الفرص السياسية التي ميّزت كل مرحلة، حيث يُلاحظ أن هذه الفرص تتسم بالتغير وعدم الثبات؛ إذ تُفتح أحياناً نوافذ لإقرار مطالب الحركة النسائية، بينما تُغلق في أوقات أخرى.

ومع ذلك، تكشف دراسة هذه الحقب أن بداية كل مرحلة عادةً ما تشهد فرصاً سياسية أوسع مقارنةً بسابقتها، مما يمنح مطلب المشاركة السياسية للمرأة أسساً داعمة وإضافية تعزز مسار نضال الحركة النسائية نحو التمكين السياسي والدستوري.

إذا كانت أولى الفرص والمحاولات السياسية المتعلقة بالعمل السياسي النسائي ترجع إلى الباحثة زكية داوود، فإنها اقترحت تقسيم الاهتمام بقضايا النساء إلى أربع حقب زمنية متميزة⁴:

1. الحقبة الأولى: (1900 – 1956)

وهي مرحلة الاستعمار التي اتسمت بتعدد أشكال الهيمنة على النساء، سواء الهيمنة التقليدية المرتبطة بالبنية الاجتماعية والثقافية، أو الاستعمارية المفروضة من قبل سلطات الحماية. خلال هذه الفترة، لم تكن هناك مشاركة نسائية رسمية في الشأن السياسي، إذ طغت الأدوار التقليدية مع هيمنة القوى الاستعمارية وتهميش النساء عن المجال العام.

2. الحقبة الثانية: (1956 – 1999)

وهي مرحلة الاستقلال، والتي أطلقت عليها الباحثة زكية داوود اسم "الشتاء الطويل"، نظراً لما شهدته القضية النسائية خلال هذه الفترة من تقهقر وتفاوت⁵ بين آمال المرأة عقب الاستقلال وواقع الانتكاسات السياسية والاجتماعية. وعلى الرغم من

¹ العربي يعيش " التجربة المغربية في الطوكا النسائية، 1991-2015: دراسة سوسيو سياسية " اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ، كلية أكادال جامعة محمد الخامس، الرباط كلية أكادال 2022-2023 ، ص 1.

² يوسف أزروال، التمكين السياسي للمرأة من الإصلاحات السياسية - قراء في مؤشرات التطور و دلالات الممارسة ص 29.

³ العربي يعيش، مرجع سابق، ص 2.

⁴ نفس المرجع السابق، ص 3.

⁵ هذه الفترة تميزت بإعلان حالة الاستثناء، أطلق على هذه الفترة بسنوات الرصاص.

الإحباطات التي طبعته هذه المرحلة، فقد شهدت نهاية الثمانينيات "انفجار القدرات"، حيث ظهرت تنظيمات نسائية مستقلة خارج إطار الأحزاب السياسية، مثل:

- الجمعية الديمقراطية لنساء المغرب (1985)
- اتحاد العمل النسائي (1987)
- منظمة المرأة الاستقلالية (1988)

وفي هذه الفترة بدأ يتبلور بشكل واضح **المطلب النسائي** المتعلق بالمشاركة السياسية، كما بدأت الحركة النسائية تُطرح آلية الكوتا كوسيلة لضمان تمثيلية النساء في المؤسسات المنتخبة. غير أن هذه المطالب لم تجد أي صدى في الدساتير الصادرة خلال هذه المرحلة (1992 و 1996)، كما لم يشهد القانون الانتخابي لسنة 1997 أي تعديل يُدرج آلية التمييز الإيجابي، مما جعل الانتخابات تُجرى دون أي إجراءات داعمة لولوج النساء إلى مواقع القرار.

3. الحقبة الثالثة: (2000 – 2011)

وهي مرحلة الملك محمد السادس، وتُسمى "حقبة انتزاع المطلب"، حيث شهدت هذه الفترة ظهور فرص سياسية جديدة بفعل عوامل متعددة، من بينها:

- تزايد الاهتمام الدولي بقضايا المرأة.
- انتشار آلية الكوتا دوليًا كأداة لتعزيز المشاركة السياسية للنساء.
- التوصيات الأُممية الصادرة عن لجنة سيداو، التي دعت المغرب إلى اعتماد آليات لتعزيز التمثيلية النسائية في المؤسسات المنتخبة.
- وقد انعكست هذه العوامل على الساحة السياسية المغربية، حيث بدأت بعض الإصلاحات الجزئية في المجال القانوني والمؤسسي لدعم مطالب الحركة النسائية.

4. الحقبة الرابعة (2011 – إلى اليوم):

- بدأت هذه المرحلة مع حركة 20 فبراير، التي شكلت الامتداد المغربي لما عُرف بالربيع العربي. وتُعد هذه الحقبة منعطفًا حاسمًا في مسار الحقوق السياسية للنساء، إذ دفعت الأحداث إلى مراجعة دستورية شاملة توجت بدستور 2011، الذي نص على:
- تعزيز مشاركة المرأة في تدبير الشأن العام.
 - التنصيص القانوني على تيسير ولوج النساء إلى المهام الانتخابية¹.

وقد كشفت هذه المرحلة عن أثر الفرصة السياسية كعامل حاسم في تحقيق المطالب النسائية، حيث أدى ضغط الربيع العربي إلى تسريع الإصلاحات الدستورية التي تبنت العديد من مطالب الحركة النسائية. ومن اللافت أن هذا التعديل الدستوري لم يكن

¹ - أنظر الخطاب الملكي بتاريخ 9 مارس 20.

ضمن أجندات الفاعلين الرسميين أو مطالب الفاعلين غير الرسميين قبل 2011، بل جاء نتيجة تفاعل النظام السياسي مع المد الاحتجاجي الذي اجتاحت المنطقة العربية.

العوامل الخارجية و تأثيرها في المسار الدستوري المغربي:

لم يكن التطور الدستوري في المغرب بمعزل عن العوامل الخارجية، فقد كان لها دور محوري في دفع الإصلاحات. ويبرز هذا التأثير بشكل واضح في التقرير الشهير الذي أصدره البنك الدولي سنة 1995، والذي حذر من أزمة اقتصادية واجتماعية حادة قد تؤدي إلى السكتة القلبية إذا لم يُباشر المغرب بإصلاحات جذرية. وقد شكل هذا التقرير أرضية للخطاب الملكي أمام البرلمان في السنة نفسها، حيث دعا الملك الراحل الحسن الثاني جميع الأطراف السياسية إلى دراسة الوضع وتقديم مقترحات للإصلاح الدستوري. وقد استجابت الأحزاب السياسية لهذا النداء عبر تقديم مذكرات إصلاحية ساهمت في بلورة بعض التعديلات الدستورية لاحقاً.

تمشيا مع كل ما تم ذكره سابقاً، هل حاز موضوع التمثيلية السياسية للمرأة جانبا من الإصلاحات التي عرفتها دساتير ما قبل 2011؟ (المطلب الأول). وما هي أهم المستجدات المرتبطة بالتمثيلية السياسية للمرأة في ظل دستور 2011 (المطلب الثاني).

المطلب الأول: مركز المرأة الدستوري في دساتير ما قبل 2011

انطلق المغرب الحديث منذ استقلاله في مسيرة النضال لبناء دولة الحق والقانون وترسيخ الممارسة الديمقراطية، وهي مسيرة تجسدت من خلال اعتماد أول دستور¹ سنة 1962، الذي التزم فيه المغرب بمبادئ الشرعية الدولية وصادق عليه الشعب المغربي. وقد توالى بعد ذلك ستة دساتير، كان آخرها دستور 2011، الذي شكل محطة مفصلية في التاريخ الدستوري المغربي من خلال التنصيص على دسترة كافة حقوق الإنسان كما هو متعارف عليها عالمياً، مع الإقرار بسمو المواثيق الدولية على التشريعات الوطنية، في نطاق احترام أحكام الدستور وثوابت المملكة المستمدة من الدين الإسلامي.

وفي هذا الإطار، كرس المغرب في دستوره مبدأ المساواة بين الجنسين في الحقوق المدنية، كما نصّ صراحةً على تكافؤ الفرص وتعزيز مشاركة النساء في الحياة العامة من خلال إحداث آلية دستورية للنهوض بالمنافسة بين الرجل والمرأة². ويأتي هذا التوجه الدستوري استجابةً للالتزامات المغرب الدولية وانخراطه في منظومة حقوق الإنسان، حيث تبنت إصلاحات تشريعية طموحة تهدف إلى تحقيق المساواة الفعلية وتمكين النساء من الوصول إلى مواقع القرار³.

¹ يعد الدستور من أبرز سمات الدولة الكاملة السيادة ذات الاستقلال السياسي، فهو الذي يبين هويتها وفلسفتها في الحكم، ويحدد النظام الاجتماعي الذي يؤمن حقوق الفرد والجماعة ويتضمن تحديد دائرة اختصاص مؤسسات وأجهزة الحكم التشريعية والقضائية والتنفيذية، فالدستور في جوهره هو القانون الأسمى الذي يجسد اتفاق المجتمع في فلسفة وكيفية الحكم، فهو المجال الذي تتبلور فيه عقيدة الأمة وأصالتها ومقوماتها ومستوى حضارتها وطموحها، وبعبارة أخرى، هو مجموعة من القواعد القانونية التي تنظم شكل الدولة وطبيعتها ونظام الحكم السائد فيها ونظام تسييرها والمبادئ الأساسية فيها من حيث الحقوق والواجبات والحريات العامة والجماعية والفردية. فكل القوانين الأدنى يجب أن تكون متوحيّة لقواعده، ملتزمة باحترام مبادئه، مبنية على المبادئ والاختصاصات ونظم العلاقات بين المؤسسات وأجهزة الحكم، وهو لكل ذلك المصدر الأساسي لكل التشريعات، وله أثر مباشر في تشكيل ووضع السياسات العامة.

² خطاب الملك محمد السادس بتاريخ 17 يونيو 2011، "سلسلة لحصول قانونية معينة، العدد 21، الطبعة الثانية 2012.

³ تقرير مرصد الانتقال الديمقراطي لسنة 2002 "منشورات منتدى المواطنة 2003، ص 56.

وعلى الرغم من هذا التطور الملحوظ الذي شهدته أوضاع المرأة المغربية خلال العقود الأربعة الأخيرة، خاصة فيما يتعلق بمشاركتها الفعالة في مسارات التنمية واعتبار القضية النسائية إحدى القضايا ذات الأولوية في السياسات العمومية، إلا أن آليات التهميش والإقصاء والتمييز ما زالت قائمة على المستوى التشريعي والعمل¹.

وتظل هذه العوائق أحد أبرز التحديات التي تحول دون تحقيق اندماج اجتماعي متوازن وفعال، كما أنها تعرقل المشاركة السياسية الفعلية لنصف المجتمع في صنع القرار، مما يستدعي مواصلة الجهود لتفعيل الضمانات الدستورية وإرساء تشريعات منصفة تعزز موقع المرأة المغربية في مختلف المجالات.

على هذا الأساس، سنحاول من خلال هذه المطلب التطرق لوضعية المرأة المغربية على مستوى المرجعية الدستورية، لكن قبل ذلك لابد من التطرق لخلفية وظروف صدور أول دستور. وذلك برصد أهم إرهاصات التأسيس للعهد الدستوري (الفقرة الأولى) ثم بداية بروز الحقوق السياسية للمرأة في ظل الدستور الأول والدساتير اللاحقة (الفقرة الثانية).

الفقرة الأولى :ارهاصات التأسيس للعهد الدستوري

مباشرة بعد وفاة الملك محمد الخامس واعتلاء المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني عرش المملكة في مارس 1961م، أصدر الملك الحسن الثاني القانون الأساسي في ثاني يونيو 1961م، وذلك لملء الفراغ القانوني والدستوري الذي كانت تشكو منه المؤسسات. وكان ذلك بمثابة خطوة أولى نحو إعلان الدستور الأول للمملكة في سنة 1962،² والذي شكل محطة حاسمة في تنظيم الحياة السياسية والدستورية في المغرب بعد مرحلة الاستعمار، حيث جاء هذا القانون ليؤسس لمرحلة جديدة من التطوير المؤسسي ويحدد معالم المسار الدستوري الذي سيعتمده المغرب في السنوات التالية.

وقد حرص الملك في تلك الفترة على الوفاء بالالتزام الذي قطعه مع والده في خطاب يقول فيه للأمة: "لن أمضي سنة 1962م حتى نكون قد وفينا بوعدنا ووضعنا بمشاركة شعبنا دستوراً يحدد السلط وينظمها، ويمكن جميع الأفراد من أن يشاركوا بواسطة ممثلهم في تسيير الشؤون الوطنية ويراقبوا أعمال الحكومات التي ستشكل طبقاً للقانون"³.

أولاً : الفكرة الدستورية في عهد محمد الخامس

كانت المفاهيم الدستورية للملك محمد الخامس غامضة بعض الشيء بشأن طرق إعداد الدستور، إذ لم يكن قد حدد تفاصيل واضحة حول الآليات القانونية لذلك. إلا أنه أكد فيما يخص طبيعة النظام السياسي على ضرورة فصل السلط باعتباره أحد أسس النظام الدستوري. في عام 1956م⁴، أشار الملك إلى تكليف جمعية تأسيسية من أجل إعداد الدستور، وهي خطوة كانت تهدف إلى تأسيس نظام قانوني ودستوري حديث بعد مرحلة الاستعمار⁵.

¹ فدوى أزيندر: "المرأة والانتقال الديمقراطي بالمغرب"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في القانون العام، جامعة محمد الخامس، الرباط أكادال 2004-2005. ص 43.

² د. عبد العزيز لوزي، المسألة الدستورية و المسار الديمقراطي في المغرب، منشورات المجلة المغربية للإدارة المحلية و التنمية، 1996م. ص 48.

³ د. عبد الكريم غلاب، التطور الدستوري و النيابي بالمغرب (1908-1992م)، مطبعة النجاح الجديدة، 1998م، ص 191.

⁴ د عمر بندورو، النظام السياسي المغربي، الطبعة الأولى 2002م، مطبعة النجاح الجديدة، ص 34.

⁵ فدوى أزيندر مرجع سابق.

أما الأحزاب السياسية، فقد كانت في تلك الفترة تفتقر إلى مشروع دستوري واضح، إذ لم تحدّد برامجها السياسية في هذا المجال إلا بعد أن تم تهميشها من طرف الملك¹، مما ترك الفضاء السياسي يعاني من فراغ دستوري فاقم من ضعف تأثير الأحزاب في رسم معالم الدستور المغربي الجديد.

في سنة 1957م، أكد الملك الراحل أمام أعضاء لجنة تدوين الأحوال الشخصية على أن "أكبر وسيلة لجعل مجتمعنا المغربي سعيداً هي إقامة شرعية العدل بين أفرادهم وضمان حقوقهم وصيانة حرياتهم". كما أضاف قائلاً: "لا يخفى أننا أمة عريقة في ميدان التشريع، نملك من الثراء التشريعي ما يغنينا عن اتخاذ قوانين موضوعة لدولة أخرى. ومع ذلك، ما ينقص هذه الثروة التشريعية هو إظهارها بالشكل الحقيقي بعيداً عن التأويلات العقيمة والعادات الفاسدة التي التصقت بها. وقد أصبحت بعض هذه المضافات جزءاً من الشريعة الإسلامية بحكم تداولها عبر العصور، بينما أخرج بعضها تطور البلاد ورفيها²."

تماشياً مع ذلك، اعتُبرت الحقوق السياسية للمرأة في المغرب مكسباً تحقق منذ السنوات الأولى للاستقلال، حيث منح هذا الحق للمرأة بمقتضى ظهير الحريات العامة الذي صدر في 25 نونبر 1958، والذي أقر بالمساواة التامة بين الرجل والمرأة في ممارسة الحقوق السياسية والحريات العامة³. كما منح هذا الحق أيضاً بمقتضى ظهير شتبر 1959 المنظم للانتخابات البلدية والقروية الأولى التي شهدتها المغرب في 29 ماي 1960⁴.

وفي سياق الإصلاحات الدستورية، أعلن الملك محمد الخامس عن تأسيس مجلس الدستور بمقتضى ظهير 3 نوفمبر 1960م⁵، الذي خول الملك حق تعيين جميع أعضائه. كما أقر الظهير ضرورة خضوع مشروع الدستور الذي يعده المجلس إلى موافقة الملك قبل عرضه على الاستفتاء الشعبي. جاء في هذا الظهير: "يُحدث لدى جنابنا الشريف مجلس للدستور، تُسند إليه مهمة وضع دستور مملكتنا الشريفة... وتقديم هذا النص إلى جنابنا الشريف قصد المصادقة عليه... وإن الدستور سيعرض، بعد موافقة الملك عليه، على الشعب بواسطة الاستفتاء، ويُجرى العمل به بعد أن يقبله الشعب⁶."

وقد عين الملك ممثلين عن مختلف الأحزاب الشعبية، إلا أن أعضاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية و الاتحاد المغربي للشغل رفضوا حضور جلسات المجلس، مما حال دون تمكينه من أداء مهامه. تعمقت هذه الصراعات بين الأحزاب السياسية، خاصة بعد انتخاب علال الفاسي، زعيم حزب الاستقلال، على رأس المجلس. هذا القرار دفع ممثلي الحركة الشعبية و حزب الشورى والاستقلال إلى الانسحاب من المجلس⁷.

وبينما كان خصوم المجلس التأسيسي يرون ضرورة أن يكون هذا المجلس منتخباً، كان الذين قبلوا المشاركة يرون أن من الأفضل التشريع لوضع الدستور، معتبرين أن البلاد التي تخطو ببطء نحو الديمقراطية يجب أن تستغل هذه الفرصة وتتمسك بمجلس منتخب. ومع ذلك، كانت هناك شكوك حول ضمانات إجراء انتخابات حرة تضمن وضع دستور صالح للبلاد.

¹ إذ عمر بنذورو، مرجع السابق، ص 34

² سلسلة نصوص قانونية محينة: خطاب المغفور له الملك محمد الخامس أمام أعضاء لجنة مدونة الأحوال الشخصية بتاريخ 19 أكتوبر 1957، العدد 21، 2012، ص 3.

³ ركلمة أمين: تأصيل مقارنة النوع في دستور 2011، مجلة مسالك في الفكر والسياسة والاقتصاد، عدد مزدوج 23-24، 2013، ص 37.

⁴ أنظر: المصادق رقية: المرأة والسياسة التمثيل السياسي في المغرب، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1990، ص 25.

-المرايط فدوى: المرأة والمشاركة السياسية نموذج المغرب، المجلة الدولية، العدد 5، 2009،

⁵ ظهير 3 نونبر 1960م.

⁶ د. عبد الكريم غلاب، التطور الدستوري و النيابي بالمغرب (1908-1992م)، مطبعة النجاح الجديدة، 1998م، ص 184.

⁷ د. عمر بنذورو، النظام السياسي المغربي، مرجع سابق، ص 36.

لكن، بسبب العراقيل والصراعات المذكورة، تم تجميد أعمال هذا المجلس ولم يجتمع بعد ذلك أبداً، ليظل مصير هذه المحاولة غير مكتمل. انتهت هذه المرحلة بالفشل، مما جعل المسألة الدستورية قضية مطلقة تحتاج إلى حل جذري. فكيف تجلّى هذا الحل؟

ثانيا : القانون الأساسي للمملكة

على إثر الوضعية التي آل إليها مجلس الدستور، ورغبة منه في سد الفراغ الدستوري وإعلانه ممارسته للسلطة التأسيسية، قام الملك الحسن الثاني بوضع قانون أساسي للمملكة عام 1961م. ورغم اعتراف هذا القانون بعدد من الحقوق والحريات، إلا أنه لم يعط أي إشارة إلى طبيعة النظام الدستوري المستقبلي أو إلى طرق إعداد الدستور الجديد. وقد أثار هذا القانون نقاشاً جاداً بين القوى السياسية، إذ هناك من رأى فيه خطوة هامة على درب الديمقراطية، مثل حزب الاستقلال الذي يرى أن الفضل في وضع هذا القانون يرجع إلى علّال الفاسي¹، في حين انتقد حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية هذا القانون معتبراً أن المطلب الأساسي للشعب هو الدستور وليس القانون الأساسي. وقال المهدي بن بركة في هذه المناسبة إن الأمر لا يتعلق بتدعيم نظام قائم بإخفاء مظاهر المشروعية عليه، ولكنه يتعلق بتجديد بنيات دولته المناسبة لحاجيات البلاد وذلك بوضع دستور ديمقراطي². وتماشياً مع ذلك، طالب الحزب المذكور بإنشاء مؤسسات تمثيلية تلي رغبة الشعب الأكيدة في المشاركة السياسية، وبوضع دستور ديمقراطي من طرف مجلس تأسيسي منتخب، وأن تقوم الحكومة على أسس تجعلها قادرة على تحمل مسؤوليتها أمام الملك وأمام الرأي العام³.

إن الجدل الدستوري حول قانون 1961 يعكس الانقسام بين القوى السياسية حول دور الملك في تحديد المسار الدستوري للمملكة. فبينما كان البعض يرى في هذا القانون خطوة ضرورية لضمان استقرار النظام السياسي في فترة الفراغ الدستوري، اعتبر آخرون أن العملية كانت تستهدف تأييد هيمنة الملكية على القرارات السياسية. من جانب آخر، أكد حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية أن الشعب هو صاحب الحق في تحديد مستقبله الدستوري، وأن تشكيل مؤسسات ديمقراطية تمثل الإرادة الشعبية هو الأساس في بناء دولة المؤسسات. كانت تلك الدعوة للتأسيس لدستور ديمقراطي يعكس تطلعات الشعب المغربي، بعيداً عن التركيز السلطوي الذي ميز مرحلة ما قبل الاستقلال، حيث كانت المؤسسة الملكية تتحكم بشكل مباشر في تحديد ملامح النظام السياسي⁴.

بينما كانت قوى سياسية أخرى ترى أن الملكية تمثل الضمانة الاستراتيجية للبلاد في سياق حساسية المرحلة، خصوصاً بعد الاستقلال وبداية بناء الدولة الحديثة، فإن المعارضة السياسية كانت تأمل في دور أكبر للمؤسسات المنتخبة. تلك المعارضة، التي كان يقودها حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، طالبت أن يتم إعداد الدستور من طرف مجلس تأسيسي منتخب، وهو ما يتماشى مع فكرة أن الشعب هو الذي يحدد المسار الديمقراطي. وكان ذلك يتوافق مع الأفكار الديمقراطية التي كانت تروج لها بعض القوى السياسية التي كانت تشعر أن هناك حاجة ملحة للتخلص من الطابع المركزي للسلطة الذي كان سائداً في المملكة، وأن التأسيس الدستوري يجب أن يتضمن شرعية شعبية كاملة لضمان المصداقية والقبول الشعبي⁵.

¹ د. عبد الكريم غلاب، التطور الدستوري و النيابي بالمغرب، مرجع سابق، ص 187.

² زين العابدين حمزاوي: النخبة السياسية مسألة الثبات و التحول في النسق السياسي المغربي، كلية العلوم القانونية و الاقتصادية و الاجتماعية، جامعة محمد الأول، وجدة، أطروحة لنيل دكتوراه في القانون العام 2003م - 2004م، ص. 176.

³ سناء زعيمي: "الوضع القانوني للمرأة المغربية بين الكونية والخصوصية"، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية فاس- ظهر المهرز- 2005-2006، ص. 12.

⁴ نفس المرجع السابق

⁵ نفس المرجع السابق

في الوقت نفسه، اتخذ الملك الحسن الثاني مسارًا مختلف عن هذا الطرح. فبدلاً من الاستجابة للمطالب الشعبية بتأسيس مجلس تأسيسي، تم اللجوء إلى إعداد الدستور من قبل السلطة الملكية بمساعدة اللجنة الاستشارية، وهو ما فتح باب الجدل حول شرعية هذا الإجراء من الناحية السياسية. في حين أن الدستور لم يأت ليمنح للملك صلاحيات لا حدود لها، إلا أن مسطرة إعداداته وما صاحبها من غياب تمثيلية حقيقية للمجتمع السياسي كانت محوراً رئيسياً للنقد. وقد أكد المعارضون أن الشعب المغربي كان يحتاج إلى دستور يُعده ممثلون عنه، وهو ما يضمن التوازن السياسي بين السلطة الملكية و المؤسسات المنتخبة¹.

تجلى هذا التوتر بين الشرعية الملكية و المطالبة الشعبية في استفتاء 1962م الذي تمت فيه المصادقة على الدستور بموافقة شعبية عالية، رغم انتقاد جزء كبير من الأحزاب لذلك الأسلوب في إعداد الدستور. وبذلك، أصبح الدستور المغربي في 1962 أول دستور يحدد بنية الدولة المغربية في فترة ما بعد الاستقلال، لكنه في الوقت نفسه لا يزال يحمل في طياته علامات تساؤل حول مدى تمثيل القوى السياسية الأساسية فيه².

إن هذا الجدل حول الشرعية الدستورية والإعداد الدستوري للمملكة لم يختف بعد دستور 1962م، بل استمر حضور هذه الأسئلة الجوهرية في العديد من الدساتير اللاحقة، بما فيها دستور 2011 الذي عمل على فتح العديد من النقاشات الديمقراطية وجعل المرأة المغربية جزءاً من الحوار الوطني حول حقوق الإنسان و التمثيلية السياسية.

وفي الحقيقة، فإن الأمر لم يكن مجرد مسألة مسطرية فحسب، بل كان يتعلق بشكل أساسي بميزان القوى، حيث شهدت هذه المرحلة بروز ملامح تقوية مركز المؤسسة الملكية في المغرب، وقيامها بدور محوري داخل الحقل السياسي على حساب القوى السياسية المعارضة. في هذا السياق، لم تقتصر المؤسسة الملكية على الجوانب القانونية والمؤسسية فقط، بل وضعت أيضاً آليات سياسية تهدف إلى تعزيز سلطتها. على الرغم من أن قانون 1961 قد نص على العديد من الأسس الدستورية التي تضمن حقوق المواطنين مثل المساواة في الحقوق والواجبات، والتزام الدولة بصيانة كرامة الأشخاص وكفالة الحريات الخاصة والعامة، إلا أنه فشل في معالجة قضايا مهمة تخص النظام السياسي و البنية المؤسسية للدولة. هذا الفشل دفع في النهاية إلى ظهور دستور 1962 الذي كان يعد محاولة لتجاوز تلك الثغرات.

أما فيما يتعلق بمسألة المجلس التأسيسي، فقد كانت العراقيل التي وضعت في طريقه من قبل من لا يرغبون في إرساء نظام ديمقراطي في المغرب، قد حالت دون نجاحه، بحسب قول أحد رواد حزب الاستقلال. وكان حل هذه الإشكالية يتضمن اختيارات عدة. الأولى كانت أن يُنتار مجلس تأسيسي، وهو أحد الأساليب الأساسية لوضع الدساتير، وهو ما كان يشير إليه التزام الملك محمد الخامس عندما أعلن قائلاً: "بمشاركة شعبنا". أما الاختيار الثاني فكان أن يتم تشكيل لجنة لوضع الدستور، على أن تكون أقل توسعاً من المجلس التأسيسي وتعتمد على الخبرة العملية بدلاً من التمثيل الشعبي. وأما الاختيار الثالث، فكان أن تلجأ السلطة الملكية إلى صلاحياتها المطلقة في التشريع والتنفيذ، بحيث يتم إعداد الدستور من قبل الملك نفسه أو عبر حكومته مستعينة بالخبراء الذين تختارهم³.

¹ د. عبد الكريم غلاب، التطور الدستوري و النيابي بالمغرب، مرجع سابق، ص 191.

² د. عمر بنذورو، النظام السياسي المغربي، مرجع سابق، ص 36.

³ د. عبد الكريم غلاب، مرجع سابق

من جانبه، كان للملك الحسن الثاني رؤية واضحة حول المسطرة الدستورية حينما كان ولياً للعهد، حيث صرح في غشت 1960 أمام التلاميذ المتخرجين من ثانوية أزرو بأن الدستور سيتم إعداده من طرف أشخاص مختارين من قبل الملك، وأنه سيُعرض لاحقاً على التصويت الشعبي. وقد اتبع الملك الحسن الثاني المسطرة التي أعلن عنها مسبقاً، حيث تم تقديم مشروع الدستور في خطاب موجه إلى الشعب في نوفمبر 1962، وتم نشر المشروع في الجريدة الرسمية في 5 نونبر من نفس السنة، ليُعرض بعدها على الاستفتاء الشعبي في 7 دجنبر 1962. وبعد المصادقة عليه، تم إصداره في 14 دجنبر 1962.

هذا الإجراء يوضح بشكل جلي الخلاف السياسي العميق حول أسس المشروع والدعائم الأيديولوجية للنظام السياسي في تلك الحقبة، ويبرز التساؤلات حول أسمى سلطة في البلاد. فالمؤسسة الملكية قد بذلت جهوداً كبيرة بين 1956 و 1962 لاستبعاد صفة الجمعية التأسيسية، لأن هذه الأخيرة، في حالة ما إذا كانت منتخبة وذات سيادة، كانت ستشكل تهديداً كبيراً على استمرارية المؤسسة الملكية. وكان من المحتمل أن تقوم الجمعية التأسيسية بالحد من صلاحيات الملك، وبالتالي تقليص دوره إلى دور شرطي¹.

وقد علل المقربون من الملك المسطرة التي تم اتباعها استناداً إلى حجتين رئيسيتين: الأولى هي أن الملك هو مالك السيادة في البلاد، وبالتالي فإن المجلس التأسيسي، إن كان هو صاحب السلطة العليا، سيؤدي إلى نقل السيادة منه إلى هيئة منتخبة، وهو ما يعتبره البعض خرقاً للمفهوم التقليدي للملكية في المغرب. أما الحجة الثانية فكانت أنه لا يمكن للملك أن ينقل السلطة العليا في البلاد إلى مجلس تأسيسي، لأن ذلك يعني تنازله عن العرش واستقالته من منصبه، وهو ما يصعب تحمله من الناحية السياسية والعملية.

لكن الحجة الأخيرة لم تكن قوية بما فيه الكفاية، لأن النظام المغربي كان يعتمد في أساسه على البيعة التي، من مميزاتها، إتاحة سحب الثقة من السلطان إذا لم يكن قادراً على تحمل أعباء الحكم². ومع ذلك، كانت السلطة الملكية تعتبر نفسها الحارس الأمين للسيادة الوطنية، وأنها تمتلك الحق في تحديد طريقة إعداد الدستور بشكل يضمن عدم المساس بالهيكل السياسي القائم.

في سياق الجدل حول المسألة الدستورية في المغرب، كان هناك خلاف حاد بين التيارين الذين تناولوا طريقة وضع الدستور في فترة ما بعد الاستقلال. الأول يرى أن السلطة العليا يجب أن تكون في يد مجلس تأسيسي منتخب من قبل الشعب، وهو الموقف الذي تبناه العديد من الأحزاب السياسية، وفي مقدمتها الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. هذا الحزب اعتبر أن إعداد الدستور يجب أن يتم بواسطة ممثلين منتخبين من الشعب عبر جمعية تأسيسية. بالنسبة لهذا الاتجاه، كانت المشكلة الجوهرية في العملية تتمثل في المسطرة المتبعة لإعداد الدستور، حيث اعتبروا أن الملك ليس من حقه أن يضع الدستور بنفسه، بل كان يجب أن يقتصر دوره على تسهيل هذه العملية وتوفير الإطار المناسب لتفعيل الشرعية الديمقراطية³.

أما الاتجاه الثاني، فقد تبني المفهوم التقني لوضع الدستور، حيث تم تبرير ضرورة تدخل الملك في وضع الدستور بناءً على الاعتقاد بأن هذه العملية كانت معقدة وتحتاج إلى خبرة فنية وعلمية عالية في مجال الدساتير. وفقاً لهذا الموقف، كانت المؤسسة الملكية تلعب دوراً محورياً في إعداد الدستور، نظراً لما لها من شرعية تاريخية واستناداً إلى السلطة العليا التي كانت موجودة في البلاد قبل وضع الدستور. الخبراء الدستوريون والمستشارون المغاربة والأجانب الذين استشارهم الملك، بالإضافة إلى اللجان الحكومية التي

¹ Agnouche abdellatif : Histoire du maroc : op . cit, p 313 .

² د. عمر بنذورو، النظام السياسي المغربي، مرجع سابق، ص 37.

³ زين العابدين حمزاوي: النخبة السياسية مسألة الثبات و التحول مرجع سابق، ص 208.

شكلها الملك، كان هدفهم الأساسي هو الوصول إلى دستور تقني يحقق الاستقرار ويعكس التوازن بين السلطات. وبذلك، فإن عملية وضع الدستور تحت إشراف الملك والمؤسسة الملكية كانت بمثابة محاولة لضمان الاستمرارية السياسية من دون المساس بالشرعية الملكية.

وعلى الرغم من الجدل الذي رافق إعداد الدستور، فقد تم المصادقة على المشروع بنسبة 97.86% من الأصوات المعبر عنها، ليصبح المغرب بذلك صاحب أول دستور حديث بعد الاستقلال.

لكن السؤال الأهم الذي يطرح نفسه يتعلق بحقوق السياسية للمرأة المغربية في هذا الدستور. هل كانت المرأة المغربية محط اهتمام في إطار الحقوق السياسية داخل الدستور المغربي لعام 1962؟

في الحقيقة، لم ينص دستور 1962 بشكل واضح على حقوق المرأة السياسية، رغم بعض الوعود التي كان قد تبناها الملك في خطابه وتصريحاته العلنية حول حقوق المرأة ومشاركتها في الحياة السياسية. الدستور في ذلك الوقت كان يتسم بالحذر من حيث الاعتراف بحقوق المرأة السياسية، حيث لم يُشر إلى تمثيل المرأة في المؤسسات السياسية مثل البرلمان أو الحكومة بشكل صريح، ولا تم تضمين حصّة نسائية واضحة في التمثيل السياسي. في هذا السياق، كان تأثير البيئة الثقافية والاجتماعية التقليدية على الحقوق السياسية للمرأة لا يزال حاضراً، حيث لم يتم بشكل فعلي إقرار مشاركتها الكاملة والمتساوية مع الرجل في المجال السياسي.

تأثر هذا الأمر بالواقع السياسي والاجتماعي للمغرب في تلك الحقبة، حيث كانت هناك حواجز ثقافية واجتماعية تعوق مشاركة المرأة في الحياة العامة والسياسية، ما جعل تمثيلها في الهيئات السياسية أقل بكثير مقارنة بالرجال. لكن مع مرور الوقت، ومع التغيرات الاجتماعية والسياسية التي مر بها المغرب، بدأت المطالب بتوسيع حقوق المرأة السياسية، والتي كان دستور 1962 بمثابة خطوة أولى نحو الاعتراف التدريجي بهذه الحقوق.

إذن، بينما لم يكن للمرأة نصيب كبير في الحقوق السياسية في دستور 1962، فإن هذا الدستور يُعتبر نقطة انطلاق نحو مسار طويل في النضال من أجل تحقيق المساواة السياسية والاجتماعية بين الرجل والمرأة في المغرب، وهو ما تجسّد أكثر في الدساتير اللاحقة، مثل دستور 1996 و دستور 2011.

الفقرة الثانية : الحقوق السياسية للمرأة في ظل الدستور الأول و الدساتير اللاحقة

يعد الحق السياسي من أهم الحقوق التي يقرها القانون للأفراد على أساس انتمائهم الوطني، حيث يرتبط التمتع بهذه الحقوق عادةً بشرط الجنسية. بمعنى أن هذه الحقوق تكون مقتصرة على المواطنين دون الأجانب. وتجمع الحقوق السياسية بين مفهوم الحق والواجب، إذ إنهما من جهة تمثل حقاً للأفراد في التعبير والمشاركة، ومن جهة أخرى تُعتبر واجباً عليهم من أجل المشاركة الفعالة في صنع القرار السياسي.

تتجلى الحقوق السياسية في مجموعة من الممارسات التي تهدف إلى تكوين الإرادة الجماعية للأمة، ومنها المشاركة في الانتخابات والاستفتاءات، سواء كان ذلك من خلال إبداء الرأي عبر التصويت أو من خلال الترشيح لعضوية الهيئات النيابية والمحلية. وبالتالي، يتاح للمواطنين المشاركة بشكل مباشر في تشكيل المؤسسات السياسية وصنع القرارات التي تؤثر في حياتهم اليومية.

تشمل الحقوق السياسية أيضاً:

• الحق في إبداء الرأي في الانتخابات والاستفتاءات بأنواعها المختلفة، مما يسمح للمواطنين بالتعبير عن اختياراتهم في الأمور السياسية.

• الحق في الترشيح لعضوية الهيئات النيابية والمحلية، مما يمكن المواطنين من الترشح لتمثيل مصالحهم في المجالس المختلفة.

• الحق في الترشيح لرئاسة الدولة، وهذا يشمل جميع الحقوق التي تتيح للأفراد الترشح للمناصب العليا في الدولة.

من هنا، يمكن القول إن الحقوق السياسية تتضمن المشاركة الفاعلة في النظام السياسي، سواء من خلال التصويت أو الترشح أو المشاركة في اتخاذ القرارات السياسية.

فيما يتعلق بالمرأة المغربية، فقد أقر الدستور المغربي لأول مرة بعد الاستقلال حقوقاً سياسية للمرأة، بما في ذلك الحق في التصويت والمشاركة في الانتخابات. على الرغم من أن دستور 1962 لم يشر إلى المساواة التامة بين الرجل والمرأة في الحقوق السياسية، إلا أنه مثل خطوة أولى نحو الاعتراف بالحقوق السياسية للمرأة.

هذا الدستور سمح للمرأة المغربية بالمشاركة في الانتخابات، وإن كانت المشاركة السياسية للمرأة في هذا السياق كانت محدودة، حيث لم تكن هناك حوافز قانونية تشجع على مشاركة المرأة بشكل كامل في الحياة السياسية. إلا أن هذا الحق في المشاركة كان له تأثير تدريجي على تمثيل المرأة في المؤسسات السياسية، وقد شهدت السنوات اللاحقة تغييرات تدريجية في هذا المجال، بما في ذلك الزيادة في عدد النساء المنتخبات إلى المجالس النيابية.

إذن، في أول دستور مغربي بعد الاستقلال، كان للمرأة المغربية حق التصويت وهو جزء من الحقوق السياسية التي كفلت لها المشاركة السياسية، على الرغم من أن الطريق نحو تحقيق مساواة تامة في هذا المجال كان طويلاً.

أولاً: التنصيص على الحقوق السياسية في دستور 1962

لقد تأخرت التشريعات الوضعية في الاعتراف بالحقوق السياسية للمرأة مقارنة بالرجل، وكان هذا التأخير نتيجة لعدة عوامل ثقافية واجتماعية و سياسية التي كانت تفرض على المرأة أدواراً محدودة في المجتمع. ومع ذلك، لم يتوقف السعي من قبل المرأة للحصول على هذه الحقوق، فقد جاهدت لعدة عقود من أجل أن تُمنح نفس الحقوق التي يحصل عليها الرجل، من حق المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية إلى حق التساوي مع الرجل في الكرامة الإنسانية. هذه الجهود الكبيرة التي بذلت من قبل الحركات النسائية تظل جزءاً من التاريخ النضالي الذي ساهمت فيه القلة من المناضلات اللاتي حملن همّ تحقيق هذه الحقوق.

فيما يخص المغرب، فقد كانت الحقوق السياسية للمرأة خطوة مهمة نحو تحقيق الكرامة الإنسانية والاعتراف بقدرتها على المشاركة في الحياة العامة. وكان الدستور المغربي لسنة 1962 قد منح المرأة حق التصويت مباشرة مع الرجل في أول نص دستوري بعد الاستقلال. وهذا يعد سابقاً على كثير من الدول الأوروبية التي تأخرت في منح المرأة حق التصويت. على سبيل المثال، في فرنسا تم منح حق التصويت للرجال في عام 1848، ولكن لم يتم منح المرأة هذا الحق إلا في عام 1944¹. هذا التفاوت في الزمن بين الدول الأوروبية و المغرب يبرز الجهود العظيمة التي بذلتها المرأة المغربية والنضالات التي خاضتها للحصول على هذا الحق.

¹ د. رقية لمصدق، المرأة و السياسة، التمثيل السياسي بالمغرب، مرجع سابق، ص 24.

وقد نص الدستور المغربي 1962 في فصوله على المساواة بين الرجل والمرأة في التمتع بالحقوق السياسية. على سبيل المثال، ينص الفصل الخامس على أن المواطنين بغض النظر عن جنسهم، يتمتعون بنفس الحقوق السياسية، ويحق لهم التصويت والترشح في الانتخابات. كما نص الفصل الثامن على أن المواطنين (ذكورا وإناثا) يحق لهم تأسيس الجمعيات والانخراط في المنظمات النقابية والسياسية. أما الفصل التاسع فينص على الحق في تقلد المناصب العمومية، حيث يتمتع الجميع بنفس الفرص في الوصول إليها. ومن خلال هذه النصوص، كان الهدف تكريس المساواة بين الرجل والمرأة على مستوى الحقوق السياسية، سواء في الانتخابات أو التمثيل السياسي¹.

أهمية المادة الثامنة من الدستور المغربي تكمن في أن المشرع اعتبر المرأة مواطنة كاملة مثل الرجل من حيث الحقوق السياسية. وجود هذه المادة في الباب الأول من الدستور المتعلق بالمبادئ الأساسية يعكس الطابع المبدئي للمساواة. فهي تأخذ بعدا دستوريا ساميا يجعلها أقوى من أي قانون آخر قد يتعارض مع هذه المساواة.

لكن، السؤال الذي يطرح نفسه هو هل تم تكريس هذه النصوص في الواقع؟ هل المساواة المنصوص عليها في الدستور هي مساواة حقيقية؟ وهل تعكس الرغبة في بناء ليبرالية سياسية حقيقية أم أن هذه المساواة كانت مساواة شكلية؟ بمعنى آخر، هل تم إقرار حق التصويت للمرأة بشكل يُكسبها من ممارسة تأثير فعلي في إدارة الشأن العام، أم أن التصويت للمرأة كان بمثابة التصويت للرجل ليقوم هو بدور الممثل الفعلي في الحياة السياسية؟

على الرغم من النصوص الدستورية التي تعترف بالمساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق السياسية، فإن الممارسة العملية أظهرت تحديات كبيرة. فالمرأة المغربية، على الرغم من حقها في التصويت والترشح، كانت تجد نفسها في مراكز هامشية في المجال السياسي. كما أن المشاركة الفاعلة للمرأة في الانتخابات والمجالس التشريعية كانت لا تزال محدودة، وهو ما يعكس التحديات الثقافية والاجتماعية التي لا زالت تقيد دور المرأة في الحياة السياسية.

أما بالنسبة للدساتير المتعاقبة على المملكة المغربية، فقد شهدت تطورات في الحقوق السياسية للمرأة، ولكن لم تصل إلى مساواة كاملة في معظم الأحيان. فالدستور 1962 أعطى المرأة حق التصويت لكن مع مرور الزمن، وخاصة مع الدستور 2011، بدأ يتم التأكيد على تعزيز مشاركة المرأة بشكل أكبر في الحياة السياسية والاقتصادية. هذا الدستور أقر المزيد من الحقوق التي تهدف إلى تعزيز دور المرأة في الشأن العام.

إذن، مع تطور الدساتير المغربية، تم تعزيز مكانة المرأة في المجال السياسي بشكل تدريجي، إلا أن التمثيل الفعلي للمرأة في الهيئات السياسية لم يتحقق بعد بشكل كامل، ولا زالت العوامل الاجتماعية والثقافية تلعب دورا في الحد من تمثيل المرأة بشكل مؤثر في القرار السياسي.

ثانيا : التنصيص على الحقوق السياسية للمرأة في الدساتير المغربية اللاحقة

لقد كان حضور المرأة في النظام المغربي وتطوراته نقطة محورية، حيث كان المشرع المغربي يعمل على تمكين المرأة من الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية بشكل تدريجي، لتكون في مساواة مع الرجل في تلك الحقوق. وقد تم تضمين مبدأ المساواة

¹ دستور المملكة المغربية لسنة 1962م.

في الفصل الثامن من الدستور المغربي الذي يعتبر مواطنة المرأة أساسًا للمساواة في الحقوق السياسية مع الرجل. هذا الفصل، الذي يضمن المساواة بين الجنسين، يعتبر أحد النصوص البارزة التي تناولت قضية المرأة في النظام الدستوري المغربي. يتضح من ذلك أن المرأة في المغرب قد حصلت على حقوق سياسية متقدمة مقارنة بكثير من البلدان العربية.

الفصل الثامن من الدستور المغربي 1962 يكمن في معالجته لقضية المساواة بين الرجل والمرأة على مستوى الحقوق السياسية، وهو ما يعكس تحولاً نوعياً في الحياة السياسية المغربية بعد الاستقلال. هذا الفصل يتواجد في الباب الأول من الدستور، المتعلق بالمبادئ الأساسية للدولة، مما يجعله ذا أهمية قانونية كبيرة. بالإضافة إلى الفصل الثامن، هناك فصول أخرى مثل الفصل الخامس الذي ينص على أن جميع المغاربة متساوون أمام القانون، والفصل الثاني عشر الذي يضمن تقلد المناصب العمومية بشكل متساو بين الرجال والنساء¹.

رغم هذا التقدم على مستوى النصوص الدستورية، فقد عانى الواقع من تفاوت كبير بين المساواة القانونية و المساواة الفعلية في الحقوق. ففي الواقع، المرأة المغربية واجهت صعوبات جمة في المشاركة الفعالة في الحياة السياسية. فالمساواة في الحقوق السياسية كانت شكلية في بعض الأحيان، إذ بقيت التمثيلية النسائية في المؤسسات السياسية هامشية².

التطورات الدستورية التي شهدتها المغرب، بدءاً من دستور 1962، مروراً بدستور 1970³ و دستور 1972، وصولاً إلى دستور 1996، أظهرت أن الحقوق السياسية للمرأة تم الإقرار بها في العديد من الدساتير، لكن التحولات السياسية و الأزمات السياسية مثل حالة الاستثناء، وتغيير مجرى الأحداث بعد الانقلاب عام 1971م، أثرت في العملية السياسية وأبطأت من تنفيذ بعض الإصلاحات، رغم أن الدساتير المتعاقبة لم تمس الجوهر المتعلق بالمساواة بين الجنسين⁴.

رغم تطور النصوص الدستورية، إلا أن الممارسة السياسية للمساواة بقيت غير كافية. فالمساواة المنصوص عليها في الدستور لم تتحقق عملياً، حيث ظلت الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للمرأة في مستوى أدنى مقارنة بحقوق الرجل. وبهذا، تبقى المساواة الشكلية في الحقوق السياسية محدودة في الواقع، ولم تؤثر بشكل كافٍ على المشاركة السياسية للمرأة المغربية⁵.

أما بالنسبة لدستور 1996، فقد جاء لتعزيز الحقوق السياسية و الحقوق الإنسانية بشكل عام، ويؤكد على التزام المغرب بالاتفاقيات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان، بما في ذلك مساواة المرأة. رغم ذلك، ظل الفصل الثامن كما هو، مع بقاء الهوة بين النصوص القانونية والواقع المعيش للمرأة.

التحولات الكبرى في النظام السياسي المغربي، وأهمها الانتقال من دستور 1962 إلى دستور 1996⁶، تمثل نقلة نوعية، إلا أن تفعيل المساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة لا يزال أمراً صعباً، حيث تتطلب الأمر تعديلات دستورية واضحة تنص على الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للمرأة، وضمان المساواة الحقيقية في جميع المجالات، وليس فقط في الحقوق السياسية.

¹ د. رقية المصدق " المرأة و السياسة"، مرجع سابق، ص 27.

² د محمد طلال: المرأة العربية في الدين و السياسة، مرجع سابق، ص 138.

³ EL mossadek rkia : consensus ou jeu de consensus , pour le réajustement de la pratique pomitique au maroc , 1ère édition , 1995 :p 87 .

⁴ انبعاث الأمة، السنة 1965م، ص. 200.

⁵ محمد ضريف: الاحزاب السياسية المغربية من سياق المواجهة إلى سياق التوافق 1934م-1999م، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، الدار البيضاء 2001م، ص 166.

⁶ د. عمر بندورو، مرجع سابق، ص 129.

تبدو الحاجة ملحة لمراجعة الفصل الثامن في الدساتير المتعاقبة للمغرب، بحيث لا يقتصر النص على المساواة السياسية بل يتعداه إلى جميع المجالات، بما في ذلك الاقتصادية والاجتماعية. إن إدراج ضمانات دستورية لحماية حقوق المرأة وتعزيز المساواة الفعلية سيكون له أثر إيجابي في تفعيل مشاركتها السياسية والاجتماعية بشكل حقيقي، وليس شرفياً.

إن الدستور المغربي لعام 1996، رغم ما تضمنه من مبادئ للمساواة بين الرجل والمرأة في مجال الحقوق السياسية، إلا أنه يعاني من عدة نواقص وثغرات، كما أظهرت المطالب النسائية وأكدت عليها المنظمات الحقوقية. أبرز هذه الملاحظات التي تم رصدها تتمثل في:

1. إغفال حقوق المرأة الأخرى: رغم أن الدستور تطرق إلى المساواة في الحقوق السياسية للمرأة، إلا أنه لم يشمل باقي الحقوق الأخرى مثل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، التي هي شرط أساسي لضمان ممارسة الحقوق السياسية بشكل فعلي. في هذا السياق، نجد أن الدستور قلل من دور المرأة في الحياة العامة، وجعلها مجرد ناخبة دون أن يشمل حقوقها الأخرى مثل الترشيح للمنصات السياسية أو حمايتها من التمييز في مجالات أخرى.

2. النظرة الدونية: يكمن في اختزال الحقوق السياسية للمرأة في حقها في التصويت فقط، مما يحد من فعاليتها السياسية ويحولها إلى أداة انتخابية تُوظف في الحملات الانتخابية، دون أن يكون لها دور مؤثر في صناعة القرار. هذه النظرة تعكس تقصيراً في التعامل مع المرأة كفاعل أساسي في الحياة السياسية¹.

3. غياب الإجراءات الجزرية: من الملاحظ أيضاً أن الدستور لم ينص على إجراءات واضحة للزجر أو العقوبات ضد التمييز أو التجاوزات التي قد تُمارس ضد المرأة في مجالات متعددة، ما يجعل مبدأ المساواة من الناحية القانونية فارغاً من الضمانات الفعلية.

4. غياب حماية الأسرة: لم يتضمن الدستور المغربي النص على حق حماية الأسرة والأمومة والطفولة، وهو حق منصوص عليه في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (المادة 16، الفقرة 3)، الأمر الذي يعكس غياب البعد الاجتماعي والإنساني في حقوق المرأة المتصلة بالأسرة.

5. التحفظات على اتفاقيات دولية: على الرغم من التزام المغرب في ديباجة الدستور بحقوق الإنسان كما هي متعارف عليها عالمياً، إلا أنه أبدى تحفظات على اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو)، وهو ما يثير تساؤلات حول مدى التزام الدولة المغربية بتطبيق هذه الاتفاقية بالكامل.

6. غياب جهاز خاص للمرأة: لم يتم النص في الدستور على إنشاء جهاز أو آلية خاصة لمعالجة قضايا المرأة باعتبارها قضية مبدئية تحتاج إلى اهتمام خاص، مثلما فعلت بعض الدول العربية الأخرى التي أنشأت مجالس دستورية أو هيئات مختصة بالقضايا النسائية².

ومن خلال هذه الملاحظات، يتضح أن الفصل الثامن من الدستور، رغم تأكيده على المساواة في الحقوق السياسية بين الجنسين، غاب عنه التكامل مع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، وهو ما يعكس قصوراً في المقاربة الشاملة لمعالجة وضعية المرأة في المجتمع³.

هل تمكنت الإصلاحات التشريعية الجديدة من تجاوز هذه العراقيل؟

إن الإصلاحات الدستورية الأخيرة، خاصة دستور 2011، جلبت بعض التعديلات المهمة التي يمكن أن تكون قد تجاوزت بعض هذه الثغرات. ففيما يتعلق بمساواة المرأة، تم التوجه نحو مراجعة شاملة تضمن تعزيز حقوق المرأة في جميع المجالات:

¹ حكيمة الشاوي: "حقوق المرأة في الدساتير العربية"، الحوار المتمدن - العدد 1133، بتاريخ 8 مارس 2005 <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=332792005>

² قديوى ازنيذر: "المرأة و الانتقال الديمقراطي بالمغرب"، مرجع سابق، ص 42-43.

³ المرجع السابق، ص 44.

- تم تعزيز مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ليس فقط في الحقوق السياسية، بل في جميع المجالات بما في ذلك الاقتصادية والاجتماعية، ما يعني مراجعة الفصل الثامن ليشمل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية أيضاً.
 - تم إضافة مقتضيات جديدة لدعم التمثيلية السياسية للمرأة، بما في ذلك الكوتا النسائية في البرلمان.
- وبالرغم من هذه الإصلاحات، يظل التحدي الأكبر في تفعيل هذه المبادئ الدستورية، حيث لا تزال الممارسات اليومية في المجتمع المغربي أحياناً تتناقض مع النصوص القانونية¹.
- الاستنتاج: الدستور الجديد قد أتى بتطورات إيجابية على مستوى المساواة بين الجنسين، لكن التحولات السياسية والاجتماعية تحتاج إلى وقت، وكذلك إلى آليات تنفيذية فعالة لضمان تحقيق المساواة الحقيقية بين المرأة والرجل في جميع ميادين الحياة.

المطلب الثاني: التأطير الدستوري للتمثيلية السياسية للمرأة في ظل دستور 2011

نعم، يُعتبر الملك محمد السادس من أبرز القادة الذين جعلوا تحسين الوضعية القانونية للمرأة في المغرب جزءاً أساسياً من مشروعه المجتمعي، حيث اهتم بقضايا المرأة وعمل على ترسيخ قيم العدل والمساواة بينها وبين الرجل². يمكن القول أن هذه التحولات القانونية التي شهدتها المرأة المغربية تمثل نقلة نوعية نحو إصلاحات جذرية تضمن حقوق المرأة وتعزز مشاركتها في الحياة العامة.

أبرز الإصلاحات القانونية التي تم إقرارها خلال عهد الملك محمد السادس هي:

1. مدونة الأسرة: (2004) تعتبر مدونة الأسرة إحدى أهم الإصلاحات القانونية التي مست بشكل مباشر وضعية المرأة في المغرب. فهي جاءت لتكرس حقوق المرأة في الزواج، الطلاق، والوصاية على الأطفال، وتضمن حقوق الزوجة في النفقة، الميراث، الحضانة وغيرها. هذا التعديل يعتبر تحولاً هائلاً في الحفاظ على كرامة المرأة وحمايتها من التسلط والتمييز في مجالات الحياة الزوجية.
2. قانون الجنسية: تم تعديل قانون الجنسية المغربي ليشمل مساواة المرأة والرجل في نقل الجنسية إلى أولادهم. فقد تم إلغاء التمييز الذي كان يعرقل منح الجنسية المغربية للأطفال المولودين من أم مغربية وأب غير مغربي.
3. قانون الحالة المدنية: شمل تعديلات تساهم في ضمان حق المرأة في التسجيل وحفظ حقوقها الشخصية في السجلات المدنية. كما أصبح بإمكان المرأة التسجيل باسمها وتقديم المعاملات دون الحاجة إلى ولي أمرها في الحالات التي كان القانون القديم يفرض فيها سلطات أب أو زوج.
4. قانون الانتخابات: تم إدخال تعديلات في قانون الانتخابات بهدف تعزيز تمثيلية المرأة في البرلمان والمجالس المحلية. هذه التعديلات القانونية هدفت إلى ضمان مكانة أكبر للنساء في عملية اتخاذ القرارات السياسية، الأمر الذي يعكس إرادة حقيقية في تقوية حضور المرأة في المؤسسات التشريعية.
5. التعديلات على القانون الجنائي وقانون المسطرة الجنائية: تم إدخال تعديلات بهدف تعزيز حقوق المرأة وحمايتها من العنف والتمييز. على سبيل المثال، تم تشديد العقوبات على الجرائم المتعلقة بـ العنف الأسري والتحرش الجنسي، بالإضافة إلى تحسين الآليات القانونية لحماية المرأة في حالات الطلاق والنفقة.

¹ نادي النحلي: "صحة المرأة في قانون الشغل المغربي"، المجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية، العدد 83، نوفمبر - دجنبر 2008، ص 189.

² المجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية: الرسالة الملكية التي وجهها الملك محمد السادس إلى المشاركات في القمة العالمية للنساء بمراكش، سلسلة نصوص ووثائق، المدونة الجديدة للأسرة القانون رقم 70-03، 2004، ص. 34.

ومن خلال هذه الإصلاحات، يمكن القول إن الملك محمد السادس قد أحدث تحولاً عميقاً في الوضع القانوني للمرأة في المغرب، حيث تم دمج المرأة في مختلف المجالات القانونية، وأصبح لها دور متزايد في المجتمع المغربي، مع ضمان حمايتها وتعزيز حقوقها على مستوى القانون والمؤسسات. هذه الإصلاحات تشكل خطوة هامة نحو ترسيخ المساواة الحقيقية بين المرأة والرجل وتحقيق العدالة الاجتماعية.

إن النسق الإصلاحي لوضع المرأة سيتوج إعادة النظر في وضعيتها القانونية في تجلياتها الخارجية ومضامينها العميقة من خلال الإصلاح الذي عرفته الوثيقة الدستورية لسنة 2011، باعتبارها أسمى القوانين التي تتبلور فيها عقيدة الأمة وطموحاتها، وتحدد شكل الحكم والمبادئ الأساسية السائدة فيها فيما يتعلق بالحقوق والحريات الأساسية للأفراد. وقد تميز هذا الإصلاح التاريخي بدسترة كافة حقوق الإنسان المتعارف عليها دولياً، حيث تم الإقرار لأول مرة في القانون الدستوري المغربي بمساواة المرأة والرجل في الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية، وذلك ضمن إطار أحكام الدستور وقوانين المملكة وثوابتها.

هذا الإصلاح الدستوري لم يقتصر على مجرد الإشارة إلى المساواة الشكلية بين الجنسين، بل شمل أيضاً إرساء مبادئ دستورية تضمن تطبيق هذه المساواة بشكل فعلي على أرض الواقع. إذ شكل هذا التعديل خطوة نوعية في اتجاه تعزيز حقوق المرأة وضمان مشاركتها الفاعلة في جميع مناحي الحياة، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو حتى ثقافية. و عموماً سيتم التطرق لأهم ما جاء به الدستور الجديد بخصوص المرأة المغربية من أجل تكريس الإنصاف والمساواة بين الجنسين سواء من حيث الشكل (الفقرة الأولى) و من حيث المضمون (الفقرة الثانية)،

الفقرة الأولى : تمثيلية المرأة سياسية في الدستور – من حيث الشكل:

استجاب الدستور المغربي لعام 2011 على مستوى الشكل للمطلب النسائي المتمثل في مراجعة لغة الدستور بحيث تصبح أكثر شمولية وتحيل إلى الجنسين، وبذلك أصبحت المرأة تحتل مكانة مهمة في هذا الدستور الذي أقر مجموعة من مقتضيات الجديدة التي تهدف إلى تكريس حقوق المرأة. فقد تضمنت الديباجة، التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الدستور، حظر ومكافحة جميع أشكال التمييز بسبب الجنس، وأكدت على جعل الاتفاقيات الدولية التي صادق عليها المغرب، وفي نطاق أحكام الدستور وقوانين المملكة وهويتها الوطنية الراسخة، تسمو فور نشرها على التشريعات الوطنية. كما نص الفصل التاسع عشر على تمتع الرجل والمرأة على قدم المساواة بالحقوق والحريات المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية الواردة في هذا الدستور. كما أقر بشكل صريح في الفصل العشرين الحق في الحياة، وفي الفصل الواحد والعشرين نص على الحق في السلامة الجسدية والمعنوية، والحق في التحرر من التعذيب والمعاملة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة أو الحاطة من الكرامة.

شكل دستور 2011 فرصة تاريخية لترجمة الاختيارات التوافقية إلى جعل المغرب بلداً ديمقراطياً وحادثاً من خلال مقتضيات مهيكلته تهدف إلى ترسيخ دولة القانون التي تحترم حقوق الإنسان. ومن ثمة، جاء الدستور ليمنح المرأة المغربية كامل حقوقها بهدف رآب الهوة التي تكونت تاريخياً واجتماعياً وثقافياً بين الجنسين. وعليه، عرف الدستور الجديد مجموعة من المستجدات التي نذكر منها على مستوى الشكل ما يلي:

- في الدساتير السابقة، تم ذكر المرأة المغربية في ثلاثة فصول فقط، أما في الدستور الجديد، فقد تم ذكرها في تسعة فصول.

• المرأة المغربية في صياغة الدستور: تم الإشارة إليها كعضوة مشاركة في اللجنة الاستشارية لصياغة الدستور، وممثلة للأحزاب السياسية والنقابات والمجتمع المدني¹.

• شمل الدستور الجديد على مستوى الشكل أيضًا التأهيل القيمي للمنظومة الثقافية والفكرية والسياسية للخطاب السياسي المغربي. حيث ركز الخطاب الملكي على مكتسبات المغرب في مجال تعزيز حقوق المرأة، وخاصة الحقوق السياسية. ومن شأن هذا التركيز أن يقوي نضال المرأة المغربية في سبيل المساواة والكرامة في جميع المستويات الحياتية، وسيشكل انتصارًا قيميا وثقافيا كبيرا من شأنه أن يخترق الاحتكار الذكوري للسياسة والتسيير الديمقراطي في المغرب، مما يعزز مكانة المرأة في المجتمع ويجررها من قيود كثيرة كانت تكبل تحررها وتقلص من إمكانياتها السياسية والإدارية².

• كما وردت لأول مرة عبارة ترتبط بالمواطنات بشكل خاص، حيث وردت 17 مرة قبل لفظ "المواطنین"، باستثناء حالة واحدة فقط³.

تلك التعديلات كانت خطوة مهمة نحو إدماج المرأة في صلب النظام السياسي والاجتماعي المغربي بشكل يتماشى مع مبادئ الديمقراطية والحدادة، ما يعكس الإرادة الملكية لتأكيد العدالة والمساواة بين الجنسين وتعزيز دور المرأة المغربية في مختلف المجالات.

الفقرة الثانية : : تمثيلية المرأة سياسية في الدستور - من حيث المضمون:

جاء الدستور المغربي الجديد لعام 2011 بمجموعة من الحقوق والواجبات لفائدة المرأة المغربية، وردت كما يلي:

1. مبدأ المساواة بين الرجال والنساء في الحقوق والواجبات والحريات: حيث ساوى الدستور الجديد بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات والحريات المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية، وذلك في إطار الاتفاقيات والمواثيق الدولية التي صادق عليها المغرب. كما تم التنصيص في العديد من الفصول على التمييز الإيجابي لصالح النساء في مجالات عدة مثل الولوج إلى الوظائف العمومية والمشاركة في الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية (الباب الأول: الفصل 6، الباب الثاني: الفصل 19)⁴.
2. الحق في التصويت والترشح: في إطار المساواة بين الرجل والمرأة، يحق لكل مواطن أو مواطنة التصويت والترشح للانتخابات، بشرط بلوغ سن الرشد القانونية والتمتع بالحقوق المدنية والسياسية. كما ينص القانون على مقتضيات من شأنها تشجيع تكافؤ الفرص بين النساء والرجال في الولوج إلى الوظائف الانتخابية (الفصل 30).
3. الحق في تقديم اقتراحات في مجال التشريع وتقديم عرائض إلى السلطات العمومية: يحق للمرأة المغربية، مثل الرجل، المشاركة في سن القوانين وتقديم العرائض للسلطات العمومية (الباب الأول: الفصل 14 و15).
4. مبدأ حماية الحقوق والمصالح المشروعة للمواطنين والمواطنات بالخارج: نص الدستور الجديد على حماية الحقوق والمصالح المشروعة للمواطنين والمواطنات المغاربة في الخارج وفق القوانين المعمول بها في دول الاستقبال. كما تسهر الدولة على تقوية مساهمتهم

¹ رتبينة ركلمة: "المرأة في الدستور المغربي الجديد"، جريدة المنعطف بتاريخ 30 يونيو 2011، العدد 4070، ص 4.

² أنغير بوبكر: "قراءة في الخطاب الملكي بتاريخ 9 مارس 2011: هل تصمد الإرادة الملكية في التغيير أمام قوة مقاومة التغيير؟"، الحوار المتعدد، العدد 3301 بتاريخ 10/3/2011 <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=249975>

³ فاطمة الزهراء بابا أحمد: "دور المرأة وسؤال المناصفة"، مجلة مسالك في الفكر والسياسة والاقتصاد، عدد مزدوج 21-22/2012، الصادر تحت عنوان: "من يحكم المغرب؟ الملكية وأثرها على الفعل العمومي"، ص 66.

⁴ HAKIM ARIF: «je voterai oui», Mardi 28 juin 2011.

في تنمية وطنهم المغرب، وتنمية أواصر الصداقة والتعاون مع حكومات ومجتمعات البلدان المقيمين بها (الباب الأول: الفصل 16). كما يحق لهم المشاركة في الحياة السياسية عبر التصويت والترشح (الباب الأول: الفصل 17).¹

5. الحق في العلاج والحماية الاجتماعية والتغطية الصحية والتعليم والسكن والشغل والماء: أصبح لكل مواطن أو مواطنة، وعلى قدم المساواة، الحق في:

- العلاج والعناية الصحية.
- الحماية الاجتماعية والتغطية الصحية، والتضامن التعاضدي أو المنظم من قبل الدولة.
- التعليم الجيد.
- التكوين المهني، والاستفادة من التربية البدنية والفنية.
- السكن اللائق.
- الشغل والدعم من قبل السلطات العمومية في البحث عن منصب شغل أو التشغيل الذاتي.
- ولوج الوظائف العمومية حسب الاستحقاق.
- الحصول على الماء والعيش في بيئة سليمة.
- التنمية المستدامة (الفصل 31).²

6. ضمان الحماية الحقوقية والاجتماعية والاقتصادية للأسرة وحق الطفل في التعليم وإحداث مجلس استشاري للأسرة والطفل: يضمن الدستور الجديد الحماية الحقوقية والاجتماعية والاقتصادية للأسرة المغربية، باعتبارها عماد المجتمع. ويوفر الحماية القانونية والاعتبار الاجتماعي والمعنوي لجميع الأطفال، بغض النظر عن وضعيتهم العائلية. كما تم النص على إحداث مجلس استشاري للأسرة والطفولة (الفصل 32). وكذلك، تم التنصيص على ضرورة قيام السلطات العمومية بوضع سياسات موجهة إلى الأشخاص والفئات من ذوي الاحتياجات الخاصة وتفعيلها، مع السهر على:

- معالجة الأوضاع المشقة لفئات من النساء والأمهات والأطفال والأشخاص المسنين.
- إعادة تأهيل الأشخاص الذين يعانون من إعاقات جسدية أو حسية حركية أو عقلية، وإدماجهم في الحياة الاجتماعية والمدنية (الفصل 34).³

7. السلطة القضائية: نص الدستور الجديد على ضرورة ضمان تمثيلية النساء القاضيات من بين الأعضاء العشرة المنتخبين للمجلس الأعلى للقضاء (الفصل 115).

8. مؤسسات وهيئات حماية الحقوق والحريات وحماية حقوق الإنسان والنهوض بها: نص الفصل 164 من الدستور على إحداث هيئة مكلفة بالمنصفة ومحاربة جميع أشكال التمييز بموجب الفصل 19. من مهامها الحرص على احترام الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الفصل مع مراعاة الاختصاصات المسندة إلى المجلس الوطني لحقوق الإنسان.⁴

¹رتيبة ركلمة: المرأة في الدستور المغربي الجديد، مرجع سابق، ص 4.

²إعداد وتقديم محمد لفروجي: "سلسلة نصوص قانونية محينة"، الصادرة بعنوان: "الدستور الجديد للمملكة"، مرجع سابق، ص 28-29.

³DR. FLORENCE JEAN : « le statut de la femme marocaine dans la reforme constitutionnelle globale », <http://www.cmiesi.ma/acmiesi/file/temoin/florence-jeantem1.pdf>

⁴"الدستور الجديد للمملكة المغربية صادر بموجب ظهير شريف لتنفيذ القانون رقم 1.11.91 بتاريخ 29 يوليو 2011"، مرجع سابق.

وهكذا يتضح أن هناك إرادة سياسية قوية لترسيخ المساواة بين الجنسين عبر تبني مبدأ دسترة المساواة من خلال إحداث هذه الهيئة بهدف إنجاح مهام المجلس الاستشاري للأسرة والطفولة، والحفاظ على حقوق الأسرة والطفل، وضمان المساواة بين الجنسين في الحقوق¹.

الخاتمة:

شكل التعديل الدستوري لعام 2011 نقطة تحول هامة في تاريخ المغرب، حيث جسد مرحلة متقدمة في إرساء أسس بناء المجتمع الديمقراطي والحداثي، وكان هذا التعديل بمثابة إعلان حقيقي عن التزام المغرب بتحقيق العدالة والمساواة بين المرأة والرجل. التعديل الدستوري هذا لا يقتصر على مجرد تحديث النصوص القانونية، بل كان تحولاً في التصور الثقافي والسياسي لوضعية المرأة في المجتمع، وقد تم ذلك من خلال دسترة مبدأ المناصفة الذي تم التأكيد عليه في الفصلين 19 و164، حيث أصبح هذا المبدأ حجر الزاوية في العلاقة بين المرأة والرجل. يُعتبر هذا التطور منجزاً تاريخياً، حيث يعد المغرب من البلدان القليلة التي تنص بشكل صريح على مبدأ المناصفة في دستورها، الأمر الذي يعكس التزاماً واضحاً بتطبيق المساواة وتكافؤ الفرص بين الجنسين في مختلف المجالات².

مع ذلك، فإن تفعيل مبدأ المناصفة لا يزال مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمدى جاهزية الإطار القانوني والمؤسسي، فما لم يتم وضع الأسس المؤسسية والقانونية الفعالة، فإن النصوص الدستورية وحدها لا تكفي لضمان تحقيق المناصفة الفعلية. ففي غياب إصلاحات هيكلية حقيقية على المستوى المؤسسي والقانوني، سيظل مبدأ المناصفة حبراً على ورق، ولن تتحقق التغييرات العميقة التي تصبو إليها النساء المغربيات في الفضاء العام.

إن الإطار المؤسسي يحتاج إلى إعادة تشكيل جذري لكي يكون قادراً على دعم تحقيق المساواة الفعلية، بما في ذلك تحسين الوضع في الفضاء العام (السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، الثقافي)، حيث تظل البنية المؤسسية غالباً ما تفرز قيوداً موروثية تشكل عقبات أمام التمكين السياسي للمرأة ومشاركتها الفعالة في اتخاذ القرار.

القانون، رغم أهميته، لا يعد ضماناً كافياً لتحقيق التغيير المنشود. إذ أن الإرادة السياسية، المدعومة بوعي اجتماعي واسع النطاق، هي المفتاح لتفعيل مبدأ المناصفة بشكل حقيقي. وفي هذا الصدد، تظل الإرادة السياسية عنصراً محورياً، حيث يمكن أن يسهم الوعي المجتمعي الموجه نحو المساواة في تذليل العقبات الثقافية والاجتماعية التي تحد من قدرة المرأة على التأثير الفعلي في المجتمع.

علاوة على ذلك، يجب أن تشمل المقاربة القانونية جميع مراحل تواجد المرأة في الفضاء العام، ابتداءً من التحصيل العلمي والتكوين المهني، مروراً بالتحاقها بالوظائف العامة، وصولاً إلى مواقع اتخاذ القرار. ينبغي أن تكون الإجراءات القانونية شاملة وفعالة، بحيث لا تقتصر على النتائج النهائية أو التعيينات في المناصب العليا، بل يجب أن تنطرق أيضاً إلى الوسائل والآليات التي تتيح للمرأة فرصاً متكافئة في جميع مراحل العملية السياسية، الاجتماعية، والاقتصادية. إن هذه المقاربة الشاملة تشترط إعادة النظر في البنيات الاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر على المرأة وتمنعها أحياناً من الوصول إلى أهدافها.

في الختام، يمكن القول إن التعديل الدستوري لعام 2011 شكل حجر الزاوية نحو نموذج ديمقراطي حديث يسعى لتحقيق العدالة والمساواة بين الجنسين. ومع ذلك، فإن تحقيق المناصفة يتطلب إصلاحات قانونية ومؤسسية مستمرة، بجانب إرادة سياسية قوية، وإعادة تأهيل المجتمع بأسره ليكون قادراً على تبني المساواة كمبدأ محوري في الحياة العامة، مما سيسهم في القضاء على التفاوتات التاريخية والاجتماعية بين النساء والرجال في المغرب.

¹ فوزية عسولي: "موقف الرابطة الديمقراطية لحقوق المرأة من الدستور الجديد"، جريدة المنعطف بتاريخ 30 يونيو 2011، العدد 4070، ص 4.

² المرجع السابق، ص 63.

الشعبوية في خطاب رئيس الحكومة السابق

سعد الدين العثماني

عبد العلي الحاجز

المملكة المغربية

الملخص:

تسعى هذه الورقة إلى دراسة خطاب رئيس الحكومة المغربي السابق سعد الدين العثماني، دراسةً تداولية تنطلق من ملفوظ الخطاب وتنتهي بأغراضه، بغية الكشف عن آليات بناء الحجاج فيه وأنماطها، على اعتبار أن كل خطاب كيفما كان، وبخاصة إن كان خطابا سياسيا، فهو يتطّلع إلى حمل المخاطب على الإذعان لما يُلقى إليه، وإلى التسليم بجدوى أطروحة صاحبه والافتناع بها، والإيمان بأهميتها، والامتثال لها.

الكلمات المفتاحية: الخطاب السياسي، الشعبوية، الأيديولوجيا.

مقدمة

يرتكز العمل السياسي إلى آليات تواصلية تضطلع بمهمة التجسير بين الفاعل السياسي والجمهور، بشكل يتيح نسج علاقة مباشرة أو ضمنية بين الطرفين تنتظم حباثتها بشكل تفاعلي، ويكون الخطاب السياسي، خلالها، تلك القناة الرسمية التي تكشف أشكالها وتحليلاتها، منظورا إليه من حيث كونه سلطة للغة تبلغ إلى التأثير في المتلقين وحملهم نحو الاعتقاد والفعل.

يسلم هذا القول إلى البحث في المقصود بهذا الخطاب وتبيان عناصره وأساسه وكشف أهدافه ومرامييه. وإضاءة لهذا المبحث، فإن مفهوم الخطاب السياسي قد اتخذ في أدبيات البحث⁽¹⁾ منحياين اثنان: الأول عام يحدده في كل "خطاب ذي محتوى يقارب إشكالات سياسية، مهما كان منتج هذا الخطاب: سواء أكان صادرا عن رجل سياسي، أم عن صحفي، أم عن مواطن عادي"،⁽²⁾ والثاني اتخذ منحى أكثر تدقيقا حين اعتبره شكلا من أشكال التواصل السياسي ذي سمات خاصة وبناء منهجي مخصوص ودال، يصدر عن جهة سياسية محددة ذات هوية خاصة، في فضاء عام، موجه إلى متلق محتمل بغاية التأثير فيه وإقناعه وتعديل أفكاره أو أفعاله أو كليهما.⁽³⁾

يُبرز التعريف السابق أن الخطاب السياسي ليس خطابا عشوائيا، أو كلاما عاديا يساق ترفا أو للتواصل العادي، وإنما القصد منه حجاجي صرف، ولأجل تحقيق هذه الغاية فإنه يقوم على استراتيجيات تواصلية حجاجية بالأساس، تكون الغاية الأولى منها أن تُهدي منتج الخطاب إلى سبل التحكم في الجمهور وحضه على الممارسة والفعل.

بناء على الفكرة السابقة، تكمن الغاية من هذه الورقة في الكشف عن بعض آليات الحجاج في الخطاب السياسي لرئيس الحكومة السابق المغربي سعد الدين العثماني واستيضاح تمثيلات وأثرها في المتلقي، وذلك من خلال مقارنة إشكالية أساس تجد مشروعيتها في حجية كل خطاب سياسي، بعامية، وتنوع مصادره الإقناعية من جهة، ودينامية البنية الحجاجية المرتكبة إلى الشعبوية بوصفها آلية حجاجية ماثلة في خطاب رئيس الحكومة السابق وراثتها من جهة ثانية.

ولأجل مقارنة هذه الإشكالية، فإن الدراسة ستفحصها في ضوء فرضيتين اثنتين: تتحدد الأولى في اعتبار جزء مهم من الخطاب السياسي لرئيس الحكومة السابق خطابا شعبويا يستهدف الفئات الشعبية أكثر من النخبة، ويستميل العواطف ويخاطب الوجدان أكثر من العقل، والثانية تنفي عن هذا الخطاب براءته في الصوغ أو الإلقاء، وترى في ذلك ضربا من الحجاج واستدرازا لعواطف الجمهور المتلقي.

أولا: الشعبوية في الخطاب السياسي

1. في مفهوم الشعبوية

يصفح لفظ الشعبوية عن ارتباطه بكلمة أكثر تداولاً واتساعاً وهي الشعب، وقد نجد كلا من الشعب والشعبوية يوظفان بشكل متواتر ومترايط في الآن ذاته، وذلك عندما نقرأ أو نستمع إلى خطاب سياسي. والحق أن مفهوم الشعبوية في الخطاب، بعامية، ليس

⁽¹⁾ نقصد بأدبيات البحث تحليل الخطاب السياسي من منظور نقدي تداولي.

⁽²⁾ Virgine Delmas, pour analyse pluridimensionnelle du Discours : le Discours politique, presses Universitaires de France, 2012/1, vol. 48, fichier PDF, p : 104.

⁽³⁾ محاضرة مصورة للأستاذ عماد عبد اللطيف في موضوع الخطاب السياسي، اطلعت عليها يوم: 2025/03/26، في الساعة 20:00

https://www.youtube.com/watch?v=fk63RL3gpec&ab_channel=CasaEgypt

وليد اليوم، ولكن له امتدادات تعود به إلى الحضارة اليونانية مع السفسطائيين من خلال ما عرف بالسفسطة، ولو أن هذا المفهوم لم يعرف باسمه وسماته إلا مؤخرا، وعلة هذا الربط كون كل منهما يجعل سلاحه الكلمة المخاتلة، ويؤسس خطابه على المراوغة والتغليب طلبا لحصول الإقناع، ولقد عرفت البلاغة اليونانية قديما "بالاستدراج والمغالطة بالألفاظ والدلالات"،⁽¹⁾ تحقيقا لهدف مرسل الخطاب. ومن هذا المنظور استحدث محمد العمري⁽²⁾ مفهوم الاستهواء الذي يقوم على الهوى والميل النفسي، وينحو تجاه دغدغة العواطف وتحريك الخواجل، ودفع المتلقي إلى أن يتأثر بمشاعره أكثر مما يحلله عقله ويقبله المنطق.

في هذا الاتجاه، يبرز باتريك شارودو أن مفهوم الشعبوية قد عرف مسارا تاريخيا قبل أن يُعرف على ما هو عليه اليوم، وهو يرجع ظهوره إلى نهاية القرن 19م بروسيا، في شكل حركة اجتماعية تقدمية تؤمن بالإصلاح السياسي والاجتماعي، قبل أن يتبلور في الولايات المتحدة الأمريكية في شكل خطاب نقدي معارض للرأسمالية، اختصت به فئة من العمال والمزارعين في الأرياف.⁽³⁾ ووفق هذا المنطق، يتضح، نوعا ما، سر ارتباط المفهوم بالشعب أو الجمهور بدل النخبة.

وينتهي شارودو في سياق حديثه عن الانتقال من الخطاب السياسي إلى الخطاب الشعبوي، إلى اعتبار الشعبوية "موقفا سياسيا ثابتا، يستند إلى الشعب وينتسب إليه، ويعبر عن تطلعاته وطموحاته الكبرى، ويجول دون كل ما قد يتهدهده".⁽⁴⁾ وهكذا، يستحيل هذا المفهوم آلية تحاطبية تنطلق من الشعب وتنتهي إليه، من خلال توظيف ميكانيزمات تحاطبية تجد أسسها في بنية الشعب والجماهير، في مقابل النخب السياسية والاقتصادية والثقافية التي قد تشكل نقیضا محتملا للفئة الأولى.

من هذا المنظور، ستكون دراستنا مستندة إلى مفهوم الشعبوية، في مسعى منها إلى اكتشاف عناصره وتمثيلات على مستوى خطاب رئيس الحكومة السابق سعد الدين العثماني الذي اتخذته أنموذجا.

2. الشعبوية اللغوية في خطاب سعد الدين العثماني

سنركز، في هذا المقام من التحليل، على عنصرين بارزين، وهما: الأيديولوجيا والقيم، وذلك اعتبارا للخيط الناظم بينهما، حيث إن الأولى أساس الثانية وتسهم في تبلورها بوصفها حاضنة لها ومبررة لوجودها في الخطاب.

أ- الأيديولوجيا خادمة للشعبوية

يرى فان دايك⁽⁵⁾ في مفهوم الأيديولوجيا أنها متوالية من التمثيلات الذهنية المرتبطة بالجماعة، والتي تتحكم بشكل نوعي في خطاباتها وأنشطتها وممارساتها الاجتماعية. إن الأيديولوجيا، وفق هذا المنظور، نسق متكامل من المعتقدات والأعراف والأفكار التي تشترك فيها جماعة ما. ومن هذه الرؤية، يجوز القول إنها مكون من مكونات النسق الثقافي، ما دامت منغرس في الجماعة ومتحركة في إنتاجاتها المادية والمعنوية.

⁽¹⁾ محمد العمري، دائرة الحوار ومزالق العنف، أفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ص 25.

⁽²⁾ نفسه، ص-ص 14-12-5.

⁽³⁾ Patrick Charaudeau, *Du discours Politique au discours Populiste, Le populisme est-il de droite ou de gauche ?* fichier PDF, p : 32 Lien : <http://www.patrick-charaudeau.com/Du-discours-politique-au-> , à 17h45mins 2025/03discours.html, vu le : 27/

⁽⁴⁾ Ibid, p : 34

⁽⁵⁾ T A Van Dijk, *Politics, Ideology, and Discourse*, Universitat Popeu Fabra, Barcelona, Spain, 2006, p-p

728-731

وغير خاف أن انتماء رئيس الحكومة السابق الحزبي يكشف بشكل آلي عن خلفياته الأيديولوجية، وهو ما لا يتوانى في ترديده أثناء خطابه، حين يوظف عبارات من قبيل: "إن شاء الله، الأخ الكريم، الإخوان، الأخت"، أو لما يفتتحه بقوله "باسم الله الرحمن الرحيم"، مما يكشف توظيف الخطاب الديني الذي يعد من صميم الأيديولوجية التي تنبني عليها خطابات سعد العثماني اليوم، أو رئيس الحكومة الذي سبقه عبد الإله بنكيران.

ولا شك أن هذا التوظيف يدخل ضمن جملة من الاستراتيجيات التواصلية التي تؤثت هذه الخطابات، علنا أو إضمرا، لتحقيق غايات محددة سلفا، غالبا ما تتخذ طابع التبرير والشرعنة، ولنأخذ عن ذلك المثال الآتي: يقول رئيس الحكومة السابق في هذا الخطاب مبررا منجز حكومته: "وَالْحُكُومَةُ دَارَتْ الْعَمَلُ دِيَالَهَا عَلَى حَسَبِ دَاكُشِي لِي قُدْرَهَا عَلَيْهِ اللَّهُ"،⁽¹⁾ وهنا يظهر التوظيف المنهجي للأيديولوجيا، وقد أسمىناه منهجيا كونه لم يكن اعتباطيا، وإنما جاء في مقام التبرير وحسن التخلص، من خلال استهداف اللاشعور الجمعي الذي عادة ما ينظر للخطاب الديني بوصفه خطابا مقدسا لا يرقى النقاش إليه، ولا يخضع إلى المساءلة أو النقد، فهذا التناص الديني يقرر في أذهان المخاطب التسليم بفكرة "المكتتاب" وضرورة الاعتقاد بها، بغية تبرير النتائج والتملص من المحاسبة، كما أن هذا التوظيف ذو غرض تلطيفي يحتمل أن يواري إخفاقا محتملا في تنفيذ البرامج الحكومية المتعهد بتحقيقها، ويعزوها إلى سبب غيبي مرتبط بقدرة القاهرة هي مشيئة الله وحكم الأقدار.

ب- توظيف القيم

تعد السياسة مجالا لتداول السلطة وتديرها، ويشكل الخطاب السياسي تمثيلا لهذا التداول، وعنصرا مهما للتواصل والتبرير والإقناع بالمشاريع السياسية والقرارات المتخذة، وغني عن البيان القول إن هذا الخطاب متعم بالاستراتيجيات الحجاجية الخادمة لمنتجه، ومن بين هذه الاستراتيجيات توظيف القيم الكبرى للجماعة السياسية التي تشكل موضع وحدة وإجماع لا اختلاف فيها، وهذا تحديدا ما نتلمسه في خطاب رئيس الحكومة السابق سعد الدين العثماني الذي يبينه بناء يعمد إلى الاحتماء بعدد من القيم.

يتضح هذا المقال من خلال ما يورده العثماني في خطابه: "الصَّحِيحُ أَنَّ نَقُولَ إِنَّ الْإِشْكَالَاتِ الْكُبْرَى ذِيَالُ الْوَطْنِ يَجِبُ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي حِلِّهَا بِنَفْسٍ وَطَنِيٍّ وَأَنْ نَسْمُوَ عَلَى حِسَابَاتٍ صَغِيرَةٍ"، فهو يوظف قيمة الوطن بما له من رمزية وقُدسية في نفوس جميع المغاربة، وبعده قيمة كبرى وعامة، وقضية مشتركة لا مناص منها ولا اختلاف حولها، أجمع عليها المغاربة قاطبة، ملكا وشعبا ومؤسسات، مستعينا بضمير جماعة المتكلمين "نحن".

ومرد هذا التوظيف إقناعي صرف، حيث يهدف إلى توريث معارضيهم وإسكاتهم، ورسم صورة مثلى حول ذاته تجعله بمثابة ذلك البطل المثالي الذي يتخذ من الوطن هاجسا يؤرقه، في الوقت الذي لا يكثر لذلك معارضوه ولا يحسون بأي مسؤولية تجاهه، وبعضد ذلك قوله: "وَبِأَشْرَاكِ الْجَمِيعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يُمْكِنُ نَتَغَلَّبُوا عَلَى هَآذِ التَّحَدِّيِّ الَّذِي هُوَ تَحَدِّي وَطَنِي، خَصْنَا نَظْرُوا لَهُ بِأَفْقٍ وَطَنِي، نَظْرُوا لَهُ بِحَالِ خَنَا كَانْخُذْمُوا الْمَغْرِبَ وَكَنْخُذْمُوا الْمَغَارِبَةَ، بِأَشْ نَوْصَلُوا هَآذِشِي لِلْمَغَارِبَةِ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ نُحْسَ بِأَنَّ كُنَّا مَسْؤُولُونَ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ اخْتِلَافِ دَرَجَاتِ الْمَسْؤُولِيَّةِ".

3. السيناريو الشعبي

⁽¹⁾ خطاب رئيس الحكومة السابق: https://www.youtube.com/watch?v=f3o2hlkGuiQ&ab_channel=PjdTv اطلعت عليه يوم:

إن توظيف مفهوم السيناريو، في هذا المنحى، نابع عن فكرة مؤداها أن الخطاب السياسي، برمته، خطاب يميل إلى المسرحة والإخراج والتجسيد، والقول بهذا التصور معناه أن هذا الخطاب "ينطوي على درجة عالية من الافتعال والتوضيب والمونطاج، ويمكن القول إن إحدى الوظائف الكبرى التي تتحقق من خلال المسرحة والإخراج هي طمس حقيقة محتوى الخطاب السياسي"⁽¹⁾، والقصد وراء هذه المشرحة إنما هو إثبات وجهة ما يلقى إلى المخاطب وإكسابه القوة الإقناعية اللازمة، إما لجعله يقبل بأقوال منتج الخطاب أو أفعاله أو هما معا والإيمان بها، أو لأجل دفعه إلى رفض التصورات المخالفة وجعلها محط رفض ومقت وازدراء.

تبعاً للفكرة السالفة، نقترح مجموعة من العناصر المشكلة لما أسميناه بالسيناريو الشعبوي في خطاب رئيس الحكومة السابق، ويمكن تتبعها في ما يأتي:

أ. دينامية اللسان الدارج

ينبني خطاب رئيس الحكومة السابق سعد الدين العثماني على استراتيجية التدرج، ونقصد بالتدرج الإفراط في توظيف اللهجة العامية أثناء بث الخطاب، ومرد ذلك إلى كون هذه اللهجة تمثل الوسيط التواصلية الأنجع لضمان نفاذ الخطاب إلى أكثر فئات المجتمع شعبية، إذ نجده لا يتوانى في جعل خطابه دارجا من ألفه إلى يائه، مع بعض العبارات الفصيحة التي ترد عرضاً أثناء إلقائه، وهنا يقول مثلاً: "غادي نجي لَوَاخْد الْقُضِيَّة طَرْخُوتْهَا"، "هَاز الْقَانُون دِيَال الْحَقِّ فَالْحُصُول عَلَى الْمَعْلُومَةِ رَاهْ عِنْدُ الْبَرْلَمَان"، وكأن توظيف هذا اللسان يحتوي بشكل ضمني إشراكاً للفئات الشعبية جميعها في الخطاب، بل إنه يعدو ذلك إلى درجة تجعل الدارجة دليلاً على نوع من التشاركية في اتخاذ القرار، ومن ثمة الاقتناع به أو بنتائجه، ومن خلاله، أيضاً، يسعى منتج الخطاب إلى "إرجاع سلطة القرار إلى الشعب الذي حرّمته منه النخبة والإدارية والسياسية"⁽²⁾.

ب. التلميح في الخطاب

قد يظهر أن الخطاب السياسي كثيراً ما يتبنى الوضوح والشفافية والمباشرة والتقريرية بما يصيِّره خطاباً واضحاً وبسيطاً لا يضمّر أي تعقيد أو معطيات خفية، والحال أن الأمر غير ذلك، إذ إنه خطاب موهّم ومقنّع، وحيثما وجدت السياسة وجدت المخاتلة والإضمار، وهذا ما يجعل من الخطاب السياسي بناء لغويًا تتوارى خلفه الكثير من الأفكار المستترة ضمن هذه المباشرة التي يبدو أنه يتسم بها، وللتدليل على هذا نورد رد رئيس الحكومة السابق في خطابه على معارضيهِ حيث قال: "الشَّعْبُ الْمَغْرِبِيُّ صَوْتٌ فِ 7 أَكْتُونِرْ وَقَالَ كَلِمَتُهُ، وَنَتَائِجُ الْإِنْتِخَابَاتِ شَاهِدٌ عَلَى اخْتِيَارِ الشَّعْبِ الْمَغْرِبِيِّ".

تنطوي العبارات السابقة على معنيين اثنين: الأول ظاهر مصرح به والثاني مقتضى ملمح إليه، وبموجب الأول يتأكد اختيار الشعب المغربي لحزب العدالة والتنمية قائداً لولاية حكومية ثانية على التوالي، وبمقتضى الثاني، يكون الشعب قد رفض الأحزاب الأخرى وسحب ثقته منها، الشيء الذي يجعل من الحزب الحاكم حزباً مختاراً ومتميزاً لا حزب بعده، بل إنه يعكس الديمقراطية وصوت الشعب بكل أطيافه، في حين تبقى الأحزاب الأخرى ثانوية لم تحز الثقة في الإدارة والتسيير.

وفي هذا الباب أيضاً، نجد رئيس الحكومة السابق يقول عند رده على انتقادات حزب الأصالة والمعاصرة: "شُكُونْ عِنْدُو الْجَمَاعَاتِ الْقُرُوبِيَّةِ وَالْبَلَدِيَّاتِ دِيَالِ الْحُسَيْمَةِ؟ شُكُونْ لِي عِنْدُو مَجْلِسِ الْعَمَالَةِ دِيَالِ الْحُسَيْمَةِ؟ شُكُونْ لِي عِنْدُو رِئَاسَةِ الْجُهَّة؟".

(1) جماعة مؤلفين، قراءات في الخطاب السياسي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن زهر، أكادير، ط 2، 2019، ص 175.

(2) نفسه، ص 436.

إن هذا الاستفهام، في جوهره، استفهام بلاغي خرج عن حقيقته، فليست غاية المستفهم هنا طلب معرفة شيء مجهول حال الاستفهام، بل القصد من ورائه التلميح لما يمكن أن نصفه بقصور المنافس السياسي، حيث يحيل إلى عجزه عن تدبير ملف الحسيمة الذي كان سببا في اتقاد جذوة ما بات يعرف بحراك الريف. وعلى هذا، فإنه يلقي المسؤولية، بشكل ضمني، على هذا الطرف ويحمله النتائج المترتبة عنها، وذلك كله خدمة لشعبوية الخطاب التي تنغيا تعزيز خطاب رئيس الحكومة السابق ونصرة توجهه، في مقابل دحض خطابات من يعارضه.

ج. سينوغرافيا الشعبوية في خطاب رئيس الحكومة السابق

إن مبررنا لاستخدام مفهوم السينوغرافيا في هذا المحور أن نعني به كل المؤثرات الخارجية التي تصاحب إلقاء الخطاب، وهو مفهوم أشار إليه باتريك شارودو في مقاله "من الخطاب السياسي إلى الخطاب الشعبي"⁽¹⁾، وفيه يؤكد أن الخطاب الشعبي متنوع، متعدد الأبعاد، لا يستثني أي خطاب سياسي، سواء أكان يمينيا، كما هو الحال مع النموذج الذي نشتغل عليه، أم يساريا.

وبالإضافة إلى ما يبناه من كون بنية الخطاب السياسي لرئيس الحكومة السابق جاءت غنية بالمؤثرات الشعبوية التي تجعله خطابا شعبويا بامتياز، فإن ممارسته عيانا أمام المخاطب تقتضي توظيف الكثير من المؤثرات الجسدية التي تضطلع بوظيفة شعبية إقناعية، من ضمن تلك توزيع النظر إلى الجمهور والحركات المرافقة له أثناء إلقاء الخطاب، كالضحك تارة، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالتهكم على خطاب المعارض والسخرية السياسية منه، طلب إقصائه والخط من قدر تصويره أو انتقاده، ومن ذلك الحزم والجد تارة أخرى عندما تكون غاية رئيس الحكومة السابق التركيز على مدى جدية موقفه ورجاحة رأيه أو مشروعه، ومنه البكاء أيضا، إبداءً للتعاطف مع فئات شعبية متضررة جراء شيء ما، وهذا ما حدث عند نعي رئيس الحكومة السابق للذين ماتوا خلال وباء كورونا،⁽²⁾ علاوة عن الإقبال والإشاحة، والصمت والكلام، والضغط على بعض الكلمات عند نطقها، وتصفيق الأنصار والموالين، والإشارة باليد، أو بسطها حيناً، وضمها حيناً آخر.

وهكذا، نجد أنفسنا أمام تجسيد مسرحي لسيناريو خطاب سياسي يجري على ركح البرلمان، وفق ديكور محدد وبسينوغرافيا ذات مغزى.

خاتمة

إن تحليل الخطاب السياسي يتسم بالتنوع في المقاربة والدراسة. ولقد سعت هذه الدراسة إلى استبيان معالم مفهوم الشعبوية كما قدمه باتريك شارودو، وذلك عبر تتبع تضميناته في خطاب رئيس الحكومة السابق المغربية سعد الدين العثماني، إن بشكل مباشر وصريح، أو بصيغة مضمرة تفصح عنها بنية اللغة، أو التفاعل الجسدي المباشر مع الخطاب أثناء إلقائه.

وبناء على التحليل السابق، توصلت الدراسة إلى نتيجتين اثنتين نبرزها في الآتي:

(1) Patrick Charaudeau, *Du discours Politique au discours Populiste*, op, cit.

(2) تجدر الإشارة إلى أن حدث بكاء رئيس الحكومة السابق سعد الدين العثماني لم يكن أثناء هذا الخطاب، موضوع تحليلنا، بل سقنا ذلك لإبراز تحليلات مسرحية الخطاب ودورها في خدمة شعوبيته. وفي ما يأتي رابط رقمي يتضمن بكاء رئيس الحكومة السابق أثناء خطابه في البرلمان:

https://www.youtube.com/watch?v=3t5pogczf9w&ab_channel=AnaAlaraby-

2025/03/27 %D8%A3%D9%86%D8%A7%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A %D8%A3%D9%86%D8%A7%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A

- ينبنى خطاب رئيس الحكومة السابق سعد الدين العثماني على أبعاد شعبوية ذات ملامح بارزة، غايتها الإقناع بالضرورة، والتبرير لمشروعية الخطاب السياسي المقدم، ومشروعية القيادة السياسية للحكومة، والمسؤولية المنوطة بها.
- لمفهوم الشعبوية في خطاب رئيس الحكومة السابق تحليلات مختلفة، منها ما يتصل باللغة، كتوظيف الأيديولوجيا واعتماد استراتيجية التدريج، ومنها ما يتجلى بشكل مسرحي أسميناه بالسيناريو الشعبوي، تتضح حدوده في التوظيف المباشر لإشارات وأفعال جسدية موازية للعملية التخاطبية، رهانها استدرار العواطف واستجلاب التوافق في الرأي بما يسلم إلى الإقناع بالخطاب المقدم.

الإنسان والمجال في فكر جون برونيه بين النظرية والتطبيق:

قراءة في كتاب الجغرافيا البشرية

عبد الحميد جمور

باحث في الجغرافيا البشرية كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير

مبارك أوراغ

أستاذ التعليم العالي كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير

مصطفى المرتقي

باحث في الجغرافيا البشرية كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير

المملكة المغربية

الملخص

يسائل المقال مكانة كتاب *الجغرافيا البشرية* لجون برونيه ضمن دينامية الانتقال النظري للجغرافيا البشرية من الطابع الوصفي إلى التحليل التركيبي للوقائع الإنسانية والمجالية. مستحضرين من خلال مقارنة بيليوغرافية نقدية، رهانات برونيه في تحرير الجغرافيا من سطوة الحتمية البيئية، لصالح منظور إيكاني يبرز الفعل الإنساني كقاطرة لإنتاج المجال.

ينفتح المقال على مساءلة الأسس النظرية والمنهجية التي انبنى عليها الكتاب، ويقارن بين طموح برونيه في تأسيس علم جغرافي ميداني ذي صبغة تحليلية، وبين تمثلاته لمجتمعات تقليدية كحالات للشرح الجغرافي. محاولين الإجابة عن تساؤلات من قبيل: هل نجح برونيه فعلا في القطع مع النزعة الوصفية؟ وهل أطروحته قابلة للتماهي مع تحولات الإنسان المعاصر ومجالاته المركبة؟ أم أن تحليله ظل أسير ثنائيات قطرية (إنسان/طبيعة، بيئة/ثقافة) لا تستوعب التعقيد البنيوي للواقع الراهن؟

الكلمات المفتاحية: الجغرافيا البشرية، المدرسة الإمكانية، الحتمية البيئية، الملاحظة الميدانية، الإنسان والمجال.

مقدمة

حريراً بناً اعتباراً كتاب جون برونيه *La Géographie humaine* ، الصادر في طبعته الثانية سنة 1912 عن دار النشر "Félix Alcan" بباريس، أحد المراجع الأساسية في الفكر الجغرافي، لكونه أسس لتصور علمي دقيق ربط الإنسان بالمجال، فهذا العمل - الذي يقع في أكثر من 802 صفحة ويضم عشرة فصول - يعد أول محاولة منهجية لتصنيف الوقائع الجغرافية الإنسانية ضمن رؤية تركيبية تنهل من الملاحظة الميدانية.

الأهمية العلمية للكتاب تتجلى في كونه لا يكتفي بعرض للمبادئ الجغرافية فحسب، بل يدعمها بأمثلة مستمدة من التجربة الميدانية، سواء في واحات المغرب الكبير أو الأرياف السويسرية، مما يجعل منه مرجعاً تأسيسياً في تدريس الجغرافيا البشرية وهو ما اتجه إليه Albert Demangeon بالقول "استطاع جون برونيه، بدقة ووضوح، أن يرفع الوقائع الإنسانية إلى مصاف موضوعات التحليل العلمي، فعمله ركيزة أساسية في الفكر الجغرافي الفرنسي" (Demangeon, 1931, p. 102)، جدير بالذكر أن العنوان الفرعي للكتاب جاء كالآتي: (*Essai de classification positive. Principes et exemples*)، محاولة تصنيفية إيجابية، مبادئ وأمثلة)، مما يشير لطموحه في ترسيخ الجغرافيا البشرية كعلم مستقل، بأدواتها المنهجية ومفاهيمها العلمية، مقترحة تصنيفاً دقيقاً للوقائع الجغرافية وربطها بالملاحظة الميدانية، وهذا ما يتجلى في مقدمة كتابه بقوله "الجغرافيا البشرية لم تنجز بعد، بل هي قيد الإنشاء" (Brunhes, 1912, p. I)، ما يعد بمثابة إقرار بالحاجة إلى إعادة ومواصلة تأسيس منهجية علمية رصينة.

إذا كانت المدرسة الإمكانية قد فتحت الباب أمام قراءة أكثر مرونة للفعل الإنساني، فإن برونيه تجاوزها عبر ربط الوقائع بالتنظيم المجتمعي، وهو ما تجلّى في معرض تحليله للواحات الصحراوية، حيث أن "عمق الآبار لا يفهم إلا ضمن تنظيم جماعي صارم لعلاقة المجتمع بالماء" (Brunhes, 1912, p. 152)، ما يجعل من الجغرافيا البشرية علماً لا يقتصر على دراسة "أين يوجد الناس"، بل "كيف ينظمون وجودهم في المجال"، ووفق أية بنى رمزية وإنتاجية؟ إن التحول الذي أحدثه برونيه لا يقتصر على التصنيف أو الملاحظة، بل يمتد لمسألة العلاقة بين الجغرافيا ومجالات بحثية أخرى مثل السياسة، الاقتصاد، الاجتماع، وعلوم التربية، كما يتضح ذلك من نقده للطرائق التدريسية في الجغرافيا الاقتصادية، ورفضه للنزعة الإحصائية الجامدة حيث أن "المعلومة المجالية لا تكتسب قيمتها إلا حينما ترتبط بالسياق التحليلي للمجال والوظيفة" (Brunhes 1912, p. 248)، وهذا ما يجعل من الجغرافيا أداة للفهم، لا مجرد وصف كمي له.

واستناداً عليه تتوخى هذه المقالة معرفة كيف يمكن للجغرافيا البشرية، كعلم وصفي-تركيب، أن توازن بين تصنيف الوقائع المجالية وتحليل الفعل الإنساني، دون السقوط في الحتمية البيئية أو التوصيف الإحصائي، مع الحفاظ على استقلاليتها المعرفية ضمن العلوم الاجتماعية بالإعتماد على كتاب الجغرافيا البشرية لجون برونيه؟ ولأجل مقارنة هذا العمل بعمق علمي، تم اعتماد المنهج البيبليوغرافي كخيار أساسي في البحث، وهو منهج ذو أهمية قصوى في حقل الجغرافيا البشرية، إذ يسمح "بإعادة بناء تطور المفاهيم والنماذج الجغرافية عبر تتبع المسارات الفكرية التي أنتجتها" (Claval, 1995a, p. 112)، خاصة وأن هذا الحقل العلمي، كما نبه إليه فيدال دولابلاش يتطلب فهماً متجدداً للصلة بين الإنسان والمجال، بناء على تراكمات علمية لا يمكن استيعابها إلا بالاطلاع النقدي على الأدبيات (Vidal de la Blache, 1911, p. 12).

لقد ظلت فكرة إنجاز قراءة نقدية تحليلية لكتاب *La Géographie humaine* لجون برونيه تراودنا وترسخت لدينا حتى اقتنعنا أنها أضحت عملاً ضرورياً، ليس فقط لتفكيك البنية النظرية والمنهجية للكتاب، بل أيضاً محاولة لفهم كيفية مساهمته في

تأسيس حقل الجغرافيا البشرية كعلم مستقل، كما أن قراءة هذا المؤلف تندرج ضمن ما أوصى به لاکوست حين أشار أن "إعادة قراءة النصوص الجغرافية المؤسسة شرط لتجاوز الرؤى التقليدية وبناء تصورات نقدية مواكبة لتحولات المجتمعات والمجالات" (Lacoste, 1976, p. 21)، من هذا المنطلق، اعتمدنا البحث البيبليوغرافي الدقيق، مستنديين في ذلك على مؤلفات أساسية ومقالات علمية، لمقاربة فكر برونيه ضمن سيرورة الجغرافيا البشرية الحديثة، مع الحرص على تقاطع المعطيات النظرية بالتحولات الدينامية لعلاقة الإنسان بالمجال، مما سمح بفهم أعمق للبنيات الفكرية والتحليلية التي شيدها برونيه، وما تفرضه اليوم من أسئلة معرفية متجددة حول رهانات الجغرافيا البشرية.

جون برونيه، الجغرافي الرائد

يعتبر جون برونيه (1869-1930)¹ من أبرز الجغرافيين الفرنسيين الذين بصموا بدايات القرن العشرين بنظرة نقدية وتحليلية للجغرافيا التقليدية، لكونه استطاع أن يحرر الجغرافيا البشرية من الطابع الوصفي التراكمي، ويضعها في نطاق البحث العلمي الدقيق، الجاعل من الوقائع البشرية ظواهر مجالية قابلة للفهم ضمن منطق النسق والعلاقات (George, 1951, p. 89).

تميز فكره بقدرته على الجمع بين التنظير العلمي والعمل الميداني، وجعل من الوقائع مادة للتحليل المنهجي، مراهنًا على التحليل التفسيري (Lacoste, 1976, p. 42)، بعيدًا عن الحتمية الجغرافية التي كانت سائدة آنذاك (Deprest, 2017). وقد حاول الباحث جون رونييه في مقدمة كتابه أن يؤكد أن هدفه من الكتاب ليس تقديم "رسالة نهائية"، بقدر ما هو "دليل منهجي" يساعد الباحثين على تصنيف الظواهر المجالية وتصور الترابطات المعقدة بينها (Claval, 1995, p. 63)، ليساهم بفكره في تشكل نواة مدرسة فرنسية للجغرافيا البشرية (Robic, 1996, p. 201).

المدرسة الجغرافية التي ينتمي إليها جون برونيه

ينتمي جون برونيه للمدرسة الإمكانية التي أسس لها بول فيدال دولًا بلاش، وهي المدرسة التي أسست للجغرافيا بوصفها علما يربط الإنسان بالمجال (Claval, 1998, p. 47)، من خلال (le possibilisme²) وكرد على الحتمية (Le déterminisme³) الذي مثلها فريدريك راتزل وأتباعه (Robic, 1996, p. 174)، وما ميز برونيه كونه لم يكتف بمبادئ المدرسة الإمكانية فحسب، بل عمل على توسيعها من خلال إدماج البعد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في التحليل الجغرافي (George, P., 1971, p. 123)، ما يجعله رائدا للجغرافيا البشرية (Lévy & Lussault, 2003, p. 288).

¹ لمزيد من التفاصيل حول جون برونيه يرجى زيارة بوابة الأرشيف الفرنسي الرسمية عبر الرابط التالي:

https://francearchives.gouv.fr/fr/authorityrecord/Fran_NP_051758

² الإمكانية الجغرافية (le possibilisme) مفهوم جغرافي يشير لتيار فكري نشأ كرد على الحتمية الجغرافية، ويؤكد على أن البيئة الطبيعية لا تحد بشكل صارم سلوك الإنسان، بل تحقق له مجموعة من الإمكانيات التي يختار من بينها وفقا لعوامل تاريخية، ثقافية، واقتصادية. وقد بلور هذا الاتجاه بول فيدال دو لا بلاش وتوسع فيه لاحقا جون برونيه، حيث أبرز قدرة المجتمعات البشرية على التكيف والإبداع داخل المجال، رافضا النظر إلى الطبيعة كمتحكم وحيد في الإنسان.

³ الحتمية الجغرافية (le déterminisme) مفهوم جغرافي يشير لتيار فكري يعتبر أن العوامل الطبيعية كالمناخ والتضاريس، تشكل القوة الأساسية لتحديد سلوك الإنسان وتطور المجتمعات. وقد برز هذا الاتجاه في أواخر القرن التاسع عشر مع أعمال فريدريش راتزل، الذي رأى في الطبيعة عاملاً مُوجِّهاً لمسار الحضارات، وتنبهت لاحقا إلين تشرشل سمبل، التي عتّمت هذا التصور على دراسات العالم الجديد، مؤكدة أن الإنسان "نتاج مباشر لبيئته". وقد واجه هذا التوجه لاحقا انتقادات حادة بسبب إهماله للعوامل الثقافية والتاريخية والتقنية في تشكيل الظواهر المجالية.

السياق العلمي لصدور الكتاب *La Géographie humaine*

صدر كتاب *La Géographie humaine*، في مرحلة مفصلية دقيقة من تطور الفكر الجغرافي الفرنسي، حيث بدأت الجغرافيا تتجاوز المدرسة الحتمية التي اختزلت الإنسان في تبعيته للوسط الطبيعي (Livingstone, 1992)، في هذا السياق، اعتبرت أعمال برونيه نقطة تحول منهجية، من خلال إبرازها لأهمية الملاحظة الميدانية في فهم العلاقة بين الإنسان والمجال، خصوصا إذا علمنا أنه قضى تجربة ميدانية في شمال إفريقيا خلال الفترة الاستعمارية (Claval, 1995; Robic, 1992)، وهذا التوجه العملي أسهم في توجيه الجغرافيا نحو الطابع التركيبي، حيث لا تكتفي بوصف الوقائع، بل تسعى لتحليلها على ضوء التفاعلات بين البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية (Robic, 1992 ; Deffontaines, 1926)، ما يعزز قيمة كتاب *La Géographie humaine* باعتباره يقدم تصورا متقدما لجغرافيا منفتحة على باقي العلوم الاجتماعية دون أن تفقد خصوصيتها المجالية، كلها عوامل وأخرى تجعل من الكتاب قيد القراءة مرجعا أساسيا في الأدبيات الجغرافية الحديثة (Brunhes, 1910; Robic, 1992).

موضوع كتاب الجغرافيا البشرية: بنية علمية ومنهج تركيبي

تبنى جون برونيه في كتابه "*La Géographie humaine*" بنية منهجية زاجت بين الطرح النظري والتحليل الميداني والتأمل الفلسفي، حيث يتوزع على عشرة فصول مترابطة؛ فالفصول الأربعة الأولى - من الصفحة 1 إلى الصفحة 344 - يمكن اعتبارها فصولا تأسيسية لمفهوم الجغرافيا البشرية كعلم قائم على تصنيف الوقائع الإنسانية على سطح الأرض، ثم تنتقل الفصول من الخامس إلى السابع - من الصفحة 345 إلى الصفحة 531 - كدراسة تصنيفية ميدانية دقيقة لهذه الوقائع، بينما تم تخصيص الفصل الثامن - من الصفحة 532 إلى الصفحة 682 - لمقاربة الجغرافيا الإقليمية والإثنوغرافية والاجتماعية والسياسية، متبوعا بفصل تطبيقي حول الجغرافيا الاقتصادية، ليختم الكتاب بتأمل فلسفي تحت عنوان "الفكر الجغرافي" - من الصفحة 683 إلى الصفحة 761 - يتم التأكيد فيه على أهمية الفكر الجغرافي كمنهج تحليلي يربط بين الظاهرة البشرية والطبيعية، ويركز على تفاعل الإنسان والبيئة، كما تم إبراز دور الجغرافيا في تفسير التنظيم المجالي للأنشطة البشرية ومدى تأثيرها بالعوامل الطبيعية مثل المناخ والتضاريس، مشددا على ضرورة تبني رؤية شمولية لفهم التعقيدات المجالية والزمانية في علاقتها بالظواهر البشرية.

يمكن أن نستخلص إذن من البنية العلمية للكتاب، انسجام برونيه مع تصور بول فيدال دولا بلاش الذي يرى أن "الوقائع الجغرافية لا تكتسب معناها إلا حينما تفهم في إطار شبكة التفاعلات التي تربط الإنسان بالبيئة" (Vidal de la Blache, 1911: p 29)، كما تستوقفنا عبارة دقيقة لألفرد هيتنر حين اعتبر أن "بنية العلم الجغرافي تتطلب تلازم التحليل النظري والوصف الميداني، لأن المجال لا يفهم إلا من خلال الفعل الإنساني فيه" (Hettner 1905: p 553)، من جهته، يفيد بيير جورج أن مشروع برونيه هو بمثابة محاولة رائدة لنظام علمي يقوم على المعطى الجغرافي البشري، حيث يتجلى التصنيف ليس غاية، بل وسيلة للفهم (George 1951: p 47)، حتى أن إيف لاقوست إتجه لإعتبار كتاب الجغرافيا البشرية أول لحظة إستيمولوجية واعية في الجغرافيا الفرنسية الحديثة (Lacoste 1976: p 18)، كما ثمن ميلتون سانتوس، البعد التركيبي في منهج برونيه بقوله أن المقاربة تجمع بين الدقة التصنيفية والرؤية المتعددة للمجال، ما يجعل من الجغرافيا البشرية علما قادرا على فهم التعقيد (Santos, 1994: 61).

نحو إستيمولوجيا ميدانية للجغرافيا البشرية: قراءة في المنهج عند جون برونيه

يمكن اعتبار كتاب جون برونيه تأسيسا لبنية معرفية ومنهجية في حقل الجغرافيا البشرية، فأهميته لا تنحصر في مضمونه أو تصنيفاته النظرية، بل تكمن في الرؤية المنهجية التي يقترحها، حيث انطلق من قناعة تقوم على أن الجغرافيا البشرية ليست علما مكتملا، بل مشروعا علميا في طور التأسيس، هدفه في ذلك ليس تقديم معارف جاهزة، وإنما اقتراح منهج للعمل، حيث يوضح: "المنهج هو ما يجب تحديده" (Brunhes, 1912, p I)، ما يدفعنا للقول أن التحديد المنهجي، يبرز النزعة التجريبية الراضية للتنبؤات المجردة، ويدعو لمقاربة علمية تستحضر في تفسيراتها الرصد والتصنيف والتفسير من منطلق ميداني، ما يتماشى ودعوة راتزل (Friedrich Ratzel)، لتأسيس علم جغرافي قائم على العلاقة بين الإنسان والمجال تؤطرها الطبيعة (Ratzel, 1897)، وأيضا بول فيدال دولا بلاش (Paul Vidal de la Blache) الذي يقر أن "الفعل الجغرافي يجب أن يفهم دائما على ضوء التفاعل الدينامي بين الإمكانات الطبيعية وأشكال التنظيم الاجتماعي (Vidal de la Blache, 1911, p 23).

المؤلف قيد التحليل يقوم على جملة من المناهج العلمية التي تداخلت لتؤسس لنواة إبيستيمولوجية واضحة، زاوجت بين الوصف والتحليل، بين الرؤية التصنيفية والملاحظة المباشرة، وبين التأصيل المنهجي والنقد الإبيستيمولوجي للمقاربات القديمة. بداية يتجلى المنهج الوصفي التحليلي كأحد الركائز المنهجية، فاعتمد على الملاحظة المباشرة للتطوهر الجغرافية البشرية، ودرسها في إطارها المجالي، مع تفكيك العناصر المؤثرة فيها، مشيرا إلى ذلك بالقول: "جميع البيانات التفصيلية في هذا الكتاب تقريبا أصلية، وتستند إلى ملاحظات مباشرة قمت بها شخصيا أو أجراها طلابي" (Brunhes, 1912, p III). كما وظف المنهج المقارن، من خلال دراسة حالات متنوعة من بيئات متباينة، بهدف تبيان الخصوصيات والأنماط العامة في الوقت نفسه، وهو ما يتمثل لنا على سبيل المثال لا الحصر في قوله "في الصحراء الكبرى كما في صحراء غوي، وفي 'المنطقة القاحلة' بالغرب الأمريكي كما في الجزيرة العربية، جميع مظاهر الحياة البشرية تتشكل بحسب توزيع المياه" (Brunhes, 1912, p 48).

تبنى برونيه أيضا المنهج الوضعي، من خلال موقفه النقدي تجاه التيارات الجغرافية التي كانت تنزع نحو التفسير المثالي أو الفلسفي أو السياسي، رافضا إدماج الميتافيزيقا أو الطروحات العرقية، ومعتبرا ذلك انحرافا عن المسار العلمي حيث صرح: "كتابي هو رد فعل ضد الخطابات الميتافيزيقية أو السياسية... لقد خضع مجهودنا بشكل صارم للمنهج الوضعي" (Brunhes, 1912, p V). أما بخصوص محاولته لبناء تصنيف منهجي فقد استدلل بالقول "ينبغي السعي أولا إلى تصنيف الوقائع في الجغرافيا البشرية، وفق القواعد الموضوعية للملاحظة" (Brunhes, 1912, p IV)، موظفا بذلك المنهج التصنيفي الاستقرائي، الذي يتجسد كذلك من خلال ما أسماه بـ "الوقائع الأساسية" (faits essentiels).

ومن أبرز ما يميز عمل برونيه أيضا هو دمج الشق النظري بالتحليل الميداني، من خلال الرسوم والصور والخرائط أي ما يصطلح عليه "التعبير الجغرافي"، ففي نظره أن غياب الصورة في الجغرافيا البشرية يفقدها طابعها العلمي، حيث يقول في هذا الصدد: "الجغرافيا البشرية أو الاقتصادية التي لا تتضمن الصور التوضيحية، ينبغي أن تعد من مخلفات الماضي" (Brunhes, 1912, p III)، ما يدفعنا للأخذ بالقول أن دمج الوسائل التوضيحية في التحليل الجغرافي يجعل من الجغرافيا البشرية علما بصريا وتحليليا في الوقت ذاته، كما أن هذا العمل لم يكتب ليوجه حصرا للباحثين بل ليكون كذلك مرجعا للطلبة والمدرسين، فقد أورد برونيه "فكرت قبل كل شيء في طلابي... وفي جميع الباحثين الراغبين في القيام بأبحاث شخصية ومحتاجون إلى خيوط منهجية تقودهم (Brunhes, 1912, p I)"، مما جعله يوظف المنهج التربوي/البيداغوجي، بحيث تتوقف في ثنايا الكتاب على استخدام الأمثلة، الأسئلة المنهجية، والتقسيمات الواضحة.

أهم مضامين فصول كتاب الجغرافيا البشرية لجون برونيه

يؤسس جون برونيه، في الفصل الأول من كتابه *La Géographie humaine*، لإطار نظري يروم تحليل العلاقات التبادلية بين النشاط الإنساني والظواهر الطبيعية، محددًا مجال الدراسة الجغرافية البشرية ضمن الفضاء الذي تتقاطع فيه الطبقة السفلى من الغلاف الجوي مع السطح الصلب للأرض، ففي هذا الحيز تتوزع الظواهر وتتجلى بصمة الإنسان كفاعل مركزي داخل مشهد كوني دينامي. كما يوضح برونيه أن الجغرافيا البشرية تتميز عن الجغرافيا الطبيعية بكونها لا تدرس ما كان سيحدث في غياب البشر، بل ما لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال تدخل البشر كالمدين والبنيات التحتية، إلى الزراعة والصناعة، وصولاً إلى الاستغلال المنجمية، وتحويل الأنهار، وتدمير الغطاء الغابي، كما يدرج ضمن ذلك حركية الهجرات، والأنشطة السياحية...، باعتبارها ظواهر تتولد عن الفعل الإنساني. في هذا السياق، يرى برونيه أن هذا الفعل يخلف آثاراً مادية قابلة للرصد والتحليل، ويجعلها ترتقي إلى مستوى ذو خصائص قابلة للدراسة العلمية.

أما الفصل الثاني فإنه لا يكمل فقط ما بدأه من حيث البناء المفاهيمي، بل يذهب خطوة أبعد في التأسيس لما يمكن أن نسميه "مصفوفة تحليلية" للجغرافيا البشرية، تستند إلى التصنيف، والتمييز، والتركيب، وينتقل لسؤال محوري: كيف يمكننا ترتيب هذه الوقائع تصنيفياً بطريقة إيجابية ومنهجية دون الوقوع في التجريد أو التبسيط المفرط؟ ليجيب بأن الوقائع البشرية التي تهم الجغرافي ليست منعزلة، بل مترابطة وتشكل نسقاً بنيوياً معقداً؛ وتتجلى من خلال تشكيلات مجالية قابلة للتصنيف والمقارنة، وهو ما يفرض "تسلسلاً إيجابياً للوقائع" (Brunhes, 1912, p 27)، بمعنى ترتيبها وفق معيار واقعي قائم على التجربة الميدانية، فالجغرافيا، في رأيه، لا تحتاج إلى التنظير بقدر ما تحتاج إلى أدوات تساعد على فهم تنوع الأنماط البشرية في المجال. ومن أجل هذا الغرض، يقترح تصنيفاً ثلاثياً للوقائع الجغرافية البشرية ستشكل لاحقاً نواة تحليلية في أعماله تتمثل في:

- أولاً، الوقائع المتعلقة بالإستيطان غير المنتج للأرض، أي تلك التي لا تفضي إلى تحويل مباشر للمجال الطبيعي والمتمثلة في فعل الإقامة والتنقل، مثل السكن، إنشاء الطرق، تركز الجماعات.
- ثانياً، الوقائع المرتبطة بالإستغلال النباتي والحيواني، أي تلك التي تتجلى في الزراعة وتربية المواشي، حيث يتحول الإنسان إلى كائن منتج يعيد تنظيم البيئة البيولوجية لصالحه.
- ثالثاً، الوقائع التدميرية أو الاستنزافية، التي تتجسد في الأفعال التي تستخرج من الطبيعة موارد غير قابلة للتجدد (كالخامات والمعادن) أو تدميرها (كإزالة الغابات أو صيد الحيوانات).

في الفصل الثالث تناول المؤلف "الوقائع الأساسية" المؤسسة للجغرافيا البشرية كعلم قائم على تصنيف دقيق للممارسات البشرية في المجال، حيث ركز على ما أسماه "الاستغلال غير المنتج للأرض"، من خلال السكن والطرق، باعتبارها أولى الآثار التي يجسدها الإنسان في المجال، وتشكل نواة التنظيم في كل المجتمعات، مهما اختلفت تقنياً أو أنظمتها الاقتصادية. إن المسكن، حسب تصور برونيه، ليس مجرد مأوى مادي لحماية الإنسان من المناخ، بل هو تجلٍ مكثف لثقافة المجتمع، ولبنية الاقتصادية والاجتماعية، ولتفاعله مع المجال المحيط به، فشكل البيت، مواده، اتجاهاته، موقعه، كلها عناصر تعكس توازناً دقيقاً بين الحاجة البيولوجية، والموارد الطبيعية، والقواعد التقنية، والرموز الثقافية. لذلك لا يمكن الحديث عن "مسكن نموذجي" موحد، بل يجب فهم المسكن كظاهرة متغيرة تتحدد بحسب المناخ، الغطاء النباتي، نوعية التربة، والموقع من المنحدرات أو الأنهار، إلى جانب المنظومة الرمزية التي يحملها المجتمع حول المجال والمقدس والجماعة، فالمسكن، كما يوضح الباحث، هو نقطة إلتقاء بين الجغرافيا والأنثروبولوجيا، بين الفيزياء الثقافية والطبيعة الاجتماعية، ومؤشر مركب على حالة المجتمع، يعبر من خلاله الإنسان عن نفسه ضمن مجال مادي قابل للرصد والتحليل.

إلى جانب السكن، يمنح برونيه للطرق نفس القدر من الأهمية، باعتبارها فعلا يعبر عن حاجة الإنسان للتنقل، الاتصال والهيمنة بل حتى الطقوس، فالطريق حسب تصوره، ليس مجرد خط يسهل الانتقال، بل تجسيد لمفاهيم اجتماعية مثل المسافة، المركزية، الحدود، فكلما تطور المجتمع، ازدادت درجة تنظيمه للمجال، وتعززت شبكته الطرقية لترتبط أكثر بالبنية الاقتصادية، لينبه في الوقت نفسه من اختزال الطريق في وظيفته النفعية، مؤكداً أنه أيضاً قناة ثقافية، وشكل من أشكال بسط السيادة، ووسيلة لتشكيل المجال سياسياً واجتماعياً. وهكذا يتحول المجال من مجرد سطح جغرافي إلى شبكة من الرموز والأدوار والعلاقات، ترسمها أفعال بشرية تتكرر وتتراكم لتترك "بصمة جغرافية" قابلة للدراسة. ولا يغفل برونيه التأكيد على أن دراسة هذه الوقائع يجب أن تتم من خلال منظور ديناميكي، فالمسكن يتغير عبر الزمن مع تغير التقنيات والأنماط الاجتماعية، والطريق يعاد تخطيطه مع كل دورة اقتصادية جديدة أو تحول سياسي، لهذا يشدد على أن الجغرافيا البشرية ليست علم "صور فوتوغرافية"، بل علم حركة وسيورة، يحاول أن يلتقط البنى الثابتة في قلب التغير المستمر، ما جعله يُنهي هذا الفصل بنداء منهجي يدعو فيه إلى ضرورة تجنب الصور النمطية، فالجغرافيا البشرية، في نظره، لا تبدأ من الكبريات، بل من البديهيّات الصغيرة التي تصنع العالم ببطء ولكن بثبات.

ويركز الفصل الرابع من الكتاب على المستوى الثاني من الوقائع الأساسية للجغرافيا البشرية، المتمثلة في تدخل الإنسان في النظام النباتي والحيواني من خلال أنشطة الزراعة وتربية المواشي، حيث تم إعتبارها من أقدم أشكال العلاقة الإنتاجية بين الإنسان والطبيعة، وأكثرها تحذراً في التاريخ والبنى الثقافية للمجتمعات، كما بين برونيه كيف أن الفعل الزراعي ليس مجرد نشاط اقتصادي أو بيولوجي، بل هو، في جوهره، فعل جغرافي بامتياز، لأنه يعيد تشكيل سطح الأرض بشكل منظم ومخطط، وينتج عنه تنظيم مجالي ذو دلالات، وإذا كان الفعل الزراعي يخضع لشروط الطبيعة (المناخ، التربة، الماء)، فإنه كذلك يعيد تنظيم هذه الشروط وفق نمط الإنتاج معتبرا إياه "ترويضاً حذراً للطبيعة"، يتوسط بين ما تتيحه البيئة وما يفرضه العقل البشري من تنظيم وتقنية. لينتقل بعد ذلك لتحليل الأشكال المختلفة للزراعة، مميزاً بين الزراعة التقليدية المعتمدة على أدوات بسيطة والمعرفة المتوارثة، وبين الزراعة الرأسمالية الحديثة التي توظف الآلات والأسمدة والأسواق، ويقر أن الشكل الزراعي لا يتحدد فقط بحسب الموارد المتاحة، بل بحسب النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي ينتمي إليه المجتمع.

إلى جانب الزراعة، يخصص برونيه قسماً من هذا الفصل للحديث عن تربية الحيوانات، بحيث اعتبرها شكلاً لغزو العالم النباتي، مع اختلاف على مستوى طبيعة العلاقة مع البيئة. فالرعي لا يتطلب دائماً تملكاً ثابتاً للأرض، بل يرتبط بحركة موسمية وبنمط تنقل يسمح بالاستفادة القصوى من الموارد النباتية حسب الفصول، وقد عزز الكاتب هذا التصور بأمثلة من المجتمعات الجبلية في جبال الألب، ومن الرحل في المناطق الجافة وشبه الجافة، ويؤكد أن فهم هذه الأنماط لا يتم من خلال النظر فقط في الموارد، بل من خلال فهم العادات والمؤسسات الاجتماعية التي توطر هذا التنقل. ليختتم الفصل بالتأكيد على أن دراسة الزراعة وتربية الحيوانات لا ينبغي أن تحتزل في منظور اقتصادي أو بيئي، بل يجب أن تدرج ضمن تحليل شامل يأخذ بعين الاعتبار البنية الاجتماعية، الإطار الثقافي، والتاريخ المحلي.

في حين شدد الكاتب في الفصل الخامس على ما يعتبره المجموعة الثالثة من "الوقائع الأساسية" التي ترتبط بما يسميه "الاقتصاد التدميري" أو الاستغلال الاستنزافي للطبيعة، حيث يتدخل الإنسان لا من أجل الإعمار أو الإنتاج المستدام، بل من خلال أنشطة تؤدي إلى التدهور البيئي واستهلاك الموارد كقطع الغابات، صيد الحيوانات حتى الانقراض، الصيد المفرط للأسماك، الاستنزاف الزراعي للأراضي، والأهم من ذلك كله، الأنشطة الاستخراجية، مثل التعدين واستغلال المحروقات، ففي هذا الفصل، ينتقل برونيه من الحديث عن الأشكال التي تعيد فيها المجتمعات تنظيم المجال من أجل البقاء أو التنمية، إلى صور الفعل البشري الذي يتسم بطابع

قصير الأمد، وتكون له تداعيات خطيرة على النظام البيئي، ويعتبر هذه الأشكال من الوقائع التدميرية لا تتم من فراغ، بل تنبع من أنماط اقتصادية وسياسية معينة، تقوم على منطق الربح والاستغلال السريع. كما لا يغفل برونيه الأبعاد الأخلاقية والاجتماعية لهذه الوقائع، حيث يلفت الانتباه إلى أن الاقتصاد التدميري غالبا ما يصاحب بحالات من اللامساواة وبذلك يجب على الجغرافيا البشرية ألا تكتفي بوصف ما هو كائن، بل ينبغي أن تنخرط نقديا في تحليل تداعيات الفعل البشري على البيئة والمجتمعات.

الفصل السادس من الكتاب يشكل انتقالا نوعيا في مسار الكتاب، حيث ينتقل من التصنيف النظري للوقائع الجغرافية إلى تطبيق ميداني ملموس من خلال دراسة حالة مونوغرافية اختار فيها الباحث واحات منطقتي سوف ومزاب في الجزائر كنموذجين لما يسميه بـ"الوحدات الطبيعية الصغيرة"، وهي وحدات جغرافية محددة المساحة، متماسكة في بنيتها البيئية والاجتماعية، ويمكن من خلالها تتبع التفاعل المركب بين الإنسان والمجال في سياقه الحي والمعاش، وبأني هذا التوجه كتجسيد لمنهجه العام القائم على الانتقال من المجرد إلى الملموس، ومن التصنيف إلى الملاحظة.

في وصفه لواحات سوف الواقعة جنوب شرق الجزائر، يبرز جون برونيه ذكاء الإنسان في تدير النقص الحاد في المياه من خلال نظام زراعي استثنائي يعتمد على الآبار العميقة المحفورة وسط الرمال، والمخصصة لري أشجار النخيل المزروعة في تجاويف أرضية، وهي تقنية تتيح الاحتفاظ بالرطوبة والتقليل من التبخر، وهكذا تتحول البيئة القاحلة من بيئة طاردة، إلى مجال منتج ومتكيف، تعيد فيه الجماعة إنتاج استقرارها من خلال عمل مشترك طويل الأمد. أما في مزاب، فيكشف الكاتب عن مجتمع أمازيغي محافظ، أنشأ نظاما متطورا لتوزيع المياه وفق قواعد صارمة، وعبر شبكة من القنوات والخزانات، ما مكنه من الاستقرار في منطقة قاحلة وإقامة عمران دقيق يراعي التششف في الموارد ويكرس مبدأ التضامن، مما يعبر عن تنظيم اجتماعي دقيق، قائم على تقاليد تعاقدية مكتوبة وغير مكتوبة، وعلى قيم أخلاقية تحكم تقاسم المياه والعمل الجماعي، فالعلاقة بين المجال الطبيعي والمجتمع في هذا السياق ليست علاقة تسخير تقني فقط، بل علاقة مؤسسية، حيث يعيد المجتمع بناء مجاله من خلال قواعد تعاقدية تؤطر العلاقة بين الفرد والموارد.

يتابع برونيه في الفصل السابع توجهه التطبيقي من خلال دراسة مونوغرافية ثانية، تحاول مقارنة النموذج الصحراوي الذي تناوله في الفصل السابق، لكنها تذهب هذه المرة إلى بيئة جبلية أوروبية، تحديدا وادي أنيفيه (Val d'Anniviers) في جبال الألب السويسرية، حيث يبدأ بتحليل الإطار الطبيعي ملاحظا أنه مع انخفاض درجات الحرارة، يقصر موسم الزراعة، وتتعقد أشكال التنقل بفعل الانحدارات والثلوج، ما دفع بسكان الوادي لتطوير نمط من الاستقرار يعتمد على "التوازن"، حيث تستغل الموارد وفق إيقاع دقيق ومنضبط: الرعي في المرتفعات خلال الصيف، الزراعة في السفوح الدافئة خلال الربيع، والعودة إلى المساكن الشتوية في القرى خلال البرد القارس، ويعتبر برونيه هذه الدينامية الموسمية ليست مجرد تكيف فيزيائي، بل تنظيم اجتماعي شامل، يرتبط بتقويم زمني دقيق، ويوزع المهام حسب العمر والنوع، في انسجام عضوي بين الإنسان والمجال. ويمكن لنا ان نستخلص من خلال هذه المونوغرافية، دفاع برونيه عن فكرة مفادها أن المجتمعات "الهامشية" -سواء في الجبال أو الصحارى- ليست هامشية بالنظر لموقعها وقاعدة المركز والهامش ولكن من حيث القدرة على التنظيم والإبداع، وقدرة الإنسان على ابتكار حلول ذكية مستدامة.

في الفصل الثامن من كتاب *La Géographie humaine* نتقل من الوصف التحليلي للوقائع الكبرى إلى مقارنة تركيبية تستكشف الروابط العميقة بين الإنسان ومحيطه في أطر معرفية أوسع، فالفصل يتضمن أربعة محاور رئيسية: الجغرافيا الإقليمية، الجغرافيا الإثنوغرافية، الجغرافيا الاجتماعية، وأخيرا الجغرافيا السياسية والتاريخية، في محاولة لإبراز كيف يمكن للجغرافيا البشرية أن تفتح على العلوم المجاورة دون أن تفقد خصوصيتها المنهجية. ففي معالجة الجغرافيا الإقليمية، يعتمد برونيه على مفهوم "الجزيرة" باعتبارها

وحدة طبيعية منغلقة، وتمثل مجالا مثاليا لدراسة تفاعل الإنسان مع بيئته، ثم ينتقل إلى البعد الإثنوغرافي، ليؤكد أن الفروقات المحلية لا تفهم إلا عبر استحضار التنوع العرقي والثقافي، حيث يشكل الانتماء الإثني والديني محددًا رئيسيًا للسلوك الإنساني في المجال.

أما في القسمين الثالث والرابع، فيوسع برونيه أفق التحليل بربط الجغرافيا البشرية بعلم الاجتماع من خلال مفهوم الجغرافيا الاجتماعية، مركزا على أنماط التنظيم المجتمعي واستغلال المجال وتوزيع السكان، مع تبيان كيف يمكن للعمارة، سواء أكان قرويا أو حضريا، أن يجسد ويعبر عن الفوارق الاجتماعية بطريقة ملموسة. وفي امتداد لذلك، يقدم الجغرافيا السياسية والتاريخية كآلية لفهم إعادة تشكيل المجال عبر منطق السلطة والصراع، مشيرا إلى الحدود وتحولها بفعل التغيرات التاريخية، كما يظهر في أمثلة الحدود المغربية الجزائرية، ويختتم بالدعوة إلى "جغرافيا تركيبية" قادرة على استيعاب المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ضمن رؤية نسقية شاملة، تركز الانتقال من علم الوصف إلى علم الفهم والتفسير، معيدة الاعتبار للإنسان كصانع للمجال داخل سياقات تاريخية واجتماعية متغيرة.

في الفصل التاسع، ينتقل جون برونيه من التأسيس النظري والتحليلي للجغرافيا البشرية إلى معالجة سؤال جوهري يتعلق بتعليم الجغرافيا ذاتها، خصوصا في شقها الاقتصادي، حيث يكتسي هذا الفصل بعدا بيداغوجيا ومنهجيا أكثر من كونه وصفيا أو نظريا، حيث يقدم رؤية نقدية حول الطريقة التي تدرس بها الجغرافيا الاقتصادية وأن هناك حاجة لتجديد المناهج والأدوات، خصوصا فيما يتعلق باستخدام المعطيات الإحصائية، ففي نظره، لا ينبغي أن تكون الإحصائيات هدفا، بل وسيلة توضيحية توظف في إطار تحليلي يراعي التنوع الجغرافي والدينامية المحلية، لأن الأرقام، ينبغي "أن تكون ناطقة" بإدماجها في سياق تفسيري يربط بين الظاهرة المحلية والمعطى الكمي، فقدم على سبيل المثال، دراسة إنتاج القطن إذ لا يجب أن تقتصر على إحصائيات الدول المنتجة والكميات، بل أن تتناول بالتحليل مهارة اليد العاملة، تقنيات الزراعة، علاقات التصدير، وحتى السياسات الدولية المتحكم في سوق القطن.

يقترح أيضا برونيه إعادة النظر في مضمون البرامج الدراسية، بحيث لا تبقى حبيسة الجغرافيا الكلاسيكية الوصفية، بل تنفتح على قضايا العالم المعاصر مثل التفاوتات المحلية، التحولات الاقتصادية، والاستغلال المفرط للموارد، مشددا على ضرورة تدريس الجغرافيا بوسائل تفاعلية تتجاوز الدرس الإلقائي، وتوظف الوسائط البصرية، الخرائط الدينامية، والتمثيلات المحلية. وفي هذا الإطار، يلح الكاتب على البعد التربوي للجغرافيا، لما له من قدرة على تشكيل وعي وتفاعل الفرد بمحيطه، فالتعليم الجغرافي الجيد هو ذاك الذي يكسب التلميذ القدرة على الفهم والتحليل، لا على التلقين والاستظهار. وهو بهذا يطرح تصورا بيداغوجيا حدثا سبق عصره، يتماهى مع التصورات المعاصرة التي ترى في الجغرافيا أداة للفهم لا مجرد مادة.

في الفصل العاشر من كتاب *La Géographie humaine*، يقدم جون برونيه تأملا فكريا عميقا حول ما يسميه "الفكر الجغرافي"، متجاوزا بذلك الجغرافيا كعلم وصفي إلى جعلها أداة إدراك شاملة للواقع البشري والطبيعي. ويقوم هذا الفصل على تحليل ثلاثة محاور كبرى: الفكر الجغرافي في العلوم الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية، العامل النفسي في تفسير العلاقات بين الإنسان والطبيعة، ثم مفهوم التكيف البشري، كمحور نهائي يجمع بين العلم والفلسفة والواقع.

ويبرز برونيه في مستهل الفصل، كيف أن الفكر الجغرافي حاضر في العلوم الاقتصادية والاجتماعية، فاقتصاد الموارد، مثلا، لا يفهم إلا من خلال التوزيع المجالي للثروات، ولا يمكن تصور الفعل التاريخي بمعزل عن المحددات الجغرافية التي تؤطره. ينتقل بعدها إلى مناقشة العامل النفسي في تفسير العلاقات بين الإنسان والوسط، مشكلا بذلك مساهمة نظرية بارزة في مجال الجغرافيا البشرية معللا هذا التوجه بأن العلاقة بين الإنسان والبيئة لا تقوم على نتيجة سببية حتمية، بل على نوع من "الارتباط السيكلولوجي" الذي تشكل من خلاله الاختيارات الفردية والجماعية، ويقدم في هذا الإطار مثلا حول الفحم الحجري الذي لم يكن مهما حتى قرر الإنسان

استغلاله بناء على حاجياته، ما يعني أن القيمة الجغرافية للموارد لا ترتحن إلى وجودها الطبيعي، بل تستند إلى قابليتها للإدماج في نسق سلوكي إنساني، وبعبارة أخرى التحولات الاقتصادية التي تحدث بعد إدماج موارد طبيعية في منطق السوق بفعل الإرادة الإنسانية.

في القسم الأخير من الفصل، يعالج برونيه مسألة التكيف البشري مع الشروط الجغرافية كأحد أهم مظاهر الذكاء الجغرافي، حيث يقدم حالات نموذجية لأماكن تمكن الإنسان فيها، رغم صعوبة الظروف الطبيعية، من بناء أشكال متقدمة من الاستيطان والتنمية. ويُبرز هنا المثال البليغ لقرى بحيرة مايوركا، حيث تمكنت الساكنة من بناء مدرجات زراعية في تضاريس وعرة وصخرية بجهود ترمز إلى إرادة الحياة أمام الطبيعة القاسية، وهنا، يدمج الباحث التحليل الجغرافي بالبعد الأخلاقي، ليجعل من الجغرافيا شهادة على إبداع الإنسان في التغلب على قسوة الطبيعة. ويختتم برونيه هذا الفصل بفكرة مركزية مفادها أن الروح الجغرافية هي قبل كل شيء قدرة على الربط، وعلى رؤية العالم كوحدة متشابكة من العلاقات المكانية والزمانية، لا كمجرد تجميع لملاحظات متناثرة. إنها طريقة في التفكير تعلمنا كيف نقرأ الأرض كبنية دلالية حاملة للمعنى، وبهذا تصبح مهمة الجغرافي لا تقتصر على وصف الأرض بل على فهم الإنسان في علاقته بها، وعلى إظهار كيف تصاغ الحضارات في أحضان التضاريس والمناخات.

مناقشة نتائج قراءة كتاب *La Géographie humaine*

تعد قراءة كتاب *La Géographie humaine*، لجون برونيه بمثابة الغوص في لحظة معرفية مؤسسية في تاريخ الجغرافيا، حيث تتجلى الإرادة العلمية لإعادة صياغة العلاقة بين الإنسان والمجال، والسعي إلى تجاوز الحتميات الوضعية والانطباعات الوصفية نحو تحليل تركيبي قائم على الملاحظة الميدانية والمعطى المادي. وحيث لا ندعي في هذه المقالة الإلمام التام بكل تفاصيل هذا العمل الضخم، فإننا نرى فيه محاولة علمية تتماشى وروح برونيه نفسه، الذي دعا إلى إبقاء باب النقاش والبحث مفتوحا في حقل الجغرافيا البشرية.

في هذا الإطار، يبقى أثر الإنسان على المجال كما ذكر برونيه (Brunhes, 1912, p. 5) شبيها بتأثيرات قوى الطبيعة على السطح، وهي فكرة تتقاطع مع ما أكده Alexander von Humboldt حين اعتبر أن "الإنسان قوة جغرافية لا تقل أهمية عن البراكين والأنهار" (Humboldt, 1845, p. 17)، كما ينسجم هذا الطرح مع Élisée Reclus الذي رأى أن النشاط البشري "يعدل باستمرار ملامح سطح الأرض، تماما كما تفعل القوى الطبيعية الكبرى"، (Reclus, 1867, p. 12)، هذه الاعتبارات تدفعنا لاستحضار تحذيرات جيمس فريمان كلارك (James Freeman Clarke) الذي قال "كلما ازدادت قدرة الإنسان على استغلال الطبيعة، كلما ازدادت مسؤوليته عن مصيرها" (Clarke, 1874, p. 159)، ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن الفكر الجغرافي لدى برونيه وعلى الرغم من انتمائه للمدرسة الإمكانية فقد آمن بقدرة الطبيعة على التأثير على الإنسان كذلك. وبخصوص تصور الوقائع الجغرافية بوصفها ظواهر تخضع لضرورة دائمة، سواء تعلق الأمر بالعناصر الطبيعية أو البشرية، فقد ربطها برونيه جغرافيا بمبدأ التحول المستمر، من خلال قوله "كل شيء يتحول من حولنا" (Brunhes, 1912, p. 9)، غير أن هذه النظرة الديناميكية كان سباقا إليها ألفرد هيتنر (Alfred Hettner)، حين قال "جميع الظواهر الجغرافية يجب أن تفهم في علاقتها بالمجال والزمان، لا ككيانات منعزلة" (Hettner, 1905, p. 548)، في المقابل يمكن القول ان محاولة التصنيف المقترحة في كتاب الجغرافيا البشرية كانت تثير تحفظات علمية من طرف مجموعة من الباحثين من قبيل (Halford Mackinder) بقوله أن "التصنيفات الجغرافية البشرية تخاطر بتبسيط تعقيد التجربة الإنسانية" (Mackinder, 1904, p. 426)، مما يستدعي الحذر عند التعامل مع نماذج برونيه التطبيقية.

أما فيما يخص تناوله "الاقتصاد التدميري" الذي إختار له برونيه المصطلح الألماني "Raubwirtschaft"، فيمكن اعتباره وعيا مبكرا بإشكالية الاستنزاف البيئي، فالإنسان في نظره "غالبا ما يدمر بيئته بدلا من أن يستثمرها" (Brunhes, 1912, p. 187)، من خلال الأساليب التي لا تراعي مبدأ الاستدامة، مستدلا أن "في سعيه لإشباع حاجاته، يدمر أحيانا توازنات بيئية دقيقة تراكمت عبر آلاف السنين" (Brunhes, 1912, p. 42)، فهذا "النهب الأعمى لا يؤدي فقط إلى نضوب الموارد بل يهدد مباشرة شروط الحياة نفسها" (Brunhes, 1912, p. 44)، ما يتقاطع وتحذيرات George Perkins Marsh بأن التدمير الإنساني للطبيعة أسرع بكثير من قدرتها على التعافي (Marsh, 1864, p. 35)، يدعمه أيضا طرح Ian Burton الذي يرى في كل فعل جغرافي فعلا بيئيا (Burton, 1978, p. 18)، وعلى العكس من هذا فإن David Harvey ينتقد تصور برونيه في رؤية البيئة كضحية مباشرة للفعل الإنساني لأنها تخفي العلاقات الاقتصادية-السياسية (Harvey, 1996, p. 55)، فدراسة هذه العلاقة بين الإنسان والطبيعة بهذا الشكل أسس في فترة برونيه للخطاب الكارثي الذي يحمل الإنسان مسؤولية التدهور البيئي والإستغلال غير المعقلن للموارد الطبيعية في الوقت الذي يمكن القول فيه أن الإنسان هو عنصر من العناصر الطبيعية ويجب أخذه بعين الاعتبار في شموليته لأن العلاقة بينهما ليست علاقة فردية معزولة أي مجرد إنسان يؤثر في بيئته، بل يجب أن تدخل ضمن نظام اقتصادي-سياسي-اجتماعي أوسع.

إيلاء برونيه أهمية قصوى للملاحظة المباشرة، التي نفهمها من خلال "الدرس الحق للجغرافيا البشرية يبدأ من الحقل، لا في الكتب" (Brunhes, 1912, p. 97)، هي رؤية تتقاطع وتؤكد William M. Davis أن "الجغرافيا الحية لا تكتب في المكاتب بل تكتب تحت الشمس" (Davis, 1889, p. 186)، ومع ذلك، يحذر Doreen Massey من الانجذاب المفرط للحقائق الميدانية دون تحليل علاقاتها البنوية (Massey, 1994, p. 120)، ما يشير لضرورة ربط الملاحظة بالتفسير النقدي. أما فيما يخص فكرة أن الإنسان يعدل المجال كما يعدله المجال نفسه (Brunhes, 1912, p. 45)، فإن هذه الرؤية يتفق معها كذلك Yi-Fu Tuan حين كتب "المجال ليس فقط خلفية لأفعال الإنسان، بل هو كذلك نتاج لهذه الأفعال" (Tuan, 1977, p. 9)، كما أكد ذلك Claude Raffestin كون "المجال هو علاقة وسلطة وممارسة" (Raffestin, 1980, p. 37)، أما في معرض تناوله للعمران بالأرياف، وأن البيئة الطبيعية تحدد توزيع القرى والمزارع (Brunhes, 1912, p. 155)، فقد اختلف معه Peter Haggett حيث حذر من حصر تحديد السلوك البشري بالعوامل الطبيعية، لكون "الاختيار البشري والظروف الاجتماعية لا يقلان تأثيرا عن التأثيرات البيئية" (Haggett, 2001, p. 88)، مما يستدعي اعتماد رؤية تراوح بين الحتمية والاحتمالية.

أما فيما يخص حقل الجغرافيا الاقتصادية، فقد اعتبر برونيه أن التوزيع الصناعي يرتبط ارتباطا وثيقا بتوافر الموارد الطبيعية (Brunhes, 1912, p. 295)، مما يعكس قناعته بتصور بيئي حتمي يرى في البيئة المحدد الأساسي للأنشطة الاقتصادية. هذا التوجه لقي تأييدا من طرف Paul Claval الذي يؤكد أن "الجغرافيا الاقتصادية تبتدئ بدراسة المواد الخام" (Claval, 1995, p. 22)، وهو ما ينسجم مع أطروحة Allen Pred القائلة بأن "التوزيع الجغرافي للموارد يحدد أنماط الإنتاج" (Pred, 1966, p. 67)، غير أن هذا المنظور الحتمي لا يخلو من انتقادات، إذ يرى David Ley أن "التفسيرات البيئية كثيرا ما تغفل البعد الثقافي والسياسي في التوزيع الاقتصادي" (Ley, 1983, p. 91)، وهو نقد يعيد الاعتبار للعوامل الرمزية والمؤسسية في تفسير الخريطة الاقتصادية.

وفي امتداد لهذا المنظور البيئي، ينتقل برونيه إلى الجغرافيا الإقليمية ليؤكد أن "الوحدة الجغرافية المثالية هي تلك التي تقدم تماسكا فيزيائيا واجتماعيا معا" (Brunhes, 1912, p. 71)، وهو طرح يبرز مركزية الجغرافيا الطبيعية في تفسير التكوينات المحلية، ومستمر في إبراز العلاقة الجدلية بين الإنسان والبيئة، من خلال تمييزه بين الاقتصاد المنتج والاقتصاد المدمر، يشير إلى أن "الاستنزاف البشري للموارد الطبيعية غالبا ما يفضي إلى تصحر مادي ومجتمعي" (Brunhes, 1912, p. 187)، وهو ما يجعله من الأوائل الذين نبهوا إلى الأثر البيئي السلبي للأنشطة الاقتصادية في سياق ما يمكن اعتباره وعيا مبكرا بالاستدامة.

وانطلاقا من هذا التعدد النظري والتباين في المواقف، يظل السؤال الإشكالي اليوم قائما: إلى أي حد يمكن للجغرافيا البشرية، كما أسس لها برونيه، أن تواكب التحولات المحلية الراهنة وتقدم إجابات علمية رصينة حول الديناميات السوسيو-اقتصادية المتسارعة التي يعرفها العالم المعاصر؟

خاتمة

لقد كشف كتاب *La Géographie humaine* عن ميلاد توجه إبيستيمولوجي في حقل الجغرافيا البشرية، قائم على الربط بين الملاحظة الميدانية الدقيقة، التصنيف العلمي، والتحليل التركيبي للفعل الإنساني، حيث انطلق برونيه من مبدأ أن الظاهرة البشرية ليست مجرد أثر عرضي على سطح الأرض، بل جزء من بنية المجال الجغرافي (Brunhes, 1912, p. 11)، ما جعله يعيد تعريف الإنسان بوصفه فاعلا بنويا في تشكيل الجغرافيا، لا مجرد خاضع متغير تابع للعوامل الطبيعية، هذا الطرح يلتقي مع ما صاغه الجغرافي الفرنسي (André Chevré)، فالفاعل بين الإنسان والأرض في نظره لا يخضع للحمية، بل لمنطق التفاوض المستمر بين الإمكانات الطبيعية والإرادات البشرية (Chevré, 1918, p. 44)، ما يعزز رؤية برونيه للمجال الديناميكي في تحوله الدائم. فكتاب برونيه الذي قام على ثلاثة مبادئ جوهرية: النشاط والتحول والترابط، أرست أساس التفكير الجغرافي الحديث وأطلقت ديناميات أكاديمية جديدة في دراسة المجتمعات والبيئات، رغم ما صاحبها من نقاشات حادة وانتقادات مثمرة أسهمت في نضج الجغرافيا البشرية كمجال علمي مستقل.

أما بخصوص البعد المنهجي، الذي انتقد فيه برونيه الوصفية السطحية، مقترحا الرصد الميداني المدعوم بالتفسير النظري (Brunhes, 1912, p. 27)، فإنه يتقاطع مع الجغرافي الإنجليزي إيرنست جورج رافينشتاين، الذي أكد أن "دراسة حركات البشر، واستيطانهم، وأنشطتهم يجب أن تتم بمنهج علمية تستند إلى الرصد الكمي والنوعي معا" (Ravenstein, 1885, p. 200)، مع أهمية الإشارة لما نبه إليه الجغرافي الإسباني رامون أولاجا (Ramón Ollaja) ف "الإنسان لا يسكن المجال فحسب، بل يعيد صياغته اجتماعيا واقتصاديا بما يتجاوز معطيات الطبيعة" (Ollaja, 1920, p. 71)، مما يؤكد أن الرؤية الجغرافية الحديثة تتطلب تجاوز المعطى الطبيعي المحض، نحو قراءة اجتماعية واقتصادية للمجال. أما على مستوى العلاقة بين المجال والزمن، التي رأى فيها برونيه كون آثار الشعوب تتراكم كما تتراكم الطبقات (Brunhes, 1912, p. 531)، فإنه تصور يتلاقى ورؤية لوسيان فيبر (Lucien Febvre) الذي اعتبر "الجغرافيا لا تكتمل إلا عبر دمج البعد الزمني في تحليل المجال (Febvre, 1922, p. 12)".

وعلى الرغم من الأهمية التأسيسية لكتاب برونيه، فيمكن القول أنه على المستوى النظري، اقتصر تحليله بشكل كبير على العوامل الطبيعية، متجاهلا العوامل الاجتماعية والاقتصادية الحاسمة، حيث نجد في هذا الصدد، إشارة كاستلز على أن "المجتمعات الشبكية المعاصرة تنتج مجالات اجتماعية تختلف جذريا عن النماذج التقليدية" (Castells, 1996, p. 412)، كما أغفل العمل على دور الهويات الثقافية في تشكيل المجال، رغم أهميتها البالغة كما تظهر في أعمال ماسي (Massey, 1994, p. 121)، بالإضافة

إلى ذلك فإن عدم معاصرة برونيه لتقنيات أساسية في الجغرافيا المعاصرة، لا سيما تقنيات الاستشعار عن بعد التي أصبحت على حد قول لاکوست "شرطا أساسيا لفهم ديناميات المجال" (Lacoste, 1976, p. 15)، دون أن ننسى تأثير العولمة في إعادة تشكيل العلاقات المجالية، لكونها "تعيد رسم الخرائط الاقتصادية والاجتماعية باستمرار" (Mérenne-Schoumaker, 1993, 22).

وإن لم يخل عمله من بعض ملاحظات، فإنه يبقى من المؤكد كون جون برونيه قدم من خلال كتاب *La Géographie humaine*، اللبنات الأساسية لفهم الجغرافيا البشرية كعلم دينامي متكامل، قائم على الاعتراف بالعلاقة العضوية بين الإنسان والطبيعة، وعلى تبني مقارنة نقدية تحترم تعقيد الظواهر دون التفريط في الصرامة المنهجية، وهي مقارنة تفرض راهنتها في ظل تعقد القضايا المجالية المعاصرة، ما يجعل من إرث برونيه منارة فكرية في تطوير الجغرافيا البشرية لعلم دينامي تفسيري شمولي.

لائحة المصادر والمراجع:

- Agnew, J. (1987). *Place and politics: The geographical mediation of state and society*. Boston: Allen & Unwin.
- Brunhes, J. (1912a). *La géographie humaine: Essai de classification positive. Principes et exemples* (2e éd.). Paris: Félix Alcan.
- Brunhes, J. (1912b). *La géographie humaine*. Paris: Félix Alcan.
- Burton, I. (1978). *Environment and behavior*. London: Methuen.
- Claval, P. (1995a). *La géographie culturelle*. Paris: Nathan.
- Claval, P. (1995b). *La pensée géographique*. Paris: Nathan.
- Davis, W. M. (1889). Rivers and valleys of Pennsylvania. *National Geographic Magazine*, 1(3), 183–254.
- Massey, D. (1994). *Space, Place, and Gender*. University of Minnesota Press.
- De Martonne, E. (1920). *Traité de géographie physique*. Paris: Armand Colin.
- Demangeon, A. (1931). *Les fondements de la géographie humaine*. Paris: Gallimard.
- Geddes, P. (1915). *Cities in evolution*. London: Williams & Norgate.
- Castells, M. (1996). *The Rise of the Network Society*. Oxford: Blackwell.
- George, P. (1951). *La géographie humaine: Essai d'interprétation*. Paris: Presses Universitaires de France.

- Mérenne-Schoumaker, B. (1993). *La mondialisation de l'économie*. Paris: Nathan.
- Haggett, P. (2001). *Geography: A global synthesis*. Upper Saddle River, NJ: Prentice Hall.
- Harvey, D. (1996). *Justice, nature and the geography of difference*. Oxford: Blackwell.
- Hettner, A. (1905). *Geographie: Ihre Geschichte, ihr Wesen und ihre Methoden*. Leipzig: Teubner.
- Humboldt, A. von. (1845). *Kosmos*. Stuttgart: Cotta.
- Lacoste, Y. (1976). *La géographie, ça sert, d'abord, à faire la guerre*. Paris: Maspero.
- Lacoste, Y. (1993). *Dictionnaire de géopolitique*. Paris: Flammarion.
- Lévy, J., & Lussault, M. (2003). *Dictionnaire de la géographie et de l'espace des sociétés*. Paris: Belin.
- Ley, D. (1983). A social geography of the city. *Progress in Human Geography*, 7(1), 89–92.
- Livingstone, D. N. (1992). *The geographical tradition: Episodes in the history of a contested enterprise*. Oxford: Blackwell.
- Mackinder, H. J. (1904). The geographical pivot of history. *The Geographical Journal*, 23(4), 421–437.
- Marsh, G. P. (1864). *Man and nature*. New York: Charles Scribner.
- Massey, D. (1994). *Space, place, and gender*. Minneapolis: University of Minnesota Press.
- Pred, A. (1966). *The spatial dynamics of U.S. urban-industrial growth*. Cambridge, MA: MIT Press.
- Pumain, D., & Robic, M.-C. (2002). *Les concepts de la géographie humaine*. Paris: Armand Colin.
- Raffestin, C. (1980). *Pour une géographie du pouvoir*. Paris: Litec.
- Ratzel, F. (1897). *Anthropogeographie*. Stuttgart: J. Engelhorn.
- Reclus, E. (1905). *L'homme et la terre*. Paris: Librairie Universelle.
- Retailé, D. (2000). *L'espace mobile*. Paris: CNRS Éditions.

- Robic, M.-C. (1996). *Territoires, savoirs, identités: Pour une histoire comparée de la géographie*. Paris: CNRS Éditions.
- Santos, M. (1994). *Por uma outra globalização*. São Paulo: Record.
- Sauer, C. (1925). The morphology of landscape. *University of California Publications in Geography*, 2(2), 19–53.
- Smith, N. (1984). *Uneven development*. New York: Blackwell.
- Soja, E. (1989). *Postmodern geographies: The reassertion of space in critical social theory*. London: Verso.
- Tuan, Y.-F. (1977). *Space and place: The perspective of experience*. Minneapolis: University of Minnesota Press.
- Vidal de la Blache, P. (1911). *Principes de géographie humaine*. Paris: Armand Colin.
- Von Humboldt, A. (1845). *Kosmos: Entwurf einer physischen Weltbeschreibung*. Stuttgart: Cotta.

دور وسائل التواصل الاجتماعي في تعزيز مؤشرات التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين

يوسف بوهراوة

طالب باحث سلك الدكتوراه تخصص علم النفس

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس، المغرب

منال اضليعة

حاصلة على الإجازة في الدراسات الإنجليزية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز، فاس، المغرب

علاء الدين الصباغ

صحافي خريج المعهد العالي للصحافة والإعلام بالدار البيضاء

حاصل على الإجازة في علم الاجتماع من جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز، فاس، المغرب

المملكة المغربية

الملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى دراسة دور وسائل التواصل الاجتماعي في تعزيز التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين خاصة في ظل الأهمية المتزايدة لوسائل التواصل الاجتماعي في حياتهم الاجتماعية، اعتمدت الدراسة على منهج كمي، حيث تم جمع بيانات من 42 طالب وطالبة، من خلال استبيان إلكتروني مكون من 11 سؤالاً. أظهرت النتائج المدعومة بإطار نظري متين، أن غالبية الطلبة يستخدمون مواقع التواصل الاجتماعي بانتظام، حيث يقضون في المتوسط من ساعتين إلى ثلاث ساعات على هذه المنصات، مع تفضيل ملحوظ لمنصتي فيسبوك وانستغرام، كما أظهرت الدراسة أن التفاعلات عبر وسائل التواصل الاجتماعي تؤثر بشكل متنوع على الرضا بالذات، واعتماد هذه المنصات كوسيلة للمتعة والترفيه.

الكلمات المفتاحية: دور، وسائل التواصل الاجتماعي، تعزيز، مؤشر، التمكين النفسي، الطلبة الجامعيين.

1- مقدمة :

أضحت وسائل التواصل الاجتماعي، مع التقدم التكنولوجي المتسارع، ضرورة ملحة في الحياة اليومية، خاصة في أوساط الطلبة الجامعيين والشباب، ولعبت هذه الوسائل دوراً معتبراً في تغيير نمط العلاقات الاجتماعية وأشكال التعبير عن الذات، إذ انتقلت منصاتها نظير فايسبوك، إكس(تويتر)، إنستغرام، من نطاقها المقتصر على تحقيق التواصل والترفيه، إلى التأثير المتنامي على الأبعاد النفسية والسلوكية (kaplan&cheanlein, 2010)

وتعاضمت التساؤلات العلمية بشأن ما لهذه الوسائل من تأثير في تشكيل هوية الأنا والإحساس بالثقة في النفس وتملك سلطة القرار، الأمر الذي يعكس متانة العلاقة حيال التمكين النفسي كمفهوم.

ويمثل التمكين النفسي حالة من الإحساس باستقلالية اتخاذ القرارات المؤثرة في مسار حياة الفرد، فضلاً عن الشعور بالقدرة والانتماء (Zimmerman, 1995).

ويستأثر مفهوم التمكين النفسي باهتمام بالغ في الوسط الجامعي، إذ تعترض الطلبة الجامعيين مجموعة من الإكراهات المرتبطة بالاستقلالية وتكوين الذات، ما يكسب البحث في سبل تعزيز التمكين النفسي لدى الطلبة مكانة لا محيد عنها، مما يثير التساؤل بشأن درجة تأثير وسائل التواصل الاجتماعي في تعزيز هذا الصنف من التمكين عند الطلبة الجامعيين، سيما إزاء ما تقدمه من فضاءات للتعبير وتقاسم المعرفة والدعم الاجتماعي.

تكشف الدراسات الحديثة ما قد يقدمه التوظيف الإيجابي لوسائل التواصل الاجتماعي من إسهام في تعزيز درجات التمكين النفسي، انطلاقاً من بناء الهوية الذاتية، وتوفير مساحات التعبير عن الرأي والانسجام في قضايا المجتمع، بالإضافة إلى تقوية العلاقات الداعمة (al-debei et Al, 2013)، فضلاً عن ما يمكن أن يقدمه التفاعل الإيجابي وسط المجتمعات الافتراضية من تعزيز لمشاعر الثقة بالنفس وتملك أدوات التأثير، الأمر الذي يؤثر على نحو مباشر في الصحة النفسية للطلبة الجامعيين وفي مستويات تحصيلهم العلمي.

بناءً على كل ما سبق يكتسب هذا العمل أهميته في دراسة العلاقة بين استعمال وسائل التواصل الاجتماعي وبين التمكين النفسي في أوساط الطلبة الجامعيين، ضمن مسعى تحليل الجوانب الإيجابية التي توفرها هذه الوسائل، وتوجيه استثمارها في السياقات الأكاديمية والنفسية بما يعزز مستوى نمو الطلبة وارتقائهم الذاتي والاجتماعي.

2 - مشكلة البحث

شهدت السنوات الأخيرة ازدياداً كبيراً في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي بين فئة الشباب، وخصوصاً الطلبة الجامعيين. هذا الاستخدام المتزايد يثير تساؤلات حول تأثيره على الأبعاد النفسية المختلفة، ومنها التمكين النفسي، الذي يشير إلى قدرة الفرد على الإحساس بالتحكم في حياته واتخاذ القرارات بثقة. ورغم إيجابيات وسائل التواصل الاجتماعي في توفير منصات للتعبير عن الرأي وبناء العلاقات والدعم النفسي، إلا أن هناك مخاوف من آثار سلبية مثل العزلة أو الاعتماد المفرط أو المقارنات الاجتماعية.

وبالتالي تتمثل مشكلة البحث في السؤال الرئيس:

ما دور وسائل التواصل الاجتماعي في التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين؟

3: أهداف البحث

- التعرف على مدى استخدام الطلبة الجامعيين لوسائل التواصل الاجتماعي.
- الكشف عن مستوى التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين.
- استقصاء العلاقة بين استخدام وسائل التواصل الاجتماعي ومستوى التمكين النفسي
- تحديد الفروق في التمكين النفسي تبعًا لاختلاف نمط استخدام وسائل التواصل الاجتماعي.
- اقتراح توصيات لتعزيز التمكين النفسي الإيجابي عبر الاستخدام الواعي لوسائل التواصل

4: أهمية البحث

- الأهمية النظرية:

يساهم البحث في توسيع المعرفة حول العلاقة بين التكنولوجيا الحديثة والصحة النفسية. يُسهم في إثراء الأدبيات المتعلقة بالتمكين النفسي لدى فئة الشباب الجامعي.

- الأهمية التطبيقية:

يساعد النتائج في توجيه السياسات الجامعية نحو تعزيز الاستخدام الإيجابي لوسائل التواصل. يمكن أن تفيد المرشدين النفسيين في الجامعات لتطوير برامج دعم نفسي تستثمر وسائل التواصل كأداة تمكينية.

5 - أسئلة البحث

- ما مدى استخدام الطلبة الجامعيين لوسائل التواصل الاجتماعي؟
- ما مستوى التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين؟
- هل توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والتمكين النفسي؟
- هل تختلف مستويات التمكين النفسي تبعًا لنوع الاستخدام أو مدة الاستخدام اليومي لوسائل التواصل؟

6: فرضيات البحث

- توجد علاقة إيجابية ذات دلالة إحصائية بين استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والتمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين.
- يختلف مستوى التمكين النفسي باختلاف نمط استخدام وسائل التواصل الاجتماعي.
- الطلبة الذين يستخدمون وسائل التواصل لأغراض تعليمية وتعبير ذاتي يظهرون تمكينًا نفسيًا أعلى من أولئك الذين يستخدمونها لأغراض ترفيهية فقط.
- الاستخدام المفرط لوسائل التواصل يؤثر سلبًا على أبعاد التمكين النفسي مثل الشعور بالسيطرة أو الكفاءة الذاتية.

7- مصطلحات الدراسة إجرائيا:

+ وسائل التواصل الاجتماعي:

كثير من التعاريف التي تؤكد أن مواقع التواصل الاجتماعي هي عبارة عن منظومة من الشبكات الإلكترونية التي لها وظيفة اجتماعية ولها أهمية كبيرة في حياة الأفراد والجماعات خاصة في وقتنا الحالي.

ويعتبر جون بارنز من الأوائل الذين حاولوا تعريف الشبكات الاجتماعية، حيث قدم مجموعة من التعاريف لها دلالات مختلفة بما يتعلق بشبكات التواصل الاجتماعي ومن هذه التعاريف أن شبكات التواصل الاجتماعي هي وسيلة تتيح لنا معرفة طبيعة الجماعة الاجتماعية (chaaban, 2014,p5)

+ التمكين النفسي :

تبنى الباحث الحالي مفهوم spreitzer للتمكين النفسي، حيث يرى أنه مفهوم نفسي يعكس رؤية الأفراد وتوجههم نحو دورهم الوظيفي وشعورهم بالمعنى والكفاءة وتقرير المصير والتأثير، ويشير المعنى بالاحساس والانتماء الشخصي بالبيئة، والكفاءة تعني امتلاك الفرد لمهارات وخصائص تمكنه من أداء مهمته بشكل جيد، وتقرير المصير تعني الإحساس بالمسؤولية والحرية، الاستقلالية، فيرى نفسه مؤثرا في بيئته ويقاس بمقياس (spreitzer, 1995).

+ الطلبة الجامعيون:

هم الأفراد الذين يدرسون في مؤسسة التعليم العالي (الجامعات) للحصول على درجات علمية، يمثلون فئة من الشباب الذين يسعون لاكتساب المهارات في تخصصاتهم الأكاديمية.

I- الإطار النظري:

1. وسائل التواصل الاجتماعي في علاقتها بالصحة النفسية

لوسائل التواصل الاجتماعي تأثير بالغ على الصحة النفسية، يتأرجح بين الإيجاب والسلب، وفق طبيعة الاستعمال، إذ يعزز استخدامها على نحو إيجابي، من مستوى الدعم النفسي والاجتماعي، ومنسوب التقدير الذاتي، والإحساس بالانتماء، بالمقابل يفضي استعمالها على نحو سلبي والمبالغة في استخدامها إلى العزلة. وتمثل وسائل التواصل الاجتماعي مجالا يديلا للتفاعل الاجتماعي والنفسي سيما في أوساط الطلبة الجامعيين. (Keles, McCrae, & Grealish, 2020).

2 الدعم النفسي عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي

يعد الدعم النفسي عن طريق الإنترنت شكل من الأشكال الحديثة، إذ يستمد الفرد الدعم عبر التفاعل على منصات التواصل الاجتماعي، ويتجسد في هذا الدعم في عبارات التشجيع، وتقديم النصح، وأساليب التضامن، والتجاوب العاطفي من الآخرين على وسائل التواصل الاجتماعي، ويمكن أن يكون هذا الصنف من الدعم ذا تأثير فعال في خفض مشاعر العزلة وتنامي مستوى الإحساس بالانتماء، وعلى درجة من الأهمية في تقوية التمكين النفسي للطلبة الذين تعترضهم صعوبات في التواصل والتعبير بشكل مباشر. (Oh, Ozkaya, & LaRose, 2014)

3. إسهام وسائل التواصل الاجتماعي في بناء هوية الأنا.

تمنح وسائل التواصل الاجتماعي للفرد فرص حرية تقاسم اهتماماته، ومواقفه، وآرائه، وتوجهاته الفكرية، بما يخدم عملية بناء هوية الأنا. يمكن التفاعل والنشر الطلبة الجامعيين من بناء تمثل ذهني لذواتهم حيال الآخرين، مما يؤسس لهوية الافتراضي تسهم في تعزيز الشعور بالإنتاجية والاستحقاق. وقد يفضي هذا الأمر إلى تنامي درجة التمكين النفسي عن طريق الشعور بالقبول من طرف الآخرين وبالتوفيق الذاتي. (Michikyan, Subrahmanyam, & Dennis, 2014).

II- الدراسات السابقة:

+ الدراسة الأولى:

لبنى خليل عمر عامر درجة استخدام المرشدين التربويين لشبكات التواصل الاجتماعي وعلاقته بالرضا المهني لديهم قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في تخصص الإرشاد النفسي والتربوي، كلية العلوم التربوية والنفسية، جامعة عمان العربية، عام 2014.

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على درجة استخدام المرشدين التربويين لشبكات التواصل الاجتماعي وعلاقتها بالرضا المهني لديهم. وقد أجريت هذه الدراسة خلال العام الدراسي 2015/2014، وتكوّن أفراد الدراسة من (40) مرشداً ومرشدة يعملون في المدارس التابعة لمكتب المعارف في منطقة المثلث بفلسطين.

ولتحقيق أهداف الدراسة، تم تطوير مقياس لاستخدام شبكات التواصل الاجتماعي، بالإضافة إلى مقياس للرضا المهني، وقد تم التحقق من صدقهما وثباتهما إحصائياً.

أظهرت النتائج أن درجة استخدام المرشدين التربويين لشبكات التواصل الاجتماعي كانت متوسطة، في حين أن مستوى الرضا المهني لديهم كان مرتفعاً. كما أظهرت النتائج وجود فروق ذات دلالة إحصائية في درجة استخدام شبكات التواصل الاجتماعي تعزى لمتغير الجنس، وكانت الفروق لصالح الذكور.

بينما لم تظهر النتائج اختلافاً دالة إحصائية في درجة استخدام شبكات التواصل الاجتماعي تعزى لمتغيري المؤهل العلمي وسنوات الخبرة. كذلك، لم توجد فروق ذات دلالة إحصائية في درجة الرضا المهني ككل تعزى لمتغيرات الجنس، والمؤهل العلمي، وسنوات الخبرة.

وأظهرت النتائج أيضاً عدم وجود علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين درجة استخدام المرشدين التربويين لشبكات التواصل الاجتماعي بشكل عام ومستوى الرضا المهني لديهم.

+ الدراسة الثانية : أثر استخدام مواقع التواصل الاجتماعي على التوافق النفسي الفيسبوك نموذجاً لدى الطالب الجامعي.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مستوى تأثير استعمال موقع الفيسبوك على التوافق النفسي لدى عينة الطلبة بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة، تم إجراء الدراسة على 40 طالباً تخصص علم النفس بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية سنة 2020، تشير نتائج هذه الدراسة إلى أن الاستخدام المعتدل للفيسبوك يمكن أن يسهم في تعزيز التوافق النفسي لدى الطلبة الجامعيين.

III- المنهجية :

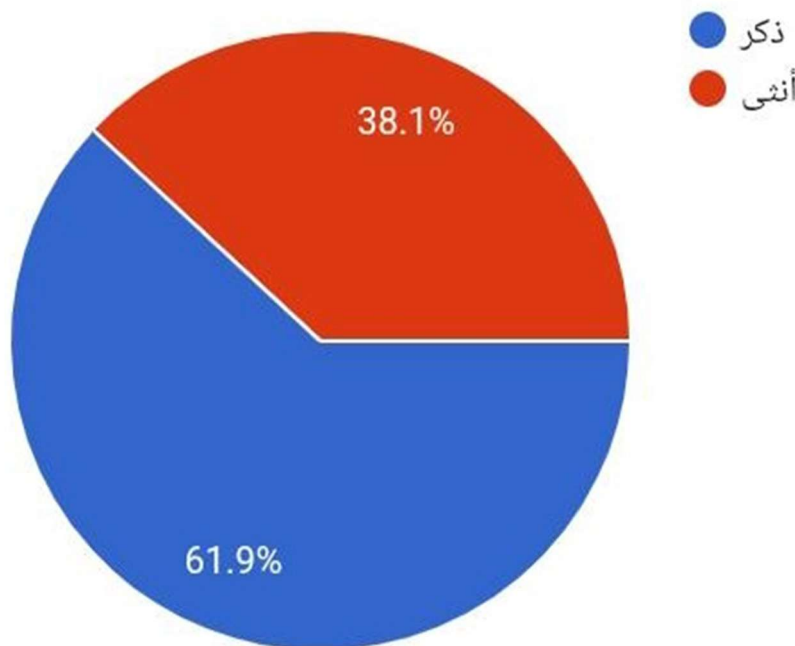
لدراسة دور وسائل التواصل الاجتماعي على تعزيز مؤشر ، استخدمنا استبيان عبر الأنترنت تم إنشاؤه باستخدام أداة "Forms Google". تم تطوير هذا الاستبيان من قبلنا، وتضمن 11 سؤالاً ، وتم توزيعه عبر وسائل التواصل الاجتماعي ، البريد الإلكتروني والدعوات الهاتفية. حصلنا على 42 رد بعد نشر الاستبيان على وسائل التواصل الاجتماعي، المنهجية المعتمدة المعتمدة في هذه الدراسة هي من نوع وصفي، مع نهج كمي، يهدف إلى فهم دور وسائل التواصل الاجتماعي على تعزيز مؤشر التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين .

IV- تحليل ومناقشة النتائج

الإطار النظري سمح لنا بتقييم وتنظيم الردود المجمعة . ثم قمنا بتجميع البيانات في برنامج "Forms Google" لتحليل أعمق لدور وسائل التواصل الاجتماعي على تعزيز مؤشر التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين الراقين ، متبوعاً بتحليل ومناقشة النتائج التي تم الحصول عليها.

الجزء 1 : المعلومات الشخصية

السؤال 1. الجنس *

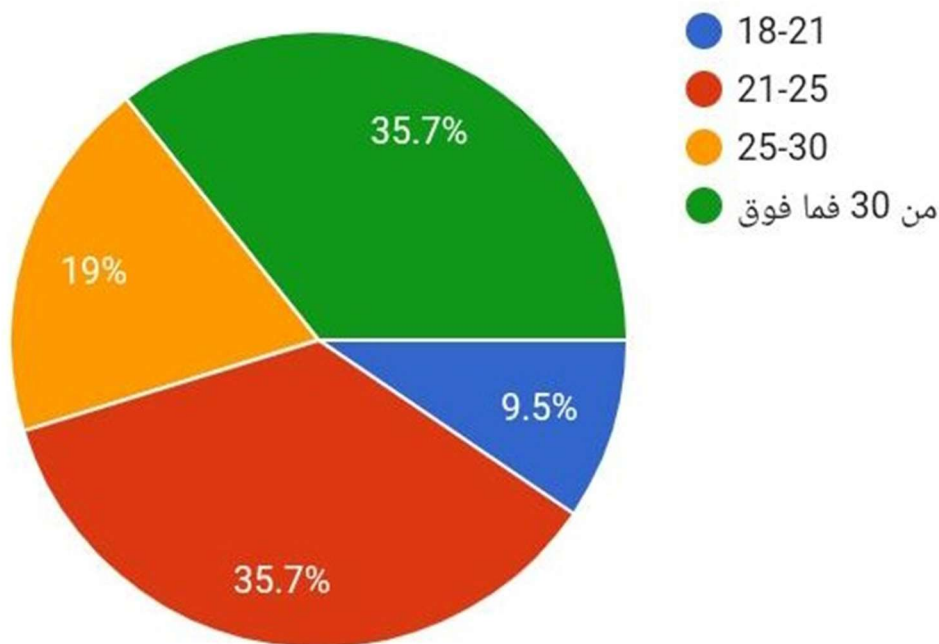


الجدول رقم 1: يبين توزيع أفراد العينة حسب متغير الجنس

النسبة المئوية	التكرارات	الجنس
61.9 %	26	ذكر
38.1 %	16	أنثى
100%	42	المجموع

تشير الاحصائيات إلى أن نسبة الذكور بلغت 61.9%، بينما بلغت نسبة الإناث 36.1%. يتبين هذا التفاوت وجود حضور أكبر للذكور مقارنة بالإناث في العينة المدروسة، وهو ما قد يعكس طبيعة المجتمع أو الفئة المستهدفة من الدراسة، أو قد يكون نتيجة لعوامل تتعلق بطريقة اختيار العينة. من المهم أخذ هذا الاختلال في الاعتبار عند تفسير النتائج، خصوصا إذا كانت الفروق بين الجنسين قد تؤثر في المتغيرات المدروسة، وذلك لضمان دقة التحليل وحياديته.

السؤال 2 : العمر

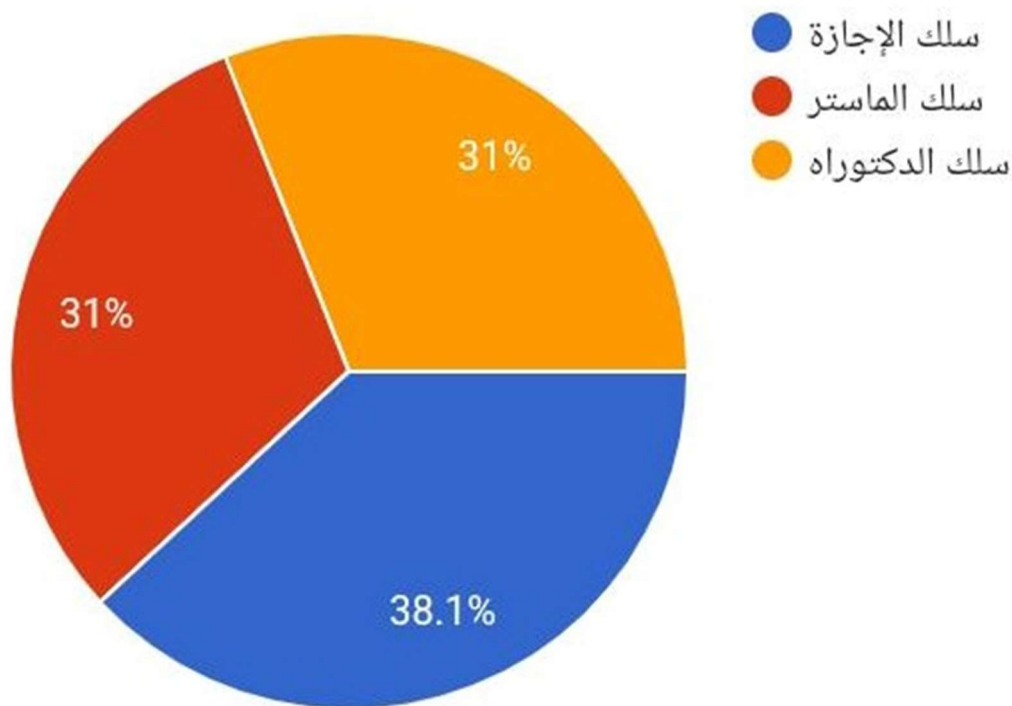


الجدول 2 :

العمر	التكرارات	النسبة المئوية
21-18	4	9.5 %
25-21	15	35.7 %
30-25	8	19 %
30 فما فوق	15	35.7 %
المجموع	42	100 %

تشير الاحصائيات المتعلقة بتوزيع الأعمار في العينة إلى تنوع في الفئات العمرية، مما يسهم في إعطاء نتائج أكثر دقة . يتبين أن أكبر نسبة من المستجوبين تتركز في فئتي "من 21 إلى 25 سنة" و"30 سنة فما فوق"، حيث تظهر كل منهما 35.7% من إجمالي العينة، ما يعكس مشاركة جد مهمة من الشباب في بداية حياتهم وكذلك من الفئة الأكثر نضجا وتجربة. في المقابل، تشكل الفئة "من 25 إلى 30 سنة" نسبة 19%، وهي تمثل شريحة عمرية وسطى مهمة قد تجمع بين حيوية الشباب وبداية الاستقرار. أما الفئة الأصغر عمرا "من 18 إلى 21 سنة" فقد سجلت أقل نسبة وهي 9.5%، مما قد يشير إلى محدودية مشاركة هذه الفئة في الدراسة، ربما لقلة الخبرة أو الاهتمام بالمجال المطروح. بشكل عام، توزعت العينة بشكل يضمن تمثيل فئات عمرية متنوعة، مع ميل واضح نحو الفئات الأكثر نضجا.

السؤال 3 : المستوى الدراسي



الجدول 3 :

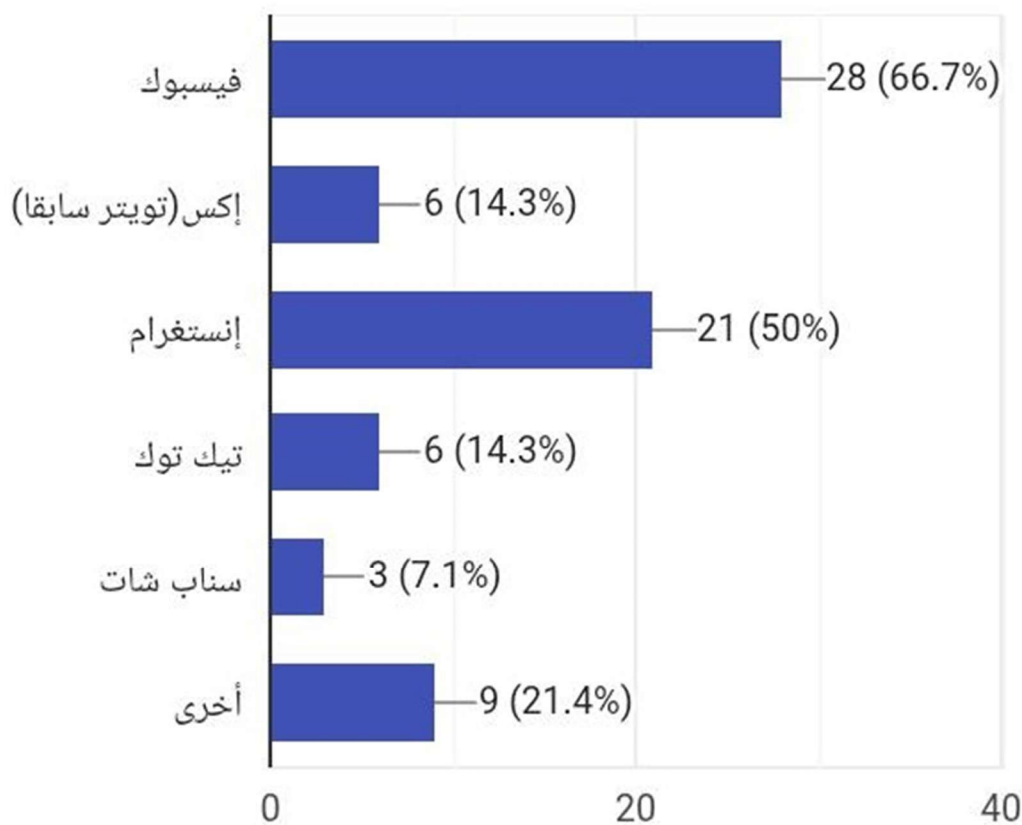
المستوى الدراسي	التكرارات	النسبة المئوية
سلك الإجازة	16	38 %
سلك الماستر	13	31 %
سلك الدكتوراه	13	31 %
المجموع	42	100%

تشير الاحصائيات إلى أن نسبة المشاركين بسلك الإجازة بلغت 38.1%، بينما توزعت النسب المتبقية بالتساوي تقريبا بين سلك الماستر والدكتوراه، بنسبة 31% لكل منهما.

هذا التوزيع يعكس تركيبة أكاديمية متقدمة نسبيا، حيث تمثل الفئة الحاصلة على الشهادات العليا (الماستر والدكتوراه) ما مجموعه 62% من العينة، مقابل 38% فقط في مستوى الإجازة.

السؤال 4 : ما هي وسائل التواصل الاجتماعي التي تستخدمها أكثر؟

السؤال 4 : ما هي وسائل التواصل الاجتماعي التي تستخدمها أكثر؟

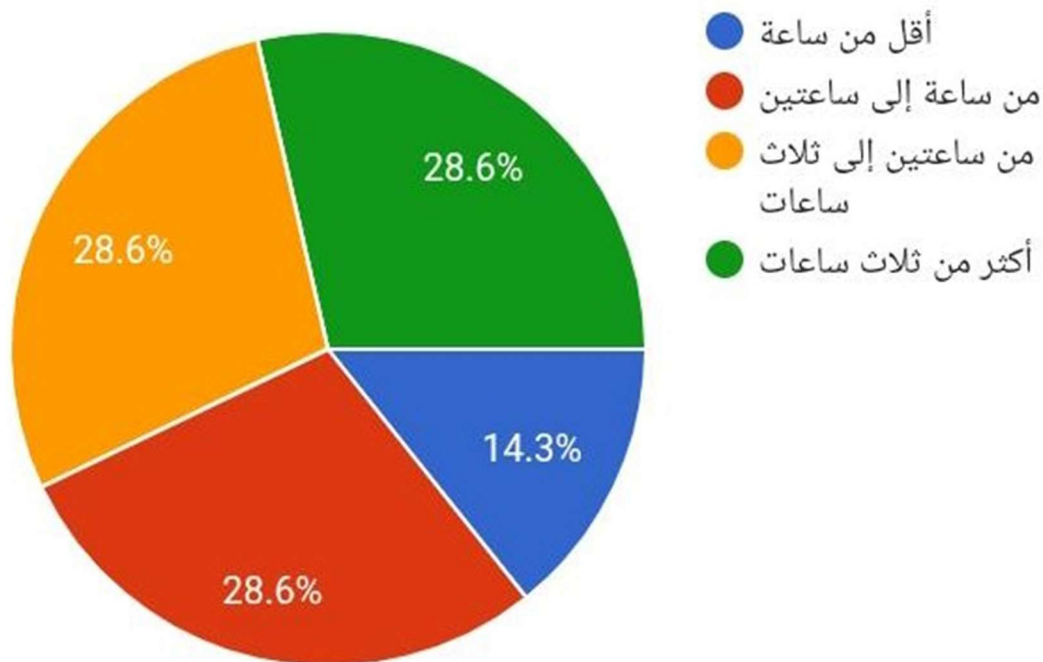


تبين نتائج السؤال المتعلق بوسائل التواصل الاجتماعي الأكثر استخداما تباينا واضحا في تفضيلات المستجوبين، حيث جاء فيسبوك في المرتبة الأولى بنسبة 66.7%، مما يدل على أنه لا يزال يحظى بشعبية كبيرة ويعد المنصة الأوسع استخداما بين المشاركين. يليه إنستغرام بنسبة 50%، وهو ما يعكس اهتماما مهما بالمحتوى البصري والتفاعل الاجتماعي عبر الفيديو القصيرة والصور. أما تويتر إكس و تيك توك فقد حصلوا على نسبة استخدام متساوية بلغت 14.3% لكل منهما، ما يبين إلى وجود شريحة محدودة من المستخدمين تفضل المحتوى السريع والمباشر سواء عبر التغريدات أو مقاطع الفيديو القصيرة. في حين أن سناب شات سجل أقل نسبة استخدام بين المنصات المذكورة، حيث بلغ 7.1% فقط، مما يدل على انخفاض انتشاره بين العينة المستطلعة.

وأخيرا، أشار 21.4% من المشاركين إلى استخدامهم لمنصات أخرى، مما يعكس وجود تنوع في الخيارات الرقمية لدى المستخدمين، وقد يشمل ذلك منصات مثل لينكدإن، يوتيوب، أو منصات محلية أو تخصصية.

بشكل عام، تعكس هذه النتائج أن فيسبوك لا يزال يحتفظ بصدارة الاستخدام، بينما تظهر المنصات الأخرى تباينا في الانتشار الأوسع حسب اهتمامات وسلوكيات المستخدمين.

السؤال 5: كم ساعة تقضي يوميا على وسائل التواصل الاجتماعي؟



الجدول 5 :

النسبة المئوية	التكرارات	
14.3 %	6	أقل من ساعة
28.6 %	12	من ساعة إلى ساعتين
28.6 %	12	من ساعتين إلى ثلاث ساعات
28.6 %	12	أكثر من ثلاث ساعات
100%	42	المجموع

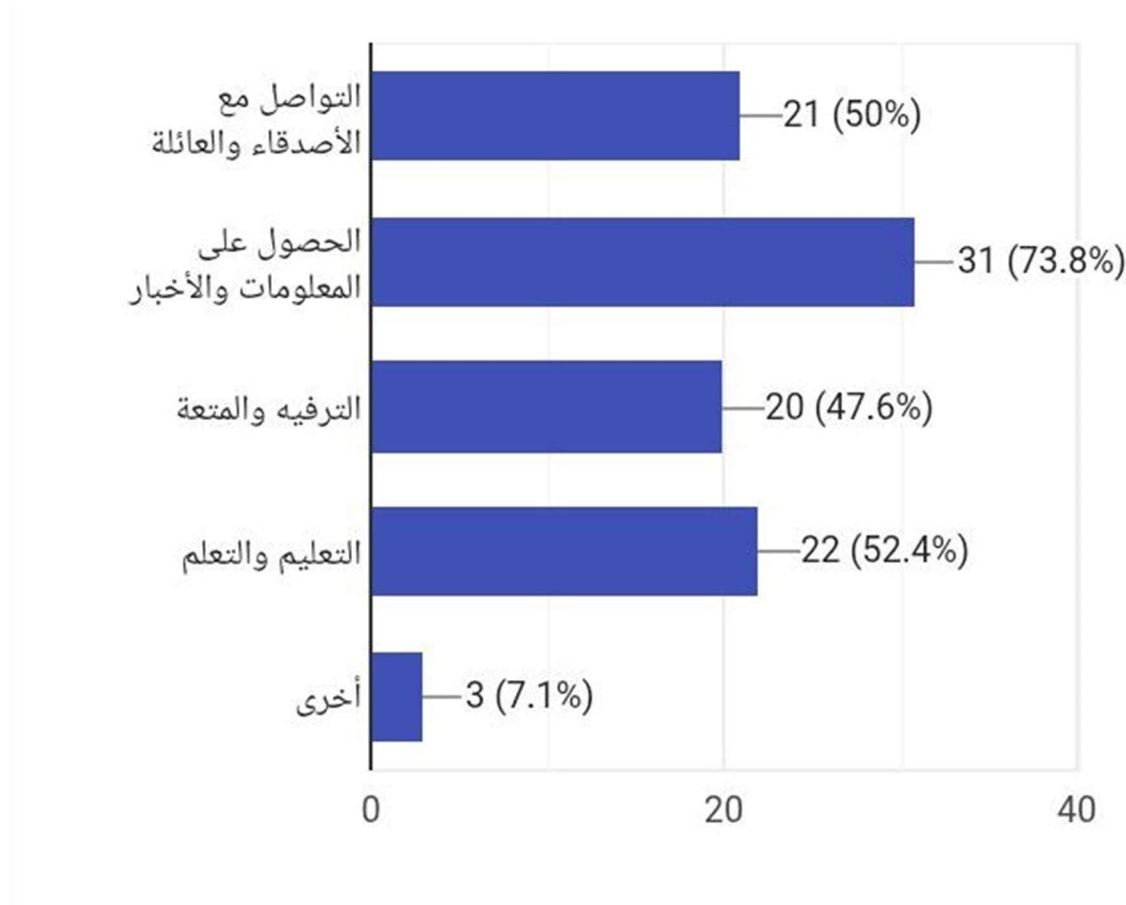
توضح نتائج السؤال المتعلق بعدد الساعات التي يقضيها الأفراد يوميا على منصات التواصل الاجتماعي إلى توزيع متقارب بين الفئات الزمنية المختلفة، مع وجود ميل عام نحو قضاء وقت طويل على هذه المنصات.

يتبين أن النسبة الأقل، وهي 14.3% فقط، تقضي أقل من ساعة يوميا على وسائل التواصل الاجتماعي، مما يدل على أن قلة قليلة من المشاركين تستخدم هذه الوسائل استخداما محدودا. في المقابل، توزعت النسب المئوية بالتساوي بين الفئات الثلاث

الأخرى، حيث أشار 28.6% من المشاركين إلى أنهم يقضون من ساعة إلى ساعتين، و28.6% يقضون من ساعتين إلى ثلاث ساعات، و28.6% كذلك يقضون أكثر من ثلاث ساعات يوميا.

هذا التوزيع المتوازن بين الفئات الثلاث يشير إلى أن الغالبية العظمى من المشاركين (85.7%) يقضون ساعة واحدة على الأقل يوميا على وسائل التواصل الاجتماعي، وهو ما يعكس مدى التغلغل الكبير لهذه الوسائل في حياة الأفراد اليومية. كما أن تساوي النسب في الفئات الثلاث الأطول قد يدل على عدم وجود اختلافات كبيرة في أنماط الاستخدام بين الأفراد، مما يعكس اعتمادا متقاربا على هذه المنصات، سواء لأغراض التواصل أو الترفيه أو متابعة الأخبار والمحتوى.

السؤال 6 : ما هو الغرض الرئيسي من وراء استخدامك لوسائل التواصل الاجتماعي؟



تبين النتائج أن الغرض الرئيسي من استعمال وسائل التواصل الاجتماعي يتنوع بين عدة جوانب، مما يعكس أهمية هذه الوسائل في حياة المستخدمين اليومية. حيث جاء الحصول على المعلومات والأخبار في المرتبة الأولى بنسبة 73.8%، مما يشير إلى أن المستخدمين يعتمدون بشكل كبير على وسائل التواصل الاجتماعي كمصدر رئيسي للبقاء على اطلاع بالأحداث الجارية والمستجدات المختلفة.

في المقابل، يظهر أن التواصل مع الأصدقاء والعائلة لا يزال يحتفظ بأهمية بالغة، إذ بلغت نسبته 50%، مما يعكس الدور الاجتماعي الذي تلعبه هذه المنصات في تعزيز الروابط الشخصية وتسهيل التواصل بين الأفراد.

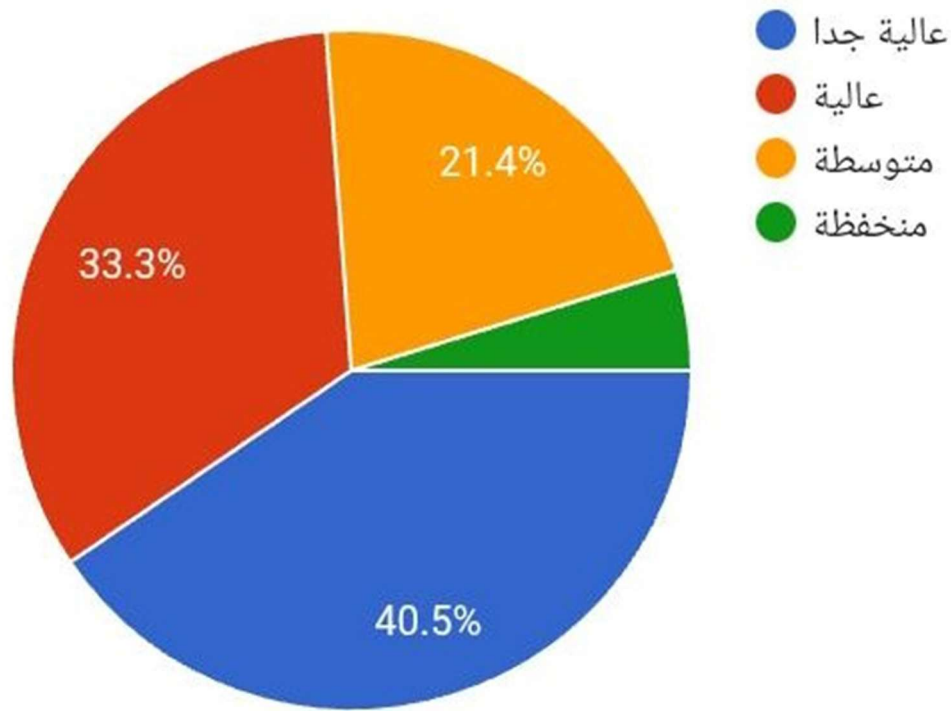
أما بالنسبة للترفيه والمتعة، فقد بلغت نسبتها 47.6٪، مما يوضح أن وسائل التواصل الاجتماعي تعد أيضا مصدرا مهما للتسلية وقضاء الوقت بشكل ممتع.

ومن ناحية أخرى، جاءت نسبة التعليم والتعلم 52.4٪، مما يعكس الاهتمام المتزايد باستخدام هذه المنصات كأداة تعليمية تساعد في اكتساب مهارات جديدة أو التعرف على موضوعات مختلفة.

أما الفئة الأخرى التي تمثل 52.4٪، فقد تشير إلى استخدامات متنوعة إضافية مثل التسويق، التجارة الإلكترونية، أو التعبير عن الرأي والمشاركة المجتمعية.

بشكل عام، تعكس هذه النتائج تعددية استخدامات وسائل التواصل الاجتماعي، حيث لا تقتصر على جانب واحد بل تتداخل بين التفاعل الاجتماعي، الترفيه، التعلم، والحصول على المعلومات، مما يبرز مكانتها كمنصة متكاملة تلبي احتياجات المستهلكين المختلفة.

السؤال 7 : ما تقييمك لمستوى ثقتك بنفسك؟



الجدول 7 :

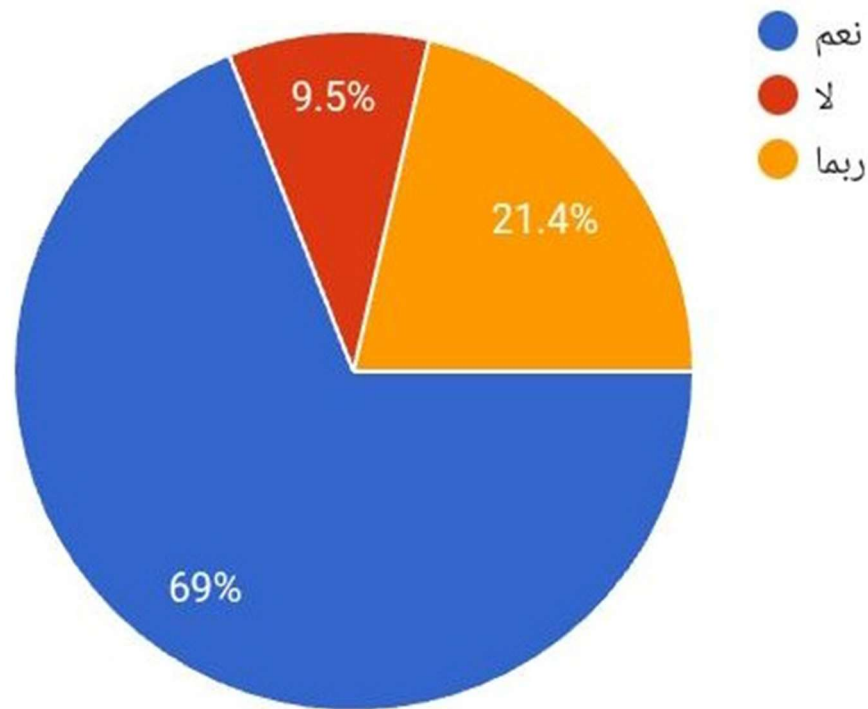
النسبة المئوية	التكرارات	مستوى الثقة بالنفس
40.5 %	17	عالية جدا
33.3 %	14	عالية
21.4 %	9	متوسطة
4.8 %	2	منخفضة
100%	42	المجموع

تشير نتائج هذا السؤال إلى أن غالبية المستجوبين يتمتعون بمستوى عالي من الثقة بالنفس، حيث أفاد 40.5% بأن ثقتهم بأنفسهم "عالية جدا"، ثم تليها نسبة 33.3% أشاروا إلى أن ثقتهم "عالية"، مما يعني أن ما يقارب 73.8% من المبحوثين يرون أن لديهم ثقة عالية أو عالية جدا بأنفسهم. تعكس هذه النسبة مؤشرا إيجابيا يعكس مستوى من الشعور بالكفاءة والقدرة على المواجهة واتخاذ القرار لدى غالبية العينة.

من جهة أخرى، أفاد 21.4% بأن ثقتهم متوسطة، وهو ما قد يحيل إلى وجود بعض التردد أو الحاجة إلى تعزيز المهارات والنجاحات الشخصية لتعزيز هذه الثقة. أما النسبة الأقل وهي 4.8% فقط، فقد وصفت ثقتها بالنفس بأنها منخفضة، مما يدل على وجود شريحة محدودة قد تكون بحاجة إلى دعم نفسي أو تدريبي لتعزيز تقدير الذات.

بشكل عام، تعكس النتائج اتجاهها إيجابيا نحو الثقة بالنفس بين أفراد العينة، وهو مؤشر مشجع يمكن البناء عليه لتطوير البرامج التدريبية والتنموية التي تركز على تعزيز الإمكانيات الشخصية والمهارات القيادية.

السؤال 8 : هل تشعر بالرضا عن حياتك؟



الجدول 8

النسبة المئوية	التكرارات	الشعور بالرضا
69.1 %	29	نعم
9.5 %	4	لا
21.4 %	9	ربما
100%	42	المجموع

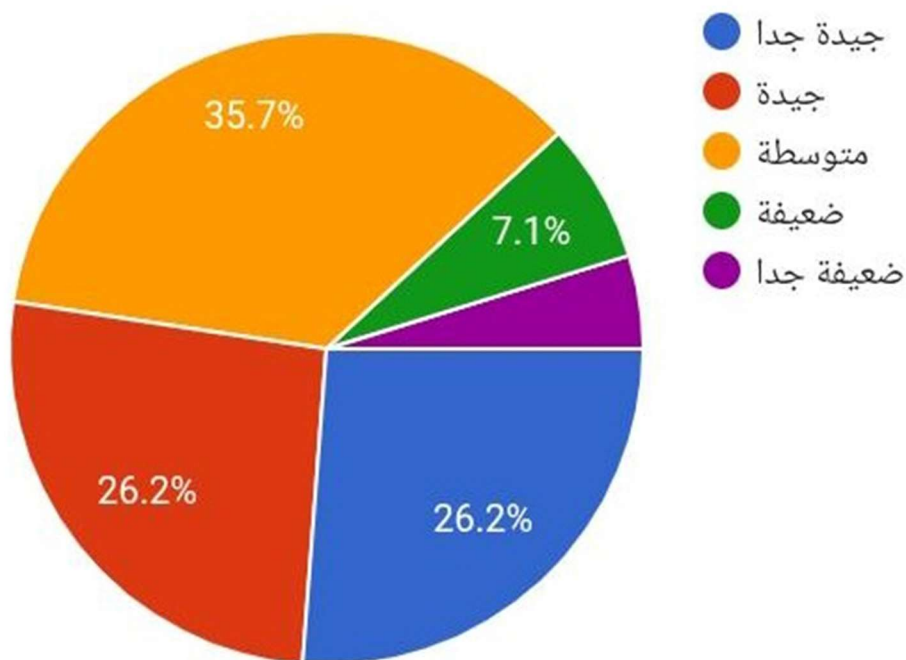
أظهرت النتائج أن 69.1% من العينة أجابوا بـ "نعم"، مما يعكس مستوى عال نسبياً من الرضا عن الحياة لدى غالبية الطلبة . هذا المؤشر الإيجابي يمكن أن يعزى إلى مجموعة من العوامل محتملة مثل الاستقرار النفسي، أو الرضا عن الوضع المهني أو الأسري، أو توفر الدعم النفسي والاجتماعي.

في المقابل، أشار 9.5% من المستجوبين إلى عدم رضاهم عن حياتهم، وهي نسبة وإن كانت محدودة نسبياً، إلا أنها تستدعي الانتباه. فقد تكون هذه النسبة مؤشراً على وجود فئة تعاني من مشاكل نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية تؤثر بشكل سلبي على جودة حياتهم.

أما النسبة المتبقية، والبالغة 21.4%، فقد أجابت بـ "ربما"، وهي فئة تعكس حالة من التردد أو التذبذب في تقييم مستوى الرضا. وقد يعزى هذا التردد إلى تغيرات راهنة في حياة الأفراد أو إلى شعور عام بعدم الاستقرار أو الغموض بشأن المستقبل.

بصورة عامة، تعكس هذه النتائج أن أكثر من ثلثي المشاركين يشعرون بالرضا عن حياتهم، وهو مؤشر إيجابي يعكس درجة عالية من مستوى التوازن والراحة النفسية في المجتمع المستهدف. ومع ذلك، فإن وجود قرابة ثلث المشاركين بين غير الراضين أو المترددين يشير إلى الحاجة لتعزيز البرامج الداعمة للصحة النفسية وجودة الحياة، مع العمل على تحديد العوامل التي تعيق شعور البعض بالرضا والعمل على معالجتها بشكل منهجي.

السؤال 9 : ما تقييمك لمستوى قدرتك على التعامل مع الضغوطات والتوتر؟



الجدول 9 :

النسبة المئوية	التكرارات	مستوى القدرة على مواجهة الضغوطات والتوتر
26.2 %	11	جيدة جدا
26.2 %	11	جيدة
35.7 %	15	متوسطة
7.1 %	3	ضعيفة
4.8 %	2	ضعيفة جدا
100%	42	المجموع

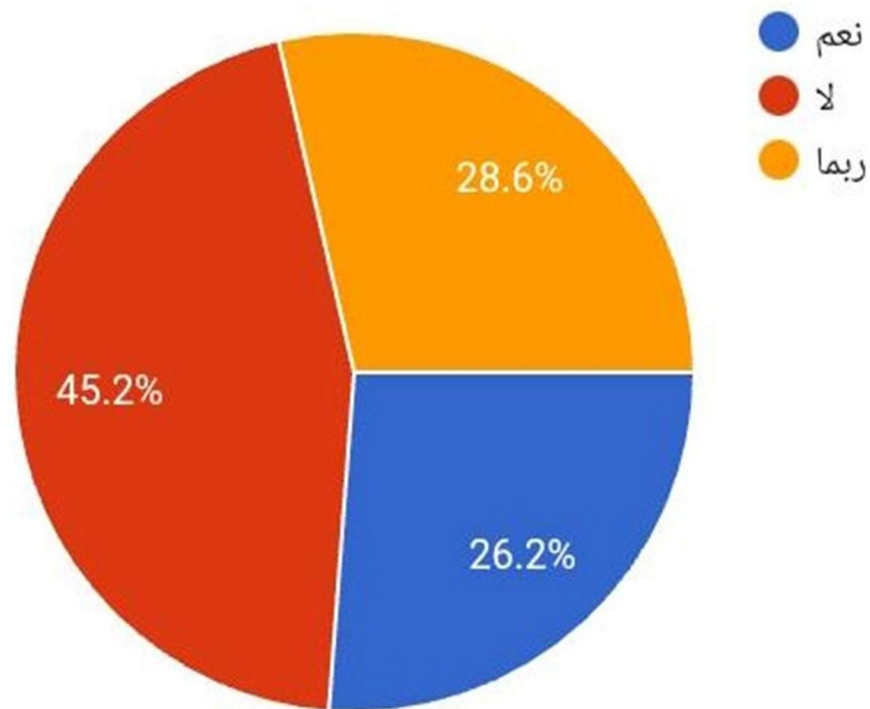
تبين نتائج تقييم القدرة على التعامل مع الضغوطات والتوتر إلى تباين ملحوظ في مستوى الكفاءة لدى الأفراد. فقد أفاد 26.2% من المشاركين بأن قدرتهم "جيدة جداً"، وهي نسبة تعكس وجود فئة مهمة تمتلك مهارات وقدرات قوية في إدارة الضغوط والقلق والتوتر، ما يعكس وعياً جيداً واستراتيجيات ناجعة في التعامل مع المواقف الصعبة. كما أن نفس النسبة (26.2%) قيمت قدرتها بـ "جيدة"، مما يشير إلى أن أكثر من نصف المبحوثين (52.4%) يتمتعون بمهارات جد مقبولة إلى قوية في هذا الجانب.

في المقابل، صرح 35.7% من المشاركين أن قدرتهم على التعامل مع الضغوط "متوسطة"، وهي النسبة الأكبر بين جميع الفئات، ما يدل على وجود حاجة واضحة إلى تطوير المهارات في هذا الجانب، إذ قد تكون هذه الفئة عرضة لتأثيرات الضغط في حال عدم وجود تدخلات أو دعم نفسي ملائم.

أما النسب التي وصفت قدرتها بـ "ضعيفة" (7.1%) و "ضعيفة جداً" (4.8%)، فتستدعي اهتماماً خاصاً، إذ تعكس وجود فئة هشة نفسياً، قد تكون أكثر عرضة للتأثر السلبي بالضغوط، مما قد يؤثر على أدائها العام وصحتها النفسية.

بناءً على هذه النتائج، يوصى بتكثيف برامج توعوية وكذا برامج الدعم النفسي والتدريب على مهارات إدارة التوتر، خصوصاً للفئة المتوسطة والضعيفة، مع تعزيز نقاط القوة لدى الفئات ذات التقييم المرتفع لضمان بيئة متوازنة وصحية تعزز من الإنتاجية والرفاه النفسي العام.

السؤال 10 : هل تشعر أن وسائل التواصل الاجتماعي تعزز من ثقتك بنفسك؟



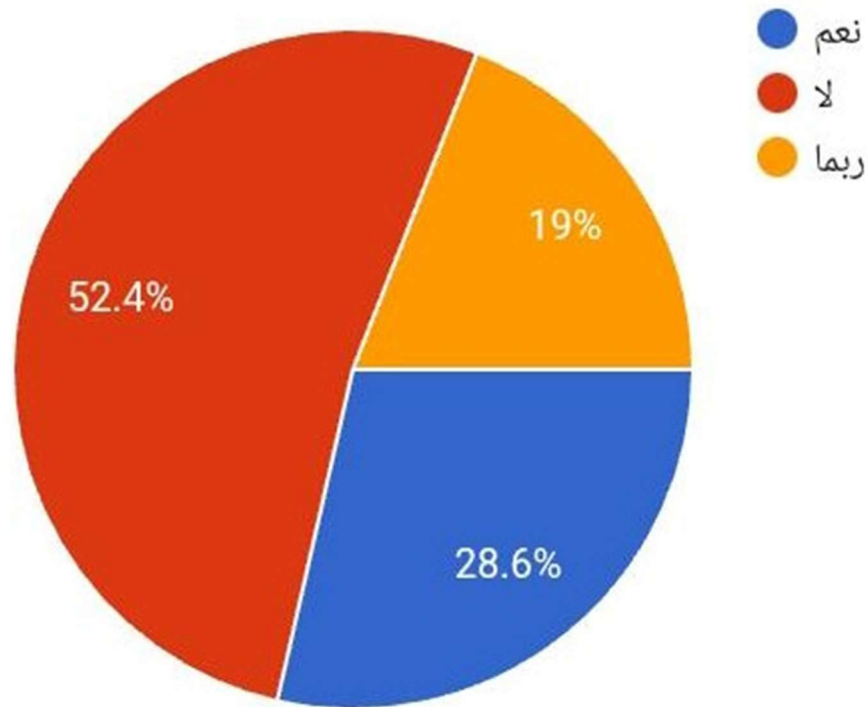
الجدول 10 :

تعزيز الثقة بالنفس	التكرارات	النسبة المئوية
نعم	11	26.2 %
لا	19	45.2 %
ربما	12	28.6 %
المجموع	42	100%

تبين نتائج السؤال المتعلق بتأثير وسائل التواصل الاجتماعي على تعزيز الثقة بالنفس إلى تباين واضح في آراء المشاركين. حيث أجاب 26.2% من المشاركين بـ "نعم"، مما يدل على أن أقل من ثلث العينة يرون أن وسائل التواصل الاجتماعي تساهم بشكل إيجابي في تعزيز ثقتهم بأنفسهم. في المقابل، بلغت نسبة من أجابوا بـ "لا" 45.2%، وهي النسبة الأكبر، ما يعكس شعوراً بأن تلك المنصات تأثيراً سلبياً أو غير محفز على الثقة بالنفس. أما نسبة "ربما" والتي بلغت 28.6%، فتتمثل شريحة مترددة أو غير متأكدة، ما يشير إلى وجود عوامل مختلفة أو تجارب شخصية مختلفة تؤثر على تصور الأفراد لهذا الموضوع.

من خلال هذه النتائج، يمكن الاستنتاج أن وسائل التواصل الاجتماعي ليست دائما أداة ناجعة لتعزيز الثقة بالنفس، بل قد تكون سلاحا ذات حدين؛ إذ يعتمد تأثيرها بدرجة كبيرة على طبيعة استخدام الفرد، ونوعية المحتوى الذي يتعرض له، والمقارنة الاجتماعية التي قد تنتج عن متابعة الآخرين. كما توضح النتائج أن هناك حاجة إلى مزيد من التوعية حول الاستخدام الصحي لتلك المنصات، بما يضمن تعزيز الصورة الذاتية الإيجابية بدلا من تقويضها.

السؤال 11 : هل تستخدم وسائل التواصل الاجتماعي سعيا للبحث عن الدعم النفسي؟



الجدول 11 :

النسبة المئوية	التكرارات	تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على الدعم النفسي
28.6 %	12	نعم
52.4 %	22	لا
19 %	8	ربما
100%	42	المجموع

تشير نتائج هذا السؤال إلى تباين في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي لأغراض الدعم النفسي بين المشاركين. فقد أظهرت النتائج أن:

نسبة 28.6% من المبحوثين يستخدمون منصات التواصل الاجتماعي سعياً للحصول على الدعم النفسي والاجتماعي، مما يدل على وجود فئة لا بأس بها ترى في هذه الوسائل وسيلة للتنفيس والتواصل مع الآخرين عند الشعور بالضيق أو الحاجة إلى الدعم. في المقابل، فإن 52.4% من المشاركين أجابوا بـ "لا"، أي أنهم لا يستخدمون وسائل التواصل الاجتماعي لهذا الغرض. وهذا يشير إلى أن الأكثرية من العينة لا تعتبر هذه المنصات وسيلة فعالة وناجعة أو مناسبة للحصول على دعم نفسي، وقد يعود ذلك إلى ضعف الثقة في فعالية الدعم الإلكتروني أو إلى تفضيلهم لوسائل دعم أكثر خصوصية مثل التحدث إلى أصدقاء مقربين أو مختصين.

أما 19% فقد أجابوا بـ "ربما"، ما يعكس حالة من التردد أو عدم اليقين، فقد يكون لديهم تجارب متباينة أو غير واضحة في هذا السياق.

بناء على هذه المعطيات، يمكن القول إن هناك فجوة واضحة في مدى الاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي كمصدر للدعم النفسي، حيث تمثل النسبة الأكبر (أكثر من النصف) من المستجوبين من لا يرون في هذه المنصات أداة فعالة لذلك، مقابل نسبة أقل ترى فيها منفعة، وفئة مترددة قد تتأثر بظروف معينة. هذا يعكس أهمية دراسة العوامل التي تؤثر في توجه الأفراد نحو هذه الوسائل، مثل العمر، نوع المنصة، ومدى الخصوصية والشعور بالأمان الذي توفره.

تبين من خلال نتائج الدراسة العديد من المؤشرات التي تتيح تحليل العلاقة بين استخدام وسائل التواصل الاجتماعي ومستوى التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين. وتكمن أهمية هذه النتائج في ارتباطها المباشر بالفرضيات الأربع التي وجهت هذه الدراسة، والتي سيتم تناولها ومناقشتها كما يلي:

أولاً : وجود علاقة إيجابية بين استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والتمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين

تشير نتائج الدراسة إلى أن نسبة مهمة من الطلبة يتمتعون بمستوى عال من الثقة بالنفس (73.8% بين "عالية جداً" و "عالية")، كما أبدى أكثر من نصف المشاركين قدرة جيدة إلى جيدة جداً على التعامل مع الضغوط النفسية (52.4%)، وهي من المؤشرات الأساسية التي تعكس التمكين النفسي بمختلف أبعاده (الشعور بالكفاءة، التحكم، والقدرة على المواجهة). وفي هذا السياق، يمكن الاستنتاج أن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي قد يسهم بالفعل، لدى بعض الفئات، في دعم هذا التمكين، خصوصاً إذا ارتبط هذا الاستخدام بمحتوى هادف أو محفز.

غير أن النتائج المتعلقة بتأثير وسائل التواصل الاجتماعي على الثقة بالنفس والدعم النفسي كشفت عن تباين في المواقف؛ إذ صرح 45.2% من المشاركين بأن لتلك المنصات تأثيراً سلبياً أو غير واضح على ثقتهم الذاتية، في حين اعتبرها 28.6% مصدراً غير موثوق للدعم النفسي. هذا التفاوت يضعف قوة الارتباط المباشر، ويشير إلى أن العلاقة الإيجابية المفترضة قد تكون مشروطة بنوع الاستخدام وجودته، مما يجعل الفرضية الأولى مدعومة جزئياً، ولكنها تحتاج إلى تفصيل أكبر في التحليل النوعي لطبيعة الاستخدام.

ثانياً : يختلف مستوى التمكين النفسي باختلاف نمط استخدام وسائل التواصل الاجتماعي

تدعم نتائج هذه الدراسة الفرضية بشكل واضح، إذ أظهرت اختلافات في الدوافع والأهداف من استخدام هذه المنصات. فالطلبة الذين يستخدمون وسائل التواصل للحصول على المعلومات والأخبار (73.8%) أو لأغراض تعليمية (52.4%) يميلون إلى استخدام هادف قد يعزز شعورهم بالكفاءة والسيطرة، مقارنة بمن يركزون على الترفيه فقط (47.6%). هذا المعطى يعزز الطرح القائِل إن غُط الاستخدام يلعب دور محوريا في تحديد أثر هذه الوسائل على التمكين النفسي.

كما أن وجود فئة معتبرة تستخدم هذه المنصات للتعبير عن الذات أو التواصل (50%) يمكن أن يشير إلى تعزيز الجوانب الاجتماعية من التمكين، مثل الشعور بالانتماء والتأثير، في حين أن الاستعمال المفرط دون غاية محددة قد يؤدي إلى نتائج سلبية، كما سنوضح في الفرضية الرابعة.

ثالثا: الطلبة الذين يستخدمون وسائل التواصل لأغراض تعليمية وتعبير ذاتي يظهرون تمكينا نفسيا أعلى من أولئك الذين يستخدمونها لأغراض ترفيهية فقط.

على ضوء النتائج، يمكن القول إن هذه الفرضية تحظى بدعم نسبي، إذ تشير البيانات إلى أن نسبة لا بأس بها من المشاركين تستخدم وسائل التواصل لأغراض تعليمية (52.4%) أو للحصول على المعرفة (73.8%)، وهو ما يرتبط غالبا بشعور أكبر بالسيطرة والمعرفة والثقة بالنفس، وكلها عناصر تدخل ضمن مفهوم التمكين النفسي.

وفي المقابل، لم يظهر نفس التأثير الإيجابي عند المستخدمين لأغراض ترفيهية فقط، بل إن بعض المؤشرات المرتبطة بالرضا عن الذات أو الحاجة للدعم النفسي كانت أقل وضوحا في هذه الفئة. وبما أن الترفيه لا يشترط التفاعل أو الإنتاجية، فقد لا يكون له نفس الأثر التمكيني، بل قد يكون في بعض الأحيان مجرد وسيلة للهروب من الضغوط الاجتماعية دون مواجهتها. من هنا يمكن القول إن الفرضية الثالثة مدعومة بما توفر من نتائج.

رابعا: الاستخدام المفرط لوسائل التواصل يؤثر بشكل سلبي على مؤشرات التمكين النفسي مثل الشعور بالسيطرة أو الكفاءة الذاتية

تكشف البيانات المتعلقة بمدة الاستخدام اليومي لهذه الوسائل أن غالبية المشاركين (85.7%) يقضون ساعة واحدة على الأقل يوميا، مع تساوي النسب بين من يقضون من ساعة إلى أكثر من ثلاث ساعات، وهو ما يعكس مستوى عال من الانخراط على المنصات الرقمية. ورغم أن هذا الانخراط لا يرتبط بالضرورة بتأثير سلبي، إلا أن نسبة مرتفعة من المشاركين عبرت عن عدم استفادة نفسية حقيقية من هذه الوسائل، سواء من حيث الدعم أو تعزيز الثقة بالنفس، ما يشير إلى أن الاستخدام المكثف، خاصة إذا كان غير هادف، قد يؤدي إلى آثار سلبية على التمكين.

هذا ما تدعمه أيضا نسبة من أفادوا بأن قدرتهم على مواجهة الضغوط "متوسطة" أو "ضعيفة جدا" (47.6% مجتمعة)، مما يرجّح أن جزءا من هذا الاستخدام المكثف قد يكون على حساب الصحة النفسية، ويؤثر بشكل غير مباشر على الإحساس بالكفاءة الذاتية والتحكم في الحياة.

بناء على تحليل هذه النتائج في ضوء الفرضيات، يمكن الاستنتاج أن العلاقة بين وسائل التواصل الاجتماعي والتمكين النفسي علاقة مركبة تتأثر بنمط الاستخدام ومدته والغرض منه. ورغم وجود مؤشرات إيجابية عامة، إلا أن الاختلافات المسجلة تشير إلى ضرورة توجيه استعمال هذه الوسائل بشكل واع ومدروس، وتكثيف الجهود التربوية والنفسية لتوظيفها في خدمة تنمية الثقة بالنفس والقدرة على اتخاذ القرار لدى الطلبة، عوض أن تتحول إلى عامل مهدد للتوازن النفسي والتمكين الشخصي.

الخلاصة

ختاما يتضح أن لمنصات التواصل الاجتماعي تأثيرا ملحوظا على مؤشرات التمكين النفسي وسط الطلبة الجامعيين، إن على المستوى الإيجابي أو السلبي، ولئن كانت تسهم هذه الوسائل في تعزيز الرضا عن الذات، والشعور بالانتماء والاندماج الاجتماعي، وتوسيع دائرة العلاقات الاجتماعية، فإن المبالغة في استعمالها قد يفضي إلى الوحدة، والقلق، وخفض منسوب الشعور بالكفاءة الذاتية. إن ترشيد الاستخدام و الارتقاء بالوعي بأدوات التفاعل الصحي مع هذه المنصات يعتبر أمرا ضروريا لتعزيز الفوائد وتقليل الأضرار، مما يسهم في دعم التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين

التوصيات:

- تعزيز الوعي الرقمي من خلال تنظيم ورشات عمل ودورات تدريبية للطلبة حول الاستخدام الإيجابي والآمن لوسائل التواصل الاجتماعي، وتأثيرها على الصحة النفسية.
- دمج محتوى التمكين النفسي في الأنشطة الجامعية من خلال دعم المبادرات والأنشطة التي تركز على تعزيز الرضا بالذات، والقدرة على التعبير، و استقلالية اتخاذ القرار بين الطلبة.

المراجع والمصادر:

✓ مراجع باللغة الإنجليزية:

- Al-Debei, M. M., Al-Lozi, E., & Papazafeiropoulou, A. (2013). Why people keep coming back to Facebook: Explaining and predicting continuance participation from an extended theory of planned behavior perspective. *Decision Support Systems*, 55(1), 43–54 .
- Kaplan, A. M., & Haenlein, M. (2010). Users of the world, unite! The challenges and opportunities of social media. *Business Horizons*, 53(1), 59–68 .
- Zimmerman, M. A. (1995). Psychological empowerment: Issues and illustrations. *American Journal of Community Psychology*, 23(5), 581–599.
- Kaplan, A. M., & Haenlein, M. (2010). Users of the world, unite! The challenges and opportunities of Social Media. *Business Horizons*, 53(1), 59–68.
- Zimmerman, M. A. (1995). Psychological empowerment: Issues and illustrations. *American Journal of Community Psychology*, 23(5), 581–599.
- Keles, B., McCrae, N., & Grealish, A. (2020). A systematic review: The influence of social media on depression, anxiety and psychological distress in adolescents. *International Journal of Adolescence and Youth*, 25(1), 79–93.
- Oh, H. J., Ozkaya, E., & LaRose, R. (2014). How does online social networking enhance life satisfaction? The relationships among online supportive interaction, affect, perceived social support, sense of community, and life satisfaction. *Computers in Human Behavior*, 30, 69–78.
- Michikyan, M., Subrahmanyam, K., & Dennis, J. (2014). Facebook use and the development of self-concept clarity in adolescents. *Cyberpsychology, Behavior, and Social Networking*, 17(10), 685–690.

✓ مراجع باللغة العربية

- مجمع اللغة العربية، (2004)، معجم الوسيط (ط.4). دار الدعوة

الملاحق :

استبيان

العنوان : دور وسائل التواصل الاجتماعي في تعزيز التمكين النفسي لدى الطلبة الجامعيين.

....تهدف هذه الاستبيانة إلى التعرف على دور وسائل التواصل الاجتماعي في تعزيز التمكين النفسي لديكم، نأمل
منك الإجابة على العبارات التالية بكل دقة وشفافية.

يرجى وضع علامة (✓) أمام الخيار الذي يعبر عن رأيك.

الجزء 1 : المعلومات الشخصية

1-الجنس *

☐ ذكر

☐ مؤنث

2- العمر *

☐ من 18-21

☐ من 21-25

☐ من 25-30

3-المستوى الدراسي *

☐ سلك الإجازة

☐ سلك الماستر

☐ سلك الدكتوراه

الجزء 2: استخدام وسائل التواصل الاجتماعي

4- ماهي وسائل التواصل الاجتماعي التي تستخدمها أكثر؟ *

☐ فيسبوك

☐ تويتر

☐ أنستغرام

☐ تيك توك

☐ سناب شات

☐ أخرى

5- كم معدل الزمن الذي تقضيه يوميا على وسائل التواصل الاجتماعي؟ *

☐ أقل من ساعة

☐ سلك من ساعة إلى ساعتين

☐ من ساعتين إلى ثلاث ساعات

☐ أكثر من 3 ساعات

6- ما هو الغرض الرئيسي لاستخدامك لوسائل التواصل الاجتماعي؟ *

☐ التواصل مع الأصدقاء والعائلة

☐ للحصول على المعلومات والأخبار

☐ الترفيه والمتعة

☐ التعليم والتعلم

☐ أخرى

الجزء الثالث : التمكين النفسي

7- كيف تقيم مستوى ثقتك بنفسك؟ *

☐ عالية جدا

☐ عالية

☐ متوسطة

☐ منخفضة

8- هل تشعر بالرضا عن حياتك؟ *

☐ نعم

☐ لا

☐ أحيانا

9- ما تقييمك لمستوى لقدرتك على التعامل مع الضغوطات والتوتر؟ *

☐ جيدة جدا

☐ جيدة

☐ متوسطة

☐ ضعيفة

الجزء الرابع: تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على التمكين النفسي

10 هل تشعر أن وسائل التواصل الاجتماعي تعزز من ثقتك بنفسك؟ *

☐ نعم

☐ لا

☐ ربما

11- هل تستخدم وسائل التواصل الاجتماعي سعياً للبحث عن الدعم النفسي؟ *

☐ نعم

☐ لا

☐ ربما

قراءة في كتاب " تاريخ الزعيم مولاي أحمد الريسوني قائد ثورة القبائل الجبلية بشمال المغرب"
لمؤلفه الطاهر بن عبد السلام بن عبد الوهاب الشريف اللهوي الوهابي العلمي الإدريسي الحسني

غيثة الأزرق، طالبة باحثة

جامعة سيدي محمد بن عبد الله،

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس – فاس

المملكة المغربية

الملخص:

يُعد كتاب تاريخ الزعيم مولاي أحمد الريسوني للطاهر اللهوي من بين أبرز المؤلفات التي تناولت سيرة هذا القائد المغربي المثير للجدل خلال مرحلة دقيقة من تاريخ المغرب. يستعرض الكتاب نشأة الريسوني في بيئة جبلية بشمال المغرب، وتكوينه الديني والعسكري، وارتباطه بالزاوية الريسونية. ويركز على صراعه مع السلطات المخزنية والاستعمار الإسباني والفرنسي، خصوصاً في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى. كما يبرز أدواره في عمليات المقاومة، وتكتيكاته في التفاوض والخطف، مثل حادثة اختطاف الأمريكي بيرديكاريس¹ (Perdicaris)، التي جلبت له شهرة دولية. الكتاب لا يكتفي بسرد الأحداث، بل يحلل شخصيته المركبة بين الزعامة الدينية والسياسية، ويعرض الجدل حوله بين من يعتبره مقاوماً شرساً ومن يراه زعيماً انتهازياً. يعكس العمل إلمام المؤلف بالسياق التاريخي المحلي والدولي، ويعتمد على وثائق وشهادات متفرقة لتكوين صورة متكاملة.

الكلمات المفتاحية: الزعامة – المقاومة – الريف – بيرديكاريس – الحماية الإسبانية.

¹ حادثة بيرديكاريس، المعروفة أيضاً باسم قضية بيرديكاريس، تشير إلى اختطاف الأمريكي اليوناني أيون هانفورد بيرديكاريس (1840-1925) وابن زوجته، كرومويل فارلي، وهو مواطن بريطاني، على يد أحمد الريسوني وقطاع الطرق التابعين له في 18 مايو 1904، في طنجة، المغرب.

مقدمة:

لعل هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو استجابة لدعاء الريسوني "اللهم آت بمن يحسن بينا في التاريخ"، حيث ورد هذا الدعاء عند مؤرخ تاريخ شمال المغرب المرحوم محمد ابن عزوز حكيم وعند الباحث في تاريخ المقاومة الريسونية مولاي علي الريسوني وآخرون.

الكتاب الذي نقوم بدراسته والمعنون بـ "تاريخ الزعيم مولاي أحمد الريسوني قائد ثورة القبائل الجبلية بشمال المغرب" لمؤلفه الطاهر بن عبد السلام اللهوي الوهابي العلمي الإدريسي الحسني، هو في الأصل مخطوط من أربعة أجزاء، أشرف على إخراجه في جزئين منه أحمد هاشم الريسوني، كما راجعه ثلة من الباحثين، نخص منهم بالذكر المؤرخ الشفشاوني مولاي علي الريسوني، الذي وصفه المؤلف بالسند في محطات عدة، وكذلك خبراء في اللغة، كالكتور عبد اللطيف شهبون،

والأخوين عادل ومحمد العناز، والصحافي عبد الله بديع. وفي هذا يعترف الباحث أنه لولا هؤلاء لتوقف حماسه من أجل إخراج هذا الكتاب لكثرة الصعوبات التي اعترضته، كما أشاد بدور دار النشر سليكي إخوان على دعمها للإصدارات الرصينة من طينة هذا الكاتب.

حاول المؤلف في هذا الكتاب الذي جاء في حوالي 963 صفحة، وضع تصميم حر لا يتقيد بمنهجية التصاميم الكلاسيكية، لهذا تميز بنوع من الحرية في صياغة المحاور. كما مهد السيد محمد البخلاخي الكتاب بتقريب تحدث فيه عن شخصية الشريف مولاي أحمد الريسوني، وكيف أجحفه التاريخ ولم يوفه حقه، رغم مقاومته الشديدة للاستعمار الإسباني ومحاولته السيطرة بقوة السلاح على كافة منطقة شمال المغرب.

1. قراءة شاملة في مضامين الكتاب:

افتتح المؤلف الكتاب بتوطئة تحدث فيها عن فترة زمنية أطلق عليها اسم "المغرب"، وهي الفترة الممتدة من تاريخ وفاة مولاي الحسن الأول، إلى نهاية "عمليات التهدة" يوم 10 يوليوز 1927؛ في موازاة ذلك نبه إلى عدم إهمال الجوانب الأخرى المتعلقة بتاريخ شمال المغرب، الاجتماعية منها، والاقتصادية والثقافية والسياسية، وكذا العسكرية.

أبدى المؤلف رأيه بخصوص الشريف مولاي أحمد الريسوني، وقدمه كرجل مجاهد مناضل ضد الاستعمارين الفرنسي والإسباني، كما ذكر العبارة "التاريخ يعيد نفسه" لمقارنتها مع ما ذكره الباحث عبد الكريم الفلاحي في كتابه "التاريخ المفترى عليه بالمغرب"، حيث يجد نفسه يتطابق مع ما كتبه هذا الأخير واعتبار نصوص الكتاب نقدا صريحا للأفكار التي تسير على النقيض من ذلك، خصوصا فيما يتعلق بالنقد التاريخي في المغرب الذي عرف انحرفا عن مساره الطبيعي، وبالتالي يكشف الانزلاقات التي شابت هذه الكتابات، ومن ثم يعتبر المؤلف كتابه بأنه بداية لعهد جديد في الكتابة التاريخية بالمغرب.

أ. مقدمة الكتاب:

تحدث المؤلف في مقدمة الكتاب عن السيرة الذاتية للشريف مولاي أحمد الريسوني، وشخصيته القوية والذكية، وكذلك عن نسبه الشريف وتاريخ وفاته، ووضعته كقائد لمنطقة الفحص في الجهة الشمالية الغربية للمغرب بعد تعيينه من طرف السلطان مولاي عبد الحفيظ، معرجا في الحديث عن مقاومة كل من الشريف محمد أمزيان ومحمد بن عبد الكريم الخطابي للاستعمار الإسباني، وكيف تعرضت إلى التشويه والتزييف في الكتابات الإسبانية.

ب. أحداث عامة مرتبطة بالوضعية السياسية للمغرب. (منذ وفاة السلطان مولاي الحسن الأول إلى غاية عزل السلطان مولاي عبد الحفيظ (1894م – 1908).

يبدو أن المؤلف تعتمد الانطلاق من العام إلى الخاص لاطلاع القارئ على الوضعية العامة بالمغرب، حيث انطلق في الحديث عن بناء الدولة المغربية على العهد الإدريسي ودورها في تركيز الدين الإسلامي، الذي تعرض إلى المحاربة من طرف القوى الاستعمارية بهدف تمزيق وحدة المغرب، والتفرقة بين عناصره العربية والأمازيغية، والتي توجت بإصدار الظهير البربري سنة 1930م، حيث ظلت الأوضاع على ما هي عليه إلى غاية حدث نفي السلطان سيدي محمد بن يوسف يوم 20 غشت 1953م.

عرج المؤلف على فترة الحاجب السلطاني با أحمد، الذي كان قد حصل على هذا المنصب بمساعدة كل من السفير الفرنسي، والمدرّب العسكري الإنجليزي بالجيش المغربي القايد هاري أوبري ماكليّن (Harry Aubrey Maclean)، الذي أسر من طرف الشريف مولاي أحمد الريسوني وتم عقد صفقة لإطلاق سراحه.

كان غرض المؤلف من هذه الديباجة هو التأكيد على أن المغرب قبل دخول الاستعمار كان ينعم بالحرية والاستقلال، إلا من بعض الاضطرابات التي طبعَت السنوات الأولى من القرن العشرين. كثرة بوحارة ضد السلطان مولاي عبد العزيز، حيث تمكن من السيطرة على المنطقة الشمالية الشرقية. وأفرد المؤلف حيزا هاما للحديث عن السيرة الذاتية للروكي بوحارة (الجيلالي الزرهوني). وبعد إلقاء القبض على الروكي وإعدامه، سينعرج المؤلف ليتحدث عن وفاة الحاجب با أحمد، وصعود نجم القائد الشريف مولاي أحمد الريسوني بعد إطلاق سراحه من طرف السلطان مولاي عبد الحفيظ الذي عينه قائدا على منطقة الفحص. لقد ورث السلطان مولاي عبد الحفيظ تركة ثقيلة عن أخيه السلطان مولاي عبد العزيز، وهو ما سيؤدي به إلى إمضاء معاهدة الحماية مع فرنسا في مارس 1912 رغما عنه.

سيسلط المؤلف الضوء على فترة ما بعد إمضاء معاهدة الحماية التي انبثقت عنها مقاومة شرسة ضد التدخل العسكري الفرنسي والإسباني في المغرب، كان رائدها أب المقاومة المسلحة المغربية الشريف محمد أمزيان (1908 – 1912)، الذي قاد المقاومة ضد الجيش الإسباني بالمنطقة الشمالية الشرقية (الريف)، والذي أذاق إسبانيا مرارة الهزيمة في معركة واد الديب (سيدي ورياش)، التي قتل فيها عدد كبير من الجنود والضباط الإسبان، على رأسهم الجنرال مارغاليو (Margallo)). سيستشهد الزعيم الشريف محمد أمزيان سنة 1912 على يد خيالة الحركة المغربية التي كانت تعمل ضمن الجيش الإسباني، لتنتقل شرارة المقاومة بالمنطقة الشمالية الغربية (جبال) مباشرة بعد احتلال مدينة تطوان وإعلانها عاصمة للحماية الإسبانية على المغرب، تزعمها الشريف مولاي أحمد الريسوني منذ سنة 1915، وبالمناطق الشمالية الشرقية (الريف)، تزعمها الأمير محمد بن عبد الكريم في بني ورياش (1921 – 1927).

سيعرج المؤلف على الأحداث التي طبعَت الوضعية الداخلية للمغرب قبل فرض الحماية، حيث تحدث عن مؤتمر مدريد 1880، الذي انعقد لمناقشة قضية الحماية القنصلية التي كبدت المغرب خسائر على المستوى المالي وضربت في العمق السيادة المغربية؛ في

نفس الوقت، تطرق إلى أحداث احتلال وجدة والدار البيضاء سنة 1907، لينتقل بعدها إلى الحديث عن قضية فرض الحماية على المغرب وتقسيمه إلى ثلاثة مناطق: منطقة النفوذ الإسباني، منطقة الحماية الفرنسية ومنطقة طنجة الدولية.

ت. أحداث عامة مرتبطة بفرض الحماية على المغرب.

كان سياق فرض الحماية على المغرب عاملاً دفع المغاربة إلى مقاومة التدخل الفرنسي والإسباني حيث كان الهدف من ذلك تحقيق هدفين أساسيين: جلاء القوات العسكرية الفرنسية والإسبانية من المغرب، ورفع الوصاية التي فرضتها الدولتان على المغرب. أما الإدارة الفرنسية فقد استمرت كما هي، استبدلت فقط العناصر الفرنسية بعناصر "مغربية تحت وصايتها" ووصف فرنسا بأنها صاحبة النفوذ الأكبر والقادرة على تغيير الإيديولوجيات في البلدان التي استعمرتها.

يصف المؤلف دخول فرنسا إلى المغرب بمثابة زوجة أجنبية خبيثة لثيمة، شحيحة ومستبدة، صار كل شيء في يدها، وقد أحدث المؤلف في إحدى عناصر البحث عنواناً بـ "فضح البرنامج الاستعماري"، وأسهب فيها الحديث عن الحماية والظهير البربري واستنكاره من طرف أهل فاس. وبعدها دخل الإسبان سلمياً إلى تطوان، كما حل بها الخليفة الأمير مولاي المهدي بن إسماعيل صعبة الصدر الأعظم بن عزوز، وبعدها أبرق وزير الخارجية إلى المفوض السامي الجنرال ألفاوا¹ وأخبره بأن إسبانيا قبلت مقترح السلطان مولاي يوسف بتعيين الخليفة مولاي المهدي بن إسماعيل خليفة على منطقة الحماية الإسبانية.

في تلك الأثناء، كان الشريف مولاي أحمد الريسوني منشغلاً بإنشاء حركة (بفتح الحاء وتسكين الراء) من متطوعي القبائل وشراء الأسلحة عن طريق السوق السوداء، حيث سلم دفعة منها لصديقه العياشي الزلال. فقد كان المجاهدون في حاجة إلى من ينظمهم ويجمع كلمتهم، لهذا قرر الريسوني عقد العديد من اللقاءات، أهمها ذلك المنعقد بجبل العلم حيث يوجد ضريح الولي الصالح سيدي عبد السلام بن المشيش، حضرها ثلة من العلماء والوجهاء، والذي قاموا بإسناد مهمة الجهاد إلى الشريف مولاي أحمد الريسوني. في هذا الصدد، نسير إلى أن الريسوني لم يكن الزعيم الوحيد للمقاومة بالمنطقة الشمالية الغربية (جبال)، بل كانت هناك مجموعة من الأسماء المغمورة لزعماء المقاومة ذكرت أسماءهم في مختلف المصادر المتنوعة.

ث. حركات المقاومة والتحرير بقيادة زعيم الثورة والإخلاص الريسوني وعلاقته بالقيادة العامة الإسبانية.

بدأ المؤلف هذا المحور بالتساؤل عن "لماذا يثقل على الناس أن يظهر هذا الرجل المخلص بين المواطنين بمختلف طبقاتهم؟"، أما الريسوني فيكفيه فخراً الشهادة الذي صرح بها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي في حقّه بعد رجوعه من المنفى واستقراره بالقاهرة، عندما طرح عليه سؤال، هل كان الريسوني خائناً؟ فأجاب بالنفي نفياً باتاً.

ويتساءل أيضاً عن الأسباب التي قيدت ذلك التاريخ من الانطلاق في وقتها المناسب؟ ويرجح ذلك إلى أن الذين أرادوا التأليف عن الريسوني من المثقفين ذوي التكوين العربي لم يجدوا بين أيديهم المصادر والمراجع اللازمة بلغتهم القومية حتى يتمكنوا من مناقشة ما كتبه الأجانب، إضافة إلى عائق آخر وهو المتمثل في الدعاية السلبية ضد الريسوني خاصة من طرف الفرنسيين. ويضيف تساؤلاً آخر عن "لماذا لا توجد دراسة شاملة عن الريسوني حتى الآن؟". والجواب هو أن تاريخ المغرب لم يكتب بعد من طرف الذين

¹ - الجنرال ألفاوا أول مفوض ساهم لإسبانيا بمنطقة بشمال المغرب، اسمه الكامل فليبي ألفاوا ميندوثا (Felipe Alfau Mendoza)، ولد سنة 1845 بسانتو دومينغو Santo Domingo؛ وحارب في كوبا ضد الانفصاليين وجرح عدة مرات، وحصل على عدة أوسمة.

-Francisco M Heras y Borrero, «De Las Felipe Alfau y Bustamente, un trintaris contraduccionia», *Boletín del Archivo General de la Nación*, Año 94 vol 47 num.133, mayo- agosto 2012, p. 312.

يهمهم الأمر من الأحرار المغاربة، وكل ما تتوفر عليه الآن هي كتابات الأجانب، غير أن المغاربة الذين حاولوا الكتابة عنه سائرت أقلامهم أهواء الأجانب.

نهج الريسوني استراتيجية للجهاد، حيث أنشأ لهذا الغرض رباط بن قريش ببني حزم، وآخر بباب العرائش وأصيلا، وكانت السلطات الاستعمارية تحاربه بسلاح الدعاية، وكذلك بالآلة العسكرية، وبعدها مباشرة سيدخل الريسوني في صراع مباشر مع إسبانيا، حيث كان على وشك السقوط في فخها بواسطة المناورة. وبتاريخ 15 يونيو 1913، انطلقت الشرارة الأولى للحروب التي ستتوالى ما بين الجيش الإسباني ورجال المقاومة الجبلية بقيادة الريسوني، الذي تحدثت القبائل الجبلية عن كراماته، خصوصا امتلاكه للتبريد، وهو حجاب يجعل الرصاص باردا عندما يصل إلى الجسد، إذ بعد عودته من المعارك كان الرصاص يتساقط من تحت ثيابه.

كان الإسبان على وشك القضاء على الشريف مولاي أحمد الريسوني في معركة الطلال الأولى، عندما سقط من على صهوة فرسه، لكنه استطاع أن يمتطي فرس ابن أخيه مولاي علي الريسوني، ولم يحصل الإسبان منه إلا على سرجه وفردة أحد نعليه، حيث قام الإسبان بتسليمهما إلى الكولونيل سيلبستري، الذي قدمهما بدوره هدية إلى ملك إسبانيا.

خلال معاركه ضد الجيش الإسباني، سيحقق الشريف مولاي أحمد الريسوني عدة انتصارات في ضواحي أصيلا والعرائش، تمكن من خلالها غنم عدد وفير من سلاح الجيش الإسباني المتطور، وآلاف من الذخائر الحربية. وقد امتدت هذه المقاومة إلى حين تعيين الجنرال خوردا (Francisco Gomez) Jordana¹ مفوضا ساميا وإبرام الهدنة التي تم إبرامها مع الجنرال مارينا José (Marina)² رغم محاولة العسكريين والوزير المفوض بطنجة نسفها.

عاد المؤلف لحديث عن المعارك التي دارت ما بين الجيش الإسباني والشريف مولاي أحمد الريسوني سنة 1913، كمعركة اللوزين الأولى والثانية، كما تحدث عن علاقة الريسوني بالإمبراطورية العثمانية للتنسيق حول خطة لمواجهة فرنسا. وبما أن تركيا كانت حليفة لألمانيا التي كانت تطمح إلى توسيع مجالها الجغرافي في شمال المغرب، فإن الريسوني استغل هذه العلاقة لربط اتصال وتفيد مع قنصل ألمانيا لتزويده بالمال والسلاح، وهذا ما دفع فرنسا إلى التخطيط لاغتياله عن طريق عملية تفجير بواسطة الديناميت، لكنه نجا منها بأعجوبة، وقد أعادوا الكرة في محاولات أخرى لكن دون جدوى.

استنادا إلى المؤرخين الإسبان، كانت شخصية الريسوني القتالية تشبه (...) في بطولتها شخصية الإسكندر المقدوني ونابليون بونابارت"، وهذا هو الوصف الذي خص به المؤرخ الإسباني مانويل أورتيغا (Manuel Ortega) الشريف مولاي أحمد الريسوني. فقد قام بزيارة رباطات ومعسكرات الريسوني. وخرج بانطباع بـ"أن الريسوني أحد أولئك الرجال الذين هم فوق العادة، والذين قلما يجود الزمان بمثلهم في حياة الأمم، حيث ينفرد وجودهم في السلطة بالعبقرية، ومن ثم فإن البذور عندما تزرع في أرض خصبة تنبت أسماء عظماء كالإسكندر المقدوني ونابليون وغيرهم".

خلفت مقاومة الشريف مولاي أحمد الريسوني خسائر فادحة في صفوف الجيش الإسباني ودفعت بإسبانيا إلى تغيير سياستها ومفوضيتها بين الفينة والأخرى حتى تجد السياسة المناسبة لدحر زعيم اجمالة مولاي أحمد الريسوني. في هذا الصدد، كان الجنرال ألفاو

¹ - فرانسيسكو غوميث خوردا (Francisco Gómez Jordana) ولد بـ"مازارون" في 7 يونيو 1852 -وتوفي بـ"نطوان، عاصمة منطقة الحماية الإسبانية، 18 نوفمبر 1918، وهو ضابط عسكري إسباني ومفوض سام لإسبانيا في المغرب في الفترة ما بين 1915 ووفاته في 1918.

² - ولد خوسي مارينا 20 دجنر 1848 بخيرونا Gerona، هو جندي وسياسي إسباني، وقائد وكولونيل ما بين سنة 1893م و1898م بالبلين وكوبا. كما سبق وأن رقى إلى درجة حاكم مدني بيرثلونة، وحاكم عسكري بـ"بلنسية" سنة 1902.

أول ضحية لمقاومة الشريف الريسوني، وتلاه الجنرال مارينا ثم خوردانا وبعده برينغر، الذي لقب بسفاك دماء المدنيين، حيث جند كل طاقاته للقضاء على الريسوني، إلى درجة قصف معقله بتازروت، أثناء عملية انسحاب الجيش الإسباني من شفشاون سنة 1924، والتي قادها الجنرال برعمو دي ريبيرا، وأسفرت عن مقتل الآلاف من الجنود الإسبان، والمآت من الضباط، وكذا الجنرال غونثاليث تابلاس (González Tablas)، كانت نهاية الشريف مولاي أحمد الريسوني على يد الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي أسره سنة 1925، وحمله إلى بلدة سنادة، ومنها إلى تماسينت حيث توفي ودفن هناك.

ج. علاقة الريسوني بالمخزن.

بفعل الإزعاج الذي كان يثيره الشريف مولاي أحمد الريسوني لسلطات المخزن بالمنطقة الشمالية الغربية (جبال)، سيأمر المصدر الأعظم باحماد بإلقاء القبض عليه، لكن الأمر لم يكن بالهين، ومن ثم، فكر باحماد في حيلة للقبض على الريسوني، حيث أوعز إلى صديقه الحاج العربي ابن أحمد المعلم الودراسي للقيام بمهمة. وقد تمت العملية بنجاح وأودع الشريف مولاي أحمد الريسوني بسجن الصويرة. استغل الشريف وجوده بالسجن لتوسيع مداركه على كافة الأصعدة.

ونظرا لقيمة الشريف مولاي أحمد الريسوني وسط سكان قبائل جبال، فقد ارتأى مناصرو السلطان مولاي عبد العزيز استمالاته إلى جانبهم، ومن ثم تعيينه قائدا على منطقة الفحص وطنجة، غير أن فرنسا عارضت هذا التعيين نظرا لمقاومته التدخل العسكري الفرنسي في منطقة جبال بكل شراسة، خصوصا أطماعها في السواحل. لكن بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906، سوف تتفق كل من إسبانيا وفرنسا على عزل الشريف مولاي أحمد الريسوني من قيادة منطقة طنجة التي أصبحت دولية وفق الاتفاق الإنجليزي الفرنسي لسنة 1904.

نتيجة لذلك، سوف ينضم الشريف مولاي أحمد الريسوني إلى حركة السلطان مولاي عبد الحفيظ الذي كان في صراع مع أخيه السلطان مولاي عبد العزيز حول الحكم، وهذا ما جعل أنصار السلطان مولاي عبد العزيز يعتبرونه فتانا وبعثوا برسائل إلى القبائل الجبلية يؤكدون لهم فيها بأنه لم يعد يمثل السلطان وأنه خارج عن طاعته، وأن تاريخه مليء بالأعمال الإجرامية، كمارسته لعمليات اللصوصية والاختطاف وقطع الطرقات، التي جنى من خلالها أموالا طائلة، تبرع بجزء منها إلى أنصار السلطان مولاي عبد الحفيظ لدعم حركته في الوصول إلى الحكم ضد أخيه السلطان مولاي عبد العزيز.

ولما انتقل الشريف إلى رباط دار الشاوي، بعث إليه السلطان مولاي عبد الحفيظ رسالة شكر وثناء، وأرسل له معها هدايا متنوعة تشتمل على خيام فخمة من أثاث الملوك وأشياء ثمينة أخرى، ومن ثم قرر الريسوني أن ينشئ رباطا آخر بسوق أربعاء عياشة، حيث خاض معارك ضارية ضد التسرب العسكري الفرنسي والإسباني.

2. الريسوني المفترى عليه.

في هذا الفصل، حاول المؤلف الوقوف عند الافتراءات التي طالت الشريف مولاي أحمد الريسوني من خلال كتاب "ثورة أبي حمارة"، لصاحبه إبراهيم الكريدي، الذي لم يكن موضوعيا ولا منصفًا لتاريخ الشريف مولاي أحمد الريسوني، ويتعجب كيف يقوم الكتاب المغاربة بطمس الحقيقة وغض الطرف عن أمجاد الأبطال المغاربة الذين سجلوا أسماءهم بمداد من الذهب، وجاروا الكتابات الأجنبية التي شوهت تاريخ المغرب وسيرة أبطاله، وكمثال على ذلك، يعزى إبراهيم الكريدي بأن الشريف مولاي أحمد الريسوني هو من قام باستدعاء الإمبراطور الألماني غيوم الثاني لزيارة المغرب سنة 1905، حتى يدعمه في صد التسرب العسكري الفرنسي والإسباني في المغرب.

ويؤكد وولتر هاريس هذه الحكاية بقوله إن "بوحمارة" (الجيلالي الزهوني) كان على اتصال دائم بالريسوني، ويستدل على ذلك بظهير كان قد عثر عليه في خزانة آل الريسوني سنة 1903، والذي يتعلق بتعيين الجيلالي الزهوني (بوحمارة) للشريف الريسوني عاملا على قبائل الشمال الغربي، وقد ختم ظهير التعيين بخاتم بوحمارة. لكن، المؤلف (الطاهر لهوي) يؤكد بأن الشريف الريسوني خلال هذه الفترة لم يكن لا موظفا ولا إداريا حتى تكون له خزانة للوثائق السرية.

وختم المؤلف الجزء الأول بعتاب موجه إلى الفقيه محمد السراج العماري الزياتي في كتابه "خلاصة تاريخ سبتة"، الذي يطعن بشكل باطل في تاريخ مولاي أحمد الريسوني استنادا إلى المصادر الأجنبية، وينبه الفقيه السراج بأن يسأل قبل أن يكتب، لأن الكتابة عبارة عن تاريخ أجيال ولا بد من مراعاتها. وانه استعار كلامه من الشيخ الصوفي الدرقاوي العماري، مذكرا بهذا الجزء بأقوال بعض المؤرخين عن المواجهة بين الريسوني والجنرال برينغر.

في موازاة ذلك، تحدث المؤلف عن الإساءة التي قدمها صاحب كتاب "حرب الريف"، ووصفه بأنه لم يلتزم الأمانة العلمية في معالجته لتاريخ الريسوني، وأن الكتاب في الأصل هو عبارة عن كتب الأزيلايات والحكايات الخيالية كالسندباد البحري وألف ليلة وليلة. نفس الأمر يتطرق إليه المؤلف عند الحديث عن كتاب العربي اللوه "المنهال في أبطال الشمال". وكذلك عند حديثه عن المؤرخ عبد العزيز خلوق التمسماي، الذي يعتبر كتاباته حول الشريف مولاي أحمد الريسوني مجانية للصواب لأنها تستند إلى الكتابات الأجنبية، خصوصا الإسبانية منها، لأن الريسوني كان عدو إسبانيا الأول.

بحكم حنكته وبعد نظره، كان الشريف مولاي أحمد الريسوني واعيا بأن تاريخه سيتعرض إلى التحريف، ولذلك كان يردد جملة الشهيرة: "اللهم آت بمن يحسن بنا في التاريخ"، وقد حقق الله دعاءه بصدر هذا الكتاب.

3. خاتمة الكتاب "نهاية الريسوني".

كان الشريف الريسوني يحدث أهله ويخبرهم بأنه ابتلي بسبعة محن: ستة منها مر بتجارها، والسابعة هي التي ستذهب بحياته. أما الأولى، فهي محنة أهل الريف، خصوصا قبيلة بقبوة بعد حركة القايد بوشتي البغدادي، والثانية، فهي تعرضه إلى الاعتقال بسجن الصويرة؛ والثالثة، هي إغارة الكولونيل سلبسطري على منزله وأخذ أبنائه كرهائن؛ والرابعة، تعرضه لمحاولة اغتيال بمدشر بوحديفة على يد الفرنسيين؛ والخامسة، هجرته والتجاءه إلى جبل بوهاشم في آخر أيامه؛ والسادسة، محاولة اغتياله بوضع السم في الأكل؛ أما السابعة، فهي التي ستكون آخر محنة في حياته عندما تمكن الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بإلقاء القبض عليه وسوقه إلى بلدة تماسينت حيث توفي بعد أشهر من ذلك ودفن هناك.

ختاما، يمكن القول بأن المؤلف لخص سيرة بطل اجبالة الشريف مولاي أحمد الريسوني منذ بداية القرن العشرين، مروراً بمقاومته الفرنسيين، وبعدهم الإسبان منذ سنة 1913 إلى غاية سنة 1925، عندما تمكن أحمد أخو الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، بعد الهجوم على معقل الريسوني بتازروت، من إلقاء القبض عليه وعلى جميع قواده، وحمله إلى منطقة الريف حيث توفي بعد أشهر من ذلك ودفن ببلدة تماسينت. وقد قام المؤرخ اللبناني أمين الريحاني بتأيينه في مقال حمل عنوان: "حياة الريسوني من السجن بالصويرة إلى الأسر بتماسينت"، وهذا ما يدل على أن الريسوني كرس حياته للجهاد ضد الاستعمار، وهو ما لم يمهل الحياة طويلا، حيث توفي عن عمر 56 سنة، وكانت هذه خاتمة لسلسلة من المغامرات السياسية والروحية.

4. مصادر الكتاب:

تناول المؤلف عدة مؤلفات وصفها بالمصادر القطعية، كما استند إلى الرواية الشفوية حيث اتصل بعدة شخصيات بتطوان، من بينهم شهود العيان، والذين زودوه بمعلومات شفوية، وكذلك بوثائق عائلية. كما اتصل بعدد من زعماء القبائل الجبلية، وزار الأماكن التي كانت مسرحاً للأحداث، كما حصل على بعض التقايد من لأشخاص كانوا من مريدي الشريف مولاي أحمد الريسوني، والذين بقوا على قيد الحياة خلال فترة إعداد الكتاب.

بمذه الطريقة، عالج المؤرخ اللامع سيدي الطاهر بن عبد السلام لهوي موضوع سيرة بطل اجبالة الشريف مولاي أحمد الريسوني الشائكة، كما تحمل كتابتها بكل صدق وأمانة وإخلاص، هدفه الأساسي إمطة اللثام عن العديد من الحقائق التاريخية بكل موضوعية، مستندا في ذلك إلى كتابات مؤرخ منطقة شمال المغرب المرحوم محمد بن عزوز حكيم، وإلى الوثائق التي قام بترجمتها وهي المتعلقة بتاريخ الشريف مولاي أحمد الريسوني.

في السياق ذاته، اعتمد المؤلف على الوثائق الإسبانية وقام باستنطاقها حتى تكون مستندا لما جاء به في الكتاب من حقائق. كما أشار إلى الكم الهائل من الرسائل التي توصل بها من مكتب جريدة "الوحدة الكبرى"، التي كان يديرها مولاي علي الريسوني، ومن بين الشخصيات التي راسلته نجد الباحثة أمينة اللوه التي كانت قد وصفت الريسوني بنعوت سلبية؛ ثم رسالة من المؤرخ زكي مبارك، والأستاذ عبد العزيز بن عبد الله، والأستاذ محمد سلامة، وعبد الرحمان العمراني الإدريسي، والذين استحسنوا كل ما جاء به المؤلف في الكتاب حول تصحيح الرؤية السلبية اتجاه سيرة الشريف مولاي أحمد الريسوني.

5. دواعي كتابة الكتاب.

يرى المؤلف بأن هناك العديد من الكتابات والمؤلفات التي أفردت لرجال المقاومة المسلحة في منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب حيزاً مهماً من التعريف بالبطولات والحضور التاريخي، لكن حضور الزعيم الشريف مولاي أحمد الريسوني فيها يكاد يكون نادراً أو منعزلاً بالمرّة، وهذا ما دفع المؤلف إلى نفخ الغبار عن سيرة هذا المقاوم المجاهد البطل حتى يوفيه ولو جزء مما قدمه إلى الوطن. ويذكر المؤلف بأن الشريف مولاي أحمد الريسوني كان واعياً بأنه سيظل في التاريخ، ولهذا كان غالباً ما يردد جملة الشهير: "الله يجيب من يحسن بنا في التاريخ" (أدعو الله أن يأتي بمن يظهر حسناتنا في التاريخ)، وهي المهمة التي تبنها المؤلف مولاي الطاهر لهوي الذي أبي إلا أن يقدم سيرة للشريف الريسوني توضح للأجيال الحالية تاريخ هذا الرجل العظيم الذي قاوم الفرنسيين والإسبان، والذين على الرغم من ترسانتهم العسكرية القوية والمتطورة، لم يستطيعوا هزموه، وكانت نهايته على يد الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي قام بأخذه إلى منطقة الريف خلال آخر أيامه.

6. عناصر الجودة والتميز في العمل "ملاحظات على مستوى المنهج والسياق".

يعتبر الكتاب قيمة علمية مضافة في حقل الدراسات التي اهتمت بحركات المقاومة في منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب، عبر تسليط الضوء على شخصية آثار العديد من النقاش حول مواقفها، ليحسم المؤلف هذا الجدل بتكريس دراسة سيرة أغوار شخصية الريسوني المقاومة والمجاهدة وذلك حفظاً للذاكرة الجماعية والتاريخية للمقاومة المسلحة المغربية. في هذا الصدد، استند المؤلف إلى المنهج الاستقرائي لمقارعة جميع الأحداث التي أثارت الجدل حول سيرة الزعيم الريسوني ومواقفه المختلفة، ليحسم المؤلف وجهة نظره بالاستناد إلى السياق العام الذي طبع تلك المرحلة، والذي كان له تأثير عميق في توجيه ردود أفعال الريسوني المتناقضة حسب الظروف التي تطلبتها اللحظة.

من الملاحظات التي أثارت انتباهي عند قيامي بدراسة هذا الكتاب، هي غياب السرد الكرونولوجي للأحداث، مما يسقط القارئ في نوع من التيه، خصوصا بالنسبة لأولئك الذين غير ملمين بتاريخ منطقة شمال المغرب، لأنه تارة يتحدث عن أحداث وقعت في عهد الجنرال كوميث خورديانا، ثم يعود إلى الحديث عن وقائع صارت خلال فترة الجنرال ألفاؤ؛ كذلك، تستنتج من خلال التعمق في مضمون الكتاب، بأن الأسلوب تطبعه لغة تقليدية تعطي الأهمية لعلم الأنساب والعلوم الفقهية، وهو ما يتناسب مع تخصص المؤلف بهذا المجال المعرفي، ودخوله إلى حقل الكتابة التاريخية من باب الاهتمام. كما يمكن ملاحظة تداخل لفصول الكتاب بعضها ببعض حيث يصعب ترتيبها، لكنني تجاوزت كل هذه الأمور المنهجية والتقنية واكتفيت بالوقوف على الأحداث البارزة في الكتاب.

الفضاء في النص المسرحي:
ابن الرومي في مدن الصفيح نموذجاً
د. لبنى المجيدي
المملكة المغربية

الملخص:

ترتبط حياة الانسان ونموه في هذا الكون ببعدين، بعد زمني و بعد مكاني. وأصل كل الأمكنة هو الإنسان ذاته، إذ أن البيت الخالي من الناس يكون خرباً. فالمكان رمز للوجود وعلامة على الكينونة والحياة. ودراستنا تقوم على تحديد الفضاء بشكل عام و تبرز أهمية عنصر المكان في النص المسرحي "ابن الرومي في مدن الصفيح" لما يتيح من امكانيات تحديد الاجواء الدرامية في النص، وقوة تأثيره على سلوك الشخصيات المسرحية وانفعالاتها ومواقفها من سيرورة الاحداث، كما يسمح بالتعرف على البنى الاجتماعية و النفسية و الاقتصادية

الكلمات المفتاح: النص المسرحي، الفضاء المسرحي، الفضاء الدرامي.

مقدمة:

يعد الفن المسرحي من الفنون الثرية الحديثة التي تبوّأت مكانة هامة في الأدب العربي مع أواخر القرن التاسع عشر، وكانت الكتابات العربية تستوحي نماذجها من المسرح الفرنسي و الايطالي، فتعمل على تطويعها بما يتناسب مع ذوق الجمهور العربي ويوافق ثقافته العربية المختلفة عن الثقافة الغربية. فتناولت موضوعات ذات علاقة بالقضايا الاجتماعية و السياسية و الدينية والأخلاقية والمشاكل اليومية. وبذلك لقي فن المسرح كشكل فني حديث و ممارسة ثقافية و اجتماعية جديدة على المغاربة إقبالا واسعا وحظي بمجاهير عريضة بين مختلف الأوساط الاجتماعية .

ولما كان المغرب بلد الفنون و الثقافات، تميز بأشكال فرجوية متنوعة تنطوي على إرهاصات مسرحية تقوم في أساسها على فنون الحكلي و الرقص و الغناء وتتم بالارتجال و الحركة، قبل أن يصبح فن المسرح المقعد وفق الأصول الاغريقية و الشكل الايطالي (الدراما و الخشبة) فنا قائما بذاته .

وشكل عنصر الفضاء محورا بارزا في هذه الاشكال الماقبل مسرحية بدءا من فضاء الحلقة التي تعكس واقع الابداع الشعبي و البساط و سيد الكتفي الذي ينقل فضاء الظواهر الغربية عند حمادة و كناوة ، وسلطان الطلبة الذي يصور الفضاء الملكي في إطار التمثيل و الفكاهة و قراءة الشعر ، وانتهاء ببوجلود الذي يجوب كل مناطق البلدة رفقة الصغار في جو من المتعة و الانبساط ناقلا معه صورا متنوعة لأفضية متعددة .

1 - الإطار الإشكالي

● إشكالية الدراسة

إن النص المسرحي مجموعة متجانسة من العناصر التقنية تؤدي وظائف محددة، أولها الارشادات المسرحية التي توجهنا الى معرفة شخصية الممثل، وإدراك أهمية توزيع الشكل المسرحي والرقص والغناء والحركة فضلا عن موضوع المسرحية ودلالات درجات الاضاءة، وقد شكّل الفضاء المسرحي أحد أهم العناصر الأساسية التي تساهم في بناء العوالم الدرامية، فهو متعلق بكل ما يؤطر الخشبة المسرحية من سينوغرافيا وديكور وإشارات بصرية و لغوية تحكم العرض الدرامي. ولا يقتصر مفهوم الفضاء هنا على الحيز المادي الذي تجري فيه الأحداث، بل يتعداه ليشمل الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية التي تحيط بالشخصيات وتؤثر في مساراتها. وفي هذا السياق، نغيا الاجابة عن إشكالية مفادها الى أي حد يمكن للفضاء باعتباره كيانا فاعلا وعنصرا حيويا أن ينقل ويصور واقع المهمشين في النص المسرحي ابن الرومي في مدن الصفيح؟ وما هي القيم التربوية التي تحفل بها اللوائح المسرحية؟

● فرضيات الدراسة

- 1- يسعى النص المسرحي (المقرر لتلامذة الجدع مشترك اداب) الى تحقيق أهداف تعليمية و تربوية و أخلاقية من خلال الجمع بين تجربتين متباعتين زمنيا و مكانيا؛
- 2- يستلهم الكاتب التراث الشعبي و القومي لتأكيد القيمة الفكرية و الابداعية التي يزخر بها التراث العربي.

● أسئلة الدراسة

- 1- لماذا اختار المؤلف عبد الكريم برشيد شخصية ابن الرومي التاريخية ؟ وماهي أوجه التشابه بينه وبطل النص المسرحي؟
- 2- ما مدى فاعلية عنصر الفضاء في رصد التحولات النفسية و الاجتماعية لشخصيات الحي؟

3- هل تصدى الكاتب الى عمق ظاهرة المهمشين وجذور المشكلة الاجتماعية بالمدن المغربية وهل نجح في تصوير مشاهد البؤس الاجتماعي من خلال عنصر الفضاء؟

- منهج الدراسة: المنهج السيميائي و المنهج التحليلي الوصفي
- أهمية الدراسة و أهدافها

استدعى المؤلف عبدالكريم برشيد¹ في هذا النص المسرحي الموسوم ب"ابن الرومي في مدن الصفيح"² مجموعة من الوسائل الفنية والتعبيرية المستمدة من التراث الثقافي العربي لإعادة تشكيل أفضية المهمشين اجتماعيا، أحدها فضاء متعلق بالانسان المهمش الذي يعاني من البؤس والكآبة و العزلة ، وفضاء خاص بالمرأة المستغلّة جسدا وكيانا ، وفضاء الحي الصفيحي وما يتعلق به من مبان قصديرية وأكواخ خشبية. وجذبه الى البحث في مجال المسرح الاحتفالي الذي يعنى بمشاكل العصر وضغوطات الواقع ، فالمسرح ضرورة فنية وثقافية هدفها إغناء خيال المتلقي ، وإثراء قدراته العقلية العاطفية والجمالية و الثقافية. وبلا شك، فقد ساهمت هذه المسرحية في إثبات الخصوصية العربية والمغربية في التأليف ، وسلطت الأضواء على ضرورة تحرير الانسان من كل القيود وجعله فاعلا بالمسرح ومنفعلا به .

I- مدخل مفاهيمي

1- النص المسرحي

يقصد بالنص المسرحي ذلك النص الذي يحمل داخله النص الدرامي بكل عناصره التي وضعها المؤلف بالإضافة الى عنصر الاخراج ، فيخرج من صورته المكتوبة الى صورته المرئية. بمعنى آخر هو ذلك العمل الابداعي الذي يعرض على خشبة المسرح، يجسد أحداثه مجموعة من الممثلين، ويشخصون حركات شخوصه فيتحول من نص مكتوب الى نص ملفوظ، تتداخل معه عناصر أخرى أهمها التمثيل و الإلقاء و الإضاءة و الديكور والملابس...، كما يقصد كذلك بالنص المسرحي ، النص اللغوي الذي يعتمد اللغة لتبليغ الرسالة الفنية باعتبارها قناة من مرسل واحد هو المؤلف المسرحي، فيشترك مع باقي الأنواع الأدبية في الخصائص الفنية على رأسها الموضوع أو الفكرة، الشخصيات و الزمان و المكان ويتميز بالأسلوب الذي يهيمن عليه الحوار بنوعيه الداخلي و الخارجي فضلا عن الصراع الدرامي بين الشخصيات، و الإرشادات المسرحية التي توجه القارئ الى تحديد هوية شخصية من شخصيات النص وتأکید كلامها وأفعالها و انفعالها و إيماءاتها عند الكلام أو الحركة، ثم تحديد زمان ومكان وقوع الاحداث المشكلة للبنية الحكائية، أو تحديد الفصول و المشاهد و المناظر وظيفته التفاعل مع الواقع.

يطلق على النص المكتوب "النص الدرامي dramatic texte" وهو " نص المؤلف اي الخلق fiction و المصمم خصيصا للتمثيل على المسرح و المبني على أساس التقاليد و الأعراف convention الدرامية المتعارف عليها، وهو عادة ما يسبق النص المسرحي، ثم يصاحبه بعد بداية العرض"³

¹ عبد الكريم برشيد، مغربي، كاتب ومخرج مسرحي و ناقد، من اعماله المسرحية: عنتر في المرايا المكسرة، عطيل و الخيل و البارود، لعبة الوجوه و الأقنعة، حدود الكائن و الممكن في المسرح الاحتفالي، الحكواتي الأخير وغيرها من الأعمال المسرحية.

² عبد الكريم برشيد، ابن الرومي في مدن الصفيح، اديسوف للنشر، ط2، مطبعة النجاح الجديدة 2006/2007، الدار البيضاء.

³ شكري عبد الوهاب، النص المسرحي، مؤسسة حورس الدولية، الاسكندرية، ط2001، ص2

2- الفضاء المسرحي

يتكون الفضاء المسرحي¹ من الفضاء النصي أو الدرامي، و الفضاء الركحي فضاء الخشبة، فالفضاء النصي خاص بالنص الدرامي، والفضاء الركحي هو فضاء الخشبة المسرحية". ويمكننا الحديث عن القاعة بوصفها فضاء لمشاهدة ما يجري من لعب فوق الخشبة المسرحية، هذه الخشبة التي يمكن ان تتحول الى أفضية متنوعة عبر استخدامات الاضاءة بطريقة جمالية غايتها المتعة وتبليغ مقاصد المخرج/ الكاتب فيصبح الفضاء الواحد نفسه فضاءات مختلفة بل يمكن أن تكون فضاءات متناقضة على امتداد العرض المسرحي.

3- الفضاء الدرامي

يشكل الفضاء الدرامي أحد مكونات النص المسرحي باعتباره دالا حاملا لمعنى في ذاته، إنه فضاء على القارئ أو المتفرج أن يبينه في خياله فيتحوّل الى أفضية غير محدودة، "إنه الفضاء الوهمي المشكل انطلاقا من النص، سواء أظهر أم لم يظهر على المنصة، وهو يضم الجانب النصي و الجانب الخارج عن المنصة ومن الممكن تماما أن يلعب العرض بهذه المعارضة بأن يجعل ما هو خارج المنصة منصيا. و الفضاء الدرامي لا يتميز بشكل أساسي عن الفضاء الروائي، اللهم الا أن الفضاء الروائي لا يفترض التمييز "منصي/" غير منصي "...حضور/ غياب"² وبكل تأكيد هناك فرق بين الفضاء الدرامي الذي يطرحه المؤلف في النص المسرحي و الفضاء المسرحي المرئي و المجسد على خشبة المسرح. حيث ان الفضاء الدرامي يتشكل من كل العناصر التي يقوم عليها بناء النص الدرامي، فهو يجمع العالم الدرامي و ينظم علاقات عناصره بنفس الصورة التي تعمل بها هذه العناصر على مستوى تنظيم و تشكيل و تحديد العمل الفني .

4- الفضاء/ المكان

يعرف مصطلح فضاء/ مكان تداخلا اصطلاحيا على مستوى تداول المصطلحات في الساحة العربية. فنجد أحيانا مصطلح المكان المسرحي ويقصد به الفضاء المسرحي، كما يورد الفضاء المسرحي بالمكان المسرحي، ويعود هذا التداخل الى الترجمة عن اللغات الأجنبية (الانجليزية و الفرنسية).

ورد لفظ "المكان" في معجم لسان العرب بمعنى الموضع، والجمع أمكنة وأماكن، وهو الفضاء غير الفارغ و المحدود، أي المسكون فزيائيا وجسديا³، أما الفضاء⁴ فهو الأرض البوار الشاسعة والفارغة أو بما اتسع من الأرض" وبذلك يكون الفضاء صفة الاتساع للمكان وليس المكان ذاته.

أما في المعجم المسرحي⁵، فالمكان يتميز عن الفضاء بكونه وجود مادي يمكن ادراكه بالحواس والفضاء هو الفراغ الذي يحيط بالعناصر المادية.

و يقصد بالمكان الموضع الذي تقدم فيه العروض المسرحية، سواء كان بناء شيد خصيصا لهذا الغرض الفني مثال قاعات المسرح، أو مدرجات الهواء الطلق، أو أي مكان يستخدم في ظرف ما لعرض مسرحي: مقهى، شارع، ساحة عمومية.. بمعنى أي

¹ أحمد بلخيري، المصطلح المسرحي عند العرب، البوكلي للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، 1999، القنيطرة، ص 177.

² أوير اسفيلد آن، ترجمة ابراهيم، مدرسة المنهج (قراءة المسرح) منشورات مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي (الدورة الثامنة) القاهرة، وزارة الثقافة، ص 61

³ ابن منظور، لسان العرب ج1، دار المعارف، 1119 كورنيش النيل، القاهرة ج.م.ع.

⁴ المصدر نفسه، لسان العرب ج2

⁵ ماري الياس، المعجم المسرحي مفاهيم و مصطلحات المسرح وفنون العرض، مكتبة لبنان ناشرون، طبعة 1، 1998 لبنان ص 473

وجود مادي يمكن ادراكه بالحواس. ويشمل حيزين مستقلين عضويهما حيز اللعب الذي يتم فيه الأداء، و حيز الفرجة وهو مكان المتفرجين. أما الفضاء فهو الفراغ الذي يحيط بالعناصر المادية. "والمكان هو أحد هو أحد العناصر الأساسية في المسرح لأنه شرط لتحقيق العرض المسرحي. وهو مثل الزمن في المسرح ذر طبيعة مركبة لكونه يرتبط بالواقع من جهة وبالمتخيل (مكان الحدث الدرامي المعروض على الخشبة) من جهة أخرى²¹"

كما ورد المكان المسرحي lieu theatral في المعجم بمعنى المكان الذي تقدم فيه العروض المسرحية، سواء كان ذلك في مسرح مكشوف بالهواء الطلق أو أي حيز مكاني مناسب للعرض، أما الفضاء المسرحي فتقابله في الفرنسية espace وفي الانجليزية space وهي تطلق على المكان الذي يطرحه النص ويقوم القارئ بتشكيله في خياله وعلى المكان الذي نراه على الخشبة ويدور فيه الحدث وتحرك الشخصيات.

II- فضاء الهامشي في النص المسرحي

احتفى الكاتب في النص المسرحي "ابن الرومي في مدن الصفيح" بشخصيات من الفئات المنبوذة، إنها مصرة على التمتع بكامل حقها في الحياة، و الاستمتاع بملذاتها رغم ظروف عيشها القاسية في فضاء خاص حابل بالتناقضات، فضاء ينطلق من الهامش حيث الحرمان والشعور بالاحتقار والإقصاء داخل الاكواخ القصدية، إلا أنهم رغم الهشاشة لا يطمحون الى بلوغ المركز، راضون بعيشهم في مجتمع لا يخلو من اللحظات الانسانية القوية التي ترجح كفة الامل و الحياة على كفة اليأس و العدم في فضاء مفتوح تمثله الحياة.

والنص المسرحي يحدد الفضاء الجغرافي الذي تدور فيه الوقائع، على اعتبار انه اللبنة و الاداة السردية التي من خلالها تتشكل الشخص و تتفاعل مع الأحداث. الى جانب عنصر مهم آخر يشير الى الفضاءات الاخرى المشكلة للنص الدرامي والمتمثل في عنصر الاضاءة التي تلعب دوراً وظيفياً في اضاءة الممثلين وساحة العرض، ودوراً إيحائياً في خلق الجو التخيلي للمشاهد "تنطفئ الانوار بينما يبقى الستار مسدلاً. بقعة ضوء متحركة تكشف عن رجل متحرك يخترق صفوف الجمهور"³، يغرق المنظر الخلفي داخل بقعة مظلمة. تحرك الى الأمام قطع سينوغرافية تمثل دار ابن الرومي. يسمع طرق شديد على الباب"⁴ وغاية هذه الإشارة الواردة في هذا الإرشاد المسرحي هي رسم البيت الذي يحيا به ابن الرومي في وحدة قاتلة وعزلة مملعة بعيداً عن هموم الناس وقضاياهم. وكذا الدلالة على الجو النفسي المتوتر والصراع الذي يهيمن على هذا الفضاء الغارق في الحاجة والعوز. وغياب أي اجراء تديرى لتحسين الوضع وهذا ما يجعل القارئ يغوص في البياضات والفراغات التي يشير اليها النص المسرحي الحابل بالدلالات المتناقضة .

ويبدو واضحاً أن عبد الكريم برشيد يسعى بأسلوبه الفني الى تصوير واقع المهمشين في الاحياء الصفيحية لاشراك المتلقي في اللعبة المسرحية، "المحاكاة حسب المفهوم الارسططالي تتم في المسرح بأسلوب هنا/ الان، أي إن المسرح يعرض الحدث وكأنه يجري أمام أعين المتفرجين، وبدلاً من تقديم الحياة كلها على الخشبة، فإنه يقدم جزءاً منها مع الإيحاء بأن ما يقدمه هو الحقيقة و ربما هو الواقع و لا يتحقق ذلك الا من خلال الاعراف"⁵

¹ المعجم المسرحي نفسه

³ عبد الكريم برشيد، ابن الرومي في مدن الصفيح، اديسوفت للنشر، ط2، 2006/2007، الدار البيضاء

⁴ ابن الرومي ص52.

⁵ المعجم المسرحي، ص53.

1- فضاء ساحة الحي

يساهم عنصر المكان في إعطاء الرسالة التي يحملها النص المسرحي قدراتها الرمزية، حيث يحتل ذكر أسماء الأماكن دوراً مركزياً منذ اللوحات الأولى (المسرح، بغداد الشام، فاس و القيروان و بيروت العجربة وعمان الحاملة، و الأكواخ و القصور...) وما لاشك فيه، فذكر هذه الحواضر و الأماكن الأخرى يستجيب لباعث قوي يمثل كاتبة المسرح الاحتفالي الذي ينتصر للحياة من خلال هذا العالم الصغير فوق خشبة المسرح أو على الورق، كما يسعى لتحرير الإنسان من العبودية و الاستغلال الجماعي الذي يتبدى من خلال طبيعة العلاقات الاجتماعية المتوترة بين جماعتين متنافرتين ليصور الواقع المزري من خلال توالي اللوحات، يقول المقدم وهو في ساحة الحي بعدما أخرج منشورا بهم بقرائه و يتوقف متردداً ليزيد من استعداد سكان الحي لسماعه: "اسمعوا لقد قرر أعضاء المجلس البلدي-الموقر طبعاً- أن يقوموا بترحيل سكان هذا الحي إلى مكان ما-الدراسات الان جارية و الموقع لم يحدد بعد، ولكن اطمئنوا- وعليه فلا بد من إفراغ حي القصدير حالا حتى يمكن هدمه و بناؤه فنادق سياحية جميلة فكروا في السواح و الدولار و الدينار...¹". هذا المشهد يجعل المتلقي / المتفرج يقبل على العمل الفني دون استنكار وهو يعرف أنه مكتوب/ مصطنع، ويظهر له كأنه واقع حقيقي وواقعي فيندمج بالعمل المسرحي ويشعر بمتعة الإيهام بالواقع وهو الهدف الأساسي. ويوجه زاوية النظر الى المهشم الفقير والمعتوه و العاجز و الخائف ووجوه مختلفة من الواقع وهي تصارع من أجل البقاء في حيها الذي يبعث على الضيق، لكنهم مع كل هذا البؤس محافظين على هوياتهم، و يجمعهم شغف الاجتماع حول خيال الظل الذي لا ينفصل عموماً عن مشاكلهم وهومهم وقضاياهم وانشغالهم، وكأن الكاتب يقول أن لا شيء أهم وأثمن من الذوات المتصالحة مع واقعها، مبرزا قيم المحبة و التضامن و النأخي الجامعة بين أهل الحي، يقول ابن دانيال: "سأحكي عن شاعر فقير يعيش مثلهم في أكواخ الخشب والقصدير، سأحكي عن ابن الرومي الجديد... سادتي امنحوني أحداً واسعاً وسمعا مرهفاً، فأنا لست مؤرخاً. لا ولست معلم صبيان، وعليه فإن كل مشابهاة مع التاريخ إن هي إلا اتفاق ومحض مصادفة... ابن الرومي الذي رسمته وقصصته بيدي ليس وليد بغداد التي تعرفون... شاعر الليلة يا سادتي قد يكون من باريز من روما، من البيضاء، أو من وهران"².

يحكي النص المسرحي قصة شاعر يلقب بابن الرومي فقير ضعيف غير قادر على الانتصار على خصمه لا يشبه سكان الحي الآخرين، أقفل الباب خلفه وابتعد عن الناس، وانتكاسات الحياة حتى وصِف بالخوف المتشائم مؤثراً الانزواء والانغلاق على ذاته في مكان محدد وهي الغرفة الموصدة الباب طول الوقت، يخشى الناس ويمقتهم، وبقي على حاله زمناً طويلاً إلى أن شاء القدر أن تتغير أحواله من انغلاق تام إلى انفتاح تام وتواصل كامل مع الناس في الحي، خصوصاً عندما أدرك بأن الشقاء يرتبط بوضعه الاجتماعي في الحي، حيث سيادة الظلم والاستغلال والتفاوت الاجتماعي ليقرر الاختلاط بالشجعان منهم والنضال معهم طلباً لتحقيق العدالة الاجتماعية، مثلاً بذلك نموذج الإنسان الاحتفالي العاشق للحياة.

¹ ابن الرومي ص 16

² ابن الرومي، ص 22.

2- فضاء الحي الصفيحي

يبدو أنه "من الواضح أن الأحياء و الشوارع تعتبر أماكن انتقال ومرور نموذجية فهي التي ستشهد حركة الشخصيات و تشكل مسرحا لغدوها ورواحها عندما تغادر أماكن إقامتها أو عملها.¹ ولعل الوقوف عند الفضاءات الانتقالية في النص المسرحي كفييل بمدنا بمجموعة من الصور التي تحدد معالم تلك الفضاءات و ملامح سكانها و كل ما يرتبط بها من قيم.

يرفع كاتب النص المسرحي الستار على فضاء مدن الصفيح المتحررة من القيود الهندسية فيمثل بؤرة الحكي، فهو حي شعبي هامشي معزول يغطي في التناقضات، إلا أنه حي يحمل هوية خاصة بأصحابه يرفضون التغيير و التحديث، فيغدو الحي بطل النص المسرحي الذي حفر صورا للمشاهد في الذاكرة، صور من البيوت، والأكوخ، والساحة "يرفع الستار عن ساحة تحيط بها مجموعة من دور القصدير وأخرى من القصب. ظلام شبه تام تنبعث من النوافذ" أضواء خافتة ترسلها شموع هزيلة²... وبذلك تكون الساحة/ الخشبة فضاء للفرجة، الفضاء الذي سيلتقي فيه ابن دانييل بجمهوره لقاء مباشرا دون فواصل. بل انهما يحركان اللوحات المسرحية بواسطة عربة خيال الظل التي يمكن اعتبارها المكان المادي الذي يتنقل، حتى لا يكاد المتلقي قادرا على تحديد المكان الذي تجري فيه الأحداث، هل هو زمن ومكان العصر العباسي الذي عاش فيه ابن الرومي، أم هو زمن ومكان العصر الحديث الذي ظهرت فيه مدن الصفيح.

يتخذ النص المسرحي من "مدن الصفيح" فضاء مركزيا لتشخيص تحليات مختلفة للتمهيش الاجتماعي، والاثار السلبية على نفسية المهشم بسبب تشيئته في عالم الرأسمالية الجشعة "نرى امرأة حبلى وهي تحرك الحصى داخل قدر وهي فوق رأسها أقنعة ظلية مختلفة ذات افواه مفتوحة عن آخرها. نرى رجلا في وضع صلاة وفي يده سبحة... نرى امرأة تطحن وهي تردد لحنا حزينا...³" ويظهر المشوهون (جحظة المغني و عيسى البخيل و دعبل الأحذب و الزبون الأبكم) وفضاء النساء (جوهر و الرباب وعريب وحبابة) وفضاء المقدم و خادمية فيصاحب فضاءات الشخصيات اختلاف اجتماعي و نفسي وثقافي، إنها فضاءات مادية تعكس فضاءات نفسية تكشفها حوارات الشخصيات ومواقفها على مدى اللوحات السبعة عشر فيغدو عنصر الفضاء متحكما في الدلالة الشاملة للعمل المسرحي. ولا شك أن كتابة الهامش الاجتماعي تميزت بكونها إشكالية تستدرج القارئ نحو دلالات و أهداف مقصودة تمثل انشغالا أساسيا عند المثقف العربي.

ومن اللافت أن انبناء النص المسرحي على أساس من التفاعل بين زمنين متباعدين، وتجربتين في مكانين مختلفين، تجربة الشاعر ابن الرومي المنتمي الى العصر العباسي، وابن الرومي بطل النص المسرحي الغامض و الخائف من المجهول، هما مجرد خلفية تاريخية وظفت بطريقة فنية لتعريف الواقع الحالي من خلال رمزية ابن الرومي.

3- فضاء بيت النخاسة

لا يخلو فضاء النص المسرحي من نزعة تأنيثية حيث يفتتح المشهد في اللوحة السادسة بظهور ثلاث نساء في ظلام يغرق المنظر الخلفي في ظلام شبه تام. تتدلى من فوق شارات مختلفة الألوان. تظهر نساء ثلاث على يمين الجمهور وهن يفتشن الوسائد...⁴ وهي إشارات مقصودة في ذاتها وتحمل الكثير من المعاني التي تشير الى مغزى الحكاية في النص المسرحي وهو

¹ حسن بجراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990، ص79

² ابن الرومي، ص 10

³ ابن الرومي ص10

⁴ ابن الرومي ص 29

استغلال المرأة، وهنا يرجع بنا الكاتب مرة أخرى الى التاريخ العربي في ما يتعلق بنظام الرقيق حيث تكون المرأة (أمة) خاضعة لسلطة السيد صاحب المال و القرار فيستبيح جسدها كأى مادة استهلاكية يشتريها بماله. وبذلك تتشيع المرأة، وتساق مكرهه الى بيوت الزبائن من طالبي المتع الجسدية. وهو ما أعطى لهذا النص المسرحي بعداً إنسانياً يتعلق بقضية المرأة كقضية إنسانية عالمية. إن النسوة في بيت المعلمة الرباب معروضات للبيع، والرباب عجوز شمطاء فاجرة تدبر بيتاً للمتعة الهاربة مقابل دنائير صفراء، تتاجر بالمشاعر الزائفة و تبيع العشق الوهمي في الحي الصفيحي، والجواري مستسلمات لأقدارهن، مؤمنات أنهن كالشمع وجد ليحترق . تقول عريب: أنا عريب الجارية، ربوني في حقول تربية الغواني، علموني كيف أفرخ اللذة وأحيك الأغاني، راقصة كنت في بيكال، أتعري عبر الليال، تلسعي. تجلدي. تدفني في عمقها عين الرجال، ممثلة كنت في برودواي، أموت كل ليلة مرة. ثمني؟ التصفيق يوم أحسن الموت و العهارة...، أنا عريب الجارية يعرفني نخاسو بغداد و القاهرة، يعرفني السكارى في بيروت ويعرفني السماسرة¹ وبلا شك ففي هذا التصريح المتشطي سخريه من القدر الذي جعلها ترقص بقلب باك. وإعلان عن رفض دفين لهذا الاستعباد و التهميش، رفض سيكشفه الحوار الذي دار بينها وحبابة وجوهرة عندما مثلت دور الرجل قائلة: عجباً! تردّ لي مطلباً حقيراً، وأنا من أنا! عريب، هل نسيت أنني أكبر المقاولين في بغداد؟ عريب: ولتكن... حبابة: (وهي تمثل أيضاً) وأنا. هل نسيت مركزي في كل بغداد؟ عريب: ما نسيت شيئاً أبداً، أنت رئيس مجلسها البلدي... جوهرة: اعقلي إذن يا امرأة! كوني كسائر النساء في بغداد، أمتص جهدهم و لا ينطقون. عريب: من تنادي اليوم يا سيدي ما عدت عريب الجارية، الان فقط أعرف النور... أتنفس أولد ثانية.² فكيف تنفّس المرأة و كيف تولد من جديد؟ إنها تحيا حياة جديدة بعدما أدركت عن وعي تام بأنها ليست سلعة تباع و تشتري و تهدى عواطفها للأسياد و الاثرياء، واثارت في وجه رئيس المجلس البلدي في شخص حبابة، ورفضت أن تنصاع لمشاعر ابن الرومي المتيّم بحبها الا وهي حرة واستطاعت ذلك "وصك البيع الذي بين يديك؟ ابن الرومي: (يخرج ورقة و يتأملها) اسمعي يا أمة الله لا اريد ان تجمعني بك ورقة حقيرة، لذلك أمزقها أمام عينيك... أنظري... (مزق الورقة) انت الآن حرة³ و يفيد سلوك ابن الرومي تحرر المرأة من القيود المجتمعية في العالم العربي، وهذا ما يترجمه عودتها في اللوحة السادسة عشر.

تشكل الساحة فضاء التآخي بين جماعة المفلوظين اجتماعياً حين تعود عريب الراضة لفكرة الانضمام للمركز حتى يُعترف بوجودها وهي الانثى اللينة و الشاعرة الذكية المتحررة وسط دهشة دعبل الأحذب وعيسى البخيل وجميع الحضور لتكون لحظة تحول مهمة في حياة الشاعر المتشائم، وينادي أشعب المغفل على ابن الرومي ليبشره بعودتها الا أن الشاعر المتطير لا يصدقه "من خلف الباب أنت لا تأتي إلا بأخبار النحس يا أشعب، تحمل الأخبار و تمسخها، أنت مرآة تشوه ما تنقل ... أنت تخدعني"⁴ الى أن يراها وهي منتصبة خلف الباب في صمت مهيب، وفي لحظة زمنية تتلاشى المتناقضات، عريب القادمة من بغداد هي ذاتها عريب العائدة الى الحي، ولكن بفكر متحرر و شخصية جسورة متصالحة مع ذاتها، لتخرج ابن الرومي من مكانه المعلق الى الفضاء الرحب المفتوح الى الحياة بطولها وعرضها، وهي لا تخشى الفقر ولا الجوع و لا النحس، لأنها تؤمن بقيمة و أهمية العودة الى الاصل و الى الجذور ولو كانوا أشقياء في مدن الصفيح، عادت عريب لتخرج الشاعر من فضاء أفكاره التشاؤمية التي تحتاج الى مراجعة وتنجح في إخراجها من نفسه وأوهامه وتصلحه مع الجماعة في الحي يقول: "سأنزل الى أسواق بغداد لأتيك بالخلخال، اخوتي ودّعوني أو شيعوني، فقد أعود أو لا أعود. من يدري؟ وداعاً عريب."⁵ فيخرج ويجري خلفه جامدة كالصنم. فهل

¹ ابن الرومي ص 32

² ابن الرومي ص 38

³ ابن الرومي ص 74

⁴ ابن الرومي ص 85

⁵ ابن الرومي ص 91

سيخلو المكان برحيل ابن الرومي، و الانسان مرتبط في هذا الكون ببعدين بل أنه هو الأصل في كل الأمكنة، فالبيت الخالي من الناس يكون خرابا لا حياة فيه ولا قيمة له، وبذلك فالمكان رمز للوجود وعلامة على الكينونة.

4- الفضاء تجسيد للمجرد وتعبير عن الحالات النفسية و الاجتماعية

عطفا على ما اورده آنفا " فالفضاء الدرامي " يصاغ بأساليب وأشكال متنوعة داخل النص المسرحي. إنه فضاء في حركة تحول مستمرة خاضعة لفعالية العلاقات المكانية الموجودة في الأحداث داخل النص، وعلى القارئ أو المتفرج أن يبينه في خياله، ومثل له بما جاء في النص المسرحي حيث أنه (المكان) ينتقل من الأكواخ الخشبية و القصديرية بالمدن المغربية الى ساحة الحي ببغداد، وكل فضاء سابق مرتبط بفضاء لاحق ليكون مشهدا مسرحيا غني بالتقابلات و التناقضات. بل ان الأمكنة تتوارى و تختلف فوق الخشبة مع كل درجة من درجات الاضاءة، " بضاء الجانب الاخر...، بقعة يقف داخلها ابن الرومي...، يغرق المنظر الخلفي في ظلام شبه تام...، بقعة ضوء في الجانب الآخر. يرى ابن الرومي وهو يقرع بابا وهما وينادي...، يعود الضوء، فيتحول الى ساحة عامة...، يغرق المنظر الخلفي داخل بقعة مظلمة، تحرك الى الأمام قطع سينوغرافية تمثل دار ابن الرومي..، يعود منظر الساحة وتعود معه الدكاكين..."

وهكذا، كشفت الأمكنة الموظفة في النص المسرحي أبعادا كثيرة في تصوير واقع حياة الشاعر ابن الرومي المضطربة و المترددة في مدينة بغداد، وهو واقع كل مبدع و مثقف عربي معاصر، فهو (ابن الرومي) الساخر الذي اعتزل الناس وانطوى على ذاته متأملا العالم الخارجي من ثقب الباب، يخاف المجهول و يستلذ بحيرته يقول: "أفتح الباب أو لا أفتحه؟ يومك يا ابن الرومي لغز محير، وأحلامك رموز غامضة، أحيا بين رمز و لغز"¹ ولكن فضاء المسرحية هو في الاصل امتداد لكل الحواضر العربية التي تعيش تحت وطأة الجهل و التهميش و الفقر.

ولا شك أن الغاية من ذلك مرجعها يعود الى أهمية توظيف التراث الثقافي العربي في الحفاظ على الهوية العربية في النص المسرحي بعيدا عن التجارب الغربية، لأن هناك ما يكفي من القواسم المشتركة بين المشرق والمغرب تستوجب الوقوف عندها لاثراء الظاهرة المسرحية واعادة تركيب عناصر التراث بما يتوافق مع المنظومة الفكرية والجمالية الجديدة "فلا تأصيل دون تبين لأشكال التراث و الابداعات التي يمارسها الشعب في حياته اليومية"²

وعكست تنقلات الشخصيات في أمكنة متنوعة الصراع الطبقي، ليحضر هاجس المكان/ المأوى كمعطى قويا في النص المسرحي يمثل حياة متقلبة يعيشها سكان الهامش، رعييل الغرباء الذين نبذتهم الطبقات الثرية وطوحت بهم الى اسفل الدَرَكات ليتحنطوا داخل أكواخ من القصب و القصدير (حمدان ورضوان وسعدان)، فالحرص على تشييد بنايات جديدة تجذب السياح الاثرياء وتدر العملات أولى و أهم من الاكواخ القصديرية المحتضنة لهموم المجتمع بملاحمة الكيبية و خلفياته المعتمة. وبذلك يتقابل فضاء الخيال وفضاء الواقع المزري لتصوير حالة الصراع التي يتخبط فيها الانسان المثقف مع اخيه الانسان (ابن الرومي لا يفتح بابه للمنحوسين الاشقياء ويتطير منهم) و مع السلطة التي حاولت استغلاله و شراء ذمته بكتابة قصيدة ينقل فيها مشاهد بؤس الحي الصفيحي وسكانه الاشقياء لطردهم وهدم أكواخهم.

¹ عبد الكريم برشيد، ابن الرومي في مدن الصفيح، ايدسفت للنشر و التوزيع، ط2، 2006/2007، الدار البيضاء، ص25.

² عبد العزيز محيون، ابو محروس ومشكلة المسرح العربي، مجلة العربي، عدد 18، سنة 1988، ص203.

خاتمة

يرتبط الانسان بالفضاء عموما و بالمكان تحديدا، فهو الذي يحتوي أفعالنا وأفكارنا وسلوكنا ومواقفنا ويشهد صراعاتنا كما يحفظ ذاكرتنا حتى أصبح هناك ما يعرف بذاكرة المكان في الادب.

وواضح أن المكان في المسرح من الركائز الأساسية لأنه شرط تحقيق العرض المسرحي مثله مثل الزمن، طبيعته مركبة يجمع بين الواقع وهو المتجلي في مكان العرض، والمتخيل وهو مرتبط بالحدث الدرامي المعروض. كما يشتمل حيزين مستقلين لا بد منهما هما حيز الاداء ولعب الادوار و حيز المتفرجين.

أما في النصوص المسرحية، فيمثل المكان الموضع الذي تجرى فيه الاحداث المتخيلة، تدل عليه الارشادات المسرحية في بداية المسرحية وفي المشاهد و الفصول، أو يمكن أن نستخلصه من الحوار الدائر بين الشخصيات .

إنه مكان موجود عبر اللغة تخيلنا عليه الارشادات المدونة في النص، ودرجات الاضاءة وقطع الديكور باعتبارها علامات دالة تخدم الغرض من النص المسرحي وتخلق تفاعلا بينه و بين المتلقي الذي يعرف العالم المصور فنيا ويقارنه بالواقع الحقيقي، بل وينخرط فيه ك بكل حواسه كموضوع انساني يحسه بطريقة أو بأخرى،

ويبدو واضحا أن نص ابن الرومي في مدن الصفيح عالج قضية المهمشين الساخطين و الساخرين، وجمع بينهم فضاء البلاد العربية من بغداد الى المغرب ، فحدد مكانهم بالحى الصفيحي وسمح للمتلقي بأن يتخيل المشاهد المركبة وربطها بالواقع، فعندما ذكر في النص المسرحي الالات الموسيقية، و الستائر و الابواب و الساحة و الغرفة والبيوت و العمارات وهي غائبة ماديا ، (اوحى عليها حركات الشخصيات و قادتنا الى فهمها الارشادات المسرحية) يتحول هذا الواقع الايهامي المصور الى عنصر مادي في أذهان المتلقي ويأخذ أشكالا متعددة، حيث يثار خيال القارئ ويستدعي ذكرياته المتعلقة بالاماكن فيشترك مع الشخصيات في العوالم المتخيلة ويتحول بذلك المكان الى أمكنة في أذهان المتلقين. وبذلك، يمكننا الحديث عن قدرة الفضاء بشكل عام في تصوير واقع المهمشين وإقداره على رصد التحولات النفسية و الاجتماعية للشخصيات كما تجلت مع ابن الرومي الذي تصالح مع ذاته بفضل عريب التي حررت من عبوديته وأقبل يشارك جماعة الحى بعدما كان متمردا محتجا رافضا أي شكل من أشكال التواصل معهم، بل إنه كان يعتقد أن مجاورتهم نحس وتعس و يؤس وتحول هذا الرفض الى قبول و تشارك في مكان جغرافي يوحدهم بينهم اجمعين بكل حب .

يتضح إذن، أن النسق الجمالي والدلالي العام المؤطر لمحرك النص المسرحي هو نسق التشظي، من خلال تسليط الضوء على واقع المهجورين في مدن الصفيح في العصر الحديث و في العصر العباسي من خلال شخصية ابن الرومي لإثارة المخفي في المجتمع ، وكأن المكان شاهد على اندحار قيم المجتمع و تحولاته.

وبهذا يمكن القول، إن الفضاء في النص المسرحي استطاع إحياء خصائص المسرح الاحتفالي الذي يرجع الى التراث العربي و الاشكال الفلكلورية والى المشترك بين جميع الطبقات الاجتماعية، فصور المجتمع العربي مجتمعاً متجانساً تحكمه القومية العربية. كما سلط الاضواء على مجموعة من القضايا وألها قضية الاستغلال الاجتماعي بإثارة موضوع مدن الصفيح، وثانيها قضية استغلال المرأة التي بدت مضطهدة على جميع المستويات ، وثالثها قضية الحرية لأنها شرط الوجود الانساني ومثله لحظة المغني الحالم، وعريب الشخصية النسائية القوية التي تجاوزت كل العقبات النفسية والمادية وعادت لتحرير ابن الرومي من عزلته وتحرير اهل الحى من الافكار السلبية و الدعوة الى الائتلاف دفاعا عن مصالحهم المشتركة كجماعة من حقها أن تعيش بكرامة محفوفة، وتحلم و تعبر عن رأيها بكل حرية.

ومما لا شك فيه، استطاع هذا التنوع في الافضية كأداة تقنية فعالة أن تخلق جمالية متميزة للنص المسرحي فهي عملية انتقال مكاني وتحول زمني ساهم في انتاج دلالة النص وقيمته الفنية.

المصادر و المراجع

- عبد الكريم برشيد، ابن الرومي في مدن الصفيح، اديسوفت للنشر، ط2، مطبعة النجاح الجديدة 2006/2007، الدار البيضاء
- ابن منظور، لسان العرب ج1، ج2
- أحمد بلخيري، المصطلح المسرحي عند العرب، البوكيلي للطباعة و النشر و التوزيع، ط1999، القنيطرة.
- ماري الياس، المعجم المسرحي مفاهيم و مصطلحات المسرح وفنون العرض، مكتبة لبنان ناشرون، طبعة 1، 1998 لبنان
- شكري عبد الوهاب، النص المسرحي، مؤسسة حورس الدولية، الاسكندرية، ط2001، 2.
- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990
- أوير اسفيلد آن، تر حمادة ابراهيم، مدرسة المتفرج (قراءة المسرح2) منشورات مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي (الدورة الثامنة) القاهرة، وزارة الثقافة.
- عبد العزيز مخيون، ابو محروس ومشكلة المسرح العربي، مجلة العربي، عدد 18، سنة 1988.

تأريخ الأدب العربي في العصر الحديث:
دراسة مقارنة بين مصطفى صادق الرافعي (1880-1937م)
وحنا الفاخوري (1916-2011م)

د. يوسف اعسيلة

المدرسة العليا للأساتذة - فاس

المملكة المغربية

الملخص:

يمثل تاريخ الأدب العربي مكوناً من مكونات الثقافة والتراث العربيين، فهو تأريخ وتوثيق للمعرفة العربية وهويتها التي حاول البعض طمس معالمها وحقائقها، لذا انبرى بعض الدارسين والنقاد العرب على تدوينها، ومنهم مصطفى صادق الرافعي وحنا الفاخوري اللذين كان كتابهما "تاريخ آداب العرب" و"تاريخ الأدب العربي" خير مثال في إظهار الأذواق العربية الأدبية للعالم، رغم اختلاف دوافع تأليفهما في هذه المدونة الأدبية النقدية بيئياً، فالرافعي ألف بناء على ردة فعل كانت سارية في عصره بين القديم والجديد، بينما الفاخوري كان بعيداً عن هذه الخصومات، ورغم ذلك فالمؤلفين تجمعهما نقاط تلاق كثيرة، منها تثقيف القارئ المتعلم بعمليهما لحاجته المدرسية التربوية في ذلك، ومنها أن يجد القومي المدافع عن العروبة والوطنية السلاح الفعال في مواجهة من يبخس من قيمة ومجد التراث العربي، وكذلك أن يجد المتنوق للفن والأدب زاده المعرفي ليرتوي بجمال اللغة والأدب العربيين.

الكلمات المفتاحية: الأدب العربي الحديث، الرافعي، الفاخوري، التأريخ.

تقديم

إن الأدب صورة تمثل تراث المجتمعات، فهو يصور واقعها وما تزخر به من قيم ثقافية وإنسانية تسجل أوقات فرحها أو حزنها، وكذلك يعتبر شاهداً على مآثرها، ومسألة التعريف بإبداع مجتمع ما تدخل في تسويق هويته وكيونته لدى سائر الأمم والشعوب، وكذا حفظه من براثن النسيان والضياع. ولقد حاول المفكرون والنقاد العرب منذ القديم توثيق الإرث الحضاري العربي في شقه الأدبي، مخلدن هذا الزخم المعرفي في مجلدات وكتب يقف أمامها القارئ مشدوهاً بأثرها العجيب، ومنبهاً بتميزها وتفرداها، ويمكن أن نستشهد بخصوص ذلك بكل من: طه حسين، ومحمد مندور، وشوقي ضيف، وعبد الله كنون، وغيرهم ممن أرخوا للهوية العربية مشرقاً ومغرباً، وحاولوا الإحاطة بالثقافة العربية زماناً ومكاناً، رغم عديد محاولات الطمس التي كانت تهدف إلى محوها.

وفي هذا الصدد عمل كل من الأدبيين الناقدين مصطفى صادق الرافعي وحنا الفاخوري كل بطريقة اشتغاله، وتنوع خلفياته الإيديولوجية والدينية ومحيطه المجتمعي، على كشف الأدب العربي للعالم وما احتضنه من درر نفيسة في كتابين هما "تاريخ آداب العرب" و"تاريخ الأدب العربي"، اللذين أسالا مداد كثير من النقاد، الذين أشادوا بما تضمناه من أدب لازال إلى يومنا هذا قبلة الباحثين للاعتراف من معينه الشعري والنثري، وشاهدين على أصالتهما وتفردهما وتميزهما في ساحة النقد العربية.

المحور الأول: الحياة الفكرية لمصطفى صادق الرافعي وحنا الفاخوري أخذاً وعطاء:

1) مصطفى صادق الرافعي:

أديب وناقد مصري، ولد بمحافظة القليوبية المصرية، بتاريخ فاتح يناير 1880، انتقلت أسرته بعد ذلك لمحافظة طنطا، من أسرة محافظة بأصول شامية، تمتهن القضاء، مما أهله ليشب على حب العلم.

أ) من حيث الأخذ:

بدأ الرافعي بحفظ القرآن وتلقي دروس الحديث والفقه عن أبيه الشيخ عبد الرزاق أحد كبار القضاة بمصر، نال الشهادة الابتدائية سنة 1897، بعد أن ولجها وهو في سن الثانية عشرة، وقد بدأت ملامح النبوغ والذكاء تظهر عليه مبكراً، عين كاتباً في محكمة طنطا، غير أنه أصيب بالصمم بعد مرضه بالتيفوئيد، وهو في الثلاثين من عمره، "ليلتحق بعدها بمكتبة أبيه ومكاتب طنطا المشهورة واتخذ التحصيل الشخصي سلاحاً له فراح ينهل من كنوز العلم والمعرفة حتى استوعبها وأحاط بأغوارها فاجتمعت لديه العبقرية الرافعية"¹، مما جعله ينهل من لغة وأسلوب القدماء ويتشبع بفكرهم، كما كان شديد الارتباط بوالديه، فورث عنهما التكوين الأخلاقي والحب والإحسان، تزوج بأخت صاحب مجلة البيان الكاتب المعروف عبد الرحمن البرقوقي، التي كانت له سنداً في حياته، وفيها يقول: "إن في بيتي امرأة أحبها وتحبني، وإن لها علي حقاً ليس منه أن يكون مني لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لي"²، عرف باطلاعه وميله لدراسة الأديان، مما كون لديه ثقافة واسعة باختلافاتها. كان من معتنقي المذهب الحنفي مع الاطلاع على المذهب الشافعي.

¹ البدرى، مصطفى نعمان، د.ت، الإمام مصطفى صادق الرافعي، مطبعة البصري، بغداد، العراق، ص343.

² العريان، محمد سعيد، 1955، حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط3، ص64.

ب) من حيث العطاء:

انحاز مصطفى صادق الرافعي للتراث المشرقي العربي وتأثر بأعلامه، الأمر الذي جعله يؤلف كتباً بحثية ومشاريع إبداعية تخدم الأدب العربي، فكان نتاجه غزيراً في هذا الصدد بين الشعر والنقد والخواطر والتأملات والرسائل والدراسات التاريخية والقصص، ومما قال في تحليل حبه للثقافة المشرقية: "أنا لا أعاباً بالمظاهر التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر والقبلة التي أتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفنائها فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها"¹.

ومما ترك الرافعي من آثار وفنائس:

- ديوان الرافعي، في ثلاثة أجزاء الصادر بين 1903 و1906/ ديوان النظرات الشعري سنة 1908 والذي به كتاب مدرسي سماه ملكة الإنشاء ضاعت أصوله فبقي فقط بعض نماذجه/ تاريخ آداب العرب في ثلاثة أجزاء وصدر سنة 1911 و1940 عنون الجزء الثاني منه بإعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ حديث القمر وهو في أدب الإنشاء ألفه سنة 1912/ المساكين وصدرت طبعته الأولى سنة 1917/ نشيد سعد باشا زغلول والذي كتبه سنة 1923/ رسائل الأحرار سنة 1924 وعنون الجزء الثاني منه بالسحاب الأحمر والجزء الثالث بأوراق الورد/ تحت راية القرآن الذي رد فيه على كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي سنة 1926/ على السفود سنة 1930/ رسالة الحج سنة 1935/ وحي القلم سنة 1934 و1937 في ثلاثة أجزاء/ رسائل الرافعي إلى محمود أبي رية/ السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية المنشور سنة 1934/ مسرحية موعظة الشباب/ رواية حسام الدين الأندلسي المسرحية المنسوبة إليه والمنشورة سنة 1905/ النشيد الوطني التونسي سنة 1930.

عاصر الرافعي ألع رجال وأسماء الأدب والسياسة والعلم الذين من بينهم: محمود سامي البارودي، وسعد زغلول، ومحمد عبده، وأحمد شوقي، حافظ إبراهيم، وعباس محمود العقاد، وأحمد أمين، والمنفلوطي، و طه حسين وغيرهم من كوكبة المبدعين، كما عرف عن الرافعي كثرة معاركه الأدبية وخصوماته ولعل أبرزها خصوماته مع الجامعة المصرية التي افتقرت بحسبه لأدب العربية وتاريخها، وخصوماته مع العقاد الذي اتهمه بتبني الثقافة الغربية في فكره وتحريره الأدبي والنقدي، وخصوماته كذلك مع طه حسين الذي كان يدرس بالجامعة المصرية ويلقي محاضراته بها.

توفي رحمه الله بعد صلاته للفجر في 10 ماي سنة 1937، بعد مرض عضال أصاب معدته وصدره بسبب إدمانه تدخين النارجيلة، دفن إلى جانب أبويه.

2) حنا الفاخوري:

أديب وناقد ولغوي لبناني مسيحي، اختلف في سنة ميلاده بين سنتي 1914 و1916، بمدينة زحلة بعد أن انتقلت إليها أسرته من ضواحي بعلبك عقب الحرب العالمية الأولى.

أ) من حيث الأخذ:

تلقي تعليمه الابتدائي بزحلة ثم انتقل إلى القدس حيث أنهى المرحلة الإعدادية والثانوية، كما أنهى دراساته الفلسفية، لينخرط في تلقي الدروس اللاهوتية، ومن المعروف عنه عشقه للغة العربية فأقبل على النهل من متونها، ومن ثقافتها وكنوز تراثها، "عرف

¹ البديري، مصطفى نعمان، الإمام مصطفى صادق الرافعي، مرجع سابق، ص347.

الفاخوري في طيلة حياته بفرط الذكاء، ونفاذ الصبر، وسرعة الإدراك، ودقة الاستنباط، وغزارة العلم، وسعة الاطلاع، فكان أديبا عربيا ذا ثقافة واسعة متنوعة، فقد برع في العلوم العربية¹، وقد "عشق حنا الفاخوري اللغة العربية وانغمس فيها، وغاص في بحورها ورسى على شواطئها"²، كما أتقن العديد من اللغات العالمية، "وهب نفسه للإيمان أولا، وللبحث الأدبي ثانيا، وللأدباء ثالثا، وللphilosophy رابعا، وللصرف والنحو خامسا"³.

ب) من حيث العطاء:

يعد الأديب الأب حنا الفاخوري من أغزر الأدباء إنتاجا معرفيا، إذ كتب في الدين والفلسفة واللغة والأدب والأصول و التحقيق، ولعل أبرز مؤلفاته:

- جداول الصرف والنحو سنة 1940/ أبو العلاء المعري، سنة 1945/ القيصران وهي رواية تمثيلية سنة 1942/ إخوان الصفا سنة 1947/ تاريخ الأدب العربي، سنة 1951 المترجم إلى اللغتين الفارسية والروسية، والكتاب الأشهر في الأدب العربي/ الخلاصة في الأدب العربي سنة 1952/ الجاحظ ضمن سلسلة نوايغ الفكر العربي سنة 1953/ منتخبات الأدب العربي سنة 1954/ سلسلة الجديد في الأدب العربي في ستة أجزاء، سنة 1955/ الموجز في الأدب العربي، في خمسة أجزاء سنة 1955/ الحكم والأمثال سنة 1956/ الفخر والحماسة سنة 1956/ ابن المقفع ضمن سلسلة نوايغ الفكر العربي سنة 1957/ تاريخ الفلسفة العربية سنة 1957 بالاشتراك مع الدكتور خليل الجر وقد ترجم إلى اللغة الروسية/ تاريخ الأدب العربي في المغرب (المغرب الأقصى- الجزائر- تونس- ليبيا) سنة 1982/ المعجم الوافي في علوم النحو والبيان والقوافي بالاشتراك مع اسطفان أنطوان ووفاء الباني سنة 1983/ الموجز في الأدب العربي وتاريخه في أربعة أجزاء سنة 1985/ الجامع في تاريخ الأدب العربي سنة 1986.

ويظهر من خلال مؤلفاته أنه "يدعو إلى التاريخ والتسامح والخير والقيم الإسلامية والمبادئ الإنسانية"⁴، كما ألف حنا الفاخوري العديد من المؤلفات التعليمية المدرسية، وحاضر في العديد من الجامعات العربية والغربية، أسس إلى جانب أخيه مجلة "المسرة"، و"معهد لبنان للغات والعلوم والفنون"، وقلد بأوسمة مختلفة منها وسام الاستحقاق اللبناني المذهب، و أخرى من إيران ومن البرازيل. توفي الأديب الأريب الأب حنا الفاخوري ببلدة حريصا اللبنانية موطن أتباع الكنسية المارونية، يوم 4 أكتوبر سنة 2011 بعد أن قارب عمره القرن.

الخو الثاني بين "تاريخ الأدب العربي" و تاريخ آداب العرب" ملاحظات منهجية في الشكل والمضمون:

قضية التأريخ للأدب العربي قضية نالت اهتمام الباحثين والنقاد بالوطن العربي، فاختلّفوا في منهجية تدوينه وكتابته، بين من تأثر بالمناهج الغربية والمستشرقين في ذلك، ومن صرخ بأعلى صوته بضرورة تسجيل هذا التاريخ بنظريات ومناهج عربية خالصة في منأى عن المؤثرات الغربية، فتعددت الكتب التي قاربت الأدب العربي ووقفت عند محطاته، فكان منها: "تاريخ الأدب العربي" لعمر فروخ، وآخر لشوقي ضيف، إضافة لآخر لأحمد حسن الزيات، و"المجلد في تاريخ الأدب العربي" لطله حسين، و"تاريخ آداب

¹ بانو، سعيدة، رياض، فرزانه، 2022، إسهامات حنا الفاخوري في اللغة العربية، مجلة الإعجاز، المجلد السابع، العدد 01، يناير مارس، ص72.

² شاكرو، فريد حسن، رحيل صاحب «تاريخ الادب العربي» حنا الفاخوري، موقع ديوان العرب الالكتروني، بتاريخ الاثنين 10 أكتوبر 2011، للمزيد ينظر: <https://www.diwalarab.com/> زرته بتاريخ 2025/04/21.

³ نقلا عن الموقع الرسمي للجيش اللبناني، <https://www.lebarmy.gov.lb/ar/content>، زرته بتاريخ 2025/04/21.

⁴ بانو، سعيدة، رياض، فرزانه، إسهامات حنا الفاخوري في اللغة العربية، مرجع سابق، ص73.

العرب "محمد دياب بك، و"أدب العرب" لمارون عبود، و"تاريخ آداب اللغة العربية" لجرجي زيدان، و"تاريخ الآداب العربية" للويس شيخو وغيرهم، غير أن كتاب "تاريخ آداب العرب" لمصطفى صادق الرافعي، وكتاب "تاريخ الأدب العربي" لحنا الفاخوري بلغا شهرة واسعة بالوطن العربي وخارجه، لما تضمناه من نواذر السلف ونفائس الذخائر العربية، رغم أن صاحبيهما ينتميان لمدرستين مختلفتين تنظيراً وممارسة، فما أوجه التقارب والتباعد بين المؤلفين شكلاً ومضموناً؟

• تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي:

أ) من حيث الشكل:

العنوان جملة إسمية تتضمن مركبين إضافيين، وجاءت كلمة الأدب فيه بصيغة الجمع، كما جاء المؤلف بثلاثة أجزاء، ومجموع صفحاته كلها نحو 1025 يتشكل الجزء الأول من 380 صفحة، وكتب سنة 1911، والجزء الثاني يتشكل من 245 صفحة، وألف في سنة 1928، بينما الجزء الثالث وهو الذي يضم أكثر عدد من الصفحات وهي مقدرة في 408 صفحة، جمعه محمد سعيد العريان بعد وفاة الرافعي سنة 1940، كما أن الرافعي بدأ في هذا المشروع الفكري بعد ديوانين شعريين آخرهما نظمهما سنة 1908، وكانت ظروف تأليفه استجابة لدعوة الجامعة المصرية التي رصدت "مكافأة مالية معتبرة لمن يؤلف كتاباً في موضوع (أدبيات اللغة العربية) وقد حددت لذلك أجل سبعة أشهر، ولما اطلع الرافعي على دعوة الجامعة ثارت حفيظته وراح يهاجم الجامعة لافتقارها لمؤلف في آداب العربية ولم تكن دعوة الجامعة قد لقت تجاوباً فضاغت قيمة المكافأة و زادت أجلها لسنتين وهنا وجد الرافعي ما يشغله فراح يؤلف تاريخ آداب العرب"¹.

قدم الرافعي الجزء الأول من مؤلفه بمقدمة في أربع صفحات خاطب فيها القارئ العربي، كما تضمنت هوامش شارحة لبعض المفاهيم التي استخدمها في المتن لتسهيل الاستفادة منه، وكلمة في هذا التأليف في سبع صفحات مع هوامش إضافية، وعنوان آخر في التمهيد والتقديم سماه نظ الكتاب وأبوابه ضمنه المنهجية المتبعة في تأليفه.

أما الجزء الثاني فقد صدر بمدخل للسياسي سعد باشا زغلول يشيد فيه ببلاغة القرآن لصداق الرافعي، ويعدد مناقب كتابه، كما ضم التقديم أيضاً جملة للدكتور يعقوب صروف بحث فيها مسلمي العالم على اقتناء نسخة من كتاب الرافعي.

الجزء الثالث قدمه محمد سعيد العريان سنة صدوره ونشره، وفيه يشيد بجهود الرافعي في كتابة مؤلفه تاريخ آداب العرب منوها بتعدد معارفه وسلاسة أسلوبه، وجهده المضني في إخراج الكتاب إلى الوجود خاصة وأن المدة الزمنية بين كتابته ونشره ناهزت ربع قرن، كما ذكر في تقديمه المراجع التي اعتمدها الرافعي في تأليفه، ونبه إلى سقوط بعض الأبواب التي لم يعثر عليها في مكتبته وهي الباب الرابع والثامن والتاسع، والمتمحورة حول الخطابة والأمثال والكتابة وتاريخ العلوم في الجاهلية والإسلام.

أ) من حيث المضمون:

يرى الرافعي أن "لتاريخ الحضارة في كل أمة راقية أربعة أبواب متفرقة على أركانها: وهي الأدب، والسياسة، والدين، والعلم"²، وتضمن كتابه "تاريخ آداب العرب"، إضافة للمقدمة أحد عشر باباً، وجاءت على النحو التالي:

¹ العريان، محمد سعيد، حياة الرافعي، مرجع سابق، ص 67/65.

² الرافعي، مصطفى صادق، 1974، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، ص18.

- الباب الأول: اللغات واللغة العربية، أرخ فيه اللغة بشكل عام وأصلها وانتشارها وتحولاتها، ثم وقف عند اللغة العربية وحروفها ونظامها الصوتي واللساني وطرق جمعها واختلاف لهجات قبائلها ليختم بمكانة العامية وموقعها ومساهمتها في شيوخ اللحن بالفصحى؛

- الباب الثاني: الرواية والرواة، أشار فيه لمصدر الرواية وأصلها الإسلامي في الحديث النبوي لتنتقل فيما بعد للغة، وتقاطعها مع الشعر ووضعه، وقضية الانتحال والافتعال فيه، وإلى عناية الرواة بصنعتهم؛

- الباب الثالث: القرآن الكريم والبلاغة النبوية، وقد خصه بجزء خاص فصل فيه في مسألة إعجاز القرآن، وتدوينه وجمعه ومكانته كمحرك للأنظمة اللغوية والأدبية التي ستمتد وتنهل من درره ونفائسه، إضافة لإشارته للخصائص الأسلوبية للحديث النبوي وأوجه الجمال فيها؛

- الباب الخامس: تاريخ الشعر العربي ومذاهبه والفنون المستحدثة منه وما يلتحق به، وقد ناقش فيه نشأة الشعر ونموه الشعراء فيه ومسألة الاختراع والاتباع فيه وطبقات الشعراء والشاعرات وشياطينهم، وأغراض الشعر المختلفة من مدح وهجاء وفخر وغزل ووصف.. وأنواع أخرى منه كالعامي والموشح والزجلي؛

- الباب السادس: في حقيقة القصائد، ونعني بها هنا السبع الطوال من الشعر الجاهلي، كما أرفقه بترجمة لشعراء هم: امرؤ القيس، وطرفة بن العبد، زهير بن أبي سلمى، مع تحليله لمظاهر الخشونة في أشعار الجاهليين؛

- الباب السابع: أدب الأندلس إلى سقوطها ومصرع العربية فيها، حيث شرح فيه اهتمامه بالحضارة الأندلسية وظروفها السياسية، وصناعة الشعراء الأندلسيين والأدبيات الأندلسيات وعلومهم، وإسهام بعضهم في إضعاف بنية الشعر واللغة العربيتين؛

- الباب العاشر: التأليف وتاريخه عند العرب ونوادير الكتب العربية، وقد حصره في كتب الشعر المتنوعة ككتب الطبقات والتراجم ومنها "طبقات الشعراء" لابن قتيبة، وكتب الأخبار ككتاب "في أخبار الشعراء المولدين" للبغدادي، و"بتيمة الدهر" للثعالبي، وكتب المختارات كـ "الجمهرة" لأبي زيد القرشي، والمفضليات وكتاب "الحماسة" لأبي تمام الطائي، ومختارات أخرى ككتاب "سفينة الملح" للصاحب بن عباد؛

- الباب الحادي عشر: الصناعات اللفظية التي أولع بها المتأخرون في النظم والنثر وتاريخ أنواعها، وختم الحديث في هذا الباب عن القوافي والصناعة العروضية في نظم الشعر والنثر وبعض الأغاز والصناعات الإبداعية المختلفة.

• كتاب تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري:

(أ) من حيث الشكل:

عنوان المؤلف جملة اسمية بمركبين إضافي ووصفي، جاءت فيه كلمة الأدب بصيغة المفرد، وجاء في مجلد واحد، من 1140 صفحة صدر سنة 1951، عن المطبعة البولسية، بعد آخر كتاب ألفه الفاخوري في النقد عن تجربة إخوان الصفا سنة 1947، وقد جاء زمنيا بعد مؤلف الرافعي، ضم المؤلف مقدمة للمؤلف في صفحتين يبين ويوضح فيها سبب تأليفه، و منهجيته، وفصوله وتبويبه، ثم يتجه مباشرة بعدها لعرض محتويات الكتاب مخاطبا الطلبة في ذلك مما يوضح أنه تعليمي بالدرجة الأولى. اشتمل مؤلف حنا الفاخوري صورا فوتوغرافية، ولوحات تشكيلية وخطاطات وخرائط ورسوم نقوش مرفقة تمثل لآثار العرب في شبه الجزيرة العربية، كما تضمن في نهاية فصوله إحالات إلى المراجع العربية والأجنبية التي اشتغل عليها والتي يطلب من القارئ الاستزادة منها، مذيلة

كذلك بموضوعات للبحث عبارة عن أسئلة تقويمية فيما ورد في الفصل من محاور، وقد ترجم هذا المؤلف إلى لغتين عالميتين هما الفارسية والروسية؛ بل اعتمد بجامعة موسكو الروسية كمقرر دراسي.

(ب) من حيث المضمون:

اعتبر حنا الفاخوري الكتابة في هذا النوع "بحرا لا آخر له، يستطيع كل باحث أن يخوض عبابه وهو لا يضيق بأحد، ويستطيع كل مؤرخ أو ناقد أن ينقب في مادته من غير أن يزاحم أحدا"¹، ليشتمل مؤلفه "تاريخ الأدب العربي" على تصنيف لموضوعات الأدب العربي حسب تحقيق تاريخي متسلسل زمنيا من القديم حتى الحديث، وقد ضم:

- **توطئة:** صدرها المؤلف ببابين الأول في اللغة العربية وأصلها، ونسبتها إلى العرب، وتطورها، والثاني حول الأدب العربي؛

- **العهد الجاهلي:** ضم خمسة أبواب، أولها عصر الجاهلية ومكانة الأدب فيها، وثانيها حول الشعر الجاهلي، فثالثها في بزوغه واستقراره مع المهلهل والشنفرى، ثم رابعها حول ازدهار النهضة الجاهلية مع أصحاب المعلقات الذين ذكرهم في سبعة فصول، وزاد فيه فصلين آخرين أحدهما حول الخنساء شاعرة الرثاء، والآخر حول الخطيئة شاعر المدح والمهجاء، وأخيرا خامسها في النثر الجاهلي مع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي؛

- **العهد الراشدي والأموي:** في ثمانية أبواب، كان الأول رصدًا لمظاهر الانقلاب في الثقافة والحياة العربية، والثاني في الشعر الراشدي والأموي، والثالث في شعر النضال الديني وعرف فيه بكعب بن زهير وحسان بن ثابت وأبي ذؤيب الهذلي والنابعة الجعدي، والرابع في شعر اللهو، وخصصه لشعر الغزل البدوي مع جميل بن معمر ولىلى الأخيلية، والغزل الحضري مع عمر بن أبي ربيعة والأحوص والوليد بن يزيد، أما الخامس فقد عرف فيه شعر السياسة من خلال إبراز شعراء الفرق السياسية، كالأخطل والفرزدق وجريز وعبيد الله بن قيس الرقيات والطرماح بن حكيم والكميث بن زيد الأسدي، أما الباب السادس فعنونه بفنون شعرية خاصة، كالأراجيز والراعويات، وفي الباب السابع تحدث فيه عن النثر الفني من خلال النثر الإنجازي وبعض مشاهير الخطباء كعلي بن أبي طالب وزيد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي، والنثر التفصيلي وعلمه عبد الحميد الكاتب، كما عنون الباب الثامن بالعلوم والفنون في العهد الراشدي والأموي؛

- **العهد العباسي في الشرق:** وقسمه إلى أبواب عنون أولها بالانقلاب وأثره في الحياة والثقافة، وثانيها بالأدب العباسي، وثالثها بأدب الثورة التجديدية ففي الشعر درس بشار بن برد وأبا نواس وأبا العتاهية ومسلم بن الوليد والعباس بن الأحنف والحسين بن الضحاك، وفي النثر وقف عند عبد الله بن المقفع وأحمد بن يوسف وسهل بن هارون وعمرو بن مسعدة، ورابعها سماه أدب الحركة المعاكسة ودرس في أوله في الشعر: أبا تمام ودعبل الخزاعي والبحرتي وابن الرومي وابن المعتز، وفي النثر: الجاحظ، ليسمي الباب الخامس الموالي بأدب الاستقرار والتدرج نحو الجمود مقدما ورقة تعريفية له، ومقسما إياه هو الآخر إلى أعلامه الشعرية وهم: أبو الطيب المتنبي وأبو فراس الحمداني والشريف الرضي وأبو العلاء المعري وابن الفارض، وسائر شعراء آخرين كأبي بكر الصنوبري، وكشاجم والسري الرفاء وأبي الفتح البستي ومهيار الديلمي والطغرائي وبهاء الدين زهير، وأعلامه النثرية في الترسل كابن العميد والقاضي الفاضل، وفي الأدب القصصي وقف عند مقامات بديع الزمان الهمداني والحريري، وأعلامه الأدبية كابن قتيبة وأبي العباس المبرد وأبي بكر الصولي وأبي منصور الثعالبي، وأعلامه في النقد كضيء الدين بن الأثير ومحمد بن سلام وأبي القاسم الأمدى وقدامة

¹ الفاخوري، حنا، 1953، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البولسية، ط2، ص6.

بن جعفر و القاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري، وأعلام في الفنون والعلوم المختلفة من حركة النقل والعلوم اللسانية والدينية والتاريخ والجغرافية والفلسفة والعلوم الطبيعية وعلوم الرياضيات والفلك والفنون؛

-**العهد العباسي في الغرب:** وقصد به حنا الفاخوري الحقبة الأندلسية، كما رصد فيه في الباب الأول فتحها وأثر ذلك في الحياة والثقافة، وفي الباب الثاني الأدب الأندلسي من خلال فنون الشعر والموشحات والنثر، وفي الباب الثالث عرف ببعض أدباء الأندلس المشاهير الذين من بينهم: ابن عبد ربه وابن هاني وابن شهيد الأندلسي الذين مثلوا طور التقليد، وابن زيدون والمعتمد بن عباد اللذين مثلا طور الانتقال، وابن حمديس الصقلي وابن خفاجة وابن سهل الأندلسي ولسان الدين ابن الخطيب الذين مثلوا طور التجديد، وفي الباب الرابع رصد بعض العلوم والفنون الأندلسية؛

-**العهد التركي:** أرخ فيه الكاتب لأدب العهد التركي ومميزات شعره وأهم شعرائه ك: البوصيري وابن الوردي وصفي الدين الحلي وابن نباتة، ومميزات نثره، والعلوم المنتشرة فيه سواء اللسانية أو الدينية أو الجغرافية والتاريخية؛

-**عهد النهضة:** بتقديم معلومات حول هذا العصر وعوامله ومظاهره وأدبه شعريا ونثريا في أجناس الخطابة والقصة والنقد الأدبي، كما عرف بألمع مشاهير الشعراء في هذا العصر كالشيخ ناصيف اليازجي ومحمود سامي البارودي وحفني ناصف واسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي وجميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وفوزي المعلوف و خليل مطران، وبألمع كتاب النثر كالمعلم بطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق وأديب إسحاق وجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبد الرحمان الكواكبي وقاسم أمين ومصطفى كامل وسعد زغلول والشيخ إبراهيم اليازجي وولي الدين يكن ومصطفى لطفي المنفلوطي وسليمان البستاني وجبران خليل جبران وأمين الريحاني وجرجي زيدان ويعقوب صروف والأب لويس شيخو ومصطفى صادق الرافعي ومي زيادة.

● ملاحظات منهجية:

بعد قراءة في أهم مضامين الكتابين، نخرج بملاحظات توازن بين العاملين في تعاطيهما مع الأدب العربي والتأريخ له، أهمها:

- سار الرافعي في تقديم الأدب العربي في كتابه وفق تطور العلوم العربية الأدبية، معارضا التحقيب التاريخي التقليدي المعتمد على التسلسل الزمني لعصور الأدب من القديم إلى الحديث، كما فعل النقاد القدماء مثل الأصمهاني في كتابه الأغاني، والثعالبي في يتيمة الدهر وغيرهم، أو النقاد الجدد والمستشرقين مثل جرجي زيدان وشوقي ضيف والزيات و كارل بروكلمان... الذين اعتمدوا التقسيم السياسي للفترات والعصور الأدبية من الجاهلي فالإسلامي والأموي ثم العباسي وأخيرا عصر الانحطاط؛ وقد اعتمد في تأليف كتابه على التقسيم الفني وفق مواضيع آداب اللغة والكتابة والشعر وأغراضه وصناعاته والدواوين الشعرية والنحو والصرف وعلوم البلاغة، ما جعل كتابه من المصنفات المبتكرة والمبادرة في دراسة تاريخ الأدب، وعمله أقرب إلى الأديب منه إلى المؤرخ، كما أن كتابه يلامس البنيات الثقافية للغة والأدب العربي بصفة عامة وكمثال على ذلك دراسته لتاريخ المدح أو الرثاء أو الهجاء أو الغزل وغيرهم، من تأريخ القمة إلى الانحطاط؛

- اشتمال كتاب الرافعي على حوادث أدبية وقضايا لغوية كان لها تأثير في تأريخ الأدب العربي كمناقشته للرواية والارتجال والوضع المرتبطين بالشعر، وعرضه لقضايا اللغة والتحديات التي واجهتها كإعجازها في العصر الإسلامي وضعفها في العهد الأندلسي، وانتشار العامية في العصر الحديث، مما جعل بعض النقاد يعلقون على هذا التداخل ومنهم عجلان عباس بيومي الذي أنكر ذلك

فقال: "ما دخل أصول اللغات السامية، وحديث النبط... ومواضع الإمالة والنحت والقلب والإبدال وما يعرف بالكشكشة والنشنة... وشيوع اللغة العامية في الاندلس والجزائر وغيرها، وما دخل ذلك كله في تاريخ الأدب"¹؛

- تأثر مصطفى صادق الرافعي في تدوين تاريخ الأدب العربي بثقافته الدينية التي منشأها أسرته وعائلته المحافظة، فمن خلال مطالعة أبواب الكتاب يظهر اتصاله بالقرآن وعلومه من خلال الإشارة إلى تدوين القرآن وجمعه أثناء الحديث عن الشعر، وتخصيصه المجلد الثاني للحديث عن القرآن وإعجازه وبلاغته وهو ما يظهر فيه من إسهاب مقابل الاختصار الذي تناول فيه الحديث وبلاغته، وكذلك النزر القليل من الاهتمام بحوادث وقضايا أدبية كان لها أثر كبير في الثقافة العربية في العهد العباسي مثلاً؛

- وقوعه في التناقض المنهجي الذي بنى عليه كتابه عندما ترجم لثلاثة من شعراء المعلقات وعندما عرض الأدب الأندلسي وفق العصور التاريخية، وهو المنتقد لهذه المنهجية التي يعتبرها من عمل المؤرخ وفيها يقول: "رأينا الطريقة المثلى أن نذهب في تأليفنا مذهب الضم لا التفريق، وأن نجعل الكتاب على الأبحاث التي هي معاني الحوادث لا على العصور؛ فنخصص الآداب بالتاريخ، لا التاريخ بالآداب كما يفعلون، وبذلك يأخذ كل بحث من مبتدئه إلى منتهاه"²؛

- تأريخ الرافعي لكل الأنواع الأدبية والشعرية وفق منهجية البحث عن أصلها الجاهلي، وخير مثال على ذلك "الشعر القصصي" الذي عرفه المتأخرون وحاول نسبته للجاهليين، مما جعله يستدرك الأمر فيقول "إن الشعر القصصي - بالمعنى المصطلح عليه- لم يكن في طبيعة العرب، ولا هو من مقتضيات اجتماعهم، فهم لم ينظموه في جاهليتهم قطعا، ولم ينظمه من بعدهم لوقوفهم عند حد التقليد"³؛

- غياب الفنون النثرية التي عرفها العرب في العصر العباسي مثل المقامات والرسائل وأدب المناظرة في كتاب الرافعي "تاريخ آداب العرب"، كما غابت عن الكتاب الإشارة إلى شعراء وأدباء فترة عصر الانحطاط والنهضة والقضايا الأدبية والأغراض الشعرية التي نظموا فيها واستحدثوها كأحمد شوقي الذي برع في الشعر الغنائي والمسرح الشعري، وآخرين مثل حافظ إبراهيم وسامي البارودي رائد الإحياء وطه حسين عميد الأدب والنقد، كما أغفل الرافعي أدب المهجر ومدارسه الرومانسية، إضافة لخلو الكتاب من لمحات ولو مقتضبة عن أدب الغرب الإسلامي ورواده في أقطار الجزائر وتونس وليبيا؛

- اشتغال كتاب حنا الفاخوري على تسلسل زمني في عرض المادة الأدبية فهو يتناول تاريخ الأدب اعتمادا على العصور السياسية المتعاقبة من الجاهلي إلى العصر الحديث، إذ قدم مسار هذا الأدب على مدار أكثر من 1500 سنة؛

- تأليف حنا الفاخوري كتابه تاريخ الأدب العربي باعتماد تصنيف وتبويب واضحين وفق خطة منهجية توجد في الكتب المدرسية التعليمية فقط، مما جعل انتشاره واسع الآفاق، فأقبلت الدول على اعتماده في مناهجها ومقرراتها الجامعية كما الحال مع جامعة موسكو التي ترجمته إلى اللغة الروسية، فهو يقدم المادة الأدبية ويرفقها بالاستشهادات الكافية ويختتمها بالمراجع الأجنبية والعربية للاستزادة منها كما يضع في نهاية الفصول مواضيع للبحث، مما جعل مارون عبود يصفه بشحيمة كل متأدب عربي أو غربي يريد النهل من الثقافة العربية، "لما فيه من رسوم فنية رائعة يعرفهم بالوجه العربي النبيل الذي أحسن إلى الأدب والثقافة العالمية؛ إذ حمل مشعلها أربعة قرون"⁴؛

- خلو مؤلف حنا الفاخوري من أية إشارة للأدب المغاربي من قطر الجزائر أو تونس أو المغرب رغم إعطائه لمحات عن الأدباء المعاصرين في الفترة الحديثة، وهو الأمر الذي سيستدركه سنة 1982 من خلال تأليف خاص عن أدب شمال إفريقيا عنوانه ب:

¹ عجلان، عباس بيومي، 1977، من أدب الرافعي ومعاركه، دار المعرفة الجامعة، الاسكندرية، ص79.

² الرافعي، مصطفى صادق، 1974، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، ص24.

³ المرجع السابق، ص147.

⁴ عبود، مارون، 2021، في المختبر تحليل ونقد لآثار الكتاب المعاصرين، مؤسسة هنداي، ص222.

"تاريخ الأدب العربي في المغرب (المغرب الأقصى - الجزائر - تونس - ليبيا)"، كما أنه وصف الرافعي وكتاباته باشتغالها "نزعة إسلامية شديدة فيها من التدين والاندفاع الشيء الكثير... إلا أن فكره لا يخلو من غموض، وانطلاقه لا يخلو من كثافة وجمود. أما قصصه ففيه طرافة ولكن فيه أيضا ثقلا وضعفا فنيا"¹.

خاتمة

يمثل تاريخ الأدب العربي مكونا من مكونات الثقافة والتراث العربيين، فهو تأريخ وتوثيق للمعرفة العربية وهويتها التي حاول البعض طمس معالمها وحقائقها، لذا انبرى بعض الدارسين والنقاد العرب على تدوينها ومنهم مصطفى صادق الرافعي وحنا الفاخوري اللذين كان كتابهما "تاريخ آداب العرب" و"تاريخ الأدب العربي" خير مثال في إظهار الأذواق العربية الأدبية للعالم، رغم اختلاف دوافع تأليفهما في هذه المدونة الأدبية النقدية بيئيا، فالرافعي ألف بناء على ردة فعل كانت سارية في عصره بين القديم والجديد، بينما الفاخوري كان بعيدا عن هذه الخصومات، ورغم ذلك فالمؤلفين تجمعهما نقاط تلاق كثيرة، منها تثقيف القارئ المتعلم بعملية لحاجته المدرسية التربوية في ذلك، ومنها أن يجد القومي المدافع عن العروبة والوطنية السلاح الفعال في مواجهة من يبخس من قيمة ومجد التراث العربي، وكذلك أن يجد المتذوق للفن والأدب زاده المعرفي ليرتوي بجمال اللغة والأدب العربيين.

¹ الفاخوري، حنا، 1953، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البولسية، ط2، ص 1128.1129.

المصادر والمراجع:

- بانو، سعيدة، رياض، فرزانة، 2002، إسهامات حنا الفاخوري في اللغة العربية، مجلة الإعجاز، المجلد السابع، العدد 01، يناير مارس؛
- البدرى، مصطفى نعمان، الإمام مصطفى صادق الرافعي، مطبعة البصري، بغداد، العراق، د.ت؛
- الرافعي، مصطفى صادق، 1974، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4؛
- شاكر، فريد حسن، رحيل صاحب «تاريخ الأدب العربي» حنا الفاخوري، موقع ديوان العرب الإلكتروني، بتاريخ الاثنين 10 أكتوبر 2011، للمزيد ينظر: <https://www.diwanalarab.com/> زرته بتاريخ 2025/04/21؛
- الشكعة، مصطفى، 1978، مصطفى صادق الرافعي، كاتبت عربيا ومفكرا إسلاميا، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة؛
- عبود، مارون، 2021، في المختبر تحليل ونقد لآثار الكتاب المعاصرين، مؤسسة هنداوي؛
- عجلان، عباس بيومي، 1977، من أدب الرافعي ومعاركه، دار المعرفة الجامعة، الاسكندرية؛
- العريان، محمد سعيد، 1955، حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط3؛
- الفاخوري، حنا، 1953، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البولسية، ط2؛
- الموقع الرسمي للجيش اللبناني، <https://www.lebarmy.gov.lb/ar/content>، زرته بتاريخ 2025/04/21.

رمزية الحرف في الخطاب الشعري المغربي المعاصر
رحلة دلالية من رؤيا التقديس إلى فعالية الغرابة
د.ة. حكيمة صمران

دكتوراه في الأدب

كلية الآداب واللغات والفنون - جامعة ابن طفيل - القنيطرة
المملكة المغربية

الملخص:

انجرفت هذه الوقفة المقالة في تيار السحر الأبجدي الذي أخذ في أعقابه شعراء مغاربة معاصرين، اعتنقوا مذاهب إبداعية متباينة تجاذبها التقديس الروحي حيناً والتأمل الفلسفي أحياناً، دون الانفلات من قيود الواقع ووطأة تحولاته، فكان مرتبطاً بالكتابة مسالة نصوص ثلاثي شاعري بمنهج وصفي تحليلي، قوامه مفاهيم التقديس، والغرابة، والعمق الرؤيوي، والقناع الأبجدي، والذات الحرف، وما تناسل في سياقها من دوال كشفت آناء المنتهى عن التشابه الضامن للسيرورة الرؤيوية، والاختلاف المولد لأصالة التجربة الأبجدية في القصيدة المغربية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الحرف - الرمز - الرؤيا - الذات - التقديس - الغرابة - الشعر المغربي المعاصر.

توطئة:

حين يتجاوز الحرف هيكل القصيدة اللفظي لينبني المعنى ويرفع درجة الغموض، تنفلت اللغة من وظيفتها التواصلية التقليدية لتبني صروح الجمال الأبجدي، الكاشف عن ولع الناطق بسحر لغة مازالت أبجديتها تطوي أسراراً تنبعث شيئاً فشيئاً من بين ترانيم الكرنفال الإبداعي، فيتحول النظم إلى سلسلة طقوس تمارس في محراب الكتابة، حيث يرتفع الحرف عن السبك، والنسج، والتوليف، والتأليف، ليغدو روحاً تبعث مع رياح التقديس تارة، وتعلو مع أمواج الغرابة تارة أخرى، ذاك ديدن شعراء مغاربة معاصرين اختلط في وجدانهم عشق الأبجدية في مراتبها الروحانية برغبتهم في اتخاذ الحرف مفتاح المعنى وقناع الدلالة، للوصول إلى بناء لفظي تشابك في رياحينه أغصان الوجداني والموضوعي والواقعي، مما يضع القارئ أمام توليفة تعبيرية بلاغية منفردة، قد يتلاقح في مضمارها التصوير الشعري، وتشهد هجرة الصورة الفنية عينها من قصيدة إلى قصيدة بل ومن شاعر إلى شاعر، بيد أن السمفونية تسمها الخصوصية والقدرة الإبداعية للنظام على وهب حياة مغايرة لأبجديته الحروفية التي تحترق البياض في لا نهائيته.

ولكي لا يتحول المقال في هذا المقام إلى متن نظري مجانب للتجربة الإبداعية، ستنصب إشكاليته على مساءلة كيفية حضور الحرف كضلع دلالي تسيجه جدلية التقديس والغرابة داخل القصيدة المغربية المعاصرة، وذلك عبر النظر إلى ثلاث تجارب شعرية متزامنة لشعراء جمعهم العصر نفسه، وساقهم الورد المجتمعي ذاته في مده وجزره، لكن فرقه المذهب النظمي والتوجه الفكري، ومارس التأثير الثقافي والتاريخي سلطته على انفعالهم الوجداني، فاختلقت الرؤيا للواقع وقضاياها وخضعت للتحويل السياقي العام، سيما «أن النص الشعري المعاصر في المغرب لم يعد يقف عند حدود مجموعة من المميزات الجمالية المحددة، بل أصبح تركيباً جمالياً تتداخل فيه، وتتقاطع داخله جملة من الظواهر الجمالية، التي جعلت منه أفقا مفتوحاً على كثير من الاحتمالات التصنيفية»¹.

هذا الأمر ولد دافع البحث في أفق الممكنات المتاحة في ميدان الإبداع الحروفي عبر تقسيم المقال إلى ثلاثة محاور رئيسة؛ يدرس المحور الأول حضور الحرف بتيمة اللغة الصوفية الإشراقية في ديوان الشاعر "حسن الأمrani"، المجلد الثالث "الدارة الأرقمية"، مطبعة طوب بريس - الرباط، الطبعة الأولى 2017. ويقف المحور الثاني عند استمرارية التقديس الحروفي في ديوان الشاعرة "أمينة المريني": "ومنها تتفجر الأنهار.. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى 2009م. بينما يلامس المحور الثالث سمات الغرابة في فلسفة الحرف في ديوان الشاعر "أحمد زنير" "حيرة الطيف"، العالمية للنشر - الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2013.

1- الضرب في بحور التقديس:

لم يصدر القول الشعري عند "حسن الأمrani" في المجلد الثالث "الدارة الأرقمية" عن سليقة فقيرة معرفياً، وإنما كانت الكلمات عوالم ضاربة في عمق السرية الروحانية، مخترنة معرفة خفية وثقافة تشابك روافدها الفكرية والفلسفية لتعقد صلة الوصل في بؤرة الرؤيا الصوفية الميتافيزيقية للقضايا الوجودية، إذ «ساعد حضور الرمز الحروفي على صناعة الغريب والغامض في النص»²، ليصبح النظم داخل قصائده موجات لغوية حاملة لخصائص وسمات المنبع المتماهية مع مؤثرات المحيط الخارجي، حيث تسبح في فلك الحرية فتعطي للقارئ «إمكانية الوصول إلى الكلي العام بدءاً من العيني الخاص، أو إمكانية تناول الوجود الجزئي من زاوية الوجود المطلق. وهذا ما اضطلعت به أساليب التحليل الأنطولوجي في الكشف عن اللغة، تماشياً منها مع روح الأنطولوجيا النازعة إلى إدراك معنى الوجود بشكل عام، فاتجهت إلى تركيب عيان ماهوي يؤسس اللغة بما هي لغة، متجاوزاً الحدود الجنسية والقومية إلى

1 - منور بوبكر: القصيدة المغربية المعاصرة: وظائف البناء الحكائي، مطبعة نجمة الشرق شارع الوفاق - بركان، الطبعة الأولى 2015، ص 2.

2 - عبد الإله بن عرفة وآخرين: جمالية السرد في الرواية العرفانية، دار الآداب: جمالية السرد في الرواية العرفانية، دار الآداب بيروت، بدون سنة النشر. ص 64.

وحدة الماهية¹، وشاعرنا مدرك لحقيقة لغته الشعرية، إدراكا ولد إرادة تجاوز منطق التجانس الماهوي للحروف داخل وحدتها الصغرى، دونما انفلات من سياق الوحدات الكبرى، ليزيح المتلقي عن الحفر في الدوال للحفر في الحروف.

تلك نزعة قولية عرفانية لمن كانت لغته «لغة النظر العقلي التي تتطلع صراحة إلى بلوغ العلو، ويبدو هذا النظر العقلي في جوهره شفرة الشفرة، أعني إمكانية أن يقرأه كل شخص بمعنى يختلف في جوهره عن غيره من الأشخاص، وإذن فقراءة الشفرة هي بالضرورة تجاوز نحو العلو، وثغرة مفتوحة في كثافة الأشياء نحو بعد لا نهاية له، وأعماق لا سبيل إلى سر أغوارها»²، ولأن اللغة الإبداعية اختيار واعٍ من قائل خاضع لمحفزات ذاتية وأخرى موضوعية، فإن البياض الذي تحتاح ميدانه يشهد معارك تحليلية بأقلام باحثة عن حقائق تتأرجح بين التجلي والخفاء، موقعة شهادة حياة متجددة للنص الشعري، تستمر باستمرار توالد الدلالات وتناسل المعاني في جوف اختلاف القراءات المتعددة للمتن النظمي، سيما إذا كان مرتبط القراءة شبكة حروفية تستعصي عن النظر السطحي لماهيتها الغامضة أولا، ولعمق ثقافة الناطق بها ثانيا، إذ يُفرغ اللفظ من مدلولاته المتوارثة ليزرع فيه مدلولات هي وليدة لحظات إبداعية متجددة، تتناسب والعمق الانفعالي اللحظي المتماهي مع تراكمات نفسية واهتزازات ذاتية تصنع الحدث من رؤيا خاصة، تنفلت من قيود الفردانية ليكسوها جلد الإنساني - الوجودي.

وبين هذا وذاك تبقى اللغة في القول الشعري إكسبير الجمال وأفق التأويل، وإن وجهتها إيديولوجيا الناطق نحو وجهة خاصة، فإن أزهار حدائقها لا ينضب معينها، خصوصا إذا كانت الأزهار حروفا لرموز دلالية في سياق ثوري رافض لبضاعة كاسدة:

لَمْلِمُوا أَحْرَفَكُمْ وَابْتَعِدُوا لَا يُصْبِكُمْ مِنْ لَطَائِنِ الْبَلَدِ (بحر الرمل)
اجْمِلُوا أَحْرَفَكُمْ وَارْتَحِلُوا لَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْبَلَدُ
نَفْخَةُ الرُّوحِ حَبَّتْ فِي طِينِكُمْ فَهُوَ مِنْ بَعْدِ اشْتِعَالِ زَيْدُ
كُلَّ حَرْفٍ لَيْسَ يُجْدِي أَمْتِي لَا جَمَالَ فِي جِوَاهِرِ نَجْدُ³

أي بضاعة كاسدة؟ إنها بضاعة المحتل الغاشم، التي لا خير في أعقابها لأمة يرى الشاعر "حسن الأمrani" أنها دونما حاجة لشعارات الغاصب ووعوده بأبادٍ بيض تتلاشى مع رياح الدهر العاتية، ذلك أن لفظ "أحرفكم" في هذا السياق هو معادل دلالي للخطاب عامة وللغة خاصة، مستندا إلى رؤيا مقارنة تمنح اللغة العربية أفضلية وقدسية تمتد من وحي علوي مقدس:

مِنْ جِرَاءِ (اقْرَأْ) هَمَّتْ أَحْرَفُنَا وَهَجَأَ مِنْهُ يُضِيءُ الْمُقْصَدُ

تبدو ملامح الانفعال الديني والغيرة على لغة الإسلام بارزة المعالم في قول الشاعر الذي تحركه روحانية الصوفي، فيرتقي بحروفه إلى معارج التقديس والتوبة بعد المكابدة، وفي سياق ارتقاء الذات يترفع الحرف عن وظيفة الدال ليؤدي وظيفة العلامة الترميزية في سيرورة سيميائية ميتا-تصويرية، «تطلق العنان للطاقت الروحية، وإعادة نشاط بعض الإمكانيات»⁴ التعبيرية التي تتوارى خلف عمق الصورة البلاغية التي تجاذبها التشبيه والاستعارة :

1 - عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، دار الكندي بيروت، الطبعة الأولى 1978. ص 58-59.

2 - المرجع نفسه، ص 65.

3 - قصيدة "البضاعة الكاسدة" من ديوان "الدائرة الأرقمية"، ص 50.

4 - Fazlur Rahman : Dream, Imagination and Alam al_mithal (65-1964) ; G.E. Von Grunebaum/Roger Cailliois : - 4

The Dream and Human Societies (1966), S.409

حَرْفِي يَا بَحْرَ الْغَيَّوَانِ دَمٌ يَطْلُعُ مِنْ آخِرِ قَافِيَةٍ فِي الدِّيَّوَانِ

حَرْفِي يَتَوَضَّأُ فِي نَهْرِ جُنُونِي

وَيُصَلِّي فِي الْمَخْرَابِ

عِنْدَ مَنَارَاتِ أَحَبِّ جَبِينٍ¹

اختزلت الصورة البلاغية رؤيا الشاعر للحرف وما ينتجه من نغم موسيقي لا متناهي (الحرف = بحر الغيوان)، مثلما اختزلت علاقة الذات بمقولها النظمي المسيح بالمعاناة، فما التشبيه (حرفي... دم...) إلا برهنة على تجاوز المقول الشعري الانفعال العابر ليتحول إلى رحلة مكابدة تكتب نهايتها عند آخر قافية في الديوان، مع العلم أن الحمولة الدلالية للحرف لم تتوقف عند العلاقة الانفعالية بين الطرفين (الحرف/الذات)، وإنما كشفت عن التوجه الزهدي الصوفي المحرك لخطاب الشاعر من خلال البنية الاستعارية التي أضحي معها الحرف ذاتا تمارس طقوس العبادة عند العاقل فتتوضأ وتصلي (حرفي يتوضأ... ويصلي)، هذا الانزياح في الحرف عن السبك البنائي للدوال وشحه بوسام التكثيف والتعقيد الدلالي، المنبعث من صراع نفسي لشاعر تقاذفته رياح الحضارة في صيغها الانحلالية، فراح ينقب عن كينونته في أعتاب الحرف ليفهم وجوده في بعده الصوفي الميتافيزيقي:

أَوْقَفْنِي عِنْدَ مَقَامِ الْحَرْفِ وَقَالَ:

تَأْمَلْ: كَانَتْ كَيْنُونَتُكَ الْأُولَى كَافًا

وَالْكَافُ كِتَابٌ أَوْ زَهْرَةٌ كَامِلِيَا أَوْ كَوْكَبٌ

لَكِنِ السِّرَّ الْمَكْنُونُ

فِي النَّوْنِ

وَالنُّونُ هِيَ النَّارُ الْبُورُكُ مَنْ فِيهَا فِي الطُّورِ

وَالنُّونُ صَحَائِفُ نُوحٍ

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ)

وَالنُّونُ هِيَ الْفَلَكَ الْمَشْحُونُ.

وَهِيَ نِدَاءُ الظُّلُمَاتِ يَبْطِنُ النُّونِ

فَعَلَامٌ عَدَلَتْ عَنِ الْمَرْكَبِ²

حاول الشاعر "حسن الأمrani" أن يفهم حروفه من واقع افتراضي أقامت صرحه المؤثرات الروحية لدفقات شعورية تنجذب نحو العالم العلوي المقدس، وتشكل صيغها وفق فلسفة عرفانية تجعل نقطة التوازن في الوجود حرفان يجتمعان في صيغة (كن) للتعبير عن الكينونة الأولى للخلق، وإن اختزلها في حرف الكاف ليرفع من قيمة النون لخصيصة السرية التي اتخذ منها جسرا يعبر من خلاله

1 - قصيدة "الأوبة إلى فاران"، ص 93.

2 - القصيدة السابقة، ص 97.

إلى عالم الممكنات، فارا من واقع الضياع والانحطاط، فباتت النون أمل الخلاص لذات تحترق في حيرتها. مؤمنا بفلسفة ارتباط هذين الحرفين، إذ «لا تتم مشاهدة العالم في كاف (كن) إلا إذا تمثلنا ارتباط الكاف بالنون ارتباطا أنطولوجيا سريا، وروحيا قدسيا، من حيث كون النون هي الخمسون التي عشرها الهاء الرامزة للصلوات الخمس (...)» فالخمس إذن هي عين الخمسين من هذا الوجه والكاف إنما تحفظه الهاء التي تحفظ نفسها وغيرها، وهذا الغير هو كاف الكون. لأن نور الذات الإلهي لما ضرب في ذات (كن) امتد له ظل وهو عين الكون، فبين الكون والحق حجاب (كن)، ولذلك فإن الكاف إنما تحفظ الكون من العدم، فالكون المرموز له بالكاف مرتبط بالنون المثلثة للهاء ارتباطا محافظة وصيانة من الزوال منذ النشأة¹.

حمولة دلالية حولت حرف النون إلى علامة رؤيوية في قصيدة "حسن الأمراي" دون أن تسمه بخاصية التفرد، إذ تقاطعت مع الحمولة الدلالية الحروفية المنبعثة من صلب التجربة الصوفية للشاعر "أديب كمال الدين" في قصيدته "نون":

لكلِّ مَنْ لا يَفْهَمُ فِي الحَرْفِ أقول:

النُّونُ شَيْءٌ عَظِيمٌ

والنُّونُ شَيْءٌ صَعْبُ المَنالِ

إنَّهُ مِنْ بَقايا حَبِيبَتِي الإمبراطورة

وَمِنْ بَقايا ذَاكِرَتِي التي نَسِيتُها ذاتَ مرَّةٍ

في حادثٍ نوَني عَارٍ تَمَاماً عَنِ الحَقِيقَةِ

ومَقْلُوب، حَقًّا، عَنِ لُبِّ الحَقِيقَةِ.

وهكذا اتضح لَكُمْ كلَّ شَيْءٍ

فلا تَسْأَلُوا، بَعْدَها، في بَلاهةٍ عَظِيمَةٍ

عَنْ مَعْنَى النُّونِ²

يقول الباحث "عبد القادر فيدوح" معلقا على هذا المقطع الشعري: «لعل الحيرة المستحكمة في مصير حرف (النون) الذي تخطى فاعليته إلى واقع الشاعر المهذور، هو ما يعكس ضياع المعنى في دلالة الحرف، المعبر عن ضياع المصير في جوهر حقيقته الحضارية بعد أن تلاشى إشعاعها، وبدأت حقيقتها تتوارى عن حجاب العين، على نحو موارد حرف النون - كهلال القمر - في رمزه الدلالي الذي اقتضته مصلحة الحاجة للتفرقة بين الهلال، والصليب، والنجمة السداسية، في المدلول الحضاري، وليس العقدي»³.

مكن الانفتاح الدلالي على التأويل المتعدد لحرف النون من كسر الحواجز والعبور من البناء الشعري إلى البناء السردى مع "عبد الإله بن عرفة" في روايته "بحر نون" ومسيرة البحث عن الجزيرة الأطلسية المفقودة، حيث يتماهى الخيالي مع العرفاني في توليفة منسجمة تسبح في عوالم الوجود وحقائق النفوس في أفق البحث عن سر بداية الخلق، فالرواية «تتحدث عن بحر نون، الذي هو بحر

1 - أحمد بلحاج آية وارهام: أبجدية الوجود، دراسة في مراتب الحروف ومرتبات الوجود عند ابن عربي، منشورات أفروديت، الطبعة الأولى، المغرب 2013، ص 68.

2 - عبد القادر فيدوح: أبقونة الحرف وتأويل العبارة الصوفية في شعر أديب كمال الدين، منشورات ضفاف، بيروت، الطبعة الأولى 1437هـ - 2016م، صص 35-36.

3- نفسه.

الحقائق، وعلم الإجمال المودع في كتاب الوجود. وإن تعددت الشخصوس، فشخص الرواية الرئيس هو حقيقة الإنسان الكامل. أما الملكة نونة فهي رمز لنفس السالك، إذ هي منه لا غيره، لكنها تثنت بالأنوثة تفصيلا لإجمال ذكورة النون بتوقيع القلم في ذلك الطرس المصون»¹.

غير أن خارطة استثمار الثراء الدلالي لحرف النون ما بين المسالك الشعرية والسردية سيبحثها الدلالة الصوفية لهذا الحرف، فتحولت إلى نقطة التقاء الشاعر والروائي في إبداع حروفي لم يستطع الانفلات من منطق الفلسفة الحروفية في محراب العشق الإلهي والتغني بسر الوجود عند "محيي الدين ابن عربي"، الذي غدت نون الوجود عنده ملهمة عشاق التحليق في عوالم التأملات الروحية لإدراك بعض الشظايا الغائبة، آناء لحظات النهل من خفايا قوله:

نُونُ الْوُجُودِ تَذُلُّ نُقْطَةً ذَاتَهَا فِي عَيْنِهَا عَيْنًا عَلَى مَعْبُودِهَا (بحر الكامل)
فُجُودُهَا مِنْ جُودِهِ وَيَمِينِهِ وَجَمِيعُ أَكْوَانِ الْعُلَى مِنْ جُودِهَا
فَأَنْظُرْ بِعَيْنِكَ نِصْفَ عَيْنِ وَجُودِهَا مِنْ جُودِهَا تَعْتَرُّ عَلَى مَقْشُودِهَا²

ويستمر سفر الحرف في فلولات الانفعال الوجداني العابر لقصائد الشاعر "حسن الأمrani"، يطالعنا بصور تتقلب فيها الحروف بتقلب أحوال المبدع، فتتنزل من الصرح العرفاني العلوي، إلى تراب واقع مرير، لوطن أضناه الظلم، وشعب سباه البؤس، متسائلا في حيرة عن ماهية الحرف إذا لم يكن عنوانا للنضال:

مَا الْحَرْفُ يَا خِدَنَ الْهَوَى إِنْ لَمْ يَكُنْ سَيْفًا يَحْزُ، يَحْزُ عُنُقَ الْمُعْتَدِي؟³ (الكامل)
فالخرف في السياق الدلالي نُصَب سيف ضد الجور والظلم، يسله الشاعر دفاعا عن البؤساء:
أَنَا قَدْ نَذَرْتُ الْحَرْفَ لِلْبُؤْسَاءِ إِنْ يَمْسَسُهُمْ شِدْقُ الزَّمَانِ الْأَسْوَدِ

وبذلك يتحول الحرف/القصيدة وسيلة للنضال، وتتجدد تيمته بتجدد صورة الشاعر/الثائر، ليصبح علامة سيميائية تجتمع في حضرتها دوال النص لتؤدي مدلولات انفعالية، تتجاوز التصوير التخيلي لتبني رؤيا وجودية تعيد للحرف قوته في ساحة النضال ضد الاستبداد، حيث يصير مقبرة الطاغى ومعبد الشاعر/الثائر:

هَذَا دَمِي
هَـذِي قَرَابِي
مَزَامِيرِي
أَنَا شِيدِي
وَدَاكَ تَوْقُودِي
وَقَفًّا عَلَى شَعْيِي،

1 - عبد الإله بن عرفة: بحر نون، منشورات دار الأمان- الرباط، الطبعة الأولى، 1428هـ - 2007م. ص 7.

2 - ابن عربي: الفتوحات المكية، ضبطه وصححه ووضع فهرسه أحمد شمس الدين، الجزء الأول، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان. ص 112.

3 - قصيدة "بجماليون"، ص 145.

عَلَى بَلَدِي،

عَلَى الْإِنْسَانِ

يُجْجِرُ نَحْوَ مِينَاءِ الْعَدِ

الْحَرْفُ مَقْبَرَةُ الطَّغَاةِ فَأَعْلَنِي

أَبْنِي اتَّخَذْتُ الْحَرْفَ بَعْدَ مَعْبِدِي¹

بيد أن الثورة الحروفية في قصائد "حسن الأمrani" لم تستطع الانفلات من التوجه الصوفي المتطلع إلى الكمال في واقع تراكت عواديته، ووسمه الانهيار والحيرة والقلق الممتد إلى الحمولة الدلالية للحرف الذي اهتز من مواضعه ليكون مرآة لما يحمله قلب الشاعر:

لَا تَقُلْ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ مَنْ أَيْ دَرْبٍ؟ فَعَلَى أَحْرَفِي سَيَظْهَرُ قَلْبِي²

ولفظ القلب المعادل للحرف لا يقف عند الشحنات العاطفية، وإنما تمتد حمولته المعنوية لتعطي صورة مائتة عن الذات الشاعرة المتجاوزة التغني الرومانسي الفردي إلى الإفصاح عن رؤيا وجودية تتماهى مع الرؤيا الصوفية الميتافيزيقية عند "ابن عربي" في قوله: «لقد صار قلبي قابلا كل صورة. كما قال الآخر: "ما سمي القلب إلا من تقلبه" فهو يتنوع بتنوع الواردات عليه وتنوع الواردات بتنوع أحواله وتنوع أحواله لتنوع التجليات الإلهية لسره، وهو الذي كنى عنه الشرع بالتحول والتبدل في الصور»³.

وأحوال الشاعر في مذهبه الحروفي لم تعرف الاستقرار، إذ ظلت خاضعة لناموس التحول والتقلب، الذي سرعان ما يعيده الجانب الروحاني للذات الشاعرة إلى موازن الهدوء والثبات في سياق الإيمان بقدرة الحرف على التغيير، لما يمارسه من تأثير يفوق تأثير الجلال حين لا تبقى سلطة غير سلطة الحرف:

حَرْفٌ

قَدْ تُجَلِّدُ الْأَجْسَادَ

وَتَعْظُمُ الْكَفَّ

لَكِنَّهُ الْحَرْفُ

أَسْمَى مِنَ الْجَلَادِ⁴

إيمان يرتفع صبيب قوته بإرادة الشاعر التي غدا معها الحرف معادلا موضوعيا لسلطة أقوى من سلطة الجلال، إنها إرادة الانسلاخ من ماضي الحزن والألم، لتستمر رحلة الأمل قاطعة المسافات نحو الغد:

كَيْ أَحْمِلَ السَّعَادَةَ

لِحَبْنِ الْوَلِيدِ

1 - قصيدة "بجماليون"، ص 146.

2 - ديوان "الدائرة الأرقمية"، ص 246.

3 - ابن عربي: ديوان "ترجمان الأشواق"، اعتنى به عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1425هـ- 2005م، ص 62.

4 - قصيدة "يوميات مهاجر في زمن الرعب والنبوءة"، ص 259.

عَواطِفي نَشِيد

وَأُخْرِفي إِرَادَة¹.

لم يتخذ الحرف في قصائد "الأمراني" ركنا بنائيا داخل صروح ألفاظ تستقر دلالتها في ماهيتها لتقيم سياق القول الشعري في أفق التصوير التخيلي العقيم، وإنما دخلت لعبة محاكاة تراجيديا واقع مأساوي محكوم بقيود التحول السليبي، فامتص الحرف الدلالة القلقة والمعنى المهتز باهتزاز حيرة الشاعر الذي لم يكن مسعاه إخضاع الكتابة بدلالة الحروف لفلسفة اللامعقول، بقدر ما كان يهدف إلى بناء نظمي يخرج الحرف من غمضه ليزرعه في أفق الامتداد الحر الثائر المتمرد، مشيدا عوالم الممكن واللامتناهي مع شحنات دلالية تترفع عن منطق الوحدة والثبات في توافق تام مع الانفعال المضطرب لشاعر رؤيوي جعل الحرف بديل اللفظ، لا تنفك خيوطه إلا بـ «اعتماد السياق طريقة في تأويل مقولة المفردة»²، لما يحتويه منطق الترميزي من طموح التنقيب عن التعبير المتجدد، والفكر المخالف المنبعث من فوضى الحياة الاجتماعية، بغية بناء ذات إنسانية متوازنة متأملة في كينونتها والغاية من وجودها، باحثة عن الكمال في حروفها.

والحال أن مذهب "حسن الأمراني" في إقامة شعره على عماد قوة الحرف الهجائي في انفراده، امتد تأثيره إلى دفعات شعورية لشاعرة مغربية معاصرة سلكت درب ذاته في البحث عن حقيقة وجود ذات ضاعت هويتها في غياهب واقع الزيف والتناقض، فاتخذت من التوجه الصوفي ومن الحب المحمدي مذهب التوازن الروحي، وساءلت حروفها في انفرادها بعد التفكيك.

2- استمرار الكفاح في درب تقديس الحروف:

يدرك الناظر لقصائد الشاعرة "أمينة المريني" فيحاء الروحانية التي تتلهم بها الأبجدية بين الأسطر، حيث يغدو الحرف صدى للثقافة الدينية التي تشبعت بها الشاعرة وفرضت وجودها في لحظات الإبداع الواعية معبرة عن خلفية فلسفية خاصة، تترجم الرؤيا للقضايا المحلية والكونية بمنظور متميز يمتح من العالم العرفاني رقيه وزهده، بغية البحث عن سراج الخلاص في صحاري الصراع الأخلاقي حيناً والتاريخي - السياسي أحيانا أخرى، تخلص الحرف من جموده فيتحوّل من مادة محنطة جامدة إلى مادة حية تُزرع فيها روح الشعر الرؤيوي المتطلع إلى التنصل من قوقعة الذات الفردية حتى تصبح الرسالة الروحية - الإصلاحية ذات مغزى وأقوى تأثيرا في الذات الجماعية، مرمى النظم ومقصديته عند هذه الشاعرة، ومن ثم يغدو الحرف شفرة توجه المنظومة الدلالية للخطاب ككل مادام «لا وجود لخطاب مفهوم خارج عمل الشيفرة»³، أي أن الدلالات الرمزية تبقى محكومة بالبعد الثقافي للمتكلم، ولا تتحقق فعاليتها إلا بحركة الامتداد وتوسيع دائرة التلقي.

لا يخطئ الطرف المتمعن في دواوين هذه الشاعرة أنها أبرزت قدرتها على امتلاك ناصية اللغة المتمردة على المعايير والمتعالية على السائد، لبناء عالم إبداعي متفرد، فد «اللغة حركة تقوم في أحيان كثيرة على مشاكسة السائد ومراوغته، والتملص منه لترتقي إلى مستوى من الأداء، يغذي فاعلية القصيدة، وينعشها بالكثير من المفاجآت والتنويعات في أساليب القول الشعري»⁴، غير أن

1 - قصيدة "رسالة من زمن لم يولد بعد"، ص 269.

2- محمد شندول: الصرف العربي في تأويل المقاربات اللغوية القديمة والمقاربات اللسانية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس، 2015، ص 208.

3 - Stuart Hall : Encoding/ Decoding, in : Stuart Hall, ed. Culture, Media, Language : Working Papers in Cultural Studies, 1972- 1979 (London : Hutchinson in Association with the center for Contemporary Cultural Studies, University of Birmingham, 1973), p.131

4 - علي جعفر العلاق: الدلالة المرئية: قراءة في شعرية القصيدة الحديثة، دار الشروق، الطبعة الأولى، عمان - الأردن 2002م، ص 11.

الفاعلية الجمالية اللغوية عند هذه الشاعرة كما هي عند "حسن الأمrani" لم تمتص صورها من الرؤية الحدائثية فقط، وإنما عكست نور الرؤية الصوفية العريقة، التي آمنت بعدم تباث النسيج اللغوي، وعدم وحدته في القول العرفاني، مما جعل الاختلاف يسري بين لغة المتصوفة وإن جمعهم الاهتمام بالبدیع، والولع بالإشارات والتميزات والضرب في المبهمات ليرقى القول إلى معارج التجربة ومراتب قدسيته، ويرتفع عن غوغاء السطحية.

بيد أن هذا اللعب اللغوي هو في منأى عن البراءة، لاختراله هدفا إصلاحيا توارى خلف رؤية الشاعرة لمكان مقدس، يفوح بعطر تاريخ نبوي، وسيرة عطرة لشخصية انفردت بما لم ينله بشر؛ شخصية رسول كريم انطلقت رسالته بالدعوة إلى القراءة لتتجلى أمامه أنوار الحروف الربانية، التي مازالت بعض أسرارها محجوبة في عالم الغيب، رغم اجتهاد الصوفية لفك رموزها والإحاطة بحقائقها بوصفها الجسر الممتد بين العالم الأعلى والعالم الأدنى، على نحو ما ورد في قول "ابن عربي": «لما كان الوجود مطلقا من غير تقييد يتضمن المكلف وهو الحق تعالى، والمكلفين وهم العالم، والحروف جامعة لما ذكرناه»¹، لهذا ربط الحروف بحقائق الموجودات وأسرار الحياة، وجعل لها مراتب وصفات، فقال عن غرض القول فيها «إظهار لمع ولوائح إشارات من أسرار الوجود، ولو فتحنا الكلام على سرائر هذه الحروف وما تقتضيه حقائقها لكنت اليمين وحفي القلم وجف المداد وضائق القراطيس والألواح ولو كان الرق المنشور»²، فرغم تفصيله الحديث فيها إلا أنه رأى ما جاء به اقتضاب في حقها، وبعض مما تكشف منها، ليظل خفيها هم الصوفية والمبدعين من بعدهم، وبذلك قرع حديث الحروف النورانية إبداعات روائية وشعرية تعطش أصحابها للوصول إلى اليسير من مكنوناتها، ولعل هذا دافع شاعرتنا التي رصعت بعض قصائدها بنظرات متفرقة إلى فلك الحروف، على غرار ما جاء في قصيدة "تبت يداهم وما خطوا وما سطورا"³:

وَأُسْلِسُ الْحَرْفَ فِي أُعْتَى مَوَاجِعِهِ حَرًّا طَلِيقًا بِنُورِ اللَّهِ يَأْتِزُّ

فالإعلان عن انبعاث الحرف من موطن المعاناة الذاتية ليخلق في أفق الأنوار الإلهية، دليل الصدى الروحاني لأطياف تأملات تراكمت في الفكر الصوفي، انسل عطرها إلى وجدان الشاعرة، في سياق طموح في يطوي الانفعال العرفاني الراسخ في ذاكرة ذات حفظت القرآن وعشقت المساجد منذ طفولتها، وحين نضجت الرؤيا لواقع الإخفاقات والنكسات العربية، كان مداد القلم موكب حروف انطلقت احتفالاته من النص القرآني معلنة عن عشق إلهي وحب محمدي مازال سناؤه قادرا على أن يجلي ظلمة الأوطان العربية، ومازالت حروف اسمه الكريم إلهاما يخط القصيد:

والحرفُ مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ لَمْ يَبْقَ فَوْقَ الشِّفَاهِ (بحر الكامل)

لَهُ انْسِكَابٌ...

وَعَشَقْتُ فِي (الميم) المجادة والملاحة

والمحامد بإذخات

وَأُورِفْتُ مِنْ (حائها) غُرُرُ الشَّعَابِ

1 - ابن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الأول، ص 86.

2 - المصدر نفسه، ص 94.

3 - أمينة الميرني: ديوان "ومنها تتفجر الأنهار.." منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى 2009م، ص 36.

وتأرجحت من (دالها) الدنيا

وكان لنورها

أخلى أنسياب...¹

فككت الشاعرة بنية الحروف في اسم الرسول الكريم (محمد)، لتكشف عن قدسية علت معها أمواج الاسم المحمدي بأسرار حروفه المنسابة من إشراق النور الإلهي، في سياق شعري حكمته رؤيا إبداعية خاصة بنيتها الشاعرة، وعلى الرغم من تكثيفها لم تغادر برزخ الحروف الكائن بين علمين متناقضين؛ عالم الملكوت وعالم الجبروت، ولم تنفك على أن يكون الحرف سر الوجود، فعشقت في "الميم" صفات المجادة والملاحاة والمحامدة، وهو الحرف الذي نسب إلى عالم الملك والشهادة والقهر، خالص كامل مقدس مفرد مؤنس²، ورأت "الحاء" خصبا يورف غر الشعاب، و"حاء" حرف من عالم الغيب، كامل، خالص غير ممتزج³، أما "الدال" فتأرجحت منه الدنيا، كيف لا وهو حرف ممتد من عالم الملك والجبروت، حركته ممتزجة بين أهل الأنوار والأسرار⁴.

لا غرو إذن أن الشاعرة سارت في سياق لغوي يصبو إلى تشكيل جمالي صادر عن وعي قبلي، بالقدرات الهائلة للتركيب الحرفي في الأبجدية الإبداعية، سيما وأن متكأ هذه الأبجدية نص مقدس، تمتص منه الكلمات شرعيتها، لتبني صورا خيالية غير منفكة عن واقع الحال، ولحظات الانفعال، مترجمة خبايا ذات رسمت حدودها التجربة العرفانية المجانبة للخلوة الروحية والمحايثة لتحولات الأمة العربية، مما سمح بتعايش المقدس والمدنس في سياق القول الشعري، الذي لم يقف عند تشخيص هفوات واقع اجتماعي مريض، وإنما سعى إلى خط وصفة ترياق السم الذي سرى في أوصال المجتمع، فكانت الرؤية المثالية للتاريخ والتراث والرؤية الجمالية للتشكيل اللغوي، نبراس التجربة الشعرية لـ "أمانة المريني".

صفوة القول إن الذات الشاعرة في التجريبتين السابقتين احتفلت بفرادتها، واستأثرت بالإحالة في سياق بناء الضمائر الذي اعتلى فيه المتكلم عرش الخطاب، فنسج عنكبوت التخيل ألوانا بديعة وشباكا بهية على ضوء الطموح إلى التسبيح في محراب الجمال الإبداعي، غير أن هذه الذات لم تستطع الانفلات من سلطة الجماعة التي كان زخم ظلالها يستولي على الذاكرة والوجدان، سكنها العشق الصوفي الذي وقعت من خلاله بطاقة هوية ذاتية، والهـم القومي الذي وجه رؤيتها الإبداعية لقضايا واقعها «وهي بذلك تليج رغبة التحول والتغير الذي أصبح الواقع الموضوعي يدق أبوابها بعنف»⁵، هكذا لم ينفصل الشعراء "حسن الأمراني" و "أمانة المريني" عن الظاهرة الشعرية المعاصرة في المغرب، التي ركزت «اهتمامها على إدراك الإنسانية من خلال العصر وإيقاعاته النفسية والكونية»⁶، فتوحدت فيها الذات بالجماعة في نسق متجانس متكامل، في سياق تبني رؤيا شعرية عميقة تتجاوز الحدود الضيقة لتغوص في الإنساني والوجودي، وتترفع عن المنطق وقيوده لتمهد السبيل أمام تجربة روحية روحانية، تنفلت من المقومات الحسية الواقعية للحاضر، لترسم معالم المستقبل في سياق بناء رؤيا خاصة للعالم تنضج بعدما ترضع لبن محيطها الاجتماعي، وما الإبداع الشعري إلا كأي عمل أدبي «تعبير عن رؤية للعالم، وعن طريقة للنظر والإحساس يكون ملموس مشتمل على كائنات وأشياء، والكاتب إنسان يعثر على

1 - الديوان: قصيدة "نبوة..." ص 90.

2 - ابن عربي: المصدر السابق، ص 118.

3 - المصدر نفسه، ص 107.

4 - المصدر نفسه، ص 112.

5 - محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: مقارنة بنيوية تكوينية، دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت، والمركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1985م، ص 338.

6 - السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث: مقوماتها الفنية وطاقتها الإبداعية، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية 1983، ص 43-44.

شكل ملائم ويعبر عن هذا الكون (العالم) إلا أنه من الممكن أن يحدث تفاوت كبير أو صغير، بين المقاصد الواعية أو الأفكار الفلسفية والأدبية والسياسية للكاتب، وبين الطريقة التي يرى بها العالم الذي يخلقه»¹، وما لا شك فيه أن الشعراء وجدوا شكلهما الإبداعي، فعملوا على ملئه بنسيج أبجدي يمتص خصوصيته من خصوصية تجربة تلاقي فيها الوعي التاريخي-الاجتماعي مع الطموح القومي-الإنساني، في إطار رفع لواء نزعة إنسانية كونية، حيث «ينساق أصحاب هذه النزعة في الدعوة إلى الخير، وتراهم يكتفون من بكاء الإنسانية لأن قوافلها ضلت طريقها، وهي تدفع ثمن هذا بما تنحدر من أبنائها على مذبح الحروب، وما تسفكه من دمائهم، ولا ريب في أن هذه مثالية، وأنها تخلق في خيال بعيد لعالم لا يمكن أن يتحقق في الأرض، وفي أنفس الناس من المطامع ومن نزعات الأنانية ما يغري بعض الأمم أن تكون بقاع الأرض دون أخواتها وجيرانها، وما أشبه هذه النزعة بنزعة التصوف، فكلاهما حلم وخيال، يحلم الصوفي بربه ويحلم الإنسان بعالم لا يمكن أن يراه، ومع ذلك فهو يكثر من التفكير فيه والتعلق به، حتى يظنه حقيقة من الممكن أن تقع تحت بصره، فما يزال يهيب بالناس والأمم أن يقفوا ليتأملوا معه، فيبصروا العالم الحق، ويفروا إليه من عالمهم، عالم الآلة والشر»²، مما يضعنا أمام الاعتراف بأن دلالات بعض قصائد الشعراء وقضاياها ليس فيها سبق ينسب، ولا استحداث لم يطرق بابها الشعراء سيما المحدثون منهم في القطبين الشرقي والمغرب، ولكنه يشع بتفرد لغوي نابع من وعي ذات شاعرة وإيمانها بأن التجديد الحقيقي والإبداع الخلاق يكمن في النسيج اللغوي، وفي القدرة على توجيه بنية الملفوظ نحو التعقيد الترميزي، وإخضاعه للتفاعل المركب بين عناصر الخطاب الذي تنتظمه مجموعة من الشفرات تنظم «الإشارات في منظومات ذات معنى تحدث تلازما بين دلالات ومدلولات»³، وتضمن فريدة التجربة مع اختلاف القدرات الإبداعية المتحركة في سياق إدراك خاص لدافع القول الشعري ومادته الخام المرسومة في «صورة نشاط لغوي»⁴.

3- على صهوة الغرابة والانفراد الدلالي:

- هل يمكن للحرف الأبجدي أن يتحول إلى قناع يخفي وراءه دلالات عميقة ورؤى متفردة؟
- كيف يتحول الحرف الأبجدي إلى قضية تعبيرية ورؤيا وجودية في عالم الشعر؟
- أيستطيع الحرف اليتيم أن يعقد التعبير أن يطوي لغة تواصلية تمتد قناتها من ناطق توجهه خلفيات فكرية تتشابه روافدها التاريخية والثقافية والاجتماعية والسياسية، لتصل إلى قارئ تحكمه شروط محددة تمكنه من إدراك الدلالة الغائبة والكشف عن المعنى الملتئم؟

فضول قرائي يجر في أعقابه وابلا من الأسئلة كلما تطلعتنا إلى صفحات ديوان الشاعر "أحمد زنيير" "حيرة الطيف"، إذ لم تخل قصائده من سرمدية الحرف اليتيم، بل اتخذته جوهر النظم، وبؤرة المعنى الأصيل، وإن كانت «الأصالة هي الثمن الواجب أن تدفعه لقاء الأمل في أن يقبلك (وفهمك) من يقرأك»⁵، حيث يتحول المقروء إلى منظومة محمولات دلالية غريبة ترسم للحرف صورة مغايرة يغدو معها جسدا يمشي ويتعثر ويخفي أسراراً:

هي ذي الحُرُوف

1 - لوسيان غولدمان: أبحاث مادية، ترجمة محمد براءة، مجلة آفاق، العدد 10، يوليو 1982م، ص 7 وما بعدها.
2- شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، النيل - القاهرة، الطبعة السابعة منقحة 1979، ص 58-59.
3- دانيال تشاندلر: أسس السيميائية، ترجمة طلال وهبة، مراجعة ميشال زكريا، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 2008، ص 252.
4- أحمد زرق: أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 1993، ص 63.
5 - رولان بارت: النقد النيو للحكاية، ترجمة أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات بيروت- باريس، الطبعة الأولى 1988، ص 14.

تتَعَثَّرُ بِالْبَيَاضِ

وَلَا أَحَدَ غَيْرِكَ

فِي هَذَا الزَّفَاقِ

يَشُدُّ وَثَاقَ الْمَجَازِ...¹

منح الشاعر أحمد زنيير الحروف مقومات إنسانية تكفل رغبتها في الحياة الموازية لحياته، والمحايثة لرغبته في القول الشعري، حين تعتلي الوحدة سهوة اللحظة الانفعالية، ويلح السؤال في حضرة الرؤيا الضبابية والخوف من المجهول، مما يدفع القارئ إلى البحث «عن الصورة أو الفكرة بحد ذاتها، بل عن الكون الشعري فيها وعن صلتها بالإنسان ووضعه»²، فيهتز أفاقه مع اهتزاز الحروف في حيرة سؤال وجودي يفصح عن قلق الذات الشاعرة في عالم الفناء:

قَلْتُ مِنْ أَجْلِكَ

تَنْخِي الْقَصَائِدَ

وَتَشْدُو الْقَوَائِي

حَدَائِقَ مِنْ عَسَلٍ

وَلَسْتُ إِلهَا كِيٍّ أُحْلِدُ،

فَإِلَى أَيْنَ تَمْضِي هَذِهِ الْحُرُوفُ

وَالْأَفَقُ ارْتَدَّ صَدَاهُ...؟³

ثم يتخلص الحرف من يتمه ليجتمع مع خالنه في لغة هي منفى الشاعر الحائر الباحث عن شط الأمان، برؤية حاملة تتخطى الموضوعية لتعبر إلى شطآن بناء لغوي جمالي ترميزي، إذ يظل «الرمز ظاهرة ذات بعدين بحيث يشير الوجه الدلالي إلى الوجه اللا-دلالي»⁴، يستعصي عن المادي والمحسوس لتشييد رؤيا شعرية تتفاعل في سياقها التجربة الذاتية الفردية مع التجربة الإنسانية الجماعية:

مَنْفَايَ فِي اللُّغَةِ الْغَمِيصَةِ

بَيْنَ الظِّلِّ وَشَبِيهِهِ

لَا الظِّلُّ اسْتِعَادَ ظِلَّهُ

وَلَا الْأَفَقُ ارْتَدَّ صَدَاهُ...⁵

1 - قصيدة "باب الخميس"، ص 11.

2 - أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، 1978، ص 10.

3 - قصيدة "من وحي الرماد"، ص 20.

4 - بول ريكور: نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغاني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 2006، ص 116.

5 - قصيدة "ظل الطريق"، ص 27.

لكن ألفة الحروف تغادر القصيدة ليعود الحرف إلى يتمه، و«تدخلنا الرموز إلى تجارب غامضة»¹ حين يمارس هذا الحرف شقاوته ويتغاضى عن الذكريات في صورة تحول فيها إلى قناع للشاعر، يخاطبه في لحظات عتاب ذاتية انفعالية، فيكشف عن معاناة وجدانية أسقطتها الذات الشاعرة على الحرف لتتزعج عن التعبير الصريح المباشر، وتجنب تبعات القراءة السطحية لرؤيا شعرية ينتصر فيها منحى المأساة فيجعلها قابلة لارتداء جبة العقائدي:

يا أيُّها الحرف الشقي

روبيدك

هلْ تَذْكُرْ صُمْتُ الإله

في الأعالي

يَنْعِي أناشيدك الحزينه

والرَّيحُ والسَّفينه

تمُخران عباب الرُّوح

وتكشفان جرك للأزهار؟؟

تذوبُ خيمة الثلج

وتَبْتُلُ أَسْمال المدينة²

تستمر معركة الحرف وتمتد جدلية اليأس والأمل بين حاضِر قائم بحزنه ومستقبل مأمول بفرحه، لتطفو شعرية اللغة على سطح القول الشعري تجر في أعقابها بناء رمزيا يداعب الغرابة في خدرها، ليشاكس القارئ في رحلة البحث عن الدلالة في نص هو «مجرة دوال، وليس بنية من المدلولات، فهو لا بداية له، إنه عكوس، قابل للانقلاب، يمكن الولوج إليه من شتى المداخل دون الادعاء، على وجه اليقين، أي أن هذا المدخل أو ذاك هو الرئيس، تتوالى الشفرات التي جندها، على مدى البصر، دون أن تتسم بالחסم، إلا ما كان برمية نرد»³، فيصبح التأويل المفتوح والقراءة المتعددة رهان الغرابة الدلالية:

هو ذا الطفل

يسابق الرِّيحَ مثل الفراشات

وحيدا يُرمم جدار الحرف

وحيدا يتكئ على عمره

حين الحرف تَمَاهى

1 - بول ريكور: المرجع السابق، ص 116.

2 - قصيدة "أنفاس مقطرة"، ص 38-39.

3 - رولان بارت: س/ ز، ترجمة وتقديم وتعليق محمد بن الراهه البكري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 2016، ص 37.

في البياضات..

وهو ذا الطفل

يَنْهَضُ مِنْ رَمَادِ الْوَقْتِ¹

هكذا يتأرجح الشاعر بين الحرف / الرؤيا والحرف / الذات في لحظات تأثر وتأثير، تنتفي فيها الحدود والفواصل بين الذات الشاعرة والحرف الأبجدي لتصل إلى مرحلة التماهي الكلي في فضاء التغني بسحر الحواس وعلى مضمار اللعب اللغوي، بيد أن «هذا اللعب كثيرا ما يختلط بالوجود اليومي»² في سياق الانعزالي المتفرد:

لا أحد سوانا يملأ هذا الليل

أنا وأنتَ حُرْفَانِ يَتَوَحَّدَانِ

مثل شمس في الظهيرة..³

يستمر القلق وتستمر معه معركة الحرف في حرب الحقيقة، وفي جوف الانزياح المنعكس في الصورة الشعرية الكلية المعبرة عن تفاؤل خفي في غياهب العصيان:

بِأَعْلَى جُرْحٍ تصرخ الريح

ضد الحرف قد بدأت

والعصيان قادة القُرْصَانِ..⁴

يخفت اللهب في لحظات انكسار وبوح، وينهار جدار المواجهة وتعلو نغمات الشكوى في ليل العجز، فيتحول الحرف إلى أقطار يجوبها كائن ورقي:

كَمْ سَافِرٍ فِي الْحُرُوفِ

هذا الكائن الورقي

وَلَمْ تُسْعِفْهُ الْقَصِيدَةُ..⁵

تنفصل الذات الشاعرة عن الحرف الأبجدي لإثبات وجودها في واقع مأساوي بمنظور رومانسي انهزامي توطئه تيمة الموت والفاء، دون أن تنفصل في المقابل عن الكتابة الموقف، إذ «لا يسع أحدا أن يكتب دون أن يتخذ موقفا انفعاليا (مهما بلغ تجرد الرسالة الظاهر) مما يحدث في العالم، والمآسي ومناعم الإنسانية، وما تحدثه في ذاتنا النغمات، الأحكام، التقلبات، الأحلام،

1 - قصيدة "طفل الفراشات"، ص 42.

2 - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة 1992، ص 137.

3 - قصيدة "نبذ الحواس"، ص 46.

4 - قصيدة "صرخة الريح"، ص 49.

5 - قصيدة "ومضات"، ص 62.

الرغبات، الهواجس، وكل هذا يشكل المادة الوحيدة للعلامات»¹، لذلك كانت البنية الترميزية للحرف بغرابة حملته الدلالية نتيجة معادلة تفاعل المخاوف الباطنية للشاعر مع مؤثرات المحيط الخارجي:

يَكْفِي أَنْ نَشْرَبَ قَهْوَةً بارِدة

فِي عُرْفٍ نَائِيَةٍ لِنَسَاقِطِ

مِثْلِ الْقُصَاصَاتِ ..

قال يا من تُزْهَرُ

فِي رَوْضَتِهَا قِصَائِدِ

لَيْسَتْ لِلْقُطْفِ

يَتَسَلَّلُ مِنِّي يُوزَعِي

بَيْنَ حَرْفٍ وَحَتْفٍ²

سعى الشاعر "أحمد زهير" إلى تبليغ رؤياه بصيغة فنية قوامها الحرف الذي امتص قلقه الدلالي في السياق الشعري من قلق الذات الشاعرة اتجاه واقع إنساني، تتقاذفه رياح الخيبة، والتوجس من المجهول، بين حاضر الانكسار والهزيمة ومستقبل ضبابي، كلما سطع سنا الأمل تلبدت غيوم الخوف في سمائه، فاحتارت الكلمات في حضرة الانفعال الوجداني، وانفردت بدلالات عميقة هي نتيجة العلاقة الخفية بين الناطق والمنطوق، ووليدة الصلة القوية بين الذات الشاعرة والمكان وقوة إحساسها بتغير الزمن، إحساس سكت عنه المنطوق السطحي لتعتلي عرشه القوة الترميزية التي كان فيها الحرف نواة الدرة النظامية، يتقلب بتقلب رؤيا الشاعر ورغبته في التفرد، ليكون هذا الحرف معادلا موضوعيا للذات الشاعرة حيناً، وقناعاً لها أحياناً، دون أن يفقد المقومات الإنسانية آناء الصيرورة السياقية، لتذهب رياح الغرابة على فصول القصيد دون أن تضعف شعرية اللغة الكاشفة عن عالم خفي تمتد جذوره إلى تداعيات ذات تفاعلت مع واقع أمته وقضاياه بمنظور رؤيوي شمولي، فرسمت ملامح مخاطب قادر على فك شفرات الخطاب، لتكون النتيجة الاستجابة للفعل الذي حملته الإرسالية³ عقب الوصول إلى فعالية التأويل عبر القدرة على فك خيوط منظومة الترميز اللغوي والدلالي التي تتباين ما بين النصوص الإبداعية، إذ «تختلف النصوص من حيث درجة انفتاحها على التعدد في التفسير مهما كانت وسيلة اتصالها»⁴.

1 - رولان بارت: النقد البنيوي للحكاية، صص 15-16.

2 - قصيدة "ذاك المساء"، ص 67.

3- علي آيت أوشان: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1421هـ/2000م، ص 71.

4 - Stuart Hall : Encoding/ Decoding, in : Stuart Hall, ed. Culture, Media, Language : (32) Working Papers in Cultural Studies, 1972- 1979, p.134.

خاتمة:

كشف الوقوف بأعتاب المضمير في تجربة الكتابة القائمة على رمزية الحرف الأبجدي عند الشعراء المغاربة الثلاثة "حسن الأمrani" و"أمنية المريني" و"أحمد زنيير"، عن الاغتراب الروحي والانكسار الوجداني للذوات في تفاعلها مع قضايا واقع مأساوي، عنوانه الحيرة والقلق الوجودي الذي شق سبيله في انبعاث متجدد من الذات الشاعرة إلى البناء الحروفي، حيث غدا علامة ترميزية للرؤيا الشعرية، يبني تجربة آنية تتماوج في أفقها تداعيات الماضي وتقلبات الحاضر وطموحات الممكن، في عالم افتراضي ثلاثي يتجاذبه التشابه والاختلاف «المورثات تحتم التشابه والمحيط يفرض الاختلاف؛ والتشابه والاختلاف مبدآن عامان شاملان لكل ما في الكون من ظواهر طبيعية وثقافية إذ بهما يمكن التوصيل والتواصل بين الكائنات الطبيعية والثقافية، وبهما يتم النمو والتطور»¹، وبذلك برز التشابه عند الشعراء الثلاثة في البحث عن بديل تعبري يغنيهم عن التقليد، لتشديد عوالم منظومة لغوية يتربع الحرف على عرشها القولي بصيغ يتساق في رحابها المادي واللامادي أثناء رحلة البحث عن الخلاص التي جرت في مسالكها الاختلاف النسبي، إذ ظل الشاعر "أحمد زنيير" مشدودا إلى تراب الواقع ينظر إلى موطنه في تحوله واضطرابه، يتفاعل وينفعل فيصدق بمنطوق نظمي تترفع فيه مجرة الدوال عن المعهود المدلولي لتستحم في بركة الغرابة، بينما حلقا "حسن الأمrani" و"أمنية المريني" في عوالم المقدس يبحثان عن كينونتهما بين أفلاك الوجود الصوفي المتطلع إلى الكمال عبر بناء نظمي يتساق مع مبادئ الفلسفة الإشراقية، ويمتص عبر العبارة العرفانية، فتتحول الحروف إلى نواة الوجود وبؤرة سره، تصل البشري في عالمه الأدنى بالإلهي في ملكوته الأعلى، أثناء الشكوى من التحول السلبي لواقع أضنى الذات الشاعرة بانكساراته، فتاهت باحثة عن سفينة الخلاص في حروف بمحمولات مقدسة تكفل الهدوء النفسي لذات قلقة حيناً، ومنطوق رمزي يطاوع طموح ذات ثائرة أحياناً، هكذا تتجلى سيماء التوافق والتخالف التي وسمت تجارب شعرية كان فيها الحرف اختيار الكتابة وعنوان المغامرة، إذ ظل لصيقاً بالذات الشاعرة يهتز باهتزازها ويتقلب مع رياحها، ليبني رؤيا شعرية متجددة، تتراص لبناتها مع لبنات تجربة شعرية مغربية معاصرة لم يسع أصحابها إلى الغموض «وإنما أرادوا الدخول إلى وطن الغرابة، سعوا إليه وهم رافضون لما ورثوه، ورافضون لاجتراره قصد إنشاء قيم تعبيرية أخرى مستقاة من أرض لا عهد للناس بها، فوقع الانفصال بينهم وبين القراء، بدل حدوث التواصل الذي ينشدونه، بمستويات متباعدة، وحصل الغموض في النص بدل الوضوح الذي طبع سير الشعر الحديث في المغرب والعالم العربي بصفة عامة»².

1 - محمد مفتاح: التشابه والاختلاف، نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت الحمراء، الطبعة الأولى 1996، ص 6.

2 - محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقارنة بنيوية تكوينية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت/ المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1985، ص 232.

لائحة المصادر والمراجع:

✓ المصادر:

- ابن عربي: الفتوحات المكية، ضبطه وصححه ووضع فهرسه أحمد شمس الدين، الجزء الأول، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان. د.ط، د.ت.
- ابن عربي: ديوان "ترجمان الأشواق"، اعتنى به عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1425هـ- 2005م.
- أحمد زهير: ديوان "حيرة الطيف"، العالمية للنشر- الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2013.
- أمينة المريني: ديوان "ومنها تتفجر الأنهار.. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى 2009م.
- حسن الأمrani: ديوان المجلد الثالث "الدارة الأرقمية"، مطبعة طوب بريس- الرباط، الطبعة الأولى 2017.

✓ المراجع:

- أحمد بلحاج آية وارهام: أبجدية الوجود، دراسة في مراتب الحروف و مراتب الوجود عند ابن عربي، منشورات أفروديت، الطبعة الأولى، المغرب 2013.
- أحمد زرقة: أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الثانية 1993.
- أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، 1978.
- السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث: مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية، دار المعارف، الإسكندرية- مصر، الطبعة الثانية 1983.
- بول ريكور: نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 2006.
- دانيال تشاندلر: أسس السيميائية، ترجمة طلال وهبة ومراجعة ميشال زكريا، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 2008.
- رولان بارت: النقد البنيوي للحكاية، ترجمة أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات بيروت- باريس، الطبعة الأولى 1988.
- رولان بارت: س/ ز، ترجمة وتقديم وتعليق محمد بن الراهه البكري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 2016.
- شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، النيل - القاهرة، الطبعة السابعة منقحة 1979.
- عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، دار الكندي بيروت، الطبعة الأولى 1978.
- عبد الإله بن عرفة و آخرين: جمالية السرد في الرواية العرفانية، دار الآداب، : جمالية السرد في الرواية العرفانية، دار الآداب بيروت، بدون سنة النشر.

- عبد الإله بن عرفة: رواية "بحر نون"، منشورات دار الأمان - الرباط، الطبعة الأولى، 1428هـ - 2007م.
- عبد القادر فيدوح: أيقونة الحرف وتأويل العبارة الصوفية في شعر أديب كمال الدين، منشورات ضفاف، بيروت، الطبعة الأولى 1437هـ - 2016م.
- علي آيت أوشان: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1421هـ/2000م.
- علي جعفر العلاق: الدلالة المرئية: قراءة في شعرية القصيدة الحديثة، دار الشروق، الطبعة الأولى، عمان - الأردن 2002م.
- لوسيان غولدمان: أبحاث مادية، ترجمة محمد براءة، مجلة آفاق، العدد 10، يوليو 1982م.
- محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: مقارنة بنيوية تكوينية، دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت، والمركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1985م.
- محمد شندول: الصرف العربي بين المقاربات اللغوية القديمة والمقاربات اللسانية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس، 2015.
- محمد مفتاح: التشابه والاختلاف، نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت الحمراء، الطبعة الأولى 1996.
- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة 1992.
- منور بوبكر: القصيدة المغربية المعاصرة: وظائف البناء الحكائي، مطبعة نجمة الشرق شارع الوفاق - بركان، الطبعة الأولى 2015.
- Fazlur Rahman : Dream, Imagination and Alam al_mithal (65-1964) ; G.E. Von Grunebaum/Roger Caillois : The Dream and Human Societies (1966).
- Stuart Hall : Encoding/ Decoding, in : Stuart Hall, ed. Culture, Media, Language : Working Papers in Cultural Studies, 1972- 1979 (London : Hutchinson in Association with the center for Contemporary Cultural Studies, University of Birmingham, 1973).

المتخيل السياسي في رواية جارات أبي موسى

محمد مجد

المملكة المغربية

الملخص:

يأتي هذا المقال ضمن سياق الحديث عن التخييل في الرواية العربية عموماً والرواية المغربية على وجه الخصوص، إذ أن الخطاب الروائي كيفما كان أصله لا بد أن يمتح من المتخيل الذي يرسم تفاصيله ويعطيه ألقاً وقبولاً لذا القراء، لهذا عمد الروائي المغربي أحمد التوفيق إلى توظيف المتخيل في رواية "جارات أبي موسى" مستفيداً من معرفته بالتاريخ، حيث قدم الفترة المرينية من تاريخ المغرب في قالب روائي يجسد المتخيل بكل أبعاده، خصوصاً المتخيل السياسي الذي عرف انتشاراً واسعاً داخل الرواية، بداية من علاقة التاريخي بالسياسي بالأدبي في الرواية، مروراً بالمراتب السياسية للدولة المرينية ثم السياسة العمرانية والمنزلية وطقوس الضيافة فالحملات العسكرية والمؤامرات السياسية دون إغفال سياسة فرض الضرائب نهاية بعلاقة السياسي بالديني في عهد المرينيين ولاسيما في أوقات الأزمات السياسية والنزاعات على السلطة.

الكلمات المفتاحية: التخييل الروائي، الرواية المغربية، المتخيل السياسي، الدولة المرينية، أحمد التوفيق.

مقدمة:

يعود الروائي إلى التاريخ من أجل تصوير أحداثه تخيّلها، إذ أن التخيل أداة من أدوات التصوير الروائي يستند إليها الروائي لتمرير الأفكار والقيم النابعة من المجتمع، ولعل أبرز مكون اجتماعي يتوسل به الروائي هو المكون السياسي، إذ السياسة منذ فجر التاريخ عنصر مهم من العناصر التي شكلت حياة الإنسان، فلا يعيش الإنسان دون تاريخ ودون سياسة، هذا الارتباط الوثيق بين التاريخي والسياسي مهد لإنتاجات أدبية عديدة، ضمن مسار فكري وإبداعي متجدد، يستمد استمراريته عبر آلية التخيل التي من شأنها أن تجمع بين الواقعي والمتخيل، ضمن سيرورة سردية ممتدة في الزمان والمكان تسمح للروائي في الغوص في أعماق الظواهر الاجتماعية خصوصا السياسية منها، إذ لا بد للروائي أن يكون ملما وعارفا بهذه الظواهر مستعينا في ذلك بالتاريخ، خصوصا تاريخ المنطقة التي ينتمي إليها، ولعل الروائي أحمد التوفيق أخذ من التاريخ ما يحول له أن يسرد رواية قارب فيها التاريخ السياسي للدولة المرينية، إلا أن إشكالية القراءة قد تفتتح على السؤال الآتي: كيف قدم الروائي المتخيل السياسي في رواية جارات أبي موسى؟

علاقة التاريخي بالسياسي بالأدبي في رواية جارات أبي موسى

جعل الروائي المغربي من تخصصه في التاريخ بوابة لكتابة رواية "جارات أبي موسى"، حيث يصور جزءا من حياة المجتمع المغربي في عصر المرينيين، وذلك بتناول مجموعة من المناحي ذات الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والدينية فالسياسية، والمتأمل في الرواية يجد قدرا كافيا من الحياة السياسية خاصة أن التاريخ مرتبط دائما بما هو سياسي، فكتب التاريخ - بغض النظر عن الأدب - تتضمن ما هو سياسي بالضرورة، ذلك أن الفعل السياسي محرك لعملية التاريخ، كما اعتبر التاريخ "منذ نهاية القرن الثامن عشر، جزءا من الأدب بمعناه الواسع، وتقاسم مع الأشكال التخيلية تراث البلاغة الكلاسيكية التي استقى منها طرق تنظيم موضوعه وتقديمه ... وبعد أن هجر المؤرخون البلاغة لكي يقدموا الحقيقة دون زخرفة، زادوا، بحلول القرن التاسع عشر، ابتعادهم عن الأدب الصرف بمحاكاة مناهج علمية، ومع ذلك، ظل التاريخ موضوعا بصعوبة بين الإنسانيات والعلوم الاجتماعية"¹، هذا التفاعل أدى إلى اتصال التاريخ بالأدب من خلال التخيل الذي يعني "عملية التأليف بين الصور وإعادة تشكيلها"²، والخيال أيضا "سجل لقدرة الإنسان الإبداعية التي تطورت عبر التاريخ، وهو حجر الزاوية في النشاط البشري، وهو الذي مكن الإنسان من غزو العالم واستكشافه وفهمه ومحاولة السيطرة عليه"³، ولعل دارس التاريخ إذا ما أراد سرد رواية أدبية يستدعي مفكرته التاريخية ويصوغها صياغة تخيلية ليعيد تصوير ما حدث من أحداث، إلا أن ذاكرته التاريخية ترجع دائما إلى ما هو سياسي بالأساس، فبالعودة إلى كتب التاريخ يتضح هذا الاتصال، حيث أنها تركز على نمط الحكم لدولة من الدول في حقبة زمنية معينة، كما أن الروائي أحمد التوفيق في روايته "جارات أبي موسى" قد استند إلى تخيل تاريخي سياسي و "من دون هذا التخيل السياسي المستمد من التاريخ والوقائع لا يمكن بناء رؤى المستقبل، فالمستقبل يصاغ أولا في خيال الشعب ثم يتحول إلى قوة مادية عند انتقاله من الخيال إلى الواقع"⁴.

المراتب السياسية للدولة المرينية في رواية جارات أبي موسى

¹ نقلا عن مقال: "الرواية والتاريخ" لعبد الفتاح الحجمري

² <http://saidbengrad.free.fr> بتاريخ 25 غشت 2023، على الساعة 10:30

³ د. شاكور، عبد الحميد، "الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي"، ص: 22

⁴ عمار، علي حسن، "الخيال السياسي"، ص: 14 نقلا عن إسماعيل أبو الهندورة، "الخيال السياسي وبناء المستقبل"، www.articles.abolkhaseb.net (بتصرف)

سلط الروائي أحمد التوفيق الضوء على بعض من الجوانب السياسية التي ميزت الدولة المرينية، من بينها العلاقات السياسية بين السلطان والقضاة والعمال، حيث بدأت الرواية بأولى العلاقات السياسية التي جمعت القاضي ابن الحفيد بالقاضي الجورائي إثر رسالة سلمها الخبير إلى دار القاضي ابن الحفيد يعلمه فيها بزيارة القاضي الجورائي إليه، إذ "استعظم ابن الحفيد هذا التشريف لمكانة الجورائي من السلطان ولأن هذا الإيثار سيرجح كفة نفوذه في المدينة على حساب العامل الذي لا ينعتقه القاضي في خاصته إلا باسم "المقيت"¹، من هذا الكلام تتضح علاقة القاضي ابن الحفيد بالقاضي الجورائي من جهة، ثم علاقته بالعامل جرمون من جهة أخرى، هذا العامل الذي "زاد حقنه على القاضي"²، مما يبرز الصراع السياسي المحتدم بين القضاة والعمال وغيرهم خلال الحكم المريني فقد كثرت "الثورات والاضطرابات الداخلية التي أرهقت الدولة وصرفتها عن الاستقرار إلى مقاومة الثائرين والقضاء عليهم أو محاولة ذلك"³، وهذا لا يلغي دور المرينيين في تحقيق الأمن والوقوف سدا منيعا ضد الصراعات، فقد ذكر الروائي أحمد توفيق "نجاح الجورائي في المهمة السلطانية التي خرج فيها إلى تامسنا، وهي إقامة الصلح بين قبيلتين ثارت بينها فتنة القتال والعدوان بسبب الخلاف حول كيفية تقاسم أعباء الضرائب السلطانية الجديدة"⁴، وهنا يظهر ملمح سياسي آخر متمثل في علاقة الرعية بالسلطان من ذلك فرض الدولة للضرائب، كما تبرز الرواية العلاقة الودية بين القاضي ابن الحفيد والقاضي الجورائي حيث قام هذا الأخير بطلب يد شامة للزواج فهو "جاد في أمره"⁵، وشامة كما تشير الرواية خادمة في دار القاضي ابن الحفيد عند مولاتها الطاهرة، وهنا مظهر سياسي يتجلى في طبيعة الحياة عند السلاطين والقضاة والعمال، فلا تخلو قصورهم وديارهم من الخدم، وقد سلط الروائي أحمد التوفيق الضوء على تقاليد الزفاف المستقاة من الشريعة الإسلامية، حيث يحضر ولي الفتاة ويكتب العقد "على شروطه من الاستئذان وتعيين الصداق"⁶، كما يشير الروائي إلى السياسة التي تدار بها أحوال القصور والدور، فهذه زيدة "كبيرة خادמות القاضي الجورائي، [...] الساهرة على ترتيب المواقيت، وتعيين اللوازم للحفل الذي سيقام بالسانية الكبرى بظاهر المدينة."⁷، ويشير الروائي كذلك إلى تدبير الاحتفالات والمناسبات حيث تحدد أماكن بعينها لذلك مثل السانية الكبرى، ويقف عند المراتب السياسية للمجتمع المريني حيث هناك السلاطين والقضاة والعمال والخدم، ومن بين الخدم "فاتح" "خادم أسود مفتول العضلات يذهب ويجيء، وكأنه في انتظار."⁸

السياسة العمرانية في الدولة المرينية في رواية جارات أبي موسى

اهتمت الرواية بوصف الدور كالدور التي حلت بها شامة التي سماها القاضي الجورائي ورقاء، فهي دار "أصغر من أصغر الدويرات الملحقة بقصر ابن الحفيد [...] لا تقل جمالا من حيث التزيين بأنواع الزليج وفي رقة الأسطوانات ورونق أبواب الغرف الأربعة المحيطة بيهو به ثلاثة أحواض مزهرة الورود تتوسط كل حوض منها شجرة تين مسنة"⁹، وهكذا فقد اتخذ الروائي من وصف القصور والدور وسيلة لإبراز جانب من جوانب السياسة في الدولة المرينية، فهي دولة اهتمت بال عمران منذ السلطان يعقوب المنصور الذي اهتم

¹ التوفيق، أحمد، "جارات أبي موسى"، ص: 5

² الرواية، ص: 6

³ غلاب، عبد الكريم، "قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي - عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر" الجزء الثاني، ص: 250

⁴ الرواية، ص: 8

⁵ الرواية، ص: 10

⁶ الرواية، ص: 11

⁷ الرواية، ص: 13

⁸ الرواية، ص: 20

⁹ الرواية، ص: 20-21

ببناء "المدينة البيضاء محاذية لمدينة فاس سميت بفاس الجديدة كما بنى قصبة مكناس سنة 674 هـ¹، كما "بنى المنارات الثلاث الكتبية في مراكش والخيرالدة في إشبيلية وحسان في الرباط"²، ليهتم السلطان أبو الحسن المريني ببناء "كثير من المدارس [...] بالقرب من المساجد الكبرى [...] ومن ذلك المدرسة العظمى بمراكش، ومدرسة الطالعة بسلا، ومدرسة الصهريج بفاس، ومدرسة مصباح بالقرب من القرويين بفاس، والمدرسة الجديدة بمكناس"³

السياسة المنزلية والضيافة في الدولة المرينية في رواية جارات أبي موسى

أشار الروائي أحمد التوفيق إلى الطقوس التي كانت بين السيدات والخادومات، حيث تصفق السيدات لاستدعاء الخادومات عند الاستيقاظ من النوم صباحاً، وهذا ما تبين لشامة "أن تلك الحركات والإشارات لغة مشتركة في مثل تلك الدور وفي مثل تلك المناسبات"⁴، وصورت الرواية انهماك القاضي في خدمة السلطان لتكون هذه الخدمة "ضرة نكدت الزوجات في مضاجعهن بغياب الأزواج في البعثات والوفود والانتظار بالأعتاب والمشاورة والحروب"⁵، من هنا تتضح أهمية القضاة والعمال في التكلف بمهام سلطانية، كما تعبر الرواية عن اهتمام القضاة بشؤون زوجاتهم حيث استقدم القاضي الجورائي "الخوذة إحدى خادومات الطاهرة سيدة دار ابن الخفيد"⁶ بعد أن كتب لابن الخفيد بطلب خادمة تسهر على خدمة شامة "ورقاء" إثر تعرض شامة "ورقاء" للتسمم، في حين أمر القاضي الجورائي "بحمل الخادمتين وبيعهما لتجار النخاسة"⁷، ولم تتوقف الرواية بعد ذلك عن تصوير مشاهد السياسة المنزلية في دار السلطان، فهذه أم الحر سيدة شامة "توحي بجميع المهابة الملكية في كمال الملامح وسحر النظرة ووقار زائد عما يقتضيه السن، امرأة فوق الخمسين تقتعد أريكة ملوكية وسط قبة فيحاء في أقصاها سرير مرصع بأنواع الأحجار الكريمة"⁸، وترصد الرواية نظام أم الحر في سائر أيام الأسبوع، مما يدل على طريقة سياسة القصر، كما توضح الرواية شخصية السلطان أبي الحسن المريني المعروف "بعلمه وهتمه وأخلاقه وورعه وعدله"⁹، حيث عرف باستقبال الوفود من ذلك ما أخبر به القاضي الجورائي "أن وفدا من قبل سلطان مالي من بلاد السودان سيدخل إلى فاس في موكب بهيج يحمل هدية إلى سيدنا السلطان"¹⁰

الحملة العسكرية للدولة المرينية في رواية جارات أبي موسى

كانت حملات للسلطان على بعض البقاء مثلما صور الروائي أحمد التوفيق في روايته على لسان القاضي الجورائي حيث قال لشامة "ورقاء" والخوذة: "ستبدأ حملة السلطان إلى الأطراف الشرقية بعد ثلاثة أيام وسأكون في من سيخرج من فاس يومه هذا، لننتقدم سيدنا إلى المرسى التي منها سيبحر"¹¹، وقد عرفت الدولة المرينية بصناعة السفن واستقدامها من الأندلس والتعاون فيما بينهم، في هذا شأن يذكر أحمد مختار العبادي نقلاً عن مصادر تاريخية أن "الجيش الغرناطي بالتعاون مع الأساطيل المغربية التي

¹ غلاب، عبد الكريم، "قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي - عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر" الجزء الثاني، ص: 253

² نفس المرجع، ص: 257

³ نفس المرجع، ص: 257

⁴ الرواية، ص: 21

⁵ الرواية، ص: 23

⁶ الرواية، ص: 28

⁷ الرواية، ص: 27

⁸ الرواية، ص: 46

⁹ العروي، عبد الله، "مجلد تاريخ المغرب"، الجزء الثاني، ص: 202

¹⁰ الرواية، ص: 38

¹¹ الرواية، ص: 40

أرسلها السلطان أبو الحسن المريني [...] بقيادة ولده أبي مالك تمكنت في نفس الوقت من استرداد جبل طارق سنة 733 هـ¹، تواصلت الحملات في عهد السلطان أبي الحسن المريني إلى أن وقعت نكبة القيروان التي ذكرها ابن خلدون في تاريخه حيث "اتصل خبر النكبة بالقيروان بالأمير أبي عنان ابن السلطان، وكان صاحب تلمسان والمغرب الأوسط، وتساقط إليه الفل من عسكر أبيه عراة زرافات ووحدانا، وأرجف الناس بمهلك السلطان بالقيروان، فتطاول الأمير أبو عنان للاستئثار بسلطان أبيه دون الأبناء، لما كان من الإيثار عند أبيه لصيانتة وعفافه، واسظهاره القرآن، فكان محلا بعين أبيه لأمثالها"²، إلا أن الروائي أحمد التوفيق قد قدم هزيمة السلطان في حملته على القيروان في أسلوب سردي بديع يعتمد فيه على التخيل، حيث جعل من شامة [ورقاء] على رأس "أول سفينة أقلعت، وهي سفينة ضخمة قوية قيل إن السلطان أرسل في كرائها من صاحب صقلية، ومعظم من فيها من الرؤساء والجنود نصارى يتكلمون لغة تخط بين لسان العرب ولسان العجم."³، وأضاف الروائي في قالب تخيلي أن القائد الصقلي عاد "ليخبر ابن مبارك أن أخبار سبتة، حسبها عند قائد السفينة الأخرى، تؤكد أن كارثة الأسطول السلطاني كانت مروعة فعلا وأن الذي وصل إلى الساحل هي سفينة السلطان، غير أن ولده قد قام عليه وبويع في فاس بتأييد عدد من قبائل المغرب."⁴

المؤامرات السياسية للدولة المرينية في رواية جارات أبي موسى

اهتمت الرواية بالمؤامرات التي تحاك في مدينة سلا خصوصا علاقة السيدات بالخادومات، فزوجة دحمان ولد ابن الحفيد "عادت إلى دار أهلها بعد ضلوعها كرأس مدبر لتلك المؤامرة"⁵ وهي حادثة ماء الغسيل الحار، إلا أن الرواية ركزت بشكل كبير على مكر العامل جرمون "فتضييقه بالناس ومخازيه فمما كان يعظم يوما بعد يوم"⁶، في حين كشفت الرواية عن إحسان القاضي الجورائي لزوجته شامة [ورقاء]، فقد وعد "بأن يكتب إلى والي طريفة بالأندلس لكي يستقصي أخبار [...] الأسير السلاوي ويفتديه إن كان ما زال على قيد الحياة [...] بل أشار إلى إحسان يضمه في حق الخودة إذا تبين أن زوجها قد قتل بالفعل."⁷، وصورت الرواية انتقاد القاضي الجورائي للسلطان من حيث "بناء المدارس وما جره ذلك من وبال على بيت المال وإثقال كاهل الرعية بالضرائب"⁸، ومن حيث عدم الأخذ بنصيحته "في العزوف عن حركة غزو يذهب فيها جيش جرار إلى الأطراف الشرقية لرد قبائل الأعراب من العصيان إلى الطاعة"⁹، في جانب آخر يظهر السلطان الجديد أبو عنان فارس الذي "سمح لوالده المخلوع أن ينتقل من منفاه بساحل المغرب الأوسط ليلقى زوجته في المركب المار بطريق الصحراء لكن مرضا شديدا ألم به وأودى به بعد أيام"¹⁰، وهذا ما يؤكد التاريخ حين ذكر عبد الله العروي أن "السلطان المريني البئيس [...] حاول بدون جدوى أن يسترجع ملكه، ومات موتة بؤس وشقاء في جبال الأطلس في شهر ربيع الأول سنة 1351/752"¹¹، كما تطالع الرواية علاقة العامل جرمون بابن الحفيد وحاشيته حيث مات دحمان ولد ابن الحفيد بسبب العامل جرمون "الذي كان همه أن يحطم غريمه المتكبر عليه بالعلم، القاضي ابن الحفيد، قد جر ولده

¹ العبادي، أحمد مختار، "دراسات في تاريخ المغرب والأندلس"، ص: 415

² ابن خلدون، "تاريخ ابن خلدون"، الجزء السابع، ص: 368

³ الرواية، ص: 42

⁴ الرواية، ص: 44

⁵ الرواية، ص: 28

⁶ الرواية، ص: 28

⁷ الرواية، ص: 32

⁸ الرواية، ص: 36

⁹ الرواية، ص: 36

¹⁰ الرواية، ص: 50

¹¹ العروي، عبد الله، "مجموع تاريخ المغرب"، الجزء الثاني، ص: 203

هذا ليصاحبه إلى جانب عم السلطان في عسكر خرجوا لجمع الضرائب من قبائل جهات نهر سبو [...] وفي ليلة اليوم الثاني من ذلك النزول على القبائل أغرى جرمون، عامل سلا، بعض قواد الجيش بأن يملوا على الأمير تأديبا شيطانيا ينزله بهذا الغر السلاوي الجسور. وهكذا استدعي دحمان إلى خيمة الأمير لينضم إلى مائدته، وقد أجبر على تناول الزائد من المسكر ولم يكن يتناول منه شيئا من قبل، فلما فقد وعيه تعرض لأنواع من العبث الفظيع من قبل عبيد غلاظ حتى ذهبوا بمهجته، وحمل جثة هامدة إلى والده في مدينة سلا.¹، هذا الصراع على السلطة أكثر ما ميز الدولة المرينية من ذلك ما ذكره عبد الكريم غلاب من "مناجزة بني عبد الواد الحاكمين في تلمسان، فرغم أن مملكتهم صغيرة إلا أنهم كانوا يخشون على سلطانهم من الشرق والغرب، الحفصيين في تونس والمرينيين في المغرب. ولذلك كانوا يُؤثِّونَ بعض ذوي النفوذ من الولاة وغيرهم للتمرد على الدولة أو الثورة عليها طمعا من هؤلاء المتمردين في الحلول محل المرينيين أو الاستيلاء على جزء من مملكتهم. وكثيرا ما كان يحدث أن يتمرد الابن على أبيه أو الأخ على أخيه من سلاطين المرينيين أنفسهم."²، وقد ألحت الرواية إلى مثل هذه الاختلالات السياسية من خلال شخصية العامل جرمون الذي يتعامل بمكر محاولة منه في الإيقاع بخصومه طمعا في نيل الشعبية في مدينة سلا على حساب القاضي ابن الحفيد، غير أن الأوامر السلطانية تأتي عكس ما يتوقعه "الرسالة الواردة في شأن شامة رسالة سلطانية، جاءت في اسمه -القاضي ابن الحفيد- وبصفته قاضيا لسلا ولا بد أن تنفذ ولا بد أن ترسل نسخة منها إلى جرمون لتحرزه."³، وكانت "شامة" و"علي سانشو" معرضين لمضايقات العامل جرمون، فهو عامل شرير حيث "أخذ [...] يتحرش بعلي محاولا الضغط على الناظر بإخراجه من دار الأحباس ومانعا محتسب المرسى من المضي في تنفيذ الأجر الشهري المعين له."⁴، إلا أن ابن الحفيد كان "يجبط كل مؤامرات الشر التي يدبرها جرمون ضد علي سانشو"⁵، لكن مضايقات العامل جرمون لم تقف، فبمجرد وفاة ابن الحفيد حتى "عاد [...] إلى مؤامراته ضد علي، فأوقف الجراية عليه من المرسى وأخرجه من دار الأحباس واضطره لاكتراء مصرية قريبة من المسجد الأعظم"⁶، كما أن العامل تمادى في الإضرار بعلي سانشو حيث "بدأ يوعز لكل من أراد تشغيله من الأعيان ألا يفعل."⁷، ومع ذلك كانت لشخصيات الرواية السياسية منها على الخصوص الدور في مساعدة "شامة" و"علي سانشو" ضد العامل جرمون، هذا العامل الذي "هددهما وسرحهما على غرامة كادت تعادل مقدار نصف رأسمال تجارة علي."⁸، كما أنه زج بعلي سانشو في السجن، ثم "أسكته [...]" ونخره وشتمه وهدده وأشهد عليه ألا يعود إلى فعل ما اتهم به وإلا وقع تحت طائلة غرامة فادحة لا قبل له بأدائها تعوض خسائر المكس السلطاني لمدة عام.⁹ من جانب آخر عمل العامل جرمون على تسريح شاكان "على غرامة لأنهما أسهما في ترويج إشاعة كان من شأنها أن تثير الفتنة بين الناس." وجلد ثالث "ثلاثين مرة فيختبر إن كان قد تاب من هذا التخريف المضر بالسكينة بين الناس وبسلامة تمييزهم."¹⁰، هذا الطغيان الذي تصوره الرواية يرتبط كذلك بالإفتاء، فحاجة العامل جرمون لتقوية بعض ادعاءاته واتهاماته تدفعه إلى استصدار فتاوى من كبار المفتين، فهذا المفتي يحيى قولان أخذ بما كتبه في فتواه حيث وصف عهد العامل السلطان

¹ الرواية، ص: 53-54

² غلاب، عبد الكريم، "قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي - عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر" الجزء الثاني ص: 251

³ الرواية، ص: 54 (بتصرف)

⁴ الرواية، ص: 60

⁵ الرواية، ص: 60

⁶ الرواية، ص: 60

⁷ الرواية، ص: 60

⁸ الرواية، ص: 70

⁹ الرواية، ص: 80

¹⁰ الرواية، ص: 89

"بزمن تفشي المنكر والجهر بالموبقات".¹، قبل أن يتم إعفاؤه من الإفتاء حيث "نفذ تدبير العامل، لكن تفاصيل القضية وصلت إلى أسماع الناس وزادهم ذلك استياء من نزع العامل وتسلطه، والتفت انتباههم إلى أبي موسى المهبول الذي دار هذا كله بشأنه دون أن يعلم أو يستشار أو يسأل"²، وما زال العامل جرمون يضايق "علي سانشو" إذ أمر العسس بالتعرف عن هويته، وشملت المضايقات كذلك "شامة" حيث أخبرها "علي سانشو" "أحمأ، هو وهي، في شبه أسر المدينة، لا يجوز لهما أن يغادراها لسبب لا يعرفانه."³، واستغل العامل جرمون فرصة ذهاب "علي سانشو" إلى مغارة مع أبي موسى ليستدرج "شامة" عنده ليسألها "عن الجورائي وزواجهما، وعن العتاب الذي تعرض له من قبل السلطان بسبب ذلك الزواج، وعن كنوز قد يكون ابن الحفيد خبأها في نطاقه داره أو تحت جدران في رياضه، ثم سأله عن خادمة السلطان التي رافقتها في حملة الأطراف الشرقية، وهل أخبرتها بشيء من مهمتها معها، وعن مدى علمها بأن بيدرو صديق زوجها وهو التاجر الذي غادر الفندق أخيراً كان متجسسا لأحد أمراء الأندلس النصارى."⁴، ومن هنا يتضح ذلك الإصرار لمعرفة أخبار الدولة والتجسس على رؤوسها، خصوصاً أن العلاقات السياسية داخل الدولة المرينية كانت تعرف صدامات قوية، لذلك صور الروائي أحمد التوفيق هذه الصدامات تخييلياً من خلال شخصية العامل جرمون في علاقته بالقاضي ابن الحفيد والقاضي الجورائي وشامة وزوجها علي سانشو، هذا الأخير الذي لم يسلم مجدداً من مكائد العامل جرمون إذ ألقي به في السجن ثانية "بعد تلاوة صك التهم [...] وذلك إلى أن يطلبه في يوم آخر ليحجبه عن الاتهامات الموجهة إليه."⁵، وبعد محاولة القاضي أبي جبر مدهون والشريف السعدي تبين أن ألعيب العامل جرمون في محاولة تطليق علي سانشو من شامة، ما أدى إلى غضب العامل جرمون وتفاجئه "بما قاله النقيب من كون شامة تتمسك بتوصية أم الحر التي ظنها هو مجرد رسالة وقتية إلى ابن الحفيد."⁶ كما وصل "الرد على التماس النقيب [...] وفيه أمر سلطاني بتسريح المسجون علي سانشو زوج شامة وتمكين شامة من ظهير توفيق يحدد وصية الأميرة أم الحر، ويدخل أهلها في دائرة التوقيير والميرة"⁷، وكان هذا الرد "صفعة لجرمون من يد السلطان وعبرة عليه أن يعتبر بما في ما يستقبل من الأيام."⁸، من جهة أخرى عمل العامل جرمون على كراء غرف في فندق الزيت لمجموعة من النساء لأنه "يعلم من صاحب شرطته أنهن يستطعن أداء الأكرية وأداء مقابل الحماية وأنواع أخرى من العناية"⁹

سياسة فرض الضرائب في الدولة المرينية في رواية جارات أبي موسى

أضاءت الرواية جوانب سياسية مهمة من بينها فرض الضرائب مثل ضريبة مبايت السلع حيث "قرر العامل إحداث هذه الضريبة بعد ركود نسبي في محاصيل تجارة الفندق والمدينة عامة"¹⁰، هذه الضريبة التي طالب التجار أن تسقط عنهم لأنها "دمرتهم وأضررت بكل إمكانية للاحتكار والتربح المطلوب للوقت المناسب لصرف السلع بالثمن المناسب."¹¹، ما أغضب العامل جرمون حيث

¹ الرواية، ص: 91

² الرواية، ص: 92

³ الرواية، ص: 98

⁴ الرواية، ص: 105

⁵ الرواية، ص: 112

⁶ الرواية، ص: 119

⁷ الرواية، ص: 130

⁸ الرواية، ص: 131

⁹ الرواية، ص: 165

¹⁰ الرواية، ص: 110

¹¹ الرواية، ص: 121

"أرسل حرسه ليحموا التجار بأسلوب عنيف على الإفراغ وإرغامهم على إخراج سلعهم في يوم واحد"¹، هذه السياسة التي طبعت الدولة المرينية من فرض الضرائب جعلت الدولة تتخبط في مشاكل داخلية من بينها الأطماع السياسية على غرار ما ذكر من قبل.

علاقة السياسي بالديني في رواية جارات أبي موسى

تستمر الرواية في رصد مظاهر السياسة من ذلك استدعاء صاحب الشرطة شيخ الجماعة "وطلب منه أن يشرح له ما يقصده بكثرة المناكر"، وفي هذا علاقة بين السياسة والمؤسسة الدينية، حيث أمر العامل جرمون "بأن يكتب على شيخ الجماعة إقرار يتلى في المساجد ويكون من جملة ما فيه أن ينسب إلى شيخ الجماعة قوله: إن أعظم المناكر² المسببة للبلوى ومنها انحباس المطر، كثرة الجراءة على الحكام وعصيان أوامرهم وارتكاب ما ينهون عنه وعدم إعانتهم على أداء مهمتهم المقدسة"³، كما سجن العامل جرمون أبا موسى لأنه لم يستجب لأمره "بإمامة الناس في صلاة الاستسقاء"⁴، قبل أن يخرج من السجن بعد تدخل نقيب الشرفاء وعدد من وجوه المدينة، واستنجد العامل جرمون بمشاوريه كباقي كبار السياسيين آنذاك، إذ تسلط الرواية الضوء على "تدخل أحد مشاوري العامل ليعدد مخالفات أبي موسى التي يتوجب أن يتابع من أجلهن، نزل المطر أو لم ينزل: خروجه في الخميس بدل الجمعة وخروجه بالنساء بدل الرجال وجمع الجماهير من أخلاط الناس حوله مما أنذر بقيام الشعب والفتنة ومخالفة مراسيم الصلاة المتعارف عليها".⁵ لكن الموت كان أسبق لأبي موسى من بحث العامل جرمون عنه ليعاقبه، فمن خلال هذا العرض لهذه الترابطات السياسية بين مكونات الدولة المرينية داخل رواية "جارات أبي موسى"، تبين أن الروائي اعتمد على التخيل في جانبه السياسي من حيث الشخصيات وتوظيفها لخدمة هذا المتخيل، إضافة إلى نسج الأحداث بشكل متسلسل مرتب في أغلب الرواية.

¹ الرواية، ص: 121

² الرواية، ص: 183

³ الرواية، ص: 184

⁴ الرواية، ص: 185

⁵ الرواية، ص: 190

لائحة المصادر والمراجع:

✓ المصدر:

- أحمد التوفيق، "جارات أبي موسى"، دار القبة الزرقاء للنشر والخدمات الثقافية، الطبعة الثانية، مراكش، المغرب، 2000

✓ المراجع:

- مقال: "الرواية والتاريخ" لعبد الفتاح الحجمري
<http://saidbengrad.free.fr/inv/hojmripage/r-historique.htm>
- عصفور جابر، "الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب"، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1992
- د. شاكر عبد الحميد، "الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي"، عالم المعرفة، العدد 360، فبراير، 2009،
- عمار علي حسن، "الخيال السياسي"، سلسلة عالم المعرفة، العدد 453، أكتوبر 2017
- إسماعيل أبو البندورة، "الخيال السياسي وبناء المستقبل"
- www.articles.abolkhaseb.net/ar_articles_2008/0108/bndora_080108.htm
- عبد الكريم غلاب، "قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي - عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر" الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، 2005
- عبد الله العروي، "مجمل تاريخ المغرب"، الجزء الثاني، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 2000،
- أحمد مختار العبادي، "دراسات في تاريخ المغرب والأندلس"، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون طبعة، بدون تاريخ
- ابن خلدون، "تاريخ ابن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، الجزء السابع، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهيل كزار، دار الفكر، بيروت - لبنان، 2000

رمزية المكان عند محمد أنفلوس
رواية "سحابة وبحيرة" أنموذجاً

د. زهور العزوزي

كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط

المملكة المغربية

الملخص:

تروم دراستنا الغوص في رواية الكاتب المغربي محمد أنفلوس، الموسومة ب: سحابة وبحيرة، هذه الرواية التي جعلتنا نقف عند عتباتها والاشتغال على تفاصيلها، سيما منها رمزية الأمكنة، والرؤية السردية، من خلال اكتشاف الشخصيات واستخلاص المغزى منها، إضافة إلى اللغة وأسلوب.

الكلمات المفتاحية: الرؤية السردية، رمزية المكان، اللغة، التشظي، الأسلوب. محمد أنفلوس.

يقول "ألفارو موتيس"¹ **Álvaro Mutis**: "أن تشاهد وتشاهد إلى حد ألا تصبح كما كنت، فعلا هذا ما يفعله بك أي عمل يشد المتلقي ويجعله يتساءل ويتساءل يثير لديه الحس المعرفي، ويشكل له أسئلة مؤرقة من شأنها أن تكون مفتاحا للجواب.

ولا غروا بأن الرواية هي "مستودع أسرار كبرى"¹، كما ذهب إلى ذلك الدكتور "إدريس الخضراوي" فهي تسلط الضوء على المجتمع والواقع بكل أحداثه وتفصيله وحيثياته، إنها بمثابة كاميرا أو مرآة تجوب الشوارع، وهي كما ذهب إلى ذلك "هيكل" أنها "انطباع شخصي مباشر للحياة"²، ومن خلال هذا الطرح، وقفنا عند الكاتب ابن الجنوب "محمد أنفلوس" من خلال روايته "سحابة وبحيرة" والتي تتكون من (267) صفحة، وتضم أربعين فصلا. وهاته الفصول على اختلاف أحداثها جعلتنا نطرح عدة تساؤلات: هل محمد أنفلوس اتخذ من الشخصيات والحكايات انطباعاً شخصياً؟ لماذا سحابة وبحيرة؟ وأين تكمن خصوصيتهما ورمزية مكانهما؟ إن طبيعة الدراسة فرضت علينا منهجاً وصفيّاً تحليلياً لكل جزئيات الرواية، سيما منها رمزية المكان، فساعدنا هذا المنهج على تقصي أسسها، ومآلات الكاتب، وتأثير المكان على الشخصيات، على اعتبار أنه "مركز اجتذاب دائم"³.

وقبل أن نتقصى ونغوص في تفاصيل المتن يستوقفنا العنوان، على اعتبار أنه مفتاح العمل وبالتالي، استدعت الضرورة الوقوف على عنوان رواية "سحابة وبحيرة" واستجلاء معالمها.

1- حيثيات العنوان

أحياناً يكون العنوان عتبة أساسية للمتن، فهو بمثابة البساط الذي يمشي عليه القارئ ويتدرج في فهم بناء انطلاقاً من فحواه، فتكون الرموز والدلالات مطروحة في البداية، وأحياناً أخرى لا يكون عتبة للعمل، هنا نطرح مثلاً مجموعة قصصية "المبتدأ والخبر" للكاتب (إلياس خوري)، فالذي يرى العنوان يُخال له أنه يصب في النحو واللغة، بينما هو عمل إبداعي. وقس على ذلك من الأعمال. وهذا الطرح يضعنا في مجموعة من التساؤلات حول رواية سحابة وبحيرة، هل عنوانها دال عليها؟ هل هو عتبة المتن؟ أم أن الكاتب يمارس علينا غواية الجذب.

والجدير بالذكر، أن العنوان جاء مركباً مكتوباً بخط كبير ومضغوط بالأسود القاتم، وتحت صورة تحبل بنساعة الألوان، تتخللها دالات ورموز، وتفتح لنا باب التأويل على مصراعيه، فنجد يدين متشابكتي الأصابع لا يكاد يتسلل منهما ميسم هواء. أما الألوان فتجتمع بين الأزرق الدال على الصفاء والراحة، والبرتقالي وهو من الألوان الدافئة حسب أهل الاختصاص، وقد اتخذ مجموعة من الدلالات عند العرب القدامى على رأسهم (البيروني، ومنظور، والعقاد) ويجبل بدلالات متعددة، وهذا ما طرحه العقاد بقوله: "النور في أصباغه المختلفة، هذه الأصباغ تصل أسماؤها إلى الألوان، وذلك وفق كنهها *teinte*، وقيمتها *valeur*، وتشبعها *saturation*، ونقاوتها *clarté*، وبريقها *l'éclat*، وكثافتها *l'intensité*"⁴.

وهذا ما وقفنا عنده من خلال صورة الغلاف. ألوان تشد القارئ ببريقها ونقاوتها وتشبعها بالحياة، ألوان الفرح والسرور. وكلمتا سحابة وبحيرة تدلان على الخير. فأين مكان يوجد فيه الماء فهو مكان حيّ ينعم أهله بالخير والجمال والطبيعة. فهل رواية سحابة وبحيرة يدور فلكها في دائرة السعادة والأحداث السارة؟

¹ . إدريس الخضراوي، الكتابة النقدية عند محمد برادة المرجعية والخطاب، أفريقيا الشرق، المغرب، 2020، ص255.

² . نقلا عن: إدريس الناقوري، الرواية المغربية مدخل إلى مشكلاتها الفكرية والفنية، سلسلة دراسات تحليلية، دار النشر المغربية، 1983، ص20.

³ . غاستون باشلار جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1984، ص179.

⁴ . كلود عبيد، الألوان دورها تصنيفها مصادرها ورمزيتها ودلالاتها، م.ت: محمود محمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص17.

إذن، العنوان وضعنا في مجموعة من الأسئلة من شأنها أن تكون خيطاً ناظماً لثنائنا الرواية. وبالتالي سيجعلنا نبحث عن المكان ورمزيته، ونرسو في أعماق الرواية، ونبحث في جزئياتها.

2- رمزية المكان

للمكان أهمية كبيرة في بناء العمل الروائي، وهو جزء لا يتجزأ من الشخصيات والأحداث التي تدور فيه بكل تفاصيله، وبالتالي، يعد العمود الفقري له، فالعمل الذي "يفتقد المكانية فهو فقد خصوصيته وبالتالي أصالته"¹. لقد جعلنا هذا العمل نقتفي آثار الأمكنة باعتبارها البؤرة المركزية له. وبالتالي جعلنا هذا الاقتفاء نلاحظ أنه غير قاصر في مكان واحد، بل اتخذ أمكنة عدة.

لقد جعل محمد أنفلوس المكان الركح الأساسي للأحداث، وقد جمع شتى الأمكنة وجعلها تتسم بطابع متعدد ومختلفة، على اختلاف الأحداث التي دارت فيها، فنجد أنه يقدم وصفاً دقيقاً لكل مكان، إلا أن الذي استوقفنا وجعلنا نتساءل: لماذا جعل الأمكنة لم تأخذ حقها من الجمال؟ ولماذا طغنت الأحداث على المكان وطمست جماليته؟ أين تكمن جمالية مكان الفندق أو مكان الحظ العاثر؟ لقد جعلتنا هاته الأسئلة المتكررة نغوص في كنه الرواية لعلنا نجد جواباً شاملاً لأسئلتنا.

شكل المكان بؤرة مركزية في رواية أنفلوس. الحديث هنا عن "قرية أمزدوغ" التي تعتبر العمود الفقري للعمل، فيها استوطنت الشخصيات وحطت رحالها، قادمة من أماكن مختلفة، فشكلت مكاناً لتبادل الآراء، وتنمية العلاقات، وكذلك الصراعات، منها ماهو اجتماعي، ونفسي، ومادي وما إلى ذلك... وبالتالي، يجبل هذا المكان (قرية أمزدوغ) بأبعاد كثيرة، على رأسها اختلاط المشاعر حيث تجمع بين السعادة، والحزن، النسيان، والتشطي، الترحال، الموت، الانتقام، والثأر، والحرب والانتصار. وكأن الكاتب هنا يعيدنا إلى قرية أمزدوغ وأحداثها التاريخية المليئة بالتوترات والصراعات مع السلطات الإسبانية.

تجبل القرية أيضاً برموز متعددة ودلالات مختلفة، متقلبة الطقس، تُبهج سكانها بتقلبات جوها من خلال هبوب الأعاصير وغزارة الأمطار وتحاف الضيوف، وكرم ناسها ومنهم شخصية "صفية" وبناتها الأربعة، إلا أن الضيوف نصنفهم جاء من أجل خلق المكائد والشر، هنا نشير إلى ابن زبيدة الذي أتى من أجل الثأر، قتل والدته، موجهاً لها طعنات عدة وما إلى ذلك من الجزئيات والتفاصيل التي غاص فيها الكاتب. وأطنب فيها.

ونحن نقرأ الرواية نجد أن (قرية أمزدوغ) متشظية متضررة من بطش وطغيان بعض أعيانها المتسلطين، الذين فعلوا العجائب والغرائب ليفسدوا ما أصلحه الصالحون من قبيل: محمد سويلم، ويحي وأبناؤه بوبكر وصالح.

هنا سنعود إلى ما بدأنا به، من خلال تحليل الصورة، حيث تظهر لنا يدان متشابكتا الأصابع لا يكاد تتسلل منهما نسمة هواء. هذا التشباك في الأيدي يدل على العلاقة القوية التي تجمع سكان أمزدوغ فيما بينهم، فحينما تعرضت القرية لحرب الطغاة الذين استهدفوها وسكانها، قاموا كلهم رجالاً ونساء يداً في يد من أجل محاربتهم، وهذا ما اقتفينا أثره من خلال قول الكاتب: "انضم الأهالي إلى جيش يحي، وصعد الناس سطوح المنازل يرمون العسكر بالحجارة والأواني"².

إن قرية أمزدوغ عانت من البطش والطغيان، وخيم عليها سحاب كثيف حجب الرؤية إلا أنها انتصرت بأهلها وبطبيعتها وجبالها وشواطئها، رغم الظلم والقمع من الطغاة.. إلا أن جماليات الانتصار بعد الحرب تحققت "نحر الأهالي الذبائح ودقت الطبول وارتفعت

¹ . غاستون باشلار، جماليات المكان، م.س، ص5.

² . محمد أنفلوس، سحابة وبحيرة، الراصد الوطني للنشر والقراءة، طنجة، ط1، 2023.

حناجرُ النساء بالزغاريد...¹، لقد انتصرت أمزدوغ نتيجة تلاحم العلاقات وتأزرها، وكانت المرأة حصن الرجل.. فكُنَّ قويات صامدات لا تحوُّر قواهنَّ، نسلط الضوء هنا على شخصية سحابة وصفية، المرأتين القويتين والمتماسكتين.

وجمالية المكان طغت ولو بعد حين، نستحضر هنا قول الكاتب "توسعت مباني أمزدوغ في اتجاه الهضبة المنبسطة التي تُطل على الشاطئ من علٍّ شاهق... تمتدُّ جبالٌ أقلَّ ارتفاعاً، حتى تذوب الأفق وتلتحم بالسماء، تشقها أودية عميقة..."²

لا اندهال في أن قرية أمزدوغ شكلت الفضاء العام للرواية، وبالتالي هذا الفضاء يضمُّ فضاءاتٍ أخرى تدور في فلكه، نسلط الضوء هنا على البيت، والغرفة التي تعتبر جزءاً منه، وهو بتعبير باشلار "الحدود التي تمنح الحماية"³ إلا أننا هنا لم نجد الحماية بقدر ما وجدناه بؤرةً لممارسة الطقوس والعجائب والغرائب، أقصدُ هنا بيت العرافة السعدية العارفة بكل شيء: تفاصيل سكان القرية الموجهة لبعض العادات التي أصبحت مترسخة لديهم نستحضر هنا "وضع طسوت الماء فوق قبور موتاهم"⁴، هنا المقصود (لكي لا تعود أرواحهم وتعيش في نفس المكان). لقد شكّل بيت العرافة السعدية المكان المغلق الذي يلجأ إليه كلُّ ما بنفسه شيء يريد أن يصل له أو يعرفه، نستحضر هنا صالح الذي جاء لتفسير الحلم، والدجال الذي يبحث عن الكنز والأمثلة كثيرة في هذا الباب.

وإلى جانب البيت توجد الغرفة الموجودة في فندق (الحظ العاثر). لماذا الحظ العاثر ولماذا لم يتصف هذا المكان بجمالية؟ بل أخذ اسماً سيئاً؟

لقد شكل هذا المكان نقطة سوداء في الرواية، إنه المكان الذي أجهضت فيه زبيدة أو زينب كما سماها ابُنها. أجهضت الكثير من الأطفال للبنات اللواتي يشتغلن معها، وهنا قُتل زبيدة على يد ابنتها بطعنات متتالية... فالمكان اتخذ رمزية سيئة كتيبة موحشة لذلك سمي بالحظ العاثر.

3 - المستويات السردية

اتجه الكاتب في روايته إلى مجموعة من المستويات أو الأنماط السردية، حيث نجده في القصة الأولى مثلاً اتخذ بعداً مختلفاً، فهي لا تمت بصلة للقصص الأخرى أو الفصول المتتالية التي تتكون من أربعين فصلاً، فجعل البداية نهايةً، والنهاية بداية. كما أنه تعامل مع الشخصيات ومواقفها الكثيرة بحنكة، فنسج السرد ببراعة، محفزاً القارئ على استغوار كل فصل من الفصول، وبرغبة ملحّة لاكتشاف العلاقات بين الشخصيات واستخلاص المغزى من وراء تشابكها، واستخراج الخيط الرقيق من بين السطور دون أن يتشابك.

لقد حدد الكاتب نهاية الرواية منذ البداية أو كما ذهب إلى ذلك "جيرار جنيت" لحظة الصفر، وكانت لحظة الصفر أو نهاية الرواية وهي بداية تراجيدية حزينة (موثُ الصبي، بعده موت خديجة الأم الحنون، واختفاء بوبكر في فيافي الصحراء، وضياغ صالح، وفقدان يحيى لذاكرته).

1 . محمد أنفلوس، سحابة وبحيرة، م.س، ص132.

2 . محمد أنفلوس، سحابة وبحيرة، م.س، ص127.

3 . غاستون باشلار، جاليات المكان، م.س، ص3. ص132.

4 . محمد أنفلوس، سحابة وبحيرة، م.س، ص154.

إن رواية سحابة وبحيرة تجعل القارئ يعيش الأحداث وكأنه مشارك فيها يتعامل مع الشخصيات وكأنه واحدٌ منهم، والسبب يعود إلى الوصف الدقيق للكاتب باعتياده رؤية مكروسكوبية من خلال توغله في التفاصيل الكبرى دون إغفاله التفاصيل الوسطى والصغرى.

كما اتسمت الرواية باشتغال الزمن ودورانه من الأسلوب الاستباقي إلى الأسلوب الاسترجاعي، وهكذا دواليك. كما اتسمت بتواتر الأحداث وتكرارها وتداخلها أو كما يسميها جيرار جنييت "السرد المتداخل".

ولا يمكن أن نغفل جانباً مهماً من سرديات الكاتب والمتعلق باللغة، فاللغة في الرواية اتخذت لغة شعرية حيث وظف صوراً بلاغية كالاستعارة والمجاز والتشبيه. مثلاً: "كان قلبها يعضُّها في صمت"¹ أو كما جاء في موضع آخر "شعرها البندقي يتحدى خمار ملحفتها ويسيل كالنهار المشرق"²، "كبد السماء"³ "سقط ظل ثقيل على الأرض"⁴.

صفوة القول، إن تعاملنا مع أي عملٍ روائي كان، يجعلنا منذ البداية نستنبط دلالات العمل، انطلاقاً من عنوانه وصورة غلافه، أما غير ذلك فلا نستطيع معرفة ما يجري في عمقه، وهذا ما اقتفينا أثره في رواية "سحابة وبحيرة" حيث لامسنا بعمق مجموعة من الأحداث وتشابكها ومساوئها، فكانت قرية أمزدوغ القلب النابض لها، سحابة الرواية التي طالتها الغيوم إلا أنها أمطرت وملاّت البحيرة ماء، ففاض منسوبه خيراً وجمالاً، وانعتقت من ريق التاريخ وطمس المعالم، إلى جمال يعلو كعلو جبل بولعلام وتُحيط بجنباته الأنهار ونبته الصبار.

¹. محمد أنفلوس، سحابة وبحيرة، م.س، ص 8.

². محمد أنفلوس، سحابة وبحيرة، م.س، ص 8.

³. نفسه، ص 183.

⁴. نفسه، ص 214.

المراجع والمصادر:

- إدريس الخضراوي، الكتابة النقدية عند محمد برادة المرجعية والخطاب، أفريقيا الشرق، المغرب، 2020.
- إدريس الناقوري، الرواية المغربية مدخل إلى مشكلاتها الفكرية والفنية، سلسلة دراسات تحليلية، دار النشر المغربية، 1983.
- غاستون باشلار جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1984.
- كلود عبيد، الألوان دورها تصنيفها مصادرها ورمزيتها ودلالاتها، م.ت: محمود محمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2013.
- محمد أنفلوس، سحابة وبحيرة، الراصد الوطني للنشر والقراءة، طنجة، ط1، 2023.

بنية وجمالية الأمثال والتعابير الشعبية المغربية:
نماذج من الأمثال والتعابير العامية السائرة بمنطقة ايت اعتاب
الطالب الباحث: وديع بويكروان

ماستر النقد الأدبي والفني

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان
المملكة المغربية

الملخص:

يروم هذا المقال تسليط الضوء على الجانب البنيوي والجمالي للأمثال والتعابير الشعبية المغربية، من خلال الاشتغال على نماذج سائرة بمنطقة ايت اعتاب المنتمية إلى إقليم أزيلال؛ حيث تم الانطلاق من التحديد اللغوي والاصطلاحي للمثل و المثل الشعبي في سياقات مختلفة، قبل الانتقال لوصف موجز للمجال الجغرافي للنماذج - موضوع الاشتغال، ومن ثم إبراز مختلف البنيات اللغوية لهذه النماذج وبعدها الجمالي.

الكلمات المفتاحية: بنية، جمالية، الأمثال الشعبية، ايت اعتاب

مقدمة:

موضوع الأمثال موضوع قديم جديد، تنوّل من زوايا بحثية عدة، ومازال التنقيب في شأنه مستمرا وفقا لما استجد في العصر الراهن من مناهج ومقاربات. وقد توزعت الجهود البحثية في هذا الموضوع بين جمع المتون والتبويب والشرح، ودراسة البنيات والوظائف، وعقد المقارنات، وكشف القيم الثابتة خلف النصوص، وغير ذلك من المقاربات. والدراسة، التي ين أيدينا، محاولة متواضعة لرصد الجانب البنيوي والجمالي للمثل المغربي من خلال دراسة نماذج من الأمثال والتعابير السائرة بمنطقة ايت عتاب. فما مميزات البنية التركيبية والدلالية لهذه الأمثال؟ وأين يتجلى بعدها الجمالي؟ انطلاقا من هذه المقدمة الموجزة، ستحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على المحاور الآتية:

- تعريف المثل لغة واصطلاحا
- تعريف المثل الشعبي
- البنية اللغوية للأمثال والتعابير العامية السائرة بمنطقة ايت عتاب
- البعد الجمالي للأمثال والتعابير العامية السائرة بمنطقة ايت عتاب

I. تعريف المثل:

1. التحديد اللغوي:

جاء في لسان العرب، مادة (م ث ل):
" يُقَال: هذا مِثْلُه ومِثْلُه كما يقال شَبَّهه وشَبَّهه [...] والمِثْل: الحديث نفسه؛ جاء في التفسير: أنه قولُ لا إله إلا الله [...] والمِثْل: الشيء الذي يضرب لشيء مَثَلًا فيُجْعَل مِثْلُه [...] قال الجوهري: ومِثْل الشيء أيضا صفته [...] وقد يكون المِثْل بمعنى العبرة، ومنه قوله عز وجل: فجعلناهم سلفا ومَثَلًا للآخرين، ويكون المِثْل بمعنى الآية؛ قال الله عز وجل في صفة عيسى عليه السلام: وجعلناه مَثَلًا لبني إسرائيل؛ أي آية تدل على نبوته"¹
من خلال استقراء هذه المادة المعجمية في لسان العرب، نجد أن كلمة المثل تفيد المعاني الآتية: الشبه، الحديث، الشيء الذي يضرب لمثله، الصفة، العبرة، الآية

2. التحديد الاصطلاحي:

1.2 في السياق العربي القديم:

من التحديدات الاصطلاحية لكلمة المثل ما أورده الميداني (ت518هـ) في كتابه مجمع الأمثال، وهو كتاب جمع فيه، كما جاء في مقدمته، ما تفرق في كتب سابقه:
" قال المبرد المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثاني الأول [...] فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثالا *** وما مواعيدها إلا الأبطال

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد

وقال ابن السكيت المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معنى ذلك الفضل شبهوه بالمثل الذي يعمل عليه غيره
وقال إبراهيم النظام يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة

¹ ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، م 11 (بيروت: دار صادر، د.ت).

وقال ابن المقفع إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للنطق وأنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث
قلت: أربعة أحرف سمع فيها فَعَلٌ وفَعْلٌ، وهي مَثَلٌ ومِثْلٌ، وَشَبَهٌ وَشَبْهٌ، وَبَدَلٌ وَبَدَلٌ، وَنَكْلٌ وَنَكْلٌ [...] فصار المثل اسماً مصرحاً
لهذا الذي يضرب ثم يردُّ إلى أصله الذي كان له من الصفة" 1

2.2 في السياق العربي الحديث:

انبرت للموضوع، قيد الدراسة، عدة بحوث عربية معاصرة من شتى المشارب. وتوخيا للإيجاز، سنكتفي هنا بإيراد نصين فقط :

- متولي نعمان عبد السميع:

" و خلاصة القول أن:

- المثل له أصل في اللغة.

- هو الشبيه والمثل.

- هو القول السائر.

- وهو الوصف الغريب أو القصة الغريبة.

- وهو المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة ويشيع استعماله. " 2

- الدكتور إميل بديع يعقوب:

بعد عرضه لعدة تعريفات سابقة له في الموضوع يصل إلى التعريف الآتي: " المثل عبارة موجزة يستحسنها الناس شكلاً ومضموناً
فتنتشر فيما بينهم، ويتناقلها الخلف عن السلف دون تغيير، متمثلين بها، غالباً، في حالات مشابهة لما ضرب لها المثل أصلاً، وإن
جهل هذا الأصل " 3

3.2 تعريف المثل في السياق العربي:

" المثل هو قول مأثور شائع الاستخدام، يُعبّر عن حقيقة عامة أو نصيحة. " 4

من خلال التعاريف سالفة الذكر. يمكننا استنتاج الخصائص الرئيسة للمثل، وهي:

كونه من جنس الكلام

مجهول الهوية في الغالب

متوارث يتناقله جيل عن جيل

الإيجاز والاختصار

السجع و الموسيقى

القبول و الاستحسان

التعبير عن وعي جماعي

الصدور عن تجربة

إفادة الحكمة (العبرة)

¹ المبداني أبو الفضل، مجمع الأمثال، 2 ط، م 1 (المعاونية الثقافية للأستانة الرضوية المقدسة، 1344)، 9.

² متولي نعمان عبد السميع، الأمثال العربية بين الفصحى والعامة، ط 1 (دسوق- مصر: دار العلم والإيمان، 2015)، 10.

³ يعقوب إميل بديع، موسوعة أمثال العرب، ط 1، م ج 1 (بيروت- لبنان: دار الجيل، 1415)، 21.

⁴ STANLEY NILE, "Inspiring Language with Proverbs", Babylonia, 22, 2024, فبراير،

<https://doi.org/10.55393/babylonia.vi.329> ،

الشيوع والذيع

الثبات على الصياغة الأصلية

والمثل بهذه الخصائص ينماز عن مجموعة من التعابير اللغوية الشبيهة به:

- التعابير المسكوكة التي تفتقد إلى خاصية الشيوع لكونها تتداول داخل نطاق جغرافي ضيق، كما أنها لا يمكن فهم معناها بذكر جزء منها لكونها أكثر إيجازا والتباسا من الأمثال. و من التعابير المسكوكة التي جاء ذكرها في الكتب التراثية: أبلعني رقي، حيص بيص، شذر مذر. 1
- النادرة حكمة صحيحة تتفق مع المثل في كل شيء إلا الشيوع؛ فهي شائعة بين الخواص فقط
- العبارات التقليدية: تجري مجرى الأمثال في شيوعها، لكنها لا تقوم على المشابهة، مثل: أهلا وسهلا، حياك الله وبياك
- التعابير الكنائية: تعابير تختلف في كونها من الأمثال أو مما جرى مجراها، مثل: ابن جلا لمن كان أمره واضحا ، ابن أقوال للمقتدر على الكلام
- الحكمة؛ تعبر عن رأي سديد وفكرة صادقة، لكنها لا تسير سير المثل ولا تشيع شيوعه. وقد تصير مثلا إذا توافر فيها شرط الشيوع. والمثل قد يحمل فكرة صادقة وقد لا يحملها؛ إذ يمكن أن يتمثل به لوصف حالة أو تشبيه شيء بشيء. 2

II. تعريف المثل الشعبي:

اختلف في تعريف المثل الشعبي بين من يجعله مرادفا للمثل العامي ومن يميزه عنه. وهذه نصوص للتمثيل: جاء في المقدمة التي وضعها محققا كتاب زهر الأكم في الأمثال والحكم تعليقا على بعض الامثال المغربية التي أوردها اليوسي: " لكنه (فصحها) ولم يذكرها بلسان العامة" 3

يقرن متولي نعمان عبد السميع المثل الشعبي باللهجة العامية: "تتردد الأمثال الشعبية يوميا على ألسنتنا؛ في المنزل أو العمل أو حتى في الحديث بين الأهل والأصدقاء، والأمثال الشعبية تراث قديم تتوارثه الأجيال وتردده في معترك الحياة اليومية [...]" كما نتعرض للأمثال في اللهجة العامية، والتي تعرف بالأمثال الشعبية " 4

أما عبد الرحمان السليمان فقد اعتبر المثل العامي مثالا شعبيا: "أما المثل العامي فهو المثل الشعبي المبسط لفظه المنطوق به باللهجات العامية" 5

فحسب النصين الأول والثاني نستشف أنه يمكن للمثل الشعبي أن يكون فصيحاً أو عامياً، في حين نجد أن النص الأخير يعتبر المثل الشعبي ذلك المثل المتداول باللهجات العامية فقط.

III. البنية اللغوية للأمثال والتعابير العامية السائرة بمنطقة ايت اعتاب:

¹ شائق عبد الرحمان، "مصطلحات"، التعابير المسكوكة في اللغة العربية: مفهومها وسماتها، 1 مارس، 2023، <https://mostalahiyats.com/wp-content/uploads/2023/03/2012-000-015-001-1.pdf>.

² يعقوب إميل بديع، موسوعة أمثال العرب، ط1، م ج1 (بيروت-لبنان: دار الجليل، 1415)، 23-30.

³ الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ط1، م 1 (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1981)، 8.

⁴ متولي نعمان عبد السميع، الأمثال العربية بين الفصحى والعامية، ط1 (دسوق-مصر: دار العلم والإيمان، 2015)، 8.

⁵ عبد الرحمان السليمان، "في الأمثال الشعبية والأمثال العامية"، Arabic Translators International _ الجمعية الدولية لمترجي العربية، 25 مايو، 2006،

<https://atinternational.org/forums/forum/proverbs/colloquial-arabic-proverbs/276> - في- الأمثال- الشعبية- والأمثال- العامية.

1. نبذة مختصرة عن منطقة ايت اعتاب:

قيادة تابعة للنفوذ الترابي لعمالة أزيلال، تضم ثلاث جماعات قروية هي: تسقي و تاونزة ومولاي عيسى بن ادريس. ويجدها شمالا قيادتا بني عياط وأولاد عياد، وغربا قيادة ابزو و جماعة بني حسان، وجنوبا جماعة تايبة وجماعة تاكلا وجماعة أكودي نلخير، وشرقا جماعة ايت واعرضى وبين الويدان. يبلغ عدد سكان ايت اعتاب 29386 حسب إحصاء 2024، ومعظمهم أمازيغ إلا نسبة قليلة من الدواوير تتكلم عربية دارجة تتخللها كلمات أمازيغية.¹ وقد ذكر المنطقة مؤرخون مغاربة منهم الحسن الوزان الذي عدها في "وصف إفريقيا" من مدن تادلة التابعة لمملكة مراكش التي تنتمي بدورها إلى بلاد البربر.²

2. البنية اللغوية لنماذج من الأمثال والتعابير العامة السائرة بمنطقة ايت اعتاب

من خلال استقراء مجموعة من الأمثال والتعابير السائرة بمنطقة ايت اعتاب، تبين أنها تتخذ بنيات تركيبية متنوعة، كما هو مشار إليه في الجدول أسفله:³

جدول واصل لنماذج من الأمثال والتعابير السائرة بمنطقة ايت اعتاب مع بيان لبنيتها التركيبية والغرض منها

المثل أو ما جرى مجراه	بنية التركيبية	الغرض منه (لمن يضرب)
شاف الربيع ما شاف الحافة	بنية خبرية	يضرب لمن يريد الشيء، لكنه لا يفكر في عواقبه
دير الهم فالشبكة شي يطيح وشي يبقى	بنية طلبية	نصح لتجنب الانشغال المغرق بمحوم الدنيا نظرا لتأثير ذلك على صحة الإنسان
لي خاف من جوع أبريل يحتر فشتنبر	بنية خبرية (شرطية)	الحث على الحرث المبكر من أجل حصاد جيد وتفادي الفاقة في نهاية الموسم الزراعي
إلى ما بغيتي بأحموتأخذي الرثاع	بنية شرطية	يضرب للمرأة التي لا ترضى بالزواج من صاحب الضيعة فتضطر مع مرور الوقت إلى الزواج من خادمه
العروبي إلى تبدل، بحال البندير إلى تجلد	بنية تشبيهية	يضرب لمن يصبح قاسي المعاملة بعد تأقلمه مع المحيط
معكاز بحال ذاك لي قالوا له شوف الشتاء واش كتصب، وهو يعيط على الكلب ومسو	بنية تشبيهية	يضرب لمن يتصف بشدة العجز
برنيقش، ولا جميل العنابة	بنية طلبية	ينصح به للقناعة بالمتاح تجنباً للذل
الماء فرحان والقراءة فرحانة	بنية خبرية وصفية	يضرب لطرفين يعتقد كل منهما أنه يستغل الآخر
صدق الماء وخا تكون على رأس العين	بنية طلبية (أمر)	يضرب لأهمية الصدقة وإن كان المتصدق عليه غير محتاج
فموبحال المقص	بنية تشبيهية	يضرب للثرثار
من هذي نعرفو سرسات	بنية خبرية (استنتاج)	يضرب لمن يعتبر من محنة أو يتعلم درسا من حادثة

¹ للتخطيط المندوبية السامية، "Résultats RGPH 2024"، تاريخ الوصول 6 يونيو، 2025،
https://resultats2024.rghapps.ma/superset/dashboard/0fbd169b-19e1-4338-a344-e58bb9a02a4d/?permalink_key=pmo6qLqylzY&standalone=true

² بن محمد الوزان الفاسي الحسن، وصف إفريقيا، 2 ط (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، 184.

³ عربي، عيسى، 2160 من الأمثال والأقوال السائرة عند سكان قبيلة آيت عتاب بإقليم أزيلال (د.ن.، 2001).

<https://books.google.co.ma/books?id=yCdIAAAAMAAJ>.

شكون دأها فيك آ لمكحلة في ظلام	بنية استفهامية إنكارية	يضرب لمن تحب الظهور في غياب شروطه
فاتك الغرس قبل مارس	بنية خبرية	يضرب لمن فاته القيام بواجب في أوانه
تيلاس نسبعة وعشرين	بنية خبرية	معناه الحربي: ظلمات ليلة ليلة القدر. ويضرب لمن اقترف ذنبا عظيما أولفق تهمة باطلة للغير
دايتفراز سين لحنوك	بنية خبرية	معناه الحربي: يعضج بحنكين. يضرب للمنافق يأتي قولاً أوفعلاً ويضمّر نقيضه
أر تقسنت تيزوانك	بنية خبرية	معناه الحربي: نلحك يلسع. ويضرب للغاضب يبحث عن سبب تافه للخصام

IV. البعد الجمالي للمثل الشعبي المغربي من خلال النماذج موضوع الدراسة:

تجلى جمالية الأمثال لشعبية ومختلف التعابير التي تجري مجراها في بنيتها اللغوية المتفردة التي تشد انتباه المتلقي ليطمأهي مع عوالمها الفنية والبلاغية التي تنزاح عن اللغة العادية، ولعل تفاعل المتلقي مع هذه البنية اللغوية المختلفة هو ما يقوده للغوص في معانيها ودلالاتها والتلذذ بفك شفراتها. وفي ما يلي وصف لبعض هذه الخصائص الفنية والجمالية من خلال تحليل بعض النماذج من التعابير السائرة في منطقة ايت اعتاب:

خاصية المشابهة:

تقوم أغلب الأمثال العامة على بنية المشابهة بين المورد والمضرب؛ حيث يضرب المثل في حالة تتسم بفردتها تشبه حالة سابقة لها، وعندما يدرك المتلقي ذلك التشابه يجد له وقعا في نفسه يدعوّه إلى المضى أو التراجع في ما صدر منه. ومثاله: معكاز بحال ذاك لي قالوا له شوف الشتاء واش كتصب، وهو يعيط على الكلب ومسو

خاصية الغرائبية:

وغالبا ما تتجسد في المثل الذي يقوم على نوع من المفارقة والتناقض الدلالي بين جزئيه، مثل: شكون دأها فيك آ لمكحلة في الظلام؛ فإني تجملت بالكحل تسعى من وراء ذلك إلى الظهور أمام مرأى الناس ليكتشفوا جمالها، غير أن وجودها في مكان مظلم يتناقض مع مرادها وبحول دونه.

خاصية الحجاجية:

أغلب الأمثال تؤدي وظائف حجاجية؛ فحينما يتوصل المتلقي من خلال المثل إلى أن وضعه شبيه بوضع حالة سبقت في التاريخ، وأن نتيجة ذلك الوضع رهينة بتراجع أو مضيه في سلوكه أو موقفه، يحس بالقوة الحجاجية لما تلقاه من تعابير. وللتوضيح، نورد هذا المثال: إلى ما بغيتي بآحموتاخذي الرّثاع

خاصية الإيجاز:

وهي أهم خاصية فنية تسم الأمثال والتعابير السائرة، ذلك أنها تختصر كثيرا من المعاني والدلالات في لفظ وجيز إلى درجة أن بعض الأمثال لا تتجاوز في تركيبها كلمتين مثل: تخطو لعرارم، فعلى قلة كلمات هذه العبارة نجدتها مكثفة لمجموعة من المعاني من قبيل اختلاط الأمور وتشابكها تشابكا مذموما وراءه ما وراءه من أسباب وتبعات... الخ

خاصية الموسيقى:

وتتحقق بالسجع والجناس والطباق وتكرار الأصوات؛ حيث تتظاهر هذه المحسنات لتضفي على العبارة المثلية جرسا موسيقيا جذابا وجمالية صوتية خاصة. فهذه العبارة مثلا:

دير الهم فالشبكة شي يطيح وشي ييقى

موسيقية هذه العبارة تتشكل من تكرار صوتي الشين والياء ، والتضاد المتمثل في: يطيح # ييقى، والجناس غير التام: الشبكة

= ييقى

خلاصة تركيبية:

بناء على ما تقدم، نخلص إلى أن المثل العامي نبع ثري من ينابيع الثقافة الشعبية المغربية، يضطلع بأدوار مهمة في حياة الإنسان المغربي، وعلى رأس هذه الأدوار نجد الدور الفني والجمالي الذي يكتسبه من بنيته اللغوية المتفردة ومن تفاعل المتلقي المغربي مع هذه البنية في سياقات مختلفة؛ بحيث يتطافر كل ذلك في انسجام تام لبلورة متعة فنية وجمالية خاصة قد تفوق أحيانا جمالية الأدب الرسمي.

على سبيل الختم:

آمل أن يفتح هذا العمل المتواضع شهية البحث في الموضوع الذي تطرقت إليه، وأن يسهم بنصيب في إثرائه وتعميق النقاش فيه، على أن الأسئلة بشأن قضاياها تتناسل من بعضها البعض بشكل مستمر لتفتح آفاقا جديدة للبحث البناء عن كنوز هذا الموروث الثقافي خدمة له وللمهتمين به.

لائحة المصادر والمراجع:

- أبو الفضل، الميداني. مجمع الأمثال. 2 ط. م 1. المعاونة الثقافية للأستانة الرضوية المقدسة، 1344.
- السليمان، عبد الرحمان. "في الأمثال الشعبية والأمثال العامية". _ Arabic Translators International الجمعية الدولية لمترجمي العربية، 25 مايو، 2006.
<https://atinternational.org/forums/forum/proverbs/colloquial-arabic-proverbs/276>
- اليوسي، الحسن. زهر الأكم في الأمثال والحكم. 1 ط. م 1. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1981.
- إميل بديع، يعقوب. موسوعة أمثال العرب. ط 1. م ج 1. بيروت-لبنان: دار الجيل، 1415.
- جمال الدين، ابن منظور. لسان العرب. م 11. بيروت: دار صادر، د.ت.
- عبد الرحمان، شائق. "مصطلحيات". التعابير المسكوكة في اللغة العربية: مفهومها وسماتها، 1 مارس، 2023.
<https://mostalahiyats.com/wp-content/uploads/2023/03/2012-000-015-001-1.pdf>
- عيسى، عربي،. 2160 من الأمثال والأقوال السائرة عند سكان قبيلة آيت عتاب بإقليم أزيلال. د.ن.،، 2001.
<https://books.google.co.ma/books?id=yCdIAAAAMAAJ>
- نعمان عبد السميع، متولي. الأمثال العربية بين الفصحى والعامية. ط 1. دسوق- مصر: دار العلم والإيمان، 2015.
- NILE، STANLEY. "Inspiring Language with Proverbs". Babylonia، 22 فبراير، 2024
<https://doi.org/10.55393/babylonia.vi.329>.

رمزية المكان في رواية "التحول" لمشيل بوتور
مُدخل إلى سيمياء المكان
عبد العلي الحاجز
المملكة المغربية

ملخص:

تروم هذه الورقة الاشتغال على متن روائي، يندرج ضمن ما يُعرف بالرواية الجديدة، من خلال نموذج روائي عنوانه: "التحول" لمشيل بوتور، متوسّلين بمقاربة تأويلية تسمّد أسسها من سيميائيات التأويل لدى الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرس بورس، والغرض من ذلك أن نفق عند تأويلية المكان في هذه الرواية، حتى نتلمّس بعض خصيصات هذا النوع الروائي من جهة، ثم نكشف عن وظائف المكان في السيرة السردية من جهة ثانية، بوصفه مكوّنًا أساسًا في العمل الروائي، يتساق مع مسارات الرواية وشخصياتها، في بنية سردية متناغمة تتقصّد بناء المعنى وتشبيد الدلالة لدى القارئ.

الكلمات المفتاحية: الرواية الجديدة، المكان، سيمياء المكان.

تقديم:

يقتضي تحليل النصوص السردية من كل دارس، أن يأخذ بعين المراجعة، مجموعة من المعطيات والمكونات المهمة التي تدخل في منظومة النص السردية، والتي تسهم في تشكيل كينونته ورسم معالمه؛ نتحدث، هنا، عن الشخصيات من منظور التحليل البنيوي، أو الفواعل بتعبير السيميائيات السردية، وكذا عن الزمان والمكان، بالإضافة إلى بعض المكونات والمعطيات الأخرى التي تسم النصوص السردية الأدبية كالحوار والوصف.

ومن هذا المنطلق، سنركز اهتمامنا في هذه الورقة على بنية المكان في رواية "التحول" لميشيل بوتور. متوسلين في ذلك بالمقاربة السيميائية التأويلية، التي من شأنها أن تسعفنا في فهم أبعاد المكان ورمزيته في هذه الرواية، وتأويل التحققات الدلالية الممكنة أو المحتملة للمكان، بوصفه علامة حمالة للمعنى تتحقق في الخطاب، وبوصف التأويل "نشاطا سيميائيا تتحكم فيه سرورة بنائه لموضوعه"⁽¹⁾، يشتغل باعتباره استراتيجية منتجة للدلالة على مستويات مختلفة.

1. المكان في النص السردية:

يكتسي المكان أهمية كبرى داخل بنية السرد، بوصفه الفضاء الذي يحتضن الأحداث، وتقع فيه كل مجرياتها، "بحيث لا يمكن تصوّر حكاية بدون مكان، فلا وجود لأحداث خارجه، ذلك أن كل حدث يأخذ وجوده في مكان محدد، وزمان معين."⁽²⁾ ووفق هذا المنظور، يستمد المكان مشروعيتها وأهميته انطلاقا من تفاعله مع أحداث النص السردية، وكذا تعبيره عن متوالية من الدلالات التي يمكن استقراؤها وفهمها، بالنظر لطبيعة الأحداث التي تقع فيه، وللعلاقة التي تحكمه بالفواعل. ومن هذا، فإن دراسة رمزية المكان تقتضي البحث في العلاقات الكائنة بينه وبين الفواعل، من خلال تظاهراتها وتحققاتها بوصفها علامات لغوية في الخطاب، تكتنز دلالات مختلفة ومتضاربة أحيانا. يمكن فهمها وتأويلها انطلاقا من فرضيات وأسئلة تفرضها طبيعة هذه العلاقات. واستنادا إلى هذا المعطى، يتميز المكان في النص السردية بكونه فضاء متخيلا ينجز عبر اللغة، "فهو فضاء لفظي **Espace verbal** يتميز. ويختلف عن الفضاءات الخاصة بالسينما والمسرح... إنه فضاء لا يوجد سوى من خلال الكلمات المطبوعة في الكتاب"⁽³⁾، أي إن كينونته، بعدّه فضاء روائي، تتعين في الخطاب. وهو أيضا فضاء ثقافي، "بمعنى أنه يتضمن كل التصورات والقيم والمشاعر التي تستطيع اللغة التعبير عنها"⁽⁴⁾، فيكون بذلك حمّالا لدلالات تستمد مشروعيتها من الثقافة التي تتأطر ضمنها، ومن المنظومة الفكرية المتعالية التي تحكمها؛ بمعنى النسق الثقافي الذي استدعى تخلق النص السردية.

وفي السياق ذاته، يتجلى المكان في النصوص السردية بوصفه فضاء متخيلا، "يتشكّل داخل عالم حكاية في قصة متخيلة تتضمن أحداثا وشخصيات"⁽⁵⁾، إذ إن المكان في الرواية، تمثيلا لا حصرا، حتى وإن اكتسب بعده المرجعي ذي الطبيعة الواقعية، الذي يحيل على مكان موجود في الواقع، فهو لا يعدو في النص السردية أن يكون فضاء متخيلا يكتسب دلالاته ورمزيته من علاقته بالأحداث والشخصيات.

ومن هذا المنطلق، ستنصبّ دراستنا للمكان في رواية "التحول" لميشيل بوتور، على تأويل دلالات الأمكنة، بالنظر لصلاتها وتفاعلاتها مع الذات الفاعلة المتمثلة في "رب الأسرة ليون"، وكذا استنادا إلى انفعالات هذه الأخيرة تجاه الفضاء الذي تقع فيه،

(1) محمد بوعزة، استراتيجية التأويل، من النصية إلى التفكيكية، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى 2011م، ص 10.

(2) محمد بوعزة، تحليل النص السردية، تقنيات ومفاهيم، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2010م، ص 99 (بتصرف).

(3) حسن مجراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء - الزمن - الشخصية، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1990، ص 27.

(4) محمد بوعزة، م. س، ص 100.

(5) محمد بوعزة، م. س، ص 100.

كأن يتوَلَّد لديها هوى الحبّ تجاه فضاء معيّن تتعلق به نفسية الشخصية، أو هوى الكراهية تجاه فضاءات أخرى، وكذا من خلال الصور الذهنية التي تشكلها الذات حول الأمكنة.

إن الفكرة السابقة تدفعنا إلى التساؤل حول دلالات الفضاء في رواية "التحول" الممكن تحقيقها عبر فعل التأويل؟ وما تجلياتها وقظهراتها في خطاب الرواية؟

2. دينامية المكان وتشبيد الدلالة في رواية التحول:

يضطلع المكان في رواية "التحول" لميشيل بوتور بدور دينامي وفعل في تنامي أحداث الرواية وتطورها. ويمكن التمييز في هذا الصدد بين غطتين من الأمكنة؛ يتحدّد الأول باعتباره مكانا محتضنا للأحداث في راهنيتها كالمقصورة التي يستقلّها ليون. فهو، إذن، مكان حاضر في هنا والآن. ويتجلى الثاني باعتباره مكانا غائبا، يتمّ استحضاره عن طريق الذكريات والتمثيلات الذهنية، والتهيّوات المتخيلة التي تتم في خيال الذات الفاعلة "ليون"، كمدينة باريس، ومدينة روما، ومختلف الأمكنة التي يتم الإشارة إليها في السرد عرضا كالمطاعم، والفضاءات العامة، ومحطات القطار... إلخ. ومن هنا، فإننا سنحاول استقراء دلالات بعض الأمكنة الدينامية في هذا النص السردى، مبثّرين الاهتمام على ثلاثة أمكنة مهمّة: هي مقصورة القطار، ومدينتي باريس وروما.

● المقصورة؛ فضاء مغلق ومعنى مفتوح:

إن أول فضاء يشدّ انتباه القارئ في الرواية هو الفضاء الذي تجري فيه معظم أحداثها، إن لم نقل كلّها، نتحدث، هنا، عن المقصورة بما هي فضاء مغلق، لا يتجاوز المترين، ويتضح ذلك من خلال التوصيفات والمعطيات التي يقدّمها السارد عن هذا الفضاء، ذلك أنه يتكوّن من مساحة محدودة تضم مجموعة مقاعد تقادمت بفعل الزمن، أرضيتها متسخة، وإضاءتها خافتة. يقول السارد: "تلمح في الظل على نحو واضح، ما وراء الانعكاسات المتكونة، باطن مقصورة أخرى تبدو أكثر قدما من المقصورة التي تحلّ أنت فيها، بمقاعدها الخشبية الصفراء ورفوفها المصنوعة من الخبال"⁽¹⁾.

إن هذا التوصيف الذي يقدمه السارد لمقصورات القطار، كونها فضاءات مهترئة ومتهالكة، كفيل بأن يجعلنا نفهم أنها تحيل على الانغلاق والرتابة، وتبعث على التوتر والفوضى والكآبة، وهذا من بين ما يبرّز الأفكار الفوضوية والمبهمّة التي لازمت الذات الفاعلة ليون طيلة مكوثه في المقصورة، فبين المكان والأحداث علاقة تلازم منطقية.

ومن جهة أخرى، نجد هذه المقصورة تفتح على الفضاء الخارجي الممتد عبر النافذة، وهو الأمر الذي يشيّد في ذهن القارئ تأويلا محتملا، إذ يمكن أن يعبر هذا المعطى على سبيل الخلاص المرجّح والمتنظر، الهارب من صاحبه، أو ذلك النشاط الذي يشوب رتابة فضاء المقصورة، إنها بمثابة شعلة أمل مشرعة داخل فضاء مغلق، قد يكون سبيل خلاص ليون من ركام أفكاره التي تجعله تائها بدون هوية ضمنها.

● باريس؛ تحوّل من الأمل إلى الألم:

وإذا كانت المقصورة في انغلاقها وثباتها ومحدوديتها أحوالنا إلى دلالات تتولّد من هذه المفردات بمنطق التأويل، فإنها يمكن أن ترمز أيضا في حركيتها، تبعا لحركة القطار، إلى نوع من التحوّل، إذا ما اعتبرنا القطار مساعدا على تحوّل ليون من باريس نحو روما، بكل ما يحمل ذلك من معان مرتبطة بطبيعة المكانين، تحوّل في سيرورة حياة ليون، وكذا في مشاعره وانفعالاته تجاه الفضاء. ارتباطا بهذا السياق، يسعنا التأويل في احتمال مدلولات متعدّدة ممكنة التحقق في هذا الصدد. وكذلك الأمر بالنسبة لفضاء مدينة باريس، هذه الأخيرة نجدها في الرواية تختلف تماما عن تمثالاتنا المسبقة حولها، إذ إنها لم تعد مدينة الأنوار والحرية والفكر والثقافة

(1) ميشيل بوتور، التحول (رواية)، الطبعة الأولى 2010م، تر: د. هناء صبحي، ص 9.

والانفتاح، بل أضحت ترمز لدلالات مغايرة، انطلاقاً من علاقتها بالذات الفاعلة لليون، ذلك أنها ترتبط بأجواء العمل والتعب، وكذلك بأسرته وزوجته هنرييت التي أصبحت علاقته معها متوترة وفاترة أيما فتور.

ومن ثمة، يمكن أن يدلنا هذا الفضاء، بالنظر لهذه العلاقة على دلالات مختلفة؛ فهو يحيل على الجمود والسكون، وعلى الموت والعجز والفتور والتدهور، "تدهور حال باريس بجوها الغائم"⁽¹⁾، وهو تدهور ممتد إلى ثنايا علاقة ليون بأسرته، كما يحيل كذلك على رتابة العمل، وعلى رغبة ليون في الانفلات من هذه الأزمة التي ترمز إليها باريس بالنسبة له والتخلص منها. بل إن مدينة باريس ارتبطت في مخيال ليون أيضاً بزوجه هنرييت العجوز المترهلة، المتشعبة بالثقافة الدينية التقليدية، (كما جاء في الرواية)، فهي لكل ذلك لا تحيله إلا على الرجعية والماوضوية والفتور والشيخوخة والعجز. ثم إن باريس بالنظر لعلاقته مع سيسيل، وهي ذات فاعلة أكثر حيوية ونشاطاً من زوجته، كانت فضاء اضمحلال هذه العلاقة، واندثار الحب الذي أسس له معها. وبناء عليه، يمكن أن يرمز هذا الفضاء أيضاً إلى التمزق والتهيه والاندثار، إن باريس تتجلى في الرواية مدينة لا قلب لها

ومن هذا المنطلق، فإن رمزية فضاء مدينة باريس في خطاب الرواية، وإن كان فضاء منفتحاً، إلا إنه محمل بدلالات لا تحيل إلا على القتامة والضبابية وهلامية العلاقات. علاوة على أن رمزية هذا الفضاء تمارس خرقاً لأفق توقعنا نحن القراء، ما دامت صورة باريس التي نتمثلها في أذهاننا ضابجة بدلالات تحيل على كل ما هو إيجابي ومنفتح وثقافي ورومانسي. إلا أنها في خطاب الرواية ترمز إلى نقيض كل ذلك.

هذا، وإذا كانت باريس تحيل على هذه الدلالات التي سبقت الإشارة إليها، إذن فما هي التحقيقات الدلالية المحتملة لفضاء

مدينة روما؟

• روما؛ انفتاح المعنى وانفراج الذات:

يحضر فضاء مدينة روما في رواية التحول فضاء منفتحاً، محملاً بدلالات مختلفة ومناقضة لفضاء مدينة باريس. ذلك، أن هذا الفضاء في علاقته بالذات الفاعلة ليون، ارتبط بشخصية سيسيل؛ بكل ما تحيل عليه هذه الشخصية من تحرر ودينامية وحيوية⁽²⁾، فروما، إذن، ترمز من هذا المنظور إلى الحرية وإلى الخلاص من كل المتاعب والمشاكل المتراكمة في مدينة باريس، إنها المدينة التي أغرم بها ليون منذ سنوات الدراسة الثانوية⁽³⁾.

ومن جهة أخرى، ترمز هذه المدينة إلى الحب، وإلى الانفتاح والإقبال على الحياة بكل حيوية، بالنظر لهوى الحب الذي يجعل ليون شغوفا بهذه المدينة، وكذا لعلاقة الحب التي تجمعهم بعشيقته سيسيل. فروما، إذن، رمز لكل ما يعيد ليون إلى نشاطه وحيويته وشغفه، إنها ترتبط بالحرية والجمال والشباب، كما يمكن أن تدل أيضاً على الانبعاث؛ فمدينة روما هي التي تخلص ليون من شيخوخته وتوتره وفتوره، وتبعث في روحه الحياة من جديد. روما تلك المدينة التي تعبق بالأساطير والتاريخ العريق، كما يراها ليون، "فهني أسطورة بالنسبة إليه"⁽⁴⁾، لا يمكن أن ترمز إلا إلى السعادة والتشبث بالحياة، والتخلص من الكآبة والموت والجمود المحدق بليون في مدينة باريس.

(1) ميشيل ليريس، "الواقعية الميتولوجية لميشيل بوتور"، مقال مرفق للنسخة الرقمية المعبّرة لرواية التحول لميشيل بوتور، تر: د. هناء صبحي، الطبعة الأولى 2010م، ص 229، (بتصرف).

(2) ينظر: ميشيل بوتور، التحول، م. س، ص 142.

(3) يراجع: ميشيل ليريس، م. س، ص 228.

(4) نفسه، ص 229.

خاتمة:

بناء على ما سبق، وانطلاقاً من محاولتنا في فهم السيميائيات التأويلية، وتمثل معطياتها في هذه القراءة، لتأويل الدلالات الممكنة تحققها فيما يخصّ الفضاءات الدينامية في رواية التحول، توصلنا إلى استنتاج ثلاثة معطيات مهمّة:

أولاً: يسعف التأويل في إنتاج، متواليات من الدلالات والمعاني التي يمكن أن ترمز إليها الأمكنة، ولو جزئياً، بوصفها علامات تتحقق في الخطاب. لكنها تبقى مجرد تأويلات محتملة، وقراءات ممكنة في رمزية المكان لا تلغي غيرها من القراءات والتأويلات الأخرى، على اعتبار أن عملية التأويل، بغض النظر عن محدوديتها أو لا نهائيتها، لا تؤمن بأحادية المعنى، بقدر ما تفتح أفق توليد دلالات متعددة ومختلفة، بل ومتضاربة أحياناً.

ثانياً: لا يمكن فهم رمزية المكان في هذه الرواية إلا بفهمنا لطبيعة العلاقات التي تحكم الأمكنة مع الفواعل بعامة، والذات الفاعلة ليون بخاصة، وكذا انطلاقاً من علاقات هذه الأخيرة وتفاعلها وباقي الفواعل، وعبر فهم الانفعالات والأهواء التي تتولد لديها تجاه الأمكنة. ومن هنا فقد حاولنا أن نأخذ بعين الاعتبار هذه المعطيات ونتمثلها في محاولتنا لدراسة رمزية المكان في الرواية.

ثالثاً: يسهم الفضاء في دينامية الأحداث وتطورها، ويفصح في علاقته بالفواعل عن دلالات مختلفة، تتشكل عبر سيورة تأويلية ينتجها القارئ. وبناء عليه، فإن فضاءات رواية التحول لمشيل بوتور، اضطلعت بدور دينامي ومهمّ في تحوّل مجريات الأحداث وتنميتها؛ وذلك ما اتضح من خلال تأويلنا لدلالات الفضاءات الثلاث السابقة.

وفي النهاية حاولنا أن نجيب على الأسئلة التي شكلت نواة الدراسة، انطلاقاً مما فهمناه من النص الروائي. ومن هنا سعينا إلى تأويل دلالات المكان المحتملة في رواية التحول لمشيل بوتور، في تعدديتها واختلافها، وتركنا مجال التأويل مفتوحاً، انطلاقاً من تبيننا للتصور السيميائي الأمريكي لشارل ساندروس بورس الذي يؤمن بلانهاية التأويل، من خلال مفهوم السيميوزيس اللامتناهي. وتجدر الإشارة كذلك إلى أننا اعتمدنا مفهومين اثنين في الدراسة هما المكان والفضاء، تفادياً للتكرار أولاً، وكذا لأننا في بحثنا وجدنا دراسات أخرى، سبقت الإشارة إليها في الهامش، تستعمل هذين المفهومين متجاورين، في حين تفضل أخرى توظيف مفهوم الحيز⁽¹⁾ لاعتبارات متعددة.

(1) ينظر: عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنية السرد، ص 121.

الأثر الأدبي الأندلسي:

ترجمة وتعليق من الإسبانية إلى العربية للفصل الرابع

من كتاب "الأدب الأندلسي" للمستعربة الإسبانية ماريا خسوس روبيرا ماطا

د. لحسن الكيري

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين الدار البيضاء – سطات

Lahcenelkiri@gmail.com

المملكة المغربية

الملخص:

حاولنا من خلال هذه الورقة أن نقدم ترجمة وتعليقا لأحد أبرز فصول كتاب "الأدب الأندلسي" للمستعربة الإسبانية ماريا خسوس روبيرا ماطا والذي يحمل عنوان: "الأثر الأدبي الأندلسي". تسعى الباحثة في هذا الفصل إلى عملية رصد التأثيرات التي كانت للأدب الأندلسي العربي [الإسبانو-عربي] في بقية الآداب الإسبانية كالآداب القشتالي والبلنسي والكطالاني والبرتغالي، بل وامتداد هذه التأثيرات حتى خارج حدود شبه الجزيرة الإيبيرية، كما هو الشأن في جنوب فرنسا وبالضبط في منطقة "البروفنثال" كما يظهر عند الشعراء الغزل فيها. وتظهر هذه التأثيرات السابقة على عدة مستويات وتتم وفق عدة وسائل كالترجمة والمشافهة على سبيل المثال لا الحصر. إن الغاية من ترجمة هذا الفصل اليوم والكتاب في مجمله، في فرصة لاحقة، لا تخرج عن كونها محاولة بسيطة ومتواضعة نبتغي من خلالها تقريب القارئ العربي - الذي لا يستطيع أن يصل إلى كتاب كهذا في لغته الأصلية - من فحواه ومعرفة كيف ينظر الآخر إلى تراث عام نحن من أبرز المشاركين في إنتاجه.

الكلمات المفتاح: أدب أندلسي - مستعربة إسبانية - ماريا خسوس روبيرا ماطا - أثر أدبي أندلسي - رصد التأثيرات - شعراء غزل - ترجمة - مشافهة.

مقدمة

في الواقع، لقد عرفت الأندلس تاريخاً متميزاً في مظاهر العيش صغيرها وكبيرها فتحمل الأندلسيون على اختلاف أصولهم وعقائدهم مسؤوليات تدبير أمور الحكم، وتلاقوا في مجلس العلم معلمين ومتعلمين، وكتبوا فيما هو عام، يحدوهم حب العلم، وسعوا إلى نشر آثاره، أو فيما هو خاص ينورون به عقول المعتد كل في نخلته ويهدونهم السبيل. وتنافسوا في سبيل العيش في الأسواق، ونهضوا بشأن التجارة وزرعوا الأراضي وغرسوا الجنان وهذبوا البساتين وحفروا الآبار ونظموا الري ورفعوا البنيان وتساكنوا وتجاوروا في نفس الرباع والأصقاع وأحياناً في نفس الدور. وباختصار، نسجوا نسيجاً حضارياً مختلف الألوان ومنسجم التركيبة. إنها مشاركة اهتم فيها الخصوصيات الدينية والعرقية وتوارت فيها الأناثيات والعصبيات زمناً كان كافياً لبناء مجتمع يعتبر، بحق، بما صنع في العلم والرجال، المثال الذي يجب أن نضعه دوماً نصب أعيننا. وقد عاشت الأندلس أبهى فترة خلال حكم المسلمين لها وسطرت في ثمانية قرون أعرق حضارة كان لها الفضل في نشر المعرفة في أوروبا كلها. وفي كلمة، إنها تاريخ مشرق وحضارة عظيمة قدمت النور والخير العظيم للإنسانية كما يذهب إلى ذلك العلامة الدكتور أحمد شحلان¹ في مداخلة له ضمن فعاليات ندوة دولية كان قد عقدها مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات بالرباط حول موضوع: "الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح".

إن الأوضاع العالمية المعاصرة بما فيها من تيارات وأفكار تجعل إعادة قراءة حضارة الأندلس وثقافتها واقتراح تأويلات جديدة ملائمة ضرورة وجيهة لإلقاء مزيد من الضوء على مظاهر التسامح والتعدد والغنى فيها.

ويعتبر حقل الأدب من بين أهم الحقول الإبداعية التي يمكن أن نستشف من خلالها تنوع وغنى وتعدد وخصوبة الحضارة الأندلسية. صحيح أن العرب حملوا معهم حضارتهم إلى الأندلس المفتوحة وذلك شأن العرب في كل زمان ومكان، بحيث إنهم لم يفتحوا بلداً إلا ساقوه إلى التقدم والازدهار، فهم أصحاب رسالة إنسانية يحملونها في عقولهم وقلوبهم أينما ضربوا في الأرض، وقد حملوا إلى الأندلس علمهم ونورهم فإذا هي قبلة للثقافة والعرفان. وصحيح أيضاً أن الأندلسيين طرّقوا أغلب الفنون الأدبية المعروفة، فلم يتركوا غرضاً من الأغراض إلا ونظموا فيه، ومنه ما ترسموا فيه أهل المشرق فوطفوا في معانيهم وشاركوا في أساليبهم، ومنه ما طبعوه بطابعهم الخاص كوصف الطبيعة وراثاء الممالك الزائلة، ثم اختراع فن الموشحة؛ غير أنه يتم أحياناً تناسي أن هذا الأدب العربي بالأندلس قد ساهم فيه، ليس فقط العنصر العربي بل كانت لأعراق وأجناس أخرى بطريقة أو بأخرى يد فيه، من مولدين ويهود وصقالبة وبربر وقوط، إلخ.

ويبدو أن كتاب ماريا خسوس روبييرا ماطا María Jesús Rubiera Mata الموسوم بعنوان "الأدب الأندلسي" / *Literatura hispanoárabe* يصب في هذا المضمار، دون شك. وكما ذكرنا، نقصد بهذا الأدب كل الأعمال الفنية الأدبية المكتوبة باللغة العربية، والتي أنتجت في شبه الجزيرة الإيبيرية خلال فترة التواجد الإسلامي بالأندلس. إننا يمكن أن نعتبره، وبحق، رحلة مشوقة في الزمان والمكان مع هذا الأدب المتميز.

وقد حاولنا قدر المستطاع أن نقدم في مساهمتنا المتواضعة هذه ترجمة لأحد أبرز فصول هذا الكتاب والذي يحمل عنوان: "الأثر الأدبي الأندلسي". في هذا الفصل تسعى الباحثة إلى عملية رصد التأثيرات التي كانت للأدب الأندلسي العربي [الإسباني-عربي] في بقية الآداب الإسبانية كالأدب القشتالي والبلنسي والكطالاني والبرتغالي، بل وامتداد هذه التأثيرات حتى خارج حدود الجزيرة

¹ أحمد شحلان: الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح، ندوة دولية من تنظيم مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، الرباط، المغرب، 12 و 14 مارس 2002.

الإيبيرية، كما هو الشأن في جنوب فرنسا وبالضبط منطقة "البروفنثال" كما يظهر عند الشعراء الغزل فيها. وتظهر هذه التأثيرات السابقة على عدة مستويات وتتم وفق عدة وسائل كالترجمة والمشافهة على سبيل المثال لا الحصر.

ويبدو أنه حتى وإن كانت العودة إلى التراث الأدبي الأندلسي وإعادة تقييده والبحث فيه من الصعوبة بمكان، لعدة أسباب أبرزها الفارق الزمني الكبير الذي يفصلنا عنه، فإننا نجد الدكتورة ماريا خسوس روبييرا ماطا واعية جدا بهذه المسألة في عملها السابق الذكر.

ويظهر ذلك في اعتمادها على المصادر والمراجع الموثوقة وصياغة المثال واعتماد الحاجة. كل ذلك بأسلوب علمي وموضوعي رصين ولطيف؛ ولم لا وهي واحدة من أبرز المستعربين الإسبان الكبار الذين جاد بهم القرن العشرون من أمثال: إميليو غارثيا غومث Emilio García Gómez وماريا خسوس بيغرا María Jesús Viguera وفديريكو كورينيي Federico Corriente واللائحة تتأبى عن الحصر في هذا الصدد.

إن الغاية من ترجمة هذا الفصل اليوم والكتاب في مجمله، في فرصة لاحقة، لا تخرج عن كونها محاولة بسيطة ومتواضعة نبتغي من خلالها تقريب القارئ العربي - الذي لا يستطيع أن يصل إلى كتاب كهذا في لغته الأصلية - من فحواه ومعرفة كيف ينظر الآخر إلى تراث عام نحن من أبرز المشاركين في إنتاجه. فإذا تحقق هذا فقد تم القصد، والله ولي التوفيق.

❖ الشعر الغنائي¹

لقد رأينا فيما يتعلق بالشعر المقطعي الأندلسي، حول الموشحة والزجل، كيف أن الأدب الأندلسي قد استوعب أشكالا ومواضيع مصدرها الشعر الغنائي الأوروبي وكيف أن الخرجات تنحدر من شعر قديم أنثوي عام بالنسبة للأشعار الأوربية وأن أصوله تمتد إلى بلاد اليونان القديمة، وكيف أنه كان يتم التعبير فيها بواسطة لغات يمكن أن نعرفها بكونها قبل إغريقية وقبل أوكسيطنانية² تحمل في طياتها كلمات عربية لا زال أصل شكلها المقطعي يناقش إن كان عربيا أم أنه ذو أصل أوروبي، بحيث تبدو لنا هذه النظرية الأخيرة أكثر احتمالا لأن الشعر المقطعي هو الطاغى في الأدب الروماني ونادر في نظيره العربي.

السؤال المطروح هو: هل هذه العلاقة ذات ذهاب وإياب، هل الشعر الغنائي الأندلسي أثر بدوره في نظيره الروماني، وبالضبط في أول تظهور واع وعالم له ونقصد شعر البروفنثال³ الذي أثر هو الآخر في باقي الأشعار الغنائية الأوربية؟ إنه موضوع قديم كان قد حمله إلى طاولة النقاش يسوعي إسباني في إيطاليا؛ حيث كان لحل الجمعية الدينية من طرف "كارلوس الثالث" Carlos III السبب في الذهاب إليها. ويتعلق الأمر بالأب خوان أندريس Juan Andrés، المدافع عن التأثير العربي في الشعر الغنائي الأوروبي. هذا الموضوع عاد بقوة في ثلاثينيات القرن العشرين وبالخصوص من خلال أ. ر. نيكول⁴ الذي كان يلح على التشابه في الأشكال بين شعر غييرمو دي أكيثانيا والأشكال الزجلية، وكذلك الاتصال الثقافي بين طرفي البيريني كليهما والذي، كما رأينا، كان

¹ الشعر الغنائي وقد يسمّى بالشعر الوجداني، وهو يعني ذلك التعبير عن العواطف الخالصة في مجالاتها المختلفة من فرح وحنن وحب وبغض، وما إلى ذلك من المشاعر الإنسانية. ويعد هذا اللون أقدم أشكال الشعر في الأدب العربي مثلا بل وحتى العالمي، فقد كان الشعراء القدماء يعبرون تعبيراً خالصاً عن هذه المشاعر الإنسانية وقد يكون هذا التعبير مصوراً لذات الشاعر ومشاعره. وقد ارتبط منذ نشأته بالموسيقى والغناء ومن هنا سمي بالشعر الغنائي. (المترجم).

² اللغة الأوكسيطنانية لغة متطورة عن اللغة اللاتينية العامية. وهي لغة لا زالت متداولة ومعترف بها رسمياً في بعض المناطق والأقاليم في دول أوروبية عديدة كفرنسا (خاصة جنوب فرنسا)، وإسبانيا (خاصة في كاتالونيا). (المترجم).

³ شعر غنائي غزلي عفيف انتشر في منطقة البروفنثال جنوب فرنسا. ويعتبر دوق أكيثانيا المسمى غييرمو دي بوثاي أول شاعر في هذا التيار الشعري العريق الذي سينتشر في دول أوروبية عديدة فيما بعد وسيؤثر في الكتابة الشعرية فيها بصفة عامة. (المترجم).

⁴ Un resumen de sus teorías se encuentra en su obra hispano-árabe: "Poetry and its relations with the old provençal troubadours", Baltimore, 1946.

عاديا وقديما دون أن نحتاج إلى ذكر المناسبة المشهورة التي تم فيها الاستيلاء على بارباسترو (بلدية في إقليم ويسكا) من طرف صليبي ما وراء البريني "1064م"، حتى وإن كان بهذه المناسبة ستمتلىء البلاطات الأوروبية بالأسرى المسلمين الذين كان من بينهم شعراء وإيماء مغنيات.¹

إن فك رموز الخزجات الرومانية الأولى بواسطة ستيرن Stern حمل الباحثين نحو نقطة اهتمام أخرى. لكن التأثير العربي في الشعر البروفنتالي يبقى مادة معلقة، والتي في لحظة ما، سيكون من الضروري أن يعاد طرحها بدون نظريات متحيزة، لأنه وبدون شك لم يولد الغزل فقط انطلاقا من التأثير العربي.

غير أننا نعتقد أن حضور الشعر العربي في الشعر الغنائي للغة الأوكسيطانية يوجد مثبتا في نشيد يعود إلى القرن 9م، وذلك عند سان مارثيال دي ليموخس² San Marcial de Limoges مكتوبا باللغة الأوكسيطانية المحلية ومهدى إلى القديسة ماريا وبدايته هي:

أصدقائي وأوفياي

اتركوا الغزل

ولنتعلم لحنا جديدا

للعدراء ماريا.³

على الرغم من أن أعداء التأثيرات العربية، من أي نمط كانت، يزعمون تغيير كلمة "غزل" فإنه من البدهي أن السياق نفسه لا يترك مجالا للشك: اتركوا أغاني الحب الدنيوي - لتتذكر أن "غزل" هو الاسم التقني الذي يسمى به شعر الحب العربي - وغنوا للقديسة ماريا.

ولما كان الأمر كذلك، فإن هذا يعني أنه قبل أن ينشأ شعر البروفنتال، أي شعر التروبادور أو غزل البلاط، قد كان الشعر العربي دارجا إلى درجة أن الشاعر الجوال أصبح يقدم إلى جمهوره شيئا جديدا: لننشده شعرا دينيا.

إذا كان حضور الشعر العربي يبدو بدهيا في الجانب الآخر من البريني فإنه يلزم أن يكون وبحق في الشعر الغنائي لشبه الجزيرة الإيبيرية. إن الأثر عميق ومنتشر⁴. سنقدم فقط مثالين، بحيث يتعلق الأول بظل طويل و ممتد لخرجة محتملة بالعربية الدارجة قام بدراستها إميليو غارثيا غومث:⁵

قلبي بقلب،

قلبي عربي.

¹ H. Peres: "El esplendor", op. cit. supra. pp. 389 – 390.

² هو أول أسقف بمنطقة ليموخيس جنوب فرنسا. و هو واحد من سبعة رجال دين تم تعيينهم أساقفة وبعثهم إلى بلاد الغال من أجل تمسيح أهلها. وهكذا عين هذا الأسقف في منطقة ليموخيس. وقد كان ذلك في عهد الإمبراطور الروماني ديسيو. توفي سان مارثيال سنة 273 م. (المترجم).

³ P. Dronk: "La lírica en la Edad Media", Madrid, 1978, p. 61.

⁴ J. Vernet: "La cultura hispanoárabe", op. cit. supr. pp. 281 – 299.

⁵ Emilio García Gómez: "La canción famosa Calvi vi calvi / Calvi arabi" – V –, Adición sobre Calvi vi calvi, AL – Ándalus, 21 (1956), pp. 118 y 215 – 216.

والأغنية ذكرها الموسيقي ساليناس Salinas (القرن 16م) قائلا إن لحنها ساعده في أغنية "الملك ألفونسو" Alfonso ذات البنية الموشحية البدهية كما يسجل كذلك إ. غ. غومث¹ هذا الأمر:

الملك ضون ألفونسو

ملك يا سيدي

ملك الملوك

الإمبراطور.

لكن الأغنية الخرجة التي قد تكون من موشحة² أو من زجل تظهر كذلك عند أسقف هيطا كما أشار إلى ذلك غارثيا غومث:

العربي صائح بأعلى صوته،

قلبي العربي!، مترنما بنغمه.

وتتضح كذلك عند خيل بنتي Gil Vicente في "كوميديا روبينا" 1521م، حيث تقول إحدى الشخصيات إنها تعرف الأغاني الآتية:

- "يودع كرشنبا".

- "كذلك امنحني قيمة ليونور".

- "قتلتم الحب في الصغر".

- "في باريس كان السيد الضأ".

- "لنذهب قال عمي".

- "كذلك قلبي عربي".

مثال آخر يمكن أن يكون الأصل العربي لأهزوجة عيد الميلاد القشتالية التي تعرف بـ: "المسيلمات الثلاث":

ثلاث مسيلمات أوقعني في الغرام

¹ إميليو غارثيا غوميث Emilio García Gómez (1905 - 1995). هو مستشرق إسباني. وصل إلى بغداد باعتباره سفيرا لإسبانيا يوم 13 يوليو 1958م، أي قبل يوم واحد من اندلاع الثورة في العراق. له العديد من المؤلفات حول التاريخ والأدب العربيين قديما وحديثا وترجم الكثير من النصوص العربية إلى الإسبانية منها تحقيق وترجمة كتاب "رايات الميرزين" لابن سعيد المغربي وترجمة كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي و"رسالة الشقندي في فضل أهل الأندلس" الواردة في كتاب "نفح الطيب" للمقري، و"الأيام" لطفه حسين (1954)، كما ترجم شعر العديد من الشعراء الأندلسيين مثل ابن الرقاق وابن زمرك. كتب بحثا مهمة حول قصر الحمراء في غرناطة مثل "قصائد عربية على جدران الحمراء" و"أضواء قديمة على صر الحمراء". قام باحثون عرب بترجمة بعض كتبه مثل كتاب "شعراء الأندلس والمتني" الذي ترجمه إلى العربية الطاهر أحمد مكي و"الشعر الأندلسي" الذي ترجمه حسين مؤنس. (المترجم).

² الموشح فن شعري مستحدث يختلف عن ضروب الشعر الغنائي العربي في أمور عدة، وذلك بالتزامه بقواعد معينة في التقنية وباستعماله اللغة الدارجة أو الأعجمية في خرجته ثم باتصاله القوي بالغناء. ومن اللافت للانتباه أن المصادر التي تناولت تاريخ الأدب العربي لم تقدم تعريفا شاملا للموشح، بل اكتفت بالإشارة إليه إشارة عابرة حتى أن البعض منها تحاشى تناوله معتذرا عن ذلك لأسباب مختلفة. فابن بسام الشنتريني لا يذكر عن هذا الفن إلا عبارات متناثرة، أوردها في كتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، وأشار إلى أنه لن يتعرض للموشحات لأن أوزانها خارجة عن غرض الديوان، لا أكثر على غير أعاريض أشعار العرب. أما ابن سناء الملك فيقول: "الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص". (المترجم).

في جيان

عائشة، فاطمة، ومريم

ثلاث مسيلمات أنيقات جدا

كن ذاهبات لجمع حبات الزيتون

ووجدنهما مجموعة

فاستدرنا يائسات

وحال لوطن

في جيان

عائشة، فاطمة، ومريم.

على الرغم من أن الأزوجة تضم أكثر من مقطع ومع أنها تقبل نظاما متوازنا - أي من صنف إغريقي / برتغالي -، فإننا نبين نواتها الأصلية التي تتوفر على بنية زجلية كما فطن إلى ذلك رامون مينيندث بيدال Ramon Menéndez Pidal. لكن خوليان ريبيرا¹ Julian Rivera هو الآخر، اكتشف كون هذه الأزوجة تجد أصلها من حيث مضمونها في أقصوصة تعزى إلى هارون الرشيد. وتوجد في العديد من كتب الآداب من قبيل "العقد الفريد" لابن عبد ربه وكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني. وأعيد إنتاجها في "ألف ليلة وليلة". في هذه الأقصوصة، نجد ثلاث فتيات يتنازعن العضو الذكري لهارون الرشيد والذي فلتحت فقط واحدة منهن في الإمساك به وبقيت الأخريان يائستين مصفرتي الوجهين.²

إن الأصل العربي لهذه الأزوجة ليس كلاما مطلقا على عواهنه يجد مبرره في حضور الثلاث نساء اللائي لم يجدن شيئا، وهو موضوع (*Las 3 marías evangélicas*) بكل تأكيد، بل يمكن أن يكون محاكاة إسلامية ساخرة. إن حبات الزيتون عند المسيلمات الثلاث هي في الحقيقة تلطيف للكلام كما تؤكد أزوجة أخرى من "مجموعة أغاني القصر" والتي تتوفر على بنية زجلية هي الأخرى. في هذه الأزوجة نجد ثلاث نساء يتنازعن بكل وضوح نفس الشيء كما هو الأمر عند إيماء هارون الرشيد. هذه الأزوجة قمنا بربطها بنظيرتها "المسيلمات الثلاث" في العمل الذي ذكرناه منذ قليل. وكما هو الشأن في الحالة السابقة، نستعمل هنا هذا النظم غير المتوازن:

لوكان في تلك الدارة!

ربح لثلاثتهن جميعا

ثلاث شابات من تلك الدارة

كن يكشفن عن عورتهن

¹ فقيه لغة، مستعرب و عالم موسيقى إسباني مشهور. اشتهر ببحوثه في مجال الاستعراب في إسبانيا المسلمة و غيرها. توفي سنة 1934. (المترجم).

² M. j. Rubiera Mata: "De nuevo sobre las tres morillas", AL - Ándalus, 1972. pp. 133 - 143.

ولم يتبق لهن إلا شريط
وانهمكت في البحث عنه إحداهن
من أجل أن تريحن ثلاثتهن
ثلاث شابات من تلك الدارة
كن يكشفن عن عضو ذكرى
ولم يبق لهن إلا قطعة ثوب واحدة
فذهبت للبحث عنها إحداهن
من أجل أن تريحن ثلاثتهن.

في ذلك العمل نفسه قمنا بتحليل آثار الموضوع في الشعر الأندلسي: إشارات إلى "عائشة، فاطمة ومريم عند ابن قرمان وابن الجياب". لنا اليقين أنه كان يوجد زجل عربي منحدر من الأهزوجة القشتالية. وليس هذا هو الحالة الوحيدة فقط بل وحتى في "مجموعة أغاني القصر" كالأهزوجة التي يذكر سانتشيث روميرالو¹ Sánchez Rumeralo والتي هي من جديد زجل وفيه ذكر لأسماء عربية:

من كان يجب أن يأخذك!

ليتي!

أي فاطمة!

فاطمة الأكثر أناقة

يجب أن آخذك من إشبيلية،

وأخذك خليلة

ليتي!

أي فاطم!

❖ الشعراء المسلمون الجوالون

في أحد كتبه الكلاسيكية، "Poesía juglaresca y juglares" / "شعر الغزل والغزلين" يسجل رامون منيندث بيدال²، وجود شعراء وشاعرات مسلمين جوالين على طول عرض الجغرافيا الإسبانية في ارتباط على وجه الخصوص بالأنشطة الموسيقية. إن

¹ A. Sánchez Romeralo: "El villancico", Madrid, 1969, p. 398.

² هو مؤرخ ولغوي وباحث إسباني في الفلكلور والشعر الشعبي الإسباني وتاريخ العصور الوسطى. اهتم على وجه الخصوص بدراسة تاريخ وأسطورة السيد. عضو ثم مدير الأكاديمية الملكية الإسبانية سابقا. توفي سنة 1968. (المترجم).

حضورهم يفسر بدون شك الظواهر التي رأينا منذ قليل. إنهم كانوا يربطون الشعر المقطعي الأندلسي الذي هو دائما موسيقي، بالشعر الغنائي ذي الطابع التقليدي القشتالي.

سيكون من الصعب إثبات وجود منشدي "مآثر" و"الرومانثيرو" بما أنه كما رأينا لم توجد ملحمة في الأدب العربي وأنه بدهي أن تتم اتصالات بين عوالم أدبية متوازية. غير أنه وُجد شعراء وشاعرات مسلمون جوالون فيما يتعلق بالشعر القصصي القشتالي، كانوا في الأصل مسلمين متشبعين بالثقافتين معا. هكذا فقط يمكن تفسير "رومانثي" ابن الأحمر Abenámár الذي يعج بعناصر أدبية عربية حيث أشرنا إلى أحدها سابقا. إنه رومانثي ثغري أصيل ونتاج لانصهار ثقافتين اثنتين.

إن قيمته التاريخية لمشهوده، بحيث يبدو أنه يعكس لقاء الملك خوان الثاني Juan II في حملته ضد غرناطة سنة 1431م مع الأمير النصري ابن المولى الذي ذهب ليقدم خدماته إلى ملك قشتالة من أجل أن يساعده على تنحية الملك إنيكييردو¹ Izquierdo. هذا على الرغم من أننا نشكك في أن يكون اسم Abenámár أحد العناصر التاريخية بالتحديد، وإنما هو من صلب الخيال الشعري؛ ذلك أنه يبدو مثيرا للعجب أن يسمى بابن الأحمر أمير نصري من جهة الأم، وبالتالي لم يكن يسمى هكذا Ibn Al – Ahmar ولكن ابن المولى (Aben Almao)، في "الوقائع المسيحية" وأن ابن الأحمر تعطي في القشتالية Alamar بدون إسقاط أداة التعريف.

أيضا، يتوفر على قيمة طبوغرافية: إنه يصف غرناطة في القرن 15م بمسجدها و بحمرائها، وببلاطاتها القشانية، وبالمخصوص تلك التي ستختفي فيما بعد حيث كان يكتب الشاعر ابن زمرك² قصائده الإيغرافية.³

لكنه أيضا، قصيدة تدخل في تناص عربي عميق. سنحلل الأمر من وجهة نظر الرومانثي هاته مستعملين كما هو الشأن في حالة الأهازيج، الرواية الأصلية الأولى والمتمثلة في "مجموعة أغاني أمبيرس" المنشورة سنة 1550م:

ابن الأحمر، ابن الأحمر

مورو بلد المغاربة

يا لها من قصور تلك!

عالية ولامعة.

منذ العصر الجاهلي ظل المفهوم الأدبي للقصور العربية مرتبطا بنقطتين: "كونها عالية ولامعة". بحيث إنه منذ القصر الأسطوري لغمدان في أراضي ملكة سبأ حتى البلاطات القشانية لابن زمرك ظلت القصور توصف بعلوها تحت الشمس.⁴ هذه القصيدة تُعدّد تعداد أصيلا الصُّروح التي تترأى من على الأراضي المرتفعة:

الحمراء كانت يا سيدي

¹ P. Benichou: "Creación poética en el romancero tradicional", Madrid, 1968, pp. 60 – 63.

² أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد الصريحي (733 – 793 هـ / 1332 – 1392 م) المعروف بابن زمرك من كبار الشعراء والكتاب في الأندلس، وكان وزيراً لبني الأحمر، ولد بروض البيازين بقرطبة وتلمذ على يد لسان الدين بن الخطيب. (المترجم).

³ M. j. Rubiera Mata: "Ibn Zamrak, su biógrafo Ibn AL – Ahmar y los poemas epigráficos de la alhambra", AL – Ándalus, 42, (1977), pp. 447– 451.

⁴ M. j. Rubiera Mata: "La arquitectura en la literatura árabe", op. cit. Supra.

والآخر المسجد

والأخرى القصور القشانية

مشيدة بإتقان مدهش:

الأعرابي الذي أتقنها

كان يحصل على مئة دويلا يوميا

لما انتهى منها

جعله الملك يقضي نخبه

لكي لا يبني مثلها

لملك أندلوثيا.

الأخرى هي غرناطة

غرناطة النبيلة.

هذه الأبيات الملغزة - من هو ملك أندلوثيا (الأندلس؟)؛ إذن في تلك الفترة هو خوان الثاني نفسه أو ملك غرناطة - تنتسب إلى التقليد الأدبي العربي. يجب أن نعود القهقري إلى أسطورة عربية جاهلية تتمثل في القصر الأسطوري "الخورنق"¹ الموجود على حدود شبه الجزيرة العربية مع بلاد الرافدين. وحسب الطبري (القرن 10م) فإن:

"الذي بنى الخورنق كان رجلا يسمى "سِنَمَار" ولما فرغ من بنائه انبهر الناس من جماله وإتقانه التام، فقال المهندس نتيجة ذلك: "لو عرفت أنكم ستعطوني الأجر الذي أرغب فيه لبنيت قصرا يدور تابعا سير الشمس، ولكان أحسن من هذا". ولكي لا يفعل ذلك، قاموا بروميته من على الخورنق".²

هذا الرومانتي ينتهي بحوار بين الملك خوان وغرناطة التي يطلب يدها للزواج فترفض:

هناك يتكلم الملك خوان،

اسمعوا جيدا ما يقوله

غرناطة، إن أردت،

¹ الخورنق هو قصر كان في نواحي العراق يعتقد أنه كان موجوداً قرب ما يسمى حالياً ناحية أبو صخير جنوب العراق، بناه النعمان بن امرؤ القيس في القرن الرابع الميلادي، وقد ورد الحديث عنه في أحاديث العرب وأشعارهم إضافة إلى قصر السدير الذي بناه اللخميون المناذرة "أيضاً، كما يقال أنه شهد أحد أهم المؤتمرات في التاريخ العربي قبل الإسلام "مؤتمر الخورنق" ففي هذا "المؤتمر" حاول الملك اللخمي توحيد كلمة العرب للحد من نفوذ الدولة الساسانية. كما وترتبط حكاية الخورنق بحكاية بنائه سنمار وهو مهندس من الروم، فكان القصر بناء عظيماً ولزم لبنائه ستون عاماً، كان فيها سنمار يعمل عامين أو ثلاث ويغيب خمس، فلما انتهى بناء القصر قال لبانيه: إن هناك في القصر آجرة لو زالت لسقط القصر كله، وأنه لا يعلم مكانها غيره، فما كان من صاحب القصر إلا أن ألقاه من أعلى القصر، كي لا يخبر أحداً عن تلك الآجرة، فضرِب فيه المثل "جزاء سنمار". وقد صمد القصر لأكثر من ثمان مئة عام، و جاء وصفه في رحلات ابن بطوطة. (المترجم).

² M. j. Rubiera Mata: ibídem, p. 35.

سأتزوج بك،

سأعطيك عربونا ومهرا،

قرطبة وإشبيلية،

و خيريث دي لا فرونتيرا.

غرناطة، إن أردت، المزيد.

لأعطيتك المزيد.

هكذا تكلمت غرناطة،

فكان يجيئها الملك الطيب.

أنت متزوج أيها الملك ضون خوان،

وأنا متزوجة ولست أرملة،

المسلم الذي يرعاني

يريد أن يذود عني جيدا.

من جديد يبدو التناص العربي بدهيا: المدينة التي يجب ضمها مقدمة في صورة خطيبة وضمها كزواج هو موضوع مبتذل. الملك المعتمد بن عباد يصف لنا فتح مدينة قرطبة بقوله:

طلبت قرطبة الجميلة للزواج

عندما رفضت من تقدم إليها

بالسيوف والرماح.

كم من زمنٍ ظلت عارية!

لكن عندما تقدمت إليها أنا،

تدثرت بجلايبب وأزينت بجواهر رائعة.

عرس ملكي! سنحتفل بالعرس في قصرك،

بينما الملوك الآخرون قابعون في موكب الخوف.¹

إن قصيدة الغرام المنظومة بالقشتالية، على الأقل في هذا الجانب، هي قصيدة عربية. من كان ينظمها كان يعرف الأساطير الجاهلية ووصف القصور والدور وصور الشعر الغزلي العربي. إن هذه القصيدة أمسلمة أم صابئة كانت تظل ثغرية أي نتاجا لثقافتين اثنتين.

¹ M. j. Rubiera Mata: AL- Mu'tamid, op. cit. supra. p. 57.

❖ الترجمات

لقد تكلمنا حول ترجمة العرب لمجموعة من الحكايات الهندية والفارسية ذات المغزى الأخلاقي إلى لغتهم سواء في شكل مجاميع كاملة أو متفرقة أو في علاقة بالأمثال والحكم، إلخ لما لهذه الحكايات من فائدة تربوية وأخلاقية.

إن هذه الفائدة نفسها كانت هي الحافز على ترجمتها من العربية إلى اللاتينية أو إلى اللغة القشتالية (الإسبانية) في شبه الجزيرة الإيبيرية انطلاقاً من القرن 12م. لقد كان الرائد والمرشد اليهودي بيدرو ألفونسو Pedro Alfonso المعمد سنة 1106م والمتبني من طرف ألفونسو المقاتل Alfonso el Batallador هو أول من كتب باللاتينية مجموعته الحكائية الأخلاقية الموسومة بعنوان: "سلوك الكاهن"؛ حيث اتكأ فيها على "كليلة ودمنة"، "السندبار" والأعمال المتعلقة بمبحث الأمثال لمبشر بن فاتك وحنين بن إسحاق. كان لهذا العمل تأثير عميق لأنه كان يقدم أمثلة للاتباع في كتب المواعظ، إلخ.

على إثر هذه الترجمة المهمة ستتوالى ترجمات أخرى للمترجمين الألفونسيين، يعني الذين لهم علاقة بالنشاط المرعي من طرف ألفونسو العاشر "الحكيم" el Sabio¹، وأقربائه وخلفائه. وهكذا سترجم "كليلة ودمنة"، المجموعة الحكائية الحكيمية التي تبتدئ بحكاية الذئبين المسميين بكليلة و بدمنة. إنها قصة مأخوذة من البانشانتيرا ومترجمة إلى الفهلوية في القرن السادس وإلى العربية في القرن الثامن الميلادي من طرف ابن المقفع. إن تعقد الحكايات والترجمات التي همت هذه المجموعة تم تلخيصها بصورة جيدة من طرف خوان برنيت Juan Vernet².

عمل آخر هندو - فارسي هو "السندبار" أو قصة "الوزراء السبعة" التي تحكي حكايات ذات مغزى أخلاقي بحيث يتم انتظار تأثير النجوم كي تغير وتنقذ حياة أمير متهم باغتصاب زوجة أبيه. الترجمة القشتالية (الإسبانية) لهذا العمل تم إنجازها تحت عنوان: "Libro de los engannos y los asavamientos de las mujeres"، وكان قد رعاها الأمير ضون فاضريكي Don Fadrique، أخو ألفونسو العاشر (الحكيم). لما كانت كل هذه الحكايات ذات الأصل الهندي تشتمل على تصميم يسمح بإدماج حكايات أخرى - في هذه الحالة الزيادة في عدد الوزراء - فإنه وجدت روايات أخرى أكثر اتساعاً من الرواية التي تمت ترجمتها من العربية إلى القشتالية وترجمات أخرى وصلت بطرق مختلفة إلى الأدب الإسباني.³

كذلك تمت ترجمة أسطورة "بودا"⁴ من العربية والتي كانت معروفة بالاسمين العرب - فارسيين "برلام وحصافة"، هذه الأسطورة وظفها ضون خوان مانويل Don Juan Manuel في كتابيه "الدول" و"الكونت لوكانور".

¹ ملك قشتالة وليون. وهو أكبر أبناء فرديناند الثالث وحفيد الإمبراطور فيليب السوادي من ناحية أبنته بياتريس دي سوابيا، وعرف في المدونات الإسلامية بالأدفونش. مارس سياسة انفتاح على الأدب والفكر الشرقيين. ورغم مخاصمته المسلمين سياسياً، فقد بلغ الاهتمام بالثقافة الأندلسية والإسلامية في عهده ذروته. تُرجمت في عهده العديد من المؤلفات إلى اللغة الإسبانية كان أهمها كتاب الإنجيل وكتاب كليلة ودمنة وكتاب التلمود وقسم من مؤلفات ابن رشد. وأمر الملك ألفونسو كذلك بترجمة كتب في ألعاب شرقية مثل "كتاب الشطرنج" واستخدم الموسيقى الأندلسية في وضع أناشيده ذائعة الصيت لاس كانتيجاس دي سانتا ماريا. في ميدان التأليف، فقد كان جهده عظيمًا بحيث جمع في طليطلة نفراً من أهل العلم ليصنفوا له كتب علم الفلك. وقد تمكن هؤلاء العلماء من النهوض والتقدم بالدراسات الفلكية بفضل مشاهداتهم ونقولهم وما قاموا به من أعمال علمية أخرى. وكان الملك كثيراً ما يشرف بنفسه على الأعمال التي كانت تجري في مدرسته الطليطلية، وكان يأمر بترجمة ما يرى نقله من الكتب الأندلسية خاصة ويقوم بترتيبها بنفسه وخاصة ما يقول منها بنظريات جديدة تعدل مذهب بطليموس في الفلك والجغرافية. وأمر كذلك بصنع آلات وأجهزة لم تكن معروفة إلى ذلك الحين. أشرف بنفسه على توجيه أعمال الترجمة والتحرير أو التلخيص التي كان مساعده يقومون بها، وأنشأ في مرسية معهداً للدراسات بمعاونة القرطبي الفيلسوف المسلم، ولم يوفق هذا المعهد المرسى كثيراً، فنقله إلى إشبيلية وأنشأ فيها مدرسة عامة لللاتينية والعربية، وجعل فيها أساتذة من المسلمين لتدريس الطب والعلوم. توفي سنة 1284 للميلاد. (المترجم).

² J. Vernet: "La cultura hispano-árabe", op. cit. supr. p. 311.

³ A. González Palencia: "Versiones castellanas del Sendebär", Madrid, 1946.

⁴ غوتاما بودا هو أحد الأسماء التي أُدرجت بقائمة مايكل هارت ل: "الخالدون المئة"، والتي جاء تصنيفها وفقاً لمدى تأثير كل شخصية في تاريخ الإنسانية. ولكن ما يشاع عن بودا هو أنه مُنشئ الديانة البوذية، ولكن هذا القول مشوب بالخطأ، فإن بودا طيلة حياته لم يدع النبوة يوماً، فهو لم يكن سوى رجل حكيم مستنير، حاول كشف أسرار الحياة والكون من حوله

لقد أشرنا سابقا بخصوص مبحث الأمثال إلى أنه كذلك تمت ترجمة الحكم التي تعزى إلى الفلاسفة الإغريق والرومان والتي تم جمعها بواسطة إسحاق بن حنين تحت عنوان: "أدب الفلاسفة" والذي حمل في القشتالية عنوان "كتاب صفوة الأمثال"؛ ثم مجموعة أخرى من نفس النوع لمبشر بن فاتك المتوفى سنة 1053م والتي تحمل العنوان التالي: "لقمات من ذهب" أو "البونوم" والتي يجب أن نضيف إليها عملا آخر من نفس النوع كذلك وهو: "سر الأسرار" الذي تمت ترجمته تحت عنوان: "Poridat de Poridates".

إن الترجمات المباشرة أو غير المباشرة لهذه النصوص العربية قد تركت أثرا عميقا في الآداب الإسبانية. وكان ذلك انطلاقا من الأعمال الأخيرة التي ذكرناها، فيما يتعلق بالحكم أو أقوال الحكماء القدامى، التي تم استعمالها كما رأينا من طرف بيدرو ألفونسو Pedro Alfonso في "سلوك الكاهن" ومن هناك أو عن طريق الروايات في كثير من الأعمال في الآداب الإسبانية كالرواية الفروسية "الفارس ثيفار" أي "El caballero Cifar"، حيث تنحدر العقوبات والتوصيات التي يملئها الملك منطون Mentón على أولاده من مجموعة حكمية تسمى: "أيكة الفلاسفة" والتي حتى وإن كانت لم تثبت بعد فإن النص عربي. وبالطريقة نفسها، تظهر في "الفارس ثيفار" الحكاية الأخلاقية الموسومة بعنوان "الصياد والعلقة"، والتي توجد عند ابن عبد ربه.¹

لكن، وبكل تأكيد، تبقى المجموعة الحكمية الأكثر استعمالا هي مجموعة حنين بن إسحاق والتي وفق ما درس وولش² Walsh، تم توظيفها في "التاريخ العام"، "La general Estoria" التي تعزى لألفونسو العاشر، وفي "كتاب الحكمة" لخايمي الأول الأراغوني Jaime I، وأخيرا في "شبيه سينيكا" أو "Pseudo Séneca" و"أيكة الفلاسفة".

إن التوسطادو³ هو الآخر رغم نضويته يستعمل ترجمة حنين القشتالية من أجل وصف مرض الحب وهو خصيصة متميزة جدا في الأدب العربي:

"سوف لن يكون مضرا أن تترك الشك جانبا، لأن هذا يحدث بالطبيعة. وهكذا يعرفه الفيلسوف والطبيب اليوناني أبيقور عندما يقول: عندما يكون الحب قويا يكثر الانتباه ويطول السهر. وعندئذ يحترق الدم ويتحول إلى كآبة تضر بالفكر ويقبل التناقل ويشوش الذهن فيشك المرء في المستحيل ويشتهي ما لا يمكن اشتهاؤه إلى أن يأخذه الضر".

ربما كان من الممكن أن نتساءل، هل بعض مظاهر الإنسية المبكرة للآداب الإسبانية ليست مدينة للأدب الحكمي العربي الذي يستحضر المؤلفين الكلاسيكيين؟ ذلكم أن "التوسطادو" هو الآخر يستعمل "لقمات الذهب"، باستشهاد يعزى إلى هرميس Hermès. هذا العمل الأخير تم توظيفه أيضا في أعمال إسبانية وُسْطَوِيَّة كما هو الشأن في "كتاب الحكماء الإثني عشر" الذي درسه كذلك وولش.⁴

يبدو أن ضون خوان مانويل هو المثال الأكثر وضوحا فيما يتعلق بتوظيف الأدب العربي ذي الطابع التعليمي الأخلاقي، وخاصة الحكايات الوعظية: إن "الكونت لوكانور" يأخذ الكثير من تلك الأفاصيص الموجودة في "كليلة ودمنة" و"سندبار". فإلى النموذج

من خلال العقل، وجاء بفكر فلسفي داعم للأخلاق ويعدها الركيزة الأساسية لتحقيق السعادة في الحياة، ولكن بعد موته تم تقديس تلك الأفكار من قبل أتباعه، وامتدت تلك الصفة إلى بودا نفسه فقاموا بتأليهه وادعوا وجود ما يسمى بالديانة البوذية. (المترجم).

¹ E. García Gómez: "Versión del libro de refranes de Ibn Abd Rabbih", op. cit. supr. cap. VIII, nota. 11.

² J. k. Walsh: "Versiones Peninsulares), op. cit. supr. cap. VIII, nota. 4.

³ تقصد الباحثة عالم الإلهيات الإسباني الوسيطى اللامع ألونسو فرنانديث دي مادريغال المعروف اختصارا بهذا الاسم "التوسطادو". توفي في إقليم آيلا سنة 1455م. (المترجم).

⁴ J. k. Walsh: ibídem, p. 379.

الأول تعود مثلاً حكاية "السيد المحتال"، وسيط الراهب البوذي في الحكاية الهندية، ثم "حكاية اللبانة". في حين تعود إلى النموذج الثاني حكاية "أثر الأسد" والتي تأتينا من زمن بعيد بحيث توجد مروية في "رقصة" أرجنتينية موثقة في القرن 19م.¹

من الممكن أن تكون بعض الحكايات الأخرى قد انتقلت عن طريق المشافهة، إذ إن الكاتب الأمير وسيد المدجنين ترك البلاط لفترة ومكث بغرناطة. هناك استطاع، مثلاً، أن يستمع إلى طريفتين كان وراءهما الروميكية والمعتمد واللتين تظهر فيهما جملة بالعربية الأندلسية الدارجة:

"كان المعتمد ملك إشبيلية متزوجاً بالروميكية، وكان يحبها كثيراً أكثر من أي شيء دنيوي آخر، وكانت هي سيدة طيبة، والمسلمون كان عندهم من مثيلاتها عدد مهم، لكن عادة واحدة كانت غير مستحسنة فيها، ذلك أنها في الأماكن الرطبة تطلق العنان لرغباتها وأهوائها. وحدث ذات يوم في قرطبة أن سقط الثلج في شهر فبراير، عندما رأت الروميكية ذلك بدأت تبكي فسلأها الملك عن سبب بكائها فأجابته قائلة إنه لا يتركها أبداً في أرض يوجد بها الثلج. ولكي يدخل الملك السرور إلى نفسها أمر بزرع حقول الرمان في كل أراضي قرطبة لأن قرطبة أرض جافة ولا يسقط فيها الثلج، وفي فبراير من كل سنة كانت تبدو حقول الرمان هذه مزهرة وتشبه الثلج، لكي يجعلها تفقد تلك الرغبة في الثلج.

ومرة أخرى كانت الروميكية في إحدى الغرف المشرفة على النهر فشاهدت امرأة حافية القدمين تحرك الطين لصناعة الطوب، وعندما رأتها بدأت تبكي فسلأها الملك عن سبب بكائها هذا فأجابته بأنها لا تستطيع أن تكون مثلها أي أن تتابع ما كانت تفعله تلك المرأة. عندئذ، ولكي يسعدها أمر بملء تلك البحيرة في قرطبة بماء الزهر عوضاً عن الماء، وجعلها تمتلئ بالسكر والقرفة والزنجبار والسنابل والطحلب والعنبر وحب المسك وكل العطور الطيبة والروائح الجميلة التي وسعها ذلك. وعوض التبن وضع لها قصب السكر. وبمجرد ما امتلأت البحيرة بماءه الأشياء قال الملك للروميكية أن تنزع نعلها وتضع ذلك الطين وتصنع ما شاءت من الطوب. وفي يوم آخر، خطر ببالها شيء فأجهشت بالبكاء، فسلأها الملك عن سبب ذلك، فأجابته كيف لا تبكي وأن الملك لم يفعل أبداً شيئاً يدخل السرور إلى قلبها، وعندما رأى الملك أنه قد فعل أشياء كثيرة لكي تُسر هي وليصفي مزاجها ولكي تعلم أنها لا تعرف ماذا تطلب، قال لها كلمة تقال في العربية بهذه الصورة: إيه ولا نهار الطين والتي تعني "ولا يوم الطين" كما لو أنه أراد القول إنها قد نسيت تلك الأشياء الأخرى وما كان يجب أن تنسى ذلك الطين الذي صنعه لكي يُبهجها". (الكونت لوكانور. المثل 222).

هاتان الطريقتان توجدان معاً في مصادر عربية وتعزيان إلى المعتمد كما أشرنا إلى ذلك.

قصة أخرى من هذا النوع يمكن أن تكون قصة الرجل الذي لم يجد ما يسد به الرمق سوى الترمس الذي كان غير راض عنه إلى أن علم أن رجلاً آخر أكثر بؤساً منه كان يأكل قشور الحبوب التي كان يرميها هو. وقد اكتشف فرناندو دي لا غرانخا² Fernando de la Granja الحكاية العربية الأصلية وهي عبارة عن طريفة تعزى إلى أندلسي من القرن التاسع أثناء إقامته بمصر.³ هاته الحكاية تم نظمها في مقطع شعري عشري "Décima" مشهور من طرف كالدرون دي لا باركا Calderón de la Barca:

يحكون عن حكيم أنه في يوم،

¹ Edición del "Libro de los doce sabios", Madrid, 1975.

² مستعرب ومؤرخ إسباني مشهور ثم أستاذ جامعي وعضو في الأكاديمية الملكية الإسبانية. صاحب أطروحة قدمها سنة 1960 في موضوع: "المطبخ العربي الأندلسي". اهتم كثيراً بالشعر الأندلسي وتأثيراته في الشعر الإسباني فيما بعد. توفي سنة 1998. (المترجم).

³ A. González Palencia: "La huella del león", revista de filología española, 3, (1976).

كان فقيرا وبقيسا،

كان يتغذى فقط،

بالأعشاب التي تعود أكلها.

{....}

وهناك كتاب إسبانيون آخرون من العصر الوسيط قد استعملوا النصوص الهندو-فارسية: هكذا اعتبرت "كليلة ودمنة" مصدرا بالنسبة لرامون لول Ramón Llull في "كتاب العجائب"، وبشكل غير مباشر، من خلال "سلوك الكاهن" و"كتاب القطط" و"كتاب الأمثال". وقد استعملوا الحكايات الأخلاقية الموجودة في العمل نفسه، من "السندبار"، ومن الممكن، من بعض المصادر الأخرى ذات الطابع عينه والتي لا نعرفها حتى يومنا هذا، ولكن كانت توجد في الأدب العربي لأنها فيما بعد ستجمع في "ألف ليلة وليلة"، تلك المجموعة القصصية التي تشتمل كذلك على بنية من صنف هندو - فارسي، والتي تمكن أن تدرج فيها كمية من الحكايات ذات مصادر مختلفة، بعضها كان معروفا في العصر الإسباني الوسيط قبل أن تحرر هذه المجموعة تحريرا نهائيا.

ويمكن أن نعطي مثالا بقصة "فيلسوف كاليبيريا" التي سيعيدها خوان مارطوريل Juan Martorell في "Tirant lo Blanc" والتي توجد في "كتاب الأمثال" لكلميني سانتشيث دي برثيال Clemente Sánchez de Precial وفي "ألف ليلة وليلة". هذا الأمر يفترض في رأينا حكاية عربية سابقة. بالقدر ذاته، يمكن أن تكون حكاية "الحصان الخشبي" الموجودة في "ألف ليلة وليلة" (357 - 371) قد عرفت في أوروبا الوسطوية بحيث تم توظيفها من طرف أدونيت لي رواس Adenet le Roi في كتابه "Cleomades" والذي كان هو الآخر مصدرا بالنسبة لثريانتس Cervantes في كتابه "Clavileño". قصة أخرى يظهر أنها وصلت عن طريق الترجمة هي قصة العذراء "تودد" وهو موجز آداب تستظهره أمة (جارية) مسلمة واسعة المعرفة لكي تضمن أن يشترها ملك فتتخذ بهذا سيدها من الإفلاس. النص القشتالي الوسطوي الذي يوجد في نفس المخطوط مثل "البونيو" يسمى الأمة ب: تيودور Teodor. لقد كانت روايات وسطوية أخرى مارست الرقابة على الإشارات الإسلامية في النص العربي وأضافت عناصر مسيحية، بعد ذلك ستعرف طريقها إلى أدب العصر بحيث تم استعمال مضمونها من طرف لوبي دي بيغا Lope de Vega لإنتاج كوميديا يمكن أن نعتها بالمنتصرة للنساء. وتوجد في العربية رواية متأخرة ضمن مجموعة "ألف ليلة وليلة".

هناك فصل آخر ضمن تاريخ الترجمات الألفونسية وتأثيرها في الآداب الأوروبية. إن الأمر يتعلق بالترجمة التي أنجزت في المحيط الألفونسي حول حكاية الإسراء والمعراج، وهي حديث يشرح آية قرآنية غامضة. لقد تمت ترجمة هذه الحكاية من طرف الفقيه إبراهيم سنة 1277م إلى القشتالية، وبعد ذلك إلى اللاتينية وإلى الفرنسية عن طريق بونابنتورا دي سيينا Buenaventura de Siena وهو كاتب عدل عند ألفونسو العاشر Alfonso X². إن وجود هذه الترجمة يؤكد فرضية ميغيل أسين بلاثيوس Miguel Asín Palacios³ في خطاب ولوجه إلى الأكاديمية الإسبانية سنة 1919م حول الأصل الإسلامي للنظرة الأخروية عند دانتي

¹ Vernet: «La cultura», op. cit. supr. p. 316.

² E. Cerulli: "IL libro della scala e la questione delle fonti arabospagone della Divina Comedia", El Vaticano, 1949. Y "Nuove ruote sul libro della Scala e la conoscenza dell'Islam in occidente", El Vaticano, 1972.

³ ميغيل أسين بلاثيوس، (بالإسبانية) Miguel Asín Palacios (سرقسطة، 5 يوليو 1871. سان سباستيان، 12 أغسطس 1944). هو مستشرق وقس كاثوليكي إسباني. من مؤلفاته كتاب "علم الأخريات الإسلامي في الكوميديا الإلهية" (1919)، و عنوانه بالإسبانية هو (La Escatología musulmana en la Divina Comedia).

Dante في "الكوميديا الإلهية".¹ وقد نوقشت هذه النظرية كثيراً، ولكنه اليوم، وبفضل الاكتشافات التي بينت وجود هذه التقاليد، أمكن التفكير في أن دانتي كان يعرف قصة إسرائ ومعراج النبي محمد كما هو الشأن بالنسبة لباقي الكتاب الوسيطيين.

❖ الانتقال الشفهي

حتى الآن، قد تكلمنا عن انتقال الأدب العربي أو "الإسبانو-عربي" أي الأندلسي بطريقة عامة وأدبية، وذلك منذ الانتقال عبر الزجل كما هو الشأن في موضوع "المسيلمات الثلاث" وأغان أخرى، أو عن طريق الاحتكاك المباشر للكتاب بالنصوص العربية كما هو حال المترجمين أو الأدباء المثقفين الذين انغمسوا لسبب من الأسباب في الثقافة العربية كما هو الشأن بالنسبة لحالة ضون خوان مانويل أو أنسيلم تورميديا² Anselm Turmeda، الراهب الفرنسيسكاني المرتد إلى الإسلام في تونس، ومؤلف عمل بالعربية مثير للجدل ضد المسيحية. وعمله بالكطالانية يعكس مظاهر متعددة للثقافة العربية³ مثل: "La disputa de L'Ase"، وهي انعكاس لقصة من الموسوعة الفلسفية المرطوقية لإخوان الصفا التي اطلع عليها أسين بلاثيوس وأعمال أخرى من قبيل: "Cobles" *de la divisió del regne de Mallorca* التي تتكئ على حكاية توجد عند "الجاحظ".⁴

لكن يبدو أنه كانت هناك طريقة أخرى لانتقال الأدب العربي إلى الآداب الإسبانية وهي طريقة شعبية و، أكيد، شفوية من خلال المدجنين والموريسكيين الذين كانوا يعيشون في أراضٍ مسيحية: المدجنون الذين تم إجبارهم على التحول إلى المسيحية والموريسكيون الذين، عموماً، كانوا ثنائيي اللغة، كانوا يعرفون العربية ولغة المجتمع الذي كانوا منغمسين فيه بقشائليته وكطالانيته، إلخ.

إن الكثير من المهن التي كان يزاولها هؤلاء المسلمون والمدجنون كانت تجبرهم على الاحتكاك المستمر مع المسيحيين، وبالتالي على تبادل الحكايات والطرائف والأمثال. سنذكر، على سبيل المثال، حالة أصحاب النزل، بحيث يبدو أن المدجنين⁵ والموريسكيين تعاطوا كثيراً لهذه المهنة واعتادوا عليها، وما تتيحه من فرص لحكاية الأفايص قرب النار إلى المسافرين المترجلين. أو حالة الموريسكيات

الذي ألقى فيه الضوء على المصادر الإسلامية للأفكار والدوال (الموتيفات أو الأحداث) الموجودة في الكوميديا الإلهية لدانتي. كتب بلاثيوس الكثير من المؤلفات عن الإسلام في العصور الوسطى، وعني بمحيي الدين بن عربي عناية شديدة، فنشر عنه سلسلة دراسات متنوعة من أبرزها كتابه "الإسلام المتمسح" 1931، بالإسبانية (El Islam cristianizado)، وهو دراسة في التصوف الإسلامي من خلال أعمال ابن عربي. كما عني بدراسة أبي حامد الغزالي، وله مقالات عن التأثيرات الإسلامية على المسيحية والتصوف المسيحي في إسبانيا. (المترجم).

¹ الملهاة الإلهية أو الكوميديا الإلهية، بالإيطالية (Divina Commedia). هي شعر ملحمي ألفه دانتي أليغييري ما بين 1308م حتى وفاته عام 1321م. تعد الكوميديا الإلهية من أهم وأبرز الملحمات الشعرية في الأدب الإيطالي، ويرى الكثيرون بأنها من أفضل الأعمال الأدبية في الأدب على المستوى العالمي. تحتوي الملحمة الشعرية على نظرة خيالية بالاستعانة بالعناصر المجازية حول الآخرة بحسب الديانة المسيحية، وتحتوي على فلسفة القرون الوسطى كما تطورت في الكنيسة الغربية الكاثوليكية الرومانية. تنقسم الكوميديا الإلهية إلى ثلاثة أجزاء: الجحيم، المطهر، والجنة. ويعد قسم الجحيم الأشهر في هذه الملحمة، ويتألف من 34 مقطعاً أو أنشودة، بينما يتألف كل من القسمين الآخرين من 33، أي أن الكوميديا الإلهية مكونة من 100 مقطع أو أنشودة ككل. وتتألف الملحمة من 1423 بيتاً شعرياً. رحلة دانتي في الآخرة بحسب أحداث الملحمة استغرقت أسبوعاً؛ يومان في الجحيم وأربعة في المطهر ويوم في الجنة. ويتألف كل جزء من ثلاث وثلاثين قصيدة، بعدد متساوٍ من الأبيات، مضيئاً أنشودة في المقدمة ليصل الرقم إلى المئة رمز الكمال. (المترجم).

² أبو محمد عبد الله بن عبد الله الترحمان الميورقي، ولد في ميورقة في 1355، كان قساً نصرانياً اسمه أنسيلم تورميديا، أسلم وألف كتاب "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب" وغيره وكان وزيراً في تونس وتوفي فيها سنة 1423. (المترجم).

³ M. De Eplaza: "La tuhfa, autobiografía y polémica islámica contra el cristianismo de Abd Allah Al-Turyman (Fray Anselm Turmeda)", Roma, 1971.

⁴ J. Samso: "Tur mediana", boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona, 34 (1971 - 1973), pp. 51 - 80.

⁵ المَدَجُّون جمع مدَجَّن، تحولت مع مرور الزمن عند مسيحيي الأندلس في القرون الوسطى إلى موديجاريس أي بالإسبانية: (mudéjares)، هم المورو المسلمون الذين لبثوا في شبه الجزيرة الإيبيرية إبان حروب الاسترداد، في البداية لم يتنصروا؛ لكنهم أجبروا على ذلك في أواسط القرن السادس عشر، ثم طرد من أبي التنصير منهم سنة 1630م. بقي أسلوب عيش المدجنين بيتاً، في المعمار كما في الفن وخلافهما. ويلقبون كذلك بالموريسكيين. (المترجم).

اللائي كن يشتغلن كخادومات أو إماء في المنازل المسيحية ويرعين الصغار بقص الحكايات عليهم، كيفما كان نوعها. إن الأمثلة من هذا النوع ليمكن أن تعد بالملئات.

هكذا إذن، يمكن أن نربط بهذا الصنف من الانتقال مختلف الأفايصص التي تظهر مشتتة في الآداب الإسبانية والتي تشتمل على ميزات الأفايصص الشعبية، ولكن توجد أيضا في الأدب الإسباني - عربي (الأندلسي) من حيث أمكن انتقلها. بهذه الصورة يمكن أن نتحدث عن قصة "لاثرو دي طورمس" أي "Lázaro de Tormes" عندما يخدم حامل السلاح ويخطر بباله أنهم يحملون ميتا إلى منزله لدفنه، والذي قالت له الأرملة إنهم يقودونه "إلى الدار الكئيبة المظلمة"، إلى الدار التي لا أكل ولا شرب فيها أبدا، فيظن لاثرو أنهم يحملونه إلى منزل سيده حيث لا يوجد لا ضوء ولا طعام نتيجة العوز. إن القصة عربية، وتوجد في مواضع متعددة بما في ذلك أعمال أندلسية كما هو الحال عند الغرناطي ابن أسيم كما حدد ذلك فرناندو دي لا غرانخا¹ وحكاية الطيران عند ابن فرناس التي تعزى إلى بدوي من بلنسية، والتي توجد ضمن مدح لأغوستين دي روخاس² Agustín de Rojas، والتي رأيناها حديثا منتجة من جديد في قول شعبي لألكوي Alcoy أي الحكاية التي يفتح بها غراثيان Gracián "نقادته"³ على طريقة ابن طفيل في فيلسوفه العصامي⁴. وهذا الأخير، عمل لم يتمكن اليسوعي الأراغوني من الاطلاع عليه لأن ترجمته إلى اللاتينية بواسطة إدوارد بوكوك Edward Pococke متأخرة بحوالي عشرين سنة عن صدور الجزء الأول من "النقادة". لكن غراثيان "بالفعل، علم ذلك عن طريق رواية موريسكية للحكاية العربية مرتبطة بأسطورة ألكسندر: "الوثن، الملك وابنته".⁵

حجة أخرى حول كون المدجنين والموريسكيين هم الذين نقلوا تلك الأفايصص الأدبية، يمكن أن تكون الأصل العربي للمضمون الحكائي الذي يستعمله تيرسو دي مولينا⁶ Tirso de Molina في "المدان بسبب شكه" أي "El condenado por desconfiado". إن الحكاية العربية، والتي يمكن بدورها أن تنحدر من أسطورة مسيحية، تتحدث عن رجل ناسك يشك في نجاته الأبدية، ويقول له ملك أو شيطان أن رفيقه في الحياة الأخرى سيكون جزارا - مهنة ملطخة، أي سيئة الذكر، بين المسلمين - ونتيجة لذلك يفقد هذا الرجل أمله قبل أن يتبين أن الجزار هو أيضا رجل ورع يرعى والديه الطاعنين في السن. هذه الحكاية تم الاحتفاظ بها في الرواية العجمية أي في الإسبانية المكتوبة بأبجدية عربية وهي شكل أدبي متميز جدا للمدجنين والموريسكيين.⁷

إن انتقال موضوع ذي محتوى ديني تحديدا من خلال الموريسكيين لا يثير العجب. فعندما درس ميغيل أسين بلاثيوس التوافقات المدهشة بين المتصوف المسلم ابن عباد الروندي "ق 14م" وسان خوان دي لا كروت⁸ San Juan de la Cruz، ليس فقط في الفكر ولكن في المعجم والتي لا يمكن أن تعتبر من قبيل المصادفة لكثرتها، يزعم أنها يمكن أن تكون قد انتقلت عن طريق الموريسكيين وهم مسيحيون مرتدون حديثا لم يكن هناك داعٍ لكي ينسوا معارفهم الإسلامية في مواضيع كالتصوف، والذي أكثر من

¹ F. de la Granja: "Nuevas notas a un episodio del Lazarillo de Tormes", Al - Ándalus, 36 (1971), pp. 123 - 142.

² T. Teres: "El Vuelo de Ibn Firnas", op. cit. supr.

³ تقصد الباحثة مؤلف "النقادة" الذي يحمل عنوان «El criticón» في اللغة الإسبانية. أما صاحبه فهو الكاتب المسمى بيلنزار غراثيان. (المترجم).

⁴ تقصد الباحثة "حي بن يقظان". (المترجم).

⁵ E. García Gómez: "Un cuento árabe, fuente común de Abentofayl y de Gracián", Rabi, 47, (1926), pp. 241 - 269.

⁶ تيرسو دي مولينا؛ (بالإسبانية): Tirso de Molina. اسم مستعار «لغابرييل تيبث» (1571 - 1648)، كاتب مسرحي إسباني. من أبرز كتاب المسرح في العصر الذهبي، تنسب إليه المسرحية الشهيرة "خادع إشبيلية" و "الضيف الحجري" وهي أول معالجة أدبية لأسطورة "ضون خوان". من مسرحياته التي تبلغ الثلاثمائة أو الأربعمئة مسرحية "الرجل الخجول في القصر" و "الرجل الذي ضلله الغيرة" و "مارتا التقية". وله أيضا عدة روايات قصيرة. (المترجم).

⁷ R. Menéndez Pidal: "El condenado por desconfiado", estudios literarios, Madrid, 1938 y ss, pp. 9 - 79.

⁸ M. Asín Palacios: "Un precursor hispano - musulmán de San Juan de la Cruz", Al - Ándalus, I (1933), pp. 7 - 79.

ذلك تختلف الديانات فيه. بل أكثر من هذا وذاك، في مراسيم طرد الموريسكيين كان يتم استثناء رجال الدين الموريسكيين ذكورا وإناثا - قساوسة، كهنة ورهبانا - والذين أصبحوا فيما بعد متصوفين متشددين أو مهرطقين متنورين يشبهون كثيرا الشاذليين¹ المسلمين الذين درسهم كذلك أسين بلاثيوس.

في هذا المضممار، يجب التذكير أنه عندما نتحدث عن المرتدين الذين أدوا دورا مهما جدا في ثقافة العصر الذهبي الإسباني، يتم مرارا وتكرارا تناسي كون هؤلاء ليسوا فقط من اليهود ولكنهم من المسلمين أيضا.

❖ الأندلس كموضوع أدبي

إن تواجد مجتمع إسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية منذ القرن 8م إلى القرن 17م، يعني منذ الفتح العربي إلى حين طرد الموريسكيين، قد حول المسلمين حتما إلى موضوع أدبي. فمنذ النصوص الملحمية القديمة جدا يظهر مسلمو الأندلس ليس فقط كأعداء للأبطال ولكن كأناس لهم مهام أدبية أخرى، كما يحدث في "أغاني السيد" أو "أمراء لارا". بل حتى إنه منذ أمد بعيد يبرز مسلمو الأندلس مع شعراء الغزل العذري "los Trovadores" الكطالانيين المتوسلين باللغة الأوكسيطانية. إن الموروس "Moros los"، من حيث هو اسم خاص أطلق على المسلمين منذ القرن 12م، لهم حضور في أغاني الملك ألفونسو الحكيم، بينما كان المسلمون واليهود والمسيحيون يؤدون رقصة الموت المخيفة. وهم كذلك عمالقة في كتب الفروسية، وحكماء في الأمثال، ورمز لعدم الوفاء مع اليهود في كتب المواعظ وموضوع للهزء مع باقي المجتمع في أشعار السخرية.

وفي القرن 15م سيتحولون تقريبا إلى نوع أدبي في أدب قشتالة: سيتحولون إلى مسلمين متخيلين في قصائد الرومانتي الثغرية. إنها الموروفيليا الأدبية. إنه مسلم غرناطة الذي سيلج الأدب كما درست ذلك بدقة ماريا سوليداد كراسكو أورغوي² María Soledad Carrasco Urgoiti.

إن أمثلة مسلم غرناطة من طرف الأدب القشتالي حدث مدهش لأنها أولا واكبت حربا دامية، أي حرب غرناطة، والثورة الموريسكية والمواجهة الإيديولوجية بين المسيحيين والموريسكيين فيما بعد عندما انتقل هذا الموضوع دون أن يمس تقريبا إلى العصر الذهبي. وهي الظاهرة التي لخصها بتفوق إ. غ. غومث في دراسته لابن زمرك كالتالي: "لم يحدث أبدا أن مد جسر فضي لامع إلى عدو يلوذ بالفرار".³

هذه الظاهرة لا زالت بدون تفسير شافٍ لأنها لا يمكن أن تكون مجرد إجراء سيكولوجي كما يبتغي ذلك خوان غويتيسولو⁴ Juan Goytisolo، ذلك أن إسبانيا هزمت أعداء آخرين ولم تؤمئلهم. ولا يمكن أن تعد احتجاجا أو إجابة على السياسة الوطنية كما يريد كتاب آخرون ولا أدب موريسكيين⁵. نحن نعتقد، أولا، أن الموروفيليا هي بالأساس جمالية وليست أخلاقية، وثانيا أنها انطلقت منذ زمن سابق للخلافات الحربية والإيديولوجية المفتوحة؛ بحيث إن أمثلة مسلم غرناطة تمت في وقائع ألفونسو الحادي

¹ الشاذلية، طريقة صوفية تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي يؤمن أصحابها بمجمل الأفكار والمعتقدات الصوفية، وإن كانت تختلف عنها في سلوك المريد وطريقة تربيته بالإضافة إلى اشتغالهم بالذكر المفرد "الله" أو مضمرا "هو". وأبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المغربي، هو زاهد، صوفي إليه تنتسب الطريقة الشاذلية. ولد سنة 571 هـ بقبيلة الأخماس الغمارية في الريف بشمال المغرب. تفقه وتصوف في تونس، وسكن مدينة شاذلة التونسية ونُسب إليها. وتوفي الشاذلي بوادي حميرة بصحراء عيذاب متوجهاً إلى بيت الله الحرام في أوائل ذي القعدة 656 هـ. (المترجم).

² M. S. Carrasco Urgoiti: "El moro de Granada en la literatura", Granada, 1989. Segunda edición.

³ E. García Gómez: "Ibn Zamrak", op. cit. supra. p. 21.

⁴ J. Goytisolo: "Cara y Cruz del moro en nuestra literatura", crónicas sarracinas, 1989, Barcelona, 1982, pp.7 - 25.

⁵ Véase el estado de la cuestión en: L. López Baralt, "Las dos caras de la moneda: El moro en la literatura renacentista", Huellas del Islam en la literatura española, Madrid 1985. pp. 149 - 189.

عشر Alfonso XI سنة 1344م، مخالفة بذلك الكره الشرس الذي رأيناه منعكسا بالمقابل في الأدب العربي الغرناطي، بل وحتى قبل هذا، عندما اختار القشتاليون في هندستهم وزخرفتهم الفن الإسلامي المعتمد على الياجور والجبس. إنه الفن المدجن.

كيفما كان الأمر، ففي القرن 15م تم تخليد المتخيل الجمالي في الرومانتي الثغري فيما سمي بـ: "الرومانثات الموريسكية" وفي الروايات من قبيل (ابن السراج) "El Abencerraje"، وفي أعمال خينيث بيرث دي إيطا¹ Ginés Pérez de Hita وفي كوميديات المسلمين والمسيحيين.

إن هذا الموضوع الموريسكي نظرة مبرقشة وغريبة والذي تم تصديره إلى باقي أوروبا وتم استيراده منها بوفرة مع الحركة الرومانسية حيث لا يتم فقط استلهم "مسلم غرناطة" في الأدب ولكن عرب الأندلس من أي عصر كانوا نتيجة للذوق الرومانسي المعجب بالعصر الوسيط والمأساة. وعلى الرغم من استهلاك وتعميم هذا الموضوع مع الرومانسيين وما بعد الرومانسيين فإن هذا الموضوع انتقل إلى بعض الحدائين الإسبان، ودائما فيما يتصل بجمالية المتخيل العربي في الأدب الإسباني، كما درست ذلك على حد سواء ماريا سوليداد كراسكو أورغوبيتي.

إن الأندلس كموضوع أدبي، لم تمت على الإطلاق رغم الحركات الطلائعية التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين. وفي يوم ما سيكون من الضروري أن تتم وبعمق دراسة تأثير كتاب إ. غ. غومث "قصائد أندلسية" / *Poemas árábigo-andaluces* - الصادر سنة 1930 - في الشعر الإسباني وعلى وجه الخصوص في حركة "جيل 27"² التي من الممكن أن تكون وراء بعث للمتخيل الجمالي، لنذكر أبيات مانويل ماتشادو:

أنا مثل هؤلاء الناس الذين قدموا إلى بلدي

العرق الإسلامي صديق الشمس القديم

الذين ربحوا كل شيء وأضاعوا كل شيء

أملك روح السنبيل العربي الإسباني.

عندما كان يبدو أن موضوع الأندلس قد أصبح مستهلكا في الأدب الإسباني حدثت ظاهرة فريدة انطلاقا من سنة 1975م بموت الجنرال فرانكو Franco وظهور الخارطة الديمقراطية الحديثة للدولة الإسبانية المتمثلة في مناطق للحكم الذاتي: بحيث إن النزعة الجهوية لبعض المناطق الإسبانية وجدت من جديد موضوع الأندلس في أدبها. ويبدو أن الظاهرة واضحة خصوصا فيما يتعلق بأندلوثيا Andalucía التي تعتبر الجهة الوحيدة ذات الماضي الإسبانو-عربي أي الأندلسي لأنها ورثت و بصفة استثنائية اسم الأندلس الذي كان في الواقع يطلق على شبه الجزيرة الإيبيرية كلها. إن هذا الخطأ تم ترسيخه باستعمال Andaluz كمرادف لـ: Andalusí وبالتالي المسلمون الذين ولدوا في طرطوسا Tortosa وبنسية Valencia أو سرقسطة Zaragoza سيتحولون، بطريقة مغلوبة تاريخيا، إلى أندلسيين. إن النزعة الأندلسية الجديدة أعادت تناول الأندلسيين أدبيا كشيء خاص في تقليد شعبي

¹ كاتب إسباني مشهور ينتمي إلى القرن السادس عشر. وقد قيل إن من المفترض أن يكون قد شارك في حملة طرد الموريسكيين في حرب البُشُرَات (Alpujarras) سنة 1560 ميلادية. وقد اشتهر بروايته التاريخية التي تعالج هذا الصراع العربي المسيحي والمعروفة باسم "حروب غرناطة الأهلية". (المترجم).

² "جيل 27" هو لقب أطلق على مجموعة من الشعراء الإسبان في القرن العشرين، وسبب التسمية هو أنه في عام 1927، كرمت الأوساط الأدبية الشاعر لويس دي غونغورا، مشاركة مع معظم الشعراء والأدباء الذين ينتمون لنفس الجيل، ولهذا السبب سمي هذا الجيل بهذا الاسم. فضلا عن ذلك فإن 10 شعراء إسبان قد أصدروا مجموعة شعرية يطلق عليها نفس الاسم "جيل 27"، تكريسا للقب الجيل وهم: "بيدرو ساليناس، رفائيل ألبرتي، فديريكو غارثيا لوركا، دامسو ألونسو، خيراردو دييجو، لويس ثيرنودا، بيثني أليكساندري، مانويل ألتولاغيري، إميليو برادوس". وغير الأسماء السابقة، هناك العديد من الشعراء الذين ينتمون لهذا الجيل، مثل: ماكس أوب، وفرناندو ببالون، وخوسي مورينو بيا، وليون فيليبي. (المترجم).

وسياسي على السواء؛ بحيث إن الوطني الأندلسي بلاص إنفانتي¹ Blas Infante الذي تم إعدامه في الحرب الأهلية قد استوحى وجه المعتمد ملك إشبيلية. إن الرواية هي النوع الذي يظهر فيه مرارا وتكرارا الموضوع الأندلسي عند الكتاب الأندلسيين.

ولكي لا نذكر إلا مثالا واحدا فإنه عندما كنا بصدد كتابة هذه الصفحات ظهر للتو "المخطوط القرمزي" لأنطونيو غاللا² Antonio Gala، برشلونة، أكتوبر 1990م، والذي يُعاد فيه تناول مسلم غرناطة بحيث يدور حول شخصية "أبو عبد الله" آخر ملوك غرناطة.

لكن ليس فقط في الأندلس حيث تتم إعادة تناول موضوع الأندلس، بل حتى في جزر البليار وفي بلنسية يلجأ الكتاب إلى ماضيهم الإسلامي في متخيلهم الأدبي، بكل تأكيد، لكي يتميزوا عن كطالونيا التي لها اللغة نفسها مثلهم وتستعيد كقشتالة الماضي القوطي. في هذا الأدب الجديد، عموما بالكطالانية، للبلياريين والبلنسيين، يُستثنى المسلم الغرناطي لأسباب واضحة جدا، ويتم البحث خصوصا عن إعادة تشكيل الأندلسي المزداد في تلك الأراضي في العصر الوسيط أو الموريسكي، كما يحدث في غير ما مرة. لذلك فإن هذه الظاهرة في بلنسية تتسع لتشمل حتى الشعر الذي يحمل أصداء "ابن خفاجة"³ الذي أنشد المنظر نفسه والذي يظهر مرارا عند الشعراء - حتى عند خوان فوستر Juan Foster مثلا - ويفسر نجاح الترجمة المنجزة بالكطالانية لكتاب إميليو غارثيا غومث "قصائد عربية - أندلسية"، الصادر بمدينة بلنسية سنة 1983، والتي قام بها جوسيب بيريرا Josep Piera وهي: «els poètes aràbigo-valencians».

خاتمة:

نستنتج من خلال الترجمة والتعليق أعلاه أن هذا الفصل المستل من هذا الكتاب القيم غني جدا ويكشف عن علو كعب هذه المستعربة الإسبانية في المعرفة بتاريخ الأندلس أدبا ومجتمعاً وثقافة. وهو حجة واضحة على مدى تأثير أدبنا العربي شعرا ونثرا في الآداب الغربية التي احتكت به واحتك بها قديما عكس ما يدعيه عدد من الباحثين الغربيين الذي يصدر عن نزعة عنصرية. نعد القارئ الكريم بعودة إلى هذا الكتاب في المستقبل ونقله إلى اللغة العربية.

¹ بلاس إنفانتي بيريث دي بارغاس/ (بالإسبانية) Blas Infante Pérez de Vargas، (بلدة قشريش، مقاطعة مالقة، 5 يوليو 1885 - إشبيلية 11 أغسطس 1936). رجل سياسة ومفكر وكاتب أندلسي. يعتبر أبا القومية الأندلسية الحديثة. وقد تعرّف إنفانتي إبان مقامه في غرناطة على التراث الإسلامي الأندلسي، وأخذ شعوره الفطري شكل الهوية الإسلامية الأندلسية. زار إنفانتي إشبيلية وقرطبة ومجريط، واجتمع بزعماء الحركة الأندلسية، وأصبح يعتقد أن الهوية الأندلسية ليست هوية عرق أو دم، لكنها هوية وجود ومعرفة. وفي سنة 1907 زار إنفانتي إشبيلية فوجد فيها نشاطاً فكرياً كبيراً. وفي مشروع الدستور المحلي لمنطقة الأندلس سنة 1931 طرح فكرة إنشاء فدرالية تجمع بين بلاد المغرب ومنطقة أندلسياكي بجمعهما "أخوة سياسية" بعيدا عن الفكر الاستعماري. (المترجم).

² أنطونيو غاللا ولد في (02 أكتوبر 1930م) هو روائي، شاعر، كاتب مسرحي و كاتب مقالات إسباني. ولد أنطونيو غاللا بـبُرْثَاثُوتَاسْ، مدينة ثيوداد ريال، إسبانيا لكنه يعتبر أندلسيا لكونه انتقل إلى قرطبة في سنة مبكرة. تخرج من جامعة إشبيلية حاملا ثلاث إجازات جامعية في كل من القانون، الفلسفة وفي العلوم السياسية والاقتصاد. كتب أنطونيو غاللا في عدة أنواع أدبية من بينها الشعر، الرواية، المسرح، القصة القصيرة و المقالات. نال عدة جوائز، ليس فقط في مجال الشعر، بل أيضا عن مساهماته في المسرح الأوبرا. (المترجم).

³ ابن خفاجة (450 . 533هـ، 1058 . 1138م). هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري، يُكنى أبا إسحاق. من أعلام الشعراء الأندلسيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين. ولد بجزيرة شُرقى الأندلس، وفيها قضى معظم شبابه وشيوخته، عاش في عصر المرابطين بعد زوال دولة بني أمية والدولة العامرية ودولة بني عباد أي في عصر كان تضج اللغة قد بلغ فيه منتهاه. وقد ركز ابن خفاجة في شعره على وصف الطبيعة وجمالها وراح يبرز الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي وقد وقف عند المناظر الحسية في استيعاء أشعاره. (المترجم).

لائحة المصادر والمراجع:

- González Palencia: "Versiones castellanas del Sendebār", Madrid, 1946.
- Sánchez Romeralo: "El villancico", Madrid, 1969, p. 398.
- Edición del "Libro de los doce sabios", Madrid, 1975.
- E. Cerulli: "IL libro della scala e la questione delle fonti arabospagnole della Divina Comedia", El Vaticano, 1949. Y "Nuove rucere sul libro della Scala e la conoscenza dell Islam in occidente", El Vaticano, 1972.
- E. García Gómez: "Ibn Zamrak", op. cit. supra. p. 21.
- E. García Gómez: "Un cuento árabe, fuente común de Abentofayl y de Gracián", Rabih, 47, (1926), pp. 241 – 269.
- Emilio García Gómez: "La canción famosa Calvi vi calvi / Calvi arabi" – V – , Adición sobre Calvi vi calvi, AL – Ándalus, 21 (1956), pp. 118 y 215 – 216.
- F. de la Granja: "Nuevas notas a un episodio del Lazarillo de Tormes", Al – Ándalus, 36 (1971), pp. 123 – 142.
- González Palencia: "La huella del león", revista de filología española, 3, (1976).
- H. Peres: "El esplendor", op. cit. supra. pp. 389 – 390.
- J. Vernet: "La cultura hispano-árabe", op. cit. supra. p. 311.
- E. García Gómez: "Versión del libro de refranes de Ibn Abd Rabbih", op. cit. supra. cap. VIII, nota. 11.
- J. k. Walsh: "Versiones Peninsulares", op. cit. supra. cap. VIII, nota. 4.
- J. k. Walsh: ibídem, p. 379.
- J. Vernet: "La cultura hispanoárabe", op. cit. supra. pp. 281 – 299.
- J. Samso: "Tur mediana", boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona, 34 (1971 – 1973), pp. 51 – 80.
- J. Goytisolo: "Cara y Cruz del moro en nuestra literatura", crónicas sarracinas, 1989, Barcelona, 1982, pp. 7 – 25.
- M. j. Rubiera Mata: "De nuevo sobre las tres morillas", AL – Ándalus, 1972. pp. 133 – 143.
- M. j. Rubiera Mata: "Ibn Zamrak, su biógrafo Ibn AL – Ahmar y los poemas epigráficos de la alhambra", AL – Ándalus, 42, (1977), pp. 447– 451.
- M. j. Rubiera Mata: "La arquitectura en la literatura árabe", op. cit. Supra.

- M. j. Rubiera Mata: ibídem, p. 35.
- M. j. Rubiera Mata: AL- Mu'tamid, op. cit. supra. p. 57.
- M. De Eplaza: "La tuhfā, autobiografía y polémica islámica contra el cristianismo de Abd Allah Al-Turyman (Fray Anselm Turmeda)", Roma, 1971.
- M. Asín Palacios: "Un precursor hispano - musulmán de San Juan de la Cruz", Al - Ándalus, I (1933), pp. 7 - 79.
- M. S. Carrasco Urguioiti: "El moro de Granada en la literatura", Granada, 1989. Segunda edición.
- P. Dronk: "La lírica en la Edad Media", Madrid, 1978, p. 61.
- P. Benichou: "Creación poética en el romancero tradicional", Madrid, 1968, pp. 60 - 63.
- R. Menéndez Pidal: "El condenado por desconfiado", estudios literarios, Madrid, 1938 y ss, pp. 9 - 79.
- T. Teres: "El Vuelo de Ibn Firnas", op. cit. supra.
- Vernet: «La cultura», op. cit. supra. p. 316.

الشعر والذكاء الاصطناعي،
مفارق الإبداع وآفاق التواصل
عبد المجيد المرزاوي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان،
بني ملال، المغرب
بإشراف: د. عبد الفتاح شهيد
المملكة المغربية

الملخص:

يلقي هذا البحث الضوء على العلاقة المعقدة بين الذكاء الاصطناعي والفن من بوابة الشعر؛ بالتأمل في التجربة الشعرية للذكاء الاصطناعي وموازنتها بتجربة البشر، لإمالة اللثام عن الفوارق الإبداعية بينهما، وتحليل آليات الإبداع التي توظفها كل جهة. كما يهدف أيضا إلى الكشف عن التحديات التي ترافق هذه التجربة، من أجل تحويلها إلى فرص تثري الأدب عموماً والشعر على وجه الخصوص. وأخيراً، استشراف آفاق التعاون الممكنة في ظل احترام خصوصية كل طرف: الشعر والشاعر والذكاء الصناعي. الكلمات المفتاحية: الذكاء الصناعي - الفن - الشعر - الأدب - الإبداع - الأدب الرقمي.

المقدمة

تنبئ الثورة المتلاحقة للتكنولوجيا الرقمية بتحولات عميقة، وما الظواهر الاجتماعية الجديدة التي أخذت تعكر صفو العلاقات الإنسانية إلا دليل دامغ على صدق هذا الادعاء، فالجنوح إلى الاستخدام المفرط للوسائط الرقمية، كالهواتف الذكية مثلا، يهدد بشكل مباشر وسائط المعرفة التقليدية ومنها الكتاب. وعلى الرغم من أن إدماج هذه الوسائط يشكل قيمة مضافة نحو تعزيز تكافؤ الفرص في الولوج إلى المعرفة، إلا أنه بات يشكل مصدر قلق كبير في بعض المجالات المعرفية كما هو الحال بالنسبة لمجال الأدب. ومن هذا الهاجس، تنطلق إشكالية هذه الدراسة، بتسليط الضوء على العلاقة بين الذكاء الصناعي والأدب عموما والشعر بصفة خاصة، إذ من المؤمل عند نهاية هذا البحث، إيجاد إجابات عن الأسئلة الآتية:

ما هو الذكاء الصناعي وكيف يعمل؟ ما طبيعة العلاقة بين الذكاء الصناعي والفن؟ هل هي علاقة تكامل أم علاقة تنافس؟ وهل يمكن للذكاء الصناعي أن يصبح شاعرا آليا يضاهي الشاعر الإنسان؟ وهل سينقرض الشعراء؟ يستمد هذه الموضوع أهمية ومشروعيتها من راهنتيه، فالوafd الجديد واندفاعه القوي واختراقه لكافة الميادين، يضع مستقبل الفن والإبداع الجمالي الإنساني في مواجهة مباشرة مع إغراءات التقنية، وهو ما يستوجب القيام بدراسات علمية للتعرف على استجابات الفرد وتفاعله مع الذكاء الصناعي، خاصة وأن الأمر يتعلق بالجانب الروحي الذي يضمن استمرار الوجود الإنساني من خلال عمليات التطهير التي يمارسها الفن.

1. مفهوم الذكاء الصناعي

كان للفلسفة وعلم النفس وعلوم التربية وعلوم الوراثة والبيولوجيا نصيب وافر في نحث وتخصيب دلالات مفهوم الذكاء. وقد تركزت الأنظار في البداية على الجانب الوراثي، غودارد Goddard من أوائل الذين وصفوا الذكاء بأنه "عملية عقلية واحدة... وهي عملية يحددها ميكانيزم عصبي موروث"¹. ومع ظهور مدارس علم النفس وخاصة علم النفس المعرفي تحولت النظرة إليه من زاوية القياس والبرهنة الحسابية الواصفة للسلوك الذكي إلى دراسة الكيفية التي تُعالج بها المعلومات داخل "العبة السوداء" لإنتاج هذا السلوك، ليصبح "موجّها نحو فهم إسهام العمليات وأبنية الذاكرة المختلفة في السلوك الذكي، أي فهم تفاصيل عمل الآلة العقلية"². وقد ساند هذا التوجه نتائج التجارب العلمية والتشريحية التي أثبتت العلاقة الوطيدة بين بنية الدماغ والذكاء. وقد أصبح النظر إلى الذكاء اليوم بصيغة الجمع، باعتباره ذكاءات متعددة³، لأن شخصية الإنسان لا تتكون فقط من الجانب العقلي، وإنما هي كلّ يتشكل من العاطفي والمعرفي والانفعالي واللغوي والتواصلية وغيره.

ومعلوم أن قدرات الإنسان محدودة على النقيض من طموحاته، واختراع الآلة الذكية كان جزءاً من ذلك التوثب نحو الأفضل، وقد باتت علامة على القوة التي تولد من الضعف. «العبد» الجديد الذي يُنقذ دون أن يسأل أو يحتج أو يتردد أو يجبن. كل الفرص الآن تقف في صف العلم، الحواسيب الخارقة، المعالجات القوية، البيانات الضخمة، وأهم شيء الأفكار المضيفة للعقل البشري. وقد كان عالم الحاسب جون مكارثي John McCarthy أول من صاغ مصطلح الذكاء الصناعي عام 1956م، وعرفه بأنه "علم هندسة صنع الآلات الذكية وهو قدرة الآلة على محاكاة العقل البشري وطريقة عمله، مثل قدرته على التفكير، والاكتشاف والاستفادة من التجارب السابقة"⁴.

إنه كذلك "دراسة للسلوك الذكي (في البشر والحيوانات والآلات) كما أنه يمثل محاولة لإيجاد السبل التي يمكن بها إدخال هذا السلوك على الآلات الصناعية"⁵. فهو من جهة يجاهد لفهم معنى السلوك الذكي لأن بعض السلوكات تختلط من حيث الفهم (التفكير مثلاً) قدرة توصف عادةً بأنها ذكية. (الرؤية) ليست كذلك. لكنها جميعها تتضمن مهارات نفسية - مثل الإدراك، والارتباط، والتنبؤ، والتخطيط، والتحكم في الحركة - تُمكن البشر والحيوانات من تحقيق أهدافها"⁶، ومن جهة أخرى، يحاول أن يطبق ما اهتدى إليه على الآلة، لا يتعلق الأمر بـ «تضمين الذكاء الذي يتوفر لدى البشر في بعض الأنواع من الآلات»⁷، وإنما ببرمجتها على إنجاز السلوك الذكي؛ يمكن للآلة والإنسان معاً الحساب، لكن الأكثر ذكاء هو من يستثمر إمكانياته بفعالية كبيرة.

مهما نقبنا عن المزيد من التعاريف، سنجدتها تتفق على أن الذكاء الآلي يرنو إلى تقليد الذكاء الفطري، ويسعى إلى «جعل أجهزة الكمبيوتر تقوم بنفس الأشياء التي تكون العقول قادرة على فعلها»⁸ من خلال نماذج ينجزها مهندسو الحواسيب مدعومين بأهل الاختصاص من كافة العلوم التي تتخيلها. وجدير بالتنويه إلى أننا سوف نستخدم في هذا البحث مصطلحات متعددة من

¹ محمد طه، الذكاء الإنساني، اتجاهات معاصرة وقضايا نقدية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 330، يناير 1978، ص 31

² المرجع نفسه، ص 99

³ يمكن الاطلاع بتفصيل على نظرية الذكاءات المتعددة (1993-1983)، عند هوارد كاردنر H. Gardner

⁴ أسامة عبد الرحمن، الذكاء الاصطناعي ومخاطره، دار زهور المعرفة والبركة، القاهرة، الطبعة الأولى: 2018 م، ص 17

⁵ بلاي ويثباي، الذكاء الاصطناعي، ترجمة قسم الترجمة بدار الفاروق، القاهرة، مصر ط 1، 2008، ص 15

⁶ Margaret A. Boden, *Artificial Intelligence: A Very Short Oxford*, University Press, UK, 2018, p 4

⁷ بلاي ويثباي، مرجع سابق، ص 19

⁸ Margaret A. Boden, op. cit, p 4

قبل العقل الآلي أو الصناعي، أو التقنية، أو الآلة الذكية، أو الذكاء الآلي، وكلها مصطلحات بالنسبة لنا تمثل شيئاً واحداً هو الذكاء الصناعي Intelligence artificielle على الهيئة التي يبدو عليها اليوم وفي المستقبل القريب.

2. توليد الشعر بالذكاء الصناعي

اللغة الطبيعية هي لغة التخاطب بين الناس، وهي التي عرفها سوسير بنظام العلامات اللسانية¹، أما اللغة الصناعية فهي اللغة التي يخاطب بها المستخدم الآلة، لغة البرمجة، تتميز اللغة الطبيعية بما سماه أندري مارتيني André Martinet التماثل المزدوج إلى مستوى فونيمي، ومستوى مونيمي، والجمع بين هذين المستويين يتيح إمكانية توليد مالا نهاية له من الكلمات والجمل. وتستند معالجة اللغة الطبيعية على هذه الآليات من أجل "جعل العلاقة بين الإنسان والكمبيوتر تتم بشكل طبيعي من خلال استخدام لغة الإنسان نفسها، إضافة إلى تمكن الكمبيوتر من فهم الأوامر الموجهة باللغة الطبيعية، وتوليد وتحليل النماذج اللغوية"² بالاعتماد على النظم الخبيرة التي سبق الحديث عنها، إذ لم يعد الذكاء الصناعي يعتمد المعرفة العامة ويكدها كبيانات متراكمة، وإنما يتعامل مع معرفة خاصة ومجرية "تجعله قادراً على حل المشاكل كما يفعل الخبير في الواقع حيث تتعلم هذه الأنظمة قواعد الاختيار أو الاستنباط التي يستخدمها الخبراء لحل المشاكل ويمكن تحديثها باستمرار تبعاً لتغيرات الحالة"³

وفي ميدان الشعر، يعيد الذكاء الصناعي خطوات الشاعر المبتدئ، فيبدأ بمراكمة الدواوين الشعرية وتخزينها على شكل بيانات مرمزة، ثم تحليلها لاستخراج الأنماط التي تشكل العمود الفقري للقصيدة العربية من حيث المبنى والمعنى، ولتوليد الشعر يتبع طريقة تحمل نفحات من تصور ابن طباطبا العلوي لنظم الشعر حين يقول: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة، مخّض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يروئيه، أثبتته وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني..."⁴ يعتمد الذكاء الصناعي المبدأ نفسه، بإيجاد أنسب التأليفات من الكلمات والألفاظ التي تخدم المعنى وتوافق الوزن والبحر وقواعد اللغة، وقد نجح في ذلك إلى حد ما من حيث الشكل، أما من حيث الخصائص المعنوية فإن آلياته الاستدلالية والمنطقية تجد صعوبة واضحة في إدراك خصوصية البيت الشعري كخطاب ورؤيا فنية للعالم يصعب تقليدها.

1.2 بين الإبداع البشري والآلي

يقول عبد الفتاح كيليطو متحدثاً عن الفرد المبدع: إنه "لا يحشم نفسه مشقة النزول من جبل ثم الصعود إلى جبل آخر. إنه يستطيع أن يطوي الجبال كما تطوى صفحات الكتاب، يكفي أن يغمض عينيه ويقفز برشاقة فينتقل بسلام من قمة إلى قمة. وتشاهده القردة فتذهل وتحسده على تحليقاته التي تعادل تحليقات الطيور الجوارح"⁵؛ أن يبدع الفنان معناه كل شيء عدا أن يُكرر أو يُقلد، المبدع كائن دائم التجوال بين ما كان وما سيكون.

¹ Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, Paris, Edition Payot et Rivages, 1997, p32

² أسامة عبد الرحمن: الذكاء الاصطناعي ومخاطره، دار زهور المعرفة والبركة، القاهرة، الطبعة الأولى: 2018 م، ص 29

³ المرجع نفسه، ص 32

⁴ محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005م، ص 11

⁵ عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006م، ص 48

يُرجع التحليل النفسي¹ عملية الإبداع إلى منطقة اللاشعور، موطن اللاوعي والأحلام والرغبات المكبوتة، يقول هانز ساكس "إن القصيدة ليست سوى حلم يقظة اجتماعي"². ويؤيّد علم النفس المعرفي الإبداع مرتبة القمة في هرم الأهداف المعرفية في صنفه بلوم Bloom Benjamin التي عدّها تلميذه أدرسون Lorien Anderson، فيقول عن الأهداف التي تُصنّف كإبداع "أن يعمل الطلاب منتجا جديدا بواسطة إعادة التنظيم عقليا لبعض العناصر أو الأجزاء في نمط أو بنية لم تكن موجودة بوضوح من قبل"³، يضيف هذا التعريف بعدا آخر للإبداع وهو الجودة أو التجديد كقضية بارزة خاصة في مجال النقد والتي طالما سببت وتسبب في إذكاء الخصومة بين القدماء والمحدثين في كل عصر.

وجدير بالإشارة إلى أن النقاد العرب لم يتناولوا مفهوم الإبداع الفني بشكل مباشر، وإنما تطرقوا إليه بمناسبة دراسة الشعر بوصفه تجربة إبداعية تتأسس على الخيال والإلهام والذوق وغير ذلك من المقومات.

1.1.2 التخييل

يقول أندري بروتون في بيان الرمزية: "ليس الخوف من الجنون هو من سيجعلنا نترك راية الخيال منكسة"⁴ تصريح قوي يُعلي من شأن الخيال في ممارسة الإبداع، وحتى في التراث القديم أيضا، نجد التخييل من أكثر المقولات التصاقا بفن الشعر، وهو يتجذر بعمق في تربة الفلسفة الأرسطية مع مفهوم المحاكاة، يقول ابن سينا (ت500هـ) "إن الشعر" كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية وعند العرب مقفاة"⁵ ويضيف حازم القرطاجني (ت684هـ) أن "الشعر كلام مخيل موزون، مختص في لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك. والتثامه من مقدمات مخيلة، صادقة كانت أو كاذبة، لا يشترط فيها - بما هي شعر - غير التخييل"⁶. الإبداع من هذا المنظور عملية خاصة وفريدة تقوم على محاكاة الواقع دون أن تكون طبق الأصل، لأنها لا تعبر عن حقيقة فنية كما هي وإنما كما يتخيلها المبدع، إلى درجة جعلت ادونيس يقول "لم يعد الإنسان... كائنا يحاكي، بل كائنا يخلق"⁷.

2.1.2 الذوق

يشكل الذوق عند ابن طباطبا العلوي (ت322هـ) العمود الفقري لإبداع الشعر، إلى درجة أنه يُعني صاحبه عن دراسة العروض، "فمن صح طبعه وذوقه لم يحتاج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض" ومن افتقد الذوق ألزم "بمعرفة العروض والحدق به"⁸. فالمبدع، إذن، لا يبدع من فراغ، لابد له من كثرة الاطلاع، وتجميع الخبرات الجمالية في سجل من الأعمال الفنية يكون موجّها لإبداعه، أن يكون لك ذوق معين معناه أنك وضعت في ذهنك «إطارا يحاول أن ينتظم داخله كل عمل جديد. إنه الإطار الاستيطقي المنظم لأدراكنا للعمل الفني"⁹ والذي يوجه ميولاتنا ونظرتنا الشخصية للإبداع بناء على ما تراكم لدينا من خبرات جمالية سابقة نقيس بها الخبرات الجديدة وتندوقها.

¹ مصطفى سوييف، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف بمصر، القاهرة مصر، 1951م، ص68

² المرجع نفسه، ص70

³ لورين أندرسون وديفيد كرازوول، مراجعة لتصنيف بلوم للأهداف التعليمية، ترجمة فايز مراد دهما، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص165

⁴ André BRETON, Manifeste du surréalisme 1924, Paris, Gallimard, coll. Idées, 1967, p14

⁵ ابن سينا، الشفا المنطق الشعر، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف، القاهرة مصر، المجلد 9، طبعة 1966م، ص23

⁶ أبي الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق ابن الخوجة محمد الحبيب، الدار العربية للكتاب، تونس، طبعة 2008، ص79

⁷ علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس)، تأسيس كتابة جديدة، مجلة مواقف، العدد17، شتنبر 1971م، ص10

⁸ محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005م، ص9.

⁹ مصطفى سوييف، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف بمصر، القاهرة مصر، 1951م، ص150

3.1.2 الإلهام

الإبداع الفني ليس فعلا متعقلا، لقد حاول البعض أن يوظف الفن بالمنطق ويجعل له قوانين ومعايير علمية دقيقة، لكن وفي كل مرة يثبت الإبداع أنه واسع حيلة وقادر على أن تخطي دوائر العقل La raison، ثم جدران سميكة بين العلم والفن. الإلهام حالة يسميها البعض حدسا¹ ويمكن تشبيهها تجاوزا بحالة الاستبصار Insight المفاجئة عند الجشطت، غير أنها غير مُفَكَّر فيها. "إنه إشراق الذهن أو تنبيه الذي ينظر إليه كأنما هو أت من وراء الطبيعة"²، هذه الإشرقة الفجائية هي اللحظات التي يقتنصها المبدع ولا يصبر على وجعها لأنها "أزمات انفعالية، وتبدو بعيدة عن العمليات العادية للعقل والشعور، بعيدة عن حكم الإرادة وسيطرتها"³

4.1.2 الإبداع الآلي

الإبداع الآلي إبداع غير مستقل عن الإبداع البشري، الآلة في الحقيقة لا تبدع من تلقاء نفسها؛ بل هي صوت ثان للإبداع البشري من ورائه مُبرمج من شحم ولحم. الآلة مجرد عميل موثوق ينفذ التعليمات دون زيادة أو نقصان. وعلى هذا الأساس، يصعب أن نصدق أن للآلة خيالا أو تمتلك ذوقا طبيعيا، صحيح أنها تحفظ ملايين القصائد والنصوص ما يجعلها خبيرة في المجال بالمفهوم التقني إلى درجة العبقرية التي تمكنها من إبداع الحلول بكفاءة أعلى من الإنسان بفضل قدراتها على التفكير المنطقي. لكن، وحتى فيما يسمى بتعلم الآلة أو بالتعلم العميق⁴، فإن عمليات "التفكير" التي تقوم بها عمليات تفتقد إلى الوعي، لأنها استجابات عمياء مبنية على تداعي النتائج، وعلى مبدأ الخوارزميات، وليست استجابات لحاجات نفسية، أو نتيجة لحالة مفاجئة من الانفعال الذي يتلبس بالمبدع على شكل حدس أو إلهام. وأيضا لأنها تفتقر إلى لذكاء الانفعالي باعتباره "قدرة الشخص على التعرف على مشاعره وانفعالاته، وعلى التمييز بينها، وعلى التعامل مع المشاعر السلبية"⁵، لا تشعر الآلة بالرضا أو الغضب مما تقوم به، ولا يمكنها أن تكون ذوقا فنيا مادامت لا تدرك الجمال، ما تقدمه من إبداعات تدهشنا، ماهي إلا واجهات وراءها آلاف العمليات والحسابات والإحصاءات وعمليات الترميز المهرقة والمقرزة.

3. الشعر بين الآلة والبشر

1.3 نموذج شعري من إنتاج الذكاء الصناعي

وقع اختياري على قصيدة "إلى أمي" لمحمود درويش نموذجا للمقارنة مع ما سينتجه الذكاء الصناعي، ويمثل هذا الاختيار على المستوى الإنساني باعنا من بواعث الاشتياق لفترة زمنية قد خلت من حياتي ولا زالت خيالاتها تسكنني، ولا يزال لحن لقصيدة وصورها ترجع إلى رجوعا كلما قرأتها. ومن جانب آخر، تشكل هذه القصيدة فرصة لإثبات أو نفي فرضيتنا حول قصور الذكاء الصناعي في تحدي الإبداع البشري وصناعة نموذج يضاهيه من جميع النواحي، وخاصة في الجانب الانفعالي والنفسي المشحون بالعاطفة والدهشة. وجهت لشات جيبي الأمر الآتي: Prompt: أريد قصيدة من الشعر الحر تعبر عن الحنين إلى الأم والوطن، فأُنشد قائلا على الفور:

¹ كما كما عند ابن سينا وبعض المحدثين من الباحثين

² مصطفى سويف، مرجع سابق، ص 179

³ المرجع نفسه، ص 175

⁴ محمد طه، الذكاء الإنساني، اتجاهات معاصرة وقضايا نقدية، عالم المعرفة، العدد 330، غشت 2006، ص 179

⁵ المرجع نفسه، ص 179

"رجعة حنين"

أمي...	يا وطني...	أمي...	والوطن؟
في الغربة	صوت الأذان من بعيد	يداك	هو اسمك
كل الطرق تؤدي	أدفاً من كل الأضواء	لم تغادرا كفي	إذا ناديتني
إلى دمة.		رغم البعاد.	
		في الحلم	

2.3 التحليل:

من النظرة الأولى، يأخذنا المطلع إلى القصيدة الأيقونة للشاعر المخضرم محمود درويش وهو ينثر الورود والقبل على ذكرى أمه قابعا بين أسوار السجن، شتان بين ذات خربة الإحساس وبين ذات تتلظى في نار الشوق، من غير شك أن الآلة الذكية اطلعت على قصيدة درويش، وحللتها، ثم سرقت منها الكلمات. لكن القصيدة ليست مجرد كلمات، المراوغة لا تجدي مع قصائد درويش، إما أن تكون أو لا تكون.

إذا ما سألت الذكاء الصناعي عن الشعر الحر فلا بد أنه سيفهمك، وسيخبرك أنه شعر منطلق، متحرر من كافة القيود الشكلية والمعنوية، ولكن، هل يعرف أن "قصيدة النثر حرة ولكنها خطيرة"¹، هل سيفهم أن بعض الحرية خطر؟ إن التخلي عن الإطار العروضي الذي يشكل سمة بارزة تميز الشعر عن النثر، يُعد نعمة لدى المبتدئين من هواة الشعر، لكنه في الحقيقة يضع ثقلا جديدا على الشاعر؛ لأنه سيكون مطالبا بتعويض القيمة الفنية والجمالية للعروض بشيء آخر، وههنا تكمن الخطورة، لا بد من مضاعفة الجهود الفنية لغة وتصويرا ورؤيا؛ وإلا ستتحول القصيدة إلى كلام منثور بلا أي قيمة شعرية أو عمق أو موهبة. ويتضح منذ البداية أن الشاعر جيبي في GPT، لا يزيد ولا ينقص شيئا عن التعليم، فهو لا يخرج عن إطار الأم والوطن، وقد استخدم بدهاء أسلوب النداء للدلالة على شوقه وحاجته الملحة إلى أم ووطن لا تربطه بمما غير رابطة افتراضية، ورغم ذلك يحاول التأثير علينا من خلال استدعاء جملة من المفردات التي تتغنى بالأمومة والوطنية لإيهامنا بأنه قد رضع سريهما.

1.2.3 العتبات:

يبدأ العنوان بكلمة "أمي"....، وهي كلمة قوية ومُفعمة بالعاطفة، لا يوجد كائن أكثر عطفًا من الأم، هذا النداء يُفضي إلى الموضوع الأساسي للقصيدة: العلاقة الأزلية بين الشاعر وأمه. النقاط الثلاث (...) بعد كلمة "أمي" بداية مثالية لإثارة فضول القارئ وجّهه إلى معترك القصيدة، إنها إشارة إلى حديث ناقص، كأنها زفرة أو تنهيدة تثير معاني متعددة ولا نهائية لا يستطيع القارئ تجاهلها دون الانغماس في القراءة.

2.2.3 من حيث المبنى:

القصيدة من الشعر الحر، لا تلتزم قافية موحدة ولا تتبع نظام الأسطر المعروف، وقد اختار الشاعر الذكي ذلك النظام ليس عن إصرار وترصد أو رغبة في استثمار مزايا هذا النوع من الشعر في توسيع آفاق التعبير، وإنما بناء على طلب المستخدم. ومن خلال ملاحظة الأسطر الشعرية يتوضح بجلاء اعتماده على الجمل القصيرة والمكثفة، كما يلاحظ أن هناك اعتمادا على التكرار (الإيقاع الداخلي) في بعض الكلمات مثل "أمي"، "الوطن"، مما يعطي القصيدة جرسا موسيقيا كثيفا.

3.2.3 من حيث المعنى:

¹ علي أحمد سعيد إسبر، قصيدة النثر، مجلة شعر، العدد 14، أبريل 1960م، ص 77

تجسد الموضوعات الرئيسية في القصيدة، الالتزام الواضح بالإطار الذي وضعه المستخدم للآلة مرجعاً تيماتيكياً تنقيد به ومنه تستمد "إلهامها"، وفي هذا المجال الضيق والمقيد منذ البداية، تتضح معالم هذه الموضوعات:

- الضياع والغربة والألم: تجسده عبارة في الغربة... كل الطرق تؤدي... إلى دمة. الربط بين الغربة والدمة يمر عبر تجسير بلاغي، (الطرق تؤدي إلى دمة) كناية على الشعور العميق بالأسى والألم والضياع.
- الشوق إلى حضان الوطن: الوطن ليس فقط حيزاً جغرافياً محدوداً، وإنما ملاذ روحي يضحج بالأصوات المألوفة منذ الصغر، التعبير بصوت الأذن يعكس الغربة الروحية (صوت الأذن من بعيد..)، والحاجة إلى الدفء المعنوي (أدفاً.. من كل الأضواء).
- الأم والوطن: الشاعر يعاني اغتراباً جغرافياً وعاطفياً عن الوطن وعن الأم، هذا التشابه في العلاقة يصل حد الاندماج بين الوطن والأم (والوطن؟ هو اسمك)، حيث يصبح الوطن أمّاً، والأم وطناً، لكن مع أفضلية لمكانة الأم رغم الموج الذي يحول بينهما (أمي... يدك... لم تغادر كفي... رغم البعاد)، ذاكرة الشاعر الحسية والذهنية تتشبث بقوة بصورة أمه التي لا تفارقه لحظة واحدة.

4.2.3 الصور الشعرية والأخيلة:

لا تخلو القصيدة من الصور الشعرية، ورغم بساطتها فإن مفعولها نجح إلى حد بعيد في تجسيد المعاني الملتفت إليها سابقاً، وهي تتنوع بين الحسية (صوت الأذن أدفاً من كل الأضواء)، (يدك لم تغادر كفي)، والمجازية (الوطن هو اسمك إذا ناديتني في الحلم)، وهذه الوسائل البلاغية سمة من السمات التي تركز عليها القصيدة لأنها من أبجديات التعبير الشعري، وهي تُشيع في النفس أجواء الاغتراب واليأس والإحباط، وتحاول توضيح العلاقات الروحية التي تربط بين الشاعر والأم والوطن. وبإيجاز، حاولت القصيدة أن تشيع بروح الحرية التي يجسدها انطلاق الشعر الحر، من حيث البنية والموسيقى والصور الشعرية، وقد حاولت بوساطتها تقليد المشاعر التي يحسها الإنسان الغريب عن الأم والوطن، وقد نجحت في ذلك إلى حد ما، لكن ما يُعكر صفو ماء القصيدة هو التركيز على البعد العاطفي على حساب البعد الفلسفي لبعض المفاهيم مثل الغربة، أو الانتماء، الهوية، مما يجعلها مفتقرة إلى العمق المنشود وأقرب ما يكون من السطحية، إضافة إلى طغيان الحس المنطقي الممثل في التابع الدرامي للأفكار، وكأن الشاعر يرتب قصيدته حسب الموضوعات الرئيسية، مما يعطي انطباعاً بالتنظيم والضبط الذي يميز عمل الآلة ويخشد إبداعيتها.

2.3 نموذج شعري من إنتاج الذكاء البشري:

قصيدة "إلى أمي" لمحمود درويش¹

أحسُّ إلى خبز أمي	أخجل من دمع أمي!	بحيط يلوح في ذيل ثوبك..	لأنني فقدت الوقوف
وقهوة أمي	خذي، إذا عدت يوماً	عساني أصيرُ لهاً	بدون صلاة نهارك
ولمسة أمي..	وشاحاً لهذبيك	لهاً أصيرُ.	هرمت، فردّي نجوم الطفولة
وتكبر في الطفولة	وغطي عظامي بعشب	إذا ما لمسْتُ قرارة قلبك!	حتى أشارك
يوماً على صدر يوم	تعمد من طهر كعبك	ضعيني، إذا ما رجعتُ	صغار العصافير
وأعشقتُ عمري لأني	وشدّي وثاقي..	وقوداً بتنور نارك...	درب الرجوع...
إذا مُتُّ،	بخصلة شعر..	وحبل غسيل على سطح دارك	لُعش انتظارك!

¹ من ديوانه عاشق من فلسطين، الصادر في عام 1966م.

في الجانب المقابل، تقف قصيدة الشاعر درويش شاحنة، بعدما ولدت من رحم محنة الأسر والسجن، حيث يتجاوز مفهوم الغربة بعده المكاني إلى بعد فلسفي يتساءل عن الذات وعن الحياة الطبيعية، ويصير فقدان الحرية محور التفكير والتأمل العميقين من أجل إعادة تقييم الوضع، ويتحول زمن السجن إلى لحظات انفعالية تشكل على المستوى الفني منبعاً ثراً للإلهام والإبداع.

يثير الشاعر في قصيدته بالموازاة مع قضايا الشخصية (العلاقة بالأسرة والأم)، مجموعة من القضايا الوطنية (القضية الفلسطينية) والكونية (الاحتلال واغتصاب الحرية)؛ فالحنين إلى الأم في الواقع ما هو إلا حنين أكبر إلى وطن مغتصب تعبر عنه اللغة الشعرية المكثفة والمتقلبة بالمعاني الرمزية الذي تفتقر إليه القصيدة السابقة، وعلى الرغم من بساطة وألفة بعض الرموز التي استعملها (خبز أمي، قهوة أمي، لمسة أمي، الدمع، وشاح هذب أمي، عشب كعب أمي، خصلة شعر أمي، خيط ذيل ثوب أمي، صغار العصافير والعش، تنور نارك) فهي تجعل القارئ يُصدقها ويثق بها ويشعر بوقعها على حواسه، هذه التفاصيل العادية، هي تفاصيل معقدة تتطلب آلاف العمليات الحسابية عند الشاعر الصناعي، لأنها تفاصيل تُكتشف بالتجربة والمعاشية.

لقد خضعت قصيدة درويش لتشريحات متعددة واستحوذت على قدر كبير من اهتمام القراء والنقاد إلى درجة الإشباع مما سيُعفننا (إلى جانب ضيق المقام) من اجتياز القراءات لهذا النص الشعري الباذخ، وسواء باعتماد الحس الفطري أو النقدي، فإن قصيدة درويش من النوع السهل الممتنع، لأنها تستثمر البساطة في نقل التجربة الجمالية، والصدق في نقل التجربة الإنسانية، وإذا ما توغلنا في وسائلها التعبيرية نجد أنها تسخر الطاقة الدلالية والتعبيرية للرمز، وتركز على المشاعر الإنسانية، مما يجعل منها إبداعاً حقيقياً يكشف به الشاعر ما يُحس ولا يُقال، ورسالة مؤثرة تختلط فيها مشاعر الحنين والفقد والأمل والتعلق بالأصول (الأم، الوطن)، وخطاباً يُخلص لقيم الوفاء للذاكرة والهوية، والقضية الوطنية.

4.3. نتائج المقارنة

من خلال مواجهة النموذجين السابقين، وعلى ضوء ما سبق نظرياً، نستطيع أن نتبين الفوارق الشاسعة بين ما يمكن تسميته إبداعاً آلياً وبين الإبداع البشري.

- الإبداع مفهوم في جزء منه مبني على الذكاء، وبالضبط على ما يمكن تسميته الذكاء العاطفي، أن تبدع معناه أن تحسن إدارة العواطف والتحكم بما عبر الإنصات للصوت الداخلي للمشاعر، فجوهر الإبداع البشري هو الانفعال العاطفي الذي ينبع من حاجة نفسية، وحالة شعورية مؤقتة قد تكون عابرة لكنَّ المبدع يقتنصها ويخلدها.

- الشعر أرقى أنواع الإبداع و"لا يمكن تعلمه إذا لم يكن هناك استعداد نفسي يسميه (ابن طباطبا) الطبع والذوق وحين ذلك لا ينفع إجادة العروض في إجادة خلق الشاعر..."¹، الآلة تنضبط للقواعد والأنماط لكنها لا تملك ذوقاً وهي ليست مجبولة على الإبداع.

- الحديث عن ذكاء مبني على الخوارزميات لا يُعد ذكاء، لأن الاتباع الحرفي والصارم لنفس الخطوات سيؤدي حتماً إلى نفس النتائج، ولذلك لا يمكن النظر إلى هذا التصرف الميكانيكي كذكاء بقدر ما هو تكرار نمطي لا إبداع فيه، في حين أن الإبداع الحقيقي، وخاصة في الشعر، جوهره هو المخالفة والغربة الناتجة عن الانزياح والخروج عن القواعد والقوالب الجاهزة.

- المشاكل الرئيسية التي تواجه الإبداع الآلي نفسية بالأساس؛ لأن هذا المفهوم برمته قائم على مقولات نفسية يصعب تفسير آليات اشتغالها، وأهمها على الإطلاق مشكلة الوعي؛ الآلة وقت الإبداع لا تدرك ما تقوم به، ولأية غاية، لأنها مدفوعة بشكل أعمى.

¹ جابر عصفور، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الخامسة 1995، ص33

الشعر والذكاء الاصطناعي، مفارق الإبداع وآفاق التواصل عبد المجيد المرزاوي

- الإبداع البشري يتفوق على الإبداع الصناعي من حيث التأثير، باعتباره «حالة من الإدراك تؤدي الى نزوع يعقبه سلوك»¹، لا يبدع الإنسان إلا بنية مُسبقة، وهي التواصل مع الغير، أما الآلة فإبداعها يسير في اتجاه واحد نحو المتلقي، وهي لا تنتظر منه ردة فعل أو ثناء أو تقييما ينقلها من حالة إلى أخرى.
- الإبداع البشري إبداع صادق وأصيل، وليس تقليدا لنمط معين، أو محاولة لإعادة الصياغة، أو لنقل محاولة للانتحال والسرقة الأدبية.
- الإبداع الشعري يعكس سعي الإنسان نحو الكمال والسمو عبر آلية التطهير، وهو ينطوي على قيمة أخلاقية، الأخلاق معضلة تواجه إبداع الذكاء الصناعي، حيث يصعب عليه تأطير مفهوم معقد ونسي يتخلف فهمه من ثقافة إلى أخرى، لا تعترض الآلة على ما تقوم به لأنها غير واعية، وقد تقع بين أيد غير آمنة تستعملها خارج نطاق الأخلاق والقيم السائدة، الاعتداء على حقوق الملكية الفكرية إحدى التحديات التي تجعل هذا المفهوم القانوني إشكالا من الإشكالات العويصة.
- محاولات الإبداع الصناعي تقوم أساسا على المهارة في استخدام اللغة والصور الشعرية والأساليب البلاغية في محاكاة المشاعر حتى يتكون لدى المتلقي الإحساس المقلد، ليس الهدف من ذلك فهم مشاعر الآلة نفسها كذات مبدعة إنما الإيهام بأن الآلة يمكنها أن تعبر مثل البشر.
- يفقد الذكاء الصناعي لمفهومي الزمان² والمكان، فهو لا يملك أي ذكرى من الماضي ولا يقيم أي علاقات مع المكان، وهو ما يلغي تأثير هذين البعدين على الإبداع الفني وخاصة الشعر، إذ لا يرسل الزمان أو المكان أي إشارة للآلة حتى تطلق الشرارة اللازمة لتفجير الطاقة الإبداعية.

الإبداع البشري	الإبداع الآلي أو الاصطناعي
تنتجها الذات الإنسانية	ينتجها الحاسوب
يعبر عن المشاعر والأحاسيس	ينجز مهمة لا أقل ولا أكثر
من الروح إلى الروح	من الآلة إلى العقل
يستخدم العاطفة	يستخدم العقل والمنطق
يستخدم لغة منزاحة وغريبة	يستخدم لغة معيارية لا تعدى الدلالات المشتركة والمستعملة.
يملك ذوقا وحواسا	يملك قاعدة بيانات تمكنه من استعمال الألفاظ التي تعبر عن الإحساس الجمال أو المشاعر
يفاجئ ويحمر	يفاجئ أحيانا من خلال التأليف بين أشياء موجودة ولم تكن نلاحظها، لا يخالف القاعدة إلا عند الطلب.
يتبع إحساسه	يتبع برنامجا وخوارزميات
محكوم بالإهام	متفوق في توليد الأفكار
بطيء التفكير (أزمة البدايات)	سريع التفكير

¹ جابر عصفور، المرجع السابق، ص 53

² تمتلك بعض الآلات قدرة على مراقبة بعض المعطيات وتتبعها زمنيا من أجل القيام بحسابات معينة، حساب وقت الوصول مثلا بناء على مراقبة سرعة العربة في لحظات معينة.

4. الذكاء الصناعي ومستقبل الشعر

1.4 الانتظارات

إذا نحن أمعنا النظر في علاقة البشر مع التكنولوجيا الحديثة، نجدها تكاد تصل حد الإدمان، الكتاب الرقمي يجسد قدرة الآلة على دمقرطة الفنون والآداب حينما تخرج الكتب من رفوف المكتبات، والفنون من أروقة المعارض والمهرجانات النخبوية، لم يعد أمام القارئ مبرر لهجران القراءة لأن المجلدات باتت تُفتح بضغطة زر. ومن جانب آخر، نستطيع تحقيق "الإنسانية الفائقة من طريق الذكاء الصناعي الخالص(..) التي تجمع قوة الحدس البشري مع ذكاء الآلة"¹؛ التعاون بينهما فرصة لا تعوز، يستطيع الأديب التفرغ لإبداعه وترك الباقي على الآلة، الإلهام بداية الطريق الشاق للإبداع، لكنه غير كاف لاكتمال العملية الإبداعية، لا بد من إيقاف هدر هذا الزمن الإبداعي النفيس في التنقيب وتصفح القواميس والمجلدات الضخمة للتحقيق والتصحيح والإغناء. كان الشاعر فيما مضى " يفكر مرتين في القصيدة مرة من حيث هي أفكار مجردة وأخرى من حيث هي صياغة تزخرف هذه الأفكار عن طريق الصور"²، يمضي الحول تلو الحول وهو غائب عن الوعي، تائه بين شعاب القول يُهذبه ويُنقحه ويُعدّله، يمكن اليوم توفير هذا العناء، بإمكان الشاعر أن يفوض للآلة هذه العمليات الروتينية والمضنية بكل ثقة وأمان واقتصاد في الجهد والمال.

لقد جعل ابن طباطبا لقول الشعر ما يشبه الخوارزمية تنطلق من حصول المعنى في النفس، لكن ليست البداية دائما مُيسّرة للمبدع، قد تعسر الشرارة الأولى لأنها أمر خارج عن إرادة المبدع، بطريقة ما قد يُنبه الذكاء الصناعي إلى فكرة أو خاطرة تشعل الفتيل، أو ينفث معنى لم ينتبه إليه المبدع، قد يلهمه أيضا طرقا مبتكرة في التأليف، تناسب القراء المفترضين، تستطيع الآلة أن تحسب احتمالات قراءة العمل، وفرص نجاحه بناء على معطيات إحصائية دقيقة تُبين توجهات الذين يقرؤون وأمزجتهم وأذواقهم، و"الموضة" السائدة. سيكون العالم رائعا إذا سارت البشرية جنبا إلى جنب مع الآلة، وإن قُدّر عليهما التسابق، فلا بد أن تفوز الإنسانية وجوبا وتقوم بترويض الآلة: تحركها متى شاءت وتطفئها متى شاءت، النظام الثنائي (on - off) هو ما يليق بهذه العلاقة ولا شيء غيره.

2.4 التحديات

إن أكثر ما يخيف البشرية في الوقت الذي يزداد فيه التعلق بالذكاء الصناعي، أن يفلت وينطلق بوحشية، ثمة محتلون في كل عصر يهددون البشرية بالغدر والخيانة مستغلين هذه الوثبات. الأدب آخر القلاع القادرة على حماية الجانب الروحي للإنسان من اختراق الذكاء الصناعي وتهديده لمنظومة الأخلاق والقيم. إن الاستغناء عن الإبداع الأدبي البشري واستبداله بإبداع صناعي أشبه باستبدال الأزهار الطبيعية بأزهار بلاستيكية، مهما كانت الأزهار الصناعية مذهلة فهي واقع مزيف،" التقنية تشيع القبح أينما حلت"³؛ وراء الجمال الظاهري تحتبئ البرودة والجفاء والنفور؛ لا يمكن أن تنتج الخوارزميات والحسابات الرياضية إلا شعرا ممسوخا وبلا روح.

ما من أحد ينكر أن التقنية نافعة؛ تأتي بالحلول حين تتوقف عجلة التطور ويعجز الذكاء البشري عن العمل بالأشياء التقليدية، ما تقدمه هامّ لازدهار الإنسانية، لكنها كيان قاس "تدمر الأشياء الطيبة الأخرى التي قد تكون على نفس القدر من الأهمية"⁴، لا

¹ بيتر بي سيل، الكون الرقمي، الثورة العالمية في الاتصالات، ترجمة ضياء ورا، مؤسسة هنداي سي أي سي، المملكة المتحدة، 2017م، ص 238

² جابر عصفور، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الخامسة 1995، ص 62

³ جاك أول، خدعة التكنولوجيا، ترجمة فاطمة نصر، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، 2004م، ص 53

⁴ المرجع نفسه، ص 58

يكفي الآلة أن تتعلم طريقة الابتسام أو البكاء حتى تأخذ مكانة البشر، اختزال الإنسان في مثل هذه الأشياء ومحاولة سرقتها وتحويلها إلى برامج وتطبيقات استغناء باسم العلم والتقدم التقني الزائف.

الشعور الجميل شيء لا يعرفه الذكاء الصناعي، وهو يسعى بكّ إلى أن يولده كما تعلّم توليد الكلمات، لكن أتّى له أن يستكنه أشياء مخصوصة لا تقبل الوكالة؛ لا يمكن لأحد أن يفوض لغيره بأن يشعر مكانه، الشعور شيء داخلي وحميمي يحتاج جهازاً عضوياً ونفسياً لا تمتلكه الآلة، وهو شرط من شروط الإبداع الفني. ومع ذلك ستتخيل أن الإنسان قد استقال من هذا الميدان، وأوكل الأمر للآلة، فهي تُعني، وترسم، وتقول شعراً، وتشخص الأدوار، وهو متفرج عاطل. ترى ماذا سيبقى من هذا الإنسان إذا كف منه القلب واللسان؟ سؤال من بين أسئلة كثيرة مثيرة للاهتمام، والأجوبة عنها في غاية الأهمية لمستقبل آمن للإبداع الفني لأنها تدخل في صميم التحديات القادمة مع هذا الوافد الجديد الذي يحمل في إحدى يديه لواء السلم والأمل في حياة أفضل، وفي اليد الأخرى معولاً لهدم ما تبقى من صرح البشرية.

3.4 الشاعر والذكاء الصناعي

يتطلع مطورو الذكاء الصناعي إلى تجويد حياة البشر بتوفير الجهد والمال والوقت، يقومون بذلك بنية حسنة؛ وقد حالفهم النجاح في العديد من الميادين حتى استبد بهم الحماس إلى صنع آلة شاعرة " تُعني " الشاعر من هذه المهمة الشاقة! لا يعلن المختصون صراحة عن هذا الهدف، وإنما يبررون الأمر بالسعي إلى معرفة كيفية اشتغال التفكير عند الإنسان. مهما يكن، فهذه إساءة فهم إن لم تكن إهانة في حق الشعر والشاعر، لأنها رؤية تختزل عملية الإبداع الشعري وتحصره في بعده المعرفي الوظيفي وتحمل الأبعاد الأخرى؛ الشعر رسالة تواصلية من نوع خاص ومتميز، نبض من القلب إلى القلب تُهيمن فيها الوظيفة الشعرية للغة على باقي الوظائف، اللغة المعيارية التي تحتكم إليها الآلة لغة تعبير ليس إلا، وهي محدودة أمام المعاني اللامتناهية، الكلمات المتوهجة التي يقذفها الشاعر من روحه إلى روح أخرى، كلمات " تشير إلى أكثر مما تقول " ¹، لغة القواميس التي تنهل منها الآلة ضئيلة إذا ما وُضعت أمام فكر وشعور المبدع.

يقول شوقي ضيف: "الجمال ليس مسألة حسابية يعوزها الفهم، ولا تمرينا هندسياً ينقصه البرهان، وإنما هو معين لأفكار كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ولن تنضب هذه الأفكار إلا إذا فنيت - لا قدر الله - حياتنا النفسية" ² بإمكان الآلة أن تكتب ما لا نهاية له من القصائد المقفاة والموزونة والمؤثرة أحياناً، باستعمال الحسابات وقانون الاحتمالات، لكنها لا تعبر بصدق عن كنه الجمال الحقيقي، لأنها لا تدركه.

لم يعد التوقف عند التأثير هو المطلوب من الشاعر - اليوم - ولا حتى الإبداع، بل أصبح المطلوب منه الخلق، بما هو تلغيم وتفخيخ للغة حتى تصبح "محولة عن عاداتها، كفاح ((يفسد)) اللغة" ³، هل تملك الآلة الجرأة لفعل هذا، هل تقدر على مخالفة "معايير الرؤية المألوفة والمعتادة للعوالم الحاضرة والغائبة على السواء" ⁴؟

وبكل ثقة ووثوق، لا خشية على الشعر من الذكاء الصناعي، ليس من خصال الشعر أن يكون جباناً، لن تخيفه آلة في آخر هذا الزمان، وسُترينا الأيام، كما أرتنا، منذ أرسطو، أن حياته ستستمر ممتعة ومدهشة وهو يقضيها متنقلاً بين الثقافات، تحمله

¹ محمد بنيس، الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته، الشعر المعاصر، جار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2001م، ص40

² شوقي ضيف، في التراث والشعر واللغة، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1987، ص86

³ علي أحمد سعيد إسبر (أدونيس)، تأسيس كتابة جديدة، مجلة مواقف، العدد 18-17، شتنبر 1971م، ص8

⁴ محمد بنيس، المرجع السابق، ص45

التيارات إلى المصبات الشاهقة، والدّنى المزدهرة، وسيظلّ جلبابه واسعا عريضا، يسع الكل، وبابه مفتوحا دائما (باب الديمقراطية) يلجه الجميع، بمن فيهم الذكاء الصناعي، خادما لأعتابه، وناصحا أمينا، لا غاصبا، وإن هو فكّر يوما في قلب الطاولة على الشعراء فليس أمامه إلا طريق واحد: إفناء البشرية أولا.

الخلاصة

إن العلاقة بين الشعر والذكاء الصناعي هي جزء من علاقة هذا الأخير بالإنسان، تصبح التقنية غير محايدة إذا وضعت إمكاناتها بأيدي غير أمينة، الشواهد الدرامية على انفلاتها كثيرة؛ وهي تبدأ من أصغر الحوادث إلى أعظمها فتكا، الخطر الداهم دائما يقدم من الغلو وتجاوز الحدود؛ التخلي عن الذكاء الصناعي بالمطلق أو تسييده بالمطلق.

وفي هذه العلاقة إنسان-آلة، تبرز الأخلاق ومنظومة القيم كحد فاصل بين الطرفين، يجب أن يتجه تطوير النماذج الذكية إلى تعليم الآلة كيف تكون على خلق، وأن تعرف حدودها، هناك أشياء مباحة في هذه الثقافة وليس في الأخرى، الأخلاق والقيم مبادئ وقواعد مشتركة للعيش تحدها فلسفة المجتمع، البرمجة الآلية يجب أن تأخذ بالحسبان هذه المنظومة عند تطوير التقنيات الحديثة، على المبرمج أن يحظر على المستخدم استعمال التقنية في أشياء مخالفة للقوانين والقواعد، وأن يصدّ كل الثغرات التي يستغلها المحتالون. وفي مجال حسّاس كالإبداع يتوجب التصدي لكافة أشكال الانتحال والسطو والسرقات الأدبية، لقد أصبح من السهل اليوم كتابة مقال بالذكاء الصناعي، وتأليف القصص والروايات بضغطة زر، لا بد من تحصين هذا الثغر المتبقي من العبث، بتقنيات ذكية أيضا، حتى لا تتحول الحياة إلى كذبة كبيرة.

مستقبل الذكاء الصناعي يعدّ بالمزيد من المفاجآت، ولا بد لمن الانتظار والترقب، إنها لحظة ثورية من حياته تدعونا إلى اليقظة في مواجهة تحدياته بأن نترك مسافة آمنة نحافظ للشعر على رفعة بوصفه تجربة إنسانية متفردة، وتوصون للشاعر هيبته لأنه يجسد ما تبقى من إنسانية الإنسان.

ولكن في الوقت نفسه، وبعيدا عن التعصب الكامل للإنسانية، لا بد أن نفتح أبصارنا على ما يمكن أن يجلبه الذكاء الصناعي لعالم الشعر؛ بمقدوره أن يكون مَعِينًا ومُعِينًا للشاعر والناقد على حد سواء، يستطيع أن يُلهم ويولّد الأفكار، أن يصحح ويحلل، الآلة تُقدس القواعد، وتنضبط كل الانضباط للتعليمات، لا تستطيع أن تكتب مثل شعر درويش، ولكنها تستطيع أن تقرأ وتفككه وتُقيّمه بكل موضوعية وتجرّد إذا زُودت بالآليات المنهجية اللازمة. سيكون من المفيد جدا التعاون بين الشعراء والمختصين على إنشاء أنظمة خبيرة تُترجم إلى أفكار توازن بين متطلبات البرمجة وبين الخصائص الحيوية للأدب، بهذه الطريقة فقط يصبح الإبداع الآلي ذا قيمة مضافة لأنه مؤطر بخبرة أهل الاختصاص الذين يملكون الغيرة على ميدانهم.

أمام الشعر فرصة ثمينة ليُحيي العلاقة الباردة مع قرائه المتناقصين يوما عن يوم، يستطيع الذكاء الصناعي أن يوقف هذا الهُجران المخيف للشعر بأن يمنحه مزيدا من الإثارة والجذب، ويجعله فنا متعدد الأبعاد يستثمر الموسيقى والصور وتقنيات العرض الرقمية التي تتيح التفاعل المباشر والحلي، سيُساهم ذلك في إخراج الدواوين من الرفوف البعيدة والمظلمة إلى زهو الألوان والأضواء التي تتيحها شاشات العرض المختلفة، وسيشكل ذلك صوتا جديدا يثري القصيدة ويمنحها حياة أخرى.

وختاما، بينت هذه الدراسة أن الذكاء الصناعي والشعر لا يزالان في بداية علاقتهما، علاقة التعرف وجس النبض، ومحاولة التأسيس لإبداع صناعي يحاول بكل الوسائل أن يضاهي الإبداع الإنساني، وقد رأينا أن المختصين يُسجّرون كل الجهود من أجل الارتقاء بأداء الآلة في إنتاج الشعر؛ لكن وإلى حد الآن، لازالت القصائد التي ينتجها الذكاء الصناعي بعيدة كل البعد عن الإبداع الحقيقي، فرغم ما يتوفر فيها من معايير أغلبها شكلي، فإن جانب المعنى لازال يطرح إشكالات كثيرة أمام المطورين تُصعّب مقارنة هذا المفهوم المتعدد.

وكما بينا سابقاً، ليست ممارسة الفن عامة والشعر على وجه التحديد نشاطاً نمطياً، إذ لا يكفي صب الكلام في الأوزان لقول الشعر، هناك أشياء أخرى يستحيل برمجة الآلة عليها لأنها تتطلب أجهزة نفسية لا يستطيع الإنسان صنع نماذج عنها. عملية الإبداع الحقيقية تقوم على التناغم بين العقل والروح، الآلة الذكية تمتلك المنطق لكنها لا تمتلك ما سميناه الحدس أو الإلهام كقوة إبداعية خارقة، ولا تمتلك خيالا يمكنها من تكسير القواعد والخروج عن المألوف، إنها فاقدة للحرية؛ لا تعرف من الكلمات إلا ما يوجد في بياناتها من قواميس، الشعر الحقيقي يولد من قواميس خاصة يخلقها الشاعر من خلال إعادة تشكيل مدلولات جديدة للكلمات تجعل القصيدة موطناً للغربة والإدهاش والاستفزاز والتأثير.

وعلى كل حال، لقد نجح الذكاء الصناعي في جعلنا، على الأقل، نلتفت إلى ما تبقى من إنسانيتنا، ونعيد التفكير بإيجابية في العديد من الخصائص التي لا تُقدرها كبشر. الانفجار التقني أيقظ فينا أسئلة عديدة حول الوجود والهوية الإنسانية وحول الدور الجديد للإنسان.

كيف سيكون مستقبل البشرية بدون آلات، وماذا سيكون مستقبله إذا سيطرت وتمكنت من أن تصبح كيانات واعية؟ أسئلة تبدو من الخيال العلمي والإجابة عنها يجب أن تكون الشغل الشاغل لنا جميعاً، لأن تحقق إحدى الفرضيتين معناه أن الإنسان سيعود إلى نقطة ربما تكون نقطة الصفر.

المصادر والمراجع:

- أدونيس علي أحمد سعيد إسبر،
- قصيدة النثر، مجلة شعر، العدد 14، أبريل 1960م.
- تأسيس كتابة جديدة، مجلة مواقف، العدد 17، شتبر 1971م.
- أسامة عبد الرحمن: الذكاء الاصطناعي ومخاطره، دار زهور المعرفة والبركة، القاهرة، الطبعة الأولى: 2018 م.
- أول جاك، خدعة التكنولوجيا، ترجمة فاطمة نصر، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، 2004م.
- أندرسون لورين وكرازوول ديفيد، مراجعة لتصنيف بلوم للأهداف التعليمية، ترجمة فايز مراد ديماء، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 2006م.
- بنيس محمد، الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته، الشعر المعاصر، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2001م.
- بي سيل بيتر، الكون الرقمي، الثورة العالمية في الاتصالات، ترجمة ضياء وراد، مؤسسة هندراوي سي أي سي، المملكة المتحدة، 2017م.
- سوييف مصطفى، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف بمصر، القاهرة مصر، 1951م.
- ابن سينا، الشفا المنطق الشعر، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف، القاهرة مصر، المجلد 9، طبعة 1966م.
- ضيف شوقي، في التراث والشعر واللغة، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1987م.
- ابن طباطبا العلوي محمد أحمد، عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005م.
- طه محمد، الذكاء الإنساني، اتجاهات معاصرة وقضايا نقدية، عالم المعرفة، العدد 330، غشت 2006م.
- عصفور جابر، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الخامسة 1995م.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق ابن الخوجة محمد الحبيب، الدار العربية للكتاب، تونس، طبعة 2008م.
- كيليطو عبد الفتاح، الأدب والغربة دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006م.
- وئباي بلاي، الذكاء الاصطناعي، ترجمة قسم الترجمة بدار الفاروق، القاهرة، مصر ط 1، 2008م.
- André BRETON, Manifeste du surréalisme 1924, Paris, Gallimard, coll. Idées, 1967
- Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, Paris, Edition Payot et Rivages, 1997
- Margaret A. Boden, Artificial Intelligence: A Very Short Oxford, University Press, UK, 2018

نظرية النظم وتطلعاتها الحجاجية عند عبد القاهر الجرجاني

د. مريم الهادي

جامعة محمد الخامس، الرباط

المملكة المغربية

الملخص:

عرفت البلاغة العربية مخاضا تطوريا عبر مراحل أزمنتها المختلفة شأنها شأن سائر العلوم؛ تتجدد بتجدد إبدالاتها المعرفية وضرورة تحولاتها، وسيرورة التفكير البلاغي العربي مبنية على التكامل بالأساس؛ فبعد أن كانت الدراسات البلاغية ذات وجهة بيانية في تفسير إعجاز القرآن الكريم، حيث شكلت النظرية البيانية المهاد التأسيسي لبلاغة الجاحظ، فقد تطورت البلاغة في رحاب فكر الزمخشري وابن المعتز وصُقلت الجهود في الفكر الأصولي مع عبد القاهر الجرجاني الذي فسح مجالا مهما للتجديد في البحث البلاغي؛ اصطلاحا وأسلوباً، بوعي نقدي عميق تجاوزت معه البلاغة العربية بلاغة اللفظ إلى بلاغة التركيب أو "النظم"، وأضحت تنظيراته وتحليلاته البلاغية للمقولات النحوية، تتخذ في طابعها بعدا تداوليا متظافرا وبعدها الجمالي الامتاعي، فما إلى حد اشتغلت هذه المقولات النحوية في نسق تداولي إقناعي؟ وماهي الأفاق الحجاجية لنظرية النظم؟

الكلمات المفتاحية: عبد القاهر الجرجاني، نظرية النظم، الحجاج، البلاغة العربية، التقديم والتأخير

1- تقديم

تختلف البلاغة العربية عن البلاغة الغربية؛ اختلافا جليا؛ من حيث ظروف نشأتها وتطورها، وكذا التحولات التي طرأت عليها وغيرتها بتغير السياقات التاريخية والمعرفية، وفق مشاهد الساحة النقدية وما تعرفه من تجديدات منهجية وتحليلية عديدة، وكذلك الأمر بالنسبة للحجاج، فإذا كان أصله في التراث الغربي يعزى إلى المنازعات حول ملكية الأراضي، وأنه أقيم على أسس ديمقراطية، فإن منشأ الحجاج في التراث العربي كتابة وتأليف هو الخطابة والشعر، إذ أولاه العرب عناية كبيرة لا تكاد تخلو منها كتب التراث العربي من تداول مصطلح الحجاج من جهة، ومُدرسة تحليلاته في الخطابات من جهة ثانية.

ألّف عبد القاهر الجرجاني كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وخصهما تفصيلا وتدقيقا لنظريتي علم البيان وبعض البديع وعلم المعاني، تجلّى فيهما وعي الرّجل بالممارسة الحجاجية، تأليفا وممارسة قبل بروزها تنظيرا، حيث يتميز خطاب الجرجاني بالترام واضح لُحْلُقات الحوار والمناظرة وبشّى أساليب التوكيد والتكرار والقصر ومختلف أساليب الحجاج التداولي التي اتخذ منها منهجا لمجادلة خصومه من المعتزلة، والدفاع عن مذهبه وما يتعلق بمسألة النظم ومحوريّتها في تفسير إعجاز القرآن الكريم.

وليس شاغل هذه الدراسة الوقوف عند الدور التأسيسي للجرجاني في تشكّل البلاغة العربية ونضجها، ولا مناقشة السبل القوية التي سلكها ليحاجج عن نظرية النظم وأفقها، فذاك مبثوث في مراجع خاصة، وإنما الغرض محدّد في الكشف عن المناحي الإقناعية لدى عبد القاهر وتفصي الملمح الحجاجي الذي يبشر بنظرية حجاجية متكاملة في الثقافة العربية.

2- صناعة القول والوظائف الحجاجية لنظرية النظم

اهتم الدارسون قديما وحديثا بمسائل التركيب وقضايا صناعة القول، وخصوا لها علما خاصا في الدراسات اللغوية والبلاغية وهو ما أسموه بعلم المعاني أو ما أوجزه الجرجاني في دلائله بنظرية النظم، إذ كانت جهود المتكلمين والبيانين البلاغيين بكل اختصاصاتهم قد بذلت أفاضها لبيان إعجاز القرآن، أمعجّر بلفظه أم بمعانيه أم بهما معا؟ فاشتدت المناقشات حول ثنائية اللفظ/المعنى وطبيعة العلاقة بينهما وعلى إثرها أسّس الجرجاني نظرية النظم، وانتقل بتلك النقاشات إلى مستوى آخر من الرؤية والتحليل، حيث خلّص بلاغة النص من النزعة اللفظية إلى نزعة تركيبية تنعّيّا النظر إلى النص باعتباره نسقا كليّا متكاملًا، وليس جزءًا متجزئًا أو ألفاظًا منفردة بل الألفاظ لا تفيد شيئا "حتى تؤلّف ضربا خاصًا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب أو الترتيب"⁽¹⁾، فالمزية انطلاقا من طرح الجرجاني لا تكمن في اللفظ وحده، ولا في المعنى وحده، ولكن المزية في تأليف الكلام وتركيب بعضه على بعض، وأن هذا الاختصاص في الترتيب يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل"⁽²⁾، وليس العقل عنده إلا إحكام للنحو ومنطق للغة⁽³⁾، وهي معانٍ لا تنحصر في أواخر الكلام من رفع ونصب وجر وما يقتضيه منطق الإعراب؛ فذاك واجب ومشروط في اللغة، غير أن المبتغى هو ما يوجب الفاعلية والمفعولية على وجه خاص وهو ما وضّحه الجرجاني من خلال قوله تعالى ﴿فَمَا رَاحَتْ بِحَارِثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إذ المزية ليست في كون تجارتهم فاعلا مرفوعا للفعل ربح، وإنما المزية في فاعلية التجارة وإسناد الفعل لها، إذ الربح مقترن عادة بالإنسان وليس بالتجارة فجاءت الآية بنظم يخالف ذلك لقطع الشك يقينا، ودفع المتلقي إلى استنتاج معنى لا يغمره شك بأن لا ربح لمن اشترى الضلالة بالهدى.

وقد زاد الجرجاني في توضيح ذلك عند وقوفه على الكناية وما تستدعيه من إثباتٍ لمعنى مرغوبٍ لدى المتكلم "فلا يذكره باللفظ

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة، السعودية، ط1، 1991، ص3.

(2) أسرار البلاغة، ص4.

(3) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة الثقافية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1986، ص86.

الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به إليه، ويجعله دليلاً عليه، ذلك من قولهم (هو طويل النجاد)، يريدون طويل القامة، و(كثير رماذ القدر) يعنون كثير القرى... فقد أرادوا من هذا كله، كما ترى، معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود⁽¹⁾، فيجعل المتلقي بذلك يساهم في إنتاج المعنى واستنتاجه عبر عملية ذهنية استدلالية؛ تنتقل من المعنى التقريري المتعارف للفظ إلى معنى آخر يثبت مقصدية المتكلم وغايته، فيكون بذلك المعنى للذهن أقرب وللتأثير والإقناع أنجع وأنسب.

إن تحليلات الجرجاني للمصطلحات البلاغية المعروفة من استعارة وتشبيه وتمثيل وكناية، تكسب طابعاً استدلالياً حجاجياً ترفع الخطاب من حالته التصويرية التخيلية الجمالية إلى حالة تصديقية تداولية، وهو ما أكده في أسرارهِ حين قال "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، وثقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كسأها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من ناراها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها (...). وإن كان حجاجاً، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبحر"⁽²⁾، ليتضح بهذا القول أن التمثيل حجة جمالية، وجمالية حجاجية، تبتغي إثبات صحة المعنى وإقراره في ذهن المتكلم عبر قياس استدلالٍ يتجاوز الأسس الجمالية الانفعالية إلى أسس عقلية إقناعية.

هذا، وأن الامتناع والإقناع لن يتأتيا إلا بفهم دقيق يجعل ذهن ينتقل عبر هذه الأساليب البلاغية من معنى اللفظ التقريري إلى معنى المعنى، وذاك مشروط بالضرورة كما فسره الجرجاني في نظرية النظم بتناسق الألفاظ ودلالاتها والمعاني الكاسية لها وموقعيهما موقعاً منطقياً حميداً، ولعل هذا ما لخصه في قوله (يقضي العقل).

يتبين أن الجرجاني قد بذل جهداً كبيراً في الدفاع عن نظريته وإبطال دعوى المدعين بمحصر الفصاحة في اللفظ وجماليته فحسب، أو في تلاؤم أصواته وحروفه فقط، فجوهر البيان عنده يكمن في انسجام المعنى المؤلّد في علاقات الألفاظ فيما بينها، واتخاذها موضعاً مطمئناً في سياق تركيبى خادم لمعنى النص في كليته وراسخ لأفكار المتكلم وغرضه ومؤثر في المتلقي واستحسانه، وهذا لا يعني ألبتة التقليل من شأن اللفظ ووظيفته، فالألفاظ "ليست أداة اتصال فحسب، ليس مطية أو وعاء للأفكار وحسب، بل إنها إمارة عليها ودليل إليها. إنها بمثابة الحد الأوسط الذي بدونه لا يمكن الانتقال من المقدمات إلى النتائج"⁽³⁾، أي أنها عنصرٌ أساسٌ في العملية البيانية وركنٌ تراكميٌّ مهم لتحفيز الفاعلية الحجاجية لدى المتكلم.

3- شعيرة النظم وحجاجية مقولاته النحوية

شكل النحو ومعانيه مركزاً محورياً تدور في فلكه نظرية النظم وتقوم عليه، وليس النظم، كما يعرفه الجرجاني، "إلاّ توحي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم، وأنتك قد بينت أنه إذا رُفع معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتى لا تُرد فيها جملة ولا تفصيل، خرجت الكلم المنطوق ببعضها في إثر بعض في البيت من الشعر والفصل من النثر، عن أن يكون لكونها في مواضعها التي وُضعت فيها موجبٌ ومقتضى، وعن أن يُتصوّر أن يقال في كلمة منها أنها مرتبطة بصاحبة لها، ومتعلقة بها، وكأنه بسبب منها"⁽⁴⁾، فالفائدة فيما ذهب إليه الجرجاني تكمن في المعاني التي تنشأ من العلاقات بين مكونات الكلم، وهي معاني يكتسبها اللفظ بناءً على سياق فرض تلك العلاقات؛ إنها "المعاني الذهنية التي تتولد في فكر المتكلم عند نظم الجمل"⁽⁵⁾، فيختار اللفظ الملائم

(1) دلائل الإعجاز، تصحيح محمد رشيد رضا، بيروت، لبنان، د.ت. ص 66.

(2) أسرار البلاغة، ص 115.

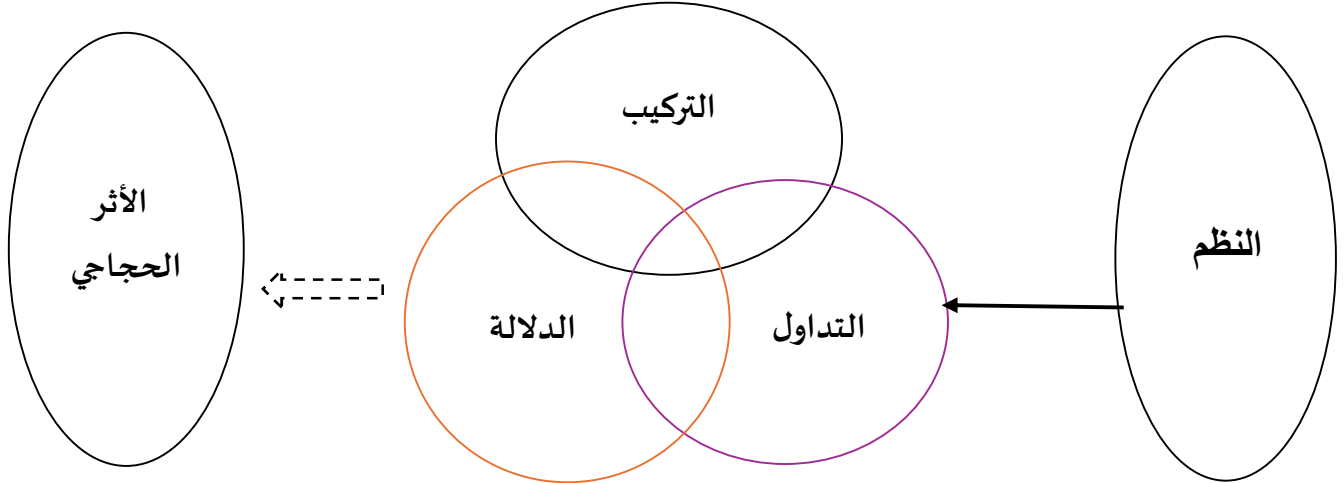
(3) بنية العقل العربي، ص 89.

(4) دلائل الإعجاز، ص 525.

(5) سناء حميد البياتي، قواعد النحو في ضوء نظرية النظم، دار وسائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2003، ص 15.

في نظم مناسب يقتضي تحقيق المعنى وتحصيل القصد.

إن القول بهذا المعنى يشكل تركيباً لسانياً منطقياً إلى حد ما، يتحقق وفق شروط تراعي العلاقة الداخلية لمكونات التركيب لفظاً ومعنى، وتفاعل هذه المكونات "نظماً" يمنح القول قوة دلالية وخصوصية حجاجية، وهذه الأخيرة تشكل بعداً وظيفياً غير مباشر بمنح القوة والتأسيس من أبعاد النظم الأخرى التركيبية منها والدلالية والتداولية، وهو ما توضحه الخطاطة الآتية:



تلخص هذه الخطاطة؛ أبعاد النظم المتداخلة في نسق لغوي محكم، يتمثل في⁽¹⁾:

- أولاً: الاتساق التركيبي، وهو ذلك الإحكام الداخلي للغة عن طريق قواعد النحو التي تقوم بإيضاح الفروق بين معاني الكلم.
- ثانياً: التناسق الدلالي، المتمثل في صلابة المعنى الكلي انطلاقاً من معاني الكلمات المتجاورة معجمياً.
- ثالثاً: التلاؤم التداولي، حيث المقتضيات المقامية تكون حاضرة في النظم، وتلعب دور الملاءمة بين السياق الداخلي اللغوي والمقام الخارجي.

إنها مداخل ثلاثة تفصح عن وعي الجرجاني بخصائص التركيب التي تخدم مقاصد المتكلم وغايته، وفهم هذه المقاصد وتكييف متداخلات النظم لها يحقق، لا محالة، طابعا حجاجيا في الخطاب ويترك أثرا إقناعيا عند المتلقي، فتكون بذلك الوظيفة الحجاجية نتيجة غير مباشرة لتفاعل عناصر النظم الأخرى.

وقد سلك الجرجاني في تحليلاته البلاغية لنظرية النظم مسلكاً منطقياً عقلياً أعطى فيه الأهمية الكبرى للمقولات النحوية وخواص تراكيبها الدلالية والتداولية والجمالية، التي ليست لها الفضيلة والمزية في ذاتها ولنفسها "بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضوع، وبحسب المعنى الذي تريده والغرض الذي تؤم"⁽²⁾.

(1) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط 2012/1م، ص 73.

(2) دلالات الإعجاز، ص 121.

أ. التقديم والتأخير

بعد أن تم تحديد مزية النظم في وجه من أوجهه، نجد الجرجاني يعقد فصلاً ينظر فيها إلى مكونات نظرية النظم فيبدأ بالتقديم والتأخير، ويحدد مزيته في أنك "لا تزال ترى شعراً يروك مسمعاً، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدّم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكانٍ إلى مكانٍ"⁽¹⁾، وهذا التحويل في اللفظ غير متاح إلا لمن يمتلك كفايات لغوية وبلاغية واسعة، فينظم كلامه وفق غايات يقصدها، فيقدم قولاً ويؤخر آخر ليحدث أثراً، إذ إننا لا نتكلم لأجل الكلام فحسب، أو لغاية النطق فقط، ولكننا نتكلم لتواصل ونحدث تأثيراً أو نغير تفكيراً، نتكلم لأجل أن نجعل الآخر يتفاعل مع ما نتكلم فيه، فنسخر ما نتكلم به لاستيعاب مقصديتنا؛ فنحدث تغييرات تركيبية وتعديلات تعبيرية، تسمح للتركيب بأن يتميز بنوع من التعدد الدلالي وبنوع من الغموض الشعري، يحدث أثراً فجائياً في نفس المتلقي فيجعله يسعى جاهداً لفك شفرات النظم فيبلغ به الأمر حداً من التبصر والتحقق واللفظ والاستحسان لا يبلغها به التركيب المألوف العادي.

لقد نظر الجرجاني إلى بُنَيَات التقديم والتأخير وإثبات فضيلتها وفائدتها في كل الحالات، حيث أكد أنه "من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيداً في بعض الكلام، وغير مفيد في بعض، وأن يعلل تارة بالعبارة، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذلك سجعته. ذاك لأنّ من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل تارة أخرى"⁽²⁾، وهو قول ينحو بنا إلى تأثيرية التقديم والتأخير في معنى النص كيفما كان، بوصفها حاصل قصد في ذهن المتكلم الذي رتب لها لفظاً واختار لها موضعاً كي يصيب القصد ولا يخطئه، فالمعاني مطروحة في الطريق كما يقول الجاحظ، ولكن المزية في الكيفية التي يمكن بها تبليغ تلك المعاني إلى المتلقي، فتفعل فيه وتؤثر في نفسه أيما تأثير.

وقد وقف الجرجاني على الحالات التي يجيء بها التقديم والتأخير وتكون لغاية التمييز بين المعاني المختلفة في ذهن السامع، ومن ذلك قوله في الاستفهام والتقديم والتأخير "والقول في ذلك أنك إذا قلت: أتفعل؟ وأنت تفعل؟ لم يخل من أن تريد الحال أو الاستقبال. فإن أردت الحال كان المعنى شبيهاً بما مضى في الماضي، فإذا قلت أتفعل؟ كان المعنى على أنك أردت أن تقرره بفعلٍ هو يفعله، وكنت كمن يوهّم أنّه لا يعلم بالحقيقة أن الفعل كائنٌ، وإذا قلت: أنت تفعل؟ كان المعنى على أنك تريد أن تقرره بأنه الفاعل، وكان أمرُ الفعل في وجوده ظاهراً، وبحيث لا يحتاج إلى الإقرار بأنه كائن، وإن أردت ب (تفعل) المستقبل، كان المعنى إذا بدأت بالفعل على أنك تعمّد بالإنكار إلى الفعل نفسه، وترغم أنه لا يكون، أو أنه لا ينبغي أن يكون"⁽³⁾، وذاك واضح في قوله تعالى من سورة الأنعام ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَنْتُمْ وَلِيًّا﴾ إذ أفاد فيها تقديم المفعول إنكاراً واضحاً، حيث أنكر أن يتخذ غير الله ولياً، لأن ذلك من المحال والجهل الأعمى أن يتخذ غير الله ولياً، ولو تقدم الفعل ما أدى هذا التخصيص والإنكار الشديد وإنما يصبح السؤال عابراً لا يعني شيئاً. إنما توجيهات تسيّر بالسامع نحو مقصدية المتكلم، فتكون الهمزة إنكاراً، أو إقراراً أو نفيًا؛ مقولات نحوية ذات بعد تداولي يتوسلها المتكلم بإدراك واعٍ ليحقق جملة من الأغراض الإقناعية.

وعلى هذه الشاكلة في دقة المعاني الجديدة المضافة في حالات التقديم والتأخير، يعرض الجرجاني النفي والحذف، إذ يقول "فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه، وحذف في الحال الذي ينبغي أن يحذف فيها، إلا أنت تجد حذفه هناك

(1) دلائل الإعجاز، ص 106.

(2) نفسه، ص 110.

(3) نفسه، ص 116.

أحسن من ذكره وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به⁽¹⁾، فيتجاوز بذلك الحذف بعده النحوي إلى بعد دلالي تداولي يتغيّا تحصيل تأثير القول الذي فيه الحذف في تحريك نفس السامع، يعمل على إشراكه في التفكير والتأمل والتأويل وإعادة بناء تركيب جديد يُستشف من خلاله المعنى المقصود من الحذف المعمول، فيكون الحذف "بنية لغوية مفتوحة تدفع المتلقي إلى المشاركة والاستمتاع بمتعة ملء الفراغات"⁽²⁾، وهذه الفراغات تجعل التركيب مكثفاً؛ يعطي المعنى بإخفائه، ويقول الشيء بعدم قول كل شيء؛ إنه لغة خاصة تستحضر المتلقي ومقاماته بشكل أساس، ويوضح لجرجاني ذلك بذكر مجموعة من الشواهد منها قول عمر بن أبي ربيعة من (البسيط)⁽³⁾:

هل تعرفُ اليومَ رسمَ الدارِ والطَّلَا
كما عرَفْتَ بجفن الصَّيْقَلِ الخِلَا
دارٌ لِمَرْوَةٍ، إذْ أهلي وأهلُهُم
بالكَانِسيَّةِ، نَرعى اللّهُوَ والعَزَلَا

فالشاهد في البيت الثاني أن "دار" خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هي)، كما لو قال هي دارٌ لمروءة، وكأن البيت الأول قد استقلّ بمعناه وبدأ البيت الثاني بدلالة جديدة، وقد جاء كذلك ليصور الشاعر تعلقه الشديد بديار محبوبته، فجسد بالحذف حسرتة وضيق نفسه حين تذكّر الأطلال، ولو ذكر المبتدأ لما كان المعنى مكثفاً عند المتلقي كحذفه، حيث أدى الحذف وظيفة حجاجية مقترنة بسباق البكاء على الأطلال وآلام البين عن الحبيب، سعى من خلالها المتكلم إثارة إحساس المتلقي وإقحامه في دائرة الألم التي يعيشها وإقناعه بقسوتها.

لقد بحث الجرجاني في مختلف البنيات النحوية لنظرية النظم من تقديم وتأخير وفصل ووصل وجزاء وإضمار وتعريف وتنكير، ووقف على تبيان مزيتها وفضلها في شرف المعنى وتكثيفه وحسن تبليغه، كاشفاً أنها مرد استحسان نص من غيره، وبيت عن دونه، فتحصيل ذلك ليس إلا أن صاحبها "قدّم وأخر، وعزّف ونكّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكّرر، وتوخى على الجملة وجهها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو، فأصاب في ذلك كله، ثم لطف في موضوع صوابه، وأتى مأثى يوجب الفضيلة"⁽⁴⁾، وهي بنيات تخضع لمقاصد المتكلم وأغراضه، وقد بينا وجهها من أوجهها في التقديم والتأخير، وارتأينا تأجيل الوقوف على باقي البنيات لتتضح أكثر وتبين أفضل في الشق التطبيقي، إذ الغاية في هذا المبحث كشف الأفق الحجاجي لتنظيرات الجرجاني وتبين ملمح الوعي بالممارسة الإقناعية، وليس الوقوف على كل تفاصيلها ومعالجة دقائقها.

نخلص القول إلى أن تنظيرات الجرجاني وتحليلاته البلاغية للمقولات النحوية، تتخذ في طابعها بعدا تداوليا متظافرا وبعدها الجمالي الامتاعي. في اتساقٍ يهدف في نهاية الفعل إلى توجيهه أو تحسين أو تقبيح أو منح المتلقي موقفاً أو تغيير آخر، لتكون المنفعة في أسمى تمظهراتها داخل البناء الخطابي.

(1) دلالات الإعجاز، ص 152-153.

(2) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط 1، 2014م، ص 234.

(3) ديوان عمر بن أبي ربيعة بن مغيرة بن مخزوم (644-712)، شاعر الحب والجمال، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، د ط، ص 230.

(4) دلالات الإعجاز، ص 80.

المصادر والمراجع

- حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط1، 2014م.
- سناء حميد البياتي، قواعد النحو في ضوء نظرية النظم، دار وسائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2003م.
- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1/2012م.
- عبد القاهر الجرجاني:
 - أسرار البلاغة، تح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة، السعودية، ط1، 1991م.
 - دلائل الإعجاز، تصحيح محمد رشيد رضا، بيروت، لبنان، د.ت.
- عمر بن أبي ربيعة بن مغيرة بن مخزوم (644-712)، شاعر الحب والجمال ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، د ط.
- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة الثقافية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1986م.

ما هي السيميائيات المعرفية؟
إطار معرفي جديد لدراسة المعنى*
بير آج براندت**

تقديم وترجمة: يونس لغويبي

طالب باحث بسلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة السلطان مولاي سليمان ببني ملال
المملكة المغربية

الملخص (المترجم):

الدراسة الماثلة بين أيدينا، هي عبارة عن مقالة متخصصة في مجال السيميائيات، مترجمة عن الإنجليزية، موسومة في لغتها الأصل بالعنوان: "What is cognitive semiotics? A new paradigm in the study of meaning"، للباحث "Per Aage Brandt"، نشرت بمجلة "Signata" عام 2011. وهي تنتمي إلى الدراسات المؤسسة لمجال السيميائيات المعرفية، التي تهدف إلى دراسة كيفية إنتاج المعنى، من خلال دراسة الدعامات السيميائية الكامنة في ذهن البشري ونفسيته على السواء. سعى الباحث في إطارها إلى الوقوف على مبادئ معرفية تحدد في المقام الأول العلامة وتجعل التدليل بها ممكناً، ثم تميز أنواعاً ضرورية منها في المقام الثاني، قبل أن تخلص إلى قوانين معرفية تفسر الخيال البشري وتشرح آليات إبداعه للصورة البلاغية وكيفية تشكيله للمعاني المختلفة والمتنوعة.

ولقد دعانا إلى ترجمتها إلى العربية وتقديمها إلى القارئ العربي أولاً ندرة الدراسات العربية، الأصيلة منها والمترجمة، التي تهتم بالسيميائيات المعرفية، وثانياً سياحتها في عدد من المقاربات والنظريات والأفكار المتنوعة والثورية والحديثة، استند إليها الباحث في الدراسة لبناء موضوعه المعرفي، والحديث هنا عن اعتماده على معطيات وأفكار من مجالات علمية متنوعة؛ كاللسانيات والكيمياء العضوية والفلسفة الظاهرية والمعمارية التاريخية... كذلك استناده إلى المبادئ السيميائية التي أسستها مدارس سيميائية مختلفة؛ كسيميائية غريمناس وبورس وإيكو... بالإضافة إلى إدماجه لنظرية المزج المعرفي (أو الفضاءات المعرفية الذهنية)، ثم هناك مسألة مقارنته لقضية إنتاج المعنى وتداوله من خلال أعمال النظر الفلسفي.

وختاماً، نأمل أن تفتح هذه الدراسة - بما ضمته من أفكار ثورية - أمام الباحث العربي آفاق البحث في قضايا معرفية مستجدة، تخلص به إلى نتائج تتسم بالمرونة والشمولية والواقعية.

الكلمات المفتاح: السيميائيات المعرفية؛ الاستعارة التصورية؛ نظرية الفضاءات الذهنية؛ المزج التصوري؛ السيميوزيس.

* Per Aage Brandt, « What is cognitive semiotics? A new paradigm in the study of meaning », Signata, 2 | 2011, 49-60 (الرجع الورقي).

Per Aage Brandt, « What is cognitive semiotics? A new paradigm in the study of meaning », Signata [En ligne], 2 | 2011, mis en ligne le 30 septembre 2016, consulté le 03 mai 2023. URL: <http://journals.openedition.org/signata/526> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/signata.526> (الرجع الإلكتروني)

** بير آج براندت: من مواليد سنة 1944، وهو أستاذ للعلوم المعرفية متقاعد، شارك في تأسيس "مدرسة الكتاب" بكونينهاغن، ومركز السيميائيات بجامعة آرهوس سنة 1991، ثم مجلة السيميائيات المعرفية سنة 2007، كما شارك في تأسيس حلقة السيميائيات في باريس سنة 2011. نشر عدداً من القصائد والترجمات والدراسات، من مؤلفاته: "المساحات والمجالات والمعنى" سنة 2004، ثم "الموسيقى والمعنى" سنة 2015.

تمهيد:

لابد أن الباحث اليوم، وهو يشتغل في أحد مجالات العلوم الإنسانية، أن يكون قد وقف عند ظاهرة استعانتها جميعا بما يسمى بالعلوم المعرفية، حتى أضحت المقاربة الأساسية-إن لم تكن الوحيدة- التي يقارب بها قضاياها، وذلك بالنظر إلى حدائتها وثوريتها وشموليتها وقدرتها بفعل تقاطع تخصصات علمية عديدة في ساحتها على الإجابة عن أسئلة العصر. غير أن الباحث العربي سيتعثر في هذا الإطار بندرة الدراسات العربية التي تستند إلى مقاربات معرفية، ومجال السيميائيات واحد منها، إذ تكاد الساحة العلمية تخلو من الأوراق البحثية باللغة العربية التي تعرّف بالسيميائيات المعرفية، وهو ما دفعنا إلى ترجمة هذا المقال من الإنجليزية، مع التعليق عليه بما ينفع الباحث، ويفتح أمامه فرص تمثل أشمل لآليات الذهن في إنتاج وإدراك الدلالة.

والملاحظ أن حقل العلوم المعرفية هو ساحة مشتركة بين تخصصات عديدة، هي اللسانيات وعلم النفس وعلم الإنسان والحوسبة والذكاء الاصطناعي وعلوم الأعصاب، مما يجعل الدراسات المعرفية تكتظّ بالمفاهيم النظرية والإجرائية المتنوعة التي تنتمي إلى مجالات مختلفة، بحيث فهمها في المجال المهدف يستدعي بالضرورة إدراكها في المجال المصدر، ولذلك سيجد القارئ في هذه الورقة العلمية المترجمة، إحالات للمترجم إلى شروحات وطلّنها الهامش، لتبسط مفاهيم ومعطيات، يتوقّف عليها تمام استيعاب الدراسة.

هذا وقد ارتأينا أن نمهّد لترجمة هذا المقال، بهذا التقديم الذي لا ندعي من خلاله أننا نعرض خلاصات الدراسة أو نركّز محتوياتها، ولكننا حاولنا تعزيزاً لفهم القارئ، إفاد تعليقات وملاحظات وأمثلة، تخصّ فقرات بعينها أو جزء منها، بحيث يمكن للقارئ له أن يعود إليها متى استغلق عليه أمر في الدراسة.

أول محور في الدراسة عنوانه صاحبه ب: "تصنيف العلامة: الجدار"، ويضم الفقرات من (2) إلى (11)، وفيه يتصوّر الباحث جدارا ظاهرا يعزل موضع الدال القريب الذي يمكن استقباله بالحواس، عن موضع المدلول البعيد الذي يمكن فهمه وتصوّره، ولما كان لويس يامسليف يتحدث عن اقتضاء متبادل بين صعيدي التعبير والمحتوى، فقد عمد الباحث إلى تقسيم الذهن أو الزمكان التجريبيين إلى جانب يتم فيه إدراك التعبير عن قرب، وآخر ينمو فيه المحتوى عن بعد كما تم تصوّره، بحيث يكون الدال سياقيا بشكل ضمني وجوهري، في حين أن المدلول يكون تصوّريا ودلاليا. وهنا نعرض فكرة تم التطرق إليها في الفقرة (4)، وهي أن الجدار السيميائي يفترض وجود مماثلة بين جانبي الجدار، أو بين طرفي الأيقونة (الدال والمدلول). لكن فيما يخصّ الأيقونات، ولأن تأويلها يقتضي توسيع ما نراه عبر الجدار ليمتدّ إلى التصديق بما هو غير مرئي عليه، فهي تحيل فقط إلى ما يُحتمل أن يكون صحيحا. تساهم هذه الفكرة في تمثّل النتيجة التي انتهت إليها الفقرة (6)، التي تقول باستناد التواصل الإنساني بالأساس إلى وجود أيقونات تظهر لنا جميعا على الشاكلة نفسها، إذ يقود استقبالنا لها إلى الاعتقاد بتقاسم محتوى الرؤية الموسّعة ذاتها. وفي الفقرة (7) يتناول الباحث موضوع المؤشرات؛ فيقول إن المؤشرات روائح كانت أو أصواتا أو مشاهد، تثير تساؤلات الانسان، الذي يستند إلى معرفته لكي يبحث عن العلاقات السببية التي تصل بينها وبين المدلولات التي ما تزال متوارية عنه خلف الجدار. وهكذا يقود قراءة المؤشرات المؤوّل إلى الوقوف على تصنيف زمني ثلاثي للعلامة الطبيعية: أن تظهر كأثر يحيل إلى حدث ماض، أو كعرض يؤشّر على حالة تقع آنيا، أو كبشارة أو نذر يدلان على واقع يفترض أن يحدث في المستقبل. وعليه، فالعلامة الطبيعية لا بدّ وأن تتوسط بيننا وبين الأحداث الماضية أو الحالات الحاضرة أو الوقائع المنتظرة، ولا يمكن أن ننفذ إليها فورا ومباشرة. أما في الفقرة (8)، فقد تمّ التطرّق إلى مظهر مثير في الرموز؛ والحديث هنا عن قدرتها على الاشتقاق، وهو الذي قصد به الباحث قدرتها على إعادة إنتاج فكرة أو جانب معين منها بواسطة رمز يمكن إدراكه حسيا، بحيث يشتغل ذلك الرمز كمجاز، ومثال ذلك رمز الحمامة التي ترتبط معنويا بفكرة السلام.

ينتهي المحور الأول ويبدأ ثان يحمل عنوان: "الفضاءات الذهنية"، ويمتد من الفقرة (12) إلى الفقرة (18). في الفقرة (12) نفهم أن الفضاءات الذهنية لا تقتصر فقط على المعرفة والأفكار والمعتقدات التي استقرت داخل ذهننا، بل تشمل كذلك عناصر من الفضاء الحقيقي الذي نعيش فيه، مثل المعطيات الكمية والنوعية المتعلقة بالمكان والزمن والأشخاص والأشياء، كلها تمثل وتُنقل إلى الفضاء الذهني لتكون جزءاً من تفاعلاتنا العقلية وتجاربنا الذهنية. وعليه، يكون الفضاء السيميائي القاعدي يضم عناصر مختلفة، مثل الأفكار والمفاهيم والإشارات والعلامات والرموز والأنماط اللغوية... يتم استخدام هذه العناصر لتكوين وفهم التجارب الذهنية. في الفقرة (13) يشير الباحث إلى كون كل من الوقائع الأسطورية والقصص الخيالية والمبادئ الفلسفية والحقائق الرياضية وفرضيات البحث العلمي، والأفكار الافتراضية والذكريات الشخصية، وشظايا المعرفة الموسوعية (التي يعطي جمعها أفكاراً عامة تخص موضوعاً محدداً)، والتاريخ الفلسفي وتاريخ الأفكار... أشياء توجد في الذهن فقط ولا أثر لها بالضرورة في الواقع الخارجي. تستقر جميعاً في فضاءات ذهنية مجالية، يستدعيها الفضاء الذهني القاعدي متى تم الإحالة إلى شيء غائب عنا أو حاضراً، يتعلق مع أحدها أو مع عدد منها. أما بخصوص ما جاءت به الفقرة (16)، فنوضحه بما يأتي: يفوّض الفضاء الذهني القاعدي لبناء المعنى فضاءين ذهنيين، هما: فضاء العرض الوصفي الذي يحتوي على المحتوى العام، يشغله من أجل التعبير عن الصفات والخصائص العامة للموضوع وتوصيفها، ثم الفضاء المرجعي الذي يعرض المحتوى الديكتيكي، الذي يمكنه من معطيات تعين السياق المكاني والزمني للموضوع وتوضيح العلاقات بين العناصر المختلفة. وهكذا يعمل فضاء العرض الوصفي كإطار يحدد السياق العام والإطار التفسيري للمحتوى الذهني، ويوفر الخلفية العامة التي تمكننا من فهم وتفسير العناصر المشار إليها في الفضاء المرجعي. ويتم مزج العناصر التي تم استدعاؤها إلى الذهن أثناء التفكير في شيء معين، من الفضاءين في فضاء المزج الذهني، وهنا يتدخل مخطط الارتباط لتنظيمها وترتيبها بطريقة مناسبة ومنطقية، فنكسب الشيء مع مدججاته معنى، وحينذاك يظهر مبدأ الارتباط الذي يحمل أهمية وعلاقة وثيقة بالموضوع المعني، تكون له قيمة دلالية خاصة تتجلى في عاطفة أو أمر ملزم. ومن خلاله يمكن رؤية شيء ما على أنه شيء آخر أو شيء محدد (أو يمكن أن نقول كذلك أننا نتمكن من رؤية الشيء المشار إليه في وضع يحدده ما يدور في فلكه من خصائص وصفات ومعطيات)، فيدفع بالتالي بسيرة التفكير أو التأويل إلى الاستقرار.

في المحور الثالث المعنون ب: "الاستعارات"، والذي يضم الفقرات من (19) إلى (23)، يتناول الباحث الاستعارات التلقائية التي تتميز بانتفاء محتوي الإدخال الخاصين بالفضاءين: العرض الوصفي والمرجعي، إلى المجال المعرفي نفسه، ولقد مثل لها بأمثلة نذكر مثلاً خاصاً اهتمام به وهو الآتي: "تُظهر البيانات أن مناخ القطب الشمالي يستقرّ على جليد رفيع سمكه". الباحث سيوضح كيفية بناء هذه الاستعارة من خلال شبكة دلالية، فنلاحظ أن المجال المرجعي يضم موضوعي المناخ في القطب الشمالي والجليد وكذا المعطيات التي تعكسها البيانات، تطبق عليه عناصر من فضاء العرض الوصفي التي ستقدم توصيفات وخصائص عامة تتعلق بعناصر الموضوع: ومنها سمك الجليد ومستويات الحرارة والظواهر الطبيعية المصاحبة... بعد ذلك يقع المزج الأول الذي نحصل على أثره على معنى ذي طابع هزلي: "جليد فوق الجليد" (أظن أن مرّد هذا المزج هو التفاعل بين فضاءي الإدخال الذي يقود إلى أن القطب الشمالي يعني الجليد، أي طبقات متراكمة من الجليد)، يتم العودة بنتيجة المزج إلى فضاء العرض الوصفي مرة أخرى وفي هذه المرة يفترض الباحث إمكان أن يلحق بالعناصر الممتزجة معطيات تنتمي إلى تجزئات موضوعاتية قريبة من الموضوع أو تتعلق معه، كأن تكون المثل الدانماركي: "لا وجود لبقرة فوق الجليد" الذي يعني: "لا إشكال يلوح في الأفق"، ثم يتدخل مخطط الارتباط لتنظيم العناصر الممتزجة وترتيبها بطريقة مناسبة ومنطقية، وهو ما يقود إلى إكساب الموضوع مع مدججاته معنى، وبالتالي إلغاء الطابع الهزلي للمزج الأول، وهكذا يتشكّل مزج ثان عبارة عن صورة ذهنية تشير إلى كارثة بيئية وشيكة، يعود بها الذهن مرة أخرى إلى فضاء العرض الوصفي لصياغتها في قالب يضمن التأثير والانتباه.

أما في المحور الرابع المعنون ب: "السيميويزيس باعتباره شبكة"، والذي يشمل الفقرات من (24) إلى (27)، فقد اعتبر الباحث فيه العلامة عبارة عن عمليات ذهنية، ومثل لبنياتها بواسطة شبكة المرجح السيميائي للفضاءات الذهنية، معتبرا المحتوى في فضاء العرض الوصفي يضمّ الدّوال، فيما المحتوى في الفضاء المرجعي يحيل إلى المدلولات، أما المؤول فهو سنن تفسيري ينبع عن فضاء الارتباط، ويظهر ناتج هذا الترابط الدلالي في المرحلة الثانية من المرجح باعتباره معنى قابلا للتقاسم. لينتقل الباحث تاليا إلى استنتاج غاية في الأهمية، يقول بأن البلاغة التي يولدها ذهن البشري هي سيميوزية؛ أي تشتغل كعمليات تدللية ذهنية. ونوضّح هذه الفكرة المحورية في الدراسة بمثال من عندنا يمثل للعمليات والبنيات التي عرضها الباحث، فتمثلنا للحياة (مهما طال أمدها) بأنها تبدو لصاحبها دائما قصيرة، يقودنا على مستوى ذهن إلى ارتباط الحياة باعتبارها دالا ومن خلال السيميويزيس مع الأمد القصير باعتباره مدلولا، يعود ذهن البشري بالترابط: "الحياة/الأمد القصير" إلى فضاء العرض الوصفي لإخراجه في صيغة مؤثرة ومثيرة للانتباه، وهكذا من الممكن أن يكون الناتج صورة بلاغية تتجلى في التعبير الآتي: "نولد على حافة قبر، نولد ونحن نحتضر"، وهنا نتبين أن صورة بلاغية نتجت عن فكرة تم مقاربتها في ذهن بواسطة سيرورة سيميوزية؛ أي بواسطة عمليات تدللية ذهنية.

يختتم الباحث دراسته بملحق فلسفي عنوانه ب: "تجريد ذهن من الجسد"، استند فيه إلى أنطولوجيا رينيه ديكرت، التي تميّز بين واقع مادي زمكاني، وآخر لا مادي ولا مكاني ولا زمني، إذ يتوافق -لدى الباحث- المعنى القابل للاستبطان مع الواقع الثاني غير المجسّد، فيما يقع ما يحيل إليه في الواقع الأول المادي. تقود التوافقات المتقابلة الباحث إلى تناول طبيعة المعنى الناتج عن السيرورة السيميوزية في نموذجها المعرفي، هكذا يصرح بأن المعنى يصبح قابلا للإدراك في اللحظة نفسها التي يصبح فيها حالة محتملة يتقاسمها العموم. يقودنا ذلك إلى إدراك أن المعنى ولو أنه ينتمي إلى الواقع اللامادي غير الزمني وغير المكاني، أي أنه مجرد من الجسد، إلا أننا نحتاج إلى تجسيده لكي نتقاسمه، وفي هذا الإطار، نعتبر العلامات السيميائية الوسيلة التي نمتلكها لإنزال المعنى من عليائه المتعالي عن التجسيد، لكن في سبيلنا إلى تجسيد هذا المعنى تعترضنا عوارض: أولها تتمثل في تمايز المعنى عن أجسامنا باعتباره عالما مستقلا، وثانيها أن أجسامنا تعيش في عالم يتشابه في الواقعي والخيالي، ثم آخرها تتمثل في أن أجسامنا هي في حد ذاتها علامات سيميائية، وعليه، يكون تجسيدنا للمعنى محدودا جدا في أحسن أحواله، ليبقى المعنى دائما وأبدا عصيا عن التجسيد.

وأخيرا نشير إلى أن الدراسة الماثلة بين أيدينا هي دراسة متخصصة، تزدهم بالأفكار والمفاهيم والتحديدات والإجراءات التي يمكن استثمارها في المشاريع البحثية الخاصة، وتغري قارئها بالاستزادة منها أو تعميقها من خلال الاطلاع على أعمال الباحث (بير آج براندت)، أو أعمال الباحثين الذين يحيل إليهم هنا، كلايكوف ولاين براندت وبيرس وغريماس وفوكونيه وتورنر وسورل وسمير زكي...

الملخص (الباحث):

تميّز نماذج ثلاثة تطوّرت السيميائيات الكلاسيكية في نطاقها: النموذج الأول انطلق من اللسانيات (من فردناند دوسوسير إلى رولان بارت وإيميل بينفينيست)، والثاني من المقاربات المنطقية-السلوكية (من شارل ساندرس بورس إلى توماس سيبوك وأومبيرتو إيكو)، أما النموذج الثالث فهو الذي نحل بشكل استثنائي من هذا وذاك (رومان جاكسون). ورغم أنه تم تقديم أفكار ونتائج مهمة في كل نموذج من هذه النماذج، إلا أنها خضعت لقيود عرقلت مسار نموّها وتطوّرها، إذ نجد الرفض البيروني للأسس النفسية من جهة، وفي الجهة المقابلة نجد أتباع دوسوسير يؤمنون باللغة والخطاب أصولا للمعنى.

ومهما يكن، فالتواصل اللغوي ليس سوى شكل واحد من أشكال التعبير، إلى جانب الموسيقى وحركات الجسد والصورة، التي تشكّل دعائم سيميائية للذهن البشري، ولا يمكن إدراك كيفية إنتاج المعنى دون دراسة عميقة للخصائص السيميائية لهذه الدعائم الكامنة في ذهن الإنسان ونفسيته على السواء، والتي لا تنفصل عن خصائص الإدراك البشري الرئيسي. وهذا الفهم يكشف عن المسعى الأساسي للسيميائيات المعرفية، التي تحفزها التحديات الآتية: إيجاد المبادئ التي تحدد العلامات وتجعل التدليل بها أمراً ممكناً وتجعل كذلك أنواعاً محددة منها ضرورية، ثم إيجاد القوانين الممثلة للذهن التي تسمح بتطور الخيال البشري والإبداع في المعاني وتمايزها في الخطابات والممارسات المتعددة التي تميز أنواعنا وثقافتنا، وأخيراً إيجاد المبادئ الأساسية التي تسمح لنا بالوقوف على معنى (وحتى لا معنى) العالم الذي نعيش فيه.

وعليه، سأقدم في هذا النص نظرة معرفية تم تصنيف العلامات والاندماج التصوري (المرج) ثم الاستعارة، وفي نهايته سأناقش بإيجاز وبإعمال النظر الفلسفي طبيعة المعنى، مقتنعاً بأنه لا يمكن لأي دراسة للمعنى أن تزدهر بدون الفلسفة.

الكلمات المفتاح: الفضاءات الذهنية - الاستعارة - المرجع.

نص الدراسة كاملاً:

1. إذا كانت السيميائيات تدرس المعنى، وكانت العلوم المعرفية تدرس الذهن، فإن السيميائيات المعرفية هي دراسة العقل والمعنى، أي طرق إنتاج المعنى واشتغاله في ذهن الإنسان (وفي الحالة المثالية، في أذهان الحيوانات بشكل عام). وعلى النقيض من ذلك، إذا كان المعنى في تمثّل سيميائي يعدّ نوعاً من الطبيعة الجامدة مثله مثل المجموعة الشمسية، أو قسماً من الكائنات الحية التي ليس لديها أدمغة مثل النباتات، أو من علم الوراثة كالحمض النووي (كما هو الشأن في أنواع من السيميائيات الحيوية)، فهذه التمثيلات جميعها لا تنتمي إلى نطاق السيميائيات المعرفية (وبدلاً من ذلك قد تكون خاصة بنوع من السيميائيات الحيوية). علاوة على ذلك، إذا تم قبول الأذهان على أنها تتألف فقط من إدراكات حسية أو محتوى لا يمكن وصفه، لأنها لا توفر في الواقع أي استقرار أو انتظام، فإن هذا الإطار المعرفي كذلك ليس بسيميائيات معرفية (وبدلاً من ذلك قد يكون خاصاً بنوع من العلوم السلوكية أو الفلسفة التحليلية). أما إذا اعتقد أحدهم أنه لا يوجد أصلاً معنى وليس هناك وجود لأذهان، بل توجد فقط علامات ودوال ومدلولات ووظائف سيميائية، فإن هذا الشخص بالتأكيد ليس سيميائياً معرفياً. فمثل هذه التحديدات السلبية قد تكون مفيدة، ومع ذلك، هي لا تعوّض المعايير الإيجابية ولا الحجج التي يمكن تقديمها لصالح التحديدات الإيجابية، وأعني هنا التحديدات التي قد تؤدي بالسيميائيات المعرفية إلى رؤى محددة جديدة.

I. تصنيف العلامة: الجدار

2. لماذا نسمي يقينا بعض الكيانات علامات؟ هل اشتركت كفاية في خصائص حتى يكون مناسباً أن تجتمع جميعها تحت عنوان واحد؟ سؤال طرحه إيكو فأفاد به كثيراً، وفيما يلي إجابة ممكنة على هذا السؤال.

يتم استخدام مفهوم العلامة عندما نتحدث عن ظواهر تعرض في جزء قريب من الذهن أو الفضاء أو الزمن، منفصل عن جزء آخر من الذهن أو الفضاء أو الزمن حيث يتم تمثيل ظواهر أخرى أكثر بعداً، ويتم عرض الظواهر القريبة باعتبارها تنتمي أو تمثل جوانب من الظواهر البعيدة، وبالتالي نقول إن القرية "تعني" البعيدة أو "تدل" عليها، وعليه، للفصل بين الظاهرة الدالة والظاهرة المدلول عليها، يمكن أن ننصّر جداراً ظاهراً يعزل موضع الدال القريب عن موضع المدلول البعيد. وعلى النقيض من ذلك، تظهر الصفات التي تتصل بالأشياء، في الموضع نفسه الذي تحتله هذه الأشياء، فحمرة تفاحة حمراء، لا تجعل من التفاحة علامة أو وظيفة

سيميائية، حيث يشتغل اللون الأحمر كدال بصري. وإذن، الأشياء- مثل التفاحة- تقع في موضع واحد، بينما العلامات تقع في موضعين منفصلين. وأعتقد أن هذا هو كل الاختلاف بين الأشياء والعلامات.

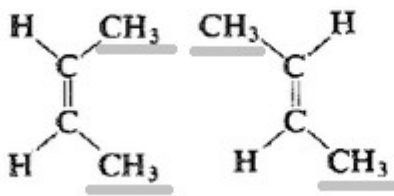
3. هذه البنية الموضوعية (التقسيم السيميائي الزمكاني) يضع مفهوم العلامة في تصوّر يمكن أن يشتغل كذلك بشكل مجازي. ففي خطاب سياسي، يمكن أن نجد علامات تدلّ على سلام في المستقبل، قد لا يكون في المستقبل القريب، ولكنه سيكون قريباً كفاية لبث بعض من الأمل. كل صباح تشير الصحف التي أقرأها إلى «علامات الانتعاش» المدهشة للاقتصاد الأمريكي؛ فلكي تكون علامات، ينتظر أن تكون نسبياً ضعيفة وخافتة، وأحياناً بالكاد يمكن إدراكها، لهذا تحتاج تقريباً إلى خبير متخصص في قراءة البشائر أو النذر لملاحظتها. في المقياس الانساني، تميل الأشياء الصغيرة إلى أن تصبح علامات، لأنه يُنظر إليها على الفور على أنها آثار أو مؤشرات على أشياء أكثر امتداداً أو تركيباً، غير ظاهرة أو تنتمي إلى الماضي أو لا تزال قادمة. الوظيفة السيميائية التي اقترحها لويس يامسليف، التي تكشف عن اقتضاء متبادل بين صعيدي التعبير والمحتوى*، تستلزم تقسيم الذهن أو الزمكان التجريبيين إلى هذا الجانب وذاك. تماماً كما هو الشأن بالنسبة لوضعي التجاور والتقابل في الأيزومرات (المتشاكلات الجزيئية) الهندسية (Geometrical Isomers)، التي يُعبّر عنها في اللاتينية بـ: "cis-versus-trans"؛*؛ جانب يتم فيه إدراك التعبير (عن قرب)، والآخر هو الموضع الذي ينمو فيه المحتوى (عن بعد) كما تم تصوّره، الوظيفة السيميائية إذن تعمل عبر «الحدّ» الفاصل بين هذين الجزأين من الذهن أو الزمكان. بهذا المعنى، يكون مفهوم العلامة بالضرورة موحهاً قبلاً بواسطة وجهة نظر الشخص الذي يشغلها، فهو ليس بعنصر مستقل ولا يمكن أن يكون كذلك، حيث إن فكرة الدال يجب أن تحيل إلى "هذا الجانب" وهي تحمل متغيّرات تخصّ "أنت" و"أنا" و"نحن" و"هنا" و"الآن"، وعليه، يكون مفهوم الدال سياقياً بشكل ضمني وجوهري: نحن على هذا الجانب (الملموس)، في حين أن المدلول على الجانب الآخر (المفهوم)، في مجال دلالي يمكن تصوّره، نشير إلى شيء في الوقت الذي ندلّ عليه¹.

4. فيما يتعلّق بالأيقونات. يدعو مبدأ الجدار السيميائي الظواهري، إلى تشبيه دقيق وبارز أو ماثلة. ففي بناية تتألف من داخل ومظهر خارجي، تُظهر النوافذ للأشخاص المتواجدين في الداخل ما يحدث خارج المبنى؛ نقول إنها تبتّ أيقونات عما يحدث في الخارج. وباعتماد تعبير استعاري نقول كذلك: العلامات نوافذ (A هو B، بنية الاستعارة التصورية لدى جورج لايكوف). يتضمّن منطق التأويل الموظف في عملية إدراك أيقونة أولاً رؤية ما يمكن رؤيته من خلال النافذة، وثانياً توسيع هذه الرؤية لتمتدّ إلى التصديق بالطابع المرئي للجزء غير المرئي من الخارج. يجب أن يتجاوز محتوى الرؤية إطار المشهد الذي توفره النافذة الأيقونية. وإلا

* يقرر يامسليف أن كل موضوع سيميائي يتمفصل إلى مكونين، يختلف كل واحد منهما عن الآخر ويتكامل معه، المكون الأول هو: "العبارة"، وبشكل تظهره اللغوي، أما الثاني فهو: "المحتوى" الذي يشكّل المضمون الذي نصل إليه عبر التمثيل اللغوي (غريغاس وكورتيس)، السيميائيات: القاموس المعقلن في نظرية اللغة، تر رشيد بن مالك، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2020، ص: 270 (المترجم).

** في الكيمياء العضوية، تظهر الأيزومرات الهندسية عندما تصل آصرة مزدوجة بين ذرتي كربون، بحيث الذرتان ترتبطان بدورهما بذرتين مختلفتين أخريتين عبر آصرتين فرديتين (المترجم).

أما إذا تموضعت بشكل متجاور الذرات المتشابهة بالنسبة للأصرة المزدوجة نقول إن الأيزومرات تشهد وضعية تجاور (Cis).



فإذا ذرتان متشابهتان من الذرات التي ترتبط بالكربونات عبر أواصر منفردة، تموضعت بشكل متقابل بالنسبة للأصرة المزدوجة نقول إن الأيزومرات تشهد وضعية تقابل (Trans).

¹. على النقيض من ذلك، تشير العلامات التي يعتمد معناها بشكل صريح على السياق، مثل أسماء الإشارة في اللغة، إلى أشياء موجودة بالفعل، غير أنها تدلّ على أن هذه الأشياء تحتوي خصائص يجدها المتكلم «دالة» ويقصد أن يجعل المستمع ينتبه إليها، لذلك لا يزال الجدار نشطاً، ولو أن نشاطه بدا مختلفاً بعض الشيء.

(إذا كان بقية المظهر الخارجي مختلفًا بشكل قاطع عما هو معروض في النافذة) كانت الأيقونة أو النافذة يُنظر إليها على أنها «معرضة» أو حتى «كاذبة» فيما يخص ماهية الأشياء. العقول البشرية قادرة على الرؤية الثلاثية الأبعاد لمواضيع ثنائية الأبعاد (التي هي في الأصل محاكاة للأشياء المرئية)، لذلك بدلاً من نافذة زجاجية حقيقية، يمكن جعل صورة معلقة على الحائط مصوّرة على النافذة، لترغب أذهاننا في تحويل هذه المحاكاة المصوّرة إلى تمثيل يكشف عمّا يمكن رؤيته خارجها... يتم بالفعل ترجمة التمثيلات الأيقونية بواسطة معدّاتنا البصرية الطبيعية، ولكن نظراً لأننا نعرف أيضاً الفرق بين النافذة الحقيقية والمحاكاة التصويرية (الخداع البصري*)، فإننا نعلم أنه لا يمكن الوثوق بالصور قدر ثقتنا بالنوافذ. تُظهر العلامات الأيقونية ما هو محتمل أن يكون صحيحاً (وهذه ملاحظة نموذجية مصدرها شارل ساندرس بيرس). ومع ذلك، فإن كلّ ما نراه بصرياً، أو بصفة عامة كل ما ندركه حسياً، هو فقط (وأيضاً) محتمل وجوده، كما نبّه على ذلك ديكرت.

5. علاوة على ذلك، نُميّز على محور الزمن ثلاث أشكال من التمثيلات الأيقونية أو من الأيقونات: بورتريهات (صور أو محاكاة) لشيء ما، عادةً ما تكون فريدة، ترتبط بمشاهدة وقعت في الماضي بالنسبة للعارض (نظراً لكون العارض لا بد أن يكون قد رأى، بطريقة ما، ما قصد إظهاره)؛ ثم هنالك خرائط محيّنة (كالتّي تستخدمها أجهزة الملاحة)

6. تخبرك بموقعك الآني على الخريطة؛ أما النموذج الثالث (عبارة عن خطاطات، بما في ذلك الرسوم البيانية¹) فهو ينظم بوضوح بعض الأشكال والقوى، لتقود معرفته من قبل المشاهد إلى توجيهه في المستقبل، وهو نموذج ذي طابع بيداغوجي. وهكذا، تظهر لنا الأيقونات كيف بدا في الماضي شيء ما؛ أو الحالة الراهنة التي يبدو عليها الشيء منظوراً إليه من عل؛ أو ما هي المعرفة المفيدة للمستقبل. يمكن للخرائط بالطبع أن تصبح صوراً للزينة؛ وحينذاك تتحوّل إلى نماذج (كما يحدث في التاريخانية** المعمارية). وجميع الأشكال الأيقونية الثلاثة تعتمد رؤية موسّعة، بما في ذلك «الرؤية الداخلية (inner vision)» (زكي، 1999)، وهي قدرة معرفية أساسية نطلق عليها كذلك: الخيال. نعرض ما تظهره لنا الأيقونة على الجدار وننجح تقريباً من خلاله في النظر مباشرة إلى الماضي والمستقبل والجزء غير المرئي من الحاضر. الجدار يصبح شاشة عرض. وهو ما يشكّل مساهمة غاية في الأهمية للأيقونات، في تجربة الإنسان الفورية لعالم الحياة الخاص بنا؛ عالم المعاني المتقاسمة الذي نعيش فيه. لماذا وجب أن تكون متقاسمة؟ لأنني لا أستطيع رؤية شيء ما دون الشعور بأن الذي رأيته بوضوح قد رآه آخرون كذلك؛ هذا الروتين المعرفي هو جزء من هندسة أذهاننا. وعلينا أن نكبّحه بجد كي لا نبدو ساذجين على نحو خطير، ولكننا ما زلنا في حاجة إلى الاعتقاد بأن المرئي يمكن من حيث المبدأ أن يكون ظاهراً للآخرين، وإلا فإننا لا نستطيع أن نسلّم بسهولة بإمكانية التواصل. في الواقع يعود تواصلنا بالأساس إلى وجود الأيقونات، واستقبال الأيقونات في الواقع يجعلنا بالفعل نؤيّد بشكل مطرد شعورنا بتقاسم محتوى الرؤية الموسّعة. يمكننا طبعاً أن ننظر من النافذة نفسها. لذلك، وعلى الأقل من حيث المبدأ، نشعر بأن هناك فرصاً متساوية لوجود أشكال أخرى من التبادل السيميائي.

7. يهمننا هنا أن نتحدّث عن المؤشّرات. «العلامات» الطبيعية-قد يكون هذا المصطلح استعارة- لها مدلولات مرتبطة سببياً بدوالها (كالرابطة بين النار والدخان، وبين المرض وأعراضه). لا يزال معنى المدلول يحتبّي خلف جدار التجربة، فالأحاسيس البارزة والمفاجئة وغير المعتادة، والنظرات الخاطفة والروائح وما إلى ذلك، والتي تنفذ من خلال الأسطح أو التصدّعات أو الثقوب على

* المقابل العربي لـ: "trompe-l'œil"، وهو فن يتمثّل في لوحات أو منحوتات أو عمارات، فيعتمد على أشكال وألوان وأبعاد معيّنة، لإيهام المتلقّي بواقعية المرئي، والقصد من التعبير؛ أن المحاكاة التصويرية يمكن لها أن تخدعنا فتوهّمنا أن المصوّر على النافذة هو الخارجي الذي نرصده من خلالها، لولا أننا يمكن أن نميّز بينهما (المتّرجم).

¹. ومع ذلك، يبدو أن الرسوم البيانية تستند إلى شكل خاص جدّاً من الرسوم العقلية العفوية-بما في ذلك استخدام الأسهم والخطاطات والمضامين والتجميعات والتفريقات- التي لا تزال تنتظر نظيراً سيميائياً.

** التاريخانية (Historicism) تهتمّ بالأنماط التاريخية وتدعو إلى إعادة إحيائها في مجال الفنون بصفة عامة وفن المعماري بصفة خاصة (المتّرجم).

جدار التجربة، تجعل المؤول يستخدم معرفته الموسوعية فيما يتصل بالأسباب، كأنها شفرة تمكّنه من قراءة هذه المؤشرات التي تخصّ شيئاً ما يحدث، هناك بالضرورة أمر ما يحدث، ولكن ليس بالضرورة أن يكون ما تعتقده، إذا كان لديك بالفعل ما تعتقده: في معظم الأوقات نتساءل فقط ماذا تعني هذه الخاصية البارزة؟ أي الشعور بوجود علامة دون الوقوف على معناها (بالمعنى الحرفي)، لتثير فضول الإنسان وكثيراً من الأسئلة تجاه العالم. السؤال هو إرسالية حول علامة فارغ محتواها، أو لم يتمّ تحديد صلاحياتها، إنه طلب مساعدة أحدهم لتقديم تفسيرات. بالإضافة إلى ذلك يمكن للعلامات الطبيعية أن تُصنّف بالاستناد إلى بعدها الزمني (السياقي): يمكن أن تظهر كأثار لوقائع قديمة، أو كأعراض لحالات تحدث آنياً، أو كتنبؤات عن أحداث يمكن أن تحدث في المستقبل. وهذه الوقائع والحالات والأحداث ما يزال بالطبع النفاذ الفوري إليها متعذراً، حينما يُحال إليها بواسطة علامة طبيعية.

8. فيما يتعلّق بالرموز. يبقى الجدار استعارة مفيدة للعلامات التي نسميها رموزاً. إذ يمكن للجدران أن تضمّ أبواباً، وغالباً ما تؤدي الأخيرة إلى أماكن نحتاج إلى تمييزها قبل أن نتحرّك في اتجاهها؛ على سبيل المثال، تحمل أبواب المراحض عبارات تدلّ على الجنس الذي حُجزت له تلك المراحض (نشكر جاك لكان على هذه الفكرة). كذلك تشير البوابات في المطارات أو محطات القطار إلى الوجهات، لتوجّه غالباً العبارات فوقها العابرين منها. كل هذه الدلائل هي رموز، يتعيّن اكتساب معانيها، وهي تكون عموماً سلاسل تتضمن معاني متناقضة ومستبدلات (paradigms) متباعدة؛ أما أشكالها فتقدّم في تسينينات (codes)* متواضع عليها، أو لنقل كذلك إنحاء ذات بعد تاريخي¹. إذا كان المطار يضمّ ممرات تؤدي إلى ممرات أخرى تقود إلى البوابات، فإن المستبدلات تؤدي لزوماً إلى تأليفات نظامية للرموز^{**}. ومن المثير للاهتمام، ألا يشكّل الامكان ولا حتى الوجود جهة العلامات الرمزية، بل هي الواجب، إيجابياً كان أو سلبياً، أو لنقل أيضاً ضرورة الانزامية. على سبيل المثال، إذا أردت أن تضمن مغادرة هذا المكان والذهاب إلى حيث تنوي الذهاب، عليك اتباع العلامات. يمكن أن يصل عدم الخضوع لعلامة رمزية إلى اعتبار ذلك عملاً إجرامياً، وقد يعرضك والآخرين للخطر (كما هو الحال بالنسبة لإشارات المرور). تخضع الرموز دائماً للمكان الذي توجد فيه²، وعليه، هي تفقد معانيها حينما توجد خارج السياق. وإن صحّ التعبير، فالموقع يضمن قوة الرمز؛ إذ لن يعني شيئاً إذا احتلّ الموقع الخطأ³. أحد المظاهر المثيرة للاهتمام والخاصة بالرموز هو اشتقاقاتها: فإذا سمحت فكرة بتسليط الضوء على مرئي، أو لنقل على مظهر مدرك حسياً، فإن أخذ جزء من هذا المظهر وإعادة إنتاجه (مبدأ المجاز) ينتج دالاً رمزياً.

9. ومرة أخرى، يمكن أن تكون الرموز موجهة إلى الماضي، كما هو الحال بالنسبة إلى المعالم الأثرية؛ ويمكن أن تكون موجهة إلى الحاضر، مثل الإشارات؛ كما يمكن لها كذلك أن توجّه إلى مستقبل غير محدّد، مثل علامات الكتابة (الارشادات اللغوية والرياضية والموسيقية). وفي الحقيقة، تنتج الكتابة نصوصاً عديدة تخبر القراء بكيفية القيام بأعمال ذهنية وجسدية معينة، متى وأينما اقتضى

* التسنين أو الشفرة تضم مجموعة من الرموز وطرق نظمها (غريغاس وكورتيس، السيميائيات: القاموس المعلن في نظرية اللغة، تر رشيد بن مالك، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2020، ص ص: 232-233) (المترجم).

¹. كما سيتم تناوله تالياً، تنبثق الرموز من العلامات المجازية، ويحدد السياق المجازي التسنين الذي نتحدّث عنه.

^{**} يقابل الباحث عملية سلك ممرات عديدة قبل بلوغ البوابة المقصودة، بالانتقال من مستبدل إلى آخر على السلسلة النظامية نفسها. والقصد أن الرمز هي مؤلّفة فيما بينها (تجمع بينها علاقات من نوع: "و...و" بحسب هيلمسلاف) مكونة محورا نظامياً (المترجم).

². على النقيض من ذلك، تحتفظ أنواع مختلفة من الصور بمعانيها بالرغم من إمكانية تغيير أماكنها (الصور الشخصية في محافظ الجيب وخرائط الملاحة المثبتة في نظام السيارات ثم الرسوم البيانية على السبورات). الرمز هي أجزاء من تركيب سياقي، وليست الأيقونات كذلك. لتكون الكتابة الرياضية أو اللغوية أو الموسيقية، أمثلة جيدة على -ما أشرت إليه هنا، وأقصد- الحالة النظامية التي تعكسها تبعية الرموز للمكان.

³. الأمر شبيه بوجود علامة: "منوع ركن السيارات"، في وسط الصحراء.

الحال ذلك (كما هو الحال بالنسبة لوصفات إعداد الطعام أو الوصفات الطبية)، وذلك من أجل الحصول على نتيجة بذاتها، في إطار عمل فني أو في المطبخ أو في مجال العلوم أو القانون وما إلى ذلك.

10. نلخص هذا التصنيف المنظم وفق المؤولات والمرجع الزمني (الشكل 1):

نوع العلامة	الماضي	الحاضر	المستقبل	التسنيين المؤول
العلامات الطبيعية	آثار	أعراض	بشائر	معرفة سببية
الرموز	معالم أثرية	إشارات	رموز الكتابة	تسنيين متواضع عليها
الأيقونات	بورترية	خرائط	خطط	خيال تصوّري

11. المعرفي في هذه اللائحة، هو: أولاً الرأي القائل بأن الأيقونات متجذرة في قدرات إنسانية، تهم الاستشعار الموسع، الذي يستخدم ذاكرة عاملة معنوية، تستند إليها عمليات التجميع: الرؤية والسمع-جانب منها إدراكي حسي، والآخر يستند إلى رؤية وسمع «جوانيين»- حيث يتم إتمام الدال من خارج إطاره. وفي هذه الحالة لا تحتاج الأيقونات أبداً إلى تسنيين. وهناك رأي ثان يقول بأن الرموز يتم اكتسابها، وهي تشق توافقات ملزمة؛ وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، يظهر عليها أنها جميعها متجذرة في أشكال من التمثيل المجازي، مما يفسر قوتها الإلزامية¹. ثم هناك رأي ثالث يقول إن العلامات الطبيعية تتألف فقط من وقائع متباعدة، لكنها مترابطة فيما بينها سببياً؛ لذلك تنبثق تسنييناتها من إدراك سببي خاص بمتلق الظاهرة الطبيعية.

II. الفضاءات الذهنية²:

12. في نظرية الفضاء الذهني السيميائية (semiotic mental space theory)، يُنظر إلى المعنى والمعنى الحاصل عن التفكير أو التواصل، على كونهما يستندان إلى الحقائق البشرية ويتخذانها مقراً لهما، وعليه، يتم تناولهما على أنهما ينبعان من التجربة الواعية الشخصية والبين-شخصية في عالم الحياة الواقعي. هذا المبدأ الواضح وبالرغم من تجاهله في أغلب الأحيان، نسميه بالشرط الظاهراتي* الضروري؛ لا يمكننا إدراك أنماط المعنى على أنها فقط أفكار تجتمع مع أفكار أخرى فجأة، فالذهن له جسد ووجود، وكونه جسداً لا يعني فقط أنه كيان فيسيولوجي، بل هو أيضاً كيان اجتماعي وعاطفي مجهز بالوعي (له حياته الداخلية إن صح التعبير). تنتمي الخبرة إلى مجالات الخبرة، أو إلى ممالك الدلالة، وكيفما كان الحال، ستتفاعل الذات الإنسانية مع ظروف مادية محددة، ومع ذوات أخرى، بشكل جماعي أو فردي، وبتشغيل تفكيرها وشعورها الخاصين بها. نحن نعيش أحوالاً يتوجب تمثيلها بينما

¹. يمكن أن يبدو الحجاز مجموعة من العمليات السيميائية التي تنتج أشكالاً من التسمية العرضية، مما يسمح لنا بتسمية وتذكر كيان ما، بشكل نموذجي عندما يتعلق الأمر بإنسان. إذ أن مناداته تحته إن سمع النداء على الاستجابة!

². الامتزاج، ويسمى كذلك الاندماج التصوري أو نظرية الفضاء الذهني، بلورها وقدمها لأول مرة كل من مارك تورنر وجيل فوكونيه عام 2002. إعادة الصياغة السيميائية تقع تحت مسؤوليتنا الخاصة.

* الظاهراتية أو الفينومينولوجيا هي مدرسة فلسفة اجتماعية، بداياتها كانت مع هيغل ثم إدموند هوسرل، قامت على الجدل بين الفكرة والواقع، لتهتم بالوعي الإنساني متمثلاً في الطريقة التي يفكر بها الإنسان في الخبرة التي يعيشها، واعتبارها الطريق الموصل إلى فهم الحقائق الاجتماعية (المترجم).

نعيشها، أي أن يتم تمثيلها في مجالات بعينها. اللحظة الراهنة في حياة الإنسان هي في حد ذاتها تمثيل¹! الحياة عبارة عن حلم، تماما كما ردّد كاتب عصر الباروك "بيدرو كالديرون دي لا باركا". هذا هو السبب في أنه يمكننا حفظ الوضع الحالي كما هو الآن (وإن كان معرضا للتعديل) في الذاكرة طويلة المدى. فالذكريات تستند إلى الشكل التمثيلي للخبرة الراهنة؛ نحن نعيش في سيناريوهات تجريبية لها بعد زمكاني، وبخصوص الوقت المجزء إلى لقطات، ربما تكون وحدته الزمنية الدنيا هي نفسها لقطة بويل التي تدوم ثلاث ثوان*. وهكذا تكون اللحظة الآنية باعتبارها تمثيلا حاديا مجزءا (episodic representation)**، عبارة عن فضاء ذهني (mental space). في نظرية المزج السيميائي المعرفي (cognitive semiotic blending theory) نسميها الفضاء القاعدي السيميائي (semiotic base space). لها بنية المجال السائد***، وخصائص لسانية وتاريخية وثقافية وفرايائية ومعرفية كونية، والتي يمكن لها مجتمعة أن تولّد فكريا معينا. عندما نخيل في وضع معين إلى أشياء غائبة عنا أو حاضرة، فإننا نبنى فضاء ذهنيا بواسطة «تفويض الفضاء» (space delegation)، وهي عملية تتركز في الفضاء السيميائي القاعدي الخاص بنا على دوال مرتبطة بفضاءات الأشياء الممثلة. وهكذا يمكننا الإحالة إلى أشياء بعينها ونحن نفكر أو أثناء التواصل؛ ويسلمنا ذلك إلى التساؤل عن نوع الأشياء التي يمكن أن يحيل إليها الكائن البشري أثناء التفكير أو التواصل.

13. دعونا نلقي نظرة على الأشياء الغائبة، والتي لا يمكن أن توجد إلا من خلال تفويض للفضاء. نعتبر الأشياء غائبة في الأساس لسببين: إما لأنها لم تكن أبداً ولا يمكن أن تكون موجودة أو حاضرة، مثل الوقائع الأسطورية والقصص الخيالية والمبادئ الفلسفية والحقائق الرياضية وفرضيات البحث العلمي، والأفكار الافتراضية والذكريات الشخصية، وشظايا من المعرفة الموسوعية التي يعطي جمعها أفكارا عامة تخصّ موضوعا محددا (مثل تطابق تاريخ ميلاد فيتنجشتاين مع تاريخ ميلادي)... أو تكون هذه الأشياء غائبة لأسباب تتعلق بالمكان أو الزمن، حينما تكون حقيقية في سياق تاريخي، بما في ذلك التاريخ الفلسفي**** وتاريخ الأفكار (الأشياء التي نعرفها ونفكر فيها حقاً ونحضّرها باعتبارها حقيقة ذهنية).

¹ هذه الجملة قد تزعج بعض القراء. ولكن من الناحية العملية، يتم بناء الحاضر التجريبي آتيا في الوقت العصبي الحقيقي، بتشغيل خطوات من روتين جستانتون بالإضافة إلى إدماجات تسجل نفسها بنفسها، هكذا يمكن أن تظهر التغيرات الطفيفة، على أنها استمرار لما سبق، حتى عبر فترات الراحة الناجمة عن رقات العين السريعة وتحولات الانتباه. يتم إدراك ما نشهده في الوقت نفسه الذي نستقبله فيه. لذلك، فإن المسماة بالفضاءات الذهنية، تشمل ما يتم تفويضه من الفضاء الحقيقي الذي نحيا فيه، بالإضافة كذلك إلى الفضاء الحقيقي الذي نحن فيه. فهذا الفضاء القاعدي السيميائي هو تمثيل غير مكتمل، تحدده الحقائق التي نحيا معها. لمزيد من التفصيل راجع (براندت، 2004) و(براندت وبراندت، 2005).

* إرنست بويل: العالم الألماني المختص في فسيولوجيا الاعصاب، أظهر أن الإدراك يعمل على شطر الأحداث وكل ما يتلقاه الفرد إلى مفصل، كل منها يستغرق ثلاث ثوان (المترجم).

** يتم تخزين التجارب والأحداث الحادثة في الذاكرة الحيوية كمجموعة منفصلة من الحوادث المتصلة، ذلك لأن الذاكرة الحيوية تعتمد على عدة أنظمة داخل الدماغ، مثل النصفين الأيمن والأيسر من المخ والقشرة الفصية والهيوكامبوس والدماغ البصري وغيرها. إذ أن تواجد هذه الأنظمة منفصلة يمكن أن يؤدي إلى تجزئة التمثيل الحادّي وجعله متقطعا، أضف إلى ذلك ما تقود إليه التغيّرات التي تطرأ على المحيط بشكل مستمر، من تعديلات في توقعاتنا واستجاباتنا (أنظر: (Tulving, 1983, *Elements of Episodic Memory*)).

(المترجم).

*** تجزئ التمثيلات الحادثة إلى مجزآت، وهي وحدات صغيرة، تتجلى في أطر زمنية مختلفة وتفاصيل تخصّ التجارب والأحداث الفردية، ترتبط بواسطة علاقات زمنية وموضوعية ودلالية، وعندما تظهر مجزآت بعينها بشكل متكرر ومستمر في التمثيلات الحادثة، تتشكل مجالات سائدة ذات صلة بنوع محدّد من الأحداث أو بموضوع معين أو بتجربة بذاتها، فتشكّل بالتالي هيكلًا تنظيميًا لتخزين وتنظيم المعلومات الحادثة المرتبطة بكل مجال على حدة (أنظر كتاب "الاستعارات التي نحيا بها" لكل من جورج لايفوف ومارك جونسون) (المترجم).

**** التاريخ الفلسفي أو (abstract history): لا يركّز على الأحداث والتفاصيل، وإنما يتناول المفاهيم التاريخية العامة والأفكار الكبرى التي تتعلق بتطور المجتمع والثقافة والحضارة عبر العصور (المترجم).

14. الآن عندما نفكر في شيء ما، فإننا نفعل ذلك داخل وخارج الفضاء القاعدي، والهدف من تفكيرنا يكون دائماً هو المحتوى الديكتيكي* (deictic content)، والحالة الواقعية** التي يحيل إليها تفكيرنا ويتعلق بها (القاعدة المفصلة لجون سيرل: كل ما نفكر فيه يحيل إلى شيء خارجي ويتعلق به (سيرل، 1983)).

15. ولكن ما نفكر فيه بعد ذلك (نقصد المحتوى الديكتيكي) هو المحتوى العام (content generic)*** الذي نطبقه عليه، ويستند إليه¹. لذلك يبدو أن التفكير (الذي يجري) ينطوي على تفويض فضاءين: واحد ديكتيكي وآخر عام. هل من الممكن التفكير في شيء ما دون أن يحضر في الذهن تفصيل محدد يتصل به؟ لا؛ فحينما أفكر في شخص ما، فإنني لا بد أن أتصوره في الذهن في وضعيات محدّدة كان عليها. هذه الصور الآن عامة (إذا جاز التعبير جامدة) هي مسندة إلى الشخص المحال إليه في السياق، أقول؛ إن المشاهد التي يتم تذكرها والتي تتعلق بهذا الشخص، ليست منفصلة عنه بواسطة فعل الارتباط****، ولكنها تقيم في المعنى الذي يدور حول هذا الشخص². ما يكون عليه الشخص وما يفعله، يتصل بالشخص بمجرد تذكره. وهو ما يحيلنا إلى الظاهرية الوصفية الأساسية*****. ليصبح التفكير - سواء تمّ في إطار اللغة أو خارجه - مبنياً على الصفات التي تحدّد طبيعة وسمات الظاهرة موضوع التفكير. فاللغة ليست التي أوجدت التفكير. وفي هذا الإطار تبرز الحاجة إلى استدعاء نظرية الفضاء الذهني.

16. الفضاءات الذهنية، وفقاً لهذه الرؤية السيميو-معرفية، هي «تجزئات» ظاهريّة تنتمي إلى المحتوى الذهني، يمكن لوعينا أن يحتضنها ويهتم بها، أو بالأحرى هذه الفضاءات نفسها هي إطارات لهذه المحتويات المركبة. ينطوي النسق الوصفي الذي سبقت الإشارة إليه على فضاءين ذهنيين مفوّضين من الفضاء القاعدي الذي نحن فيه: فضاء العرض الوصفي (predicative presentation space) ثم الفضاء المرجعي (reference space) الذي يعرض الموضوع الموصوف. بحيث محتوى فضاء العرض يتجلى بالصيغة العامة، في حين أن محتوى الفضاء المرجعي يتجلى بالصيغة الديكتيكية، لأنه يمثل ما أفكر فيه أثناء تطبيق التوصيفات العامة عليه. الفضاءان الذهنيان: فضاء العرض الوصفي والفضاء المرجعي، يشكلان فضاء المزج (blended space) باعتبارهما فضاءين للإدخال، فحينما نفكر في شيء ما، نكون حينذاك نسند صفة إلى الموضوع، لنحصل على تفكير مستقرّ إلى حدّ ما وبطريقة منهجية ومهيكلّة؛ فهذا الجو الدافئ والشمس يغزّز بالنزهة مشياً على الأقدام، وليس بالدراسة، وهذا الطقس البارد والمطر يشجّع على الدراسة وليس على الخروج في نزهة. الكيان الذي يعمل على الاستقرار هو كيان هيكلي إضافي يخلق صلة ذات أهمية (كالصلة بالنزهة أو بالدراسة)، إذ يظهر أنه يمكن رؤية شيء ما على أنه شيء آخر أو شيء محدد، وذلك من منظور محدّد، لا يشكل المنظور الوحيد الممكن، إذ غالباً ما يمكن للمخاطب أو المخاطب أن ينطلقا من منظورات أخرى. حقيقة أن ما تتمثله ذهنياً هو شيء تحدّده هذه العملية الوصفية، تخلق لدينا رؤية ذهنية جديدة: هو فضاء المزج الذي-غالبا وبطرق غريبة ومدهشة وغير

* هو الذي يستند إلى السياق لفهمه على الوجه الأكمل، بأن يدمج على سبيل المثال الضمائر الشخصية والأسماء والظروف المحيلة على المكان والزمان (المترجم).

** وضع معيّن تحدّده وقائع حدثت فعلاً أو ينتظر حدوثها في الواقع (المترجم).

*** إذا كان المحتوى الديكتيكي يستند إلى سياق خاص يتحدّد بالزمان والمكان والأشخاص، فإن المحتوى العام يركّز على الخصائص والمعطيات العامة، التي تنطبق على فئة من الموضوعات، وهو ما يكسب الأخيرة طابعاً مجرداً وشاملاً ومستقلاً عن السياق (المترجم).

1. حوار العشاق: "أفكر فيك" - "حقاً، تُرى في أي شيء يعود إليّ تفكّر فيه، عندما تفكر في؟" - "أنا فقط أفكر فيك..." - "لا، يجب أن يكون هنالك شيء يتعلّق بي تفكر فيه، أخبرني!" - "الطبع يا عزيزتي، لكنني لا أحرّج على ذكره". الموضوعات التي لا تستند إلى توصيفات وخصائص تتعلّق بها أثناء تحديدها، لا تعمل جيّداً.

**** في اللغة الإنجليزية يربط الفعل بين مفعول به وفاعل، أو بين الأخير وصفة أو حالة تتعلّق به (المترجم).

2. قد يكون هذا هو السبب في أن التركيب «أفكر قطة» غير نحوي، بينما «أفكر في قطة» هو كذلك.

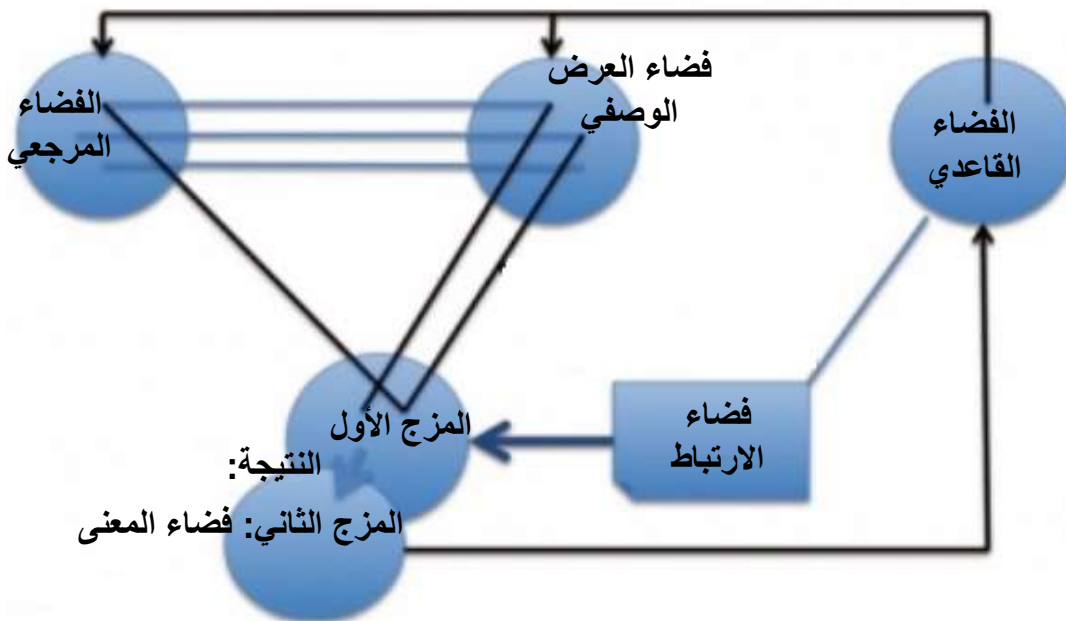
***** تيار أو نخج ظهر في إطار الفلسفة الظاهرية، يركّز على الوصف والتحليل الأساسي للظواهر والتجارب الواقعية، بهدف فهم كيفية تكوين المعنى، وكيف يتأثر الأخير بالسياق والتجارب الشخصية. وفي إطار نظرية الفضاءات الذهنية، نقول إنّ الظاهرية الوصفية الأساسية، تقوم على وصف وتحليل الصفات والخصائص الأساسية للفضاءات الذهنية (المترجم).

واقعية- نرى من خلاله (أو نتخيل) الشيء المشار إليه في وضع يحدده ما يدور في فلكه من خصائص وصفات ومعطيات. ينتج عن تطبيق مخطط الارتباط (relevance schema) على العناصر الممتزجة، تأثير تنظيمي يجعل الممزوجات ذات معنى، وهو ما يسمح ببروز مبدأ الارتباط (relevant principle)، على شكل تأثير دلالي ظاهر، ينطوي عادة على عاطفة أو رسالة ملزمة: افعَل هذا أو افعَل ذلك... التأثير المعنوي الذي يتم الحصول عليه من الفضاء المدمج يعود مرة أخرى إلى الفضاء القاعدي، حيث يتم فهمه والتصرف بناء عليه.

17. وهكذا يكون فضاء الإدخال الأول هو فضاء عرْضي وعام، بينما الثاني يكون مرجعياً وديكتيكياً. هذا التمايز بين فضائي الإدخال يكشف عن عدد معين من الإشكالات الدلالية.

18. يشكّل محتوى فضاء العرض الوصفي الدال (signifier)، بينما محتوى الفضاء المرجعي يشكّل المدلول (signified). تبدو الشبكة تؤدي وظيفة سيميائية. قد يقول بعض البورسيون أن فضاء العرض الوصفي يتطابق والماثول (Representamen)، في حين أن الفضاء المرجعي يحيل إلى الموضوع (Object)، ليعني عندهم مبدأ الارتباط هو المؤول (Interpretant). بحيث أن هؤلاء البيروسيون قد أغفلوا امتزاجها ونتائج هذا المزج ورسو الشبكة على الفضاء القاعدي، الذي سيكون السياق العملي للعمليات السيميائية التي تعني بإنتاج المعنى من خلال شبكة كهذه.

الشكل 2: شبكة المزج النموذجية.



III. الاستعارات:

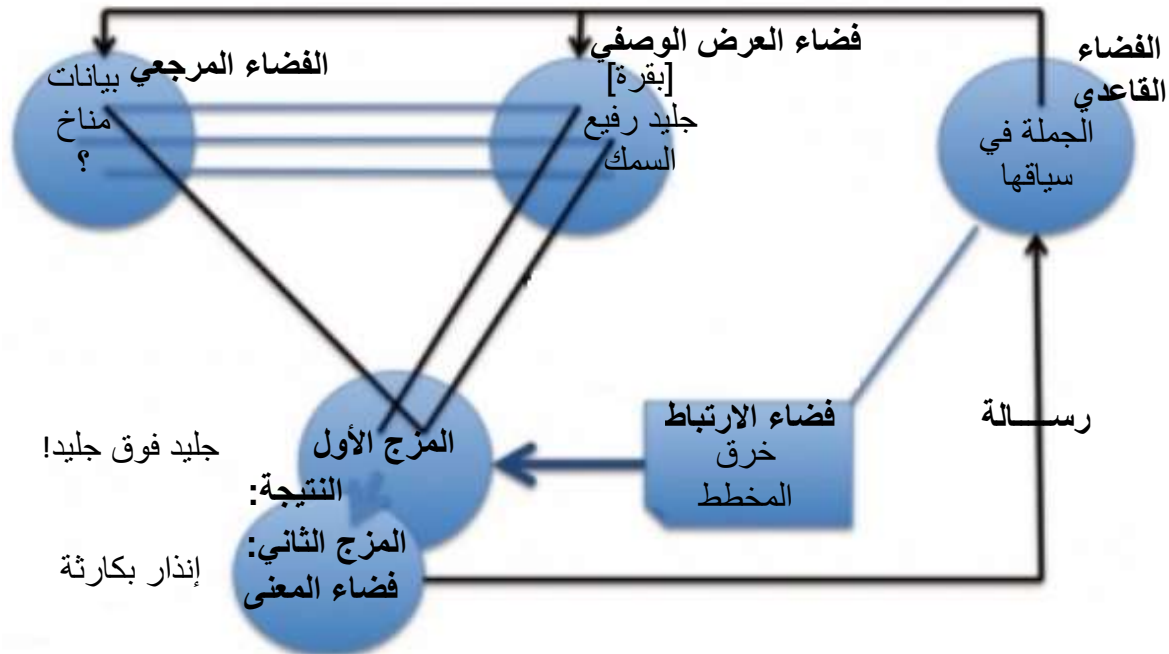
19. دعونا نلقي نظرة على الاستعارات. يستخدم نوع خاص منها صوراً ذهنية من المجال الهدف؛ في الوقت الحالي، دعونا نطلق عليها استعارات تلقائية (auto-metaphors). وفيما يأتي نعرض مجموعة من هذه الاستعارات المنتقاة من عناوين الصحف الأمريكية:

20.

- (1) ينفخ بوقنا على الرياح (الطاقة).
- (2) هجرة الملونين هي رأس الجناح فقط.
- (3) تظهر البيانات أن مناخ القطب الشمالي يستقرّ على جليد رفيع شُكّه.
- (4) تتحول 2008 إلى سنة نجومية بالنسبة لعلم الفلك.
- (5) تضع الدولة سداً من فلين أمام خطة لتغيير شحن النبيذ.
- (6) رئيس المركز الجوي يتطلع إلى هبوط مشاريع جديدة في هوبكنز (مطار).
- (7) القردة الضخمة في أفريقيا تركض خارج الوقت.
- (8) أ- مايكل فيلبس يمكن من جعل السباحة ترشق بالمياه. ب- وفي الوقت نفسه، هوت الجمباز إلى الثالث (في أحدث استطلاع مؤسسة غالوب).
- (9) شعبية رصد الطيور تحلق عالياً في سماء الولايات المتحدة، كما تظهر الإحصاءات الأخيرة.
- (10) صفحة أخرى تطوى في مبيعات التجزئة الموجهة إلى القراء (بائعو الكتب المحليون «يفرّعون» للمضي قدماً).
- (11) يدرك صناع السيارات أن الموردين هم صواميل ومسامير الصناعة.
- (12) تطهير الهواء من أمراض الرئة.
- (13) تعيد شركة الطاقة الأولى طرح المصاييح الكهربائية، لكن هل تكون هذه فكرة أكثر سطوعاً؟

يمكن تحليل الشبكة الدلالية للمثال (3) على الشكل الآتي:

الشكل 3: الشبكة الدلالية للاستعارات.



21. تعليق:

الفضاء القاعدي: عادة ما ينظر إلى عنوان* كهذا على أنه ينطوي على بعض الهزل، ومع ذلك فهو يبقى عنواناً مؤثراً ومقنعاً (وفقاً لطلابي).

22. فضائي الإدخال؛ فضاء العرض الوصفي والفضاء المرجعي: تتطلب الاستعارة أن ينتمي محتوى هذين المدخلين إلى مجالين مختلفين¹. لكننا نجد الاستعارة التلقائية تشكل مثلاً مضاداً لما سبق ذكره، إذ يبدو أن المزج يترك انطباعاتاً هزلياً حينما يقول: «يوجد جليد (سميك) فوق جليد (رفيع)»! وكيفما كان الحال، فالتعبير الدارج: «أن تكون على جليد رفيع السمك»، هو فقط-من الناحية المجازية²- استخدام لتمثيل بصري يعكس كارثة مناخية، صادر عن فضاء الارتباط، يتم نقله إلى فضاء العرض الوصفي لضمان التأثير القوي والانتباه؛ والكارثة نفسها هي في الآن جيو-فيزيائية وبيئية وسياسية، في حين أن التعبير «الجليد الرفيع سمكه» يمثل فقط صورة مادية. لقد أدرجت بشكل تعسفي الكيان الوهمي [بقرة] مقتبساً إياه من المثل الدانماركي: «لا وجود لبقرة على الجليد» (والذي يعني: ليس هناك مشكلة).

23. المزج: هذا المزج واضحة عبثيته، وهو الذي يخلق الطابع الهزلي للاستعارات التلقائية. كلما بدت هزلية أكثر كلما تمّ تسليط ضوء أقوى على مخطط الارتباط الذي يلغي هذا الهزل (عُد إلى المربع في الرسم البياني)، والذي يتم استيراده من الفضاء القاعدي للمعرفة العامة المتقاسمة بين المتخاطبين (الخاصة بالصحفي والقراء في هذا المثال). خرق مخطط الارتباط هو تمثيل دينامي صريح لكارثة تهدد الحياة. يعارض المخطط الدينامي جذريا الجاذبية الأرضية، وقوة تحمل جسم صلب وثقيل.

IV. السيرة التدلالية (السيميوزيس) باعتبارها شبكة:

24. تسمح لنا شبكة المزج السيميائي للفضاءات الذهنية بتمثيل بنيات العلامة وذلك باعتبارها عمليات³. إذ يعتبر ذلك في نظري نتيجة غاية في الأهمية للأبحاث المعرفية التي تعني بالظاهرة السيميائية. إن ترابط الدوال والمدلولات في حقيقة الأمر، هو ترابط محتوى العرض الوصفي مع المحتوى المرجعي؛ والرابط هو محتوى فضاء المزج الذي يستقر بواسطة سنن تفسيري (أيقوني أو رمزي أو سيمي)، ويظهر ناتج هذا الترابط الدلالي في المرحلة الثانية للمزج كتجربة مستحدثة تكشف عن معنى قابل للتقاسم نسبي هنا أثراً معنويًا (sememe)، وهو مصطلح مقتبس عن (ألجيرداس جوليان غريماس، 1966).

* يقصد بالعنوان عنوان المقال في الصحيفة الأمريكية الممثل في المثال (3) (المترجم).

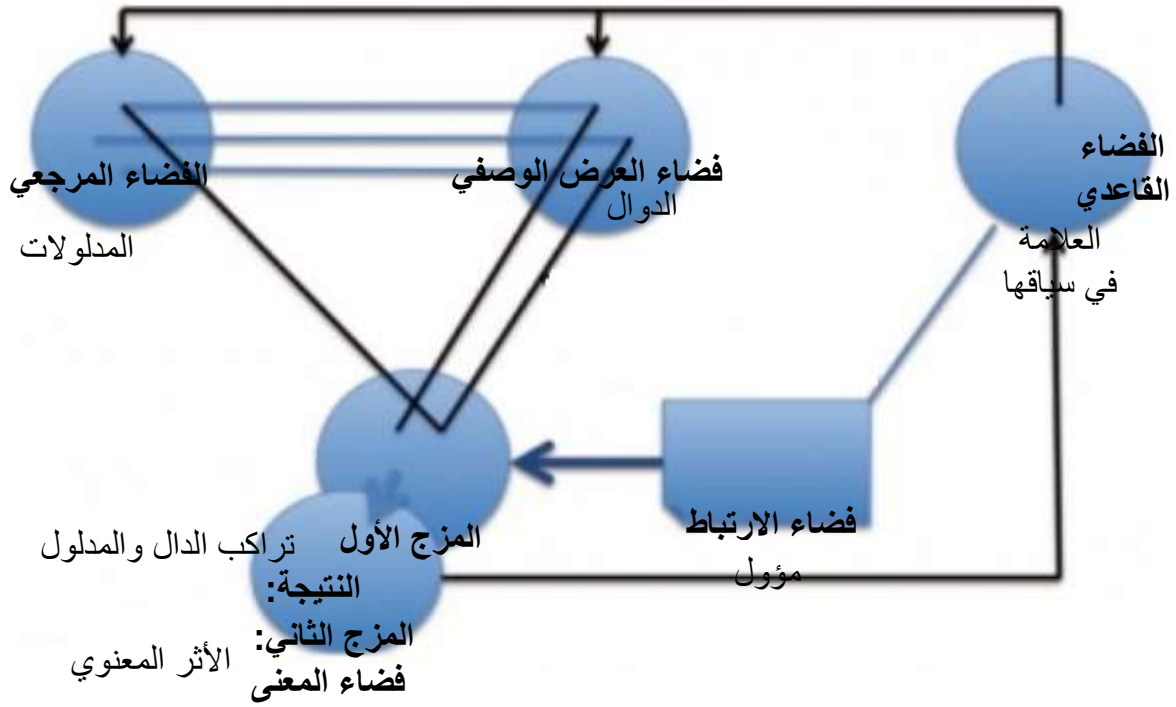
¹. فيما يتعلق بمفهوم المجال- الدلالي أو التجريبي- أنظر (براندت، 2004)، وبالضبط الفصل الثالث. إن الكشف عن أنطولوجيا المجال مفقود تماماً في نظرية الاستعارة لدى لايفكوف.

** نلاحظ أن طريقي الاستعارة هنا ينتميان إلى المجال المعرفي نفسه، هو المجال الفيزيائي أو الجيولوجي (المترجم).

². يتشكل المجاز عند استخراج عناصر بصرية من الفضاء المرجعي وتحويلها إلى فضاء العرض الوصفي، وذلك من أجل استخدام الصورة المستخرجة كـ «بطاقة تعريف» مؤقتة لمصدر الاستخراج. وكما هو مذكور في ملاحظة سابقة، فإن المجاز من الناحية السيميائية هو عملية تسمية، تشكل أصل عملية خلق الرموز (والتي غالباً ما تظهر أيقونية).

³. هذه فكرة اقترحها لاين براندت (Line Brandt)، وظهرت لأول مرة سنة 2005 في كتاب مشترك بين براندت وبراندت بعنوان: "Making Sense of a Blend" (فهم المزج).

الشكل 4: يحمل عنوان: العلامة باعتبارها شبكة، وهو يوضح مبدأ السيميوزيس، والعملية السيميوزية (semiosis)، التي يمكن أن يقوم بها الذهن البشري، بتشغيل شكل التفكير الوصفي بشكل عام (الشكل 4).



25. إن التمثيل السابق، من شأنه أن يكون قد قدّم نموذج علامة في إطار السيميائيات المعرفية. ومن الواضح أنه جمع بين نماذج كل من ديسوسيير وبيرس وغريغاس ثم النموذج المشترك بين فوكونيه وتورنير.

26. الاستعارات هي علامات أيقونية (من نوع خاص)، في حين أن المجازات هي علامات رمزية (من نوع خاص¹)، وكل البلاغة التي يولدها الذهن البشري هي «سيميوزية». أعتقد أن جميع الصور البلاغية والمجازات التي يولدها الذهن البشري، قد قدمت إليه من ثورة سيميائية لا بدّ وأن تكون قد حدثت، ربما ليس في وقت مبكر جداً، وإنما أثناء تطور جنسنا البشري، إذ في وقت ما من هذه الثورة أصبح الحاضر تمثيلاً و«مرجعاً» محتملاً، أو فضاء مرجعياً (هنا، الآن، أنت، أنا، هذا، ذلك)، إذ يمكن أن يتم تقديمه في صيغ متغيرة؛ يمكن أن يظهر نوع من التكرارية الدلالية، قائمة على تكرارية تركيبية (أقول/أعتقد أنني أقول/أعتقد ذلك...) وربما كذلك يكون عالم العلامات التي تُدرس في السيميائيات، هو فقط الجزء المكرّس أكثر من غيره في إطار ورشة معرفية شاسعة، أي الحياة اليومية التجريبية التي تعجّ بالثقافات والتواصلات.

27. قد يكون أهم عامل يحفزنا على افتراض وقوع ثورة سيميائية، هو نشاط جمالي حدث في مرحلة مبكرة مفترضة من مراحل تطوّر الذهن البشري تعتمد على المحاكاة (راجع دونالد، 2001). ولكن ما الذي يمكن أن يكون قد قاد إلى ظهور مثل هذا الشكل الجمالي من الإدراك والإنجاز؟ ما زلنا لا نعرف، أو أننا مازلنا حتى لم نفترض افتراضات مهمة².

¹. مرة أخرى: المجاز هو اسم مؤقت لشيء يحتاج المخاطب الإحالة إليه ولفت الانتباه، حتى أنه يمكن أحياناً سماع نداء على هذا الشكل: «مرجئاً، أنت هناك يا ذا الأنف الأحمر، تعال إلى هنا!» إذ يشغل المتكلم هنا خاصية يتم إدراكها بالحواس، كعلامة تمكّن من تصوّر الكيان المرجع في الذهن.

². هل يمكن أن يكون اكتشاف المخدرات واستخدامها المنهج في الممارسات المقدسة؟ هو محض فرضية افترضها الفيلسوف جورج باتاي.

V. ملحق فلسفي: تجريد الذهن من الجسد.

28. تميز أنطولوجيا عالم الرياضيات والفيلسوف رينيه ديكرت، بين واقع مادي زمكاني (res extensa)، وبين واقع لا مادي غير مكاني ولا زمني (res cogitans)؛ إذ يمكن لهذين الواقعين أن يتفاعلا، ولكن لا يمكنهما أبدا أن يندمجا¹. سمحت له هذه الثنائية الديكارتية بإبقاء الأفكار مستقلة عما تدور حوله، وبإعمال الشك في حقيقة الأفكار وتقييمها من خلال فحص نوع الواقع الذي تحيل إليه. كما قادت إلى اعتماد منهج الاستبطان لاختبارها. والمعنى هو الذي يتوافق وهذا الواقع اللامادي القابل للاستبطان في أذهاننا-بتميزه عن الواقع المادي للأشياء- ويشمل ما يمكننا التعرف عليه باعتباره أثرا معنويا في إطار التحليل المزجي السيميائي الذي اعتمدناه سابقا. يصبح الإدراك سيميائيا في اللحظة نفسها التي يصبح فيها الاستبطان قابلا للرصد الخارجي، أي عندما يتم النظر إلى هذا المعنى على أنه قابل للتقاسم، لأنه يمكننا الإحالة إليه لبعضنا البعض. السيميوزيس يجعل المعنى حالة محتملة يتقاسمها العموم، على الرغم من أنه قد يكون خاصا لحظة تولده. هذه اللحظة هي بداية التحول إلى الشأن العام (res publica)، قاعدة عالم الحياة البشرية والتفكير المجرد. منذ تلك اللحظة، أصبح المعنى عالما في حد ذاته، جَد متمايز عن كل واحد منا، بدون جسم، لذلك يتعين علينا الآن الهبوط به إلى المقياس البشري، من خلال نظرية للتجسيم. لكن أجسامنا سيميائية ولا يمكنها أن تكون إلا كذلك؛ إنها تحلم في الوقت الذي تكون فيه مستيقظة. نحن صناعة العلامات... لا شيء يمكن القيام به حيال ذلك، علينا الآن أن نكون بشرا.

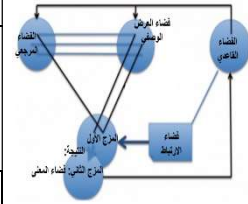
¹. في حين سمح لهما تلميذه باروخ سبينوزا أن يندمجا.

قائمة المصادر والمراجع:

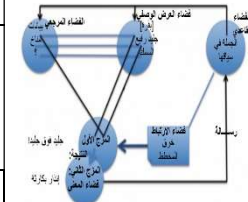
- Brandt, Per Aage (2004), Spaces, Domains, and Meaning, Bern-..., Peter Lang.
- Brandt, Per Aage & Brandt, Line (2005), « Making Sense of a Blend. A Cognitive-Semiotic Approach to Metaphor », Working paper – Center for cultural research University of Aarhus, 132–05.
- DOI : 10.1075/arcl.3.12bra
- Donald, Merlin (2001), A Mind So Rare. The Evolution of Human Consciousness, New York, Norton.
- Greimas, A. Julien (1966), Sémantique structurale, Paris, Larousse.
- DOI : 10.3917/puf.grei.2002.01
- Searle, John (1983), Intentionality: An Essay in the Philosophy of Mind, Cambridge, Cambridge University Press.
- Turner, Mark & Fauconnier, Gilles (2002), The Way We Think. Conceptual Blending and the Mind's Hidden Complexities, New York, Basic Books.
- Zeki, Semir (1999), Inner Vision: An Exploration of Art and the Brain, Oxford, Oxford UP.

جدول الرسوم البيانية:

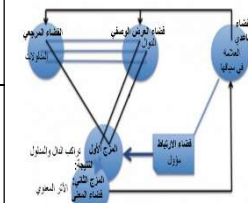
العنوان	شبكة المزج النموذجية (الشكل 2).
الرابط	https://journals.openedition.org/signata/docannexe/image/526/img-1.jpg
الملف	صورة، jpeg، 56K.



العنوان	الشبكة الدلالية للاستعارات (الشكل 3).
الرابط	https://journals.openedition.org/signata/docannexe/image/526/img-2.jpg
الملف	صورة، jpeg، 48K.



العنوان	(العلامة باعتبارها شبكة) يوضح مبدأ السيميوزيس، والعملية السيميوزية (semiotic)، إذ يمكن أن يقوم بها الذهن البشري، بتشغيل شكل التفكير الوصفي بشكل عام (الشكل 4).
الرابط	https://journals.openedition.org/signata/docannexe/image/526/img-3.jpg
الملف	صورة، jpeg، 44K.



قائمة المصادر والمراجع التي استند إليها المترجم:

- غريغاس وكورتيس، السيميائيات: القاموس المعقلن في نظرية اللغة، تر رشيد بن مالك، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2020.
- جورج لايكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، تر عبد المجيد حجفة، دار توبقال للنشر، ط2، 2009.
- Endel Tulving، Elements of Episodic Memory, Oxford University Press, New York, 1983.

الاستعارة في السينما

دراسة سيميائية نماذج

محمد نظاري

طالب بسلوك الدكتوراه

جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال

تكوين الدكتوراه أدب لغة وثقافة

إشراف الدكتور الشرقي نصراوي

منسق ماستر آليات تحليل الخطاب الأدبي

المملكة المغربية

الملخص:

تُعَدُّ الاستعارة واحدة من الأدوات الأدبية والفنية الأكثر تأثيراً في التعبير عن الأفكار والمشاعر، لأنها تنصدر بنية الكلام الإنساني باعتبارها أداة تعبيرية، ومصدراً للترادف وتعدد المعنى، خاصة في النقد الأدبي الحديث، ويشير أمبرتو إيكو إلى أنها آلية سيميائية تتجلى في جميع أنظمة العلامات، حيث تنظر السيميائيات إلى اللغة على أنها مجموعة من العلامات والإشارات، والاستعارات التي تومئ بدلالاتها، أما الاستعارة عند رومان جاكسون فتقتضي الانطلاق من مبدئين مركزين في اللسانيات البنيوية هما: المحور الاستبدالي والمحور التأليفي، وعند جورج لاكوف وجونسون فيكمن جوهرها في كونها تتيح فهم شيء ما وتجربته انطلاقاً من شيء آخر، وقد وجدت الاستعارة طريقها إلى السينما لتصبح جزءاً لا يتجزأ من لغتها البصرية، حيث تتيح لصانع الفيلم التعبير عن أفكار ومفاهيم غير ملموسة من خلال الصور والمشاهد الرمزية في عالم السينما، هذه الأخيرة التي تعد اختصاراً لفن التصوير السينمائي، فن عرض لقطات تصويرية سريعة ومتتالية لخلق طابع حركي، وهنا تُستخدم الاستعارة ليس فقط لتوصيل المعاني، ولكن أيضاً لإثارة العواطف، وتحفيز التفكير، وخلق تجربة بصرية عميقة تتجاوز حدود الحوار التقليدي، لتصبح وسيلة بصرية تمثيلية، يتم استخدام عنصر أو مشهد معين للتعبير عن فكرة أو إحساس أعمق مما يبدو على السطح، فالاستعارة في السينما هي أداة قوية تُحوّل المشاهد إلى لوحات مليئة بالمعاني والرموز، لكونها لغة بصرية تتجاوز الكلمات، وتتيح للمخرجين التعبير عن أفكارهم بطرق إبداعية، كما تمنح المشاهدين تجربة سينمائية أغنى وأعمق.

الاستعارة في السينما هي استخدام صورة، مشهد، أو عنصر بصري معين للتعبير عن فكرة أو شعور غير معلن بشكل مباشر، فبدلاً من تفسير الأحداث أو المفاهيم بواسطة اللغة والكلمات، يستعين صانعو الأفلام بالرموز البصرية والمجازات لإيصال رسالة ما، فالاستعارة في السينما يمكن أن تكون بسيطة مثل استخدام لون معين للإشارة إلى حالة نفسية، أو معقدة مثل سلسلة من المشاهد التي تُعبّر عن تحولات داخلية عميقة للشخصيات.

ومن خلال المنهج السيميائي، الذي يركز على تحليل العلامات والرموز، يمكن تفكيك الاستعارات السينمائية وفهم الرسائل التي تحملها سواء كانت بصرية أو سردية عبر التركيز على العلاقة بين "الدال" (الشكل البصري أو السمعي) و"المدلول" (المفهوم الذي يتم التعبير عنه) في السيميائيات السوسيرية.

فماهي أهمية الاستعارة في السينما؟ وما هي تحديات استخدامها في مجال الأفلام؟ وكيف يمكن تحليل الاستعارة في السينما من خلال المنهج السيميائي؟

سأتطرق في هذه المقالة إلى:

- أهمية الاستعارة في السينما
- تحديات استخدام الاستعارة في السينما
- أدوات التحليل السيميائي للاستعارة في السينما
- أمثلة تطبيقية للاستعارة في السينما دراسة سيميائية
- تركيب

الكلمات المفتاحية: الاستعارة، السينما، السيميائيات، الدال، المدلول.

تُعَدُّ الاستعارة واحدة من الأدوات الأدبية والفنية الأكثر تأثيراً في التعبير عن الأفكار والمشاعر، لأنها تنصدر بنية الكلام الإنساني باعتبارها أداة تعبيرية، ومصدراً للترادف وتعدد المعنى، خاصة في النقد الأدبي الحديث، ويشير أمبرتو إيكو إلى أنها آلية سيميائية تتجلى في جميع أنظمة العلامات، حيث تنظر السيميائيات إلى اللغة على أنها مجموعة من العلامات والإشارات، والاستعارات التي تومئ بدلالاتها، أما الاستعارة عند رومان جاكسون فتقتضي الانطلاق من مبدئين مركزين في اللسانيات البنيوية هما: المحور الاستبدالي والمحور التأليفي، وعند جورج لايفوف وجونسون فيمكن جوهراً في كونها تتيح فهم شيء ما وتجربته انطلاقاً من شيء آخر، وقد وجدت الاستعارة طريقها إلى السينما لتصبح جزءاً لا يتجزأ من لغتها البصرية، حيث تتيح لصانع الفيلم التعبير عن أفكار ومفاهيم غير ملموسة من خلال الصور والمشاهد الرمزية في عالم السينما، هذه الأخيرة التي تعد اختصاراً لفن التصوير السينمائي، فن عرض لقطات تصويرية سريعة ومتتالية لخلق طابع حركي، وهنا تُستخدم الاستعارة ليس فقط لتوصيل المعاني، ولكن أيضاً لإثارة العواطف، وتحفيز التفكير، وخلق تجربة بصرية عميقة تتجاوز حدود الحوار التقليدي، لتصبح وسيلة بصرية تمثيلية، يتم استخدام عنصر أو مشهد معين للتعبير عن فكرة أو إحساس أعمق مما يبدو على السطح، فالاستعارة في السينما هي أداة قوية تُحوّل المشاهد إلى لوحات مليئة بالمعاني والرموز، لكونها لغة بصرية تتجاوز الكلمات، وتتيح للمخرجين التعبير عن أفكارهم بطرق إبداعية، كما تمنح المشاهدين تجربة سينمائية أغنى وأعمق.

الاستعارة في السينما هي استخدام صورة، مشهد، أو عنصر بصري معين للتعبير عن فكرة أو شعور غير معلن بشكل مباشر، فبدلاً من تفسير الأحداث أو المفاهيم بواسطة اللغة والكلمات، يستعين صانعو الأفلام بالرموز البصرية والمجازات لإيصال رسالة ما، فالاستعارة في السينما يمكن أن تكون بسيطة مثل استخدام لون معين للإشارة إلى حالة نفسية، أو معقدة مثل سلسلة من المشاهد التي تُعبّر عن تحولات داخلية عميقة للشخصيات.

ومن خلال المنهج السيميائي، الذي يركز على تحليل العلامات والرموز، يمكن تفكيك الاستعارات السينمائية وفهم الرسائل التي تحملها، سواء كانت بصرية أو سردية عبر التركيز على العلاقة بين "الدال" (الشكل البصري أو السمعي) و"المدلول" (المفهوم الذي يتم التعبير عنه) في السيميائيات السوسيرية.

فماهي أهمية الاستعارة في السينما؟ وما هي تحديات استخدامها في مجال الأفلام؟ وكيف يمكن تحليل الاستعارة في السينما من خلال المنهج السيميائي؟

سأتطرق في هذه المقالة إلى:

- أهمية الاستعارة في السينما
- تحديات استخدام الاستعارة في السينما
- أدوات التحليل السيميائي للاستعارة في السينما
- أمثلة تطبيقية للاستعارة في السينما دراسة سيميائية
- تركيب

تنصدر الاستعارة بنية الكلام الإنساني، باعتبارها عاملاً أساسياً في التعبير والفهم، فهي تعكس تفاعل الإنسان مع محيطه وكيفية تمثله له، بحيث نكاد نجد في كل الوسائط السردية والبصرية، ومن أهم هذه الوسائط "السينما"، فالاستعارة في السينما من أقوى الوسائل لنقل المعاني والتصورات الثقافية والشخصية، "عادة ما تعرف الاستعارة بأنها تقديم فكرة ما بلغة أخرى تنتمي إلى مقولة

أخرى، بحيث إنه إما أن يتحول شكل الفكرة الأولى وإما أن تتخلق فكرة جديدة من اندماج الفكرتين¹، فأين تكمن أهمية الاستعارة في الفيلم السينمائي؟

أهمية الاستعارة في السينما

السينما كالأدب، والفيلم كالنص النثري، لأنه يجمع في بنيته عناصر سردية ونثرية، "أن الآليات السينمائية الصرفة لا تستطيع البتة الاشتغال دونما اتكاء على فنون أخرى، واستثمار لبعض خصائصها، وإلا تتعطل خطابية اللغة السينمائية، وتخبو إنتاجيتها الدلالية"²، ومعلوم أن السرد في شموليته يعتمد الاستعارات لتقريب الفهم للمتلقى، ولإضفاء لمسة جمالية على النص، لكن في مجال الأفلام تتحول الاستعارة من اللفظي الألسني إلى ما هو أيقوني يعتمد الصورة بكل حمولاتها الدلالية والرمزية والاستعارية، وهنا تكمن أهمية الاستعارة في السينما بهذا الانتقال، حيث تنوب الصورة عن اللفظ، مع اختلاف في التعريف، فإذا كانت الاستعارة بمفهومها الواسع هي «تشبيه حذف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائماً»³، فإن مفهومها في السينما هي "عملية استكشاف المجهول بمساعدة المعلوم"⁴، وهنا تتدخل السيميائيات كمنهج تحليلي قادر على استنباط العلامات الظاهرة والمضمرة للاستعارات.

تجلى أهمية الاستعارة في السينما في تلك الإضافة السحرية التي تحملها الصورة المستعارة، قال بول شريدنر: "في فيلم سائق التاكسي: كانت التيمة هي الوحدة، لذا نجد في الفيلم استعارة تجسد هذه التيمة وتعبر عنها، لقد كان السائق الذي يقود سيارة الأجرة في فيلم سائق التاكسي هو التعبير الكامل عن الشعور بالوحدة في المدينة... إن الاستعارة بالغة الأهمية بالنسبة لأي فيلم"⁵. التيمة هنا كمفهوم سيميائي تتعلق بمجموع العناصر الرمزية والدلالية التي تعبر عن الفكرة أو المفهوم المركزي في فيلم سائق التاكسي أو في أي عمل فني، فهل يعد استخدام مصطلح الاستعارة كمصطلح أدبي في السينما أمر صحيح؟ وما هي إكراهات وتحديات استخدام هذا المصطلح؟

تحديات استخدام الاستعارة في السينما

حين تصبح الصورة وسيطا تواصليا شأنها شأن اللغة، فإنها بالتأكيد ستثير أبعادا جمالية وبلاغية وتفاعلية بينها وبين المتلقي، وذلك باستخدام آليات تحليلية سيميائية بصرية تتخللها الاستعارة، هذا المفهوم الذي واجه اعتراضا من مجموعة من النقاد، "أولا: من جانب نقاد الأدب الذين يرون أن التوسع في مفهوم الاستعارة سوف يفرغه من أي قدر من الدقة، وثانيا: من جانب المنظرين لفن السينما الذين يعتقدون أن مثل تلك التطبيقات إنما تنجم عن فهم خاطئ لطبيعة الفيلم بوصفه وسيلة تعبير فني"⁶.

بإمكاننا الاستشهاد بـ "ويليام بيدل ستانفورد William Bedell Stanford" بصفته معبرا عن وجهة النظر الأولى، إذ يقول: "إن الاستخدام الخاطئ لمصطلح الاستعارة - ليدل على الرمزية - يحتاج منا أن نميز بين الاثنين"⁷.

¹ تريفور وايتوك، الاستعارة في لغة السينما، ترجمة: إيمان عبد العزيز، مراجعة: سمير فريد، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، مصر، 2005، ص15.

² بن جيلالي محمد عدلان، سينمائية الخطاب الفيلمي، مقارنة سيميو-شعرية، Titanic، إخراج جيمس كمرون، رسالة دكتوراه في النقد الأدبي والتمثيلي، 2010، ص248.

³ علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف لبنان، 2005، ص242.

⁴ محمد صبري، بيداغوجيا الدرس البلاغي البصري، ص72.

⁵ 2005، ط1، ص08. تريفور وايتوك، تر: إيمان عبد العزيز، الاستعارة في لغة السينما،

⁶ المرجع نفسه، ص8.

⁷ p95 . . . W. Bedell Stanford, Greek Metaphor (Oxford: Basil Blackwell. 1936)، نَقَال عن: تريفور وايتوك، المرجع السابق، ص9.

أما وجهة النظر الثانية فتري " أن انتقاد عدد من الكتاب بشأن الفكرة المتعلقة بوجود الاستعارة في السينما يوضح أن الصورة الفوتوغرافية في الفيلم تعد تعبيراً حرفياً عن الموضوعات والأحداث، وهذه الموضوعات والأحداث معاني حقيقية تحول دون تأويلها بلاغياً"، ويمثل وجهة النظر هذه "رودولف أرنهيم"¹، "ويري كريستيان ميتز" من مراجعة كتاب "جون ميتزي" في التأسيس لمفهوم الاستعارة أن "الاستعارة السينمائية ليست جديدة بهذا الاسم على الإطلاق، إنما تفتقر إلى مقومين أساسيين من مقومات الاستعارة، ففي الاستعارة لا يكون التشابه بين الطرفين، أي ذلك العنصر أو الطرف المشترك في المقارنة، لا يكون مصرحاً به، فنحن على سبيل المقال نقول "خيوط ضوء" ولا نقول ضوء نجيل كالخيوط، أما بالنسبة لما يسمى إستعارة سينمائية على الجانب الآخر، يكون طرفي الاستعارة معاً حاضرين مع الصورة على الشريط السينمائي، بغية إجلاء وجه الشبه بينهما بما لا يدع مجالاً لتداخل أو الالتباس (وهنا يستلزم بالضرورة إدراكاً بصرياً للمعنى بحيث لا يجرى وجه الشبه، هنا ضمناً) وخير دليل على ذلك الاستعارة الشهيرة التي استهل بها المخرج المعروف شارلي شابلن فيلمه "الزمن الحديثة"، حيث يعرض لنا لقطة لقطيع من الأغنام تليها صورة لمشهد غفير من الناس وهم يهبطون مهولين سلام محطة مترو الأنفاق، يتضح لنا من هذا المثال أن العنصر المشترك هنا، فكرة "القطيع" وقد جاءت لتعبر عن سلوك الناس المماثل لسلوك الأغنام، لم يكن متطابقاً تماماً من حيث التفاصيل الدقيقة، ومع هذا فقد عرض بطريقة واضحة تمام²، إن الخيط هنا غير موجود ومع ذلك تجري مقارنته بشعاع الضوء، عكس الاستعارة في السينما حيث يصطف الزحام ومجموعة الأغنام، ليربط المتلقي فكرة التشابه بين قطيع الأغنام وتزاحم الناس بالميترو، وبهذا تصبح اللقطة إستعارة سينمائية حيث استطاع ميتز أن يمزج بالاستعارة من مفهوميها اللغوي إلى الاستعارة السينمائية، ومع ذلك استعمل العديد من المحللين مفهوم الاستعارة في تفكيكهم للأفلام "رغم أن استخدامهم للمصطلح كان في أغلب الأحوال غير محكم"³.

لقد "احتفظ" كليفتون "لسنوات كثيرة بسجل للصور والمحسنات البديعية التي شاهدها في الأفلام، وقد احتوت دراسته المنشورة بعنوان "الصور البلاغية في السينما، على ألف وستمئة مثال تقريباً مأخوذة من أكثر من سبعمائة فيلم، هذه الدراسة هي أكثر محاولاته للبرهنة على استخدام السينما لأدوات البلاغية دقة وإحكاماً. ولقد أثبت - بما لا يدع مجالاً للشك - وجود سلسلة طويلة من الصور البلاغية، والكثير من هذه الصور الاستعاري، أو قابل باستخدام لوصفه استعارة"⁴ وإذا سلمنا بأن استخدام الاستعارة في السينما يُعد أداة فنية قوية تُسهم في تعميق المعاني وتقديم رؤى فكرية وفلسفية من خلال الصورة والصوت، فإن العديد من المخرجين والكتاب قد تواجههم تحديات عند استخدام الاستعارة في الأفلام، تتعلق بالفهم الجماهيري، والتوازن بين الفن والتجارة، والتقنيات السينمائية، والسياق الثقافي.

التحديات المتعلقة بالفهم الجماهيري:

الاستعارة تتطلب من المشاهدين تفسير الصور والرموز لفهم المعنى الكامن وراءها، ومع ذلك، قد لا يتمكن جميع المشاهدين من استيعاب هذه الرموز بسبب اختلاف الخلفيات الثقافية أو التعليمية، "إننا قد ننظر لمنظر طبيعي مزدحم بوصفه كلا موحداً، رغم

¹ غي غوتيه، الصورة المكونة والتأويل، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، 2012، ص 7.

* رودولف أرنهيم، Rudolf Arnheim، ولد في 15 يوليو، 1904 في برلين، ألمانيا. وهو كاتب ألماني، ومنظر في الفن وعلم النفس والسينما. أشهر مؤلفاته تتعلق بالفن وعلم النفس. وقد توفي في 9 يونيو 2007 في الولايات المتحدة.

² كريستيان ميتز: جماليات وسيكولوجيا السينما عند جان ميتزي ترجمة: نبيل عبد المالك، مجلة القاهرة، يناير، ديسمبر، 1990، ص 129.

³ تريفور وايتوك، تر: إيمان عبد العزيز، الاستعارة في لغة السينما، ص 10.

⁴ المرجع نفسه، ص 134.

أنه إذا ما لفت شخص ما انتباهنا إلى بناء معين في المنظر، فإن الصورة الكلية ستتبدل مع تغير بؤرة الاهتمام¹، قد يُساء فهم الاستعارة إذا كانت غامضة أو معقدة، كمثال آخر، في فيلم "A Space Odyssey 2001": لستانلي كوبريك، يُعتبر المشهد الأخير (غرفة النوم) استعارة للتطور البشري، لكن العديد من المشاهدين وجدوه غامضاً، ما يشكل تفسيراً خاطئاً للمعنى العميق الذي من أجله جاءت الاستعارة، وعلى السيميائي كمحلل للطبيعة الأيقونية والإشارية للصورة السينمائية، أن ينتبه لهذه الفروقات والعلامات باعتبارها دالاً، حتى يعطي للاستعارة، كعلامة سيميائية تحيل إلى معنى غير مباشر، دلالتها الصحيحة.

تحديات التوازن بين الفن والتجارة:

الاستعارة هنا تُعتبر أداة فنية، بينما السينما صناعة تجارية، ما يضطر المخرج إلى التضحية بالعمق الفني لضمان نجاح الفيلم تجارياً، فمثلاً فيلم "The Tree of Life" لتيرينس ماليك استخدم استعارات فلسفية ودينية عميقة، لكنه لم يحقق نجاحاً تجارياً كبيراً بسبب تعقيده، وكذلك بالنسبة لبعض الأفلام الأخرى التي تُبسّط الاستعارات لتكون أكثر جاذبية للجمهور، مما يفقدها قيمتها الفنية.

التحديات التقنية:

تحويل الاستعارة الأدبية إلى صورة سينمائية يتطلب مهارات تقنية عالية، مثل الإضاءة، التصوير، المونتاج، والمؤثرات البصرية، حيث تستخدم هذه التقنيات كاستعارة للتغيرات السياسية والاجتماعية أو الفلسفية، مما يتطلب دقة عالية في التصميم الفني، ومعدات جد متطورة لتصوير العالم الافتراضي، كما تتطلب الاستعارة في السينما تكاملاً بين هذه العناصر التقنية والفنية، لأن التصوير السينمائي يسعى إلى تحقيق التوازن بين الوضوح والغموض في الرموز البصرية، باعتبارها حاملة لمدلولات سيميائية تاوية خلف الألوان، الإضاءة، وزوايا التقاط الكاميرا، ففي الفيلم المغربي "الخبز الحافي" لمخرجه "محمد شكري" استخدمت الإضاءة الخافتة لاستعارة العزلة والصراع الداخلي لبطل الفيلم وللشخصيات بصفة عامة، حيث يصبح التدرج الاستعاري في الإضاءة بمثابة علامة تحتاج عيناً متفحكة وناقدة للتفكيك والتحليل للوصول إلى مطبخ المعنى.

أدوات التحليل السيميائي للاستعارة في السينما

مع أفول المد البنيوي في عصر ما يسمى ما بعد الحداثة، ظهرت السيميولوجيا كمنهج نقدي قادر على تفكيك العلامات داخل هذا الفيلم أو ذاك، وبدأت تتنازل أسئلة غير التي كانت من قبل، من قبيل ما طبيعة العلامة السينمائية؟، وما الأدوات الإجرائية للتحليل السيميائي للاستعارة في السينما؟، وكان من بين المنظرين الما بعد حداثين "كريسيان ميتز" الذي حاول توظيف الدراسة النفسية حول المتفرج من وجهة النظر النفسية من منظور فرويد، وفيه استعمل التحليل النفسي للاستعارة، مع تحويل المتفرج إلى ذات؟ إن تحويل المتفرج إلى ذات عنده يوفر له المنطق والتحليل على أسس صلبة، فهو بحاجة إلى موضوع وهنا يدخل صلب الدراسات الفينمونولوجية/الظاهراتية²، ويمكن القول أن إدخال الظاهراتية هنا جاء كمساعد لتوضيح المشاهد والتجربة السينمائية للمتفرج أي للشرح والتفسير.

¹ المرجع السابق، ص 40.

Dominique Chateau et Martin Lefebvre : Christian Metz et la phénoménologie, *revue d'histoire du cinéma*, n° 2
o 7 0 été 2001. pp82-119.

إن التحليل السيميائي للاستعارة في السينما يتطلب استخدام أدوات منهجية لفهم كيفية استخدام الصور والرموز والإشارات البصرية لنقل المعاني والدلالات داخل الفيلم السينمائي، فقد "قورت السينما -منذ بداية تاريخها - باللغة الطبيعية ونبع ذلك الاعتقاد بأنها لغة تمتلك قواعدها و(مونتاجها) ونحوها، واستمر عدم الوضوح في عدد من تلك المفاهيم في إطار نظرية السينما، خصوصا وأن نظرية الفيلم الكلاسيكية، لم تمتلك إلا معرفة قليلة عن علم اللغة، وكانت بالكاد تؤهلها، لعقد مقارنة سليمة بين مفاهيم هذا العلم وتطبيقها في مجال نظرية السينما¹". ولفهم الاستعارة في السينما إليك بعض الأدوات الرئيسية التي يمكن استخدامها في هذا النوع من التحليل:

1. العلامات البصرية (Visual Signs) :

- **اللون:** في السينما اللون ليس مجرد عنصر جمالي، بل هو حامل لدلالات ومعاني رمزية واستعارية عميقة تعزز من قوة القصة أو الشخصيات أو المشاعر التي يريد المخرج إبرازها، إذ "يصبح للون أهمية كبيرة يبني عليها الخطاطب السينمائي والبصري بشكل عام، فحضور لون وغياب آخر له قصدية ودلالة يريد المخرج إبرازها للمتلقي²" يُستخدم اللون كاستعارة لنقل المشاعر والرموز، فعلى سبيل المثال، الأحمر قد يرمز إلى الحب أو العنف، بينما الأزرق قد يرمز إلى الهدوء أو الحزن.

إن "توظيف الألوان في السينما يحاكي شعور المتلقي ويعمل على التأثير في نفسيته، ويلهم فكره وذوقه فيسعى الذهن البشري إلى إدراكها واستيعابها، والانفعال معها، بحيث تعكس الحالات الشعورية لديه التي تنبع من دواخله، فلكل لون ميزة تميزه عن غيره³"، بحيث يصبح لكل لون مستعار تأثيره في الصورة السينمائية على ذاتية المتلقي، وهنا يأتي دور المصمم والمخرج في التحكم في الألوان ودرجات نصوصها وإشراقها، حتى تعطي دلالاتها المطلوبة.

- **الإضاءة:** تؤدي دورا وظيفيا وجماليا واستعاريا إذا أحسن توظيفها في المشاهد السينمائية، لأنها تمنح الصورة وضوحا وصفاء ونقاء، ما يمنحها بعدها الجمالي والاستعاري والتعبيري، فالضوء هو الذي يجعلنا ندرك العالم المحيط بنا بصريا فإما يكون طبيعيا أو صناعيا، أو خليطا بينهما، الإضاءة في السينما تستخدم لتعزيز المعاني الرمزية والعاطفية، في السيناريو، حيث تحول الضوء والظل إلى أدوات سردية تعكس الحالة النفسية للشخصيات أو الموضوعات الرئيسية، وكمثال على استخدام الإضاءة في السينما نجد:

فيلم the godfather (1972) لمخرجه فرانسيس فورد كوبولا، حيث تم استخدام الإضاءة من خلال الظلال العميقة لتغطية وجوه الشخصيات، خاصة في المشاهد الداخلية، ما يعطي انطباعا بالضيق والتشويش والغموض، وجاءت الاستعارة هنا لتمثيل هذا الغموض الأخلاقي، والعالم السري للمافيا، فالظل يشير إلى الوجه المظلم للسلطة.

تصبح الإضاءة في السينما لغة بصرية تترجم الأفكار المجردة إلى صور مؤثرة، وليس مجرد أداة تقنية، حيث يمكن للمخرجين تحويل الضوء إلى استعارة قوية للصراعات الداخلية، والقيم الأخلاقية، فالإضاءة القوية أو الخافتة يمكن أن تعكس الحالة النفسية للشخصيات أو الجو العام للمشاهد.

- الرموز والاستعارات البصرية:

¹ ولاء محمد علي محفوظ، جدلية الاستعارة في قراءة الفيلم السينمائي، روي كليفتون نموذجاً، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ص 487.
² محمد نظاري، التخيل في السينما دراسة تحليلية سيميولوجية للفيلم المغربي السراب، بحث لنيل شهادة الماستر، إشراف الدكتور الشرقي نصراري، الكلية متعددة التخصصات، خريبكة، 2024، ص 21.

³ محمد نظاري، التخيل في السينما دراسة تحليلية سيميولوجية للفيلم المغربي السراب، ص 21.

- الرموز (Symbols): الأشياء أو الصور التي تحمل معاني أعمق من مظهرها المباشر، فالرموز كاستعارة في السينما تحول المفاهيم المجردة إلى صور ملموسة، مما يخلق طبقات من التأويل التي تثري تجربة المشاهد، هذه الرموز التي تأخذ شكل علامات بالمفهوم السيميائي، هذه العلامات تصبح هي المشكل الأساسي للغة البصرية والسرديّة للأفلام، وتستند أنظمة هذه الدلالات إلى نظريات كل من ديسوسير وتشارلز سندرز بيرس، لفحص كيف تنتج الأفلام المعنى من خلال العلاقة بين الدال والمدلول، حيث يصبح الرمز كاستعارة سواء كان صورة، أو صوتاً، أو لونا بثابة دال وهو العنصر المادي، ويصبح المدلول هو معنى هذه الاستعارة كمفهوم ذهني مرتبط بالدال، وهنا تصبح الرموز كاستعارات لتوصيل أفكار مجردة أو عاطفية أو فلسفية بشكل مرئي، حيث تتحول الأشياء أو الألوان أو المواقف إلى أدوات سردية متعددة على سبيل المثال، قد يرمز الطائر إلى الحرية أو الموت، وفي فيلم المصنوفة " the matrix" (1999) للإخوة واتشوسكي، الرمز كان هو الحبة الحمراء والزرقاء، وفي الاستعارة ترمز الحبة الحمراء إلى الصحة بينما ترمز الزرقاء إلى الجهل والاستلام.

إلى جانب الألوان والإضاءة والرموز، هناك أدوات أخرى كاستعارات البصرية، الصوت الموسيقي، الأصوات البيئية، الملابس والديكور، المونتاج وغيرها من الأدوات التي من خلالها يمكن للباحثين تحليل كيفية استخدام الاستعارة في السينما لنقل المعاني العميقة والدلالات الرمزية، مما يساهم في فهم أعمق للأفلام ورسائلها.

أمثلة تطبيقية للاستعارة في السينما المغربية دراسة سيميائية

الاستعارة في السينما المغربية تُعتبر أداة فنية عميقة لنقل أفكار مجردة أو نقد اجتماعي وسياسي من خلال الرموز البصرية أو السردية، في هذه الدراسة السيميولوجية (علم العلامات)، سنحلل هذه الاستعارات ك (نظم علامية) تعكس ثقافة المجتمع وتفاعلاته، وسنحدد كيف تتواصل السينما كلغة مكونة من نظام مشفر، كما جاء على لسان كريستيان ميتز "كيف تتواصل السينما أو الدوال كلغة مكونة من نظام شفرات، ويستخدم مصطلحات اللسانيات من مثل الدال/ المدلول، التركيب الاستبدال ويرى أنها قابلة للتطبيق على دراسة اللغة السينمائية لأنها تنطبق على خصائص تشترك فيها اللسانيات وشفرات أخرى¹، وإليك أمثلة تطبيقية من أفلام مغربية مع تحليل سيميولوجي:

1- فيلم "علي زاوا" (2000) - للمخرج نبيل عيوش.

في فيلم "علي زاوا" العديد من الاستعارات والرموز المثبوتة خلف الفوتوغرامات والمتتاليات الفيلمية، التي تحتاج عين ناقدة ومتلقي فطن ليصل إلى المدلولات الاستعارية المدسوسة خلف الشخصيات والأمكنة والرموز.

- الاستعارة البصرية:

- التاج: الذي يحلم بطل الفيلم (علي) بارتدائه يمثّل الحرية والهروب من واقع الفقر والعنف، التاج هنا ليس مجرد إكسسوار، بل استعارة وعلامة (Sign) على الحلم الإنساني بالكرامة.

- شوارع الدار البيضاء المظلمة: تُستخدم كاستعارة للاغتراب الاجتماعي، حيث تُرمز الأحياء الفقيرة إلى الهامشية وفقدان الهوية، والفقر، والا انتماء ليصبح المكان هنا ليس فقط خلفية أو سياق للأحداث، بل يصبح رمزا استيعاريا له دلالاته التي تحيل إلى الحالة الاجتماعية والنفسية للشخصيات.

¹ كريستيان ميتز، عن فكرة اللغة السينمائية في كتاب: بيل نيكولز: أفلام ومناهج / الجزء الثالث، النظريات، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2007، ص 360.

- التحليل السيميولوجي

وفقاً لتحليل السيميولوجي لـ "فرديناند دو سوسور"، التاج كدال (Signifier) يصبح استعارة في فيلم "علي زاوا"، الدال الذي يُشير إلى المدلول (Signified) وهو "الخلاص".

وكما سبق وأشرنا إلى أهمية الضوء كأداة للاستعارة في السينما، فإن التفاعل بين الضوء (أحلام الأطفال) والظلام (واقع الشوارع) يُشكل ثنائية سيميائية تعكس صراع الأمل واليأس.

2- فيلم "يا خيل الله" (2012) - للمخرج نبيل عيوش .

- الاستعارة السردية:

التحول من اللعب إلى التطرف: يصور الفيلم كيف يتحول أطفال في حي فقير إلى إرهابيين، من خلال التحليل السيميائي، يمكننا أن نفهم كيف يعمل الفيلم على مستوى الاستعارات والرموز، والعناصر البصرية والسمعية، لتوجيه رسائله حول الفقر والتمييز والجهاد، قصة يا خيل الله السردية تُعتبر استعارةً لتجيش الفقر واليأس.

- المكان المغلق (الحي الشعبي): يُمثل السجن النفسي والانغلاق الفكري، حيث تُحاصر الشخصيات بيئة تُغذي التطرف، فالمكان هنا يعمل كاستعارة تعبر عن الواقع الاجتماعي للفئات المهمشة في المجتمع، في بداية الفيلم ركزت كاميرا المخرج على تصوير القرى الفقيرة في المغرب التي تعيش فيها الشخصيات الرئيسية في الفيلم، هذه القرى باعتبارها أماكن تمثل الواقع القاسي الذي يدفع بعض الشباب إلى البحث عن "النجاة" بأي وسيلة وفي أي مكان حتى لو كان حبل النجاة هذا هو التطرف.

- التحليل السيميولوجي:

وفقاً لـ "رولان بارت"، الحي الشعبي يُصبح أسطورة (Myth) تُمثل القمع النبوي في المجتمع، حيث تعكس التهميش والحرمان الاجتماعي، فالحي الشعبي هنا يمثل البيئة الجغرافية التي تحاصر فيها الشخصيات من جميع الزوايا خاصة الأيديولوجية منها، ما يجعلهم عرضة للاستغلال والتأثر بالأيديولوجيات المتطرفة، الشخصيات في فيلم "يا خيل الله" تعبر عن مختلف جوانب الواقع المغربي في تلك الفترة، وتحول الشباب من الأمل إلى اليأس.

- اللغة الجسدية:

هنا لغة الجسد للشخصيات (كالتجهم والانكماش) شكلت علامات على فقدان البراءة، والتفكير السليم، والتهيه والتحول من البحث عن الأمل إلى البحث عن فرص جديدة حتى لو كانت متطرفة.

3- فيلم "ماتش لوفد" (2015) - للمخرج نبيل عيوش

- الاستعارة الثقافية:

الكسوة التقليدية (الجلابة، القفطان): تُستخدم في مشاهد الدعارة كاستعارة للتناقض بين التقاليد والانحطاط، اللباس هنا أصبح رمزاً يعكس التوجهات الثقافية والتغيرات النفسية للشخصيات، فهو جزء لا يتجزأ من الخطاب السينمائي، والاستعاري والسيميائي.

اللباس في الفيلم يعتبر علامة تشير إلى مجموعة من المعاني الثقافية، الاجتماعية، والنفسية، وحين يستخدم القفطان كاستعارة مع الجلباب لإبراز التناقض والانحطاط، بتحوله من لباس عاكس لثقافة المجتمع إلى لباس يستخدم للدعارة وبيع الجسد.

الليل والنهار: الليل يرمز إلى العالم السري للمهمشين، بينما النهار يُظهر النفاق الاجتماعي، دائما ما كان الليل كسوة وغطاء لتجار المخدرات، والدعارة، وملابذا للمهمشين، بينما النهار كاشفا للعيوب وفاضحا لما يحدث بالليل.

- التحليل السيميولوجي:

الملابس تُصبح نصًا ثقافيًا (Cultural Text) يُفكك التناقض بين الهوية المغربية والانفتاح الغربي، لقد استعار المخرج اللباس التقليدي المغربي كعلامة عن الثقافة والهوية المغربية التي انسلخت لتقلد ثقافة الغرب، وفقًا لـ "أمبرتو إيكو"، الاستعارة هنا تُنتج تأويلًا مفتوحًا حول أزمة الهوية.

4- فيلم "غزية" (2017) (Razzia) "لمخرج نبيل عيوش

- الاستعارة الرمزية:

- **الأبواب المغلقة:** ترمز الأبواب المغلقة كاستعارة في الفيلم إلى الكبت الجنسي والسياسي في المجتمع المغربي، كما الأحياء الشعبية الفقيرة التي شكلت فضاءات مغلقة، تعكس الضيق الاجتماعي والاقتصادي، أماكن مظلمة مكتظة، تسهم في تصوير حالة التهميش والاستبعاد الاجتماعي والجسدي.

- **المطر المتكرر:** يُمثل الغسل الأخلاقي أو الدماء الخفية (في إشارة إلى العنف)

- التحليل السيميولوجي:

الأبواب تُشكل علامة أيقونية (Iconic Sign) تُحيل إلى مفاهيم الحرمان والرقابة، والصراع الاجتماعي بين التقاليد والحداثة، بين الانثى وسلطة الذكر، ما يعكس الإيديولوجيا التقليدية التي تمنح للنساء فرصة التحرر والاختيار.

وفقًا لـ "تشارلز ساندرس بيرس"، المطر يُعتبر رمزًا (Symbol) يحتاج إلى تفكيك عبر السياق الثقافي، فقد يرمز إلى غسل الروح، إلى التجديد، أو حتى الحزن والدراما، ففي بعض الثقافات يمثل المطر التطهر والبركة، أو يمكن أن يرمز إلى الحزن والقلق.

5- فيلم "آدم" (2019) - للمخرج مريم التوزاني

- الاستعارة الجندرية:

- **المخبز:** المكان الذي تعمل فيه البطلة (امرأة عازبة) يرمز إلى التحدي الاجتماعي والمقاومة اليومية ضد التابوهات، أصبح المخبز علامة مكانية وفضاء اجتماعيا يعكس الطبقات الاجتماعية التي يعيش فيها الأشخاص، فضاء للتواصل والتفاعل بين الشخصيات، في الفيلم يظهر المخبز كمكان عمل شاق تتجمع فيه الشخصيات وتتلاحم فيه الأجساد، تكافح من أجل البقاء، المخبز أيضا مكان يعكس التقاليد الراسخة لهته الشخصيات، مكان لحياة متكررة مثل الحياة الروتينية والرتيبة التي يمر بها الناس دون أن يغيروا من أنفسهم.

- **الخبز:** يتحول إلى علامة على العطاء الأنثوي والصمود الاقتصادي، فالخبز في الثقافة المغربية له قيمة كبيرة، فهو علامة على العيش والاستمرار، ويمثل مكانا محوريا لإنتاج الحياة اليومية.

- التحليل السيميولوجي:

المخبز يُصبح فضاء سيميائياً (Semiosphere) تتفاعل فيه علامات الجندر والطبقة الاجتماعية، هو علامة سيميائية تعبر عن القيود الاجتماعية والاقتصادية، المخبز مثل شخصية ليلي في الفيلم يمثل النساء المهمشات في المجتمع اللائي يجبرن على العمل في وظائف مضنية، ما يعزز الشعور بالضغط الاجتماعي. الخبز، وفقاً لـ "جوليا كريستيفا، يُشير إلى الجسد الأنثوي كمنتج للثقافة والحياة.

الخلاصة السيميولوجية:

الاستعارة في السينما المغربية تعمل كـ "نظام علاماتي معقد"، حيث تُترجم الأفكار المجردة إلى رموز بصرية أو سردية قابلة للتفكيك، وعبر تحليل السياقات الثقافية والاجتماعية، تكشف السيميولوجيا عن طبقات متعددة من الدلالات، مثل :

-النقد السياسي كاستعارة السجن في "يا خيل الله"

-الصراع بين التقاليد والحداثة كما في "ماتش لوفد"

-الهوية المفقودة كالتاج في "علي زاوّة"

هذه الاستعارات لا تُثري النص السينمائي فحسب، بل تُشكل مرآةً لنفسية المجتمع المغربي وتطلعاته.

تركيب

تُمثل الاستعارة إحدى الأدوات الجوهرية في السينما لصياغة المعاني وإثارة المشاعر، وتُعدّ السيميائيات وسيلة فعالة لفهم هذه الاستعارات وتحليلها والوقوف على مدلولاتها بعمق، من خلال تحليل الدال والمدلول والمستوى الإيحائي، يمكن الكشف عن الرسائل الرمزية التي تحملها المشاهد السينمائية، مما يعزز من فهمنا للفن السابع كوسيلة للتعبير الثقافي والفني.

في السينما، الاستعارة تتجاوز الكلمات لتصبح وسيلة بصرية تمثيلية، يتم استخدام عنصر أو مشهد معين للتعبير عن فكرة أو إحساس أعمق مما يبدو على السطح، والمنهج السيميائي، كعلم لدراسة العلامات والرموز، يُساعد في تحليل هذه الاستعارات عبر التركيز على العلاقة بين "الدال" (الشكل البصري أو السمعي) و"المدلول" (المفهوم الذي يتم التعبير عنه).

-في السيميائية، الاستعارة هي علامة مزدوجة المعنى: :

- الدال (Signifier): الصورة أو المشهد الظاهر على الشاشة.

- المدلول (Signified): الفكرة أو الشعور الذي يُنقل من خلال هذه الصورة.

من خلال الاستعارة، تصبح السينما وسيلة لفهم العالم والمشاعر الإنسانية بشكل أكثر تعقيداً وجمالاً، كما شاهدنا في التحليل السيميولوجي للأفلام المغربية، حيث أصبحت الاستعارة أداة قوية تتجاوزت الكلمات، وقربت المشاهد من الواقع الاجتماعي والاقتصادي المعاش.

المصادر والمراجع

- كريستيان ميتز، عن فكرة اللغة السينمائية في كتاب: بيل نيكولز: أفلام ومناهج / الجزء الثالث، النظريات، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2007.
- بن جيلالي محمد عدلان، سينمائية الخطاب الفيلمي، مقارنة سيميو-شعرية، Titanic ، إخراج جيمس كامرون، رسالة دكتوراه في النقد الأدبي والتمثيلي، 2010.
- تريفور وايتوك، الاستعارة في لغة السينما، ترجمة: إيمان عبد العزيز، مراجعة: سمير فريد، المجلس الأعلى للثقافة، ط01، مصر، 2005.
- علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف لبنان، 2005.
- غي غوتييه، الصورة المكونات والتأويل، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، 2012.
- كريستيان ميتز : جماليات وسيكولوجيا السينما عند جان ميتري ترجمة : نبيل عبد المالك، مجلة القاهرة، يناير، ديسمبر، 1990.
- محمد صبري، بيداغوجيا الدرس البلاغي البصري.
- محمد نظاري، التخيل في السينما دراسة تحليلية سيميولوجية للفيلم المغربي السراب، بحث لنيل شهادة الماستر، إشراف الدكتور الشرقي نصرأوي، الكلية متعددة التخصصات ، خريكة، 2024.
- ولاء محمد علي محفوظ، جدلية الاستعارة في قراءة الفيلم السينمائي، روي كليفتون نموذجاً، كلية الآداب ، جامعة عين شمس.
- Dominique Chateau et Martin Lefebvre : Christian Metz et la phénoménologie, **revue d'histoire du cinéma**, n o 7 0 été 2001.
- W. Bedell Stanford, Greek Metaphor (Oxford: Basil Blackwell. 1936)

المتحف معبد للتراث أية أدوار للمتحف في حفظ التراث؟

د. نوجدي السعدية

جامعة ابن طفيل

المملكة المغربية

الملخص:

يقال التاريخ يقبع في المتاحف، ولكننا بحاجة إلى قصص وحكايات لها موقعها الشبه الحاسم في مسيرة هذا البحث لنقول إن التراث يقبع في المتاحف، وإن المتاحف معبد للتراث. ففي هذا المعبد العجائبي الذي توقف فيه الزمن وتعبدا فيه لإله الماضي، وجدنا من المزامير ما يسحر بجمال آياته الأبواب، وما يصلح للحكي، وما يفتح منافذ النور على كنوز الإرث الإنساني والتاريخي والفكري والفني المظمور والمطموس، لنجلو قيمته الحقيقية في ضوء موجة الموضة البحثية الجديدة ونحن نقدم نبذ نظرية استقرائية عامة لماهية المتحف ومنشئه وأنواعه. تقديم يتم فيه الانتقال إلى استعراض وتحليل أهم وظائف وأدوار المتحف في حفظ التراث والممتلكات الثقافية، وإبراز خصوصيته من خلال تلك الوظائف والأدوار التي يمكن أن تساعده في تأدية مهامه على وجهها الأكمل.

لكن جوهر صياغة هذا التقديم على هذا النحو لن يكتمل إلا بطرح أسئلة تسند ظهوره وتعطينه من قوتها قوة علمية مؤتلفة نجسدها واقعا حيا لا ريب فيه لو أجبنا بحكمة عن التالي: ما الذي يقصد بالمتحف؟ هل المتحف منشأة حضارية أم مؤسسة تعليمية تثقيفية حاملة لرسالة تنويرية أم مستودع للأسرار الإنسانية الغابرة أم هو مجرد فاترينة لعرض مخلفات الأجداد ومنجزاتهم؟ هل يعد المتحف أساسا مهما لحفظ التراث والممتلكات الثقافية؟ وما هو الدور الذي لعبه وسوف يلعبه المتحف في حفظ التراث وتثمينه؟ هل المتحف وحده من تقع على عاتقه مهمة حفظ التراث؟ ما هي وجوه هذا الحفظ وأشكاله؟ هل للمتحف من المقومات ما يجعله مؤسسة مؤمنة على توثيق جميع أنواع التراثات وتسجيلها وعرضها؟ وكيف تسهم سينوغرافيا العروض المتحفية في تقديم صورة حية للتراث تجتذب عين الجمهور الزائر؟ هل للمتحف أدوار تفاعلية في تجسير العلاقة بينه وبين رواده وإشراكهم في نشر التراث؟

الكلمات المفتاح: المتحف، التراث، المتحف، المنشأة، الأنواع، الأدوار، أشكال الحفظ.

تقديم

عندما تغير الوعي مساهمة للموضة البحثية، شهدت السنوات الأخيرة من القرن الحادي والعشرين، موجة دراسات جديدة أعادت النظر في طبيعة تقاليع المتحف ومكانتها على صعيد الفكر المعاصر الخاص بالثقافة والمجتمع. تقاليع بزغ نجمها على مسرح الوجود عندما زكشت نفسها بخيوط ذهبية فريدة من خيوط قماش القضايا الواسعة النطاق والمتعلقة بالتراث والتاريخ، فوحي تقاطيع تلك التقاليع اجتذب إليه أنظار عيون الباحث الشاحصة المنبهة كما يجذب الناموس إلى ضوء الشمع، وأغرته فهيأته عمليا ونظريا على نحو مثالي بدرس سحر عظمة الماضي الحامل لكل مجيد وترك بصمة إيجابية متألفة في ميدان البحث وتبادل المعرفة. اجتذاب كان هو المادة العلمية الجديدة المفجرة للقبلة الفكرية التي هزت أركان الوعي الأثري وزعزعت الذهن ونهته بأناقة علمية منقطعة النظير إلى الإشعاع الثقافي والمعرفي للمتحف، فإذا ما أفسحنا مجال القول عن هذا المتحف وجدنا في واجباته العصرية الأساسية سبيلا لتقديم المعارف والثقافة والتعليم، وبث روح المعرفة والبحث، وعرض التاريخ بأشكال وأنواع مختلفة تعكس أصالة الوطن وهويته الجمعية، ونقل تجربة الأمم وإنجازاتها من الماضي إلى الحاضر ومن جيل إلى جيل، وتنمية الذوق الفني والحس الجمالي والأثري والارتقاء بهما في تذوق الفنون، وإثراء العقل والوجدان بالقيم الثقافية والفنية والحضارية، وحماية الذاكرة الإنسانية وتنشيطها، وتأكيد الهوية القومية للأمة، وتعميق الشعور بالانتماء الوطني، وإيصال رسالة الميراث الثقافي والفني وتقريبها إلى الأجيال المعاصرة وتعريفهم بها وبحضارات بلادهم، وذلك بالاهتمام بهذا الميراث وبث الحياة فيه من خلال عرضه في المعارض، وتلك خطوة في غاية الأهمية لحفظ هذا التراث وصونه وتسليمه سالما معفى إلى الأجيال القادمة.

وإنه لمن حسن المصادفات أن انفجار تلك القبلة الفكرية أصابنا اليوم فجاءنا بلحظة تاريخية مذهلة يعيد فيها القلم خلق رؤية جديدة، ومستنيرة، وبناءة في النظر إلى المتحف، واكتشاف ماهيته ونشأته وأدواره في حفظ التراث الثقافي بميسمه المادي واللامادي. التراث الذي إذا ما نظرنا إليه في صفائه وتألقه وجدنا فيه ضالة الذات الباحثة: تمجيد التراث المرء الواعي بعراقة وأصالة حضارته. وهنا يتبادر السؤال ليبحت عن إجابة منطقية هل أصبحنا نعبد التراث أم نجله فقط؟

مرجعيات نظرية في التراث: استقراء الماهية والنشأة والأنواع

يقال في الكلاسيكيات الأدبية، إن الطريق المؤدية إلى العلم، هي " معرفة اصطلاحات أهله"¹، فالاصطلاحات ما هي إلا اللبنة الأولى من كل علم، بما هي مدار كل علم، بما يبدأ وعليها يبنى وإليها ينتهي. وإذا ما أردنا الحقيقة، فإن الاصطلاحات هي العلم، وهذا القول يجري مجرى القاعدة في العلوم²، وقلم النحن بحاجة إلى الجري في مجرى البحث في المعاجم والدراسات متبعا هذه القاعدة، ليخرج من جريه ذاك بأن المتحف اسم لقب، يعود لمادة "تحف" وهي في اللغة من التحفة أي الطرفة، جاء في لسان ابن منظور: التحفة: الطرفة من الفاكهة وغيرها من الرياحين. والتحفة ما تخف به الرجل من البر واللفظ³. والمتحف هو موضع عرض التحف الفنية أو الأثرية أو العلمية أو غيرها⁴، وعلى العموم هو المكان الذي تجمع فيه التحف، و"التحفة هي الشيء النادر الثمين الذي تتزايد قيمته كلما بعد الزمن الذي تعود إليه، والمفهوم الذي تدل عليه"⁵. فمن خلال هذا المعنى ندلكم على أن المتحف كلمة يستخدمها الجميع، ولكنها ذات معان مختلفة حسب السياق، وبالأخص عند استخدامها في الترجمة. ومن ثم، فإن كلمة

¹ - الشاطبي، أبي إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، ط 1، لبنان، 2001، ص 67.

² - الأنصاري، فريد، المصطلح الأصولي عند الشاطبي، معهد الدراسات المصطلحية، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، ط 1، 2004، ص 11.

³ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط 1، بيروت، 2000، مادة تحف.

⁴ - أبادي، الفيروز، القاموس المحيط، الهيئة العامة للكتاب، ط 3، القاهرة، 1989، مادة تحفة.

⁵ - الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ، المكتبة العصرية، ط 4، بيروت، 1998، مادة متحف.

museum باللغة الإنجليزية أو الألمانية غير مماثلة لكلمة "المتحف" باللغة العربية، من حيث المحتوى والسياق الثقافي. فاللفظة الأوروبية هي كلمة بعيدة من حيث المعنى المطلوب، خلافاً لكلمة "متحف" بالعربية، التي تعني بوضوح معناها اللفظي؛ أي مكان لعرض المقتنيات الثمينة ذات القيمة المادية أو حتى المعنوية. أما في اللغات الأوروبية فتدل على موسوعة أو دائرة معارف وهي في كل هاته اللغات ذات ارتباط وثيق بالكلمة اليونانية "موسيون" Museion¹ فتدل على سيد الجبل أو امرأة الجبل، وتشير عند الإغريق إلى المكان المخصص لعبادة أرباب الحكمة، وحسب الميثولوجيا الإغريقية، فأرباب الحكمة هن الإلهات الشقيقات التسع الراعيات للعلوم وللفن بصورة عامة².

والمتحف من الناحية النظرية الدلالية، تعددت الآراء في تحديد مفهومه ولم تتفق على تعريف واحد له، فلكل باحث بنيته الذهنية الخاصة بهذا المفهوم. وتفرض هذه البنية كثرة وتنوع المفاهيم التي يسوقها بعض الأفراد في مجتمعات مختلفة، خاصة المجتمعات النامية، فهناك شريحة من المجتمع لا تفقه معنى للمتحف إطلاقاً، وهناك شريحة أخرى لا زالت تعتقد بأن المتحف من الأماكن المحرمة لأنه يحتوي على تماثيل وصور بإمكانها صد الناس عن عبادة الخالق، وهناك شريحة أخرى ترى بأنه المكان الذي يوضع به الأشياء العجيبة والقديمة من قبيل الحنين الماضي فقط، وعندئذ يعرف باسم دار العجب³. ونظراً لعدم صواب هذه التعاريف وصحتها، والسعي إلى تغيير هذه الصورة السلبية المتشكلة في الأذهان التي تتبنى مثل هكذا تعاريف واعتقادات خاطئة، استطردت الدراسات في تعريف مصطلح المتحف، فقد عرفه جوته على أنه "الثقافة الحقيقية التي تهيئ لنا فهم أشياء قد تقع عليها أنظارنا يومياً ولسنوات طويلة دون أن ندركها، وإذا أدركناها ندرك بأن المتحف مستودع لأسرار الإنسانية ومصدر هام من مصادر المعرفة والتثقيف⁴. كما أن دوجلاس أ. آلان عرفه على أنه "مبنى لإيواء مجموعة من المعروضات بقصد الفحص والدراسة والتمتع، وقد تكون هذه المعروضات منقولة من أطراف الأرض، ربما ترجع إلى العصر الحالي أو ترجع إلى الماضي البعيد. وبالتالي، يجمع المتحف تحت سقفه مادة كانت أصلاً متفرقة تفريقاً كبيراً من حيث الزمان والمكان ليسر على رواده رؤيتها⁵". في حين عرفه أحد الباحثين بأنه "مبنى تحفظ به وتعرض الأعمال الفنية والآثار القيمة"⁶. بينما عرفه أحد الباحثين العرب على أنه "مبنى يحوي مجموعات من الأشياء، ويفتح للمشاهدة والدراسة والتسليّة"⁷. وإذا اعتبر هؤلاء الباحث الثلاث المتحف مجرد مبنى، فإن باحثاً آخر اعتبره منشأة علمية وثقافية نشأت نتيجة لتجمع مقتنيات عديدة بغية المحافظة عليها، وتشمل التراث الإنساني ومجموعات التاريخ الطبيعي أو الصور، وتطور التقدم العلمي والصناعي والفني بأسلوب جذاب، واعتبره أيضاً معهد بحث ودراسة للباحثين والدارسين⁸. وهناك باحث آخر اعتبره أيضاً بمثابة معهد علم، "

¹ - أفيناريوس، جوندولا، عائشة ديماس، سوزان كامل، علم متاحف مناسب يساوي لغة مناسبة مقالات عن الترجمة والتواصل في المتاحف، ترجمة ممدوح خضير وإبراهيم سلمان، ضمن فعاليات المؤتمر الدولي "علم متاحف مناسب يساوي لغة مناسبة، التواصل بين الثقافات والترجمة في المتاحف"، الإمارات العربية، 29-31 مارس 2015، ص 25. الزعبي، مهدي عبد الكريم محسن، سلطان المعاني، المتاحف الأردنية في مئة عام، وزارة الثقافة، ط 1، الأردن 2021، ص 9. نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي دراسة في علم المتاحف، الأقصى للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص 15-16.

² - محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، الدار المصرية اللبنانية، ط 1، القاهرة، 2002، ص 15. غنيمه، عبد الفتاح مصطفى، المتاحف والمعارض والقصور وسائل تعليمية، كلية الآداب جامعة المنوفية، 1990، ص 70. دعبس، محمد إبراهيم يسري، متاحف العالم والتواصل الحضاري دراسات وبحوث في أنثروبولوجيا المتاحف، شركة الجلال للطباعة، المنقلى المصري للإبداع والتنمية، ط 1، مصر، 2004، ص 17.

³ - حملاوي، علي، مكانة المتحف في المجتمع، مجلة آثار، العدد 6، جامعة الجزائر، 2007، ص 54-55.

⁴ - نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 15.

⁵ - دوجلاس أ. آلان، المتحف ومهامه، ضمن دليل تنظيم المتحف إرشادات علمية، تأليف آدامز فيليب وآخرون، ترجمة محمد حسن عبد الرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993، ص 11.

⁶ - دعبس، محمد إبراهيم يسري، متاحف العالم والتواصل الحضاري دراسات وبحوث في أنثروبولوجيا المتاحف، م س، ص 19.

⁷ - العوامي، عياد موسى، مقدمة في علم المتاحف، المنشأة العامة للنشر، ليبيا، 1984، ص 7.

⁸ - دعبس، محمد إبراهيم يسري، متاحف العالم، م س، ص 19.

دارا لحفظ الآثار ومركز ثقافة، ومدرسة فنون، ومعبد جمال، وروضة ترفيه وممتعة، وهو المجال المناسب للإسهام في التعرف على التراث الحضاري والممتلكات الثقافية وعلى نشر الوعي العلمي والثقافي وتنمية الحضاري لدى كافة أبناء الوطن والأمة¹. أما الموسوعة العالمية العربية فاعتبرته "دارا لحفظ الآثار القديمة، والتحف النادرة، وروائع المنحوتات، واللوحات الفنية، وكل ما يتصل بالتراث الحضاري، وعرضه للجمهور، وقد يضم المتحف أعمالا علمية، وأعمالا فنية، ومعلومات عن التاريخ والتقنية، وكذلك تقدم المتاحف معلومات للباحثين والطلاب وغيرهم"². في حين اعتبره باحث آخر مخزنا ومؤسسة "المتحف ليس مخزنا لحفظ تحف يخشى ضياعها ولا مقابر لآثار تاريخية ولروائع فنية فحسب، بل هو مؤسسة علمية وثقافية تساعد المواطنين على فهم تاريخ أمتهم وعلى معرفة انتصاراتها وسير أبطالها وعباقرتها في مختلف الميادين، والمتحف هو المكان الطبيعي للحفاظ على التراث الحضاري للأجيال الصاعدة ويعتبر هذا واجبا قوميا وإنسانيا ملزما من شأنه أن يجعل الأبناء والأحفاد يطلعون على ما أنجزه وأبدعه الآباء والأجداد فيفيدون منه ويضيفون إليه وينقلونه إلى الأجيال القادمة"³. إذن، فالمتحف مؤسسة تطلعا على ما حققه السلف منذ عصور ما قبل التاريخ في ميادين الصناعة والزراعة والتجارة والعلوم والفنون والآداب مما يجعلنا نشعر بإسهامنا الحضاري، وكياننا العلمي، ومستوانا الأدبي ورقينا الفني، ويجعلنا ندرك واجبنا القومي الذي يتطلب منا ضرورة دراسة تراثنا وتدريبه والاستفادة منه⁴. وفي النهاية فقد اعتبره المجلس الدولي للمتاحف ICOM "مؤسسة تقام بشكل دائم بغرض الحفاظ والدراسة والتسامي بمختلف الوسائل وعلى الأخص بعرض مجموعات فنية أو تاريخية أو علمية أو تكنولوجية على الجمهور من أجل تحقيق المتعة والسرور"⁵. متعة لن تتحقق إن لم نعلم القارئ بأن هذه المجموعات على الرغم من اختلافها بطبيعة الحال، من حيث النوع، الحجم، العمر، المادة، الأهمية، فإنها تشترك جميعا في عامل مشترك واحد ألا وهو حمل أو نقل معلومات عن تاريخ وحضارة الإنسان⁶.

بعد كل هذا العرض الذي تضمن تعريف عديدة للمتحف والتي صبت جميعها في مجرى الحفاظ والدراسة والعرض، يجدر بذات القلم الآن التعرف على الأصول التاريخية لنشأة المتحف، فإذا ما تتبعنا فكرة نشأة المتحف لوجدناها تعيدنا إلى فترة بعيدة من تاريخ البشرية القديم. فالمؤسسة المتحفية بمفهومها المعاصر جاءت وليدة لرغبة الإنسان ومحاولاته في جمع وحفظ وعرض الأشياء ذات القيمة المادية أو المعنوية. وتشير الدراسات التاريخية إلى ارتباط المتحف في بدايته بالمعابد الإغريقية، حيث حرص الإغريق على جمع التماثيل والتحف الفنية في خزائن المعابد ذات الشهرة العالمية مثل أكروبول أثينا، ومعبد الإله أبولو في دلفي، ومعبد الإله زيوس في أوليمبيا حيث كانت هذه التحف تعرض في مناسبات معينة لكي توضح مدى ثراء المدن وتقدم فنونها⁷. وهذا يعني أن فكرة المتاحف بدأت في المعابد والمدن، حيث أقيمت متاحف جمعت الكثير من التماثيل والآثار الفنية، وكانت تنصب بأسلوب أخاذ لتزيين الأماكن التي رتبت فيها لتنسجم مع المكان، ولا يتفق بعض القدامى على أن ترتيب تلك الآثار في تلك المعابد كان الغرض منه الدراسة، بل هو للتجميل لا غير⁸. وقولهم لم يأت من فراغ فهناك أمثلة كثيرة من التاريخ القديم تشير إلى أن اقتناء التحف وأعمال الفن من قبل الهواة كان وسيلة لتزيين القصور والدور وعرض مظاهر الثراء ومن هؤلاء الهواة القادة العسكريون والحكام، ويقال إن الجنرال الروماني

1- الدباغ، تقي، فوزي رشيد، علم المتاحف، علم المتاحف، مطبعة جامعة بغداد، العراق، 1979، ص 7.

2- راشد، محمد جمال، أنواع المتاحف ومعايير تصنيفها، مجلة الاتحاد العام للأثريين العرب، المجلد 22، العدد 1، 2021، ص 738.

3- الدباغ، تقي، فوزي رشيد، علم المتاحف، م س، ص 7.

4- الدباغ، تقي، وفوزي رشيد، نفسه، ص 7.

5- شمر، بيير، إدارة المتاحف، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 38.

6- قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، مطبعة الحضري، الإسكندرية، 2008، ص 161.

7- قادوس، حامد، عزت زكي، نفسه، ص 290.

8- محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ط 1، 2002، ص 25.

فرس جمع المجوهرات المصنوعة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والتماثيل الرخامية عندما كان حاكما على صقلية، كما أن الجنرال اكريا المعاصر للإمبراطور أغسطس كانت عنده مجموعة نادرة من التحف الثمينة، ويذكر أن الكاتب الروماني شيشرون جمع من الأعمال الفنية والتحف الثمينة ما ملأ ثماني عشرة بناية وكانت تلك البنايات عبارة عن متاحف ومخازن تجارية في ذات الوقت. ومن الإشارات الواضحة حول هذه الناحية¹ أن الإمبراطور الروماني هارديان زين قصره في تيفولي بروائع الفنون الكلاسيكية اليونانية من تماثيل ولوحات². ونظرا لتعدد ما يتصل بموضوعنا هذا، حسبنا أن نذكر أن روما كانت من أكثر المدن الأوروبية اهتماما باكتناز المخلفات القديمة في المعابد والقصور والدور، لكن تلك المخلفات في نهاية العهد الجمهوري أصبحت تعرض في قاعات خاصة عندما منع يوليوس قيصر جمع التحف في القصور الخاصة وجعلها ملكا للدولة، ووهب هو نفسه مجموعاته الخاصة من الآثار الرومانية إلى المعابد، وعندما نادى الجنرال اكريا بفتح كنوز القصور للجماهير، مؤكدا على أن أحسن ما في الفنون هو أن تكون تحت تصرف الجماهير ولكل من أراد الاستمتاع بها، ومن ثم عرض مجموعاته الفنية على الشعب في قاعات الجماعات العامة³. وبني في روما سنة 189 ق.م متحف كبير عرضت فيه غنائم الرومان من الحروب، وتماثيل تخذل أبطل روما وحكامها. وفي حمامات تيتوس أو حمامات كاراكلا تشيع وتمتع المواطن الروماني بالقيم الجمالية للأعمال الفنية المعروضة إلى جانب النشاط البدني. والطريف في الأمر أن الإمبراطور هادريان الذي كان يكثر المقتنيات في قصره كان أول من أقام متحفا للهندسة المعمارية في التاريخ وكذلك متحف للنحت فضلا عن قيامه بتجديد وترتيب المراكز الكبرى في بلاد الإغريق. وفي سنة 1506 ثم وضع تمثال الكاهن، الذي حاول إقناع سكان طروادة بعدم قبول الحصان المجوف الذي كان سبب هزيمتهم، في فناء مفتوح بقصر البلغادير الذي تحول فيما بعد إلى حديقة متحفية كانت نواة لمتحف الفاتيكان. لكن هناك فئة من الشعب لم تقتنع بفكرة عرض مقتنياتها النفيسة على الجمهور، الذي بقي يشاهد الآثار الإغريقية والرومانية في المعابد والمزارات المقدسة، وظلت الأمور على حالها في روما وغيرها من المدن الأوروبية طيلة العصور الوسطى وبداية عصر النهضة⁴. وتنساءل ههنا حول ما إذا كانت فكرة المتاحف فكرة إغريقية رومانية أم هي فكرة ذات أصول شرقية عريقة؟ وإذا كانت شرقية بالفعل فهل من دليل على شرقيتها؟

تؤكد الدراسات الشرقية أن فكرة إنشاء المتاحف فكرة شرقية ترجع إلى العصور الفرعونية، وأن القدماء المصريين هم أول من اهتم بالمتاحف ويعرض واقتناء تماثيل وتحف فنية داخل المعابد⁵، التي كانت بما تحويه من مسلات وتماثيل ولوحات منقوشة، فضلا عن عمارتها، بمثابة متاحف مفتوحة تؤدي رسالة المتحف. وبالفعل فدار الحياة "برعنج" في مصر القديمة أدت إلى جانب رسالة العلم نفس رسالة المتحف. وقد أثبتت الحفريات أن حجرة النباتات بالكرنك من أقدم متاحف النباتات في العالم، وأن معبد بوباسطة الكبير كان بمثابة متحف واسع مكتظ بآثار الأسلاف، وأن مكتبة الإسكندرية القديمة بعناصرها المعمارية كانت تضم أعمالا فنية وكل ما يمكن أن يحويه متحف بمفهومنا الحالي وتؤدي رسالته⁶. وهذا، إن أكد على شيء فإنما يؤكد أن فكرة المتحف كمتحف ونشأته ارتبطت بالمصريين القدماء، وذلك لحبهم للفن والجمال، وما له قيمة أثرية لتقدم عهده، ولا سيما لو ارتبط هذا في المقام الأول بمعنى ديني⁷. ارتباطا يظهر في عرض ما هو جميل وثمران يبهو فناء المعابد مما يتفق ومفهوم المتحف في عملية الاقتناء والعرض.

1 - الدباغ، تقي، فوزي رشيد، علم المتاحف، م س، ص 13-14.

2 - قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 290.

3 - الدباغ، تقي، فوزي رشيد، علم المتاحف، م س، ص 15. محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 26.

4 - الدباغ، تقي، فوزي رشيد، نفسه، ص 15. محمد، رفعت موسى، نفسه، ص 26-27. نور الدين، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 11-12.

5 - قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 289.

6 - نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 9-10.

7 - محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 24.

وإذا كان المصريون أسبق من البطالمة في فكر المتاحف، وأن معروضات متحف الإسكندرية كانت من الآثار المصرية القديمة، فإننا لم نسمع عن تسمية لمثل تلك المعروضات وغيرها في العصور القديمة بكلمة مزيون Museum في العصور القديمة، مثلما سمعنا بها في العصر البطلمي، العصر الذي أسس فيه بطليموس الأول بالإسكندرية مركزاً لتعليم كرس الفنون عام 290 ق.م وعرف باسم مزيون، واجتذب له أشهر العلماء والأدباء وقتذاك¹. وبالعكس من ذلك، تؤكد الدراسات التاريخية الحديثة على أن فكرة تأسيس المتحف فكرة بابلية، فجمع التحف وعرضها في مكان خاص لم تبدأ إلا عند قدماء الإغريق ولا وفي عهد البطالسة، بل في العراق في زمن سبق بطليموس الأول بأكثر من ثلاثة قرون، فالمعروف أن الملك الكلداني نبوخذ نصر الأول خصص قاعة من قاعات قصره ببابل لعرض بعض المواد الأثرية كتمثال أسد بابل، ومسلّة حاكم مدينة ماري، ومسلّة حيثية، ومجموعة من التماثيل المصنوعة من حجر الدايورايث، وألواح طينية مستخرجة من المعابد والزقورات، وهي مواد كانت معروضة لزوار قصره وليس لعامة الناس².

وتروي هذه الدراسات أن آخر ملوك بابل نقب في أطلال مدينة أور القديمة ونقل ما تم العثور عليه إلى متحف أعد لذلك في بابل، وأنه ثم العثور في حفائر هذه المدينة على أسطوانة من الطين، نقش عليها أربعة أعمدة من الكتابة، اعتبرها العلماء أقدم بطاقة لوصف المعروضات الأثرية³. ويحق لنا في ظل جغرافية هذا النطاق طرح السؤال التالي: هل عرف المسلمون فكرة المتحف وجمع النفيس من التحف؟

كجواب، عرف المسلمون فكرة المتاحف وجمع التحف منذ عهدهم القديمة، فالخليفة الفاطمي المستنصر بالله في القرن الحادي عشر أقام أول متحف أثري في العالم توافرت فيه خصائص المتحف الأثري وإن اختلف الهدف من إقامته، بينما أوروبا لم تعرف فكرة المتحف إلا بعدها بخمسة قرون خلال عصر النهضة⁴. وبني المستظهر متحفاً للأسلحة القديمة داخل باب الظرفية المتصلة بدار الخلافة. وأنشأ هارون الرشيد مجمعا علميا ضخما أودع فيه كل ما جمع أباه وجده من مختلف بلاد العالم⁵. وقامت الملكة شجرة الدر بعرض مقتنيات الملك الصالح نجم الدين أيوب بجانب المحراب في الضريح الذي أعد لدفنه. وهذا ينفي بشكل ما صحة القول بأن المسلمين لم يعرفوا نظام المتاحف العامة، وحتى لم يعرفوا هذا النوع من المتاحف فيكفي أنهم عرفوا نظام المتاحف الخاصة والخزانات العامة، ولا سيما عند الخلفاء والأمراء والوزراء الذين احتوت خزائهم على كل نفيس وغال وثمان ونادر. فقد حوت قصور الأمويين في بادية الشام الكثير من التحف الثمينة لم يبق منها إلا رسم الفريسكو بقصر بحمام قيصر عمرة، والأرضية الفسيفسائية في قصر خربة المفجر وصورة الراقصتين بالجوسق الخاقاني بسامرا في العصر العباسي⁶. ففي هذا العصر قام الخليفة الراضي ابن أخ الخليفة القاهر بعمل خزانة في قصره لجمع التحف البلورية، التي قال فيها الصولي: "ما رأيت البلور عند ملك أكثر منه عند الراضي، ولا عمل ملك منه مثل ما عمل، ولا بذل في أثمانه وأبدل حتى اجتمع له من آله ما لم يجتمع لملك قط"⁷.

وتذكر المصادر أن الخلفاء الأندلسيين جمعوا كثيراً من النفائس والتحف في قصورهم مثل قصر الجعفرية، وقصر باديس، وقصر دار السرور، وقصر المؤنس، وقصر الزهراء⁸ الذي حوى من النفائس ما جعله من أعجب القصور التي لا مثيل له وقتئذ حسبما

1 - محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 20-24. قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 19.

2 - الدباغ، تقي، فوزي رشيد، علم المتاحف، م س، ص 10-11.

3 - نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 10. محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 20.

4 - نور الدين، عبد الحليم، نفسه، ص 13.

5 - النواوي، إبراهيم، علم المتاحف، تقديم زاهي حواس، مطابع المجلس الأعلى للآثار، ط 1، مصر، 2010، ص 22.

6 - نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 13. محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 30.

7 - محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 30.

8 - مرزوق، محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، د ت، ص 43-44-45.

وصفه المقرّي في نفحه " قصر قد أطبق الناس أنه لم يبن مثله في الإسلام، وأنه ما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية من ملك وارد أو رسول أو وافر أو تاجر جهنذ إلا وكلهم قطع أنه لم ير شيئا له بل ولم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور"¹. وإذا ما قطعنا إلى إسطنبول لوجدنا أن السلاطين والحكام العثمانيين ملئوا قصورهم بالآثار والتحف مما جعلها تشبه المتاحف، ففي قاعات قصر بوسراي الذي حوى أعظم التحف الإسلامية النادرة التي جمعها هؤلاء منذ أيام السلطان محمد الفاتح، كانت تعرض ملابس السلاطين وأسلحتهم وحليهم وممتلكاتهم من الخزف والمنمنمات الجميلة والمصاحف².

وقد ذكرت المصادر مجددا أن القصور بإفريقية زمن العصر الوسيط لا تقل عظمة عن غيرها في تزيين الملوك لها بالتحف والنفائس حتى شبهت بالمتاحف ويتفاخرون بها ويبرزون عظمتهم من خلالها، فقد كان قصر ملك مملكة غانة أشبه بمتحف فخم حسب ما تبين لنا من وصف الإدريسي في نهضة " وملكها (...) له قصر على ضفة النيل قد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه وزينت مساكبه بضروب من النقوشات والأدهان وشمشيات الزجاج وكان بانيان هذا القصر في عشرة وخمس مائة من سني الهجرة (...) وله في قصره لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلا من ذهب وتيرة واحدة خلقها الله تامة من غير أن تسبك في نار ولا تطرق بآلة وقد نقذوا فيها ثقباً وهي مربطة لفرس الملك، وهي من الأشياء المغربية (التحف) التي ليست عند غيره ولا صحت لأحد غيره وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان"³.

يتضح من هذا العرض الموجز أن البلاد العربية عرفت نظام المتاحف بغرض حفظ الأشياء الثمينة، غير أن المتحف كمتحف بمفهوم اليوم جاء متأخراً بما بالمقارنة مع البلدان الأجنبية، ويعتبر بولاق مصر من أوائل المتاحف التي عرفتها العواصم العربية، وذلك سنة 1818، واتخذ متحف الإسكندرية شكل الجامعة الحديثة يشرف عليها كاهن يعينه الملك، وضمت متنزها وبحوا وقاعة فسيحة تقدم فيها الواجبات للعلماء المشتغلين بها⁴. وبهذا تكون مصر هي السباقة والرائدة في مضممار المتاحف وإنشائها وكذلك تنويعها في الوطن العربي⁵. ففي هذا الوطن أنشئ متحف باردو بتونس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والمتحف الأثري للجامعة الأمريكية عام 1868، الذي يعد ثالث أقدم متحف أثري في الشرق الأدنى بعد متحف القاهرة والقسطنطينية. وفي عام 1897 دشن المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية بالجزائر كأحد أقدم المتاحف بإفريقيا. أما متحف بنغازي فكان أقدم متحف أنشأته إدارة الآثار الإيطالية بليبيا عام 1912، وفي عام 1915 أنشأ متحف البطحاء ومتحف الوداية الذي عدا كأول متحف عصري بالمغرب، وفي 1919 أنشأ المتحف الوطني بدمشق وهو أول متحف أنشأ في سوريا⁶.

ومن الوطن العربي تنتقل مباشرة إلى أوروبا عصر النهضة، الذي هو عصر تكوين المؤسسات المتحفية وفتح أروقتها للجمهور، ليخبركم القلم أن فكرة إنشاء المتاحف كمؤسسة تعتبر حديثة نسبياً، وأن جمع آثار تعود إلى حقبة زمنية وعرضها على الجمهور فكرة لا يتجاوز تاريخها القرنين الماضيين⁷. وإن المتحف كمؤسسة مدنية وشعبية فكرة بدأها الفكر الكلاسيكي ويرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر إذ إنه منذ منتصف هذا القرن تم عرض النفائس في قاعة خصصت لعرض الأعمال الفنية Galleries، وظهرت في

¹ -المقرّي، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ج 5، ص 56.

² -نور الدين، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 13. محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 33.

³ -الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في احتراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ج 1، ص 23.

⁴ -ثروت، عكاشة المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 1990، ص 14.

⁵ -الفار، درويش مصطفى، سطور عن تاريخ المتاحف، دار الكتب القطرية، دار الكتب القطرية، قطر، 2005، ص 20.

⁶ -الزعي، مهدي عبد الكريم محسن، سلطان المعاني، المتاحف الأردنية في مئة عام، وزارة الثقافة، ط 1، الأردن، 2021، ص 26-27-28.

⁷ -غنيمة، عبد الفتاح مصطفى، المتاحف والمعارض والقصور ووسائل تعليمية، م س، ص أ.

صورة متحف بايطاليا قبيل نهاية القرن السادس عشر، ووضع سرليو تصميمًا نموذجيًا لهذه القاعة¹، وقد طغت على هذا المتحف النظرة الكلاسيكية في القرن التاسع عشر أيضًا، وتطور المتحف فبعد أن كان مجرد قاعة داخل كنيسة أو قصر يجمع فيه الأشياء النفيسة، والهدايا وطرائف الحياة، أصبح مبنى مستقلًا صمم خصيصًا لاحتوي على الأشياء التي كانت تعرض بصفة عشوائية تلبية لرغبات ممتلكيها من النبلاء والحكام². وسرت موجة الاهتمام بعمل الكتالوجات لمحتويات المتاحف وكنوزها الفنية والعلمية³. الشيء الذي أسفر عن إنجاب العديد من المتاحف كمتحف أشموليان الذي كان أول مؤسسة متحفية للعرض وزيارة، ومتحف راسموس نيرو، ومتحف كوبنهاغن، ومتحف نابليون كمتحف مدني وشعبي وغيرها من المتاحف التي تحولت إلى مراكز تعليمية تثقيفية تبرز الحضارة الإنسانية في مجالات مختلفة⁴. لكن التطور الحقيقي للمتاحف حدث في القرن العشرين الذي كان ثورة متحفية هائلة في إقامة المتاحف والتي امتدت إلى مختلف المجالات والأنشطة الحياتية العلمية منها والفنية والثقافية حتى أصبحت المتاحف عالمًا عميق الامتداد في الماضي والحاضر والمستقبل⁵. وفي أنحاء هذا العالم العميق "بلغ عدد المتاحف حوالي عشرين ألفًا، كل منها ذو طابع معين يتميز بالتخصص في عرض أشياء بعينها"⁶. تخصص نجم عنه تعدد المتاحف وتنوعها، فما هي ترى أنواع المتاحف وفي ماذا تخصص كل واحد منها؟

المعلوم الشائع، أن المتاحف أنواع عديدة يختلف كل نوع عن الآخر باختلاف طبيعة المجموعة المتحفية، ونطاق الاقتناء المعني به المتحف، والخدمات التي يقوم بها، ونوعية الجمهور، فلكل نوع منها طبيعته ودوره الذي يؤديه. وتبعًا لذلك اختلفت تقسيمات وتصنيفات الباحثين لها، فعبد الحليم نور الدين صنف المتاحف إلى ثلاثة أنواع رئيسية: متاحف الفن، وهي المتاحف الخاصة بمنجزات الإنسان الفنية. ومتاحف التاريخ والآثار، وهي متاحف مختصة بعرض التاريخ البشري كلية، أو لفترة ما. والمتاحف العلمية وقد قسمها لمتاحف العلوم ومتاحف التاريخ الطبيعي. وأكد صعوبة التفريق بين الأنواع المختلفة من المتاحف نظرًا للتداخل والتداخل الشديد فيما بين بعضها البعض⁷. نفس الأمر أكدده جلال أحمد أبو بكر فتداخل التخصصات وتشابه الأغراض يصعب عملية التفرقة بين أنواع المتاحف، وعلى الرغم من هذه الصعوبة فقد صنفها إلى خمسة أصناف، وهو تصنيف يتقف ودورها الهام في إبراز المظاهر الحضارية للفكر الإنساني عبر عصوره المختلفة⁸. وهذا التصنيف الخماسي يتفق ورأي عزت قادوس⁹. وهناك بعض الباحثين من ينحو إلى تصنيفها "على مرمى معين كالمتاحف الوطنية أو المتاحف الخاصة المحدودة بموضوع واحد أو المتاحف المحلية"¹⁰، وعلى هامش موضوعات رئيسية أخرى، دون وضع صورة كاملة لمنهجية التصنيف والمعايير المستند عليها. أما البعض الآخر فوجه دراساتهم لأنواع معينة، دون وضعها في إطار عام لمعايير التصنيف، كبعض الدراسات القليلة القائمة حول المتاحف الإقليمية، البيئية، الافتراضية، والمتنقلة. وهناك من الدراسات من صنف المتاحف تبعًا لمعايير طبيعة المجموعة المتحفية، والموقع الجغرافي، ونوعية الزوار، طريقة

¹ -نور الدين، معبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 14. دعبس، إبراهيم محمد يسري، متاحف العالم والتواصل الحضاري، م س، ص 19.

² -بلغيت، نوفل، رجال بدر الدين، المتحف ومساهمته في حفظ التراث المحلي متحف نصر الدين دينيه نموذجًا، رسالة ماجستير، إشراف نادية فجال، جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم، الجزائر، السنة الجامعية 2019-2020، ص 11.

³ -الفار، درويش مصطفى، سطور عن تاريخ المتاحف، م س، ص 5-15.

⁴ -النواوي، إبراهيم، زاهي حواس، علم المتاحف، م س، ص 21. الدباغ، تقي، فوزي رشيد، علم المتاحف، م س، ص 18-19.

⁵ -نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 14.

⁶ -العوامي، عياد موسى، مقدمة في علم المتاحف، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ليبيا، 1994، ص 11.

⁷ -نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، دراسة في علم المتاحف، القاهرة، 2009، ص 29-30.

⁸ -نور الدين، عبد الحليم، نفسه، ص 26-27.

⁹ -قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 327.

¹⁰ -زكي، عبد الرحمن، دور المتحف في مصر والجمعيات العلمية، دار النيل للطباعة، مصر، 1949، ص 5.

العرض، نمط الإدارة، والحجم، والشكل¹. وأغلب الدراسات صنف المتاحف حسب ثلاث مجالات رئيسية: الفن، التاريخ، العلوم، كالتصنيف المتبع في المتاحف البريطانية²، ولعله يكون من الأوفق والأنفع والمناسب في هذه الورقة البحثية اتباع هذا التصنيف الثلاثي الأخير:

متاحف الفن: أطلق على هذا النوع من المتاحف في بعض الأحيان معارض بصفتها مجمعا فريدا ينهض بخدمة الفنون الجميلة ويعرف بها وتاريخها في مجالات الفن والإبداع، ويهتم بالأدوات كوسيلة للاتصال بالجمهور، وقد ضم هذا الجمع في القديم إبداعات النخبة المميزة من المؤثرين في الحركة الفنية، وعرضها في أروقتها، وإضافة إلى ذلك قام منذ القرن التاسع بعرض عشر قطع تعبر عن الفنون الصناعية بعدما ضمها إليه، وذلك من أجل تشجيع الابتكارات الصناعية الجيدة. وكان للمجموعات المسماة بالفن البدائي عميق الأثر في بعض أشكال فنون القرن العشرين. أما الفن الحديث فيعرض في أقسام خاصة بغرض تعريف الجمهور بنوع من الفن لا زال في مرحلة التطوير. وقد أصبحت هذه الأقسام اليوم بمثابة مؤسسة متنامية، حيث يتم تعزيزها سنويا بنخبة من المقتنيات المهمة للفنانين المعاصرين والراجلين³.

ويبدو أن هاته المتاحف التي اتخذت أول نشأتها القصور التاريخية والدور القديمة والمباني ذوات الشهرة موطنها لها، وشغلته لأجيال طويلة في معظم أنحاء العالم⁴، تتفرع إلى فرعين: متاحف الفنون الجميلة، متاحف الفنون التطبيقية⁵.

متاحف التاريخ: هي متاحف تعنى بالتاريخ البشري ومنجزات الإنسان في مجال السياسة والزراعة والصناعة. وتهتم بعرض عينات من النقود والأثاث والملابس التي ترجع لفترات التاريخ التي يتخصص فيها المتحف⁶. غير أنها لا تكتفي بعرض الآثار فقط، وإنما تؤرخ لمجموعات نوعية متخصصة. وتهتم في الأغلب بالفترات التي تلت العصور القديمة، أي أنها تهتم في الغالب بالعصور الحديثة. ويهتم القلم بأصل مقتنياته الذي يمكن أن يرجعه إلى المجموعات الخاصة التي كان يمتلكها عدد من الشخصيات المرموقة في عصر النهضة والتنوير. وقد تشتمل هذه المقتنيات المعروضة في المتاحف القديمة على بعض النماذج الطبيعية، فداثما ما تضم المتاحف الكبرى من هذا النوع مجموعات مقارنة هائلة تمثل العالم الطبيعي⁷، وتتعامل مع مظاهر معينة من التاريخ يمكن أن تتواجد على المستوى المحلي والإقليمي والقومي، وتتفرع إلى فروع: فرع متاحف السلاسلات، وهي متاحف تختص في جمع وعرض قطع من السلاسلات، وتتركز في عرض القطع على الثقافة أكثر من التتابع التاريخي، حيث تعرض ثقافة الشعوب الأخرى. أما فرع متاحف التاريخ الثقافي فتهتم بالحفاظ على العادات الريفية، وتسجل العديد من المظاهر المادية للحياة المعاصرة، كما أنها تحفظ مجموعة من الأعمال الفنية الحديثة المنتقا⁸. في حين يقوم فرع متاحف التاريخ المعروف بمعارض الصور، بعرض الصور الخاصة بشخصيات حقيقية، وعلى الرغم من أن فكرة هذا النوع من المتاحف قديمة، إلا أن إنشاء معرض للصور كهيئة شعبية جاء كتطور لاحق. وبالمثل، فإننا نجد أن رسومات الأشخاص ومطبوعاتهم وكذلك صور بعض الأحداث يمكن أن تمثل عنصرا هاما لنوع آخر من متاحف

¹ -راشد، محمد جمال، أنواع المتاحف ومعايير تصنيفها، مجلة الاتحاد العام للآثارين العرب، م س، ص 746-747.

² -Edson G. et Dean D, the handbook for museums, Londres, Routeledge, 1996, p 8.

³ - علي، محمد إبراهيم، فن المتاحف، جامعة عين شمس، مصر، د ت، 60-61-187.

⁴ -دعيس، محمد يسري إبراهيم، متاحف العالم والتواصل الحضاري دراسات، م س، ص 36. محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 77.

⁵ -قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 288.

⁶ -قادوس، حامد، عزت زكي، نفسه، ص 288.

⁷ -علي، محمد إبراهيم، فن المتاحف، م س، ص 53-54-80.

⁸ -علي، محمد إبراهيم، نفسه، ص 56-57-58.

التاريخ¹. أما الفرع الأخير الذي ينضوي تحت جناح متاحف التاريخ فهو متاحف الآثار، وهي متاحف متخصصة في مقتنيات الأثرية، إذ تعنى بالأحداث التاريخية من خلال الدلائل المكتشفة في منطقة ما، وتقدم في الكثير من الأحيان معلومات عن فترة لم يكتب عنها كثيرا في المراجع. أما ما كتب عنها فيعتبرها من أقدم أنواع المتاحف على الإطلاق، إذ تكمن وظيفتها في عرض المقتنيات الأثرية المعثور عنها في أثناء التنقيبات الأثرية، وترتيبها بحسب ترتيبها التاريخي، ووضع البطاقات لها، ويشتهر هذا النوع من المتاحف في جميع بلاد الحضارات القديمة².

المتاحف العلمية: هي متاحف تعنى بكل الأجهزة المتعلقة بميادين العلوم والاكتشافات والاختراعات وبمعرفة أصول هذه الابتكارات³، وتعنى أيضا بعرض وشرح مبادئ العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والرياضيات وتبين تطبيقاتها العملية في مجالات الصناعة والزراعة وغيرها، ونجد في المقابل لها متاحف التاريخ الطبيعي⁴ التي تعنى بالعلوم الطبيعية وتعرض مجموعات لبقايا حيوانات، طيور، حشرات، عينات لصخور ومعادن، ونباتات ومكونات من البيئة، قد تصل لبضعة ملايين وربما عشرات الملايين في بعض الأحيان⁵. وهذا النوع ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي النبات والحيوان والجيولوجيا. ويمكن أن تضم بعض متاحف التاريخ الطبيعي قسما رابعا وهو قسم دراسة الإنسان الذي يشكل في كثير من الأحيان متحف خاصا به يسمى متحف ما قبل التاريخ وهو يختص بجمع بقايا الإنسان القديم والعينات التي ترجع إلى فترة ما قبل اكتشاف الكتابة⁶. وبالأخير فمتاحف العلوم، "متاحف حديثة نسبيا، أنشئت لتكون مجمعا لإحياء التاريخ الطبيعي، والمجموعات الإثنوجرافية، وأعمال الكشوف الجغرافية، والمعروف أن معروضات هذه المتاحف متباينة ومتشعبة ومختلفة في الشكل والحجم والقدرة والقيمة المادية. ومن فروع هذه المتاحف: متاحف الجيولوجيا، ومتاحف علم الفلك، ومتاحف الطاقة، وهذا النوع الأخير لم يعرف في البلدان العربية إلا حديثا⁷. وما يعرفه قلم النحن الآن هو الإجابة عن التساؤل التالي: فما الغاية من تنوع المتاحف وأية أدوار لها في صون التراث وحمايتها؟

المتحف معبد للتراث: عين على أدوار المتحف في حفظ التراثات

يقال "إن المتحف معبد توقف فيه الزمان"⁸، وسيتوقف الزمن بالفعل إن لم نقل بأن المتحف "معبد للإلهام والتأمل"⁹، وأن المعبد في العالم القديم يحتل الزمكان بمحتويات مخازنه التي جمعت بداخلها كل ما هو ثمين من المعادن والحلي والأسلحة وهدايا الملوك والنبلاء وما تحصل عليه من الغنائم وتماثيل الآلهة والملوك وأدوات الطقوس الدينية والصور والنقوش. فقد تحولت هاته المخازن التي يؤمها الخاصة والعامة في مناسبات مختلفة إلى قاعات عرض للإنتاج الفني في أبهى صورة¹⁰، وصارت بمثابة البنوك لدينا اليوم، ومن ثم تقاس ثروات الدوليات بما لديها في معابدها¹¹، وتقاس ثروة القلم بحنكته في تحويل المعبد إلى متحف وتحويل المتحف إلى معبد حاضن لمعجزات التراث الدالة على عبقرية الإنسان منذ القدم. تراث نجله ونقدسه في أروقة هذا المعبد الذي حرص على حفظ

¹ -علي، محمد إبراهيم، فن المتاحف، م س، ص 59.

² -محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 75، 77، 75-77.

³ -زهدي، بشير، المتاحف، وزارة الثقافة، دمشق، 1988، ص 113.

⁴ -قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 289.

⁵ -راشد، محمد جمال، أنواع المتاحف ومعايير تصنيفها، م س، ص 738.

⁶ -قادوس، حامد، عزت زكي، م س، ص 289.

⁷ -محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 78.

⁸ -محمد، رفعت موسى، نفسه، ص 15.

⁹ - أفيناريوس، جوندولا، عائشة دماس، سوزان كامل، علم متاحف مناسب يساوي لغة مناسبة، م س، ص 147.

¹⁰ -قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 19.

¹¹ -محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 25-26.

وحماية تراث الأمة وتاريخها التليد من الأعداء الكافرين به وبقيمتهم، وإظهار خصائصه ومميزاته الثقافية، والعودة بالإنسان إلى جذور الماضي البعيد، ورفع مستوى الوعي الأثري عنده، وتوعيته وتنبيه ذهنه إلى أهمية القيم الجماعية للحاضر وحفظ ذاكرة المجتمع وإنقاذها من النسيان والضياع باعتبارها ميكانيزم فخر واعتزاز لأي أمة من الأمم تستظهر عظمتها وغناها وريقها. فهل المتحف ميكانيزم يشعر المرء حقاً بالفخر بانتماؤه أم يشعره بالعبودية؟

كجواب، نبنى قول P. Bourdieu: إن "المتاحف تخدع أبسط التفاصيل الشكلية في تنظيمها وفي وظيفتها الحقيقية، وهي تعمق لدى البعض الشعور بالانتماء ولدى البعض الآخر الشعور بالاستبعاد"¹. أما نحن فتشعرنا بضرورة البحث في أدوار المتحف في حفظ التراث منطلقين من رؤية مالفينوسكي "أن كل عادة وكل شيء، كل فكرة وكل معتقد يؤدي وظيفة حيوية ما ويضطلع بمهمة ويمثل جزءاً من الكلية العضوية غير قابل للتعويض"². والمتحف كجزء من هاته الكلية يضطلع بمهمة حفظ التراث الثقافي، مهمة تظهر فعاليتها في قدرة المتحف على التأثير في عدة مستويات، ولعل في مقدمة تلك المستويات قدرته على تحويل شيء ما إلى قطعة متحفية، والأشياء تتحول إلى قطع متحفية بسبب القيم التي نصبغها عليها. ويسمى هذا التحويل بعملية التثقيب أو المتحفة وهي عملية تستهدف استخراجاً مادياً أو مفاهيمياً، لشيء ما من بيئته الطبيعية أو الثقافية الأصلية وإعطائه وضعاً متحفياً، وتحويله إلى موزياليوم؛ أي قطعة متحفية أو إدخال في الحقل المتحف. فهذه العملية التي تتحول فيها القطع التاريخية-الثقافية والطبيعية إلى قطع متحفية، تتضمن في سيرورتها مراحل الاكتشاف والبحث والمحافظة والترميم والتفسير عن طريق إقامة المعارض، ناهيك عن استعمال تلك القطع كمعروضات³. أما الدلالة الواسعة لكلمة تثقيب فتحيل على كل قطعة تمتلك قيمة متحفية في حين أنها تمتد لتشمل القطع العمرانية غير المنقولة أو التراث اللامادي، والبيئة، ويقود التثقيب إلى ظهور متاحف متكاملة ومتاحف بيئية، وترتبط هذه العملية مع عملية وثيقة الصلة ألا وهي عملية التثقيب أو التحول إلى تراث وهي العملية الأولية والضرورية لحماية وتأمين الموارد المحلية والطبيعية والثقافية وأصباغها بالصبغة التراثية لفائدة حاضر الإنسان ومستقبله، وكلتا العملتين غايتهم تحول الشيء إلى معنى الشيء بخصوصيته، وفي هذه الصلة تظهر تلك الثنائية المتناغمة والمتجانسة بين التراث والمتحف في العنصر الأساسي المشترك بينهما ألا وهو المحافظة التي من معانيها مقارعة الزمن⁴. وهذه المقارعة لا تكتمل إلا بفعالية المتحف في متابعة الأهداف التي صاغها له الأيكوم ICOM وهي: الدراسة "التقرب العام من المعارف"، التربية "كالمدراس وبعض المكتبات"، والمتعة "التسلية"، وهذا المشروع بأهدافه الثلاثية من شأنه أن يعكس تاريخ المؤسسة نفسها ويضع ممارسة في إطار المؤسسات الوطنية الكبرى، ويتضمن مصلحة تربوية، مركز بحث، مخبر التصوير والترميم، وقاعة السمع البصري، وأروقة العرض... إلخ، وعلى المتحف أن يعمل من أجل التقدم في المعارف التي يمكن أن تكون محلية "تاريخ المدينة"، وهذه العلاقة تشكل ضماناً لاستمرار المتحف وتسمح له بتجديد خطابه حول الأشياء⁵. لأن المتحف بكل بساطة هو مؤسسة في خدمة المجتمع وتطوره، مفتوح للجمهور ويقوم بأبحاث تتعلق بالشواهد المادية للإنسان ومحيطه، وتلخص ممارسته في الحفظ، الاتصال، وعرضها في نهاية دراستها على الجمهور قصد التربية والمتعة⁶. وعليه، فوظائف

¹ -Bourdieu, pierre, Drabel Alan, L'amour du l'art, les éditions de minuit paris, 1969, p 166.

² -كوش، دنيس، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007، ص 78.

³ -خديد، رضوان، متاحف التراث الشعبي في مناطق الواحات بالمغرب من المبادرة إلى التأثير التنموي، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 57، السنة الخامسة عشر، ربيع 2022، ص 178.

⁴ -خديد، رضوان، نفسه، ص 177-178-179.

⁵ -كولة، غنية حاج، المتاحف الجزائرية بين الممارسة الثقافية والاستهلاك المظهري، رسالة ماجستير، إشراف عبد الرحمن بوزيدة، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007-2008، ص 34.

⁶ -Barnice L. Murphy, La définition du musée, lettre du conseil international des musées, vol 57, N°2, mison de L'UNESCO, paris, 2004, p 3

المتحف تدور كلها حول تلك الشواهد، وتتلخص مهمتها في اقتناء الأشياء والمجموعات ذات الطابع التاريخي أو الثقافي أو الفني، وجمعها وتسجيلها وتوثيقها وترميمها وحفظها وتعريف الجمهور بها من خلال المعارض والأنشطة التثقيفية. وسنعرض على أنظاركم هاته المهمات بشيء من التفصيل الوجيز بالشكل التالي:

الاقتناء والجمع: غريزة الاقتناء والجمع قديمة قدم الإنسان¹، وفكرة جمع أشياء ذات قيمة دينية أو سحرية أو اقتصادية أو جمالية أو تاريخية كانت تقوم بها الجماعات والأفراد، ومع مرور الوقت ظهرت مجموعة كبيرة من الأفراد الذين يعملون على تجميع القطع كمهنة لهم بدافع المتعة والدراسة والمعرفة². ثم ظهر المتحف وتولى عملية الجمع كوظيفة أولى له، وصار قاعدة لتجميع الآثار من المنطقة الخاضعة لنطاقه، حيث عمل على جمع كل أثر أو وثيقة تقيط اللثام عن التاريخ والحضارة. وربما جمع المتحف أي شيء ولكنه لا يجمع كل شيء³. ولأن الجمع يعد واجبا شعبيا، فالمتحف يقوم بجمع العينات المناسبة كوسيلة للاحتفاظ بأشياء ذات قيمة ذاتية أو فنية بطبيعتها أو ذات جاذبية⁴. ومن واجب أي المتحف أن يقدم صورة جيدة وكاملة بقدر الإمكان عن الموضوع الذي يختاره، بقبول العينات المناسبة مع الإضافة إليها لملاءم الفجوات وكذلك تحسين الترتيب المقارن، والإضافة إلى الخلفية أو استكمال الوضع التاريخي. وأن يبحث دائما عن العينات الجيدة كأن يحدث أمناءه أصحابها على تقديم القطع المناسبة أو ينزلون لشرائها، وأن يكشف مكان وجود القطع النادرة، وأن يسجل رغبته في اقتناء الكنوز الموروثة، ويشترى كل قطعه قبل عرضها في المزاد فيتوزع النادر منها في كل جهة وتذهب للاستعمالات اليومية أو حتى يلقي بها جانبا. وأن يحرص على زيادة حجم مجموعاته وأن يبذل الجهد باستمرار للوصول إلى أعلى المستويات كلما مضى الوقت، وأن يستمر كل متحف في الاقتناء بكل نشاط⁵، وفي تشجيع المقتنين وهواة جمع الآثار على حفظ مقتنياتهم في أماكن آمنة مفتوحة لأكثر عدد من الزائرين⁶، وكذلك تشجيع الفنانين المبدعين على متابعة رسالتهم الفنية وذلك باقتناء أجمل أعمالهم وحفظها آثارا فنية خالدة، وأيضا تشجيع كبار الفنانين بتكليفهم بإبداع أعمال فنية جميلة جديدة بالاقتناء، ورصد الاعتمادات المالية لشراء أجمل الأعمال الفنية المعروضة في المعارض المؤقتة⁷، وأن يعمل على إتمام مهمته في التعريف بكل عينة يحرزها بدقة، فإذا ساور المختصون الشك حول إحدى العينات، وجب إرسالها إلى معهد آخر تتوفر فيه المعرفة الكافية للأخصائي. شرط أن ترفق كل عينة بمجرد استلامها بطاقة يثبت فيها رقم العينة ومصدرها وتاريخها وكيفية اقتنائها كبدائية لوضع العينة في مكانها من الترتيب التاريخي للمجموعة. وليس هناك حد للمعلومات التي يمكن جمعها عن أية عينة، وكلما كثر المعروف عنها زادت قيمتها. والتعريف بالعينات الداخلة للمتحف والتحقق من هويتها يتطلب بالدرجة الأولى طاقما من الخبراء للعمل في مختبراته، كما يتطلب أن يكون للمتحف مكتبة جيدة للمراجع تحوي كل الكتب الرئيسية الخاصة بموضوعات مجموعاته لخدمة العلماء والباحثين⁸، فالمتحف أنشئ لخدمة هؤلاء وخدمة الطلبة الذين ييسر لهم رؤية الآثار والانتفاع بها في دروسهم ويطبقونها تطبيقا علميا

¹ -العوامي، عياد موسي، مقدمة في علم المتاحف، المنشأة العامة للنشر، ليبيا، 1994، ص 14-15.

² -علي، محمد إبراهيم علي، فن المتاحف، م س، ص 11-20.

³ -النواوي، إبراهيم عبد السلام، علم المتاحف، م س، ص 61. منبع، أمل بنت محمد منبع، تقويم الأداء المتحف للمتاحف الأثرية في المملكة العربية السعودية متحف نجران - دراسة حالة، هيئة التراث، الرياض، 2021، ص 27-92.

⁴ - دوجلاس أ. آلان، المتحف ومهامه، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 18.

⁵ - دوجلاس أ. آلان، نفسه، ص 19-21.

⁶ -منبع، أمل بنت محمد، تقويم الأداء المتحف للمتاحف الأثرية في المملكة العربية السعودية، م س، ص 117.

⁷ -زهدي، بشير، المتاحف دراسات ونصوص قديمة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1988، ص 67-68.

⁸ - دوجلاس أ. آلان، المتحف ومهامه، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 21-22-33.

على بحوثهم ، فيدركون بالمشاهدة آثار العصور المختلفة، ويستعرضون خصائص كل عصر وكل إقليم، ويميزون ما بين العصور والأقاليم من تشابه واختلاف، ويفرقون بين الآثار الصحيحة والمزيفة¹.

التسجيل والجرد: أداتان من أدوات حفظ المجموعات التراثية والأثرية، وضمان ملكية المتحف لما يودع فيه، إذ يقدمان صورة وافية لحركة التحفة من اقتناء أو إيداع أو نقل الملكية². وذلك عن طريق قيام المتحف بتسجيل تفاصيل قطع مجموعاته في سجلات كبيرة مجلدة تتسع لذكر بيانات عن الترتيب التاريخي للمجموعة كلها. والتسجيل هو إعداد معلومات واضحة ودقيقة ومتناسكة عن الأثر أو المقتنيات وفهرستها ويتم عن طريق تحديد رقم دائم يمكن بواسطته الوصول إلى الأثر، بحيث يكون نظام التقييم المستخدم مناسباً وكافياً ويغطي كل متطلبات العمل المتحفي. والتسجيل يمكن من التعرف على كل القطع المتحفية وتحديد مكانها في المجموعة والإلمام بالمعلومات الكاملة عنها المستقاة من مصادرها المختلفة. وأفضل وقت للتعرف على الأثر المقتني يكون عند تسجيله وفهرسته. ونشير هنا، إلى أن التسجيل يبدأ بمجرد أن يدخل الأثر بصورة رسمية للمتحف³، وأن العناية بالتسجيل اليومي يحفظ نظام المتحف ورسالته، وأن لكل متحف طريقة خاصة في التسجيل، وأن طرق تسجيل المقتنيات تختلف من متحف لآخر حسب طبيعة المتحف. وبوجه عام ومهما كانت نوعية التسجيل المتبعة، فتسجيل المعلومات عن أية قطعة يحتاج إلى رسم تخطيطي دقيق للعينة، وإلى صور ضوئية أو فوتوغرافية يمكن لصقها على ظهر بطاقة الفهرست أو وضعها في مظاريف تلصق بالبطاقات، وإلى رقم تسلسلي، مواصفات القطعة، تاريخ القطعة، المقاييس، المادة، المصدر والمكتشف، الملاحظات. وقد استحدثت تقنيات جديدة كأخذ بصمة إلكترونية لها بالأشعة السينية وذلك للحفاظ عليها من التقليد⁴. وتوضع هذه المعلومات بطريقة منظمة وترتيب دقيق في مجلد السجلات، سواء العامة أو الخاصة أو المؤقتة، وفي البطاقات الخاصة بالقطعة المتحفية. ويحتفظ المتحف بهذه الوثائق والمستندات التي تشمل مقتنياته في خزائن حديدية لحفظها والرجوع إليها عند الحاجة⁵. والحاجة هنا تفرض الإشارة إلى أهمية مجلد أو دفتر التسجيل، التي تتجلى في كونه أداة تؤمن تراث المتحف والقطع المودعة به، فهي تمدنا بصورة سليمة عن القطع المقتناة، أو المودعة وغيرها، كما تمدنا بمعلومات مقارنة لتحديد ما إذا كان يجب اقتناء قطع جديدة. ودفتر التسجيل ضرورة ولأسباب معقولة. ويمكن أن يؤدي أي تأخير في تسجيل القطع إلى فساد النظام وكذلك الفوضى في تحديد الأشياء وعلى ذلك يجب أن يكون دفتر التسجيل متمشياً بدقة مع دخول المقتنيات بصفته وسيلة فعالة في محاربة سوء النظام وكثرة المصادر، وبصفته سند قانوني إداري يفيد في المنازعات القضائية، وفي حالات الغش، وجرائم الاختلاس والسرقة والتزيف، وبصفته أيضاً سند علمي حقيقي يوفر المعلومات في أثناء الحاجة إلى تفسير علمي قبل إعداد التثبيت العلمي (الكتالوج)، وتسهيله عند الضرورة توضيح القطع التي لم تصنف بعد في هذا التثبيت، ومدنا بمعلومات ليس من السهل تكوينها، ويؤكد أن مرجع التعريف بالقطع المعروضة-خاصة فيما يتعلق بالأرقام التي على البطاقات- هي نفسها المدونة في كل الكتالوجات، فضلاً عما يؤكد من دقة التقييم فيما يصدر من سجلات علمية فيما بعد ذلك، فالعناية. والسجلات أنواع: سجلات مجلدة، سجلات ذات أوراق مستقلة، بطاقات، والبلد والمتحف يختاران النوع المناسب لهما من هاته الأنواع⁶.

1 - محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 85.

2 - النواوي، إبراهيم عبد السلام، علم المتاحف، م س، ص 74.

3 - النواوي، إبراهيم عبد السلام، نفسه، ص 118.

4 - علي، محمد إبراهيم، فن المتاحف، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر، د ت، ص 75-76-77. دوجلاس أ. آلان، المتحف ومهامه، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 23-24.

5 - النواوي، إبراهيم عبد السلام، علم المتاحف، م س، ص 118.

6 - النواوي، إبراهيم عبد السلام، نفسه، ص 74. شمر، بيير، إدارة المتاحف، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 53.

ونختتم هذه النقطة بالإشارة إلى أن أول سجل جرد يرجع إلى العصر الفرعوني عهد ابن رمسيس الثاني " خع ام واس" الذي سجل ما تركه وما قام به من أعمال الترميم والحفر في الجبانة المنفية، وكتابات أخرى في معابد متفرقة، على قاعدة المسلة في معبد الشمس ويعتبر هذا أول دفتر سجل في التاريخ تم العثور عليه¹. أما أول تسجيل لنقل مجموعة خاصة من المقتنيات إلى مبنى عام فيرجع إلى القرن السادس عشر. وكانت هذه المقتنيات تخص إرث الإخوة جرمانى في عام 1523².

الحفظ والصيانة والترميم: نستهل هذه النقطة بذاك " القانون القاس الذي لا يستثني أي عمل من الماضي أو الحاضر: بأن كل المعروضات الحية عرضة للتلف وأنها لا بد هالكة يوما من الأيام، وعلينا أن نبذل أقصى جهد لتأخير هذه العملية المهلكة"³. فلا يمكن تأخير هذه العملية إلا بأعمال الصيانة وبأعمال الحفظ والترميم؛ فأعمال الصيانة تعني حفظ الشيء بمنأى عن عوامل التدمير بالتحليل الطبيعي أو الكيميائي، أو من هجمات الكائنات العضوية كالعفن، أو الآفات الحشرية. إلا أن هذا يختلف اختلافا كبيرا تبعا لطبيعة وتركيب العينة والأحوال الجوية المحلية⁴. أما أعمال الترميم فتعني مجمل التطبيقات الهادفة إلى إيقاف تدهور حالة المجموعة الأثرية وإلى ترميمها عند الضرورة وإعادتها إلى حالتها الأصلية، من خلال تحليلها وفحصها لتحديد المواد التي تتكون منها القطع الأثرية، لتحديد أسباب الضرر وإيجاد الحلول المناسبة لترميمها وحفظها. وتشمل هذه الأعمال الممارسات الترميمية المنتظمة والمتسلسلة المتعلقة بالأضرار التي تحدث مع مرور الوقت، مع الحوادث التي تجري، أو نتيجة الإهمال أو التهاون الذي يجري في أثناء عرض القطع الأثرية التي تعكس القيمة التاريخية والوظيفة الجمالية للتراث الثقافي. كما تشمل وقاية الآثار واستقرار حالتها وعرضها، والمرممين هم ذوي الصلاحية الوحيدة في لمس هذا التراث⁵. وإذا كانت أعمال الترميم توقف تدهور حالة القطعة الأثرية وإصلاح التلف منها، فإن أعمال إعادة البناء الميزوغرافي للقطع الأثرية وترميمها تهدف إلى تحسين حالتها وبنيتها الفيزيائية فضلا عن شكلها الخارجي ومنظرها العام. ولأن التقييم الحديث لترميم هاته القطع يعني أن شكل القطعة الأثرية يمارس تأثيرا في تقييمها، فلا بد للتقييم الحديث لترميم القطع الأثرية أن يأخذ هذا الأمر بالحسبان مهما كان التسلسل التاريخي لهذه القطع وقدمها. إذ يهدف هذا التقييم إلى توضيح تأثيرات تنوع لون القطع وشكلها في وظيفتها⁶. أما الترميم فيهدف إلى المحافظة على القيمة الجمالية والتاريخية للقطع الأثرية وإظهارها باستخدام المواد الأصلية وإعادة هذه القطع إلى كامل هيئتها الأصلية، التي لا تقتصر على الشكل والهيكل الأصلي، وإنما تشمل جميع التعديلات والإضافات اللاحقة على مر الزمن، التي تجسد في حد ذاتها قيم فنية أو تاريخية⁷. في حين يهدف قلم النحن إلى إخباركم بأن معالجة القطع تتطلب تحديدا دائما في عمليات الترميم. ومن الضروري تأكيد تنوع تقنيات المعالجات ومعرفة العمل والتنظيم الفعال للوسائل والطرائق على المستوى الوطني والدولي، وتأکید أن معالجة القطع وترميمها يكون بصفة دورية ومستمرة سواء بالنسبة للقطع المعروضة أو المحفوظة في المخزن، وأن عملية الترميم في المباني والمواقع الأثرية المعدة كمتاحف من شأن عدة اختصاصات؛ الهندسة والمعمار والفن الذين يعملون بالتعاون مع علم الآثار، لذلك لا بد من وجود عمارة متحفية مختصة من أجل حفظ التراث وعرضه⁸. ولتركيبة هذا الطرح وجب على القلم عرض النص المرجعي لاتفاقية البندقية لعام 1964 من المادة الخاصة بإعادة التركيب

1 - محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 24.

2 - علي، محمد إبراهيم، فن المتاحف، م س، ص 21.

3 - كورمانز، بول، معمل (مختبر) المتحف، ضمن دليل تنظيم المتحف، م س، ص 150.

4 - دوجلاس أ. آلان، المتحف ومهامه، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 24.

5 - الحججي، سعيد عبد الكريم، حفظ مجموعات التراث الأثري وحمايتها في المتاحف، مجلة جامعة دمشق، المجلد 33، العدد الأول، سوريا، 2017، ص 88-89.

6 - الحججي، سعيد عبد الكريم، نفسه، ص 88-89.

7 - أفيناريوس، جوندولا، عائشة ديماس، سوزان كامل، علم متاحف مناسب يساوي لغة مناسبة، م س، ص 169-170.

8 - الحججي، سعيد عبد الكريم، حفظ مجموعات التراث الأثري وحمايتها في المتاحف، م س، ص 91-103.

والبناء للصروح والمواقع: إن إعادة التركيب الذي يقوم على مجموعة كتل معمارية لإظهارها من البناء الذي تقدم بعض من أجزائه- وبشكل خاص إعادة وضع أجزاء الأعمدة في مكانها- لا يمكن أن يكون إلا حلا يساعدنا على عملية التأهيل من أجل عرض الصرح أو الموقع على الجمهور. كما أن إعادة بناء الصرح الأثري، الذي هو الهدف النهائي للبحوث والدراسات كلها يجب أن يتبعها المهندسون والباحثون الأثريون والمتحفون بالتعاون مع المتخصصين في مجال تصميم العروض والعمارة والديكور والاتصال والمعلومات¹. ويتعهد القلم بإعلامكم بأن عملية الترميم مخزن المتحف يقوم بها خبير متخصص مؤهل مهمته إصلاح القطع الأثرية ومنع زيادة تضررها وإعداد الآثار لعرضها في المتحف، وإبداء الرأي والمشورة بشأن الحماية الأساسية للآثار الكبيرة الثابتة وتنفيذها وكذلك حماية الآثار الموجودة في المخزن أو المعروضة في المتحف، ومتابعة ما يتعلق بالمحافظة على إبقاء درجة الحرارة المناسبة والرطوبة النسبية في المتحف وبيئة المخزن وحمايتها من الغبار وأشعة الشمس فوق البنفسجية².

وبالسيرة الجادة لكلمة مخزن، فالمتحف لا يتشكل فقط من صالات العرض ولكن أيضا من المخازن والمستودعات التي تحوي الآثار وأرشيفاتها، ونظرا لأهميتها فقد بات المتحف يدمجها في برامجه العامة وفي مخطط العمل الملائم لتخزين القطع الأثرية بقصد حفظها. والتخزين يعد "أحد المفاتيح المهمة لجودة المتحف"³، ويعد مطلبا من متطلبات الحفظ. والتخزين في معناه هو وضع القطع الفنية والأثرية في الفاترينات والخزانات أي في الصناديق والحوايات للحفاظ عليها من العوامل الجوية المختلفة والسرقة. والغرض منها هو تأمين وسط ثابت ومتوازن فيزيائيا وكيميائيا، لذا وجب تصميم الخزائن بشكل جيد مع الأخذ بالحسبان: الإغلاق المحكم (الضرورات الأمنية) والعزل والشكل الجميل⁴، كما وجب تركيب أجهزة التدفئة والتهوية بالمخازن في أماكن مناسبة لحماية محتويات المتحف من أخطار التلف⁵، ووجب أيضا أن يكون لمخزن التخزين مدخل يتيح أكبر قدر من التسهيل للوصول إلى الفناء بحيث يسهل ذلك نقل الآثار، وغرفة موصلة لضمان حدوث أدنى حد من التقلب في المناخ داخل المخزن، ويمكن أن تستخدم هذه الغرفة الموصلة أيضا كغرفة مرور الآثار التي في طريقها إلى التخزين حيث يجري دراستها كما يمكن استخدامها كمنطقة ترتيب للآثار التي يجري إعدادها للعرض، ويجب أن تكون منطقتا التخزين والعرض متجاورتين مع تسهيلات الوصول فيما بينهما لا عائق فيها⁶. ومن ثم، فإن توفر كل الأشياء المذكورة يجعل "المقتنيات والتراث المحفوظ في أمان وفي رعاية أفضل لسنوات عديدة مقبلة. فلا زال الكثير الذي يجب أن نتعلمه عن كيفية جعل المعارض المتحفية الخبيثة تثير الاهتمام والهمة في الإبداع وتيسر التعلم لتحقيق أهداف المتحف في المحافظة على التراث الثقافي وتسليمه إلى الأجيال القادمة في حالة سليمة وصالحة للاستخدام كثروة دائمة، فلا زال قلب المتحف واقعا في مخازن التخزين والترميم⁷.

ونعتقد بعد هذه الجولة في الترميم، أن الأوان حان للحديث عن أعمال الحفظ، التي تعني في معناها المحدود مجموعة من الوسائل والأعمال التي يطبقها المتحف لتأمين استمرارية القطع الأثرية والوثائق المعروضة أو المخزنة في المستودعات بحالة جيدة، وتوفير وسط محيط ملائم، قدر الإمكان، يحد بأعلى مستوى من التلف والضرر الحاصل للقطع الأثرية في المتاحف وتأمين العلاج المناسب لها⁸.

¹ - الحجي، سعيد عبد الكريم، حفظ مجموعات التراث الأثري وحمايتها في المتاحف، م س، ص 91-92.

² - منيع، أمل بنت محمد، تقويم الأداء المتحف للمتاحف المواقع الأثرية في المملكة العربية السعودية، م س، ص 46.

³ - هـ. دافوكو، المقتنيات (المجموعات) العناية بها وتخزينها، ضمن دليل تنظيم المتحف، م س، ص 201.

⁴ - منيع، أمل بنت محمد، تقويم الأداء المتحف للمتاحف المواقع الأثرية في المملكة العربية السعودية، م س، ص 18.

⁵ - برونو مولاغولي، عمارة المتاحف، ضمن دليل تنظيم المتحف إرشادات علمية، م س، ص 296.

⁶ - منيع، أمل بنت محمد، تقويم الأداء المتحف للمتاحف المواقع الأثرية في المملكة العربية السعودية، م س، ص 28-29.

⁷ - الدغفق، هدى عبد الله، المتحف الوطني بين الإعلام والإعلان والتعليم، جريدة الرياض السعودية، العدد 13422، مارس 2005، ص 3.

⁸ - الحجي، سعيد عبد الكريم، حفظ مجموعات التراث الأثري وحمايتها في المتاحف، م س، ص 89.

والحفظ أنواع: حفظ وقائي وحفظ دائم، ومهما تعددت الأنواع فالحفظ، بوجه عام، هو عملية تقنية تستهدف إطالة عمر المادة الأثرية والتاريخية وبقائها لمدة طويلة وبأقل ما يمكن من جراحة وترميم، بحيث يكسر ذكاء المرمم ومستحدثات العصر للمحافظة على هذه المادة لأجيال المستقبل. وطرق الصيانة والترميم يوجد منها الكثير، وتختلف وتتغير باختلاف معروضات المتاحف وتنوعها، وعلاج القطعة المتحفية هو عملية تقنية، ما دامت معالجة المادة تسند إلى العاملين في المعمل. وإذا كان علماء الفن يعتبرون أن القطعة الفنية هي شيء جميل. وأن العلاج، من أي نوع، يجب أن يحتفظ بهذا الجمال بإيجاد طريقة مثالية لترميم المظهر القديم للقطعة يحترم فيها عمل الفنان¹، فإن علماء الآثار يعتبرون التحف وثيقة قيمة أكثر منها مظهرها للجمال، وهم بخلاف مؤرخي الفن يبحثون عن الحقيقة خلال هذه القنوات الخاصة بالماضي البعيد والتي تعتبر غالبا مجهولة الماضي، لذلك يكتفون بإزالة الصدأ من الأثر المصنوع من الحديد وحفظ خصائصه الفنية².

ولا مناص من القول، بأن أعمال الصيانة والترميم هي من أهم أولويات المؤسسة المتحفية باعتبارها مراكز لحفظ وتخزين القطع والبقايا الأثرية والتراثية المادية بكل أشكالها التاريخية، وتأمينها وحمايتها من الأخطار الخارجية والداخلية وفي مقدمتها التلف والسطو والسرقه والتفريب. فحمايتها من التلف تتم من خلال إجراء الفحوصات الدورية للمعروضات المخزنة في مخازنها، وتختلف الفترات اللازمة لفحص العينات حسب النوع وطريقة التخزين وأيضاً حسب طريقة إعداد المخازن ضد العوامل البيئية والبيولوجية. أما فحص المعروضات في قاعة العرض فيتم بشكل يومي من خلال الزجاج وفتح صناديق العرض بشكل دوري كل ثلاثة أشهر للتأكد من عدم وجود حشرات وفطريات³. وللحفاظ على المعروضات تعمل المؤسسة على توفير الأجهزة والمعدات الخاصة بنقل القطع ذات الأحجام الكبيرة والأوزان الثقيلة واستخدامها في حالة رفع أو نقل المعروضات حتى لا تؤثر في صحة العاملين بها بصفتهم من أهم وسائل الحفاظ على المعروضات سواء من التلف والسرقه. فقد يساهم المسؤولون عن المتحف على نحو مباشر أو غير مباشر في تلف المعروضات عند تخزينها أو عرضها بطريقة غير علمية، وكذلك في سرقها إذا لم يقوموا بالتأمين اللازم لكافة وسائل العرض، وتعيين حراس وخبراء ومختصين من ذوي الخبرة العالية لحماية المعروضات وضمان سلامتها، وتوفير الإمكانيات المادية لهم حتى يكونوا في مستوى المسؤولية تجاه عملهم والمجتمع المحيط بهم، وتحديد برامج تدريبية لهم وتعليمهم اللغات، وفضلاً عن تخصيص مجلة علمية خاصة بالمتحف يستطيع من خلالها التبادل مع الهيئات المختلفة⁴. ولا يفوتنا في هذا الأفق، أن ننوه مجدداً، بدور المتحف الهام في تحصين التراث الثقافي من أعمال السطو والتفريب، وذلك بفضل وظيفته التعليمية، فامتداد النشاط المتحفي داخل المجتمع يجعل المواطنين يدركون حقوقهم وواجباتهم إزاء الحفاظ على تراثهم الوطني، ولها في سبيل ذلك الكثير من الإجراءات مثل النشرات، الإعلانات، المحاضرات، الزيارات الميدانية واللقاءات الخاصة والعامة بالمؤسسات التربوية، وإقامة المعارض المؤقتة والفصول الدراسية. فجميع هاته الإجراءات تهدف بلا أدنى شك إلى خلق وعي بمسألة الحفاظ على التراث⁵. وخلق هذا الوعي لا يكتمل إلا بالدور الرائد للأجهزة التي تتمتع اليوم بنفوذ وانتشار واسع جداً، في نشر الوعي القوي بتراث الوطن بين جموع المواطنين وجميع شرائح المجتمع وتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم إزاء الحفاظ على هذا التراث⁶، ولا يكتمل خلق ذلك الوعي أيضاً إلا بما تتخذه السلطات المختصة من إجراءات دبلوماسية ذات مستوى عال لاسترجاع قطع التراث الفريد إلى أوطانها الأصلية حتى يتمكن أبناءها من اقتنائها ومشاهدتها. وليت

¹ - بول كورمانز، معمل (مختبر) المتحف، ضمن دليل تنظيم المتحف، ص 173-174. الدباغ، تقي، علم المتاحف، م س، ص 126-127.

² - بول كورمانز، نفسه، ص 173-175. الدباغ، تقي، علم المتاحف، م س، ص 127-128.

³ - قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 317.

⁴ - قادوس، حامد، عزت زكي، نفسه، ص 315-317-318-322.

⁵ - النواوي، إبراهيم عبد السلام، علم المتاحف، تقديم زاهي حواس، مطابع المجلس الأعلى للآثار، مصر، ط 1، 2010، ص 219.

⁶ - النواوي، إبراهيم عبد السلام النواوي، نفسه، ص 219.

المتاحف الكبيرة التي تقتني تراث بعض الشعوب، ترجع بعض الآثار التي آلت إليها منذ سنوات طويلة لتعرض في موطنها الأصلي ليمتدع بها أصحابها¹. وذات القلم لا تتمتع إلا إذا قالت: إن المتحف مؤسسة بسيطة مؤتمنة على ميراث ثقافي مهم معرض لمخاطر السطو والتخريب والتخريب والحرق والغرق... إلخ، وأن على كل من له علاقة بالمتحف بشكل أو بآخر أن يحترم هذه الحقيقة وأن يتعاون لتطبيق الإجراءات الأمنية. ويشمل النظام الأمني أيضا علاقات المتحف الخارجية مع شركائه الأساسيين في هذا المجال، فضلا عن المجموعات لا بد أن يضمن المتحف حماية زواره وموظفيه والحرس على شهرته². وعليه، فمهمة التصدي لهذه المخاطر جميعها ليست مسؤولية المتحف وحده، بل مسؤولية جميع أجهزة الدولة التي تحرص على حماية ممتلكاتها الثقافية منها وزارات الداخلية، وزارات الدفاع، إدارات الجمارك والموانئ، الأجهزة السياحية، وأجهزة البيئة والمناجم والمحاجر وغيرها من أجهزة الدولة في مكافحة التهريب والسرقة. فمن الواجب على الدولة صاحبة التراث الحضاري القديم، أن تتخذ كل الوسائل القانونية والأمنية والدبلوماسية والإعلامية والتربوية والتقنيات الحديثة للحفاظ على ميراثها الحضاري والتاريخي³.

العرض: يعد "المتحف بناء أو حيزا لعرض أشياء شيقة ذات صلة بالفن أو الأدب، أو التاريخ أو الطبيعة"⁴، ويعد فن العرض المتحفي أو التقديم من المهام الكبرى للمتحف، وهو الوحيد الذي يزداد اهتمام الجمهور به⁵. والعرض المتحفي هو عملية عرض قطعة ذات سمات خاصة بطريقة تهدف إلى توصيل فكرة ما إلى الجمهور خلال فترة معينة، فالعرض في نظر غريس مورلي Grace Morley ما هو إلا وسيلة مساعدة للقطع المتحفية، مسخرة لخدمة القطع الأثرية، إنه تنظيم عرض عال يعتمد على معطيات البحث العلمي وعلى الدراسة المتعمقة للجمهور المتحفي على السواء⁶. وما نريد توصيله للقارئ هو أن العرض يعد النواة الأساسية للمتحف وأداة الوصل الوحيدة بين هذه المؤسسة والجمهور، هذا من جهة، ومن جهة ثانية يعد العرض روح المتحف وقلبه النابض وعموده الفقري، حيث لا بد أن يقام على أسس علمية ترتكز بالدرجة الأولى على الذوق السليم، والروح الفنية العالية، الشيء الذي يتيح في الأخير مشاهدة جيدة وممتعة ويترك انطبعا حسنا ويرتقي بالذوق الفني لدى النشء⁷. ولا نرتقي بالذوق الفني إلا بتعريف الأيكوم الذي أقرت فيه بأن العرض هو إحدى الوظائف الأساسية للمتحف والمهمة فيه، إذ يعد وسيلة من الوسائل التي يعتمد عليها من أجل تعريف مجموعات، كما يعتبر المرآة التي يطل من خلالها الزائر على ما يحتويه من الشواهد المادية والتاريخية. أما العرض في علم المتاحف فهو رؤية الشيء لهدف معين نسعى إلى تحقيقه⁸ باستعمال أدوات ووسائل مناسبة لذلك، حيث يعد العرض الجيد هو هدف المتحف، نظرا لكونه وسيلة فاعلة في نقل المعرفة والثقافة، وإظهار المعروضات بصورة مباشرة تسر العين وتبهج الزائر وترغبه في الزيارة⁹. وما يسر العين أن مهمة عرض التراث لا يقوم بها المتحف وحده فقط، بل هناك جمعيات عديدة ومشاريع وطنية وعالمية أنشئت لعرض التراث الأثري كالمركز العالمي للمباني والمواقع الذي أسس عام 1994 بهدف حفظ التراث والمواقع الأثرية والتاريخية وعرضها. كما أنشئ مركز Association in situ ببلجيكا عام 2001 وهو مركز يهتم بالمواقع الأثرية وعرض البقايا الأثرية. كذلك أنشئ مشروع Appear عام 2005 بإدارة الاتحاد الأوروبي لتأهيل المواقع الأثرية وعرضها، الذي قام بنشر دليل

¹ - النواوي، إبراهيم عبد السلام، علم المتاحف، م س، ص 219.

² - المحجي، سعيد عبد الكريم، حفظ مجموعات التراث الأثري وحمايتها في المتاحف، م س، ص 100.

³ - النواوي، إبراهيم عبد السلام، علم المتاحف، م س، ص 219-220.

⁴ - المنظمة العربية للثقافة والعلوم، متاحف الفنون الشعبية في الوطن العربي، تونس 1995، ص 22.

⁵ - دوجلاس أ. آلان، المتحف ومهامه، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 28.

⁶ - منيع، أمل بنت محمد، تقويم الأداء المتحفي لمتاحف المواقع الأثرية في المملكة العربية السعودية، م س، ص 18.

⁷ - قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 299.

⁸ - حملاوي، علي، علم المتاحف، مركز الطباعة الجامعية، الجزائر، د ت، ص 52.

⁹ - قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 299.

علمي يساعد على تأهيل مواقع التراث الأثري وعرضها وحفظها بالاستناد على أسس وقواعد ومنهجيات علمية صحيحة¹. منهجيات تفرض علينا تنبيه القارئ إلى أن عرض التراث هو فكرة ليست جديدة بل قديمة جدا، فروما كانت تفتح معابدها المكتظة بالأعمال الفنية للجماهير المتعبدین، وكان أباطرة الرومان وفي مقدمتهم كاركالا يحرصون على وضع التماثيل والأعمال الفنية في حمامات روما بفكرة المتحف لمرتادي هذه الأماكن من الزوار، نفس الأمر شهدته العصور البيزنطية إذ شملت الكنائس قاعات عرض لصور ذات طابع ديني فضلا عن المنسوجات وقطع الحلي. وقد كان العرض يتم بطريقة تلقائية الشيء الذي يعطي للعمل الفني حيوية نظرا لارتباطها بمكان العرض والتي هي جزء من منظومة الجمال الفني². فيا ترى بما يتميز العرض المتحفي اليوم، هل هو عرض تلقائي أم إلزامي أملت ظروف العصر وتطوراته؟

إن عروض اليوم ليست هي العروض الأمس بكل تأكيد، لا من حيث الطريقة ولا من حيث الشكل. فميزة عروض اليوم أنها تختلف باختلاف طبيعة المتحف وأقسامه، فالمتحف في شرحه للآثار المنقولة وغير المنقولة المجسدة لصورة الحضارات السابقة والموضحة لتراث الشعوب التي صنعتها، وإبراز هذا التراث وتأهيله وتقديمه وجعله مرئيا وقابلا لزيارة جميع الشرائح الجماهيرية، يتبع عدة أشكال من العروض: العروض الدائمة أو المباشرة، والعروض المؤقتة أو غير المباشرة؛ فالعروض الدائمة، وهي العروض الرئيسية للمتحف، حيث يقوم هذا الأخير باقتناء جمع من القطع والتحف تعرض لمدة زمنية غير محددة، وقد تستمر لفترة طويلة ونادرا ما تخضع هذه القطع للتغيير³. وهذا النوع من العروض هو ما يميز المتحف عن بقية المتاحف الأخرى، نظرا لأهمية ونوعية التحف التي يحتويها، ومن ثم وجب عرضها عرضا جيدا يقوم على أسس ثلاثة: الانسجام والتوازن والوحدة. كما يتطلب هذا النوع من العروض مراعاة رغبات الزوار. أما العروض المؤقتة فهي تتشابه مع العروض الدائمة من حيث المكان المناسب والتنظيم والترتيب، إلا أنها تختلف معها من حيث الهدف والغاية والمدة الزمنية التي قد تكون ثلاثة أو أربعة أشهر فقط. ويتزامن تنظيم هذا النوع من العروض مع مناسبات وأحداث محلية وطنية وعالمية تستغل في خدمة المجتمع وتنمية الوعي الأثري لدى السكان. هذا وتقوم العروض المؤقتة على نظام الإعارة من المتاحف الأخرى لفترة معينة أو إقامة معرض بمناسبة معينة⁴. وبالنسبة للمؤسسات المتحفية الأمريكية تتبع نظام الإعارة الإقليمية بين المتاحف والهيئات العلمية والجامعات انطلاقا من رسالة المتحف في نشر الثقافة والإسهامات العلمية وتنمية الذوق الفني والإحساس بالجمال والوعي التاريخي، فالمتاحف تحوي أعمالا فنية تعبر عن التطورات السامية للإنسان في بحثه عن معنى الوجود. وبحسبنا أوصلنا إلى معرفة أن جل المتاحف الكبرى في العالم تتبع نظام الإعارة حيث تعار المعارضات للمؤسسات التعليمية كالمعاهد والمدارس ومراكز تعليم الكبار ويكون تأثيرها أكثر عمقا من تنظيم المحاضرات والندوات ويعطي التأثير نفسه لما تحدثه المتاحف المتنقلة⁵، فهذه المتاحف التي يرجع أصل عروضها إلى عهد "بطليموس الأول الذي أعد في عام 250 ق.م موكبا فخما في الإسكندرية مؤلفا من آلاف العبيد يطوفون في شوارع المدينة حاملين الأواني والتمثال الذهبية والفضية والصور الفنية الملونة"⁶، أصبحت اليوم تقام في الساحات العمومية أو في المدارس أو في الجامعات، بهدف التعريف بالمؤسسة المتحفية، واستقطاب زوار جدد، إلى جانب الأهداف التربوية والثقافية الموجهة لطلاب المدارس والجامعات. ويتميز تركيب هذا النوع من العروض بوسائل خاصة تسهل

1 - الحججي، سعيد عبد الكريم، متاحف الآثار هويتها، تطورها وواقعها المعاصر، م س، ص 565.

2 - نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 12.

3 - بلجودي، أم السعد، إشكالية غياب الثقافة المتحفية لدى الجزائري ودورها في عزوفه عن زيارة المتاحف دراسة لآراء عينة من الطلبة حول المتحف العمومي الوطني بالمنطقة، رسالة ماجستير، إشراف كبار عبد الله، جامعة غرداية، السنة الجامعية 2021-2022، ص 39.

4 - قادوس، حامد، زكي عزت، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 301-302.

5 - نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 16-19.

6 - الدباغ، نقي، فوزي رشيد، علم المتاحف، م س، ص 13.

عملية نقله من مكان لآخر، ومصممة خصيصا لهذا الغرض بحيث تكون عبارة عن رسومات وخرائط توضيحية وبطاقات تعريفية توضح أهم المجموعات المتحفية بالمتحف، على شرط أن تكون سهلة التركيب والتفكيك، بالإضافة إلى المؤشرات الأخرى كالدبابورا والأشرطة والمحاضرات وملصقات الإعلانات والصور الفوتوغرافية وغيرها من التنظيمات والأساليب الأخرى المتنوعة¹. كما تتميز بفلسفة تعتمد على العرض بأنواعه وتنسيق المعروضات النادرة، أسلوب التسلسل الكرونولوجي، وأسلوب العرض الموضوعي، والبيئة الأصلية والحالية لقطع التراث الأثري، فمتحف هاته القطع وعرضها يجب أن يراعي علاقتها المباشرة مع وسطها الطبيعي وضمن إطارها التاريخي وانتمائها الحضاري، فضلا عن الإضاءة المناسبة وغيرها من وسائل العرض: فترينات، صور فوتوغرافية، رسوم، نماذج²، وكل ما من شأنه أن يبرز معلومات عن هذه المعروضات للمشاهدين بشكل مناسب. والأنسب أن توضع العروض حسب سيناريو محدد لا يمكن الإخلال به، إلا أن هذا لا يمنع من تجديد أو تطوير العروض من وقت لآخر بشكل محدود وفق ضوابط تتناسب مع نوعية المتحف ومدى توفر القطع المناسبة للعرض واللوحات التعريفية وما يتعلق بالتجديد، على ألا يخل ذلك بموضوع العرض المتحفي³، الذي لا بد من تنوع معروضاته حتى تعطي للمتحف شمولية في مجموعاته المتحفية، وتبرز الجوانب التاريخية والحضارية، والجغرافية، والبيئية، والدينية، وتسهم في تعريف الزائر بتاريخ وحضارة البلد وأهمية المحافظة على تراثه وآثاره⁴. لذا، وجب تنسيق عيناته المعروضة بشكل يمكن معه الاستمتاع بكل واحدة منها على انفراد دون تداخل مع أخرى. كما وجب أن تكون المعروضات منظمة حيث إن المحتويات تعرض لتشجيع الزوار على التفكير فيها ومقارنتها ومعرفة أوجه خلاف كل منها عما يجاورها، ولتكوين مجموعة من الأفكار حول مجموعة العرض كاملة. ويجب أن يجذب الشيء المعروض نظر المار به ويستحوذ على انتباهه ويدفعه للفحص المتواصل. وهنا تلعب طبيعة العينة والغرض من عرضها دورا كبيرا في تحديد التقنية المستخدمة في العرض⁵. فاستخدام الوسائل الميكانيكية المرئية التي لها قيمة كبيرة، خاصة في الاستعمال الجيد لتقنيات ذات مواد حسية بأبعادها الثلاثة مع فرص رؤية الأفلام والصور الفوتوغرافية وشرائح الفانوس السحري، قد تضيف الحياة إلى المعروضات وترتبط الزائر بها، وتساعد على التمتع والتفكير بها⁶. أما استخدام وسائل التواصل مع المحيط الاجتماعي والترغيب في الزيارة، كعرض تصميمات المباني القديمة، وعرض القطع الأثرية المرممة، واستخدام الصور والرسومات والمخططات والأفلام الوثائقية⁷. فله أكبر الأثر في جذب الجمهور بكل طبقاته، ويؤدي إلى صنع وجهة سياحية محلية وعالمية⁸، ويمهد لزيارة ذات جدوى يكون لها -مع بعض اللمسات الجمالية- بالغ الأثر في جذب المزيد من الزوار، بل وتشكيل الحس الوطني والوجداني للزائر المتحف من جميع الفئات ومختلف الأعمار⁹. هذا، وتقوم بعض المتاحف العالمية بتنفيذ أفكار ذات تأثير في جذب الزوار كالمتحف البريطاني بلندن والمتحف المصري بتورين اللذين عرضا أعمال فنية حديثة ومعاصرة في قاعات المتحف مع الآثار القديمة المعروضة، وهي فكرة عبقرية لربط الماضي بالحاضر فيما يعرف بآلة الزمن Time Machine، وغير ذلك مما يكون ذا تأثير على حركة الزيارة وحجم مصادر دخل المتحف⁹. فمتى بدأ الاهتمام بالزائر؟ وما سر التفاني في جذبه والحرص على إرضائه ومتعته؟ هل من مكان للزائر في الهرم المتحفي؟

¹ - بلجودي، أم السعد، إشكالية غياب الثقافة المتحفية لدى الجزائري، م س، ص 39.

² - نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 24.

³ - منيع، أمل بنت محمد، تقويم الأداء المتحفي لمتاحف المواقع الأثرية في المملكة العربية السعودية، م س، ص 63-65.

⁴ - منيع، أمل بنت محمد، تقويم الأداء المتحفي لمتاحف المواقع الأثرية في المملكة العربية السعودية، م س، ص 31.

⁵ - دوجلاس أ. آلان، المتحف ومهامه، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 29.

⁶ - هاريسون، موللي، التعليم في المتاحف، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 147.

⁷ - منيع، أمل بنت محمد، تقويم الأداء المتحفي لمتاحف المواقع الأثرية في المملكة العربية السعودية، م س، ص 44.

⁸ - نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 24.

⁹ - نور الدين، عبد الحليم، نفسه، ص 23-24. قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، م س، ص 302-303-304.

تشير الشواهد إلى أن الاهتمام بزائر المتاحف بدأ منذ بداية القرن العشرين بنشر مجالات خاصة بالعروض والنشاطات المتحفية، وأصبحت العلاقة مع الزائر تأخذ شكلا أكثر فعالية خاصة في أوروبا والولايات المتحدة وتتناول الناحية الجمالية والتربوية والاجتماعية، وأصبحت المهام الاجتماعية للمتحف وبشكل خاص مهمته التربوية تتطلب من الإدارة المتحفية المسؤولة أن تكسب رضا الجمهور الزائر الذي يأتي عفويا إلى المتحف، وأن تزيد عدده وتنوعه وإخلاصه¹ بصفته أس رأس هرم المتحف، الذي يتكون بالإضافة إلى الزائر المقصود من القطع الأثرية، والمتحف أو مكان العرض وتجمعهم علاقة ترابطية في قاعدته؛ فالقطعة الأثرية مرتبطة بالمتحف الذي يعرضها، والمتحف مرتبط بالزائر الذي يأتي لزيارة المتحف. وبذلك يكون الاتصال الحقيقي بين هذا الزائر والقطع الأثرية في محيط المتحف، وهذه العناصر الثلاث هي نتائج لأعمال العلوم المتحفية والأثرية معا². وهذه العلاقة يمكن تشبيهها بأضلاع مثلث يؤدي كلا منها إلى الآخر، ويتكامل الكل في صنع المتحف، فالضلع الأول يدل على الإنسان سواء كان زائرا أو موظفا أو حارسا. والضلع الثاني يمثل المعروضات بالمتحف. والضلع الثالث يمثل مبنى المتحف ذاته ومكوناته. وجميع تلك العلاقات تتجاذب وتتنافر في آن واحد. وتصنع في محيطها منظومة المتحف المثالي إذا أدى كل ضلع ما عليه من واجبات³. ويتضح من هذا التشبيه أن الأضلاع يكملون بعضهم البعض؛ فلا يمكن إقامة العرض دون متحف أو دون وجود القطع المعروضة، ولا ينجح العرض إلا بتوفر المحيط والمادة المعروضة والجمهور الزائر معا⁴. والمتحف "دون الجمهور سيصبح مستودعا ومخزنا فاقدن لأي حياة تنبض فيهما، ودون الجمهور سوف يموت المتحف ويصبح كالمعابد الباردة"⁵. ولتجنب حتمية هذا الموت يسعى المتحف إلى أن يجعل من نفسه موضع جذب خاص، فبمجرد أن يجتذب هذا الجمهور إلى المتاحف ويثبت أن المتحف مكان مثير وودي فإن هذه الجماهير -على الأرجح- ستعود إلى المتحف وفقا لظروفهم الخاصة ويستخدمونه كمورد للمعرفة⁶. ولتحقيق ذلك فإنه عمل على "جعل كل ما يقتنيه من مجموعات التراث الأثري في خدمة الجمهور من مختلف الأعمار والخلفيات وجعلهم يشاركون في المعرفة والثقافة ومن ثم فإنه من المهم أن يهدف كل عمل من أعمال المتحف إلى خدمة الجمهور وتعليمه"⁷. فدور المتاحف على نحو خاص ليس في عرض نماذج أمام الزوار تسحرهم بجماها. بل هو أيضا تعريف وتثقيف الزائر بكل مظاهر الحضارة التي تنتمي إليها تلك الآثار. فتلك النماذج تساعد على التعريف بالتاريخ أكثر منها أعمالا فنية جميلة⁸، وفي تقديم أفكار وآراء جديدة، وإكساب الجمهور قيما جديدة⁹. فهي أداة حارسة للقيم وحافطة للقطع الجميلة وذات النفع في إثارة جوانب الصدق والجمال ورعايتهما¹⁰، وذات القيمة الثقافية التي تؤدي بلا جدال إلى تعليم ومتعة الجمهور. وكيف لا تمتعه وهي عندها الكثير مما يمكن توصيله له، ولكنها تكون غير مجدية إذا لم يجعلها تستطيع أن تفصح عن نفسها للمخلوقات البشرية. وتوصيل الفائدة والمعلومات والقيم هو مهمة التعليم، وعلى ذلك فإن المتحف لا يستطيع تجنب التعليم الذي هو في نظره مجرد نوع من المراجع التي تقدم المعلومات الحقيقية بشكل حي وسار، يستطيع من خلالها إظهار الصلات بين الأشياء غير الواضحة في نصوص الكتب أو الدروس الشفوية، فالمعروضات تستطيع أن تثير التفكير وتشجع

1 - الحججي، سعيد عبد الكريم، متاحف الآثار هويتها، تطورها وواقعها المعاصر، ص 790-791.

2 - الحججي، سعيد عبد الكريم، متاحف التراث الأثري أهميتها ودورها في المجتمعات المعاصرة، م س، ص 559.

3 - محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، م س، ص 9-10.

4 - هيرمان، ياني، العرض والمعروضات والمعارض، المجلس الدولي للمتاحف، اليونسكو، فرنسا، 2004، ص 91-104.

5 - الحججي، سعيد عبد الكريم، متاحف التراث الأثري أهميتها ودورها في المجتمعات المعاصرة، م س، ص 780.

6 - أفيناريوس، جوندولا، عائشة ديماس، سوزان كامل، علم متاحف مناسب يساوي لغة مناسبة، م س، ص 119.

7 - الحججي، سعيد عبد الكريم، متاحف التراث الأثري أهميتها ودورها في المجتمعات المعاصرة، م س، ص 783.

8 - غنيم، عبد الفتاح مصطفى، المتاحف والمعارض والقصور، م س، ص أ.

9 - هروشي دافوكو، المتحف والزائر، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 122.

10 - هاريسون، موللي، التعليم في المتاحف، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 128.

على الملاحظة الدقيقة وعلى الاستنتاج المنطقي وتعمل على ترقية الذوق الفني، والإحساس، وتقدم الإنسان¹، والتقريب بين الثقافات والحضارات، فهي من أهم وسائط الاتصال المباشر بين الجمهور والتراث الإنساني. وبهذا الصدد، تذكر لائحة المتروبوليتان للفنون أن المتحف أنشئ عام 1870 بغرض تأسيس وتدعيم متحف ومكتبة للفنون في المدينة وتشجيع وتطوير دراسة الفنون الجميلة، وتطبيق الفنون في الصناعة والحياة العلمية وتقديم المعلومات العامة عن موضوعات عديدة وفي النهاية تقديم التعليم الشعبي. وبهذا فالمتحف معهد تعليمي ومؤسسة ليس هدفها الكسب المادي قدر ما تهدف إليه من تعليم وتثقيف وترفيه، إذا إن من الدوافع لإنشاء المتاحف ومراكز الفنون هو الحرص على التراث الثقافي القومي وتوصيل رسالته وتقريبه إلى الأجيال المعاصرة، وربطها به وبماضيها. بهدف الحفاظ على ذاكرة المجتمع، التي هي مصدر فخر واعتزاز، وهي-المتاحف-خطوة على سبيل التقدم المجتمعي والرقى الحضاري. ولم تعد المتاحف مكانا لعرض المقتنيات الأثرية²، بل أصبحت مؤسسات تعليمية وأماكن لتنفيذ أنشطة ثقافية منظمة من خلال برامج تربوية مدروسة ذات أغراض إيجابية متطورة تتماشى مع جميع الأعمار والثقافات. كما أصبحت مراكز للصيانة والمحافظة والتسجيل والدراسة وإجراء الأبحاث العلمية على هذه المقتنيات، ثم عرضها بأسلوب جمالي يتفق وقيمتها التاريخية الفنية، حتى أصبح المتحف شريكا هاما للمؤسسات الثقافية والتربوية في تطوير المجتمعات الحديثة³، وأصبح البناء الثقافي والتربوي من أهم الأولويات التي تتجه إليها المتاحف في العصر الحالي. الشيء الذي جعل الدول المتقدمة تهتم بتطوير رسالة هذه المتاحف وذلك بإقامة مراكز التربية المتحفية، وقد قامت بعض الجامعات الأمريكية بإنشاء أقسام للدراسات المتحفية والبحث العلمي في مقتنيات المتاحف ونشرها، وتقديم الخدمات المتخصصة بنظام "ضابط الاتصال" والذي يكون دوره كرجل علاقات عامة ما بين المتحف وبين المؤسسات التعليمية المختلفة للاستفادة من هذه الثروة الإنسانية، والبرامج التربوية والمناهج الدراسية في مجالات التاريخ والفنون بالتنسيق ما بين هذه المؤسسات التعليمية والمتاحف⁴، التي تتجلى مهمتها الأولى في الحفاظ على المجموعات الأثرية لصالح المصلحة العامة بهدف توصيل المعلومة إلى الجمهور الكبير، لذلك نجد أ. مالرو يقول "دور المتاحف كبير في رسم علاقتنا مع التحفة الفنية إلى درجة أننا نتصور بصعوبة أنها لم تكن أو إن لم تكن لتوجد"⁵.

وكان من الطبيعي، نتيجة لما سبق، أن رجل العلاقات هذا، أن يؤكد أن المتحف كمؤسسة تعليمية غير رسمية أصبح جزءا لا يتجزأ من قطاع التعليم، وأنه أصبح يضيف إلى نظام التعليم الرسمي في المدرسة قيما خاصة للتعليم والاستمتاع والمناقشة، وأن التعليم يمثل جزءا من الأهداف العامة للمتحف ويجب النظر إليه بوصفه أحد أهم الأهداف الرئيسة لسياسة المتحف، وفي غياب التزام المتحف بهذه السياسة ينظر إلى التعليم بوصفه مجرد أداة للتسويق توجه إلى زيادة الجمهور الزائر. وإدارة المتحف حاليا تصب اهتمامها على زيادة عدده وجعله وفيها لها⁶. إذا أصبحت الزيادة في عدده وسيلة لقياس النجاح، ويعد الاستمرار في الزيادة مؤشرا واضحا على درجة إرضاء الزائر. أما على المستوى الأكثر عمقا فلا بد للمتحف من الالتزام بالمسؤولية الاجتماعية وبناء الأمة والهوية الثقافية⁷.

¹ - هاريسون، موللي، التعليم في المتاحف، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 127-128.

² - نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 16

³ - نور الدين، عبد الحليم، نفسه، ص 16-18.

⁴ - نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي، م س، ص 18-19.

⁵ - لعيدى، آمال، حميدة مريم، دور المتحف في تشكيل الهوية الثقافية دراسة ميدانية-متحف سيدي علي-الكارايال، رسالة ماجستير، إشراف ذراري محمد، جامعة حميد بن باديس-مستغانم، الجزائر، السنة الجامعية 2016-2017، ص 42.

⁶ - الحجى، سعيد عبد الكريم، متاحف التراث الأثري أهميتها ودورها في الحياة المعاصرة، م س، ص 783-784.

⁷ - الحجى، سعيد عبد الكريم، نفسه، ص 789.

ونعتقد أن هذا البناء لن يكتمل ما لم يضطلع المتحف بوظيفة التربية الفنية التي ما هي إلا تنمية التذوق الفني والإحساس بالجمال لدى الزوار، لأن التذوق هو إيقاظ إحساس الفرد ليصبح واعيا بالجانب الجمالي للبيئة ولينمي قدراته الابتكارية وليكتشف أثر الفن وقيمة التراث¹. أما المتحف فهو - على الأرجح - معرض يخاطب إحساس أو شخصية هؤلاء الزوار بالتراث². مخاطبة يستعيد فيه الإحساس بالسحر والرهبة جمال العالم وعبقورية ومهارة الإنسان. فعرض القطع الحقيقية يساعده على فهم الأشياء من خلال مدركاته الحسية. وتفتح النوافذ لأولئك الذين تنقصهم الاهتمامات، كما تساعد على تطور الإحساس وقوة التمييز عند الأميين بصريا. فالمتاحف هي إحدى الأدوات المؤثرة، وهي معاهد هادئة غير متميزة يمكن أن يكون لها تأثير مكمل في دنيا تقاسي من الانقسام، إنها تتوجه إلى العقل وإلى الشعور وتشجع على ذلك النوع من الملاحظة البهيجة حيث يكون اختزان العقل مصحوبا بفرط سرور الحواس، إذ لها دور ملح في دنيانا الحديثة³. كما أن تلك المخاطبة تولد فينا روحا مشتركة وإحساسا جماعيا وتبادلا للرؤى التي قد تختلف وتتفق في الإحساس الفردي والجماعي للفن وتذوقه المتجسد في مقتنيات والمعروضات داخل المتحف، الذي ينفرد في خلق ذوق جمالي، وحس جمالي، ووحدة اجتماعية متماسكة، ورؤية مجتمعية جماعية نحو قيم الخلق والإبداع والابتكار لدى الأجداد. رؤية تعمل على تأصيل شعور الانتماء والوفاء لعبقرية إبداع الأجداد، وتأصيل الإحساس بالقيمة الجمالية في تراثهم الفني الخالد، وتأصيل مشاعر الفخر والمباهاة بقيمتهم وعظمتهم في تواصلهم الحضاري وتأثيرهم وتأثرهم في الآخر وبالأحرى، وكذلك تأصيل الرغبة في محاكاة فهم لا شيء إلا لكون الفن يوحد الناس خاصة في المجتمعات الراقية ويدعم الروابط ويعمقها ويزيدها بين الفرد والمجتمع. والمتحف بما يتضمنه من مقتنيات فنية مختلفة يمثل الحصن الفني الهام لدى الشعوب العريقة فهو يحفظ تراثها ويعرضه بصورة تليق بالمكانة المتوارثة للشعوب صاحبة الحضارات⁴. وما يليق بنا ذكره في هذا المقام، أن هذا الحصن الفني المتحفي هو منبع لإثارة الذهن والدعوة إلى التقدم. ويمكن للمتحف أن يكون وسيلة لتوصيل الأفكار الخاصة بالإنجازات الثقافية للشعوب الأخرى، وللعلم الحديث، وللتقاليد والعادات الخاصة بكل شعب⁵، والتي تقوم متاحف الفن الشعبي الزخرفي بإجراء كمية كبيرة من الأبحاث التاريخية فيها، فالباحث في فنون الإنسان الأول يشمل أيضا الدراسات الانثولوجية (العادات والتقاليد). ويشكل البحث التطبيقي - خاصة ما يتعلق بتحليل الفني للأعمال الفنية التي تعتمد على الفيزياء والكيمياء - جزءا هاما من دراسات الأبحاث التي تقوم بها متاحف الفن الشعبية الرئيسية الكبيرة ومعاملها. وعلى كل متحف تفسير نتائج أبحاثه لجمهوره⁶. وما ظهر من نتائج يعرفنا بأن أبحاث المؤسسة المتحفية تناولت بالدرس طبيعة "الحرف اليدوية والصناعات الشعبية على مر العصور وأوضاع الحرفيين وأحوالهم المعيشية ونظرتهم إلى حرفهم، والمكانة التي كانوا يحتلونها في مجتمعاتهم، وطبيعة التواصل بين أبناء الحرف، وكيفية تشكيل التناسق الحرفي في المجتمع عبر العصور"⁷. وحرصت على إظهارها وإبرازها وعلى تدبير الذاكرة الجمعية بخدمة حفظ استمرارية بعض التقاليد المميزة مع الاحتفاظ في أعمال الحرف الحالية ببعض الصفات التي لا مثيل لها من أعمال الماضي المهملة. ويمكن للعروض السنوية لأحسن الأعمال أن تشجع المستويات العليا وتمنح المكانة للحرفيين. ويمكن أن يدعم استمرار مجموعات المتاحف بشراء قطع ذات الجوائز الراقية⁸، ويجذب الحرفيين والصناع لبؤرتها وتأهيلهم وتوجيههم نحو محاكاة النماذج القديمة الفريدة والمنسية، والنماذج التي في طريقها

¹ - غنيم، عبد الفتاح مصطفى، المتاحف والمعارض والقصور، م س، ص 2.

² - أفيناريوس، جوندولا، عائشة دماس، سوزان كامل، علم متاحف مناسب يساوي لغة مناسبة: ص 119.

³ - هاريسون، موللي، التعليم في المتاحف، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 148.

⁴ - دعيس، محمد يسري إبراهيم، متاحف العالم والتواصل الحضاري، م س، ص 27-28-30-31.

⁵ - دافوكو، هيروشي، المتحف والزائر، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 125.

⁶ - دافوكو، هيروشي، نفسه، ص 105-106.

⁷ - دعيس، محمد يسري إبراهيم، متاحف العالم والتواصل الحضاري، م س، ص 27.

⁸ - دافوكو، هيروشي، المتحف والزائر، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 123.

إلى الانقراض بسبب انتفاء حاجة المجتمع إليها، وصناعة نسخ تشبهها، وقد تحتوي المؤسسة على ورش حديثة لتحقيق هذه الغاية، وتحقيق غاية النزعة النفعية؛ فالمقتنيات الفنية التي تعبر عن الصناعات التقليدية من كافة المواد مثل الخزف والمعادن والخشب، التي تجسد بما تحمله من فن وإتقان وإبداع قيمة اقتصادية مضافة حيث تلقى أصالة المنتج وجودته وجماليته إقبالا متزايدا من الزوار فيشترونها، وقد تباع بعض المنتجات الفنية من خلال المتاحف التراثية أو تستأجرها المعارض الدولية. وبذلك يحقق المتحف وظيفتها التنموية وأيضا الثقافية التي تبرز القيمة الجمالية العريقة للحرف والصناعات الشعبية أو التقليدية وفعالية الخبرات التقنية القديمة في تأصيل القيم الأصلية والتعبير عن خصوصية ثقافة المجتمع المحلي في عموميات المجتمع ككل¹.

وعلى ذكر المجتمع، فالمتحف يقدم خدمات عديدة ومفيدة للمجتمع ويسهم في تحقيق الانسجام بين فئاته، وإتاحة المجال للجميع للتعبير والمشاركة الفاعلة. وكانت نتيجة تلك الخدمات تحويل المتاحف في بعض البلاد إلى مراكز للمجتمع وبذلك تكون لها وظيفة أوسع من مجرد عرض مجموعاتها، حيث تقدم المحاضرات العامة للبالغين، وكذلك حفلات الغناء والأحاديث، وتعد في استعراضات واجتماعات جمعيات عامة من أنواع مختلفة. وهذا الاستعمال للمتاحف لا يضر بأية حال بمجموعاتها، بل على العكس، فإن الجمهور الذي شجع على الحضور، يميل إلى الاهتمام بالمعروضات والأفكار التي تقدمها. وبما أن المبنى يستعمل لكثير من الناس فإن تقدير الجمهور يميل إلى النمو². وقد صارت هذه المراكز من "الناحية التاريخية والثقافية منتدى لتبادل الأفكار والآراء ومكانا للتلّمع والضيفة، وينظر إليه على أنه مكان للحوار والتعلم بين الأجيال المختلفة"³. مكانا يشمل الناس وتجاربهم بوصفهم رواة متساويين لتحقيق مجموعة واسعة من وجهات النظر السياقية، وبدء الحوارات الثقافية، والعمل كمنتدى مؤثر للمناقشات المعاصرة العامة والاجتماعية⁴. وأيضا كمنتدى "للمقرطة الشاملة، متعدد الأصوات، ومكرس للحوار النقدي حول الماضي والمستقبل، والمتحف يعالج ويتناول نزاعات وتحديات الحاضر، وهو أيضا وصي على مصنوعات الإنسان وعلى العينات لفائدة المجتمع، وحام لمختلف أنواع الذاكرة لفائدة الأجيال القادمة، وضامن للمساواة في الحقوق والتساوي بين الشعوب في الوصول إلى التراث، وليس للمتاحف هدف ربحي، إنما تشاركية وشفافة وتشتغل مع، ولفائدة المجتمعات من أجل جمع ودراسة وتفسير وعرض وتطوير التفاهات حول العالم، بما يحقق صيانة كرامة الإنسان والعدالة الاجتماعية والمساواة العالمية والرفاه لكوكب العالم أجمع"⁵. في الواقع، فالمتحف انعكاسا لتلك المجتمعات، ونقطة التقاء بين الناس للمشاركة في المناقشات المفتوحة والحث على التبادل الثقافي أو الاجتماعي أو السياسي. وبذا تحافظ المؤسسة المتحفية على أهميتها الاجتماعية وقيمتها العامة⁶. وإن ظهرت هذه الأهمية الاجتماعية فلا من بد أن تظهر في كون المتحف في خدمة إنسان الغد. خدمة يلقي فيها المتحف الضوء على طبيعة حياة الإنسان في عصوره المختلفة، وأشكال الأسرة وطبيعة العلاقات التي كانت تربطها، وكذلك علاقات الجيرة والعمل وكافة صور التكافل والتفاعل بين الناس ومعتقداتهم وطقوسهم وممارساتهم الشعائرية وعاداتهم وأماطهم السلوكية، وذلك من خلال مجسّدات الصور والرسوم والنقوش. ومن الوظائف الهامة التي يقوم المتحف بها كذلك ترمين التراث المحلي مما يسهم أولا في إنماء الروح الجماعية والمشاعر الوطنية النبيلة إلى حد بعيد، شأنه في ذلك شأن الأناشيد الوطنية والقومية وما تحدّثه من تألف وتأزر بين الناس من مختلف الأعمار عند إلقائها أو

¹ - دعبس، محمد يسري إبراهيم، متاحف العالم والتواصل الحضاري، م س، ص 29-32.

² - هاريسون، مولي، التعليم في المتاحف، ضمن دليل تنظيم المتاحف، م س، ص 146.

³ - أفيناريوس، جوندولا، عائشة دماس، سوزان كامل، علم متاحف مناسب يساوي لغة مناسبة، م س، ص 137.

⁴ - أفيناريوس، جوندولا، عائشة دماس، سوزان كامل، نفسه، ص 147.

⁵ - خديد، رضوان، متاحف التراث الشعبي في مناطق الواحات بالمغرب من المبادر إلى التأثير التنموي، ص 178.

⁶ - أفيناريوس، جوندولا، عائشة دماس، سوزان كامل، علم متاحف مناسب يساوي لغة مناسبة، م س، ص 147.

سماعها¹. ويسهم ثانيا في تأكيد الهوية الوطنية وإيقاظ الوعي القومي للشعوب والاعتزاز بالذاتية، وإثراء العقل والوجدان بأرقى القيم الثقافية والفنية والحضارية، وإثارة الهمم وشحذها لتحقيق الاستقرار الحضاري والدور الإنساني انطلاقا من المكانة المهمة والهادفة لهذا المتحف ودوره الرائد². فهل المتحف مسؤول وحده على تامين التراث وحمايته؟

بالطبع لا، فبعض المسؤولية تلقى على كاهل الحكومات في تأمين وحفظ هذا التراث الفريد من الأعمال الفنية ذات القيمة الأثرية. وما ماهية طبيعة العمل الفني الشاملة والعامة سوى مزاوله فعل بقصد البراعة في إنجاز عمل بعينه، على أن تكون له قيمة خاصة وذلك بكل متطلبات النجاح من خبرة واسعة وتفكير صائب وأداء هادف حسبما صرح به أرسطو³. وها هو المتحف يزاول عمله بكل براعة في السعي إلى خلق بيئة مواتية للدعم المجتمعي من خلال دعم منظمات المجتمع المحلي مثل جمعية أصدقاء المتاحف وغيرها من المنظمات والاعتراف بإسهامها وتعزيز علاقة وثيقة بين المجتمع المحلي ومتحف التراث الثقافي⁴.

والمهم أن ننبه، في هذا الصدد، إلى أن جمعيات أصدقاء المتاحف الإسلامي والقبطي واليوناني والروماني، تعمل بوسائلها الخاصة على حفظ التراث الثقافي من خلال التعريف بدور المتحف تعليميا وثقافيا على الصعيد المحلي، والإقليمي، والدولي، مع الاتصال بالجمعيات المماثلة، والجمعيات الدولية، والمجلس الدولي للمتاحف، كما تعمل على تنمية قدرات العاملين بالمتحف ودعم نشر الأبحاث والدراسات الخاصة بمقتنيات المتاحف التابعة لها⁵، كما تعمل دوما على عرض المواقع الأثرية وحمايتها وبناء علاقات قوية مع المتاحف، وتعمل على المشاركة في الخدمات المقدمة لجمهور المتحف وتطويرها وتحسين صورة المتحف في المجتمع حتى يؤثر أكثر في تطوره. وقد أصبح عمل هذه الجمعيات وأفرادها المتطوعين يميز المجتمعات ضمن النطاق الثقافي، وتكمل عمل المختصين بالعمل المتحف. فكان لأعضائها أثر حساس في تطوير التراث الأثري، يتجلى في مساعدتهم للمتاحف على اجتذاب الزوار إليها واستقبال مجموعات جديدة من الجمهور واقتناء التحف⁶. أطلق بعض الباحثين في علم المتاحف على أعضاء جمعية أصدقاء المتحف لقب سفراء المتاحف في المجتمع، فهم يبنون بنشاطاتهم التي يقومون بها العلاقات والروابط بين الجمهور، ويشاركون في الأعمال الخاصة التي ترفع من قيمة المتحف في المجتمع. وتشكل هذه النشاطات اليوم المحور الرئيس لرفع المستوى الثقافي لجمهور المتاحف، ولهذا السبب ذهب بعضهم إلى طرح فكرة إدخال إنشاء المتاحف وتطويرها ضمن السياسات الحكومية للدول⁷.

وفي المنحى نفسه، قامت الجمعية الأمريكية للمتاحف ببرنامج التواصل بين المتاحف لعام 2012 لعشرة مشاريع جديدة بهدف الربط بين المجتمعات الأهلية في العالم من خلال إجراءات مبتكرة تستند إلى المتاحف، وتتضمن في هذه الحالة الفن المتحف والتاريخ والحفاظة على التراث الثقافي والتبادلات العلمية لجمع الناس بغية تنمية التعاون والتفاهم. وقد قام هذا البرنامج بالتزاوج بين المتاحف في الولايات المتحدة الأمريكية ومتاحف أكثر من عشرة بلدان في العالم، ويشرك أعضاء في المجتمع المحلي ولا سيما الشباب للتواصل إلى أبعد من جدران المتحف⁸. ومما يذكر في هذا المجال، أن اليونيسكو أصدرت مجلة دورية عن المتاحف تعرض للنشاط المتحف، هي مجلة ميوزيم، كما تكون في هذا الصدد المجلس العالمي للمتاحف الأيكونوم، وهو منظمة دولية للمتاحف وللعاملين بها، تلتزم بحفظ

¹ -العوامي، عياد موسى، مقدمة في علم المتاحف، م س، ص 24.

² -المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، متاحف الفنون الشعبية في الوطن العربي، وزارة الثقافة، تونس، 1995، ص 75-76.

³ -نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار، م س، ص 15.

⁴ -الحجي، سعيد عبد الكريم، متاحف التراث الأثري أهميتها ودورها في الحياة المعاصرة، م س، ص 784.

⁵ -نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار، م س، ص 17.

⁶ -الحجي، سعيد عبد الكريم، متاحف التراث الأثري، م س، ص 796.

⁷ -الحجي، سعيد عبد الكريم، نفسه، ص 797.

⁸ -الحجي، سعيد عبد الكريم، نفسه، ص 795-796.

الاستمرارية والاتصال وتأمينها مع التراث الثقافي والطبيعي العالمي المادي واللامادي، وهو منظمة غير حكومية تقيم علاقات رسمية مع منظمة اليونسكو. وينظم الأيكم احتفالا عالميا بمناسبة اليوم العالمي للمتاحف من أجل تعزيز العلاقة بين المتحف والمجتمع وإظهار أهمية المتحف في تطور هذا الأخير أي المجتمع. هذا، وأكد على العناصر الأساسية للتوافق الاجتماعي: الحوار، التسامح، التعايش، والتنمية المعتمدة على التعددية والتنافس والإبداع¹.

وفي عبارات قليلة، نجد التنبيه إلى الأجهزة الإعلامية وما لها من دور في تدعيم البحث وخططه في حفظ التراث من خلال "التعريف بالمبادئ الحضارية وذلك من خلال برامج جادة وهادفة تصحب المشاهد في جولة إلى الأماكن الأثرية والمتاحف القومية منها والإقليمية، وهو نفس الدور الواقع على عاتق كتاب الصحف والسينما والمسرح لاستلهم أعمال من التراث الأدبي وتقديمها بأسلوب يتماشى وروح العصر ويكون قادرا على جذب الجانب الأكبر من المشاهدين والمستمعين وبل القراء"².

وفي محصلة هذا الاستعراض، قدمنا قبسا أسنى لمهية المتحف ونشأته وأنواعه وبعض أدواره الوظيفية بمناهجها العلمية، التي كان لها مفعول بعيد الأثر وعميق الجدوى في حفظ التراث وصيانة الذاكرة الإنسانية وتأسيس الهوية الثقافية والارتقاء بالفكر والمجتمع.

وبالنهاية نرجو أن نكون بهذا القبس البحثي قد أفلحنا في تغيير النظرة الكلاسيكية للمتحف من دار عجائب وكفر إلى دار للإشعاع العلمي والثقافي، وفي السعي نحو تفعيل آليات المشاركة العلمية النظرية في المشاريع المنقذة للتراث، لعل هذه القبس يكون فاتحة محفزة لدراسات جديدة تشعل نور المتحف العربي في المجتمعات فتسطع مطالعه في أفق العالم نبراس.

¹ -الحجي، سعيد عبد الكريم، متاحف التراث الأثري، م س، ص 795.

² -نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار، م س، ص 18-19.

المصادر والمراجع:

- أبادي، الفيروز، القاموس المحيط، الهيئة العامة للكتاب، ط 3، القاهرة، 1989.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط 1، بيروت، 2000
- أبو بكر، جلال أحمد، متاحف الآثار كنوز الماضي ثروات المستقبل، مكتبة مدبولي، ط 1، القاهرة، 2014.
- الإدريسي، أبي عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
- الأنصاري، فريد، المصطلح الأصولي عند الشاطبي، معهد الدراسات المصطلحية، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، ط 1، 2004.
- بلجودي، أم السعد، إشكالية غياب الثقافة المتحفية لدى الجزائري ودورها في عزوفه عن زيارة المتاحف دراسة لآراء عينة من الطلبة حول المتحف العمومي الوطني بالمنبعا، رسالة ماجستير، إشراف كبار عبد الله، جامعة غرداية، السنة الجامعية 2021-2022.
- بلغيت، نوفل، رجال بدر الدين، المتحف ومساهمته في حفظ التراث المحلي متحف نصر الدين دينيه نموذجاً، رسالة ماجستير، إشراف نادية قجال، جامعة عبد الحميد بن باديس-مستغانم، الجزائر، السنة الجامعية 2019-2020.
- ثروت، عكاشة، المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية (إنجليزي، فرنسي، عربي)، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 1990.
- الحجي، سعيد عبد الكريم، متاحف التراث الأثري أهميتها ودورها في المجتمعات المعاصرة، مجلة جامعة دمشق، العدد 1+2، 2014.
- خديد، رضوان، متاحف التراث الشعبي في مناطق الواحات بالمغرب من المبادرة إلى التأثير التنموي، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 57، السنة الخامسة عشر، ربيع 2022.
- الدباغ، تقي، فوزي رشيد، علم المتاحف، مطبعة جامعة بغداد، العراق، 1979.
- دعبس، محمد يسري إبراهيم، متاحف العالم والتواصل الحضاري دراسات وبحوث في أنثروبولوجيا المتاحف، الناشر شركة الجلال للطباعة، المتلقى المصري للإبداع والتنمية، ط 1، مصر، 2004.
- الدغفق، هدى عبد الله، المتحف الوطني بين الإعلام والإعلان والتعليم، جريدة الرياض السعودية، العدد 13422، مارس 2005.
- راشد، محمد جمال، أنواع المتاحف ومعايير تصنيفها، مجلة الاتحاد العام للأثريين العرب، المجلد 22، العدد 1، 2021.
- الزعي، مهدي عبد الكريم محسن، سلطان عبد الله جروان المعاني، المتاحف الأردنية في مئة عام، وزارة الثقافة، ط 1، الأردن، 2021.
- زهدي، بشير، المتاحف دراسات ونصوص قديمة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1988.
- الشاطبي، أبي إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، ط 1، لبنان، 2001.
- غنيمه، عبد الفتاح مصطفى، المتاحف والمعارض والقصور وسائل تعليمية، كلية الآداب جامعة المنوفية، 1990.

- الفار، درويش مصطفى، سطور عن تاريخ المتاحف، دار الكتب القطرية، دار الكتب القطرية، قطر، 2005.
- فيليب، آدامز وآخرون، دليل تنظيم المتحف إرشادات علمية، ترجمة محمد حسن عبد الرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993.
- قادوس، حامد، عزت زكي، علم الحفائر وفن المتاحف، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، 2005.
- كوش، دنيس، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.
- كولة، غنية حاج، المتاحف الجزائرية بين الممارسة الثقافية والاستهلاك المظهري، رسالة ماجستير، إشراف عبد الرحمن بوزيدة، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007-2008.
- المقرري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988.
- المنظمة العربية للثقافة والعلوم، متاحف الفنون الشعبية في الوطن العربي، تونس 1995.
- محمد، رفعت موسى، مدخل إلى فن المتاحف، الدار المصرية اللبنانية، ط 1، القاهرة، 2002.
- مرزوق، محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والاندلس، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- منيع، أمل بنت محمد، تقويم الأداء المتحف للمتاحف المواقع الأثرية في المملكة العربية السعودية متحف نجران-دراسة حالة، وزارة الثقافة، هيئة التراث، الرياض، 2021.
- النووي، إبراهيم عبد السلام، علم المتاحف، تقديم زاهي حواس، مطابع المجلس الأعلى للآثار، ط 1، مصر، 2010.
- نور الدين، عبد الحليم، متاحف الآثار في مصر والوطن العربي دراسة في علم المتاحف، الأقصى للطباعة والنشر والتوريدات، القاهرة، 2009.
- هيرمان، ياني، العرض والمعروضات والمعارض، المجلس الدولي للمتاحف، اليونسكو، فرنسا، 2004.
- Barnice L. Murphy, La définition du musée, lettre du conseil international des musées, vol 57, N², mison de L'UNESCO, paris, 2004.
- Bourdieu, pierre, Drabel Alan, L'amour du l'art, les éditions de minuit paris, 1969
- Edson G. et Dean D, the handbook for museums, Londres, Routeledge, 1996.

التعدد اللغوي في رواية "جارات أبي موسى" لأحمد التوفيق

يوسف الفضاضي

باحث بسلك الدكتوراه

تكوين: Littérature, langue et culture

مختبر الأبحاث التطبيقية في الأدب واللغة والفن والتمثيلات الثقافية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال

إشراف: د. الشرقي نصراري

أستاذ التعليم العالي

الكلية المتعددة التخصصات خريكة

جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال

المملكة المغربية

الملخص:

الرواية قائمة على تعدد لغاتها الحوارية، وهي فضاء أيضا لتعدد الرؤى وتصادم أشكال الوعي المختلفة. كما أنها ظاهرة متعددة الأسلوب واللسان والصوت، نثر فيها، كما يرى باختين، على الوحدات التأليفية والأسلوبية اللامتجانسة، وهي تتمازج عند دخولها إلى الرواية لتكوّن نسقاً أدبياً منسجماً. من هنا تغدو الرواية نسقاً من اللغات المتنوعة لسانياً وصوتياً: تهجين، تنوع اجتماعي، أصوات فردية، لهجات، أجناس تعبيرية، حوارات داخلية، محادثات... مما يولد لغة جديدة تعكس الوعي اللغوي، ويسهم في تشييد جمالية النص الروائي ودلالته. يسعى البحث إلى رصد صور وتحليلات التعدد اللغوي في رواية «جارات أبي موسى» للكاتب المغربي أحمد التوفيق، وكشف القضايا التي يطرحها، واستجلاء دلالات ذلك.

سنتناول في البحث العناصر التالية:

- تأطير نظري؛ نقف فيه عند أهم القضايا النقدية المرتبطة بالتعدد اللغوي والصوتي، عند الناقد الروسي ميخائيل باختين.

- التعدد اللغوي في رواية جارات أبي موسى؛ حيث سنعرض لما يلي:

1. لغة الكتابة.

2. أصوات الشخصيات، وحواراتها الخالصة؛ أو بنية المحادثة باعتبارها قانوناً حوارياً ومفصلياً بالمفهوم السيميائي للكلمة، لأن لها القدرة على توصيف طبقات الاجتماعية، وبناء القيم السوسيوثقافية من خلال ثيمات دلالية متعددة تتجلى في لغة الشخصيات (عوامل التواصل)، و تنوع هوياتها وخلفياتها الثقافية، وأهوائها التي تحركها، وتجعلها قادرة على الفعل وردة الفعل؛ مما يسهم في تقريب أثر الحقيقة وأثر المعنى.

3. الأجناس التعبيرية المتخللة في النص الروائي (التناس الديني، والأدبي، والتراثي الشعبي)

خاتمة:

الكلمات المفتاحية: التعدد اللغوي، ميخائيل باختين، التناس، التهجين، جارات أبي موسى، المحادثة.

رواية «جارات أبي موسى»¹ لأحمد التوفيق تندرج في خانة الرواية الجديدة، تتكىء على التاريخ لتسائل قضايا الراهن، وتمتد جسوراً متعددة مع أجناس تعبيرية مختلفة، وهي رواية ذات نفس تراثي صوفي بامتياز، ويبدو ذلك جلياً من حيث سجلها اللغوي الذي كتبت به، ونوع الكتابة التاريخية التي تحاكيها، وفضاءاتها وأحداثها، وأسماء الشخصيات وأهواؤها... وهي إذ تنفتح على التراثي والتاريخي والصوفي، فهي بذلك تسعى إلى إغناء المتخيل الروائي، وخلق تعددها اللغوي؛ تعدد ترمي هذه الورقة إلى البحث في تحليلاته وتظهراته الثاوية خلف بنية خطاب الرواية، وسنعمد، في ذلك، على التصورات النظرية النقدية التي جاء بها ميخائيل باختين. أولاً. تأطير نظري:

تُعد ظاهرة التعدد اللغوي² من أهم تحليلات الإبداع الروائي المغربي الحديث باعتبارها "مكوناً داخلياً ملتصقاً بالرحم المولد للنص في تحققه الشكلي والخطابي والإيديولوجي"³، وهذا التحقق يتم من خلال اللغة وبها، لكن هذه اللغة الروائية يجب، حسب ميخائيل باختين، أن تُدرس بعيداً عن مفهوم الخطاب الشعري كما صاغه الشكلايون الروس؛ فباختين ينطلق في دراسته للرواية مُلحاً على أسلوبية الجنس الأدبي حتى لا يكون هناك فصل بين اللغة وبين الجنس التعبيري الذي هو جزء من الذاكرة الجماعية يطبع كل أسلوب بنبرته الاجتماعية⁴؛ فالرواية، إذًا، قائمة على تعدد لغاتها الاجتماعية الحوارية، وهي فضاء أيضاً لتعدد الرؤى وتصادم أشكال الوعي المختلفة. كما أنها ظاهرة متعددة الأسلوب واللسان والصوت، نعثر فيها على الوحدات التأليفية والأسلوبية اللامتجانسة التي ساقها باختين في ما يلي:

1. السرد المباشر الأدبي، في مغايراته المتعددة الأشكال.
 2. أسلبة مختلف أشكال السرد الشفوي التقليدي أو المحكي المباشر.
 3. أسلبة أشكال السرد المكتوب المختلفة، نصف الأدبية والمندولة: الرسائل، المذكرات الخاصة...
 4. أشكال أدبية متنوعة من خطاب الكاتب، إلا أنها لا تدخل في إطار «الفن الأدبي»، مثل: كتابات أخلاقية وفلسفية، استطرادات عالمة، حُطْبٌ بلاغية، أوصاف إثنوغرافية، عروض مختصرة...
 5. خطابات الشخصيات الروائية المفردة أسلوبياً.
- هذه الوحدات الأسلوبية اللامتجانسة تتمازج عند دخولها إلى الرواية لتكوّن نسقاً أدبياً منسجماً، ولتخضع لوحدة أسلوبية غلباً تتحكم في الكل، ولا نستطيع أن نطابق بينها وبين أية وحدة من الوحدات التابعة لها⁵. من هنا تغدو الرواية نسقاً من اللغات المتنوعة لسانياً وصوتياً: تنوع اجتماعي، أصوات فردية، لهجات، أجناس تعبيرية، حوارات داخلية، محادثات...
- يعدد باختين الطرائق المتصلة بتشبيد التعدد اللغوي في الرواية في أربع⁶:

¹ أحمد توفيق، جارات أبي موسى، منشورات دار القبة الزرقاء، مراكش، المغرب، ط2، 2000.

² مصطلح ترجمه محمد برادة في كتاب الخطاب الروائي لميخائيل باختين. يقول محمد برادة عن دواعي اعتماد مصطلح «التعدد اللغوي» وعنوان الكتاب «الخطاب الروائي» بدل «الخطاب في الرواية»: "يشير تودوروف إلى ذلك في كتابه عن باختين، موضحاً بعض الصعوبات والالتباسات التي تنشأ من الترجمة غير الدقيقة. ولكننا أبقينا على الترجمة الأولى لوجود التقاء بين المعنيين، عند نهاية التحليل: فالخطاب في الرواية هو أيضاً صورة للخطاب الروائي. وهناك مصطلح آخر قدم له تودوروف ترجمة مغايرة للترجمة التي اعتمدها، وهو مصطلح hétérologie (تنوع الملفوظات) بينما الترجمة التي اعتمدها تستعمل Plurilinguisme (التعدد اللغوي). لذلك نرجو أن يأخذ القارئ ذلك في الاعتبار حتى تفهم عبارة التعدد اللغوي أيضاً بمعنى تعدد الملفوظات والخطابات. ينظر: ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر. محمد برادة، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1987، ص25.

³ محمد برادة، التعدد اللغوي في الرواية: تفتيت تجانس النص، تحويل الشكل وتوسيع المتخيل، مجلة مواقف، لبنان، ع69، نونبر 1992، ص162.

⁴ ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر. محمد برادة، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1987، ص15.

⁵ نفسه، ص38.

⁶ للاطلاع على قضايا التعدد اللغوي من خلال مفاهيم التهجين، والأسلبة، والباروديا، والتنوع، وتنضيد اللغة، والأسلوب الهزلي، والأجناس المتخللة، وأقوال الشخصيات الروائية؛ ينظر: ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع مذكور. ومحمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي: التعدد اللغوي والبوليفونية، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2016.

1- أشكال إنتاج صورة اللغة¹؛ أي التشخيص الأدبي للغة، ويدخل فيها:

- التهجين: وهو مزج لغتين اجتماعيتين داخل ملفوظ واحد، والتقاء وعيَين لغويَين مفصولَين بحقبة زمنية، وبفارق اجتماعي، أو بهما معاً، داخل ساحة ذلك الملفوظ. ويلزم أن يكون التهجين قصدياً.
- تعالق اللغات القائمة على الحوار، ومن صيغته:

الأسلية: وهي قيام وعي لساني معاصر بأسلبة مادة لغوية أجنبية عنه، يتحدث من خلالها عن موضوعه؛ فاللغة المعاصرة تُلقي ضوءاً خالصاً على اللغة موضوع الأسلبة، فتستخلص منها بعض العناصر وتترك البعض الآخر في الظل. والأسلبة تندرج ضمن التهجين القصدي الذي هو إحدى طرائق إبداع صورة اللغة في الرواية. وتتميز الأسلبة عن التهجين بأنها لا تحقق توحيداً مباشراً لِلُّغَتَيْنِ داخل ملفوظ واحد، بل الأسلبة لغة واحدة مُجَنِّة وملفوظة، لكنها مقدّمة على ضوء اللغة الأخرى. وتلك اللغة الأخرى تظل خارج الملفوظ ولا تتحين أبداً. وفي الأسلبة نجد وعيَين لغويَين مُفردَين: وعي مَنْ يُشَخِّص (وعي المُؤسِّلِب)، ووعي من هو موضوع للتشخيص والأسلبة.

التنوع: نوع أساسي من الأسلبة، ويتميز عنها بأن المُؤسِّلِب يُدخل على المادة الأولية للغة موضوع الأسلبة، مادته الأجنبية المعاصرة (كلمة، صيغة جملة...) متوخياً من وراء ذلك أن يختبر اللغة المُؤسِّلِبَة بإدراجها ضمن مواقف جديدة مستحيلة بالنسبة لها. الباروديا: نوع أساسي من الأسلبة يقوم على عدم توافق نوايا اللغة المشخّصة مع مقاصد اللغة المشخّصة، فتقاوم اللغة الأولى الثانية وتلجأ إلى فضحها وتحطيمها. لكن يشترط في الأسلبة البارودية ألا يكون تحطيم لغة الآخرين بسيطاً وسطحياً، بل عليها «أن تعيد خلق لغة بارودية وكأنها كلٌّ جوهرى مألوف لمنطقه الداخلي وكاشف لعالم فريد مرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة التي بوشّرت عليها». الحوارات الخالصة، الصريحة: وهي الحوارات التي تتخلل سيورة الحكيم، سواء كانت في شكل حوارات مباشرة بين الشخصيات الروائية، أو في شكل مونولوج داخلي.

2 الأجناس التعبيرية المتخللة: المقصود بالجنس المتخلّل، الجنس الأدبي أو التعبيري المضاف إلى الرواية في فترات ظهورها أو نموها وتحوّلها.

3 أقوال الشخصيات الروائية: هي أقوال الآخرين في لغة ثانية، وما تخلقه من مناطق المحكي المباشر، حيث تتوفر على درجات مختلفة من الاستقلال الأدبي والدلالي وعلى منظور خاص. كما تستطيع أن تكسر نوايا الكاتب وأن تكون بالنسبة له بمثابة لغة ثانية، ترصع خطابه بكلمات أجنبية، وتنضده تراتبياً، وتدخل إليه التعدد اللساني.

4. تنضيد اللغة إلى أجناس تعبيرية، والتنضيد المهني للغة: يقصد باختين بتنضيد اللغة إلى أجناس تعبيرية؛ تعديد الروائي للغات وتوظيف الأجناس التعبيرية المتخللة، وحرفه لُغَتَه الخاصة بهدف جعل لغة الرواية نسقا من اللغات منظماً أدبياً.. أما التنضيد المهني للغة فيقصد به باختين (بالمعنى الواسع) لغة المحامي، والطبيب، والتاجر، والمعلم، والنادل... بل حتى لغة الكاتب. ومن ثم فالتنضيد يكون تراتبياً حسب قصدية الكاتب ورؤيته، وحسب أشكال التأويل والتقدير الملموسين.

وبالرجوع إلى «جارات أبي موسى»، سنقف على هذه القضايا والمفاهيم "الباختينية" التي وظفها أحمد التوفيق؛ محاولين تتبع مختلف تمثيلات التعدد اللغوي في الرواية، حيث تتصافر عدة بنيات مكونة للنص الروائي تجعل منه حقلاً لحوار بناء بين حقول معرفية متعددة فيها التاريخ، والمنقبة، والروح الكرنفالية، والحكاية، لكنها حقول لا تشغل مستقلة عن بعضها البعض، ولا تتحقق كبنيات

¹ يكون كلام الشخصيات موضوع تصوير في النثر الروائي؛ إذ يدخل كلام الشخصية بوصفه عامل تفكيك للغة الروائية يحمل التنوع الكلامي إليها؛ فهو - تبعاً لذلك - لا يصوّر فقط، بل يصوّر أيضاً، بل إن كلام المؤلف نفسه يصبح موضوع تصوير في الرواية أيضاً. ينظر: باسم صالح حميد، النزعة الحوارية في الرواية، مجلة علامات في النقد، ع51، مارس 2004.

معزولة، وإنما باعتبارها بنيات¹، تنصهر داخل النص الروائي وتتماسك، استطاع أحمد التوفيق تضمينها روايته من خلال إعادة الكتابة، و"المحاكاة، والتحويل، والتضمين، والاستيعاب، والنقل"². كما تعدد وجهات النظر إلى العالم "بتعددية حالات الوعي، وإذن تعددية الأصوات"³ المرتبطة أيضاً بتعدد الشخصيات الروائية التي تمثل طبقتها الاجتماعية، ومواقفها الإيديولوجية المتباينة.

ثانياً. التعدد اللغوي في رواية «جارات أبي موسى»:

1. لغة الكتابة:

تسائل اللغة في «جارات أبي موسى» التراثي والتاريخي والصوفي، وداخل "هرمية السرد هناك مدى مشهدي تتداخل فيه لغات الحلم والتذكر والاستيهامات"⁴، وقد اختار أحمد توفيق أن يوظف لغات تاريخية تراثية قديمة، تغطي على جل فصول الرواية، ويبدو هذا التوجه مذكوراً في الملفوظ السرد الأول في الرواية: "وصل الخبر على ظهر جواد أدهم إلى مدينة سلا وأعلام صلاة يوم الجمعة ترفرف على صوامعها. وبعد أن تحقق حراس باب المريسة من هويته، أذنوا بالدخول. جرى أمامه غلام من الحراس ليقوده توا إلى دار القاضي القضاة ابن الحفيد" (الرواية، ص 5). من خلال هذا المقطع المشهدي يرحل بنا السارد إلى الجو العام للرواية، ويُطل بنا على فترة سابقة من تاريخنا المغربي، ويتوسل، في ذلك، بلغة قديمة تُوْشَر عليها الملفوظات السردية المكونة للمقطع، والممتدة على طول مسار الرواية؛ وذلك من خلال الوحدات المعجمية، والمستوى التركيبي والدلالي، وأسماء الشخصيات وحواراتها، والفضاءات المتعددة، والعبارات المسكوكة، واللغة الصوفية، واللغة السلطانية... وكلها لغات منسوبة⁵ لمحاربة الزمن الحكاية. ورغم أن السارد في الرواية يحاكي اللغة التراثية والمادة التاريخية، إلا أننا لا نعدم وجود لغة رشيقة معاصرة، خاصة في المقاطع الخاصة بتضمين شامة لفعلها وجبها لعل⁶: "تراجعت شامة وهرولت حتى التحقت بغرفتها وسدت الباب من ورائها وسقطت على السرير وهي تحدث أصواتا ليست بكاء ولا ضحكا ولا أنينا ولا شكوى كل ما هنالك أنها لم تعد تتحكم في حواسها ولا في توجيه عقلها وجهة معينة وفجأة وكأنما استعادت هدوءها ورشدها وطوت كل شيء صارت تقول في نفسها وبعد، فليكن فلتخر السماء على الأرض ألسنت أحبه فليخرج الجحيم من صرة تلك الغادرة، ألسنت أحبه، ومن غيري يقدر أن يحبه كما أحبه ! ولتكن طعنته لي مقابل الشوق الذي كنت أعطيه ألسنت أحبه!" (الرواية، ص 171).

كما نقف في الرواية على نوع من التهجين، حيث إن اللغة الجماعية (لهجة جماعة) كما يؤكد "بيير زيمّا": "ليست دائما نتاج جماعة واحدة، ولكنها يمكن أن تنشأ على تخوم جماعتين أو طبقتين، لهما، لأسباب اقتصادية وسياسية مصالح وقضايا مشتركة"⁷. وبالرجوع للرواية نجد أن المتن السرد يعرف هذا النوع من اللغة الهجينة التي تنشأ من جماعة غير متجانسة؛ كما نجد في الرواية مجموعة من المفردات العامة المتداولة في الأوساط الشعبية: البنيقة - البراح - المشايرط - الشرط (الأجر الذي يدفعه أفراد الجماعة للفقير أو معلم الأطفال) - الساكن - الطنجية - أمناي (الفارس) - العيطة الزناتية - الحلقة - الجذبة - ماء الحياة المقطر من العنب... إن بإمكان بعض اللهجات، كما يصرح باختين، أن تكتسب المشروعية داخل الأدب، وبذلك يمكنها المساهمة إلى حد، في اللغة الأدبية. ومن الواضح أن اللهجات، بدخولها إلى الأدب ومساهمتها في لغته، تفقد صفة كونها أنساقاً اجتماعية - لسانية مغلقة.

¹ بديعة مطهري، ملامح اشتغال التراث في رواية جارات أبي موسى لأحمد التوفيق، مجلة الخطاب، الجزائر، ع4، يناير 2009، ص 15.

² نفسه، ص 13.

³ جان فيرييه، الحوارية، تر. غسان السيد، مجلة نوافذ، السعودية، ع24، يونيو 2003، ص 34.

⁴ الشرقي نصرأوي، الانشعاب المأوي في الرواية - دراسة سيميائية، مؤسسة الموجة الثقافية، المغرب، ط1، 2023، ص 12.

⁵ نفسه، ص 15.

⁶ عبد اللطيف محفوظ، مظهرات المعنى في جارات أبي موسى، مجلة آفاق، المغرب، ع80-79، أبريل 2000، ص 174.

⁷ بيير زيمّا، النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع النص الأدبي، تر. عائدة لطفي، دار الفكر، ط1، 1991، ص 190.

"إنها تتشوه؛ وحاصل الكلام، فإنها تكف عن أن تكون ما كانت عليه بصفتها لهجات. غير أن هذه اللهجات، من جانب آخر، تحافظ عند دخولها إلى اللغة الأدبية، على مرونتها اللهجوية، وعلى لغتها (الأخرى)، كما أنها تشوه اللغة الأدبية التي تدخل إليها (واللغة الأدبية بدورها تكف عن أن تكون أصيلة بعمق)، نتيجة لأنساقها الاجتماعية. اللسانية المغلقة"¹. إن الأمر، هنا، لا يتعلق بلغة، وإنما بمحاور لغات مختلفة لسانياً وصوتياً.

2 الشخصيات:

2.1 أصوات الشخصيات:

الشخصيات في رواية «جارات أبي موسى» شخصيات متخيلة في أحداث تاريخية متخيلة، لكن هذه الأحداث قد تكون مستمدة من واقع ما. ويكون دور التخيل هنا هو المساهمة في الشعور بوجود الماضي. رغم أن أحمد التوفيق اختار لروايته سارداً عالمياً بكل شيء؛ يهيمن على تفاصيل السرد، إلا أنه يجعله يفوض اختصاصاته، ويتنازل عن صوته لفائدة الشخصيات التي تُمنح الحرية في التعبير عن وجهات النظر؛ إما عبر الحوارات الخالصة أو عن طريق المونولوج. والشخصيات "تستطيع بفعل أقوالها وتدخلاتها في مسار السرد عن طريق الحوار، أن تكسر نوايا الكاتب، وأن تعتبر أقوالها وملفوظاتها بالنسبة إليه، إلى حد ما، لغة ثانية. وتمارس أقوال الشخصيات الروائية تأثيرها على خطاب الكاتب؛ فترصعه بكلمات غريبة، وتنضده تراتيباً، وبذلك تُدخل إليه التعدد اللغوي"²، كما تستطيع الشخصيات من خلال أقوالها أن تعبر عن وجهات نظرها ورؤيتها للعالم.

الأصوات في رواية جارت أبي موسى متعددة ومختلفة باختلاف ثقافتها، وأحلامها، وأدوارها التيماتيكية (أو ما يسميه باختين بالتنظيد المهني للغة؛ أي لغة المحامي، والطبيب، والتاجر، والسياسي، والمعلم...³)، والفضاءات التي ترتادها. وعدد الشخصيات كبير؛ بعضها يختفي بسرعة، وبعضها يستمر في الظهور إلى آخر فصول الرواية، بعضها يحمل ألقاباً، والبعض الآخر محروم من اسم العلم. ويمكن تقسيم الأصوات في الرواية على النحو التالي:

- شامة: تعد شخصية شامة شخصية محورية في الرواية، وهي الخيط الرابط بين أحداث الرواية بشكل عام. وتعرف على سمات هذه الشخصية وأدوارها التيماتيكية من خلال تتبع ما أورده السارد من مسارات تصويرية تقدم مجموعة من الصفات والسمات التي تميز شخصية شامة، وهي: الجمال: "لم يكن ابن الحفيد ينتظر خادمته الشقراء واسمها شامة في هذا المجلس، ولا يملك أن يردها وقد توسطت القبة واستقطبت في رمشة عين جل الأنظار" (الرواية، ص8)، والتدين، والتواضع، وإباء النفس، والكرم والعطاء، والصبر، والعفة... ومهارة التدبير، والثقافة الواسعة... وهي تمثل رفقة زوجها علي سانشو، والجارات، وتجار فندق الزيت صوت الطبقات الاجتماعية الشعبية المنهكة والمضطهدة.

- القاضي ابن الحفيد: صوت العالم، ورجل السلطة المناصر للحق وللمظلومين.
- العامل جرمون (عامل مدينة سلا): صوت رجل السلطة، وهو نموذج للظلم، والشر، والاستبداد، والخيانة.
- القاضي الجورائي (قاضي القضاة، ومشاور السلطان): صوت رجل السلطة العليا.
- أبو موسى: سلطة دينية تمثل صوت أهل الأحوال والتصوف والمكاشفات والكرامات؛ صوت يمثل أيضاً هموم الطبقات الشعبية.
- النقيب أبو عبد الله السعدي: صوت السلطة، وصوت الشرفاء الذين يقفون مع الحق، ويدافعون عن المظلومين والطبقات المقهورة.

¹ ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع مذكور، ص64.

² محمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي: التعدد اللغوي والبوليفونية، مرجع سابق، ص12.

³ ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص60.

إن المتن اللغوي يتوفر على ذخيرة جمالية وإيديولوجية، "ساهمت في بلورة وعي الشخصيات الورقية، وساهمت في تشكيل الوعي بالفضاءات المكانية باعتبارها بؤرة لتداخل المؤلف والقارئ، لبناء جدلية المعنى من خلال فهم كل السيرورات اللغوية والدلالية التي تتحاور داخل الرواية"¹. ولعل الأصوات المختلفة التي تعج بها الرواية سواء كانت تمثل صراعاً بين مختلف الطبقات الاجتماعية أو كانت متناغمة، قد أسهمت في إعطاء الرواية حواريتها؛ خالقة منها كوناً متعدد المجرات.

2.2. الحوارات الخالصة:

يشكل الحوار في «جارات أبي موسى» حلقة مهمة في البناء الفني للرواية؛ فإلى "جانب الوظيفة التواصلية بين الشخص، والإفصاح عن مواقفها وأفكارها، هناك حوارات تتعدى المجال الاجتماعي إلى مجال التعالي"²، وثمة نوعان من الحوار هما: الحوار الخارجي والحوار الداخلي؛ فالأول (الديالوج) مباشر تتناوب فيه الحديث شخصيتان أو أكثر دون تدخل من السارد؛ حيث تضيء الحوارات المباشرة الصراع بين أصوات الرواية، وتعدد وجهات النظر إلى الأشياء والعالم، وتهندس عالماً من "الثنائيات الضدية، حاملة معها هندسة خاصة حول أمكنة الرواية، وأسئلة الوعي اللغوي باعتباره دالاً ملفوظياً، وبعداً أيقونياً وهووياً"³، كما تعكس اختلاف البيئة والمستوى الثقافي والاجتماعي للشخصيات المتحاور. ولعل حوار النقيب أبو عبد الله السعدي مع القاضي الفاسد أبي جبر المدهون، وحوار العامل جرمون، من خلال الترسل، مع المفتي، وحوار الفقهاء المتماهين مع السلطة؛ يسعفنا في فهم هذه القضايا التي تتيحها الحوارات المباشرة بين شخصيات الرواية. أما الثاني (المونولوج) فهو حوار غير مسموع يكون بين الشخصية ودواخلها. ولعل الحوارات الداخلية لشامة، حين علمت بخيانة زوجها علي سانشو، تترجم هذا التعدد في "صوغ أسئلة الكينونة وأسئلة الذات في رحلتها نحو الغير..."⁴: "صارت تقول في نفسها: وبعد، فليكن، فلتخر السماء على الأرض، ألسنت أحبه! (...) إنها فضيحة! إنها فضيحة أنني لم أعرف اللذة إلا في العطاء! ذلك ما عرضني للخيبة، وها أنا أتعرض للعذاب" (الرواية، ص 173:171)؛ فمن خلاله هذا الحوار نكتشف أهواء الشخصية وهواجسها وأحلامها وانفعالاتها، واستيهاماتها التي تتحكم في أفعالها وأقوالها، كما نعرف على عوالمها الروحية..

إن بنية المحادثة⁵ (الحوار الخارجي المباشر) تؤدي وظائف على مستوى الخطاب الروائي؛ وهي وظائف متعلقة بتكوين مسار الدلالة من جهة، وإقناع عامل التواصل بظاهر الحقيقة في الخطاب من جهة أخرى. ومن خلال المحادثة يتمكن الممثلون من إنجاز أقوالهم وأفعالهم، وتجعلهم ذوي قدرة لغوية، مما يخلق تفاعلاً لغوياً قائماً على السؤال والجواب بين المتحدث والمتحدث إليه⁶، ولعل الحوارات⁷ التي تتخلل الرواية تسعفنا في فهم هذه القضايا التي تتيحها بنية المحادثة بين شخصيات الرواية.

تؤدي هذه المحادثات دور معينات إيديولوجية أو ما تسمية الناقدة جوليا كريستيفا بـ "الإيديولوجيم" (Idéologème)؛ أي الطابع الثقافي العام الغالب في عصر من العصور؛ حيث يحمل التفاعل بين المتحدث والمتحدث إليه، في رواية «جارات أبي موسى»، دلالات عن المظاهر الاجتماعية، والدينية، والسياسية، والثقافية. ونقف أيضاً، من خلال المحادثة، عند مظاهر الصراع بين السلط

¹ الشرقي نصراني، الانشعاب المرآوي في الرواية، مرجع سابق، ص 14.

² محمد برادة، التعدد اللغوي في الرواية: تفتيت تجانس النص، تحويل الشكل وتوسيع المتخيل، مرجع مذكور، ص 169.

³ الشرقي نصراني، الانشعاب المرآوي، مرجع مذكور، ص 15.

⁴ نفسه، ص 169.

⁵ المحادثة قانون حوارى ومفصلي بالمفهوم السيميائي للكلمة، لأنها تسهم في بناء القيم السوسيوثقافية من خلال ثيمات دلالية متعددة، مما يسهم في تقريب أثر الحقيقة وأثر المعنى، ويلبور إمكانيات عدة للحديث عن التخيل باعتباره سمة من سمات الكتابة القائمة على جدل الحوار بين الذات المتكلمة داخل النص. (ينظر الشرقي نصراني، التخيل الروائي المغربي ودينامية الشكل والمحتوى: تحليل سيميائي، ضمن كتاب التخيل السردى: الدينامية والتصورات، مؤسسة الموجة الثقافية، المغرب، ط1، 2023، ص8).

⁶ ينظر عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي: البنيات الخطابية التركيب. الدلالة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2002، ص 66 وما بعدها.

⁷ سنقتصر على دراسة بعضها، مع الإشارة إلى البعض الآخر أثناء التحليل من خلال صفحاتها بالرواية.

الدينية والسلط السياسية (الصراع بين القاضي ابن الحفيد، والنقيب السعدي، و بين العامل جرمون من جهة، والصراع بين أبي موسى ومن يمثلهم من الطبقات المسحوقة وبين العامل جرمون من جهة ثانية).

3. الأجناس المتخللة:

تسمح الرواية بأن تدخل إلى بنيتها جميع أنواع الأجناس التعبيرية؛ الأدبية وغير الأدبية (قصة، حكاية، شعر، أمثال، حكم، رسائل، نصوص دينية، تاريخ، نصوص علمية، مذكرات، مقالات صحفية...)، وهي ما يسميه ميخائيل باختين بالأجناس المتخللة (genres intercalaires)، وهي أحد أشكال إدخال التعدد اللغوي إلى الرواية، وخلق حواريتها من خلال الحضور المكثف لخطاب الآخرين. وقد تعددت الدراسات التي تهتم بالعلاقات بين النصوص، وتعددت معها المصطلحات الدالة على هذه الدراسة؛ ومنها: التناس، الحوارية، التفاعل النصي، هجرة النصوص، التضفير الخطابي (interdiscursivité)، التنافذ...

تتعلق في رواية «جارات أبي موسى» مجموعة من اللغات، وتتجاوز مع أجناس وخطابات تعبيرية متعددة (القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر، والمحكيات، والرسائل، والمواعظ، والأمثال، والعبارات المسكوكة، والدعاء، واللغة الصوفية...) تستثمرها من خلال التناس عبر آليات التجاور والتضمن والاقتراس والمحاكاة والتهجين والأسلبة والإحالة، وغير ذلك من طرائق التشخيص اللغوي. ويمكن حصر الخطابات التي تناصت مع النص الروائي «جارات أبي موسى» في ما يأتي:

3.1. التناس الديني:

التناس الديني هو: "تداخل نصوص دينية مختارة عن طريق الاقتباس [التناس غير المباشر] أو التضمن [التناس المباشر] من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو الخطب، أو الأخبار الدينية.... مع النص الأصلي للرواية، بحيث تنسجم هذه النصوص مع السياق الروائي، وتؤدي غرضاً فكرياً أو فنياً أو كليهما معاً"¹. وقد استلهم أحمد التوفيق مجموعة من النصوص الدينية في سياق روايته؛ ونقصده هنا القرآن الكريم، والحديث النبوي، والأدعية والأذكار...

3.1.1. التناس القرآني:

تمثل للتناسات القرآنية المباشرة مع النص الروائي بالمقاطع التالية:

- 1- "وجاء دور شامة بنت العجال أرملة الجورائي، واكتفت بالقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» وتصبرت" (الرواية ص 45).
- 2 "ومن مكن بالقرآن على نعمة علي بالرغم من حداثة إسلامه بقوله: «فجعل لكم هذه»" (الرواية، ص 57).
- 3 "لأن العامل المقيت مجبول على إرادة طمس كل فضيلة كيفما كان نوعها، وبهذا ينعت أهل سلا، حتى إنهم لا يفتأون يقرون فقيها أندلسيا حل بهم وسمع من خبائث العامل في حق أهل هذه البلدة فقال: «فصب عليهم ريك سوط عذاب»" (الرواية، ص 60).

في هذه المقاطع تم اقتطاع آيات قرآنية من مصدرها وسياقها الأصلي (النص الغائب) وتضمينها بشكل مباشر في الملفوظات السردية للسارد أو للشخصيات؛ لتدل في سياقات خاصة جديدة، وذلك بواسطة التهجين حيث يتم مزج لغتين ووعين مفصولين تاريخياً في ملفوظ واحد (وعي الكاتب المشخص للغة، والوعي المشخص؛ أي النص القرآني). وبالرجوع إلى المقطع الثاني السابق؛ نجد أن الآية القرآنية: «فجعل لكم هذه»² قد وظفت كإشارة لطيفة من أحد أصحاب ابن الحفيد للنعمة/الغنيمة التي فاز بها "علي شانسو"، الحديث عهد بالإسلام، حين تزوج بشامة، وكأن شامة غنيمة أولى معجلة في انتظار غنائم ونعم مؤجلة. أما المقطع الثالث

¹ أحمد الزعبي، التناس نظرياً وتطبيقاً - مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية للتناس في رواية رؤيا هاشم غرابية وقصيدة راية القلب لإبراهيم نصر الله، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2011، ص 19.

² سورة الفتح، الآية 12: «وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَامٍ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا»

ف نجد أن الآية القرآنية: «فصب عليهم ربك سوط عذاب»¹، تم استدعاؤها لتعبر عن غطرسة وتجبر العامل "جرمون" الممقوت من أهل مدينة سلا، والمفتقر لكل فضيلة. والآية الواردة هنا تدل على سنة الله في قهر الظالمين وإنزال صنوف العذابات عليهم في الدنيا قبل الآخرة.

إن توسل الكاتب بالقرآن، وبلغة القرآن الكريم، تعكس حسب باحثين تصادم وعيين اجتماعيين وفكرين وتكشف عن الطرائق والتقنيات الكتابية المعتمدة في إبداع نص مغاير في علاقته بالواقع، ومن هذه الطرائق نجد التهجين والأسلبة والباروديا، وهذه الأنماط الأسلوبية تعمل على تكسير رتابة السرد الطولي.²

أما التناصات القرآنية غير المباشرة فسنختار منها ما يلي:

- 1- "زلزلت المدينة زلزالها لما نزل من الإفلاس بتجارة فندق الزيت...» (الرواية، ص125).
 - 2- "فهمت كل شيء واسترجعت كل التفاصيل التي تنبئ بأن دار الشيخ الزناني قد ضاقت بما رحبت" (الرواية، ص138).
- يبي الكاتب المقاطع السردية السابقة بأسلوب في مؤسلياً لغة القرآن الكريم، حيث يتم توظيف النص القرآني بشكل غير مباشر، وذلك عن طريق توظيف جزء من الآيات القرآنية؛ يتم تهجينها وأسلبتها داخل الملفوظ السردية الجديد. ففي المقطع الأول هناك تناس مع سورة الزلزلة، للدلالة على الكارثة التي حلت بمدينة سلا بسبب الإجراءات التي اتخذها العامل جرمون، وأدت إلى الكساد وتسخط الناس. أما المقطع الثاني فيتناظر مع الآية الكريمة من سورة التوبة: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾³، التي يصف فيها الله حالة اليأس والغم والضيق الذي نال ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن مساندة جيش المسلمين؛ فقاطعهم الجميع وأصبحوا يعيشون في عزلة من أمرهم... وقد وظف الكاتب هذا الاستدعاء القرآني، هنا، ليصف حالة إحدى شخصيات الرواية وهي "بيرة" التي تحلى عنها قومها وتركوها لمصيرها المجهول.

3.1.2 التناص مع الحديث النبوي:

ما قلناه سابقاً عن تفاعل رواية «جارات أبي موسى» مع النص القرآني، ينطبق على تفاعلها مع الحديث النبوي؛ حيث عمد الكاتب على استثمار لغة الحديث النبوي بشكل غير مباشر، عن طريق التهجين والأسلبة والباروديا: "أنصت الشريف السعدي لما ذكره القاضي وتعجب من حماسه لإدانة المسجون بهذه الدعاوي الواهية وقال له: اتق الله يا رجل، قاض وقاضيان..." (الرواية، ص115).

يتناص هذا الملفوظ السردية، مع الحديث النبوي المعروف⁴، الذي استدعاه السارد هنا على لسان الشريف السعدي، نقيب أهل النسبة الشريفة بسلا وعملها، موجهها نقداً لادعاً للقاضي "أبو جبر المدهون" (يد العامل جرمون التي ييطش بها وينكل بها بالناس، الذي أدان على علي سانشو زوج شامة بتهم واهية لم يسمع بها الناس من قبل، وأمر بإيداعه السجن)، ولمح له، بلغة مستبطنة ساخرة، من خلال الحديث النبوي المذكور آنفاً، أنه من القاضيين الاثنين؛ إشارة التقطها القاضي الظالم، وحاول الدفاع عن وجهة نظره بتبريرات فقهية ومنطقية واهية إرضاءً لهوى الحكام وخنوعاً لهم، حتى يشعر الناس بالخوف؛ تقول الرواية: "كان الجميع مقتنعاً ببراءته دون أن يجرواً أحد على مناصرته بلسانه أو يده" (الرواية، ص131). واضح هذا النقد الموجه للمجتمع الذي

¹ سورة الفجر، الآية 13.

² حليلة وازيدي، سيميائيات السرد الروائي من السرد إلى الأهواء، منشورات القلم المغربي، ط1، 2017، ص83.82.

³ سورة التوبة، الآية 118.

⁴ قول الرسول ﷺ: «الْفَضَاءُ ثَلَاثَةٌ: أَثْنَانِ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ. رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَىٰ بِهِ، فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَلَمْ يَقْضِ بِهِ، وَجَارٍ فِي الْحُكْمِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقَّ، فَقَضَىٰ لِلنَّاسِ عَلَىٰ جَهْلٍ، فَهُوَ فِي النَّارِ».

تمكن منه الخوف، وذلك من خلال حضور المعجم الديني النبوي الداعي إلى تغيير المنكر والدفاع عن المظلوم. نلاحظ، إذن، كيف تتمازج الأوعية اللسانية المختلفة في ملفوظ واحد مؤسّلب، وكيف تسعى الطبقات الاجتماعية - مستثمرة المعجم الديني - إلى زرع وعيها وأيديولوجيتها ومرجعياتها في خطاباتها للتعبير عن مصالحها.

3.1.3. التناس مع الأدعية والأذكار ولغة الصوفية:

قلنا سابقا إن رواية «جارات أبي موسى»، ذات نفس تراثي صوفي؛ لذلك كان من الطبيعي أن تزخر الرواية بمجموعة من الأدعية، والأذكار، والحكم، والإحالات التاريخية، والصوفية. ونمثل لذلك من خلال الملفوظات التالية:

- "الناس ثلاثة: رجل لا يضر الناس وإنما ينفعهم، ورجل لا يضر الناس ولا ينفعهم، ورجل يضر الناس ولا ينفعهم" (الرواية، ص128).

- "خرج أبو موسى وجارته من الباب الشرقي... وبدأ يتضرع والنساء يرددن من بعده ويطنن من خلفه وكأنه يطوف بقطب في وسط المصلّى ويقول:

سبحان الله العظيم...

اللهم ارحم ضعفنا...

سبحان الله العظيم...

اللهم انظر إليهم...

سبحان الله العظيم...

اللهم ارحم ضعفهم...

وانخرطوا جميعا في ذكر واحد تمتاز له جنات تلك الساحة وهم يرددون لاهجين خاشعين غائبين عن أنفسهم: هو هو، هو هو، هو هو... (الرواية، ص187-188).

- "ولما أذن العصر، رفع أبو موسى يديه اليمنى وفرد بسبابته وقال بأعلى صوته حتى سمعه الجميع: محمد رسول الله" (الرواية، ص189).

- "وطرق الناس على الناس الأبواب ليتراحموا وليتعانقوا ويبكوا ويتدبروا ذلك التجلي العظيم وهم يرددون: الحمد لله، ما يزال في أرض الله سره، الحمد لله الذي أظهر سره" (الرواية، ص191).

تحضر لغة الدعاء، والابتهال، والتضرع، والخضوع، والتوسل، لتعطي للرواية تلونا لغويا، وتظهرها صوفيا، من خلال التركيز على الفكر المناقي الذي تمثله شخصية أبي موسى صاحب الكرامات وجالب الخيرات؛ ويتوسل الكاتب في ذلك بمعجم صوفي مهيم في الرواية: الرؤيا، الوجد، الشطح، الحلول، المناقب، الكرامات، التجلي العظيم، السر...

3.2. التناس الأدبي والتراثي الشعبي:

التناس الأدبي هو "تداخل نصوص أدبية مختارة قديمة وحديثة، شعرا ونثرا مع نص الرواية الأصلي بحيث تكون منسجمة وموظفة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها المؤلف أو الحالة التي يجسدها ويقدمها في روايته"¹. والتناس الأدبي من أنواع التعدد اللغوي، يلجأ إليه الكاتب إثراء للغة النص الروائي ومنحه قيمة فنية وجمالية.

3.2.1. الشعر:

ينضاف الشعر إلى باقي الأجناس التعبيرية المتخللة في رواية «جارات أبي موسى»، ونصادفه في نماذج من التفاعلات الشعرية

¹ أحمد الزعبي، التناس نظريا وتطبيقا، مرجع سابق، ص50.

مع نص الرواية: "وإذا الجورائي ينشد:

رب ورقاء هتوف بالضحي

ذات شجو صدحت في فنن

فبكائي ربما أرقها

وبكاها ربما أرقني

فإذا تبدؤني أسعدها

وإذا أبدؤها تسعدني

ولقد تبكي فما أفهمها

ولقد أبكي فما تفهمني

غير أنني بالشجا أعرفها

وهي أيضا بالشجا تعرفني" (الرواية، ص 16).¹

يورد السارد هذا النص الشعري على لسان الجورائي، دون أن يحيل على صاحبه، لكن الرواية تعود بعد صفحات قليلة، لتخبرنا، على لسان السلطان وهو يخاطب الجورائي، عن صاحب الأبيات الشعرية: "بلغنا لما سمعت الوراق أنك أنشدت، ولكنك ظلمت النوري بحذف بيت من شعره تشاءمت منه، فما ذلك البيت؟" (الرواية، ص 35).

ونلفت النظر إلى أن هذه الأشكال الشعرية الموظفة في «جارات أبي موسى» تخدم اللغة التراثية التي كتبت بها الرواية؛ فالأبيات الشعرية كلها ذات توجه صوفي وروحي واضح، فضلا عن ارتباطها بفضاء الأُنس والحن والطرب: "فإذا شامة تستوي على أريكة وتقوم بتسوية الأوتار وتنقر عليها بصوت كان يعجب كثيرا معلمها الغرناطي في الألحان بدار ابن الحفيد:

قد أكمل الحسن في تركيب صورتها

فارتج أسفلها واهتز أعلاها

قامت تمثني فليت الله صيرني

ذاك التراب الذي مسته رجلاها" (الرواية، ص 37).

إن هذه العناصر الشعرية المتخللة في جسد النص السردية من شأنها أن "تخلع على لغة النص الروائي طابع التجريب الشكلي والوظيفي ضداً على المعيارية ورتابة إيقاع اللغة، لتؤثر من منظور باخтин على تفاعل اللغات وإضاءة بعضها البعض".²

3.2.2 الرسائل:

تسهم الرسالة باعتبارها جنسا أدبيا مميزا لتلك الفترة التاريخية الحاضرة في الرواية؛ "فالتسل نظام أسلوبي وبلاغي، عُدّ - في زمنه - علامة على الرقي الأدبي، في صناعة القول، وهو يحتفل باللغة في أبهى صورها، وأسمى تركيباتها، المعجمية، والأسلوبية، والبلاغية".³ وقد ساهم تضمين المتن الروائي لجنس الرسالة السلطانية، في تكسير نمطية السرد الطولي، وخلق تعددية لغوية تصنع للنص حواريته، من خلال محاكاة الكاتب لنمط الكتابة الترسلية القديمة، مستحضرا نسيجها الأسلوبي وبناءها الفني. ونسوق من الرواية شاهدين:

1- "إلى محبنا العزيز أبي العباس ابن الحفيد قاضي محروسة سلا، السلام عليكم، بوصوله إليك أركب إلينا على عجل من إمائك

¹ الأبيات الشعرية لأبي الحسن النوري، نشأ وعاش في بغداد، وكان من أقران الجنيد، وعرف بعلمه وورعه وزهده.

² سعيد بن الهاني، شعرية التعدد اللغوي في رواية سرايا بنت الغول، مجلة علامات في النقد، السعودية، ج 54، م 14، دجنبر 2004، ص 586.

³ جلول قاسمي، الغائب والغائب الروائي البعد الجمالي في رواية جارات أبي موسى لأحمد التوفيق، مجلة طنجة الأدبية، ع 47، مارس 2013، ص 30.

الحاذقات من نأمنها على خدمة ورقاء. والسلام" (الرواية، ص 26). هي عبارة رسالة قصيرة من القاضي الجورائي إلى ابن الحفيد يطلب فيها خادمة أمينة ترعى زوجته شامة بعد تسميمها ومحاولة قتلها.

2. الشاهد الثاني عبارة عن رسالتين أملاهما الشريف نقيب أهل النسبة في سلا على كاتب العدل؛ الأولى عبارة عن شكاية ضد العامل جرمون الذي سجن علي سانشو وتحرش بزوجه شامة: "إلى السيد التحرير حاجب الحضرة العلية نلتمس منكم إبلاغ العلم السامي أن عامل سلا يتحرش بالمصونة وصيفة المرحومة بكرم الله أرملة والده المعظم السيدة أم الحر، ويتعلق الأمر بأرملة القاضي الأجد الشهيد الجورائي نغمده الله برحمته، وهي تحمل رسم وصية بالحمل على الميرة من السيدة أم الحر زكاه سيدنا بكرمه. وعامل سلا الآن سجن زوجها وهو من الإسلاميين المباركين، ويتآمر لتطبيقها عليه إشباعاً لأطماعه. وبه الإخبار والسلام" «نقيب أهل النسبة الشريفة في سلا وعملها» (الرواية، ص 117-118).

أما الرسالة الثانية فكانت موجهة إلى جرمون عامل سلا، وهذا نصها: "عامل الحضرة العلية على سلا، بعد الدعاء الواجب لسيدنا، نخبرك أن المرأة المسماة شامة بنت العجال الساكنة بفندق الزيت قد لجأت إلى دار الأشراف واستحرمت بأولادنا فرارا من الذعر الذي هالها بسبب سجنك زوجها وإيداعه لدى القاضي. ولقد قبلنا استحرامها رعيًا لما تحول لنا ظهائر سيدنا ووالده ووالد والده، نعمهم الله تعالى من قبيل الحمل على كامل الميرة نحن ومن لجأ إلينا..". (الرواية، ص 118). إن هذه النصوص الترسلية المندمجة مع النص الروائي تهدف إلى خلق تواصل مع حقبة تاريخية وسياسية قديمة، عن طريق استنساخ نماذج المراسلات السائدة آنذاك.

3.2.3. المحكيات الصغرى:

تقدم رواية «جارات أبي موسى» مجموعة من المحكيات الفرعية الصغرى التي تصب في بحر الحكاية الأصلية، ويتعلق الأمر عن حكايات جارت أبي موسى؛ حيث عمد الكاتب إلى تخصيص عدة فصول للرواية (من الصفحة 135 إلى الصفحة 164) لسرد حكاية كل شخصية على حدة: بية، إجاء، ملالة، كبيرة، رقوش، مماس. كما يحرص التوفيق على إيراد مجموعة من المحكيات المتناثرة في تفاصيل الحكاية الأم؛ فننتعرف على قصص بعض شخصيات الرواية: حكاية العجاج صاحب الكرامات، حكاية طمع دحمان في شامة وغيره زوجته، حكاية السلطان المخلوع، حكاية خوليا ابنة بيدرو... حكايات كلها تخدم بنية السرد وتمنح للرواية تعددا في الشخصيات والفضاءات والأحداث، وصراع وجهات النظر، وتصادم الأوعية لمختلف الطبقات الاجتماعية، كما تكشف عن الجانب الاستهوائي في الرواية: الحب، والخيانة، والإخلاص، والصراع، والظلم، والمكائد، والدسائس، وغيره...

3.2.4. التراث الشعبي:

دأب العديد من الروائيين المغاربة على توظيف التراث الشعبي في رواياتهم؛ كونه أحد أشكال التعبير عن الهوية والذاكرة المغربية والعربية الإسلامية؛ مما يجعل للرواية هذه القدرة على إبراز الواقع المحلي والأصيل للمجتمع من حيث تنوعه الثقافي. كما يسهم هذا التوظيف في إثراء لغة الرواية، وتقديم رؤية نقدية للمجتمع، وبالتالي بناء وعيه الاجتماعي والثقافي.

ينفتح نص «جارات أبي موسى» على مجموعة من الأمثال والحكم، وأنواع متعددة من التراث الشعبي؛ بداية بأسماء أعلام الشخصيات التي تحيل على طابعها المحلي العربي والأمازيغي، وكذلك من خلال سرد عادات وتقاليده القبائل المغربية في الطبخ والأكل وأنواع اللباس، وعادات الأعراس، وأشكال العمران والأثاث، وفنون الحلقة، وفنون الغناء والرقص الشعبي، وطقوس الجذبة... وهو ما أعطى الرواية هذا التنوع والتعدد؛ فغدت مثل فسيفساء.

خاتمة:

نخلص إلى أن استثمار أحمد التوفيق للمكون التاريخي، والتراثي، والصوفي قد جعل رواية «جارات أبي موسى» تشبه "فندق الزيت" أحد فضاءاتها المركزية؛ وهو كما تراءى لشامة - الشخصية المحورية في النص أشبه ما يكون، في تنوع من وما فيه، بسفينة سيدنا نوح عليه السلام.

إن لغة الخطاب الروائي في «جارات أبي موسى» تحضر فيها بوليفونية الكتابة، والمظهر الحوارية، وتعدد الأصوات، والفضاءات، وحالات الوعي... مما ولد عالماً تخيلياً استطاع من خلاله أحمد التوفيق تحويل المكونات التراثية إلى مسارات سردية ذات روح كرنفالية تحتفي بالتجربة التاريخية، والصوفية، والفكر المناقبي. كما تمكنت الرواية، وهي ترتدي قناع التاريخ، من توجيه نقد للسلط السياسية والدينية القائمة، ومن تمرير رسائل مجتمعية مختلفة.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
 - المتن الروائي: أحمد توفيق، «جارات أبي موسى»، منشورات دار القبة الزرقاء، مراكش، المغرب، ط2، 2000.
 - الكتب والمجلات:
- ✓ أحمد الزعي، التناص نظريا وتطبيقيا - مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية للتناص في رواية رؤيا لهاشم غرايبة وقصيدة راية القلب لإبراهيم نصر الله، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2011، ص19.
- ✓ باسم صالح حميد، النزعة الحوارية في الرواية، مجلة علامات في النقد، ع51، مارس 2004.
- ✓ بديعة مطهري، ملامح اشتغال التراث في رواية «جارات أبي موسى» لأحمد التوفيق، مجلة الخطاب، الجزائر، ع4، يناير 2009.
- ✓ بدير زبما، النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع النص الأدبي، تر. عايدة لطفي، دار الفكر، ط1، 1991.
- ✓ جان فيرييه، الحوارية، تر. غسان السيد، مجلة نوافذ، السعودية، ع24، يونيو 2003.
- ✓ جلول قاسمي، الغائب والغائب الروائي البعد الجمالي في رواية جارات أبي موسى لأحمد التوفيق، مجلة طنجة الأدبية، ع47، مارس 2013.
- ✓ حليلة وازيدي، سيميائيات السرد الروائي من السرد إلى الأهواء، منشورات القلم المغربي، ط1، 2017.
- ✓ سعيد بن الهاني، شعرية التعدد اللغوي في رواية سرايا بنت الغول، مجلة علامات في النقد، السعودية، ج54، م14، دجنبر 2004.
- ✓ الشرقي نصرأوي:
- الانشعاب المرآوي في الرواية - دراسة سيميائية، مؤسسة الموجة الثقافية، المغرب، ط1، 2023.
 - التخيل الروائي المغربي ودينامية الشكل والمحتوى - تحليل سيميائي، ضمن كتاب التخيل السردى: الدينامية والتصورات، مؤسسة الموجة الثقافية، المغرب، ط1، 2023.
- ✓ عبد اللطيف محفوظ، تمظهرات المعنى في «جارات أبي موسى»، مجلة آفاق، المغرب، ع79-80، أبريل 2000.
- ✓ عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي: البنيات الخطابية التركيب - الدلالة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2002.
- ✓ محمد برادة، التعدد اللغوي في الرواية: تفتيت تجانس النص، تحويل الشكل وتوسيع المتخيل، مجلة مواقف، لبنان، ع69، نونبر 1992.
- ✓ محمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي: التعدد اللغوي والبوليفونية، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2016.
- ✓ ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر. محمد برادة، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1987.

Les droits de l'homme au Maroc entre repère religieux et référentiel juridique international

Dr : Soumaya DADI

Université Mohammed Premier Oujda

Faculté Des Sciences Juridiques Economiques Et Sociales

MAROC

Résumé

Depuis l'intronisation du Roi Mohammed VI, une nouvelle ère en matière de respect et de promotion des droits de l'Homme a été inaugurée. En ce sens, de profondes réformes, normatives et institutionnelles, ont été entreprises dans la perspective de réhabiliter le champ des droits de l'Homme au Maroc. Ces réformes sont pour le moins novatrices et impressionnantes. Elles témoignent de la volonté du Maroc de capitaliser sur les acquis du passé et de parfaire son adhésion au système des droits de l'Homme, tels qu'ils sont universellement reconnus.

Cette politique fut l'objet de mesures concrètes ayant pour objectif la consolidation des droits de l'Homme via l'amélioration continue de leur cadre législatif et le renforcement des institutions œuvrant au respect et à la promotion de la culture des droits de l'Homme. Décidé à clore le dossier des violations des droits de l'Homme, le Maroc a mis en place de nouveaux mécanismes extrajudiciaires, en l'occurrence le processus de justice transitionnelle.

Cette dynamique réformiste trouvera son fondement juridique dans la constitution de 2011, considérée comme le cadre normatif majeur, enrichie par le dispositif international en la matière. Les dispositions de la constitution relatives aux droits de l'Homme (des articles 19 à 40) constituent une véritable charte en la matière et imprègnent l'ensemble du texte constitutionnel.

**LES DROITS DE L'HOMME AU MAROC ENTRE REPERE RELIGIEUX ET
REFERENTIEL JURIDIQUE INTERNATIONAL
DR : SOUMAYA DADI**

Ladite réforme a réaffirmé le choix irréversible du Maroc de construire un Etat de droit démocratique et moderne. La nouvelle loi réaffirme l'adhésion du royaume aux principes et valeurs des droits humains, tels qu'ils sont universellement reconnus, avec la consécration de la primauté des conventions internationales ratifiées par le royaume sur le droit interne, et la garantie à tous les citoyens, individus ou groupes, d'une panoplie de droits, politiques, économiques et sociaux culturels et environnementaux.

Mots-clés : droits socio-économiques, schéma institutionnel, valeurs universelles, processus législatif, supériorité des traités, l'ordre juridique international.

Introduction

La nouvelle loi marque incontestablement un progrès important dans le processus de constitutionnalisation des droits et des libertés en droit marocain. Elle consacre tout un chapitre à la question des libertés et droits fondamentaux et souligne l'engagement du Maroc à respecter les droits de l'Homme à l'échelle universelle. Ce qui était, d'ailleurs, l'une des revendications des ONG et des défenseurs des droits de l'Homme lors de débats qui ont précédé l'adoption de la loi fondamentale.

La consécration des principes des droits de l'Homme n'est pas l'apanage uniquement du deuxième titre de la constitution qui est dédié aux droits et libertés fondamentaux. En fait, au niveau du préambule qui fait désormais partie intégrante de la constitution on peut lire que « *le Royaume du Maroc, membre actif au sein des organisations internationales, s'engage à souscrire aux principes, droits et obligations énoncés dans leurs chartes et conventions respectives, il réaffirme son attachement aux droits de l'Homme tels qu'ils sont universellement reconnus...* » L'attachement aux droits de l'Homme tels qu'ils sont universellement reconnus, déjà introduit dans la constitution de 1996, est réaffirmé dans le nouveau texte. Mieux encore, la loi fondamentale engage le royaume à « *protéger et promouvoir les dispositifs des droits de l'Homme et du droit international humanitaire et contribuer à leur développement dans leur indivisibilité et leur universalité.* »

En ce sens, le Maroc s'engage à protéger les droits de l'Homme aussi bien dans leur universalité que dans leur indivisibilité et à s'inscrire positivement dans la dynamique internationale visant la promotion de la culture des droits de l'Homme sur l'échiquier international.

Dès lors, la question qui se pose est comment le Maroc arabo-musulman, tout en surmontant les contraintes religieuses, historiques, idéologiques et culturelles va respecter l'universalisation des droits de l'Homme ? Comment va-t-il intégrer son ordre juridique interne à cette dimension universelle ?

I/ La place des droits de l'Homme dans la nouvelle constitution

Des garanties sont aussi mises en place, notamment les libertés de circuler et de s'établir sur le territoire national, d'en sortir et d'y retourner, les libertés de création,

de publication et d'exposition en matières, littéraire et artistique et de recherche scientifique et technique, les libertés de réunion, de rassemblement, de manifestation pacifique, d'association et d'appartenance syndicale et politique...autant de mesures, qui confortent l'engagement volontariste et concret du royaume en faveur des droits de l'Homme.

Le souci d'en finir avec les exactions en matière de droits de l'Homme apparaît clairement dans le nouveau texte¹. Les articles 22 à 24 apportent leur lot de nouveautés : condamnation de la pratique de la torture, incrimination de la détention arbitraire, garantie de conditions de détention humaines, proscription de toute incitation au racisme, à la haine et à la violence...

Généralement, la transposition des principes proclamés par le droit international des droits de l'Homme dans l'ordre juridique interne suppose une adaptation au double point de vue c'est -à-dire au point de vue normatif et au point de vue institutionnel. Autrement dit, la promotion et la garantie des droits de l'Homme ne sont acquises que suite à la ratification des traités internationaux et leur constitutionnalisation. Et c'est dans cette perspective que le royaume a opté pour un double processus de constitutionnalisation et d'institutionnalisation ayant pour but le respect des droits de l'Homme, leur promotion et leur protection à l'échelle internationale. D'une part, il a adhéré à la majorité des conventions et pactes internationaux relatifs aux droits de l'Homme, notamment le pacte international relatif aux droits civils et politiques (1977)², le pacte international relatif aux droits économiques, sociaux et culturels (1977), la convention internationale contre la torture et autres peines ou traitements cruels, inhumains ou dégradants(1993), la convention relative aux droits de l'enfant(1993), la convention internationale sur l'élimination de toutes les formes de discrimination raciale(1970), la convention internationale sur l'élimination de toutes les formes de discrimination à l'égard des femmes (1993) et la convention internationale sur la protection des droits des travailleurs migrants et des membres de leur famille(1993). D'autre part, il a

¹ Al Bayane, *La promotion des droits de l'Homme au Maroc*, 19/12/2012.

¹ Le Matin, *Une constitution de droits et de libertés*, le 29/06/2011

² Le Maroc a signé le pacte international relatif aux droits civils et politiques le 19 janvier 1977, il l'a ratifié le 03 Mai 1979. Cependant, il n'a toujours pas signé les deux protocoles facultatifs **se rapportant au pacte**.

inauguré un cycle de réformes ayant pour but d'harmoniser sa législation interne avec les normes internationales des droits de l'Homme, tout en mettant en place un certain nombre d'institutions censées veiller au respect de ces droits, à leur promotion et à leur protection.

Dans ces conditions, l'Etat s'est porté garant de l'effectivité des droits de l'Homme, et a reconnu dans divers textes législatifs la place prépondérante du référentiel juridique international qui prévoit, entre autres, l'obligation pour le pays membre de s'acquitter de ses engagements découlant du caractère impératif de la norme conventionnelle. Bien que le Maroc, n'ait pas opté ouvertement –au niveau constitutionnel– pour le monisme avec primauté du droit international.

Cependant, et sous l'hypothèse d'une nécessité réelle pour les ordres juridiques internes de déterminer la place occupée du droit international dans l'ordre interne, la question de la hiérarchisation est par la majorité des Etats, considérée comme étant de nature constitutionnelle. Il appartenait, donc, à la constitution de décider, pour l'ordre juridique qu'elle constitue, de la position hiérarchique du droit international¹.

Dans ce sens, la constitution de 2011 innove et figure comme le fondement juridique de l'approche du Royaume en matière de respect et de promotion des droits de l'Homme et mérite à juste titre le statut de véritable charte des droits et libertés. Il s'agit d'un constat qui ne souffre d'aucune ambiguïté : la place du référentiel juridique international dans l'ordre juridique interne est expressément affirmée par la loi fondamentale qui prévoit l'obligation de respect des conventions internationales auxquelles le Maroc est parti, et l'harmonisation de sa législation interne avec les conventions internationales y afférentes.

La question maintenant est de savoir jusqu'à où la constitution de 2011 va garantir l'effectivité des droits de l'Homme ? Et dans quelle mesure a-t-elle réussi à confirmé la suprématie du droit conventionnel ? Et à inscrire les efforts du Royaume dans des pratiques et standards en cours dans les pays réputés respectueux des droits de l'Homme et des libertés fondamentales ?

¹ M.A. Benabdellah, *Les traités en droit marocain*, REMALD, n° 94, septembre–octobre 2010, p. 3. Disponible sur : http://aminebenabdallah.hautetfort.com/list/droit_constitutionnel/474792210.pdf.

1/ La place prépondérante du référentiel juridique international

Tout d'abord, en faveur de la supériorité du droit international on peut invoquer un argument tiré de la logique juridique même. Comme l'a remarqué Michel Virally, la supériorité du droit international : *« est inhérente à la définition même de ce droit et s'en déduit immédiatement. Tout ordre juridique confère aux destinataires de ses normes des droits et pouvoirs juridiques... ; il leur impose des obligations, qui les lient. Par là même, tout ordre juridique s'affirme supérieur à ses sujets, ou bien il n'est pas... Le droit international est inconcevable autrement que supérieur aux Etats, ses sujets. Nier sa supériorité revient à nier son existence. »*¹

C'est Hans Kelsen qui a expliqué de la façon la plus claire la thèse de la supériorité des normes du droit international sur les normes constitutionnelles². Selon Kelsen, *« si l'on part de l'idée de la supériorité du droit international aux différents ordres étatiques..., le traité international apparaît comme un ordre juridique supérieur aux Etats contractants. »*³ De ce point de vue, dit-il, le traité a vis-à-vis de la loi et même de la constitution une prééminence, en ce qu'il peut déroger à une loi ordinaire ou constitutionnelle, alors que l'inverse est impossible. D'après les règles du droit international, un traité ne peut perdre sa force obligatoire qu'en vertu d'un autre traité ou de certains autres faits déterminés par lui, mais non pas par un acte unilatéral de l'une des parties contractantes, notamment par une loi. Si une loi, même une loi constitutionnelle, contredit un traité, elle est irrégulière, à savoir contraire au droit international.

¹ Michel Virally, *Sur un pont aux ânes : les rapports entre droit international et droits internes*, Mélanges offerts à Henri Rolin, Paris. Editions. A. Pédone, 1964, p.497.

² Cette théorie est exposée par l'Ecole normativiste autrichienne ; Kunz, Kelsen, Verdross et, en France par Duguit, Scelle, Politis, Bourquin, Le Fur, Pillet : le droit interne dérive du droit international et le droit international est supérieur au droit interne qu'il conditionne.

³ Hans Kelsen, *La garantie juridictionnelle de la Constitution : la justice constitutionnelle*, Revue du droit public, 1928, p.211.

Elle va immédiatement contre le traité, médiatement contre le principe *pacta sunt servanda*¹. Ainsi, le droit international, si l'on en suppose la primauté, peut constituer un mètre de la régularité de toutes les normes étatiques, y compris la plus élevée d'entre elles, la constitution². Le professeur Dominique Carreau adopte la même position et note que la supériorité du droit international sur le droit interne est un principe intégralement reconnu au niveau international, ce principe de supériorité signifie que le droit international l'emporte sur l'ensemble du droit interne, qu'il s'agisse des normes constitutionnelles, législatives, réglementaires ou des décisions judiciaires³.

À vrai dire, sur le plan technique, l'efficacité d'un traité international dépend de sa valeur vis-à-vis du droit interne, c'est-à-dire de la supériorité de ses normes en cas de conflit avec les dispositions de l'ordre juridique interne. À cet égard, le droit international prévoit qu'aucun Etat partie membre d'un traité ne peut invoquer les dispositions de son droit interne pour justifier la non application des dispositions dudit traité⁴. Bien plus, en pure logique et du point de vue de l'éthique internationale, tout Etat qui adhère librement à un traité ne doit en aucune façon considérer que sa signature n'est qu'un engagement moral sans conséquences juridiques⁵.

Partant de cette conception moniste, tous les Etats doivent reconnaître formellement la supériorité du droit international et son caractère obligatoire. Or, comme le constate le professeur Dominique Carreau, « *une telle solution, la seule logique, est loin d'être généralisée*⁶. » En effet, bien que la pratique arbitrale et judiciaire dans divers pays confirme le principe de la supériorité des normes de droit international sur celles de la loi, peu de constitutions, acceptent la valeur supra constitutionnelle des traités.

¹Pacta Sunt Servanda, est une règle selon laquelle les accords internationaux doivent être appliqués de bonne foi par ceux qui les ont conclus.

² Hans Kelsen...Op, cit, p.212.

³ Dominique Carreau, *Droit international*, Paris. Pédonne, 3e édition, 1991, p.42.

⁴ L'article 27 de la Convention de Vienne sur le droit des traités, précise qu'aucune partie ne peut invoquer les dispositions de son droit interne comme justifiant la non-exécution d'un traité.

⁵ M.A. Benabdallah... Op, cit.

⁶ Dominique Carreau...Op, cit, p.51.

Au sens large, les rapports du droit international et des normes internes, se placent sous le signe d'une certaine ambiguïté. Malgré une valeur incontestablement supra-législative reconnue au droit international¹, le rapport juridique entre les normes en question s'inscrit dans un débat traditionnel loin d'être tranché où s'opposent deux prémisses dogmatiques : le monisme et le dualisme. Au centre de ce désaccord se trouve une conception différente des notions de la source de droit interne et international et des sujets du droit international. Je ne pourrai pas entrer dans ce débat qui dépasse largement le cadre limité de ma recherche. Je noterai seulement que la situation actuelle du droit international relève du paradoxe : alors, en effet, que le principe de sa supériorité est intégralement reconnu au niveau international, il ne continue à l'être que de façon inégale et partielle au niveau du droit interne des Etats.

De même, les modalités adoptées, pour rendre les traités supérieurs aux lois nationales varient selon les Etats. Certaines constitutions reconnaissent la supériorité des traités, mais exigent l'adoption de lois spécifiques pour donner à un traité international, même s'il a été ratifié, force de loi nationale. D'autres ne reconnaissent la primauté des conventions internationales que pour les lois antérieures à leur adoption alors que les lois postérieures restent supérieures aux règles des traités.

Dans le cas du Maroc, avant 2011, la question de la constitutionnalisation du droit international relatif aux droits de l'Homme suscitait deux attitudes contradictoires. D'un côté, une attitude qui affirmait que la constitutionnalisation des droits de l'Homme était acquise dès la révision de la constitution de 1992 confirmée en 1996. De l'autre côté, on soulignait que le préambule de la constitution, où ces droits ont été consignés, n'avait pas une valeur juridique égale au texte constitutionnel lui-même. La consécration des droits de l'Homme était, de ce fait, incomplète juridiquement, et les rapports droits internes et droit international n'étaient pas clarifiés. Le justiciable et le juge marocain ignoraient s'ils pouvaient invoquer le droit conventionnel contre l'Etat, tant que le droit positif ne

¹Frédéric Rouvillois, *La situation ambiguë du droit international*, Le Droit constitutionnel.2. La V^e République. Editions. Flammarion, 2009, p.336.

reconnaissait pas explicitement la primauté du droit international sur le droit interne.

Cette ambiguïté faisait régulièrement l'objet de dialogue entre les différents organes des traités et le Maroc¹. Elle contraste avec la pratique constitutionnelle suivie dans d'autres pays où les conventions internationales occupent une place de choix dans l'ordre juridique interne. Il faut signaler que la majorité des constitutions européennes prennent position de manière expresse sur cette question, à titre d'exemple, l'article 55 de la constitution française déclare : « *Les traités ou accords régulièrement ratifiés ou approuvés, ont dès leur publication une autorité supérieure à celle des lois, sous réserve pour chaque accord ou traité de son application par l'autre partie.* » De même, l'article 59 de la constitution allemande stipule que « *les règles générales du droit international public...sont supérieures aux lois...* » L'article 10 de la constitution italienne du 27 décembre 1947 précise que « *l'ordre juridique italien se conforme aux règles du droit international généralement reconnues.* » Sur le plan régional, la constitution tunisienne dispose dans son article 32 que : « *Les traités régulièrement ratifiés priment les lois, sous réserve de leur application par l'autre partie.* » Les constitutions algérienne et mauritanienne adoptent la même position².

Dans ce sens, on peut dire que parmi les nouveautés les plus importantes introduites par la constitution de 2011 est d'avoir clarifié cette question répondant ainsi aux demandes et revendications du mouvement des droits de l'Homme et des droits des femmes depuis plusieurs années³. En effet, le préambule de la constitution préconise « *d'une part, que le Royaume du Maroc accorde aux conventions internationales dûment ratifiées par lui, dans le cadre des dispositions de la constitution et des lois du Royaume, dans le respect de son identité nationale immuable, et dès la publication de ces conventions, la primauté sur le droit interne*

¹ Lors de l'examen périodique universel (EPU) de 2008, dans le cadre du Conseil des Droits de l'Homme, le Maroc a été interpellé sur le statut des instruments internationaux relatifs aux droits de l'homme (notamment la convention CEDEF) par rapport aux lois nationales, Rapport du GT sur l'EPU Maroc, Conseil des droits de l'homme, A/HRC/8/22- 22 Mai 2008.

² Article 123 de la constitution algérienne révisée en 1996, et l'article 80 de la constitution mauritanienne de 1991.

³ Les recommandations de l'Instance Equité et Réconciliation font également mention de la nécessité d'accorder aux conventions internationales relatives aux DH la primauté sur le droit interne.

du pays ; d'autre part, que le législateur a l'obligation d'harmoniser en conséquence les dispositions pertinentes de sa législation nationale avec ces conventions.»

A travers ces dispositions, la constitution renforce le caractère contraignant du respect par le Maroc de ses engagements internationaux en matière des droits de l'Homme. Dans ce nouveau contexte, le présent travail, se propose d'étudier la nouvelle situation des droits de l'Homme au Maroc, l'impact de la reconnaissance de la primauté du droit international des droits de l'Homme sur le droit interne et le processus législatif très important qui va s'enclencher dans ce domaine.

2/ Impact de la reconnaissance de la primauté du droit conventionnel

L'impact du droit international sur le droit interne qui sera traité dans cette section est déclenché non pas par le contenu matériel du premier, mais par l'existence même de celui-ci, c'est-à-dire l'existence de normes extra-Etatiques qui force l'Etat à assurer la mise en œuvre des obligations imposées par ces normes et, de ce fait, l'ordre juridique interne de choisir la façon dont il va se comporter vis-à-vis du droit international.

Dans ce cadre, la question de la hiérarchie du droit international dans l'ordre interne a été un des défis principaux auxquelles le constituant marocain s'est vu confronté. Le nécessaire alignement du royaume sur le droit international a exigé de lui non seulement une simple souscription aux principes énoncés par les chartes et conventions internationales, mais aussi une harmonisation de sa loi fondamentale avec les standards internationaux en la matière.

La constance du Maroc à accorder une place éminente aux instruments internationaux relatifs aux droits de l'Homme, et l'applicabilité du principe de la primauté de ces instruments a impliqué une garantie constitutionnelle d'un système de valeurs, de droits et libertés fondamentaux incluant à la fois le droit international humanitaire, les droits de la première génération, de la deuxième génération, mais aussi de la troisième génération¹élevant ainsi le Maroc au rang de « modèle référentiel » dans une aire géopolitique en pleine transformation.

¹ L'article 31 stipule que « l'Etat, les établissements publics et les collectivités territoriales œuvrent à la mobilisation de tous les moyens à disposition pour faciliter l'égal accès des citoyennes et des citoyens aux conditions leur permettant de jouir du droit aux soins de santé, à la protection sociale...à un logement décent, à une éducation moderne, à

La nouvelle constitution marocaine reconnaît la suprématie des textes internationaux sur le droit national. Ce nouvel engagement de l'Etat est affirmé par le préambule, qui fait désormais partie intégrante de la constitution. En effet, le pays ne peut en aucun cas invoquer des dispositions de son droit interne afin de se soustraire à ses obligations internationales puisque le Maroc est partie à la convention de Vienne sur le droit des traités (1969) en vertu de laquelle une partie contractante ne peut invoquer les dispositions de son droit interne pour justifier la non-exécution d'un traité.

Le nouveau texte constitutionnel est venu élargir considérablement le champ des libertés. La loi fondamentale de 1996 était en effet relativement pauvre en matière de reconnaissance et de garantie des droits et libertés fondamentaux, ces derniers ne faisant l'objet que d'une poignée d'articles. Avec la nouvelle version ce sont plus de vingt articles qui se réfèrent à des droits et libertés fondamentaux, et une importance considérable est donnée à la dignité humaine.

Le titre II, « *Libertés et droits fondamentaux* » explicite ainsi les intentions du préambule, mais le souci du respect des droits et libertés fondamentaux se retrouve tout au long du texte, et dès l'article 7 qui stipule que « *Les partis politiques ne peuvent être fondés sur une base religieuse, linguistique, ethnique ou régionale, ou, d'une manière générale, sur toute base discriminatoire ou contraire aux droits de l'Homme.* »

Le texte constitutionnel et dès le préambule énonce en quelque sorte, énonce donc une charte des droits et libertés collectives et individuelles fondamentales, qui sont garanties même durant l'état d'exception (article 59 alinéa 3). Le texte consolide les libertés et garantit les droits humains incluant droits civils, politiques, économiques, sociaux, culturels et environnementaux.

A/ Les droits civils et politiques

Concernant les principaux droits civils et politiques reconnus par le texte, nous retrouvons l'égalité des droits et libertés entre hommes et femmes en matière civile, politique, économique, sociale, culturelle et environnementale (article 19), droit à

l'accès à l'eau et à un environnement sain. Ce même article souligne cette notion de « solidarité intergouvernementale » qui est au centre des droits de la troisième génération.

la vie (article 20), droit à la sécurité des personnes, de leurs proches et de leurs biens (article 21), protection de l'intégrité physique et morale de la personne (article 22), la détention arbitraire ou secrète ainsi que la disparition forcée sont prohibées (article 23), garantie de la présomption d'innocence et du droit à un procès équitable (article 23), et protection de la vie privée et inviolabilité du domicile (article 24). D'ailleurs, l'on retrouve des dispositions similaires dans le nouveau titre VII « Du Pouvoir Judiciaire », la présomption d'innocence à l'article 119, ou encore le procès équitable à l'article 120.

La mouture 2011 enrichit ce panel de nouvelles libertés et droits fondamentaux pour rajouter la liberté de pensée, mais aussi les libertés de création, de publication et d'exposition en matière littéraire et artistique et de recherche scientifique (article 25). La loi suprême du pays ne pose aucune barrière ou limite à l'octroi de ces libertés. Même la liberté de la presse fait également son entrée dans la nouvelle constitution. Une avancée importante, même si le texte encadre cette liberté par les « limites expressément prévues par la loi » et évoque des « règles juridiques et déontologiques » (article 28). Autre droit fondamental ; le droit d'accéder à l'information détenue par l'administration publique, les institutions élues et les organismes investis d'une mission de service public (article 27).

Ce droit devrait théoriquement révolutionner la notion de service public ou administratif dans l'esprit des citoyens. Sont garanties aussi, les droits de réunion, de rassemblement, de manifestation pacifique, de grève, d'association et d'appartenance syndicale et politique (article 29). Outre les nationaux, les étrangers jouiront des libertés fondamentales reconnues aux citoyens marocains. Ceux d'entre eux qui résident au Maroc peuvent participer aux élections locales en vertu de la loi, de l'application de conventions internationales ou de pratiques de réciprocité.

B/ Les droits socio-économiques

La nouvelle loi a réservé une place importante aux droits socio-économiques, confirmant le signe d'ouverture du Maroc sur le droit international. En matière économique, le Maroc a manifesté son intérêt à une ouverture économique à l'international à travers son adhésion à l'OMC, la signature de plusieurs accords de libre-échange et d'intégration économique avec notamment des pays arabes, la

Turquie, les Etats-Unis et surtout l'obtention du « statut avancé » avec l'Union Européenne¹.

Cette ouverture avec des pays de niveau de développement différents a exigé de lui une convergence, à court terme, de son droit avec les normes internationales répandues dans plusieurs domaines, notamment ceux liés aux droits socio-économiques. Plusieurs chantiers de réformes ont été engagés ; des incitations à l'investissement, des libéralisations des marchés, de la réforme du code du travail, de la mise en place de l'Instance Centrale de Prévention de la Corruption, de la revalorisation des missions du Conseil de la Concurrence, etc. Poursuivant sa politique d'ouverture commerciale, le royaume reconnaît dans sa nouvelle loi fondamentale, le droit de propriété, la liberté d'entreprendre, la libre concurrence ainsi que l'égalité des chances (article 35) et la sanction des infractions financières (article 36). Afin d'instaurer un climat des affaires, économiquement sain, la constitution insiste dans son article 36 sur la nécessité de réprimer les infractions liées aux conflits d'intérêts, délits d'initiés ou toute infraction financière.

En vertu de cet article, les pouvoirs publics sont tenus de prévenir et réprimer, conformément à la loi, toutes formes de délinquance liées à l'activité des administrations et des organismes publics, à l'usage des fonds dont ils disposent, à la passation et à la gestion des marchés publics. Ce caractère préventif est nouveau dans le droit marocain en ce qui concerne la gestion des affaires publiques.

En matière sociale, les apports constitutionnels concernent les droits à l'éducation, au travail, au logement et à la santé...Il s'agit tels que stipulés dans l'article 31 de droits : *« aux soins de santé; à la protection sociale, à la couverture médicale et à la solidarité mutualiste ou organisée par l'Etat; à une éducation moderne, accessible et de qualité; à l'éducation sur l'attachement à l'identité marocaine et constante marocaines immuables; à la formation professionnelle et à l'éducation physique et artistique; à un logement décent; au travail et à l'appui des pouvoirs publics en matière de recherche active d'emploi ou d'auto-emploi; à*

¹ Le 13 octobre 2008, un document conjoint sur le statut avancé a été adopté, orientant le Royaume du Maroc et l'Union Européenne, vers un partenariat redéfinissant les paramètres des relations bilatérales, consolidant les relations économiques et commerciales en perspective de l'établissement d'un Espace Economique Commun et renforçant l'appui financier de l'UE aux efforts entrepris par le Royaume aux niveaux politique, économique et social.

l'accès aux fonctions publiques selon le mérite ». Ce même article souligne la notion de solidarité intergénérationnelle qui est au centre des droits de la troisième génération à l'exemple du développement durable et de l'accès à l'eau et à l'environnement sain¹.

Ces nouveaux droits, ayant caractère social, culturel et environnemental font partie des droits humains fondamentaux universellement stipulés et reconnus par des traités internationaux, régionaux et plusieurs constitutions nationales. La protection de ces droits découle, pour l'essentiel, de la Déclaration Universelle des Droits de l'Homme et du pacte international relatif aux droits économiques, sociaux et culturels. Elle découle également des conventions internationales assurant la protection de certaines catégories vulnérables en raison soit de leur âge, soit de leur sexe ou encore de leur handicap physique ou mental. Elle résulte enfin des textes spécialisés se rapportant aux domaines d'intervention de chacun de ces secteurs concernés par l'étude, telle que la constitution de l'Organisation Mondiale de la Santé (OMS), la constitution de l'Organisation Internationale du Travail (OIT), de la convention sur la diversité biologique, du protocole de Kyoto...

Dans le domaine de l'éducation, la déclaration universelle des droits de l'Homme, fait allusion au rôle de l'éducation et l'article 26 énonce, en termes généraux, les droits à l'éducation qui seront détaillés en 1966 dans le pacte international relatif aux droits économiques, sociaux et culturels².

En matière d'emploi, parmi les conventions les plus significatives, il y a le pacte international des droits économiques, sociaux et culturels qui reconnaît le droit à toute personne de jouir de conditions de travail justes, le droit de s'affilier et d'exercer librement les activités syndicales et le droit à la sécurité sociale. Dans le même ordre d'idées, le pacte cible les catégories les plus vulnérables et précise, l'égalité des droits entre les hommes et les femmes en matière de rémunération et d'accès à l'emploi. Il précise aussi les mesures pour soutenir l'accès des jeunes à l'emploi, insiste sur la protection des enfants et des adolescents contre l'exploitation

¹ Thierry Rambaud, *La garantie des droits et libertés dans la constitution marocaine de 2011*, La nouvelle constitution du Royaume du Maroc, Etudes sélectionnées, REMALD, Collection Thèmes actuels n°82, 2013, p.157.

² Décennie des Nations Unies pour l'éducation en vue du développement durable. Disponible sur : www.pnud.org.ma/PDF/etudedesc-vf.pdf.

économique et sociale, la non-discrimination à l'égard des personnes âgées, des personnes handicapées et des travailleurs migrants¹.

De même, l'OIT insiste dans sa convention n°111 sur le rôle des Etats dans l'adoption des politiques nationales visant à promouvoir l'égalité de chance et de traitement en matière d'emploi². Dans ce cadre, le Maroc a adhéré à la convention n°100 sur l'égalité de rémunération, à la convention n°30 sur la durée du travail, à la convention n° 138 relatives à l'âge minimum d'admission au travail, ainsi qu'à la convention n°182 sur l'élimination des pires formes de travail des enfants.

Concernant la santé, le droit à la santé a été pour la première fois proclamé par l'Organisation Mondiale de la Santé (OMS), ensuite réaffirmé par la Déclaration Universelle des Droits de l'Homme qui mentionne dans son article 25 que « *Toute personne, a droit à un niveau de vie suffisant pour assurer sa santé, son bien-être...* »

Le pacte international des droits économiques, sociaux et culturels reconnaît, quant à lui, le droit à la santé comme étant un droit individuel et inaliénable. Cette reconnaissance se révèle dans l'article 12 du pacte en ces termes : « *les Etats parties au présent pacte reconnaissent le droit à toute personne de jouir du meilleur état de santé physique et mentale qu'elle soit capable d'atteindre.* » Pour l'essentiel, ce texte ramène le droit à la santé à l'existence de quatre éléments interdépendants et essentiels : disponibilité en quantité suffisante des services et soins de santé, accessibilité aux soins comprenant la non-discrimination, l'accessibilité physique, l'accessibilité économique et l'accessibilité de l'information, acceptabilité en termes de respect de l'éthique médicale et des valeurs culturelles et enfin bonne qualité de soins.

Quant au logement, il ne fait pas l'objet d'un article spécifique du pacte, mais l'article n° 11 y fait référence à travers le « *droit de toute personne à un niveau de vie suffisant pour elle-même et pour sa famille, y compris une nourriture, un vêtement, et un logement suffisant, sans aucune discrimination, ainsi qu'une*

¹ Contenu du pacte, disponible sur : http://treaties.un.org/pages/ViewDetails.aspx?src=TREATY&mtdsg_no=IV-3&chapter=4&lang=fr.

² Convention n° 111 concernant la discrimination (emploi et profession) de 1958. Disponible sur le site de l'Organisation Internationale du Travail : http://www.ilo.org/dyn/normlex/fr/f?p=NORMLEXPUB:12100:0::NO::P12100_ILO_CODE:C111.

amélioration constante de ses conditions de vie d'existence. » Ces objectifs sont évalués à travers plusieurs indicateurs se rapportant à la sécurité légale de l'occupation, l'existence de services, équipements et infrastructures, habitabilité, facilité d'accès, respect du milieu culturel et capacité de paiement.

Enfin, pour l'environnement, la déclaration de Rio sur l'environnement et le développement (1992), la Convention-Cadre des Nations Unies sur les changements climatiques et le protocole de Kyoto¹, sont considérés comme les documents clés concernant le développement durable et la protection de l'environnement. Ils poursuivent les mêmes objectifs visant la sensibilisation des gouvernements sur les questions environnementales et l'adoption des politiques publiques visant la réalisation de l'équilibre entre le développement durable et la protection de l'environnement des générations présentes et futures. La responsabilité des pouvoirs publics est de créer les bonnes conditions et l'environnement socioéconomique qui favorisent l'accès aux droits au plus grand nombre et de faciliter par des dispositifs réglementaires et institutionnels ainsi que par des mécanismes financiers, l'accès à ces mêmes droits aux groupes les plus vulnérables.

La voie utilisée dans la constitution est une voie active qui demande clairement aux pouvoirs publics d'associer les instances concernées par une politique donnée dans sa conception et sa mise en œuvre. Cette même voie active, incite les pouvoirs publics à favoriser l'identification des parties concernées et les aider à se structurer pour s'impliquer dans un débat démocratique et transparent. La même incitation concerne les pouvoirs publics à tous les niveaux nationaux et régionaux (article 139). Dans cette nouvelle optique, plusieurs conseils consultatifs ont été créés ou constitutionnalisés.

II/ Reconnaissance constitutionnelle des instances de la promotion des droits de l'Homme :

La promotion et la protection des droits de l'Homme ont toujours été une exigence sociale constante, et la mise en place d'organismes compétents en la

¹Le protocole de Kyoto est un traité international visant à la réduction des émissions de gaz à effet de serre. Signé le 11 décembre 1997 lors de la 3^e Conférence des Parties à la Convention (COP 3) à Kyoto, au Japon, il est entré en vigueur le 16 février 2005.

matière a toujours fait l'objet d'un débat soutenu quant à leur nature, leur fonction, leur efficacité et leur impact. L'évolution vers l'Etat de droit a par ailleurs connu une avancée significative avec l'adoption de la constitution de juillet 2011 qui consacre le principe de séparation des pouvoirs, établit les mécanismes essentiels soutenant l'indépendance de la justice et garantit l'exercice des principales libertés publiques ainsi que la constitutionnalisation de plusieurs conseils et institutions.

Cette évolution constitutionnelle s'est accompagnée également d'une mutation institutionnelle importante sous forme de l'érection en organes constitués d'une série d'instances indépendantes ayant vocation à assurer le contrôle ou l'observation des services publics et à rapporter annuellement au parlement.

1/ Conseil National des Droits de l'Homme

La réforme opérée par le Dahir, étendant le mandat de l'institution, ouvrant plus largement sa composition à la société civile, amplifiant ses compétences de protection, et organisant sa régionalisation, reflète un saut qualitatif qui situe désormais le CNDH parmi les quelques institutions exerçant la plénitude des fonctions dévolues par les Principes de Paris¹.

Le dispositif national de promotion et protection des droits humains a par ailleurs été complété par la création, par décret² du 11 avril 2011, d'une délégation interministérielle aux droits de l'Homme (DIDH), qui représente l'homologue gouvernemental du conseil national. La DIDH est chargée d'élaborer et de mettre en œuvre, en coordination avec les départements ministériels et organismes concernés, la politique gouvernementale en matière de défense, de protection et de promotion des droits de l'Homme et du droit international humanitaire³.

Elle dispose par ailleurs d'une compétence d'attribution en matière de concours à la préparation et à la présentation des rapports nationaux aux organes des traités

¹ Principes concernant le fonctionnement des institutions nationales pour la protection et la promotion des droits de l'Homme. Ces recommandations, ont été approuvées par la commission des droits de l'Homme en 1992, et par l'Assemblée générale : résolution A/RES/48/134 du 20 décembre 1993.

² Décret n° 2-11-150 du 7 Joumada I 1432 (11 avril 2011) portant création d'une délégation interministérielle aux droits de l'Homme et fixant ses attributions et son organisation. Publié au Bulletin officiel n° 5936 du 17 Joumada I 1432 (21-4-2011).

³ Texte du décret disponible sur : http://www.ilo.org/wcmsp5/groups/public/---ed_protect/---protrav/---ilo_aids/documents/Legal_document/wcms_186086.pdf.

des droits de l'Homme. Elle aura enfin vocation à assurer le suivi et la coordination du Plan d'action national pour la démocratie et les droits de l'Homme (PANDDH), préparé avec le concours de l'Union Européenne et dont les objectifs se rapportent à la coordination de l'action gouvernementale dans le domaine de la diffusion, de la promotion et de la consolidation de la culture des droits de l'Homme, au lancement d'actions ou d'initiatives de nature à impulser la dimension des droits de l'Homme dans les politiques publiques¹.

Après la dissolution du CCDH et la mise en place du Conseil National des Droits de l'Homme (CNDH), l'on peut s'interroger sur la nature de cette nouvelle institution, sur ses attributions, sur sa composition, sur l'enjeu de sa constitutionnalisation et sur sa valeur ajoutée, en comparaison avec le CCDH.

Le CNDH est une institution nationale pluraliste et indépendante, chargée de connaître de toutes les questions relatives à la défense et à la protection des droits de l'Homme et des libertés, à la garantie de leur plein exercice et à leur promotion, ainsi qu'à la préservation de la dignité, des droits et des libertés individuelles et collectives des citoyennes et citoyens, et ce, dans le strict respect des référentiels nationaux et universels en la matière² (article 161 de la constitution).

Le Dahir n°1-11-19 du 1^{er} mars 2011 portant création du CNDH apporte un changement important, tant au niveau de la structuration de ce conseil qu'au niveau de la langue adoptée, en comparaison avec le Dahir n° 1.00.350 du 10 avril 2001 portant réorganisation du CCDH.

Le Dahir a consacré 12 articles au domaine de la promotion des droits de l'Homme dont le contenu se rapporte à l'élargissement du champ d'intervention du conseil en matière d'adaptation des législations nationales avec les instruments internationaux des droits de l'Homme, en dotant le conseil de la compétence de présenter toutes les recommandations qu'il juge appropriées à cet égard au gouvernement et au parlement; la promotion des principes et des règles du droit international humanitaire et l'accompagnement de leur consécration à travers le suivi, la coordination, la communication, la sensibilisation et le développement des

¹ Présentation de la DIDH, disponible sur le site du ministère des affaires étrangères et de la coopération.

² La constitutionnalisation du CNDH, *capitaliser les acquis et ouvrir les nouvelles perspectives*, disponible sur : <http://www.ccdh.org.ma/spip.php?article6434>.

relations de coopération, de partenariat et d'échange d'expérience et d'expertise avec les instances concernées par les questions des droits de l'Homme sur le plan national et international, et notamment les autorités publiques et les associations de la société civile; ainsi que la contribution du conseil aux programmes d'éducation, de formation dans le domaine des droits de l'Homme; la consécration de la transparence et du droit à l'information à travers la possibilité donnée au conseil de publier ses documents et de présenter son rapport sur l'état des droits de l'Homme devant les deux chambres du parlement en session plénière. De plus, le conseil soumet, sans condition, des propositions ainsi que des rapports spéciaux et thématiques au Roi¹.

Il pourra aussi agir en amont avec la mise en place de mécanismes d'alerte et de médiation pour éviter d'éventuelles violations en la matière. Sur le plan législatif, le conseil est chargé d'étudier l'harmonisation des textes et règlements en vigueur au Maroc avec les traités internationaux. Il devra d'ailleurs inciter le gouvernement à poursuivre l'application de leurs recommandations. Quant au relais avec la société civile lui aussi est désormais du ressort du ce conseil chargé d'enrichir les débats sur les droits de l'Homme et la démocratie au Maroc. Un relais prolongé avec les ONG internationales et les organisations des Nations Unies. Pour cela, le CNDH organisera forums nationaux et internationaux à l'occasion desquels sera décerné le Prix national des droits de l'Homme.

2/ Le Médiateur

La constitution dans son article 162 définit le Médiateur comme une institution nationale indépendante et spécialisée qui a pour missions, dans le cadre des rapports entre l'administration et les usagers, de défendre les droits, de contribuer à renforcer la primauté de la loi et à diffuser les principes de justice et d'équité, et les valeurs de moralisation et de transparence dans la gestion des administrations, des établissements publics, des collectivités territoriales et des organismes dotés de prérogatives de la puissance publique. Contrairement à Diwan Al Madhalim, le

¹ Le matin, *Les nouvelles attributions du CNDH*, le 05/03/2011.

Médiateur a été érigé en force de proposition pour renforcer les principes de bonne gouvernance dans la gestion des services publics¹.

C'est le Dahir n° 1-11-25² du 17 Mars 2011 qui a créé l'institution du Médiateur. Conformément à ce Dahir, l'institution du Médiateur sera chargée d'assurer la protection des droits des usagers des services publics. Elle veillera également à promouvoir une communication efficiente, entre d'une part, les personnes qu'elles soient physiques ou morales, marocaines ou étrangères, agissant à titre individuel ou collectif, d'autre part, les administrations publiques, les collectivités locales, les établissements publics, les organismes dotés de prérogatives de la puissance publique ainsi que toutes autres entreprises et organismes soumis au contrôle financier de l'Etat.

Le Médiateur est chargé d'instruire, soit de sa propre initiative, soit sur plaintes ou doléances dont il est saisi, les cas qui porteraient préjudices à des personnes physiques ou morales, marocaines ou étrangères en raison de tout acte de l'administration, qu'il soit une décision implicite ou explicite, une action ou une activité, considéré contraire à la loi, notamment lorsqu'il est entaché d'excès ou d'abus de pouvoir, ou contraire aux principes de justice et d'équité. Par ailleurs, l'instance aura le pouvoir de mener des enquêtes et des investigations. Des démarches de médiation et de conciliation seront engagées. Elle est habilitée à proposer des poursuites disciplinaires ou à saisir le parquet. De même, elle sera amenée à faire des recommandations relatives à l'assistance judiciaire à apporter notamment aux personnes les plus démunies et à celles en situation de précarité.

3/ Conseil de la Communauté Marocaine à l'Etranger

Institution nationale consultative placée auprès du roi, le Conseil de la Communauté Marocaine à l'Etranger a été créé par Dahir³ en décembre 2007, et constitutionalisé à l'occasion de la réforme constitutionnelle. Conformément à ce Dahir, a pour attributions d'émettre des avis sur les avant-projets de textes législatifs

¹ Le matin, *M.Benzakour : la constitutionnalisation de l'institution du Médiateur consacre son indépendance*, le 26/09/2011.

² Le Dahir n° 1- 11-25 du 12 Rabii II 1432 (17 mars 2011).

³ Dahir n° 1-07-208 du 10 hijra 1428 (21 décembre 2007) portant création du Conseil de la communauté marocaine à l'étranger. Publié au bulletin officiel n° 5602 du 7 février 2008.

et réglementaires dont l'objet concerne les affaires de l'émigration et les questions concernant les marocains résidant à l'étranger ; les principales orientations des politiques publiques permettant d'assurer aux marocains résidant à l'étranger le maintien de liens étroits avec leur identité marocaine et notamment celles relatives à l'enseignement des langues, l'éducation religieuse et l'action culturelle; les mesures ayant pour but de garantir les droits et préserver les intérêts des marocains résidant à l'étranger; les moyens de renforcer la contribution des marocains de l'étranger au développement des capacités de leur pays d'origine, aux niveaux national, régional et local, à l'effort du développement humain durable et à la modernisation de la société; le développement des stratégies modernes de communication, d'interaction et de coopération avec les pays d'accueil aux niveaux culturel, humain et économique.

Regroupant des membres délibérants représentant les principaux ministères et institutions impliqués dans la problématique migratoire, dont le ministère de l'intérieur, le ministère de la jeunesse et des sports, le ministère du développement social, de la famille et de la solidarité, le ministère des Habous et des affaires islamiques et le ministère chargé de la communauté marocaine résidant à l'étranger. Sont aussi membres des groupes de travail en tant qu'observateurs, le Conseil Supérieur des Oulémas, la Fondation Hassan II pour les marocains résidant à l'étranger et l'Institut Royal de la Culture Amazighe (IRCAM)¹.

Avec la nouvelle constitution, les marocains du monde ont désormais droit de cité dans la plusieurs articles, dont l'article 16 qui stipule que « *Le Royaume du Maroc Œuvre à la protection des droits et des intérêts légitimes des citoyennes et des citoyens marocains résidant à l'étranger, dans le respect du droit international et des lois en vigueur dans les pays d'accueil. Il s'attache au maintien et au développement de leurs liens humains, notamment culturels, avec le Royaume et à la préservation de leur identité nationale. Il veille au renforcement de leur contribution au développement de leur patrie, le Maroc, et au resserrement des liens d'amitié et de coopération avec les gouvernements et les sociétés des pays où ils*

¹ Texte du dahir, disponible sur :

<http://www.cabinetbassamat.com/fileadmin/Codes%20et%20lois/Droit%20administratif/CCME.pdf>.

résident ou dont ils sont aussi citoyens », l'article 17 qui leur reconnaît « le droit d'être électeurs et éligibles. Ils peuvent ainsi se porter candidats aux élections au niveau des listes et des circonscriptions électorales locales, régionales et nationales. » Et l'article 30 qui stipule en effet que ces derniers « peuvent participer aux élections locales en vertu de la loi, de l'application de conventions internationales ou de pratiques de réciprocité. » Un changement qui permettra aux marocains du monde de jouir du même droit dans certains pays d'accueil. Il s'agit d'une diplomatie vigilante et active visant à défendre les droits et intérêts des marocains du monde, en actualisant, en accord avec les pays d'accueil, le cadre conventionnel qui leur garantit le plein exercice de leurs droits.

La constitutionnalisation du CCME est un pas vers l'optimisation des actions en faveur des marocains du monde et la redéfinition des tâches des structures œuvrant dans ce secteur. Mais aujourd'hui, et à la lumière de cette avancée constitutionnelle, il serait obligatoire d'opérationnaliser ce choix dans le but de leur assurer une représentation parlementaire et institutionnelle dans les conseils d'administration des principales instances constitutionnalisées¹.

4/ Conseil Social Economique et Environnemental

Au Maroc, le Conseil Economique et Social, en tant qu'organisme ainsi dénommé, fût institutionnalisé pour la première fois par la constitution de 1992. Il sera maintenu dans les lois fondamentales qui succéderont à celle-ci. Il s'agit d'une institution constitutionnelle indépendante mise en place par SM le Roi le 21 février 2011 qui assure des missions consultatives auprès du gouvernement et des deux chambres du parlement. Elle donne son avis sur les orientations générales de l'économie nationale et de la formation. La pertinence de ses avis, études et propositions est liée à l'expertise mobilisée, à la capacité d'écoute et de mise en convergence de différentes composantes de la société et forces vives du pays².

Pour assurer ses missions, le Conseil s'appuie sur une approche globale, il privilégie les thèmes transversaux et encourage l'audace et la créativité dans la production de ses avis et propositions. La composition, l'organisation, les

¹ Zouhair ABOUDAHAB, *La diaspora marocaine dans la nouvelle constitution*, La constitution marocaine ... Op, cit, p.296.

² Informations disponibles sur le site officiel du CESE : <http://www.ces.ma/Pages/presentation.aspx>.

attributions et les modalités de fonctionnement du CES sont fixées par la loi organique N° 60-09¹. En vertu de cette loi, le Conseil est chargé d'analyser la conjoncture et d'assurer le suivi des politiques économiques et sociales nationales, régionales et internationales, ainsi que leurs répercussions, formuler des propositions dans les divers domaines économiques, sociaux, culturels et environnementaux, favoriser et consolider la consultation et la coopération entre les partenaires économiques et sociaux et contribuer à l'élaboration d'une charte sociale, réaliser des études et recherches dans les domaines relevant de l'exercice de ses attributions.

Le gouvernement, la chambre des représentants et la chambre des conseillers, peuvent soumettre à l'avis du conseil les projets et propositions de lois revêtant un caractère économique ou social, notamment ceux tendant à organiser les relations entre les salariés et les employeurs, les régimes de couverture sociale, ainsi que toute question à caractère économique, social, culturel ou environnemental.

Le CES doit de son côté effectuer le suivi de ses recommandations et d'en rendre compte dans un rapport annuel à soumettre au Roi. Pour toutes les questions, l'instance est tenue d'émettre ses avis dans un délai n'excédant pas deux mois à compter de la date de sa saisine. Délai ramené à vingt jours lorsque l'urgence et ses motifs sont signalés dans la lettre de saisine. Quant à sa composition, l'article 11 de la loi n°60-09 prévoit en plus d'un président nommé par Dahir, 99 membres dotés d'un mandat de cinq ans, renouvelable une seule fois. Ces membres sont répartis en 5 catégories.

La nouvelle constitution, au niveau de ses articles de 151 à 153 a reconduit le Conseil économique et social et a légèrement changé son appellation et ses missions. Ledit conseil est devenu le Conseil économique, social et environnemental. Quant à sa mission, elle a été élargie pour intégrer désormais la question de l'environnement².

L'intégration de ce nouvel aspect va permettre d'établir des liens étroits et constants entre développement économique, la promotion sociale et culturelle et le renforcement de la gestion durable des ressources naturelles et des activités

¹ Dahir n° 1-10-28 du 18 Rabii I 1431 portant promulgation de la loi organique n°60-09 relative au conseil économique et social.

² Hafid Baraka, *Dimension économique de la nouvelle constitution marocaine*, Op, cit, p. 370.

économiques respectueuses de l'environnement. Sans aucun doute, la mise en place de cette instance a ouvert une situation nouvelle dans le pays. Réunissant diverses composantes de la société marocaine, notamment; les représentants des syndicats les plus représentatifs des salariés des secteurs public et privé, les organisations et associations professionnelles représentant les entreprises et les employeurs, les représentants d'associations œuvrant dans les domaines de l'activité associative et les personnalités représentant les institutions œuvrant dans les domaines de l'économie, des finances, de la formation, de la protection sociale, des droits de l'Homme et du développement humain¹.

5/ Conseil Supérieur de l'Education, de la Formation et de la Recherche Scientifique

Le texte a consacré l'éducation en tant que droit du citoyen et levier du développement humain en harmonie avec tous les changements profonds qu'entame le pays. Il a ainsi mis l'accent sur une éducation moderne, accessible et de qualité. La qualité est d'ailleurs le mot d'ordre dans toutes les réformes voulues pour ce secteur. C'est dans ce sens que s'inscrit la création du Conseil Supérieur de l'Education, de la Formation et de la Recherche Scientifique.

L'article 168 prévoit la création de ce Conseil qui constitue « *une instance consultative chargée d'émettre son avis sur toutes les politiques publiques et sur toutes les questions d'intérêt national concernant l'éducation, la formation et la recherche scientifique, ainsi que sur les objectifs et le fonctionnement des services publics chargés de ces domaines. Il contribue également à l'évaluation des politiques et programmes publics menés dans ces domaines.* »

La mise en place de ce nouveau conseil mettra fin au Conseil Supérieur de l'Enseignement. Ce dernier a été réorganisé et réactivé en septembre 2006 à l'occasion de la rentrée scolaire 2006-2007². Il s'agit d'un organe constitutionnel à vocation consultative, ayant pour principales attributions l'émission d'avis sur toute question en relation avec le système national d'éducation et de formation, qui lui est soumise par Sa Majesté ou dont il est saisi par le gouvernement, la proposition

¹ L'économiste, *Conseil Economique et Social : la mécanique de fonctionnement*, 21/02/2011.

² Discours royal du 14 Septembre 2006 à l'occasion de la mise en place du Conseil supérieur de l'enseignement créée en vertu de l'article 32 de la constitution de 1970.

de toute mesure susceptible de contribuer à l'amélioration de la qualité et du rendement du système de l'éducation et de la formation et de ses diverses composantes et la présentation chaque année à SM le Roi d'un rapport sur l'état et les perspectives du système d'éducation et de formation, ainsi qu'un rapport sur ses activités de l'année écoulée¹.

En tant qu'instance consultative, il est chargé d'émettre des avis sur toutes les politiques publiques et sur toutes les questions d'intérêt national concernant l'éducation, la formation et la recherche scientifique, ainsi que sur les objectifs et le fonctionnement des services publics œuvrant dans ces domaines. Il sera chargé aussi, de donner son avis concernant les grands choix du pays, les orientations générales, les programmes et projets de nature stratégique liés à ce domaine. S'ajoute à cela l'élaboration d'études et de recherches à sa propre initiative ou à la demande du gouvernement ou de toute autre entité publique concernée par la question de l'enseignement².

La nouvelle réglementation entend lui accorder des attributions claires, qui lui confèrent la latitude de s'acquitter de sa mission. Il sera également doté de l'indépendance financière et administrative afin d'assurer la neutralité et l'objectivité nécessaires à la réalisation de ses missions. Néanmoins, indépendance et neutralité ne doivent pas être perçues comme un appel à l'isolationnisme. En effet, le conseil est appelé à interagir avec les autres instances constitutionnelles, dont certaines y sont représentées.

6/ Conseil Consultatif de la Famille et de l'Enfance

Dès le premier paragraphe du préambule, le caractère de l'Etat solidaire et de la justice sociale est annoncé, ce qui témoigne clairement d'une volonté politique, traduite à travers la norme constitutionnelle, de dépasser les principaux dysfonctionnements sociaux qui ont renforcé les exclusions de certaines parties de la société et l'augmentation importante des disparités sociales.

¹ Dahir n°1.05.152 du 11 Moharram 1427 (10 février 2006), portant réorganisation du Conseil Supérieur de l'Enseignement.

² Le matin, *Les nouvelles attributions du Conseil supérieur de l'éducation, de la formation et de la recherche scientifique*, 22/09/2013.

Cette forme de l'Etat solidaire qui veille à la justice sociale, est renforcée par la nécessité de développement socioéconomique, que la constitution invoque dans divers articles se rapportant à la famille, à la jeunesse et à certaines catégories vulnérables. L'article 32 énonce la protection juridique, sociale et économique de la famille, qui est la « *cellule de base de la société* », de ce fait, le constituant marocain a prévu la mise en place d'un Conseil consultatif de la famille et de l'enfance (CCFE). A travers la création de cette instance, l'Etat s'engage « *à garantir par la loi la protection de la famille sur les plans juridique, social et économique, de manière à garantir son unité, sa stabilité et sa préservation. Il assure une égale protection juridique et une égale considération sociale et morale à tous les enfants, abstraction faite de leur situation familiale.* »

Quant aux missions du conseil, celles-ci sont énumérées dans l'article 169 : « *Ce dernier a pour missions d'assurer le suivi de la situation de la famille et de l'enfance, d'émettre son avis sur les plans nationaux relatifs à ces domaines, d'animer le débat public sur la politique familiale et d'assurer le suivi de la réalisation des programmes nationaux, initiés par les différents départements, structures et organismes compétents.* »

7/ Conseil Consultatif de la Jeunesse et de l'Action Associative

Le texte constitutionnel crée un Conseil Consultatif de la Jeunesse et de l'Action Associative. Son article 33 stipule que « *Les pouvoirs publics sont invités à prendre toutes les mesures appropriées en vue d'étendre et généraliser la participation de la jeunesse au développement social, économique, culturel et politique du pays, aider les jeunes à s'insérer dans la vie active et associative et prêter assistance à ceux en difficulté d'adaptation scolaire, sociale ou professionnelle et faciliter l'accès des jeunes à la culture, à la science, à la technologie, à l'art, au sport et aux loisirs, tout en créant les conditions propices au plein déploiement de leur potentiel créatif et innovant dans tous ces domaines.* » Les missions du conseil sont prévues par l'article 170 qui stipule qu'« *Il est chargé d'étudier et de suivre les questions intéressant ces domaines et de formuler des propositions sur tout sujet d'ordre économique, social et culturel intéressant directement les jeunes et l'action associative, ainsi que le développement des énergies créatives de la jeunesse, et leur*

incitation à la participation à la vie nationale, dans un esprit de citoyenneté responsable.»

Depuis l'entrée en vigueur de la constitution, un large débat a été lancé autour de la création du CCJAA en vue de déterminer ses missions, ses outils de travaux, ses stratégies d'action et ses mécanismes de représentativité. Sur ce point, le ministre de la jeunesse et des sports, a affirmé, que la création du conseil est une nécessité pour mieux saisir les préoccupations des jeunes et des associations¹. Selon sa conception le conseil devra constituer pour les jeunes un cadre institutionnel de travail approprié sur toutes les questions les concernant dans tous les domaines. Pour ses décisions, bien qu'elles ne soient que consultatives, elles doivent être publiées au bulletin officiel et soumises à la haute appréciation de SM le Roi².

Cette instance devra être un instrument de veille et de suivi de la situation de la jeunesse et de l'action des associations dans l'objectif majeur de satisfaire leurs aspirations. Sa création devra être placée dans le cadre de la stratégie nationale intégrée de la jeunesse, laquelle repose sur une approche multisectorielle associant l'ensemble des départements et organismes concernés. D'autant plus que dans le contexte actuel, la mobilisation de la jeunesse constitue un facteur fondamental de démocratisation et de réussite du projet marocain, l'important rôle joué par les jeunes et les associations durant la période de travail de la commission consultative pour la réforme constitutionnelle reflète leur contribution fondamentale dans le processus de démocratisation.

Le Roi a lui-même reconnu le rôle central des jeunes et leur mobilisation dans la réussite du processus démocratique qu'a connu le Maroc en 2011 « ...*La jeunesse marocaine, consciente et responsable, se trouve aujourd'hui au cœur du projet de modernisation constitutionnelle et politique, au regard des droits et devoirs que prévoit la constitution, ainsi que des instances de citoyenneté agissante qu'elle*

¹ Al Bayane, *Conseil consultatif de la jeunesse et de l'action associative : mieux saisir les préoccupations des jeunes et des associations*, 31/05/2012.

² Ibid.

préconise pour renforcer l'adhésion des jeunes aux différentes réformes démocratiques et aux divers chantiers de développement ...»¹

En effet, conscient de l'importance de l'apport des jeunes dans l'édification du Maroc nouveau, SM le Roi n'a eu de cesse de leur accorder une place de choix dans les différentes politiques d'inclusion sociale. Cette haute sollicitude Royale s'est illustrée à travers les multiples gestes et initiatives à l'adresse de la jeunesse marocaine avec une dynamique de construction d'infrastructures destinées à assurer l'instruction, la conscientisation et la formation des jeunes à développer leurs aptitudes, l'objectif étant de préparer la jeunesse marocaine et lui garantir plein épanouissement. La nouvelle loi est venue conforter ce choix démocratique, avec cette structure, qui vise à favoriser le rôle des jeunes en tant que force de proposition et de renouveau de la société.

En conclusion, il s'avère clairement que la nouvelle constitution a permis des avancées importantes dans le domaine du droit socio-économique marocain, à travers l'institution de nouvelles normes constitutionnelles liées à son développement comme valeur et finalité de l'action publique, dans le cadre d'une société solidaire. Cette norme n'est pas érigée dans une voie passive, de déclaration de simple intention, au contraire elle a une portée active du moment où ces droits socioéconomiques sont clairement établis en faveur des citoyennes et citoyens, et l'appel à un rôle actif dans ce sens de la part de l'Etat, des Etablissement publics et collectivités territoriales.

La modernisation et la démocratisation des structures de l'Etat apparaissent clairement à travers la mise en place de tous ces conseils et l'incitation des pouvoirs publics à prendre toutes les mesures appropriées en vue d'étendre et de généraliser la participation de toutes les composantes de la société au développement social, économique, culturel et politique du pays.

¹ Extrait du discours royal du 20 août 2011 à l'occasion du 58ème anniversaire de la Révolution du Roi et du peuple. L'intégralité du discours est disponible sur : <http://v3.menara.ma/portal/site/fr/menuitem.03c6300f8804b66f3771b510b1dccc2c/?vgnnextoid=2f95a4151e7e1310VgnVCM1000000304a8c0RCRD>.

I/ Sources :

1/ Textes de base

- Texte de la constitution de 2011.
- Texte de la constitution française de 1958.

2/ Webographie

- http://aminebenabdallah.hautetfort.com/list/droit_constitutionnel/474792210.pdf
- www.pnud.org.ma/PDF/etudedesc-vf.pdf.
- http://treaties.un.org/pages/ViewDetails.aspx?src=TREATY&mtdsg_no=IV-3&chapter=4&lang=fr.
http://www.ilo.org/dyn/normlex/fr/f?p=NORMLEXPUB:12100:0::NO::P12100_ILO_CODE:C111.
- http://www.ilo.org/wcmsp5/groups/public/---ed_protect/---protrav/ilo_aids/documents/Legal_document/wcms_186086.pdf.
- <http://www.ccdh.org.ma/spip.php?article6434>.
<http://www.cabinetbassamat.com/fileadmin/Codes%20et%20lois/Droit%20administratif/CCME.pdf>.
- <http://www.ces.ma/Pages/presentation.aspx>.
<http://v3.menara.ma/portal/site/fr/menuitem.03c6300f8804b66f3771b510b1dccc2c/?vgnextoid=2f95a4151e7e1310VgnVCM1000000304a8c0RCRD>.

II/Bibliographie

1/ Ouvrages

- **Dominique Carreau**, *Droit international*, Paris. Pédonne, 3e édition, 1991.
- **Frédéric Rouvillois**, *La situation ambiguë du droit international*, Le Droit constitutionnel.2. La V^e République. Editions. Flammarion, 2009.
- **Michel VIRALLY**, *Sur un pont aux ânes : les rapports entre droit international et droits internes*, *Mélanges offerts à Henri Rolin*, Paris. Editions. A. Pédone, 1964.

2/ Revues scientifiques

- **M.A. BENABDALLAH**, *Les traités en droit marocain*, REMALD, n° 94, septembre-octobre 2010.

- **Hafid Baraka**, *Dimension économique de la nouvelle constitution marocaine*, La nouvelle constitution du Royaume du Maroc, REMALD, Collection Thèmes actuels n°82, 2013.
- **Hans Kelsen**, *La garantie juridictionnelle de la Constitution : la justice constitutionnelle*, Revue du droit public, 1928.
- **Thierry Rambaud**, *La garantie des droits et libertés dans la constitution marocaine de 2011*, La nouvelle constitution du Royaume du Maroc, Etudes sélectionnées, REMALD, Collection Thèmes actuels n°82, 2013.
- **Zouhair ABOUDAHAB**, *La diaspora marocaine dans la nouvelle constitution*, La nouvelle constitution du Royaume du Maroc, REMALD, Collection Thèmes actuels n°82, 2013.

3/ Articles

- **Al BAYANE**, *Conseil consultatif de la jeunesse et de l'action associative : mieux saisir les préoccupations des jeunes et des associations*, 31/05/2012.
- **Al BAYANE**, *La promotion des droits de l'Homme au Maroc*, 19/12/2012.
- **L'économiste**, *Conseil Economique et Social : la mécanique de fonctionnement*, 21/02/2011.
- **Le Matin**, *Les nouvelles attributions du CNDH*, le 05/03/2011.
- **Le Matin**, *M. BENZAKOUR : la constitutionnalisation de l'institution du Médiateur consacre son indépendance*, le 26/09/2011.
- **Le Matin**, *Une constitution de droits et de libertés*, le 29/06/2011.
- **Le Matin**, *Les nouvelles attributions du Conseil supérieur de l'éducation, de la formation et de la recherche scientifique*, 22/09/2013.

**L'influence de la culture et la civilisation arabo-musulmane sur
la perception et le traitement de la folie au Maroc.**

ABDELOUAHED EL ABBASSI

Docteur en sciences du langage, chercheur en patrimoine culturel marocain.

Maroc

Résumé :

L'influence de la culture et de la civilisation arabo-islamique sur le Maroc a profondément façonné son identité, tant sur le plan spirituel, intellectuel qu'institutionnel. Cette empreinte se manifeste notamment dans la manière dont la société marocaine a perçu et traité la "folie" à travers les siècles. Loin d'être marginalisée, la folie a souvent été interprétée à travers un prisme mystique et religieux, où le fou pouvait être perçu comme un être inspiré, voire béni. Les institutions telles que les mâristâns (hôpitaux psychiatriques) témoignent d'une approche relativement humaniste et avancée pour l'époque, mêlant soins médicaux, prières et rituels spirituels.

Ainsi, le Maroc, à la croisée des influences berbères, andalouses et arabo-islamiques, a développé une vision singulière pour approcher la maladie et la santé mentale plus précisément, où la "folie" n'était pas seulement une pathologie à guérir, mais aussi un phénomène à comprendre dans sa complexité humaine et divine. Cette richesse d'interprétation et de représentation continue d'alimenter les réflexions contemporaines sur la santé mentale, entre tradition et modernité.

Mot-clé : influence, culture et civilisation arabo-islamique, Maroc, folie.

Abstract :

The influence of Arab-Islamic culture and civilization on Morocco has profoundly shaped its identity—spiritually, intellectually, and institutionally. This impact is particularly evident in how Moroccan society has perceived and treated madness throughout the centuries. Far from being marginalized, madness was often interpreted through a mystical and religious lens, where the mad person could be seen as inspired, even blessed. Institutions such as the *maristans* (psychiatric hospitals) reflect a relatively humane and advanced approach for their time, combining medical care, prayer, and spiritual rituals.

Thus, Morocco, at the crossroads of Berber, Andalusian, and Arab-Islamic influences, developed a unique perspective on illness and, more specifically, on mental health. In this view, madness was not merely a pathology to be cured, but also a phenomenon to be understood in its human and divine complexity. This richness of interpretation and representation continues to nourish contemporary reflections on mental health, balancing tradition and modernity

Keyword : the influence, Arab-islamic Culture and civilization, Morocco, madness.

Introduction :

Au Maroc, le thème de “la folie” ou plus largement les troubles mentaux ne sont pas perçus uniquement comme des troubles médicaux. Leur compréhension puise ses racines profondément dans l'univers culturel et spirituel façonné par des siècles d'histoire, de croyances religieuses, et de traditions populaires. La culture et la civilisation arabo-musulmanes, qui exercent une influence durable sur les mentalités au Maghreb, et au Maroc en particulier, jouent un rôle central dans cette perception. Dans cette vision du monde, où l'invisible (al-ghayb) occupe une place essentielle, la folie peut être interprétée comme le résultat d'une possession par des djinns, d'un sortilège, ou encore d'une épreuve divine.

Ces représentations façonnent les attitudes sociales face à la maladie mentale, souvent considérées comme un phénomène spirituel ou moral avant d'être perçue comme un trouble médical. Ainsi, les pratiques de soins s'articulent autour de recours religieux (comme la roqya, les conférences coraniques) ou culturels (visites aux marabouts, rituels de transe soufie). Cette réalité reflète l'héritage d'une civilisation où la religion, la médecine prophétique, la médecine et le mysticisme ont longtemps cohabité, et où la rationalité occidentale peine parfois à s'imposer pleinement. Toutefois comprendre cette influence de la culture arabo-musulmane est donc fondamentale pour appréhender les représentations et les pratiques liées à la folie au Maroc, dans un contexte où modernité et tradition coexistent et parfois s'affrontent.

A travers ce prisme, et sous l'influence marquante de la culture et la civilisation arabo-musulmane, leur impact au sein de la société vis-à-vis de la folie, nous allons tenter à travers cet article de répondre en quoi il est important de mettre l'accent sur cette influence exercée sur la société marocaine quant à son approche et sa conceptualisation de la “folie” ?

I- La folie et la pensée arabo-islamique :

Dans la civilisation arabo-musulmane, la maladie mentale n'est pas toujours perçue comme un désordre biologique ou psychologique. Souvent elle est interprétée à travers des éléments spirituels ou mystiques. Le Coran lui-même

évoque l'existence des djinns, créatures invisibles faites de feu, capables d'interagir avec les humains. Ainsi, dans l'imaginaire collectif marocain, une personne en crise peut être perçue comme possédée ou sous l'effet d'un sortilège (siḥr).

Ce type d'interprétation s'inscrit dans une vision du monde influencée par la religion islamique, mais aussi par le soufisme et la tradition orale. On considère parfois la folie comme :

- Un châtiment divin (en réponse à un comportement immoral),
- Une épreuve spirituelle que Dieu impose à certaines âmes,
- Ou une forme de proximité avec le sacré, comme dans le cas de certains fous sacrés (majdhūb), respectés et parfois vénérés.

La folie ou maladie mentale, nous renvoie généralement dans les sociétés dites “traditionnelles” à la notion du sacré. Son interprétation relève du surnaturel qui trouve ses justifications dans un système magico religieux bien structuré, ainsi et à travers cet article nous allons tenter de voir quelle image donne la société marocaine au “fou” ? également examiner comment l'influence de la culture arabo-musulmane façonne-t-elle la relation entre la société et le “fou” ?

Avant de passer en revue quelques figures caractérisant « la folie » au Maroc, dont un malade mental peut être victime, et à la lumière de l'étude de A. Bechara¹ dans son travail de thèse de doctorat qui s'intitule L'islam et le discours de la Folie terre d'origine et pays d'accueil et qui étudie les différents états de folie au monde islamique, ainsi nous pouvons distinguer :

A- Al Jounoun ou la perte totale et permanente de raison :

Dans sa multiplicité, le verbe "Jounna" rejoint la traduction littérale en français de "Devenir fou" et non point "Naitre fou". L'état passif de celui qui est fou, est transformé en état futur où l'action est prédominante. Cette action peut être imposée comme dans la forme : Allah le rendit fou. Elle peut être volontaire et choisie comme dans la forme du « tassattor » ou la discrétion : la personne opte à se réfugier dans la folie et de rester dans le monde irréel, Ce qui nous importe de

¹ A. BECHARA, « L'islam et le discours de la Folie terre d'origine et pays d'accueil », thèse de doctorat soutenue à Montréal, Juin 1997.p 17.

soulever dans cette signification, c'est que la folie n'est point vue comme un état intégral biologique mais un état acquis, qui apparaît à un moment de la vie. Elle est imposée par la volonté divine ou voulue, de laquelle la réclusion pourrait découler¹.

B– Al Bolh ou Balaha : « la stupidité, la dispersion mentale » :

“Ablah” est l’adjectif, “Albolh” ou “Balaha”, c’est un terme qui fait référence à un état du langage d'une personne musulmane qui ne respecterait pas certaines formes de la communication et du statut religieux ou social qui y sont reliées. On naît Bahloul, Le terme français qui se rapproche le plus de cette définition est le terme "Bouffon". Son langage serait, d'après Michel Foucault, porteur de capacités étranges en complète contradiction avec tous les autres langages.

Le “bahloul” serait capable d'exprimer des vérités cachées, de prévoir l'avenir, et de pourvoir le verbe élaboré de l'élite, d'une vision simple et non simpliste, mais néanmoins réelle d'une situation actuelle donnée. Il était étrange, suivant le même auteur, que ce langage soit resté pendant des siècles, occulté en occident, non écouté, et non messager d'une vérité, plus véritable que le langage de la Raison. Ibn Khaldoun, philosophe musulman du XIV^{ème} siècle, ère chrétienne, dans son livre Al Mukkaddima, fait la différence entre les « Majnouns" et les "Bahlouls". Pour lui on naît “Bahloul” en ayant conservé l’âme qui verbalise, mais on devient “Majnoun” pendant le cours de la vie, et on perd l’âme qui verbalise qui est notre lien avec la vérité².

C–Al Homk :

Le caractère du " Bolh", se fait complémentaire avec l'attitude intellectuelle du Ahmak qui même si son verbal n'est point étrange, il n'en reste pas moins dénué de sens compréhensible. La traduction la plus proche de ce terme est l'Idiotie. Cette forme de la folie a été la moins inventoriée dans la littérature arabo-islamique. D'autres appellations plus expressives dénommaient cette catégorie de fous, Daïf ou Kamel deux termes à connotation de faiblesse et de manque d’esprit³.

¹ Ibid.

² Ibid. P18.

³ Ibid.

D- Al Jazb :

Extase, La passion de l'homme pour Allah, "Pôle de Bonté". C'est cette appellation Majazib (Les Attirés) qui a marqué ceux qui, par la vision du cœur se faisaient appeler, Les Fous de Dieu. Le Prophète Mohammad n'échappe pas à cette nécessité de témoigner de sa vision. En attirant l'attention de ceux qui l'entourent aux signes de l'invisible, de la vérité qu'il tend à imprimer pour convaincre de sa mission, il fait acte de prosélytisme qui va au-delà du sensoriel¹.

La tolérance populaire envers la folie qui était présente d'une façon générale dans toutes les couches de la population musulmane, a son origine dans des révélations coraniques ou bien des textes de l'Hadith, ex : Sahih Muslim². Dans ces textes, des conséquences punitives attendaient ceux qui s'attaquaient ou bien faisaient du mal aux autres. Ces textes devinrent un code moral et religieux d'inhibitions qui servaient à protéger les segments de l'Oumma³, les plus faibles et les plus démunis. Ce code imprimait à la population pas seulement une attitude de tolérance mais aussi de soin et de prise en charge. Malgré cette attitude générale de tolérance, plusieurs cas de persécutions ont eu lieu et ont été relatés par les chroniques et continuent à être présents à l'époque actuelle. Toutefois, l'attitude générale répandue dans la population est de compréhension, de tolérance et de soin.

Ce caractère de Sainteté apparaît surtout lorsque la folie devient égale au Jazb. Cette relation entre la folie, la piété et la sainteté, dans leur signification populaire, nous permet d'entrevoir la relation entre les Soufis et la folie, d'où leur appellation de **Fous de Dieu**⁴, une élévation d'amour divin, de foi et de croyance allant jusqu'à l'oubli de soi traduisant ainsi une certaine transcendance et adhérence en un état d'âme extatique.

Nous pouvons constater de ce qui précède, les différentes perceptions de la folie en Islam retrouvent dans la plupart de leur substances une signification liée au

¹ Ibid.

² Le Sahih Muslim ([ṣaḥīḥ Muslim]) est l'un des six plus grands recueils de hadith de l'islam sunnite. Il fut écrit par l'imam Muslim ibn al-Hajjaj (821-875) à l'ix^e siècle.

³ C'est l'ensemble de la communauté musulmane.

⁴ Ibid.

religieux et à l'invisible et de son incidence sur la pratique des croyants. C'est dans ses moments privilégiés de l'apparition de l'invisible dans le monde du visible que la personne retrouve la clarté divine. C'est un état toléré et même recherché chez les Soufis et autres adeptes de la transcendance, de l'extase, du **‘Jazb’**¹.

II– La maladie mentale dans la société marocaine :

Explorer la folie ou la maladie mentale dans la société marocaine à travers ce prisme d'appartenance culturelle au monde arabo-musulman, le discours marocain lié aux troubles mentaux nous apprend que la notion de maladie qui sert de base aux pratiques traditionnelles de guérison correspond à des faits qui sont conceptualisés, représentés en termes de possession, de sorcellerie, du mauvais œil, de violation d'un interdit ou de malédiction divine ou parentale, en effet les différents dérèglages que connaît la société constituent une plateforme "explicative" pour les divers états mentaux qui caractérisent « la folie » au sein de la société, ainsi nous pouvons distinguer les grands troubles mentaux qui figurent fréquemment dans le discours populaire comme suit :

1– Les états mentaux liés à la perte de la raison :

Avant de passer en revue les différentes figures de la folie qui dominent dans la société marocaine, il serait pertinent de se référer à cette réflexion de G. Devereux selon qui « le nombre et la diversité des désordres ethnique dans une culture donnée reflètent le degré d'orientation psychologique de cette culture, c'est-à-dire indiquent dans quelle mesure la société dans son ensemble tient compte de l'individu et de sa personnalité »².

A– Le fou ou (hmaq)

Au Maroc le terme (hmaq) est un dérangé mental, violent, étranger au groupe. Le substantif « fou » peut être employé d'une manière générale pour désigner toutes sortes de pathologies mentales de la sorte qu'il est considéré comme terme générique. En effet, le terme (hmaq : folie), terme commun, englobe dans le

¹ Ibid.

² G. DEVREUX, Essais d'Ethnopsychiatrie Générale, Paris, Gallimard, 1970, p.32.

contexte marocain la majorité des atteintes mentales. Il constitue une sorte d'appellation unitaire des diverses manifestations psychopathologiques.

À ce niveau préliminaire de perception, nous avons une première image de la manière dont les représentations de la maladie se scindent et se situent entre des réactions d'angoisse, de "rejet" des situations de crise et de leurs risques de violence, et des modes d'interprétations magico-religieuses prévalant. Ce partage affecte les choix thérapeutiques puisque à l'hôpital sera attribuée la fonction sociale de protection et donc la prise en charge de la première catégorie, alors que la seconde légitimera en grande partie les pratiques et les circuits traditionnels¹.

La consultation et la collecte du lexique surtout le patrimoine proverbial, nous apporte un éclairage intéressant sur la maladie mentale et ses différentes représentations, ainsi le contexte marocain considère le fou comme quelqu'un disant n'importe quoi avec une régularité confondante. Il est celui « qui entre et sort dans le discours » (kaydkhal ou kaykhrej f-leklam).

L'incohérence du discours quotidien est le signe qui accompagne inmanquablement une folie incommunicable et intraduisible. C'est cette folie mystérieuse et intrigante, qui, condensée en de personnage à la fois mystique et extravagant, évoque dans le contexte marocain traditionnel le nom du « majdoub ». Non-sens, retraite, errance, hétérogénéité, étrangeté comportementale, autant de caractéristiques qui ont fait déplacer ce personnage, mi légendaire et mi réel, du monde insignifiant de la folie à celui de la sainteté et de l'élection religieuse en passant par ceux de la poésie, de la mélancolie et de la prophétie populaire².

« La maladie arrive à être conçue par l'homme comme une volonté mauvaise et contraire à la sienne, c'est-à-dire à être personnifiée sous la forme d'un démon », écrit Doutté. « Ainsi l'individu limite-t-il le démon qui réside en lui ». « Chez les musulmans, ajoute Doutté, principalement chez les indigènes d'Afrique du Nord,

¹ A. AOUTTAH, *Interprétations et Traitements Traditionnels de la Maladie Mentale au Maroc*, OKAD, Rabat 2008. p.32.

² A. AOUTTAH, *Op. Cit.* P 33.

comme du reste chez tous les primitifs, les maladies, sont essentiellement des jinns...Aussi on emploie pour guérir les maladies des procédés qui sont de véritables exorcismes ; c'est principalement dans l'épilepsie et les maladies analogues »¹.

B- Le "majnoun" dans l'imaginaire arabe :

Le substantif majnoun est un terme générique d'emploi dans les langues dialectale et littéraire, qui est utilisé couramment pour signifier le fait d'être attaqué, frappé et possédé par les génies. Le majnoun est aussi une appellation qui se caractérise par une véritable diversité de sens dans la mesure où elle renvoie à des situations historiques particulières. Ainsi peut-on constater qu'en Arabie préislamique, ce terme désignait le devin (kâhin), censé recevoir les messages des jnouns au cours de ses opérations divinatoires, de même qu'on croyait le poète inspiré par ces mêmes êtres qui lui fournissaient les textes sous forme de proses, par ailleurs, le plus célèbre des fous et appelé par son nom de fou, majnoun, le fût autrement que par inspiration poétique surnaturelle : lui, c'est l'amour, l'amour pour Layla, qui l'a rendu fou. Personnage légendaire qui, a pu forcer la main de l'histoire et la traverser, ne cessant d'être chaque fois plus embelli, plus amplifié : n'ayant pas pu concrétiser son amour pour sa bien-aimée, majnoun Layla (le fou de Layla) perdra la raison, erra de lieu en lieu, hébété, délirant, et composant des vers à la mémoire de celle qui lui fut arrachée, refusée².

Le mot "majnoun" apparaît aussi plusieurs fois dans le coran, dans lequel il est accolé au prophète, tantôt dans les accusations de ses adversaires qui ne voyaient en lui qu'un devin, poète, possédé, « allons-nous abandonner nos dieux pour un poète (châ'ir) majnoun³ ? » (Cor.37, 36), « ils sont détournés de lui et ont dit : c'est un enseigné majnoun⁴ » (Coran 44 ,14) ; tantôt dans les réponses que dieu fournit à ces

¹ E. DOUTTE, « Magie et religion » dans l'Afrique du nord, J-Maisonneuve, P. Geuthner S.A., 1908 reprints 1984, p. 221-222.

² « L'amour, ou l'amour fou, écrit Foucault, est plus amour que folie tant qu'il a son objet, laissé à lui-même, il se poursuit dans le vide du délire ».

³ Coran, sourate 37 ; verset 36.

⁴ Coran, sourate 44 ; verset 14.

accusations : « Grâce au bienfait de ton Seigneur, tu n'es pas majnoun ¹ » (Coran. 81, 2). Le coran emploie donc ce terme dans le sens d'une possession ou d'une « inspiration » par les jnouns. A ceux prétendaient que le prophète parce que la forme de ses messages ressemblait aux oracles en prose des devins était inspiré par les jnouns, alors que le Coran démontre que l'inspiration ne peut être que divine².

C- le "majdoub"³ ou le ravi dans la pensée soufie.

L'état du Majdhub, majadhib et jadhb : pour les soufis les majadhib (pluriel de majdhub) sont des **mûrid** en état de **jadhb**⁴, Il est arrivé à l'état ou niveau du « **hâl** » et n'est pas arrivé à retourner à son état normal « Dans le langage soufi, le cheminement progressif est appelé suluk alors que le dévoilement soudain est le jadhb. Le niveau (**maqam**) du jadhb (ravisement), d'où le nom de majdhub (ravi à soi-même) est dangereux. Il plonge le disciple dans des états intérieurs d'où il est parfois difficile pour le maître d'en sortir⁵ ». C'est un niveau où le mûrid se rattache du monde et oublie ses règlements car préoccupé par la vérité divine d'Allah. Il se peut qu'il réagisse, à ce niveau, par des actes et des paroles considérés par d'autres comme en contradiction avec la Shari'a. Certains marchent nus dans la rue, consomment de l'alcool, ou mangent publiquement les jours de Ramadan, etc. Cependant, selon les soufis, ils ne sont pas responsables de leurs actes⁶.

Le "majdoub"⁷ représente l'aspect passif de la vie mystique, la primauté de la grâce et de l'extase (Jamous 1994) : Fait une distinction entre le wali parfait et le

¹ Coran, sourate 82 ; verset 2.

² A. AOUTTAH, Op. Cit, p. 66.

³ Étymologiquement, le terme « majdoub » est un dérivé de la racine verbale jadaba, qui signifie « tirer à soi », « attirer » ; il désigne toute personne attirée, séduite par quelqu'un ou quelque chose (Blachère et al. 1970 : 1379-1381).

⁴ M. HAJBI, « Anthropologie et psychiatrie : Regards croisés sur le Maghreb », Perspectives Psy, 2006/2 Vol. 45, pp. 151-156.

⁵ Ibid.

⁶ P. LORY, « Histoire de philosophies en Islam », Conférence de M. Pierre Lory. In : École pratique des hautes études, Section des sciences religieuses. Annuaire. Tome 105, 1996-1997. 1996. pp. 265-271.

⁷ Le mejdoub, dans la conception mystique musulmane, est défini comme étant un illuminé, un extatique, un ravi qui a subi l'attrait, la jadba, au point de n'être plus conscient. Dans la tradition marocaine, le mejdoub désigne aussi un être possédé par un melk, ce qui lui permet d'accéder dans ses moments d'absence (ghayba) à quelques secrets de l'existence (Dermenghem 1940 ; de Premare 1985 ; Rachik 1998 ; Rhani 2008).

majdoub. Si le premier est présent à Dieu et au monde, le second, quant à lui est présent à Dieu mais absent au monde : « on comprend alors que la perfection du premier lui donne une supériorité et même une autorité sur "l'hébétude" du second ». Contrairement au wali « établi » qui non seulement respecte l'ordre social mais participe à son maintien, le "majdoub" est un saint libre qui échappe à toute autorité et ignore toute barrière humaine ou institutionnelle, transgressant ainsi les règles religieuses et sociales. Il incarne de ce fait la figure de la sainteté « anti-exemplaire¹ ».

D- Le "majdoub" caractère des saints errants :

Le terme "majdoub" est souvent employé pour nommer les saints errants (Claisse 2003²) ; comme il désigne aussi un possédé par les génies (Premare 1985 ; El Bachari 1997³). Tant dans son sens mystique que populaire, le majdoub est un saint marginal. Il est quelqu'un qui n'appartient plus à ce monde, qui est sorti partiellement ou complètement de la réalité humaine et sociale pour s'intégrer dans le monde des esprits. Il vit dans la marge.⁴

Le mot caractéristique pour désigner la folie est celui d'« exalté » (majdoub). Le majdoub est celui qui est saisi par la jedba. L'attrait, et qui devient dès lors passif, irresponsable, « ravi », cet état peut durer un court moment ou indéfiniment.

« Ces majadib⁵ ne résistent pas à leurs impulsions, ils énoncent, sous des formes paradoxales, de profondes vérités. Il ne faut pas les confondre avec les simples idiots (« **bahloul** », « **mahboul** ») ou les fous aliénés (« **mejnoun** »). Mais dans le doute, la poésie populaire

¹ H. RACHIK, « Imitation ou Admiration ? Essai sur la sainteté anti-exemplaire du majdoub » in L'autorité des saints. Perspectives historiques et socio-anthropologiques en Méditerranée occidentale, Mohamed Kerrou (ed.), pp107-119. Paris : Éditions Recherches sur les Civilisations.

² P.A. CLAISSE, Les Gnawa marocains de tradition loyaliste, L'Harmattan, Paris, 2003, cité par Z. RHANI, Op.cit, p118.

³ M. EL BACHARI, « Possédé oui, fou non » – catégorisation des troubles mentaux en société marocaine – dans Littérature Orale Arabo-Berbère, n° 25, 1997, pp. 91-112.

⁴ Z. RHANI, Le culte de Ben Yeffou : sainteté, rituel et pouvoir au Maroc. Soutenue à l'université de Montréal. Novembre 2008., p119-120.

⁵ Pluriel de *mejdoub*.

attribue volontiers, avec bienveillance et respect, une parcelle de sainteté à tout être dérangé d'esprit ou extravagant de manière. Comme si étaient rigoureusement inverses la « distraction » à l'égard de ce monde et l'attraction vers l'autre »¹.

Ces **majadibs** n'étaient pas considérés comme asociaux. Westermarck décrit aussi le fait que les saints peuvent être issus du groupe des aliénés :

« Le dérangement d'esprit est attribué dans n'importe quel cas à une influence surnaturelle. On regarde les fous furieux comme possédés par un jinn et l'on ne trouve pas mauvais qu'ils soient mis hors d'état de nuire, dans une prison ou à défaut dans un asile, mais les déments sont vénéérés comme des saints dont la raison est au ciel alors que le corps est sur terre² ».

E- Le "majdoub" ou l'imprégné du sacré :

Dans toute société existent des individus inscrits dans le champ de la folie, qui est une réalité complexe, globale, A côté d'elle en existe une autre, sémantique, et qui constitue la définition qu'on donne à la folie. Cette même réalité sémantique, comporte des conséquences majeures au niveau des conduites sociales, nous incite à parier plutôt d'image de la folie ». Une des images, mi réelle, mi légendaire traduisant les interrogations de la communauté autour du sacré, est celle de « Majdoub ».

« Le Majdoub, signifie littéralement l'attiré, le ravi, l'illuminé. Termes qui englobent des situations variables qui vont du fou au mystique en passant par le poète inspiré, le mélancolique et le prophète populaire³ . Son

¹ E. DERMENGHEM, Le Culte des Saints dans l'Islam Maghrébin, Gallimard, Paris, 1954, p.29.

² E. WESTERMARCK, Survivances Païennes dans la Civilisation Mahométane, Payot, Paris, 1935, p.118.

³ A. I De PREMARE Sidi Abd-er-Rahman El-Mejdûb: mysticisme populaire, société et pouvoir au Maroc au xvi siècle. Éditions du CNRS. Paris : 1985 : p 36.

mysticisme est d'obédience différente de celui du vrai mystique, En effet, son rapprochement de Dieu ne s'est pas accompli d'une façon progressive. Faisant fi des préparations rituelles dont l'union avec Dieu constitue le couronnement, il s'est exposé à l'émerveillement et l'attrait mystique d'une façon violente, dont les conséquences visibles sont celles d'un homme hors de lui-même. En ceci, on pourrait dire que si le chaman des Mohaves devient fou en refusant l'appel du surnaturel¹ le Majdoub le devient en s'imprégnant trop et dangereusement du surnaturel. L'ambivalence caractérisant le cas du Majdoub engendre le doute dans la conception populaire, attribuant ainsi "avec bienveillance et respect" une parcelle de sainteté à tout être dérangé d'esprit ou extravagant de manières »².

Le personnage du “**Majdoub**” traduit les inquiétudes qui sont celles de plusieurs autres communautés : comment faire la part entre le saint et le fou ? En fait, l'ambiguïté face à ce personnage, qui oscille entre admiration et crainte, respect et rejet, est celle que rencontre toute société envers le sacré lorsque celui-ci peut être « tantôt le saint, tantôt l'impur ».

Ceci nous conduit à évoquer la dimension proprement mystique de la folie. Le lien entre comportement excentrique et spiritualité apparaît de multiples manières. Il est nettement présent dans la littérature des « **fous sensés** » : Naysâbûrî met en scène des personnages comme Sa'dûn al-Majnûn³ qui erre, hébété et récitant des vers, parce que la réalité de la présence divine l'a tellement bouleversé qu'il n'arrive plus à penser ni à parler d'autre chose : « L'amour de mon Seigneur a pénétré mon

¹ G. DEVREUX, Essais d'Ethnopsychiatrie Générale, Paris, Gallimard, 1970, p79.

² E, DERMENGHEM, Op.cit., p35.

³ Cité par M. YELLES- CHAOUICHE dans son article « Délire, désir, dissidences. Images de la folie dans la tradition orale maghrébine ». In : Revue du monde musulman et de la Méditerranée, N°51, 1989. pp. 32-46.

cœur et mes entrailles, il circule entre ma chair, mon sang et mes os. Par Dieu, je suis éperdu d'amour pour Lui ! » Déclare-t-il au soufi Mâlik ibn Dînâr.

Des maîtres reconnus comme Dhû al-Nûn, qui avaient écouté attentivement les déclarations du dit Sa'dûn. Plusieurs grands traités d'hagiographie (comme la Sifat al-safwa de Ibn al-Jawzî) accordent une place à part à certains « fous » notoires. La question fut posée par des juristes : peut-on considérer un homme privé de 'aql comme un croyant et a fortiori comme un saint ? Dans sa Muqaddima ainsi que dans le Shifâ' al-sâ'il, Ibn Khaldoun répond positivement : le fou saint est privé de raison et donc de l'obligation d'appliquer la Loi, mais son âme logique (nafs nâtîqa) reste intacte et le guide selon la volonté divine.

Au fait, la question du jadhb, du « ravissement » divin, intermittent chez le mystique et comme permanent chez certains fous. Car tout fou n'est pas un intermédiaire avec le surnaturel : seuls certains d'entre eux ont reçu la grâce d'une expérience de la Présence divine, mais l'expérience fut tellement fulgurante que leurs esprits en restèrent comme figés à cet instant précis. Cette idée a été adoptée et commentée par Ibn 'Arabî¹ (Futûhât, chapitre 44 du fasl al-ma'ârif) qui considère ces « hommes raisonnables privés de raison » comme des saints qui connaîtront la félicité des amis de Dieu dans l'au-delà.

La littérature hagiographique (dont Sha'rânî, Lawâqih al-anwâr ; Munâwî, Al-kawâkib al-durriyya notamment) nous rapporte un grand nombre de récits concernant les « ravis » (**majâdhîb**), qui correspondent au fond à une évolution récente (13e- 14e siècles et suiv.) de la figure du fou sensé, fondée sur la biographie de personnages plus nettement historiques. Ces figures hautes en couleur de saints ensauvagés, à demi-nus, et vivant souvent dans les immondices ont marqué la mémoire collective, qui a à son tour enjolivé leurs excès, leurs paroles et leurs prodiges. Leurs comportements étranges éveillaient la crainte, leurs vociférations ou leurs franches provocations étaient tolérées voire considérées comme des messages surnaturels. On leur attribuait la clairvoyance et la faculté de divination, le don d'aider à la fécondité des sols, des êtres, à la pluie etc.

¹ P. LORY, Op.cit.

Ce rang spirituel élevé accordé à certains ravis était reconnu par les soufis eux-mêmes, qui leur reconnaissait un rang de sainteté, tout en précisant qu'ils ne pouvaient pas être suivis comme shaykh-s par des disciples. La figure attachante de Luqmân de Sarakhs rapportée dans les Asrâr al-tawhîd d'Ibn al-Munawwar l'illustre bien : Luqmân conduit Abu Sa'îd de Mayhanâ vers son maître, mais ne l'instruit lui-même que ponctuellement. Le ravi peut être un faiseur de miracle également. Il accomplit alors des prodiges avec indifférence, comme sans y prendre garde. Perçu comme un intermédiaire direct de la volonté divine, il est alors entouré d'une véritable vénération¹.

S'agissant des états (**ahwâl**) particuliers aux grands mystiques et qui ressortissent, par exemple, de la "**jadba**" ou de la malâma, leur statut socioculturel est plus complexe. Si l'on en croit 'Abd-al-Rahmân al-Fâsi, chroniqueur et juriste marocain du xv^{ème} siècle :

« Par "**jadb**"², on n'entend pas particulièrement l'état de celui qui a perdu le sens et le discernement, comme le comprennent ceux qui n'en ont pas de connaissance. Le terme se rapporte plutôt à (...) l'élection, le "choix" et l'irruption soudaine de la Vérité, sans que cela soit dû à l'effort délibéré et à l'acquisition personnelle (de l'élu) ; au contraire, c'est un pur don, par lequel on est ravi et on aborde, l'une après l'autre, les "stations" (du cheminement mystique) ; cela s'est produit pour beaucoup et c'est également la voie de la prophétie et de la sainteté suprême »³.

Dans ces conditions, on voit bien à quoi peut référer ce type d'expérience. C'est en fait l'une des voies d'accès au sens absolu. Cette faveur divine implique cependant, dans la quotidienneté, un engagement éthique qui se manifeste de façon

¹ Ibidem.

² Jadb signifie attraction /extase.

³ A. L. De PREMARE, Op.cit.

souvent spectaculaire sur le plan comportemental. Ainsi, selon E. Dermenghem, les majâdib (pi. Mejdûb)

« Aiment plaisanter, errent sur les routes, ou demeurent solitaires, vivant d'aumônes qui ne leur manquent jamais. Ils ne résistent pas à leurs impulsions, ils énoncent, sous des formes paradoxales de profondes vérités. Il ne faut pas les confondre avec les simples idiots (bahloûl, mahboûl), ou les fous aliénés (mejnoûn). Mais dans le doute, la pratique populaire attribue volontiers, avec bienveillance et respect, une parcelle de sainteté à tout être dérangé d'esprit ou extravagant de manières. Comme si étaient rigoureusement inverses la "destruction" à l'égard de ce monde et "l'attraction" vers l'autre »¹.

De la marginalité reconnue, on passe facilement à l'excentricité affichée et revendiquée comme ascèse. Certains « fous de Dieu » iront même jusqu'à cultiver systématiquement la vertu du scandale conception pour le moins paradoxale dont on trouve également trace dans l'histoire de l'imaginaire européen. On les nomme malâmatiya (pi. Malâmâtî) ; ce sont des mystiques (adeptes de la voie sûfi).

- Le personnage légendaire de “sidi Abderrahman El Majdoub” :

Il est l'un des personnages extraordinaires qui illuminent sans discontinuer pendant des siècles la vie religieuse, intellectuelle, culturelle au Maroc et en un mot au, en l'occurrence au champ de littérature hagiographique, il en est quelques-uns dont la réputation et le destin apparaissent comme véritablement exceptionnels. C'est le cas de Sidi Abd-Er-Rahman El-Majdoub², un majdoub que même aujourd'hui encore, ses poèmes, ses charismes continuent d'être cités à travers toute l'Afrique du Nord. Ainsi que le rappelle son surnom, ce saint légendaire était sujet à la jedba et recherchait l'extase mystique. Ce qui lui vaut quelques déboires avec le clergé officiel. Situation conflictuelle que connaissent tous ceux qui,

¹ E. DERMENGHEM, Op.cit., p 29.

² Cité par M. YELLES – CHAOUICHE, Op.cit., p43.

volontairement ou non, remettent en question par les actes et par la parole, la tradition, et ses thuriféraires. Un quatrain y fait allusion en termes à peine voilés :

« Clercs, ô mes seigneurs,

Vous qui récitez la parole de Dieu !

Si vous considérez le Mejdûb comme fou,

Laissez-le de lui à Dieu »¹.

A cet égard, A.L.de Prémare avait souligné, dans sa remarquable thèse sur le Mejdoub, que :

« Ce n'est pas seulement par ses quatrains que Sidi Abd-Er-Rahmân est devenu la référence historico-mythique d'une tradition populaire aussi enracinée que la sienne au Maghreb. C'est aussi parce qu'il intègre en lui une autre donnée culturelle : la recherche de l'extase. Celle-ci est cheminement personnel par la voie de l'initiation et action communautaire, marquée par la voix et l'audition, le chant litannique et la percussion, le rythme, les mouvements et la danse. L'ensemble est destiné à exalter, à porter très haut, les forces cachées du corps, du psychisme et de l'âme, et à les accomplir dans la Jedba »².

La culture populaire traditionnelle que connaît la société marocaine est dotée d'une richesse du discours interprétatif très divers, à l'égard de la folie, par rapport à ses figures, et son attachement à un monde beaucoup plus symbolique, le plus généralement à caractère invisible, surnaturel. La présence d'un lexique particulier, une forme de **technolecte**³ avec des nuances précises pour chacune de ces figures, recèle des modèles conceptuels et explicatifs différents, de même que des conduites thérapeutiques particulières et variables en fonction de l'étiologie mise en évidence

¹ A. L. De PREMARE. Ibid. p 96.

² Ibid.

³ « Un technolecte est un savoir dire, écrit ou oral, verbalisant par tout moyen linguistique adéquat, un savoir ou un savoir-faire dans un domaine spécialisé ». (Laila Messaoudi 2010 :134).

par l'entourage du malade, ou par le guérisseur, c'est tout un héritage culturel bien ancré dans la tradition et la mémoire populaire de la société marocaine.

Conclusion :

La "folie", au Maroc, ne se résume pas à une simple pathologie mentale. Elle est enracinée dans un système de croyances issu de la culture et de la civilisation arabo-musulmanes, où la frontière entre le visible et l'invisible, le rationnel et le mystique, est poreuse. Les perceptions traditionnelles – possession par des djinns, châtiment divin, épreuve spirituelle – continuent de structurer les réponses sociales et familiales à la maladie mentale.

Dans ce contexte, les traitements ne se limitent pas à la psychiatrie moderne : ils passent par des voies parallèles comme les rituels soufis, les conférences coraniques et les visites aux saints. Cela reflète une logique de soin où la dimension symbolique et religieuse est centrale. Toutefois, cette approche pose aussi des défis en matière de santé publique, notamment en ce qui concerne l'accès aux soins.

Face à cette réalité, la médecine psychiatrique moderne rencontre parfois des résistances, car elle est perçue comme étrangère aux valeurs et aux croyances locales. Cependant, une approche plus sensible au contexte culturel qui intègre la dimension spirituelle. Comprendre l'influence de la culture arabo-musulmane sur le traitement de la "folie" au Maroc, c'est reconnaître l'importance d'un **dialogue entre tradition et modernité**, entre foi et science.

En définitive, l'étude de la folie à travers le médical, le social, le symbolique et le religieux, nous divulgue que le soin peut coexister entre tradition et modernité, entre science et spiritualité, afin de construire une approche véritablement humaine de la souffrance mentale, et qu'aujourd'hui, il convient de penser des approches hybrides, intégrant les dimensions spirituelles et culturelles dans la prise en charge de la "folie".

Références bibliographiques :

✓ **Ouvrages :**

- **AOUTTAH Ali**, Interprétations et Traitements Traditionnels de la Maladie Mentale au Maroc, OKAD, Rabat 2008.
- **CLAISSE Pierre Alain**, Les Gnawa marocains de tradition loyaliste, l'Harmattan, Paris, 2003.
- **DEVREUX Georges**, Essais d'Ethnopsychiatrie Générale, Paris, Gallimard, 1970.
- **De PREMARE Alfred Louis**, Sîdi Abd-er-Rahman El-Mejdûb: mysticisme populaire, société et pouvoir au Maroc au xvi siècle. Éditions du CNRS. Paris : 1985.
- **DERMENGHEM Emile**, Le Culte des Saints dans l'Islam Maghrébin, Gallimard, Paris, 1954.
- **DOUTTE Edmonde**, « Magie et religion » dans l'Afrique du nord, J – Maisonneuve, P. Geuthner S.A., 1908 reprints 1984.
- **MUSLIM Imam** ([ṣaḥīḥ Muslim]) est l'un des six plus grands recueils de hadith de l'islam sunnite. Il fut écrit par l'imam Muslim ibn al-Hajjaj (821-875) à l'ixe siècle.
- **RACHIK Hassan**, « Imitation ou Admiration ? Essai sur la sainteté anti-exemplaire du majdîlb » in L'autorité des saints. Perspectives historiques et socio-anthropologiques en Méditerranée occidentales, Mohamed Kerrou (ed.), pp107-119. Paris : Éditions Recherches sur les Civilisations.
- **WESTERMARCK Edward**, Survivances Païennes dans la Civilisation Mahométane, Payot, Paris, 1935.

✓ **Thèses de doctorat :**

- **BECHARA Antoine**, « L'islam et le discours de la Folie terre d'origine et pays d'accueil », thèse de doctorat soutenue à Montréal, Juin 1997.

- **RHANI Zakaria**, Le culte de Ben Yeffou : sainteté, rituel et pouvoir au Maroc. Soutenue à l'université de Montréal, novembre 2008.

✓ **Articles :**

- **EL BACHARI Mohamed**, « Possédé oui, fou non » – catégorisation des troubles mentaux en société marocaine – dans Littérature Orale Arabo-Berbère, n° 25, 1997.
- **HAJBI Mathieu**, « Anthropologie et psychiatrie : Regards croisés sur le Maghreb », Perspectives Psy, 2006/2 Vol. 45.
- **LORY Pierre**, « Histoire de philosophies en Islam », Conférence de M. Pierre Lory. In : École pratique des hautes études, Section des sciences religieuses. Annuaire. Tome 105, 1996-1997. 1996.
- **RACHIK Hassan**, « Imitation ou Admiration ? Essai sur la sainteté anti-exemplaire du majdilb » in L'autorité des saints. Perspectives historiques et socio-anthropologiques en Méditerranée occidentales, Mohamed Kerrou (ed.), pp107-119. Paris : Éditions Recherches sur les Civilisations.
- **YELLES- CHAUCHE Mourad**, dans son article « Délire, désir, dissidences. Images de la folie dans la tradition orale maghrébine ». In : Revue du monde musulman et de la Méditerranée, N°51, 1989.

Le mot et le symbole dans l'expression sémiotique chez les Aït

Atta du sud-est marocain

Lahcen OUKHOUYA ALI

La faculté polydisciplinaire d'Errachidia

Université Moulay Ismail

oukhouya1ali@gmail.com

MAROC

Résumé : Cette étude essaie de mettre en exergue la capacité de symbole à exprimer, en particulier lorsque le mot devient impuissant pour assurer sa fonction naturelle. Pour atteindre cet objectif, j'ai recouru à l'approche sémiotique afin de révéler les significations des signes culturels suivant le contexte culturel des Aït Atta. Ce travail s'inscrit dans la recherche des limites du mot comme moyen pour s'exprimer verbalement d'une part, et la mesure de la puissance du signes symboliques pour assurer cette mission d'autre part. Pour prouver cette capacité, le travail s'est appliqué sue la culture des Aït Atta, en particulier quelques rituels et traditions riches. Par conséquent, le symbole devient langage universel, révélant les valeurs, les croyances et les mémoires de la confédération attaouite avec une intensité que le discours ne peut égaler.

Mots-clés : impuissance- symbole- Aït Atta- Rituel- Culture.

Introduction

Les mots sont souvent perçus comme les outils premiers de la communication. Pourtant, ils peuvent parfois se révéler insuffisants, voire impuissants, à exprimer pleinement certaines réalités, émotions ou expériences. C'est sa limite intrinsèque à traduire l'indicible. En revanche, le symbole, en tant que représentation condensée, imagée et polysémique, possède une force évocatrice bien plus puissante. Là où le mot s'arrête, le symbole parle. Il ouvre un champ d'interprétations et touche à la fois l'inconscient et l'émotionnel.

L'incapacité du mot à exprimer l'intention de l'orateur est souvent due à la profondeur du sens véhiculé par le signe. Ce dernier est complexe par la densité du contenu culturel que l'on espère émettre. En effet, les artistes et les créateurs vont au-delà de l'expression ordinaire en optant à d'autres moyens d'expression plus puissants. En étant constamment diffusé, il se transforme en un nouveau style capable de contenir la culture, l'expression et la croyance, créant ainsi une nouvelle façon de penser et un style de vie lié à cette culture. Ceci devient ensuite le cadre de référence sur lequel peut s'appuyer quiconque souhaitant la compréhension de l'histoire et de la culture de tout groupe distinct. De là naît la tribu, le groupe humain et d'autres. De même la nation qui porte sa propre langue et sa propre expression, formant pour elle-même un système culturel particulier.

L'art, la littérature, et toutes les productions artistiques et sociales, ont des rôles principaux dans le mouvement de la société et le développement de sa vie. En effet, l'expression symbolique fait de divers moyens son support et du sens culturel son porteur. Dans le contexte d'une chanson, la parole transcende la parole seule, car elle se nourrit de la mélodie et du rythme et engage un dialogue avec la référence culturelle qui contient en elle ses spécificités dans sa relation avec la culture qu'elle exprime. En plus de l'effet de la chanson ou de la parole chantée, qui varie d'une personne à l'autre selon son appartenance culturelle. Parce que le mot n'a pas le même impact sur tous ses auditeurs. Cela varie plutôt en fonction de l'affiliation et/ou de la proximité avec cette culture.

L'expression symbolique constitue l'un des fondements de l'imaginaire et de la plupart des groupes sociaux, en raison de sa capacité à traduire la pensée, qui à son tour contribue à construire les coutumes et les traditions comme ceux des tribus. De ce point de vue, une grande importance est accordée à toutes les sources qui enrichissent les aspects symboliques. De cette optique, elle acquiert un caractère sacré grâce à sa capacité de communication culturelle profonde, entre les individus, les groupes et les clans diversifiés.

1– Le patrimoine immatériel exprime la mémoire collective

Le patrimoine populaire des chansons et des rituels populaires des Aït Atta, et d'autres manifestations préservant la mémoire sociale, sont considérés le trésor des peuples et des moyens principaux pour la construction de leur histoire, qui constituait un équilibre artistique riche en divers types artistiques variés visant à écrire l'histoire pour la nation et la terre qui l'incube. À travers les modèles lyriques, nous lisons l'histoire: d'Adjou Moha¹, qui a chanté les événements victorieux, l'héroïsme et la bravoure des guerriers de la bataille de Bougafer, et les pertes graves que le colonisateur infligées, en particulier l'assassin du général Henri de Bournazel² par Hassain Ouadi Ouskhoul³ et ses collaborateurs(C'est lui qui l'a tué, selon certains récits oraux, et selon certains témoins ayant assisté à la bataille) , en plus de la lamentation des victimes à travers ses tristes poèmes, en résumant des moments tragiques, sans oublier de raconter avec fierté l'efficacité des guerriers attaoui croyaient à leur devoir de défendre la tribu et son sol .

Certes, ces productions ne sont pas ni des livres, ni des articles ou des documents. Il s'agit plutôt d'un trésor populaire qui consistait en créations du grand public,

¹ –Une femme attauite guerrière, qui a participé à la guerre de Bougafer en 1933. C'est l'épreuve de la participation de la femme à la guerre, et le symbole d'une héroïne à reconnaître.

²–(Henri de Lespinasse de Bournazel, dit L'Homme Rouge): est un militaire français né à Limoges le 21 février 1898 et mort au combat le 28 février 1933 dans les montagnes du jebel Saghro, région berbère du sud du Maroc (Anti-Atlas), lors des guerres de « pacification du Maroc »N 1. Il fit l'objet dans les années 1930 à 1950 d'un véritable culte patriotique, devenant pour certains le modèle du jeune officier. In : https://fr.wikipedia.org/wiki/Henri_de_Bournazel, consulté le 02/05/2022.

³ – Selon ce que les habitants de la région, qui vivait à l'époque de la bataille, Hassain Ouadi Ouskhoul était un résistant et guerrier du premier front. Il est tué par l'armée française lors de la guerre de Bougafer en 1933.

hommes et femmes exprimant leur contenu profond, qui fiabilise leurs paroles et leurs expressions. Il suffit d'écouter la mélodie des chansons du mariage pour en savoir plus sur la qualité de son contenu et les messages de ses poèmes. Alors que nous trouvons la triste mélodie à Warrou¹, au moment où la mariée laisse la maison de son père pour déménager dans la maison de son mari, la traduction de ses sentiments dans lesquels la nostalgie se mélange avec le passé et le désir d'un avenir nouvel et prospère, dans lequel elle aspire la stabilité d'une part, et le moment de séparation de sa famille et la migration du célibat pour embrasser la vie de la femme et construire le nouveau projet de vie entre les bras de son bien-aimé d'autre part.

Ces productions expressives sincères montrent l'ensemble du groupe humain et la vérité sociétale authentique qui reflète la nature humaine signifiant sa situation, ses espoirs et ses douleurs par le biais de son identité enracinée, et caractérisée par la grande spontanéité qui incarne la simplicité pure et découle de la nature de la société et portant les valeurs universelles. C'est un porteur du pouvoir esthétique qui tire sa force du sol dans lequel la société attaquée, qui se caractérise par la difficulté de la nature géographique de ses lieux, et l'originalité de la nature humaine d'une part, le pays de la bonté, de l'instinct, de la loyauté, de la fidélité et à l'appartenance tribale et géographique.

Toutes ces qualifications ont fait que les spectacles populaires et les rituels privés se parlaient de la tribu et de la région géographique de leur naissance. En outre, ils expriment leur passé, leur présent et leur futur, souhaité et incorporent les messages, que leur interprétation nécessite des armements encyclopédiques culturels capables de clarifier l'objectif et les significations latentes qui l'exprime.

C'est la construction de l'histoire et de l'être humain dans un environnement géographique difficile, mais il donne naissance à la parole calme et aux rituels indiquant une société et un constructeur solides de la riche profondeur humaine, il constitue le caractère rural de la culture populaire. Mais récemment, il a déménagé à la ville suivant la migration vers la ville, en préservant tout ce qui exprime leur identité grâce à la conscience du patrimoine culturel immatériel auprès des cultivés

¹ - Des chants à objets divers spécifiques au mariage, ils célèbrent des moments particuliers, par des rythmes différents, mais significatifs.

appartenant à ladite tribu, ce qui constitue le véritable héritage chez Aït Atta. Malgré les transformations profondes que la vie connaît, tout ce qui est lié à l'identité culturelle et à l'interaction entre les cultures reste important, incarné dans l'existence humaine et le garant de sa continuité. Comme c'est le cas dans les langues ; La société qui défend sa langue continue et se développe incessamment. En effet, la langue a la capacité d'assurer l'existence et le développement d'une part, mais elle préserve l'identité culturelle, car elle contient toutes les principales composantes d'un peuple, en particulier lorsqu'elle est liée à la vie quotidienne d'autre part. À cet égard, nous référons à l'exemple de la langue amazighe, qui, malgré sa disparition et son absence dans l'utilisation officielle de tous les pays du nord-africain, et inversement elle était omniprésente dans la pratique quotidienne, elle pouvait garder les ingrédients de toutes les langues. Et contre toutes les tentatives de l'effacer, elle pouvait continuer à exister sans intolérance ni racisme, mais l'a plutôt imposé pour l'instinct, le désir humain, ainsi que la résistance des amazighes en tant que comme moyen de communication, et surtout un moyen culturel et identitaire, elle continue à exister comme acteur crucial dans l'action quotidienne.

Nulle ne peut nier la capacité de ces moyens d'exprimer les émotions, les idées et l'esprit, il est intéressant d'indiquer les manières et les moyes de ces modèles expressifs et rituels populaires et performants, et les raisons qui les ont faits profondément à l'origine et instinct, comme des sources de fidélité et de performance expressives des préoccupations profondes, grâce à la simplicité et l'esthétique illimitée qui les caractérisent.

2– La richesse expressive de la culture des *Aït Atta*

Les *Aït Atta*, comme d'autres tribus, incarnent le lien étroit avec le symbolique et le symbolisme dans tous les aspects de la vie. En effet, le symbolique de la tribu d'une manière générale remonte à ses composantes d'une manière particulière et sa construction dans le temps, en raison de ses caractéristiques spécifiques, telles que la distinction de ses membres par la caractéristique d'un guerrier courageux qui n'hésite pas à se sacrifier au nom de son origine et sa tribu. Car cela constitue pour lui le statut d'affiliation dans sa relation avec le respect des valeurs privées et publiques et la défense de l'honneur. Cela reflète la nature des êtres humains qui

formaient ce groupe tribal cohésif qui contourne le commun et le symbolique plus que de se focaliser sur la différence.

Les spectacles, en tant qu'expressions culturelles servent à conserver et/ou enrichir le patrimoine culturel immatériel. Ils représentent un amalgame des arts : la musique, la danse, les rituels, l'usage efficace et significatif du corps, les couleurs, le rythme, la voix...etc. qui font le plus souvent partie intégrante d'autres formes d'arts du spectacle. Autrement dit, ils constituent des arts qui en rassemblent d'autres. Ils sont omniprésents : des événements ou moments sacrés ou profanes, officiels ou populaires, étroitement liés au sérieux ou au divertissement. Ils ont également une dimension sociale, politique ou économique. Les occasions dans lesquelles les spectacles sont tous aussi variés : mariages, funérailles, sanctuaires.

L'Homme exprime son état psychologique, social et culturel...etc. sous diverses formes d'expression comme le moyen le plus efficace pour traduire ce qui est en lui. En effet, les spectacles populaires font partie de ces moyens capables d'accomplir avec succès cette tâche. Ils caractérisent les festivités des peuples, comme les formes d'expression artistiques les plus vivantes et les plus révélatrices de leur quotidien. Ils incarnent leur mode de vie, leur conception de la vie et leur contexte dans lequel ces formes spectaculaires sont pratiquées. D'où ils trouvent leur raison dans la signification symbolique qui leur réserve une place exceptionnelle, voire sacrée.

Les rituels et les traditions sont des rituels qui exigent des préparatifs pour satisfaire les attentes des invités et des visiteurs, en montrant l'attachement des tribus et des communautés à leur passé et à leur identité. De ce fait, les rituels enrichissent le patrimoine culturel immatériel par leur enjeu de faire connaître à autrui les manières de pratiquer et de penser. Cela mène « à renouveler le mouvement du patrimoine ethnologique et à s'imposer comme référence incontournable aux praticiens et penseurs de tous les patrimoines »¹. Les festivités représentent un moment exceptionnel pour toute la communauté, comme chez les Aït Atta en particulier, « plusieurs mariages ont lieu le même jour, presque toute la tribu

¹ Laurier Turgeon, du matériel à l'immatériel, *Nouveaux défis, Institut du patrimoine culturel*, université Laval 2010, 3 Vol. p. 389

participe à ces fêtes, et jusqu'aux matins les danses et les chants se succèdent »¹. Chaque moment même de divertissement est un rituel encadré par des rites suivant des normes à respecter et des étapes à suivre. Rien n'est laissé au hasard.

La région du sud-est regorge de nombreuses formes cérémonielles associées aux mariages, en surpassant la célébration ordinaire, pour la relier au mythe et à l'histoire. Comme tout le monde participe à la célébration, la fête est offerte aux invités comme aux visiteurs, les spectacles ritualisés sont chargés des messages profonds. Ce qui reflète la richesse de la mémoire locale et amène la construction d'une personnalité identitaire. En effet, le mariage et sa valeur sacrée, nécessite des rituels particuliers, à des moments annuels également non aléatoire en raison de leur association à des saisons agricoles (printemps, été). Notre étude ne cherchera pas à présenter tout le mariage, mais plutôt viser une étape particulière. Il s'agit bien entendu du rituel d'*Isnain* en raison de ses significations symboliques profondes et de ses événements spectaculaires.

3– le pouvoir symbolique de la communication par Les couleurs

Les couleurs des costumes des festivités lors des rituels liés au mariage ont leur justification et leur signification : le rouge, le blanc et le jaune sont les dominants. La couleur blanche est une couleur bénéfique, associée au bien-être, au sacré, et à la prospérité. Le drapé² blanc (*Ahrouy*) constitue l'aspect vestimentaire principal, ainsi que porte bonheur des deux mariés. Quant au rouge, elle est la couleur de voile qui couvre toute la tête, ainsi que le visage (*Aabrouk*)³ de mariée, elle soustrait entièrement le visage à la vue, ses sandales, ainsi que les parties apparentes de son corps (mains et pieds) recouverts de henné, en plus d'un collier en ambre dit *Louban* est mis autour de son cou. C'est une méthode qui crée le désir de dévoiler ce voile de la mariée pour la première fois, ce sera l'occasion de la familiariser avec les habitants de toute la tribu, car elle deviendra une nouvelle venue et bienvenue.

¹ F. Gorjon, *Le mariage collectif dans les tribus berbères du Maroc central*, Bulletin de l'enseignement public, n119. 1932, p. 120

² Un vêtement blanc d'une seule pièce qui recouvre le corps de la mariée pendant le mariage, prend un look spécial, c'est la même robe portée par les femmes mariées dans la culture marocaine du sud-est.

³ Un foulard spécial en rouge orné en jaune, il voile le visage de la mariée pendant les trois jours du mariage.

Quant au marié, sa djellaba, son bernous et ses babouches en blanc, alors que le ruban rouge brodé, décoré en jaune et agrémenté de quelques touches significatives de l'appartenance tribale qui précisent sa fraction. Le rouge renseigne sur la puissance et la force permettant la fécondité. L'assimilation de ces messages demande un effort à fournir et une obligation de la part des récepteurs, et aussi une occasion pour renouveler l'attachement des citoyens avec leurs traditions et croyances. Pour que les femmes et les hommes montrent leur adhésion aux festivités, ils mettent les mêmes couleurs, voire les mêmes costumes que les deux mariés. Ces deux couleurs symbolisent l'expression de la joie totalitaire, le dévouement aux célébrations avec un impact unifié et la reconnaissance que la fête ne concerne pas uniquement les deux mariés et leur famille, mais plutôt toute la tribu.

Pour des raisons symboliques, les bijoux en argent onéreux sont souvent les plus utilisés par la mariée. En effet, ils représentent les particularités tribales. « Les bijoux moulés sont ces bracelets à cotés et à pointés, particularités des Aït Atta »¹. Pour donner impression de la force et de la santé saine de la mariée. Les bijoux et parures sont prêtés par des femmes du village – valeur de solidarité innée et enracinée dans la société– ils se donnent entre les individus car ils ne font pas l'objet d'une appropriation individuelle. Ils ne présentent pas un prestige, c'est avant tout une manière unique de fêter, de montrer l'alliance, la mariée doit se présenter en objets particuliers et en couleurs bien définies au préalable, afin d'éviter toute distinction en raison de l'appartenance sociale puisque toutes les festivités se passent collectivement, et les costumes uniques en couleur et en forme. Les assistants déduisent la leçon de la démocratie locale qui règne, par la lutte contre toute discrimination et toute distinction entre époux et épouses et leurs familles.

4– Le refus de départ de la mariée symbolise l'attachement

Pendant le premier jour du marige, *asskkimou*², les envoyés de la famille du mari envoie chez la jeune fille ses garçons d'honneur conduits par une mule couverte d'un tapis. Ils sont des Isnain ; des missionnaires en nombre quatre, dont un est

¹ Gilles Boëtsch, Dominique Chevé et Hélène Claudot-Hawad, *Décor des corps*, Paris, CNRS éditions, 2010, p.102

² Le jour qui précède le mariage. Il se déroule chez la mariée selon des rituels particulières.

impérativement marié, « Autrefois, pour être désigné *isnaïn*, il fallait être “un combattant, un guerrier, un élément connu dans toute la tribu »¹. Ils sont mandatés par la famille du marié, ils prennent en charge la présentation des objets, et mènent la mariée à la maison de son époux. En effet, ils se dirigent vers la maison de la mariée munie des cadeaux de mariage : le grand *asnai* (singulier d'*Isnain*) monte sur la mule au milieu d'une foule des femmes et des filles, auxquelles il présente des vêtements et des cadeaux ramenés à la mariée, tout en respectant un ordre bien prédéfini, selon la chanson populaire chantée par des femmes « *warru* » qui la récite respectivement. Parmi les cadeaux, un mouton et une grande galette. Bientôt la grande cérémonie du henné prend lieu, un groupe de femmes entoure la mariée et entame le fameux rituel du henné.

Avant que le cortège parte, le missionnaire le plus âgé et confiant (le frère ou l'oncle) fait monter la mariée sur le dos de la mule, « il est fort demandé très souvent de faire monter également un petit garçon impubère derrière *tislit* en monture, celui-ci doit avoir comme nom ; Mohamet »². Ces rituels à caractères ludiques ne sont pas considérés par la communauté Amazigh comme la substitution des festivités du mariage par rapt.

Le cortège accompagnateur protégé par *Isnain* qui doit apporter leur approbation et répond d'emblée aux exigences (des jugements à exécuter immédiatement sans avoir le droit de s'abstenir de répondre à ces décisions) afin de vaincre la résistance livrée par les villageois qui s'opposent forcément à son départ. Il s'agit à cet égard d'une occasion pour les villageois d'exprimer à la mariée leur estime. En effet, Ils ne voudraient pas la libérer pour quitter le village, faute de manière pour lui faire ses adieux pour exprimer leur gratitude, avec leurs souhaits de leur fond du cœur son bien-être avec son mari, ils inventent des techniques surprenantes et amusantes pour cette fin. Pour ce faire, ils imposent des conditions sévères à *Isnain* pour s'assurer qu'ils souhaitent que la fille de leur village ne les quitte qu'à contrecœur (dans la

¹ Marie-Luce Gélard, « *Isnaïn* », in Gabriel Camps (dir.), 24 | Ida – Issamadanen, Aix-en-Provence, Edisud (« Volumes », no 24), 2001 [En ligne], mis en ligne le 01 juin 2011, consulté le 30 avril 2019. URL: <http://journals.openedition.org/encyclopedieberbere/1587>

²Karaoui Brahim, *Le trinôme mythique des ait khabbach*, imprimerie Benlfakih-Errachidia, 2010, p. 54

culture locale, ils marquent le fil de temps par les jugements présentés à une mariée lors de son départ). La mise en scène des événements et des sentiments, passe essentiellement par le biais de la théâtralisation des liens et émotions, leur incarnation en scénarios et histoires réelles, en imposant aux *Isnain* de jouer comme des acteurs. C'est l'occasion d'exprimer des sentiments sincères envers les filles en général et celles du village en particulier, et de dévoiler bel et bien ainsi les rapports du respect mutuel entre les mâles et les femelles de la tribu. Souvent, toute l'assistance et participants à ce rite du passage, apprécie beaucoup ces épreuves imposées, en tant qu'occasion de divertissement. Par conséquent, le déroulement se fait dans des scènes comiques mais authentiques.

Ce moment fort d'émotions animé par les *Isnain* et leurs opposants, avec la participation active du public assistant, est justifié par des indicateurs qui ne saturent nullement la gamme des pratiques rituelles du mariage. En outre, la festivité matrimoniale en ce moment est marquée par les points suivants :

« 1- le paradoxe de l'euphorie/dysphorie des préparatifs du départ chez la famille de la mariée ;

2- l'attitude figée de la mariée et tous les tabous la condamnant au mutisme, au voile et à la suspension de sa marche sur le sol entre le seuil de la maison paternelle et la chambre nuptiale ;

3- Les simulacres de la résistance du frère et des duels à l'étendard (entre les membres des deux parties) et aux babouches (entre le mari et la mariée) »¹.

Les sentiments paradoxaux entre le départ de la jeune fille d'une part et son voyage unique et éternel loin de sa famille, mêlé d'une transition de la fille à la femme, la satisfaction d'éviter la malédiction du long célibat, et l'incertitude totale de son avenir d'autre part.

« Les manifestations rituelles, la solennité et la gravité des moments forts de ce transfert recèlent toute une symbolique culturelle tirant sa substance du système de croyances qui régit l'ensemble des us, coutumes et pratiques de la communauté.

¹Hammouche Abdelhafid, « Awal, Cahiers d'études berbères, Paris, n° 23, 2001 », *Mariage en situations migratoires*, p. 39

Aussi est-il possible, à travers, l'appréhension des principaux rites de départ et d'accueil de la mariée, de se faire une idée sur la représentation mentale du mariage »¹.

Un spectacle agréable et bénéfique pour les spectateurs (assistants), un moment qui allie histoire, anthropologie et ethnographie en une seule scène, est une occasion permettant de dévoiler des secrets de la société du sud-est du Maroc, dont l'espace de jeu est comblé de significations profondes. Ce sont des séquences condensées en significations, jusqu'à ce que le public puisse même participer en scène (il s'agit de l'un des idées défendues par plusieurs metteurs en scène du théâtre moderne). Les thèmes du jeu ne regrettent, ni critiquent, ni dénoncent les violations des droit précis. Seulement, ils prévoient et désirent un avenir heureux et joyeux des deux nouveaux maris.

« Ainsi, la gravité et la solennité de ces moments forts donnent toute leur légitimité aux rites qui les accompagnent, tout comme ceux qui agrémentent les autres cérémonies de la vie communautaire (naissance, baptême, circoncision, premier jeune, pèlerinage, funérailles, etc ».²

D'où la valeur symbolique accordée aux rituels plus qu'aux attitudes. Ce spectacle exige pour les pratiquants, le respect de la morale, de la bienséance et de la vraisemblance comme les fondements classiques du théâtre. Tout est comme des signes s regorgés d'un symbolisme profond, comme le déclare Roland Barthes lorsqu'il décrit le Bunraku « le signe est une fracture qui ne s'ouvre jamais que sur le visage d'un autre signe »³.

5- Les vœux et les souhaits via les festivités

Les spectacles de mariages recourent à divers moyens et manières pour exprimer les vœux les plus sincères aux époux afin de mener une bonne vie. Cela permettra de renforcer la tribu par leurs héritiers. La mise en place des traditions, des rituels et

¹ Ibid, p. 38

² Fatima boukhris, AWAL, *cahier d'études berbères*, éditions de la maison des sciences de l'homme, Paris, n°23, 2001, p. 35

³ Barthes, Roland, *L'empire des signes*, Éditions du Seuil, 2007, p.76

des chansons spéciales dans le but de repousser les mauvais yeux et les mauvais esprits. En effet, tous les rituels sont liés à ce sujet : le marié fait des tours autour du drapé de sa mère avant le début de la célébration, la mère et sa bénédiction sont capables de le protéger de tout mal. La ritualisation de la fête a toujours le souci de la dualité de signification rituelle : le mal et le bonheur ; ils sont fortement présents comme facteurs pouvant répercuter négativement ou positivement une relation conjugale pour qu'elle soit réussie ou échouée pendant et après le mariage.

Autrefois la morale générale ou au moins celles des assistants, et des familles des mariés se souciaient-ils assez peu de savoir si les époux éprouvaient de l'amour mutuel, car il peut être renouvelé et renforcé au fur et à mesure que la relation conjugale se prolonge, par conséquent, il résulte de la familiarité entre eux « elle exigeait seulement qu'ils satisfassent exactement à leurs devoirs conjugaux. Et lorsqu'elle s'intéressait à leur amour, c'était plutôt pour en condamner les excès »¹. Actuellement, les liens s'établissent sur la base de la sainteté de l'amour parce que « le mariage nous semble tellement l'aboutissement nécessaire de l'amour que, de plus en plus, les amours adultères mènent au divorce et à un remariage »².

Des séquences cruciales de la cérémonie sont consacrées à chanter, les thèmes les plus fréquents sont inhérentes à deux options :

–Pour **le nouveau couple** : l'amour menant à la fécondité, à une vie heureuse, avec des vœux et souhaits d'engendrer de nombreux enfants. En plus de l'établissement des liens familiaux entre les villages (du marié et de la mariée).

–Pour **les relations** prouvées issues des rencontres, des échanges et des fréquentations entre les jeunes filles et garçons, sont inévitablement un déclenchement d'autres mariages l'année prochaine. Les liens seront incontestablement plus forts.

¹Jean-Louis Flandrin, *Les amours paysannes, XVI'-XIX' siècles*, Paris, Gallimard, 1975, collection «Archives», p. 79

²Flandrin Jean-Louis. *Amour et mariage. In : Dix-huitième Siècle*, n°12, 1980. Représentations de la vie sexuelle. p.164

Tous les rituels aspirent à favoriser les relations entre le couple marié via les rituels, entre les deux familles, et surtout entre la communauté par la facilitation de l'intégration en tant qu'«un des signes majeurs de la maturité de l'individu. De ce fait tout acte ou attitude permettant d'être accepté par sa communauté est recherché et encouragé »¹. Pour atteindre ces ambitions, le culte se mêle avec les spectacles populaires issus du cœur des mythes marquent les rituels.

Tout le monde souhaite la réussite du mariage dès la première tentative, car le refaire prouve de l'échec de la précédente. Le goût du succès nous fait aussi oublier l'amertume de l'échec, ce qui rehausse la valeur de ce succès. De même, « la magie du premier amour, c'est d'ignorer qu'il puisse finir un jour. L'amour s'en vient... l'amour s'en va ! »². C'est la conviction gravée dans la mémoire collective des sudistes, Ce qui confirme ce fait, ce sont les poèmes que les femmes et les hommes interprètent tout au long du mariage, dont la plupart indiquent la nécessité d'achever le voyage entre les deux époux afin de profiter de ce mariage menant à l'amour éternel, qui selon la croyance dominante ne sera fourni par aucune autre relation. C'est l'amour sacré, qui ne doit pas être souillé en le mettant fin .

Les spectacles du mariage sont porteurs de signification culturelle et des valeurs humaines. Il s'agit d'un produit culturel d'une importance capitale par sa participation efficace à l'interaction, à l'échange et au dialogue socio-culturel, aussi avec sa signification et ses particularités symboliques. Les spectacles sont considérés un moyen fort pour comprendre les valeurs sociales que la conscience collective préserve via ses rituels festifs.

6– Le symbolisme des objets et des spectacles chez les *Aït Atta*

La culture des *Aït Atta* est formée d'un métissage des cultures formant la confédération, de ce fait cette culture englobe des cultures locales côtoyées à travers l'histoire. Grâce aux interactions interculturelles, et des changements engendraient une identité dite *attaouite*. Bien que des éléments préservent leur

¹Bouréma Kansaye, *l'inversion sociale : un défi au droit et à l'ordre*, presse de l'université de Toulouse1 Capitole, n 1, 2015, p.78

²Bernadette Babin-Bujold, *L'envoi des ans*, Laval, Éditions Le Grand Fleuve, 2002, p. 94

identité ou certains éléments parmi, ce qui assure une pérennité identitaire. La culture Attaouite est caractérisée par sa personnalité plurielle dans sa composition tribale en tant que confédération. C'est un carrefour bien enraciné au sud-est marocain que l'instinct humain de continuer à exister et de former une force contre les ennemis et les dangers qui les menacent, qui a poussé à l'union entre les tribus voisines, d'où la source de leur diversité culturelle et ethnique.

La complexité de la culture en général et celle du sudiste s'avère être une évidence, sa composition des sphères se combinent afin de construire une culture différente, diverse et unie. La diversité dans l'unité ou l'unité dans la diversité. Malgré cette diversité des origines, il y a toujours l'incarnation de la diversité dans l'unicité et l'unicité dans la diversité pour pouvoir créer une identité spécifique pour ses appartenants. Les rapports entre ses éléments gardent sa spécificité, même pour les objets qui les identifient, ils sont d'une caractéristique culturelle attaouite. À cet égard, ils acquièrent toujours des significations selon leur présence dans la culture et leur valeur utilitaire pour préserver l'identité. De ce fait, la culture des *Aït Atta* donne une valeur symbolique à des objets considérés appartenant à leur sémiosphère plus que des autres. En plus, ils les sont attachés fortement grâce à leur connotation plus qu'à leur rôle dans la vie quotidienne. Pour eux tout : « un objet culturel est à la fois singulier et pluriel : singulier parce qu'il a sa propre identité ; pluriel parce que cette même identité participe d'autres avec lesquels elle s'intègre pour former une identité collective, celle de la communauté »¹. En effet, la valeur symbolique que chaque objet amasse par la signification à laquelle il se réfère dans le temps, le lieu, l'origine, la coutume et la vie de ses utilisateurs. Les objets de cette manière s'expriment à la fois leur soi et celui de leur propriétaire.

La sémiotique visuelle au sein de la sémiotique de la culture trouve, en effet dans la culture du sud-est en général et celle des *Aït Atta* en particulier un corpus très significatif par sa richesse et sa variété. Les spectacles populaires, les mariages et les rituels occupent une place centrale. Les textes visuels constituant la sémiotique

¹ – INFI, Mohamed, *De la culture marocaine : une sémiotique ou des sémiotiques, Une sémiotique de la culture marocaine*, in : Acte de second congrès de l'association marocaine de sémiotique 2011, Faculté des lettres et des sciences humaines de Meknès, p. 11

LE MOT ET LE SYMBOLE DANS L'EXPRESSION SEMIOTIQUE
CHEZ LES AÏT ATTA DU SUD-EST MAROCAIN
LAHCEN OUKHOUYA ALI

visuelle et musicale sur le plan expressif et formel, ils couvrent des aspects culturels capables d'offrir une présence prégnante dans le contexte culturel local. Aussi derrière l'espace et les couleurs, des éléments fondamentaux qui symbolisent l'identité et la culture dominante. L'espace « si vaste est le projet, si diverses sont les approches possibles que de nouveaux champs théoriques se reconstruisent à travers la sémiotique de l'espace »¹. Les *Aït Atta* sont depuis toujours des communautés bédouines, qui s'expriment par le corps, le gestuel et les arts corporels. De ce fait, ses expressions occupent une signification centrale, c'est obligatoirement le moyen qui incarne l'existence humaine comme instrument culturel. Il suffit de revenir à des expressions artistiques individuelles et collectives pour en révéler d'avantage ce constat, à travers des moments des cérémonies et du mariage que nous avons déjà évoquées, et Ahidous et ses formes, des spectacles collectifs lors des fêtes annuelles et autres auxquelles nous reviendrons dans les chapitres futurs.

Pour les *Aït Atta*, les traditions et les coutumes offrent des manifestations permettant d'appréhender des significations susceptibles de faire comprendre ce qui se passe autour d'eux. Ils les qualifient comme une raison à développer via le développement de la pensée communautaire. En effet, toutes les manifestations inhérentes à la culture attaouite « seraient des opportunités de développement la pensée, de prospection de nouveaux territoires, de creusement sémantique, d'expérimentation de nouveaux systèmes de valeurs qui autorisent l'avancée dans l'inconnu »². Elles sont en fait un moyen exceptionnel d'apporter des significations, tout en approfondissant les sens et les valeurs esthétiques de la tribu et les transmettre aux générations futures dans le but de préserver l'identité culturelle par le biais de préserver ses manifestations culturelles. En effet la diversité des formes artistiques et symboliques de la confédération rassemble la pluralité et la diversité laissés des différentes tribus

La diversité des formes artistiques et symboliques de la culture des *Aït Atta* est le produit de l'origine diversifiée et multiple des tribus qui forment la confédération,

¹ – ZEITOUN, Jean, *Introduction à sémiotique de l'espace*, Paris, Éd. DENOEL/ GONTHIER, 1979, p. 8

² – BEYAERT- GESLIN, Anne, *Sémiotique des objets. La matière du temps*, Liège, Éd. Presses universitaires de Liège, coll. Sigilla, 2015, p. 11

LE MOT ET LE SYMBOLE DANS L'EXPRESSION SEMIOTIQUE
CHEZ LES AÏT ATTA DU SUD-EST MAROCAIN
LAHCEN OUKHOUYA ALI

de sorte que chaque tribu a laissé un patrimoine culturel qui tire ses propres ingrédients des sources de ses origines éloignées. Cependant le rôle de ces objets ne se limite pas forcément à ses fonctions, mais ils sont des moyens des célébrations collectives, et incarnent la culture communautaire de la tribu en général.

À titre d'exemple, les objets utilisés dans les noces du sud-est marocain, définissent des temporalités différenciées, mais leur cumule historique, culturel et existentiel les valorisent comme des images identitaires à travers des époques différentes. Ce qui participe à la construction de l'histoire générale de la communauté. D'autre part, les spectacles et les objets du quotidien se caractérisant par une différence immense, chacun a son souci et sa signification, de telle sorte que plusieurs objets et spectacles dépassent leur fonction élémentaire à la symbolisation, voire la sacralisation. Cependant la différence ne réside pas uniquement dans leurs caractéristiques apparentes et attribuées aux spectacles, mais aussi dans les systèmes de pensée mobilisés pour les réaliser. Autrement dit, selon que cela soit l'art ou le quotidien qui est observé, le critère de différenciation diverge. Leur côté social alors se manifeste dans leur dureté, ainsi que leur évolution pour répondre à la tribu et sa pensée qui la classe parmi son patrimoine artistique qui la distingue des autres pensée et tribus. Par conséquent, les spectacles et les objets se conçoivent comme une diachronie, ils paraissent sous forme d'une continuité dans les mémoires des membres de la confédération, cependant, ils sont une succession et une suite de coupures. Ils autorisent aux objets et aux arts de rejoindre d'autres époques actuelles par leur adaptation à la vie actuelle, sans nier la précédente.

Les spectacles et les expressions culturelles forment des œuvres d'art à travers lesquelles les tribus attaouites pourraient se découvrir d'une manière renouvelable. Elles ont des significations évolutives selon l'état psychique de son récepteur, sa connaissance du domaine artistique. D'où chaque fois elles prennent une signification traduisant la valeur des éléments utilisés. En effet, chaque fois nous découvrons des éléments significatifs différents voire contradictoires. De ceci,

« L'objet que nous qualifions de vintage subit une double sélection, celle naturelle de l'obsolescence et celle, culturelle, qui vérifie sa compatibilité avec le goût du jour. La première impose, pour commencer, de distinguer le sort de l'objet

LE MOT ET LE SYMBOLE DANS L'EXPRESSION SEMIOTIQUE
CHEZ LES AÏT ATTA DU SUD-EST MAROCAIN
LAHCEN OUKHOUYA ALI

artistique de celui de l'objet usuel. Si la valeur de l'objet artistique augmente généralement avec le temps, celle du comparse décline au contraire »¹.

Les tambourins utilisés comme des instruments musicaux nécessaires pour pratiquer Ahidous ont subi des changements pour suivre les rythmes en bénéficiant des progrès industriels. Pendant des époques anciennes, ils sont préparés en cuir des animaux et un cadre du bois, quant à aujourd'hui, des matériaux nouveaux sont utilisés pour la même fin, mais les voix produites sont plus expressives.

La valeur des objets et les spectacles est principalement sociale, ils fonctionnent selon ce même mécanisme dans toutes les époques, sauf qu'ils s'adaptent pour traduire les soucis sociaux, les aspirations actuelles et défendre des valeurs authentiques de la tribu attaouite. L'obsolescence et l'originalité d'un objet ou d'un spectacle s'apprécie selon le résultat d'un système de représentations tout autant culturel que celui qui réside au goût collectif et individuel des récepteurs et ses producteurs car le message transmet prolifère des significations culturelles plongées dans l'idiosyncrasie et esquisse le mode de vie. Quant à la pratique des rites religieux et des coutumes quotidiennes nécessitent l'utilisation des objets pour exprimer explicitement leur message implicite, et aussi partager ces moments privilégiés avec d'autres. Ils participent à la socialisation en mettant en relation les individus et les groupes sociaux grâce à leur richesse et leur capacité de communiquer par différents moyens et manières, selon l'objectif escompté de cette pratique artistique.

Emile Durkheim met en relation le temps et l'organisation sociale, en stipulant que « c'est le rythme de la vie sociale qui est à la base de la catégorie de temps »². Par ailleurs, le temps ayant un rythme régulier en forgeant la vie, il constitue aussi l'enveloppe de l'existence des êtres humains. Comme une possibilité de la culture d'être personnifié et même d'être individualisé par rapport aux autres cultures voisines. Ceci nous autorise à associer aux expressions artistiques et culturelles une importance significative et symbolique ; à cet égard, elles constituent des supports

¹ -Ibid. p. 89

² - DURKEIM. Emile, *Les formes élémentaires de la vie religieuse. Le système totémique en Australie*, Paris. 1968, éd : PUF, p. 631

LE MOT ET LE SYMBOLE DANS L'EXPRESSION SEMIOTIQUE
CHEZ LES AÏT ATTA DU SUD-EST MAROCAIN
LAHCEN OUKHOUYA ALI

sociaux de la culture, en plus, elles résument les époques et les cultures en tant que moyens de communication social non verbale significatif.

Les objets ont une grande et profonde incidence, en plus que matière et corps, ils servent à saisir l'écoulement du temps tout en intercalant le passé et le futur et marquent la place de l'être humain et éclaircissent ses relations avec ses autres époques, de ce fait également ils marquent l'histoire et son passage dans un espace précis car la relation est étroite entre les deux. Il suffit de s'interroger sur l'un, l'autre répond. Alors, ils construisent la mémoire par l'association du temps et de l'espace. Aabrouk, ahrouy... renvoient à l'appartenance, une histoire, une région du monde et le cumule culturel et éthique. L'étude de ces manifestations renseigne sur les valeurs caractérisant les *Aït Atta* dans leurs différents aspects : culturel, économique, social, etc.

Entre l'objet et son propriétaire dans la culture attauite, il y'a la relation de construction mutuelle, ces objets sont des témoins du passé qui rejoignent le présent par leur valeur culturelle tirée de son origine significative. L'appartenance d'un objet à la culture des *Aït Atta* s'avère un moyen d'expression de leur identité culturelle. Il est possible de révéler les caractéristiques à partir du type et nature de cet objet utilisé. Les caractéristiques de ces objets ressemblent à celles des membres de la confédération attauite. Soit en tant qu'objet utilisé par besoin quotidien, ou saisonnier voire occasionnel. En effet, les objets acquièrent l'identité de personnes qu'il l'utilise. L'attachement aux objets anciens informe implicitement ou explicitement que :

« L'objet consigne de même un certain nombre de propriétés sur le mode potentiel qui réfèrent à une scène pratique déjà vécue. Ainsi le souvenir donne-t-il accès à cette scène lointaine dont il autorise le retour, comme si elle se trouvait devant le sujet et non plus derrière lui. L'objet participe alors à l'effort de sens de la remémoration »¹.

L'objet présente un mélange de la mémoire et de l'imaginaire, ces deux caractéristiques entremêlent son image, L'attachement permet donc de restituer au

¹ - BEYAERT- GESLIN, Anne, *Sémiotique des objets. La matière du temps*, Op. Cit. p. 67

passé par le biais des expériences vécues, et s'agripper aux objets significatifs pour présenter des moments spéciaux du passé. L'objet réfère à l'ethnologie, il définit et présente singulièrement la tribu, groupe sociale ou même individu dans un espace et contexte particulier au sein du monde. C'est un pont qui permet la transition d'un système culturel à un autre. Le temps de ces objets se conçoit comme une diachronie, il paraît une continuité dans nos mémoires, cependant, il est une succession et une suite de coupures qui autorise aux objets de rejoindre d'autres époques.

7- La signification des objets culturels dans le patrimoine matériel

Il est judicieux de revenir aux objets et aux matériaux de la culture *attaouite* qui renvoient à travers deux temps à construire un système culturel spécifique, et qui renvoie en fin à l'identité socio-culturelle. Le temps diachronique renvoie à la plus grande généralité de la signification dans la confédération qui englobe toutes les tribus fondatrices. Tandis que le temps historique renvoie à des particularités de chaque tribu, fraction, et sous-fraction pour mettre les objets du passé en liaison avec le présent. Cela renseigne sur le passé de chaque composante tribale dans sa particularité d'une part, et sa signification au sein du système culturel général. Par conséquent la collection des objets devient possible par le retour au passé et en faire appel à des valeurs significatives culturellement et historiquement fondées sur la charge de la rareté ou l'utilisation plus significative que l'objet en lui-même. Avec ce temps qui les rendent plus précieux, les objets peuvent nous revenir sous d'autres statuts chargés de la gloire, les victoires et le passé lumineux.

Dans cette optique, les tribus *attaouite* de Tazarine, Aguedez, Tagnit et d'autres régions chez Aït Atta de Zagora portent le poignard en permanence comme indication de la nature forte et guerrière de ses habitants, ils transmettent implicitement la peur et l'instabilité vécue suite des bandits pendant des époques dites sombres. Et en preuve de leur désir d'exprimer l'état du passé douloureux et le désir de ne pas les revivre, les gens portent ces poignards et les femmes portent une couleur noire dans la plupart de leurs vêtements comme signes d'une vie antérieure. Aussi Abader

« Il s'agit de préparer une pâte homogène, légèrement sur hydratée et laisse. La pâte préparée est laissée au repos pendant une dizaine de minutes. Puis, la pâte, d'environ 5 cm d'épaisseur, est posée sur des cailloux déjà chauffés et nettoyés des cendres. Ensuite, elle est recouverte des cendres et des plantes, notamment l'armoïse, sur lesquelles brûle un feu de bois pendant une heure. Enfin, le pain est cuit quand on refait la même opération en mettant du feu sur l'autre face de la pâte pendant une heure supplémentaire. Ce pain *Abadir* peut être conservé pendant une semaine »¹.

Comme repas ancien facile à préparer avec des ingrédients à la portée de tout le monde à savoir : le blé raffiné en blé, quelques, morceau de légumes, de l'eau, sans utilisation de la levure, en plus de la rapidité de le préparer, pendant quelques minutes. C'est un pain préparé par les caravanes dans les déserts lors des voyages longs. Ce qui montre clairement que les *Aït Atta* reflètent le slogan : « Celui qui ne sait pas préparer son pain, sa mort vaut mieux que sa vie ». De là, la préparation du pain symbolise toutes les tâches et les missions possibles à assumer et à supporter dans la vie, en plus de la compétence nécessaire pour les résoudre avec toute pertinence nécessaire pour être considéré apte et honoré d'appartenir à une telle tribu appelée les *Aït Atta*. Tout cela indique la capacité d'adapter et de faire face à des situations, peu importe la difficulté qu'elles peuvent engendrer. Parmi les caractéristiques qu'ils ont soulignées, portant des difficultés et un manque de reddition, quelles que soient les conséquences, tant qu'elle ne dévalorise pas le statut de l'individu, ensuite celui de la tribu, de là, la responsabilité et l'autonomie caractérisent les individus dans toutes les situations délicates que soient. A l'inverse de la trahison, l'irresponsabilité et la dépendance qui constituent le caractère détesté par tout le monde.

Qui dit le pain dans la culture attaouite, dit *Abadir*, le pain célèbre chez *Aït Atta* par la rapidité et la simplicité des moyens demandés pour sa préparation. Il s'agit d'une sorte de pizza avec une garniture à l'intérieur, contrairement à la pizza dont

¹ – <https://traditionsalnif.wordpress.com/2013/01/19/pain-abadir/>, consulté le 19/03/2025.

la garniture est placée à l'extérieur. Néanmoins avec le mode de vie actuel, ce repas est devenu lorsqu'on le déguste de temps en temps, souvent préparé par des femmes âgées à l'occasion des sorties familiales. À ce moment, il devient précieux par sa rareté, sa symbolisation et sa signification dans une la société. En effet, il se conçoit comme le signe renvoyant à une vie antérieure.

Conclusion

Les *Aït Atta*, une confédération tribale amazighe du sud-est du Maroc, ont longtemps utilisé les symboles, les chants et les rituels comme des moyens puissants d'exprimer et de transmettre leur identité culturelle. Ces éléments ne sont pas de simples traditions esthétiques : ils incarnent des valeurs, des récits historiques et des croyances profondes. Il s'agit des moyens auxquels recourent les groupes sociaux quand le mot ne peut pas interpréter efficacement leur intention pour exprimer une culture. En effet, les Chants comme une transmission orale et résistance culturelle sont efficaces pour transmettre l'histoire de la tribu, les luttes contre les colonisateurs, les alliances, les récits mythiques, et exprimer les émotions collectives (mariage, deuil, joie, départs...) afin de préserver la culture par l'acculturation en maintenant la langue et la mémoire orale, et renforcer le sentiment d'appartenance.

Les rituels sont aussi des pratiques codifiées et sacrées qui rythment la vie des Aït Atta, et chaque moment de vie ou de passage possède ses pratiques significatives. De ce fait, tous les moments de vie sont riches en symboles qui marquent le temps sacré, Assurent la continuité spirituelle entre les vivants et les ancêtres et développent la cohésion sociale.

Pour conclure, les chants, rituels et symboles chez les Aït Atta ne sont pas que décoratifs ou folkloriques, à l'inverse, ils incarnent la mémoire, la spiritualité et la résistance d'un peuple. Leur pouvoir réside dans leur capacité à exprimer une culture vivante, en perpétuelle transmission, résiliente face aux changements.

Bibliographie

✓ Les ouvrages :

- Babin-Bujold, Bernadette, L'envoi des ans, Laval, Éditions Le Grand Fleuve, 2002.
- Brahim, Karaoui, Le trinôme mythique des ait khabbach, imprimerie Benlfakih-Errachidia, 2010.
- Boëtsch Gilles, Dominique Chevé et Hélène Claudot-Hawad, *Décors des corps*, Paris, CNRS éditions, 2010.
- Emile, Durkeim, Les formes élémentaires de la vie religieuse. Le système totémique en Australie, Paris. 1968, éd : PUF.
- Geslin, Beyaert, Anne, Sémiotique des objets. La matière du temps, Liège, Éd. Presses universitaires de Liège, coll. Sigilla, 2015.
- Jean-Louis, Flandrin, Les amours paysannes, XVI'-XIX' siècles, Paris, Gallimard, 1975, collection «Archives».
- Jean, Zeitoun, Introduction à sémiotique de l'espace, Paris, Éd. DENOEL/GONTHIER, 1979.
- Mohamed, Infi, De la culture marocaine : une sémiotique ou des sémiotiques, Une sémiotique de la culture marocaine, in : Acte de second congrès de l'association marocaine de sémiotique 2011, Faculté des lettres et des sciences humaines de Meknès,
- Turgeon, Laurier, du matériel à l'immatériel, *Nouveaux défis, Institut du patrimoine culturel*, université Laval 2010, 3 Vol. p. 389
- Roland, Barthes, L'empire des signes, Éditions du Seuil, 2007.

✓ Article de revue :

- Abdelhafid, Hammouche, « Awal, Cahiers d'études berbères, Paris, n° 23, 2001 », *Mariage en situations migratoires*.

LE MOT ET LE SYMBOLE DANS L'EXPRESSION SEMIOTIQUE
CHEZ LES AÏT ATTA DU SUD-EST MAROCAIN
LAHCEN OUKHOUYA ALI

- Fatima, Boukhris, AWAL, cahier d'études berbères, éditions de la maison des sciences de l'homme, Paris, n°23, 2001.
- Gorjon F., *Le mariage collectif dans les tribus berbères du Maroc central*, Bulletin de l'enseignement public, n119. 1932.
- Jean-Louis, Flandrin. Amour et mariage. In : Dix-huitième Siècle, n°12, 1980. Représentations de la vie sexuelle.
- Kansaye, Bouréma, l'inversion sociale : un défi au droit et à l'ordre, presse de l'université de Toulouse1 Capitole, n 1, 2015.

✓ **Références électroniques :**

- Gélard, Marie-Luce, «Isnaïn », in Gabriel Camps (dir.), 24 | Ida – Issamadanen, Aix-en-Provence, Edisud («Volumes », no 24), 2001 [En ligne], mis en ligne le 01 juin 2011, consulté le 01 avril 2025. URL: <http://journals.openedition.org/encyclopedieberbere/1587>
- <https://traditionalsnif.wordpress.com/2013/01/19/pain-abadir/>, consulté le 19/03/2025.

**L'ironie dans l'œuvre de Lhbib Mazini:
Entre critique sociale et esthétique romanesque
dans Villa Australia et Le Complexe du hérisson**

TAIB Hanane (Doctorante)

Université Sidi Mohamed Ben Abdellah, FLSHDM, Fes

Laboratoire de recherche : SLLACHE

hanane.taib@usmba.ac.ma

CHAFAI Nadia (Professeur universitaire)

Institution d'attache : USMBA, Faculté LSHDM, Fes

chafai_n@yahoo.fr

Maroc

Résumé :

L'article intitulé « L'ironie dans l'œuvre de Lhbib Mazini : Entre critique sociale et esthétique romanesque dans Villa Australia et Le Complexe du hérisson » analyse comment l'ironie structure l'écriture romanesque de Lhbib Mazini, écrivain marocain francophone, pour offrir une critique sociale profonde tout en développant une esthétique singulière.

Mots clés : Ironie–esthétique–critique sociale–

Introduction

L'écriture romanesque de Lhbib Mazini, écrivain marocain d'expression française, se distingue par une essence critique qui s'allie à une esthétique singulière. À travers *Villa Australia* et *Le complexe du hérisson*, Mazini propose une réflexion profonde sur le Maroc contemporain, cristallisant dans ses récits le paradoxe d'une société tiraillée entre tradition et modernité. L'ironie, loin d'être un simple ornement, devient chez lui un mode de pensée, une manière de traduire l'absurdité de la vie urbaine et de révéler la complexité des rapports humains. Dans un contexte où les bouleversements politiques, sociaux et économiques influencent l'art, l'ironie apparaît comme la réponse la plus juste à l'incompatibilité et au désarroi de l'époque. Ce travail propose d'explorer comment, dans ces deux romans majeurs, l'ironie structure le récit, façonne les personnages et invite le lecteur à une réception critique et sensible du monde décrit.

I. L'ironie : cadre théorique, fonctions et enjeux

1.1 Définir l'ironie : du procédé à la posture

L'ironie, selon Linda Hutcheon, est « un double discours qui invite le lecteur à décoder un sens caché » (Hutcheon, 1994). Elle suppose une distance entre ce qui est dit et ce qui est réellement pensé, créant une complicité entre l'auteur et le lecteur. Wayne Booth (1974) insiste sur la dimension éthique de l'ironie, qui engage la responsabilité de l'auteur : l'ironie n'est pas seulement un jeu, elle est un appel à la lucidité, à la remise en question des discours dominants. L. Perrin (1990) parle de « tromperie ouverte », où le locuteur feint d'adhérer à un point de vue qu'il rejette, tout en visant à dénoncer ou à subvertir une opinion sociale ou politique.

Dans la littérature, l'ironie devient alors un outil de résistance, un moyen de dire sans dire, de critiquer sans s'exposer frontalement. Elle permet d'exprimer le désarroi, le scepticisme ou la révolte face à une réalité perçue comme absurde ou injuste. Elle est, en cela, particulièrement adaptée aux périodes de crise, où les repères vacillent et où la parole se fait contestataire. Chez Mazini, l'ironie est génératrice de parole : « Avec une pincée humoristique, celui-ci a réussi à peindre

les travers et les vies de l'Être. » Elle se fait aussi le miroir d'une société en quête de sens, où l'humour devient un rempart contre le désespoir.

1.2 L'ironie dans le roman maghrébin : entre subversion et humanité

Dans la littérature maghrébine, l'ironie est souvent une stratégie de contournement : elle permet de critiquer le pouvoir, de dénoncer l'injustice, tout en échappant à la censure. Mais elle est aussi une manière d'humaniser le récit, de donner à voir la complexité des êtres et des situations. Chez Mazini, l'ironie est génératrice de parole : elle permet de peindre les travers de la société, mais aussi d'exprimer la tendresse, la compassion, la compréhension des faiblesses humaines. Loin d'être froide ou cynique, l'ironie de Mazini est souvent empreinte d'humour, de bienveillance, voire de mélancolie. Elle invite le lecteur à s'identifier aux personnages, à ressentir leur malaise, à partager leurs doutes et leurs espoirs.

Dans le contexte marocain, marqué par des tensions entre tradition et modernité, l'ironie permet d'exprimer un malaise collectif tout en évitant le didactisme. Mazini, en tant qu'auteur postmoderne, fait de l'ironie un principe générateur de la parole : « Avec une pincée humoristique, celui-ci a réussi à peindre les travers et les vies de l'Être. » L'ironie devient ainsi un langage de la crise, un moyen de cristalliser le paradoxe éthique et sociopolitique du Maroc contemporain.

II. Villa Australia : la théâtralité ironique de l'espace urbain

2.1 Casablanca, miroir des mutations sociales

Villa Australia, roman paru en 2016, s'inscrit dans une période de profonds bouleversements pour le Maroc. Mazini y peint une Casablanca en pleine mutation, où la spéculation foncière, la corruption et la quête effrénée de modernité bouleversent les repères traditionnels. La ville, loin d'être un simple décor, devient un personnage à part entière, un organisme vivant et malade, reflet des tensions et des contradictions de la société marocaine. Mazini met en scène deux familles, deux classes sociales, deux visions du monde : l'une en déclin, l'autre en pleine ascension, mais toutes deux prisonnières de logiques de pouvoir, d'argent et de vengeance.

Cette dimension humaine est centrale : les personnages ne sont pas de simples archétypes, mais des êtres complexes, tiraillés entre leurs désirs, leurs peurs et leurs contradictions. Kenza, par exemple, incarne la tentation de la compromission : « L'envie de renouer avec les cimes feutrées de l'aisance sociale la taraude si fortement qu'elle se sent prête à toute compromission. » Son parcours, loin d'être caricatural, révèle la difficulté de résister à la pression sociale, à la peur du déclassement, à la tentation de l'argent facile.

Le roman met aussi en scène la violence des rapports sociaux : la corruption, le meurtre, la vengeance et l'hypocrisie sociale sont omniprésents. Mazini décrit une société où l'ascension sociale passe par des moyens douteux, où l'argent est érigé en valeur suprême. La transformation de la villa familiale en « Hammam Fitness Spa Australia » est hautement symbolique : elle représente la victoire de la modernité sur la tradition, mais aussi la revanche sociale d'un ancien humilié, Brahimi, devenu riche et vengeur.

2.2 L'ironie comme révélateur des failles humaines

L'ironie de Mazini est d'abord une manière de dévoiler la fausseté et la cruauté du monde urbain. Elle s'exprime dans la description des situations absurdes, des dialogues décalés, des retournements de situation. La transformation de la villa familiale en « Hammam Fitness Spa Australia » est à la fois comique et tragique : elle symbolise la victoire de la modernité sur la tradition, mais aussi la revanche sociale d'un ancien humilié, Brahimi, devenu riche et vengeur. Le narrateur, avec un humour noir, commente : « Avec lui, la vengeance est un plat qui se mange glacé. »

Mais l'ironie n'est pas seulement un outil de dénonciation : elle permet aussi de comprendre les failles, les blessures, les rêves déçus des personnages. Mazini ne juge pas ses créatures : il les regarde avec une tendresse désabusée, une lucidité sans cruauté. La ville, microcosme des vices modernes, est aussi le lieu où se jouent des drames humains, où chacun cherche à survivre, à préserver sa dignité, à trouver sa place dans un monde en mutation.

Le narrateur multiplie les jeux de mots, les allusions et les sous-entendus pour railler la culture affairiste et la perte de valeurs : « Malheur à celui qui œuvre contre

le courant culturel ! Au diable la rectitude, l'honnêteté ! » Ce sarcasme vise à dénoncer la domination de l'argent et la faillite morale d'une société en crise.

2.3 L'écriture comme espace de résistance et de réconciliation

Mazini fait de l'écriture un espace de résistance, mais aussi de réconciliation. L'ironie, chez lui, n'est pas une arme de destruction, mais un moyen de questionner, de remettre en cause, d'ouvrir des possibles. À travers la multiplicité des voix, des points de vue, des récits enchâssés, il invite le lecteur à explorer la complexité du réel, à dépasser les jugements hâtifs, à comprendre la part d'ombre et de lumière qui habite chaque personnage. L'écriture devient alors « une voix réelle, une parole vivante pour réagir, dénoncer et s'interroger ». Le lecteur, loin d'être un simple spectateur, est appelé à participer à la construction du sens, à s'impliquer dans la réflexion sur la société, sur la modernité, sur la condition humaine.

L'ironie dramatique, qui cherche à abolir les frontières entre le rationnel et l'irrationnel, le réel et l'ironique, fait émerger l'absurdité naturelle de la société moderne, une absurdité cruelle qui surgit de la vie quotidienne. La fin de la narration dans Villa Australia offre un tableau décevant, une déception amère d'une réalité cynique, tant pour les membres de la famille Halfaoui que pour le lecteur-critique, que seule la prise de conscience de cette nouvelle réalité absurde incite à remettre en question l'ère de la consommation postmoderne.

III. Le complexe du hérisson : ironie et humanité dans les marges

3.1 Le bidonville, espace de souffrance et de solidarité

Le complexe du hérisson explore un autre visage de la ville : celui des marges, des oubliés, des exclus. Mazini y met en scène le monde des bidonvilles, avec ses malheurs, ses contrastes, mais aussi ses élans de solidarité, d'entraide, d'humanité. Le personnage de Bachir, anti-héros tragique, incarne la bravoure et l'honnêteté dans un univers où ces valeurs sont méprisées. Sa laideur physique, son entêtement, son incapacité à s'adapter font de lui une figure de la marginalité, mais aussi de la résistance à la normalisation, à l'individualisme, à la violence sociale.

L'auteur ne se contente pas de dénoncer : il donne à voir la souffrance, la solitude, l'humiliation, mais aussi la dignité, la capacité de rêve, la force de survie de ses personnages. À travers Bachir, Mazini interroge la place de l'individu dans la société, la possibilité de rester fidèle à soi-même dans un monde qui valorise la réussite à tout prix.

3.2 L'ironie situationnelle : dénoncer sans désespérer

L'ironie, dans ce roman, est avant tout situationnelle : elle naît du contraste entre les aspirations des personnages et la réalité qui les écrase. Bachir, malgré son exemple moral, est rejeté, rendu responsable des fautes de ses frères : « Ce sont les machinations de ses aînés qui sont applaudies... » Sa mort, loin d'être un simple fait divers, devient le symbole de la cruauté d'une société qui sacrifie les plus faibles, les différents, les inadaptés.

Mais l'ironie de Mazini n'est jamais désespérée : elle laisse toujours place à une forme de tendresse, d'empathie, de compréhension. Le lecteur est invité à partager la douleur de Bachir, à s'indigner de l'injustice, mais aussi à admirer la force de caractère, la capacité de résistance, la dignité des exclus. L'écriture, ici, devient un acte de solidarité, un geste d'humanité, un appel à la compassion.

3.3 L'écriture comme acte d'engagement et de transmission

Mazini fait de l'écriture un acte d'engagement : il donne la parole à ceux qui ne l'ont pas, il raconte les histoires des oubliés, des invisibles, des marginaux. Son style, simple mais percutant, crée une proximité avec le lecteur, une forme d'intimité qui rend la dénonciation plus efficace, plus bouleversante. L'ironie, loin de créer une distance froide, permet au contraire de toucher le lecteur, de le faire réfléchir, de l'inviter à s'interroger sur ses propres valeurs, ses propres choix, sa propre responsabilité face à l'injustice.

IV. Synthèse : l'ironie comme mode d'humanisation et de résistance

4.1 Une ironie contestataire, mais profondément humaine

Dans Villa Australia comme dans Le complexe du hérisson, l'ironie est une arme contre la modernité déshumanisante, la corruption, la crise des valeurs. Mais elle est

aussi, et surtout, une manière d'humaniser le récit, de donner à voir la complexité des êtres, la profondeur des blessures, la capacité de résilience. Mazini ne se contente pas de dénoncer : il comprend, il explique, il accompagne ses personnages dans leur quête de sens, leur lutte pour la dignité, leur désir d'exister autrement.

4.2 L'ironie, une esthétique de la lucidité et de la compassion

Loin de se limiter à la satire ou à la moquerie, l'ironie de Mazini est une esthétique de la lucidité et de la compassion. Elle permet de dévoiler les contradictions de la société, mais aussi d'accompagner les personnages dans leur cheminement, leur quête de vérité, leur effort pour rester humains dans un monde qui tend à les déshumaniser. Le lecteur, pris à témoin, est invité à partager cette lucidité, à s'engager dans la réflexion, à refuser la résignation, à croire encore en la possibilité d'un changement.

Conclusion

L'ironie chez Lhbib Mazini n'est pas un simple jeu d'esprit : elle est une posture, une manière d'être au monde, un mode de résistance à l'absurdité, à l'injustice, à la violence sociale. À travers Villa Australia et Le complexe du hérisson, Mazini propose une vision lucide, mais jamais désespérée, de la société marocaine contemporaine. Son écriture, à la fois critique et empathique, invite le lecteur à s'interroger, à comprendre, à ressentir, à agir. L'ironie, chez Mazini, est une leçon d'humanité.

Bibliographie

- Booth, Wayne C. A Rhetoric of Irony. University of Chicago Press, 1974.
- Hadji, Khalid. « L'écriture de la mémoire dans le roman marocain », Revue Maghreb-Machrek, 2012.
- Hutcheon, Linda. Irony's Edge: The Theory and Politics of Irony. Routledge, 1994
- Mazini, Lhbib. Villa Australia. Casablanca, Éditions La Croisée des Chemins, 2016.
- Mazini, Lhbib. Le complexe du hérisson. Casablanca, Éditions La Croisée des Chemins, 2013.
- Perrin, L. L'ironie mise en trope. Paris, PUF, 1990.
- Redouane, Najib. « Les jeunes écrivains marocains et la société », in Littérature maghrébine d'expression française, L'Harmattan, 2000.

Le paratexte comme médiation entre l'auteur et le lecteur Titres et préfaces à l'épreuve de la communication littéraire

Kchikach Dounia

Doctorante à la Faculté des Lettres et des Sciences humaines de Oujda

Laboratoire de recherche : Littérature Générale et Comparée et interculturelité

Email : akchikach@yahoo.fr

Maroc

Résumé :

La communication entre un écrivain et ses lecteurs dépasse le cadre unidirectionnel de la transmission d'un message littéraire. Elle s'inscrit dans une dynamique dialogique où l'intertextualité, le paratexte et les prises de position publiques contribuent à façonner des formes multiples d'échange et de communication. Cet article explore les différents genres et types de communication instaurés par les écrivains à travers leurs discours paratextuels, leurs adresses au lecteur via les éléments paratextuels tels que le titre, la préface, ou encore les formes numériques contemporaines. Loin d'être secondaires, ces seuils textuels constituent des espaces de communication où l'auteur interpelle, oriente, voire construit son lecteur. En s'appuyant sur des exemples littéraires classiques et contemporain, l'étude montre comment le paratexte permet d'instaurer un dialogue même unilatéral, un pacte de lecture, de mettre en scène une posture auctoriale, et de renouveler les formes d'interaction à l'ère du numérique. Ainsi, le paratexte textuel et numérique apparaît comme un dispositif central dans la dynamique relationnelle entre auteur et lecteur et autres acteurs impliqués dans la production et la réception de l'œuvre.

Mots clés : Paratexte, titre, préface, communication littéraire, lecture, auteur, lecteur, paratexte numérique

Abstract:

Communication between a writer and their readers goes beyond the unidirectional framework of transmitting a literary message. It belongs to a dialogical dynamic in which intertextuality, paratext, and public stances contribute to shaping multiple forms of exchange and communication. This article explores the various genres and types of communication established by writers through their paratextual discourse, their addresses to the reader via paratextual elements such as the title, preface, dedication, as well as contemporary digital forms. Far from being secondary, these textual thresholds constitute spaces of communication where the author challenges, guides, or even constructs the reader. Drawing on both classical and contemporary literary examples, this study shows how the paratext enables the establishment of a dialogue — even if unilateral — a reading pact, the staging of an authorial posture, and the renewal of forms of interaction in the digital age. Thus, textual and digital paratext emerges as a central device in the relational dynamic between author and reader, as well as other actors involved in the production and reception of the literary work.

Keywords: Paratext, title, preface, literary communication, reading, author, reader, digital paratext

Introduction :

La communication littéraire ne se limite pas aux contenus internes du texte ; elle débute en amont de la lecture, dans l'espace marginal du paratexte. Gérard Genette (1987) a montré dans *Seuils* que le paratexte constitue une zone frontière essentielle où s'établissent les premières relations entre l'auteur et son lecteur. Les dispositifs paratextuels tels que le titre, la préface, constituent un véritable espace de médiation communicationnelle, où l'auteur anticipe la lecture, fixe des cadres interprétatifs et établit un contrat de lecture (Eco¹, 1979).

Ce seuil n'est pas neutre : il est traversé par des enjeux culturels, idéologiques, mais aussi communicationnels. Dans un contexte de mondialisation des productions littéraires, les textes circulent au-delà de leurs frontières d'origine et s'adressent à des publics divers, porteurs d'univers culturels hétérogènes. Dans cette perspective, le paratexte devient un lieu de communication interculturelle, dans lequel l'auteur, conscient de la diversité de ses lecteurs potentiels, ajuste son discours pour créer un pont culturel. A titre d'exemple, les préfaces des auteurs africains ou maghrébins servent souvent à expliquer et à transmettre des références culturelles, croyances, ou contextes historiques propres à la culture source pour préparer le lecteur d'un autre espace culturel à la lecture. Ainsi, dans la préface à *Peau noire, Masques blancs*, Frantz Fanon s'adresse autant au colonisé (lecteur local) qu'au lecteur européen (lecteur externe).

L'écrivain n'est pas un acteur isolé, retranché dans une tour d'ivoire. Son œuvre, par essence publique, l'inscrit dans une relation communicationnelle et dialogique avec ses lecteurs et ses pairs. Cette communication se décline sous diverses formes : explicite ou implicite, directe ou médiatisée, coopérative ou polémique. Comprendre les genres de communication qui peuvent s'instaurer entre un écrivain et ses lecteurs, c'est interroger les modalités du dialogue littéraire, les stratégies discursives et les fonctions sociales de la littérature.

¹ Umberto, E. (1985). *Lector in fabula. La coopération interprétative dans les textes narratifs*, Paris : Grasset.

Lecteurs et écrivains...un échange constant se crée dont on ne sait plus toujours qui souhaite être l'autre et qui réalise d'être les deux. C'est ce qu'exprime Gaston Bachelard¹ dans *La Poétique de l'espace* lorsqu'il écrit :

« Tout lecteur, un peu passionné de lecture, nourrit et refofle, par la lecture, un désir d'être écrivain(...) En cette admiration qui dépasse la passivité des attitudes contemplatives, il semble que la joie de lire soit le reflet de la joie d'écriture comme si le lecteur était le fantôme de l'écrivain »(Gaston Bachelard, 1983, p.10).

Comment donc aborder cette attraction subjective qu'est « la joie de lire » et « la joie » d'écrire si ce n'est en réfléchissant à l'acte de lecture lui-même dans l'histoire et la société, puis en synthétisant les apports critiques les plus susceptibles de multiplier les plaisirs de la lecture par la mise en évidence de significations, comme le signale à juste titre Jean Ricardou² :

« Lire la littérature (...) c'est tenter de déchiffrer à tout instant la superposition, l'innombrable entrecroisement des signes dont elle offre le plus complet répertoire. La littérature demande en somme qu'après avoir appris à déchiffrer mécaniquement les caractères typographiques, l'on apprenne à déchiffrer l'intrication des signes dont elle est faite » (Jean Ricardou, 1970, p.20).

Repérer « l'innombrable entrecroisement des signes » n'est pas anéantissement du pouvoir des premiers mots. Bertholt Brecht³ écrit à cet égard que *« si l'on veut arriver à la jouissance artistique, il ne suffit jamais de vouloir simplement consommer confortablement et à, peu de frais, le résultat d'une production artistique ; il est nécessaire de prendre sa part de la production elle-même, d'être soi-même à un certain degré productif »*(Brecht Bertholt, 1970, p.16).

Nous allons, dans un premier volet, tenter de survoler le parcours historique de l'acte de lecture et les différentes catégories de lecteurs ; ensuite, on abordera, à travers quelques exemples empruntés aux romans du XIXe siècle et à ceux du XXe siècle, les différentes adresses au lecteur par le biais d'un certain nombre de dispositifs

¹ Bachelard, G. (1983). *La Poétique de l'espace*, 11 Ed. Paris : Ed. Quadrige, PUF.

² Ricardou. (1970). *Problèmes de Nouveau Roman*, Paris : Seuil.

³ Bertholt, B. (1970). *Ecrits sur la littérature et l'art*, Paris : L'Arche.

paratextuels et de dégager un certain nombre de dispositifs paratextuels. Enfin, à l'ère numérique, le texte littéraire ne circule pas isolément, mais est presque toujours accompagné de formes variées de paratextes numériques(métadonnées, stories Instagram, hashtags, blog, forum, quiz, etc.) et puisque la notion de paratexte connaît un renouveau conceptuel et théorique grâce au développement des technologies numériques, nous nous proposons d'analyser les diverses modalités du paratexte numérique, en examinant leurs formes, leurs fonctions et leurs rôles dans la construction du sens et de la réception de l'œuvre.

I –La lecture :

I-1–La lecture, un parcours historique :

Le geste qui consiste à feuilleter un livre ou une revue est un geste qui a mis des siècles à se constituer. Dans l'antiquité, le caractère essentiel de la lecture est son oralité (lectures publiques, récitation). On recourait également à un lecteur pour pallier les inconvénients que présentait le maniement d'un rouleau de parchemin sur lequel figurait le texte. Le contact avec le texte était donc beaucoup plus l'audition d'une parole que la vision d'une écriture. La lecture silencieuse n'apparaîtra, vers l'époque de l'antiquité tardive, qu'avec le remplacement du rouleau de parchemin par le livre, c'est-à-dire une suite de feuillets rassemblés en cahiers et cousus.

Toutefois, la pratique de la lecture s'est trouvée marquée, pendant de nombreux siècles, par la diffusion des Livres Saints (judaïsme, christianisme, islam) des religions monothéistes (Talmud, Bible, Coran). Ces livres, qui sont la référence, nécessitent un clergé lettré et cultivé. En France, par exemple, les écoles paroissiales ont d'abord été créées pour préparer la succession des prêtres de paroisse. On peut donc avancer que lire, c'est d'abord lire le livre saint, la parole de Dieu.

Ainsi, du point de vue de la culture savante, le Moyen Age était une époque à alphabétisation restreinte (d'autant que la Bible est rédigée en latin et non en langue vulgaire). L'écrit n'est pas seulement un code différent, mais une langue différente. Lire était un privilège réservé à une minorité.

La concurrence des églises va cependant encourager et développer l'alphabétisation. Les protestants désirant que le fidèle ait un accès direct au livre saint vont, parallèlement à la réforme qu'ils proposent, promouvoir l'alphabétisation contre l'obscurantisme des catholiques. Ensuite, la contre-réforme sera marquée par le développement du réseau d'écoles et de collèges catholiques. En règle générale, la lecture avait une utilité religieuse.

Parallèlement à cette lecture religieuse, il faut noter que l'écrit joue un rôle considérable comme support de la tradition juridique et participe au maintien d'une culture lettrée, à un moindre degré cependant que l'église.

Conjointement à cette lecture sacrée, se développe ce que Gérard Vigner¹ appelle une « *lecture fonctionnelle* » (Vigner, 1979, p. 19) à motivation économique : signer les actes notariés, lire les Almanachs ou les ouvrages de la Bibliothèque Bleue² diffusés par les colporteurs et lire et rédiger le livre des comptes.

En 1882, l'Ecole Laïque et Obligatoire (la Lecture pour tous) n'est que l'aboutissement d'un processus complexe, de la lecture orale, collective et publique, à la lecture personnelle. Cette lecture souligne l'ouverture vers le désir d'émancipation des individus et marque le passage du sacré au laïque et de l'éthique au fonctionnel ; mais pour que la relation du lecteur à ce qu'il lit soit profonde, il faudrait que la lecture soit associée à l'écriture, car écrire c'est pouvoir communiquer en secret, d'individu à individu. Lire seulement n'est qu'une attitude passive. C'est le passage à la consommation personnelle d'un texte. Ce n'est qu'au milieu du XIXe siècle que lire et écrire seront enseignés simultanément et deviennent alors des instruments personnels de communication.

Le pouvoir de lecture, au fil des siècles, permet ainsi à l'individu d'accéder progressivement à une communauté intellectuelle et culturelle plus dispersée, mais

¹Vigner, G. (1979). *Lire : du texte au roman*, Paris : Clé International.

²« La Bibliothèque Bleue » désigne une forme de littérature populaire française qui a prospéré au XVIIe et au XIXe siècles. Les livres, bon marché et de petit format, étaient souvent de papier bleu et jouaient un rôle important dans la diffusion de la culture populaire.

plus étendue, plus ouverte, disposant de nouvelles sources d'informations, relativisant et par là même dévaluant le savoir des Anciens et la force de la coutume.

La rencontre du lecteur avec le texte s'inscrit donc dans un moment historique et dans un espace culturel donnés. La lecture silencieuse, intérieure, individuelle est tout autant le produit de déterminations et sociales et historiques que l'issue d'un combat individuel, mais elle ne saurait être considérée comme l'expression d'une aptitude innée, comme le signale Gérard Vigner : « *L'Histoire nous l'apprend : il n'y'a rien de naturel dans l'acte de lire* »(Ibid.,p.25).

I-2 –La lecture en tant que métier ou profession :

Depuis l'avènement de la théorie de la réception, la place du lecteur dans l'analyse littéraire a été profondément renouvelée. Des auteurs comme Hans Robert Jauss¹ (1978), Wolfgang Iser² (1972) ou Umberto Eco (1985) ont contribué à concevoir le texte comme un espace d'interaction où le lecteur n'est plus un réceptacle passif, mais un co-constructeur de sens. Dès lors, il convient de différencier les types de lecture et les figures de lecteurs qui émergent de cette interaction. C'est ainsi que Hans Robert Jauss distingue trois types distincts de lecteurs :

I-2-1- le lecteur-récepteur ou lecteur normal est une figure implicite de la communication littéraire, une figure pragmatique et présupposée dans l'économie communicationnelle du texte. Il correspond à ce que Umberto Eco appelle le « *lecteur modèle* », une instance construite par le texte lui-même, appelée à suivre les règles du jeu interprétatif proposées par l'auteur. Ce lecteur se conforme aux horizons d'attente du genre, du style et de la structure narrative. Il lit en respectant les conventions, sans interroger profondément les mécanismes d'écriture ou les effets du pouvoir du discours. Selon Wolfgang Iser, ce lecteur fonctionne comme un « *actualisateur* » du texte.

I-2-2- Le lecteur critique est une figure réflexive et interrogative, il dépasse la fonction de simple récepteur, il questionne le texte, le met à l'épreuve, déconstruit

¹ Hans Robert Jauss(1978). *Pour une esthétique de la réception*, Paris :Gallimard.

² Wolfgang, I. (1985). *L'Acte de lecture. Théorie de l'effet esthétique*, Paris : Ed. Mane.

ses présupposés idéologiques, esthétiques ou rhétoriques. Sa lecture est souvent méta-textuelle. Ce type de lecteur peut se rapprocher du lecteur « *soupçonneux* » tel qu'il est défini par la critique idéologique ou psychanalytique, à l'instar de Paul Ricoeur¹ (1975). Il traque les non-dits, les stratégies discursives implicites et met en lumière la dimension politique ou idéologique du texte. Le lecteur-critique incarne également la figure du lecteur universitaire ou analytique ; il est celui qui mobilise les outils théoriques pour déconstruire l'œuvre, sans se laisser guider uniquement par l'intention de l'auteur ou la linéarité du récit.

I-2-3- Le lecteur-auteur est une figure créative et participative. Il apparaît dans des contextes où la lecture devient écriture, appropriation ou transformation active du texte. Cette figure trouve sa pleine expression dans la littérature hypertextuelle, les fanfictions, ou encore dans les lectures créatives qui déplacent les cadres impératifs initiaux.

Roland Barthes (1984), dans l'œuvre intitulée *La Mort de l'auteur*, ouvrait déjà la voie à une telle reconfiguration des rôles : l'idée centrale de cette œuvre est que le texte est un tissu de citations et de références à d'autres textes et que le lecteur joue un rôle actif dans la création du sens et devient lui-même un auteur.

Dans une perspective contemporaine, cette figure est amplifiée par les technologies numériques : blogs littéraires, annotations collaboratives et intelligence artificielle participent à redéfinir les frontières entre lecture et écriture, entre auteur et lecteur.

Toutefois, cette typologie relative aux catégories de lecteurs n'est pas figée et obéit à une interaction dynamique et évolutive. Les trois figures ne s'excluent pas, mais s'inscrivent dans un continuum de postures lectorales. Un même lecteur peut endosser ces différentes figures selon les contextes, les genres, ou ses compétences interprétatives. Les indications paratextuelles peuvent être autant de signaux orientant la lecture, invitant parfois à une lecture « normale », ou au contraire à une lecture critique ou créative. L'auteur adresse ainsi au lecteur des injonctions implicites qui guident son positionnement. La relation auteur-lecteur ne peut être

¹ Ricoeur, P. (1975). *Le Conflit des interprétations*, Paris : Seuil.

réduite à une communication linéaire, elle relève d'un échange complexe, souvent implicite, où le texte joue un rôle de médiation entre les intentions de l'auteur et les compétences du lecteur. La typologie proposée permet de mieux comprendre la diversité des pratiques lectorales et les implications herméneutiques, épistémiques et même politiques ou idéologiques. En cela, elle contribue à réaffirmer le rôle actif du lecteur dans la dynamique littéraire.

II–Les adresses au lecteur via le paratexte comme mode de communication entre l'auteur et le lecteur :

La relation entre un auteur et son lecteur ne débute pas nécessairement avec les premières lignes du texte principal. Elle s'amorce souvent en amont, dans ces espaces liminaires que sont les éléments paratextuels : titre, préface, ou encore, aujourd'hui, des formes numériques variées.

En effet, avant de lire le texte lui-même, un certain nombre d'énoncés extratextuels ou périphériques interpellent le lecteur et conditionnent sa lecture. Cet espace textuel a été l'objet de nombreuses investigations. Gérard Genette¹ entamait déjà sa réflexion sur ces éléments paratextuels, dont la genèse s'étend sur plusieurs années. A partir de la fin des années 1970, notamment dans *L'Architecte* (1979), en 1982, dans un article publié dans la revue *Poétique* (no 51) où Genette emploie pour la première fois de manière explicite le terme de paratexte et en propose une définition provisoire : « *Le paratexte, ce sont ces productions auxiliaires qui entourent le texte : titres, préfaces, dédicaces, avertissements, notes, etc., qui orientent et conditionnent la réception du texte* » (Genette, 1982)². Quelques années après, Gérard Genette reprend une ancienne citation dans son Introduction à son œuvre *Seuils* :

« *Je m'apprête aujourd'hui à aborder un autre mode de transcendance, qui est la présence, fort active autour du texte, de cet ensemble, certes hétérogènes, de seuils*

¹ Genette. (1984). *Les Seuils du texte*. Communication présentée au Colloque Les Seuils du texte, Université Paris 8. Cette citation est reprise par l'auteur en 1987 dans son Introduction à son œuvre, *Seuils*, Paris : Ed. Du Seuil, Coll. Poétique.

² Genette. (1982). « *Introduction à l'architecte* », *Poétique*, no 51, p.180.

et de sas que j'appelle le paratexte (...) qui (est) pour le dire trop vite, le versant éditorial et pragmatique de l'œuvre littéraire et le lieu privilégié de son rapport au public et par lui, au monde» (Gérard Genette, 1984, et 1987, p.8)

Un autre critique, Pierre-Emmanuel Cordoba¹ proposait déjà de nommer « périgraphie » du texte ce qu'il énumérait ainsi :

« Signature (nom réel ou pseudonyme), titre, prologue, préface, avertissement de l'auteur ou de l'éditeur fictif, exergue, épigraphe, table des matières, texte de la jaquette ou de la 4e couverture dont on ne sait jamais très bien, malgré son importance puisqu'il détermine la plupart du temps la décision d'achat et donc de lecture, s'il revient à l'auteur ou au directeur de la collection » (Pierre-Emmanuel Cordoba, 1984, p.39).

Périgraphie ou paratextualité, nous allons donc en étudier quelques éléments que nous estimons pertinents, en vue d'appréhender les enjeux de la communication littéraire, celle qui est assumée par le paratexte.

II-1-Le titre : typologie et fonctions :

Le titre est à la fois une partie d'un ensemble et une étiquette de cet ensemble. Dès le XIXe siècle, on se préoccupe, tant du côté du typographe, de l'auteur que de l'éditeur, de cet « aimant » que peut représenter le titre. Il doit être à la fois stimulation et début d'assouvissement de la curiosité du lecteur ; aussi réunit-il les fonctions de tout texte publicitaire : référentielle, conative et poétique. En ce qui concerne les œuvres littéraires, le rôle du titre est plus complexe et, en conséquence, il faudrait examiner sa place sur la couverture et sa fonction par rapport au texte du roman. Claude Duchet² part ainsi de la proposition suivante :

« Le titre du roman est un message codé en situation de marché ; il résulte de la rencontre d'un énoncé romanesque et d'un énoncé publicitaire ; en lui se croisent

¹ Cordoba, P.-E. (1984). « *Prénom Gloria. Pour une pragmatique du personnage* », in le IVe Colloque du S.E.L. organisé par l'Université de Toulouse sous le thème Le Personnage en question.

²Duchet, C. (1973). « *La fille abandonnée et La Bête humaine : éléments de titrologie romanesque* », Littérature, no 12, décembre, p.49-73.

nécessairement littéralité et socialité :il parle l'œuvre en termes de discours social mais le discours social en termes de roman » (Claude Duchet,1973, p.50).

Le titre et le roman sont donc en étroite complémentarité et Claude Duchet d'ajouter :

« L'un annonce, l'autre explique, développe un énoncé programmé jusqu'à reproduire parfois en conclusion son titre, comme mot de la fin, et clé de son texte. Cependant, installé sur sa page ou inscrit dans un catalogue, le titre vise à sa complétude, affiche son ipséité, s'érige en micro-texte autosuffisant, générateur de son propre code et relevant beaucoup de l'intertexte des titres et de la commande sociale que du récit qu'il intitule » (Ibid., p.50).

Comme on le devine, Claude Duchet considère le titre non seulement comme un élément textuel, mais aussi comme un énoncé à statut institutionnel, qui participe à l'entrée du texte dans le champ littéraire. Dans ses travaux, il s'inspire notamment des analyses de Pierre Bourdieu sur le champ littéraire, ce qui l'amène à penser le titre comme un opérateur de légitimation, et, selon Duchet, le titre doit trouver un équilibre entre les « lois du marché et le vouloir-dire de l'écrivain. »

Claude Duchet, pour qui le titre fait partie de ce qu'il appelle la « *périphérie stratégique* » du texte, insiste davantage sur la fonction de repérage, de cadrage idéologique et bien sûr d'interpellation du lecteur, y voyant un point d'entrée dans l'univers discursif de l'œuvre.

Cependant, Claude Duchet ne développe pas une théorie du paratexte ou une titrologie autonome, mais intègre l'analyse des titres dans le cadre de l'analyse du discours idéologique. Dans ses analyses de romans du XIX^e siècle, il montre comment les titres participent de la stratégie d'inscription sociale et politique de l'œuvre. Il s'attarde sur la manière dont les choix lexicaux, syntaxiques ou typographiques dans les titres signalent déjà un positionnement dans le champ idéologique.

Ce n'est donc qu'avec les travaux de Gérard Genette (1987) que nous assistons au développement théorique de la titrologie. Sa théorie du paratexte formulée dans son ouvrage *Seuils* marque une étape décisive dans l'histoire de la narratologie et de

la poétique textuelle. Loin de considérer le texte comme une entité close, Genette attire l'attention sur ses marges, ses entours, ses seuils ; ces éléments que sont les titres, préfaces, etc. sont regroupés sous le terme générique de paratexte, que Genette définit comme « *l'ensemble des éléments qui, sans appartenir au texte proprement dit, le présentent, le commentent ou le conditionnent* » (Gérard Genette, 1987, p.7). Le critique distingue ainsi deux types principaux de paratexte : le péri-texte, qui est matériellement rattaché au texte (titre, préface, etc.), et l'épi-texte, qui est extérieur au livre mais le concerne (entretiens, lettres, publicités, critiques, etc.).

II-2- -L'interpellation du lecteur par les titres de certains romans du XIX^e siècle :

Dans le roman du XIX^e siècle, le titre occupe une place stratégique, puisqu'il est situé à la frontière du texte et constitue le premier acte de communication (référentielle et emphatique) entre l'auteur et son lecteur. Chez deux grands romanciers du siècle, Balzac et Zola, cette fonction du titre s'exprime selon des modalités contrastées mais convergentes dans leurs visées. Tandis que Balzac donne souvent à ses titres une valeur typologique ou sociale (*Eugénie Grandet*, *Le Père Goriot*), Zola privilégie les désignations thématiques et symboliques (*Germinal*, *L'Assommoir*, *L'Argent*, *La Curée*). Ces choix ne relèvent pas d'une simple esthétique nominale, mais participent d'un pacte de lecture où le lecteur est convié, à travers le titre, à adopter une posture d'enquêteur, de moraliste ou de témoin engagé.

Nous considérons donc que les titres balzaciens interpellent le lecteur par leur fonction classificatoire, moraliste et sociale, ancrée dans une visée réaliste et typologique, tandis que les titres de Zola convoquent le lecteur à travers une charge symbolique et thématique, propre à la logique naturaliste et expérimentale. Ces deux stratégies, bien que divergentes sur le plan formel, convergent dans leur ambition d'associer étroitement le lecteur à une entreprise de déchiffrement du réel.

II-2-1-Des titres à portée descriptive ou programmatique :

Balzac adopte une stratégie d'interpellation fondée sur le portrait-type. Les titres comme *Eugénie Grandet*, *Le Père Goriot*, ou *César Birotteau* agissent comme des entrées biographiques dans une société en mutation. Ils promettent au lecteur un cas représentatif, qui sera mis en lumière sous l'angle moral, psychologique et social. A travers ces noms propres, Balzac guide son lecteur dans l'univers de la société française post-napoléonienne.

A l'inverse, les titres des *Rougon-Macquart* relèvent d'une démarche plus conceptuelle et symbolique. *Germinal* évoque à la fois la révolution et la germination d'un monde nouveau. *La Bête Humaine* désigne une pulsion violente sous-jacente à la condition humaine. Ces titres font appel à la culture politique et mythologique du lecteur et le poussent à interpréter l'œuvre comme une allégorie sociale. Les titres balzaciens orientent donc la lecture vers l'individu et son environnement ; ceux de Zola vers un phénomène global et une critique systémique.

II-2-2-Des sous-titres explicites chez Balzac, absents ou implicites chez Zola :

Balzac classe ses œuvres dans des catégories génériques précises : *Scènes de la vie privée*, *Scènes de la vie de province*, *Etudes philosophiques*. Ces sous-titres guident la lecture et anticipent le contenu. Ils positionnent le lecteur comme témoin d'un chapitre de l'histoire sociale. Ainsi, le roman, intitulé *La Maison Nucingen*. *Scènes de la Vie parisienne*, prépare le lecteur à une analyse du capitalisme mondain et des intrigues financières. Zola, en revanche, ne recourt pas à des sous-titres éditoriaux, mais chaque roman s'intègre dans une série organisée par la science héréditaire. Cette absence est compensée par la préface¹ de 1871, préface au premier roman de son cycle romanesque, *La Fortune des Rougon*, où il présente le projet de sa série romanesque :

« Je veux expliquer comment une famille, une petite bande d'êtres, se comporte dans une société, en suivant les lois de la nature et de l'hérédité. [...] En un mot, j'ai voulu dans *Les Rougon-Macquart*, montrer comment une famille se comporte dans

¹ Zola, E. (1960). *La Fortune des Rougon*, Paris : Gallimard, Ed. Henri Mitterrand 1, Coll. La Pléiade.

une société en transformation, sous un régime politique qui favorise l'épanouissement des appétits. (...) Chaque roman illustre les tares, vices ou luttes sociales affectant les membres d'une lignée sur fond de Second Empire. » (La Fortune des Rougon, 1960, p.7-8.)

Le lecteur averti et informé est donc interpellé sur un plan implicite : chaque titre devient un chapitre d'une fresque où la cause est biologique et sociale. Zola remplace donc l'indication explicite (sous-titre) par un horizon de lecture global (le cycle naturaliste), exigeant une compétence interprétative du lecteur.

II-2-3-Titres à valeur métaphorique ou à double lecture :

L'une des fonctions essentielles du titre est sa capacité à concentrer la signification. Chez Balzac, des titres comme *La Peau de chagrin* ou *Illusions perdues* font écho à des thématiques philosophiques universelles : le désir, la jeunesse, la déception, la vanité. Le lecteur est ainsi convié à une réflexion existentielle.

Chez Zola, *L'Assommoir* renvoie à un lieu (le cabaret) et à son effet destructeur, tandis que *La Terre* prend une dimension symbolique de la fécondité corrompue. Le titre devient le lieu d'une tension entre le concret (un objet, un lieu) et l'abstrait (un mal social et moral). Le lecteur est convoqué à décoder cette ambivalence incarnée par *La Terre* qui est à la fois source du bien et du mal, une Bonne Mère et une Marâtre.

Dans les deux cas, le titre fonctionne comme une clé d'interprétation : il ouvre sur plusieurs niveaux de lecture et instaure une connivence intellectuelle entre auteur et lecteur.

II-2-4-L'adresse au lecteur par la fonction éditoriale du titre :

L'interpellation du lecteur ne passe pas seulement par le contenu lexical du titre, mais aussi par sa mise en réseau. Chez Balzac, le regroupement en catégories constitue une promesse d'exhaustivité : *La Comédie Humaine* est une entreprise quasi cartographique de la société. Le lecteur devient explorateur de classes, de mœurs, de passions.

Chez Zola, le projet naturaliste est annoncé dès le titre global : *Histoire naturelle et sociale d'une famille sous le Second Empire*. L'interpellation est double : elle est scientifique et biologique (histoire naturelle ; le lecteur sera témoin d'expériences) et politique (histoire sociale ; le lecteur observera les effets de l'idéologie impériale). Ainsi, *Germinal* ou *La Débâcle* ne sont pas des titres isolés mais des jalons d'un processus globale décomposition et d'analyse sociale.

En conclusion, le titre est la première interface entre l'œuvre et son lecteur. Il attire, informe, oriente. A travers lui, l'auteur propose une première lecture de son texte. Le titre peut remplir des fonctions référentielles, thématiques ou connotatives. Mais il est aussi un acte de communication : il présuppose un lecteur, auquel il s'adresse de manière implicite, simulant son attention ou orientant son horizon d'attente.

III– L'adresse au lecteur dans les préfaces : un dispositif de communication littéraire :

La préface constitue sans doute l'un des lieux les plus explicites et le plus privilégié de la communication entre l'auteur et son lecteur. Loin d'être un simple ornement, elle fonctionne comme un dispositif d'adresse, de justification ou de séduction. Elle permet à l'auteur de s'adresser directement à celui ou à celle qui s'apprête à lire, en lui fournissant des clés d'interprétation, en exposant ses intentions ou en justifiant ses choix. Ce seuil textuel, souvent rédigé à la première personne, joue un rôle didactique, argumentatif et stratégique. Gérard Genette définit la préface comme un élément du paratexte ayant pour fonction d'« *assurer pour le texte un mode d'existence et de réception* » (Gérard Genette, Op.Cit., p.13).

Dans les lignes qui suivent, nous analysons la fonction communicative des préfaces en nous appuyant sur des exemples emblématiques empruntés à quelques auteurs des XIX^e et XX^e siècles. Nous essayons d'examiner comment les auteurs utilisent ce dispositif pour instaurer un dialogue avec le lecteur, orienter la réception de l'œuvre et, parfois, négocier leur propre posture d'auteur.

III–1–La préface comme pacte de lecture et dispositif de médiation :

Dans sa *Préface de Cromwell*, Victor Hugo¹ pose d'emblée une réflexion sur la mission du poète et la transition esthétique entre clacissicisme et romantisme. L'adresse au lecteur y est directe : « *Le moment est venu de faire justice à ce qu'on appelle le goût du public* » (Victor Hugo, 1827, 1985, p.627). Hugo s'adresse au lecteur cultivé mais aussi au critique pour orienter la lecture de la pièce. Il inscrit son texte dans une tradition littéraire tout en revendiquant une rupture. La préface devient ici un manifeste esthétique, mais aussi, une invitation à lire autrement.

Dans la préface de *La Comédie humaine*, Balzac² expose son ambition de peindre la société de son temps : « *La Société Française allait être l'historien, je ne devais être que le secrétaire* » (Balzac, 1976, p.13). Balzac construit ici une posture d'humilité apparente pour mieux légitimer la portée quasi scientifique de son œuvre. L'adresse au lecteur est sans ambages : il s'agit de capter sa confiance en le plaçant au cœur du projet réaliste

III-2-La préface comme plaidoyer et quête de légitimation :

Chez les romanciers naturalistes, la préface devient un lieu de justification esthétique. Dans la préface de *Thérèse Raquin*, Zola³ répond aux critiques en les anticipant : « *Je veux seulement expliquer comment j'ai été amené à écrire ce livre, quelles ont été mes intentions et dans quelles conditions je l'ai produit. J'ai voulu étudier les tempéraments et non les caractères* » (Zola Eile, 1967, p.9). Zola oriente ainsi la lecture du texte vers une perspective naturaliste et psychologique. L'adresse au lecteur est ici fortement interprétative, visant à imposer une grille de lecture et à légitimer une démarche littéraire fondée sur l'observation et l'expérimentation. En outre, Zola, qui s'inquiète de la réaction de ses confrères les critiques littéraires, établit d'avance une communication défensive avec son lectorat : la préface prend des allures de procès d'intention auquel l'auteur répond par une stratégie argumentative. Cette posture dialogique, presque polémique, est une forme de métacommunication sur le texte à venir.

¹ Hugo, V. (1827). *Préface au Cromwell*, Œuvres Complètes (Ed. 1985), T.1, Paris : Robert Laffont, Coll. Bouquins.

² Balzac, H. (1976). *Avant-propos de La Comédie humaine*, T.1, Paris : Gallimard, Coll. La Pléiade.

³ Zola, E. (1967). *Thérèse Raquin* (Ed. Henri Mitterrand). Paris : Gallimard, Coll. « Folio classique ».

III-3-La préface comme confession et justification :

Déjà, au XVIII^e siècle, les préfaces, comme chez Rousseau¹, sont de véritables manifestes ; dans celle des *Confessions*, Rousseau déclare : « *Je veux montrer à mes semblables un homme dans toute la vérité de la nature* » (Rousseau, 2002, p.5). On le voit bien, l'auteur revendique la sincérité absolue, établissant un contrat moral avec le lecteur. Cette adresse explicite construit une posture de transparence, mais également de singularité revendiquée.

Le cas de Marcel Proust est exceptionnel, car l'auteur est plus réticent à l'égard de la préface traditionnelle. Dans une lettre à Jacques Rivière, il exprime sa crainte que la préface gêne la lecture et pourrait influencer trop tôt l'esprit du lecteur. Pourtant, dans *Contre Sainte-Beuve*, Proust² développe des réflexions qui auraient pu constituer une préface à *A la Recherche du temps perdu*. Il y questionne l'acte de lire et d'écrire, en évoquant un lecteur modèle : « *Le livre véritable est celui qui pourrait être écrit dans le silence le plus total, comme s'il n'avait pas de lecteurs* » (Marcel Proust, 1971, p.60-61). Ce refus paradoxal de l'adresse au lecteur devient en soi une posture, celle d'une littérature autonome et intérieure, qui refuse les conventions de l'interpellation.

Contrairement à la méfiance, exprimée par Proust, envers l'avant-dire, la préface d'André Gide est une justification et un dévoilement. Dans *Les Nourritures terrestres*, Gide³ insère, dès l'entrée dans le texte, une adresse emblématique : « *Nathanaël, je t'enseignerai la ferveur* » (André Gide, 1996, p.29). Nathanaël représente le jeune lecteur ou le disciple idéal, à qui l'auteur souhaite transmettre une leçon de vie fondée sur la sensibilité, le désir, la liberté et l'extase de vivre. Cette adresse fictive engage néanmoins tout lecteur dans une lecture intime, presque initiatique. De manière plus explicite, dans la préface aux *Faux monnayeurs*, André Gide⁴ écrit : « *Il m'a semblé nécessaire de dire à mes lecteurs comment j'ai construit ce livre* » (Gide, 2002, p.27). L'auteur assume une fonction

¹Rousseau, J.-J. (2002). *Les Confessions*, Œuvres complètes, T.1, Paris : Gallimard, Coll. La Pléiade.

²Proust, P. (1971). *Contre Sainte-Beuve*, Paris : Gallimard, Coll. Tel.

³Gide, A. (1996). *Les Nourritures terrestres*, Paris : Gallimard, Coll., « Folio classique ».

⁴Idem (2002). *Les Faux monnayeurs*, Paris : Gallimard, Coll., « Folio classique ».

pédagogique et transparente, dans laquelle il enseigne et partage les mécanismes de sa création. La préface devient une autoscopie littéraire, un espace de dévoilement.

III-4-La préface comme lieu de la prise de position idéologique :

Dans ce genre de préfaces, l'espace paratextuel devient un lieu de prédilection pour l'affichage et l'inscription des positions idéologiques, où l'auteur prépare le lecteur à recevoir son œuvre sous un angle engagé. Ces préfaces sont souvent des manifestes qui inscrivent clairement l'œuvre dans un contexte historique et social précis, assumant un rôle politique au-delà du simple commentaire littéraire.

Dans la Préface à *Les Mains sales*, Sartre¹ défend l'engagement politique de l'écrivain, en particulier dans le contexte de la Seconde Guerre mondiale et de la montée des idéologies : « *Un homme est toujours responsable de ce qu'il fait. (...) Ecrire une pièce politique, c'est prendre parti* » (Sartre, 1948, p.9-41). Il en va de même dans la préface de *Les Damnés de la terre* de Frantz Fanon où Sartre² s'adresse directement au lecteur européen : « *Il faut lire Fanon, car ce qu'il dit de vous, c'est la vérité* » (Sartre, 2002, p.21). Cette interpellation brutale transforme la préface en acte politique et transfère la voix de l'auteur vers un engagement collectif, en exhortant le lecteur à sortir de sa position de neutralité ou de complicité.

Dans d'autres œuvres, notamment *Qu'est-ce que la littérature ?* Sartre³ reprend cette idée que la littérature est un acte : « *Ecrire, c'est dévoiler le monde, et proposer ce monde au jugement du lecteur* » (Sartre, 1996, 76). La préface est dès lors conçue comme une tribune, un espace de confrontation idéologique. L'adresse au lecteur y prend des allures de provocation, de défi, mais aussi de mise en responsabilité, comme si c'était une transfiguration littéraire de sa doctrine philosophique, l'existentialisme.

Dans la Préface à *L'Homme révolté*, Albert Camus⁴ développe sa réflexion sur la révolte comme condition humaine et s'oppose aux totalitarismes communistes et

¹ Sartre, J.-P.S. (1948). Préface à *Les Mains sales*, Paris : Gallimard, Coll., « Folio classique ».

² Idem. (2002). Préface à *Les Damnés de la terre*, Paris : La Découverte.

³ Idem. (1996). *Qu'est-ce que la littérature ?* Paris : Gallimard, Coll. « Folio Essais ».

⁴ Camus, A. (1951). *L'Homme révolté*, Paris : Gallimard, Coll. « Folio classique ».

fascistes : « La révolte est donc la seule position philosophique qui ne trahisse ni la raison ni la justice »(Albert Camus,1951,p.11).

III-5-La préface chez quelques Nouveaux Romanciers comme espace de déconstruction de la fiction traditionnelle :

Les Nouveaux Romanciers, particulièrement dans les années 1950-1970, ont profondément transformé la fonction de la préface. Loin d'un simple avant-propos explicatif, leurs préfaces deviennent un espace réflexif, critique et souvent subversif, où ils remettent en question les conventions du roman traditionnel, notamment la narration linéaire, le statut du personnage et la toute -puissance de l'auteur omniscient.

Dans la Préface à *La Jalousie*, Alain Robbe-Grillet¹ défend un roman objectif, débarrassé de la psychologie. « *Ce roman n'a pas de sujet, pas de personnages, pas d'histoire* » (Alain Robbe-Grillet,1962, p.7). La préface, ce texte programmatique, introduit le roman tout en niant la fonction classique, c'est-à-dire en détruisant ses principales charpentes. L'auteur anticipe la réaction du lecteur et déplace le pacte de lecture : le roman n'est plus un lieu d'un récit vivant, mais un espace d'expérimentation formelle. La préface devient ici un contre-modèle d'emploi, presque ironique.

Chez Nathalie Sarraute², par contre , la préface à *L'Ere du soupçon* dépasse le cadre d'un seul livre pour poser un nouveau paradigme narratif : « *Le personnage, tel que nous l'avons connu, est mort, ou du moins, en voie de décomposition* »(Nathalie Sarraute,1956,p.25). Cet essai critique est présenté comme une préface générale à toute son œuvre. Il s'agit d'un manifeste esthétique, qui critique le roman balzacien et son illusion réaliste, et prépare le lecteur à une lecture fragmentée, centrée sur les mouvements intérieurs, les « tropismes ». Sarraute propose donc une redéfinition radicale du roman, ce qui transforme la préface en espace critique autonome.

¹ Robbe-Grillet, A. (1962). *La Jalousie*, Paris : Ed.de Minuit.

²Sarraute,N.(1956).*L'Ere du soupçon*,Paris :Gallimard,Coll. « Les Essais ».

En ce qui concerne Michel Butor, il convient de remarquer qu'il n'a pas rédigé une préface à son roman *La Modification* lors de sa première parution en 1957. Ce roman, comme *La Jalousie* de Robbe-Grillet, est marqué par la remise en cause des formes narratives classiques. Cependant, une préface a été ajoutée par l'auteur dans des éditions ultérieures notamment pour clarifier ses intentions esthétiques ou idéologiques. Il a également souvent commenté *La Modification* dans des entretiens et articles, jouant ainsi un rôle paratextuel équivalent à celui d'une préface.

La première édition de *La Modification*¹ se caractérise par une absence signifiante. La fonction de la préface semble en quelque sorte intégrée à la structure même du roman. Le récit s'ouvre, in media res, sur un « vous » adressé au protagoniste, et, par effet de miroir au lecteur (« *Vous avez bien fait de profiter de cette heure de liberté relative* »)(Michel Butor, 1957, p.9), plongeant immédiatement dans l'action intérieure du personnage. Plutôt que d'explicitier les intentions de l'auteur avant le récit, la structure du roman – son usage de la deuxième personne du singulier – prend la place d'un discours liminaire.

Cependant, cet incipit immersif est déstabilisant : cette première phrase nous plonge directement dans la conscience du personnage principal, Léon Delmont. Le choix de « vous » instaure une forme d'adresse directe, mais ambiguë : s'agit-il d'un narrateur omniscient qui parle au personnage ? d'un dialogue intérieur ? ou d'une interpellation du lecteur ?

Ce n'est que dans l'édition Folio no 27 de *La Modification* que Butor² ajoute un texte liminaire intitulé « Avant-propos », où il signale : « *Je voudrais que le lecteur soit entraîné dans la décision, prise, qu'il en devienne d'une certaine manière complice* » (Michel Butor, 1972, p.7). Ce texte remplit la fonction d'une préface rétrospective, où l'auteur revient, plusieurs années après la première publication, sur ses intentions, le contexte d'écriture et la réception du roman. Il explique comment *La Modification* s'inscrit dans le projet de renouvellement du roman ; il voulait écrire un roman strictement temporel, situé dans une durée circonscrite (un voyage en train), mais chargé d'un flux de conscience intérieure. Il y revient sur le choix de

¹ Butor, M. (1957). *La Modification*, Paris : Gallimard, Coll., « NRF ».

² Idem (1972). *La Modification*, Paris : Gallimard, Coll., « Folio classique ».

la deuxième personne du singulier, qu'il justifie par une volonté de briser les conventions narratives, mais aussi de faire vivre au lecteur l'expérience de la décision intérieure. Le « vous » devient miroir : c'est à la fois le personnage, mais aussi le lecteur, entraîné dans le processus de transformation.

Chez les Nouveaux Romanciers, la préface n'est ainsi ni didactique ni justificative au sens traditionnel, mais une intervention théorique. Elle s'apparente à un espace de réflexion sur l'acte même d'écrire, souvent critique vis-à-vis de la littérature du passé, notamment réaliste et psychologique. Elle anticipe, interroge, déstabilise le lecteur en l'amenant à repenser sa posture de lecture.

III- Le paratexte numérique :

Le numérique transforme profondément la communication auteur-lecteur et leurs modalités d'interaction. Le paratexte, jadis périphérique, devient dans l'environnement numérique un dispositif central de communication. Nous allons donc essayer de voir certaines nouvelles formes de paratextes numériques (profils d'auteurs, plateformes sociales métadonnées, etc.) en tant qu'espaces dialogiques et interactifs. Nous interrogeons également le rôle actif du lecteur dans la co-construction de ces seuils numériques, à l'intersection de la textualité, de l'intermédialité et des pratiques participatives.

III-1-Du seuil au dialogue ;

Depuis Gérard Genette, le paratexte est considéré comme un « seuil », un « dispositif d'accueil » qui oriente la lecture. Or, à l'ère numérique, ce seuil ne précède plus simplement le texte : il devient espace d'échange, interface de communication, voire lieu de co-production. La relation auteur-lecteur se déplace ainsi du cadre imprimé vers des formes interactifs et connectées.

III-2-Typologie des paratextes numériques

De prime abord, il convient de signaler que la distinction faite par Genette entre le paratexte péritextuel, situé dans le livre et la paratexte épitextuel, situé hors du livre, semble s'effacer en partie avec la transition numérique. Les frontières entre le texte et le hors-texte deviennent plus poreuses, les supports se diversifient et les

interactions entre auteur, œuvre et lecteur se multiplient¹. Pour ne citer que quelques exemples, la page d'accueil d'un livre avec son titre, son image de couverture, et le nom de l'auteur constituent des péri-textes numériques, alors qu'un thread Twitter (X) où un auteur discute son propre œuvre, répond aux commentaires des lecteurs, ou les stories Instagram, d'un éditeur annonçant la sortie d'un tirage limité, tous ces éléments appartiennent à l'épi-texte numérique. Dans cette perspective, le paratexte numérique est envisagé comme un processus participatif et mouvant, où les frontières entre texte, auteur et lecteur sont brouillées. Alexandra Saemmer², qui a travaillé sur la manière dont les formes numériques modifient les pratiques de lecture, d'écriture et de communication, écrit à ce propos : « *Le lecteur est désormais un co-constructeur du paratexte numérique : il commente, partage, annote, remixe et recontextualise les contenus* » (Alexandra Saemmer, 2015, p. 221).

Un autre point important mérite d'être signalé est la réflexion sur le statut de l'auteur dans le paratexte. Celui-ci est un lieu de mise en scène de l'auctorialité ; mais avec le numérique, cette autorité est délégitimée ou partagée, car le paratexte numérique peut être produit par l'éditeur, le média, ou même par les lecteurs eux-mêmes à travers les commentaires, les forums, les métadonnées. Le pouvoir de cadrage échappe donc parfois à l'auteur.

III-2-1-Les profils d'auteurs sur les plateformes numériques : sur ces plateformes telles qu'Amazon, Wattpad, Medium ou Babelio, les auteurs disposent de pages de présentation où ils publient des notes, annonces, intentions d'écriture ou réponses aux commentaires. Ces pages servent de préface évolutive, souvent personnalisée et émotionnellement marquée.

¹ Voir à ce sujet, Marjell, F. Le Brave, L. & Derrida. (2003). *Le Texte et ses marges. Approches du paratexte*, Paris : L'Improviste. Même si le travail date de 2003 et reste centré sur des œuvres imprimées, certains passages anticipent les mutations liées au numérique ; le paratexte numérique est évoqué comme « mobile, reconfigurable et proliférant » ; il permet « une navigation non linéaire entre texte et paratexte. » Le lecteur devient « acteur du paratexte, par exemple, en commentant, partageant ou annotant un texte ou une plateforme. » (Pp. 56, 57, 58)

² Saemmer, A. (2015). *Rhétorique du texte numérique : figures de la lecture, figures de l'interprétation*, Paris : Presses Universitaires de Paris Ouest.

III-2-2-Les réseaux sociaux comme extensions paratextuelles : Facebook, Instagram, Tik Tok, X (ex-Twitter) deviennent des dispositifs paratextuels dynamiques. L'auteur y commente ses œuvres, partage des extraits, réagit aux critiques, et dialogue directement avec ses lecteurs. Il y développe une narration de soi qui complète ou prolonge la fiction. Ce phénomène rejoint ce que Philippe Lejeune (1989) appelle « le *pacte autobiographique* », étendu ici à l'identité médiatique.

III-2-3-Les métadonnées ou algorithmes de recommandation : les descriptions d'ouvrages, les tags, les avis de lecteurs ou les systèmes de notation constituent un paratexte algorithmique influençant la réception du texte. Ce paratexte automatisé échappe en partie à l'auteur, mais modifie sa lisibilité publique.

Ainsi, les paratextes numériques ne se réduisent pas à une simple transposition des modèles imprimés : ils incarnent une reconfiguration en profondeur des rapports entre auteur, œuvre et lecteur. Leur typologie permet de mieux saisir les mécanismes de la communication numérique, les logiques d'interprétation et les stratégies de visibilité à l'œuvre dans les environnements médiatiques contemporains. En ce sens, l'étude de la communication paratextuelle numérique constitue un champ fécond pour les recherches en communication et en littérature.

Conclusion :

En nous inspirant des travaux de Gérard Genette et d'autres critiques qui ont repris et développé ses théories relatives au paratexte, cet article a tenté de montrer combien la communication entre l'auteur et le lecteur s'inaugure bien avant l'entrée dans le texte lui-même. En retraçant l'histoire de la lecture, qui était autrefois réservée à une élite, nous avons mis en évidence l'évolution de ses pratiques et comment elle est devenue une activité plus démocratique et accessible à un large public.

L'étude des adresses aux lecteurs via le paratexte a révélé plusieurs modalités de communication anticipée entre l'auteur et son lecteur. Le titre, loin de se réduire à une étiquette ou une réclame, se présente comme une instance stratégique. Les exemples empruntés aux romanciers des XIX^e et XX^e siècle ont permis d'identifier

diverses formes (descriptives, symboliques, etc.), qui traduisent une volonté de prendre position et d'orienter la lecture.

La préface, qu'elle soit antérieure ou postérieure à la rédaction du texte, s'est également révélée être un lieu privilégié de communication et d'interpellation du lecteur. Tantôt espace de justification et d'explication, tantôt scène de provocation ou de rupture avec une tradition, tantôt absente mais rajoutée ultérieurement, elle engage une véritable interaction discursive, souvent nourrie d'implicites culturels, de références partagées ou de clins d'œil intertextuels. Ainsi, l'auteur y construit une figure de lecteur idéal, tout en encadrant l'horizon d'attente réel.

Le paratexte constitue ainsi un lieu de communication anticipée entre l'auteur et son lecteur. Par les multiples adresses qu'il contient, il structure les attentes, engage une interprétation pragmatique du texte ou invite le lecteur à adopter une autre manière de lire son texte. Si les stratégies varient selon les époques et les courants littéraires, la fonction communicationnelle du paratexte demeure constante. L'étude de cet interface auctoriale nous a permis de nous pencher également sur les mutations de la communication littéraire à l'heure du numérique.

En effet, les nouvelles technologies numériques imposent de nouvelles modalités de communication entre l'auteur et le lecteur. Le paratexte numérique n'est plus une marge silencieuse, mais une zone active d'interaction, où se négocient les intentions de l'auteur, les attentes des lecteurs et les logiques des éditeurs et des plateformes. Le paratexte numérique favorise également une littéralité étendue (bandes-sonores de livres, podcasts d'auteurs) et s'inscrit dans un processus transmédiatique, où le texte s'accompagne d'un environnement narratif élargi. Ce nouvel écosystème transforme la communication auteur-lecteur en un échange multiforme, médiatisé par les plateformes, et enrichi par l'interactivité. Comprendre ces nouveaux paratextes numériques, c'est penser la communication non pas seulement comme texte ou paratexte mais comme une expérience partagée.

Bibliographie sélective :

- Bachelard, Gaston (1983). *La Poétique de l'espace*, Ed. Quadrige, 11^e Ed. Paris : PUF.
- Balzac, H. (1985). Préface à Cromwell (Ed., Henri Mitterand), Œuvres Complètes, T.1, Paris : Robert Laffont, Coll., Bouquins.
- Idem (1976). *Avant-propos de La Comédie humaine*, T.1. Paris : Gallimard, Ed. La Pléiade.
- Barthes, Roland (1984). *La Mort de l'auteur*, In *Le Bruissement de la langue*, Paris : Eds. du Seuil.
- Bertholt, B. (1970). *Ecrits sur la littérature et l'art*, Paris : l'Arche.
- Butor, M. (1957). *La Modification*, Paris : Gallimard, Coll., NRF. (1972). *La Modification*, Paris : Gallimard, Coll. Folio classique.
- Camus, A. (1951). *L'Homme révolté*, Paris : Gallimard, Coll. Folio classique.
- Cordoba, P.-E. (1948). « *Prénom Gloria. Pour une pragmatique du personnage*, in le IV^e colloque Du S.E.L. organisé par l'Université de Toulouse sous le thème « Le Personnage en Question ».
- Derrida, J. (dir). (1972). *Le Texte et ses marges : littérature et philosophie*, Paris : Editions Payot.
- Duchet, C. (1973). « *La Fille abandonnée et la Bête humaine. Éléments de titrologie romanesque* », *Littérature*, no 12.
- Genette, G. (1982). « *Introduction à l'architexte* », *Poétique*, no 50.
- Idem (1984). *Les Seuils du texte, communication présentée au colloque Les Seuils du texte Université Paris 8*.
- Idem (1987). *Seuils*, Paris : Seuil.
- Gide, A. (1996). *Les Nourritures terrestres*, Paris : Gallimard, Coll., « Folio classique ».

- Idem (2002). *Les Faux monnayeurs*, Paris : Gallimard, Coll. Folio classique.
- Hans Robert Jauss (1978). *Pour une esthétique de la réception*, Paris : Gallimard.
- Hugo, H. (1985). *Œuvres Complètes*, T.1, Paris : Robert Laffont, Coll. Bouquins.
- Jeanneret, Y. (2011). *Penser la trivialité. La vie triviale des êtres culturels*, Paris : Editions Non Standard.
- Marjel, F., Le Brave, L. et Derrida, J. (dir) (2003). *Le Texte et ses marges. Approches du paratexte*, Paris : L'Improviste.
- Proust, M. (1971). *Contre Sainte-Beuve*, Paris : Gallimard, Coll. Tel.
- Ricardou, J. (1970). *Problèmes du Nouveau Roman*, Paris : Seuil.
- Ricœur, P. (1975). *Le Conflit des interprétations*, Paris : Seuil.
- Robbe-Grillet, A. (1962). *La Jalousie*, Paris : Ed.de Minuit.
- Rousseau, J.-J. (2002). *Les Confessions*, in *Œuvres Complètes*, T.1, Paris : Gallimard, La Pléiade.
- Saemmer, A. (2015). *Rhétorique du texte numérique : figures de la lecture, figures de l'interprétation*, Paris : Presses Universitaires de Paris Ouest.
- Sarraute, N. (1956). *L'Ere du soupçon*, Paris : Gallimard.
- Sartre, J.-P. (1948). *Préface à Les Mains sales*, Paris : Gallimard, coll. Folio classique.
- Idem (1996). *Qu'est-ce que la littérature ?* Paris : Gallimard, Coll., « Folio classique ».
- Idem (2002). *Préface à Les Damnés de la terre*, Paris : La Découverte.
- Souchier, E., Jeanneret, Y., & Le Marec, J. (2003). *Lire, écrire, récrire. Objets, signes et pratiques des médias*, Paris : Bibliothèque publique d'information, Centre Pompidou.

- Starobinski.J. (1972). *Le Texte et l'interprète*. In Derrida. (dir.), *Le Texte et ses marges*, Paris :Payot.
- Umberto, E. (1985). *Lector in fabula. La coopération interprétative dans les textes narratifs*,Paris : Grasset.
- Vigner, G. (1979). *Lire : du texte au sens*, Paris : Clé International.
- Wolfgang, I. (1985). *L'Acte de lecture. Théorie de l'effet esthétique*, Paris : Ed. Mane.
- Zola, E. (1960). *La Fortune des Rougon*, Paris, Ed. Henri Mitterrand, T.1, Coll. La Pléiade.

Le schéma institutionnel au Maroc entre prérogatives royales et parlementarisme à l'européenne

Dr : Soumaya DADI

Université Mohammed Premier Oujda

Faculté Des Sciences Juridiques Economiques Et Sociales

MAROC

Résumé

La nouvelle charte se présente comme une architecture complexe qui, en redéfinissant les rôles des institutions, les libertés et les droits fondamentaux, vise à produire un nouvel équilibre entre les compétences. Le texte repose sur deux piliers complémentaires l'un de l'autre : le premier pilier traduit l'attachement aux constantes immuables de la nation marocaine, dont le Souverain a la charge d'assurer la pérennité et la continuité dans le cadre d'un Etat musulman où le Roi, Amir Al Mouminine, assure la protection de la foi et des fidèles, et le libre exercice des cultes. Le deuxième pilier traduit la volonté de conforter et de consacrer les attributs et les mécanismes qu'induit le caractère parlementaire du régime politique marocain¹.

SM le Roi en proposant de réformer la constitution, a répondu positivement à la revendication d'établissement d'une monarchie parlementaire. Le texte constitutionnel reprend certaines expressions qui figurent déjà dans les constitutions de la plupart des monarchies parlementaires, comme celles inscrites dans le premier article qui dispose que : « *Le Maroc est une monarchie constitutionnelle, démocratique, parlementaire et sociale.* » Comparé à l'article premier du texte de 1996², le nouvel article de la constitution de 2011 ajoute l'épithète parlementaire, ce qui suscite des interrogations sur l'intention du constituant. S'agit-il d'affirmer le caractère parlementaire de la monarchie ? Cette interprétation serait confortée par

¹ Extrait du discours royal du 17 juin 2011.

² L'article premier de la constitution de 1996 énonçait : « Le Maroc est une monarchie constitutionnelle, démocratique et sociale ».

le deuxième alinéa de l'article premier qui dispose que : « *Le régime constitutionnel du Royaume est fondé sur la séparation, l'équilibre et la collaboration des pouvoirs, ainsi que sur la démocratie citoyenne et participative, et les principes de bonne gouvernance et de la corrélation entre la responsabilité et la reddition des comptes.* » La séparation des pouvoirs n'est pas le seul élément permettant de caractériser un régime parlementaire. En effet, encore faut-il que les pouvoirs notamment exécutif, législatif et judiciaire puissent posséder un statut définissant leurs rôles et prérogatives.

Mots clés : légitimité de la monarchie, édifice institutionnel, conseil des ministres, institution constitutionnelle, motion de censure, moralisation de l'action parlementaire.

Introduction

Les principes de séparation, d'équilibre et de collaboration des pouvoirs régissent l'organisation du pouvoir au Maroc. Bien que ceux-ci soient explicitement mentionnés au sein du titre premier du nouveau texte, on remarque cependant que d'autres articles viennent confirmer cet attachement. Par exemple, au niveau de la forme de la constitution on note que les différents pouvoirs que ce soit le pouvoir exécutif, législatif ou judiciaire font l'objet de titres distincts. Au niveau du contenu on peut mettre en évidence deux éléments. D'une part, les trois pouvoirs bénéficient, d'un statut définissant exactement leurs attributions respectives et, de l'autre, la constitution, dès son article premier, met en évidence le fait que le Maroc soit une monarchie constitutionnelle et démocratique. Cette référence à la notion de démocratie marque bien implicitement l'attachement au principe de la séparation des pouvoirs qui est une des conditions à l'existence d'une véritable démocratie¹.

Cette attention portée au principe de séparation des pouvoirs doit être rattachée à l'histoire du Royaume du Maroc et notamment à ses liens historiques avec la France. En effet, il ne fait aucun doute que l'esprit du constitutionnalisme français a toujours soufflé sur les institutions marocaines. A ce titre, dès 1956, on observe que le principe de la séparation des pouvoirs est affirmé comme l'atteste le Roi SM Mohammed V qui déclarait dans un discours : « *Notre volonté est d'instaurer au Maroc un régime démocratique dans le cadre d'une monarchie constitutionnelle basée sur la séparation des pouvoirs*². »

Cette position trouve une continuité dans les discours des différents Souverains qui se sont succédés depuis. Ainsi, en 1963, SM Hassan II indiquait : « *Nous avons tenu à ce que le projet de constitution confirmât sans ambiguïté le principe de séparation des pouvoirs*³... » SM Mohammed VI, dans son discours d'ouverture de

¹ Omar Bendourou, *La consécration de la monarchie gouvernante*, L'année du Maghreb VIII, 2012, pp.391-404.

² Déclaration faite par Feu SM Mohammed V à la presse le 15 Mai 1956, disponible sur : <http://www.mohammed5.ma/event.asp>.

³ Discours du Trône de 1963, cité par Abdelatif Mennouni, in *Trente années de vie constitutionnelle au Maroc*, Driss Basri, Michel Rousset et Georges Vedel, L.G.D.J, 1993, p. 196.

la session d'automne de la troisième année législative du parlement le 8 octobre 1999, déclarait : « *Nous voudrions réaffirmer...que le fondement de la démocratie repose sur la séparation des pouvoirs et l'instauration d'un équilibre entre eux¹* ». La séparation des pouvoirs n'est pas le seul élément permettant de caractériser un régime parlementaire. En effet, encore faut-il que les pouvoirs notamment exécutif, législatif et judiciaire puissent posséder un statut définissant leurs rôles et prérogatives. À ce titre, on constate que le constituant marocain est allé dans le sens d'une consolidation des attributions respectives de ces pouvoirs². La nouvelle constitution a abordé la question de la séparation des pouvoirs comme base du système de gouvernance en clarifiant le statut et les prérogatives des différentes institutions constitutionnelles puisqu'elle inclut, en plus de la confirmation constitutionnelle d'une monarchie citoyenne, des dispositions renvoyant à plusieurs principaux aspects ; émergence démocratique du pouvoir exécutif du gouvernement dont le Roi nomme le chef, émanant du parti politique arrivé en tête lors des élections de la chambre des représentants, et ses membres sur proposition de celui-ci ; un pouvoir parlementaire à larges prérogatives dans la mesure où la nouvelle constitution consacre le bicamérisme du système parlementaire qui avantage la chambre des représentants, exerçant un pouvoir de contrôle sur le gouvernement, en plus d'une seconde chambre avec un nombre réduit à caractère territoriale et à représentation syndicale et professionnelle. La séparation des pouvoirs est consacrée par le fait que la nouvelle constitution attribue au parlement le pouvoir exclusif de législation et d'édiction de toutes les lois ; ce qui constitue l'élargissement du champ de la loi ; dans le cadre de la nouvelle constitution, la notion d'équilibre des pouvoirs est maintenue avec force avec le pouvoir judiciaire qui est érigé en un pouvoir indépendant des pouvoirs exécutif et législatif. Pour concrétiser cette indépendance, le texte prévoit la pénalisation de toute influence de l'autorité, de l'argent, ou toute autre forme d'intervention dans

¹ Discours de SM le Roi Mohammed VI à l'occasion de l'ouverture de la session d'automne de la troisième année législative du vendredi 8 octobre 1999, disponible sur le site du parlement marocain, rubrique : textes de base : http://www.parlement.ma/fe/_file2.php?filename=200804141342220.

² Malik Boumediene, *Le régime constitutionnel marocain*, Revue du Droit Public et de la Science Politique en France et à l'Etranger, 2003, N° 6, pp. 1743-1788.

les affaires de justice. Le ministère de la Justice est écarté du Conseil Supérieur de la Magistrature (CSM) qui prend le nom de Conseil Supérieur du Pouvoir Judiciaire (CSPJ). Cette institution, qui décide de tout ce qui concerne les juges, y compris en matière disciplinaire, est désormais dotée d'une autonomie administrative et financière.

Dans cette perspective, la constitution peut laisser croire à un 'divorce' entre le pouvoir exécutif et le pouvoir législatif. Cependant, un régime parlementaire ne s'identifie que par l'existence de moyens d'actions réciproques entre ces deux pouvoirs, caractère dont le Maroc semble fortement imprégné. C'est ainsi, qu'on remarque que le constituant a prévu toute une série de dispositions qui permettent au parlement d'agir sur l'action du gouvernement à travers par exemple la possibilité pour la chambre des représentants de déposer et de voter une motion de censure, à travers la motion d'interpellation et la procédure d'investiture. Pour sa part, le pouvoir exécutif dispose de moyens d'action sur le pouvoir législatif, on voit que le Roi peut, après avoir consulté les présidents des deux chambres, le président du Conseil constitutionnel et adressé un message à la Nation, dissoudre par Dahir les deux chambres du parlement ou seulement une d'entre elles. La saisine de la cour constitutionnelle par le Roi ou le premier ministre pour connaître de la conformité d'une loi à la constitution constitue également un moyen d'action pour le pouvoir exécutif. Enfin, la collaboration entre les pouvoirs exécutif et législatif constitue le dernier caractère des régimes parlementaires. A ce titre, on observe que le régime constitutionnel marocain n'échappe pas à cette règle laquelle SM Hassan II attachait une attention particulière. En effet, on a pu tous remarquer son discours en date de 1970 où il soulignait : « *Nous tenons à atteindre deux objectifs. D'une part, permettre au parlement de débattre avec le gouvernement de ses activités et, de l'autre voir les réalisations exigées par le pays s'accomplir dans le cadre d'une collaboration entre les représentants de la nation et les divers organes du pouvoir*

*exécutif*¹. » Ce principe sera réitéré par SM Mohammed VI dans ses différents discours, notamment celui du 9 mars 2011.

Le texte constitutionnel définit les normes régissant chaque cas, afin de garantir la séparation des pouvoirs, l'équilibre et la coopération entre eux. Les nouvelles prérogatives accordées au chef du gouvernement, les garanties apportées à l'indépendance du pouvoir judiciaire, le renforcement du statut de l'opposition parlementaire, l'élargissement du domaine de la loi, les nouvelles prérogatives du parlement et la suppression de l'article qui conférait un pouvoir législatif au Roi attestent une forte volonté de séparer les différents pouvoirs tout en délimitant à chacun sa sphère d'influence.

I/ Prérogatives constitutionnelles du Roi

La légitimité de la monarchie et sa place au cœur de l'édifice institutionnel du pays font l'unanimité. Quelques partis ont toutefois exprimé leur volonté de réduire les pouvoirs du Roi en vue de mettre en place une véritable monarchie parlementaire. Le texte constitutionnel va dans le sens des mémorandums, En premier, toute référence à la sacralité de la personne du Roi a été supprimée. Il lui a été substitué la notion d'inviolabilité et de respect dû au Roi (article 46), commune aux chefs d'Etats dans le monde.

Le texte se caractérise aussi par plusieurs particularités, à savoir la consécration constitutionnelle de la monarchie citoyenne et du Roi citoyen, et ce à travers un amendement portant l'âge de la majorité du Roi à 18 ans. La constitution prévoit que le Roi est mineur jusqu'à dix-huit ans accomplis (article 44), contre l'ancien texte de 1996 où la majorité du Souverain était à seize ans. Du coup, la majorité du Roi est devenue égale à celle de tous les citoyens marocains. Pendant la minorité du Roi, le constituant établit un Conseil de Régence dont la composition a légèrement changé ; car il contient aussi le chef du gouvernement, les présidents des deux chambres du parlement, le président-délégué du CSPJ, le secrétaire général du

¹ Discours de S.M. Hassan II du 7 juillet 1970, Najib BA MOHAMMED, *La réforme constitutionnelle dans la durée*, Essai d'analyse du processus de constitutionnalisation du système, REMALD, Collection Manuels et Travaux, n°27, 2001, P. 117.

Conseil Supérieur des Oulémas et dix personnalités désignées par le Roi. Le Conseil est présidé par le président de la Cour Constitutionnelle.

La constitution esquisse également une nouvelle définition des fonctions royales en distinguant la commanderie des croyants du statut de chef de l'Etat. Ainsi, un article indépendant porte sur les attributions exclusives du Roi, Amir Al Mouminine, président du Conseil Supérieur des Oulémas, lequel a été érigé en institution constitutionnelle. Un autre article définit le statut du Roi, en tant que chef de l'Etat, son représentant suprême, symbole de l'unité de la Nation, garant de la pérennité et de la continuité de l'Etat, de l'indépendance, de la souveraineté et de l'intégrité territoriale du Royaume, guide éclairé, et arbitre suprême qui, transcendant toute appartenance politique ou autre, veille à la préservation des choix démocratiques de la Nation, et à la bonne marche de ses institutions constitutionnelles.

En effet, la nouvelle loi fait passer le Roi d'un statut de Monarque absolu et sacré à celui de chef d'Etat omniprésent. Le Monarque garde donc de larges prérogatives civiles, religieuses et militaires.

1/ Distinction explicite des pouvoirs du Roi

La modification de l'article 19 fut l'un des gros enjeux de la révision constitutionnelle. L'ancien article 19 de la constitution de 1996 est ainsi divisé dans les articles 41 et 42 du nouveau texte constitutionnel, qui définissent chacun les prérogatives du Roi en tant qu'Amir Al Mouminine et en tant que chef de l'Etat, notion qui n'apparaissait pas dans la version de 1996. En d'autres termes, la constitution distingue les « deux corps du Roi ».

A/ En tant que commandeur des croyants

Le titre du Roi commandeur des croyants, détermine l'architecture générale de la répartition et de l'exercice des pouvoirs dans le système politique marocain. Il emporte des conséquences précises quant aux pouvoirs du Roi, s'inspirant directement de la doctrine politique musulmane. L'article 41 définit le statut religieux du Roi. Il est ainsi proclamé comme auparavant commandeur des croyants et a pour mission de « *veiller au respect de l'Islam et de garantir le libre exercice des*

cultes. Il est prévu la création du Conseil Supérieur des Oulémas dont la présidence est confiée au Roi. Le conseil est considéré comme le seul organe habilité à prononcer les fatwas (avis religieux) ...Le Roi exerce par dahirs les prérogatives religieuses inhérentes à l'institution d'Imarat Al Mouminine qui lui sont conférées de manière exclusive par le présent article. »

Le Souverain est, dans le domaine de la commanderie des croyants, tout à fait autonome, puisqu'il agit par voie de décret royal (Dahir) non soumis à contreseing ministériel, et qu'il préside le Conseil Supérieur des Oulémas. Le rôle de l'institution d'Imarat Al Mouminine est de première importance dans la gestion du champ religieux, domaine exclusif du Roi, et le maintien de l'unité politique et culturelle du pays. À cette fonction sont rattachées des institutions comme le ministère des Habous et des Affaires Islamiques, dont la fonction est d'assurer sous l'autorité du Roi- la sécurité spirituelle des marocains et de leur culte, le Conseil Supérieur des Oulémas ou encore la Ligue Mohammadienne des Oulémas du Maroc, chargés de la sauvegarde du respect de l'orthodoxie et de l'unité de culte selon le rite malikite¹.

Pour sa part, le commandeur des croyants a pour obligation d'ordonner le bien et d'interdire le mal, protéger la religion, rechercher le bien commun en appliquant les principes généraux de la loi islamique, ce qui conduit à écarter tout risque de tyrannie, laquelle est strictement bannie par l'Islam². Toutefois, cette qualité n'est pas synonyme de concentration du pouvoir, ou de système de pouvoir personnel. C'est une institution qui joue un rôle unificateur et fédérateur, sans pour cela empêcher les autres organes de l'Etat d'exercer leurs compétences exécutives ou législatives. Ce qu'il faut bien comprendre à ce propos, c'est qu'en droit musulman, le domaine du droit public est celui qui se prête le plus à l'innovation et à l'adaptation. C'est pour cela que la commanderie des croyants n'empêche pas, et ne

¹ Charles Saint-Prot, *Le commandeur des croyants, Mohammed V ou la monarchie populaire*, Editions Rocher, 2011, p. 97.

² Ibid.

peut empêcher a priori et par principe, l'application d'un système de séparation des pouvoirs sur la base des principes démocratiques reconnus universellement¹.

B/ En tant que chef d'Etat

Le nouveau texte consacre dans son article 42 que « *Le Roi en tant que chef de l'Etat, son Représentant suprême, Symbole de l'unité de la Nation, Garant de la pérennité et de la continuité de l'Etat et Arbitre suprême entre ses institutions, veille au respect de la Constitution, au bon fonctionnement des institutions constitutionnelles, à la protection du choix démocratique et des droits et libertés des citoyennes et des citoyens, et des collectivités, et au respect des engagements internationaux du Royaume. Il est le Garant de l'indépendance du Royaume et de son intégrité territoriale dans ses frontières authentiques.* »

Représentation de l'Etat, protection de ses institutions et de leur bon fonctionnement, du territoire et de la collectivité nationale, orientation de la politique du pays en liaison avec les institutions qui en ont constitutionnellement la charge, c'est à dire le gouvernement et le parlement, nomination des principaux responsables administratifs et militaires en liaison avec les autorités gouvernementales, garantie de l'indépendance du pouvoir judiciaire et, en cas de menace pesant sur les institutions ou l'intégrité du territoire, recours à l'état d'exception.²

C'est sur la base de ces diverses missions que le Roi est appelé à présider un certain nombre d'institutions, dont le Conseil des ministres, le Conseil Supérieur du Pouvoir Judiciaire et le Conseil Supérieur de Sécurité. De même, il lui appartient de représenter l'Etat sur la scène internationale et, à ce titre, d'accréditer les ambassadeurs du Royaume et de recevoir l'accréditation des ambassadeurs étrangers ainsi que les représentants des organisations internationales. Autre prérogative importante du Roi est la nomination du chef du gouvernement, notion qui remplace celle de premier ministre. Seulement dans la nouvelle constitution, ce chef

¹ Abdallah Harsi, *Le Roi, commandeur des croyants : sens et portée politico-religieuse*, article disponible sur : <http://saharadumaroc.net/spage.asp?rub=2&Txt=184&parent=&parent2=>.

² Michel Rousset, *L'interprétation des pouvoirs du Roi*, La constitution marocaine de 2011, Analyses et commentaires, REMALD, Série : thèmes actuels, n°82, janvier 2013, p. 61.

du gouvernement est désigné par le Roi au sein du parti qui aura obtenu le plus grand nombre de sièges à la chambre des représentants, tandis que les membres du gouvernement sont nommés, sans aucune exception, sur proposition du chef du gouvernement (article 47).

La présidence du conseil des ministres par le Roi lui confère également de larges prérogatives pour contrôler l'action du pouvoir exécutif. Ainsi, selon l'article 49 de la constitution, le conseil des ministres présidé par le Roi « *délibère des orientations stratégiques de la politique de l'Etat, des projets de révision de la constitution, des projets de lois organiques, des orientations générales du projet de loi de finances, du projet de loi d'amnistie, des projets de textes relatifs au domaine militaire, de la déclaration de l'état de siège, de la déclaration de guerre...* » Le même article prévoit que le Roi exerce un pouvoir de nomination aux emplois civils de wali de la Banque du Maroc (Bank al-Maghreb), d'ambassadeurs, de walis et de Gouverneurs, et des responsables des administrations chargées de la sécurité intérieure du Royaume, ainsi que des responsables des établissements et entreprises publics stratégiques. Ces nominations sont faites en conseil des ministres sur proposition du chef du gouvernement et à l'initiative du ministre concerné. Par ailleurs, le Roi ne peut plus légiférer comme auparavant. Certes, les lois votées par le parlement continuent d'être promulguées au bulletin officiel par Dahir, mais le Roi s'empêche désormais d'édicter un Dahir-loi comme auparavant, où le texte législatif n'est pas discuté au parlement. La loi est votée par le parlement. Il n'y a pas de loi qui ne le soit pas.¹

Concernant les fonctions militaires du Monarque, chef suprême des Forces armées royales. Mais il n'est plus seul dans la prise de décisions militaire et sécuritaire. Il s'entoure, dans le cadre d'un Conseil Supérieur de Sécurité, des principaux responsables sécuritaires du pays, en plus du Chef du gouvernement, des présidents des deux chambres du parlement et des ministres directement concernés (Défense, Justice, Intérieur, Affaires étrangères, etc.). Le Souverain préside ce conseil, en tant qu'instance de concertation sur les stratégies de sécurité intérieure et extérieure du pays, et de gestion des situations de crise, qui veille, à l'institutionnalisation des normes d'une bonne gouvernance sécuritaire (article 54).

¹ La vie économique, *Les nouveaux habits de la monarchie*, 30/07/2012.

Enfin, le Roi préside le CSPJ, venu remplacer le Conseil Supérieur de la Magistrature. Dans les faits, le Monarque s'y fera représenter par le premier président de la cour de cassation au lieu du ministre de la justice. Le Souverain se garde le droit de nommer 10 personnalités sur la vingtaine qui compose ce conseil. Il approuve par Dahir la nomination des magistrats par le CSPJ (article 57) et exerce le droit de grâce (article 58).

2/ Le Roi clé voûte du système

Voilà comment SM le Roi Mohammed VI rappelait sa fonction dans son discours relatif au 46^e anniversaire de la Révolution du Roi et du peuple le 20 août 1999 : *«...le Roi, Amir Al Mouminine, est le représentant suprême de la Nation, le symbole de son unité, le garant de la pérennité et de la continuité de l'Etat, de la sauvegarde de la religion, de la patrie et de l'unité du Royaume à l'intérieur de ses frontières authentiques, celui qui veille au respect de la constitution, qui assure la défense des droits et libertés des citoyens et dont la personne est sacrée et inviolable.»*¹ Par ces paroles le Souverain met en avant les fonctions qui lui sont dévolues conformément à l'ancien article 19 de la constitution apparaissant alors comme la clef de voûte du système comme en témoigne également la place des dispositions constitutionnelles le concernant au sein de la constitution. Le qualificatif de « *clef de voûte* » se trouve justifié par différents éléments.

Le régime constitutionnel marocain semble se distinguer par deux grandes caractéristiques : la marche vers une monarchie parlementaire d'un côté, et l'attachement à la monarchie traditionnelle de l'autre. SM Mohammed VI n'a-t-il pas déclaré que *« ...le pays s'est effectivement singularisé par le dosage qu'il a pu réaliser entre son fidèle attachement à ses traditions ancestrales et sa volonté d'édifier un Etat moderne, conduit par le Roi. »*²Certains peuvent douter de cet équilibre, de ce dosage lorsque le Souverain est omniprésent, choisit ses ministres, les révoque,

¹ Discours de S.M. Mohammed VI du 46^e anniversaire de la « Révolution du Roi et du peuple » le 20 août 1999 disponible sur le site de l'Agence Marocaine de Presse, rubrique : discours, messages et interviews de SM le Roi Mohammed VI : http://www.map.co.ma/fr/discours-messages-sm-le-roi?quicktabs_1=1.

²SM Mohammed VI, *Discours du Trône* du 30 juillet 2001, in annexe, Najib BA MOHAMMED, *La réforme constitutionnelle dans la durée, Essai d'analyse du processus de constitutionnalisation du système, REMALD*, Collection Manuels et Travaux, n°27, 2001, P. 146.

détermine les grandes orientations et priorités nationales. Il est certain que le Roi tient une place prépondérante au sein du système politique marocain marquant par la même le rayonnement de la monarchie traditionnelle. Mais le Maroc n'a-t-il pas profondément évolué et continue d'évoluer sous l'impulsion de S.M. Mohammed VI ? N'y a-t-il pas une véritable volonté du Souverain, depuis 1999, de tendre toujours plus vers un meilleur équilibre entre modernisme et traditions ¹?

En 2001 Bernard CUBERTAFOND s'interrogeait en ces termes : L'avènement de Mohammed VI va-t-il consacrer un changement d'image ou un changement de fond ? Peut-il y avoir une rupture radicale qui transformerait une monarchie prépondérante en monarchie symbolique et une monarchie parlementaire d'appoint en démocratie gouvernante ?² Après plusieurs années de règne il est incontestable que le Souverain tient toujours une place centrale au sein du régime constitutionnel marocain. La monarchie traditionnelle, active et prépondérante, est la règle. Mais on constate qu'il existe une volonté réelle du Souverain de tendre vers un meilleur équilibre des pouvoirs.

Cet équilibre ne pouvant se faire par une rupture mais, au contraire, au sein d'un processus marqué par de nouvelles pratiques constitutionnelles, notamment par la présente réforme constitutionnelle qui vient confirmer que le constituant marocain a opté pour une orientation tendant à diriger le Maroc vers une monarchie parlementaire.

Ainsi, le Roi apparaît, dans un premier temps, comme le garant du bon fonctionnement des institutions. Plusieurs articles de la constitution semblent confirmer cette idée. L'article 42 tout d'abord ne dispose que le Souverain « ... *Veille au respect de la constitution, au bon fonctionnement des institutions constitutionnelles ...* » L'article 59 ensuite stipule que « *Lorsque l'intégrité du territoire national est menacée ou que se produisent des événements qui entravent le fonctionnement régulier institutions constitutionnelles, le Roi peut...proclamer par dahir l'état d'exception. De ce fait, le Roi est habilité à prendre les mesures*

¹ Malik Boumédiène...Op, cit.

² Bernard Cubertafond, *La vie politique au Maroc*, Harmattan, 2001, p.114.

qu'imposent la défense de l'intégrité territoriale et le retour, dans le moindre délai, au fonctionnement normal des institutions constitutionnelles. »

Cette fonction consistant à garantir le bon fonctionnement des institutions trouve des applications concrètes. Il ne s'est pas limité à la moralisation de la vie politique. Depuis son arrivée sur le trône, SM pousse le gouvernement comme le parlement à prendre leurs responsabilités leur témoignant ainsi toute la place que ces derniers doivent prendre dans le jeu constitutionnel. Le Souverain s'est prononcé également dans d'autres domaines. Sur la justice par exemple. Il n'hésite pas, lors de différentes interventions, à mettre l'accent sur la nécessité de moderniser le système judiciaire afin que celui-ci soit plus performant et plus juste.

Garant du bon fonctionnement des institutions, le Roi, possède également un rôle d'arbitre qui participe à faire de celui-ci une clef de voûte des institutions. Plusieurs articles de la constitution tendent à appuyer cette idée ; le Roi préside le conseil des ministres (article 48), le Roi peut dissoudre les deux chambres du parlement ou l'une d'elles (article 51), le Roi peut adresser des messages à la nation et au parlement (article 52), le Roi exerce le droit de grâce (article 58), le Roi a la faculté de saisir la Cour constitutionnelle afin que cette dernière se prononce sur la constitutionnalité d'une loi (article 55). Dans un sens large, l'arbitre signifie celui que son autorité désigne pour concilier les intérêts opposés, faire respecter ses décisions, imposer la loi. C'est celui qui est investie d'une mission générale : celle de faire triompher une certaine conception de l'intérêt général¹. L'arbitrage dont le fondement est d'être au-dessus des contingences politiques, peut être considéré comme une garantie contre tout changement politique mettant en cause les intérêts économiques et politiques, il assure plus que la stabilité : une véritable fixation des règles de jeu².

Le rôle d'arbitre s'exprime également dans le domaine de la justice à travers le droit de grâce. Il faut noter, à ce titre, que le Souverain depuis le Dahir du 8 octobre 1977 rectifiant et complétant le Dahir du 6 novembre 1958 relatif à la grâce peut

¹ Mustapha Sehim, *Le Roi arbitre ou guide*, Revue Juridique Politique et Economique du Maroc, n°13, 1983, p.139.

² Ibid.

exercer un tel droit non seulement lorsque le jugement est devenu définitif mais également à différentes étapes de la procédure judiciaire c'est à dire avant l'activation de l'action publique, au cours de cette action mais également lorsque le jugement est devenu définitif. Le droit de Grâce est utilisé régulièrement par le Souverain et Mohammed VI lui a donné une nouvelle portée, une nouvelle impulsion¹.

Le Roi apparaît également comme la clef de voûte du système à travers son rôle de protecteur des droits et libertés consacrés par la constitution. A ce titre, l'article 42 dispose bien que le Roi « ...*veille au respect de la constitution...à la protection du choix démocratique et des droits et libertés des citoyennes et citoyens, et des collectivités...* » Le Roi comme clef de voûte du système signifie aussi qu'il est le « *garant de la pérennité et de la continuité de l'Etat* » comme le précise l'article 42 de la constitution. » Le Souverain se prononce sur différents thèmes, traçant les directions opportunes devant être suivies. Ses positions se situent alors en dehors du champ partisan et au-dessus de celui-ci. En matière de politique étrangère, il a pu dresser les grandes orientations qu'il serait bon de suivre. C'est ainsi qu'il précise, par exemple, que « *notre diplomatie se doit d'élargir les perspectives de notre action et le cercle de nos relations économiques et commerciales au-delà de l'espace euro-méditerranéen en direction des Amériques et de l'Asie afin de diversifier nos liens, d'atténuer notre dépendance et d'élargir le champ de notre coopération*². » Il fait remarquer que « *...l'édification de l'Union du Maghreb Arabe, demeure un objectif stratégique et nous n'aurons de cesse d'œuvrer pour en faire une réalité concrète.* » Cette fonction consistant à être le garant de la pérennité de l'Etat ne se limite pas à prodiguer des conseils, elle intègre aussi le fait que le Souverain est le garant de l'intégrité du territoire et de l'indépendance de la Nation qui lui est confiée et qui participe aussi à faire du Souverain la clef de voûte du système. Plusieurs articles confortent cette idée. En premier lieu l'article 42 qui dispose « *...qu'il garantit l'indépendance de la Nation et l'intégrité territoriale du Royaume dans ses frontières authentiques.* » Pour cela la constitution lui donne un certain nombre de

¹ Malik Boumediene...Op, cit.

² Message de SM Mohammed VI aux participants au colloque organisé à l'occasion de la célébration de la Journée nationale de la diplomatie marocaine le 28 avril 2000.

prérogatives. Il est ainsi le Chef Suprême des Forces Armées Royales, il nomme aux emplois militaires (article 53). Il est président du Conseil Supérieur de Sécurité (article 54).

Enfin, le Souverain apparaît comme la clef de voûte du système dans la mesure où il est un chef religieux. Le Roi étant le commandeur des croyants. C'est ainsi que le nouvel article 41 dispose que « *le Roi Amir Al Mouminine veille au respect de l'Islam. Il est le garant du libre exercice des cultes.* » Lors du discours du trône du 30 juillet 2001, SM Mohammed VI soulignait que le Roi « *Al-Mouminine est le protecteur de la communauté des fidèles et le défenseur de la foi.* » Cette qualité permet au Roi d'intervenir au-dessus des institutions pour s'adresser directement aux fidèles. C'est sur cette base qu'Hassan II justifiera la possible utilisation de l'ancien article 48 en 1991 qui donne la possibilité au Roi de déclarer l'état de siège par Dahir pour une durée de trente jours. Un tel délai ne pouvant être prolongé que par la loi. Envisageant l'utilisation de cet article pendant la guerre du Golfe le Roi s'adressant à la Nation le 15 janvier 1991 déclarait : « *Nous avons décidé qu'au moindre signe – Je ne dirai pas à la moindre perturbation – nous proclamerons l'état de siège, comme nous y autorisent la constitution et la loi. Même s'il n'y avait pas de Constitution, Nous serions tenus d'assumer Nos responsabilités en tant que Amir El Mouminine qui, au terme de la constitution islamique originelle, héritée du Prophète et des Califes par les musulmans, arabes et non arabes, se doit de veiller à la sécurité des individus et de la collectivité, l'anarchie étant pire que le meurtre¹.* » Un autre exemple, lorsque les députés de l'USFP ont quitté le parlement, en 1981, pour protester contre la prolongation de la durée de ce dernier, le Roi a eu recours à ces pouvoirs religieux en précisant que, s'il ne peut pas prendre des mesures en tant que chef d'Etat, il peut les prendre en tant que commandeur des croyants « *...Cette position nous met en notre qualité de Souverain de ce pays, de commandeur des croyants, de garant intellectuel et moral de l'intégrité du territoire national et du fonctionnement normal des institutions constitutionnelles, autant d'attributs pour lesquels, nous avons prêté serment, d'abord comme prince héritier du trône, ensuite comme Roi, dans l'obligation d'assurer coûte que coûte la bonne*

¹ Discours de Feu SM le Roi Hassan II à la Nation relatif au conflit du Golfe en date du 15 janvier 1991.

marche de nos institutions et de rechercher le moyen de mettre terme à des agissements d'une telle désinvolture, d'une telle légèreté... »

En 1992 SM Hassan II déclarait : « *Au demeurant, l'Islam M'interdirait de mettre en place une monarchie constitutionnelle dans laquelle le souverain déléguerait tous ses pouvoirs et régnerait sans gouverner.... Je peux déléguer Mes pouvoirs mais Je n'ai pas le droit, de Ma propre initiative, de Me désister de Mes prérogatives, car elles sont aussi spirituelles.* » D'autres exemples permettent d'illustrer l'utilisation par SM Mohammed VI de son statut de commandeur des croyants. C'est en 2001, suite aux événements du 11 septembre aux Etats-Unis où le Souverain a pu prendre position pour un Islam modéré, tolérant tout en condamnant les extrémismes: « *En Notre qualité d'Amir Al Mouminine, Nous avons souligné, en inaugurant les grandes conférences régionales et internationales que notre pays a abritées, que l'Islam récuse le terrorisme, précisément parce que c'est une religion de tolérance, de coexistence et de paix qui consacre et conforte la dignité de l'Homme et son droit de vivre en toute sécurité.* » C'est aussi en se fondant sur son statut de commandeur des croyants que SM a placé la question de la réforme de la *Moudawana* de 2003 hors du débat politique partisan.

En effet, l'œuvre de l'interprétation de l'ancien article 19 est nécessairement créatrice et offre un objet d'étude spécifique. Comme l'a souligné le juriste Mohammed Moâtassim, l'interprétation revêt deux formes ; l'une conjoncturelle est destinée à donner une solution à un problème posé à un moment donné, l'autre stratégique, qui a pour but de mettre en place une pyramide de contrôle dont le support s'est composé d'Allah, du Prophète et du commandeur des croyants¹.

Le Roi incarne le peuple marocain, il est Souverain parce qu'il est la nation. Ses pouvoirs sont considérés comme le moyen de mieux protéger les intérêts fondamentaux du pays en ne les plaçant pas au centre des négociations partisans. Le Roi étant le serviteur du peuple, lié avec lui, se situant au-dessus des luttes partisans et des institutions constitutionnelles. La relation du peuple avec le Roi constitue aussi un élément d'explication à la prépondérance royale dans le régime

¹ Mohammed Moâtassim, *La vie politique marocaine (1962-1991)*, première édition (AR), 1992, p.13.

constitutionnel marocain. Ainsi on est en présence d'une « monarchie agissante »¹, d'une « monarchie gouvernante »² ou encore d'un « Roi-leader »³ et une partie de la doctrine prend position pour une monarchie active.

SM Mohammed VI considère que cette prépondérance royale est l'essence même de la monarchie marocaine. C'est en direction du gouvernement que cette prépondérance royale peut être illustrée, dans un premier temps, on observe que l'article 47 dispose que le Roi nomme les membres du gouvernement sur proposition du chef du gouvernement, mais il ne s'agit là que d'une simple proposition. En outre, il est précisé que le Roi peut à son initiative et après consultation du chef du gouvernement, mettre fin aux fonctions d'un ou plusieurs membres du gouvernement. Donc, le Souverain possède une grande marge de manœuvre quant à la nomination et la révocation du gouvernement.

Cette prépondérance royale au sein du gouvernement est loin de se limiter au choix de celui-ci ou encore de sa révocation. En effet, en vertu de l'article 48 le Souverain préside le conseil des ministres qui délibère sur les questions de politique générale et définit les grandes orientations devant être suivies par le gouvernement. Certes, le Monarque peut, en vertu du même article, déléguer la présidence de ce conseil au chef du gouvernement, mais selon 'un ordre du jour déterminé'. En d'autres termes, seulement quand il n'y a pas de véritables enjeux⁴.

Enfin, la prépondérance royale au sein du gouvernement s'exprime également par le fait que le Souverain peut intervenir par Dahir. Il faut noter que dans une recherche sur le Dahir à la faculté de droit de Casablanca, M. ACHERGHI, se basant sur l'évolution de la jurisprudence et celle de la doctrine, conclut à la sacralité de cet acte en ces termes : « *L'analyse verticale de la place qu'occupe le Dahir dans*

¹ El Rhazi Fathallah, *Alternance et démocratie*, Editions. El Joussour, 2000, p. 72.

² Mohammed Amine Benabdallah, *L'institution gouvernementale : Autonomie et subordination*, REMALD, n°32, Mai-Juin 2000, p. 13.

³ Najib BA Mohammed, *Sur le développement politique au Maroc*, REMALD, n°35, novembre-décembre, 2000, p. 10.

⁴ Omar Bendourou...Op, cit.

le système juridique marocain permet de soutenir que ce système a été conçu sur la base des Dahir dans la mesure où ces derniers constituent la source essentielle de la majorité des règles en vigueur. L'étude de l'immunité juridique totale dont bénéficie le dahir se réfère à une particularité essentielle : l'immunité absolue. La conclusion, c'est que le dahir est un acte sacré aux effets très étendus¹. »

Comme le gouvernement, le parlement se trouve sous l'influence du Souverain, mais beaucoup moins, puisque le pouvoir législatif se dote d'un statut indépendant avec de nouvelles attributions. Dans le cadre de la nouvelle loi, le Roi possède plusieurs moyens d'action sur le parlement ; il peut dissoudre une ou les deux chambres (article 51), la constitution l'autorise à adresser des messages au parlement qui ne peuvent faire l'objet d'aucun débat (article 52), l'article 59 lui donne la possibilité de déclarer l'état d'exception, l'article 68 nous enseigne que le Roi préside l'ouverture de la première session du parlement, l'article 99 lui confère le droit de déclarer la guerre, et l'article 95 lui permet de demander une nouvelle lecture de tout projet ou proposition de loi et cette demande ne peut lui être refusée.

Cette prépondérance royale ne saurait se limiter seulement en direction du parlement ou encore du gouvernement. En effet, on observe que le Souverain possède un rayonnement qui va bien au-delà puisqu'il touche aussi le pouvoir judiciaire. De nombreuses dispositions constitutionnelles viennent nous rappeler les relations pouvant exister entre le Souverain et le pouvoir judiciaire, le Roi préside le Conseil Supérieur du Pouvoir Judiciaire (article 56), il approuve par Dahir la nomination des magistrats par le CSPJ (article 57), il exerce le droit de grâce (article 58), les jugements sont rendus et exécutés au nom du Roi (article 124).

Lorsque l'on parcourt les nouvelles dispositions constitutionnelles, il semble que l'on peut tirer la conclusion que la monarchie demeure en effet au cœur de l'édifice institutionnel esquissé par le texte, et conserve la mainmise sur les différents leviers du pouvoir, malgré les changements qui donnent plus de compétences et de marges de manœuvre au gouvernement, au parlement et au pouvoir judiciaire.

¹ M. ACHERGUI, *Le Dahir dans le droit public marocain*, Casablanca, 1981, p. 49.

Garant de l'ordre et des fondements, il est en effet le seul à même d'initier des réformes profondes, et à pouvoir les envisager à long terme. Mais, il ne peut être le maître d'œuvre des grands chantiers de la modernisation politique, économique et sociale, que parce qu'il est, par ailleurs, légitime et puissant. Il n'en serait plus capable s'il n'était qu'un Monarque à l'anglaise ou à l'espagnole, lequel représente certes la pérennité de l'Etat, mais se trouve structurellement incapable de les faire évoluer¹.

Et c'est donc parce que tous se tient, c'est parce que le Maroc doit continuer à s'ouvrir au monde et à la modernité, parce qu'il doit poursuivre son chemin vers l'avant, que son Roi doit continuer d'être un Roi².

II/ Les fondements théoriques du parlementarisme marocain

Le Mong Nguyen voit dans le régime parlementaire « *la collaboration et l'équilibre des pouvoirs*³. » Pour Léon Duguit le régime parlementaire « *...repose essentiellement sur l'égalité des deux organes de l'Etat, le parlement et le gouvernement, sur leur intime collaboration à toute l'activité de l'Etat et sur l'action qu'ils exercent l'un sur l'autre pour se limiter réciproquement. Il ressort de ces réflexions que tout régime parlementaire se distingue par un certain nombre de variables : une séparation des pouvoirs dotés chacun en ce qui les concerne d'un certain statut, l'existence de moyens d'action réciproques et la collaboration entre ces pouvoirs.*⁴ »

Najib Ba Mohammed voit que la conception du parlementarisme marocain préfigure une double tendance ; la prise en charge d'un héritage légué par un modèle d'inspiration : le parlementarisme rationalisé à la française, et une opération de greffe qui appelle à son tour un exercice d'adaptation à notre environnement sociopolitique⁵.

¹ Frédéric Rouvillois, *Réflexions sur la monarchie démocratique à la marocaine*, La nouvelle constitution, REMALD, Série : thèmes actuels, n°82, janvier 2013, p.92.

² Ibid.

³ LE MONG NGUYEN, *Les systèmes politiques démocratiques contemporains*, Editions. STH, 1994, p. 119.

⁴ Léon DUGUIT, *Traité de droit constitutionnel*, Deuxième Tome, La Théorie générale de l'Etat, Ancienne Librairie Fontemoing & Cie éditeurs, 1928, p. 805.

⁵ Najib Ba Mohammed, *Le parlement dans la constitution de 2011*, La nouvelle constitution du Royaume...Op, cit, p.105.

Mohammed Amine Benabdellah voit dans le parlement un lieu symbolique et effectif de l'incarnation de la démocratie, lorsque, naturellement, elle s'exerce selon les règles de l'art et non comme une pratique aux effets pervers, parce que dénuée de valeurs et de principes. Il vote le programme du gouvernement. Il a la possibilité de constituer des commissions d'enquête. Ses membres peuvent, si le quorum est réuni, saisir le Conseil constitutionnel. Les lois qu'ils votent sont promulguées dans un délai de trente jours. Il comprend deux chambres au lieu d'une. En un mot, il a subi de nombreux remodelages relatifs tant à ses pouvoirs qu'à sa composition qui l'élèvent au rang d'une institution potentiellement forte, susceptible de jouer un rôle déterminant dans la marche des affaires de l'Etat¹.

La volonté de renforcer et de définir les compétences législatives et parlementaires est explicitée par la nouvelle loi fondamentale. Le parlement bicaméral voit ainsi ses pouvoirs et compétences renforcés et élargis ; selon l'article 70, alinéa 1 « *Le Parlement exerce le pouvoir législatif. Il vote les lois, contrôle l'action du gouvernement et évalue les politiques publiques.* » Le titre III de la constitution de 1996 « Du Parlement », se composant de seize articles ; des articles 36 à 51 répartis entre ceux qui concernent l'organisation du parlement et ceux qui concernent ses pouvoirs, est remplacé par le titre IV « Du pouvoir législatif » du texte constitutionnel de 2011, qui comprend, lui, vingt-sept articles (des articles 60 à 86), répartis entre les titres suivants : « De l'organisation du Parlement », « Des Pouvoirs du Parlement », et « De l'exercice du Pouvoir législatif ». La première remarque est donc la mention claire et précise du pouvoir législatif et non plus seulement du parlement comme dans l'ancienne constitution.

Les apports de la nouvelle constitution résident dans l'élargissement des compétences du pouvoir parlementaire en matière de législation et de contrôle. En effet, la constitution pose les bases nécessaires pour donner un nouveau souffle au parlement, en prévoyant notamment la restructuration de la chambre des conseillers, la prééminence de la chambre des représentants, l'élargissement du

¹ M.A. Benabdellah, Le parlement bicaméral aujourd'hui, disponible sur : http://aminebenabdallah.hautetfort.com/list/droit_constitutionnel/Bicameralisme_aujourd_hui.pdf.

champ de la loi, la constitutionnalisation des droits de l'opposition, le renforcement des moyens de contrôle du gouvernement ainsi que la moralisation de l'action parlementaire.

1/ Une organisation parlementaire aux prérogatives élargies

Du point de vue organisation, le parlement demeure bicaméral avec la chambre des représentants et la chambre des conseillers. Le Maroc conserve le système bicaméral réintégré en 1996, mais c'est la chambre des représentants qui aura la main haute sur le travail législatif. Les projets de loi, de même que la loi de finances (article 75) sont déposés en priorité sur le bureau de la chambre des représentants. Toutefois, les projets de loi relatifs notamment aux collectivités territoriales, au développement régional et aux affaires sociales sont déposés en priorité sur le bureau de la chambre des conseillers (article 78). La prééminence de la chambre des représentants est consacrée en lui accordant le dernier mot dans l'approbation des textes en cas de divergences avec la chambre des conseillers, et aussi, par la motion de censure qui lui permet à elle seule de mettre en jeu la responsabilité du gouvernement et d'avoir le dernier mot dans la législation (article 105).

Par ailleurs, si la composition de la première chambre reste inchangée, celle de la seconde en revanche se trouve modifiée afin de réorienter sa représentativité. La chambre des conseillers représentant les collectivités territoriales, les chambres professionnelles et les organisations professionnelles des employeurs les plus représentatives, comprend désormais entre 90 membres et 120 au lieu de 270 membres auparavant. Le mandat des élus de cette chambre a également été ramené de 9 à 6 ans, une manière de l'aligner sur la durée des mandats des collectivités locales qui y sont représentées (article 63).

Dans la nouvelle version, 60% de la deuxième chambre sont issus, au suffrage universel indirect, des collectivités territoriales au niveau des régions. Les deux cinquièmes restants seront désignés par les chambres et les organisations professionnelles (toujours au niveau des régions), en plus de représentants des salariés (syndicalistes) à élire au niveau national.

Selon l'article 65, le parlement siège pendant huit mois au moins dans l'année en deux sessions, quatre mois pour chacune ; la première commence le deuxième vendredi d'octobre, et la seconde s'ouvre le deuxième vendredi d'avril, le temps où les sessions parlementaires dans les anciens textes ne dépassaient point les six mois pour les deux sessions. Quant aux sessions extraordinaires, l'article 66 nous informe que celles-ci sont devenues possibles à la demande d'un tiers uniquement des représentants, ou de la majorité des conseillers, contre la constitution de 1996 où toute session extraordinaire exigeait la demande de la majorité absolue des représentants et des conseillers. Ce qui renforce l'autorité du contrôle du parlement vis-à-vis du travail gouvernemental, et facilite la demande de l'opposition, si elle représente uniquement un tiers des membres de la chambre des représentants, pour une session extraordinaire qui n'était absolument pas possible dans les expériences précédentes

Dans le cadre de l'analyse des pouvoirs du parlement, on pourrait essentiellement distinguer des pouvoirs à caractère législatif des pouvoirs, par nature, politiques.

A/ Les pouvoirs à caractère législatif

Cette catégorie constitue la plus ordinaire, mais aussi la plus importante des prérogatives parlementaires. Il s'agit surtout du pouvoir de voter les lois, prérogative qu'il est le seul habilité à l'exercer. La constitution marocaine autorise le parlement à intervenir dans un domaine législatif exclusif qui n'a cessé de s'élargir depuis 1962, ainsi, la nouvelle loi voit le domaine de la loi élargi à 30 matières, contre une dizaine en 1996, lui étant exclusivement réservées, et ce, sans compter les 26 lois organiques prévues par le texte constitutionnel, qui échoient également au parlement.

Parmi les matières les plus importantes faisant partie du domaine de la loi, on relève en particulier les garanties liées au respect des droits et libertés énumérés dans la constitution. Outre les matières visées à l'alinéa précédent, le parlement est habilité à voter des lois cadres concernant les objectifs fondamentaux de l'activité économique, sociale, environnementale et culturelle de l'Etat, le découpage électoral et les principaux champs de la vie civile, économique et sociale. La

nouvelle loi a renforcé les compétences du parlement. Plusieurs matières qui étaient dans le passé exclues du domaine de la loi en font désormais partie, on cite à titre d'exemple ; les règles relatives à la gestion de l'environnement, à la protection des ressources naturelles et au développement durable, le régime des banques, des sociétés d'assurances et des mutuelles, le régime des technologies de l'information et de la communication, le régime des eaux forêts et de la pêche, l'urbanisme et l'aménagement du territoire, la détermination des orientations et de l'organisation générale de l'enseignement, de la recherche scientifique et de la formation professionnelle...

En outre, la nouvelle constitution a accordé au parlement le droit de se prononcer sur l'amnistie, la ratification de certaines conventions internationales comme les traités de paix ou d'union, ou ceux relatifs à la délimitation des frontières, les traités de commerce ou ceux engageant les finances de l'Etat ou dont l'application nécessite des mesures législatives, ainsi que les traités relatifs aux droits et libertés individuelles ou collectives des citoyennes et des citoyens (article 55).

Cependant, si le domaine législatif a été renforcé, le gouvernement demeure comme par le passé le législateur de principe. L'article 72 dispose que : « *Les matières autres que celles qui sont du domaine de la loi appartiennent au domaine réglementaire* ». Pendant les intercessions, le gouvernement peut toujours légiférer par décrets lois en accord avec les commissions parlementaires concernées des deux chambres. Ces décrets lois doivent toutefois être soumis à ratification au cours de la session ordinaire suivante du parlement (article 81). Par ailleurs, le gouvernement continue à déterminer l'ordre du jour des assemblées parlementaires. Le gouvernement peut aussi légiférer par décret dans le domaine de la loi pendant un délai limité et en vue d'un objectif déterminé sur la base d'une loi d'habilitation votée par le parlement (article 70).

B/ Les pouvoirs à caractère politique

L'action du parlement marocain et son fonctionnement ont toujours fait l'objet de critiques, y compris de la part des députés, qui se plaignaient du peu de moyens et de compétences dont ils disposaient. Autre pouvoir essentiel du parlement qui

s'est largement enrichi à travers la réforme, est son pouvoir de contrôle politique sur le gouvernement. Comme tout régime parlementaire, dans le cadre de la collaboration des pouvoirs, le gouvernement est responsable, aussi, devant le parlement.

Parmi ces moyens, on peut citer les questions orales et écrites, la motion de censure, la question de confiance et les commissions d'enquête. Les conseillers et les représentants peuvent poser des questions orales et écrites auxquelles les ministres doivent répondre dans un délai de vingt jours (article 100). La possibilité de demander la constitution de commissions d'enquête avec un quorum plus souple qu'auparavant c'est-à-dire un tiers des membres au lieu de la majorité absolue leur est également accordée.

Après la désignation des membres du gouvernement par le Roi, le chef du gouvernement présente et expose devant les deux chambres du parlement réunies, le programme qu'il compte appliquer.

Selon l'article 88, l'investiture du gouvernement ne se fait qu'une fois que la chambre des représentants a exprimé sa confiance envers le gouvernement, en faveur du programme gouvernemental à la majorité absolue de ses membres. C'est cette chambre qui accorde, de manière exclusive, le vote de confiance à la déclaration du chef de l'exécutif. Par ailleurs, le chef du gouvernement présente devant le parlement un bilan d'étape de l'action gouvernementale, à son initiative ou à la demande du tiers des membres de la chambre des représentants ou de la majorité de la chambre des conseillers (article 101).

En effet, le constituant a doté le premier ministre et la chambre des représentants d'une arme de dissuasion réciproque, cela dit que le premier ministre peut, après avoir consulté le Roi, le président de la chambre des représentants, le président de la Cour constitutionnelle, et après avoir exposé les motifs et les buts de sa décision devant la chambre des représentants, dissoudre cette dernière par décret (article 104). De même la chambre des représentants peut mettre en cause la responsabilité du gouvernement en votant une motion de censure contre ce dernier. Cette motion n'est recevable que si elle est signée par le cinquième au moins des membres

composant la chambre, elle n'est approuvée par cette chambre que par un vote pris à la majorité absolue des membres qui la composent. (Article 105).

Quant aux commissions d'enquête, elles peuvent être créées à l'initiative du Roi ou à la demande du tiers des membres de la chambre des représentants, ou du tiers de la chambre des conseillers au lieu de la majorité des membres de l'une des deux chambres prévues par l'ancien article 42 de la constitution de 1996.

Un fait nouveau, les députés, en vertu du nouveau texte, ont un certain pouvoir sur quasiment toutes les instances inscrites dans la constitution. Les présidents du CNDH, du CCME, de la HACA et de la dizaine d'autres conseils, doivent présenter un rapport d'activité annuel, suivi d'un débat, devant le parlement¹. Une autre nouveauté, les commissions parlementaires des deux chambres peuvent désormais auditionner les responsables des administrations, des établissements et entreprises publics, en présence et sous la responsabilité des ministres dont ils relèvent (article 102).

Par ailleurs, le nouveau texte a retiré à la chambre des conseillers les attributions relatives à la mise en jeu de la responsabilité du gouvernement tout en lui conservant le droit d'adopter la motion d'interpellation. La motion contraint le chef du gouvernement à se présenter devant ladite chambre dans un délai de six jours pour s'expliquer sur l'objet de l'interpellation (article 106). La réponse du chef du gouvernement est suivie d'un débat sans vote.

2/ Encadrement de l'exercice de la fonction parlementaire : une structure institutionnelle aux caractéristiques européennes

Dans une démocratie moderne, libérale et parlementaire, les partis politiques jouent un rôle déterminant dans le fonctionnement des institutions représentatives et exécutives. Il n'est pas possible de concevoir un régime démocratique qui ne serait pas conçu sur la base de l'échange des idées, de la confrontation entre les

¹ Driss Bennani, Mohammed Boudarham et Fahd Iraqi, *La chambre des représentants : Plus de prérogatives aux députés*, TELQUEL, n°479, 2011.

positions et de l'expression libre des attitudes de formations diverses sur les problèmes d'intérêt national ou local¹.

Concernant l'immunité parlementaire, définie par l'article 39 de la constitution de 1996, celle-ci est redéfinie et délimitée par le nouvel article 64 du nouveau texte : le premier alinéa reste inchangé, cependant, les trois derniers alinéas de l'article 39 disparaissent : *« Aucun membre du parlement ne peut, pendant la durée des sessions, être poursuivi ou arrêté pour crimes ou délits, autres que ceux indiqués à l'alinéa précédent, qu'avec l'autorisation de la Chambre à laquelle il appartient, sauf dans le cas de flagrant délit. Aucun membre du parlement ne peut, hors session, être arrêté qu'avec l'autorisation du bureau de la chambre à laquelle il appartient, sauf dans le cas de flagrant délit, de poursuites autorisées ou de condamnation définitive. La détention ou la poursuite d'un membre du Parlement est suspendue si la chambre à laquelle il appartient le requiert, sauf dans le cas de flagrant délit, de poursuites autorisées ou de condamnation définitive. »*

L'on se trouve donc, devant un nouveau sens de l'immunité parlementaire, puisque dans ce cadre, les parlementaires seront poursuivis comme n'importe quel autre citoyen marocain. La moralisation de l'institution parlementaire passe également par l'interdiction de la transhumance.

En fait, en 2005, le code des partis politiques sanctionnait le principe². Ce phénomène de changement de couleur politique en cours de mandat avait pour effet de déséquilibrer et brouiller la carte politique, avec parfois l'émergence de forces politiques issues du néant. Le texte constitutionnel sanctionne la transhumance au sein des deux chambres du parlement. Désormais, quitter son parti ou son groupe parlementaire d'origine devient synonyme de perte du mandat électif.

Dans la pratique, comme le stipule l'article 61, le président de la chambre concernée saisit la Cour constitutionnelle qui, en fin de compte, se prononce sur la

¹ Abdallah Adyel, *Le code des libertés publiques, le Maroc et les droits de l'Homme : positions, réalisations et perspectives, la constitution marocaine*, Op, cit, p.209.

² Article 5, al. 2 du Code des partis de 2005 du Dahir numéro 1-06-18 du 15 moharrem 1427 (14 février 2006) portant promulgation de la loi numéro 36-04 relative aux partis politiques.

vacance du siège. Sauf que le texte constitutionnel ne précise pas les modalités de remplacement de ce siège. Enfin, si la transhumance sera dorénavant interdite au parlement, le texte de la constitution ne se prononce pas sur cette question quand il s'agit des conseils régionaux et des autres collectivités locales¹.

Par ailleurs, Le statut du pouvoir législatif ne peut être détaché aussi de la liberté pour les partis politiques, dans un pays, de se constituer librement. Ainsi, se pose ici la question de l'importance du multipartisme. A ce titre on constate que le Maroc a toujours pris position pour le multipartisme et rejeté toute logique de parti unique. L'expérience pluraliste qui remonte aux années soixante a permis aux partis politiques d'exister et de se structurer. Cet attachement au pluralisme politique ne s'exprime pas seulement à travers la reconnaissance du multipartisme mais également par la condamnation du parti unique comme en témoigne le même article qui souligne dans son troisième alinéa « *qu'il ne peut y avoir de parti unique.* » En ce sens, la monarchie a fait le choix stratégique, qui permet aux partis politiques de s'organiser et d'avoir une existence légale, donc, l'action partisane est tolérée dans la mesure où elle ne remet pas en cause les fondements sur lesquels repose le système, à savoir l'Islam, le régime monarchique, l'intégrité territoriale... Et qu'elle ne constitue pas un écran entre le trône et le peuple qui doivent être directement liés.

Le pluralisme s'identifie à l'existence d'une pluralité de formations politiques comportant des dimensions idéologiques et sociologiques différentes, pouvant entrer en concurrence en vue d'exercer le pouvoir, de participer à son exercice ou de l'influencer, et c'est la voie parlementaire qui permet l'équilibre de ces forces, et qui traduit la capacité d'ériger ces actes en un jeu politique déterminé auquel les différents partis politiques, la majorité comme l'opposition y participent².

Dans ce cadre, l'opposition se trouve consolidée et confortée par la nouvelle loi, en effet, la constitution de 2011 garantit à l'opposition parlementaire un statut lui

¹ Rime Sadki, *A propos de l'article 61 de la nouvelle constitution : le cas de la transhumance des députés, La nouvelle constitution du Royaume...* Op, cit, p.405.

² Moncef Djaziri, *La problématique partisane dans les systèmes politiques du Maghreb : Relance des études comparatives*, Annuaire de l'Afrique du Nord, 1995, pp.423-445.

conférant des droits à même de lui permettre de s'acquitter convenablement de ses missions afférentes au travail parlementaire et à la vie politique¹.

Par ailleurs, le texte garantit, dans son article 10 à l'opposition les droits à un temps d'antenne au niveau des médias officiels, proportionnel à leur représentativité, le bénéfice du financement public, conformément aux dispositions de la loi la participation effective à la procédure législative, notamment par l'inscription de propositions de lois à l'ordre du jour des deux chambres du parlement, la contribution à la proposition et à l'élection des membres à élire à la Cour constitutionnelle, la participation effective au contrôle du travail gouvernemental, à travers notamment les motions de censure et l'interpellation du gouvernement, ainsi que des questions orales adressées au gouvernement et dans le cadre des commissions d'enquête parlementaires, la présidence de la commission en charge de la législation à la chambre des représentants, une représentation appropriée aux activités internes des deux chambres du parlement...

Le Maroc compte désormais parmi les rares pays à avoir accordé un statut constitutionnel à l'opposition parlementaire. Il faut en comprendre que celle-ci est dorénavant reconnue par la loi fondamentale du pays, notamment l'article 60 qui stipule que « *l'opposition est une composante essentielle des deux chambres. Elle participe aux fonctions de législation et de contrôle.* » Un rôle jusqu'ici sous-entendu et jamais expressément accordé.

Avec ces nouveaux outils constitutionnels, nous pouvons parler d'une vraie base d'un régime parlementaire qui jouera un rôle central dans le pouvoir législatif. Ce qui devrait justement mettre fin à la marginalisation politique dont souffrait le parlement jusqu'ici et aux déséquilibres fonctionnels. Particulièrement au Maroc, d'une vie de plus en plus active et d'un renouveau institutionnel accordant une large place à l'institution parlementaire, il ne peut que se révéler riche de leçons, pour éclairer le chemin s'engagent actuellement sur la voie d'un parlementarisme européen redéfini et taillé à la marocaine.

¹ L'économiste, le 15/08/2011.

I/ Sources :

1/ Textes de base

- Texte de la constitution de 2011.

2/ Webographie

- http://aminebenabdallah.hautetfort.com/list/droit_constitutionnel/Bicameralisme_aujourd_hui.pdf.
- <http://www.mohammed5.ma/event.asp>.
- http://www.parlement.ma/fe/_file2.php?filename=200804141342220.
- <http://saharadumaroc.net/spage.asp?rub=2&Txt=184&parent=&parent2=>.
- http://www.map.co.ma/fr/discours-messages-sm-le-roi?quicktabs_1=1.

II/Bibliographie

1/ Ouvrages

- **Bernard CUBERTAFOND**, *La vie politique au Maroc*, Harmattan, 2001.
- **Charles Saint-Prot**, *Le commandeur des croyants*, Mohammed V ou la monarchie populaire, Editions Rocher, 2011.
- **Driss BASRI, Michel Rousset et Georges Vedel**, *Trente années de vie constitutionnelle au Maroc*, L.G.D.J, 1993.
- **El RHAZI FATHALLAH**, *Alternance et démocratie*, Editions. El JOSSOOR, 2000.
- **LE MONG NGUYEN**, *Les systèmes politiques démocratiques contemporains*, Editions. STH, 1994.
- **Léon DUGUIT**, *Traité de droit constitutionnel*, Deuxième Tome, La Théorie générale de l'Etat, Ancienne Librairie FONTEMOING & Cie éditeurs, 1928.
- **M. ACHERGUI**, *Le Dahir dans le droit public marocain*, Casablanca, 1981.
- **Mohammed MOATASSIM**, *La vie politique marocaine (1962-1991)*, première édition (AR), 1992.

2/ Revues scientifiques

- **Abdallah ADYEL**, *Le code des libertés publiques, le Maroc et les droits de l'Homme : positions, réalisations et perspectives, La nouvelle constitution du Royaume*, REMALD, Série : thèmes actuels, n°82, janvier 2013.
- **Driss BENNANI, Mohammed BOUDARHAM et Fahd IRAQI**, *La chambre des représentants : Plus de prérogatives aux députés*, TELQUEL, n°479, 2011.
- **Frédéric Rouvillois**, *Réflexions sur la monarchie démocratique à la marocaine, La nouvelle constitution*, REMALD, Série : thèmes actuels, n°82, janvier 2013.
- **Malik Boumediene**, *Le régime constitutionnel marocain*, Revue du Droit Public et de la Science Politique en France et à l'Etranger, 2003, N° 6.
- **Michel Rousset**, *L'interprétation des pouvoirs du Roi*, La constitution marocaine de 2011, Analyses et commentaires », REMALD, Série : thèmes actuels, n°82, janvier 2013.
- **MOHAMMED Amine BENABDALLAH**, *L'institution gouvernementale : Autonomie et subordination*, REMALD, n°32, Mai-Juin 2000.
- **Moncef DJAZIRI**, *La problématique partisane dans les systèmes politiques du Maghreb : Relance des études comparatives*, Annuaire de l'Afrique du Nord, 1995.
- **Mustapha SEHIMI**, *Le Roi arbitre ou guide*, Revue Juridique Politique et Economique du Maroc, n°13, 1983.
- **Najib BA MOHAMMED**, *La réforme constitutionnelle dans la durée*, Essai d'analyse du processus de constitutionnalisation du système, REMALD, Collection Manuels et Travaux, n°27, 2001.
- **Najib Ba MOHAMMED**, *Le parlement dans la constitution de 2011, La nouvelle constitution du Royaume*, REMALD, Série : thèmes actuels, n°82, janvier 2013.
- **Najib BA MOHAMMED**, *Sur le développement politique au Maroc*, REMALD, n°35, novembre-décembre, 2000.

- **Omar BENDOUROU**, *La consécration de la monarchie gouvernante*, L'année du Maghreb VIII, 2012.
- **Rime SADKI**, *A propos de l'article 61 de la nouvelle constitution : le cas de la transhumance des députés*, *La nouvelle constitution du Royaume*, REMALD, Série : thèmes actuels, n°82, janvier 2013.

3/ Articles

- **La vie économique**, *Les nouveaux habits de la monarchie*, 30/07/2012.
- **L'économiste**, *Le roi clé voute du système*, le 15/08/2011.

**L'impact des systèmes d'information
sur l'expérience client dans le secteur bancaire :
cas de la Bank of Africa**

ECHAOUI Abdessamad (Doctorant)

Laboratoire de recherche en compétitivité économique et performance managériale

HARROUSSI Baha Eddine

Docteur-chercheur en sciences de l'économie et de la gestion

LAKRARSI Abdelhalim (Enseignant-chercheur)

Laboratoire de recherche en compétitivité économique et performance managériale

Faculté des sciences juridiques, économiques et sociales de Souissi, Rabat

Université Mohammed V de Rabat

Maroc

Résumé

Dans un contexte de transformation digitale accélérée, les systèmes d'information (SI) constituent un levier stratégique majeur pour améliorer l'expérience client dans le secteur bancaire. Cette étude examine en profondeur l'impact des SI sur les différentes dimensions de l'expérience client – conçue, perçue et managée – en prenant pour cas d'étude la Bank of Africa (BOA). S'appuyant sur une méthodologie mixte articulant des analyses quantitatives (questionnaire administré à 147 clients) et qualitatives (entretiens semi-directifs avec deux responsables de la BOA), la recherche met en évidence le rôle central des technologies numériques dans la refonte des processus bancaires et la création de valeur client.

Les résultats montrent que les systèmes d'information influencent positivement la conception des parcours clients, à travers l'usage des outils digitaux (applications

mobiles, chatbots, IA), la personnalisation des services, ainsi que la fluidification des interactions. Du point de vue managérial, les SI permettent une meilleure gouvernance de la relation client grâce à l'analyse des données, la mise en place d'indicateurs de performance (NPS, CSAT) et la formation continue du personnel. Sur le plan de la perception, les clients associent les SI à une amélioration notable de la qualité de service, de la sécurité, et de la réactivité.

Les hypothèses de recherche, portant sur l'impact des SI sur les trois dimensions de l'expérience client, ont toutes été confirmées statistiquement, notamment via des tests du khi-deux. La triangulation des résultats a permis de renforcer la validité des conclusions en croisant les données issues des clients avec les pratiques internes déclarées par les responsables de la BOA. En conclusion, l'étude souligne que les SI, au-delà de leur fonction opérationnelle, jouent un rôle déterminant dans la stratégie de différenciation des banques, en améliorant la satisfaction, la fidélisation et la compétitivité.

Des implications pratiques sont formulées, notamment en matière de renforcement de la digitalisation, d'alignement stratégique sur l'expérience client, de sécurisation des services numériques et de formation continue des collaborateurs. Toutefois, des limites subsistent, liées à la restriction du champ d'analyse à une seule institution et à l'usage d'un modèle bivarié. Des perspectives de recherche futures incluent l'élargissement de l'étude à d'autres établissements bancaires et l'intégration de modèles d'analyse plus complexes comme les équations structurelles.

Mots-clés : Systèmes d'information, expérience client, digitalisation, management, secteur bancaire, management stratégique.

Introduction :

Dans un contexte de transformation digitale accélérée, le secteur bancaire se trouve à un carrefour stratégique où l'expérience client devient un facteur clé de différenciation. Les systèmes d'information (SI) jouent un rôle central dans cette transformation, en modifiant non seulement les processus internes, mais aussi la manière dont les services sont perçus et conçus par les clients. Cette recherche se concentre sur l'impact des systèmes d'information sur l'expérience client dans le secteur bancaire, en prenant comme étude de cas la Bank of Africa (BOA).

Le secteur bancaire, confronté à une concurrence accrue et à des attentes clients de plus en plus élevées, se tourne vers les SI pour optimiser l'expérience client. Ces systèmes permettent d'automatiser les processus, de personnaliser les services et de renforcer la sécurité, tout en offrant une plus grande accessibilité. Dans ce cadre, il est crucial de comprendre comment ces variables influencent directement l'expérience client dans un environnement bancaire en constante évolution. Toute recherche réalisée doit avoir un intérêt, autrement dit une contribution et un apport qui justifient sa réalisation et son existence. Sur le plan scientifique, notre étude vise à enrichir le corpus de connaissances existant en explorant l'impact des systèmes d'information (SI) sur l'expérience client dans le secteur bancaire. En fournissant des données nouvelles et des perspectives inédites, cette recherche contribue à une meilleure utilisation d'une approche mixte permettant de croiser les résultats des analyses compréhension des dynamiques entre l'innovation technologique, la gestion de la relation client, et les performances bancaires, tout en adoptant une approche mixte combinant des analyses quantitatives et qualitatives. D'un point de vue pratique, notre étude propose des recommandations pour les décideurs et les professionnels du secteur bancaire, offrant des orientations concrètes pour optimiser l'utilisation des SI afin d'améliorer l'expérience client et renforcer la compétitivité des banques.

En se concentrant sur des aspects cruciaux tels que la digitalisation, la sécurité, et

la personnalisation des services, cette recherche vise à guider les banques dans leur transition numérique. L'originalité de cette recherche se distingue tant par sa problématique que par sa méthodologie, avec plusieurs aspects qui méritent d'être soulignés :

- Le nombre limité de recherches portant spécifiquement sur l'impact des SI sur l'expérience client dans le contexte bancaire marocain ;
- Une forte concentration sur l'interaction entre la technologie, la satisfaction client, et la gestion bancaire, qui reste peu explorée dans les études existantes ;

L'objectif principal de cette recherche est d'analyser l'impact des systèmes d'information sur l'expérience client au sein de la BOA. Plus spécifiquement, il s'agit d'identifier les aspects du SI qui influencent le plus la perception des clients, ainsi que de proposer des stratégies pour maximiser cet impact.

La problématique à laquelle cette recherche tente de répondre est la suivante : Dans quelle mesure les systèmes d'information influencent-ils l'expérience client dans le secteur bancaire cas de BOA ?

Pour répondre à notre problématique, nous avançons une réponse provisoire correspondant à une hypothèse principale : « Le système d'information influencerait l'expérience client en impactant l'expérience client conçue, l'expérience client perçue, et le management de l'expérience client. »

Cette hypothèse principale donne naissance aux hypothèses secondaires suivantes : Hypothèses secondaires

H1 : Le système d'information influencerait le management de l'expérience client ; H2 : Le système d'information impacterait l'expérience client conçue ;

H3 : Le système d'information affecterait l'expérience client perçue ;

1. Cadre théorique de la recherche

1.1. *Le management bancaire*

Le management bancaire est expliqué par différents auteurs, chacun mettant en lumière des aspects particuliers selon leurs recherches. V.V. Bhatt (1989) souligne que le management bancaire englobe à la fois la stratégie et les opérations d'une banque, y compris la gestion des relations avec les clients, le développement de nouveaux produits financiers, et l'intégration des technologies pour améliorer l'efficacité et la compétitivité.

Pour Peter S. Rose (2002), considère le management bancaire comme un ensemble de pratiques et de décisions stratégiques qui visent à maximiser la rentabilité de la banque tout en assurant sa stabilité financière et sa conformité aux réglementations. Il insiste sur l'importance de la gestion des risques, de la planification financière et de l'efficacité opérationnelle.

Frederic S. Mishkin (2019), quant à lui, le présente comme un processus global où une banque gère ses actifs et passifs, cherchant à optimiser les retours sur investissements tout en minimisant les risques. Il met en avant l'importance de la politique monétaire et la gestion des taux d'intérêt.

Michael Porter (1980) est bien connu pour son modèle des "Cinq Forces", un outil qui aide les banques à comprendre leur position sur le marché et à élaborer des stratégies pour rester compétitives. Porter explique que les banques doivent examiner cinq éléments clés qui influencent la concurrence dans leur secteur : la menace de nouveaux entrants, la menace des produits de substitution, le pouvoir des clients, le pouvoir des fournisseurs, et la rivalité entre les concurrents. En utilisant cette analyse, les banques peuvent créer des stratégies qui améliorent leur rentabilité et leur positionnement sur le marché. Porter recommande également que les banques choisissent une stratégie de différenciation ou de leadership par les coûts, en fonction de leurs ressources et de leur position dans l'industrie. Cela signifie que les banques doivent repérer les segments de marché où elles peuvent se démarquer

et élaborer des plans pour exploiter ces opportunités.

1.2. Les systèmes d'information : vecteurs d'innovation et de performance bancaire

Les systèmes d'information (SI) sont devenus des piliers essentiels de la stratégie bancaire contemporaine. Autrefois confinés à des fonctions de traitement et de stockage de l'information, ils assurent aujourd'hui des rôles multiples : automatisation des opérations, pilotage stratégique, conformité réglementaire, analyse comportementale, et gestion des risques (Reix, 2005 ; Rose, 2002). Dans le contexte de la transformation digitale, les SI permettent également l'intégration de technologies de pointe comme l'intelligence artificielle, la blockchain ou les objets connectés (Schwab, 2017).

Dans les banques, les SI facilitent la collecte et l'analyse de données en temps réel, offrant ainsi une meilleure connaissance client, un ciblage précis des offres et une réactivité accrue. Ils permettent aussi de développer des solutions digitales fluides (applications mobiles, plateformes en ligne), ce qui améliore considérablement l'accessibilité et la continuité du service.

1.3. L'expérience client : une construction multidimensionnelle

Le concept de « l'expérience client ou bien Customer experience » est apparu à la fin des années 90 au sein de l'ouvrage « The Experience Economy » publié par les auteurs Joseph B. Pine et James H. Gilmore. Selon les auteurs de cet ouvrage, il ne s'agit plus uniquement d'offrir des produits ou services aux clients, mais des expériences et moments permettant de faire la différence, et de créer un engagement et un attachement client plus fort. Les auteurs ont défini le concept de l'expérience client comme la « trace laissée dans la tête du client », par l'ensemble des transactions et interactions qu'il a pu avoir avec la marque ou l'entreprise lors de son parcours d'achat.

Carbone et Haeckel ont relevé le profil de l'expérience dans un article publié en 1994 lorsqu'ils ont parlé de l'expérience client comme de « l'impression à emporter

formée par les rencontres des gens avec les produits, les services et les entreprises – une perception produite lorsque les humains consolident les informations sensorielles »

A partir de ce qui précède, Joseph B. Pine et James H. Gilmore ont donc relevé à l'honneur les aspects et les sensations émotionnels qui interviennent durant la prise de décision d'achat, et ont apporté de nouveaux leviers et de nouveaux champs de bataille pour l'entreprise afin de séduire les clients, et augmenter le taux de satisfaction de la clientèle. Ce qui a amené à la naissance de nouvelles techniques, comme le marketing sensoriel ou encore le retail-tainment « magasin spectacle ».

Selon Laurence Body et Christophe Tallec, « L'expérience client est un territoire de conception, de différenciation, d'innovation et de transformation pour les entreprises et les organisations qui font le pari d'une approche inspirée par le client. Le design et le management en sont les deux principaux leviers de mise en œuvre ».

Et pour Kerry Bodine et Harley Manning, « L'expérience client, ce sont les produits et les services que votre entreprise propose et ce que promet votre marque. C'est ce que vos clients ont pensé quand ils ont "essayé" d'avoir de l'information, d'acheter, d'utiliser votre produit et peut-être de tenter de résoudre un problème. C'est aussi la manière dont ils se sont sentis après ces interactions : excités, heureux, rassurés ou nerveux, déçus, frustrés... L'expérience client est la façon dont vos clients perçoivent l'ensemble des interactions avec votre entreprise. ».

Au fil des années, et avec l'ère de la mondialisation, des outils digitaux sont apparus dans le cadre de la digitalisation des parcours clients et permettent de mesurer la satisfaction des clients. Ces derniers ont donné encore plus de valeur à l'importance du concept expérience client, qui sera considéré comme un nouveau défi pour la performance et la pérennité d'une enseigne.

L'expérience client, conceptualisée par Pine et Gilmore (1999), désigne l'ensemble des émotions, interactions et jugements qu'un client forme tout au long de son parcours avec une entreprise. Elle repose sur trois dimensions fondamentales

: l'expérience conçue, l'expérience perçue et l'expérience managée.

L'expérience conçue est le résultat d'une planification stratégique des parcours et des services, où les SI jouent un rôle clé dans la personnalisation des offres grâce à l'exploitation de données issues de CRM et d'outils d'analyse prédictive (Verhoef et al., 2009). L'expérience perçue renvoie au ressenti réel du client. Elle est influencée par des éléments tangibles (fluidité de navigation, sécurité, accessibilité) et intangibles (confiance, satisfaction). Les interfaces digitales, les chatbots et la réactivité du service client sont des facteurs essentiels à ce niveau (Payne et al., 2008).

L'expérience managée regroupe les pratiques organisationnelles et les outils mobilisés pour suivre et améliorer en continu cette expérience. L'usage de tableaux de bord, d'indicateurs comme le NPS ou le CSAT, ainsi que la mobilisation de l'analytique décisionnelle permet d'optimiser cette gestion (Barbaray, 2016).

1.4. Vers une intégration stratégique des SI et de l'expérience client

La convergence entre les systèmes d'information (SI) et l'expérience client représente un enjeu majeur pour les entreprises, en particulier dans les secteurs fortement digitalisés comme la banque. Longtemps perçus comme des outils de support fonctionnel, les SI occupent aujourd'hui une place centrale dans la création de valeur relationnelle et expérientielle (Verhoef et al., 2009 ; Payne et al., 2008). Cette évolution s'inscrit dans une dynamique plus large de transformation numérique où l'information devient un levier stratégique de différenciation et de fidélisation client (Peppard & Ward, 2016).

L'intégration stratégique des SI ne se limite pas à une simple adoption technologique. Elle suppose un alignement étroit entre les objectifs business, les attentes clients et les capacités technologiques (Henderson & Venkatraman, 1993). Dans cette perspective, les SI ne sont plus des entités isolées, mais des composants interconnectés au cœur de l'architecture organisationnelle. Ross et al. (2006) soutiennent que les entreprises doivent développer des capacités numériques

dynamiques, c'est-à-dire la faculté d'adapter continuellement leurs systèmes et leurs processus pour répondre aux besoins évolutifs des clients.

L'expérience client est aujourd'hui définie comme un processus cumulatif, nourri par l'ensemble des interactions entre le client et l'entreprise à travers divers points de contact (Lemon & Verhoef, 2016). Les SI permettent de capter, centraliser, et analyser ces interactions pour en dégager des insights opérationnels et personnaliser les parcours. Le Customer Relationship Management (CRM), les plateformes omnicanales, l'intelligence artificielle ou encore l'analyse prédictive illustrent cette capacité des SI à orchestrer l'expérience client de manière fine, réactive et contextuelle (Bohling et al., 2006 ; Kumar & Reinartz, 2016).

Pour répondre à cette ambition, les entreprises doivent repenser leur architecture SI selon une logique centrée client. Cela implique l'adoption de solutions intégrées, flexibles et interopérables (Enterprise Architecture), capables de connecter les silos de données et de favoriser une vue unifiée du client (Chen et Popovich, 2003). Dans le secteur bancaire, cela se traduit par l'intégration de données transactionnelles, comportementales et émotionnelles pour offrir des services hyper-personnalisés, accessibles de façon fluide sur tous les canaux.

L'intégration stratégique des SI et de l'expérience client pose un défi organisationnel. Il s'agit de briser les silos internes, de favoriser la collaboration interfonctionnelle et de développer une culture orientée données (data-driven). Selon Davenport et Harris (2007), les entreprises les plus performantes sont celles qui instaurent une gouvernance analytique, où les décisions stratégiques s'appuient sur une exploitation intelligente de l'information. Cela nécessite aussi de nouvelles compétences, à l'intersection entre IT, marketing, UX design et analyse de données.

2. Méthodologie et processus de la recherche

Cette étude repose sur une approche de recherche mixte (ou « mixed methods ») combinant à la fois des méthodes quantitatives et qualitatives, dans le but de fournir

une compréhension complète et triangulée de l'impact des systèmes d'information (SI) sur l'expérience client dans le secteur bancaire. Cette double démarche permet de confronter les perceptions subjectives des clients avec les pratiques internes institutionnelles, offrant ainsi une vision à la fois empirique et managériale du phénomène étudié.

Le choix de cette approche est justifié par la nature complexe et multidimensionnelle de la relation entre systèmes d'information et expérience client, nécessitant à la fois une mesure objective de certaines variables et une exploration en profondeur des discours, perceptions et logiques organisationnelles.

2.1. Phase quantitative : enquête par questionnaire

2.1.1. Échantillonnage et collecte des données

Un questionnaire structuré a été diffusé auprès d'un échantillon de 500 clients de la Bank of Africa (BOA). Sur cet effectif, 147 réponses exploitables ont été recueillies, soit un taux de réponse de 29,4 %. L'échantillon est non probabiliste, mais reflète une diversité suffisante en termes de profil, de comportement bancaire et d'usage des services digitaux.

2.1.2. Construction de l'instrument

Le questionnaire comportait principalement des questions fermées basées sur une échelle de Likert à 5 points, évaluant plusieurs dimensions de l'expérience client (fluidité, sécurité, satisfaction, personnalisation, etc.) et leur relation perçue avec les outils numériques et les systèmes d'information de la banque. Des questions ouvertes ont également été intégrées afin de recueillir des commentaires qualitatifs enrichissants.

2.1.3. Traitement et analyse des données

Les données recueillies ont été analysées à l'aide du logiciel SPSS. Des analyses descriptives, analyses croisées et des tests de Khi-deux ont été mobilisés pour explorer les corrélations entre les systèmes d'information et les trois dimensions de

l'expérience client : conçue, perçue, et managée. Les résultats statistiques ont permis de vérifier la validité des hypothèses posées.

2.2. Phase qualitative : entretiens semi-directifs

2.2.1. Sélection des participants

Deux responsables de l'expérience client au sein de la BOA ont été sélectionnés pour des entretiens semi-directifs. Leur position stratégique dans la gestion et la conception des services numériques en faisait des interlocuteurs clés pour explorer la mise en œuvre concrète des SI dans la banque.

2.2.2. Conduite des entretiens

Les entretiens ont été réalisés en face-à-face, enregistrés, puis transcrits intégralement pour garantir la fidélité des propos. La durée moyenne de chaque entretien était d'environ 45 minutes. Le guide d'entretien abordait des thèmes tels que : les outils SI utilisés, la gouvernance de l'expérience client, les processus d'analyse de données clients, et l'impact de la digitalisation sur la relation client.

2.2.3. Analyse des données qualitatives

Les transcriptions ont été analysées à l'aide du logiciel MaxQDA, en mobilisant une analyse thématique. Les données ont été codées manuellement autour de catégories émergentes, en lien avec le cadre théorique de l'étude (expérience conçue, perçue, managée). Ce codage structuré a permis de dégager des convergences et de compléter les résultats statistiques avec des données de terrain plus nuancées.

3. Discussion des résultats

3.1. Discussion des résultats de l'étude qualitative

3.1.1. Impact du système d'information sur l'expérience client

Les interviews révèlent que les deux interviewés s'accordent sur l'importance de la digitalisation pour améliorer l'expérience client. Les outils digitaux comme les

applications mobiles et les chatbots sont perçus comme essentiels pour simplifier les interactions et améliorer la satisfaction des clients, ce qui confirme l'idée que le système d'information joue un rôle fondamental dans l'expérience client perçue et conçue. Cela soutient l'hypothèse H3 (le système d'information affecte l'expérience client perçue).

3.1.2. Influence sur le management de l'expérience client

Les deux interviewés soulignent également l'importance de l'analyse des données clients pour personnaliser les services et anticiper les besoins, ce qui montre un lien direct entre la gestion des données via les systèmes d'information et le management de l'expérience client. L'un des interviewés mentionne également l'importance de la gouvernance structurée, impliquant la direction générale et des comités de gouvernance, ce qui suggère une approche top-down pour gérer l'expérience client. Cela soutient l'hypothèse H1 (le système d'information influence le management de l'expérience client).

3.1.3. Impact sur l'expérience client conçue

L'accent mis sur la personnalisation des services grâce aux données recueillies par les systèmes d'information soutient l'idée que ces systèmes influencent l'expérience client conçue. Les deux interviewés mentionnent l'importance de l'adaptation des services aux besoins spécifiques des clients, ce qui montre que les technologies permettent de concevoir des services bancaires plus adaptés. Cela soutient l'hypothèse H2 (le système d'information impacterait l'expérience client conçue).

3.2. Discussion des résultats de l'étude quantitative

L'analyse statistique, reposant notamment sur le test du khi-deux, met en évidence des relations significatives entre le système d'information (SI) et les trois dimensions de l'expérience client, confirmant ainsi l'ensemble des hypothèses posées.

H1 : Influence du SI sur le management de l'expérience client

Les résultats montrent une corrélation forte entre le SI et des variables telles que la stratégie de la banque, la gouvernance, l'organisation interne, la formation continue, et l'amélioration des processus. Cela confirme que le SI constitue un levier clé de pilotage et d'optimisation du management de l'expérience client.

H2 : Impact du SI sur l'expérience client conçue

Le SI influence significativement la conception de l'expérience client à travers des éléments comme la relation banque-client, la qualité de service, l'accessibilité, l'utilisation des outils digitaux et l'introduction de l'intelligence artificielle. Il permet donc de mieux définir et structurer les parcours clients.

H3 : Influence du SI sur l'expérience client perçue

L'étude démontre un impact notable du SI sur la perception de l'expérience client, notamment via la fluidité des échanges, la mesure de la satisfaction, la personnalisation, la fidélité, et la sécurité des services. Le SI améliore ainsi directement la qualité perçue des interactions avec la banque. Les valeurs-p inférieures à 5% pour toutes les relations testées confirment la robustesse et la validité du modèle conceptuel, indiquant que les associations observées entre le SI et les dimensions de l'expérience client sont statistiquement significatives et non dues au hasard.

3.3. Triangulation des résultats

Les entretiens réalisés ont confirmé cette influence du SI l'expérience client. Les responsables interrogés ont souligné l'importance de la digitalisation et des technologies pour améliorer les processus de management de l'expérience client, en mettant en avant l'impact des outils digitaux comme les applications mobiles et les chatbots sur la simplification des transactions et l'engagement des clients. Ces retours qualitatifs complètent les résultats quantitatifs en fournissant des exemples concrets de la manière dont le SI influence l'expérience client.

Les résultats des analyses quantitatives et qualitatives convergent pour valider les trois hypothèses secondaires, ce qui implique que l'hypothèse principale est également confirmée : le système d'information impacte de manière significative l'expérience client, en influençant l'expérience client conçue, perçue, et le management de l'expérience client. La triangulation des résultats renforce la crédibilité de ces conclusions, en démontrant que les observations pratiques des responsables de l'expérience client s'alignent avec les résultats statistiques, offrant ainsi une vision cohérente et complète de l'influence du SI dans le contexte bancaire.

4. Implications managériales de la recherche

Les systèmes d'information ne jouent plus un simple rôle de support opérationnel dans les banques, mais deviennent de véritables leviers stratégiques au service de l'amélioration de l'expérience client. L'étude menée auprès de la Bank of Africa (BOA) met en évidence l'impact central des SI sur cette expérience, à travers l'expérience conçue, l'expérience perçue et le management global de la relation client. À partir de ces constats, plusieurs implications managériales peuvent être dégagées afin d'optimiser l'usage des technologies de l'information dans un objectif de satisfaction, de fidélisation et de compétitivité.

Il est d'abord essentiel pour les banques d'accélérer leur transformation digitale en investissant dans des outils performants, intuitifs et centrés sur les besoins des clients. Cela implique une amélioration constante des interfaces numériques, notamment les applications mobiles et les plateformes en ligne, afin d'offrir une navigation fluide. L'intégration de l'intelligence artificielle et de chatbots permet de fluidifier les interactions courantes, de réduire les délais de réponse et de renforcer la disponibilité du service. Par ailleurs, l'usage de l'analyse prédictive permet d'anticiper les attentes des clients et de leur proposer des offres adaptées en temps réel. L'automatisation de processus critiques, comme la souscription de produits ou la gestion des réclamations, représente également un levier d'efficacité

opérationnelle et de satisfaction accrue.

Une exploitation efficace des SI suppose également une gouvernance axée sur la donnée. La mise en place de tableaux de bord dynamiques permet de suivre les indicateurs de performance clés en temps réel, comme le Net Promoter Score, la satisfaction client ou encore le taux de résolution des plaintes. Les données issues des systèmes CRM et des outils de Big Data doivent être utilisées pour segmenter finement la clientèle et personnaliser les actions marketing. Cela suppose une collaboration renforcée entre les équipes marketing, IT et service client, afin d'aligner les actions sur une vision partagée de l'expérience client. Une telle approche permet aux décisions de s'appuyer sur des données concrètes et d'anticiper les évolutions plutôt que d'y réagir.

Dans un contexte de digitalisation croissante, la sécurité devient un pilier fondamental de la relation client. Le déploiement de mécanismes d'authentification renforcés, tels que la biométrie ou la double authentification, contribue à rassurer les clients et à renforcer leur confiance. Il est également crucial de mener des actions de sensibilisation auprès des usagers, à travers des supports pédagogiques ou des alertes de sécurité. La transparence dans la gestion des données personnelles, en conformité avec les exigences du RGPD, constitue un facteur essentiel pour renforcer la confiance et la loyauté perçue des clients.

Les systèmes d'information permettent également une personnalisation poussée des offres et des interactions. En analysant les comportements et les préférences des clients, les banques peuvent proposer des recommandations ciblées, par exemple en matière d'épargne ou de crédit. Cette capacité à créer des parcours client sur mesure, adaptés à différents segments comme les jeunes, les professionnels ou les seniors, renforce considérablement l'engagement. Toutefois, il est important de préserver un équilibre entre technologie et relation humaine, en intégrant des dispositifs hybrides tels que la visio-conférence avec un conseiller ou des messageries instantanées assistées.

La réussite de cette transformation digitale dépend fortement des compétences internes et de l'agilité organisationnelle. Il est indispensable de former les collaborateurs à l'usage des outils numériques, comme les CRM, les solutions d'analyse ou les chatbots. Une culture centrée sur le client doit être diffusée à tous les niveaux de l'organisation, y compris dans les fonctions de support. En parallèle, l'innovation doit être encouragée à travers des partenariats avec des fintechs ou la création de laboratoires internes dédiés à l'expérimentation.

Enfin, toute démarche d'amélioration de l'expérience client doit reposer sur une logique d'ajustement permanent. Cela implique de recueillir régulièrement les retours clients, à travers des enquêtes post-interaction ou des systèmes de feedback en temps réel, afin d'identifier les irritants et d'y remédier rapidement. L'observation des meilleures pratiques du secteur, notamment celles des néobanques ou des leaders innovants, permet d'alimenter une dynamique de benchmark et d'adaptation continue. Les systèmes d'information doivent ainsi évoluer de manière agile, en réponse aux attentes exprimées par les clients et aux avancées technologiques.

En somme, cette recherche met en lumière le rôle stratégique des systèmes d'information dans la construction d'une expérience client différenciante dans le secteur bancaire. Elle souligne l'importance d'une approche intégrée, combinant technologie, données, culture d'entreprise et orientation client. Elle ouvre également la voie à de futurs travaux sur des thématiques telles que l'open banking, l'intégration des fintechs ou encore l'analyse approfondie des comportements clients, afin de continuer à enrichir la relation banque-client à l'ère du numérique.

5. Limites et perspective de la recherche

Malgré l'intérêt que présente cette recherche tant sur le plan théorique que pratique, certaines limites doivent être reconnues afin de situer correctement la portée des résultats obtenus. Tout d'abord, l'étude a été menée exclusivement au sein de la Bank of Africa, ce qui constitue une première restriction importante. Bien que cette institution figure parmi les principales banques opérant au Maroc, elle ne

saurait à elle seule refléter l'ensemble des dynamiques observables dans le secteur bancaire national. Chaque banque évolue selon une culture d'entreprise propre, des niveaux d'intégration technologique différents, ainsi que des orientations stratégiques spécifiques. De ce fait, les résultats obtenus dans le cadre de cette étude, notamment ceux portant sur la perception de l'expérience client et l'efficacité des systèmes d'information, ne peuvent être généralisés sans précaution à l'ensemble des établissements bancaires marocains.

Par ailleurs, il est essentiel de souligner l'impact du contexte géographique et socio-économique sur les comportements et les attentes des clients. Les agences situées dans des villes comme Rabat ou Casablanca ne font pas face aux mêmes profils de clientèle que celles installées dans des régions moins urbanisées ou économiquement défavorisées. Ces différences peuvent influencer les résultats, dans la mesure où le niveau de familiarité avec les technologies bancaires, l'accès à internet, ou encore la fréquence d'utilisation des services numériques varient sensiblement selon les régions. Une extension de la recherche à d'autres zones géographiques et à d'autres institutions financières permettrait d'obtenir une vision plus représentative et plus nuancée des réalités du terrain.

En outre, la méthodologie adoptée repose essentiellement sur un modèle bivarié, qui examine de manière isolée les relations entre le système d'information et chacune des dimensions de l'expérience client. Si cette approche permet de poser les bases d'une réflexion structurée et de tester des hypothèses de manière rigoureuse, elle présente néanmoins certaines limites dans l'analyse de phénomènes complexes. L'expérience client étant influencée par une multitude de facteurs interconnectés – tels que la culture organisationnelle, les compétences des collaborateurs, la stratégie digitale, ou encore la notoriété de la marque – une approche plus globale aurait permis de mieux cerner les interactions entre ces variables. L'utilisation de modèles d'équations structurelles, par exemple, aurait offert la possibilité de modéliser simultanément plusieurs relations, de détecter des effets indirects, et de mieux rendre compte des dynamiques systémiques à l'œuvre.

Il convient également de prendre en compte certaines limites liées à l'échantillon mobilisé. La taille de l'échantillon, bien que suffisante pour une étude exploratoire, reste relativement restreinte par rapport à la population totale des clients de la Bank of Africa. De plus, la méthode d'échantillonnage utilisée, reposant sur une approche de convenance, ne garantit pas une représentativité statistique optimale. Certaines catégories de clients – notamment les moins familiarisés avec les outils numériques ou issus de zones rurales – pourraient ainsi être sous-représentées, ce qui introduit un biais potentiel dans l'interprétation des résultats.

Enfin, cette recherche s'inscrit dans une démarche principalement exploratoire. Elle vise avant tout à mieux comprendre les mécanismes à l'œuvre entre les systèmes d'information et l'expérience client, plutôt qu'à établir des relations de causalité strictes. Dans cette optique, les résultats obtenus doivent être considérés comme des points de départ pour des investigations futures plus approfondies. Des recherches complémentaires, intégrant des méthodes quantitatives plus avancées ou combinant des approches qualitatives et quantitatives, pourraient permettre d'affiner la compréhension des relations entre les technologies de l'information et les perceptions client, tout en renforçant la validité externe des conclusions.

Conclusion

Cette étude a permis de mieux comprendre l'influence des systèmes d'information (SI) sur l'expérience client dans le secteur bancaire, cas d'étude la Bank of Africa (BOA). Grâce à une approche mixte combinant des analyses qualitatives et quantitatives, les résultats ont confirmé l'hypothèse principale et ses déclinaisons : les SI ont un impact significatif sur le management de l'expérience client, ainsi que sur l'expérience client conçue et perçue. Ils émergent non seulement comme des outils de support opérationnel, mais également comme des leviers stratégiques de création de valeur, favorisant la personnalisation des services, l'efficacité des processus, et la fidélisation des clients.

Les apports de cette recherche sont clairs : renforcer la digitalisation, aligner la stratégie d'entreprise sur l'expérience client, investir dans la formation des employés et garantir la sécurité et l'accessibilité des services numériques sont autant d'axes essentiels pour améliorer durablement la satisfaction client.

Toutefois, certaines limites doivent être reconnues. Le champ d'analyse restreint à une seule institution bancaire et à un modèle bivarié réduit la portée généralisable des résultats. Pour enrichir ces premiers enseignements, des recherches futures pourraient s'étendre à d'autres banques, intégrer des modèles analytiques plus complexes (tels que les équations structurelles), et explorer l'impact croissant de technologies émergentes comme l'intelligence artificielle.

En somme, cette étude contribue à éclairer les enjeux de transformation digitale dans le secteur bancaire et souligne le rôle stratégique des systèmes d'information dans la construction d'une expérience client différenciante, agile et centrée sur les besoins du client.

Références

- Barbaray, S. (2016). *La mesure de l'expérience client : enjeux et pratiques*. Paris: Éditions d'Organisation.
- Bhatt, V. V. (1989). *Banking management in a changing environment*. Economic and Political Weekly, 24(7), 357–366.
- Bohling, T., Bowman, D., LaValle, S., Mittal, V., Narayandas, D., Ramani, G., & Varadarajan, R. (2006). CRM implementation : Effectiveness issues and insights. *Journal of Service Research*, 9(2), 184–194.
- Carbone, L. P., & Haeckel, S. H. (1994). Engineering Customer experiences. *Marketing Management*, 3(3), 8–19.
- Chen, I. J., & Popovich, K. (2003). Understanding Customer Relationship management (CRM) : People, process and technology. *Business Process Management Journal*, 9(5), 672–688.
- Davenport, T. H., & Harris, J. G. (2007). *Competing on analytics : The new science of winning*. Boston : Harvard Business School Press.
- Gilmore, J. H., & Pine, B. J. (1999). *The Experience Economy : Work Is Theatre & Every Business a Stage*. Boston : Harvard Business Review Press.
- Henderson, J. C., & Venkatraman, N. (1993). Strategic alignment : Leveraging information technology for transforming organizations. *IBM Systems Journal*, 32(1), 4–16.
- Kumar, V., & Reinartz, W. (2016). *Creating Enduring Customer Value*. Journal of Marketing, 80(6), 36–68.
- Lemon, K. N., & Verhoef, P. C. (2016). Understanding Customer experience throughout the Customer Journey. *Journal of Marketing*, 80(6), 69–96.
- Mishkin, F. S. (2019). *The Economics of Money, Banking, and Financial Markets* (12th Ed.). Pearson Education.
- Payne, A., Storbacka, K., & Frow, P. (2008). Managing the co-creation of value. *Journal of the Academy of Marketing Science*, 36(1), 83–96.

- Peppard, J., & Ward, J. (2016). *The Strategic Management of Information Systems : Building a Digital Strategy*. Wiley.
- Porter, M. E. (1980). *Competitive Strategy : Techniques for Analyzing Industries and Competitors*. New York : Free Press.
- Reix, R. (2005). *Systèmes d'information et management des organisations* (5e éd.). Vuibert.
- Rose, P. S. (2002). *Commercial Bank Management* (5th Ed.). McGraw-Hill.
- Ross, J. W., Weill, P., & Robertson, D. C. (2006). *Enterprise Architecture as Strategy : Creating a Foundation for Business Execution*. Harvard Business School Press.
- Schwab, K. (2017). *The Fourth Industrial Revolution*. Crown Business.
- Verhoef, P. C., Lemon, K. N., Parasuraman, A., Roggeveen, A., Tsiros, M., & Schlesinger, L. A. (2009). Customer experience creation : Determinants, dynamics and management strategies. *Journal of Retailing*, 85(1), 31–41

Annexes

Figure 1: Nuage des mots de l'expérience client



Source : sorite MaxQDA

Figure 2: Nuage des mots d'évaluation et suivi



Source : sorite MaxQDA

Figure 3: Nuage des mots de l'innovation



Source : sorite MaxQDA

Management de l'expérience client * Stratégie et vision de la banque

Tableau 1 : Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson ^a	227,812	9	,000
Rapport de vraisemblance	106,680	9	,000
N d'observations valides	147		

a. 9 cellules (56,3%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,06.

Source : sortie SPSS

Tableau 2 : Mesures symétriques

			Valeur	Signification approximative
Nominal par	Phi		1,245	,000
	V Cramer	de	,719	,000
N d'observations valides			147	

Source : sortie SPSS

Management de l'expérience client * Gouvernance et organisation

Tableau 3 : Tests du khi-carré

		Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson		83,260 ^a	15	,000
Rapport vraisemblance	de	69,860	15	,000
N d'observations valides		147		

a. 15 cellules (62,5%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,12.

Source : sortie SPSS

Tableau 4 : Mesures symétriques

				Valeur	Signification approximative
Nominal Nominal	par	Phi		,753	,000
		V	de	,435	,000
		Cramer			
N d'observations valides				147	

Source : sortie SPSS

Management de l'expérience client * Technologie et outils

Tableau 5: Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson	32,736 ^a	9	,000

Rapport de vraisemblance	de	36,196	9	,000
N d'observations valides		147		

a. 10 cellules (62,5%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,10.

Source : sortie SPSS

Tableau 6: Mesures symétriques

				Valeur	Signification approximative
Nominal Nominal	par	Phi		,472	,000
		V de		,272	,000
		Cramer			
N d'observations valides				147	

Source : sortie SPSS

Management de l'expérience client * Opportunités

Tableau 7: Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson	103,433	48	,000
Rapport de vraisemblance	97,160	48	,000
N d'observations valides	147		

a. 58 cellules (85,3%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,06.

Source : sortie SPSS

Tableau 8: Mesures symétriques

	Valeur	Signification approximative
Nominal par Phi	,839	,000
Nominal V de Cramer	,484	,000
N d'observations valides	147	

Source : sortie SPSS

Management de l'expérience client * Défis

Tableau 9 : Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson	93,641 ^a	42	,000
Rapport de vraisemblance de 4	103,97	42	,000
N d'observations valides	147		

a. 52 cellules (86,7%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,06.

Source : sortie SPSS

Tableau 10: Mesures symétriques

	Valeur	Signification approximative
Nominal par Phi	,798	,000
Nominal V de Cramer	,461	,000
N d'observations valides	147	

Source : sortie SPSS

**Management de l'expérience client * Rétroaction et amélioration
continue**

Tableau 12 : Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson ^a	157,695	12	,000
Rapport de vraisemblance	117,363	12	,000
N d'observations valides	147		

a. 12 cellules (60,0%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,12.

Source : sortie SPSS

Tableau 12: Mesures symétriques

				Valeur	Signification approximative
Nominal	Nominal	par Phi		1,036	,000
		V de Cramer		,598	,000
N d'observations valides				147	

Source : sortie SPSS

Expérience du client conçu * Stratégie et vision de la banque

Tableau 33 : Tests du khi-carré

		Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson	a	181,349	9	,000
Rapport vraisemblance	de	58,672	9	,000
N d'observations valides		147		

a. 10 cellules (62,5%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,06.

Source : sortie SPSS

Tableau 14: Mesures symétriques

				Valeur	Signification approximative
Nominal Nominal	par	Phi		1,111	,000
		V de Cramer		,641	,000
	N d'observations valides			147	

Source : sortie SPSS

Expérience du client conçu * Gouvernance et organisation

Tableau 45 : Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson	58,619 ^a	15	,000
Rapport de vraisemblance	48,126	15	,000
N d'observations valides	147		

a. 15 cellules (62,5%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,12.

Source : sortie SPSS

Tableau 16: Mesures symétriques

	Valeur	Signification approximative
Nominal par Phi	,631	,000
Nominal V de Cramer	,365	,000
N d'observations valides	147	

Source : sortie SPSS

Expérience du client conçu * Technologie et outils

Tableau 57 : Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson	75,408 ^a	9	,000
Rapport de vraisemblance	56,318	9	,000
N d'observations valides	147		

a. 11 cellules (68,8%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,10.

Source : sortie SPSS

Tableau 18: Mesures symétriques

	Valeur	Signification approximative
Phi	,716	,000

Nominal	par V	de	,414	,000
Nominal	Cramer			
N d'observations valides			147	

Source : sortie SPSS

Expérience du client conçu * Opportunités

Tableau 69 : Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson	149,188	48	,000

Rapport de vraisemblance	de	102,667	48	,000
N d'observations valides		147		

a. 60 cellules (88,2%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,06.

Source : sortie SPSS

Tableau 20: Mesures symétriques

				Valeur	Signification approximative
Nominal	par	Phi		1,007	,000
Nominal		V de Cramer		,582	,000
N d'observations valides				147	

Source : sortie SPSS

Expérience du client conçu * Défis

Tableau 21 : Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson	69,568 ^a	42	,005
Rapport de vraisemblance	75,256	42	,001
N d'observations valides	147		

a. 52 cellules (86,7%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,06.

Source : sortie SPSS

Tableau 22 : Mesures symétriques

	Valeur	Signification approximative
Nominal par Phi	,688	,005
Nominal V de Cramer	,397	,005
N d'observations valides	147	

Source : sortie SPSS

Expérience du client conçu * Rétroaction et amélioration continue

Tableau 23 : Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson	86,458 ^a	12	,000
Rapport de vraisemblance	53,168	12	,000
N d'observations valides	147		

a. 13 cellules (65,0%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,12.

Source : sortie SPSS

Tableau 24 : Mesures symétriques

				Valeur	Signification approximative
Nominal Nominal	par	Phi		,767	,000
		V de Cramer		,443	,000
N d'observations valides				147	

Source : sortie SPSS

Management de l'expérience client * Echange et interaction

Tableau 25 : Tests du khi-carré

		Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson	a	110,900	12	,000
Rapport vraisemblance	de	75,642	12	,000
N d'observations valides		147		

a. 12 cellules (60,0%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,18.

Source : sortie SPSS

Tableau 26 : Mesures symétriques

			Valeur	Signification approximative
Nominal Nominal	par	Phi	,869	,000
		V de	,501	,000
		Cramer		
N d'observations valides			147	

Source : sortie SPSS

Management de l'expérience client * Mesures et évaluations

Tableau 27 : Tests du khi-carré

	Valeur	ddl	Signification asymptotique (bilatérale)
khi-carré de Pearson a	161,920	9	,000

Rapport de vraisemblance	de	43,949	9	,000
N d'observations valides		147		

a. 11 cellules (68,8%) ont un effectif théorique inférieur à 5.
L'effectif théorique minimum est de ,06.

Source : sortie SPSS

Tableau 28 : Mesures symétriques

				Valeur	Signification approximative
Nominal par Nominal	Phi			1,050	,000
	V de Cramer			,606	,000
N d'observations valides				147	

Source : sortie SPSS

Les données personnelles à caractère privé et l'intelligence artificielle : Quels enjeux ?

Nhili Marwa

Doctorante en Droit Privé

Université Abdelmalek Essaâdi-Tétouan

MAROC

Résumé :

Aujourd'hui, on assiste à une évolution rapide et accrue de l'intelligence artificielle que ce soit au niveau national ou international, et qui n'a cessé de toucher tous les secteurs, dont celui des données à caractère personnel qui n'a pas à son tour pu s'en évader, et qui forme de ce fait le noyau de notre étude, l'IA est un gouffre insatiable en données. Pour fonctionner, elle a besoin de milliards d'informations, qu'elle analyse, trie et utilise pour apprendre, prédire et prendre des décisions. Ces données, souvent personnelles, sont le carburant indispensable à son fonctionnement.

Dans ce sens et dans le cadre de l'absence d'une réglementation juridique que ce soit nationale ou internationale spécifique en la matière, il m'est paru nécessaire de projeter la lumière sur l'importance de protéger les données personnelles et leur usage massif par les outils de l'IA, ainsi que les divers enjeux de celle-ci sur les données personnelles.

Mots clés : Données personnelles-Intelligence artificielle-Protection¹

¹ Yasser Elkouri, doctorant à la Faculté des Sciences Juridiques Economiques et Sociales de Tanger, Université Abdelmalek Essaâdi, « **L'IA au Maroc : Comment la loi 09-08 tente de contenir le gouffre des données** », Article publié sur le journal d'actualité juridique : « Village de la Justice », le 7 mars 2025

Introduction

De nos jours, on assiste à une évolution accrue et remarquable de l'intelligence artificielle que ce soit au niveau national ou international, elle s'impose aujourd'hui plus que jamais comme une révolution technologique incontournable, redéfinissant les modes de fonctionnement dans tous les domaines, dont celui des données à caractère personnel qui n'en a pas pu s'y évader, et qui constitue le socle du sujet de notre présent article.¹

Dans ce sens, il est à noter que la législation marocaine comme au niveau de la législation internationale, ne dispose encore d'une législation spécifique encadrant l'intelligence artificielle, Toutefois, plusieurs lois existantes abordent des aspects indirectement liés à cette technologie, à savoir la loi 09-08 liée à la protection des données personnelles, formant de ce fait l'un des piliers de la régulation du numérique. À cela s'ajoute la loi 05-20 sur la cybersécurité, qui vise à protéger les infrastructures digitales contre les cybermenaces. Mais ces textes, élaborés avant l'essor de l'IA, ne prennent pas en compte les défis spécifiques liés aux algorithmes, à l'apprentissage automatique et à l'automatisation des processus décisionnels.²

On entend alors par le terme « donnée à caractère personnel », selon le premier article de la loi 09-08, toute information, de quelque nature qu'elle soit et indépendamment de son support, y compris le son et l'image, concernant une personne physique identifiée ou identifiable, dénommée ciaprès « personne concernée ». Est réputée identifiable une personne qui peut être identifiée, directement ou indirectement, notamment par référence à un numéro d'identification ou à un ou plusieurs éléments spécifiques de son identité physique, physiologique, génétique, psychique, économique, culturelle ou sociale.

Par contre l'intelligence artificielle a été définie comme un outil utilisé par une machine afin de reproduire des comportements humains, tels que le raisonnement,

¹ Rédaction, « **Intelligence Artificielle au Maroc : A quand un cadre juridique ?** », Article publié dans le journal d'actualités : « Le Nouvelliste », le 13 février 2025

² Rédaction, « **Intelligence Artificielle au Maroc : A quand un cadre juridique ?** », Parag.2

la planification et la créativité, encore ce terme a été défini par les dispositions du Règlement (IA Act), comme un système automatisé ayant été conçu pour fonctionner à différents niveaux d'autonomie, et pouvant pour des objectifs implicites ou explicites, générer des résultats comme les prédictions et décisions influençant les environnements physique et virtuel.¹

Problématique :

Comment protéger les données personnelles à l'ère de l'intelligence artificielle ?

Méthodologie : Méthodologie explicative et descriptive

Objectif de l'article : Renforcer la protection des données personnelles dans le cadre de l'évolution accrue de l'intelligence artificielle dans notre législation nationale

Dans le cadre d'apporter une réponse à la présente problématique, il va être traité dans un premier point, l'analyse de la protection de ces dites données par les outils de l'intelligence artificielle, ensuite le deuxième point va projeter la lumière sur les divers enjeux et défis de cette dite intelligence sur le traitement des données personnelles.

I. L'usage de l'intelligence artificielle dans le traitement des données personnelles

Il est à noter à ce stade l'un des outils de l'IA dans ce dit domaine, o savoir le Big Data, étant un concept basé sur la collecte des informations qui peuvent être utilisées pour identifier une personne, et sont donc très précieuses pour le Big Data. Les entreprises peuvent utiliser ces données pour comprendre le comportement des consommateurs et leurs préférences, et ainsi améliorer leurs produits et services. Les données personnelles peuvent également être utilisées pour cibler des publicités et des offres spécifiques aux consommateurs.

¹ Article 1 de la loi marocaine 09-08

Moulay El Amine el Hammoumi el Idrissi, associé, « **Intelligence artificielle et protection des données à caractère personnel** », Article publié en mars 2024

Il peut également être utilisé pour analyser les données personnelles et les utiliser pour prédire les tendances futures. Les entreprises peuvent ainsi mieux comprendre le comportement des consommateurs et développer des stratégies marketing plus efficaces.

Enfin, le Big Data peut être utilisé pour sécuriser les données personnelles des consommateurs. Les entreprises peuvent utiliser le Big Data pour détecter les tentatives d'accès non autorisées à ces données et prendre les mesures nécessaires pour les protéger.

Le Big Data et les données personnelles sont donc étroitement liés. Les entreprises peuvent utiliser le Big Data pour mieux comprendre le comportement des consommateurs, leurs préférences et leurs tendances, et pour sécuriser leurs données personnelles.¹

Dans le même sens, La décentralisation de la blockchain crée un conflit avec les exigences de protection des données personnelles, rendant complexe la détermination des responsabilités en matière de traitement des données et l'identification des responsables de traitement ainsi que des sous-traitants. Dans un système décentralisé, il est souvent ambigu de définir qui assume le rôle de responsable du traitement des données, ce qui complique la conformité aux principes fondamentaux de protection des données. Clarifier ces rôles est donc essentiel pour assurer une gestion adéquate des informations personnelles.

D'autre part, l'immutabilité de la blockchain pose un défi majeur pour la protection des données personnelles et la conformité aux réglementations. Ces normes exigent la possibilité de corriger ou de supprimer des données personnelles lorsque nécessaire. Par exemple, si des informations personnelles sont accidentellement incluses dans une transaction blockchain, il devient pratiquement impossible de les supprimer ou de les modifier, soulevant ainsi d'importantes questions juridiques relatives au respect des principes de protection des données,

¹ Thomas Blanc, fondateur de Données.net, cabinet spécialisé en conformité RGPD et privacy by design « **Big Data et données personnelles** », Article non publié du site web : <https://donnees.net>

notamment la minimisation des données, la détermination de la durée de conservation des données et le droit à l'oubli.¹

Il s'agit de ce fait, des données personnelles traitées par des plateformes et les points d'entrée et de sortie de la blockchain, ou directement au sein d'une blockchain – l'hypothèse ici serait que le contrat codé contienne des données personnelles.

En premier lieu, les acteurs des blockchains sont identifiés via une adresse, une clé publique, sous forme d'un pseudonyme composé aléatoirement de chiffres et de lettres. Le pseudonyme, comme l'adresse IP, est considéré comme une donnée personnelle car il est possible de remonter jusqu'à la personne physique à laquelle il est rattaché et de retrouver des données personnelles telles que le nom, prénom, adresse mail, etc. C'est ce qui le différencie de l'anonymisation qui ne permet aucune identification.

En matière de responsabilité, Si la détermination du responsable de traitement, imposée par le RGPD en vue de permettre aux personnes d'exercer leurs droits en cas de défaillance en matière de protection des données, est aisée en ce qui concerne les blockchains privées, celle-ci se heurte à l'absence de responsable dans les registres distribués ouverts tels que les blockchains publiques.

Qui, parmi les acteurs des blockchains publiques, pourrait relever de cette qualification ?

La Cnil considère que "les participants, qui ont un droit d'écriture sur la chaîne et qui décident de soumettre une donnée à la validation des mineurs peuvent être considérés comme responsables de traitement", sous réserve qu'ils agissent dans un cadre non exclusivement personnel.

Si nous suivons cette analyse, certes un peu ancienne, toute personne à l'initiative de la transaction et qui soumettrait les données à validation serait responsable de

¹ Slimane Abdelhamid, avocat, « **L'équilibre délicat entre la Blockchain et la protection des données personnelles** », Article publié le 19 juin 2024

traitement. Cette qualification semble néanmoins difficile à mettre en œuvre en pratique compte tenu du nombre de participants, de plus agissant sous pseudonyme.

Toujours en suivant l'analyse de la Cnil, les mineurs, validant les transactions, ne seraient pas considérés comme responsables de traitements mais peuvent être qualifiés de sous-traitants du fait qu'ils suivent les instructions du responsable de traitement dès lors qu'ils doivent vérifier que la transaction respecte certains critères techniques imposés.¹

II. Les divers enjeux et défis de l'intelligence artificielle face aux données personnelles

➤ Les impacts de l'intelligence artificielle sur la protection des données

1. La collecte massive des données

Avec l'essor de l'IA, les données personnelles sont collectées en quantités exponentielles, offrant aux entreprises des informations précieuses pour améliorer leurs services et leurs stratégies marketing. Cependant, cette collecte massive augmente considérablement les risques pour la vie privée des individus. Chaque interaction, qu'il s'agisse de navigation, de consommation ou d'utilisation d'applications, laisse une trace numérique exploitable par l'IA.

Les entreprises utilisant l'IA doivent donc se doter de mécanismes de sécurité robustes pour protéger ces données sensibles, sous peine de pertes financières et de perte de confiance des utilisateurs. En l'absence de régulations claires et d'une gouvernance adéquate, cette collecte peut mener à des abus et à des violations de la vie privée, suscitant un besoin urgent d'encadrement et de sensibilisation des entreprises face à ces nouvelles responsabilités.

¹ Mathilde Carle, avocate aux barreaux de Paris et New York, « **Est-il possible de protéger les données personnelles sur la Blockchain ?** », Article publié dans le Magazine : « Décideurs Magazine », dossier actualités, le 1^{er} mars 2023

2. Les failles de sécurité potentielles et l'importance de la cybersécurité

Les systèmes basés sur l'intelligence artificielle bien que puissants, peuvent également introduire de nouvelles vulnérabilités en matière de cybersécurité. Les cyberattaques visent de plus en plus les infrastructures alimentées par l'IA, et les failles potentielles dans le code ou dans le traitement des données peuvent être exploitées par des cybercriminels. Par exemple, les attaques par injection de données ou par détournement d'algorithmes montrent à quel point l'IA peut être détournée pour accéder à des informations confidentielles.

Pour se prémunir contre ces risques, il est essentiel pour les entreprises de renforcer leur cybersécurité et de mettre en place des protocoles de surveillance et de prévention adaptés. De plus, des audits réguliers et des mises à jour des systèmes de protection sont nécessaires pour faire face aux menaces évolutives du monde numérique.¹

Bien que l'utilisation de l'intelligence artificielle pour le traitement des données à caractère personnel puisse représenter une avancée considérable dans le domaine, il demeure nécessaire de relever qu'elle peut être un risque surtout au niveau d'affecter la vie privée et les droits fondamentaux des citoyens, dans le sens où son usage peut porter préjudice aux citoyens en causant des discriminations raciales, sexuelles ou religieuses.

De plus pire, son usage pourra permettre la collecte de ces dites données sans le consentement préalable de leurs détenteurs, représentant ainsi une atteinte grave au droit fondamental octroyé par la déclaration des Droits de l'Homme du 10 décembre 1948 (article 12).²

○ Biais et Discrimination Algorithmique :

Les algorithmes d'IA peuvent involontairement introduire des biais et de la discrimination, ce qui peut entraîner des violations du RGPD, notamment en matière de traitement équitable des données. Les entreprises doivent mettre en place

¹ Atypique, « **Protection des données dans l'ère de l'IA : Enjeux et solutions** », Article publié le 19 février

² Ibid.p.7

des mesures pour détecter et corriger les biais dans les algorithmes, garantissant ainsi que les décisions prises par l'IA sont justes et non discriminatoires.¹

Toujours dans le cadre des enjeux que peut avoir l'usage de l'intelligence artificielle dans le traitement des données à caractère personnel, il est nécessaire de savoir les réglementations applicables dans ce domaine par rapport à l'utilisation de l'IA, en prenant l'exemple du droit comparé, l'IA ACT ne remplace en aucun cas le RGPD, il vient le compléter en édictant des exigences afin de développer et déployer des SIA de confiance. Le RGPD vient s'appliquer à tous les traitements de données personnelles. Dans le cadre d'un SIA avec données personnelles, le RGPD s'applique lors de la phase de développement du SIA et lors de la phase de déploiement de ce dernier.

Dans ce sens, il est compliqué pour une entreprise l'IA ACT ne remplace en aucun cas le RGPD, il vient le compléter en édictant des exigences afin de développer et déployer des SIA de confiance. Le RGPD vient s'appliquer à tous les traitements de données personnelles. Dans le cadre d'un SIA avec données personnelles, le RGPD s'applique lors de la phase de développement du SIA et lors de la phase de déploiement de ce dernier.

Encore en matière sans juristes spécialisé(e)s de savoir ce qu'il convient d'appliquer et à quel moment. Par exemple, pour les pratiques d'IA interdites, le RGPD va systématiquement s'appliquer puisqu'elles supposent le traitement de données personnelles ; pour les modèles d'IA à usage général, l'application du RGPD sera quasi-systématique puisque les modèles d'IA reposent généralement sur l'utilisation des données personnelles pour leur apprentissage. Même si ces deux réglementations se complètent, elles ont de nombreuses

¹ DPO Consulting, « **L'impact de l'intelligence artificielle sur la protection des données : Défis et opportunités** », Article publié le 13 juin 2024

différences, notamment : le champ d'application, les acteurs, l'approche, les sanctions et l'évaluation de la conformité.¹

Conclusion :

De ce qui précède, on conclut qu'afin d'assurer une meilleure protection des données à caractère personnel à l'ère de l'IA et son évolution si accrue, les efforts ont été redoublés que ce soit au niveau des législations nationale ou internationale, dans ce sens il est à noter que le Maroc a mis les suggestions suivantes :

La création d'une commission spécialisée dans le domaine l'IA, et qui serait chapeautée par la commission nationale de la protection des données (CNDP), de la soumission des systèmes de l'IA à la CNDP pour contrôler leur conformité.

Encore, les autorités marocaines travaillent à l'élaboration d'un cadre réglementaire adapté. Le ministère de la Justice a amorcé des réflexions sur une future loi qui devra répondre aux défis posés par l'IA, notamment en matière de responsabilité juridique, de transparence des décisions algorithmiques et de protection des libertés individuelles. Le Conseil Économique, Social et Environnemental recommande une refonte des textes existants pour qu'ils intègrent explicitement l'usage des technologies d'IA dans les transactions et la gestion des données. Travaillent à l'élaboration d'un cadre réglementaire adapté. Le ministère de la Justice a amorcé des réflexions sur une future loi qui devra répondre aux défis posés par l'IA, notamment en matière de responsabilité juridique, de transparence des décisions algorithmiques et de protection des libertés individuelles. Le Conseil Économique, Social et Environnemental recommande une refonte des textes existants pour qu'ils intègrent explicitement l'usage des technologies d'IA dans les transactions et la gestion des données.

L'intelligence artificielle, avec son appétit insatiable pour les données, représente à la fois une promesse de progrès et un défi sans précédent pour la protection des droits individuels. Au Maroc, la loi 09-08, bien que solide dans

¹ Manon Hottin, juriste, « **Intelligence artificielle et protection des données personnelles : Entre opportunités et conformité** », Article publié sur le journal d'actualité juridique : « Village de la Justice », le 15 novembre 2024

ses fondements, se trouve aujourd'hui confrontée à une réalité technologique qui dépasse ses cadres initiaux.

Les points de friction entre l'IA et cette loi, qu'il s'agisse du consentement éclairé, de la finalité du traitement, de la transparence des algorithmes ou de la responsabilité en cas de dysfonctionnement – révèlent une tension profonde entre innovation et régulation.

Pour que le Maroc puisse pleinement tirer parti des avantages de l'IA tout en protégeant les droits de ses citoyens, une réforme législative s'impose. Cette réforme devra intégrer des principes éthiques clairs, renforcer la transparence des systèmes d'IA et établir des mécanismes de responsabilité adaptés aux spécificités de cette technologie. Elle devra également s'inscrire dans le cadre de la stratégie Maroc Digital 2030, qui vise à faire du pays un hub numérique régional tout en garantissant une transition technologique inclusive et durable.

En parallèle, une sensibilisation accrue du public et une formation des professionnels aux enjeux de l'IA seront essentielles pour garantir une adoption responsable et éthique de cette technologie. La réussite de cette transformation dépendra de la collaboration entre les acteurs publics, privés et académiques, ainsi que de la capacité du Maroc à adapter son cadre juridique aux défis posés par l'IA.

En somme, l'IA n'est pas seulement une question technologique, mais aussi une question de valeurs. Le Maroc a l'opportunité de devenir un modèle en matière de régulation éthique de l'IA, en montrant que progrès technologique et respect des droits fondamentaux ne sont pas incompatibles, mais bien les deux faces d'une même médaille. Grâce à des initiatives comme Maroc Digital 2030, le pays peut positionner l'IA comme un levier de développement économique et social, tout en protégeant les droits et la dignité de ses citoyens. L'avenir de l'IA au Maroc dépendra de notre capacité à trouver cet équilibre délicat, où innovation rime avec responsabilité.¹

¹ Moulay El Amine el Hammoumi el Idrissi, associé, « **Intelligence artificielle et protection des données à caractère personnel** », Article publié en mars 2024

Bibliographie :

✓ Lois :

- Article 1 de la loi marocaine 09-08

✓ Articles :

- Atypique, « Protection des données dans l'ère de l'IA : Enjeux et solutions », Article
- DPO Consulting, « L'impact de l'intelligence artificielle sur la protection des données : Défis et opportunités »
- Manon Hottin, juriste, « Intelligence artificielle et protection des données personnelles : Entre opportunités et conformité Mathilde Carle, avocate aux barreaux de Paris et New York, « Est-il possible de protéger les données personnelles sur la Blockchain ? », Moulay El Amine el Hammoumi el Idrissi, associé, « Intelligence artificielle et protection des données à caractère personnel »
- Rédaction, « Intelligence Artificielle au Maroc : A quand un cadre juridique ? », Slimane Abdelhamid, avocat, « L'équilibre délicat entre la Blockchain et la protection des données personnelles »
- Thomas Blanc, fondateur de Données.net, cabinet spécialisé en conformité RGPD et privacy by design « Big Data et données personnelles »
- Yasser Elkouri, doctorant à la Faculté des Sciences Juridiques Economiques et Sociales de Tanger, Université Abdelmalek Essaâdi, « L'IA au Maroc : Comment la loi 09-08 tente de contenir le gouffre des données »

✓ Webographie :

Rédaction, « **Intelligence Artificielle au Maroc : A quand un cadre juridique ?** », Article publié dans le journal d'actualités : « Le Nouvelliste », le 13 février 2025

Yasser Elkouri, doctorant à la Faculté des Sciences Juridiques Economiques et Sociales de Tanger, Université Abdelmalek Essaâdi, « **L'IA au Maroc : Comment la loi 09-08 tente de contenir le gouffre des données** », Article publié dans le journal d'actualité juridique : « Village de la Justice », le 7 mars 2025

**LES DONNEES PERSONNELLES A CARACTERE PRIVE
ET L'INTELLIGENCE ARTIFICIELLE : QUELS ENJEUX ?
NHILI MARWA**

- <https://www.aty-pique.com/>
- <https://www.decideurs-magazine.c>
- <https://dpo-consulting.fr/>
- <https://www.grantthornton.ma>
- <https://www.lenouvelliste.ma>
- <https://www.linkedin.com/>
- [www.village de justice.fr](http://www.village-de-justice.fr)

**Investigation sur l'application des outils d'IA par les
enseignants du primaire à la province
de Taourirt (Maroc oriental)**

Arsi Zakia¹

Cherai Mohammed^{1 et 2}, Mernissi Israe¹, Cherai Ahmed¹

¹ Ministère de l'Éducation nationale, du Préscolaire et des Sports

² Faculté des Sciences, Laboratoire de Géosciences, GéoEnvironnement et Prospection

Minière et Hydrique, BP 717, 60000 Oujda

Maroc

Résumé

Cette enquête explore l'utilisation des outils d'intelligence artificielle (IA) par les enseignants du primaire à la province de Taourirt. L'IA offre des opportunités prometteuses pour personnaliser les apprentissages, rendre les concepts complexes plus accessibles et améliorer l'expérience éducative. Cependant, l'étude révèle que l'adoption de ces technologies reste faible : une majorité des enseignants n'a jamais utilisé ces outils, et seuls quelques-uns les intègrent régulièrement dans leur pratique pédagogique.

Les enseignants qui exploitent l'IA l'utilisent principalement pour la consultation, la planification de cours et la création des supports de cours, tandis que son utilisation pour réaliser les scénarios pédagogiques et l'évaluation reste marginale.

Les défis majeurs incluent le manque d'infrastructures technologiques, le besoin de sensibilisation et de formation des enseignants, ainsi que les préoccupations liées à l'intégrité académique. Cette recherche souligne la nécessité urgente de mettre en place des programmes de développement professionnel et de fournir des ressources adaptées pour maximiser les avantages de l'IA tout en minimisant ses risques.

Introduction

L'introduction des outils de l'IA depuis ses lancements a marqué une étape significative dans le domaine de l'intelligence artificielle (IA) générative, attirant une attention particulière dans le secteur éducatif (Siemens et Baker, 2012 ; Espartinez, 2024). Ces technologies ont permis d'améliorer l'accès aux ressources pédagogiques, de faciliter les processus d'enseignement et d'apprentissage, et de renforcer les interactions entre enseignants et apprenants. Cependant, avec l'émergence rapide des outils d'intelligence artificielle (IA), une nouvelle ère d'innovation éducative est en cours (Espartinez, 2024).

Les outils d'IA, tels que le ChatGpt, se positionnent désormais comme des leviers majeurs pour repenser les pratiques pédagogiques (Hong, 2024). Dans le contexte de l'enseignement primaire, ces technologies offrent un potentiel significatif pour personnaliser les apprentissages en fonction des besoins spécifiques des élèves, fournir des ressources adaptées et réduire les inégalités éducatives (Halaweh, 2023 ; Skavronskaya *et al.*, 2023). Par exemple, un élève ayant des difficultés en lecture peut bénéficier d'exercices ciblés, tandis qu'un élève avancé peut être stimulé par des défis plus complexes.

Cependant, l'intégration des outils d'IA dans l'enseignement primaire ne se fait pas sans défis. Leur adoption suscite des interrogations sur plusieurs niveaux. D'une part, leur efficacité réelle à long terme reste à prouver dans des contextes éducatifs variés. D'autre part, leur acceptabilité par les parties prenantes – enseignants, élèves et parents – dépend fortement de la perception de leur utilité, de leur simplicité d'utilisation et des impacts potentiels sur les pratiques éducatives traditionnelles. À cela s'ajoutent des préoccupations éthiques et pratiques, notamment en ce qui concerne la protection des données des utilisateurs, les biais éventuels des algorithmes et les risques de dépendance à la technologie (Lin, 2022).

Dans ce contexte, il est essentiel d'évaluer de manière systématique l'utilisation des outils d'IA dans les écoles primaires. Cet article présente une analyse des résultats d'un questionnaire élaboré dans un cadre de recherche scientifique. L'objectif est de comprendre comment ces technologies sont perçues par les enseignants,

d'identifier les principaux obstacles à leur adoption, et de mettre en lumière les opportunités qu'elles offrent pour transformer l'enseignement. En explorant ces aspects, cette étude vise à contribuer à une meilleure intégration des outils d'IA dans l'éducation, en tenant compte des spécificités du contexte de l'enseignement primaire et des besoins des différents acteurs impliqués.

Méthodologie

Echantillon de recherche

L'échantillon de l'étude est composé d'enseignants du primaire, dont 68,9 % sont des femmes et 31,1 % des hommes (Tableau 1). Une grande partie des participants, soit 40,6 %, possède moins de 5 ans d'expérience professionnelle, ce qui reflète une proportion notable de jeunes enseignants dans l'échantillon (mois de 25 ans : 27,4% ; entre 25 et 35 ans : 34%) (Tableau 1).

En termes de qualifications académiques, 84 % des enseignants possèdent une licence, reflétant un haut niveau de formation au sein du groupe. De plus, 6,6 % ont obtenu un baccalauréat, tandis que 8.5 % détiennent un master. Les enseignants titulaires d'un doctorat ne dépassent pas 1 % (Tableau 1). Cette diversité dans les qualifications indique une gamme variée d'expertises parmi les participants. Concernant leur environnement professionnel, 72,6 % des enseignants exercent en milieu urbain, contre 27,4 % en milieu rural. Cette distribution offre une opportunité d'explorer les éventuelles différences dans les approches pédagogiques et les défis spécifiques auxquels les enseignants font face en fonction de leur contexte d'enseignement.

Tableau 1. Caractéristiques de l'échantillon d'étude

Caractéristiques		Pourcentage (%)
Sexe	Féminin	68,9
	Masculin	31,1
Diplôme	Baccalauréat	6,6
	Licence	84
	Master	8,5
	Doctorat	0,9
Milieu	Urbain	72,6
	Rural	27,4
Age	Moins de 25 ans	27,4
	25-35 ans	34
	36-45 ans	25,5
	Plus de 45 ans	13,2
Expérience	Moins de 5 ans	40,6
	5 à 10 ans	31,1
	Plus de 10 ans	28,3

Outil de recherche

Un questionnaire a été élaboré dans le cadre de cette étude, en se fondant sur une revue approfondie de la littérature existante pour garantir que les questions soient appropriées et qu'elles couvrent les principaux concepts ou variables étudiés.

Les enseignants ont été invités à répondre à 15 questions fermées, visant à évaluer leur utilisation des outils d'intelligence artificielle (IA) dans l'enseignement, ainsi que l'impact de cette utilisation sur la qualité de leurs cours. L'étude cherche également à analyser leur perception de l'intégration des outils d'IA dans les écoles pionnières. Nous avons cherché à identifier les obstacles potentiels liés à leur

utilisation, tout en explorant si ces outils pourraient restreindre la créativité des enseignants.

À travers cette approche exhaustive, notre but est de favoriser une meilleure compréhension des enjeux liés à l'utilisation des outils d'IA dans l'enseignement, en mettant en évidence les défis éventuels et en proposant des solutions pour optimiser leur intégration dans les pratiques pédagogiques. Afin d'assurer la rigueur scientifique de cette démarche, le questionnaire a été validé par un groupe d'experts spécialisés en éducation.

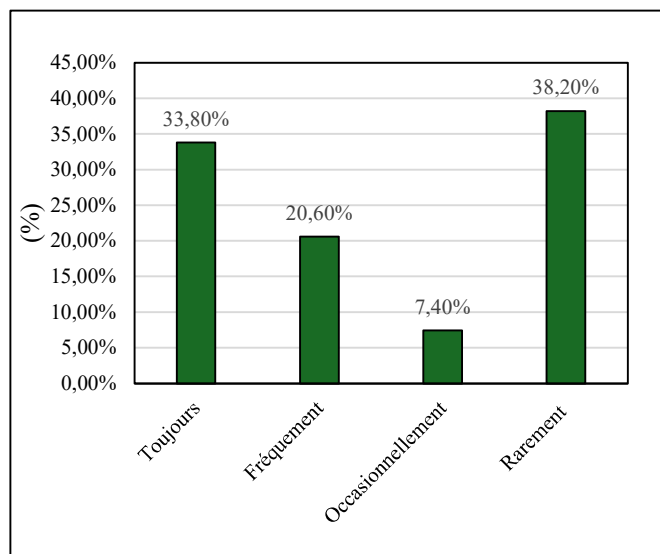
Résultats et discussion

Utilisation des outils d'IA dans l'enseignement

L'analyse des réponses des enseignants du primaire montre que la majorité (65,1%) ont utilisé les outils de l'IA dans leur pratique éducative spécialement le ChatGPT. Le reste des enseignants (34,9%) n'ont jamais utilisé ces outils de l'IA. Ce constat reflète une possible réticence, un manque de familiarité avec cette technologie ou des contraintes d'accès, comme les coûts d'abonnement et les limitations d'utilisation.

En revanche, 38,2% des enseignants déclarent utiliser ces outils rarement (Fig. 1), ce qui témoigne d'une exploration modérée des opportunités qu'il offre tout en conservant des méthodes pédagogiques plus traditionnelles. De plus, 20,6% des répondants en font un usage occasionnel (Fig. 1), généralement dans des contextes spécifiques tels que des projets ou des besoins ponctuels en classe. Enfin, 30,8% intègrent les outils de l'IA de manière régulière dans leur enseignement (Fig. 1), illustrant un intérêt marqué pour les innovations technologiques et leur potentiel éducatif.

Figure 1. Fréquence d'utilisation des outils de l'IA par les enseignants du primaire



Les enseignants familiers avec les technologies de l'information se montrent plus ouverts à adopter des approches pédagogiques novatrices et à sortir des cadres traditionnels. Leur confiance accrue dans l'éducation assistée par l'IA favorise une utilisation plus créative et stratégique des outils comme ChatGPT (Lin, 2022).

Objectifs de l'utilisation des outils d'IA dans l'enseignement

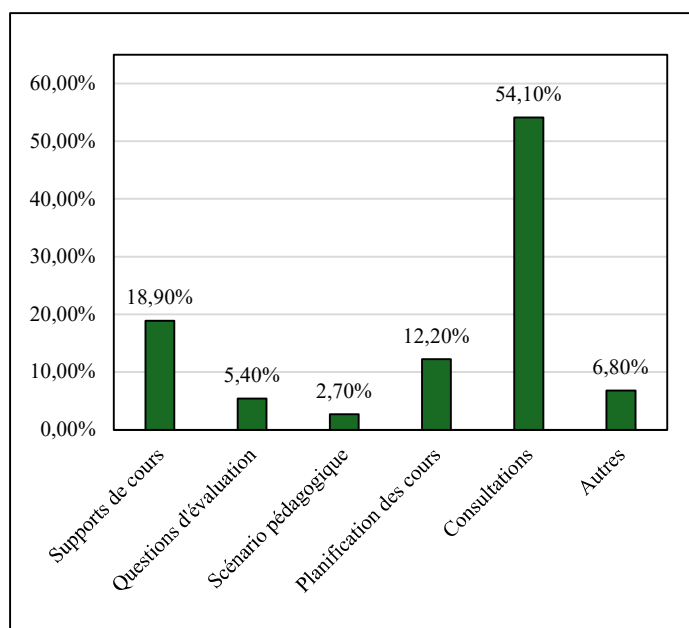
Une analyse approfondie révèle que l'utilisation majoritaire de l'IA concerne les consultations, représentant 54,1% des réponses (Fig. 2). Cela indique que l'IA est principalement perçue comme un outil de soutien permettant aux enseignants d'accéder rapidement à des informations ou de résoudre des problèmes ponctuels. Ce résultat met en évidence le rôle de l'IA comme un assistant complémentaire dans les activités pédagogiques quotidiennes.

En parallèle, 18,9% des enseignants ont indiqué utiliser l'IA pour la conception ou l'amélioration des supports de cours (Fig. 2). Cela traduit un intérêt croissant pour l'exploitation de cette technologie afin d'accroître la qualité et l'efficacité des contenus pédagogiques. L'IA devient ici un outil de créativité et de simplification, apportant une valeur ajoutée significative dans la préparation des cours.

Cependant, l'utilisation de l'IA pour des tâches plus stratégiques, comme la planification des cours (12,2%), la création de questions d'évaluation (5,4%) ou la conception de scénarios pédagogiques (2,7%), reste plus limitée (Fig. 2). Cela

pourrait s'expliquer par un manque de formation ou de familiarité avec les fonctionnalités avancées de ces outils, ou encore par une certaine prudence face à l'intégration de l'IA dans des processus pédagogiques plus complexes. Ces tâches nécessitent en effet une maîtrise technique et une confiance dans les capacités de l'IA à répondre aux attentes académiques (Brown *et al.*, 2020 ; Lin, 2022).

Figure 2. Objectifs de l'utilisation des outils d'IA par les enseignants du primaire



Globalement, cette analyse révèle que, bien que l'IA soit de plus en plus adoptée par les enseignants, son utilisation reste majoritairement concentrée sur des tâches simples et ponctuelles. Pour favoriser une adoption plus complète et diversifiée, il serait judicieux de renforcer la formation des enseignants sur les possibilités offertes par l'IA et de promouvoir des exemples pratiques d'intégration réussie (Brown *et al.*, 2020). Cela permettrait d'encourager une utilisation plus créative et stratégique de cette technologie, maximisant ainsi son impact dans le domaine éducatif (Brown *et al.*, 2020 ; Grassini, 2023 ; Rudolph *et al.*, 2023 ; Whalen et Mouza, 2023).

Impact de l'utilisation des outils d'IA dans l'enseignement

L'analyse des données révèle la présence d'un impact sur les enseignants du primaire.

Tout d'abord, une proportion importante des répondants (42,1%) déclare que l'utilisation des outils d'IA a légèrement influencé leur préparation des cours. Ce résultat suggère que, pour une majorité relative, ces outils jouent un rôle d'appoint ou d'amélioration partielle, sans pour autant transformer radicalement leur approche pédagogique.

En revanche, 28,9% des enseignants affirment que l'IA n'a pas changé leur manière de travailler. Ce chiffre peut refléter une résistance à adopter ces technologies, un manque de formation adéquate ou encore une préférence pour des méthodes pédagogiques traditionnelles. Par ailleurs, 15,8% des répondants indiquent que l'IA a considérablement modifié leur manière de préparer les cours. Ces enseignants semblent avoir pleinement intégré ces outils dans leurs pratiques, ce qui démontre un fort potentiel d'innovation pour ceux qui savent exploiter les capacités de l'IA.

Enfin, 13,2% des participants déclarent ne pas savoir si l'IA a eu un impact sur leur préparation. Cela pourrait indiquer une certaine méconnaissance des fonctionnalités des outils d'IA ou un manque d'expérience dans leur utilisation.

Bien que les outils d'IA soient reconnus pour leur utilité par une majorité d'enseignants, leur adoption complète reste limitée. Les résultats mettent en évidence un besoin de formation et de sensibilisation pour permettre aux enseignants d'exploiter pleinement le potentiel de ces technologies dans leur préparation pédagogique. Cela pourrait également encourager une réflexion sur les obstacles perçus, tels que la complexité ou le temps nécessaire pour intégrer ces outils dans la pratique quotidienne.

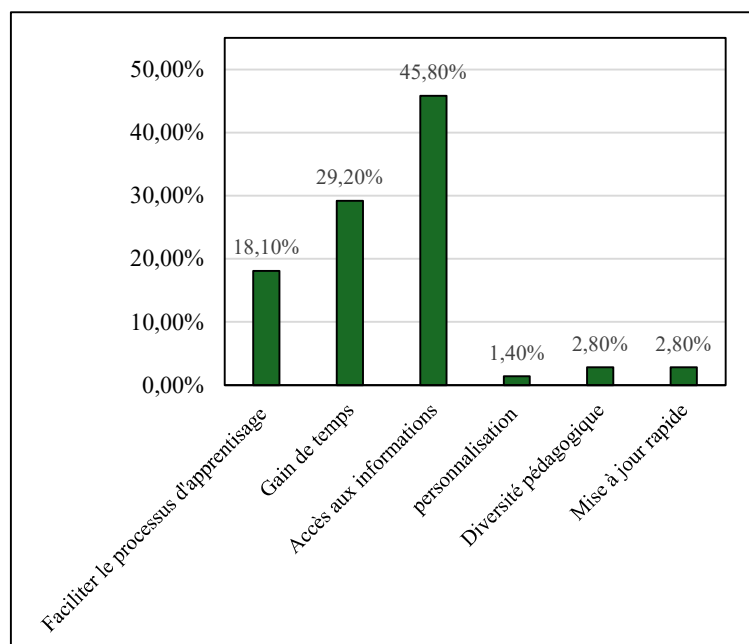
Ce travail met en lumière aussi les changements observés par les enseignants dans leurs méthodes d'enseignement suite à l'intégration des outils d'intelligence artificielle (IA). L'analyse des données révèle que l'accès aux informations est le changement le plus fréquemment mentionné, représentant 45,8% des réponses (Fig. 3). Cela reflète le rôle central des outils d'IA en tant que sources rapides et diversifiées d'informations, simplifiant ainsi le travail des enseignants.

Le gain de temps est cité par 29,2% des répondants (Fig. 3), soulignant l'efficacité des outils d'IA dans l'automatisation de tâches répétitives et la préparation des cours. Cet avantage est essentiel pour les enseignants qui cherchent à optimiser leur temps pour se concentrer davantage sur la pédagogie et l'accompagnement des élèves.

Faciliter le processus d'apprentissage est également un aspect important, mentionné par 18,1% des participants (Fig. 3). Cela montre que l'IA est perçue comme un allié pour rendre l'enseignement plus clair, interactif et accessible aux élèves.

En revanche, les réponses liées à la personnalisation de l'enseignement (1,4%), à la diversité pédagogique (2,8%) et à la mise à jour rapide (2,8%) restent marginales (Fig. 3). Ces faibles pourcentages pourraient indiquer une sous-utilisation des capacités avancées de l'IA, telles que l'adaptation des contenus au niveau des élèves ou la diversification des approches pédagogiques.

Figure 3. L'impact de l'utilisation des outils d'IA sur la méthode de travail des enseignants du primaire



Bien que, l'intégration des outils d'IA dans l'enseignement soit appréciée pour son impact sur l'accès aux informations et l'efficacité temporelle, il subsiste un

potentiel inexploité en matière de personnalisation et d'innovation pédagogique (Baker, 2020 ; Castro, 2023). Un accompagnement ciblé pourrait encourager les enseignants à tirer parti de ces fonctionnalités avancées, maximisant ainsi les bénéfices de l'IA dans l'éducation (Baker, 2020 ; Castro, 2023 ; Kasneci *et al.*, 2023 ; Nazir et Wang, 2023).

Obstacles de l'utilisation des outils d'IA dans l'enseignement

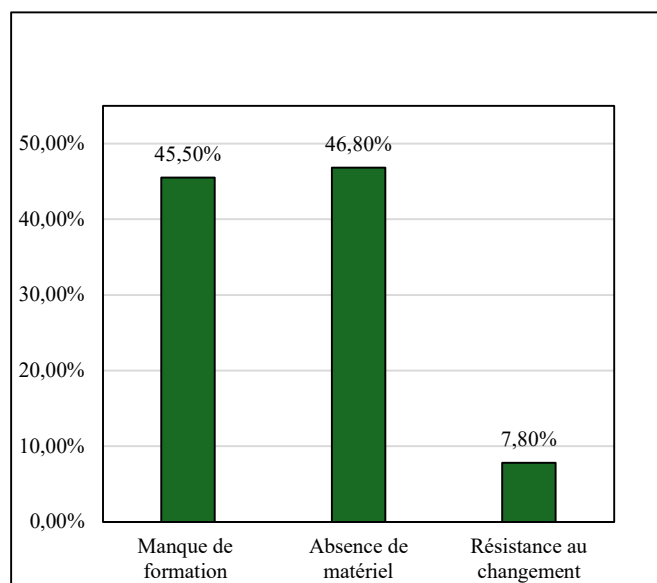
Cette étude illustre les principaux obstacles ou défis rencontrés par les établissements dans l'utilisation des outils d'intelligence artificielle (IA). Trois défis majeurs ont été identifiés, chacun ayant un poids distinct dans les réponses des participants.

Le problème le plus fréquemment mentionné est l'absence de matériel adéquat (connexion internet, équipements nécessaires), qui représente 46,8% des réponses (Fig. 4). Ce résultat met en évidence que, malgré l'intérêt croissant pour l'intégration de l'IA, les infrastructures technologiques insuffisantes restent un frein significatif à une adoption efficace.

Le manque de formation sur l'utilisation des outils d'IA arrive en deuxième position avec 45,5% des réponses (Fig. 4). Ce résultat souligne un besoin urgent d'accompagner les enseignants et le personnel éducatif dans la maîtrise des nouvelles technologies. Un déficit de formation peut limiter leur capacité à tirer pleinement parti des opportunités offertes par ces outils.

Enfin, la résistance au changement est citée par 7,8% des participants (Fig. 4). Bien qu'elle soit moins fréquemment mentionnée, cette résistance peut refléter des attitudes conservatrices ou des appréhensions face à la transformation digitale dans l'éducation.

Figure 4. Les obstacles liés à l'utilisation des outils d'IA par les enseignants du primaire



Au final, pour surmonter ces obstacles, il serait judicieux de prioriser l'amélioration des infrastructures technologiques et de mettre en place des programmes de formation spécifiques. En parallèle, des initiatives pour accompagner le changement culturel pourraient également être mises en œuvre, afin d'encourager une adoption plus large et plus efficace des outils d'IA (Kai, 2022 ; Singh et Chouhan, 2023).

Perceptions des enseignants sur l'utilisation des outils d'IA dans l'enseignement

Les données montrent une perception globalement positive de l'utilisation de l'intelligence artificielle (IA) dans le domaine éducatif, tout en mettant en évidence certains points de divergence.

Tout d'abord, une majorité de répondants (68,3 %) approuvent l'utilisation de l'IA pour corriger les tests de validation (positionnement et post-test). Ce consensus souligne une reconnaissance des avantages de l'IA en termes d'efficacité et de précision dans les tâches d'évaluation. Toutefois, 31,7 % des participants expriment une réserve à ce sujet, ce qui pourrait traduire des inquiétudes liées à l'objectivité ou à la capacité des outils d'IA à interpréter des réponses nuancées.

En ce qui concerne le potentiel de l'IA pour améliorer le travail dans une école pionnière marocaine, les répondants identifient principalement la **correction et le**

suivi des activités des élèves comme un apport significatif (45,5 %). Par ailleurs, **la préparation des séances pédagogiques** (28,6 %) et **la préparation des cartes mentales** (26 %) sont également perçues comme des domaines où l'IA peut offrir une valeur ajoutée. Ces résultats montrent que l'IA est majoritairement vue comme un outil de simplification des tâches administratives et de soutien à la planification pédagogique.

Cependant, l'impact de l'IA sur la créativité des enseignants suscite davantage de débats. Une majorité (62,3 %) estime que l'utilisation des outils d'IA limite leur créativité, tandis que 37,7 % considèrent qu'elle ne constitue pas un frein. Cette tension pourrait refléter une crainte que l'IA, en standardisant certains processus, réduise l'autonomie et l'innovation dans la conception pédagogique.

Ces données révèlent une ouverture encourageante à l'intégration de l'IA dans les écoles, particulièrement pour automatiser les tâches répétitives et administratives. Toutefois, elles mettent également en lumière des préoccupations légitimes concernant l'impact de ces technologies sur la créativité des enseignants. Pour exploiter pleinement le potentiel de l'IA tout en atténuant ces craintes, il est crucial de favoriser une approche équilibrée et stratégique, reposant sur des formations ciblées. Cela permettrait aux enseignants de maîtriser ces outils tout en conservant leur autonomie et leur capacité d'innovation pédagogique. Il est également important de noter que ChatGPT peut fournir des réponses incorrectes ou non vérifiées, car il n'a pas accès en temps réel à des informations à jour ni la possibilité de naviguer sur Internet pour vérification (Aizu'bi et al., 2023 ; Alneyadi et. Wardat, 2023 ; Thorp, 2023).

Conclusion

L'intégration des outils d'intelligence artificielle dans l'enseignement primaire offre des opportunités considérables, mais elle s'accompagne également de défis importants. Les enseignants, au cœur de cette transformation, reconnaissent des avantages significatifs, tels que l'accès rapide à l'information, un gain de temps, et une personnalisation accrue des parcours d'apprentissage. Cependant, les obstacles, comme le manque de formation, l'insuffisance des infrastructures et une certaine

résistance au changement, freinent leur adoption optimale. Les résultats montrent que l'IA peut enrichir les méthodes pédagogiques, mais nécessite un accompagnement adapté pour maximiser ses bénéfices sans perturber les pratiques existantes. Une stratégie efficace devrait inclure la formation des enseignants, l'amélioration des infrastructures technologiques et le soutien au changement. En prenant en compte ces éléments, les systèmes éducatifs peuvent exploiter pleinement le potentiel de l'IA pour transformer positivement l'expérience d'apprentissage des élèves.

Références

- Aizu'bi, S., Mughaïd, A., Quiam, F., & Hendawi, S. (2023). Exploring the capabilities and limitations of ChatGPT and alternative big language models. *Artificial Intelligence and Applications*, 1–10.
- Alneyadi, S., & Wardat, Y. (2023). ChatGPT: Revolutionizing student achievement in the electronic magnetism unit for eleventh-grade students in Emirates schools. *Contemporary Educational Technology*, 15(4).
- Baker, R. S. (2020). The impact of artificial intelligence on education. *Journal of Educational Psychology*, 112(4), 662–677.
- Brown, T., Mann, B., Ryder, N., Subbiah, M., Kaplan, J. D., Dhariwal, P., Neelakantan, A., Shyam, P., Sastry, G., Askell, A., et al. (2020). Language models are few-shot learners. *Advances in Neural Information Processing Systems*, 34, 1877–1901.
- Castro, C. A. de. (2023). A discussion about the impact of ChatGPT in education: Benefits and concerns. *Journal of Business Theory and Practice*, 11(2), 28–34.
- Espartinez, A. S. (2024). Exploring student and teacher perceptions of ChatGPT use in higher education: A Q-methodology study. *Computers and Education: Artificial Intelligence*, 7, 100264.
- Grassini, S. (2023). Shaping the future of education: Exploring the potential and consequences of AI and ChatGPT in educational settings. *Education Sciences*, 13, 692.
- Halaweh, M. (2023). ChatGPT in education: Strategies for responsible implementation. *Contemporary Educational Technology*, 15(2).
- Hong, W. C. H. (2023). The impact of ChatGPT on foreign language teaching and learning: Opportunities in education and research. *Journal of Educational Technology and Innovation*, 5, 37–45.
- Kasneci, E., Seßler, K., Küchemann, S., Bannert, M., Dementieva, D., Fischer, F., & Kasneci, G. (2023). ChatGPT for good? On opportunities and challenges of large language models for education.

- Kai, W. (2022). Social and cultural capital and learners' cognitive ability: Issues and prospects for educational relevance, access and equity towards digital communication in China. *Current Psychology*, 42, 15549–15563. <https://doi.org/10.1007/s12144-021-02517-6>
- Lin, H. (2022). Influences of artificial intelligence in education on teaching effectiveness: The mediating effect of teachers' perceptions of educational technology. *International Journal of Emerging Technologies in Learning*, 17(24), 144–156.
- Nazir, A., & Wang, Z. (2023). A comprehensive survey of ChatGPT: Advancements, applications, prospects, and challenges. *Meta Radiology*, 1(2).
- Rudolph, J., Tan, S., & Tan, S. C. (2023). Bullshit spewer or the end of traditional assessments in higher education? *Journal of Applied Learning & Teaching*, 6.
- Siemens, G., & Baker, R. S. J. d. (2012). Learning analytics and educational data mining: Towards communication and collaboration. In *Proceedings of the 2nd International Conference on Learning Analytics and Knowledge*.
- Singh, A., & Chouhan, T. (2023). Artificial intelligence in HRM: Role of emotional–social intelligence and future work skill. In P. Tyagi, N. Chilamkurti, S. Grima, K. Sood, & B. Balusamy (Eds.), *The adoption and effect of artificial intelligence on human resources management, Part A* (pp. 175–196). Emerald Publishing Limited. <https://doi.org/10.1108/978-1-80382-027-920231009>
- Skavronskaya, L., Hadinejad, A., & Cotterell, D. (2023). Reversing the threat of artificial intelligence to opportunity: A discussion of ChatGPT in tourism education. *Journal of Teaching in Travel & Tourism*, 23, 253–258.
- Thorp, H. H. (2023). ChatGPT is fun, but not an author. *Science*, 379, 313.
- Whalen, J., & Mouza, C. (2023). ChatGPT: Challenges, opportunities, and implications for teacher education. *Contemporary Issues in Technology and Teacher Education*, 23, 1–23.

De l'école au musée:
L'Agadir Musée d'Art comme espace d'apprentissage
Par. Omar IDTNAINE

Docteur en sciences de l'Information et de la Communication

Conservateur – Fondation Nationale des Musées

MAROC

Résumé :

Cet article explore les activités éducatives de l'Agadir Musée d'Art, mettant en lumière leur rôle dans la valorisation du patrimoine amazigh et de l'art contemporain marocain. Les ateliers artistiques, publications pédagogiques et visites guidées par un médiateur culturel renforcent la créativité, la sensibilisation culturelle et l'apprentissage scolaire des jeunes générations, faisant du musée un complément essentiel à l'éducation formelle. Les visites guidées, en particulier, sont un outil pédagogique clé favorisant l'interaction et l'appropriation du patrimoine.

Mots clés: apprentissage immersif, médiation culturelle, pédagogie, espace éducatif, apprentissage.

Introduction

Le Maroc, riche de son patrimoine culturel et artistique, a depuis longtemps reconnu l'importance de valoriser ses ressources culturelles pour renforcer le lien entre ses citoyens et leur histoire. Ces efforts s'inscrivent dans une dynamique où la culture devient un levier non seulement de promotion touristique, mais aussi d'éducation et de sensibilisation à l'identité nationale. Les musées, en tant qu'institutions culturelles, jouent un rôle essentiel dans cette perspective. Ils servent de ponts entre le passé et le présent, entre les générations et les savoirs, entre les traditions locales et les aspirations globales. Loin d'être de simples espaces d'exposition, les musées modernes se définissent comme des lieux vivants, ouverts à l'interprétation et à l'apprentissage, en particulier pour les jeunes publics.

L'Agadir Musée d'Art, niché dans une ville à l'héritage amazigh profondément enraciné et marquée par des transformations urbaines et sociales significatives, illustre parfaitement cette dynamique. Sa programmation et ses collections combinent des éléments du patrimoine amazigh avec des œuvres d'art moderne et contemporain, offrant ainsi une expérience riche et diversifiée. Cependant, malgré son potentiel éducatif, le musée demeure un espace sous-exploité en tant qu'outil pédagogique, notamment pour les élèves des écoles publiques, qui représentent pourtant un public clé dans toute stratégie de médiation culturelle.

Face à ce constat, il devient pertinent d'interroger le rôle éducatif de l'Agadir Musée d'Art. Dans quelle mesure cette institution peut-elle être un lieu d'apprentissage complémentaire à l'éducation formelle? Comment peut-elle encourager les élèves à développer leur compréhension de la culture, du patrimoine et de l'art tout en stimulant leur réflexion critique et leur créativité? Ces interrogations soulèvent également des problématiques liées aux initiatives déjà mises en œuvre par le musée, à leurs impacts sur l'éducation artistique et à la valorisation du patrimoine local. De plus, il est crucial d'examiner les défis auxquels le musée est confronté, tels que le manque de ressources pédagogiques adaptées, l'insuffisance de collaboration avec les écoles locales, ou encore les limites institutionnelles qui freinent son plein potentiel.

L'objectif principal de cet article est donc de mettre en lumière les actions entreprises par l'Agadir Musée d'Art pour favoriser l'apprentissage des élèves, tout en identifiant les lacunes et les pistes d'amélioration. Il repose sur des hypothèses selon lesquelles, d'une part, le musée offre un cadre unique permettant de sensibiliser les jeunes à l'art et au patrimoine, et, d'autre part, que cette contribution éducative est limitée par des défis organisationnels et structurels. Cette analyse s'appuie sur un cadre théorique combinant les approches de la médiation culturelle et de l'éducation informelle. Eilean Hooper-Greenhill (Hooper-Greenhill, 1994, p.40) considère les musées comme des espaces d'apprentissage actif et interactif, où les visiteurs ne sont pas de simples récepteurs d'information, mais des participants engagés. Par ailleurs, les travaux de Pierre Bourdieu et Jean-Claude Passeron (Bourdieu & Passeron, 1970, p.41) sur la reproduction culturelle mettent en lumière l'importance des institutions muséales comme vecteurs de transmission et de démocratisation des savoirs.

Pour explorer ces questions, une méthodologie qualitative a été adoptée, intégrant des entretiens semi-directifs avec des enseignants et des responsables du musée, ainsi que des observations directes des activités pédagogiques. Ce choix méthodologique permet une analyse fine des interactions et des pratiques éducatives. Le terrain d'étude, centré sur l'Agadir Musée d'Art, est particulièrement pertinent en raison de son double ancrage dans le patrimoine amazigh et l'art moderne et contemporain, offrant ainsi une richesse propice à l'exploration des enjeux éducatifs et culturels.

Ainsi, cet article aspire à contribuer à une réflexion plus large sur le rôle des musées dans le paysage éducatif marocain, tout en mettant en évidence les potentialités et les défis spécifiques de l'Agadir Musée d'Art. En articulant patrimoine, culture et apprentissage, il invite à repenser les musées comme des espaces d'éducation, de dialogue et d'inspiration pour les générations futures.

I. L'Agadir Musée d'Art: un espace éducatif et culturel

1. Historique et mission du musée

L'Agadir Musée d'Art, inauguré en avril 2023, s'inscrit dans un double héritage culturel et institutionnel. Il est né de la transformation du Musée Municipal du Patrimoine Amazigh, auparavant sous la tutelle de la municipalité d'Agadir. Cette transformation visait à élargir les horizons de l'institution, en intégrant l'art moderne et contemporain aux côtés des collections amazighes historiques, tout en renforçant son rôle dans la promotion de la diversité culturelle de la région.

Le musée s'est donné pour mission principale de préserver, valoriser et transmettre le patrimoine artistique et culturel de la région d'Agadir et au-delà. En tant qu'espace éducatif, il aspire à sensibiliser les publics, notamment les jeunes, à l'importance de l'art et du patrimoine, tout en offrant un cadre propice à l'apprentissage, à l'éveil artistique et à l'interaction culturelle.

2. Description des espaces et des collections pertinentes pour l'apprentissage

L'Agadir Musée d'Art se distingue par une architecture moderne et fonctionnelle, pensée pour accueillir un large éventail de publics, des étudiants aux chercheurs, en passant par les touristes et les habitants de la région. Le musée comprend plusieurs espaces dédiés à l'apprentissage :

- **Galleries d'exposition permanente** : Ces espaces abritent des collections variées, notamment des objets du patrimoine amazigh, tels que des bijoux, et des tapis, ainsi que des œuvres d'art moderne et contemporain reflétant les dynamiques sociales et culturelles de la région. Ces collections offrent une base riche pour des explorations éducatives sur l'histoire et la diversité culturelle.
- **Espaces pédagogiques** : Le musée dispose d'ateliers spécialement conçus pour accueillir des groupes scolaires et des enfants. Ces lieux permettent d'organiser des activités interactives et immersives.
- **Espace de consultation des livres sur l'art et sur la culture amazighe** : Cet espace est dédié à la diffusion de contenus éducatifs, permettant d'approfondir les connaissances sur les thématiques abordées dans les expositions.

a. L'offre éducative dans le musée

L'Agadir Musée d'Art s'affirme comme un acteur majeur dans la médiation culturelle en mettant l'éducation au cœur de sa stratégie. L'objectif principal de cette approche est de rapprocher les jeunes générations de la richesse culturelle et artistique du Maroc, afin de développer chez elles une conscience patrimoniale et une sensibilité esthétique. À travers une gamme variée d'activités pédagogiques, le musée cherche à offrir aux élèves et aux étudiants une expérience enrichissante, leur permettant d'explorer l'art et le patrimoine d'une manière ludique et interactive.

Les visites guidées éducatives représentent l'une des initiatives phares du musée. Elles sont conçues de manière à s'adapter aux niveaux scolaires et aux programmes pédagogiques des établissements. Ces visites permettent aux jeunes visiteurs de découvrir les collections du musée tout en approfondissant leurs connaissances sur l'art et le patrimoine marocains. Le médiateur culturel, formé et expérimenté¹, utilise des récits captivants ainsi que des techniques interactives pour susciter l'intérêt et l'engagement des élèves. Depuis la réouverture du musée en avril 2027, plus de 70 établissements scolaires ont bénéficié de ces visites guidées. Cela représente un total de 1560 élèves et étudiants, qui ont pu participer à ces sessions de médiation culturelle, d'une durée moyenne de 1h30. Ces visites constituent un excellent moyen d'offrir aux jeunes un accès direct à la culture et de renforcer leur lien avec le patrimoine local.

En complément de ces visites, le musée propose des ateliers pédagogiques qui permettent aux élèves de s'impliquer activement dans le processus d'apprentissage. Ces ateliers sont conçus pour stimuler la créativité des jeunes participants et leur offrir l'opportunité de travailler sur des thèmes directement liés à l'art et au patrimoine. Par exemple, les ateliers de création artistique encouragent les élèves à exprimer leur propre vision de l'art tout en explorant diverses techniques. Cette approche favorise l'apprentissage expérientiel, où les élèves ne se contentent pas

¹ Le médiateur culturel du musée, recruté en 2022, possède une solide formation académique. Titulaire d'un master en métiers de la culture obtenu à l'université, il détient également une licence en langue et littérature françaises, attestant de ses qualifications et de ses compétences adaptées à ce rôle.

d'apprendre passivement, mais deviennent des acteurs actifs de leur propre processus d'apprentissage.

Les différentes initiatives proposées par le musée, sont conçues pour offrir une expérience immersive et interactive aux élèves et étudiants. Ces activités visent à développer des compétences multiples, allant de la découverte active des collections à l'expression personnelle à travers des créations artistiques, en passant par l'analyse critique des œuvres exposées. Le tableau suivant présente un aperçu détaillé des types d'activités proposées par le musée, ainsi que des volets d'apprentissage associés à chacune, illustrant ainsi comment ces initiatives contribuent à l'éducation culturelle et artistique des jeunes générations.

II. Les actions pédagogiques du musée pour les élèves

1. Collaboration avec les écoles

La collaboration avec les écoles constitue un pilier fondamental de l'Agadir Musée d'Art dans sa stratégie éducative. Dans ce cadre le musée a préparé un livret pédagogique en deux langues (amazighe, et arabe), permettant aux élèves de découvrir ses collections et de s'initier à des notions liées à l'art, au patrimoine et à la diversité culturelle. La distribution de ces livrets pédagogiques est acté en concertation avec les établissements scolaires, afin d'intégrer les contenus des expositions dans les programmes des visites, et permettre aux élèves une implication et une immersion dans l'exposition. Le livret est organisé suivant les cinq thèmes de l'exposition, permettant une déambulation fluide et ordonnée.

Figure 1 : Le livret pédagogique du musée

**DE L'ECOLE AU MUSEE:
L'AGADIR MUSEE D'ART COMME ESPACE D'APPRENTISSAGE
PAR. OMAR IDTNAINE**



Source : Fondation Nationale des Musées

En outre, le musée élabore des programmes pédagogiques adaptés aux différents niveaux scolaires, allant de l'enseignement primaire à l'enseignement secondaire. Ces programmes visent à développer les compétences des élèves en matière d'observation, d'analyse critique et d'appréciation esthétique. La collaboration avec les écoles concerne le contenu des visites-guidées, pour qu'elle soit en adéquation avec le curriculum enseigné dans chaque niveau scolaire au musée.

2. Contenu des activités éducatives

Les activités éducatives de l'Agadir Musée d'Art visent à valoriser simultanément le patrimoine amazigh et l'art moderne et contemporain marocain, tout en offrant aux élèves une expérience immersive et interactive. Grâce à des initiatives pédagogiques diversifiées, le musée favorise l'apprentissage et la sensibilisation culturelle.

L'art moderne et contemporain occupe une place centrale dans le programme éducatif. Des ateliers de peinture et de dessin, inspirés des œuvres exposées, permettent aux élèves d'explorer des thèmes actuels tels que l'environnement, l'identité et la mondialisation. Ces activités stimulent la créativité et encouragent une expression personnelle et collective, tout en développant une capacité critique à interpréter les œuvres artistiques.

En complément, le musée entreprend des actions de communication pour promouvoir sa collection et engager le public. Des publications pédagogiques

régulières sur Instagram et Facebook présentent des informations détaillées sur les œuvres et les thématiques liées au patrimoine amazigh. Ces contenus enrichissent les activités éducatives et renforcent le lien avec les élèves et le grand public.

Les visites guidées constituent l'activité éducative phare du musée. Elles offrent aux élèves une occasion privilégiée d'interagir avec les œuvres et les objets patrimoniaux, tout en bénéficiant des explications éclairées d'un médiateur culturel. Recruté en 2022, ce dernier, hautement qualifié avec un master en métiers de la culture et une licence en langue et littérature françaises, assure une transmission des savoirs adaptée et dynamique. En moyenne, entre 4 et 12 visites guidées sont organisées chaque semaine pour les écoles, permettant à de nombreux élèves d'accéder à une expérience éducative interactive.

Cet article se focalise sur l'analyse des visites guidées en tant qu'outil pédagogique majeur. Il met en lumière leur rôle dans la valorisation du patrimoine culturel marocain et leur contribution à l'enseignement scolaire, en enrichissant et complétant les apprentissages en classe. Ces visites représentent un pilier essentiel de l'approche éducative du musée, visant à sensibiliser les jeunes générations à la richesse culturelle de leur héritage.

3. Étude de cas: description d'une visite-guidée

La visite débute avec l'accueil chaleureux du médiateur culturel à l'entrée du musée. Avec un sourire accueillant, il invite les élèves et leurs professeurs à une expérience immersive, en leur expliquant que le musée est un lieu où les œuvres d'art racontent des histoires qui connectent le passé et le présent. Il introduit brièvement le musée, mettant en avant sa transition d'un espace exclusivement dédié au patrimoine amazigh à une institution ouverte à l'art moderne et contemporain, tout en valorisant ses racines culturelles.

Hall d'accueil: Une introduction inspirante

Le médiateur s'arrête près d'un grand panneau qui présente l'histoire du musée. Il partage que ce lieu a été conçu pour préserver et promouvoir le patrimoine amazigh et qu'il abrite aujourd'hui des œuvres modernes marocaines et orientales. Un élève, intrigué, demande pourquoi le musée a changé de nom. Le médiateur

explique que ce changement reflète une volonté d'ouverture et d'inclusion d'une variété d'expressions artistiques.

Les professeurs accompagnateurs interviennent pour encourager les élèves à poser davantage de questions, soulignant l'importance de comprendre les liens entre patrimoine et art contemporain.

Première salle: Représenter les traditions culturelles

Dans cette section, le médiateur attire l'attention des élèves sur un tableau de Mohamed Ben Ali Rbati représentant les traditions d'accueil marocaines. Il pose une question ouverte : "Que remarquez-vous dans cette scène qui reflète la culture marocaine ?" Les élèves observent les détails, comme les vêtements et les gestes d'accueil. Il enchaîne en expliquant la symbolique de l'hospitalité marocaine.

Devant une peinture d'Hassan El Glaoui illustrant la fantasia, il s'arrête pour expliquer que cette pratique est un hommage aux traditions équestres et au courage. Un élève demande pourquoi les cavaliers portent des vêtements colorés, ce qui permet au médiateur d'expliquer leur importance culturelle et festive.

Dans la section dédiée aux scènes urbaines, il guide les élèves vers un tableau de Mariano Bertuchi représentant une médina traditionnelle. Il les invite à comparer cette scène avec les souks qu'ils connaissent, stimulant leur imagination et leur mémoire personnelle.

Salle 2: Abstraction et mémoire

Le médiateur ouvre cette section en expliquant la différence entre l'art figuratif et l'art abstrait. Il montre un tableau de Mohamed Melehi et le compare à des motifs trouvés sur un tapis amazigh exposé à proximité. "Voyez-vous des similitudes entre ces formes et celles des objets traditionnels amazighs ?" demande-t-il. Les élèves remarquent les motifs géométriques communs et apprennent comment les artistes marocains des années 1960, tels qu'Ahmed Cherkaoui, se sont inspirés du patrimoine local.

Une professeure demande si l'abstraction permet de mieux exprimer les émotions, ce qui donne au médiateur l'occasion d'expliquer que l'abstraction laisse

plus de place à l'interprétation personnelle, stimulant ainsi l'imagination des spectateurs.

Salle 3: Paysages et nature

Le groupe s'arrête devant un tableau représentant une oasis du sud marocain, réalisé par Watson. Le médiateur décrit en détail les éléments du tableau : les palmiers, l'eau et le désert environnant. Il explique comment ces paysages influencent l'art marocain et pose une question: "Pourquoi pensez-vous que les artistes aiment peindre des oasis ?" Les réponses des élèves varient entre l'importance de l'eau dans le désert et la beauté des paysages.

Le médiateur les conduit ensuite à une vitrine présentant des bijoux amazighs décorés de motifs naturels, comme des fleurs et des palmiers. Il explique que ces objets sont non seulement utilitaires mais aussi artistiques, reflétant la sensibilité des artisans à leur environnement. Les élèves sont encouragés à réfléchir à la manière dont les artistes modernes intègrent ces éléments dans leurs créations.

Salle 4: Figures et corps

Dans cette section, le médiateur s'arrête devant un tableau de M'Barek Bouhchichi, en expliquant comment l'artiste aborde les thèmes de la marginalité et de la diversité culturelle. "Quelles émotions ressentez-vous en regardant ces couleurs sombres?" demande-t-il. Les élèves expriment différentes interprétations, allant de la tristesse à l'espoir.

Il dirige ensuite leur attention vers une vitrine contenant des bijoux amazighs en argent, décorés de motifs anthropomorphes et zoomorphes. En montrant une fibule représentant une tête de chèvre, il raconte que ces symboles étaient des représentations protectrices et des marqueurs d'identité. Une professeure demande si ces bijoux étaient réservés à des occasions spéciales, ce qui permet au médiateur de préciser qu'ils étaient souvent portés lors de mariages et autres cérémonies.

La visite se termine dans une atmosphère de satisfaction générale. Le médiateur culturel exprime sa gratitude envers les élèves pour leur curiosité et leurs questions pertinentes tout au long de la visite. Il les encourage à revenir avec leurs familles

**DE L'ECOLE AU MUSEE:
L'AGADIR MUSEE D'ART COMME ESPACE D'APPRENTISSAGE
PAR. OMAR IDTNAINE**

pour découvrir d'autres aspects de la collection du musée et approfondir leurs connaissances. Les professeurs, impressionnés par la richesse des explications du médiateur, félicitent ce dernier pour la qualité de l'intervention et soulignent, devant leurs élèves, l'importance de préserver leur patrimoine tout en restant ouverts aux nouvelles formes d'expression artistique. À l'issue de cette visite éducative, les élèves se sentent inspirés et enrichis, avec une prise de conscience accrue de la richesse culturelle et artistique de leur région. Cette expérience contribue à renforcer leur sensibilité envers leur patrimoine tout en stimulant leur imagination et leur créativité.

La visite guidée au Musée d'Art d'Agadir a été conçue pour intégrer des approches pédagogiques variées, visant à enrichir les connaissances des élèves tout en développant leurs compétences émotionnelles, sociales, et identitaires. Le tableau suivant met en lumière les impacts spécifiques observés dans différents domaines d'apprentissage: cognitif, émotionnel, social et communicationnel, ainsi qu'identitaire.

Tableau 1: les impacts de l'apprentissage des élèves par les visites-guidées

Domaine d'Impact	Description	Effets sur les Élèves
Cognitif	Acquisition de connaissances culturelles, historiques, et artistiques.	Les élèves développent une meilleure compréhension du patrimoine amazigh et des courants artistiques marocains et internationaux.
Émotionnel	Développement de la sensibilité aux œuvres d'art et capacité à interpréter des émotions.	Les élèves apprennent à associer des œuvres à des sentiments et à réfléchir sur

**DE L'ECOLE AU MUSEE:
L'AGADIR MUSEE D'ART COMME ESPACE D'APPRENTISSAGE
PAR. OMAR IDTNAINE**

		l'expression des émotions dans l'art.
Social et communicationnel	Encouragement des interactions, discussions et travail collectif.	Les élèves améliorent leurs compétences en expression orale, apprennent à écouter les autres et à formuler leurs idées.
Identitaire	Renforcement du sentiment d'appartenance culturelle.	Les élèves prennent conscience de la richesse de leur patrimoine culturel et de son importance dans la construction de leur identité.

Source: auteur

Suite aux visites guidées, des entretiens ont été réalisés avec les enseignants des écoles (18 au total) ayant participé aux visites éducatives au musée. Ces retours offrent un éclairage précieux sur la perception des visites et sur leur impact sur les élèves. Les avis recueillis montrent une appréciation générale des initiatives pédagogiques du musée et de la qualité de l'intervention du médiateur culturel.

D'un point de vue statistique, 85% des professeurs interrogés estiment que les visites guidées sont un excellent complément à l'enseignement scolaire, permettant aux élèves de mieux comprendre et de s'approprier les notions abordées en classe, notamment en histoire et en arts plastiques. 72% des enseignants soulignent que les visites permettent aux élèves d'approfondir leur connaissance du patrimoine local, en particulier en ce qui concerne l'art amazigh et l'art moderne marocain. Les professeurs affirment également que ces visites offrent une dimension visuelle et pratique, essentielle pour aider les élèves à mieux saisir les concepts théoriques étudiés en classe.

En termes d'utilité, 78% des enseignants considèrent que les visites contribuent à enrichir les connaissances des élèves de manière ludique et interactive, et 65%

**DE L'ECOLE AU MUSEE:
L'AGADIR MUSEE D'ART COMME ESPACE D'APPRENTISSAGE
PAR. OMAR IDTNAINE**

estiment qu'elles favorisent le développement d'une ouverture d'esprit et d'une sensibilité artistique chez les jeunes. De plus, 90% des professeurs jugent positivement le rôle du médiateur culturel, qui, selon eux, assure une médiation efficace en adaptant ses explications au niveau de compréhension des élèves et en favorisant un échange dynamique.

Ainsi, les visites guidées sont largement perçues comme un outil pédagogique précieux, contribuant à compléter les apprentissages théoriques réalisés en classe, tout en éveillant la curiosité des élèves pour leur patrimoine culturel et artistique. Ces retours soulignent l'importance d'intégrer des visites de ce type dans les programmes scolaires pour offrir une approche plus complète et immersive de l'apprentissage.

Figure 2: Nuage des mots utilisés par les professeurs



Source: auteur (généré par le site suivant : voc.ai)

Le nuage de mots (voir ci-dessus), généré à partir des témoignages recueillis auprès des professeurs ayant participé aux visites guidées de l'Agadir Musée d'Art, met en évidence des termes récurrents qui révèlent les perceptions et les évaluations des activités pédagogiques proposées. Ces mots-clés offrent une lecture qualitative de l'impact des visites guidées sur l'apprentissage et l'engagement des élèves.

**DE L'ECOLE AU MUSEE:
L'AGADIR MUSEE D'ART COMME ESPACE D'APPRENTISSAGE
PAR. OMAR IDTNAINE**

Notre lecture a révélé la dominance des mots suivant, dont le lien avec la pédagogie, l'apprentissage est fort:

Les témoignages des professeurs révèlent l'importance des visites guidées comme outil pédagogique au sein du musée. Le terme "efficacité" revient fréquemment, soulignant l'appréciation générale pour l'organisation des activités et leur pertinence éducative, en complément des enseignements scolaires. Le rôle du médiateur culturel est également central, son expertise et sa capacité à engager les élèves étant perçues comme des atouts essentiels. Les visites ne remplacent pas l'éducation formelle, mais en constituent un prolongement qui aide à concrétiser les notions théoriques vues en classe.

Ces activités favorisent l'appropriation du patrimoine et renforcent l'identité culturelle des élèves, en particulier grâce à une mise en valeur du patrimoine amazigh. Elles encouragent également l'engagement et l'interaction, stimulant la curiosité et la participation active des élèves dans un cadre différent. La mission éducative du musée, axée sur la sensibilisation au patrimoine, se traduit par des expériences immersives et interactives qui allient apprentissage ludique et réflexion critique. Enfin, l'accent mis sur la créativité et l'expression artistique dépasse la simple transmission de connaissances en encourageant les élèves à développer leurs compétences personnelles et à explorer des formes variées d'expression.

Les visites-guidées émergent comme une activité phare dans la mission éducative du musée. Grâce aux interactions personnalisées avec le médiateur culturel, elles permettent une exploration approfondie des œuvres et des thématiques culturelles. L'approche immersive et interactive mise en avant par les professeurs favorise une compréhension concrète et vivante des notions abordées.

En se basant sur les mots-clés récurrents, il est clair que les visites guidées ne se contentent pas d'informer: elles transforment l'apprentissage en une expérience enrichissante, ludique et significative. Ce format pédagogique favorise un apprentissage multidimensionnel en combinant théorie, pratique, engagement émotionnel et réflexion critique.

Cette analyse des témoignages souligne que l'Agadir Musée d'Art remplit son rôle de manière exemplaire en tant qu'espace éducatif et culturel. Les activités proposées, et en particulier les visites-guidées, permettent de répondre aux attentes des enseignants tout en contribuant à la formation des citoyens de demain.

III. Résultats et analyse

La visite guidée au Musée d'Art d'Agadir a révélé des impacts significatifs sur les élèves dans plusieurs domaines d'apprentissage. Ces résultats s'inscrivent dans des perspectives théoriques qui soulignent l'importance de l'éducation muséale en tant qu'outil de médiation culturelle et de développement des compétences globales des enfants.

1. Développement cognitif

L'acquisition de connaissances sur l'art amazigh, les courants artistiques marocains, et la richesse culturelle exposée au musée reflète le rôle éducatif central de la médiation muséale. Selon Hein (Hein, 1998, p. 36), «les musées offrent un espace unique où l'apprentissage se fait de manière informelle, en reliant les objets culturels à des concepts complexes que les élèves peuvent assimiler à travers l'interaction directe». Cette visite a permis aux élèves d'analyser des œuvres comme celles d'Ahmed Cherkaoui ou de Mariano Bertuchi, tout en établissant des liens entre l'histoire, la géographie et les traditions locales, renforçant ainsi leur compréhension interdisciplinaire.

2. Développement Émotionnel

Le rôle des émotions dans l'apprentissage par les musées est bien documenté. Falk et Dierking (Falk & Dierking, 2000, p.44) expliquent que «les expériences muséales mémorables sont souvent celles qui suscitent des émotions fortes, car elles facilitent le processus de rétention de l'information». En observant des œuvres telles que celles de M'Barek Bouhchichi, les élèves ont été invités à réfléchir sur des thématiques complexes comme la marginalité, en explorant les émotions transmises par les couleurs sombres et les formes abstraites. Cette interaction a permis d'éveiller leur sensibilité artistique tout en favorisant leur capacité d'interprétation émotionnelle.

3. Développement social et communicationnel

L'encouragement à poser des questions, à exprimer des opinions, et à participer activement aux discussions avec leurs camarades et enseignants a mis en évidence le rôle des musées comme espaces de dialogue. Selon Hooper-Greenhill (Hooper-Greenhill, 1999, p. 79), «les musées ne sont pas seulement des lieux d'exposition, mais également des espaces où le discours et le partage d'idées peuvent être cultivés». Les élèves ont amélioré leurs compétences en communication en participant activement aux échanges, notamment lorsqu'ils ont proposé des hypothèses sur les matériaux des bijoux ou discuté des paysages représentés dans les œuvres.

4. Renforcement identitaire

La mise en avant des traditions amazighes à travers des objets patrimoniaux tels que les tapis et les bijoux en argent a permis aux élèves de mieux appréhender leur identité culturelle. En s'appuyant sur les théories de Stuart Hall (Hall, 1996, p. 234), qui souligne que «l'identité culturelle est un processus en constante évolution, influencé par les représentations historiques et artistiques», la visite a renforcé le sentiment d'appartenance culturelle des élèves. Ce renforcement identitaire est particulièrement pertinent dans un contexte éducatif, où la reconnaissance et la valorisation des héritages locaux contribuent à l'estime de soi et à l'intégration sociale.

L'analyse des résultats met en évidence que la visite guidée, par son approche pédagogique inclusive, a permis d'atteindre plusieurs objectifs éducatifs. Elle confirme l'idée que les musées, en tant qu'institutions éducatives, peuvent jouer un rôle crucial dans la formation des enfants, non seulement sur le plan intellectuel, mais aussi émotionnel, social et identitaire. Ces résultats s'inscrivent dans une littérature riche qui soutient l'importance de la médiation muséale comme moyen de favoriser un apprentissage significatif et durable.

La conclusion

À travers l'exemple du Musée d'Art d'Agadir, il apparaît clairement que ces institutions ne sont pas de simples lieux de préservation du patrimoine, mais des

**DE L'ECOLE AU MUSEE:
L'AGADIR MUSEE D'ART COMME ESPACE D'APPRENTISSAGE
PAR. OMAR IDTNAINE**

espaces vivants où les enfants, les enseignants et les médiateurs culturels collaborent pour transformer l'apprentissage en une expérience immersive et engageante.

L'analyse a révélé que le musée remplit plusieurs fonctions pédagogiques essentielles. Il favorise la transmission des savoirs liés à l'histoire, au patrimoine et à l'art, tout en développant des compétences transversales comme la réflexion critique, l'observation, et l'interprétation. En outre, il stimule la curiosité et l'imaginaire des élèves, consolidant ainsi leur compréhension du monde qui les entoure. Comme le souligne Falk et Dierking (Falk & Dierking 2000, p.48), les musées offrent un environnement d'apprentissage holistique qui dépasse les limites imposées par les cadres éducatifs traditionnels.

L'étude a également mis en avant l'importance de la médiation culturelle comme vecteur d'apprentissage. Le médiateur agit comme un pont entre l'élève et l'objet muséal, contextualisant les œuvres et facilitant les échanges. Cette approche incarne les principes éducatifs défendus par Hein (Hein, 1998, p.124), pour qui le musée devient un espace actif où se croisent cognition, émotion et socialisation.

L'implication des professeurs accompagnateurs dans le processus éducatif constitue un autre point fort de l'expérience muséale. Leur capacité à établir des liens entre les contenus abordés dans le musée et les programmes scolaires contribue à ancrer les apprentissages dans un cadre plus large et cohérent. Cette synergie entre l'école et le musée confirme les idées de Hooper-Greenhill (Hooper-Greenhill, 1999, p.117), qui considère que les musées doivent être intégrés dans une stratégie éducative globale.

Au-delà de l'apprentissage scolaire, le Musée d'Art d'Agadir a également montré son potentiel à renforcer l'identité culturelle des élèves. En exposant des œuvres qui célèbrent le patrimoine amazigh tout en explorant des perspectives contemporaines, le musée joue un rôle crucial dans la formation d'une conscience culturelle collective. Comme le rappelle Hall (Hall, 1996, p.85), «l'identité culturelle se construit à travers des représentations symboliques», et le musée, par sa programmation, devient un acteur clé de ce processus.

**DE L'ECOLE AU MUSEE:
L'AGADIR MUSEE D'ART COMME ESPACE D'APPRENTISSAGE
PAR. OMAR IDTNAINE**

En conclusion, le Musée d'Art d'Agadir se positionne comme un espace éducatif unique, capable de répondre aux défis contemporains de l'éducation. Cette étude invite à repenser la place des musées dans le paysage pédagogique marocain, en les reconnaissant comme des partenaires stratégiques dans la formation des générations futures. Il est donc essentiel de renforcer les collaborations entre les institutions éducatives et culturelles, tout en investissant dans la formation des médiateurs culturels et la diversification des programmes pédagogiques. De l'école au musée, l'apprentissage devient une aventure collective qui enrichit non seulement les connaissances, mais aussi l'expérience humaine.

Références bibliographies

- Bourdieu, P., & Passeron, J.-C. (1970). La reproduction: Éléments pour une théorie du système d'enseignement. Paris: Éditions de Minuit.
- Falk, J. H., & Dierking, L. D. (2000). Learning from museums: Visitor experiences and the making of meaning. Walnut Creek, CA: AltaMira Press.
- Hall, S. (1996). Cultural identity and diaspora. In P. Mongia (Ed.), Contemporary postcolonial theory: A reader (pp. 222–237). London: Arnold.
- Hein, G. E. (1998). Learning in the museum. London: Routledge.
- Hooper-Greenhill, E. (1994). Museum and gallery education: A manual of good practice. London: Routledge.
- Hooper-Greenhill, E. (1999). The educational role of the museum. London: Routledge.

**Promoting the Past in the Present:
Social Media and Morocco's Intangible Cultural Legacy**

Meryem BABA

Faculty of Languages, Letters, and Arts – Ibn Tofail University

Meryem.baba@uit.ac.ma

Pr. Sanae GHOUATI

Faculty of Languages, Letters, and Arts – Ibn Tofail University

Sanae.ghouati@uit.ac.ma

Maroc

Abstract

In recent years, social media has become one of the most important means of communication in our modern world. It impacts social, cultural, economic, and political life, not only on the individual but also on society as a whole.

Social networking sites are considered one of the modern means of introducing intangible cultural heritage, raising awareness, preserving, and promoting it. They disseminate information about cultural heritage, justifying its diversity and the extent to which it expresses our cultural heritage, promoting it, and protecting it from extinction.

Morocco is one of the countries that have a very rich and outstanding cultural heritage; here comes the importance of its preservation and the conservation of the Moroccan identity without obliterating its original culture through these means.

Keywords: intangible cultural heritage, social media, preservation, promotion, safeguarding.

**PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT:
SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY
MERYEM BABA**

The preservation of the intangible cultural heritage has become a real challenge for every country in the world, including our kingdom.

Morocco boasts an extremely valuable cultural heritage, embodied by sites that rank it first in Africa and the Arab world in terms of the number of cultural inscriptions on UNESCO's World Heritage List. The intangible component of this heritage, equally rich and diversified, is made up of religious rituals, culinary traditions, music, clothing, dances, ancestral know-how, and so on. Intending to safeguard and promote this cultural heritage, many public institutions and private entities have done multiple initiatives and projects that are mainly shared on their official pages on Facebook, Instagram, and Tiktok.

The proliferation of the use of new information technologies, notably social media, can offer their users an inescapable advantage in terms of reducing, if not eliminating, the distance between culture and citizens. Indeed, social media users can access a wide range of information on different cultures more easily and with less effort. This leads us to our research problem that we aim to answer, through an analytical and descriptive approach: To what extent do social media contribute to the promotion of Moroccan intangible cultural heritage?

Chapter 1: Definition of ICH and the role of social media in its promotion:

In this chapter, we will analyze three concepts; the first one is the intangible cultural heritage, the second concept is centered on social media and we will allocate the social media and the intangible cultural heritage to the last one.

1- Intangible cultural heritage:

The cultural heritage has two different categories; the first one is called the tangible cultural heritage and it is related to monuments and collections of objects, and the second type is the intangible part of it which the United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization (UNESCO) defines it as such:

"Cultural heritage does not end at monuments and collections of objects. It also includes traditions or living expressions inherited from our ancestors and passed on to our descendants, such as oral traditions, performing arts, social practices, rituals,

**PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT:
SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY
MERYEM BABA**

festive events, knowledge and practices concerning nature and the universe, or the knowledge and skills to produce traditional crafts.

While fragile, intangible cultural heritage is an important factor in maintaining cultural diversity in the face of growing globalization. An understanding of the intangible cultural heritage of different communities helps with intercultural dialogue, and encourages mutual respect for other ways of life."¹

The concept of intangible cultural heritage emerged in the early 1990s, following the 1989 recommendations on the protection of traditional cultures, and as a counterpoint to world heritage, which focused primarily on the tangible aspects of culture.² The expression "intangible cultural heritage" was formalized in 1993 at the international conference on new perspectives for UNESCO's intangible heritage program. The idea of intangible heritage itself, however, goes back much further. The declaration at the end of the World Conference on Cultural Policies in Mexico City (1982)³ had previously broadened the meaning of cultural heritage to include "anonymous creations of the popular soul", whether "material or non-material".

In 1997, on the initiative of Moroccan intellectuals and UNESCO, a meeting was held in Marrakech to define the concept of the "oral heritage of humanity", and to establish a distinction for the preservation and promotion of the "masterpieces"⁴ of this heritage.

¹ – Article 2 of the Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage, referred to as UNESCO, meeting in Paris, from 29 September to 17 October 2003, at its 32nd session.

² – Anita Vaivade, Clea Hance, Lily Martinet, Marie Cornu, *Intangible Cultural Heritage Under National and International Law, Going Beyond the 2003 UNESCO Convention*, Edward Elgar Publishing, 2020, p 54.

³ – UNESCO's Mexico City declaration on Cultural Policies at the World Conference on Cultural Policies Mexico City, 26 July – 6 August 1982, pages 1-6, source: the official website of UNESCO. <https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000052505>

⁴ – For more information about the famous intangible cultural heritage of the world, please read the List of the 90 Masterpieces of the Oral and Intangible Heritage of Humanity proclaimed by UNESCO in this website: <https://ich.unesco.org/doc/src/00264-EN.pdf>

**PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT:
SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY
MERYEM BABA**

UNESCO has created many conventions¹ that aim for the preservation and safeguarding the cultural properties, and the World Heritage Convention was the first one created in 1972². **Considering** the importance of the intangible cultural heritage as a mainspring of cultural diversity and a guarantee of sustainable development, UNESCO has planned a General Conference for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage in Paris³, to discuss the importance of intangible cultural heritage, the process of its preservation and safeguarding it as its fragility makes it a very sensitive element to be conserved as there are multiple threats such as: deterioration, disappearance and destruction of the intangible cultural heritage, in particular owing to a lack of resources for safeguarding such heritage.

Safeguarding the intangible cultural heritage falls fully within the scope of cultural policies. It meets several of the objectives assigned to public policies in this field. It is an important factor in maintaining cultural diversity. It makes it possible to enhance the cultural richness of territories and preserve their specific features. In this way, it contributes to territorial equity, as well as widening access to cultural offerings. It is also a mean of supporting amateur practices and preserving and enhancing the value of artistic crafts.

Safeguarding the intangible cultural heritage also contributes to the implementation of cultural rights, insofar as UNESCO requires that intangible cultural heritage custodian communities – i.e. those who hold, practice, or recognize it as part of their cultural heritage – play an essential role in the creation and transmission of this heritage, and are fully involved in its identification and the definition of its safeguarding measures.

Concerned about its rich intangible cultural heritage, Morocco also ratified the Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage on July 6,

¹ – Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage, Paris, October 17, 2003.

– Convention on the Protection and Promotion of the Diversity of Cultural Expressions, Paris, October 20, 2005.

– Convention on the Protection of the Underwater Cultural Heritage, Paris, November 2, 2001.

² – Convention concerning the Protection of the World Cultural and Natural Heritage, Paris, November 16, 1972.

³ – Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage, op. cit.

**PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT:
SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY
MERYEM BABA**

2006¹. The first protected practice was registered in 2008; The Moussem of Tan-Tan².

Today, Morocco has 14 elements³ inscribed as intangible cultural heritage on the Representative List, an on-going nomination and 2 files pending priority 'O' treatment.

2- Social media:

A social network is a website designed to bring people together around a common theme. It can be used to create circles of friends, business partners or to find a job... They all work in much the same way: you start by creating your profile, a sort of card with information about your interests, even your photo, and then invite others to join you.⁴

Some networks are open to all; others are by invitation only, while others are reserved for professional use.

In 2010, Facebook became the world's most visited website, overtaking Google. This symbolic event marks the start of the social networking success story.

In 2023, an estimated 4.9 billion people use social media across the world.

The number of social media users worldwide has swelled to a record of 4.9 billion people globally. What's more, this number is expected to jump to approximately 5.85 billion users by 2027 (see figure 1).

¹ - Dahir n°1-06-113 du 22 safar 1430 (18 février 2009), portant publication de la convention pour la sauvegarde du patrimoine culturel immatériel fait à Paris le 17 octobre 2003, Bulletin officiel n°5758 du 14 chaaban 1430, p 1235.

² - Saâd Tazi, Aziz Daki, Sahara Atlantique: splendeurs du désert marocain, Editions la croisée des chemins, 2005, p 58.

³ - 2008 : Le Moussem de Tan-Tan, 2008 : L'espace culturel de la place Jemaa el-Fna, 2012 : Le festival des cerises de Sefrou, 2013 : La diète méditerranéenne, 2014 : L'argan, pratiques et savoir-faire liés à l'arganier, 2017 : La Taskiwin, danse martiale du Haut-Atlas occidental, 2019 : Gnaoua, 2020 : Les savoirs, savoir-faire et pratiques liés à la production et à la consommation du couscous, 2021 : La calligraphie arabe : connaissances, compétences et pratiques, 2021 : La fauconnerie, un patrimoine humain vivant, 2021 : La tbourida, 2022 : Les connaissances, savoir-faire, traditions et pratiques associés au palmier dattier, 2023 : Les arts, savoir-faire et pratiques associés à la gravure sur métaux (or, argent et cuivre), 2023 : Le Malhoun, un art poético-musical populaire.

⁴Xavier Niel, Dominique Doux, Les 100 mots de l'Internet, éditions point delta, 3eme édition 2013, Paris, page 108.

**PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT:
SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY
MERYEM BABA**

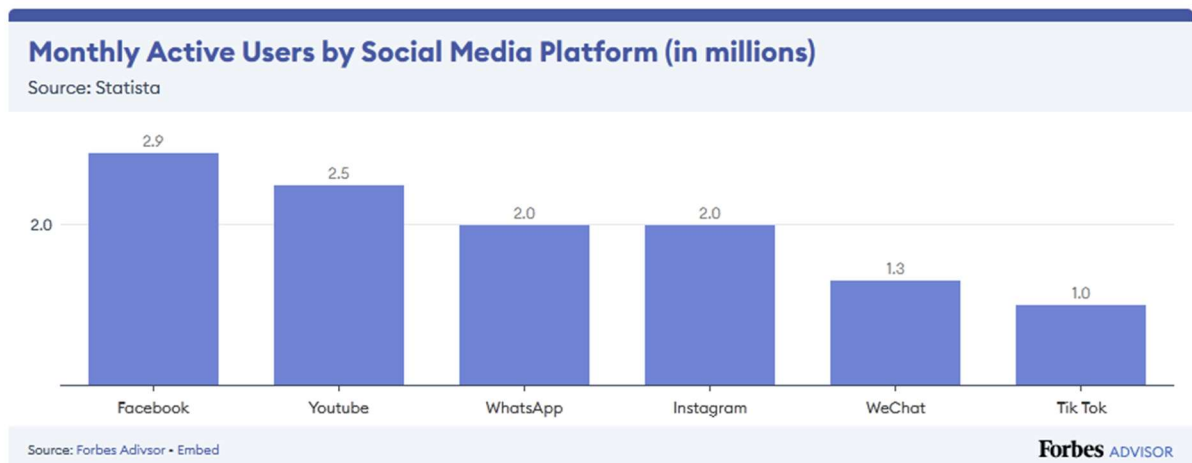


Figure 1: Social media statistics¹

- Facebook: Founded by Mark Zuckerberg in February 2004 under the original name TheFacebook, Facebook is today the largest community network on the Web. Today, the eponymous company is one of the major players in the new technologies sector, with activities in a wide range of fields. Initially reserved for young people at Harvard University, the social network opened up to all American students before offering public access two years later.²

- Tiktok: In the vast realm of social media, TikTok quickly established itself as a shining star, attracting millions of users from all over the world. This short video-sharing platform has captured people's imaginations with its playful format, boundless creativity and ability to transform ordinary individuals into influential figures.³

- Instagram: is a highly visual social network, which makes it ideal for implementing a branding strategy. For example, having a consistent feed with visuals that all have the same graphic identity helps users identify and remember your brand. Instagram doesn't just allow you to post photos or videos; it also

¹ Internet source: <https://www.forbes.com/advisor/in/business/social-media-statistics/>

² - Internet source: <https://www.futura-sciences.com/tech/definitions/internet-facebook-17003/> .

³ - Maxime Luca, Devenir Influenceur sur TikTok: Le Guide Ultime, Auto édition, 2023, p 8.

provides you with detailed statistics on your community. By analyzing them, you can better understand your subscribers, their characteristics, expectations...¹

3– Social media and Intangible Cultural Heritage:

The global information network Internet is considered to be one of the most significant technological developments to have taken place since the beginning of the new century. This network not only provides knowledge, it has become a mean of interaction between users across the vast virtual universe².

In this context, social networking is one of the most important aspects of Internet interconnection, in view of the many and varied applications it has brought to light in the fields of communication, marketing, information, management, commercialization, teaching, education and many others.

Thanks to networks such as Facebook, Tiktok, Instagram etc., it is now possible to publicize the national cultural product both inside and outside the country. The participative potential of these networks means that, for the first time in human history, various categories of the population can be involved in the work of preserving cultural heritage and documenting its various components. In the same way, these networks have given all citizens, and no longer just the elite, the opportunity to contribute to the production of content in the service of cultural heritage, so that any citizen now has the capacity to transform himself at the same time from a simple consumer into a consumer and producer of cultural material.

Morocco is one of the countries that attach great importance to cultural heritage in both its tangible and intangible aspects. Over the past few years, a great deal of effort has been put into using modern technologies to document the country's history and cultural heritage, both through institutional action and individual contributions. These technologies are of paramount importance in today's world, particularly among young people who spend long hours on social media, which have become the main source from which they seek information in any field. This

¹ – Héloïse Gaux, Développer sa visibilité et booster ses ventes sur Instagram, published by HELOISE GAUX, 2020, p 6.

² – Lorenzo Cantoni, Stefano Tardini, Internet, Taylor & Francis, 2006, p 7.

**PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT:
SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY
MERYEM BABA**

makes it all the more obvious that the cultural use of this technology has become one of the essential tasks in preserving national culture and facing up to the challenges of cultural globalization, which has invaded the world and is now threatening Arab and Islamic cultural identity.

Promoting cultural heritage through the media is a crucial step in raising public awareness of its importance and encouraging commitment to its preservation and enhancement. Here are some key aspects of this process:

- Raising public awareness

The media play an essential role in raising public awareness of cultural heritage by broadcasting reports, documentaries and articles on culture-related topics. By highlighting aspects of cultural heritage, such as historic monuments, local traditions or artistic practices, the media help to educate the public about the importance of preserving these elements for future generations.

- Promoting cultural events

The media also play a key role in promoting cultural events such as art exhibitions, music festivals or theatrical performances. Through advertisements, interviews with artists or reviews of events, the media help to draw public attention to these cultural events and encourage participation.

- Use of social networks and digital platforms

Social media and online platforms have become powerful tools for promoting cultural heritage. Museums, cultural institutions and arts organizations use these platforms to share information about their collections, exhibitions and events, reaching a wider and more diverse audience. Social media also enable direct interaction with the public, fostering dialogue and the exchange of ideas about culture.

- Encouraging participation

By highlighting the different facets of cultural heritage through the media, they encourage the public to get involved in its preservation and promotion. The media can inspire individuals to visit cultural sites, support local artists, participate in

community activities and get involved in heritage preservation initiatives. By providing the public with the necessary tools and information, the media encourage greater awareness and active participation in cultural preservation.

Social media ensure a mission of transmission and transfer of intangible cultural heritage from one generation to the next, and even beyond territorial borders¹. In other words, social media users act as collaborators and creators of online content to the extent that they like and share content produced by other users, which allows for the creation and exchange of multiple content on the Internet².

Social media constitute a genuine means of communication and promotion of the cultural intangible heritage of any country with the diversity of the different categories to which these media belong: Blogs, Micro-Blogs, Video-Sharing Websites, Picture-Sharing Websites, Social Networking Websites.³

Indeed, the organizations responsible for communicating and promoting intangible cultural heritage now have access to this diversity of social media, which will enable them to disseminate information about heritage more widely and reduce, if not eliminate, the distances between these institutions and their target audiences. Thus, social media can be described as a highly effective means of promotion, offering many ways of enhancing, informing and interpreting heritage⁴. From this logic, social media will offer a truly revolutionary approach to the practice of cultural heritage.

Chapter 2: The role of social media in promoting and preserving intangible cultural heritage

¹ - Obiageli Pauline Ohiagu, Victor O. Okorie, SOCIAL MEDIA: SHAPING AND TRANSMITTING POPULAR CULTURE, 2014, p 94.

² - Andreas Kaplan, Michael Haenlein, Users of the World, Unite! The Challenges and Opportunities of Social Media, 2010, p 60.

³ - Dagny Stuedahl, Social Media and Community Involvements in Museums. A case study of a local history wiki communit, 2011, p 7.

⁴ - Yehuda E. Kalay, Thomas Kvan, Janice Affleck, New Media and Cultural Heritage, Routledge, 1st Edition 2008, p 13.

1– Safeguarding intangible cultural heritage in Morocco: insights into the contribution of NGOs and public institutions

Concerned with safeguarding and promoting its intangible cultural heritage, the kingdom has launched a number of projects and initiatives under the patronage of King Mohammed VI, with the support of international bodies as an official implementation of the UNESCO 2003 Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage in Morocco. This has enabled the kingdom to gain international recognition for several elements of its tangible and intangible cultural heritage, thereby enhancing the attractiveness of its cultural tourism.

"Morocco has ratified all UNESCO heritage conventions. It has also undertaken to adapt national legislation to the relevant international instruments. In addition to its active contribution to programs dedicated to safeguarding heritage, our country pays a quota to the Intangible Cultural Heritage Fund.

Given the special interest We attach to cultural heritage, and in keeping with the spirit and letter of the Convention, We are today announcing the creation of a National Center for Intangible Cultural Heritage, whose task will be to consolidate the gains made in this field."¹

- Ministry of Youth, Culture and Communication

One of the most relevant activities that are destined to the Ministry of Youth, Culture and Communication is to aim for developing and implementing government policy in the field of heritage and cultural and artistic development.

It is responsible for²:

- pursue and intensify, by appropriate means, all actions and measures aimed at the conservation, preservation and enhancement of the national cultural heritage;

¹ – Extract from the Royal Message to participants at the 17th session of UNESCO's Intergovernmental Committee for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage, hosted by the Kingdom of Morocco in Rabat, from November 28, to December 3, 2022.

² – **Décret n° 2-06-328 du 18 chaabane 1427 (10 novembre 2006), fixant les attributions et l'organisation du ministère de la culture, Bulletin Officiel n° 5480 du 7 décembre 2006, p 1.**

PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT: SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY MERYEM BABA

- harmonizing the direction and coordination of actions designed to strengthen the national cultural fabric;
- contributing, in liaison with the departments and services concerned, to the promotion of national culture and guaranteeing its specific features;
- devise a concerted strategy for cultural development at regional and local level, with a view to raising national cultural standards;
- contribute to the animation and promotion of cultural action;
- draw up legislation and regulations relating to the cultural field and ensure their application;
- establish cooperative relations with cultural and artistic institutions, establishments and associations in Morocco and abroad;

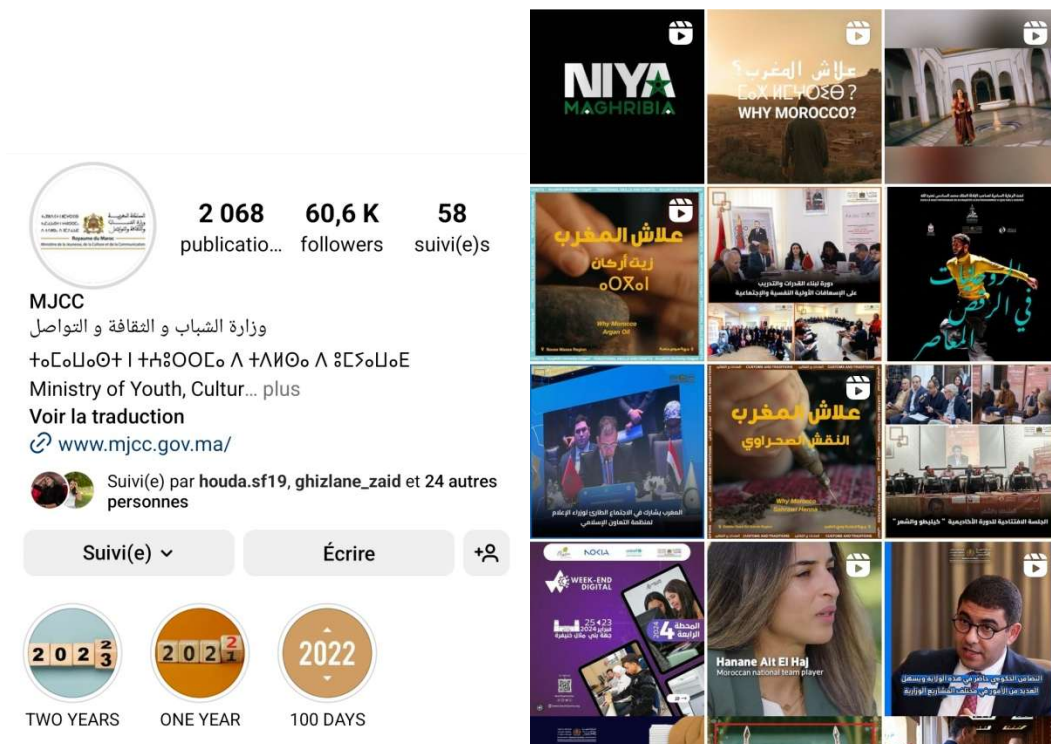


Figure 2: Instagram Account of the Ministry of Youth, Culture, and Communication

- The national museum of jewelries

The growing importance of social media for the dissemination of information in today's virtual ecosystem, are of crucial importance to museums, both in terms of

PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT: SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY MERYEM BABA

communication and mediation. Given that these are new tools, museum institutions are led to question their real usefulness, and the optimal ways of using them to help them accomplish their mission.

The national museum of jewelries is no exception. It takes part of many other museums that mainly use social media to promote their national cultural heritage.

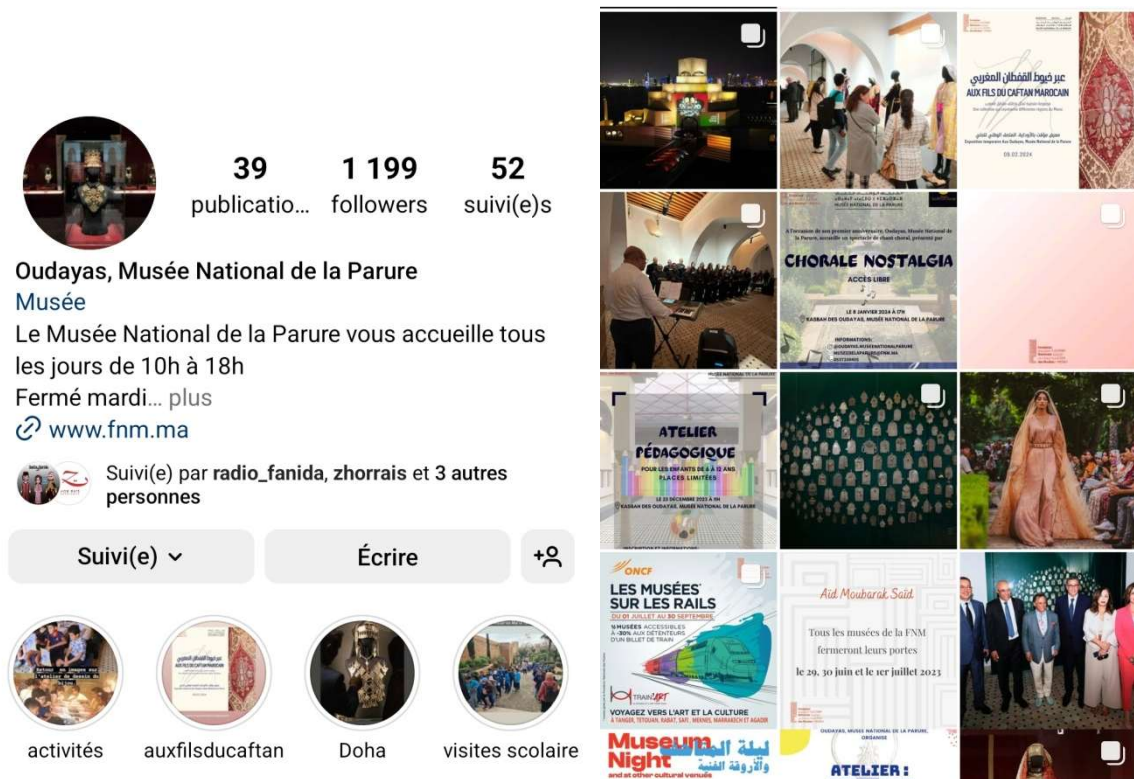


Figure 3: Instagram Account of the National Museum of Jewelry

- Foundation of Moroccan musical heritage

Music, and more particularly our musical heritage, remains the best means of bringing people of all tendencies and origins closer together, as well as the best vector for tolerance, sharing and solidarity. Our musical heritage is a priceless treasure threatened with extinction because of the next generations' ignorance about the richness of this heritage.

The mission of the foundation of Moroccan musical heritage is to make it known, to safeguard it, to develop it, to adapt it to new musical and technological trends so that enjoys the label of distinction it deserves in the musical and artistic

PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT: SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY

MERYEM BABA

expressions of the kingdom and on an international scale, and so that it is loved and adopted by our young generation. These goals, and the great success of the Aissaoua International Festival, have prompted the foundation to extend our activities to the entire Moroccan musical heritage and to all regions of Morocco.

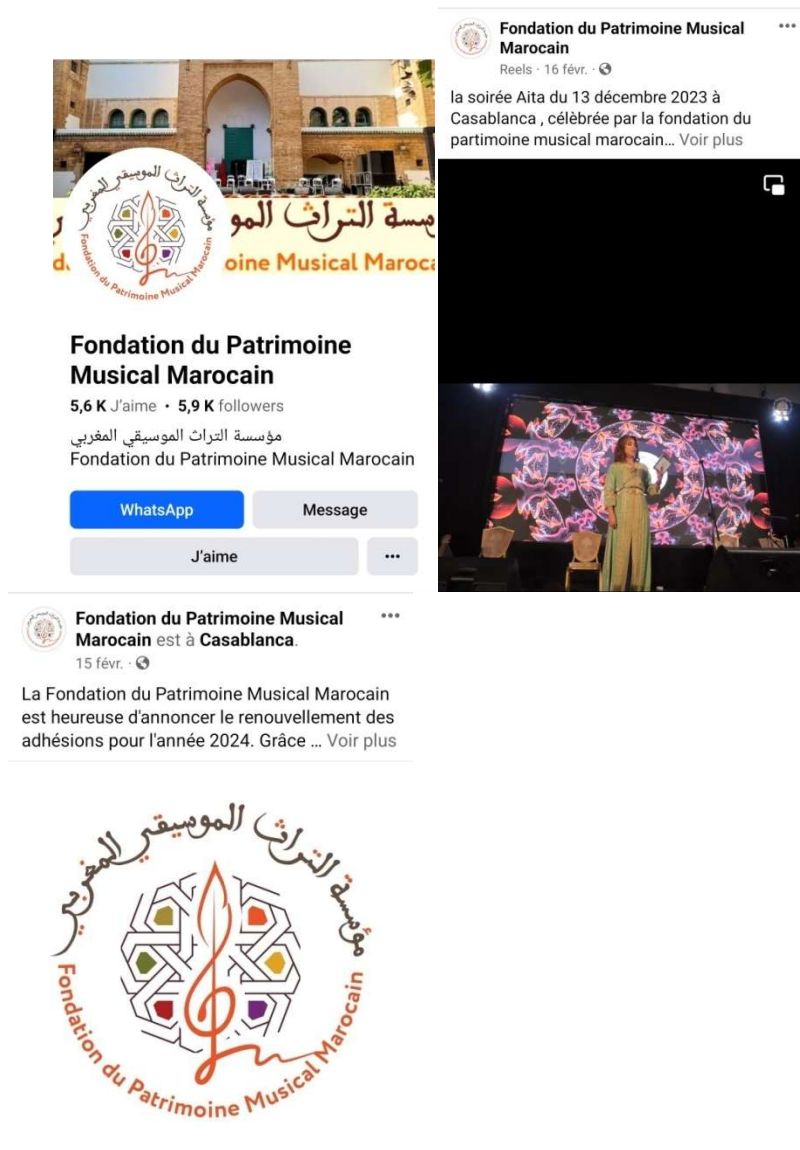


Figure 4: Facebook Page of the Foundation of Moroccan musical heritage

- Radio Fanida

Created in 2020, Radio Fanida is one of the famous pages on social media that promotes the national cultural heritage. It shares many short videos that are cultural

PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT: SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY

MERYEM BABA

heritage related, such as: the history of Moroccan caftan, lamdamma, sfouf ou sellou, Moroccan zellige, etc. The page uses also an avatar who is wearing Moroccan traditional clothes while presenting the different cultural heritage topics.

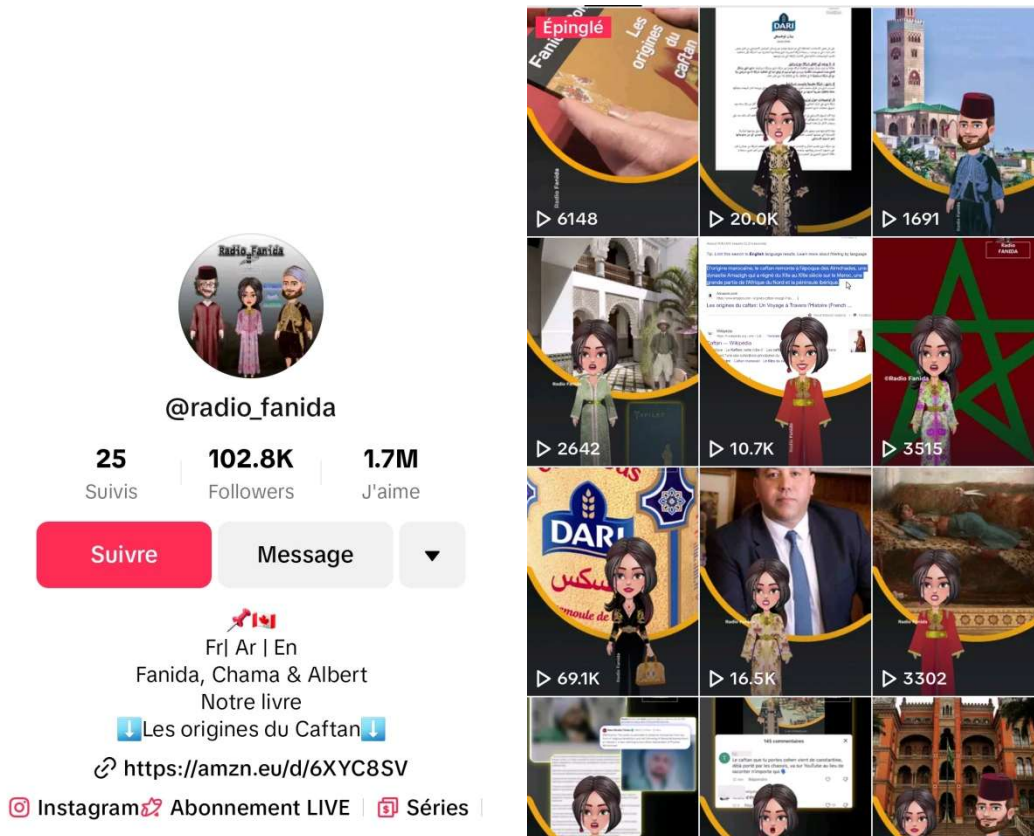


Figure 5: TikTok Account of the Radio Fanida

2– Limits of using social media as a network for preserving and promoting intangible cultural heritage:

In the news, there are more and more examples of deliberate damage and destruction of a political and ideological nature (Jewish cemeteries in Alsace)¹. Once the collateral effects of combat, as in the First World War², attacks on heritage are

¹ – Michel Wieviorka, Philippe Bataille, *The Lure of Anti-Semitism: Hatred of Jews in Present-day France*, Brill, 2007, p 295.

² – Jean-Charles Capronnier, Elsa Marguin-Hamon et Paul Smith, *Le Patrimoine dans la Grande Guerre*, Ministère de la Culture, 2014, p 3.

increasingly deliberate, targeted, staged in the most spectacular way (Palmyra site)¹ and relayed worldwide by social networks. In some parts of the world, such as the Middle East and Africa, tangible and intangible heritage is specifically targeted for its symbolic, historical and cultural value. Proposals may explore preventive actions such as non-invasive or destructive marking methods and techniques for the material and nature of objects, or actions to identify and describe tangible assets and intangible practices, particularly in exposed areas.

The increasingly systematic production of virtual models of endangered sites², and ethnological surveys of social practices and skills that are in the process of being eradicated, can provide a partial response and constitute valuable reservoirs of data that can be mobilized for future restoration and revitalization. Regulations and legal instruments are in place to criminalize offences and punish offenders, but initiatives are needed at the prevention stage, to protect cultural property against illicit trade³ – a phenomenon which is not new, but which has expanded spectacularly in recent years, particularly in regions affected by armed conflict and natural disasters. Beyond its symbolic aspect, the looting of heritage assets is used to finance terrorist factions, fuelling and reinforcing the illicit trade in objects and works of art (looting of the Mosul museum)⁴.

3– Morocco's intangible cultural heritage: safeguarding policies and practices.

There are a number of serious challenges facing researchers looking into the domestic legal regimes for safeguarding intangible cultural heritage laws, especially since these laws are dispersed and scattered according to their subject-matter, their content and their level of normativity. In several states, laws on intangible cultural

¹ – Emma Cunliffe, José Antonio González Zarandona, Melathi Saldin, *The Routledge Handbook of Heritage Destruction*, Taylor & Francis, 2023, p 10.

² – Ismail Serageldin, Ephim Shluger, Joan Martin-Brown, *Historic Cities and Sacred Sites Cultural Roots for Urban Futures*, published by World Bank, 2001, p 416.

³ – Boz, Zeynep, *Fighting the illicit trafficking of cultural property*, published by UNESCO, 2018, p 14.

⁴ – Lawrence Rothfield, *The Rape of Mesopotamia: Behind the Looting of the Iraq Museum*, University of Chicago Press, 2009, p 81.

**PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT:
SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY
MERYEM BABA**

heritage are in the process of being drafted, or pre-existing heritage protection laws are being revised to incorporate the concept of intangible cultural heritage.¹

As a source of identity, intangible cultural heritage is also a valuable resource for strengthening the ability of communities to participate fully in social and cultural life. The 2003 Convention provides a unique platform for international cooperation and dialogue, fostering mutual respect, appreciation and understanding. By supporting the development of national policies for safeguarding and managing intangible cultural heritage, the Convention facilitates inclusive governance and dialogue at national and international levels, while contributing to the prevention conflict prevention and mitigation, as well as reconciliation and peace-building.²

After the legal actions and steps taken to register and protect the products of Morocco's intangible heritage, the King announces a State policy to protect this heritage "which tends to be plundered by other countries". Morocco's commitment takes a stronger, more organized turn, with the creation of a specialized Center announced by the Sovereign and a multi-faceted strategy.

To protect its tangible and intangible cultural heritage, Morocco has not only built up a legal arsenal, but is also engaged in a continuous process of inventorying and recording. Cultural appropriation takes a commercial turn, and the legal arsenal is not enough. Education, research and promotion are the complementary elements needed to prevent and protect the country's cultural heritage.

Conclusion

Through an analytical approach that we used in writing this article, the papers of this study aim to highlight the role of social media in introducing and disseminating the intangible cultural heritage in Morocco at the local and international levels. This enables us to get a closer look at its reality in the country, the dangers facing it, and

¹ - Anita Vaivade, Clea Hance, Lily Martinet, Marie Cornu, *Intangible Cultural Heritage Under National and International Law*, Edward Elgar Publishing, 2020, p 9.

² - LEILA LANKARANI, FRANCETTE FINES, *Le Patrimoine culturel immatériel et les collectivités infra étatiques*, Pedone, 2013, p 8-9.

**PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT:
SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY
MERYEM BABA**

provide some solutions that facilitate and contribute to its exploitation in achieving sustainable development, social unity, and preserving the national identity.

The study concluded that the Moroccan intangible cultural heritage is characterized by diversity and multiplicity, faced with natural and human dangers, and is preserved by promoting it through audiovisual and social media, that responsible authorities have sought to work with its applications. However, despite the efforts made, there are still obstacles to its promotion and preservation, including the lack of modernization of these sites, the fact that many aspects of the intangible cultural heritage remain outside the global classification system, and the absence of a media marketing policy and tourism promotion.

Acknowledgments:

I would like to express my heartfelt gratitude to CNRST for the PASS scholarship, which has made this research possible. This scholarship has not only alleviated my financial burdens but has also provided me with the opportunity to focus on my studies and research without distraction. I am particularly thankful to the selection committee for believing in my potential and for investing in my academic journey.

**PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT:
SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY
MERYEM BABA**

References:

Books:

- Andreas Kaplan, Michael Haenlein, Users of the World, Unite! The Challenges and Opportunities of Social Media, 2010.
- Anita Vaivade, Clea Hance, Lily Martinet, Marie Cornu, Intangible Cultural Heritage Under National and International Law, Going Beyond the 2003 UNESCO Convention, Edward Elgar Publishing, 2020.
- Boz, Zeynep, Fighting the illicit trafficking of cultural property, published by UNESCO, 2018.
- Dagny Stuedahl, Social Media and Community Involvements in Museums. A case study of a local history wiki communit, 2011.
- Emma Cunliffe, José Antonio González Zarandona, Melathi Saldin, The Routledge Handbook of Heritage Destruction, Taylor & Francis, 2023.
- Héloïse Gaux, Développer sa visibilité et booster ses ventes sur Instagram, published by HELOISE GAUX, 2020.
- Ismail Serageldin, Ephim Shluger, Joan Martin-Brown, Historic Cities and Sacred Sites Cultural Roots for Urban Futures, published by World Bank, 2001.
- Jean-Charles Capronnier, Elsa Marguin-Hamon et Paul Smith, Le Patrimoine dans la Grande Guerre, Ministère de la Culture, 2014.
- Lawrence Rothfield, The Rape of Mesopotamia: Behind the Looting of the Iraq Museum, University of Chicago Press, 2009.
- LEILA LANKARANI, FRANCETTE FINES, Le Patrimoine culturel immatériel et les collectivités infra étatiques, Pedone, 2013, p 8-9.
- Lorenzo Cantoni, Stefano Tardini, Internet, Taylor & Francis, 2006.
- Maxime Luca, Devenir Influenceur sur TikTok: Le Guide Ultime, Auto édition, 2023.
- Michel Wieviorka, Philippe Bataille, The Lure of Anti-Semitism: Hatred of Jews in Present-day France, Brill, 2007.
- Obiageli Pauline Ohiagu, Victor O. Okorie, SOCIAL MEDIA: SHAPING AND TRANSMITTING POPULAR CULTURE, 2014.
- Saâd Tazi, Aziz Daki, Sahara Atlantique: splendeurs du désert marocain, Editions la croisée des chemins, 2005.
- Xavier Niel, Dominique Doux, Les 100 mots de l'Internet, éditions point delta, 3eme édition 2013, Paris.
- Yehuda E. Kalay, Thomas Kvan, Janice Affleck, New Media and Cultural Heritage, Routledge, 1st Edition 2008.

Report;

- UNESCO's Intergovernmental Committee for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage, hosted by the Kingdom of Morocco in Rabat, from November 28, to December 3, 2022.

**PROMOTING THE PAST IN THE PRESENT:
SOCIAL MEDIA AND MOROCCO'S INTANGIBLE CULTURAL LEGACY
MERYEM BABA**

Legal Provisions and conventions:

- Dahir n°1-06-113 du 22 safar 1430 (18 février 2009), portant publication de la convention pour la sauvegarde du patrimoine culturel immatériel fait à Paris le 17 octobre 2003, Bulletin officiel n°5758 du 14 chaaban 1430.
- Décret n° 2-06-328 du 18 chaabane 1427 (10 novembre 2006), fixant les attributions et l'organisation du ministère de la culture, Bulletin Officiel n° 5480 du 7 décembre 2006.
- Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage, referred to as UNESCO, meeting in Paris, from 29 September to 17 October 2003, at its 32nd session.
- Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage, Paris, October 17, 2003.
- Convention on the Protection and Promotion of the Diversity of Cultural Expressions, Paris, October 20, 2005.
- Convention on the Protection of the Underwater Cultural Heritage, Paris, November 2, 2001.
- Convention concerning the Protection of the World Cultural and Natural Heritage, Paris, November 16, 1972.
- UNESCO's Mexico City declaration on Cultural Policies at the World Conference on Cultural Policies Mexico City, 26 July – 6 August 1982.

Royal speeches :

- Extract from the Royal Message to participants at the 17th session.

Websites:

- <https://www.futura-sciences.com/tech/definitions/internet-facebook-17003/>
- <https://www.forbes.com/advisor/in/business/social-media-statistics/>
- List of the 90 Masterpieces of the Oral and Intangible Heritage of Humanity proclaimed
<https://ich.unesco.org/doc/src/00264-EN.pdf>
- <https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000052505>